١٩٢٨

مكتبة نوبل

سيغريد أوندست

كريستين لافرانسداتر

الجزء الأول

إكليل العروس

ترجمة
توفيق الأسدي

مراجعة
د. مجيد الراضي

علي مولا



الجزء الأول

إكليل العروس



مكتبة نوبل

اسم المؤلف : سيغريد أوندست
عنوان الكتاب : ١/ إكليل العروس
من ثلاثية كرستين لافرانسداتر
ترجمة : توفيق الأسدي
مراجعة : د. مجيد الراضي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ١٩٩٩
الحقوق محفوظة

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع مؤسسة نورلا النرويجية .

Author : Sigrid Undset
Title : 1/The Bridal Wreath
Kristin Lavransdatter
Translator: Tawfik Al-Assadi
Revised by Dr. M. Al-Radhi
Al- Mada : P. C.
First Edition 1999
Copyright © Al-Mada

This title was published in collaboration with Norla (Norwegian literature abroad)

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

١٩٢٨

مكتبة نوبل

سيغريد أوندست

كريستين لافرانسداتر

الجزء الأول

إكليل العروس

ترجمة

توفيق الأسدي

مراجعة

د. مجيد الراضي



القسم الأول

يورون غارد

١

حين قسمت أراضي وأمتعة « إيفار غييسلنغ أوف سوندبو » الأصغر ، وذلك بعد وفاته في عام (١٣٠٦) ، فإنّ أراضيه في « سيل أوف غودبراندسدال » كانت من نصيب ابنته « راغنفريد » وزوجها « لافرانس بيورغولفسون » . وحتى ذلك الحين كان هذان يعيشان في ضيعة لافرانس في « سكوغ » عند « فولّو » ، قرب أوسلو . ولكنهما انتقلا الآن إلى « يوروندغارد »[٢] في أعلى أراضي « سيل » المنبسطة .

كان لافرانس من تلك السلالة المعروفة في هذا البلد باسم « لاغماندسونز » التي وصلت إلى هنا من السويد مع لاورنتيوس ، لاغماند[٣] من غوتلاند الشرقية ، الذي أخذ أخت « بلبو يارل » ، « الليدي بنغتا » من « دير فريتا » ، وحملها إلى النروييج . عاش السير لاورنتيوس في بلاط الملك « هاكون »[٤] العجوز ، ونال حظوة كبيرة لدى الملك ، الذي وهبه ضيعة سكوغ . ولكن بعد أن أقام حوالي ثمانية أعوام في هذا البلد ، مات في سريره ، وكان أن مضت أرملته ، التي كانت تنتمي إلى نسب « فولكونغا » ، وتلقب بابنة الملك بين النرويجيين ، وأصلحت الأمور مع أقربائها . لاحقاً ، تزوجت من رجل غني في أرض أخرى . لم ترزق بأطفال من السير

لاورنتيوس ، لذلك فإن ميراث سكوغ أضحى من نصيب « كيتيل » شقيق لاورنتيوس . وكان هذا جد لافرانس بيورغولفسون لأبيه .

تزوج لافرانس في سن صغيرة . كان أصغر بثلاث سنوات من زوجته ، وفي الثامنة والعشرين فحسب حين وصل إلى « سيل » . في شبابه كان بين حرس الملك ، كما أنه تمتع بتربية جيدة . ولكنه عاش بعد زواجه حياة هادئة في ضيعته ، فقد كانت راغنفريد غريبة الأطوار صعبة المزاج ولم تبد عليها علائم الراحة بين سكان الجنوب . وبعد أن عانت من الحظ العاثر بفقدان ثلاثة أبناء ، الواحد إثر الآخر ، في المهد ، فقد أضحت أكثر عزلة عن الناس . وهكذا فقد انتقل لافرانس إلى غودبراندسدالن ليجعل زوجته أقرب إلى أهلها ومعارفها القدماء ، وهذا سبب بين أسباب أخرى . وحين وصلا إلى هناك ، أحضرا معهما الابنة الوحيدة الباقية على قيد الحياة ، فتاة صغيرة اسمها « كريستين » .

ولكن حين استقروا في يورونغارد فقد عاشوا معظم الوقت بهدوء هناك ، في عزلة . لقد بدا وكأن راغنفريد لم تكن تهتم كثيراً بأقاربها فقد كانت لا تراهم إلاّ في المناسبات التي تتطلبها الواجبات . وكان ذلك يعود في بعض منه إلى أن لافرانس وراغنفريد كانا أكثر من مجرد شخصين ورعين يخشيان الرب ، نشيطين في الذهاب إلى الكنيسة ، وعلى الدوام مستعدين بسرور لمنح المأوى لخدم الرب ، والرسل الذين ترسلهم الكنيسة في مهمات ، أو للحجاج في طريقهم صاعدين من الوادي إلى نيداروس . كما كانا يبديان أعظم الإجلال إلى قس أبرشيتهما : الذي كان أيضاً أقرب جيرانهما إليهما ، ويعيش في روموندغارد . كان الأشخاص الآخرون في الوادي أكثر ميلاً إلى الاعتقاد بأن الكنيسة كانت ترهقهم كثيراً في العُشر والبضائع والنقود ، وأنه لم تكن هناك علاوة على ذلك حاجة إلى الصيام

والصلاة إلى ذلك الحد ، أو إلى إحضار القساوسة والرهبان إلى منازلهم ، ما لم تكن هناك حاجة ملحة إليهم .

وخلاف ذلك كان سكان يورونداغارد محترمين في نظر الناس ومحبوبين أيضاً ، وخاصة لافرانس الذي كان معروفاً بأنه شخص قوي وجريء ، إنما محب للسلام وهادئ ومستقيم ، بسيط في معيشته ، إنما دمث ومحتشم في أساليبه ، مزارع جيد إلى حد نادر وصياد ماهر : وما كان يصطاد بحماسة سوى الذئاب والدببة وكل أنواع الوحوش الضارة . خلال سنوات قليلة ، كان قد حصل على الكثير من الأرض ، ولكنه كان مالك أرض طيب ومعين لمزارعيه المستأجرين .

ما كان الناس يرون راغنفريد كثيراً حتى أنهم سرعان ما تخلّوا عن ذكرها كثيراً . في المرة الأولى بعد عودتها إلى الوادي تعجّب الكثيرون ، فقد تذكروها حين كانت في بيتها في سوندبو في شبابها . لم تكن جميلة قطعاً ، ولكنها بدت لطيفة وسعيدة . والآن ذوت حتى لتظنها عن حق أكبر بعشر سنوات من زوجها وليس بثلاث فحسب . وقد اعتقد معظم الناس أنها عانت من ثكلها لأبنائها أكثر مما يسمح به العقل ، حيث أنها لولا ذلك لكانت من كل النواحي في حال أفضل من معظم الزوجات : كانت تعيش في خير وفير واحترام كبير ، وكانت علاقتها جيدة مع زوجها بقدر ما كان الناس قادرين على استشفاف ذلك . لم يكن لافرانس يطارد نساء أخريات ، وكان يشاورها في كل الأمور ؛ وسواء كان صاحياً أم ثملاً ، فإنه لم يفه قط بكلمة قاسية تجاهها . وعلاوة على ذلك لم تكن هي عجوزاً إلى ذلك الحد وقد تكون قادرة بعد على إنجاب الكثير من الأطفال لو شاء الرب .

كان صعباً عليهما إقناع الشبان بالخدمة في يورونداغارد ، فسيدة المنزل كانت صعبة المزاج ، وكان الصوم أمراً ملتزماً به بصرامة . وعدا ذلك

فقد كان منزلاً ملائماً ليخدم فيه المرء ، فقد كانت العبارات القاسية والعقوبات قليلة الاستخدام ، وكان كل من لافرانس وراغنفريد يقود كل العمل . فالسيد كان ذا مزاج طيب خاص به ، وكان يشارك في الرقص أو يقود الغناء حين يؤدي الشبان ألعابهم على مرج الكنيسة في عشيات الأعياد . ومع ذلك كان الأكبر سناً هم الذين يأتون ليخدموا في يوروندغارد ، فقد كان هؤلاء يحبون المنزل جيداً ويمكثون فيه طويلاً .

•

حين كانت الطفلة كريستين في السابعة من عمرها ، حدث مرة أن أُذن لها باصطحاب أبيها إلى «السايتر» الجبلي .

كان صباحاً جميلاً ، في أحد أيام الصيف غير الباكر ، وكانت كريستين في غرفة العليّة ، حيث ينامون الآن بعد حلول الصيف . رأت الشمس تشرق في الخارج وسمعت أباها ورجاله يتحدثون في الباحة في الأسفل ، وكانت سعيدة إلى حد أنها لم تستطع الوقوف بثبات بينما راحت أمها تلبسها ثيابها ، بل راحت تنط وتقفز في المكان خلال إلباسها كل قطعة من ثيابها . لم يكن قد سبق لها صعود الجبال بعد ، عدا مرورها بالممر المؤدي إلى «فاغ» ، حين أخذت لتزور أقرباء أمها في سوندبو ، وأحياناً إلى الغابات القريبة من الضيعة مع أمها وسكان المنزل ، حين كانوا يخرجون لقطف التوت لتمزجها راغنفريد مع الجعة قليلة الكحول أو لصنع العجينة الحامضة من التوت البري وتوت البقر الذي كانت تأكله على خبزها في «الصوم الكبير» بدلاً من الزبدة .

جدَلت الأم شعر كريستين الطويل الأصفر وربطته بقبعتها الزرقاء العتيقة ، ثم قبلت ابنتها على خدها ، وقفزت كريستين مبتعدة واتجهت إلى

أبيها . كان قد سبق للافرانس أن امتطى سرجه . رفعها وأجلسها خلفه على عباءته التي طواها ووضعها على كفل الحصان كوسادة . كان على كريستين الجلوس هناك مفرشخة وأن تتمسك بحزام أبيها . صاحا : «وداعاً» تجاه راغنفريد ، ولكنها هبطت مسرعة من الشرفة حاملة عباءة كريستين ذات القبعة وسلمتها إلى لافرانس وطلبت منه أن يعتني بالطفلة .

كانت الشمس ساطعة ، ولكن المطر كان قد هطل غزيراً خلال الليل ، لذا كانت الجداول تندفع وتغني في كل مكان نازلة المنحدرات المعشوشبة وأكاليل الضباب تتشبث وتنجرف تحت جوانب الجبل . ولكن فوق قمة الجبل كانت غيوم الطقس المعتدل تتعاظم في الهواء الأزرق ، وقال لافرانس ورجاله في أنفسهم إنه من المحتمل أن يكون الجو حاراً مع تقدم النهار . كان هناك أربعة رجال مع لافرانس وكلهم مسلحٌ جيداً ، إذ أنه من المعتاد في مثل هذا الوقت وجود كثير من الناس الغرباء القابعين بين الجبال ، رغم أن مجموعة قوية كهذه ، ولو أنها لن تمضي بعيداً ، ما كان من المحتمل لها أن ترى أو تسمع شيئاً عن هؤلاء الناس . كانت كريستين مغرمة بكل رجال أبيها . كان ثلاثة منهم قد تجاوزوا سن الشباب ، ولكن الرابع ، آرن غيردسون من فينسبريكن ، كان فتى يافعاً والصديق المفضل لكريستين . كان يركب حصانه وراء لافرانس ووراءها ، فقد كان هو الذي عليه أن يحكي لها عما كانوا يرونه في طريقهم .

مروا بين منازل روموندغارد وتبادلوا التحيات مع الكاهن آيريك(٥) . كان واقفاً في الخارج يوبخ ابنته ـ مدبرة منزله ـ حول نسيج من القماش المصبوغ حديثاً الذي علقته ونسيته في اليوم السابق ، فقد اعتراه التلف الآن من مطر الليل .

على الجبل خلف بيت الكاهن كانت الكنيسة . لم تكن كبيرة إنما

ملائمة ومرضية ، معتنى بها جيداً وقد طليت بالقطران مجدداً . عند الصليب خارج بوابة ساحة الكنيسة خلع لافرانس ورجاله قبعاتهم وأحنوا رؤوسهم ، ثم التفت الأب في سرجه ولوّح هو وكريستين إلى راغنفريد ، التي كانت لا تزال تحت مرمى بصرهما في الأسفل هناك في البيت واقفة على المرج قرب المنازل . وقد لوحت لهما أيضاً مع سقوط غطاء رأسها الكتاني .

هنا في الأعلى على مرج الكنيسة وفي ساحتها اعتادت كريستين أن تأتي لتلعب في الجوار كل يوم ، ولكن في هذا اليوم ، وبينما كانت تستعد للانطلاق بعيداً ، فإن المشهد الذي تعرفه جيداً ـ البيت وكل الأبرشية من حوله ـ بدا للطفلة جديداً وغريباً . كانت مجموعات المنازل في يوروندغارد تبدو أصغر حجماً وأكثر رمادية ، قابعة هناك على منبسطات الساحة وفناء المزرعة . كان النهر يتلوى لامعاً متابعاً طريقه ، وينتشر الوادي بعيداً بمروج خضراء واسعة ومستنقعات في القعر ، ومزارع بأراض مفلوحة ومراع تمتد صعوداً حتى الجبال تحت جدران الجبال الرمادية شديدة الانحدار .

بعيداً إلى الأسفل ، حيث كانت الجبال تتقارب وتغلق الوادي ، عرفت كريستين أن لوبتسغارد تقبع هناك . هناك كان يعيش سيغورد و يون ، وهما رجلان مسنان بلحيتين بيضاوين . كانا يلاعبانها ويداعبانها دائماً حين يأتيان إلى يوروندغارد . كانت مولعة بيون ، فقد كان هذا ينحت لها من الخشب أجمل الحيوانات ، كما أهداها خاتماً ذهبياً ذات مرة . ليس هذا فحسب ، بل إنه في آخر مرة زارهم فيها ، في ويتسونتايد ، جلب لها فارساً منحوتاً على نحو جميل جداً وملوّناً بألوان زاهية إلى حد أن كريستين ظنت أنه لم يسبق لها أن حصلت على هدية بذلك الجمال . لذلك كانت تأخذ الفارس إلى السرير معها كل ليلة . ولكنها حين كانت تستيقظ في الصباح كانت تجده دائماً على الدرجة أمام السرير الذي كانت تنام فيه مع أبيها

وأمها . قال أبوها إن الفارس قفز عند أول صياح للديك ، ولكن كريستين كانت تعرف بما فيه الكفاية ، أنه بعد أن تنام ، كانت أمها تبعده ، فقد سمعتها تقول إنه قاس جداً ويؤلم كثيراً لو اندس تحتهم في الليل . كانت كريستين تخشى من سيغورد أوف لوبتسغارد ، ولم تكن تحب أن يضعها على ركبته ، فقد كان يقول إنها حين تكبر ستنام بين ذراعيه . كان قد دفن زوجتين وقال هو نفسه إنه سيعيش بعد دفن الثالثة ، وأن كريستين يمكن أن تكون الزوجة الرابعة . ولكن حين بدأت تبكي لسماعها هذا الكلام ، ضحك لافرانس وقال إنه لا يخشى أن تسلم «مارغيت» الروح بتلك السرعة ؛ ولكن لو حصل أسوأ التوقعات وجاء سيغورد طالباً يدها ، فإن على كريستين ألا تخشى شيئاً – فلن ينال إلاّ الرفض جواباً .

على مرمى قوس أو نحوه شمال الكنيسة كانت إلى جانب الطريق كتلة كبيرة من الصخر ، ومن حولها بستان صغير كثيف من أشجار البتولا والحور الرجراج . لقد اعتاد الأطفال أن يلعبوا هناك لعبة الكنيسة ، وكان توماس ، الابن الأصغر لبنت الكاهن آيريك ، يقف هناك مشخصاً جدّه ويتلو القداس ويرش الماء المقدس وحتى يعمّد ، حين يكون هناك ماء مطر في تجاويف الصخرة . ولكن حدث مرة في الخريف السابق ، أن انتهت اللعبة نهاية محزنة لهم . فأولاً زوّج توماس كلاً من كريستين وآرن : لم يكن آرن كبيراً جداً إنما كان يحب اللعب مع الأطفال كلما لاحت له الفرصة . ثم التقط آرن خنوصاً ماراً إلى القرب منهم ، وأدخلوه إلى الكنيسة ليتم تعميده . قام توماس بمسحه بالوحل وغمسه في بركة ماء ، وإذ راح يقلد جده ، فقد تلا القداس باللاتينية وعنّفهم على ضآلة قرابينهم ، وقد ضحك الأطفال عند سماعهم هذا إذ كانوا قد سمعوا أهاليهم يتحدثون عن طمع آيريك الزائد في المال . ولكن كلما ضحكوا أكثر كان توماس أشد تورطاً في الأمور التي

يتطرق إليها : فقد قال تالياً إن هذا الطفل قد ولد في «الصوم الكبير» ، وعليهما أن يدفعا غرامة ، إلى الكاهن والكنيسة لقاء ارتكابهما للخطيئة . ضحك الصبيان الأكبر سناً عالياً لسماعهم هذا ، ولكن كريستين كانت خجلة جداً إلى حد أنها بكت ، وهي واقفة هناك والخنوص بين ذراعيها . وبينما كان هذا مستمراً إذا بآيريك نفسه يأتي مصادفة ، إذ كان عائداً إلى البيت على مطيته من زيارة لمريض . وحين فهم ما كان يفعله الصغار ، فقد قفز من على حصانه ، وسلم الأوعية المقدسة إلى «بنتاين» ، أكبر أحفاده ، الذي كان معه ، على نحو مفاجئ جداً حتى أن بنتاين كاد يوقع حمامته الفضية وفيها جسد الرب على جانب التل ، بينما اندفع الكاهن بين الأطفال مهاجماً كل من استطاع الوصول إليه . تركت كريستين الخنوص ينزلق من ذراعيها واندفعت صارخة تهبط الطريق وثوب العماد يتجرجر وراءها . وبينما راحت أحصنة آيريك تشب وتندفع من الذعر ، فإن الكاهن دفعها هي أيضاً فوقعت كريستين أرضاً ، وقد ضربها بقدمه بشدة إلى حد أنها شعرت بالألم في وركها لأيام بحالها فيما بعد . اعتقد لافرانس حين سمع بذلك أن آيريك كان شديد القسوة مع كريستين فهي لم تكن سوى طفلة صغيرة . قال إنه سيكلم الكاهن عن ذلك ، ولكن راغنفريد رجته ألاّ يفعل ، فالطفلة قد نالت ما تستحقه فحسب ، لأنها شاركت في تلك اللعبة التجديفية . لذلك توقف لافرانس عن ذكر تلك المسألة ، ولكنه كال لآرن أسوأ ضرب ناله في حياته .

وهكذا ، وبينما كانوا يمرون بالصخرة ، راح آرن يشدّ كمّ كريستين . لم يتجرأ على قول أي شيء لخشيته من لافرانس ، ولكنه لوى وجهه ، ثم ابتسم وضرب ظهره بيده . إلاّ أن كريستين طأطأت رأسها خجلاً .

كان طريقهم يؤدي إلى غابات كثيفة . ساروا على امتداد الطريق تحت «هامرهيل» . ضاق الوادي وأصبح معتماً هناك ، وراح هدير النهر يعلو أكثر

فأكثر ويصبح أقسى : وذلك حين لمحوا نهر « لاغن » فقد كان يجري أخضر ثلجياً وأبيض من الرغوة بين جدران الصخور . كانت الجبال على كلا جانبي الوادي سوداء من الأحراج . في الوادي كان الطريق معتماً وضيقاً وبشعاً وكانت ريح باردة تهب عليهم . عبروا جدول « روستا » عند الجسر المصنوع من جذوع الأشجار ، وسرعان ما استطاعوا مشاهدة الجسر فوق النهر الكبير هناك في الوادي إلى الأسفل . تحت الجسر بقليل كانت هناك بركة يعيش فيها « كلبي » [جنيٌّ تزعم الأساطير الاسكتلندية أنه يغرق المسافرين /المترجم] ، فبدأ آرن يحكي لكريستين عنه ، ولكن لافرانس قال للصبي أن يبقى صامتاً في الغابات وألاّ يتحدث عن هذه الأمور . وحين وصلوا الجسر ، قفز عن حصانه وقاده من رسنه ، بينما أمسك بالطفلة من خصرها بذراعه الأخرى .

على الجانب الآخر من النهر كان ممرّ خاص بجياد الركوب يؤدي على نحو حاد إلى صخور التل صعوداً ، لذلك نزل الرجال عن أحصنتهم ومضوا على أقدامهم ، ولكن أبا كريستين حملها لتجلس على السرج حتى تستطيع التمسك بقوسه ، وتركها تقود «غولدسفاينن» وحدها .

برزت قمم صخرية رمادية وقبب زرقاء مبقعة بالثلج فوق سلسلة الجبال وهم يصعدون نحو الأعلى ، ورأت كريستين الآن عبر الأشجار لمحات من الأبرشية شمال الممر الضيق وراح آرن يشير إلى المزارع التي كانوا قادرين على رؤيتها في الأسفل هناك ويذكر لها أسماءها .

عالياً عند جانب الجبل وصلوا إلى مزرعة صغيرة . توقفوا عند الحاجز المصنوع من القضبان . صاح لافرانس وارتدّ صوته المرة إثر الأخرى من الجبال المحيطة . هبط رجلان بسرعة ، بين البقع الصغيرة المحروثة . كان كلاهما من أبناء الدار . كانا رجلين يتقنان إحراق القار ، وكان لافرانس

يستأجرهما لإحراق بعض القار لأجله . جاءت أمهما من بعدهما حاملة وعاءً كبيراً من الحليب المبرّد فقد كان الجو قد أصبح حاراً كما تنبأ الرجال .

قالت بعد أن حيّتهم : «لاحظت أنك اصطحبت ابنتك معك ، وقلت في نفسي إن عليّ أن أراها . ولكن عليك أن ترفع القبعة عن رأسها . يقولون إن لها شعراً جميلاً جداً» .

فعل لافرانس ما طلبته منه المرأة ، وسقط شعر كريستين من فوق كتفيها وتدلى حتى السرج . كان كثيفاً وأصفر مثل القمح الناضج . أخذت المرأة المسماة «إيسريد» بعضاً منه في يدها وقالت :

«حسناً ، والآن أرى أن ما قيل عن ابنتك الصغيرة هذه لم يكن مبالغاً فيه ، إنها زهرة ليلك حقاً ، ولها مظهر ابنة رجل فارس . ولها عينان لطيفتان أيضاً : إنها تشبهك أكثر مما تشبه آل «غييسلينغ» . فليمنحك الرب السعادة منها يا لافرانس بيورغولفسون! وهاأنت تمتطي غولدسفاينن ، صلباً ومنتصباً كساعي البريد» .هذا ما قالته ضاحكةً وهي تمسك بالوعاء حتى تشرب منه كريستين .

احمرّ وجه الطفلة من السعادة ، فقد كانت تعرف جيداً أن أباها كان يعتبر أوسم الرجال في هذه الأنحاء . كان يبدو كفارس ، وهو واقف هناك بين رجاله ، رغم أن ثيابه كانت أشبه بثياب مزارع ، تلك الثياب التي تلبس في البيت للاستخدام اليومي . كان يرتدي معطفاً من النسيج الصوفي الغليظ المصبوغ بالأخضر ، واسعاً وقصيراً ، مفتوحاً عند الحنجرة ، لذلك كان يبدو قميصه من تحت المعطف . أما بقية ملابسه فكانت بنطلوناً ضيقاً وحذاءً من الجلد غير المصبوغ ، وعلى رأسه قبعة صوفية عريضة الحافة ذات طراز قديم . ولم يكن يضع زينة سوى إبزيم فضي أملس على حزامه ، ودبوس فضي صغير في قبة قميصه ، إلاّ أن بعض

حلقات سلسلته الذهبية كانت تظهر على عنقه . كان لافرانس يرتدي هذه السلسلة على الدوام ، وعليها كان معلقاً صليب ذهبي مع بلورات صخرية كبيرة . كان الصليب مصمّماً ليُفتح ، وفي داخله كان بعض الشعر ومزق من كفن السيدة إيلين المقدسة من سكوفدي ، فقد كان آل لاماندسون يعتبرون أنهم من سلالة بنات السيدة المقدسة . ولكن حين يكون لافرانس في الغابات أو في الخارج يقوم بعمله ، فقد اعتاد أن يحشر الصليب قريباً من صدره العاري ، حتى لا يضيّعه .

ومع ذلك فقد كان يبدو في ملابسه البسيطة الخشنة أشرف نسباً من كثير من فرسان بلاط الملك في أفخر ملابسهم الخاصة بالحفلات . كان قوي البنية ، طويلاً عريض المنكبين نحيل الخصر . أما رأسه فكان صغيراً وجاثماً على نحو معتدل على عنقه . كانت ملامحه وسيمة وطويلة نوعاً ما : وجنتان ممتلئتان على نحو مناسب وذقن مستدير وفم جيد التشكيل . كانت بشرته فاتحة ووجهه نضر اللون ، وكانت عيناه رماديتين وشعره كثيفاً وناعماً وحريرياً أصفر اللون .

وقف هناك وتحادث مع إيسريد حول شؤونها ، وسألها حول «تورديس» أيضاً ، وهي قريبة لإيسريد كانت تعتني بـ «سايتر» يوروندغارد في هذا الصيف . كانت تورديس قد رزقت للتو بطفل ، وكانت إيسريد تنتظر فحسب فرصة الحصول على مرافقة آمنة عبر الغابات قبل أن تصطحب الصبي لتعميده . قال لافرانس إنه من الأفضل لها أن تأتي معهم إلى «السايتر» . كان سيهبط مجدداً في المساء التالي ، وسيكون أكثر أمناً وأفضل لها أن يكون معها رجال كثر ومع الطفل غير المعمّد بعد .

شكرته إيسريد . «لو قلت الحقيقة فإني كنت أنتظر هذا . نعرف جيداً ، نحن الفقراء في الأراضي العالية هنا ، أنك ستقوم بهذا العمل الكريم

لو استطعت حين تأتي إلى هنا » . وقد هرعت إلى الكوخ لتحضر صرتها وعباءتها .

كان لافرانس يحب بالفعل التواجد بين هؤلاء الناس المتواضعين الذين يعيشون في الأراضي مقطوعة الشجر بين الغابات والأراضي المستأجرة في المناطق العالية في أطراف الأبرشية . كان دائماً سعيداً ومرحاً بينهم . كان يحادثهم عن وسائل حيوانات الأحراج ورنّة الأراضي البور الشمالية ، وكل الأمور الغريبة التي كانت تحدث في مثل تلك الأماكن . وكان يقف إلى جانبهم ويساعدهم بالقول والفعل ، يرى إلى قطعانهم المريضة ويساعدهم في رحلاتهم إلى الحداد أو النجار ، بل وكان أحياناً يستخدم قوته الهائلة في العمل حين تكون الأحجار أو الجذور الأسوأ في حاجة إلى تكسير أو انتشال من الأرض . لذلك كان هؤلاء الناس سعداء جداً في تحية لافرانس بيورغولفسون وكذلك غولدسفاينن ، الحصان الفحل الأحمر الضخم الذي كان يمتطيه . كان حيواناً جميلاً ذا جلد لامع وشعر وذيل أبيضين وعينين فاتحتي اللون ؛ قوياً ونارياً ، لذا كانت شهرته قد انتشرت في كل أنحاء المناطق المجاورة ؛ ولكنه كان مع سيده وديعاً كحمل ، واعتاد لافرانس أن يقول إن الحصان كان عزيزاً عليه كأخ أصغر .

كانت مهمة لافرانس الأولى رؤية برج النار على «هايمهاوغن» . ففي الأوقات الصعبة والمضطربة قبل مئة عام أو يزيد ، بنى ملاكو الأرض الصغار في الوديان أبراج النار هنا وهناك في أعالي الهضاب فوقها ، وكأنها العلامات البحرية في المطلّات على الشاطئ . ولكن أبراج النار هذه في الأراضي العالية لم تكن تحت حماية ضرائب الملك ، بل كانت تعتني بها نقابات ملاك الأراضي الصغار[٦] وكان أعضاء النقابة يتناوبون على الاهتمام بها .

حين وصلوا إلى أول «سايتر» جعل لافرانس كل الأحصنة عدا حصان

الحمولة ترعى هناك . وها هم الآن يعبرون ممراً منحدراً على الأقدام . وقبل أن يمر وقت طويل بدأت الأشجار تقل وتتناثر . كانت أشجار التنّوب الضخمة تقف ميتة وبيضاء كالعظام فوق الأراضي المستنقعية ، ورأت كريستين الآن قمماً جرداء ذات صخور رمادية تعلو نحو السماء في كل الاتجاهات . تسلقوا امتدادات طويلة بين صخور متقلقلة ، وأحياناً كانت الجداول تجري على الدرب ، بحيث كان أبوها يضطر إلى حملها . هبت الريح قوية وباردة في الأعلى هناك ، وكانت الأرض سوداء من التوت البري بين الخلنج ، ولكن لافرانس قال إنهم لا يستطيعون التوقف الآن لقطفها . كان آرن يقفز إلى المقدمة ثم إلى الخلف ، ويقطف التوت لها ، ويحكي لها عن «السايترات» ولمن كانت تنتمي كل واحدة منها ، تلك التي كانوا يرونها تحتهم في الغابة ، فقد كانت هناك غابة فوق كل هوفرينغسفانغن في تلك الأيام .

و الآن كانوا قريبين من أعلى قمة جرداء مستديرة وشاهدوا الكومة الهائلة من الأخشاب أمام السماء مع بيت الحارس تحت ملاذ جرف شديد الانحدار .

و حين وصلوا إلى حافة المنحدر وتجاوزوها اندفعت الريح ضدهم وراحت تضرب ملابسهم : بدا الأمر لكريستين وكأن شيئاً حياً يسكن هناك كان يقابلهم ويحييهم . كانت الريح تهب بقوة شديدة من حولها هي وآرن وهما يتقدمان فوق الطحالب ، حتى وضعتهم بعيداً فوق حد بارز ، وحدقت كريستين بعينين كبيرتين : لم يسبق لها أن حلمت أن العالم كان كبيراً وواسعاً إلى هذا الحد .

كانت سلاسل جبلية شعثتها الأحراج تقبع تحتها من كل الجوانب ؛ وكان الوادي مجرد صدع بين المنحدرات الشاهقة الهائلة وماتزال الوديان

الصغيرة المنعزلة الجانبية ، عبارة عن منحدرات أصغر . كان هناك الكثير منها ، ومع ذلك كان هناك جدول صغير والكثير من المنحدرات . ومن كل ما حولها كانت قمم رمادية ، تشتعل بأشنات ذهبية ، وتبرز فوق بحر من الأحراج ، وإلى البعيد ، على حافة السماء ، نهضت قمم زرقاء تومض هنا وهناك بالثلج وتذوب أمام أعينهم ، متحولة إلى غيوم الصيف الزرقاء - الرمادية والبيضاء الصافية . ولكن باتجاه الجنوب الشرقي ، على نحو أقرب ، إلى ما وراء غابات «السايتر» ، كانت تقبع مجموعة من القباب ذات اللون الأردوازي مع أقلام من الثلج المتساقط حديثاً على منحدراتها . وقد خمنت كريستين أن هذه هي «جبال الخنزير البري» التي سمعت عنها ، فقد كانت بالفعل لا تشبه سوى قطيع من الخنازير البرية يتابع طريقه نحو الداخل وقد أدار ظهره للأبرشية ، ومع ذلك فقد قال لها آرن إن الوصول إلى هناك سيتطلب ما يعادل مسيرة نصف يوم .

كانت كريستين تظن دائماً أنها لو استطاعت الوصول إلى قمة منحدرات بيتهم لشاهدت أبرشية أخرى كأبرشيتهم ، مع مزارع محروثة ومساكن ، وكان أمراً عجيباً بالنسبة إليها أن ترى مدى تباعد الأماكن التي يقطنها الناس . شاهدت النقط الصفراء والخضراء الصغيرة في الأسفل في قاع الوادي ، والفسحات الصغيرة بنقطها الرمادية التي هي منازل بين الأحراج الجبلية ، وبدأت تعدها ، ولكنها بعد أن عدت اثني عشر منها ثلاث مرات ، لم تعد تستطيع المتابعة . ومع ذلك كانت هذه المساكن البشرية تبدو مثل لا شيء في ذلك المكان المقفر الواسع .

كانت تعرف أنه في الغابات الموحشة كانت الذئاب والدببة هي المسيطرة ، وأنه تحت كل حجر كانت تسكن أقزام خرافية وعفاريت وجن ، وأنها كانت خائفة ، فلم يكن هناك من يعرف عددها ، ولكنها لاشك تزيد في

أعدادها مرات عديدة عن الرجال والنساء المسيحيين . ثم نادت على أبيها ، ولكنه لم يستطع سماعها لشدة عصف الريح : فقد كان هو ورجاله مشغولين بدحرجة أحجار ثقيلة صعوداً إلى قمة الجبل لتكويمها حول أخشاب برج النار .

و لكن إيسريد جاءت إلى الطفلين وأرت كريستين أين كان يقع المنحدر إلى غرب «فاغ» . وأشار آرن إلى «غرايفل» ، حيث كان الناس من الأبرشية يصطادون حيوانات الرنة بالأشراك ، وحيث يعيش صيادو صقور الملك في أكواخ صخرية . وكانت تلك مهنة يفكر آرن في أن يمارسها في يوم من الأيام ـ ولكنه لو فعل لكان عليه أن يتعلم ويدرب الطيور على القنص ـ وها هو يرفع ذراعيه عالياً وكأنه يطلق صقراً .

هزت إيسريد رأسها .

«إنها حياة قاسية وشريرة ، تلك يا آرن غيرودسون . ستسبب أسى كبيراً لأمك ، أيها الغلام ، إذا ما قررت أن تصبح صياد صقور . لا أحد يكسب عيشه في تلك الجبال الموحشة إلاّ إذا انضم إلى عصبة من أسوأ الرجال ، أجل ، ومعهم من هم أسوأ حتى» .

كان لافرانس قد وصل إليهم وسمع آخر كلمة . قال : «أجل ، أكثر من «هيد» [مقياس انكليزي قديم للأراضي[المترجم] واحد هناك لا يدفع ضريبة ولا عشراً ...»

قالت إيسريد ملاطفة : «أجل ، لابد أنك رأيت الكثير أنت يا من يسافر بعيداً خارج الوطن...» .

قال لافرانس ببطء : «أجل ، أجل . ربما – ولكني أظن أنه من الأفضل عدم التحدث عن هذه الأمور كثيراً . وعلى المرء – كما أقول – ألا يحسد الناس الذين فقدوا سلامهم في الأبرشية ، مهما يكن ذاك السلام الذي

يجدونه بين المنحدرات الشاهقة . ولكني رأيت مع ذلك حقولاً صفراء ومروجاً رائعة حيث لا يعرف سوى قلة من الناس وجود مثل هذه الأشياء ؛ ورأيت قطعاناً من الماشية والمواشي الصغيرة ، ولكني لا أعرف إن كانت تنتمي إلى البشر أو إلى قوم آخرين... »

تقول إيسريد : « أوه ، أجل! الدببة والذئاب مسؤولة عن الحيوانات التي تفقد من السايترات هنا ، ولكن هناك لصوص أسوأ منها بين الجبال » .

« هل تسمينهم أسوأ » ؟ سأل لافرانس متأملاً ، وهو يربت على قبعة ابنته . « في الهضاب هناك إلى الجنوب من جبال الخنزير البري رأيت ثلاثة فتيان صغار ، وكان أكبرهم حجماً بطول كريستين هذه ، ولهم شعور صفراء ومعاطف من الجلد . وقد صرّوا بأسنانهم تجاهي مثل جراء الذئب قبل أن يركضوا ليختبئوا . وإنه لأمرٌ لا يكاد يكون مستغرباً لو أن الرجل الفقير الذي امتلكهم كان مسروراً لسرقة بقرة أو اثنتين... »

تقول إيسريد بنزق : « أوه لكل من الذئاب والدببة صغار! وأنت لا تبقي عليها يا لافرانس ، لا هي ولا صغارها . ومع ذلك فليس لديها تقاليد قانونية ولا دين مسيحي ، كما لهؤلاء الأشرار الذين تتمنى لهم الخير... »

« أتظنين أني أتمنى لهم كثيراً من الخير لمجرد أني أتمنى لهم ما هو أفضل قليلاً من الأسوأ ؟ » قال لافرانس وهو يبتسم قليلاً . « و لكن هيا الآن ، دعونا نَرَ ما الطعام الذي أرسلته راغنفريد معنا اليوم » . أخذ كريستين من يدها وقادها معه . وبينما هما ماضيان انحنى وقال بنعومة : « فكرت بأخوتك الثلاثة الصغار ، يا كريستين الصغيرة » .

اختلسوا النظر إلى داخل بيت الحارس ، ولكنه كان مغلقاً وفيه رائحة عفونة . نظرت كريستين فيما حول البيت ، ولكن كان هناك بعض المقاعد

الطينية من حول الجدران ، وحجر موقد في وسط الأرضية ، وبعض براميل القار وبعض حزم جذور الصنوبر ولحاء الحور . فكر لافرانس في أنه سيكون من الأفضل لهم أن يأكلوا في الخارج ، وقد وجدوا على مسافة قريبة بين الحور قطعة مرج خضراء جميلة .

تم إنزال الحمل عن حصان الحمولة ، وتمددوا فوق العشب . في المحافظ التي أعطتهم إياها راغنفريد كان الكثير من أطايب الطعام : خبز طريّ وكعك وزبدة وجبن ولحم خنزير مقدّد ولحم رنّة مجفف بالريح ، وشحم خنزير ، ولحم صدر عجل مسلوق ، وبرميلان صغيران من الجعة الألمانية وإبريق صغير من الميد [شراب مخمر يعد من عسل وملت وخميرة/ المترجم] . جرى تقطيع اللحم وتقسيمه بسرعة ، بينما أشعل «هالدفان» ، أكبر الرجال سناً ، ناراً ، إذ كان إشعال نار جيدة في الغابات يمنح شعوراً زائداً بالأمان .

جمعت إيسريد وآرن الخلنج والحور القزم ورمياه في النار . وقد طقطقت النار وهي تمزق الأخضر اليانع من الأماليد ، وارتفعت ألسنة لهيب بيضاء صغيرة فوق خيوط الشعلة الحمراء . دوّم الدخان سميكاً وأسود نحو السماء الصافية . جلست كريستين وراحت تراقب . بدا لها أن النار كانت سعيدة بوجودها في الخارج هناك متمتعة بحريتها وقادرة على أن تلعب وتمرح . كان هذا مخالفاً لما تفعله النار في البيت حيث تقعي النار فوق الموقد وتعمل بطبخ الطعام ومنح الناس الموجودين في الغرفة النور .

جلست مستكينة إلى أبيها وأحد ذراعيها حول ركبته . كان يعطيها أفضل ما هو موجود وجعلها تشرب حتى امتلأت من الجعة وتذوقت الميد جيداً .

قال هالفدان ضاحكاً : «ستكون ثملة إلى حد أنها لن تصل أبداً إلى السايتر على قدميها » . ولكن لافرانس ربت على خديها المستديرين :

« و لكن هناك أشخاص بالعدد الكافي لحملها - سينفعها ذلك - واشرب أنت أيضاً يا آرن . عطايا الرب تنفعكم ولا تضركم أنتم الذين لا تزالون في مرحلة النمو بعد : إنها تصنع دماً حلواً أحمر وتمنح نوماً عميقاً وليس جنوناً وحماقة... »

شرب الرجال أيضاً مراراً وبعمق ، كما لم تتخلف عنهم إيسريد . وسرعان ما أصبحت أصواتهم وهدير وطقطقة النار مجرد ضجيج بعيد في أذني كريستين ، وبدأ رأسها يثقل . كانت لا تزال واعية كيف راحوا يسائلون لافرانس ليحكي لهم عن الأمور الغريبة التي رآها حين كان يخرج للصيد . ولكنه لم يقل الكثير . وبدا هذا لها جيداً وآمناً ، وكانت قد أكلت جيداً جداً .

كان أبوها يحمل شريحة من خبز الشعير الطري في يده . كان يقرص منها قطعاً صغيرة بأصابعه ويحولها إلى أشكال أحصنة ، ثم يقطع شرائح من اللحم ويضع هذه فوق الجياد ويجعلها تركب على فخذه ثم إلى فم كريستين . ولكن سرعان ما أضحت مرهقة إلى حد لم تعد تستطيع معه لا فتح فمها ولا المضغ : وهكذا غاصت فوق الأرض ونامت .

•

حين صحت من جديد كانت متمددة في عتمة دافئة ضمن ذراع والدها ، فقد كان قد لف عباءته من حولهما كليهما . جلست كريستين ومسحت الرطوبة عن وجهها ، ثم فكت قبعتها حتى يجفف الهواء خصلاتها الرطبة .

كان النهار قد انقضى معظمه بكل تأكيد ، فأشعة الشمس كانت ذهبية ، وقد استطالت الظلال وسقطت نحو الجنوب الشرقي . لم تكن هناك نسمة ريح واحدة ، وكان البعوض والذباب يطن ويحوم من حول مجموعة من الرجال النائمين . جلست كريستين ساكنة ، وحكت يديها اللتين لسعهما البعوض وحدقت إلى ما حولها . كانت قمة الجبل فوقهم تلتمع بيضاء من الطحالب وذهبية من الأشنات تحت أشعة الشمس ، وكومة الأخشاب التي بليت من التعرض لعوامل الطقس كانت تنتصب أمام السماء مثل هيكل عظمي لحيوان عجيب .

شعرت بالقلق! كان غريباً جداً أن تراهم جميعاً نياماً هناك تحت نور النهار العاري . في البيت ، لو حدث واستيقظت ليلاً ، كانت تستكين إلى أمها في العتمة من جانب ، ومن الجانب الآخر إلى السجادة المطرزة المعلقة على الحائط . وعندها كانت تعرف أن الغرفة ومخرج دخانها قد أغلقا وتم إزلاج الباب أمام الليل وعوامل الطقس ، وكانت تأتي أصوات النوم من الأشخاص النائمين بنعومة وأمان على الوسائد بين الجلود . ولكن كل هذه الأجساد المضطجعة بانثناء وانحناء على جانب الجبل هنا ، من حول الكومة الصغيرة من الرماد الأسود والأبيض قد تكون ميتة : كان البعض نائماً على وجهه ، والبعض الآخر على ظهره ور كبهم نحو الأعلى ؛ وقد أخافها الضجيج الصادر عنهم . كان أبوها يشخر بعمق ، ولكنه حين سحب نفساً زمّر هذا وصفّر خارجاً من أنفه . أما آرن فنام على جنبه ، ووجهه مخفي في ذراعه ، بينما كان شعره اللامع البني الفاتح منتشراً بين نباتات الخلنج . كان نائماً بهدوء شديد حتى خشت كريستين أن يكون قد مات . كان عليها أن تنحني نحو الأمام وتلمسه ، وقد تقلب في نومه قليلاً عندما لمسته .

وفجأةً فكرت كريستين أنهم قد يكونون قد ناموا طوال الليل كله وكان

هذا هو اليوم التالي : وقد أخافها هذا إلى حد أنها هزّت أباها . ولكنه نخر فحسب وتابع النوم . كانت كريستين نفسها لاتزال ثقيلة الرأس ، ولكنها لم تتجرأ على الاضطجاع لتنام مجدداً . وهكذا زحفت نحو الأمام إلى النار وحركتها بعصا : كانت لاتزال هناك بعض الجمرات الملتهبة في الأسفل . رمت فوقها بعض الخلنج والأغصان الصغيرة التي انتزعتها ممّا حولها ، فلم تجرؤ على تجاوز حلقة النائمين لتجد فرعاً أكبر .

جاء صوت قعقعة وتهّشم من الغابات القريبة ، وغاص قلب كريستين وأحست بالبرد من الخوف . ثم رأت شكلاً أحمر بين الأشجار ، وخرج غولدسفاينن من الأجمة . وقف هناك وحدق إليها بعينيه الصافيتين اللامعتين . كانت سعيدة جداً برؤيته ، فقفزت على قدميها وهرعت إلى الحصان . وهناك أيضاً كان الحصان الكميت الذي ركبه آرن ، وحصان الحمولة أيضاً . أحست الآن بالأمان والسعادة مجدداً . ذهبت وربتت على خواصر الجياد الثلاثة كافة ، ولكن غولدسفاينن أحنى رأسه حتى تستطيع الوصول إليه وتداعب خديه ، وتجذب خصلته الأمامية البيضاء المصفرة ، بينما راح هو يتشمّم يديها بمنخره الطري .

تجولت الجياد وهي تقتات ، هابطة المنحدر الذي تنمو فيه أشجار الحور ، ومضت كريستين معهم – أحست أنه ليس عليها أن تخشى شيئاً طالما بقيت قريبة من غولدسفاينن – فقد كان قد سبق له حسب علمها وحمل دباً على الفرار . كان توت عنب الدب ينمو بكثافة هنا ، وكانت الطفلة ظمآنة الآن ، وتشعر بطعم غير مستحب في فمها . لم تكن تحب مذاق الجعة ، ولكن التوت الحلو ذا العصارة كان جيد المذاق كالنبيذ . إلى البعيد ، على ركام من الحجارة ، شاهدت فريزاً برياً نامياً هناك أيضاً ، لذلك أمسكت بغولدسفاينن من عرفه وأمرته بصوت عذب أن يذهب معها إلى

هناك ، وتبع الفحل الفتاة الصغيرة راغباً . وهكذا وبينما راحت تتجول مبتعدة نزولاً على منحدر الجبل ، فقد لحق بها حين كانت تناديه وتبع الحصانان الآخران غولدسفاينن .

في مكان ما قريب سمعت خرخرة وخرير جدول . تبعت الصوت حتى وجدته ، ثم انبطحت فوق لوح مسطح كبير من الصخر وغسلت وجهها ويديها اللتين كانتا حارتين ملسوعتين من البعوض . تحت اللوح الصخري وقف النهر متحولاً إلى بركة ساكنة سوداء ، فقد برز أمامه جدار من الصخر خلف بعض أشجار الحور والصفصاف الصغيرة . وقد أضحت هذه البركة مرآة صافية كل الصفاء ، وانحنت كريستين من فوقها ونظرت إلى نفسها في الماء ، فقد كانت ترغب في أن ترى إن كانت تشبه بالفعل أباها كما قالت إيسريد .

ابتسمت وأومأت وانحنت نحو الأمام حتى اصطدم شعرها اللامع بالوجه الطفولي المستدير ذي العينين الكبيرتين الذي رأته في الجدول .

من حولها كان ينمو كثير من تلك المجموعات البرية الوردية من الزهور المسماة بالناردين : أكثر حمرة إلى البعيد وأجمل هنا قرب جدول الجبل ممّا هي في البيت قرب النهر . وقد قطفت منها كريستين ولفتها بالأعشاب حتى جمعت لنفسها أكبر اكليل وردي قرنفلي . ضغطته الطفلة فوق رأسها وركضت إلى البركة لترى كيف يكون منظرها وقد زينت نفسها كفتاة ناضجة تذهب إلى الرقص .

انحنت فوق الماء ورأت صورتها الداكنة تصعد من القعر وتصبح أوضح وهي تقترب لتقابلها – ثم رأت في مرآة البركة شكلاً آخر يقف بين أشجار الحور في الجهة المقابلة وينحني نحوها . وبسرعة نهضت على ركبتيها وحدقت عبر البركة . في البداية ظنت أنها الصخرة والشجيرات المتشبثة

بقدمها . ولكنها سرعان ما أصبحت مدركة بوجود وجه بين الأوراق - كانت سيدة تقف هناك ، شاحبة لها شعر ملوّح بلون التبن وعينان واسعتان بلون رمادي فاتح ومنخران واسعان ورديان مثل منخري غولدسفاينن . كانت ترتدي شيئاً ذا لون أخضر فاتح بلون أوراق الشجر ، وكانت الفروع والأغصان تخفيها حتى صدرها الواسع الذي كان مغطى بدبابيس الزينة والسلاسل اللامعة .

حدقت الفتاة الصغيرة إلى الشكل البشري ، وبينما راحت تحدق رفعت السيدة يداً وأظهرت إكليلاً من الزهور الذهبية ، أومأت به .

إلى الخلف منها سمعت كريستين غولدسفاينن يصهل بصوت مرتفع من الخوف . التفتت برأسها : تراجع الحصان وهو يصرخ حتى رن الصدى ، ثم التفت وصعد الجبل هارباً وحوافره تصدر صوتاً كالرعد . تبعه الحصانان الآخران صاعدين كومة الحجارة ، بينما راحت الحجارة تهبط مقعقعة مع أغصان وجذور تتحطم وتخشخش .

عندها صرخت كريستين بصوت مرتفع . زعقت : «أبي! أبي!» . نهضت على قدميها ولحقت بالأحصنة دون أن تجرؤ على النظر إلى الخلف . تسلقت ركام الحجارة بصعوبة ثم داست على طرف ثوبها فانزلقت هابطة نحو الأسفل . ثم تسلقت مجدداً ، متمسكة بالحجارة بيدين داميتين ، زاحفة على ركبتين مرضوضتين موجعتين ، وهي تنادي غولدسفاينن تارة وأباها تارة أخرى : بدأ العرق يخرج من كل مسام من مسامات جسدها ويجري كالماء إلى عينيها ، وراح قلبها يدق حتى ليكاد يتحطم على ضلوعها ، بينما اختنقت حنجرتها بنشيج الذعر :

«ياأبي! ياأبي!»

ثم سمعت صوته يأتي من مكان ما في الأعلى : رأته ينزل بقفزات

كبيرة نازلاً ركام الحجارة – ذلك الركام اللامع الذي تنيره الشمس . كانت أشجار الحور والحور الرجراج تنتصب على امتداده وتغمز بأوراقها الصغيرة المفضضة – وكانت حافة الجبل هادئة جداً ، لامعة جداً ، بينما جاء أبوها يقفز ويناديها باسمها ، وهمدت كريستين وعرفت أنها قد نجت الآن .

«يامريم المقدسة!» ركع لافرانس وأمسك بابنته . كان شاحباً وغريب المنظر عند الفم ، فأضحت كريستين أكثر جزعاً ؛ كأنما قرأت في وجهه كم كان الخطر الذي أحدق بها عظيماً .

«يا طفلتي ، يا طفلتي...» رفع يديها الداميتين ونظر إليهما ، ورأى الإكليل فوق رأسها المكشوف ، ولمسه . «ما هذا ؟ كيف جاء إلى هنا يا كريستين الصغيرة ؟...»

«ذهبت مع غولدسفاينن» ، بكت على صدره . خفت كثيراً لرؤيتكم نياماً جميعكم ، ولكن جاء غولدسفاينن وكان هناك شخص ما عند الجدول في الأسفل هناك وأومأ إليّ...»

«من الذي أومأ ؟ هل كان رجلاً ؟»

لا ، كانت سيدة... لقد أومأت بإكليل من الزهور الذهبية... أعتقد أنها كانت جنية يا أبي .(٧)

قال لافرانس بصوت هادئ : «يا يسوع المسيح!» ثم رسم شارة الصليب على نفسه وعلى الطفلة .

ساعدها في صعود ركام الحجارة حتى وصلا إلى منحدر معشوشب ثم رفعها وحملها . تشبثت بعنقه وبكت ، ولم تتوقف عن البكاء رغم كل محاولاته لتهدئتها .

سرعان ما قابلوا الرجال وإيسريد . ضربت المرأة يديها بقوة حين سمعت ما جرى :

«أجل ، كانت تلك هي الجنية ، لاشك في ذلك . كانت ستغري الطفلة الشقراء لتصعد إلى الجبل . ثق بي» .

قال لافرانس بصرامة : «اصمتي! ما كان علينا أبداً أن نتحدث في هذه الغابات كما فعلنا... لا أحد يعرف ما يكمن تحت الصخور ويصغي إلى كل كلمة» .

سحب السلسلة الذهبية من تحت قميصه وعلقها مع الصليب الحاوي للأثر المقدس حول عنق كريستين ثم دفعه إلى جسدها العاري .

قال : «و لكن احذروا جميعاً وحافظوا على أفواهكم مغلقة ، حتى لا تعرف راغنفريد أبداً بأن الطفلة تعرضت إلى مثل ذلك الخطر» .

ثم أمسكوا بالجياد الثلاثة التي كانت قد هربت إلى الغابة ، ونزلوا بسرعة إلى المرعى حيث كانت الجياد الأخرى ترعى . وهناك ركبوا جميعاً مطاياهم إلى«سايتر» يوروندغارد ، فلم تكن بعيدة جداً .

كانت الشمس على وشك الغروب حين وصلوا إلى هناك . المواشي كانت في الحظائر ، وكانت torديس والقطعان مشغولين بحلب الحليب . وفي داخل الكوخ كانت العصيدة قد طهيت وتنتظرهم ، إذ كان سكان «السايتر» قد شاهدوهم عند برج النار في وقت مبكر من اليوم وكانوا في انتظارهم .

والآن ، هدأ بكاء كريستين أخيراً . جلست على ر كبة أبيها وأكلت العصيدة والقشدة من ملعقته نفسها .

كان على لافرانس أن يذهب في اليوم التالي إلى بحيرة على مسافة أبعد في الجبال حيث يقطن بعض الرعيان مع الثيران . كانت كريستين ستذهب معه ، ولكنه قال الآن إن عليها أن تبقى في الكوخ خلال رحيله . «و عليكما الانتباه يا torديس وإيسريد ، فالباب يجب أن يبقى مغلقاً وحتى فتحة

الدخان كذلك ، حتى نعود ، وذلك من أجل كريستين والطفل المسكين غير المعمّد بعد في مهده » .

كانت تورديس خائفة جداً إلى حد أنها لم تجرؤ على البقاء مع الصغير هنا ، فقد كانت قد توقفت عن الذهاب إلى الكنيسة منذ أن وضعته : كانت تفضل بالأحرى النزول فوراً والبقاء في الأبرشية . قال لافرانس إن هذا يبدو أمراً غير حكيم ؛ فهي ستنزل معهم في مساء اليوم التالي . وقد فكر في أن يحضر أرملة أكبر سناً لتخدم في يوروندغارد ، في الأعلى هناك بدلاً منها .

كانت تورديس قد نشرت عشباً جبلياً نضراً حلو الرائحة تحت الجلود على المقاعد . وكانت رائحته قوية جداً وطيبة جداً ، وكانت كريستين نائمة تقريباً حين قرأ أبوها فوقها «أبانا الذي» و«السلام عليك يا مريم» .

قال لافرانس وهو يربت على خدها : «أجل ، سيكون يوماً طويلاً قبل أن أصطحبك إلى الجبال مرة ثانية» .

استيقظت كريستين مجفلة :

«أبي ، ألن أذهب معك أيضاً حين تسافر جنوباً عند الحصاد ، كما وعدتني...»

«سنرى ما نفعله حول ذلك» ، قال لافرانس ، وسرعان مانامت كريستين بين جلود الخراف .

٢

في كل صيف كان من عادة لافرانس بيورغولفسون أن يركب جنوباً ليتفقد ضيعته في فولّو . رحلات والدها هذه كانت علامات فارقة سنوية في حياة كريستين – الأسابيع الطويلة التي كان يغيب فيها ، ومتعة عودته إلى البيت حاملاً هدايا رائعة : مواد أجنبية جميلة لصندوق عرسها ، تين ، زبيب وخبز معسّل من أوسلو – وأمور غريبة كثيرة أخرى يحكيها لها .

و لكن في هذا العام لاحظت كريستين وجود شيء ما أكثر من العادي يأخذ مجراه مع اقتراب موعد رحيل أبيها . وقد تم تأجيله ثم تأجيله مجدداً . كان كبار السن من لوبتسغارد يحضرون على جيادهم في أوقات غريبة ويجلسون حول المائدة مع أبيها وأمها . كانوا يتحدثون عن الميراث وحقوق الأراضي الحرة والإصلاح والعوائق أمام تشغيل الأملاك من تلك المسافة البعيدة ، وكرسي الأسقف وقصر الملك في أوسلو الذي تطلب الكثير من العمل من المزارع المحيطة بالبلدة . لم يكن لديهم أي وقت ليلعبوا معها ، وكانت ترسل إلى المطبخ إلى الفتيات . كان خالها «تروند إيفارسون» من سوندبو يأتي إليهم عدداً من المرات أكثر من المعتاد : ولكنه لم يعتد قط أن يلعب مع كريستين أو يدلّلها .

وشيئاً فشيئاً وصلها تلميح عمّا كان يجري . منذ أن وصل إلى « سيل » راح لافرانس ينشد تجميع قواه هنا في الأبرشية ، فالسير أندرس غودوموندسون كان يعرض عليه « فورمو » في « سيل » وهي ما ورثه السير أندرس من أمه ، مقابل « سكوغ » ، التي كانت في موقع أفضل له ، بما أنه كان واحداً من حراس الملك الشخصيين ، وكان نادراً ما يأتي إلى هنا إلى « ديل » . كان لافرانس كارهاً التخلي عن سكوغ التي هي ميراثه الحر ، وقد وصلت إلى أجداده كهدية ملكية . ومع ذلك فإن الصفقة ستكون لمصلحته من نواح كثيرة . ولكن شقيق لافرانس ، آسموند بيورغولفسون كان سيسره الحصول على سكوغ – كان يقطن الآن في هادلاند حيث تزوج من امرأة ذات أملاك – ولم يكن أمراً مؤكداً أن يتنازل آسموند عن حق وصله عن طريق القرابة .

ولكن قال لافرانس في أحد الأيام لراغنفريد إنه سيصطحب كريستين معه إلى سكوغ . سترى الضيعة التي ولدت فيها ، والتي هي منزل آبائه ، مع احتمال أن تصبح الآن خارج أملاكهم . اعتبرت راغنفريد هذا صحيحاً رغم أنها كانت تخشى كثيراً أن ترسل طفلة صغيرة إلى هذا الحد في رحلة طويلة كهذه ، هذا مع وجودها هي إلى القرب منها .

بقيت كريستين ، بعد مشاهدتها الجنية ، شديدة الخوف حتى أنها كانت تبقى لفترات طويلة داخل المنزل قرب أمها . كانت تخشى حتى من رؤية الأشخاص الذين كانوا معها في الجبال وعرفوا ما جرى لها ، وقد سرها أن أباها حظر التحدث عن تلك الرؤيا التي رأتها .

ولكن مع مرور بعض الزمن ، بدأت تفكر بأنها تود التحدث عنها . في أفكارها روت القصة لشخص ما – لم تكن تعرف لمن – وكان أمراً غريباً ، فكلما مر المزيد من الوقت ، بدا أنها تذكرتها ، وأصبحت أوضح فأوضح ذكرى السيدة الجميلة .

ولكن أغرب ما في الأمر ، أنها في كل مرة فكرت فيها بالجنية ، كانت تشعر بتوق للرحلة إلى سكوغ ، وبخوف أشد فأشد بأن أباها لن يصطحبها معه .

وأخيراً استيقظت ذات صباح في غرفة الدور العلوي ورأت أمها وغونهيلد العجوز تجلسان على العتبة تتطلعان إلى كومة من جلود السنجاب تخص لافرانس . كانت غونهيلد أرملة تجول على المزارع وتعمل في تبطين الفرو في المعاطف وما شابه . وخمنت كريستين من حديثهما أنها ستنال معطفاً جديداً مبطناً بجلود السناجب وله حواش من فرو الدلق . ثم عرفت أنها ستصحب أباها وقفزت في سريرها وصرخت من الفرحة .

اقتربت منها أمها وربتت على خدها :

«هل أنت سعيدة كل هذه السعادة يا ابنتي أنك ستبتعدين عني إلى ذلك الحد ؟»

•

كررت راغنفريد هذا الكلام نفسه يوم السفر . استيقظوا مع صياح الديك . كان الجو معتماً في الخارج ، مع ضباب كثيف بين المنازل ، بينما راحت كريستين تختلس النظر من الباب إلى الطقس . تلاطم الضباب كدخان رمادي حول المصابيح ، وفي الخارج قرب أبواب المنزل المفتوحة . كان أشخاص يجرون بين الاسطبلات والمباني الإضافية ، بينما النساء يخرجن من المطبخ حاملات قدور العصيدة التي يخرج منها البخار صوانيَ خشبية عليها لحم عجل وخنزير : كانوا سيحملون الكثير من الطعام المغذي قبل أن ينطلقوا في برد الصباح .

في الداخل ، كانت عدول الخروج تغلق وتفتح ، والأشياء المنسية

توضب في داخلها . كانت راغنفريد تذكر زوجها بكل المهمات التي عليه أن يقوم بها لأجلها ، وتتحدث عن الأقرباء والأصدقاء على الطريق والذين كان عليه أن يحييهم ولا ينسى أن يسأل عنهم .

كانت كريستين تجري إلى الخارج والداخل ، وتودّع الجميع مرات عديدة في المنزل ، دون أن تتمكن من أن تقف ساكنة لحظة واحدة في أي مكان .

«هل أنت سعيدة إلى هذا الحد يا كريستين أنك ستبتعدين عني إلى ذلك الحد وخلال هذه المدة ؟» سألت الأم . خجلت كريستين واضطربت وتمنت لو لم تقل أمها ذلك . ولكنها أجابت بأفضل ما تستطيعه :

«لا ، يا أمي العزيزة ، ولكني سعيدة أني ذاهبة مع أبي» .

قالت راغنفريد وهي تتنهد : «أجل ، هذا صحيح» . ثم قبلت الطفلة ووضعت اللمسات الأخيرة على ملابسها .

وأخيراً كانوا قد امتطوا الجياد ، القافلة كلها : كانت كريستين تمتطي «مورفين» ، الذي كان قبل الآن جواد ركوب أبيها : كان عجوزاً وحكيماً وموثوقاً . رفعت راغنفريد جرن الماء المقدس الفضي مع كأس الركاب [كأس الوداع] إلى زوجها ، ومدت يدها إلى ركبة ابنتها وطلبت إليها أن تضع في ذهنها كل ما علمتها أمها إياه .

وهكذا خرجوا من باحة الدار في النور الرمادي . كان الضباب قابعاً أبيض مثل الحليب فوق الأبرشية . ولكن خلال فترة بدأ يرق وراحت أشعة الشمس تخترقه . وراحت منحدرات جبال خضراء تلتمع وتنقّط طلاً عبر السديم الأبيض ، وكذلك حقول جذامات شاحبة وأشجار صفراء وأشجار السمّن اللامعة بالتوت الأحمر . بدت لمحات من جوانب جبال زرقاء تبرز عبر السديم البخاري ، ثم تلاشى الضباب وانساق في أكاليل عبر

المنحدرات ، وراحوا ينزلون نحو «ديل» في أروع نور للشمس ، بينما كريستين في مقدمة الركب إلى جوار أبيها .

وصلوا إلى «هامار» في مساء معتم وممطر ، وكريستين جالسة في الأمام على قربوس سرج أبيها ، فقد كانت منهكة جداً حتى أن كل ما حولها كان يعوم أمام عينيها : البحيرة التي راحت تلتمع بشحوب إلى يمينهم ، والأشجار الكثيبة التي كانت تنقط عليهم وهم يمرون من تحتها ، والمجموعات المعتمة الرصاصية اللون من المنازل على الحقول الكئيبة معدومة اللون على جانبي الطريق .

كانت قد توقّفت عن عد الأيام : بدا لها وكأنه كان زمناً لا نهاية له خلال الرحلة . كانوا قد زاروا أقرباء وأصدقاء على امتداد «ديل» كما كانت قد تعرفت إلى أطفال في الضياع الكبيرة ولعبت في منازل وحظائر وباحات غريبة ، وارتدت مرات عديدة ثوبها الأحمر ذا الأكمام الحرير . كانوا يرتاحون إلى جانب الطريق نهاراً حين يكون الطقس معتدلاً . كان آرن يجمع الجوز لها وكانت تنام بعد وجبات الطعام فوق عدول الخرج حيث كانت ملابسهم . في أحد المنازل الكبيرة كان لديهم وسائد مغطاة بالحرير في أسرتهم . ولكن جرى في إحدى الليالي وهم نائمون في نزل ، أن كانت في السرير الآخر امرأة مضطجعة وهي تبكي بنعومة ومرارة في كل مرة استيقظت فيها كريستين . ولكن في كل ليلة كانت تنام بأمان خلف ظهر أبيها العريض الدافئ .

•

استيقظت كريستين مجفلة : لم تعرف مكانها ، ولكن الصوت الرنان الهادر الذي سمعته في حلمها ظل مستمراً . كانت تتمدد وحدها في سرير وفي مدفأة الغرفة كانت النار موقدة .

نادت أباها ، فنهض من جانب المدفأة حيث كان جالساً واقترب منها مع امرأة بدينة .

سألت : «أين نحن ؟» وضحك لافرانس وقال :

«نحن في هامار الآن ، وها هي مارغريت ، زوجة فارتاين صانع الأحذية . عليك تحيتها على نحو جميل الآن ، فقد نمت حين وصلنا إلى هنا . والآن ستساعدك مارغريت في ارتداء ملابسك» .

سألت كريستين : «هل حلّ الصباح ؟ ظننت أنك قادم الآن إلى الفراش . أوه! هيا ساعدني» . ، هكذا توسلت ، ولكن لافرانس قال شيئاً صارماً بأن عليها أن تكون بالأحرى ممتنة لمارغريت اللطيفة لمساعدتها .

«و انظري ما الذي لديها لك كهدية!»

كان حذاء أحمر اللون له إبزيم حريري . ابتسمت المرأة لوجه كريستين السعيد وألبستها قميصاً تحتانياً وبنطالاً ضيقاً حتى لاتضطر إلى الدوس على الأرض الطينية حافية القدمين .

سألت كريستين : «ما الذي يصدر مثل هذه الضجة ، كأنه جرس كنيسة إلاّ أنها أجراس كثيرة ؟»

ضحكت مارغريت : «أجل ، تلك هي أجراسنا . ألم تسمعي أن رئيس الكهنة هنا في البلدة ؟ إلى هناك ستذهبين الآن . وها هو الجرس الكبير يدق! والآن هو يقرع في الدير وفي كنيسة الصليب المقدس أيضاً» .

وضعت مارغريت طبقة سميكة من الزبدة على خبز كريستين ووضعت العسل في حليبها ، حتى يكون ما تأكله كافياً إذ لم يكن لديها سوى وقت قليل للأكل .

في الخارج كان الظلام لا يزال مخيماً والطقس صقيعياً . كان الضباب بارداً لاذعاً . آثار أقدام الناس والماشية والجياد كانت قد تقسّت كأنها

صبت من حديد ، لذلك فإن حذاء كريستين الجديد الرقيق قد آلم قدميها ، وما أن داست على الجليد فوق القناة في وسط الطريق حتى أصبحت ساقاها مبللتين وباردتين . ثم حملها لافرانس على ظهره .

أجهدت عينيها في العتمة ، ولكن لم يكن هناك الكثير الذي تستطيع رؤيته من البلدة : لمحت جمالونات منازل وأشجاراً عبر الهواء الرمادي . ثم خرجوا إلى مرج صغير كان يلتمع بالجليد ، وفوق الجانب البعيد من المرج رأت على نحو غير واضح بناء رمادياً باهتاً ، كبيراً كجبل . كانت تنتصب من حوله أبنية حجرية كبيرة ، وفي نقط محددة كانت الأنوار تشع من ثقوب النوافذ في الجدران . الأجراس التي كانت صامتة منذ بعض الوقت ، عادت لترن مجدداً ، والآن كان صوتها قوياً جداً حتى أن قشعريرة باردة سرت في ظهرها .

كان ذلك أشبه بدخول منحدر جبلي ، كما ظنت كريستين ، وذلك حين صعدا إلى البهو الأمامي للكنيسة . كان الجو بارداً وقارساً في الداخل هناك . عبرا باباً واستقبلتهما الرائحة العتيقة الباردة للبخور والشموع . والآن كانت كريستين في مكان مظلم وسامق ذي اتساع . لم تستطع أن ترى نهاية له ، لا من فوق ولا في الجوانب ، عدا الأنوار التي راحت تشتعل فوق المذبح بعيداً إلى الأمام . هناك كان كاهن يقف وقد راح صدى صوته يتجول على نحو غريب في هذا المكان الواسع ، مثل تنفس وهمسات . رسم أبوها إشارة الصليب بالماء المقدس على نفسه وعلى الطفلة ، وهكذا تقدما . ورغم أن خطاه كانت حذرة ، إلاّ أن مهمازيه راحا يقعقعان عالياً على الأرض الحجرية . مرّا عبر أعمدة هائلة ، وبين الأعمدة كان الأمر أشبه بالنظر في ثقوب سوداء كالفحم . إلى الأمام ، قريباً من المذبح ، ركع الأب وركعت كريستين بالقرب منه . بدأت تتبين الأشياء في العتمة : كان الذهب والفضة

يلتمعان على المذابح بين الأعمدة ، ولكن كان على المذبح الذي أمامهما شموع نحيلة تلتمع وتحترق على شمعدانات مذهبة ، بينما راح النور يتراجع من الأوعية المقدسة والصورة الجميلة الكبيرة خلفه . جعل هذا كريستين تفكر مجدداً بقاعة سكان الجبل ـ حتى ولو حلمت بذلك فلا بد أنه رائع كهذا ، ولكن مع أنوار أكثر . وهنا رأت وجه الجنية ـ ولكنها رفعت عينيها فرأت على الجدار فوق المذبح المسيح نفسه ، عظيماً ومتجهماً فوق الصليب . حل الخوف بها . لم يكن [المسيح] يبدو رقيقاً وحزيناً كما في البيت في كنيستهم الصغيرة البنية المصنوعة من الخشب ، حيث كان معلقاً بثقل ، مثقوب القدمين واليدين وقد أحنى رأسه الذي تناثر عليه الدم تحت تاج الشوك . هنا كان واقفاً على مسند قدم بذراعين صلبتين ممدودتين ورأس مرفوع . التمع شعره المذهّب وكان تاجه من الذهب ، أما وجهه فكان مرفوعاً إلى فوق وقاسياً .

ثم حاولت أن تلاحق كلمات الكاهن وهو يقرأ أو يرتّل ولكن كلامه كان متسرعاً جداً وغير واضح . في البيت اعتادت أن تفهم كل كلمة ، حيث كان «سيرا آيريك» ذا نطق شديد الوضوح ، وقد علمها كيف تقال العبارات المقدسة بالنرويجية ، حتى تبقى أفكارها مع الرب وهي في الكنيسة .

و لكنها ما كانت قادرة على فعل ذلك هنا ، ففي كل لحظة كانت تدرك شيئاً ما جديداً في العتمة . كانت هناك نوافذ عالية جداً في الجدران ، وقد بدأت هذه تلتمع من نور النهار . وإلى القرب منهما حيث كانا يركعان كانت هناك سقالات رائعة من الخشب ، ولكن كان خلفها كتل من الأحجار الفاتحة اللون ، وكذلك أحواض الملاط وأدواته ، وسمعت أناساً يقتربون على رؤوس أصابعهم في المكان . ولكن عينيها سقطتا

مجدداً على المسيح المتجهم على الجدار ، وناضلت حتى تبقي أفكارها مثبتة على الصلاة . كان البرد الجليدي القادم من الأرض الحجرية يصلّب ساقيها حتى فخذيها ، وراحت ركبتاها تؤلمانها . وأخيراً بدأ كل شيء من حولها يتأرجح وشعرت بتعب شديد .

ثم نهض أبوها . كان القداس قد انتهى . تقدم الكاهن وحيّا أباها . وبينما راحا يتحادثان ، جلست كريستين على درجة ، فقد رأت صبي الكورس يفعل مثل ذلك . تثاءب ، وراحت هي تتثاءب أيضاً . وحين لاحظ أنها كانت تنظر إليه ، فقد نفخ وجنته بلسانه وحوّل عينيه باتجاهها . ثم أخرج كيساً من تحت ملابسه وأفرغ على الأحجار كل ما كان فيه : صنانير لصيد السمك وكتل من الرصاص وسيور جلدية وزوج من النرد ، وفي هذه الأثناء كلها كان يومئ بإشارات إليها . وتعجبت كريستين إلى حد كبير .

و لكن الكاهن وأباها نظرا إلى الطفلين . ضحك الكاهن ، وأمر الصبي بالعودة إلى المدرسة ، ولكن لافرانس عبس وأمسك بيد كريستين .

بدأ النور يزداد في الكنيسة الآن . التصقت كريستين وسنى بيد لافرانس ، بينما راح هو والكاهن يتمشيان تحت الأخشاب ويتحدثان عن أعمال البناء التي يقوم بها الأسقف إنغيالد .

تجولا في أنحاء الكنيسة ، وفي النهاية خرجا إلى البهو الأمامي . ومن هناك كان درج حجري يؤدي إلى البرج الغربي . صعدت كريستين الدرجات بصعوبة . فتح الكاهن باباً يؤدي إلى مصلّى جميل ، وقال أبوها إن كريستين يجب أن تجلس في الخارج على الدرج وتنتظر ريثما يذهب ليعترف ، ثم تستطيع هي القدوم لتقبل ضريح القديس توماس .

عند ذاك اقترب راهب عجوز في رداء بني رمادي من خارج المصلى . توقف للحظة ، ابتسم للطفلة ، وأخرج بعض الأكياس وملابس من النسيج

الصوفي الغليظ كانت محشورة في ثقب في الجدار . وقد نشر هذه على منبسط الدرج .

«اجلسي هنا ، ولن تشعري بالبرد » ، قال ثم هبط الدرج بقدميه الحافيتين .

كانت كريستين نائمة حين خرج « كانون مارتاين » ، كما كان يدعى الكاهن ، وأيقظها بلمسة . من أعلى الكنيسة كانت تأتي أعذب أغنية ، وفي المصلى كانت الشموع تحترق فوق المذبح . أشار الكاهن بأن عليها أن تركع إلى جانب أبيها ، ثم تناول مذخراً [وعاء تحفظ فيه الذخائر الدينية/ المترجم] ذهبياً كان موضوعاً فوق طاولة المناولة . همس لها بأنه كان جزءاً من الملابس الدامية للقديس توماس أوف كانتربري ، وأشار إلى تمثال القديس على المذخر حتى تضع كريستين شفتيها على قدميه .

كانت الألحان الجميلة لاتزال تأتي من الكنيسة وهي تهبط الدرج . قال كانون مارتاين : «عازف الأرغن يتدرب وصبيان المدرسة يغنون » ؛ ولكن لم يكن لديهما الوقت الكافي للبقاء والإصغاء ، إذ كان أبوها جائعاً ـ فقد جاء إلى هنا صائماً لأجل الإعتراف ـ وكانا سيذهبان الآن إلى غرفة الضيوف في حجرة الكاهن لتناول الطعام .

كان نور الشمس في الخارج ينزلق على الشواطئ المنحدرة على الجانب الآخر للبحيرة الكبرى ، وكل بساتين الأشجار المورقة الآخذة بالاصفرار تلتمع كالتبر بين غابات الصنوبر ذات اللون الأزرق الداكن . كانت البحيرة تجري في موجات ذات قبعات بيضاء صغيرة راقصة من الزبد تغطي رؤوسها . هبت الريح قارسة ومنعشة ، وراح الكثير من الأوراق متعددة الألوان ينجرف على منحدرات الجبال المكسوة بالصقيع .

تقدمت مجموعة من الفرسان بين قصر الأسقف ومنزل «اخوة الصليب

المقدس» . تحرك لافرانس جانباً وانحنى ويده على صدره ، وكاد يمسح الأرض المعشوشبة بقبعته ، لذلك استطاعت كريستين أن تخمن أن الرجل النبيل في معطف الفرو لا بد أن يكون الأسقف نفسه ، فانحنت حتى الأرض .

لجم الأسقف حصانه وردّ على التحية . أشار إلى لافرانس ليتقدم منه وكلمه برهة من الزمن . وخلال فترة قصيرة عاد لافرانس إلى الكاهن والطفلة وقال :

«أنا مدعو الآن للطعام في قصر الأسقف . أتظنّ يا كانون مارتاين أن أحد الخدم في الكنيسة يستطيع اصطحاب ابنتي الصغيرة إلى منزل فارتاين صانع الأحذية ؟ وأن يطلب من رجالي أن يرسلوا هالفدان ليقابلني هنا مع غولدسفاينن في ساعة العصر ؟ »

أجاب الكاهن أن ما يطلبه سينفذ دون شك . والآن اقترب الراهب الحافي القدمين الذي كلم كريستين عند درج البرج وحياهما :

«هناك رجل في مضافتنا هنا لديه مهمة تخصه عند صانع الأحذية . وهو يستطيع تنفيذ أمرك يا لافرانس بيورغولفسون ، وتستطيع ابنتك الذهاب معه أو تبقى في الدير معي حتى يحين موعد ذهابك . وسأضمن لها أن تتناول طعامها هناك» .

شكره لافرانس ولكنه قال : «من العار أن تزعج نفسك بالطفلة أيها الأخ إدفين...»

«الأخ إدفين يجذب إلى شخصه كل الأطفال الذين يستطيع الوصول إليهم» ، قال كانون مارتين وضحك . «على هذا النحو ينال من يستطيع أن يعظهم... »

«أجل ، أمامكم أيها السادة العلماء هنا في هامار لا أجرؤ على عرض مقالاتي» ، قال الراهب دون غضب ، وهو يبتسم . «كل ما أنا جدير به هو

أن أتحدث إلى الأطفال والفلاحين ، ولكن رغم ذلك فإنه ليس بالأمر الملائم ، كما نعرف أن نكمم الثور الذي يدرس القمح » .

رفعت كريستين بصرها إلى أبيها متضرعة . كانت تظن أنه لم يكن هناك شيء تحبه أكثر من الذهاب مع الأخ إدفين . لذلك شكره لافرانس مجدداً ، وبينما كان أبوها والكاهن يلحقان بموكب الأسقف ، فإن كريستين وضعت يدها في يد الراهب ، ونزلا نحو الدير ، وهو مجموعة من المنازل الخشبية وكنيسة حجرية ذات لون فاتح عند شاطئ البحيرة .

ضغط الأخ إدفين على يدها قليلاً ، وبينما راحا ينظران الواحد إلى الآخر ، ضحكا كلاهما . كان الراهب نحيلاً وطويلاً ، ولكن ظهره شديد الإنحناء . فكرت فيه الطفلة على أنه أشبه بكركي عجوز في الرأس ، فقد كان رأسه صغيراً مع قمة صلعاء صغيرة لامعة فوق إطار أبيض أشعث من الشعر ، موضوعاً فوق عنق نحيلة طويلة مجعدة . كان أنفه كبيراً أيضاً ومدبباً كمنقار . ولكن كان هناك شيء ما جعلها مرحة وسعيدة بمجرد نظرها إلى الوجه الطويل الضيق ذي الخطوط العميقة . كانت العينان العجوزان الزرقاوان بلون البحر محاطتين بإطار أحمر والجفون بنية ورقيقة كالقشارة . كانت آلاف التجاعيد تنتشر منطلقةً منهما ، أما الوجنتان الذابلتان اللتان رسمت عليهما شبكة حمراء من العروق فكانتا محزّزتين بتغضينات تجري نازلة إلى فمٍ رقيق الشفتين ، ولكن بدا الأمر وكأن الأخ إدفين قد أصبح مجعداً إلى هذا الحد لكثرة ابتسامه للبشرية . ظنت كريستين أنها لم يسبق لها أن رأت شخصاً شديد المرح واللطف إلى هذا الحد . بدا أنه يحمل سعادة لامعة وسرية في داخله وهي ستتعرف عليها حين يبدأ بالكلام .

تبعا حاجز بستان التفاح حيث كانت لاتزال معلقة على الأشجار بضع

ثمار حمراء وذهبية . كان أخوان واعظان في ردائين بالأسود والأبيض يقلّبان معاً نباتات فاصولياء ذاوية في الحديقة .

لم يكن الدير مختلفاً كثيراً عن أي مزرعة صغيرة ، وكانت المضافة حيث قاد الراهب كريستين أشبه بمنزل فلاحي فقير ، رغم وجود أسِرَّةٍ كثيرة فيه . في أحد الأسرة كان رجل عجوز يضطجع ، وعند الموقد جلست امرأة تلف طفلاً صغيراً ، بينما يقف إلى جانبها طفلان أكبر سناً ، صبي وفتاة .

همهما كلاهما ، الرجل والمرأة ، قائلين إنهما لم يحصلا على فطورهما بعد : «لا أحد سيزعج نفسه بحمل الطعام إلينا مرتين في اليوم ، لذا علينا أن نموت جوعاً بينما تتجول أنت في البلدة أيها الأخ إدفين! »

«هيا ، لا تكن كثير الشكوى يا ستاينولف» ، قال الراهب ، «اقترب وسلّم على كريستين .ألا ترى هذه الفتاة الجميلة العذبة التي ستبقى وتتناول الطعام معنا اليوم ؟ »

ثم حكى كيف أن ستاينولف قد مرض وهو عائد إلى بيته من أحد المعارض ، وقد أخذ إذناً بالبقاء في مضافة الدير ، فقد كانت لديه قريبة تسكن في المأوى وكانت لعينة إلى حد أنه لم يستطع تحمل البقاء معها .

«و لكني أرى جيداً أنهم سيملّون من وجودي هنا» ، قال الفلاح . «حين تنطلق مجدداً ، أيها الأخ إدفين ، فلن يكون هناك شخص لديه الوقت ليعتني بي ، وسوف يأخذونني إلى المأوى مجدداً» .

«أوه ، ستكون في صحة جيدة وقوياً قبل أن أنهي عملي في الكنيسة بوقت طويل» ، قال الأخ إدفين . «عندها سيأتي ابنك لاصطحابك...» تناول إبريقا من الماء الساخن من الموقد وترك كريستين تحمله بينما قام هو بالعناية بستاينولف . بعد ذلك أضحى الرجل العجوز في حال أفضل ، وسرعان ما وصل راهب مع الطعام والشراب لأجلهم .

قرأ الأخ إدفين صلاة على اللحم ، وجلس على حافة السرير قرب ستاينولف حتى يساعده على تناول طعامه . مضت كريستين وجلست قرب المرأة وأعطت الصبي طعاماً ، فقد كان صغيراً جداً لا يستطيع الوصول إلى طبق العصيدة ، وقد أراق الجعة على نفسه حين حاول أن يغرف من وعاء الجعة . كانت المرأة من هادلاند ، وقد وصلت إلى هنا مع زوجها وأطفالها لرؤية أخيها الذي كان راهباً هنا في الدير . ولكنه كان بعيداً يجول على أبرشيات البلد ، وكانت تتذمر كثيراً لاضطرارها للبقاء هنا وإضاعة الوقت .

تكلم الأخ إدفين كلاماً لطيفاً مع المرأة ، وقال إنه ليس عليها أن تقول إنها تضيع وقتها وهي موجودة في الأسقفية . فقد كان هنا كل أعضاء الكنيسة الورعين والرهبان والقساوسة الذين يقيمون القداسات وينشدون طوال النهار والليل ... وكانت البلدة جميلة ، أجمل من أوسلو حتى ، رغم أنها كانت أصغر نوعاً ما . ولكن توجد فيها حدائق لكل حي سكني : «عليك أن تريها كما رأيتها في الربيع ، كانت بيضاء والزهر يغطي البرج كله . وبعد ذلك حين يتفتح نسرين الكلاب...»

«أجل ، وهذا جيد بالنسبة لي الآن» ، قالت المرأة بتجهم . وهنا الكثير من الأماكن المقدسة أكثر من القداسة كما أعتقد...

ضحك الراهب قليلاً وهزّ رأسه ثم بحث في قش سريره وأخرج حفنة كبيرة من التفاح والإجاص التي وزعها على الأطفال . لم يسبق لكريستين أن تذوقت مثل هذه الفاكهة الطيبة . كانت العصارة تجري من زوايا فمها مع كل قضمة .

و لكن كان على الأخ إدفين الآن أن يذهب إلى الكنيسة ، كما قال ، وعلى كريستين الذهاب معه . كان طريقهما منحرفاً عبر الفناء ، ثم عبرا خلال بويب جانبي صغير إلى الجزء من الكنيسة المخصص للمرتلين .

كان العمل لا يزال جارياً في هذه الكنيسة أيضاً ، لذلك كانت هنا أيضاً سقالة عالية في التقاطع الذي يلتقي فيه صحن الكنيسة مع جناح الكنيسة . كان الأسقف انغيالد يحسّن ويزيّن المكان المخصص للمرتلين ، كما قال الأخ إدفين . كان الأسقف صاحب ثروة عظيمة ، وكان يستخدم كل ما لديه من أموال لتزيين الكنائس هنا في البلدة . كان أسقفاً نبيلاً ورجلاً طيباً . كان «الرهبان الواعظون» في «دير القديس أولاف» رجالاً طيبين أيضاً ، يعيشون عيشة نظيفة ، أصحاب علم وتواضع . كان الدير فقيراً . ولكنهم رحبوا به أشد الترحيب : كان الأخ إدفين قد اتخذ له سكناً في «دير المينوريت» في أوسلو ، ولكن نال الأذن لإنفاق فصل هنا في أبرشية هامار .

قال : «هيا تعالي من هنا» ، وقاد كريستين عبر أسفل السقالة . أولاً صعد سلماً ووضع بعض الألواح باستقامة هناك ، ثم نزل ثانية وساعد الطفلة على الصعود معه .

على جدار الحجر الرملي فوقها رأت كريستين نقطاً خفاقة رائعة من النور : حمراء كالدم وصفراء كالجعة ، وزرقاء وبنية وخضراء . كانت ستلتفت لتنظر خلفها ، ولكن الراهب همس : «لا تلتفتي» . ولكن حين وقفا معاً عالياً فوق الألواح ، جعلها تلتفت بلطف ، ورأت كريستين مشهداً جميلاً جداً حتى انبهرت أنفاسها .

فوقها مباشرة على جدار صحن الكنيسة كانت صورة تلمع كأنها مصنوعة من أحجار كريمة لامعة لا غير . كانت النقاط متعددة الألوان من النور فوق الجدار تأتي من أشعة بعيدة عن تلك الصورة . كانت تقف هي والراهب في وسط هذه الروعة . يداها كانتا حمراوين كأنما غمستا في النبيذ . بدا وجه الراهب ذهبياً كله ، أما رداؤه الداكن اللون فكان يعكس ألوان اللوحة . تطلعت إليه مستفسرة ، ولكنه أومأ وابتسم فحسب .

كان الأمر أشبه بالوقوف بعيداً والنظر إلى المملكة السماوية . وخلف شبكة من الخطوط السوداء ، ميّزت تدريجياً المسيح نفسه في أنفس الأردية الحمراء ومريم العذراء في ثياب زرقاء كالسماء ، ورجالاً مقدسين وعذارى مقدسات في ملابس صفراء وخضراء وبنفسجية . وقفوا تحت أقواس وأعمدة لمنازل مومضة ، التفت عليها الأغصان والفروع ذات الأوراق اللامعة الغريبة .

سحبها الراهب مسافة أبعد قليلاً فوق المصطبة .

همس : «توقفي هنا وسوف ينزل عليك النور مباشرة من رداء المسيح» .

من الكنيسة تحتهما كانت تصعد تجاههما رائحة واهنة من البخور والحجر البارد : كان الجو معتماً في الأسفل ، ولكن أشعة الشمس دخلت منحرفة عبر صف من النوافذ الناتئة في الجدار الجنوبي لصحن الكنيسة . بدأت كريستين تفهم أن الصورة السماوية هي زجاج نافذة ، فقد كانت تملأ مثل هذه الفتحة . كانت الأخرى فارغة أو مغطاة بألواح من مادة قرنية في إطارات خشبية . جاء طائر وحط على حافة النافذة ، غرّد قليلاً ثم طار بعيداً ، وخارج جدار المكان المخصص للمرتلين سمعوا رنين المعدن على الحجر . ما عدا ذلك كان كل شيء ساكناً . كانت الريح تأتي في نفحات صغيرة وتتنهد قليلاً حول جدران الكنيسة ثم تتلاشى .

قال الأخ إدفين : «أجل ، أجل» ، ثم تنهد . «لا أحد في هذه البلاد يستطيع صنع مثيل له : إنهم يطلون الزجاج ، هذا صحيح ، في نيداروس ، ولكن ليس هكذا . ولكن بعيداً في بلاد الجنوب ، يا كريستين ، في الكاتدرائيات الكبيرة ، لديهم هناك مثل هذه الألواح الزجاجية على النوافذ ولكنها كبيرة مثل أبواب الكنيسة هنا...»

فكرت كريستين بالصور في الكنيسة في البيت . كان هناك مذبح

القديس أولاف ومذبح القديس توماس أوف كانتربري ، مع صور على نوافذهما الأمامية وعلى الهياكل خلفهما ، ولكن تلك الصور بدت لها كئيبة وخامدة بينما راحت تفكر بها الآن .

هبطا السلم ودخلا مكان المرتلين . هناك كانت منضدة المذبح فارغة وخالية ، وعلى اللوح الحجري كان الكثير من العلب الصغيرة وفناجين معدنية وخشبية وفخارية ، وسكاكين صغيرة غريبة ، وأدوات حديد وأقلام وفراش . قال الأخ إدفين إن هذه كانت عدته . كان يمارس مهنة رسم الصور ونحت أوعية المذبح واللوحات الزجاجية التي كانت منتصبة هناك عند مقاعد المذبح ، وهنا في كنيسة «الرهبان الواعظين» .

راقبته كريستين وهو يمزج المساحيق الملونة ويحركها في فناجين صغيرة من الفخار ، وتركها تساعده في حمل الأشياء إلى مقعد عند الجدار . وبينما راح الراهب ينتقل من لوح إلى آخر ويرسم خطوطاً حمراء دقيقة في الشعور اللامعة للرجال والنساء المقدسين حتى ليستطيع المرء أن يراها وهي تتجعد وتتموج ، وبقيت كريستين إلى القرب من كاحليه وراحت تحدق وتستفسر وراح هو يشرح لها ما كان يرسمه .

على أحد الألواح جلس المسيح في كرسي من ذهب ، بينما جلس القديس نيكولاس والقديس كليمنت تحت سقف إلى جانبه . وعلى الجوانب رسمت حياة القديس نيكولاس وأعماله . في أحد الأمكنة كان يجلس كطفل رضيع على ركبة أمه . كان يلتفت عن الثدي الذي مدته إليه ، فقد كان مقدساً جداً إلى حد أنه منذ المهد لا يرضع أكثر من مرة واحدة أيام الجمع . وإلى جانب هذه كانت صورة له وهو يضع أكياس النقود أمام باب المنزل الذي تقطن فيه الفتيات الثلاث اللواتي كن فقيرات إلى حد لم يستطعن معه إيجاد أزواج لهن . رأت كيف شفى طفل الفارس الروماني ، ورأت الفارس

يبحر في زورق وفي يده الكأس غير الصحيحة . كان قد وعد أسقفاً مقدساً بكأس ذهبية كانت في منزله منذ ألف عام ، وذلك كمكآفأة لقاء شفاء ابنه . ولكنه كان عازماً على التحايل على القديس نيكولاس ، وإعطائه كأساً مزيفاً بدلاً عنه . لذلك سقط الصبي في البحر والكأس الأصلية بين يديه . ولكن القديس نيكولاس قاد الصبي دون أن يصاب بأذى تحت الماء وحتى الشاطئ ، في الوقت نفسه الذي كان فيه أبوه يقف في كنيسة القديس نيكولاس ليقدم الكأس المزيفة . وكان هذا كله مرسوماً على الألواح بالذهب وأجمل الألوان .

على لوح آخر جلست مريم العذراء والمسيح الطفل على ركبتها . كان يضغط على ذقن أمه بيد ويمسك تفاحةً بالأخرى . إلى القرب منهما وقفت القديسة سونيفا[٨] والقديسة كريستينا . كانتا تنحنيان بأسلوب جميل من خصريهما ، ووجهاهما كانا باللونين الأحمر والأبيض النقيين ، وكان لهما شعر ذهبي وتاجان ذهبيان .

ثبت الأخ إدفين نفسه باليد اليسرى على الرسغ الأيمن ورسم أوراق شجر وأزهاراً على التيجان .

قالت كريستين وهي تنظر إلى صورة القديسة التي سميت هي باسمها : «التنين صغير جداً كما أرى ، لا يبدو وكأنه يستطيع ابتلاع الفتاة» .

قال الأخ إدفين : «و هو لا يستطيع ذلك فعلاً . لم يكن حجمه أكبر من ذلك . تبدو التنانين وكل ما شابهها ممن يخدم الشيطان ، تبدو ضخمة طالما كان الخوف في أنفسنا . ولكن لو قصد انسان الرب بحماسة وتوقد وبكل روحه ، بحيث يتحول توقه إلى قوة ، عندها فإن قوة الشيطان ستعاني سقوطاً هائلاً بحيث تصبح أدواته صغيرة وعاجزة : تنكمش التنانين والأرواح

الشريرة وتصبح في حجم الجنيات الصغيرات والقطط والغربان . ترين أن كل الجبل الذي كانت فيه القديسة سونيفا لا يتعدى حجمه ما تستطيع هي لفّه في تنورة ثوبها » .

سألت كريستين : «و لكن ألم يكونوا في الكهوف ، أعني القديسة سونيفا ورجال سيليي ؟ أليس هذا صحيحاً ؟ »

لمعت عينا الراهب نحوها وابتسم مجدداً :

«صحيح وغير صحيح معاً . بدا الأمر كذلك للناس الذين وجدوا الجثمانات المقدسة . صحيح أيضاً أن الأمر بدا كذلك لسونيفا ورجال سيليي ، فقد كانوا متواضعين وظنوا العالم أقوى من كل البشرية الآثمة ، وظنوا أنهم أنفسهم أقوى من العالم لأنهم لم يحبوه . ولكن لو أنهم عرفوه فحسب ، لاستطاعوا أخذ كل الجبال ورميها في البحر كالحصى . لا يمكن لأي شخص أو شيء أن يؤذينا ياطفلتي إلاّ ما نخشاه أو نحبه» .

سألت كريستين خائفة : «و لكن ماذا لو أن شخصاً لا يخشى الرب ولا يحبه ؟» .

أخذ الراهب شعر كريستين الأصفر بيده ، وأحنى رأسها إلى الخلف بلطف ، ونظر إلى وجهها وعيناه مفتوحتان على وسعهما وزرقاوان .

«لا يوجد رجل ولا امرأة يا كريستين لا يحب الرب ويخشاه ، ولكن لأن قلوبنا مجزّأة بين حب الرب والخشية من الشيطان والولع بالعالم والشهوات ، لذلك فإننا غير سعداء في الحياة والموت . لأنه إن لم يكن لانسان أي توق للرب وكينونة الرب ، عندها سيكون عليه أن يحشر في جهنم ، وسنكون وحدنا من لا يفهم أنه وصل إلى هناك حسب رغبة قلبه . فهناك لن تحرقه النار إن لم يكن لديه توق للبرودة ، ولن يشعر بعذاب لدغة الحيات ، إن لم يكن يعرف التوق نحو السلام» .

نظرت كريستين إلى وجهه . لم تفهم شيئاً ممّا قاله . وتابع الأخ إدفين :

«لقد كان الرب رحيماً بنا حين رأى كيف أن قلوبنا ممزقة ، فهبط وسكن بيننا ، حتى يتذوق في اللحم إغواءات الشيطان وذلك حين يوقعنا الرب في شرك السلطة والأبهة ، وكذلك وعيد الدنيا حين تصب علينا ضرباتها واحتقارها ومساميرها الحادة في اليدين والقدمين . على هذا النحو يبين لنا الرب السبيل ويعبّر عن حبه...»

نظر إلى وجه الطفلة الجدي الساكن ، ثم ضحك قليلاً وقال بصوت آخر تماماً :

«هل تعرفين من كان أول من عرف أن الرب قد جعل نفسه يولد ؟ كان ذلك هو الديك ، فقد رأى النجم فقال ـ كانت كل الحيوانات قادرة على النطق باللاتينية في تلك الأيام ـ فصاح : «كريستوس ناتوس إيست» [المسيح قد ولد] » .

و قد صاح بهذه الكلمات الأخيرة كما يصيح الديك حتى أن كريستين ضحكت من كل قلبها . وقد نفعها الضحك ، فقد كانت كل الأشياء الغريبة التي قالها الأخ إدفين قد أثقلت على قلبها .

ضحك الراهب أيضاً .

«أجل ، وحين سمع الثور ذلك ، بدأ يخور : يوبي ، يوبي ، يوبي .

«و لكن العنزة ثغت وقالت : بيت لحم ، بيت لحم ، بيت لحم!

«و تاقت النعجة لرؤية سيدتنا وابنها فثغت فوراً : إيامِوس ، إياموس! [أنا أكون] .

«و العجل حديث الولادة الذي كان قابعاً في القش رفع نفسه ووقف على أطرافه وقال : فولو ، فولو ، فولو! [أطير] » .

«ألم تسمعي هذا من قبل ؟ كلا ، أستطيع تصديق ذلك . أعرف أنه كاهن كفء «سيرا آيريك» ذاك الذي عندكم ، وهو عالم ؛ ولكنه لا يعرف هذا ، وأنا واثق من ذلك ، فالمرء لا يعرفه إلاّ إذا سافر إلى باريس...»

«هل كنت في باريس إذاً ؟» سألت الطفلة .

«ليباركك الله يا كريستين ، فقد كنت في باريس وسافرت في أماكن كثيرة أخرى من العالم أيضاً ، وليس عليك أن تصدقي أي شيء آخر عدا أني أخاف الشيطان وأحب وأشتهي كأي أحمق آخر . ولكني أتمسك بالصليب بكل قوتي... على المرء أن يتشبث به كما تتمسك القطيطة بلوح خشبي حين تقع في البحر .

«و أنت يا كريستين... ما رأيك أن تتبرعي بشعرك الجميل هذا وتخدمي «سيدتنا» شأن هؤلاء العروسات اللواتي رسمتهن هنا ؟»

«ليس لديهم في البيت من طفلة عداي» ، أجابت كريستين ، «لذلك لابدّ لي من أن أتزوج . وأعتقد أن أمي لديها خزائن وأدراج وفيها جهاز عرسي مهيأ منذ الآن» .

قال الأخ إدفين «أجل ، أجل» ، ثم حك جبهته . «هكذا يتعامل الناس مع أطفالهم الآن . يعطون للرب بناتهم العرجاوات أو المصابات بالعمى الجزئي أو القبيحات ، أو المشوهات ، أو يدعون الرب يسترجع الأطفال حين يعتبرون أن الرب قد منحهم أكثر من حاجتهم . ثم يتعجبون من أن كل من يقطن في الأديرة ليسوا رجالاً مقدسين وعذراوات مقدسات...»

ثم اصطحبها الأخ إدفين إلى الموهف وأراها كتب الدير التي كانت موضوعة هناك في خزانة كتب . كان فيها أجمل الصور . ولكن حين دخل أحد الرهبان تظاهر الأخ إدفين وكأنه يبحث عن رأس حمار لينسخه . فيما بعد هزّ رأسه مومئاً لنفسه وقال :

«أجل ، ها أنت ترين ما يفعله الخوف يا كريستين... ولكنهم يخشون كثيراً على كتبهم في المنزل هنا . لو كنت صاحب إيمان وحب صادقين ، ما كنت لأقف هنا كما أفعل ، وأكذب على الأخ أسولف... ولكن حينها كنت أستطيع أن آخذ قفازات الفرو هذه وأعلقها تحت شعاع الشمس هناك... »

تناولت طعام الغداء مع الراهب في بيت الضيوف ، ولكنها بقيت في الكنيسة طوال اليوم وهي تراقبه في عمله وتثرثر معه . ولم يتذكرا ـ إلاّ حين جاء لافرانس ليصطحبها ـ الرسالة التي كان يتوجب إيصالها إلى صانع الأحذية .

●

تذكرت كريستين لاحقاً تلك الأيام في «هامار» أكثر من كل ما حدث لها في تلك الرحلة . كانت أوسلو بالفعل مدينة أعظم من هامار ، ولكن الآن بعد أن رأت بلدة السوق ، فلم تبدُ لها شديدة الأهمية . كما أنها لم تعتبر سكوغ جميلة شأن يوروندغارد ، رغم أن المنازل كانت أفخم... ولكنها كانت سعيدة بأنها لم تكن تقطن هناك . كانت الضيعة فوق منحدر جبلي ، وإلى الأسفل كان نهر «بوتنفيورد» الرمادي والحزين مع حرج داكن . وعلى الشاطئ الآخر البعيد وخلف المنازل وقفت الغابة والسماء فوق أعالي الأشجار مباشرة . لم تكن هناك تلال عالية منحدرة كما في موطنها ، لترفع السماء عالياً فوق المرء لإبقاء النظر محمياً ومتاحاً حتى لا يبدو العالم كبيراً جداً ولا صغيراً جداً .

كانت رحلة العودة إلى البيت باردة وكان شهر عيد الميلاد قد اقترب ، ولكن حين وصلوا إلى «ديل» ، كان الثلج قد تساقط ، لذلك استعاروا مزلجة وساروا بها معظم الطريق .

أما فيما يخص مسألة العقارات فقد تنازل لافرانس عن سكوغ لأخيه آسموند ، مبقياً حق الاسترداد لنفسه ولورثته .

٣

في الربيع الذي تلا رحلة كريستين الطويلة ، ولدت راغنفريد لزوجها ابنة أخرى . كان الأب والأم كلاهما يتمنى بالفعل أن يكون ابناً ، ولكن سرعان ما أحسا بالراحة ، وقد امتلأ قلباهما بأرقّ حب نحو « أولفهيلد » الصغيرة . كانت طفلة جميلة جداً ، صحيحة البدن ، طيبة ، سعيدة ، هادئة . شغفت راغنفريد إلى حد كبير بالطفلة الجديدة حتى أنها بقيت ترضعها خلال السنة الثانية من حياتها ، لذلك ، وبناء على وصية سيرا آيريك ، فقد تخلّت نوعاً ما عن صيامها الصارم وممارساتها الدينية خلال إرضاعها لطفلتها .إذن ، بسبب فرحتها بأولفهيلد ، عاد شبابها إليها ، وفكر لافرانس في أنه لم يسبق له أن رأى زوجته سعيدة إلى هذا الحد أو جميلة أو لطيفة إلى هذا الحد خلال سنوات زواجهما كلها .

شعرت كريستين أيضاً بكل تلك السعادة التي وصلت إليهم مع هذه الأخت الصغيرة اللطيفة . لم تكن قد فكرت في أن مزاج أمها الكئيب قد جعل جو البيت راكداً . كانت تظن أنه كما يجب أن يكون ، وأن أمها يجب أن تكون على حق وأن توبخها ، بينما كان أبوها يلاعبها ويمزح معها . ولكن راغنفريد أصبحت ألطف بكثير معها الآن وراحت تعطيها

المزيد من الحرية . أصبحت تربت عليها أكثر أيضاً . لذلك لم تنتبه كريستين إلاّ قليلاً إلى أن أمها أصبح لديها وقت أقل تكرسه لها . لقد أحبت أولفهيلد بقدر الآخرين ، وكانت تفرح حين يسمحون لها بحمل أختها أو هزّها ، ومع مرور الوقت أصبحت تمارس المزيد من اللعب مع الطفلة الصغيرة حين بدأت هذه تحبو وتمشي وتتكلم وأصبحت كريستين قادرة على اللعب معها .

و هكذا مرت ثلاث سنوات طيبة على سكان يوروندغارد . كان الحظ معهم بطرق كثيرة ، وبنى لافرانس في الضيعة وحسّن فيها ، فقد كانت الأبنية وحظائر الماشية قديمة وصغيرة حين وصل إلى هنا : إذ كان آل غييسلينغ قد أجّروا المكان لفترات تزيد على فترة حياة واحدة .

والآن حدث في أسبوع العنصرة في السنة الثالثة أن أتى «تروند إيفارسون» من سوندبو ، مع زوجته «غودريد» وأبناؤهما الثلاثة الصغار إلى يوروندغارد لزيارتهم . في صباح أحد الأيام كان الأفراد الكبار من العائلة يجلسون ويتحدثون في شرفة العلّية ، بينما راح الأطفال يلعبون في الباحة في الأسفل . كان لافرانس قد بدأ ببناء مسكن جديد في الباحة ، وكان الأطفال يتسلقون ويزحفون فوق ألواح الخشب التي جلبت للبناء . كان أحد أولاد غييسلينغ قد ضرب أولفهيلد وجعلها تبكي . وعند ذلك نزل تروند وضرب ابنه ، ثم رفع أولفهيلد بذراعيه . كانت أجمل وأعذب طفلة رأتها العيون ، وكان عمها يحبها كثيراً ، رغم أنه ما كان يحب الأطفال كثيراً . عند ذاك وصل رجل عبر الباحة من مرعى الأبقار ، وهو يجر ثوراً أسود كبيراً ، ولكن الثور كان متوحشاً وغير سهل القياد وقد أفلت من الرجل . قفز تروند من على كومة الأخشاب وقاد الأطفال الأكبر أمامه ، ولكن كانت أولفهيلد في ذراعيه وابنه الأصغر يمسك بيده . ثم انزلق جذع خشبي تحت قدميه

وانـزلقت أولفهيلد من قبضته وسقطت على الأرض . وانـزلـق الجذع خلفها وتدحرج فوق الطفلة واستقر فوق ظهرها .

كان لافرانس قد هبط من الشرفة في اللحظة نفسها . ركض وكان سيرفع الجذع حين اندفع الثور باتجاهه . حاول أن يمسكه من قرنيه ، ولكنه رُمي أرضاً ونُطح . إلاّ أنه استطاع إمساكه من منخريه فرفع نفسه نصف رفعة عن الأرض واستطاع أن يثبت الحيوان حتى عاد تروند إلى رشده بعد اضطرابه وهرع خدم المزرعة من المنازل ورموا السيور من حول الثور حتى أوثقوه .

كانت راغنفريد على ركبتيها تحاول رفع الجذع . والآن كان لافرانس قادراً على رفعه قليلاً حتى تستطيع سحب الطفلة من تحته إلى حضنها . كانت الصغيرة تبكي على نحو مثير للشفقة حين يلمسونها ، ولكن أمها بكت بصوت مرتفع : «إنها حية ، حمداً لله ، إنها حية!»

وكان أمراً عجباً ألاّ تكون الطفلة قد انسحقت تماماً ، ولكن الجذع سقط بحيث كان عند أحد طرفيه فوق حجر في العشب . وحين نهض لافرانس مجدداً كان الدم يسيل من زاويتي فمه ، وكانت ملابسه كلها ممزقة عند الصدر بسبب قرني الثور .

أتت توردیس تعدو بغطاء جلدي . ونقلت هي وراغنفريد الطفلة إلى الغطاء ، ولكن بدا وكأنها كانت تعاني ألماً لا يحتمل عند أقل لمسة . حملتها أمها وتورديس إلى غرفة الشتاء .

وقفت كريستين فوق كومة الأخشاب ، شاحبة وساكنة ، بينما التصق الصبيان الصغار بها باكين . كان كل أهل البيت والمزرعة محتشدين الآن في الباحة ، النساء يبكين ويعولن ، أمرهم لافرانس بإسراج غولدسفاينن وحصاناً آخر أيضاً . وحين وصل آرن بالحصانين ، سقط لافرانس على الأرض حين

حاول أن يصعد إلى السرج . لذلك أمر آرن بالذهاب لاستدعاء الكاهن ، بينما مضى هالفدان جنوباً لجلب «الحكيمة» التي كانت تقطن عند التقاء النهرين .

رأت كريستين وجه أبيها شاحباً بلون الرماد ، وأنه كان قد نزف حتى أصبحت ملابسه ذات اللون الأزرق الفاتح مغطاة كلها ببقع حمراء بنية . وعلى الفور وقف منتصباً ، وتناول فأساً من أحد الرجال ، وذهب إلى حيث كان بعض الناس يقفون وقد أمسكوا بالثور . ضرب الحيوان بين قرنيه بمؤخرة الفأس ، فسقط أرضاً على ركبه . ولكن لافرانس لم يتوقف عن الضرب حتى كان دمه ودماغه قد تناثرا في كل أنحاء المكان . ثم أصابته نوبة سعال فسقط على الأرض على ظهره . اقترب منه تروند ورجل آخر وحملاه إلى داخل المنزل .

عند ذاك ظنت كريستين أن أباها قد مات بالتأكيد . صرخت بصوت عال وعدت خلفه وهي تناديه وكأن قلبها كان ينسحق .

في غرفة الشتاء كانت أولفهيلد قد وضعت على السرير الكبير : رميت كل الوسائد على الأرض ، حتى تضطجع الطفلة باستواء . لكأنه قد سبق لها ومُدّدت على قش الموتى . ولكنها كانت تبكي بصوت مرتفع دون توقف ، وكانت أمها منحنية فوقها ، تخفف عن الطفلة وتربت عليها .

تمدد لافرانس على السرير الآخر . نهض وترنح عبر الغرفة حتى يواسي زوجته . عندما رأت ذلك أجفلت وصرخت :

«لا تلمسني ، لا تلمسني! يا يسوع ، يا يسوع ، ظننت أنك ستضربني الضربة القاضية... لن ينتهي أبداً سوء الطالع الذي أجلبه لك...»

«أنت يا زوجتي العزيزة ، لم يكن أنت من سبب هذا لنا» .

قال تروند إيفارسون بخشونة : «لا شك أنها تعني أن ذلك كان من فعلي» . نظرت أخته إليه والحقد في عينيها وأجابت :

«تروند يعرف ما أعنيه» .

عدت كريستين نحو أبويها ، ولكنهما كلاهما دفعاها بعيداً عنهما . ثم أمسكتها توردِيس التي كانت تحضر إبريقاً من الماء الساخن من كتفها وقالت : «اذهبي ، اذهبي إلى منزلنا ، يا كريستين ، أنت واقفة في طريقنا هنا» .

كانت توردِيس ماضية إلى لافرانس لتعتني بجراحه ـ وكان قد أجلس نفسه على الدرجة أمام السرير ـ ولكنه قال إنه على ما يرام لولا القليل من الانزعاج :

«و لكن أليس هناك شيء تستطيعين فعله للتخفيف من آلام أولفهيلد... ليساعدنا الرب! إن بكاءها ليحرك الحجر في منحدر الجبل!»

«لا ، لا نستطيع لمسها قبل أن يصل الكاهن أو انغجييرد الحكيمة ،» قالت توردِيس .

عندها وصل آرن قائلاً إن سيرا آيريك لم يكن في منزله . وقفت راغنفريد بعض الوقت تعصر يديها . ثم قالت :

«أرسلوا وراء الليدي آشيلد أوف هوغن! لا شيء يهم الآن لو نستطيع فقط إنقاذها...»

لم يأبه أحد بكريستين . زحفت إلى المقعد خلف رأس السرير ، جثمت ووضعت رأسها على ركبتيها .

بدا لها وكأن أيدياً حجرية كانت تضغط على قلبها . كان لا بد من إحضار الليدي آشيلد! لم تقبل أمها أن يرسلوا في طلب الليدي آشيلد حتى حين كانت هي نفسها قريبة من بوابة الموت عند مولد أولفهيلد ، ولم تقبل كذلك حين اعترت كريستين ذات مرة حمى شديدة . كانت الليدي آشيلد ساحرة كما يقول الناس ـ كان أسقف أوسلو وجماعة الرهبان قد حاكموها ،

ولا بد أنها كانت ستُعدم أو تُحرق حتماً ، لولا أنها كانت من أسرة رفيعة المقام وكانت أشبه بالأخت للملكة انغبيورغ ـ ولكن الناس تقول إنها سمّمت زوجها الأول ، وإنها فتنت الثاني ، الذي هو معها الآن ، بالسحر ؛ فقد كان في عمر ابنها . كان لها أولاد ، ولكنهم لا يزورون أمهم أبداً ، وهذان الزوجان رفيعا المقام ، بيورن وآشيلد ، يقيمان في مزرعة صغيرة في دوفر ، وقد فقدا كل ثروتهما . ما كان أحد من النبلاء في «ديل» يتعاطى معهما ، ولكن كان الناس يستشيرونها سراً ، بينما كان الفقراء يذهبون علناً إليها بمشكلاتهم وأمراضهم ، ويقولون إنها كانت لطيفة إلاّ أنهم يخشونها كثيراً .

ظنت كريستين أن على أمها ، التي كان من عادتها الصلاة باستمرار ، أن تتضرع إلى الرب والعذراء بالأحرى . حاولت هي نفسها أن تصلي : إلى القديس أولاف خصيصاً ، فقد كانت تعرف أنه طيب جداً ويساعد الكثيرين ممن عانوا المرض أو الجراح أو العظام المكسورة . ولكنها لم تستطع أن تلملم أفكارها .

كان أبوها وأمها وحدهما في الغرفة الآن ، كان لافرانس قد تمدد في سريره مجدداً ، وجلست راغنفريد منحنية فوق طفلتها المصابة ، وهي تمرر بين الحين والآخر خرقة مبللة فوق جبينها ويديها ، وتبلل لها شفتيها بالنبيذ .

مضى وقت طويل . كانت توردیس تطلّ بين الحين والآخر ، وكان من شأنها أن تقدم يد المساعدة بكل سرور ، ولكن راغنفريد كانت تبعدها في كل مرة . بكت كريستين بصمت وصلت في قلبها ، ولكنها راحت تفكر طوال الوقت في الساحرة وتنتظر قدومها بتوق .

و فجأة سألت راغنفريد في الصمت :

«هل أنت نائم يا لافرانس ؟»

أجاب زوجها : «لا . أنا أصغي إلى أولفهيلد . لا شك أن الرب سيساعد حمله البريء يا زوجتي... لا يمكننا الشك في ذلك . ولكن من المنهك الجلوس هنا والانتظار...»

قالت راغنفريد بيأس : «الرب يكرهني لأجل خطاياي . ماجرى لأبنائي قد جرى وهم حيث هم ، لا أشك في ذلك ، ولكن يبدو الآن أن ساعة أولفهيلد قد أزفت أيضاً... ولكنه يكرهني لأن قلبي عش لمصاصة دماء ، مليء بالخطايا والحزن...»

ثم رفع شخص ما المزلاج : دخل سيرا آيريك ونصب هيكله الضخم حيث كان واقفاً وقال بصوته الواضح العميق : «فليساعدنا الرب جميعاً في هذا المنزل!»

وضع الكاهن علبة أدويته على الدرجة التي أمام السرير ومضى إلى الموقد المفتوح وصب ماء دافئاً على يديه . ثم أخرج صليباً من صدره وضرب به الزوايا الأربع للغرفة وهمهم بشيء ما باللاتينية . ثم فتح فتحة التهوية حتى يدخل النور إلى الغرفة ، ومضى ليرى أولفهيلد .

خشيت كريستين أن يراها فيخرجها من الغرفة ، فلم تكن عينا سيرا آيريك تتركان شيئاً يفوتهما في الأغلب . ولكن الكاهن لم يتطلع فيما حوله . أخرج قارورة من العلبة ، وصب منها شيئاً على لبادة من الصوف الممشط بدقة ووضعها على فم وأنف أولفهيلد .

قال الكاهن : «الآن سيخف ألمها» . مضى إلى لافرانس وعاين جروحه ، بينما راحا يقصان عليه كيف جرى الحادث المشؤوم . كان ضلعان من أضلاع لافرانس قد كُسرا ويوجد جرح في رئته ، ولكن الكاهن رأى أن وضعه ليس بالخطير جداً .

سأل الأب خائفاً : « و أولفهيلد ؟ »

أجاب الكاهن : « سأقول لك حين أكون قد عاينتها على نحو أفضل ، ولكن عليك أن تمكث في العلية ، حتى يكون الجو أهدأ هنا على أولئك الذين عليهم العناية بها » . وضع ذراع لافرانس حول كتفه ، أمسكه بشدة وحمله خارجاً . كان من شأن كريستين أن تخرج مع أبيها بكل سرور الآن لولا أنها لم تتجرأ على إظهار نفسها .

حين عاد سيرا آيريك لم يخاطب راغنفريد بل قام أولاً بقص ملابس أولفهيلد التي راحت تئن أقلّ الآن وتبدو نصف نائمة . ثم راح يتحسس بعناية جسم الطفلة وأطرافها .

« هل طفلتِي في حالة سيئة جداً يا آيريك حتى أنك لا تعرف كيف تنقذها ، بما أنك لا تقول شيئاً ؟ » سألت راغنفريد وهي تتنفس بصعوبة .

أجاب الكاهن بصوت خفيف .

« يبدو أن ظهرها قد أصيب بشدة يا راغنفريد . لا أرى حلاً أفضل من أن أتركها بين يدي الرب والقديس أولاف... لا أستطيع فعل ما هو أفضل » .

صاحت الأم بانفعال : « إذن علينا أن نصلي! أنت تعرف جيداً أن لافرانس وأنا مستعدان لإعطائك أي شيء تطلبه ولا نبخل عليك بأي شيء لو استطاعت صلواتك أن تقنع الرب بجعل أولفهيلد تعيش » .

قال الكاهن : « ستكون معجزة أن تعيش وتعود إليها صحتها مجدداً » .

« أولست تعظ بالمعجزات في العشايا والأصباح ؟ ألا تعتقد أن معجزة ما قد تحدث لطفلتي ؟ » هكذا قالت باللهجة المجنونة نفسها .

أجاب الكاهن : « صحيح أن المعجزات تحدث ، ولكن الرب لا يلبي كل الدعوات... نحن لا نعرف ما يضمره . ألا تعتقدين أن أسوأ الأمور أن تنشأ هذه الفتاة الصغيرة الجميلة مشوهة أو عاجزة عن المشي ؟ »

هزت راغنفريد رأسها . ناحت بصوت خفيض : «لقد سبق لي وفقدت الكثيرين أيها الكاهن ولا أستطيع فقدانها» .

أجاب الكاهن : «سأفعل كل ما بوسعي وسأصلي بكل قدرتي . ولكن عليك أن تكافحي يا راغنفريد لحمل الصليب الذي فرضه الرب عليك» .

أنّت الأم بصوت خفيف :

«لم أحبب أحداً من أولادي كما أحببتُ هذه الصغيرة... ولو أنها أخذت مني أيضاً فأنا على ثقة تامة بأن قلبي سيتحطم» .

«ليكن الرب إلى جانبك يا راغنفريد إيفارسداتر» قال سيرا آيريك وهزّ رأسه . «في كل صلاتك وصيامك فكرت فقط في فرض إرادتك على الرب . أتستطيعين أن تتعجبي من أنها لم تساعدك إلاّ قليلاً ؟»

نظرت راغنفريد بتحدٍّ إلى الكاهن ونطقت :

«لقد أرسلت الآن في طلب الليدي آشيلد» .

أجاب الكاهن : «حسناً أنت تعرفينها أما أنا فلا» .

«لا أستطيع العيش دون أولفهيلد» ، قالت راغنفريد كما من قبل . «لو شاء الرب ألاّ يساعدها ، فسوف أستشير الليدي أشيلد ، بل وأنا مستعدة حتى أن أسلم روحي للشيطان لو كان من شأن هذا أن ينفع» .

بدا على الكاهن كأنه سيرد بحدة ، ولكنه أحجم مجدداً . انحنى وتحسس أطراف الفتاة الصغيرة المصابة مرة أخرى .

قال : «يداها باردتان وكذلك قدماها ، يجب أن نضع جراراً من الماء الساخن من حولها ، ثم عليك ألاّ تلمسيها بعد الآن حتى تصل الليدي آشيلد» .

عادت كريستين لتقبع فوق المقعد دون ضجة وتضطجع كالنائمة . كان قلبها يدق بقوة من الخوف : لم تكن فهمت سوى القليل من الحديث بين

سيرا آيريك وأمها ، ولكنه أخافها إلى حد كبير ، وعرفت الطفلة جيداً أنه لم يكن من المفروض أن تسمعه .

نهضت أمها لتذهب وتحضر جرار الماء الساخن ، وفجأة انطلقت هي بالبكاء . «و لكن صلِّ لأجلنا يا سيرا آيريك!» .

سرعان ما عادت مع توردیس . ثم انشغل الكاهن والمرأتان بأولفهيلد ، ثم سرعان ما وجدت كريستين وطُلب إليها الانصراف .

•

أبهر النور الطفلة وهي واقفة خارج الباحة . كانت قد ظنت أن معظم النهار قد انقضى بينما هي جالسة في غرفة الشتاء المعتمة ، ومع ذلك كانت المنازل تنتصب هناك بلون رمادي فاتح ، وكان العشب يلتمع مثل الحرير تحت النور الأبيض لشمس منتصف النهار . التمع النهر خلف أجمة أشجار جار الماء المعرشة ذات اللون الكميت والذهبي : كان يملأ الجو بصوته المندفع الفرح ، فهنا عند يورروندغارد كان يجري فوق سطح منبسط انتشرت فوق الصخور الكبيرة . برزت جدران الجبل أمام السديم الأزرق الرقيق ، وجرت الجداول على الجوانب عبر الثلج الآخذ بالذوبان . جلب الفيض الربيعي العذب القوي في الخارج الدموع إلى عينيها ، مع كل الأسى الذي كانت تستشعره فيما حولها تجاه العجز .

لم يكن هناك أحد في الباحة ، ولكنها سمعت أصواتاً في كوخ «الهاوس كارل» . كانت تربة جديدة قد نثرت فوق البقعة حيث قتل أبوها الثور . لم تكن تعرف ما تفعله بنفسها ، لذلك زحفت خلف جدار المنزل الجديد : كان صفان من الألواح الخشبية قد سبق أن ثبتا في الأرض . في الداخل كانت ألعاب أولفهيلد وألعابها هي . وضعتها كلها معاً في ثقب بين أخفض لوح

خشبي وجدار الأساس . مؤخراً كانت أولفهيلد تريد كل ألعابها ، وكان هذا يثير غضبها أحياناً . والآن فكرت في أنه لو شفيت أختها ، ستعطيها كل ما لديها من ألعاب . وقد أراحتها هذه الفكرة قليلاً .

فكرت بالراهب في هامار ، كان واثقاً من أن المعجزات يمكن أن تحدث لكل شخص . ولكن سيرا آيريك لم يكن واثقاً من ذلك ولا والديها أيضاً . كانت هي معتادة على التفكير كما فعلوا هم . هبط عبء ثقيل عليها حين خطر لها لأول مرة أن الناس يستطيعون التفكير على نحو شديد الاختلاف في كثير من الأمور ـ ليس الناس الشريرين غير الأتقياء والناس الطيبين فحسب ، ولكن أيضاً مثل هؤلاء الأشخاص شأن الأخ إدفين وسيرا آيريك ـ بل وحتى أمها وأبوها : أحست فوراً أنهما لم يكونا متشابهين في كثير من الأمور...

وجدتها torيس هناك في الزاوية ، نائمة ، في وقت متأخر من النهار ، وأخذتها إلى بيتها . لم تكن الطفلة قد أكلت شيئاً منذ الصباح . كانت تورديس مع راغنفريد ترعيان أولفهيلد خلال الليل كله ، وكانت كريستين تنام في سرير تورديس مع «يون» ، زوج تورديس ، وكذلك آيفيند وأورم ولديهما الصغيرين . جعلت رائحة أجسادهم وشخير الرجل وتنفس الطفلين المنتظم كريستين تبكي بصمت . لم يكن قد مرّ زمن طويل على المساء الأخير منذ أن نامت ، كما فعلت في كل ليلة من ليالي حياتها ، قرب أبيها وأمها وأولفهيلد الصغيرة : بدا لها الأمر وكأن عشاً قد شطر نصفين وتناثر في كل مكان ، ورميت هي خارج حمى الجناحين اللذين كانا يبقيانها دافئة على الدوام . وأخيراً بكت حتى نامت ، وحيدة وبائسة بين أشخاص غرباء .

في صباح اليوم التالي ، وما أن أفاقت ، حتى سمعت أن خالها وكل جماعته قد غادروا المكان : غاضبين . كان تروند قد دعا أخته بالحمقاء

المجنونة ، ودعا صهره بالمغفل غير الحازم الذي لم يعرف كيف يتحكم بزوجته . غضبت كريستين ولكنها كانت خجلة أيضاً ، فقد فهمت جيداً الآن أنّ شيئاً غير لائق قد حدث إذ أن أمها قد طردت أقرب الناس إليها من بيتها . ولأول مرة أحست أن هناك شيئاً ما يخص أمها لم يكن كما يجب : أنها لم تكن مثل النساء الأخريات .

و بينما راحت تفكر في ذلك ، دخلت خادمة وقالت إن عليها الصعود إلى العلية لترى أباها .

و لكن حين دخلت الغرفة نسيت كريستين أن تنظر إليه ، فقد جلست أمام الباب المفتوح مباشرة ، والنور موجه مباشرة على وجهها ، امرأة ضئيلة الحجم خمنت كريستين أنها لا بدّ أن تكون الساحرة . ومع ذلك فإن كريستين ما كانت تظن أن مظهرها سيكون كذلك .

بدت ضئيلة الحجم كطفلة ورقيقة التكوين ، وهي جالسة في الكنبة عالية الظهر التي حملت إلى هناك . كانت مائدة قد وضعت هناك أيضاً مغطاة بأفضل غطاء مائدة كتاني مطرز لدى أمها . كان لحم الخنزير المقدد ولحم الطيور قد وضع أمامها على طبق فضي ، وكذلك نبيذ في طَسَّةٍ خشبية ، وأمامها قدح لافرانس الفضي لتشرب منه . كانت قد أنهت طعامها وكانت منهمكة في تجفيف يديها الصغيرتين الرشيقتين بواحدة من أفضل مناشف اليد لدى راغنفريد . أما راغنفريد نفسها فكانت تقف أمامها وتحمل لها طستاً نحاسياً فيه ماء .

تركت الليدي آشيلد منشفة اليد تسقط في حجرها . ابتسمت للطفلة وقالت بصوت واضح جميل :

« تعالي إليّ أيتها الطفلة! » ثم قالت لأمها : « لديك طفلتان جميلتان يا راغنفريد » .

كان وجهها شديد التجعيد ، ولكنه أبيض ووردي وصاف مثل وجه طفلة ، لقد بدا وكأن بشرتها يجب أن تكون طرية ولطيفة الملمس . كان فمها أحمر ونضراً كفم امرأة شابة ، وكانت عيناها الواسعتان الكستنائيتان تلتمعان . كانت تغطي رأسها بمنديل أبيض رقيق من الكتان وينزل قريباً من وجهها كما كان مثبتاً تحت ذقنها بمشبك ذهبي . من فوقه كان هناك خمار من الصوف الطري بلون أزرق داكن . كان ينزل من حول كتفيها ويصل إلى ثوبها الداكن الضيق . كانت تقف مستقيمة مثل عصا ، وشعرت كريستين أكثر مما فكرت أنه لم يسبق لها أن رأت امرأة جميلة ومهذبة شأن هذه الساحرة العجوز التي كانت علية القوم في الوادي لا ترضى بالتعامل معها .

أمسكت الليدي آشيلد بيد كريستين في يدها العجوز الناعمة وتحدثت إليها مازحة بلطف ، ولكن كريستين لم تستطع أن تجيب بكلمة واحدة . ثم قالت الليدي آشيلد مع ضحكة صغيرة :

« هل هي خائفة مني ، كما تعتقدين ؟ »

« لا ، لا » صرخت كريستين . ثم ضحكت الليدي آشيلد مرة أخرى وقالت للأم :

« لها عينان حكيمتان ، ابنتك هذه ، ويدان جيدتان قويتان ، وهي ليست معتادة على الكسل كما أستطيع أن أرى . ستكونين في حاجة إلى مثلها قريباً لتساعدك على العناية بأولفهيلد ، بعد أن أرحل . لذلك فإنه لأمر حسن أن تدعي كريستين قريبة مني وتساعدني بينما أنا هنا... إنها كبيرة بما فيه الكفاية لهذا الأمر . إنها في الحادية عشرة ، أليس كذلك ؟ »

عند ذلك خرجت الليدي آشيلد ، وكانت كريستين ستلحق بها ، ولكن لافرانس نادى عليها من سريره . كان مضطجعاً على ظهره والوسائد محشورة

تحت ركبتيه المرفوعتين إلى أعلى . كانت الليدي آشيلد قد أمرت بأن يضطجع على هذا النحو ، حتى يخف الألم في صدره على نحو أسرع .

سألت كريستين : «والآن سرعان ما ستشفى بالتأكيد يا سيدي الوالد . أليس كذلك ؟»

نظر إليها لافرانس : لم تكن الفتاة قد خاطبته بكلمة «سيدي» من قبل . ثم قال بجدية :

«بالنسبة لي لا خوف عليَّ . الأمر أسوأ بالنسبة لأختك» .

قالت كريستين : «أجل» ، ثم تنهدت .

وقفت لبعض الوقت أيضاً قرب سريره . لم يقل والدها شيئاً آخر ، ولم تجد كريستين ما تقوله . وحين قال لها لافرانس بعد فترة إن عليها النزول إلى أمها والليدي آشيلد ، أسرعت كريستين خارجة وعدت عبر الباحة نحو غرفة الشتاء .

٤

مكثت الليدي آشيلد في يوروندغارد معظم الصيف . وهكذا حدث أن الناس كانوا يأتونها إلى هناك للمشورة... سمعت كريستين سيرا آيريك يسخر من ذلك بين الحين والآخر ، وقد خطر لها أن أباها وأمها أيضاً لم يكونا مسرورين . ولكنها أبعدت كل الأفكار عن مثل هذه الأمور بعيداً عنها ، ولم تفكر في رأيها بالليدي آشيلد بل كانت معها دائماً وتحاول عدم الإصغاء إلى الليدي أو مراقبتها .

كانت أولفهيلد لا تزال ممدة على ظهرها في السرير الكبير . كان وجهها الصغير أبيض حتى الشفتين ، وحلقات سوداء تجمعت تحت عينيها . كان لشعرها الأصفر الجميل رائحة كريهة ، فهو لم يغسل من زمن طويل ، كما كان قد أصبح داكن اللون وفقد كل لمعته وتجعيدته ، بحيث بدا كالقش القديم المحترق . بدت متعبة ومعانية وصابرة ؛ ولكنها كانت تبتسم بضعف وسقم لأختها حين تجلس كريستين قرب السرير وتثرثر وتري الفتاة الصغيرة كل الهدايا التي جلبها أبوها وأمها وأصدقاؤهم وأقرباؤهم من جميع الأنحاء . كانت هناك دمى وطيور وحيوانات خشبية ولوح داما صغير ، وحلى صغيرة وقبعات مخملية وأشرطة ملونة . أبقتها كريستين كلها في علبة لها ، وكانت

أولفهيلد تنظر إليها بعينيها الوقورتين ، وتتنهد ، ثم تسقط الكنوز من يديها المنهكتين .

و لكن حين كانت الليدي آشيلد تقترب ، كان وجه أولفهيلد يشع بالسعادة . كانت تشرب بلهفة المشروبات التي تبل الظمأ وتنوّم والتي كانت الليدي آشيلد تحضرها لها . وحين كانت الليدي آشيلد تعالج جراحها لم تكن تتذمر ، وكانت تضطجع سعيدة مصغية بينما تعزف الليدي على قيثار لافرانس وتغني : كان لديها مخزون كبير من الأغاني الغريبة على أسماع سكان « ديل » .

و غالباً ما كانت تغني لكريستين حين تنام أولفهيلد . وأحياناً كانت تحكي لها عن أيام شبابها ، حين كانت تسكن في الجنوب في بلاط الملك ماغنوس ثم الملك آيريك وملكتيهما .

وذات مرة وبينما هما جالستان هكذا والليدي آشيلد تحكي عن هذه الأمور ، زلّ لسان كريستين عن فكرة كانت دائماً في بالها :

ـ أعتقد أنه من الغريب أن تكوني سعيدة في كل الأوقات ، أنت التي اعتدت عليّ... وهنا صمتت واحمر وجهها .

نظرت الليدي آشيلد نحو الفتاة مبتسمة :

« تعنين لأني ابتعدت عن كل ذلك الآن ؟ » ثم ضحكت بهدوء وقالت : «لقد مرت عليّ أوقات سعيدة يا كريستين ، ولست حمقاء إلى حد أن أتذمر إن كان عليّ الآن أن أشرب الحليب دون قشدة واللبن الرائب بعد أن شربت نبيذي وجعتي . قد تدوم الأيام الطيبة طويلاً لو عاش المرء بحكمة وتعامل بحذر مع ما لديه . كل الناس الحكماء يعرفون ذلك ، ولذلك أعتقد أن على الناس الحكماء أن يكونوا قانعين بالأيام الطيبة : فأفضل الأيام طراً تكلف غالياً . في هذا العالم يسمون الشخص الذي يبدد إرثه حتى يمرح في

أيام شبابه بالأحمق . فيما يخص هذا ، فإن كل إنسان قد يتصرف كما يهوى . ولكن الإنسان الوحيد الذي أسميه أحمق وغبياً جداً هو ذاك الذي يندم على صفقته بعد أن تتم ، وأعتبر الساذج وكبير الحمقى ذاك الذي يفكر في رؤية المزيد من رفاقه المرحين بعد أن يزول إرثه...»

« ... أهناك شيء على غير ما يرام في أولفهيلد ؟ » نادت بلطف تجاه راغنفريد التي قامت بحركة حادة حيث كانت تجلس قرب سرير الطفلة .

قالت أم الطفلة : «لا شيء . إنها تنام جيداً » ،و اقتربت الليدي آشيلد وكريستين من المدفأة . كانت يداها على عمود فتحة الدخان ، حين وقفت ونظرت في وجه الليدي آشيلد .

قالت : « كريستين لا تفهم مثل هذه الأمور » .

أجابت الليدي : «لا . ولكنها حفظت صلواتها أيضاً وأنا لا أشك أبداً في ذلك ، قبل أن تفهمها . في الوقت الذي نكون فيه في حاجة إلى صلوات أو مشورة ، لا نكون في مزاج قابل للتعلم ولا للفهم» .

زمّت راغنفريد حاجبيها الداكنين معاً متأملة . في مثل تلك الأوقات كانت عيناها اللامعتان الغائرتان تبدوان كبحيرتين صغيرتين تحت منحدر جبلي مغطى بالأحراج ، هكذا كانت كريستين تظن وهي صغيرة بعد ، أو هكذا سمعت الآخرين يقولون . نظرت الليدي آشيلد إلى راغنفريد بابتسامتها نصف الصغيرة ، وأجلست الأم نفسها على حافة المدفأة ، فأخذت عوداً وحشرته في الجمر .

«و لكن ذاك الذي أهدر ميراثه على أسوأ البضائع ، ثم ينظر لاحقاً إلى كنز يعطي حياته بسعادة لقاء تملكه ، ألا تظنين أنه سيندم بمرارة على حماقته ؟ »

قالت الليدي آشيلد : «ليس هناك فعل دون بعض الندم يا راغنفريد .

وذاك الذي يكون مستعداً لمنح حياته يجب أن يغامر ويرى ما يستطيع كسبه » .

انتزعت راغنفريد العود المحترق من النار ، نفخت اللهيب حتى انطفأ وثنت يدها فوق النهاية المتقدة حتى شعّ بلون الدم الأحمر من بين أصابعها .

« أوه! هذه كلمات ، كلمات ، مجرد كلمات ياليدي آشيلد » .

قالت الأخرى : « حسناً ، حقاً يا راغنفريد ، لا يوجد الكثير مما يستحق الشراء بهذا الثمن الغالي شأن حياة المرء » .

« لا ، بل يوجد » ، قالت راغنفريد بانفعال . ثم همست قائلة بصوت لا يكاد يسمع : « زوجي » .

قالت الليدي آشيلد بصوت خفيف : « يا راغنفريد ، ظنت كثير من العذراوات ذلك حين حاولن أن يربطن رجلاً بهن وقمن بمنحه بكارتهن لقاء ذلك . ولكن ألم تقرئي عن رجال وعذراوات منحوا الرب كل ما يملكون ، وذهبوا إلى دير أو عراة إلى البرية ، ثم ندموا بعد ذلك . أجل ، هؤلاء يدعون بالحمقى في الكتب الدينية . وسيكون من الإثم التفكير في أن الرب قد غشهم في صفقته معهم » .

جلست راغنفريد ساكتة لبعض الحين . ثم قالت الليدي آشيلد :

« عليك أن تأتي معي الآن يا كريستين ، فقد حان موعد الذهاب لجمع الندى لنغسل به أولفهيلد في الصباح » .

•

في الخارج كانت باحة الدار سوداء وبيضاء تحت نور القمر . ذهبت راغنفريد معهما ، عبر فناء المزرعة ثم نزولاً إلى بوابة بستان الملفوف .

رأت كريستين شكل أمها النحيل المعتم ينحني هناك ، بينما كانت هي تهز الندى عن أوراق الملفوف الكبيرة الباردة كالثلج ، وطيات نباتات «غطاء السيدة» وذلك في كأس أبيها الفضية .

سارت الليدي آشيلد بصمت إلى جانب كريستين . كانت هناك لتحرسها فقط ، فلم يكن أمراً جيداً ترك طفلة تخرج وحدها في مثل هذه الليلة . ولكن كان للندى مزية أفضل لو جرى جمعه من قبل عذراء بريئة .

حين عادتا إلى البوابة كانت راغنفريد قد رحلت . كانت كريستين ترتجف من البرد وهي تسلم الكأس الفضية المثلجة إلى يدي الليدي آشيلد . عدت في حذائها الرطب نحو العلية ، حيث كانت تنام هناك الآن مع أبيها . كانت قدمها قد داست على الدرجة الأولى حين خرجت راغنفريد من ظل الشرفة . في يديها كانت تحمل وعاء يخرج منه البخار .

قالت الأم : «هيا ، لقد سخنت بعض الجعة لك يا ابنتي» .

شكرت كريستين أمها بسرور ، ورفعت الوعاء إلى شفتيها . ثم سألت راغنفريد :

«يا كريستين... الصلوات وكل الأمور الأخرى التي تعلمك إياها الليدي آشيلد... هل أنت واثقة أنه ليس فيها ما هو آثم أو شرير ؟»

أجابت الطفلة : «لا أستطيع اعتقاد ذلك أبداً . هناك اسم يسوع ومريم العذراء ، وأسماء القديسين فيها كلها...»

سألت الأم مجدداً : «ما الذي تعلمك إياه ؟»

«أوه!... أمور حول الأعشاب... والتعاويذ لوقف الدم النازف ولمعالجة الثآليل والعيون المحمرة... وكذلك العث في الملابس والفئران في حجرة المؤونة - وما هي الأعشاب التي على المرء قطفها في نور الشمس وما هي

تلك التي يحبذ قطفها تحت المطر... أما الصلوات فلا يجب أن أقولها لأحد ، وإلاّ فقدت مفعولها » . هذا ما قالته بسرعة .

تناولت أمها الوعاء الفارغ ووضعته على الدرجة . ثم رمت بذراعيها فجأة من حول ابنتها وضمتها بشدة إليها وقبلتها... . أحست كريستين أن وجنتي أمها كانتا مبتلتين وحارتين :

« فليحرسك الرب وسيدتنا من كل شر... نحن الوحيدين الذين لم يمسسهم سوء الطالع : أنت وأبوك وأنا . يا حبيبتي ، يا حبيبتي ، لا تنسي أبداً أنك أعز شيء على أبيك... »

عادت راغنفريد إلى غرفة الشتاء ، خلعت ملابسها وزحفت إلى السرير قرب أولفهيلد . وضعت ذراعاً من حول الطفلة ووضعت خدها قريباً من خد الصغيرة ، حتى شعرت بدفء جسد أولفهيلد وشمت الرائحة الحادة لشعرها الرطب . كانت أولفهيلد تنام بعمق وثقل ، وهي على هذا النحو بعد الجرعة المسائية التي تعطيها إياها الليدي آشيلد . كان قش فرشة الليدي المفروش تحت الفراش ، يعطي رائحة تبعث على النوم . ومع ذلك فإن راغنفريد كانت تضطجع أرقة ، محدقة إلى بقعة الضوء الصغيرة في السقف التي كان القمر يلمع من خلالها عبر نافذة مخرج الدخان .

في الفراش الآخر كانت تضطجع الليدي آشيلد ، ولكن راغنفريد ما كانت تعرف أبداً إن كانت نائمة أم مستيقظة . ما كانت الليدي تتحدث أبداً عن معرفتهما ببعضهما في الأيام الغابرة... وكان هذا يخيف راغنفريد . وقد بدا لها أنها لم تعرف مطلقاً أسى مراً كهذا ومثل هذه الخشية التي تسكنها كما يحدث الآن... حتى لو أنها عرفت أن لافرانس كان سيستعيد صحته بالكامل مجدداً... وأن أولفهيلد ستعيش .

•

بدا وكأن الليدي آشيلد كانت تستمتع بالحديث إلى كريستين ، ومع كل يوم يمرّ كانت الفتاة تصبح على علاقة صداقة أوثق معها . وفي أحد الأيام ، حين ذهبتا لجمع الأعشاب ، جلستا معاً في مكان عال فوق منحدر جبل على مرج أخضر صغير تحت ركام للحجارة . كانتا قادرتين على النظر إلى المزرعة في « فورمو » وتريان سترة آرن غيردسون الطويلة الضيقة : كان قد ركب معهما عبر الوادي ، ثم كان عليه أن يعتني بجواديهما بينما هما على منحدر الجبل تبحثان عن الأعشاب .

و بينما هما جالستان ، حكت كريستين لليدي آشيلد عن لقائها مع الجنية القزمة . لم تكن قد فكرت بها منذ سنوات كثيرة ، ولكنها برزت أمامها الآن . وبينما راحت تتكلم ، خطرت لها الفكرة على نحو غريب بأنه كان هناك شبه بين الليدي آشيلد والجنية : رغم أنها كانت تعرف جيداً طوال الوقت أنهما لم تكونا متشابهتين فعلاً . ولكن حين حكت كل ما لديها ، جلست الليدي آشيلد ساكنة لفترة ونظرت نحو « ديل » . ثم قالت بعد فترة طويلة :

« لقد تصرفت بحكمة إذ هربت ، فقد كنت مجرد طفلة آنئذ . ولكن ألم يسبق لك أن سمعت عن أشخاص أخذوا من الجن الأقزام الذهب الذي يعرضه هؤلاء ثم أثقلوا الجن بالحجارة ؟ »

« سمعت بمثل هذه الحكايات » ، قالت كريستين . « و لكني لن أتجرأ أبداً على فعل ذلك . وأعتقد أنه عمل غير عادل » .

« إنه جيد حين لا يجرؤ المرء على فعل ما لا يفكر في أنه عمل عادل » ، قالت الليدي آشيلد وهي تضحك قليلاً . « و لكنه لا يكون جيداً إلى ذلك الحد حين يفكر المرء في أن شيئاً ما لن يكون عملاً عادلاً لأن المرء لا يجرؤ على فعله... لقد كبرت كثيراً هذا الصيف » ، قالت الليدي فجأة . « هل تعرفين أنك ستصبحين جميلة [عادلة] على الأرجح ، كما أتساءل ؟ »

قالت كريستين : «أجل ، يقولون إني أشبه أبي» .

ضحكت الليدي آشيلد بهدوء .

«أجل ، سيكون الأفضل لك أن تتشبهي بلافرانس من حيث العقل والبدن ، أيضاً . ومع ذلك سيكون أمراً مثيراً للشفقة إن كانا سيزوجانك هنا في «ديل» . ليس على أي امرئ أن يحتقر البساطة والريف . ولكنهم يظنون ، هؤلاء الناس الكبار هنا ، أنهم رائعون جداً حتى أنه لا يوجد شبيه لهم في أرض النرويج . وهم يتعجبون من أني أستطيع العيش وتحقيق الازدهار ، رغم أنهم يغلقون أبوابهم في وجهي . ولكنهم كسالى ومغرورون ، ولن يتعلموا أساليب جديدة... وهم يضعون اللوم على الصراع القديم مع الملك في أيام «سفير» . كل هذا كذب . لقد بنى جد أمك صداقة مع الملك سفير وتلقى هدايا منه . ولكن لو كان خالك سيصبح واحداً من رجال ملكنا ويتواجد في بلاطه ، فسيكون عليه أن يهذب نفسه من الخارج والداخل ، ولن يزعج تروند نفسه بذلك . ولكن أنت يا كريستين ، عليك أن تتزوجي من رجل نشأ بأساليب فروسية وكياسة...»

جلست كريستين تنظر إلى باحة «فورمو» في الأسفل ، وإلى ظهر آرن الأحمر . ما كانت تعرف العالم إلاّ بالكاد ، ولكن حين تحدثت الليدي آشيلد عن العالم الذي دخلته ذات مرة كانت كريستين تفكر بالفرسان والنبلاء في شكل آرن . أما سابقاً ، حين كانت صغيرة ، فقد كانت تراهم دائماً في شكل أبيها .

«قد يكون ابن أختي ، إرلند نيكولاوسون أوف هوسابي عريساً ملائماً لك... لقد تربى تربية ملائمة ، ذاك الفتى . لقد زارتني أختي ماغنهيلد في العام الماضي وهي في طريقها عبر «ديل» ، وكان هو بصحبتها . أجل ، ليس الأمر بسيطاً إلى هذا الحد ، أعني مسألة حصولك عليه ، إلاّ أنه كان

سيسرني أن أنشر غطاء السرير فوقكما كليكما في السرير الزفافي : إنه شاب أسود الشعر مثلما أنت شقراء ، وله عينان مليحتان... ولكن لو عرفت صهري على النحو الصحيح لقلت إنه قد سبق له وفكر دون شك بعروس أفضل منك لابنه إرلند » .

سألت كريستين متعجبة : « ألست عروساً مناسبة إذن ؟ » لم تفكر قط في أنها قد تشعر بالإساءة بسبب أي شيء تقوله الليدي آشيلد ، ولكنها أحست بالقهر والحزن أن الليدي قد تكون على نحو ما أفضل من أهلها بالذات .

قالت الأخرى : « أجل ، أنت عروس مناسبة ، ولكنك لا تصلين من حيث المستوى إلى أسرتي أبداً . كان جدك خارجاً على القانون في هذه البلاد وغريباً ، وكان آل غييسلينغ قد جلسوا وتعفنوا على مزارعهم إلى فترة طويلة حتى كادوا أن يُنسوا خارج « ديل » . ولكن أنا وأختي تزوجنا أولاد أخ الملكة مارغريت سكولسداتر » .

لم تستطع كريستين حتى أن تجمع شجاعتها لتقول إنه لم يكن جدها بل أخوه ، الذي وصل إلى هذه البلاد كخارج على القانون . جلست وحدقت إلى المنحدر الجبلي عبر « ديل » ، وفكرت بذلك اليوم قبل سنوات كثيرة ، حين كانت هناك في الجبال العالية ورأت كيف أن كثيراً من الجبال كانت بين واديها والعالم الخارجي . ثم قالت الليدي آشيلد إن عليهما أن تعودا إلى البيت الآن ، وأمرتها أن تنادي آرن . لذلك وضعت كريستين يديها على فمها ، وصاحت ولوحت بمنديلها ، حتى رأت البقعة الحمراء في المزرعة تتحرك وتلوح لها .

•

بعد هذا بفترة طويلة عادت الليدي آشيلد إلى بيتها . ولكن عبر الخريف وأول جزء من الشتاء غالباً ما كانت تصل إلى يوروندغارد لتقضي بضعة أيام مع أولفهيلد . كانت الطفلة ترفع من السرير الآن في وقت النهار ، وتجري محاولات لجعلها تقف ، ولكن ساقيها كانتا تتراخيان تحتها حين تضع قدميها على الأرض . كانت دائمة الشكوى ، شاحبة ومنهكة ، وكانت الجاكيت المطرزة المصنوعة من جلد الحصان والأماليد الرقيقة والتي صنعتها لها الليدي آشيلد تزعجها على نحو مؤلم ، لذلك كانت تفضل البقاء ساكنة في حضن أمها . كانت راغنفريد تبقي ابنتها المريضة دائماً بين ذراعيها ، لذلك كانت تورديس تدير شؤون المنزل كلها الآن . وكانت كريستين تذهب مع تورديس ، بناء على أوامر أمها ، لتتعلم وتساعد .

كانت كريستين تتوق لليدي آشيلد بين الحين والآخر ، وكانت الليدي تثرثر كثيراً معها أحياناً ، ولكن في المرات الأخرى كانت الطفلة تنتظر عبثاً كلمة عدا التحية من الأخرى حين تصل وحين تمضي . كانت الليدي آشيلد تجلس وتتحدث مع الكبار فقط . كانت هذه هي الحال دائماً حين يكون زوجها في رفقتها ، فقد كان يحدث أحياناً أن يأتي بيورن غوناسورن مع زوجته . ركب لافرانس إلى هاوغن في أحد أيام الخريف ليأخذ إلى الليدي أجرها : كان ذاك أفضل إبريق فضي كان لديهم في المنزل ، مع طبق يلائمه . كان قد قضى الليلة هناك ، ومنذ ذلك الحين راح يمدح المزرعة إلى حد كبير . كانت جميلة وجيدة التنظيم ، وليست صغيرة إلى ذلك الحد ، كما قال . وضمن المنزل كان الجميع يتحدثون عن السعادة ، وأن عادات المنزل كانت ملائمة تشبه عادات بيوت كبار العائلات في الجنوب . لم يقل لافرانس رأيه في بيورن ، ولكنه كان يرحب به جيداً في كل مرة يأتي فيها مع زوجته إلى يوروندغارد . ولكنه كان يحب الليدي آشيلد كثيراً جداً ، وقال

إنه يعتبر معظم الحكايات التي كانت تُحكى عنها مجرد أكاذيب . وقال أيضاً إنه على ثقة من أنها قبل عشرين سنة ما كانت في حاجة إلى السحر لتربط زوجاً بها : فقد شارفت على الستين الآن ، وهي لا تزال تبدو شابة ولديها قامة جميلة ومغوية .

رأت كريستين جيداً أن أمها ما كانت تحب هذا كله إطلاقاً . كان صحيحاً أن راغنفريد ما كانت تقول شيئاً عن الليدي آشيلد ، ولكنها شبّهت بيورن مرة بالعشب الأصفر المهروس الذي يجده المرء نامياً تحت الأحجار الكبيرة ، وفكرت كريستين بأن هذا يلائمه جيداً . بدا بيورن شاحباً إلى حد غريب . كان بديناً إلى حد ما ، شاحباً وكسولاً ، وأصلع بعض الشيء ، رغم أنه لم يكن أكبر سناً بكثير من لافرانس . ولكن يمكن للمرء أن يرى أنه كان رجلاً وسيماً ذات مرة . لم تبادله كريستين أطراف الحديث بتاتاً : كان قليل الكلام ومعتاداً على الجلوس في المكان نفسه الذي جلس فيه أول مرة ، منذ دخوله إلى الغرفة وحتى ذهابه إلى السرير . كان يشرب بكميات هائلة ، ولكن يلاحظ المرء ذلك قليلاً عليه .كان لا يأكل إلاّ القليل من الطعام ، ولكنه يحدق بين الحين والآخر إلى شخص أو آخر في الغرفة بنظرة ثابتة متأملة بعينيه الغريبتين الشاحبتين .

•

ما كانوا قد رأوا أقرباءهم القاطنين في سوندبو منذ حصول الحادث المشؤوم رغم أن لافرانس زار «فاغ» أكثر من مرة . ولكن سيرا آيريك كان يأتي إلى يوروندغارد كما في السابق ، وغالباً ما كان يقابل الليدي آشيلد هناك ، وكانا صديقين جيدين . فكر الناس في أن هذا أمر جيد للكاهن ، فقد كان هو نفسه حكيماً ماهراً جداً . وكان هذا دون شك أحد الأسباب في

أن أصحاب الاقطاعيات الكبرى ما كانوا يطلبون مشورة الليدي آشيلد ، في الأقل ليس صراحة ، حيث كانوا يعتبرون الكاهن ماهراً بما فيه الكفاية ، كما لم يكن من السهل عليهم أن يعرفوا كيف يتصرفون تجاه شخصين كانا منبوذين نوعاً ما من قبل أقربائهم وأهلهم . قال سيرا آيريك نفسه إنهما ما كانا متلائمين ، وأما ما يخص سحرها ، فهو لم يكن راعي أبرشيتها ـ وقد تكون الليدي عرفت أكثر مما هو ملائم لصحة روحها ـ و لكن على المرء ألا ينسى أن الجهلاء كانوا دائماً مستعدين للتحدث عن السحر ما أن تكون امرأة أكثر حكمة بقليل من جاراتها . أما الليدي آشيلد من جانبها ، فكانت تمتدح الكاهن كثيراً وكانت مثابرة على الذهاب إلى الكنيسة لو حدث أن كانت في يورروندغارد في يوم مقدس .

كان موسم الميلاد حزيناً في ذلك العام . لم تكن أولفهيلد قادرة بعد على وضع قدمها على الأرض ، وهم لم يسمعوا ولا رأوا أياً من سكان سوندبو . عرفت كريستين أن الكثير من الكلام كان يجري في الأبرشية وأن أباها كان يتأسى . ولكن بدت أمها عديمة الاهتمام . أما كريستين ففكرت في أن هذا تصرف خاطئ من قبلها .

و لكن في إحدى الأمسيات ، نحو نهاية موسم الميلاد ، وصل سيرا سيغورد ، كاهن منزل ثروند غيسلينغ ، وهو يجر أمامه مزلجة ضخمة ، وكانت مهمته الرئيسية هو أن يدعوهم إلى وليمة في سوندبو .

لم يكن سيرا سيغورد محبوباً في الأبرشيات المجاورة ، فقد كان هو الذي يدير بالفعل أملاك تروند ؛ أو في الأقل كان هو المسؤول عن معاملات تروند التجارية القاسية وغير العادلة ، ولم يكن هناك إنكار في أن تروند كان قاسياً مع مزارعيه المستأجرين . كان كاهنه متعمقاً في الكتابة والمحاسبة ، خبيراً في القانون و« حكيماً » حاذقاً : وإن لم يكن حاذقاً إلى الحد الذي

الحد الذي يدعيه . ولكن لم تكن راغنفريد تحبه ولا لافرانس لأساليبه ، إلا أن سكان سوندبو ، كانوا يعتمدون كثيراً على كاهنهم ، وكانوا كما هو منزعجين جداً من أنه لم يتم استدعاؤه ليداوي أولفهيلد .

والآن لسوء الحظ ، فقد حدث أنه حين وصل سيرا سيغورد إلى يوروندغارد ، كان قد سبق الليدي آشيلد وسير بيورن أن كانا هناك ، علاوة على سيرا آيريك وغيرد وإنغا من فنسبريكن والدي آرن ، وكذلك يون العجوز من لوبتسغارد ، وراهب واعظ من هامار هو الأخ آسغاوت .

وبينما قامت راغنفريد بمد الموائد من جديد بطعام عيد الميلاد ، راح لافرانس يقرأ الرسائل التي حملها سيرا سيغورد ، بينما تمنى الكاهن أن يرى أولفهيلد . كان قد سبق لها ونامت في سريرها ، ولكن سيرا سيغورد أيقظها ، تحسس ظهرها وأعضاءها وسألهم الكثير من الأسئلة ، أولاً بلطف كاف ، ثم بخشونة وفقدان صبر بينما بدأت الطفلة تشعر بالخوف . كان سيغورد رجلاً ضئيل الحجم ، مجرد قزم ، مع وجه أحمر كبير متوهج . وحين أراد أن يرفعها ليضعها على الأرض ليختبر قدميها ، بدأت تصرخ عالياً . عندها وقفت الليدي آشيلد ، ومضت إلى السرير ، وغطت أولفهيلد بالجلود ، قائلة إن الطفلة وسنى جداً ، إلى حد أنها لا تستطيع الوقوف على الأرض حتى لو كانت ساقاها قويتين .

بدأ الكاهن بالكلام بصوت مرتفع . كان هو أيضاً معدوداً بين من يعرفون فن «الحكمة» . ولكن الليدي آشيلد أخذته من يده وجرته إلى المقعد العالي وراحت تحكي له عما فعلته لأولفهيلد ، وتطلب رأيه في كل مسألة . وقد تحسّن مزاجه بعد هذا فأكل وشرب من ضيافة راغنفريد الكريمة .

ولكن مع تصاعد الجعة والنبيذ إلى رأسه ، تغيّر مزاج سيرا سيغورد

مجدداً وأصبح ميالاً إلى الشجار والعناد ـ كان يعرف جيداً أنه لا أحد في الغرفة يحبه . أولاً التفت إلى «غيرد» ـ كان وكيل مزرعة أسقف هامار في «فاغ» و«سيل» ، وكانت شجارات كثيرة قد جرت بين الكرسي الأسقفي وتروند إيفارسون . لم يقل غيرد الكثير ، ولكن «إنغا» كانت امرأة نارية ، كما انضم إليها الأخ آسغاوت وتكلم :

«عليك ألاّ تنسى يا سيرا سيغورد أن أبانا المحترم انغيالد سيدك أيضاً : نحن نعرف ما يكفي عنكم في هامار . أنت تتقلب في أحضان النعمة في سوندبو ، ولا تفكر أبداً بأنك مكرس للقيام بعمل آخر غير أعمال المراقبة لتروند ، ومساعدته في كل ما يرتكبه من مساوئ ومظالم ، مما يعرض روحه للخطر مع الإساءة إلى حقوق الكنيسة المقدسة . أو لم تسمع بما يحدث للكهنة المزيفين والجامحين الذين يتحايلون ضد آبائهم الروحيين وأولئك الذين في السلطة ؟ ألا تعرف بتلك الحادثة حين أخذت الملائكة القديس توماس أوف كانتربري إلى باب جهنم وتركته ينظر إلى داخلها ؟ لقد تعجب كثيراً حين لم ير أياً من الكهنة الذين كانوا يعارضونه ، كما عارضت أسقفك . كاد يشكر الله على رحمته ، فذلك القديس لم يكن يكره أن يشمل الخلاص كل الخاطئين . ولكن عند ذاك أمر الملاك الشيطان أن يزيح ذيله قليلاً ، وهناك رأى بضجة عالية ورائحة الكبريت الكريهة ، كل الكهنة والعلماء الذين حاربوا خير الكنيسة . وهكذا عرف أين كان مصيرهم» . قال الكاهن : «هنا تكذب أيها الراهب . لقد سمعت تلك الحكاية أنا أيضاً ، ولكنهم لم يكونوا كهنة بل كانوا مجرد رهبان شحاذين أتوا من مؤخرة الشيطان كما تخرج الزنابير من عشها» .

ضحك يون العجوز بصوت أعلى من أصوات كل الخدم ، وزمجر :

«كان هناك كلا النوعين ، على ما أعتقد جازماً...»

«إذن لا شك أنه كان للشيطان ذيل عريض جميل» ، قال بيورن غونارسون ، وابتسمت الليدي آشيلد ثم قالت :

«أجل ، ألم تسمعوا بأن الشر يجرّ خلفه ذيلاً طويلاً ؟»

صرخ سيرا سيغورد : «اصمتي يا ليدي آشيلد ، لا تتكلمي عن الذيل الطويل الذي يجره الشر خلفه . تجلسين هنا وكأنك سيدة المنزل ، وليس راغنفريد . ولكن من الغريب أنك لم تستطيعي مساعدة طفلتها : أو لم يعد لديك شيء من ذلك الماء القوي الذي كنت تتعاملين فيه ذات مرة ، والذي كان يستطيع أن يجعل الخروف بكامله يغلي في القدر ، وتحولين النساء إلى عذارى في سرير العرس ؟ أتعتقدين أني لا أعرف عن الزفاف الذي جرى في هذه الأبرشية حيث غسلت العروس التي لم تكن عذراء... ؟»

قفز سيرا آيريك وأمسك بالكاهن الآخر من الكتف والفخذ ، ورمى به فوق المائدة ، حتى انقلبت الأباريق والأوعية ، وجرى الطعام والشراب فوق الأقمشة والأرض ، بينما ارتمى سيرا سيغورد بطوله على الأرض بملابس ممزقة . قفز آيريك من فوق اللوح ، وكان سيضربه مجدداً وهو يهدر فوق الفوضى التي حدثت :

«أمسك فمك القذر ، يا كاهن جهنم...»

حاول لافرانس جاهداً أن يفرقهما ، ولكن راغنفريد نهضت ، شاحبة كالموت ، عند اللوح ، وفركت يديها . ثم هرعت الليدي آشيلد وساعدت سيرا سيغورد على النهوض على قدميه ، ومسحت الدم عن وجهه وصبت كوباً من «الميد» في حلقه قائلة :

«ليس عليك أن تكون صارماً إلى هذا الحد يا سيرا آيريك ، حتى أنك لا تستطيع سماع مزاح في جو من الشراب . اجلسوا وستسمعون عن ذلك الزفاف . لم يجر في «ديل» هنا إطلاقاً ، كما أني لم أكن تلك المحظوظة

التي امتلكت ذلك الماء . ولو أني استطعت استخراجه ، فأعتقد أننا ما كنا لنجلس هنا الآن في مزرعة جبلية صغيرة في البراري . كنت سأصبح امرأة غنية وتكون لي سلطتي في الأبرشيات العظيمة الغنية ، بل وفي مدن وأديرة وأسقف ورجال كنيسة » . ثم ابتسمت للرجال الثلاثة من رجال الكنيسة .

« و لكن يقال إن هذا الفن كان معروفاً في الأيام الغابرة » .

ثم روت الليدي حكاية مرحة عن سوء الحظ الذي جرى في أيام الملك إنغا ، حين استخدم الغسول السحري خطأ من قبل المرأة غير الملائمة ، وما جرى لاحقاً .

ضحك الجميع عالياً في الغرفة ، وصرخ كل من غيرد و يون طالبين المزيد من هذه الحكايات من الليدي آشيلد . ولكن الليدي قالت : « لا! يجلس هنا كاهنان وكذلك الأخ أسغاوت ، وهناك شبان صغار وخادمات . الأفضل أن نتوقف قبل أن يصبح الكلام غير ملائم وفظاً . فلنتذكر أن هذا يوم مقدس » .

صرخ الرجال احتجاجاً ولكن النساء أيدت موقف الليدي آشيلد . لم يلاحظ أحد أن راغنفريد قد غادرت الغرفة . سرعان ما حان بعد ذلك وقت نوم كريستين التي كانت جالسة في أخفض مكان على مقعد النساء ، بين الخادمات . كانت تنام في منزل توردیس ، فقد كان في المنزل كثير من الضيوف .

كان البرد لاذعاً ، وكانت الأنوار الشمالية تتوهج وتتراقص فوق جباه الجبال إلى الشمال . تكسر الثلج تحت قدمي كريستين وهي تعدو عبر الباحة مرتجفة ، وذراعاها قد تصالبا على صدرها .

ثم شعرت بوجود امرأة في ظل المتبن العتيق تمشي مسرعة جيئةً وذهاباً فوق الثلج ، وهي ترمي بذراعيها من حولها ، وتفرك يديها وتعول

عالياً . رأت كريستين أن هذه كانت أمها ، وعدت نحوها خائفة ، سائلة إياها إن كانت مريضة .

« لا ، لا » . انفجرت راغنفريد . « و لكني لم أستطع البقاء في الداخل . اذهبي إلى فراشك يا طفلتي » .

وحين التفتت كريستين نادتها أمها بلطف :

« عودي إلى الغرفة واضطجعي قرب أبيك وأولفهيلد : خذيها بين ذراعيك حتى لا يتقلب عليها خلال نومه دون قصد ؛ إنه ينام نوماً ثقيلاً حين يشرب كثيراً . سأذهب لأنام في العلية الليلة » .

قالت كريستين : « يا للمسيح يا أمي! ستتجمدين حتى الموت لو نمت هناك ، ووحدك أيضاً . وما الذي تعتقدين أن أبي سيظنه لو أنك لم تأت إلى الفراش الليلة ؟ »

أجابت الأم : « لن يلاحظ ذلك . لقد كان قد سبق له ونام حين غادرت ، وغداً سيستيقظ متأخراً . اذهبي وافعلي كما أقول لك » .

« سيكون البرد شديداً جداً هناك » ، قالت كريستين متذمرة ، ولكن أمها أبعدتها ، على نحو ألطف ، ثم أغلقت الباب على نفسها في العلية .

في داخلها كان الجو بارداً كما في الخارج ، وكانت معتمة جداً . تلمست راغنفريد طريقها إلى السرير ، رفعت غطاء رأسها وخلعت حذاءها وزحفت بين الجلود التي بثت فيها البرد حتى العظام ، فقد كان الأمر أشبه بالغرق في أكداس من الثلج ... . غطت نفسها بالجلود إلى ما فوق رأسها وجذبت ركبتيها حتى ذقنها ، وحشرت يديها في صدرها : هكذا اضطجعت وبكت : أحياناً بصوت هادئ خفيف ودموع منهمرة ، وأحياناً بصوت عال وهي تصرّ بأسنانها . ولكن مع مرور الوقت دفأت السرير من حولها جيداً حتى أصبحت وسنى ، وظلت تبكي حتى نامت .

٥

في ربيع السنة التي بلغت فيها كريستين سن الخامسة عشرة ، تواعد لافرانس بيورغولفسون وسير أندرس غودموندسون أوف دايفرين على اللقاء في «هوليديس ثينغ» . وهناك اتفقا أن يتزوج ابن أندرس الثاني ، سايمون ، من كريستين لافرنسداتر وأن يحصلا على «فورمو» ، وهي إقطاعية كانت تعود لأم سير أندرس ، وعلى هذا تصافح الرجلان ، ولكن دون تدوين خطي بعد ، فقد كان على السير أندرس أن يتفق بعد مع أولاده الآخرين حول ميراثهم . لهذا السبب لم تنصب وليمة الخطوبة ، ولكن السير أندرس وسايمون وصلا إلى يورونداغارد ليشاهدا العروس وأقام لهم لافرانس وليمة كبيرة .

في ذلك الحين كان قد سبق للافرانس أن بنى منزله الجديد ذا الطابقين ، مع مدفأتي زاوية معمرتين في كل من غرفة المعيشة والعلية فوقها ، وقد زخرفهما وزينهما بمنحوتات خشبية جميلة . كان قد أعاد بناء العلية أيضاً ، وحسّن الأبنية الأخرى بطرق كثيرة ، حتى أصبح منزله الآن ملائماً لـ «اسكواير» [منزلة دون مرتبة الفارس/ المترجم] مع شعار النبالة . كان غنياً جداً الآن ، فقد كان محظوظاً جداً في صفقاته وكان حكيماً

وحريصاً على بضاعته . وكان معروفاً أكثر من أي شيء آخر كمربّ لأفضل الجياد وأحسن القطعان من كل الأنواع . وكان قادراً الآن على أن يرتب زواج ابنته من آل «ديفرين» وإقطاعية «فورمو» ، وكان الجميع قد اعتبروا أنه قد استطاع أن يجد نهاية طيبة لغايته في أن يصبح صاحب المقام الأول في الريف . كان هو وراغنفريد أيضاً مسرورين بالخطوبة ، وكذلك السير أندرس و[ابنه] سايمون .

كانت كريستين خائبة الأمل قليلاً حين رأت سايمون أندرسون للمرة الأولى . كانت قد سمعت كلاماً كثيراً عن وسامته وتصرفاته اللائقة ، لذلك تجاوزت كل الحدود في آمالها لما سيكون عليه عريسها .

كان سايمون جيد المظهر ، ولكنه كان بديناً نوعاً ما لشاب في العشرين . كان قصير العنق وله وجه مستدير ولامع كالقمر . كان له شعر جميل ، بني ومجعّد ، وكانت عيناه رماديتين وصافيتين ، ولكنهما غائرتان ، كأنما أغلق عليهما ، وكان جفناه سميكين جداً . أما أنفه فكان صغيراً جداً ، وكان فمه صغيراً أيضاً إلاّ أنه ناتئ ، ولكن ليس قبيحاً . ورغم بدانته كان خفيفاً وسريعاً ورشيقاً في كل أساليبه وماهراً في كل الرياضات . كان نشيطاً جداً ومنطلقاً في الكلام ، ولكن لافرانس قال إنه أبدى ذكاء طيباً وثقافة حين تحدث مع رجال أكبر سناً منه .

سرعان ما أحبته راغنفريد ، كما أحبته أولفهيلد أعظم الحب : كان ألطف وأشفق على الطفلة الصغيرة المريضة من أي شخص آخر . وحين أضحت كريستين معتادة قليلاً على وجهه المدور وطريقته في الكلام ؛ فقد راحت تصبح راضية عن خطيبها وسعيدة بالأسلوب الذي اتبعه أبوها في ترتيب الأمور لها .

حضرت الليدي آشيلد في المأدبة . ومنذ أن فتحت يوروندغارد أبوابها

لها ، فإن علية القوم في الأبرشيات المجاورة قد بدأوا يتذكرون نسبها العالي ويفكرون أقل في سمعتها الملتبسة ، لذلك أصبحت الليدي تظهر أكثر فأكثر بين الناس . قالت بعد أن رأت سايمون :

« إنه زواج ملائم يا كريستين . سايمون هذا له مستقبل في هذا العالم : سينجيك من هموم كثيرة وسيكون العيش معه جيداً . ولكنه يبدو لي بديناً جداً إلى حد ما ومرحاً جداً . لو كانت الحال في النرويج الآن كما كانت في الأيام الماضية ، وكما هي لا تزال في بعض البلدان الأخرى ، أي حين لم يكن الناس أكثر قسوة مع الخاطئين مما هو الرب نفسه ، لقلت إن عليك أن تجدي صديقاً نحيلاً وحزيناً ، شخصاً تستطيعين الجلوس والحديث معه . ثم لقلت ما كان يمكنك أن تجدي أفضل من سايمون » .

احمر وجه كريستين ، رغم أنها لم تفهم جيداً معنى كلمات الليدي . ومع مرور الزمن وامتلاء صناديق جهازها ، راحت تسمع دائماً الكلام عن عرسها ، وما الذي ستأخذه إلى منزلها الجديد ، بدأت تتوق إلى أن يتم ربط عقدة الخطبة مرة وإلى الأبد ، وأن يأتي سايمون شمالاً . وهكذا فكرت فيه كثيراً في النهاية ، وكانت سعيدة بالتفكير في أنها ستجتمع به مجدداً .

•

كانت كريستين قد نضجت الآن وأصبحت جميلة تملأ العين . كانت أشبه بأبيها وقد أضحت طويلة القد ، ذات خصر نحيل وأطراف ومفاصل رشيقة ورقيقة ، إلا أنها مستديرة وممتلئة كذلك . كان وجهها قصيراً ومدوراً نوعاً ما ، وجبينها منخفضاً وعريضاً وأبيض كالحليب ، أما عيناها فكانتا واسعتين ولطيفتين ، تحت حاجبين مرسومين على نحو ملائم . كان فمها كبيراً نوعاً ما ، ولكن بشفتين حمراوين ممتلئتين لامعتين . أما ذقنها فكان

مستديراً مثل تفاحة ذات شكل جيد . كان شعرها طويلاً وكثيفاً ، ولكن لونه داكن نوعاً ما ، تقريباً بني بقدر ما هو أصفر وسبط تماماً . ما كان لافرانس يحب شيئاً كما يحب سماع سيرا آيريك يتفاخر بكريستين : لقد رأى الكاهن الفتاة وهي تنمو ، ودرّسها الكتب والكتابة ، وأحبها كثيراً . ولكن الأب لم يكن مسروراً جداً حين كان الكاهن يشبّهها أحياناً بمهرة خالية من العيوب وذات بشرة من الحرير .

ولكن الجميع كانوا يقولون إنه لولا ذلك الحادث المؤسف لكانت أولفهيلد أجمل من أختها بكثير . كان لها أجمل وأعذب وجه ، أبيض وأحمر كالسوسن والورد ، وشعر أصفر فاتح ، ناعم كالحرير ، كان يتموج ويلتصق برقبتها الرقيقة وكتفيها الصغيرتين . كانت عيناها أشبه بعيني آل غييسلينغ . كانتا غائرتين ، تحت حاجبين مستقيمين داكنين ؛ وكانتا صافيتين كالماء وبلون أزرق رمادي . ولكن نظرتها كانت رقيقة ، وليست حادة كنظراتهم . كما كان صوت الطفلة شديد الصفاء وجميلاً ، حتى أنه كان أمراً ممتعاً الإصغاء إليها ، سواء حين تتكلم أو تغني . كانت كفءاً في التعلم من الكتب وفي عزف كل أنواع الآلات الوترية وفي لعب الداما ، ولكن ما كانت تميل كثيراً إلى العمل بيديها ، إذ سرعان ما كان ظهرها يؤلمها .

بدا أن هذه الطفلة الجميلة لن يكون أمامها أمل كبير في أن تستطيع استخدام أطرافها استخداماً سوياً . صحيح أنها كانت قد تحسنت قليلاً بعد أن اصطحبها أبوها وأمها إلى «نيداروس» إلى مقام القديس أولاف . لقد ذهب لافرانس وراغنفريد إلى هناك مشياً على الأقدام ، دون رجل أو خادمة تعتني بهما . وقد حملا الطفلة فيما بينهما على محفة طوال الطريق . بعد الرحلة تحسنت أولفهيلد كثيراً حتى أنها أصبحت قادرة على المشي قليلاً على عكاز . ولكنهما لم يستطيعا أن يأملا أنها ستتحسن إلى درجة تتزوج

معها ، لذلك ، عندما يحين الوقت ، فلا بدّ من إرسالها إلى دير مع كل الثروة التي ستكون من نصيبها .

لم يكونا يتحدثان عن هذا ، وكانت أولفهيلد نفسها لا تعرف إلا بالكاد كم كانت مختلفة عن الأطفال الآخرين . كانت مغرمة جداً بالحلي المبهرجة والملابس الجميلة ، وما كان أبوها وأمها ليتجرآ على إنكار أي شيء عليها . لذلك خاطت راغنفريد لها وزيّنتها كابنة ملك . مرة مرّ بعض الباعة الجوالين بالأبرشية ، وباتوا ليلة في «لاوغاربرو» ، وشاهدت أولفهيلد بعض أغراضهم هناك . كان معهم حرير بلون الكهرمان ، وقد تمنت أن تنال شيئاً منه . ما كان لافرانس ميّالاً إلى التعامل مع مثل هؤلاء الناس ، الذين كانوا يتجولون ويتصرفون ضد القانون ، فقد كانوا يبيعون حوائج من بلدات السوق في أبرشيات الريف ؛ ولكنه اشترى منهم الرزمة كلها على الفور . أعطى كريستين بعض القماش أيضاً لتصنع منه قميص العرس ، وكانت تخيطه في هذا الصيف . حتى الآن كانت كل القمصان التي بحوزتها من الصوف أو من الكتان في أفضل الأحيان . ولكن أولفهيلد كان لديها قميص من حرير الآن لأجل الأعياذ وقميص كتاني لأيام الأحد مع ثوب حرير من فوقه .

كان لافرانس بيورغولفسون يملك لاوغاربرو أيضاً ، وكانت تورديس و يون مسؤولين هناك . كانت معهما الآن رامبورغ ، أصغر بنات لافرانس وراغنفريد ، التي كانت تورديس ترضعها . كانت راغنفريد لا تنظر إلا بالكاد إلى الطفلة وظلت هكذا لبعض الوقت بعد ولادتها ، إذ كانت تقول إنها تجلب سوء الطالع لأولادها . ومع ذلك فقد أحبت الفتاة الصغيرة كثيراً وكانت ترسل الهدايا إليها وإلى تورديس على الدوام . ثم راحت لاحقاً تزور لاوغربرو غالباً لترى رامبورغ ، ولكنها كانت تحب القدوم بعد نوم الطفلة لتجلس إلى جوارها . كان لافرانس والبنتان الأكبر يأتون غالباً إلى لاوغربرو

للعب مع الصغيرة . كانت طفلة قوية مليئة بالصحة ، ولكن ليست على ذلك القدر من الجمال الذي كانت عليه أختاها .

•

كان هذا آخر صيف يقضيه آرن غيردسون في يوروندغارد . كان الأسقف قد وعد غيرد بمساعدة الشاب في تلمس طريقه في هذا العالم ، وكان على آرن الانطلاق في الخريف نحو هامار .

كانت كريستين على علم بأنها عزيزة على آرن ،و لكنها كانت لا تزال من نواح كثيرة طفلة في تفكيرها وما كانت تفكر إلا قليلاً في ذلك ، وتعامله كما كانت تفعل دائماً منذ كانا طفلين . كانت تبقى معه أطول فترة ممكنة وتقف دائماً معه حين يكون هناك رقص في البيت أو على مرج الكنيسة . أمّا ألاّ تحب أمها ذلك فهو نكتة في رأيها . ولكنها لم تذكر سايمون أو زفافها أمام آرن ، فقد لاحظت أنه كان يصبح حزيناً حين يجري الحديث عن ذلك .

كان آرن رجلاً ماهراً جداً وكان يصنع لكريستين كرسي خياطة[٩] الآن كتذكار . كان قد غطى الصندوق وإطار الكرسي بنحت جميل أنيق ، وكان منهمكاً الآن في صنع اليدين الحديد مع قفل . في إحدى الأمسيات الجميلة في أواخر الصيف نزلت كريستين إليه . كانت قد أخذت معها سترة لأبيها كان عليها إصلاحها ، وجلست على العتبة الحجرية تخيط وهي تحادث الشاب الموجود في دكان الحدادة . كانت أولفهيلد معها وهي تقفز على عكازها في أرجاء المكان ، وتأكل من الفريز البري الذي ينمو بين أكوام الحجارة حول الحقول .

بعد حين اقترب آرن من باب دكان الحدادة ليبترد . تظاهر كأنه

سيجلس قرب كريستين ، ولكنها ابتعدت عنه قليلاً وطلبت منه أن ينتبه لئلا يوسخ ماكانت تخيطه على ركبتها .

قال آرن : « هل وصلت الأمور بيننا إلى حد أنك ما عدت تجرؤين على السماح لي بالجلوس إلى جانبك خشية أن يلوثك الغلام القروي ؟ »

نظرت كريستين مستغربة وقالت :

« أنت تعرف جيداً ما كنت أعنيه . ولكن هيا اخلع مريلتك واغسل الفحم عن يديك واجلس قليلاً واسترح إلى القرب مني هنا... » ثم وسعت له مكاناً .

ولكن آرن جلس على العشب أمامها ، ثم قالت له مجدداً :

« هيا ، لا تغضب يا عزيزي آرن . أتظن أني غير ممتنة للهدية الرائعة التي تصنعها لي أو أني نسيت أنك كنت خير صديق لي في البيت هنا طوال أيام حياتي ؟ »

سألها : « و هل كنت كذلك ؟ »

قالت كريستين : « أنت تعرف ذلك جيداً ، ولن أنساك أبداً . ولكن أنت الذي سيخرج إلى العالم ـ أتمنى لك أن تكسب الثروة والشرف اللذين تأمل فيهما ـ قد تنساني قبل أن أنساك بفترة طويلة » .

قال آرن مبتسماً : « ألن تنسيني أبداً ؟ وهل سأنساك أنا قبل أن تنسيني ؟ أنت مجرد طفلة يا كريستين » .

أجابت : « وأنت لست كبيراً إلى ذلك الحد يا آرن » .

قال مجدداً : « أنا في عمر سايمون دار . ونحن نلبس الخوذة ونحمل الترس شأن آل دايفرين ، ولكن أهلي ليسوا أصحاب ثروة » .

كان قد جفف يديه على خصل العشب وأخذ الآن بكاحل كريستين وضغط بوجنته على القدم البارزة من تحت ثوبها . كانت ستسحب قدمها بعيداً ولكن آرن قال :

«أمك في لاوغاربرو وأبوك في طريقه إلى هناك على حصانه... من المنازل لا أحد يستطيع رؤيتنا هنا حيث نجلس . بالتأكيد تستطيعين السماح لي بالتحدث إليك هذه المرة عمّا هو في خاطري» .

أجابت كريستين :

«لقد عرفنا طوال عمرنا ، أنت وأنا ، أنه لن يكون أمراً ذا جدوى أن يحب أحدنا الآخر» .

قال آرن : «هل لي أن أضع رأسي في حجرك ؟ وبما أنها لم تجب ، فقد وضع رأسه في حجرها وعانق بذراعه خصرها . وبيده الأخرى راح يشد خصل شعرها .

سألها بعد فترة قصيرة : «كيف ستشعرين لو أن سايمون وضع رأسه في حجرك هكذا وداعب شعرك ؟»

لم تجب كريستين . بدا وكأن ثقلاً قد هبط عليها فجأة ـ كلمات آرن ورأس آرن في حجرها ـ بدا لها وكأن باباً قد انفتح إلى غرفة فيها دهاليز معتمة تؤدي إلى عتمة أكبر ، حزينة وثقيلة على القلب ، فتعثرت ولم تجرؤ على التطلع إلى الداخل .

«ليس من عادة الأشخاص المتزوجين أن يفعلوا مثل هذا» ، هذا ما قالته فجأة وبسرعة ، وكأن ثقلاً قد خف عنها . حاولت أن ترى وجه سايمون السمين المستدير ينظر إليها كما ينظر آرن الآن . سمعت صوته ، ولم تستطع مغالبة الضحك :

«أعتقد أن سايمون لن يجلس أبداً على الأرض ليداعب حذائي ، ليس هو!»

قال آرن : «لا ، فهو يستطيع اللعب معك في سريره» . جعلها صوته تشعر بالغثيان والعجز في آن معاً . حاولت أن تدفع برأسه بعيداً عن حجرها ، ولكنه ضغطه على ركبتيها وقال بصوت لطيف :

« و لكنني سأداعب حذاءك وشعرك وأصابعك ، وسألاحقك في الخارج وطوال النهار يا كريستين ، لو أنك تكونين زوجتي وتنامين بين ذراعي في كل ليلة » .

نهض قليلاً ووضع ذراعه حول كتفها وحدق إلى عينيها .

قالت كريستين بخجل وبصوت خفيض : « لا يليق بك أن تكلمني على هذا النحو » .

قال آرن : « لا » . ثم نهض ووقف أمامها . « و لكن قولي لي شيئاً واحداً : أما كنت تفضلين بالأحرى لو كنت أنا... ؟ » .

« أوه! كنت أفضل... » ـ جلست هادئة لبعض الوقت ـ « ... لكنت أفضل ألا يكون لدي أي رجل... ليس بعد... »

لم يتحرك آرن ، ولكنه قال :

« هل تفضلين أن تكرسي نفسك للدير إذن ، كما سيحدث لأولفهيلد ، وتبقين عذراء طوال حياتك ؟ »

ضغطت كريستين يديها المثنيتين في حجرها . اعترتها رجفة غريبة عذبة ، وبرعدة مفاجئة بدت أنها تفهم كم ستكون أختها موضع شفقة... امتلأت عيناها بدموع الأسى على أولفهيلد .

قال آرن بصوت خفيض : « كريستين! »

في تلك اللحظة وصل زعيق حاد من أولفهيلد . كان عكازها قد علق بين الأحجار فسقطت أرضاً . هرع آرن وكريستين إليها ، ورفعها آرن إلى ذراعي أختها . كانت قد جرحت فمها ، وتدفق الكثير من الدم من الجرح .

جلست كريستين معها عند باب دكان الحدادة ، وجلب آرن بعض الماء في وعاء خشبي . راحا يغسلان ويمسحان وجهها معاً . كانت ركبتاها

قد تأذتا أيضاً . انحنت كريستين بحنان على الساقين الصغيرتين النحيلتين .

سرعان ما خف نحيب أولفهيلد ، إلا أنها راحت تبكي بصمت ومرارة كما يفعل الأطفال المعتادون على تحمل الألم . ضمت كريستين رأس أولفهيلد إلى صدرها وهدهدتها برقة .

ثم بدأ الجرس يرن لأجل صلاة المساء في كنيسة أولاف .

تحدث آرن إلى كريستين ، ولكنها جلست منحنية فو ق أختها وكأنها لا تسمعه ولا تلحظ وجوده ، لذلك حدث أخيراً أن أصبح خائفاً وسأل إن كان هناك خطر من الحادث . هزت كريستين رأسها ، ولكنها لم تنظر إليه .

وسرعان ما نهضت ومضت نحو المزرعة ، وهي تحمل أولفهيلد بين ذراعيها . تبعهما آرن صامتاً ومنزعجاً : بدت كريستين غارقة في أفكارها ، وكان وجهها جدياً وقاسياً . وبينما راحت تمشي ، كان الجرس مستمراً في الرنين عبر المروج والوادي . كان لا يزال يرن وهي تدخل المنزل .

وضعت أولفهيلد في السرير الذي تتشارك فيه الأختان منذ أن كبرت كريستين بحيث لم يعد ممكناً أن تنام قرب أبيها وأمها . خلعت حذاءها ونامت قرب الصغيرة : تمددت وأصغت إلى صوت الجرس لوقت طويل بعد أن صمت ونامت الطفلة .

خطر لها أنه مع بداية رنين الجرس ، وبينما كانت تجلس مع وجه أولفهيلد الدامي بين يديها ، أنه ربما كان في هذا إشارة لها . لو ذهبت إلى الدير بدلاً من أختها ، لو أنها تنذر نفسها لخدمة الرب ومريم العذراء ، أفلا يمكن أن يعطي الرب الطفلة الصحة والقوة مجدداً ؟

فكرت بكلمة الأخ إدفين : أنه في هذه الأيام توهب فقط المشوهات والمعاقات وأولئك اللواتي لا يمكن إيجاد أزواج مناسبين لهن إلى الرب من قبل آبائهن وأمهاتهن . كانت تعرف أن أباها وأمها شخصان ورعان ــ و لكن

لم تسمع منهما قط أي شيء عدا أن عليها أن تتزوج ـ ولكن حين فهما أن أولفهيلد ستبقى سقيمة طوال حياتها ، فقد خططا مباشرة لذهابها إلى الدير...

و هي لم تكن راغبة في ذلك ـ كانت تكافح ضد فكرة أن الرب سيقوم بمعجزة لأولفهيلد لو أصبحت هي راهبة . تعلقت بعبارة سيرا آيريك بأنه في هذه الأيام لا يحدث الكثير من المعجزات . ومع ذلك أحست هذا المساء أن الأخ إدفين كان على حق حين قال إنه لو كان لدى الإنسان ما يكفي من الإيمان ، فإن إيمانه قد يصنع المعجزات . ولكنها لم تكن راغبة في أن يكون لها مثل ذلك الإيمان هي نفسها ، لم تكن تحب الرب وأمه والقديسين إلى هذا الحد الكبير ، ولم تكن ترغب حتى في أن تحبهم إلى ذلك الحد : كانت تحب الدنيا وتتوق للدنيا .

ضغطت كريستين شفتيها على شعر أولفهيلد الناعم الحريري . نامت الطفلة نوماً عميقاً ، وجلست الأخت الكبرى قلقة ، ولكنها سرعان ما اضطجعت مجدداً . كان قلبها ينزف حسرة وخجلاً ، ولكنها عرفت أنها لم ترغب في الإيمان بالرموز والأعاجيب ، لأنها لن تتخلى عن إرثها من الصحة والجمال والحب .

لذلك حاولت تهدئة نفسها بالفكرة التي مفادها أن أباها وأمها لن يكونا راغبين في أن يكون عليها أن تفعل مثل هذا الأمر . ولا هما سيعتقدان أنه سيكون أمراً مفيداً . ثم هي أصبحت مخطوبة مسبقاً ، وكانت على ثقة من أنهما لن يتخلّيا عن سايمون الذي كانا متعلقين به جداً . لقد شعرت أن افتخارهما الشديد بهذا الصهر هو خيانة لنفسها . وفجأة فكرت بكره في وجه سايمون المستدير الأحمر وعينيه الصغيرتين الضاحكتين ـ مشيته المرحة ـ كان يقفز كالكرة ، وقد خطر هذا لها على الفور . تذكرت حديثه المازح الذي كان يجعلها تشعر بالارتباك والحمق . لم يكن هناك مجد كبير في

الحصول عليه والانتقال إلى «فورمو» معه . وكانت تفضل بالأحرى أن ترسل إلى دير . ولكن آه! العالم وراء الجبال ، قصر الملك واللوردات والفرسان الذين تحدثت عنهم ليدي آشيلد... ورجل وسيم بعينين حزينتين سيلحق بها داخلاً وخارجاً ولايتعب أبداً . فكرت بآرن ذلك اليوم الصيفي حين اضطجع على جانبه ونام وشعره البني اللامع منتشر بين نباتات الخلنج... كانت قد أحبته آنئذ كأخ . ما كان أمراً مستحسناً منه أن يكلمها كما فعل ، حين كان يعرف أنهما ما كان ممكناً لهما أن يكونا الواحد للآخر...

وصلت رسالة من لاوغربرو بأن أمها ستبيت هناك تلك الليلة . نهضت كريستين لتخلع ملابسها وتذهب لترتاح . بدأت بفك شرائط ثوبها... ثم ارتدت حذاءها مجدداً ، ورمت بعباءتها من حولها وخرجت .

كانت سماء الليل تمتد صافية وخضراء فوق قمم الجبال . لقد اقترب موعد بزوغ القمر ، ومن حيث كان الآن مختفياً وراء الجبل ، فقد جعل بعض الغيوم الصغيرة تشع في حوافها السفلى كالفضة . بدأت السماء تشتد التماعاً مثل المعدن تحت قطرات الطل المتجمعة .

ركضت بين الحواجز ، وصلت إلى الطريق ثم صعدت المنحدر نحو الكنيسة . كانت الكنيسة منتصبة هناك ، كأنما هي نائمة ، معتمة ومغلقة ، ولكنها صعدت إلى الصليب الذي كان قد نصب ليكون علامة على المكان حيث استراح ذات مرة القديس أولاف وهو هارب من أعدائه .

ركعت كريستين على الحجر ووضعت يديها المثنيتين فوق قاعدة الصليب : «أيها الصليب المقدس ، أيها الأقوى بين الصواري ، والأجمل بين الأشجار ، يا جسراً للمرضى إلى شواطئ العافية الجميلة...»

مع عبارات الصلاة ، بدا كأن توقها قد انتشر وراح يتضاءل بالتدريج كما الدوائر في بحيرة . الأفكار الفريدة التي أقلقتها راحت تتلاشى الواحدة

بعد الأخرى ، فأصبح ذهنها أهدأ وأرق وحل حزن لطيف غامض مكان كربتها .

بقيت راكعة هناك وتشربت كل أصوات الليل . تنهدت الريح على نحو غريب ، وكان صوت اندفاع الماء في النهر يصل من وراء الغابة القريبة من الكنيسة ، والنهر الصغير يجري قريباً عبر الطريق...ورأت نصف رؤية ، كل ما حولها ، القريب والبعيد ، في العتمة وسمعت تدفق جداول صغيرة من الماء الجاري والمتقطر . التمع النهر بلون أبيض في الأسفل هناك في الوادي . زحف القمر صاعداً من وراء شق صغير في الجبال... التمعت الأوراق والأحجار الندية بضعف ، وكان الخشب الذي طلي بالقار مجدداً في برج جرس الكنيسة يلتمع بلون كامد وداكن قرب بوابة الكنيسة . ثم اختبأ القمر مرة أخرى حيث برزت حافة الجبل على نحو أعلى ، وكان المزيد من الغيوم البيضاء اللامعة يعوم في السماء .

سمعت حصاناً قادماً ببطء من بقعة اعلى من الطريق ، وأصوات رجال يتحدثون بصوت خفيض ومستوٍ . لم تكن تخشى الناس القريبين من المنزل هنا حيث كانت تعرف كل شخص... لذلك أحست بالأمان تماماً .

اندفعت كلاب أبيها نحوها ، والتفتت وعادت مندفعة إلى الغابة ، ثم عادت وتقافزت عليها مجدداً . صرخ أبوها محيّياً وهو يخرج من بين أشجار البتولا . كان يقود غولدسفاينن من رسنه . كان هناك مشبك أو مشبكان من الطيور يتدليان من السرج ، وكان لافرانس يحمل صقراً له غماء فوق رسغه . كان معه رجل طويل منحن في رداء راهب ، وحتى قبل أن ترى كريستين وجهه عرفت أنه كان الأخ إدفين . ذهبت لتقابلهما دون أن يزيد عجبها عمّا لو كان ذلك حلماً... وقد ابتسمت فحسب حين سألها لافرانس إن كانت تعرف ضيفهم .

كان لافرانس قد قابله مصادفة عند جسر روست ، وقد دعاه ليقضي الليل . ولكن الأخ إدفين أصر على أن ينام في مبنى ملحق : «فأنا أصبحت قذراً جداً إلى حد أنه لا يمكن أن تضعوني في الأسرّة الجيدة» .

ورغم كل ما قاله لافرانس ورغم توسله ، إلاّ أن الراهب أصر على موقفه . بل أنه أصر في البداية على أن يقدم له الطعام في ساحة المنزل . إلا أنهم استطاعوا أخيراً إدخاله إلى القاعة معهم ، وأوقدت كريستين النار في الموقد الذي في الزاوية ووضعت شمعات على اللوح ، بينما جلبت إحدى الخادمات اللحم والشراب .

جلس الراهب على مقعد الشحاذين قرب الباب ، ورفض تناول أي طعام عدا العصيدة الباردة والماء . كما رفض عرض لافرانس بأن يستحم في حمام أعد خصيصاً له وأن تغسل ملابسه .

تململ الأخ إدفين وحك نفسه وضحك وجهه النحيل العجوز .

قال : « كلا ، كلا . هذه الأشياء تخز جلدي الفخور على نحو أفضل من السياط أو كلمات « الوصي » . كنت جالساً تحت صخرة هنا بين الجبال في هذا الصيف... فقد منحوني الإذن للخروج إلى البرية للصوم والصلاة ، وهناك كنت جالساً أتأمل : لقد كنت كناسك مقدس بالفعل . ولكن الناس الفقراء الموجودين بعيداً في ستاندال كانوا يأتونني بالطعام ، وظنوا أنهم يرون حقاً راهباً ورعاً نظيف العيش . سألوني : أيها الأخ إدفين ، لو كان هناك رهبان كثيرون مثلك ، لأصبحنا رجالاً أفضل في وقت سريع بما فيه الكفاية . ولكن حين نرى القساوسة والأساقفة والرهبان يعض واحدهم الآخر ويتشاجرون مثل الخنانيص في معلف... حسناً ، قلت لهم إن حديثهم ذاك يخالف تعاليم الدين المسيحي ، ولكني أحببت أن أسمعهم ، وقد غنيت وصليت حتى رن الجبل مجدداً . والآن هل سيكون أمراً صحياً أن أشعر بالقمل يلدغني ويتقاتل فوق

جلدي وأن أسمع الزوجات الطيبات ، اللواتي يرعين بيوتاً نظيفة ومرتبة ، يصرخن : « ذلك الخنزير الراهب يمكنه أن يبقى خارج الحظيرة طالما الفصل هو الصيف ، أنا متجه شمالاً الآن إلى نيداروس لأجل عيد القديس أولاف ، وسيكون في صالحي أن أميز أن الناس ليسوا مسرورين جداً بالاقتراب مني... »

استيقظت أولفهيلد فذهب لافرانس ورفعها ولفها بعباءته :

« ها هي الطفلة التي تحدثت عنها أيها الأب العزيز . ضع يدك عليها وصلّ لله لأجلها كما صليت للصبي هناك بعيداً في الشمال في ميلدال والذي سمعنا أنه استرد عافيته... »

رفع الراهب ذقن أولفهيلد برقة ونظر إلى وجهها . ثم رفع إحدى يديها وقبلها .

« بل الأجدر بك وبزوجتك يا لافرانس بيورغولفسون أن تصليا بالأحرى حتى لا تتعرضا للإغراء فتحاولان توجيه إرادة الرب حول هذه الطفلة توجيهاً آخر . إن ربنا يسوع نفسه سيقودها بكل تأكيد إلى دار السلام... أستطيع أن أرى ذلك في عينيك يا أولفهيلد المباركة ، فأنت لديك شفعاؤك في دارنا الثانية » .

« لقد شفي الصبي في ميلدال ، كما سمعت » ، قال لافرانس بصوت خفيض .

« كان الطفل الوحيد لأرملة فقيرة ، ولم يكن هناك سوى الأبرشية لتطعمه وتكسيه حين تموت أمه . ومع ذلك فإن المرأة صلت للرب بأن يمنحها قلباً جريئاً حتى تؤمن بأن الرب لن يقرر إلاّ ما هو الأفضل للغلام . وكل ما فعلته هو أني شاركت في صلاتها تلك » .

« من الصعب على أمها وعليّ أن نقنع بهذا » ، أجاب لافرانس بحزن . « طالما أنها جميلة وطيبة إلى هذا الحد » .

سأل الراهب : «هل رأيت الطفلة في ليدستاد ، إلى الجنوب في ديل ؛ أتفضل أن تكون طفلتك مثلها ؟ »

ارتعد لافرانس وضم الطفلة إليه .

قال الأخ إدفين مجدداً : «ألا تعتقد أننا كلنا في عيني الرب مجرد أطفال ؟ ومع ذلك لا نعتقد أننا مخطئون إلى ذلك الحد في هذه الدنيا » .

مضى نحو صورة مريم العذراء فوق الجدار ، وركع الجميع بينما تلا هو صلاة المساء . بدا لهم أن الأخ إدفين قد منحهم سلوى طيبة .

ولكن رغم ذلك ، وبعد أن غادر الغرفة إلى مكان راحته ، فإن أستريد ، رئيسة الخادمات ، كنست بعناية كل تلك الأجزاء من الأرضية حيث وقف الراهب ورمت بالكناسة فوراً إلى النار .

●

في صباح اليوم التالي استيقظت كريستين باكراً ، أخذت عصيدة الحليب وكعك القمح في طبق كبير من خشب البتولا المجزع باللهب ــ فقد كانت تعرف أن الراهب لا يلمس اللحم ــ وحملته بنفسها إليه . ولكن لم يكن هناك سوى عدد قليل من الناس في المنازل .

كان الأخ إدفين واقفاً فوق جسر حظيرة البقر ، مستعداً للانطلاق في طريقه مع عصاه وحقيبته . وقد شكر كريستين بابتسامة على جهودها وجلس على العشب وراح يأكل ، بينما جلست كريستين عند قدميه .

وصل كلبها الأبيض الصغير وهو يجري ، والأجراس الصغيرة تصلصل على رقبته . وضعته في حجرها ، ففرقع الأخ إدفين بأصابعه تجاهه وراح يرمي بقطع من كعك القمح في فمه ، ويثني عليه كثيراً .

قال : «هذه سلالة جلبتها الملكة « يوفيميا » إلى هذا البلد . تعيشون

عيشة جيدة هنا في يورونذغارد الآن ، من حيث الأمور الصغيرة والكبيرة » .

احمر وجه كريستين فرحاً . لقد سبق لها وعرفت أن الكلب كان من سلالة جيدة ، وكانت فخورة بامتلاكه . لم يكن لدى أي شخص آخر في الأبرشية كلب حضن . ولكنها لم تكن تعرف أنه من السلالة نفسها التي لكلاب الملكة المدلّلة .

«لقد أرسله إليّ سايمون أندرسون ، ثم ضمته إليها ، وراح يلعق وجهها . اسمه كورتلين» .

كانت قد فكرت في التحدث إلى الراهب حول مشكلتها ، وأن ترجو منه المشورة . ولكن لم يعد لديها رغبة في أن تترك عقلها يتأمل في أفكار الأمسية الماضية . كان الأخ إدفين متأكداً من أن الرب سيحول كل الأمورإلى الأفضل فيما يخص أولفهيلد . وكان أمراً جيداً لسايمون أن يرسل لها مثل هذه الهدية حتى قبل تثبيت خطوبتهما . لن تفكر بآرن : فهو لم يتصرف جيداً معها كما كان يتوجب عليه ، هكذا فكرت .

تناول الأخ إدفين عصاه وحقيبته ، وطلب من كريستين أن تودّع من في البيت... فهو لن يبقى حتى يستيقظ الجميع بل سيمضي والنهار لا يزال بارداً . رافقته حتى ما وراء الكنيسة وإلى مسافة صغيرة في الغابة .

حين ودعا الواحد الآخر تمنى لها سلاماً من الرب وباركها . قالت كريستين راجية وهي واقفة ويده في يدها : «أعطني وعداً ، كالوعد الذي أعطيته لأولفهيلد أيها الأب العزيز» .

حك الراهب قدمه الحافية ، التي ملأها النقرس بالعقد ، بالعشب الرطب :

«إذن سأطلب إليك يا ابنتي أن تحفظي في قلبك كيف أن الرب يهتم بصالح الناس هنا في «ديل» . لا يسقط هنا سوى القليل من المطر ، ولكنه

أعطاكم الماء من الجبال ، ويرطب الندى المرج والحقل كل ليلة . اشكري الرب على عطاياه الطيبة التي منحكم إياها ، ولا تتذمري إذا بدا أنك تفتقدين أي شيء تظنين أنه كان يليق بك الحصول عليه إضافياً . لك شعر جميل أصفر ، لذلك لا تتذمري لأنه ليس مجعداً . ألم تسمعي بالزوجة العجوز التي جلست وبكت لأنه ليس لديها سوى قضمة واحدة من لحم الخنزير تعطيها إلى أولادها السبعة الصغار في احتفال عيد الميلاد ؟ في الوقت الملائم مرّ القديس أولاف راكباً ، ومدّ يده فوق اللحم وصلّى للرب حتى يمنح الغربان الصغيرة ما يملأ بطونها . ولكن حين رأت المرأة جثة الخنزير الكاملة فوق المائدة ، بكت لأنه لم تكن لديها قدور وأطباق كافية! »

عدت كريستين عائدة نحو البيت وكورتلين يرقص عند كاحليها ، ويعض على حواشي ثوبها ، وينبح ويرن كل أجراسه الفضية الصغيرة .

٦

مكث آرن في المنزل في فينسبريكن في الأيام الأخيرة قبل الانطلاق إلى هامار . كانت أمه وأخواته يجهزن له ملابسه .

في اليوم السابق على ذهابه جنوباً ، أتى آرن إلى يوروندغارد لأجل الوداع . وقد اغتنم الفرصة ليهمس لكريستين : هل لها أن تقابله على الطريق جنوب لاوغربرو في مساء اليوم التالي ؟

قال : « سأكون سعيداً جداً لو أتيح لكلينا أن نكون وحدنا في المرة الأخيرة التي سنلتقي فيها . هل طلبي هذا أمر جلل ؟ » ثم قال : « على أي حال ، فقد تربينا معاً مثل أخ وأخت » ، وذلك حين ترددت كريستين قبل الرد عليه .

لذلك وعدته بالقدوم إذا استطاعت أن تنسلّ من البيت .

هطل الثلج في صباح اليوم التالي ، ولكن خلال النهار بدأ المطر بالهطول ، وسرعان ما أضحت الطرقات والحقول بحراً من الوحل الرمادي . كانت أكاليل من الضباب معلقة أو تنجرف على امتداد حواف الجبال المنخفضة . بين الحين والآخر كانت تهبط إلى مستوى أدنى وتتجمع في لفائف بيضاء على امتداد جذور الجبال . ثم تطبق غيوم المطر الكثيفة مجدداً .

وصل سيرا آيريك لمساعدة لافرانس في تنظيم بعض الصكوك . نزلا إلى غرفة الموقد ، ففي مثل هذا الطقس كانت هذه الغرفة ألطف من القاعة الكبرى ، حيث الموقد يملأ الغرفة بالدخان . كانت راغنفريد في لاوغربرو حيث كانت رامبورغ تتعافى بعد إصابتها بالحمى منذ أول الخريف .

وهكذا لم يكن صعباً على كريستين أن تنسلّ دون أن يراها أحد ، ولكنها لم تجرؤ على أخذ حصان ، لذلك ذهبت مشياً على الأقدام . كانت الطريق مستنقعاً من الوحل الثلجي والأوراق الذابلة . كانت هناك رائحة موت محزنة وتعفن في الهواء البارد القارس . وبين الحين والآخر كانت تهب عصفة هواء تجعل المطر يضرب وجهها . رفعت قلنسوتها جيداً فوق رأسها ، وبينما راحت تمسك بالعباءة جيداً بكلتا يديها ، مضت نحو الأمام . كانت خائفة قليلاً : فقد بدا هدير النهر شديد العمق في الهواء الثقيل ، وكانت الغيوم تسير داكنة ومهلهلة فوق قمم الجبال . بين الحين والآخر كانت تتوقف لتصغي إلى صوت آرن قادماً .

بعد حين سمعت صوت حوافر حصان تغوص في الوحل على الطريق من خلفها ، وتوقفت حينها حيث كانت ، لأنها كانت بقعة منعزلة نوعاً ما وفكرت في أنه مكان جيد لهما ليودّعا الواحد الآخر في هدوء . وعلى الفور تقريباً رأت الفارس وقفز آرن من على حصانه وقاده وهو قادم ليقابلها .

قال : «لطيف منك أن تأتي في هذا الطقس الرديء» .

«كان الأمر أسوأ بالنسبة إليك حيث أنك قطعت كل هذه المسافة . ولماذا حددت الموعد متأخراً إلى هذا الحد ؟»

«لقد أمرني يون بأن أمكث الليل في لوبتسغارد» ، أجاب آرن . «ظننت أنه من الأسهل عليك أن تقابليني في هذا الوقت من النهار» .

وقفا صامتين برهة . فكرت كريستين في أنها لم تر مطلقاً من قبل كم كان آرن وسيماً . كان يضع قبعة فولاذية صقيلة وتحتها قبعة صوفية بنية كانت تحيط جيداً بوجهه وتنتشر حتى كتفيه . تحتها كان وجهه النحيل يظهر لامعاً ووسيماً . كان يرتدي سترة جلدية طويلة ضيقة دون كمين مبقعة بالصدأ وقد ترك الدرع الذي كان قد ارتدي فوقها آثاره عليها ـ كان آرن قد أخذها عن أبيه ـ ولكنها كانت تلائم جيداً جسده الرشيق الخفيف القوي ، وكان يحمل سيفاً إلى جانبه ورمحاً في يده... أما أسلحته الأخرى فكانت معلقة في سرجه . كان مكتمل النمو الآن ويتصرف برجولة .

وضعت يدها عل كتفه وقالت :

« أتذكر يا آرن أنك سألتني ذات مرة إن كنت أعتبرك رجلاً جيداً بقدر سايمون أندرسون ؟ الآن سأقول لك أمراً واحداً ، قبل أن نفترق . أنت تبدو لي أفضل منه مظهراً وقامة بكثير ، كما هو يعتبر أفضل منك من حيث النسب الرفيع والثروة من قبل أولئك الذين يركزون اهتمامهم على مثل هذه الأشياء » .

« لم تقولين لي ذلك ؟ » سأل آرن مبهور الأنفاس .

« لأن الأخ إدفين طلب مني أن أشكر الرب من كل قلبي على عطاياه الطيبة ، وألا أكون مثل المرأة التي حين أضاف القديس أولاف اللحم إلى ما لديها من لحم بكت لأنه لم يكن لديها قدور تضعه فيها... لذلك ليس عليك الآن أن تحزن لأنّ الرب لم يهبك من الثروات ما وهبك من العطايا البدنية... »

« هل عنيت ذلك ؟ » قال آرن . ثم حين بقيت صامتة قال :

« تساءلت إن كنت قد عنيت أنك تفضلين بالأحرى الزواج مني على الزواج من ذاك الآخر... »

« سأفعل حقاً » ، قالت بصوت خفيض . « ...أعرفك على نحو أفضل » .

رمى آرن بذراعيه من حولها حتى أن قدميها ارتفعتا عن الأرض . قبّل وجهها مرات كثيرة ، ثم أنزلها :

«فليساعدنا الرب يا كريستين ، لكم أنت طفلة!» .

وقفت ودلت رأسها ، ولكنها تركت يديها فوق كتفيه . أمسك برسغيها بشدة :

«أرى كيف هي الأمور معك يا حبيبتي : أنت لا تعرفين إلا القليل كم أنا قلبي منفطر على خسارتك . يا كريستين ، تعرفين أننا ترعرعنا معاً كتفاحتين على غصن واحد . لقد أحببتك منذ زمن طويل قبل أن أبدأ بفهم أنه في أحد الأيام سيأتي شخص آخر ويختطفك مني . وكما عانى الرب الموت من أجلنا جميعاً... لا أعرف كيف سأكون سعيداً مرة أخرى في هذه الدنيا بعد هذا اليوم...»

بكت كريستين بمرارة ورفعت وجهها ، حتى يقبلها .

« لاتتحدّث على هذا النحو يا آرن » ، رجته ثم ربتت على كتفه .

« كريستين » ، قال آرن بصوت خفيض ثم أخذها بين ذراعيه مجدداً ؟

«ألا تظنين أنك لو رجوت أباك ـ فلافرانس رجل طيب جداً ، وهو لن يجبرك ضد إرادتك ـ لو رجوتهم أن يمهلوك بضع سنوات ، فلا يعرف أحد أي ثروة قد تهبط عليّ... فكلانا لا يزال شاباً...»

«أوه ، أخشى أن عليّ أن أفعل في البيت ما يرغبون فيه ،» وبكت .

والآن بكى آرن أيضاً .

«أنت لا تعرفين يا كريستين كم أنت عزيزة عليّ» . خبأ وجهه في كتفها . «لو عرفت ولو اهتممت بي ، لكنت ذهبت إلى لافرانس ورجوته بشدة...»

نشجت : «لا أستطيع فعل ذلك . ما كنت لأستطيع أن أحب رجلاً إلى

حد أن أعصي أبي وأمي لأجله» . تلمست بيديها وجهه تحت القلنسوة والقبعة الفولاذية الثقيلة . « لاتبك هكذا يا آرن ، يا أعز صديق...»

«عليك أن تأخذي هذه في الأقل» ، قال لها بعد حين ، وأعطاها دبوس زينة صغيراً . وفكري بي أحياناً ، لأني لن أنساك ولن أنسى أساي...»

كان الظلام قد حل حين تلفظت كريستين وآرن بآخر كلمات الوداع . وقفت ولاحقته بنظرها حين ابتعد أخيراً . كان هناك شريط من النور الأصفر يلتمع عبر شق في الغيوم ، وقد انعكس في آثار الأقدام ، حيث سارا ووقفا في الوحل على الطريق... بدا هذا كله بارداً وحزيناً جداً ، كما فكرت . أخرجت منديلها الكتاني وجففت وجهها الدامع ، ثم التفتت ومضت إلى البيت .

كانت مبللة ومقرورة ، وراحت تمشي بسرعة . بعد حين سمعت شخصاً يقترب على امتداد الدرب خلفها . شعرت بالخوف قليلاً . حتى في مثل هذه الليلة فقد يكون هناك أناس غرباء يسافرون على الطريق ، وكانت لا تزال أمامها فسحة منعزلة من الطريق . كان ركام أسود كبير من الحجارة يبرز عالياً من جهة ومن الجهة الأخرى كانت الأرض شديدة الانحدار وهناك غابة من أشجار التنوب تمتد على طول الطريق حتى النهر ذي اللون الرصاصي في قعر «ديل» . كانت سعيدة حين هتف لها الرجل الذي خلفها باسمها . فوقفت ساكنة وانتظرت .

كان القادم الجديد رجلاً طويلاً نحيلاً في معطف ذي أكمام خفيفة . وحين اقترب منها رأت أنه كان يرتدي ملابس كاهن ويحمل حقيبة فارغة على ظهره ، والآن ميزته على أنه بنتاين بريستسون كما كانوا يدعونه... إنه ابن ابنة سيرا آيريك . لاحظت فوراً أنه كان ثملاً .

قال ضاحكاً بعد أن حيّا أحدهما الآخر : «أجل واحد يذهب وواحد

يأتي . لقد قابلت آرن أوف بريكن قبل برهة... أرى أنك تبكين . يمكنك أن تبتسمي قليلاً أيضاً الآن طالما عدت أنا إلى بيتي... لقد كنا صديقين أيضاً منذ أن كنا طفلين ، أليس كذلك ؟ »

قالت كريستين بصراحة : « إنه لتبادل سيء في اعتقادي ، أن يحلوك محله في الأبرشية » . ما كانت تحب بنتاين هذا أبداً . « لذلك أخشى أن الكثيرين هم من رأيي . إن جدك هنا كان سعيداً جداً لوجودك في أوسلو تحقق بداية جيدة جداً » .

قال بنتاين بضحكة مجلجلة : « أوه ، أجل . إذن فهي تلك بداية جيدة لي ، أليس ذلك ما ترينه ؟ كنت كخنزير في حقل قمح يا كريستين... والنهاية هي نفسها ، فقد كنت أُطارَدُ بالهراوات والصيحات والصراخ . أجل . أجل! أجل! أجل! لم يكن ذاك أمراً مهماً ، فسعادة جدي تتأتى من نسله . ولكن لم أنت مسرعة إلى هذا الحد ؟ »

« أنا بردانة » ، قالت كريستين بفظاظة .

قال الكاهن : « ليس أكثر مني . فليس عليَّ من الثياب سوى ما ترينه هنا... لقد اضطررت إلى بيع عباءتي لقاء الطعام والجعة في هامار الصغيرة . والآن ، لا شك أنه ما زالت لديك بعض الحرارة في جسدك من وداعك لآرن... أعتقد أن عليك أن تدعيني أدخل تحت فرائك معك... » ثم أمسك بعباءتها وجذبهاإلى ما فوق كتفيه وأمسك بها من خصرها بذراعه الرطبة .

دهشت كريستين إلى أقصى حد من جرأته حتى أنها لم تستجمع رشدها إلا بعد لحظة ... ثم ناضلت لتخلص نفسها منه ، ولكنه كان ممسكاً بعباءتها ، وكانت مربوطة بمشبك فضي قوي ، وتمكن بنتاين من تطويقها بذراعيه مرة أخرى ، وحاول تقبيلها ، وفمه يكاد يلمس ذقنها . حاولت أن تضربه ، ولكنه كان يثبتها بالجزء الأعلى من ذراعه .

هسهست وهي تناضل : «أظنك فقدت عقلك . اتتجرأ فتضع يديك عليّ وكأني... ستدفع غالياً ثمن هذا غداً ، أيها الجبان... »

« كلا ، غداً لن تتصرفي بحماقة إلى هذا الحد » ، قال بنتاين ، وهو يضع ساقه أمامها حتى تسقط في الوحل ، ثم راح يضغط بيد واحدة على فمها .

ومع ذلك لم تفكر بالصراخ . والآن خطر لها لأول مرة ما كان يريده منها ، ولكن الغضب جاءها عنيفاً أهوج حتى أنها لم تفكر بالخوف مطلقاً : كشرت كحيوان يتماسك مع آخر وقاتلت الرجل بعنف وهو يحاول تثبيتها أرضاً ، بينما كان ماء الثلج البارد الجليدي يتشرب ملابسها حتى بشرتها المتألمة .

قال بنتاين : «غداً سيكون لديك من العقل ما يكفي لتمسكي عليك لسانك... وإن لم تستطيعي إخفاء الموضوع ، تستطيعين إلقاء اللوم على آرن... سيصدقون ذلك حالما... »

عندها بالضبط وصل أحد أصابعه إلى فمها فعضته على الفور بكل قوتها ، حتى صرخ بنتاين من الألم وأرخى قبضته . حررت كريستين إحدى يديها بسرعة البرق وأمسكت وجهه بوساطتها ، ثم ضغطت بإبهامها بكل قوتها على مقلة إحدى عينيه : زمجر ونهض على ركبتيه ، انزلقت من قبضته كقطة ورمت بنفسها عليه حتى سقط على ظهره ، ثم التفتت واندفعت على طول الطريق والوحل يتطاير عليها مع كل قفزة .

عدت وعدت دون أن تنظر إلى الخلف . سمعت بنتاين يلاحقها ، ثم ركضت حتى راح قلبها يدق بعنف في حلقها ، بينما راحت تئنّ بصوت خفيض ولكنها حاولت أن تبقي عينيها نحو الأمام... أو أنها لن تصل أبداً إلى لاوغروبرو ؟ وأخيراً أضحت على الطريق الذي يمر عبر الحقول . رأت مجموعة منازل على منحدر التل ، وفي اللحظة نفسها ظنت أنها لن تجرؤ على

الدخول إلى هناك ، حيث كانت أمها ، وذلك بالحالة التي كانت عليها الآن ، وقد غطاها الوحل والورق الذابل من الرأس إلى القدم ، وملابسها ممزقة إلى خرق .

لاحظت أن بنتاين كان يلاحقها عن كثب . وعند ذلك انحنت والتقطت حجرين . رمته بهما حين وصل إلى قربها بما فيه الكفاية . أصابه أحدهما بقوة كبيرة حتى أنه أسقطه على الأرض ثم عدت مجدداً ولم تتوقف حتى وصلت الجسر ووقفت فوقه .

وقفت وأمسكت بحاجز الجسر ، وهي ترتجف ، فنزلت عتمة أمام عينيها ، وخشيت من الإغماء... ولكنها فكرت حينئذ ببنتاين ، وماذا لو وصل ووجدها . تابعت السير وقد هزها الغضب والعار رغم أن ساقيها ما كانتا لتحملانها إلاّ بالكاد ، وأحست بآلام في ظهرها وذراعيها . انهمرت دموعها ساخنة كالنار .

تمنت أن يكون بنتاين قد قتل بالحجر الذي رمته به . وتمنت لو عادت وأجهزت عليه . تحسست خنجرها ، ولكن تبين لها أنها قد فقدته .

ثم داهمتها مجدداً الفكرة بأن عليها ألاّ تُرى في البيت في حالتها الحاضرة . لذلك خطر لها أن تذهب إلى رومونداغارد . وهناك ستشتكي لسيرا آيريك .

ولكن الكاهن لم يكن قد عاد بعد من يوروندغارد . في المطبخ وجدت غونهيلد . كانت المرأة وحيدة . وحكت لها كريستين ما فعله بها ابنها . ولكنها لم تذكر لها أنها خرجت لتقابل آرن . حين رأت أن غونهيلد ظنت أنها كانت في لاوغاربرو ، فقد تركتها في ظنها .

لم تقل غونهيلد إلاّ القليل ، ولكنها بكت كثيراً وهي تغسل الوحل عن ملابس كريستين وتخيط لها المزق الأسوأ . وكانت الفتاة مهزوزة جداً حتى

أنها لم تكترث بالنظرات الخفية التي راحت غونهيلد ترميها بها بين الحين والآخر .

حين مضت كريستين ، أخذت غونهيلد عباءتها وخرجت معها ، ولكنها اتخذت طريق الاسطبلات . سألتها كريستين عن وجهتها .

«طبعاً ستأذنين لي بالركوب لأفتش عن ابني» ، أجابت المرأة . «سأرى إن كنت قتلته بذلك الحجر الذي رميته به أو كيف هي حاله» .

لم تجد كريستين ما تجيب به على هذا ، لذا لم تقل لها سوى أن على غونهيلد أن تحرص على خروج بنتاين من الأبرشية بأسرع وقت ممكن وأن يبقى بعيداً عن مرمى بصرها ، «... أو سأحدث لافرانس بما حدث ، وتستطيعين أن تخمني ، كما أعتقد ، ما الذي سيحدث عند ذلك» .

•

و بالفعل مضى بنتاين جنوباً بعد ما لا يزيد على أسبوع من الحادث . كان يحمل رسائل من سيرا آيريك إلى أسقف هامار يرجو فيها الأسقف أن يجد له عملاً أو يقدم له يد المساعدة على نحو آخر .

٧

في أحد الأيام خلال موسم عيد الميلاد وصل سايمون أندرسون إلى يوروندغارد على جواده . كان ضيفاً غير متوقع . وقد التمس العفو للقدوم هكذا ، دون دعوة ووحده ، دون أهله . ولكن السير آندرس كان في السويد لشأن من شؤون الملك . كان هو نفسه في البيت في دايفرين لفترة ، ولكن لم يكن هناك سوى أخواته الصغيرات وأمه التي كانت طريحة الفراش . لذلك كانت معه فسحة من الوقت وأحس بشوق إلى زيارتهم هنا .

شكرته راغنفريد ولافرانس للقيام بمثل هذه الرحلة الطويلة في عزّ الشتاء . فقد كان إعجابهما يزداد بسايمون كلما رأياه . لقد عرف كل ما اتفق عليه بين أندرس ولافرانس ، وأنه من الثابت الآن أن نخب خطبته هو وكريستين سيتم احتساؤه قبل بداية الصوم الكبير إن عاد السير أندرس إلى البيت قبل ذلك التاريخ ، وإن لم يحدث ذلك فبعد عيد الفصح مباشرة .

كانت كريستين هادئة وكاسفة البال لدى وجودها مع خطيبها . لم تكن تجد الكثير من الأمور لتحدثه عنها . في إحدى الأمسيات كان الجميع

جالسين يشربون ، فسألها الخروج معه قليلاً إلى الخارج . ثم وبينما هما واقفان في الشرفة أمام القاعة العليا ، وضع ذراعه حول خصرها وقبلها . بعد ذلك راح يكرر هذا الأمر كلما كانا وحدهما . ولم يبعث هذا السرور في نفسها ، إلاّ أنها سمحت له بالقيام بذلك بما أنها كانت تعرف أن الخطبة كانت أمراً لا بدّ حاصل . فكرت بزفافها الآن فقط كشيء ما عليها أن تقوم به وليس كشيء تتمناه . وعلى أي حال فقد أحبت سايمون بما فيه الكفاية... وخاصة حين كان يحادث الآخرين ولا يلمسها أو يحادثها .

كانت تعيسة جداً خلال هذا الخريف كله . ولو أنها كانت تقول لنفسها دائماً إن بنتاين لم يستطع أن يؤذيها إلاّ أنها رغم ذلك راحت تشعر بأنها ملوثة لحق بها العار .

لم يعد هناك شيء كعهده في السابق ، بما أن رجلاً قد تجرأ وحاول فرض إرادته عليها . كانت تتمدد ليلاً مسهدة وتروح تحترق من شعورها بالخجل ولا تستطيع التوقف عن التفكير في ذلك . أحست بجسد بنتاين قريباً منها حين تعاركا ، وأحست بأنفاسه الحارة التي تفوح منها رائحة الجعة... ولم تستطع مغالبة التفكير بما كان من شأنه أن يحدث... كانت تفكر ، والرجفة تعتري جسدها كله ، بما قاله لها : كيف أن آرن سيلام على ذلك إن لم يكن ممكناً إخفاء الأمر . ثم كان ذهنها يندفع متتبعاً ما كان ممكناً أن يتبع مثل تلك الكارثة لو وقعت ، وعندها سيعرف الناس أنها ذهبت لتلتقي بآرن... وماذا لو صدق أبوها وأمها مثل هذا الأمر عن آرن... وماذا عن آرن نفسه... كانت تراه كما رأته آخر مرة ، وأحست كأنها سقطت محطمة أمامه لمجرد التفكير في أنها كان يمكن أن تجذبه معها إلى تلك الحالة من البؤس والعار . ثم راحت ترى أحلاماً قبيحة . لقد سمعت في الكنيسة وفي الحكايات المقدسة عن الشهوات الجسدية وإغواءات الجسد ، ولكنها لم

تكن تعني لها شيئاً . والآن أصبح الأمر حقيقة لها ، وإن لها وللبشرية كلها جسداً شهوانياً يتعلق بالروح وينهش فيها بقيود قاسية .

ثم كانت تفكر كيف كان يمكن لها أن تقتل أو تعمي بنتاين . كان العزاء الوحيد الذي استطاعت أن تجده... أن تجلس نفسها مع أحلام الانتقام ضد الرجل الأسود الكريه الذي وقف دائماً في طريق أفكارها . ولكن هذا لم يساعدها فترة طويلة . كانت تضطجع قرب أولفهيلد في الليالي وتبكي بدموع مرة عند التفكير في كل هذا الذي حصل لها بالقوة الغاشمة . لم يفشل بنتاين تماماً . لقد جرح عذرية روحها .

•

في أول يوم عمل بعد عيد الميلاد كانت كل النساء في يوروندغارد منشغلات في المطبخ . كانت راغنفريد وكريستين هناك أيضاً ، معظم النهار . في وقت متأخر من المساء ، بينما كانت بعض النساء ينظفن بعد أعمال الخبز ، وأخريات يحضرن العشاء ، دخلت فتاة الملبنة مندفعة تصيح وتفرك يديها :

«يا يسوع ، يا يسوع... هل سبق أن سمع أحد مثل هذا الأمر الرهيب... إنهم يجلبون آرن غيردسون ميتاً على مزلجة... فليساعد الرب غيرد و إنغا في هذه المأساة...»

دخل رجل كان يسكن في كوخ قريب من الطريق مع هلفدان . كان هذان هما من شاهد التابوت .

تجمعت النساء من حولهما . خارج الحلقة وقفت كريستين شاحبة ترتجف . بكى هلفدان خادم لافرانس الشخصي والذي كان يعرف آرن منذ طفولته ، بكى بصوت مرتفع وهو يروي الحكاية :

كان بنتاين بريستسون هو من قتل آرن . في ليلة رأس السنة تجمع رجال منزل الأسقف يشربون في قاعة الرجال ، ودخل بنتاين... كان قد منح منصب كاتب الآن مع كاهن عيد القربان . لم يكن الرجال يريدونه بينهم أولاً ، ولكنه ذكّر آرن بأنهما كلاهما من الأبرشية نفسها ، وتركه آرن يجلس إلى القرب منه ، وراحا يشربان معاً . ولكنهما سرعان ما تشاجرا وتقاتلا ، وكان آرن قد هاجمه بعنف شديد حتى أن بنتاين اختطف سكيناً من المائدة وطعنه في نحره ثم أكثر من مرة في صدره . لقد مات آرن على الفور تقريباً .

لقد حزن الأسقف كثيراً على هذا الحادث المؤسف ومن كل قلبه ، فقد اعتنى هو نفسه في تحضير الجثمان ، وجعل جماعته تنقل الجثمان إلى البيت تلك المسافة الطويلة . وقد وضع بنتاين في الحديد وطرده من الكنيسة ، وإن لم يكن قد شُنق بعد فسيُشنق قريباً .

اضطر هلفدان إلى إعادة قص الحكاية مرات كثيرة كلما دخل أناس جدد . وصل لافرانس وسايمون إلى المطبخ أيضاً ، فلاحظا كل هذه الجلبة والحركة في أنحاء المكان . انزعج لافرانس كثيراً وأمر بتجهيز جواده ، فركب إلى بريكن على الفور . وبينما كان يستعد للانطلاق سقطت عيناه على وجه كريستين الشاحب .

سألها : «ربما تودين الذهاب معي ؟» ترددت كريستين قليلاً . ارتعدت... ثم أومأت برأسها فقد كانت غير قادرة على التلفظ بكلمة واحدة .

سألت راغنفريد : «أليس البرد شديداً عليها ؟ لا شك أنهم سيسهرون على الجثمان غداً ، وعندها سنذهب كلنا معاً...»

نظر لافرانس إلى زوجته . لاحظ وجه سايمون أيضاً . ثم ذهب ووضع ذراعه حول كتفي كريستين .

« إنها أخته بالرضاع ، وعليك أن تتذكري ذلك» . قال : « ربما تود مساعدة إنغا في تكفين الجثمان » .

ورغم أن قلب كريستين كان قد شل من اليأس والخوف ، فقد أحست بتوهج الامتنان لأبيها على كلماته .

عندها قالت راغنفريد إنه لو كانت كريستين ستذهب ، فعليهم أن يتناولوا عصيدة المساء قبل الانطلاق . ثم تمنت عليهم أيضاً أن يرسلوا الهدايا إلى إنغا من قبلهم... قميص كتاني جديد ، شموع وخبز طازج . ثم طلبت منهم أن يقولوا إنها ستحضر بنفسها وتساعد في تحضير الدفن .

كان هناك القليل من الأكل إنما الكثير من الكلام في الغرفة بينما الطعام على المائدة . وقد راح الواحد يذكر الآخر بالمحنة التي أنزلها الله على غيرد وإنغا . فمزرعتهم كانت يباباً بسبب الانزلاقات الصخرية والفيضانات . وأكثر من واحد من أولادهم الأكبر سناً قد مات ، حيث أن أخوة وأخوات آرن كانوا لا يزالون صغاراً . كانوا محظوظين منذ بضع سنوات وحتى الآن لأن الأسقف عين غيرد في فينسبريكن كوكيل له ، والأطفال الذين تبقوا لديهم كانوا وسيمين ومليئين بالوعد . ولكن أم آرن كانت تحبه أكثر من كل البقية .

كما أشفقوا على سيرا آيريك أيضاً . لقد كان الكاهن محبوباً ومحترماً جداً ، وكان أهل الأبرشية فخورين به ؛ إذ كان عالماً وحاذقاً في منصبه ، وعلى أي حال فإنه خلال السنوات التي قضاها في كنيستهم ما كان يترك أبداً يوماً مقدساً أو قداساً أو صلاة تمر إلاّ وأدى واجبه تجاهها . في أيام شبابه كان جندياً تحت أمرة الكونت ألف أوف تورنبرغ ، ولكن لسوء حظه فقد قتل رجلاً من منبت نبيل جداً ، لذا التجأ إ لى أسقف أوسلو ، وحين رأى هذا ميل آيريك للتعلم من الكتب ، فقد دربه ككاهن . ولو لم يكن له أعداء حتى

الآن بسبب حادثة القتل تلك في الزمن البعيد ، فقد كان من المرجح أن سيرا آيريك ما كان ليبقى هنا في هذا المنصب الوضيع . لا شك أنه كان طماعاً ، وكان يحب جمع المال لنفسه وللكنيسة ، ولكن ألم تكن كنيسته مجهزة على نحو فاخر بالأطباق والأردية والكتب ؟ وكان لديه هؤلاء الأولاد : ولم يكن يأتيه سوى الأسى والانزعاج من أسرته . في تلك الأبرشيات البعيدة لم يكن الناس يعتقدون أنه لا يوجد سبب يجعل الكهنة يعيشون كالرهبان ، إذ يجب في الأقل أن تكون لديهم نساء يساعدونهم في مزارعهم ، وقد يحتاجون أيضاً إلى امرأة تعتني بشؤونهم ، بالنظر إلى الرحلات الطويلة والمتعبة التي يقومون بها حول الأبرشيات ، وفي كل أنواع الطقس . وعلاوة على ذلك لم يكن الناس قد نسوا بعد أنه لم يمض وقت طويل على ذلك الزمن الذي كان فيه الكهنة في النرويج رجالاً متزوجين . لذلك لم يلم أحد سيرا آيريك كثيراً لأنه كان لديه ثلاثة أولاد من المرأة التي كانت تعتني بمنزله ، بينما كان لا يزال شاباً . ولكن في هذا المساء قالوا إن الأمر ليبدو بالفعل وكأن إرادة الرب شاءت أن تعاقب آيريك لحياته المتحررة ، فقد جلب عليه أولاده وأحفاده الكثير من الشر له . وقد ظن البعض بوجود سبب معقول أيضاً بأن على الكاهن أن يكون دون زوجة أو أولاد... فبعد هذا كان يخشى من أن الكثير من المرارة والعدائية سيظهر بين الكاهن والناس في فينسبريكن ، الذين كانوا حتى الآن أفضل الأصدقاء .

كان سايمون أندرسون يعرف الكثير عن أفعال بنتاين في أوسلو ، وكان يحكي عنها . كان بنتاين كاتباً لكاهن كنيسة العذراء المقدسة واشتهر على أنه فتى ذو بديهة حاضرة . وكانت هناك نساء كثيرات أحببنه جيداً ، فقد كانت له عينان جوالتان ولسان ذرب . البعض منهن اعتقدن أنه رجل وسيم : وهؤلاء كن النسوة اللواتي حسبن أن زواجهن من أقرانهن كان صفقة

خاسرة . ثم كانت هناك العذارى الشابات : ذلك النوع الذي كان يحب أن يكون الرجال متحررين معهن نوعاً ما . كان سايمون يضحك... أجل ، هل فهموا ؟ حسناً ، كان بنتاين شديد المكر ، فلم يكن يمضي إلى حد بعيد مع ذلك النوع من النساء . كان يحادثهن فقط ، وهكذا حصل على شهرة العيش النظيف . ولكن ما حدث أن الملك هاكون ، كما كانوا يعرفون ، كان رجلاً طيباً وورعاً في نفسه ، وكان يسعده أن يحفظ النظام بين رجاله ، وكان يريدهم أن يتمتعوا بمشية لائقة وحديث ملائم : وخاصة الشبان منهم . أما الآخرون فقد يكونون أكثر مما يستطيع تحمله . وقد حصل أنه مهما كانت الدعابات التي يمارسها الشبان أو يساهمون فيها كالشراب والقمار واحتساء الجعة وما شابه ـ فقد كان كاهن بلاط الملك يسمع بها ، وكان على الطائشين أن يعترفوا وأن يدفعوا ضريبة ويعانون تقريعاً شديداً . حسناً ، لقد تم طرد اثنين أو ثلاثة من أكثر الشبان مجوناً . ولكن حدث أخيراً أن انفضح الأمر ، فقد كان هذا الثعلب ، بنتاين الكاتب يرتاد ـ دون معرفة أحد ـ حانات الجعة وحتى الأماكن الأسوأ . وكان يصغي إلى اعترافات الخادمات ويمنحهن الغفران...

جلست كريستين إلى جانب أمها . حاولت أن تأكل حتى لا يلاحظ أحد حالها ، رغم أن يدها كانت ترتجف حتى أنها كانت تهرق عصيدة الحليب عند كل مرة تغرفها فيها بالملعقة ، وأحست بلسانها سميكاً جداً وجافاً في حلقها بحيث لم تستطع أن تبتلع لقم الخبز . ولكن حين بدا سايمون يحكي عن بنتاين ، كان عليها التخلي عن الادعاء بأنها تأكل . تمسكت بالمقعد الذي تحتها . وصل بها الرعب والكره... إلى حد أنها أحست بالغثيان والدوخة . كان هو من أراد أن... بنتاين وآرن ، بنتاين وآرن... انتظرتهم حتى انتهوا وقد نفد صبرها . تاقت إلى رؤية آرن ، وجه

آرن الوسيم ، أن ترمي بنفسها إلى القرب منه وتتفجّع عليه وتنسى كل شيء آخر .

و بينما راحت أمها تساعدها على ارتداء ملابسها الصوفية ، قبلت ابنتها على وجنتها . لم تكن كريستين معتادة إلا بالكاد على مثل تعابير التحبب هذه من أمها ، ولكن هذا سلاها كثيراً الآن ، فوضعت رأسها على كتف راغنفريد لحظة ، إلا أنها لم تستطع البكاء .

حين خرجوا إلى الساحة ، رأت أن هناك آخرين ذاهبين معها : هالفدان ويون من لاغربرو ، وسايمون ومرافقه . وقد أصيبت بغصة ، دون أن تعرف السبب ، لأن هذين الغريبين سيرافقانهم .

كان المساء شديد البرودة ، والثلج يطقطق تحت الأقدام . في السماء السوداء كانت النجوم شديدة الازدحام ملتمعة مثل الجليد . وبعد أن قطعوا مسافة صغيرة ، سمعوا صرخات وعجيجاً وأصوات حوافر هوجاء من المنبسطات إلى الجنوب : على مسافة من الطريق وصلت مجموعة من الفرسان تشق الأرض من الخلف واجتاحتهم مع صليل المعادن تاركة خلفها بخار رائحة لحم الجياد المغطى بالجليد ، والتي وصلتهم حتى في مكان وقوفهم جانباً في الثلج العميق . حيّا هالفدان المجموعة الجامحة : كانوا شباناً من المزارع في جنوب الأبرشية وهم لايزالون يحتفلون بموسم عيد الميلاد وقد خرجوا يجربون جيادهم . كان البعض منهم أشد سُكراً من أن يفهم شيئاً فاستمر في طريقه هادراً معربداً بأعلى صوته يضرب على ترسه . ولكن فهمت قلة منهم الأخبار التي صرخ بها هالفدان نحوهم . انسحبوا من المجموعة وصمتوا ، وانضموا إلى مجموعة لافرانس وراحوا يتحدثون همساً مع أولئك الذين في المؤخرة .

وأخيراً وصلوا إلى مكان يطلون منه على فينسبريكن ، على الجبل الذي

يقع إلى ماوراء نهر «أسيل» . كانت هناك أنوار في المنازل : في وسط الساحة كانت مشاعل جذور الصنوبر قد زرعت في كومة من الثلج ، وكانت تتوهج حمراء فوق المنحدرات البيضاء ، ولكن المنازل السوداء بدت وكأنها ملطخة بدم متخثر . كانت واحدة من أخوات آرن الصغيرات تقف في الخارج وهي تضرب الأرض بقدميها . كانت تعانق يديها تحت معطفها . قبلت كريستين الطفلة الباكية نصف المتجمدة . كان قلبها ثقيلاً كالصخر وبدا وكأن الرصاص كان يثقل أعضاءها ، وهي تصعد الدرج إلى العلية حيث وضعوا جثمانه .

•

قابلهم صوت غناء ووهج الكثير من الشموع في المدخل . في منتصف الغرفة كان التابوت الذي جلب فيه إلى البيت ، مغطى بشرشف . كانت بعض الألواح قد وضعت على جحوش خشبية ووضع التابوت فوقها . عند رأس النعش كان كاهن شاب قد وقف حاملاً كتاباً بين يديه ، وهو يرتل . وكان أصحاب الحداد يركعون في أرجاء الغرفة ووجوههم مخبأة في عباءاتهم الثقيلة .

أشعل لافرانس شمعته من واحدة من تلك التي كانت مشتعلة ، ووضعها بثبات فوق أحد ألواح النعش وركع . حاولت كريستين أن تفعل أمراً مشابهاً ، ولكنها لم تستطع جعل شمعتها تقف منتصبة . لذلك أخذها منها سايمون وساعدها . مع استمرار الكاهن في تراتيله ، بقي الجميع راكعين على ركبهم وهم يرددون كلماته همساً ، وأنفاسهم معلقة كالبخار حول أفواههم في هواء الغرفة البارد القارس .

حين أغلق الكاهن كتابه ونهض الناس ـ كان كثيرون قد سبق وتجمعوا

في حجرة الموت ـ مضى لافرانس نحو إنغا . حدقت إلى كريستين ، ولم يبد عليها أنها سمعت ما قاله لافرانس . وقفت حاملة الهدايا التي سلمها إليها ، وكأنها لا تعرف أنها تحمل شيئاً في يدها .

قالت بصوت غريب مختنق : « هل أتيت أنت أيضاً يا كريستين ؟ ربما تودين أن تري ابني ، طالما عاد إليّ » .

دفعت ببعض الشموع بعيداً وأمسكت بذراع كريستين بيد مرتجفة ، وبالأخرى أزاحت المنديل عن وجه الميت .

كان أصفر رمادياً كالطين ، وكان للشفتين لون الرصاص . كانتا قد افترقتا قليلاً ، فظهرت من بينهما أسنان بيضاء صغيرة مستوية كما في ابتسامة ساخرة . تحت الأهداب الطويلة كان توهج العينين الزجاجيتين ، وبعض البقع المزرقة تحت الصدغين ، وهي آثار ضربات أو بقع موت .

سألتها إنغا كما من قبل : « أتودين أن تقبليه ؟ » وانحنت كريستين إلى الأمام بناء على أمرها وضغطت بشفتيها على وجنة الشاب الميت . كانت رطبة كالندى ، وحسبت أنها تستطيع أن تشعر برائحة تفسخ ، فالجثة قد بدأت تتفسخ من حرارة الشموع المحيطة بها .

وقفت كريستين ساكنة ويداها على التابوت ، فهي لم تستطع أن تقف . جذبت إنغا الكفن جانباً حتى الجرح البليغ فوق عظم الترقوة . ثم التفتت نحو الناس وقالت بصوت مرتجف :

« إنهم يكذبون ، كما أرى ، أولئك الذين يقولون إن جراح الميت تنزف حين يُلمس من قبل أولئك الذين سببوا موته . إنه أبرد الآن ، ولدي ، وأقل وسامة مما كان حين ذهبت لتقابليه على الطريق هناك . لا تكترثين الآن كثيراً بتقبيله ، كما أرى ، ولكني سمعت أنك لم تأنفي من قبلته آنذاك » .

قال لافرانس وهو يتقدم : «يا إنغا ، هل فقدت رشدك ؟ هل تخرفين ؟»
«أوه حسناً ، أنتم جميعاً رفيعو القدر جداً هناك في يوروندغارد ، أنت غني جداً يا لافرانس بيورغولفسون ، بحيث لا يفكر ابني بمغازلة ابنتك بشرف... وكريستين أيضاً ، لقد ظنت نفسها أفضل منه بكثير . ولكنها تنازلت ولحقت به على الطريق العام ليلاً وعبثت معه في الأجمات في ليلة سفره : اسألها بنفسك وسوف نرى إن كانت ستتجرأ على إنكار ذلك هنا ، بينما آرن ممدّد هنا ميتاً... وكل ذلك بسبب خفتها...»
لم يسأل لافرانس ، بل التفت إلى غيرد .
«اضبط زوجتك يا رجل... ألا ترى أنها ضيعت رشدها...»
ولكن كريستين رفعت وجهها الشاحب ونظرت بيأس فيما حولها :
«لقد ذهبت وقابلت آرن في آخر ليلة لأنه رجاني أن أفعل ذلك . ولكن لم يجر أي شيء غير ملائم بيننا» . ثم ، وحين بدا أنها استردت نفسها وفهمت كل شيء ، صاحت : «لا أعرف ما تعنينه يا إنغا... هل تريدين الإساءة إلى سمعة آرن وهو ممدد هنا... إنه لم يغوني قط ولا حاول أن يقودني إلى الانحراف» .
ولكن إنغا ضحكت بصوت مرتفع :
«كلا ، ليس آرن! ولكن بنتاين الكاهن... لم يدعك تعبثين معه هكذا... اسأل غونهيلد يا لافرانس ، تلك التي نظفت التراب عن ظهر ابنتك . واسأل كل رجل كان في قاعة رجال الأسقف في ليلة رأس السنة ، حين هزأ بنتاين من آرن لأنه تركها تذهب في سبيلها ، وتركه واقفاً هناك كالأحمق . لقد سمحت لبنتاين باصطحابها مشياً إلى البيت تحت عباءتها ، وكانت ستلعب معه اللعبة نفسها...»
أمسكها لافرانس من كتفها ، ووضع يده على فمها :

«أبعدها يا غيرد ، من المعيب أن تتلفظي بمثل هذه الكلمات قرب جثمان هذا الشاب... ولكن لو تمدد كل أولادك ميتين هنا ، ما كنت لأقف وأسمع منك كذباً على أولادي . أنت يا غيرد يجب أن ترد على ما قالته هذه المرأة المجنونة... »

أمسك غيرد بزوجته وحاول أن يأخذها بعيداً ، ولكنه قال للافرانس :

« إنه أمر صحيح . لقد كانا يتكلمان عن كريستين ، آرن وبنتاين ، حين فقد ابني حياته . وربما لم تسمع أيضاً بذلك ، ولكن جرى حديث في الأبرشية هنا ، في هذا الخريف أيضاً... »

ضرب سايمون بسيفه على خزانة الملابس التي كانت إلى جانبه :

« كلا ، أيها الناس الطيبون ، والآن عليكم أن تجدوا شخصاً آخر تتحدثون عنه في حجرة الموت هذه غير خطيبتي... أيها الكاهن ، ألا تستطيع أن تضبط هؤلاء الناس وتحافظ على النظام هنا... ؟ »

فتح الكاهن ـ لاحظت كريستين الآن أنه كان الابن الأصغر لآل أولفسفولدن وكان في البيت الآن لأجل موسم عيد الميلاد ـ كتابه ووقف أمام النعش . ولكن لافرانس صاح بأن هؤلاء الذين مسوا سمعته ، وليكونوا من يكونون ، سيكون عليهم أن يتراجعوا عما قالوه . وهناك صرخت إنغا :

«أجل ، خذ حياتي إذن يا لافرانس ، بما أنها أخذت كل راحتي وفرحتي... واجعل زفافها مع ابن الفارس هذا . ولكن هل يعرف كل الناس أنها تزوجت من بنتاين على الطريق العام... هنا... » ، ثم رمت بالشرشف الذي قدمه لها لافرانس عبر النعش نحو كريستين : «لا حاجة لي بكتان راغنفريد لأضع فيه «آرني» في القبر... اصنعي منه غطاء رأس ، أو احفظيه لتقمطي به الطفل الذي حملت به على جانب الطريق... وانزلي وساعدي غونهيلد في عويلها على الرجل الذي شُنق... »

أمسك لافرانس وغيرد والكاهن بإنغا . حاول سايمون أن يرفع كريستين ، التي كانت قد تمددت فوق النعش . ولكنها رمت بذراعه بعيداً وبعنف ، وجلست على ركبتيها وصاحت بصوت مرتفع :

«فليساعدني الرب المخلّص ، هذا كذب! »ثم مدت يداً واحدة فوق أقرب شمعة على النعش .

بدا وكأن اللهب انثنى وتموج نحو الجانب ، أحست كريستين بالأعين كلها مثبتة عليها ، ثم شعرت أن زمناً طويلاً مرّ عليها . ثم بدأت على الفور تحس بألم حارق في كفها ، وبعد ذلك وبصرخة ثاقبة سقطت على الأرض .

ظنت أنه أُغْمِيَ عليها ، ولكنها كانت واعية بأن سايمون والكاهن أنهضاها . صرخت إنغا بشيء ما . رأت وجه أبيها الذي اعتراه الرعب ، وسمعت الكاهن يصرخ بأنه لا يجب على أحد أن يأخذ هذه المحنة بالاعتبار ـ لا يدعو المرء الرب ليكون شاهداً بهذا الأسلوب ـ ثم حملها سايمون من الغرفة ونزل بها الدرج . ركض خادم سايمون إلى الإسطبل وسرعان ما كانت كريستين جالسة ، وهي لا تزال نصف غائبة عن الوعي ، أمام سايمون على سرجه ، ملفوفة بعباءته ، وكان هذا ذاهباً باتجاه يوروندغارد بأسرع ما يستطيع حصانه .

كانوا قريبين من يوروندغارد حين أدركهم لافرانس . أما بقية الجماعة فوصلت هادرة على امتداد الطريق بعيداً إلى الخلف .

قال سايمون : «لا تذكري شيئاً لأمك» وذلك وهو ينزلها عند باب المنزل . «لقد سمعنا الكثير من الكلام المجنون الليلة . لا عجب أن تفقدي رشدك أنت أيضاً في النهاية» .

•

كانت راغنفريد مضطجعة وهي لا تزال مستيقظة حين دخلوا ، وسألت كيف كانت الأمور في حجرة السهر على جثمان الميت . وقد اضطلع سايمون بمهمة الإجابة على كل شيء . أجل ، كان هناك الكثير من الشموع والكثير من الناس . أجل ، وكان هناك كاهن هو تورمود من أولفسفولدن ـ لقد سمع أن سيرا آيريك قد ركب إلى هافار هذا المساء ، لذلك لن تكون هناك مشكلة حول الدفن .

قالت راغنفريد : «يجب أن يجري قداس للفتى . كان الله في عون إنغا ، لا بدّ أنه تلك المرأة الصالحة الفاضلة منهكة حتى الألم» .

عزف لافرانس اللحن نفسه الذي عزفه سايمون ، وخلال وقت قصير قال سايمون إن على الجميع أن يرتاحوا «فكريستين مرهقة وحزينة» .

•

بعد ذلك وحين نامت راغنفريد ، ألقى لافرانس على نفسه بعض الملابس القليلة وذهب وجلس على حافة سرير ابنته . وجد كريستين في الظلام وقال برقة شديدة :

«و الآن عليك أن تحكي لي يا طفلتي ما هو صادق وما هو كاذب في كل هذا الحديث الذي تنشره إنغا»

وبينما راحت تبكي ، حكت له كريستين كل ما جرى في المساء الذي انطلق فيه آرن إلى هامار . قال لافرانس القليل . زحفت كريستين نحوه في سريرها ورمت بذراعيها من حول عنقه وقالت برقة :

«إنها غلطتي أن آرن قد مات : صحيح ما قالته إنغا» .

«لقد رجاك آرن نفسه أن تذهبي لملاقاته» قال لافرانس ، وهو يجذب الغطاء على كتفي ابنته العاريتين . «أعتقد أنه كان أمراً غير حكيم من قبلي

أن أدعكما أنتما الإثنين تخرجان سوية ، ولكني ظننت الشاب أوعى من ذلك... لن ألومكما أنتما الاثنين : أعرف أن هذه الأمور صعب عليك تحملها . ومع ذلك لم أعتقد قط أن ابنتي يمكن أن تلوك سمعتها الألسن في أبرشيتنا بالذات... وسيكون الأمر صعباً على أمك حين تسمع هذه الأنباء... ولكن أن تذهبي إلى غونهيلد لتخبريها بما جرى وليس إليّ ، فقد كان أمراً لا يدل على ذكاء... لا أفهم كيف استطعت أن تتصرفي بكل هذه الحماقة... »

«لا أحتمل البقاء هنا في «ديل» بعد الآن» ، قالت كريستين باكية . «لا يوجد شخص أتجرأ أن أنظر في وجهه... مع كل ما جلبته عليهم... الناس في روموندغارد وفي فينسبريكن... »

«أجل سيكون عليهما كليهما : غيرد وسيرا آيريك أن يدفنا هذه الأكاذيب حولك وحول آرن . أما فيما يخص البقية ، فإن سايمون أندرسون يستطيع الدفاع عنك على أفضل نحو في هذا الخصوص» . قال لافرانس ثم ربت عليها في الظلام . «ألا تعتقدين أنه عالج المسألة جيداً وبحكمة... ؟ »

«يا أبي...» والتصقت به كريستين ورجته على نحو مثير للشفقة وبحماسة : «ارسلني إلى الدير يا أبي . أجل ، اصغ إليّ... لقد فكرت في هذا منذ زمن طويل . ربما ستشفى أولفهيلد لو ذهبت بدلاً منها . تعرف الحذاء المغطى بالخرز الذي خطته لها في الخريف... لقد وخزت أصابعي حتى آلمتني بشدة ، ونزفت يداي من الخيط الذهبي... ومع ذلك جلست وخطت به ، لأني كنت أظن أنه لأمر شرير ألاّ أحب أختي إلى درجة ألا أصبح راهبة لأجلها... لقد سألني آرن مرة لم لا أصبح راهبة . ولو قلت نعم ، لما كان كل هذا سيحدث» .

هز لافرانس رأسه . أمرها :

«اضطجعي الآن . أنت نفسك لا تعرفين ما تقولينه يا طفلتي المسكينة... والآن عليك أن تحاولي النوم» .

•

و لكن كريستين اضطجعت وأحست بالألم في يدها المحترقة ، واضطرم اليأس والمرارة على مصيرها في قلبها . ما كان يمكن أن يحدث لها ما هو أسوأ من هذا لو كانت أكثر النساء خطايا . سيصدق الجميع... لا لا ، تستطيع ، لا تستطيع تَحَمُّلُ البقاء هنا في «ديل» . برز أمامها رعب بعد رعب... ماذا سيحدث حين تعرف أمها بذلك... والآن أصبح هناك ثأر دموي بينهم وبين كاهن أبرشيتهم ... بين كل أولئك الذين كانوا أصدقاء من حولها طوال حياتها . ولكن أسوأ خوف وأكثره تحطيماً لها كان يعتريها حين تفكر في سايمون وكيف أخذها وحملها مبتعداً ودافع عنها وتصرف وكأنها ملك له... لقد أصبح أبوها وأمها على الهامش بالنسبة إليه وكأنه سبق لها وأصبحت تنتمي إليه أكثر من أن تنتمي إليهما...

ثم فكرت بوجه آرن في التابوت ، بارداً وقاسياً . تذكرت آخر مرة زارت فيها الكنيسة ، وكيف رأت وهي تغادرها ، قبراً مفتوحاً ينتظر رجلاً ميتاً . كانت كتل التراب المحفورة تقبع على الثلج قاسية وباردة ورمادية كالحديد... لقد أوصلت آرن إلى هذا...

وفوراً تذكرت إحدى أمسيات الصيف قبل سنوات عديدة . كانت تقف على شرفة العلية في فينسبريكن ، الغرفة نفسها التي أهينت فيها هذه الليلة . كان آرن يلعب بالكرة مع بعض الصبيان في الساحة في الأسفل ، وقد رميت الكرة نحوها في الشرفة . وقد خبأتها وراء ظهرها ورفضت تسليمها حين صعد آرن ليجلبها . ثم حاول أن ينتزعها منها بالقوة... لقد تعاركا لأجلها في

الشرفة وفي الغرفة بين الخزائن ، وتضاربا بالأكياس الجلدية ، التي كانت معلقة هناك مليئة بالملابس ، وكان رأساهما يتصادمان وهما يضربان بالأكياس خلال اللهو المرح . لقد ضحكا وتعاركا لأجل الكرة...

ثم أن الحقيقة بدت لها واضحة أخيراً . لقد مات ورحل ، ولن ترى ثانية وجهه الوسيم الجريء ولن تشعر بلمسة يديه الدافئتين الحيتين . لقد كانت طفولية وقاسية جداً لأنها لم تأبه مطلقاً بما كان يعنيه له فقدانها... بكت بدموع مرة وأحست أنها تستحق ما حدث لها من تعاسة . ثم عادت ففكرت في كل ما كان لا يزال مخبأ لها ، فبكت مجدداً ، فقد بدا العقاب بالنسبة لها على أي حال عقاباً شديداً جداً...

•

كان سايمون هو من حكى لراغنفريد ما حدث في حجرة الجثمان في بريكن في الليلة السابقة . ولم يبالغ في وصف ما جرى . ولكن كريستين كانت شديدة الانذهال من الأسى والأرق حتى أنها أحست بغضب أخرق ضده لأنه تحدث وكأن الأمر لم يكن مروعاً على أي حال . وعلاوة على ذلك فقد أثار حنقها إلى حد مؤلم أن أباها وأمها تركا سايمون يتصرف وكأنه سيد المنزل .

«و أنت يا سايمون... لا شك أنك لا تصدق شيئاً من هذا ؟» سألت راغنفريد بقلب ملؤه الخشية .

أجاب سايمون : «لا . ولا أعتقد أن هناك من يصدقه... إنهم يعرفونكم ويعرفونها ويعرفون بنتاين ذاك . ولكن أي حادث صغير يجعل هؤلا الناس في هذه الأبرشيات البعيدة يضخمونه ، فكيف إن كانت هناك طرفة سمينة . إن علينا أن نعلمهم أن سمعة كريستين العطرة ليست زاداً

لحديث مثل هؤلاء المهرجين . ولكن من المؤسف أنها تركت نفسها تشعر بالخوف من هذه الغلظة في سلوكهم حتى أنها لم تتجرأ على أن تأتي إليكم أو إلى سيرا آيريك لتحكي له ما جرى : أعتقد أن كاهن الماخور هذا كان مستعداً للقسم بأنه لم يكن يعني شيئاً أسوأ من المزاح البريء ، لو أنك يا لافرانس تكلمت معه » .

قال والدا كريستين كلاهما إن سايمون كان على حق في هذا ، ولكنها صرخت وهي تضرب الأرض بقدمها :

« و لكنه رماني أرضاً ، أقول لكم ، ولم أعرف أنا نفسي ما فعله أو لم يفعله... كنت قد فقدت صوابي . لا أتذكر شيئاً... كل ما أعرفه قد يكون كما قالت إنغا... لم أكن في حال جيدة ولا سعيدة في أي يوم منذ... »

صرخت راغنفريد وصفقت بيديها . أجفل لافرانس... طأطأ سايمون بوجهه . نظر إليها بحدة ، ثم ذهب إليها ورفع ذقنها بيده . ثم ضحك :

« فليباركك الله يا كريستين ... كنت تذكرت جيداً لو كان قد سبب لك أي أذى . لا عجب أنها كانت حزينة ومريضة منذ ذلك المساء الحزين الذي عانت فيه مثل ذلك الرعب القبيح... هي التي لم تعرف قط سوى الحنان واللطف من قبل » ، هكذا قال هو للآخرين . « و أي شخص عدا صاحب العقل الشرير ، سيظن طوعاً بما هو خبيث وليس صالحاً ، يستطيع أن يرى من عينيها أنها عذراء وليست ثيباً » .

نظرت كريستين إلى عيني خطيبها الصغيرتين الثابتتين . رفعت يديها نصف رفعة ، كأنما لترميهما حول عنقه ، حين تابع يقول :

« ليس عليك أن تظني يا كريستين أنك لن تنسي هذا . ليس في ذهني أن نستقر في « فورمو » حالما نتزوج ، حتى لا تغادري « ديل » . ليس لدى أي امرئ لون الشعر أو العقل نفسه في المطر ونور الشمس ، قال الملك

سفير العجوز ، وذلك حين وضعوا اللوم على ساقيه المصنوعتين من العيدان[١٠] لأنه كان أكثر غطرسة بسبب حظه الطيب... »

ابتسم لافرانس وراغنفريد... كان أمراً ساراً أن يسمعا الشاب يحكي بأسلوب أسقف عجوز حكيم . تابع سايمون قائلاً :

«لن يكون ملائماً لي أن أحاول تعليمك أنت يا من ستكون حماي ، ولكني سأتجرأ كثيراً ربما لو قلت إننا ، أخوتي وأخواتي وأنا ، قد تربينا على نحو أشد صرامة . لم يكن يسمح لنا بالتجول بهذه الحرية مع خدم المنزل كما هي كريستين معتادة أن تفعل حسب ما رأيت . غالباً ما كانت أمي تقول إنه لو لعب المرء مع أطفال أصحاب الأكواخ من المزارعين ، فإنه من المحتمل أن تصيبه قملة أو قملتان في شعره في النهاية... وهناك مغزى ما لهذا القول» .

صمت لافرانس وراغنفريد ، ولكن كريستين أشاحت بوجهها ، وقد تلاشت الرغبة التي كانت قد اعترتها قبل لحظة بأن تعانق سايمون .

عند الظهر أخذ لافرانس وسايمون أدوات التزلج ومضيا ليتفحصا بعض الأشراك على حواف الجبل . كان الطقس جميلاً في الخارج ، مشمساً والبرد ليس قارساً . كان كلا الرجلين سعيداً في الهروب من كل الحزن والبكاء في البيت ، وهكذا مضيا بعيداً ، إلى ما بين القمم البعيدة الجرداء .

جلسا في الشمس تحت صخرة ناتئة وشربا وأكلا . لم يذكر لافرانس آرن إلا قليلاً : لقد كان يحب ذلك الشاب كثيراً . وتدخل سايمون ليمدح الشاب المتوفي ، وقال إنه يظن أنه ليس من الغريب أن تحزن كريستين على أخيها بالرضاعة . ثم قال لافرانس : ربما لا يجب عليهم أن يضغطوا عليها كثيراً ، ولكن يجب أن تمنح بعض الوقت لتعود إلى رشدها قبل أن يحتسوا جعة نخب الخطبة . لقد قالت إنها ترغب نوعاً ما في الذهاب إلى الدير لفترة من الزمن .

انتصب سايمون فجأة في جلسته وأطلق صفرة طويلة .

سأله لافرانس : «ألا تعجبك الفكرة ؟»

«كلا ، ولكن أجل ، أجل» . قال الآخر بسرعة . «ربما تكون أفضل طريقة ، يا حماي العزيز . أرسلها إلى «الأخوات» في أوسلو لمدة سنة... هناك ستتعلم كيف يحادث الناس بعضهم البعض في هذه الدنيا . أعرف القليل عن أولئك النسوة اللواتي هناك» ، كما قال ضاحكاً : «إنهن لن يرمين أنفسهن أرضاً ويمتن حزناً لو مزق شابان مجنونان أشلاء بعضهما لأجلهن . ولا يعني ذلك أني أفضل واحدة مثلهن كزوجة... ولكني أعتقد أن كريستين لن يضرها أن تتعرف بأشخاص جدد» .

وضع لافرانس بقية الطعام في الحقيبة ، وقال دون أن ينظر إلى الشاب : «أعتقد أنك تحب كريستين» .

ضحك سايمون قليلاً ولم ينظر إلى لافرانس .

«فلتكن واثقاً من أني أعرف قدرها حق المعرفة ، وقدرك أيضاً» ، هكذا قال بسرعة وبخجل ، وهو ينهض ويتناول أدوات تزلج . «ليست هناك فتاة أخرى قابلتها وأتمنى لو أتزوجها بهذه السرعة...»

•

قبل عيد الفصح بقليل ، وحين كان لا يزال هناك ثلج كاف للهبوط نحو «ديل» بعربة الجليد وكان الثلج ما يزال على «ميوسن» ، سافرت كريستين جنوباً للمرة الثانية . وصل سايمون ليصحبها ، لذا سافرت الآن في مزلجة ، وقد تلفّعت بالفراء مع أبيها وخطيبها إلى جانبها . وقد لحق بهم رجال أبيها ، ومزالج تحمل ملابسها وهداياها من الأطعمة والفراء لرئيسة الدير وللأخوات في دير «نونسيتر» .

القسم الثاني

طوق الزهور



١

كان زورق كنيسة هاسموند بيورغولفسون واقفاً قرب نقطة «هوفيدو»[١١] في صباح أحد أيام الأحد في نهاية نيسان (أبريل) ، بينما كانت الأجراس ترن في الكنيسة/ الدير وكان الجواب عليها يأتي عبر الخليج بدقات الأجراس من البلدة ، وهي أعلى أحياناً وأخفض أخرى مع اشتداد النسيم أو سكونه .

كانت غيوم خفيفة محزّزة تطفو فوق السماء العالية الزرقاء الفاتحة ، والشمس تلتمع على التموجات المتراقصة للماء . كان الجو ربيعياً على امتداد الشاطئ ، والحقول منبسطة مجردة من الثلج . وكان للنور فوق أجمات الأشجار وميض أصفر والظلال زرقاء . ولكن في أحراج الصنوبر هناك فوق المنحدرات العالية التي كانت تؤطر الأراضي المستوطنة في «آكرسبيغد» ، كانت هناك لمحات من الثلج ؛ وعلى الجبال الزرقاء البعيدة إلى الغرب ، وراء الزقاق البحري ، كانت لا تزال هناك ومضات من اللون الأبيض .

كانت كريستين واقفة في مقدمة الزورق مع أبيها ومع غيريد زوجة أسموند . حدقت إلى البلدة ذات الكنائس فاتحة اللون والأبنية الحجرية التي

كانت تعلو فوق سرب من المنازل الخشبية ذات اللون البني/ الرمادي ورؤوس الأشجار العارية . راحت الريح تجعد الجزء السفلي من عباءتها وتجذب شعرها تحت القلنسوة .

في اليوم السابق ، كانوا قد أخرجوا القطعان لتسرح في سكوغ ، وانتابها توق شديد إلى أن تكون في يوروندغارد . سيمر وقت طويل قبل أن يتمكنوا من تسريح القطعان هناك ، وقد تاقت بشفقة رقيقة إلى الأبقار النحيلة التي أنهكها الشتاء في الطرق الجانبية المعتمة . سيكون عليهم الانتظار والمعاناة لفترة أخرى طويلة بعد . كانت مشتاقة لأمها ولأولفهيلد ، التي اعتادت أن تنام بين ذراعيها كل ليلة طوال هذه السنوات ، ورامبورغ الصغيرة ؛ وكان شوقها عظيماً . كانت في شوق إلى كل الناس في المنزل ، إلى الأحصنة والكلاب ، إلى كورتلين الذي أصبح يخص أولفهيلد في غياب كريستين ، إلى صقور أبيها وهي جاثمة على مجاثمها وأغميتها على رؤوسها . رأت القفازات المصنوعة من جلد الحصان المعلقة إلى القرب من الصقور والتي تُرتدى حين تحمل على قبضة اليد ، وكذلك العصي القرمزية التي يتم هرشها بها .

بدا وكأن كل كرب الشتاء الماضي قد ابتعد عنها ، ولم تر سوى بيتها كما اعتادت أن تراه . كانوا قد أخبروها أيضاً ، أنه لم يكن هناك من يفكر بها على نحو شرير في الأبرشية : فالسيرا آيريك لم يصدق تلك الحكاية . كان غاضباً وحزيناً لما فعله بنتاين . كان بنتاين قد هرب من هامار . ويقال إنه وصل إلى السويد . لذا لم تكن الأمور سيئة إلى ذلك الحد بينهم وبين جيرانهم كما كانت تخشى .

في الرحلة هبوطاً إلى أوسلو ، كانوا قد حلوا ضيوفاً في بيت سايمون ، وهاهي تتعرف على أمه وأخواته : كان السير أندرس لا يزال في السويد . لم

تشعر بالراحة هناك ، وكان كرهها لسكان دايفرين أقوى الآن حين لم تجد أي أساس صالح له . طوال طريقها إلى هناك ، كانت تقول في نفسها إنه ليس لديهم سبب يدعوهم إلى التكبّر أو إلى الشعور بأنهم أفضل من أهلها : لم يكن هناك من يعرف شيئاً عن «رايدار دار» ذي الساق الخشبية ، قبل أن يزوجه الملك «سفير» من أرملة بارون دايفرين[١٢] . ولكن عجباً! لم يكونوا متكبرين مطلقاً . وحين حكى سايمون نفسه في إحدى الأمسيات عن جده قال : «لقد اكتشفت الآن وعلى نحو موثوق أنه كان صانع أمشاط ، لذلك يبدو الأمر وكأننا ننتمي إلى أسرة ملكية... تقريباً يا كريستين» . قالت أمه : «احفظ لسانك يا فتى!» ولكنهم ضحكوا جميعاً . وقد أثار الأمر حنقها على نحو غريب حين فكرت بأبيها . كان يضحك كثيراً ، لو أعطاه سايمون أتفه سبب ممكن لذلك : خطر لها على نحو غامض أنه ربما كان والدها راغباً في المزيد من الضحك في حياته . ولكن لم يرق لها أن يحب سايمون إلى هذا الحد .

كانوا جميعاً في سكوغ في عيد الفصح . لقد وجدت أن خالها كان سيداً قاسياً في معاملته لمزارعيه وخدمه : قابلت واحداً منهم ثم آخر ، وقد سألاها عن أمها وتحدثا بحب عن لافرانس . كان وضعهم أفضل حين كان لافرانس يعيش هنا . كانت أم آسموند ، زوجة أب لافرانس ، تعيش في الضيعة في منزل وحدها . لم تكن مسنة جداً ، ولكنها مريضة وصحتها متراجعة . كان لافرانس لا يذكرها إلا نادراً في البيت . ومرة حين سألته كريستين إن كان لديه زوجة أب ، أجاب أبوها : «لم تفعل لي الكثير ، لا الجيد منه ولا السيئ» .

تلمست كريستين يد أبيها وضغط هو على يدها .

«سرعان ما ستكونين سعيدة يا ابنتي ، مع الأخوات الطيبات...

وسيكون لديك أشياء أخرى تفكرين بها إلى جانب توقك لتكوني في البيت معنا .

•

أبحروا قريباً جداً من البلدة حتى أن رائحة القار والسمك المملح وصلت إليهم من أرصفة التحميل . سمّت غيريد كل الكنائس وأحياء التجار والساحات التي تبدأ من حافة البحر : لم تتذكر كريستين شيئاً من تلك المرة التي كانت فيها هنا من قبل عدا الأبراج الضخمة الثقيلة لكنيسة القديس هالفارد . أبحروا غرباً عبر البلدة كلها وتوقفوا عند رصيف الدير .

سارت كريستين بين أبيها وعمها عبر مجموعة من المخازن ، ثم وصلوا إلى طريق عبر الحقول . كان سايمون وراءهم يقود غيريد من يدها . بقي الخدم في الخلف ليساعدوا بعض الرجال من الدير في تحميل الأمتعة على عربة .

كان دير «نونسيتر» وكل حي «لايران» يقع ضمن حدود مراعي البلدة ، ولكن كان هناك عدد قليل من المنازل هنا وقد تناثرت على طول الطريق . كانت القبرات تغرد فوق رؤوسهم في السماء ذات اللون الأزرق الفاتح ، وتناثرت الأزهار الصفراء الصغيرة لنبات حشيشة السعال بكثافة فوق المنحدرات الطينية الكامدة ، ولكن على امتداد الحواجز كانت جذور الأعشاب خضراء .

حين مروا عبر البوابة ووصلوا الدير ، كانت الراهبات كافة يمشين ، اثنتين اثنتين نحوهم من الكنيسة ، بينما كان الغناء والموسيقى يصلان إليهم عبر الباب المفتوح .

راحت كريستين تراقب بارتباك النساء العديدات في الملابس السود

والأخْمِرَةِ البيض من حول وجوههن . انحنت انحناءة خفيفة وانحنى الرجال وقد أمسكوا بقبعاتهم قريبة من صدورهم . خلف الراهبات جاء سرب من الفتيات ـ بعضهن لا يزال في سن الطفولة ـ في أردية من النسيج الصوفي الخشن غير المصبوغ ، وخصورهن مربوطة بأحزمة مبرومة من اللونين الأسود والأبيض ، وشعورهن مضفورة بشدة بعيداً عن وجوههن بأشرطة من الأسود والأبيض أيضاً . ودون تفكير ، اكتسى وجه كريستين نظرة جريئة ومستقيمة خلال مرور الفتيات ، فقد أحست بالخجل ، وكانت تخشى أن يظنوها ريفية وخجولة .

كان الدير بديعاً إلى حد أنها أصيبت بالانبهار . فقد كانت كل الأبنية حول الساحة الداخلية من الحجر الرمادي . على الجانب الشمالي من الجدار الرئيس للكنيسة يرتفع عالياً فوق الأبنية الأخرى . كانت له طبقتان من السقوف والأبراج عند الناحية الغربية . والساحة نفسها كانت مفروشة بالبلاط الحجري ، وحول المكان كله كان ممر مغطى ، سقفه محمول على أعمدة منحوتة على نحو جميل . في وسط الساحة انتصب تمثال حجري لـ «ماتر ميزركوردياي» وهي تنشر عباءتها على بعض الأشكال الراكعة .

ثم وصلت أخت/ خادمة وطلبت منهم أن يرافقوها إلى بهو الأم الرئيسة . كانت الليدي «غروا غوتورمسداتر» امرأة عجوزاً طويلة قوية البنية . كان يمكن لها أن تكون جميلة لولا شعر كثير من حول فمها . كان صوتها عميقاً كصوت رجل . ولكن أسلوبها كان لطيفاً ودوداً : وقد ذكّرت لافرانس بأنها كانت تعرف أباه وأمه ، وسألته عن حال زوجته وطفلتيه الأخريين . ثم تحدثتْ أخيراً إلى كريستين بتودد :

«لقد سمعت أنباء طيبة عنك ، وتبدين حكيمة وجيدة التربية... وأنا

على ثقة أنك لن تسببي لنا أي إحراج . لقد سمعت أنك مخطوبة لهذا الشاب الصالح كريم الأصل سايمون أندرسون ، الذي أراه هنا... ويبدو لنا أن أباك وزوجك المستقبلي قد فعلا الصواب إذ أذنا لك أن تعيشي هنا لفترة معنا في منزل مريم العذراء ، حتى تتعلمي الطاعة والخدمة قبل أن يطلب منك أن تسودي وتأمري . والآن هل لي أن أطلب منك أن تضعي في قلبك هذه النصيحة : أن تتعلمي إيجاد المتعة في الصلاة وعبادة الرب ، وأن تعوّدي نفسك في كل أفعالك على تذكّر الخالق ، وأم الرب الحنون ، وكل القديسين الذين منحونا أفضل العبر في القوة والاستقامة والإخلاص وكل الفضائل التي عليك أن تظهريها في توجيه أهلك وأملاكك وتربية أولادك . وسوف تتعلمين في هذا المنزل أيضاً أن تحافظي على الوقت ، فهنا لكل ساعة استخدامها ومهمتها أيضاً . الكثير من العذارى والنساء يحببن كثيراً الاضطجاع في السرير إلى وقت متأخر من الصباح ، والجلوس إلى مائدة في المساء تجري عليها الأحاديث الكسولة ، ومع ذلك لا يبدو أنك واحدة من هؤلاء . ولكن ستتعلمين الكثير في السنة التي ستقضينها هنا حتى تكسبي دنياك وآخرتك» .

انحنت كريستين وقبلت يدها . بعد ذلك أمرت الليدي غروا كريستين أن تذهب مع راهبة عجوز بدينة إلى حد هائل ، وقد دعتها بالأخت بوتنتيا ، وذلك إلى غرفة طعام الراهبات . أما الرجلان وغيريد فطلبت منهم أن يتناولوا طعام الغداء معها في بناء آخر .

كانت غرفة طعام الراهبات غرفة كبيرة حسنة لها أرضية حجرية ونوافذ مدببة ذات ألواح زجاجية . وكان هناك باب يؤدي إلى غرفة أخرى ، حيث استطاعت كريستين أن ترى أنه لا بد من وجود نوافذ زجاجية أيضاً ، فالشمس كانت ترسل بنورها إلى الداخل .

كان قد سبق للأخوات أن جلسن إلى المائدة ينتظرن طعامهن : الراهبات الأكبر سناً فوق مقعد حجري طويل مغطى بالوسائد على امتداد الجدار تحت النوافذ . أما الأخوات الأصغر سناً والعذارى حاسرات الرؤوس في الملابس الصوفية الخشنة ذات اللون الفاتح فكن يجلسن فوق مقعد خشبي على الجانب الخارجي من اللوح . في الغرفة التالية كانت مائدة خشبية قد مدت أيضاً . وكانت هذه للنزلاء[١٢] وللخدم . كان هناك قليل من الرجال المسنين بينهم . وهؤلاء الناس لم يكونوا يرتدون ملابس الدير ، ولكن على أي حال كانوا يرتدون ملابس داكنة محتشمة .

قادت الأخت بوتنتيا كريستين إلى مكان للجلوس على المقعد الخارجي ، ولكن مضت وجلست قرب كرسي الأم الرئيسة العالي في نهاية اللوح... كان الكرسي العالي فارغاً اليوم .

نهض الجميع ، الذين في هذه الغرفة وفي الغرفة الجانبية ، بينما تلت الأخوات الصلاة . بعد ذلك دخلت راهبة وسيمة شابة ووقفت عند مقرأة وضعت في الباب بين الغرفتين . وبينما كانت الأخوات الخادمات في الغرفة الأكبر ، واثنتان من الراهبات الأصغر في الغرفة الجانبية ، يحملن الطعام والشراب ، قرأت الراهبة بصوت مرتفع وعذب ، ودون توقف أو تعثر في كلمة واحدة ، حكاية القديسة ثيودورا والقديس ديدايموس .

في البداية كانت كريستين تفكر في الانتباه إلى سلوكها على المائدة ، فقد رأت كل الأخوات والفتيات الشابات يتصرفن بلباقة ويأكلن بمنتهى الكياسة وكأنهن جالسات إلى أرقى وليمة . كان هناك الكثير من أفضل أنواع الطعام والشراب ، ولكن كان كل شخص يخدم نفسه بتواضع ، ولا يترك سوى رؤوس البنان تنغمس في الأطباق . لم يرق أحد المرق سواء على الأغطية أو على ملابسه ، وكان الجميع يقطعون اللحم قطعاً صغيرة حتى لا

يلوثوا أفواههم ، ويأكلون بالكثير من الحرص على عدم إصدار أي صوت يمكن أن يسمع .

شعرت كريستين بالمرارة في جوفها خوفاً من ألا تبدو حسنة التصرف كالآخرين . كانت تشعر بالارتباك ، أيضاً ، في ثوبها الزاهي في وسط كل هؤلاء النسوة في الأسود والأبيض : كانت تتخيل أن الجميع كن ينظرن إليها . لذا حين اضطرت إلى أكل قطعة كبيرة من صدر الخروف ، كانت تمسكها من العظمة بأصبعين بينما راحت تقطع شرائح منها باليد اليمنى ، وتحاول أن تمسك السكين بشدة وأناقة...فجأة انزلق اللحم من أصابعها وطارت قطعة الخبز واللحم إلى غطاء المائدة وسقطت السكين مقرقعة على البلاط الحجري .

بدا الصوت مخيفاً في الغرفة الهادئة . احمر وجه كريستين كالنار وكانت ستنحني لالتقاط السكين ، ولكن إحدى الأخوات/ الخادمات اقتربت بهدوء في صندلها ولملمت الأشياء .

ولكن كريستين لم تعد تستطيع الأكل . لقد وجدت أيضاً أنها كانت قد جرحت أصبعها ، وكانت تخشى أن تنزف فوق غطاء المائدة . لذلك جلست ويدها ملفوفة في زاوية تنورتها ، وفكرت كيف أنها ستلطخ الثوب الأزرق الذي لبسته لأجل الرحلة إلى أوسلو ، ولم تجرؤ على رفع عينيها عن حجرها .

و على أي حال ، وخلال برهة من الوقت بدأت تصغي أكثر إلى ما كانت الراهبة تقرأه . حين وجد الحاكم أنه لم يستطع أن يهزّ ثبات الفتاة المسماة ثيودورا ـ ما كانت لتقدم القرابين إلى الآلهة المزيفة ولا لتقبل أن تتزوج ـ فقد أمرهم بأن يأخذوها إلى ماخور . ولكن وبينما هي في الطريق إلى هناك ، فقد حضّها على التفكير بأهلها أحرار المولد وأبيها وأمها المحترمين ، والذين

سيقع عليهم الآن عار دائم ، ثم وعد بأن يتركها تعيش في سلام وتبقى عذراء ، إن كانت ترضى فحسب أن تخدم الآلهة الوثنية التي يدعونها «ديانا» .

فأجابت ثيودورا دون وجل : «الطهارة أشبه بمصباح ، أما حب الله فهو الشعلة . لو كنت سأعمل في خدمة امرأة شيطانة تسمونها «ديانا» ، فإن طهارتي لن تعود لها قيمة أكثر من قيمة مصباح صدئ دون نار أو زيت . أنتم تسمونني حرة بالولادة ، ولكننا كلنا نولد أرقاء لأن آباءنا الأوائل باعونا للشيطان . لقد اشترى المسيح حريتي ، وأنا مضطرة لخدمته هو ، لذلك لا أستطيع الزواج من أعدائه . وهو سيحمي يمامته ، ولكن حتى لو سمح لكم بتحطيم جسدي ـ أي معبد روحه القدس ـ فإن هذا لن يشعرني بالعار ، هذا إذا لم أوافق على أن أسلم ما هو ملك للرب إلى أيدي أعدائه بالخيانة» .

بدأ قلب كريستين بالخفقان ، فقد ذكرها هذا على نحو ما بلقائها مع بنتاين ـ وقد ذعرت من فكرة أن تكون هذه على الأرجح خطيئتها ـ فهي لم تفكر ولو برهة بالرب ولا صلّت له ليساعدها . والآن كانت الأخت سيسيليا لا تزال تقرأ عن القديس ديدايموس . كان فارساً مسيحياً ، ولكنه كان حتى ذلك الحين قد كتم إيمانه عن الجميع عدا قلة من أصدقائه . وقد مضى الآن إلى المنزل [الماخور] الذي وضعت فيه الفتاة ، وأعطى المال إلى المرأة التي تملك المنزل وهكذا كان أول شخص يدخل على ثيودورا . هربت إلى زاوية الغرفة كأرنب فزع ، ولكن ديدايموس حيّاها كأخت وكعروس للرب ، وقال إنه قادم لينقذها . ثم كلمها لفترة من الزمن قائلاً : أليس من الواجب أن يضحي الأخ بحياته لأجل شرف أخته ؟ وأخيراً فعلت ما أمرها به ، فتبادلت ملابسها معه ، ولبست درع ديدايموس . وقد أنزل القبعة حتى غطت عينيها

وجعل العباءة تغطي ذقنها ، ثم أمرها بالخروج ووجهها مغطى مثل شاب خجل لأنه شوهد في مثل ذلك المكان .

فكرت كريستين بآرن ، ولم تستطع إلا بالكاد أن تمسك دموعها . حدقت مباشرة أمامها بعينين مبللتين بينما راحت الراهبة تقرأ حتى النهاية... كيف اقتيد ديدايموس إلى مكان الإعدام وكيف أتت ثيودورا مسرعة من الجبال ورمت بنفسها على قدمي الجلاد ورجته أن يقتلها بدلاً منه . والآن راح القديس والعذراء يتنافسان على من يكسب التاج أولاً . وقد قطع رأساهما معاً في اليوم نفسه . وكان ذاك هو اليوم الثامن والعشرون من نيسان (أبريل) من سنة (٤٠٣) ميلادية في أنطاكية ، كما كتب القديس أمبروسيوس .

حين نهضت من على المائدة ، جاءت الأخت بوتنتيا وربتت على خد كريستين بلطف : «أجل أنت تحنين لأمك ، أعتقد ذلك» . وعند سماعها هذا بدأت دموع كريستين بالانهمار . ولكن الراهبة تظاهرت بأنها لم تر الدموع ، وقادت كريستين إلى المكان الذي كانت ستسكن فيه .

كان ذلك في واحد من الأبنية الحجرية قرب الرواق المشيد حول فناء الدير . كانت غرفة كبيرة ذات نوافذ زجاجية ومدفأة ضخمة في الجدار القصير عند الطرف البعيد . على امتداد الجدار الرئيسي كانت ستة أسرة ، وعلى الجدار الآخر كل خزائن الفتيات .

تمنت كريستين أن يدعوها تنام مع واحدة من الفتيات الصغيرات ، ولكن الأخت بوتنتيا نادت على فتاة ناضجة بدينة ذات شعر فاتح : «هاهي إنجبيورغ فيليبوسداتر» التي ستكون رفيقتك في السرير...عليكما الآن أن تتعلما كيف تتعرفان الواحدة على الأخرى . قالت هذا وخرجت .

أخذت إنجبيورغ كريستين من يدها على الفور وبدأت تتكلم . لم تكن

طويلة جداً ، ولكن بدينة جداً ، وخاصة في الوجه : كانت وجنتاها ممتلئتين جداً حتى بدت عيناها صغيرتين تماماً . ولكن بشرتها كانت صافية ، حمراء وبيضاء ، وشعرها أصفر كالذهب ، ومجعداً جداً حتى أن ضفائرها الكثيفة كانت تتثنى وتلتوي الواحدة مع الأخرى مثل أطواق الحبل والخصلات الصغيرة كانت تنزلق باستمرار من تحت شبكة شعرها .

بدأت على الفور تستفسر من كريستين عن أمور كثيرة ، ولكن دون أن تنتظر جواباً . وبدلاً من ذلك كانت تتحدث عن نفسها ، وعن كل أقاربها من كل الفروع ـ لم يكونوا كلهم إلاّ من علية القوم ومن الأغنياء جداً . كانت مخطوبة أيضاً إلى رجل غني وعظيم ، هو «آينار آينارسون أوف أغانياس» ، ولكنه كان عجوزاً جداً ، وقد ترمّل مرتين . كان هذا هو أكبر سبب يبعث الحزن في نفسها كما قالت . ومع ذلك لم تستطع كريستين أن تلاحظ أنها تأسى أسى عميقاً لذلك . ثم تحدثت قليلاً عن «سايمون دار» : كان أمراً يدعو إلى العجب كم أنها تفحصته عن كثب خلال تلك البرهة القصيرة حين كانوا يمرون عبر الأروقة حول فناء الكنيسة . ثم عبرت عن رغبتها في مشاهدة صندوق كريستين ـ ولكنها فتحت أولاً صندوقها وأخرجت كل ملابسها . وبينما كانتا تنقبان في صندوقيهما ، دخلت الأخت سيسيليا ـ وقد أنبتهما وقالت إن هذا لم يكن أسلوباً ملائماً لتمضية يوم الأحد . وقد أثار هذا حزن كريستين مجدداً : لم تكن معتادة على أن يوبخها أحد عدا أمها التي كان توبيخها يختلف عن توبيخ صادر عن شخص غريب .

لم تخجل إنجبيورغ . بعد أن صعدتا إلى السرير في المساء ، راحت هذه تثرثر حتى نامت كريستين . نامت أختان/ خادمتان أكبر سناً في إحدى زوايا الغرفة . كان عليهما أن تراقبا الفتيات حتى لا يخلعن قمصانهن

خلال الليل ـ فقد كان أمراً منافياً للنظام أن تخلع الفتيات كامل ملابسهن ـ وكذلك لضمان إيقاظهن في الوقت الملائم لحضور صلاة الصباح في الكنيسة . ولكنهما لم تزعجا نفسيهما بأي شيء آخر لحفظ النظام في حجرة النوم ، وتظاهرتا كأنهما لا تسمعان حين كانت الفتيات مضطجعات وهن يثرثرن ، أو يأكلن الأطعمة اللذيذة التي كن يخبئنها في صناديقهن .

حين أيقظت كريستين في صباح اليوم التالي ، كان قد سبق لإنجبيورغ أن أصبحت في منتصف حكاية طويلة على نحو مسبق ، لذلك تساءلت كريستين تقريباً إن كانت الأخرى قد بقيت تتحدث طوال الليل .

٢

كان التجار الأجانب المقيمون في أوسلو خلال الصيف ويتاجرون فيها ، يأتون إلى البلدة في الربيع مع عيد الصليب الذي هو قبل عشرة أيام من معرض هالفاردس ـ ويك[١٤] . وإلى هذا المعرض كان الناس يفدون من كل الأبرشيات التي بين ميوسن والمستنقعات السويدية ، حتى أن البلدة كانت تعجّ بالناس في الأسابيع الأولى من أيار . كان ذاك هو أفضل الأيام للشراء من الغرباء ، قبل أن يكونوا قد باعوا الكثير من حاجياتهم .

كانت الأخت بوتنتيا حريصة على التسوق للدير ، وقد وعدت إنجبيورغ وكريستين بأنهما ستصحبانها إلى البلدة في اليوم السابق على «هلغارد ـ ويك» . ولكن حوالي منتصف النهار وصل بعض أقارب الأخت بوتنتيا إلى الدير لزيارتها ، لذلك لم تستطع الذهاب في ذلك اليوم . ثم رجت إنجبيورغ وتوسلت حتى سمحت لهما أخيراً بالذهاب وحدهما : رغم أن هذا كان مخالفاً للأنظمة . وقد أرسل فلاح عجوز من نزلاء الدير معهما كمرافق : كان اسمه هاكون .

كان قد مضى على كريستين ثلاثة أسابيع في الدير حتى الآن ، وخلال ذلك الوقت كله لم تكن قد غادرت أرض الدير وحدائقه . كانت

تتساءل كيف هو الربيع في الخارج . كانت الغابات الصغيرة في الحقول البعيدة خضراء فاتحة ، وكانت شقائق النعمان الغابية تنمو كثيفة كالبساط حول جذوع الأشجار فاتحة اللون . أما غيوم الطقس الجميل البيضاء فكانت تأتي مبحرة فوق الجزر في الزقاق البحري ، والماء يبدو صافياً وأزرق ، لا تجعده على نحو خفيف هنا وهناك سوى بعض عَصَفاتٍ من الريح .

تقافزت إنجبيورغ ، وقطفت أطواقاً من أوراق الشجر وراحت تشمها ، ثم راحت تتلصص على الناس الذين كانت تقابلهم ، حتى عنّفها هاكون ـ هل كانت تلك تصرفات ملائمة لفتاة كريمة الأصل وفي ثياب الدير أيضاً ؟ ـ كانت الفتاتان تمشيان من خلفه ، يداً بيد ، بهدوء ولباقة . ولكن إنجبيورغ استخدمت عينيها ولسانها على أي حال : كان هاكون أصم نوعاً ما . وكانت كريستين أيضاً ترتدي الزي الخاص بالمبتدئات : ثوب من الصوف الخشن المحبوك غير المصبوغ بلون رمادي فاتح ، وحزام صوفي وشريط للرأس ، وعباءة بسيطة زرقاء داكنة فوق هذا كله ، مع قلنسوة مقلوبة للأعلى حتى يكون الشعر المضفور مخفياً كله . سار هاكون أمامهما وهو يحمل عصا غليظة ذات قبضة نحاسية . كان يرتدي ثوباً طويلاً أسود وقد علّق على صدره تمثالاً رصاصياً للحمل [الذي يرمز للمسيح] وصورة للقديس كريستوفر على قبعته . كان شعره ولحيته البيضاوان ممشطين على نحو جيد حتى أنهما كانا يلتمعان كالفضة تحت نور الشمس .

الجزء العلوي من البلدة بين نونسبك وقصر الأسقف كان حياً هادئاً . لم يكن هنا أي دكاكين أو حانات . كان معظم المنازل ينتمي لعلية القوم من الأبرشيات المجاورة . وكانت هذه المنازل تدير للشارع جملونات خشبية خالية من النوافذ . ولكن في هذا اليوم كانت حشود من الناس تتجول في

الطرقات حتى في هذا المكان ، وقد وقف الخدم يتسكعون حول بوابات الساحة يثرثرون مع العابرين .

حين وصلوا قرب قصر الأسقف ، كان هناك ازدحام هائل عند المكان أمام كنيسة هلفارد ودير أولاف : لقد نصبت أكشاك على المنحدرات العشبية ، وكان هناك عارضون يجعلون كلاباً مدربة تقفز عبر أطواق براميل . ولكن هاكون لم يسمح للفتاتين بالدخول إلى الكنيسة . قال إنه سيكون من الأفضل أن تُرى في يوم عيد كبير .

و حين سارا عبر المساحة المفتوحة قرب كنيسة القديس كليمنت ، أمسك بهما هاكون كلاً من يدها ، فهنا كان أكبر حشد من الناس القادمين من السفن أو من الحارات بين ساحات التجار(١٥) . كانت الفتاتان متجهتين نحو ساحة ميكل ، حيث يمارس الإسكافيون حرفتهم . فقد وجدت إنجبيورغ الملابس التي جلبتها كريستين من المنزل على أنها جيدة وجميلة ، ولكنها قالت إن الأحذية التي جلبتها معها من «ديل» لم تكن ملائمة لارتداء الأفضل . وحين رأت كريستين الأحذية من الدول الأجنبية التي كانت في صندوق إنجبيورغ ، أحست أنها لا تستطيع أن ترتاح حتى تشتري مثلها .

كانت ساحة ميكل واحدة من أكبر الساحات في أوسلو . وكانت تمتد من أرصفة السفن حتى حارة ساوتر ، مع أكثر من أربعين منزلاً حول باحتيها الكبيرتين . والآن كانت أكشاك قد نُصبت ، ولها أسقف من النسيج الصوفي الخشن ، في الساحات أيضاً . وفوق سقوف هذه الخيم كان يبرز تمثال القديس كريسبينوس . وضمن الساحات كان حشد كبير من الناس يبيع ويشتري ، ونساء يجرين بين المطابخ بقدور ودلاء ، وأطفال بين أقدام الكبار يعيقون طريقهم ، وأحصنة تقاد إلى داخل وخارج الإسطبلات ، وخدم يحملون رزماً من وإلى المستودعات . ومن شرفات العلّيات في الأعلى ،

حيث كانت تباع أغلى البضائع ، كان الإسكافيون ومتدربوهم يصرخون باتجاه الفتاتين ويدلون بأحذية صغيرة ملونة بألوان زاهية أو مذهبة أمامهم .

و لكن إنجبيورغ شقت طريقها نحو العلية حيث كان ديدرك الإسكافي جالساً . كان ألمانياً ، ولكن زوجته كانت نرويجية ويمتلك منزلاً في ساحة ميكل .

كان الرجل العجوز واقفاً يقايض رجلاً نبيلاً يرتدي عباءة سفر ، وقد وضع سيفاً في حزامه . ولكن إنجبيورغ مضت نحو الأمام دون خجل وانحنت وقالت :

«سيدي الصالح ، هل لك أن تسمح لنا بالكلام مع ديدرك أولاً ؟ علينا العودة إلى ديرنا قبل صلاة الغروب ، وربما لا تكون أنت في مثل هذه العجلة ؟ »

انحنى السيد النبيل وتنحّى جانباً . وكز ديدرك إنجبيورغ بمرفقه وسألها ضاحكاً ما إذا كن يرقصن كثيراً في الدير إلى درجة أنه سبق لها وأبلت كل الأحذية التي اشترتها منه في العام السابق . وقد وكزته إنجبيورغ ثانية وقالت إنها لم تلبسها بعد ، والشكر للسماء ، ولكن هذه فتاة أخرى ، ثم جذبت كريستين إلى الأمام . ثم أحضر ديدرك وغلامه صندوقاً إلى الشرفة . ثم أخرجا منه أحذية كان كل زوج منها أجمل من الآخر . جعلا كريستين تجلس على صندوق حتى تستطيع أن تجربها... كانت هناك أحذية بيضاء وبنية وحمراء وخضراء وزرقاء ، أحذية ذات كعب خشبي مدهون وأحذية دون كعب ، أحذية لها إبزيم وأحذية ذات شرائط حرير ، وأحذية من جلد لها لونان أو ثلاثة . شعرت كريستين بأنها سيسرها أن تحصل عليها جميعاً . ولكن أسعارها كانت عالية جداً حتى أصيبت بالفزع : ليس هناك زوج واحد منها يكلف أقل من ثمن بقرة في البيت . كان أبوها قد

أعطاها كيس نقود فيه مارك من الفضة نقوداً معدودة[١٦] وذلك وهو يغادرها ، وكان ذلك كمصروف جيب ، وكانت كريستين تعتبر هذا المبلغ ثروة طائلة . ولكنها سرعان ما اكتشفت أن إنجبيورغ لم تعتقد أنه مبلغ كبير يذهب المرء للتسوق به .

و كان على إنجبيورغ أيضاً أن تجرب بعض الأحذية أيضاً فقط للاستمتاع بذلك . فهذا لا يكلف مالاً ، كما قال ديدرك ضاحكاً . وقد اشترت فعلاً زوجاً أخضر اللون كأوراق الشجر له كعب أحمر... قالت إنها يجب أن تحصل عليه ديناً ، حيث أن ديدرك يعرفها ويعرف أهلها .

فكرت كريستين أن ديدرك بالفعل لم يحبب ما حدث ، وأنه قد غضب أيضاً لأن الرجل النبيل الطويل في عباءة السفر قد غادر العلية : فقد أُنفق الكثير من الوقت في تجريب الأحذية . لذلك اختارت لنفسها زوجاً من الأحذية دون كعب من الجلد الأزرق الأرجواني ، المزين بالفضة وبالأحجار الحمراء الوردية . ولكن لم تعجبها الشرائط الحرير الخضراء عليه . قال ديدرك إنه يمكن له تغييرها ، واصطحب الفتاتين إلى غرفة في مؤخرة العلية . هناك كانت لديه صناديق مليئة بالشرائط الحرير والأبازيم الفضية الصغيرة ـ كان أمراً ضد القانون أن يتاجر الإسكافيون بهذه المواد ـ وكانت الشرائط في معظمها عريضة جداً والأبازيم أكبر من أن تستخدم للأحذية .

شعرتا أن عليهما أن تشتريا شيئاً من المواد الصغيرة ، وحين شربتا قدحاً من النبيذ الحلو مع ديدرك ، حزم لهما المشتريات في قطعة قماش صوفية خشنة ، فقد كان الوقت قد تأخر ، وأصبح كيس كريستين أخف بكثير .

حين خرجوا إلى «أوستر سترايته» مجدداً كان نور الشمس قد أضحى ذهبياً ، وبسبب حركة السير في البلدة ، فإن الغبار كان معلقاً فوق الشارع

في سديم لامع . كان المساء دافئاً وجميلاً ، وكان الناس ينزلون من « آيكابرغ » وأذرعهم مليئة بالغصون الخضراء الجديدة التي يزينون بها بيوتهم لأجل العيد . والآن خطرت نزوة لإنجبيورغ فاقترحت أن تذهبا إلى « جسر غيايتا » : ففي وقت المعرض يكون هناك عادة الكثير من القصف واللهو في الحقول على الجانب الآخر من النهر ، فهناك المهرجون والعازفون ، بل أن إنجبيورغ سمعت أن هناك حمولة سفينة كاملة من الحيوانات الغريبة التي تعرض في أقفاص عند الشاطئ .

كان هاكون قد تناول إبريقاً أو اثنين من الجعة الألمانية في «ساحة ميكل» ، وقد أصبح الآن طيعاً ولطيف المزاج . لذلك حين أخذته الفتاتان من ذراعيه ورجتاه بعذوبة ، فقد استسلم أخيراً ومضى الثلاثة نحو « آيكابيرغ » .

ما وراء النهر لم يكن هناك سوى القليل من المساكن المتناثرة على المنحدرات الخضراء بين النهر وحافة الجبل الشاهقة . مرّوا متجاوزين «دير مينوريت » وغار قلب كريستين في صدرها خجلاً حين تذكرت كيف كانت تنوي أن تتبرع بمعظم ما معها من فضة لصالح روح آرن . ولكن لم تكن تنوي التحدث عن ذلك إلى كاهن «دير نونسيتر» . كانت تخشى من أن تطرح عليها الأسئلة . لقد فكرت في أن تخرج إلى «الأخوة حفاة الأقدام » لتكتشف إن كان الأخ إدفين في الدير الآن . كانت راغبة في مقابلته مجدداً ، ولكنها لم تكن تعرف ما هي أنسب طريقة للتحدث مع أحد الرهبان وأن تحكي له عن رغبتها . والآن لم يتبقّ معها سوى القليل من المال ولم تكن تعرف إن كانت قادرة به على شراء قداس : ربما سيكون عليها أن ترضى بتقديم شمعة ثخينة .

وفجأة سمعوا صرخة هائلة من حناجر عديدة هناك عند الشاطئ : بدا

وكأن عاصفة كانت تجتاح حشد البشر هناك . والآن كانت الكتلة كلها تندفع نحوهم والجميع يصرخون ويزعقون . بدا الجميع كالمجانين من الرعب ، وصرخ بعض الراكضين إلى هاكون والفتاتين أن هناك نمورا طليقة...

انطلقوا عائدين عدواً باتجاه الجسر ، وسمعوا الناس يصرخون الواحد للآخر بأن قفصاً قد وقع وأن نمرين أصبحا طليقين ـ وتحدث البعض عن ثعبان أيضاً . وكلما اقتربوا من الجسر أصبح الازدحام أسوأ . أسقطت امرأة كانت أمامهم طفلاً صغيراً من ذراعيها ـ وقف هاكون مفرشخاً فوق الطفل ليحميه ـ وسرعان ما رأتاه من بعيد والطفل بين ذراعيه ، ثم فقدتا أثره .

عند الجسر الضيق كان ضغط الحشر شديداً إلى حد أن الفتاتين دُفعتا إلى حقل . شاهدتا أشخاصاً يركضون إلى ضفة النهر ، وكان شبان يقفزون فيه ويسبحون ، أما الأشخاص الأكبر سناً فقفزوا إلى زوارق كانت متوقفة هناك ، وكانت هذه محملة بثلاثة أضعاف حمولتها .

حاولت كريستين أن تجعل إنجبيورغ تسمع ، صاحت بأن عليهما الركض إلى «دير مينوريت» ، فقد كانتا قادرتين على مشاهدة «الرهبان الرماديين» خارجين منه عدواً ، محاولين تجميع الناس الفزعين . لم تكن كريستين خائفة كالفتاة الأخرى ـ فهما لم تريا شيئاً من الوحوش البرية ـ ولكن إنجبيورغ كانت قد فقدت تماماً رشدها . والآن ، كان هناك هدير جديد بين الحشد الذي دفع إلى الخلف بوساطة مجموعة كاملة من الرجال من المساكن القريبة ، الذين سلّحوا أنفسهم وشقّوا طريقهم فاستولوا على الجسر ؛ كان البعض منهم راكباً والبعض الآخر راجلاً ، وقد زعقت إنجبيورغ وعدت نحو الغابات . ما كانت كريستين لتظن أن هذه الفتاة قادرة على

العدو بهذه السرعة ، لقد ذكرتها بخنزير مطارد . وقد عدت خلفها حتى لا تفترقان هما أيضاً .

كانتا قد توغلتا في الغابة قبل أن تستطيع كريستين إيقاف إنجبيورغ وذلك عند ممر صغير بدا أنه يؤدي نحو الطريق إلى « ترايلابورغ » . وقفتا ساكنتين فترة لاسترداد أنفاسهما . كانت إنجبيورغ تشنف وتبكي ، وقالت إنها لن تجرؤ على العودة وحدها عبر البلدة ثم في طريق العودة كله إلى الدير .

.و كانتا كريستين من هذا الرأي أيضاً ، فالشوارع في حالة فوضى . فكرت في أن عليهما أن تحاولا إيجاد منزل يمكن لهما فيه أن تجدا شاباً تستأجرانه ليوصلهما إلى الدير . كانت إنجبيورغ تظن أن هناك درباً للخيل إلى ترايلابورغ وهو طريق مختصر ، وعلى امتداده توجد بعض المنازل التي تعرفها . لذلك تبعتا الدرب نزولاً بعيداً عن البلدة .

و بما أنهما كانتا خائفتين وقلقتين ، فقد بدا لهما أنهما ابتعدتا كثيراً قبل أن تصلا إلى مزرعة في حقل . في ساحة المزرعة وجدتا عصبة من الرجال جالسين يشربون على منضدة تحت أشجار الدردار ، بينما كانت هناك امرأة تأتي وتذهب ، حاملة لهم الأقداح الكبيرة ذات الغطاء . نظرت باستغراب وبحدة إلى الفتاتين في ملابس الدير ، ولم يبد على أي من الرجال أنه ينوي الذهاب معهما حين ذكرت كريستين حاجتهما . وأخيراً نهض شابان وقالا إنهما سيوصلان الفتاتين إلى دير نونسيتر ، إن كانت كريستين ستمنحهما دوكاتاً من الفضة .

عرفت من لغتهم أنهم ليسوا نرويجيين ، ولكنها فكرت في أنهم يبدون كأشخاص شرفاء . كان مبلغاً وقحاً ذلك المبلغ الذي طلباه ، كما فكرت ، ولكن إنجبيورغ كانت قد فقدت السيطرة على نفسها لشدة الخوف ولم تكن

تدري كيف ستذهبان وحدهما إلى الدير في مثل تلك الساعة المتأخرة ، لذلك وافقت على الصفقة .

ما إن اقتربوا من ممر الغابة حتى دنا منهما الرجلان وبدآ بالحديث . لم يرق ذلك لكريستين ، ولكنها لم تظهر لهما أنها خائفة . لذلك ردت على أسئلتهما بهدوء ، وحكت عن النمور وسألت الرجلين عن بلدهما الأصلي . راحت تتطلع فيما حولها وتظاهرت وكأنها كانت تتوقع في أي لحظة مقابلة الخدم الذين كانوا معهما . تحدثت وكأنه كان هناك عصبة كاملة منهم . وخلال السير راح حديث الرجلين يصبح أقل ، وهي لم تكن تفهم على أي حال كثيراً من حديثهما .

بعد فترة أدركت أنهم لم يكونوا ماضين في الطريق نفسه الذي قطعته مع إنجبيورغ ـ لم يكن ذاك هو الدرب نفسه . كان هذا متجهاً نحو الشمال وقد اعتبرت أنهم مضوا بعيداً جداً فيه .

في أعماقها أحست بخوف لم تجرؤ على التفكير فيه ـ ولكن وجود إنجبيورغ معها شجعها على نحو غريب ، فالفتاة كانت حمقاء إلى درجة أن كريستين عرفت أن عليها وحدها أن تجد طريق النجاة لهما كلتيهما . من تحت عباءتها استطاعت خلسة أن تجذب الصليب الحامل للذخيرة المقدسة الذي أعطاها إياه أبوها . أمسكته بيدها وهي تصلي بحرارة في قلبها أن يقابلوا شخصاً ما في أقرب وقت ، وقد جهدت بشتى الطرق لتجمع كل شجاعتها دون أن تبدي أي إشارة .

بعد هذا مباشرة رأت أن الممر كان يؤدي إلى طريق وكانت هناك فسحة في الغابة . كانت البلدة والخليج يقعان إلى الأسفل بعيداً . كان الرجلان قد أضلاهما ، سواء عن عمد أو عن جهل بالطريق : كانوا على حافة جبل مرتفع وإلى الشمال بعيداً عن « جسر غيايتا » الذي كانت تستطيع

رؤيته إلى الأسفل . كان الطريق الذي وصلوا إليه الآن يؤدي على ما يبدو إلى هناك .

لذلك توقفت هناك وأخرجت كيس نقودها وتظاهرت بعدّ عشرة قروش فضية في يدها .

قالت : «و الآن أيها الرجلان الطيبان ، لم نعد في حاجة لكما لتدلانا على الطريق . فنحن نعرف طريقنا من هنا . شكراً لجهودكما وها هو الأجر الذي اتفقنا عليه . فليكن الرب معكما أيها الصديقان الطيبان» .

نظر الرجلان الواحد إلى الآخر بمنتهى الحماقة ، حتى كادت كريستين تبتسم . ثم قال أحدهما بابتسامة قبيحة إن الطريق إلى الجسر في الأسفل كان منعزلاً جداً . لم يكن من الحكمة أن تذهبا وحدهما .

أجابت كريستين : «ليس هناك بالتأكيد من هو تافه أو أحمق إلى حد أن يخطر له إيقاف فتاتين في ملابس الدير . سيسرنا أن نتابع طريقنا وحدنا الآن» ، ثم مدّت يدها بالنقود .

أمسك الرجل بها من رسغها ودفع بوجهه قريباً من وجهها وقال شيئاً قريباً من كلمتي «قبلة» و«كيس» ، ففهمت كريستين أنه سيدعهما تذهبان في سلام لو أعطتهما قبلة وكيس نقودها .

تذكرت وجه بنتاين قريباً من وجهها على هذا النحو ، واعتراها خوف هائل لحظة حتى أنها أحست بالضعف والغثيان . ولكنها ضغطت شفتيها معاً ونادت من كل قلبها الرب ومريم العذراء : في اللحظة نفسها ظنت أنها سمعت وقع حوافر على الممر القادم من الشمال .

ضربت الرجل في وجهه بكيسها فترنح ، ثم دفعته في صدره بكل قوتها حتى سقط بعيداً عن الممر نحو الغابة . أما الألماني الآخر فأمسكها من الخلف وانتزع الكيس من يدها وسلسلتها من عنقها حتى أنها انقطعت :

كادت تسقط أرضاً ولكنها أمسكت بالرجل وحاولت أن تنتزع صليبها منه . ناضل حتى يتحرر منها ـ كان اللصان قد سمعا الآن بأن هناك أشخاصاً قادمين ـ زعقت إنجبيورغ بكل قوتها ، ووصل الفرسان من الممر منطلقين بأقصى سرعة . انطلقوا خارجين من الدغل ـ ثلاثة منهم ـ وهرعت إنجبيورغ وهي تصرخ لتقابلهم حين نزلوا عن جيادهم . ميزت كريستين أحدهم على أنه الرجل النبيل الذي كان في علية ديدرك . امتشق سيفه وأمسك بالألماني الذي كانت تعاركه من مؤخر عنقه ، وضربه بصفح سيفه . لحق تابعاه بالرجل الآخر وأمسكا به وضرباه حتى شفي غليلهما .

استندت كريستين إلى وجه الصخرة . كان جسدها كله يرتجف الآن ، ولكن ما شعرت به كان أعجوبة بأن صلاتها قد جلبت هذا العون العاجل جداً . ثم رأت إنجبيورغ التي كانت قد أنزلت قلنسوتها وعلقت عباءتها فوق كتفيها وكانت على وشك أن تجلب ضفائرها الثقيلة اللامعة أمام صدرها . لدى رؤيتها هذا المشهد ، تخلت عن كريستين قوتها وكان عليها أن تتمسك بإحدى الأشجار لتبقى على قدميها ، فقد كان الأمر أشبه بأن نقي عظامها كان قد استحال ماء . أحست بالضعف . وهكذا راحت ترتجف وتضحك وتبكي .

تقدم الرجل النبيل ووضع يده بحذر على كتفها وقال بصوت لطيف ورقيق :

«لقد كنت خائفة كما أرى أكثر مما كنت تظهرين . والآن عليك أن تتماسكي ـ لقد تصرفت بشجاعة كبيرة وأنت تحت الخطر...»

كل ما استطاعت كريستين أن تفعله هو أن تنظر إليه وتومئ برأسها . كانت له عينان جميلتان لامعتان في وجه ضيق أسمر شاحب وشعر أسود كالفحم قصير مقصوص فوق الجبين وخلف الأذنين .

رتبت إنجبيورغ شعرها الآن ، ثم أتت وشكرت الرجل الغريب بكلمات لطيفة كثيرة . وقف هناك ويده على كتف كريستين بينما راح يرد على رفيقتها .

قال لرجليه اللذين كانا لا يزالان واقفين ممسكين بالألمانيين : «علينا أن نصطحب هذين الطيرين معنا» . كان هذان من سفينة من روستوك كما قالا . علينا أن نأخذهما إلى المدينة حتى يوضعا في الحفرة السوداء . ولكن علينا أولاً أن نوصل هاتين الفتاتين إلى الدير . تستطيعان أن تجدا بعض السيور الجلدية على ما أعتقد . أوثقوهما بها...»

سأل أحد الرجلين : «أتعني الفتاتين يا إرلند ؟» كانا تابعين شابين وقويين مجهزين وكانا في معنويات عالية بعد العراك .

عبس سيدهما وكاد يجيب بحدة ، ولكن كريستين وضعت يدها على كمه :

«دعهما يرحلان في سبيلهما يا سيدي العزيز!» وارتجفت قليلاً . «سنكره أنا وأختي أن يجري الحديث عن هذه المسألة» .

نظر إليها الغريب ، عض شفته وطأطأ رأسه ، وكأنه فهمها . ثم ضرب كل واحد من الأسيرين على قذاله بصفح السيف مما جعلهما يقعان أرضاً . «اهربا» قال وهو يرفسهما ، ثم نهض كلاهما متعثرين وركضا بأسرع ما فيهما من قوة . التفت إلى الفتاتين وسألهما إن كانتا ستتكرمان بالركوب .

سمحت إنجبيورغ لنفسها بأن ترفع إلى سرج إرلند ، ولكن سرعان ما تبين أنها لا تستطيع المحافظة على مكانها ، فانزلقت مجدداً وعلى الفور . نظرت إلى كريستين بشك ، فقالت هذه إنها معتادة على الركوب على سروج الرجال .

أمسك بها من تحت ركبتها ورفعها . انتابتها رعشة عذبة ومفرحة إذ

شعرت كم أمسك بها بعناية بعيداً عنه ، كأنه يخشى أن يقترب منها : في البيت ما كان هناك من يأبه أبداً كم كان يمسكها بقوة حين يساعدها على الركوب . أحست بأنها قد عوملت على نحو مشرف ورائع وارتفعت معنوياتها .

و قد قدم الفارس ـ كما سمته إنجبيورغ ، رغم أنه كان يلبس مهمازاً فضياً ـ قدم يده إليها ، وقفز رجلاه إلى حصانيهما . ارتأت إنجبيورغ أن يدوروا من حول البلدة شمالاً تحت «راينبرغ » و«ماتستوكه» وليس عبر الشوارع . أولاً ، قدمت هي سبباً بأن السير إرلند وتابعيه كانا مسلحين تسليحاً كاملاً ، أليس كذلك ؟ فأجاب الفارس برصانة بأن الحظر على حمل الأسلحة لم يكن شديد الصرامة في أي وقت من الأوقات في الأقل فيما يخص المسافرين ـ وكان الجميع الآن في البلدة قد خرجوا لاصطياد الوحوش . ثم قالت إنها كانت تخاف النمور . أدركت كريستين جيداً أن إنجبيورغ كانت ترمي إلى قطع أطول الطرق وأكثرها عزلة حتى تكون قادرة على محادثة إرلند لأطول فترة ممكنة .

قالت : «هذه هي المرة الثانية في هذا المساء التي نعيقك فيها يا سيدي» ، فأجاب إرلند بجدية :

«لا بأس ، أنا ذاهب إلى غيرداروود فحسب هذه الليلة ، والليل كله مضاء بالنور» .

أعجبت كريستين بجديته وعدم مزاحه ، إذ كان يحادثها وكأنها ندّ له أو حتى أكثر من ندّ له . وقد فكرت بسايمون . لم تكن قد قابلت شباناً آخرين من منشأ راق . ولكن كان هذا صحيحاً فالرجل يبدو أكبر سناً من سايمون .

ساروا نزولاً في الوادي تحت تلال «راينبرغ» ثم على امتداد الوادي . كان الممر ضيقاً وراحت الشجيرات الصغيرة تؤرجح أغصاناً رطبة ذات رائحة

ثقيلة عليها : كان الجو أعتم هنا في الأسفل ، والهواء بارد والأوراق شديدة النداوة على امتداد ممر الوادي .

مضوا ببطء وراحت حوافر الجياد تسمع مكتومة على الممر الرطب الذي نمت فوقه الأعشاب . راحت تهتز بلطف في السرج من خلفها ، سمعت إنجبيورغ تثرثر ، وكذلك صوت الغريب العميق الهادئ .

كان يقول القليل ، ويجيب كأن ذهنه شارد . بدا الأمر تقريباً وكأن مزاجه كان كمزاجها ، كما فكرت ـ أحست أنها ناعسة على نحو غريب ـ ، ومع ذلك فإنها تشعر بالأمان والرضا الآن لأن كل ما حدث أثناء النهار مضى بخير .

كان الخروج من الغابة إلى المنحدرات الخضراء تحت تلال مارتستوك أشبه بالاستيقاظ من النوم . كانت الشمس قد غربت والبلدة والخليج يقبعان تحتهم في نور واضح شاحب ـ فوق سلاسل «آكر» كان شريط أصفر فاتح يحيط بالسماء الزرقاء الشاحبة . في صمت المساء ، كانت الأصوات تصل إليهم من بعيد ، وهم خارجون من الأعماق الباردة للغابة ـ كانت عجلات عربة نقل تصرّ في مكان ما على الطريق ، والكلاب في المزارع تنبح الواحد على الآخر عبر الوادي . من الغابات خلفهم كانت الطيور تغرّد وتغنّي ، والشمس قد غربت الآن .

كان الهواء مترعاً بالدخان من الحرائق على أراض قيد الإخلاء ، وخارجاً في حقل هناك كان اللهب الأحمر لنا موقدة في العراء . أمام اللهب الأحمر الكبير كان وضوح الليل نوعاً من العتمة .

كانوا يمضون بين حواجز الحقول التابعة لأحد الأديرة ، حين تحدث الشخص الغريب معها مجدداً . لقد سألها ما الذي تفضله : أهو الذهاب معها إلى البوابة وطلب مخاطبة الليدي غروا ، ليحكي لها كيف حدث هذا الشيء . ولكن

إنجبيورغ فضلت أن تتسلّلا عبر الكنيسة . ثم ربما قد تنزلقان إلى الدير دون أن يعرف أحد ما الذي كانتا تفعلانه في ذلك المكان البعيد مع الغياب فترة طويلة : ربما كانت زيارة أقرباء الأخت بوتنتيا ستجعلها تنساهما .

كان المكان المفتوح أمام الباب الغربي للكنيسة فارغاً وهادئاً ، ولم يخطر لكريستين أن تتساءل عن سبب ذلك ، رغم أنه كان من المعتاد وجود الكثير من الحركة هناك في المساء ، حيث كان الأشخاص من الحي المجاور يأتون إلى كنيسة الراهبات ، ومن المنازل القريبة حيث يسكن الخدم والعامة . ودّعتا إرلند هناك . وقفت كريستين وربتت على جواده . كان أسود ، وله رأس وسيم وعينان لطيفتان ـ فكرت في أنه يشبه « مورفين » ، الحصان الذي كانت تركبه في البيت وهي طفلة .

« ما اسم حصانك يا سيدي ؟ » سألته بينما راح الحصان يلتفت برأسه بعيداً عنها ويتشمّم صدر سيده .

قال وهو ينظر إليها من فوق عنق الحصان : « بايارد . أنت تسألين عن اسم حصاني ولكن ليس عن اسمي ؟ »

« سيسرني أن أعرف اسمك يا سيدي » ، أجابت ، ثم أحنت رأسها قليلاً .

قال : « اسمي إرلند نيكولاوسون » .

« إذن يا إرلند نيكولاوسون ، شكراً على خدماتك الطيبة هذه الليلة » . قالت كريستين ثم قدمت له يدها .

و فجأة احمرت خجلاً ، وسحبت يدها نصف سحبة من يده .

سألت : « هل الليدي آشيلد فاوتسداتر أوف دوفر قريبتك ؟ »

وقد احمر خجلاً هو أيضاً ممّا أثار استغرابها ، وأسقط يدها فجأة وأجاب :

«إنها خالتي . وأنا إرلند نيكولاوسون أوف هوسابي» . نظر إليها نظرة غريبة جداً حتى أصبحت أكثر خجلاً ، ولكنها سيطرت على نفسها وقالت :

«الحق أنه كان عليّ أن أشكرك بكلمات أفضل ، يا إرلند نيكولاوسون ، ولكني لا أعرف ما أقوله لك» .

انحنى أمامها ، وأحست الآن أن عليها أن تودعه ، رغم أنها كانت راغبة في التحدث معه لمدة أطول . عند باب الكنيسة التفتت ، وحين رأت أن إرلند كان لا يزال واقفاً قرب جواده ، فقد لوحت بيدها له مودعة .

•

كان الدير في حالة من الهرج والمرج ، والكل في رعب شديد . كان هاكون قد أرسل رسالة إلى الدير مع أحد الفرسان ، بينما راح يبحث بنفسه عن الفتاتين في البلدة . وقد أرسل أشخاص من الدير لمساعدته . كانت الراهبات قد سمعن أن الوحوش البرية قد قتلت والتهمت طفلين في المدينة . وكان هذا كذباً بكل تأكيد ، وكان النمر ـ وهو واحد فقط ـ قد جرى الإمساك به قبل صلاة الغروب من قبل بعض الرجال من قصر الملك .

•

وقفت كريستين برأسها المطأطئة وبقيت صامتة ، بينما راحت الأم الرئيسة والأخت بوتنتيا تصبان جام غضبهما على الفتاتين . أحست وكأن شيئاً ما كان نائماً فيها . بكت إنجبيورغ وبدأت تقدم الاعتذارات : لقد خرجتا بإذن من الأخت بوتنتيا ، ومعهما مرافقة ملائمة ، وطبعاً لا يقع عليهما اللوم بسبب ما جرى هناك .

و لكن الليدي غروا قالت إن عليهما البقاء في الكنيسة حتى منتصف

الليل ، وأن عليهما أن تفكرا بأمور الروح ، وتشكرا الرب الذي أنقذ حياتهما وشرفهما . قالت : «لقد أراكما الله بوضوح حقيقة هذه الدنيا . وحوش برية وخدم الشيطان يهددون أطفاله هناك عند كل خطوة ، ولا مجال للخلاص إلاّ إذا تشبثتما بالرب بالصلاة والتضرّع» .

أعطت كل واحدة منهما شمعة وأمرتهما أن تذهبا إلى الأخت سيليسيا باردسداتر ، التي غالباً ما تكون وحدها في الكنيسة تصلي الليل بطوله .

وضعت كريستين شمعتها على مذبح القديس لورنس ، وركعت على كرسي الصلاة . ثبتت نظرتها على الشعلة بينما راحت تتلو صلاة «أبانا الذي» و«آفيه ماريا» [السلام عليك يا مريم] بصوت خفيض . بدا وميض الشمعة وكأنه يحيط بها شيئاً فشيئاً ثم يحجب كل شيء خارجها وخارج النور . أحست بقلبها ينفتح ويتدفق بالحمد والشكر والحب للرب وأمه الرؤوم : لقد اقتربا منها كثيراً . كانت قد عرفت دائماً أنهما يريانها ، ولكنها أحست الليلة أن الأمر كذلك . رأت العالم كما في رؤيا . غرفة مظلمة كبيرة سقط فيها شعاع شمس . كانت ذرات الغبار تتراقص داخلة وخارجة بين العتمة والنور ، وأحست الآن أنها قد انزلقت أخيراً إلى داخل شعاع الشمس .

أحست أنه سيسرها أن تبقى إلى الأبد في هذه الكنيسة المظلمة الهادئة ـ مع بقع صغيرة قليلة من النور مثل النجوم الذهبية في الليل ، الرائحة العذبة القديمة للبخور ، والرائحة الدافئة للشمع المحترق . وهي مرتاحة ضمن نجمتها الخاصة .

كأنما كانت هناك متعة عظيمة ما وانقضت وذلك حين وصلت الأخت سيليسيا دون صوت ولمست كتفها . خرجت النساء الثلاث من الباب الجنوبي الصغير إلى ممرّ الدير وهن ينحنين أمام المذبح .

كانت إنجبيورغ شديدة النعاس حتى أنها ذهبت إلى السرير دون كلمة . كانت كريستين سعيدة ـ لقد كانت كارهة أن يقاطع أحد أفكارها الحلوة . وكانت سعيدة أيضاً أنه كان عليهما أن تبقيا دون حراك ليلاً ، فقد كانت إنجبيورغ بدينة جداً ودافئة جداً .

بقيت مستيقظة فترة طويلة ، ولكن التدفق العميق للعذوبة الذي أحست به وهو يتسامى بها وهي تركع في الكنيسة لن يعود مجدداً . ومع ذلك أحست بدفئه لا يزال فيها . حمدت الرب من كل قلبها ، وفكرت أنها أحست بروحها تتقوى بينما راحت تصلي لأجل أبيها وأمها وأختيها وروح آرن غيردسون .

فكرت بأبيها : كانت تفتقده كثيراً وكذلك كل ما كانت عليه الحال بينهما قبل أن يدخل «سايمون دار» حياتهما . وهنا انبثق من داخلها حنان جديد تجاهه ـ كان هناك نوع من التذوق المسبق لحنان الأم ورعايتها وذلك في حبها لأبيها في هذه الليلة . لقد أحست على نحو غامض أن هناك الكثير في الحياة من الأمور التي فاتته . تذكرت الكنيسة السوداء الخشبية في غيردارود ـ لقد شاهدت هناك في آخر عيد فصح قبور إخوتها الثلاثة الصغار وجدتها لأبيها ، كريستين سيغوردسداتر ، التي ماتت حين ولدته .

ما العلاقة بين إرلند نيكولاوسون وغيردارود : لم تستطع التفكير .

لم تكن تدري أنها فكرت به كثيراً في ذلك المساء ، ولكن طوال الوقت كانت فكرة وجهه الداكن الضيق وصوته الهادئ معلقة في مكان ما في الغسق خارج توهج النور الذي كان يحيط بروحها .

حين استيقظت في صباح اليوم التالي ، كانت الشمس تشع بنورها إلى داخل مهجع النوم ، وحكت لها إنجبيورغ كيف أن الليدي غروا نفسها قد

أمرت الخادمات ألا يوقظنها لأجل صلاة الصباح . لقد قالت إنه حينما تستيقظان ، يجب أن تذهبا إلى المطبخ وتتناولا بعض الطعام . أحست كريستين بالدفء من السعادة تجاه لطف الأم الرئيسة : بدا وكأن العالم كله كان طيباً معها .



٣

اختارت نقابة المزارعين[١٧] في «آكر» القديسة مارغريت كحامية لها ، هذا ويبدأ المزارعون احتفالهم كل عام في العشرين من تموز ، يوم قداس القديسة مارغريت . في ذلك اليوم يتجمع أعضاء النقابة من ذكور وإناث مع أطفالهم وضيوفهم وخدمهم في كنيسة آكر ويحضرون القداس عند مذبح القديسة مارغريت هناك . بعد ذلك يسلكون طريقهم إلى قاعة النقابة القريبة من «مستشفى هوففين» : وهناك كانوا يقيمون مأدبة شراب تستمر خمسة أيام .

ولكن بما أن كنيسة آكر ومستشفى هوففين ينتميان إلى دير نونسيتر ، وبما أن كثيراً من مزارعي آكر كانوا من مستأجري أراضي الدير ، فقد جرت العادة أن تقوم الأم الرئيسة وبعض الأخوات الأكبر سناً بتشريف النقابة بالقدوم إلى الاحتفال في اليوم الأول . أما أولئك الفتيات الموجودات في الدير فقط للدراسة ، ولن يرتدين الوشاح ، فكان عليهن أن يرافقنهن ويرقصن في المساء . لذلك كن يرتدين في هذا العيد ملابسهن الخاصة وليس ملابس الدير .

بالتالي حصل هرج ومرج في غرف نوم المبتدئات في مساء قداس

القديسة مارغريت . كانت الفتيات اللواتي سيذهبن إلى وليمة النقابة ينبشن صناديقهن ويحضّرن زينتهن ، بينما كانت الأخريات الأقل حظاً يتجولن بمزاج عكر ويتفرجن . كان بعضهن قد وضعن أباريق صغيرة في المدفأة ويغلين الماء لجعل بشراتهن بيضاء وطرية . الأخريات كن يغلين شيئاً يضعنه على شعورهن ، ثم يفرقن شعورهن في جدائل ويضفرنها بشدة بشرائط مستديرة من الجلد ، ويعطيهن هذا غدائر مجعدة متموجة .

أخرجت إنجبيورغ كل الزينة التي لديها ، ولكنها لم تستطع التفكير فيما عليها أن تلبسه... فليكن ما يكون ، لن ترتدي أفضل ما لديها ، الثوب المخملي الأخضر ، الذي كان ثميناً جداً وجيداً جداً على مثل هذا الحفل الفلاحي . ولكن أختاً ضئيلة نحيلة لن تكون معهن ـ كان اسمها هيلغا ، وكانت منذورة للدير من قبل أبيها وأمها وهي طفلة بعد ـ أخذت كريستين جانباً وهمست لها أن إنجبيورغ سترتدي الثوب الأخضر وحريرها الوردي أيضاً .

قالت هيلغا : « كنت دائماً طيبة معي يا كريستين . ولا يليق بي أن أتدخل في مثل هذه الأمور ، ولكني سأقول لك على أي حال . لقد رأيت وسمعت إنجبيورغ منذ ذلك الحين تحادث ذلك الفارس الذي أوصلك إلى الدير في ذلك المساء في الربيع : لقد تحادثا في الكنيسة معاً ، وقد انتظرها في الخارج حين ذهبت إلى « إنغون » إلى منزل العامة ، ولكنه يسأل عنك أنت ، وقد وعدته إنجبيورغ بأن تحضرك معها . ولكني أراهن أنك لم تسمعي شيئاً عن هذا من قبل! »

قالت كريستين : « الصحيح أن إنجبيورغ لم تذكر شيئاً من هذا » . ثم بوّزت فمها حتى لا ترى الأخرى الابتسامة التي كانت ستظهر عليه . هكذا هو إذن أسلوب إنجبيورغ . « ربما هي تعرف أني لست من النوع الذي

يذهب إلى المواعيد الغرامية مع رجال غرباء من حول زوايا المنازل وخلف السياج» . هكذا قالت باعتزاز .

قالت هيلغا وقد أحسست بالإهانة : «إذن كان عليّ أن أوفر على نفسي مشقة جلب الأنباء إليك وكان حرياً بي ألاّ أذكر شيئاً أمامك» . ثم افترقتا .

ولكن طوال المساء كانت كريستين مصممة على ألاّ تبتسم إذا ما نظر أي شخص إليها .

•

في صباح اليوم التالي ظلت إنجبيورغ تتسكع في ملابسها العادية حتى عرفت كريستين أنها كانت لا تنوي أن تلبس قبل أن تصبح هي جاهزة .

لم تقل كريستين شيئاً ، ولكنها ضحكت وهي تمضي إلى صندوقها وتخرج شلحتها الحرير الصفراء الذهبية . لم تكن قد ارتدتها سابقاً وقد أعطتها إحساساً ناعماً وبارداً وهي تلبسها على جسدها . كانت مطرزة على نحو جميل بالحرير الفضي والأزرق والبني ، حول العنق والصدر ، بقدر ما يمكن رؤيته فوق الفستان ذي القصة الخفيضة . كانت لها أكمام ملائمة أيضاً . ثم ارتدت جواربها الطويلة الكتانية وربطت حذاءها الأزرق الأرجواني الصغير الذي أنقذه هاكون لحسن الحظ في يوم الهرج والاضطراب ذاك . وقد حدقت إليها إنجبيورغ ، ولكن كريستين قالت ضاحكة : «لقد علمني أبي دائماً إلاّ أظهر الاحتقار لأولئك الذين هم دوننا مرتبة... ولكنك أرقى من أن تزيّني نفسك في أفضل ملابسك لأجل هؤلاء المزارعين المستأجرين الفقراء والفلاحين...»

لبست إنجبيورغ ، وقد احمرت كالتوت ، جلبابها الصوفي فوق ردفيها البيضاوين وارتدت بسرعة الشلحة الحرير الوردية . أنزلت كريستين من فوق رأسها أفضل فستان مخملي عندها : كان أزرق بنفسجي اللون ، وله قصة

عميقة عند الصدر ، مع أكمام طويلة مشقوقة تتدفق حتى الأرض تقريباً . ثم ربطت حزاماً مذهباً حول خصرها ، ورمت رداءها الرمادي السنجابي فوق كتفيها . ثم نشرت كتل شعرها الأصفر من فوق كتفيها وظهرها ، وثبتت الشريط الذهبي المزين بأزهار صغيرة على جبينها .

لاحظت أن هيلغا واقفة تراقبهما . ثم أخذت من صدرها مشبكاً فضياً ضخماً . كان موجوداً على عباءتها في الليلة التي قابلها بها بنتاين على الطريق العام ، ولم تكترث بلبسه منذ ذلك الحين . ثم مضت إلى هيلغا ، وقالت بصوت خفيض :

«أعرف أنها كانت رغبتك في إظهار النية الطيبة في الليلة الماضية . لا تحسبيني غير ممتنّة» ، وبذلك أعطتها المشبك .

كانت إنجبيورغ مشهداً جميلاً أيضاً حين وقفت بكامل زينتها في فستانها الأخضر ، مع عباءة من الحرير الأحمر فوق كتفيها وشعرها الفاتح المجعد يتماوج من خلفها . لقد أنهتا الصراع على من سترتدي أفضل من الأخرى ، كما فكرت كريستين ، وضحكت .

•

كان الصباح بارداً ونضراً بالندى حين انطلق الموكب من دير نونسيتر والتف في طريقه غرباً نحو «فريزيا» . كان تحضير العلف قد اقترب من نهايته هنا في الأراضي المنخفضة ، ولكن على امتداد الأسيجة نما السنبل البري والكروسفوت الأصفر في كتل ؛ وفي الحقول كانت نباتات الشعير في سنابلها وقد أحنت رؤوسها في موجات فضية شاحبة يشوبها لون وردي . هنا وهناك ، حيث كان الممر ضيقاً ويسير عبر الحقول ، كان القمح يصل إلى ركب الناس .

سار هاكون في المقدمة ، وهو يحمل علم الدير مع صورة مريم العذراء على قماشة حرير زرقاء . من بعده سار الخدم والعامة ، ثم وصلت الليدي غروا وأربع من الأخوات العجائز على جياد ، بينما كانت وراءهن الفتيات راجلات . كانت ملابس العيد ذات الألوان المتعددة تلوح وتلمع في نور الشمس . بعض نساء العامة وقليل من الخدم المسلحين كانوا خلف القافلة .

راحوا يغنون وهم ماضون عبر الحقول الوضيئة ، ووقف الناس الذين كانوا يقابلونهم عند الطرق الجانبية جانباً وحيوهم باحترام . في كل أنحاء الحقول كانوا قادرين على مشاهدة مجموعات من الرجال قادمين سيراً على الأقدام أو راكبين ، فقد كان الناس يقتربون من الكنيسة من كل منزل ومزرعة . وسرعان ما سمعوا خلفهم صوت التراتيل التي تغني بأصوات الرجال العميقة وبرز علم دير «هوفيدو» فوق رابية صغيرة : كان الحرير الأحمر يلمع تحت الشمس ، وهو يتأرجح وينحني حسب خطوات الحامل .

كان الصوت المعدني القوي للأجراس يرن عالياً عبر صهيل وصياح الجياد بينما راح الموكب يصعد آخر منحدر يؤدي إلى الكنيسة . لم يسبق لكريستين أن رأت كل هذا العدد من الجياد مرة واحدة : بحر مضطرم هائج من ظهور الخيل حول المرج أمام باب الكنيسة . فوق المرج الأخضر وقف وجلس أشخاص يرتدون جميعاً أفضل ملابسهم : ولكن الجميع نهضوا احتراماً حين مرّت راية العذراء من نونسيتر بينهم ، فانحنى الجميع أمام الليدي غروا .

بدا وكأن الناس الذين أتوا كانوا أكثر مما تستوعبه الكنيسة ، ولكن بالنسبة لأولئك القادمين من الدير ، فقد حفظت لهم أماكن في المقدمة أمام المذبح . مباشرة من خلفهم كان الرهبان البندكتيون من هوفيدو يدخلون

ويصعدون إلى مكان الجوقة : وفجأة انفجر الغناء من حناجر الرجال والأولاد وملأ الكنيسة .

ما إن بدأ القداس ، وحين وقف الجميع للصلاة ، أبصرت كريستين إرلند نيكولاوسون . كان طويلاً ، وقد برز رأسه فوق رؤوس من حوله . رأت وجهه من الجانب . كان له جبين عال حاد وضيق ، وأنف كبير مستقيم : وكان يبرز بشكل مثلث من وجهه . كان نحيلاً على نحو غريب عند المنخرين الدقيقين المرتعشين : كان فيه شيء ما ذكّر كريستين بالجواد الفحل القلق شديد الحساسية . لم يكن وجهه وسيماً بقدر ما ظنته : كانت الخطوط الطويلة التي تجري إلى فمه الصغير الضعيف إنما جيد التشكيل تعطيه لمسة من عدم الفرح : ولكن أجل ، لقد كان وسيماً .

التفت برأسه وشاهدها . لم تعرف كم مضى من الوقت وهما واقفان هكذا وكل واحد يتطلع إلى عينَيْ الآخر . ومنذ ذلك الحين ما عادت تفكر بشيء آخر عدا نهاية القداس . انتظرت وهي منصبة الاهتمام على ما سيحصل .

كان هناك ازدحام واحتشاد والناس تخرج من الكنيسة المزدحمة . بقيت إنجبيورغ خلف كريستين حتى أصبحتا في مؤخرة الحشد . لقد كسبتا نقطة ـ كانتا بعيدتين عن الراهبات اللواتي خرجن أولاً ـ فكانت الفتاتان بين آخر من وصل إلى صندوق الصدقات ثم إلى خارج الكنيسة .

وقف إرلند في الخارج ، قرب الباب تماماً ، قرب الكاهن من غيرداروِد مع رجل بدين أحمر الوجه ، رائع في لباس من المخمَل الأزرق . كان إرلند نفسه مرتدياً ملابس حرير ذات لون داكن : معطف طويل بني اللون مشجر بالأسود ، وعباءة سوداء طبعت عليها صقور صفراء صغيرة محبوكة فيها .

و قد حيا أحدهم الآخر ثم عبروا المرج معاً إلى حيث كانت أحصنة

الرجال وقد ربطت إلى أوتاد . وبينما راحوا يتكلمون حول الطقس الجميل والقداس الكبير والحشد الضخم من الناس المجتمعين ، فإن الفارس البدين أحمر الوجه الذي كان يرتدي مهمازاً ذهبياً واسمه «سير مونان باردسون» ، أخذ إنجبيورغ من يدها . كان واضحاً أنه قد أُخذ بالفتاة تماماً . انسحب إرلند وكريستين إلى الخلف : كانا صامتين وهما يمشيان .

صدرت من مرج الكنيسة ضجة كبرى بينما راح الناس يركبون مطاياهم ويغادرون : كانت الجياد تتصادم ، والناس تصرخ ـ بعضهم غاضب وبعضهم يضحك . جلس الكثيرون أزواجاً فوق الجياد : كان الرجال يردفون زوجاتهم خلفهم أو أطفالهم أمامهم على السرج . راح الشبان يقفزون إلى جانب رفاقهم فوق متون الجياد . كانا قادرين على مشاهدة رايات الكنيسة والراهبات والكهنة وقد هبطوا الجبل .

مرّ السير مونان على حصانه ، وقد جلست إنجبيورغ أمامه وذراعه من حولها . ناديا كلاهما ولوّحا ثم قال إرلند :

«خادماي كلاهما معي ـ يمكنهما ركوب حصان واحد وأنت ستركبين على هافتور ، هذا إن رغبت بذلك ؟»

احمرّ وجه كريستين وهي تجيب : «لقد سبق لنا وتأخرنا كثيراً عن الآخرين... لا أرى خادميك في الجوار...» ثم انفجرت ضاحكة ، وابتسم إرلند .

قفز إلى السرج وساعدها على الجلوس خلفه . في البيت غالباً ما كانت كريستين تجلس جلسة جانبية خلف أبيها بعد أن كبرت كثيراً لتركب الحصان منفرجة الساقين . ومع ذلك فقد شعرت بالخجل وعدم الأمان وهي تضع يدها فوق كتف إرلند . ووضعت الأخرى فوق ظهر الحصان لتثبت نفسها . لقد سارا ببطء نحو الجسر .

خلال فترة فكرت كريستين في أن عليها أن تتكلم ، بما أنه كان صامتاً ، لذلك قالت :

« لم نكن نتوقع أن نقابلك هنا يا سيدي » .

« ألم تتوقعي مقابلتي ؟ » سأل إرلند وهو يلتفت برأسه . « ألم تحمل لك إنجبيورغ فيليبوسداتر تحياتي إذن ؟ »

قالت كريستين : « لا ، لم أسمع شيئاً عن أي تحية . لم تذكرك لي ولا مرة واحدة منذ أن أنقذتنا في أيار الماضي » ، هكذا قالت بمكر . لم تكن آسفة لكشف زيف إنجبيورغ .

لم ينظر إرلند إلى الخلف ثانية ، ولكنها استطاعت أن تلاحظ أنه كان يبتسم حين سألها مجدداً :

« و لكن الفتاة السمراء ضئيلة الجسم ـ المبتدئة ـ لا أتذكر اسمها... لقد دفعت لها أجرها حتى توصل تحياتي » .

احمرت كريستين خجلاً ، ولكنها اضطرت إلى الضحك أيضاً وقالت : « أجل ، عليَّ أن أقول إن هيلغا استحقت أجرها » .

حرك إرلند رأسه قليلاً : وقد لمس عنقه يدها تقريباً . حركت كريستين يدها فوراً بعيداً عن كتفه . وقد فكرت على نحو قلق في أنها قد تكون تصرفت على نحو أجرأ مما هو ملائم ، وقد رأت أنها قد جاءت إلى هذا الاحتفال بعد أن حدّد رجل موعداً للقائها على نحو ما .

و سرعان ما سألها إرلند :

« هل ترقصين الليلة معي يا كريستين ؟ »

أجابت الفتاة : « لا أدري يا سيدي » .

سألها : « أتعتقدين أن هذا ليس ملائماً على الأرجح ؟ » ، وحين لم تجبه ، قال ثانية : « قد لا يكون الأمر كذلك . ولكنني فكرت الآن أنك قد

تعتبرين أنه ليس أمراً سيئاً على الأرجح أن تمسكي بيدي هذه الليلة خلال الرقص ، فأنا لم أرقص منذ ثماني سنوات» .

سألته كريستين : «و كيف ذلك يا سيدي ؟ هل أنت متزوج ؟» ثم خطر لها أنه لو كان متزوجاً وواعدها على هذا النحو لما كان ذلك لائقاً منه . لذلك حاولت أن تصلح حديثها قائلة : «ربما فقدت خطيبتك أو زوجتك ؟»

التفت إرلند بسرعة ونظر إليها بعينين غريبتين :

«ألم تخبرك الليدي آشيلد... ؟ لم خجلت إلى هذا الحد حين سمعت اسمي ذلك المساء ؟» سألها بعد قليل .

احمر وجه كريستين مجدداً ، ولكنها لم تجب . ثم سألها إرلند مجدداً :

«سيسرني أن أعرف ما قالته لك خالتي ؟»

قالت كريستين بسرعة : «لا شيء سوى مديحك . قالت إنك وسيم جداً وعالي المقام ، كما قالت إنك وأسرتها من مقام عال جداً بالمقارنة معنا : أسرتي وأنا» .

سأل إرلند : «أما زالت تتحدث على هذا النحو ، وتعيش تلك الحياة التي تحياها ؟» ثم ضحك بمرارة . «أجل ، أجل ، إن كان هذا يسرّي عنها... ألم تقل عني شيئاً آخر ؟»

«وما كان عليها أن تقوله ؟» سألت كريستين . لم تكن تعرف لم أصبحت حزينة على نحو غريب .

«أوه ، كان يمكنها أن تقول...» ، تحدث بلهجة خفيضة ، وهو ينظر أرضاً . «كان يمكنها أن تقول إني كنت محروماً من قبل الكنيسة ، وكان عليّ أن أدفع الثمن غالياً لقاء السلام والتكفير...»

صمتت كريستين فترة طويلة . ثم قالت برقة :

«هناك الكثير من الرجال لا يسيطرون على مصائرهم . هكذا سمعت . لم أر الكثير من هذا العالم ، ولكني لن أصدق يا إرلند إنه قد حصل ما حصل لأنك قمت بعمل غير مشرف» .

«فليكافئك الرب على هذه الكلمات يا كريستين» ، قال إرلند ، ثم أحنى رأسه وقبل رسغها بقوة شديدة حتى أن الحصان قفز من تحتهما . وحين سيطر عليه إرلند مجدداً ، قال بحرارة : «ارقصي معي الليلة إذن يا كريستين . وبعد ذلك سأحكي لك عما حدث لي ـ سأحكي لك كل شيء ـ ولكن هل سنكون الليلة سعيدين معاً ؟»

أجابت كريستين : «أجل» ، ثم عاودا السير في صمت .

و لكن قبل أن يمر وقت طويل بدأ إرلند يسأل عن الليدي آشيلد ، وحكت له كريستين كل شيء تعرفه عنها . وقد مدحتها كثيراً .

«إذن ليست كل الأبواب موصدة أمام بيورن وآشيلد ؟» سأل إرلند .

قالت كريستين إنهما يُذكران دائماً وأن أباها وكثيرين معه يعتبرون معظم الحكايات حول هذين على أنها حكاية كاذبة .

سأل إرلند وهو يضحك بخبث : «و ما رأيك بقريبي مونان ياردسون ؟»

قالت كريستين : «لم أنظر إليه كثيراً وأعتقد أيضاً أنه ليس وسيماً» .

«ألا تعرفين أنه ابنها ؟» سأل إرلند .

قالت كريستين باستغراب كبير : «ابن ليدي آشيلد!»

«أجل ، لم ينل أولادها حسن مظهر أمهم ، رغم أنهم اكتسبوا أشياء أخرى» ، قال إرلند .

«لم يسبق أن عرفت اسم زوجها الأول» ، قالت كريستين . «كانا أخوين تزوجا أختين» قال إرلند . «بارد ونيكولاوس مونانسون» . كان أبي هو الأكبر ، وأمي زوجته الثانية ، ولكنه لم يرزق بأولاد من الأولى . أما

«بارد» الذي تزوجته آشيلد ، فلم يكن شاباً أيضاً ، ولا هما عاشا حياة سعيدة معاً على ما أعتقد . أجل ، كنت طفلاً صغيراً حين حدث هذا كله ، وقد أخفوا عني كل ما استطاعوا إخفاءه... ولكنها هربت من البلاد مع السير بيورن وتزوجته رغم إرادة أقربائها... بعد وفاة بارد . ثم تجاهل الناس الزفاف : لقد ادعوا أن بيورن كان قد دخل فراشها وزوجها الأول ما يزال حياً ، وأنهما تآمرا معاً على قتل عمي . من الواضح أنهم لم يستطيعوا إثبات ذلك عليهما ، بما أنهم اضطروا لتركهما مرتبطين برابط الزواج . ولكن من أجل التعويض ، كان عليهما أن يتخليا عن أملاكهما : كان بيورن قد قتل ابن أختهما أيضاً ، أي ابن آشيلد خالتي ، كما أعني...»

دق قلب كريستين بشدة . في البيت كان أبوها وأمها يحرصان حرصاً شديداً على ألا يصل أي حديث قذر إلى آذان بناتهما أو الصغار من السكان ـ ومع ذلك جرت أمور في أبرشيتهم وسمعت كريستين بها ـ فقد كان أحد الرجال قد عاش في حالة زنا مع امرأة متزوجة . كان ذلك دعارة ، واحدة من أسوأ الخطايا . وقد قيل إنهما خططا لقتل الزوج ، وإن ذلك كان سبباً في الخروج على القانون والحرمان الكنسي . قال لافرانس إنه لا توجد امرأة مضطرة للبقاء مع زوجها رغماً عنها ، لو كانت له علاقة مع زوجة رجل آخر . أما الطفل الذي يولد من علاقة زنا فلا يمكن إصلاح وضعه ، حتى لو أصبح أبوه وأمه حرين للزواج لاحقاً . يمكن للرجل أن يجعل طفلاً ما واحداً من أفراد أسرته وأن يورثه لو أنه ولد لامرأة لعوب أو شحاذة جوالة ، ولكن ليس الطفل الذي ولد من حالة زنا ، ليس حتى إن كانت أمه زوجة فارس . فكرت بكرهها للسير بيورن ، بوجهه المبيّض وجسمه البدين إنما المنكمش . لم تستطع أن تفكر كيف أن الليدي آشيلد يمكن أن تكون طيبة ومستسلمة في كل الأوقات للرجل الذي قادها إلى مثل هذا العار . كيف يمكن لمثل هذه

المرأة الراقية أن تدع رجلاً مثله يخدعها .حتى لم يكن جيداً معها . كان يتركها تتعب وتشقى بأعمال المزرعة . لم يكن بيورن يفعل أي شيء عدا شرب الجعة . ومع ذلك كانت آشيلد لطيفة ورقيقة دائماً حين كانت تتحدث مع زوجها . تساءلت كريستين إن كان أبوها يعرف كل هذا ، بما أنه دعا السير بيورن لزيارته في بيته . والآن راحت تفكر أيضاً في أنه بدا أمراً غريباً أن يفكر إرلند في أنه من الملائم أن يحكي لها مثل هذه الحكايا عن أقربائه المقربين . ولكن ربما كان يظنها عارفة بذلك على نحو مسبق .

قال إرلند بعد وهلة : «أود كثيراً زيارة ، خالتي آشيلد ، في يوم ما... حين أسافر شمالاً . هل ما يزال وسيماً ، قريبي بيورن ؟ »

«لا ، يبدو كالقش الذي وضع طوال الشتاء في الحقول» ، قالت كريستين .

«أجل ، أجل ، الزمان يترك آثاره على الرجل ، كما أعتقد » ، قال إرلند بالابتسامة المرة نفسها . «لم يسبق لي أن رأيت رجلاً بتلك الوسامة ـ لقد مضت عشرون عاماً ، وكنت ما أزال صبياً بعدها ـ ولكني لم أشاهد قط رجلاً بوسامته...»

بعد قليل وصلوا إلى المستشفى . كانت مكاناً رائعاً وجميلاً ، مع الكثير من الأبنية الحجرية والخشبية : أبنية للمرضى ، أبنية للصدقات ، نزل للمسافرين ، معبد ومنزل للكاهن . كان هناك هرج ومرج في الساحة ، فقد كان الطعام يحضر في مطبخ المستشفى لأجل وليمة النقابة ، كما كان المرضى والفقراء أيضاً الذين يقطنون المكان سيأكلون أفضل الطعام اليوم .

كان مقرّ النقابة إلى ما وراء حديقة المستشفى ، واتخذ الناس طريقهم عبر حديقة الأعشاب ، فقد كانت هذه ذات شهرة واسعة . كانت الليدي غروا قد جلبت نباتات لم يكن أحد في النرويج قد سمع بها ، وعلاوة على

ذلك ، فإن كل النباتات التي اعتاد الناس الآخرون أن يزرعوها في الحدائق ، كانت تزدهر على نحو أفضل في مشاتلها ، وذلك من كل أنواع الزهور وأعشاب تطييب الطعام والأعشاب الطبية . كانت امرأة عالمة في مثل هذه القضايا كافة ، وكانت قد ترجمت بنفسها إلى اللغة النرويجية كل أعشاب مدرسة سالرنيتان... كانت الليدي غروا قد زادت من لطفها في معاملتها لكريستين منذ أن عرفت أن الفتاة تعرف شيئاً ما عن الأعشاب ، وترغب في تعلم المزيد عنها .

و هكذا راحت كريستين تسمّي لإرلند ما كان ينمو في الأحواض على كلا جانبي الممر المعشب الذي كانا يمشيان فيه . في شمس الظهيرة كانت رائحة دافئة وعطرة تفوح من نبات أرز الدجاج والثوم والورود والشيح والمنثور الأصفر . وراء حديقة الأعشاب المحرومة من الظل التي تسفعها الشمس بدت بساتين الفاكهة باردة ومغرية : كان الكرز الأحمر يلمع بين قمم الأشجار المورقة الداكنة ، وأشجار التفاح قد أدلت أغصانها المثقلة بالفاكهة الخضراء .

من حول الحديقة كان سياج من شجيرات العليق . وكان لا يزال عليها بعض الأزهار... وقد بدت شبيهة بأشجار العليق الأخرى ، ولكن في الشمس كانت للأوراق رائحة النبيذ والتفاح . كان الناس يقطفون خصلاً منها ليزينوا بها أنفسهم وهم ماضون في طريقهم . وقطفت كريستين أيضاً بعض الأزهار وعلقتها على صدغيها ، مثبتة إياها تحت شريط شعرها الذهبي . وأبقت واحدة في يدها... بعد فترة أخذها منها إرلند دون أن يقول شيئاً . كان يحملها بيده خلال تجوالهما ، ثم ثبتها بالدبوس على صدره : بدا مضطرباً وخجولاً وهو يفعل ذلك ، وكان شديد الارتباك حتى أنه وخز أصابعه حتى أدماها .

كانت موائد عريضة قد مُدّت في علية مقر النقابة ، واثنتان عند الأسوار الرئيسية ، للرجال والنساء ، ولوحان خشبيان أصغر حجماً على الأرض ، حيث جلس الأطفال والشباب جنباً إلى جنب .

عند مائدة النساء كانت الليدي غروا تجلس على كرسي مرتفع ، كما جلست الراهبات ورئيسة النساء المتزوجات على المقعد الداخلي على طول الجدار ، أما النساء العازبات فجلسن على المقاعد الخارجية ، والفتيات من دير نونسيتر عند النهاية العلوية . عرفت كريستين أن إرلند كان يراقبها ، ولكنها لم تجرؤ على الالتفات ولو مرة واحدة ، ولا حين نهضوا أو حين جلسوا . ولكن حين نهضوا أخيراً لسماع الكاهن يقرأ أسماء أعضاء النقابة المتوفين من ذكور وإناث ، اختلست نظرة سريعة إلى مائدة الرجال . وقد لمحته حيث كان يقف قرب الجدار ، خلف الشموع المحترقة على اللوح الخشبي . كان ينظر إليها .

دامت الوجبة فترة طويلة ، وذلك مع احتساء كل تلك الأنخاب على شرف الرب ومريم العذراء والقديسة مارغريت والقديس أولاف والقديس هالفارد والصلوات والأغنيات بين ذلك كله .

رأت كريستين عبر الباب المفتوح أن الشمس قد غربت . كانت أصوات عزف الكمان والغناء تصلهم عبر المرج في الخارج ، وكان الشبان والشابات قد سبق لهم وغادروا الموائد حين قالت الليدي غروا لفتيات الدير إنه يمكنهن الذهاب الآن واللهو لبعض الوقت إن شئن ذلك .

كانت ثلاث محارق حمراء مشتعلة في المرج . ومن حولها كانت تتحرك السلاسل ذات الألوان المتعددة من الراقصين . جلس العازفون إلى جانب على خزائن مكومة وراحوا يعزفون على كماناتهم... كانوا يعزفون ويغنون لحناً مختلفاً في كل حلقة من الحلقات . كان هناك الكثير من الناس

لكل رقصة واحدة . كان الظلام قد خيّم تقريباً : شمالاً وقف الجبل المغطى بالأحراج أسود كالفحم أمام سماء خضراء مصفرّة .

تحت شرفة العلية جلس أشخاص وهم يشربون . قفز بعض الرجال نحو الأمام ، ما أن هبطت ست من فتيات نونسيتر على الدرج . طار مونان باردسون ليلاقي إنجبيورغ ومضى معها ، أما كريستين فقد أمسكت من الرسغ : كان ذلك إرلند ، فقد أصبحت تعرف يده سلفاً . وقد ضغط يدها في يده حتى احتك خاتماهما وسبّبا رضوضاً في اللحم .

سحبها معه إلى المشعلة الأكثر بعداً . كان كثير من الأطفال يرقصون هناك . أعطت كريستين يدها لفتى في الثانية عشرة وكان إرلند يمسك بيد فتاة صغيرة نصف ناضجة إلى جانبه .

لم يكن هناك من يغني في الحلقة آنئذ : كانوا يتأرجحون وحسب على لحن الكمان الذي كانوا يدورون من حوله . ثم صرخ أحدهم بأن « سيفورد » الدانماركي سيغني لهم أغنية رقصة جديدة . خطا رجل طويل أشقر الشعر له قبضتان ضخمتان أمام السلسلة وراح ينشد :

« يمضي الرقص جميلاً في مونكولم
على رمال فضية
هناك يرقص إيفار سير ألفسون
و يمسك بيد الملكة...
ألا تعرفون إيفار سير ألفسون ؟ »

لم يعرف عازفو الكمان اللحن ، فراحوا يطنطنون على أوتارهم قليلاً ، وغنى الدانماركي وحده : كان له صوت قوي مليء بالألحان :

«حاذري يا ملكة الدانماركيين
في المعرض الصيفي ذاك
هل سيخرجونك من السويد إلى الدانمارك هنا ؟

قادوك خارج السويد
إلى الدانمارك هناك
و كل ذلك بتاج من الذهب الأحمر
و الكثير من الدموع .

كل ذلك بتاج من الذهب الأحمر
و عيون مليئة بالدمع
... حاذري يا ملكة الدانماركيين
أ كنت لي أولاً ؟»

راح عازفو الكمان يعزفون مجدداً ، وهمْهمَ الراقصون اللحن الجديد الذي تعلموه وانضموا إلى اللازمة الغنائية :

«و هل أنت يا إيفار سير ألفسون
رجل أقسم اليمين لي ،
فهل ستعلّق غداً
على شجرة المشنقة ؟
و لكن كان إيفار سير ألفسون
رجلاً لا يخاف البتة

قفز إلى ...
مرتدياً ملابس العمل .

لقد بعثك الله يا ملكة الدانمارك
لذا أتمنى لك ليالي كثيرة سعيدة
كما في السماء العالية
الكثير من النجوم الوضاءة
لقد بعثك الله يا ملك الدانمارك
لذا أتمنى لك سنوات شؤم كثيرة
بقدر ما هناك شعر على الظبية
ألا تعرفون إيفار سير ألفسون ؟ »

كان الليل قد توغل ، والنيران مجرد أكوام من الجمر الذي يتحول إلى أسود أكثر فأكثر . وقفت كريستين وإرلند يداً بيد تحت الأشجار عند سياج الحديقة . من خلفهما كانت ضجة المحتفلين قد خفتت : كان بضعة شباب لا يزالون يقفزون من حول الأكوام المتوهجة يغنون بصوت خفيض ، ولكن عازفي الكمان كانوا قد مضوا إلى مكان راحتهم وكان معظم الناس قد رحلوا . راحت زوجة أو اثنتان تبحثان عن زوجيهما اللذين كانا في مكان ما في الخارج وقد أفقدتهما الجعة رشدهما .

«أين تظن أني وضعت عباءتي ؟ » همست كريستين . وضع إرلند ذراعه حول خصرها ولفّ معطفه حولهما كليهما . وهكذا مضيا إلى حديقة الأعشاب وقد التصق أحدهما بالآخر .

قابلهما هناك عبير متلبّث من روائح النهار الدافئة المعطرة ، وقد خفّت

وترطّبت ببرودة الندى ، كان الليل شديد العتمة ، والسماء ملبدة بالغيوم ، والغيوم الرمادية المظلمة قريبة من قمم الأشجار . ولكنهما استطاعا أن يعرفا بوجود أناس آخرين في الحديقة . ومرة شدّ إرلند الفتاة إليه وسألها همساً : «هل أنت غير خائفة يا كريستين ؟»

في ذهنها التقطت لمحة ضعيفة من العالم خارج هذا الليل... وقد عرفت أن هذا كان جنوناً . ولكن طغى عليها عجز مبارك . فاتكأت على الرجل على نحو أقرب وهمست برقة... دون أن تعرف ما قالته .

وصلا إلى نهاية الممر . كان سور حجري يفصلهما عن الغابات . ساعدها إرلند على الصعود . وحين قفزت هابطة إلى الجانب الآخر ، أمسك بها ورفعها بين ذراعيه لحظة قبل أن يضعها فوق العشب .

وقفت بوجه مرفوع لتتلقى قبلته . أمسك برأسها بين يديه : كان شعوراً عذباً جداً أن تشعر بأصابعه تغرق في شعرها : أحست أن عليها أن ترد له قبلته ، وهكذا أمسكت برأسه وحاولت أن تقبّله كما قبّلها .

حين وضع يديه على صدرها ، أحست كأنه انتزع قلبها من صدرها . كشف ثنايا الحرير قليلاً جداً وقبّل ما بينهما : أرسل ذلك وميضاً في أعماق روحها .

همس إرلند : «لا أستطيع إيذاءك أبداً . ليس عليك أبداً أن تذرفي دمعة واحدة بسبب خطأ مني . لم يسبق لي أن حلمت بفتاة طيبة شأنك يا كريستين...»

جذبها إلى العشب تحت الشجيرات . جلسا وظهراهما إلى السور . لم تقل كريستين شيئاً ، ولكنه حين توقف عن مداعبتها ، رفعت يدها ولمست رأسه .

و سألها إرلند بعد فترة : «ألست متعبة يا عزيزتي ؟» وحين استكانت

كريستين لصدره ، مدّ ذراعيه من حولها وهمس : «نامي ، نامي يا كريستين ، هنا بين ذراعيّ...»

انزلقت أعمق فأعمق في العتمة والدفء والسعادة على صدره .

•

حين استفاقت ، كانت ممدّدة في العشب ووجنتها على الحرير البني الناعم فوق ركبتيه . كان إرلند جالساً كما من قبل وظهره إلى السور الحجري ووجهه يبدو رمادياً في الغسق الرمادي ، ولكن عينيه الواسعتين المفتوحتين كانتا صافيتين على نحو رائع وجميلتين . رأت أنه قد لفّ معطفه كله من حولها : كانت قدماها دافئتين ومرتاحتين جداً ببطانة الفرو من حولهما .

قال وهو يبتسم ابتسامة خفيفة : «لقد نمت في حجري الآن . فليباركك الله يا كريستين... لقد نمت آمنة كطفلة بين ذراعي أمها...»

سألت كريستين : «ألم تنم أنت يا سير إرلند ؟» فابتسم لعينيها المفتوحتين النضرتين :

«ربما ستحل تلك الليلة التي نضطجع فيها أنت وأنا لننام معاً... لا أعرف ما سوف تفكرين به حين تكونين قد وزنت كل الأمور . لقد سهرت عليك وأنت نائمة هذه الليلة... لا يزال هناك الكثير بيننا نحن الاثنين حتى لكأنه كان هناك أكثر من مجرد سيف مسلول بينك وبيني . قولي لي هل سأبقى عزيزاً عليك بعد أن تمر هذه الليلة ؟»

«ستبقى عزيزاً عليّ يا سير إرلند» ، قالت كريستين . «ستظل عزيزاً عليّ طالما أردت أنت... وبعد ذلك لن أحب أحداً غيرك» .

قال إرلند ببطء : «إذن فليتخلّ الرب عني إن كنت سأعانق بذراعي أي

فتاة أو امرأة قبل أن أجعلك لي بالقانون وبالشرف . قولي لي هذا أيضاً » ، هكذا رجاها . قالت كريستين :

« فليتخلّ الرب عني إن كنت سأعانق رجلاً آخر بين ذراعي طالما عشت على هذه الأرض » .

قال إرلند بعد قليل : « يجب أن نمضي الآن قبل أن يستيقظ الناس » .

مرّا على امتداد السور بين الشجيرات .

سأل إرلند : « هل فكرت بما علينا أن نفعله لاحقا فيما يتعلق بهذا الأمر ؟ »

أجابت كريستين : « عليك أنت أن تقول ما علينا فعله يا إرلند » .

سألها بعد فترة : « يقولون في غيردارود إن أباك شخص رقيق وورع . أتظنين أنه سيكون كارهاً أن يتراجع عن اتفاقه مع أندرس دار ؟ »

قالت كريستين : « قال أبي مراراً إنه لن يرغمنا أبداً ، نحن بناته ، على شيء . الأمر الرئيسي هو أن أراضينا وأراضي سايمون قريبة جداً من بعضها البعض . ولكني أعتقد أن أبي لن يوافق على أن أخسر كل سعادتي في هذا العالم لأجل ذلك » . ثم تحرك خوف في داخلها من أن الأمر قد لا يكون بسيطاً إلى هذا الحد... ولكنها كتمته .

قال إرلند : « إذن ربما سيكون الأمر أقل صعوبة مما فكرت به في الليل . فليساعدني الرب يا كريستين... أحياناً أعتقد أني لا أستطيع فقدانك الآن... ما لم أحظ بك الآن ، لن أعرف السعادة ثانية » .

•

افترقا بين الأشجار ، وفي نور الفجر شقّت كريستين طريقها إلى حجرة الضيوف حيث كانت تنام نساء دير نونسيتر . كانت الأسرّة مليئة كلها ،

ولكنها رمت بعباءة فوق بعض القش على الأرض واضطجعت بكامل ملابسها .

حين استيقظت كان النهار قد تقدم ، وكانت إنجبيورغ فيليببوسداتر تجلس على مقعد إلى القرب منها ، تخيط حافة فرو تمزقت من عباءتها . كان فمها كالعادة مليئاً بالكلام .

سألتها : «هل كنت مع إرلند نيكلاوسون طوال الليل ؟ الأفضل لك أن تحاذري من هذا الشاب يا كريستين...كيف تظنين أن سايمون أندرسون سيفكر في الأمر لو أصبحت من صديقاته المقربات ؟ »

وجدت كريستين حوضاً لغسل الأيدي وراحت تغتسل .

« و ماذا عن خطيبك... هل تظنين أنه سيعجب برقصك مع مونان القصير البدين الليلة الماضية ؟ لا شك أن علينا أن نرقص معه ذاك الذي يختارنا في مثل هذه الليلة من المرح... وقد منحتنا الليدي غروا الإذن » .

تأففت إنجبيورغ قائلة :

« آينار آينارسون والسير مونان صديقان... وعلاوة على ذلك فإنه متزوج وعجوز . كما أنه قبيح وهذا مما يزيد الأمر سوءاً... ولكنه جدير بأن يُحب وله أساليب جذابة... أترين ما أعطانيه كذكرى عن الليلة الماضية» ، وهنا رفعت مشبكاً ذهبياً رأته كريستين في قبعة مونان في اليوم السابق . « ولكن إرلند هذا...صحيح أنه قد رُفع عنه التحريم في عيد الفصح من العام الماضي ، إلا أنهم يقولون إن « إلين أورماسداتر» كانت معه في «هوسابي» منذ... يقول السير مونان إن إرلند هرب إلى «السيرا يون» في غيردارود ، وهو يعتبر السبب في ذلك عدم قدرته على الوثوق من أنه لن يعود إلى الخطيئة لو قابلها ثانية... »

عبرت كريستين نحو الباب... كان وجهها شاحباً .

قالت إنجبيورغ : «ألم تكوني عارفة بذلك ؟ أنه أغوى امرأة لتهجر زوجها في مكان ما في هالوغالاند في الشمال..و أنه أبقاها معه في ضيعته رغم أمر الملك وتحريم الأسقف... لقد رزقا بولدين... ثم اضطر للهرب إلى السويد ، كما اضطر أن يدفع كتعويض مقداراً كبيراً من أراضيه ومتاعه . يقول السير مونان إنه سيكون رجلاً فقيراً في النهاية ما لم يصلح أساليبه قبل ذلك» .

قالت كريستين بوجه ثابت : «لا تظني أني لا أعرف كل هذا ، ولكن من المعلوم أن القضية قد انتهت الآن» .

«أجل ، ولكن السير مونان يقول إن كثيراً من النهايات قد جرت لحكايتهما من قبل» ، قالت إنجبيورغ متألمة . «ولكن كل هذه الأمور لا تعني لك شيئاً... فأنت ستتزوجين من سايمون دار . ولكن السير إرلند نيكولاوسون رجل وسيم لا شك في ذلك» .

كان على جماعة دير نونسيتر أن تنطلق نحو الدير في ذلك اليوم نفسه بعد صلاة العصر . كانت كريستين قد وعدت إرلند بأن تلقاه عند السور حيث جلسا في الليلة الماضية ، لو استطاعت أن تجد وسيلة لذلك .

كان مضطجعاً في العشب ووجهه إلى الأرض ورأسه بين يديه . وما أن رآها حتى قفز ناهضاً ومدّ يديه كلتيهما ، وهي على وشك القفز من السور .

أخذت كريستين بيديه ، ووقف الاثنان فترة قصيرة واليد باليد ثم قالت كريستين :

«لم حكيت لي البارحة عن السير بيورن والليدي آشيلد ؟»

قال إرلند : «أستطيع أن أرى أنك تعرفين الحكاية كلها» . ثم أفلت يديها فجأة . «ما رأيك فيّ الآن يا كريستين ؟»

تابع يقول بقوة : «كنت في الثامنة عشرة آنذاك . لقد مضت عشر



سنوات منذ أن أرسلني الملك ، قريبي ، مع تلك البعثة إلى فارغيهوس[١٨] ، وقد مكثنا الشتاء في ستايغن... كانت زوجة للاغماندي المسمى سيغورد ساكسولفسون... أشفقت عليها ، فقد كان هو عجوزاً وقبيحاً إلى حد لا يُصدق . لا أعرف كيف جرى الأمر...أجل ولكني أحببتها أيضاً . لقد طلبت من سيغورد أن يطلب أي تعويض يشاء وسيسرني أن أكون قد عاملته بعدل... إنه إنسان طيب وشجاع من نواح كثيرة... ولكنه أصرّ على اللجوء إلى القانون . أصرّ على أن تنفذ الأمور حسب النظام... لقد وسمتُ بالدعارة مع زوجة الرجل الذي حللتُ ضيفاً عليه ، أتفهمين...

«ثم سمع أبي بالأمر ، وبعده الملك هاكون... وقد طردني من بلاطه . وإن كنت تودين معرفة كل شيء ، فلم يعد هناك أي شيء بيني وبين «إلين» الآن عدا الطفلين ، وهي لا تهتم بهما كثيراً . إنهما في أوستردال في مزرعة أملكها هناك . لقد وهبت تلك المزرعة إلى «أورم» ، ابني ، ولكنها رفضت البقاء مع الطفلين . لا شك أنها تظن أن سيغورد لن يعيش إلى الأبد... ولكني لا أعرف ما تفكر فيه .

«لقد أعادها سيغورد إليه... ولكنها تقول إنها كالكلبة والجارية في بيته... لذلك ضربت موعداً معي في نيداروس . كان الأمر أفضل قليلاً لي مع أبي في هوسابي . لقد بعت كل ما استطعت وضع يدي عليه ، وهربت معها إلى هولندا... وقف الكونت ياكوب إلى جانبي كصديق . هل كنت أستطيع أن أفعل خلاف ذلك ؟ كانت حاملاً بطفلي . أعرف أن رجالاً كثيرين عاشوا هكذا مع زوجة رجل آخر وقد تخلوا عنها بكل رخص... لو كان غنياً بالطبع . ولكن الأمر كان على هذه الحال مع الملك هاكون ، إذ أنه يكون أقسى ما يكون على أقربائه . كنا قد ابتعدنا الواحد عن الآخر مدة سنة ، ولكن أبي مات ثم عادت هي إليّ . ثم حدثت مشكلات أخرى . أنكر عليّ مزارعيّ

المستأجرون دفع الإيجار ورفضوا التحدث إلى وكيلي لأني كنت خاضعاً لتحريم الكنيسة... وأنا من جانبي تعاملت معهم بقسوة ، لذلك رفعوا ضدي دعوى بتهمة السرقة . ولكن لم أكن أملك مالاً أدفعه كمصروف للمنزل علاوة على ذلك . وتستطيعين أن تري أني كنت شاباً إلى حد لا أستطيع معه التعامل مع هذه المشاكل بحكمة ، ورفض أقربائي مساعدتي ـ باستثناء مونان ـ فقد فعل كل ما سمحت له زوجته بفعله...

«أجل ، والآن تعرفين الأمر يا كريستين : لقد فقدت الكثير من الأراضي والمتاع والشرف . هذا صحيح . سيكون أفضل لك أن تتشبّثي بسايمون أندرسون» .

وضعت كريستين ذراعيها حول عنقه .

«سنلتزم بما أقسمنا عليه الواحد أمام الآخر في الليلة الماضية يا إرلند... إن كنت من رأيي» .

قربها إرلند منه وقبّلها وقال :

«سترين أيضاً ، ثقي بي ، أن كل أموري ستتغير الآن... ليس في العالم كله من لديه السلطة عليّ الآن سواك . أوه ، كانت أفكاري كثيرة في الليلة الماضية ، وأنت نائمة في حجري ، يا أجمل الجميلات . لا يمكن للشيطان أن تكون له سلطة على أي رجل إلى حد يجعلني كرجل أسبّب لك الهم والعزاء... أنت يا حياتي العزيزة جداً...»

٤

خلال فترة إقامته في سكوغ كان لافرانس بيورغولفسون يقدم الهدايا إلى كنيسة غيردارود ، حتى تتلى القداسات على روح أبيه وأمه في ذكرى وفاتهما كل سنة . كان يوم بيورغولف كيتيلسون هو الثالث عشر من آب (أغسطس) ، وقد اتفق لافرانس مع أخيه في هذا العام على أن يقوم آسموند بإحضار كريستين إلى سكوغ حتى تحضر القداس .

خشيت أن يحدث عائق ما فلا يستطيع عمها أن يفي بوعده : فكرت في أنها لاحظت أن آسموند لم يكن يهتم بها كثيراً . ولكن في اليوم السابق على القداس ، جاء آسموند بيورغولفسون إلى الدير لإحضار ابنة أخيه . قيل لكريستين أن ترتدي ملابس عادية بسيطة وداكنة . فقد كان هناك كلام يقال من قبل أخوات دير نونسيتر عن أنها تخرج كثيراً خارج أسوار الدير . لذلك أمر الأسقف بأنّ على الفتيات اللواتي لن يرتدين الحجاب ألاّ يرتدين ملابس تشبه ملابس الدير حين يخرجن لزيارة أقربائهن : وهكذا لن يكون هناك خطأ في أن يحسبن من المبتدئات أو الراهبات .

كان قلب كريستين مترعاً بالسعادة وهي تسير راكبة على امتداد الطريق إلى جانب عمها ، وأصبح آسموند أكثر وداً ومرحاً معها حين رأى أن

الفتاة ليست مربوطة اللسان إلى ذلك الحدعلى أي حال . وخلاف ذلك فإن آسموند كان مزاجياً وكاسف البال نوعاً ما . قال إن الأمر بدا وكأن هناك دعوة إلى حمل السلاح ستُعلن في الخريف ، وأن الملك سيقود جيشاً إلى السويد للانتقام من مقتل زوج ابنته وزوج ابنة أخته . كانت كريستين قد سمعت بمقتل الدوقين السويديين ، ورأت في ذلك عملاً شريراً جداً ، ولكن كل مسائل الدولة بدت بعيدة عنها . ما كان هناك من يتكلم كثيراً عن مثل هذه الأمور في «ديل»... تذكرت أيضاً أن أباها كان قد ذهب ليحارب ضد الدوق آيريك في راغنهيلداهولم وكونونغاهيلا . ثم حكى لها آسموند عن كل ما حصل وجرى بين الملك والدوقين . لم تفهم كريستين سوى القليل من هذا ، ولكنها أصغت جيداً إلى عمها وهو يحكي لها عن تدبير وفك خطوبة بنات الملك . لقد أشعرها بالراحة أن تفكر أن الأمر ليس في كل مكان كما هو في الريف عندهم ، حيث تكون الخطبة التي تم تثبيتها شفهياً ملزمة كالزواج . ثم تشجعت وحكت مغامرتها في المساء السابق على ليلة «هالفارد ويك» وسألت عمها إن كان يعرف إرلند أوف هوسابي . دافع آسموند عن إرلند ، وقال إنه كان يسير أموره دون حكمة ، ولكن أباه والملك هما الملومان بالدرجة الرئيسية إذ تصرفا وكأن الشاب الصغير هو الشيطان نفسه وذلك لمجرد أنه وقع في تلك المحنة . كان الملك شديد الورع في مثل هذه الأمور ، وسير نيكولاوس كان غاضباً لأن إرلند فقد الكثير من الأراضي الجيدة ، لذلك راحا يهدران بالكلام عن الدعارة والجحيم... «ولا شك أن هناك شيئاً من التهور في كل فتى» ، كما قال آسموند بيورغولفسون . «و كانت المرأة جميلة جداً . ولكن ليس عليك أن تهتمي بشأن إرلند الآن ، لذلك لا تكترثي كثيراً بأفعاله» .

•

لم يحضر إرلند القداس ، كما وعد كريستين ، وفكرت هي في هذا أكثر مما فكرت في كلمات الرب . لم تشعر بالأسف على حدوث ذلك...فقد كان لديها مجرد ذلك الشعور الجديد بأنها منفصلة عن كل الروابط التي أحست أنها كانت تلزمها من قبل .

حاولت أن تسري عن نفسها : لا شك أن إرلند اعتبر أنه من الحكمة ألا يعرف أي شخص مسؤول عنها بصداقتهما في الوقت الحالي . استطاعت هي أن تفهم بنفسها أنه كان أمراً حكيماً . ولكن قلبها كان يتوق إليه ، وقد بكت حين ذهبت لترتاح في العلية حيث كانت ستنام مع بنات آسموند الصغيرات .

في اليوم التالي ، ذهبت إلى الغابة مع أصغر أطفال عمها ، وهي فتاة في السادسة من عمرها . وحين وصلت إلى المراعي بين الغابات في مكان بعيد قليلاً ، وصل إرلند وهو يجري خلفهما . عرفت كريستين أنه هو حتى قبل أن ترى من القادم .

قال : «لقد جلست هنا على التل أتجسس على الساحة طوال اليوم . وقد خطر لي أنك ستجدين فرصة للخروج...»

«هل تظن أني خرجت لملاقاتك إذن ؟» قالت كريستين ضاحكة . «ألا تخشى أن تدخل غابات عمي بالكلبين والقوس ؟»

قال إرلند : «لقد منحني عمك الأذن بتمضية الوقت في الصيد هنا . أما الكلبان فهما لآسموند : وقد وجداني هذا الصباح» . صرف الكلبين ثم رفع الفتاة الصغيرة بين ذراعيه .

«أتعرفينني يا راغنديد ؟ ولكن لا تذكري أنك حادثتني وسوف تحصلين على هذا» .... ثم أخرج حفنة من الزبيب وأعطاها للطفلة . «لقد جلبتها لك» ، قال لكريستين . «هل تظنين أن هذه الطفلة تستطيع أن تحفظ لسانها ؟»

سارا بسرعة وضحكا معاً . كان إرلند يرتدي جاكيتة بنية قصيرة ضيقة وقبعة حرير حمراء صغيرة جذبها فوق شعره الأسود : بدا شاباً جداً . ضحك ولعب مع الطفلة . ولكنه كان يأخذ يد كريستين أحياناً ويضغط عليها حتى تؤلمها .

تحدث عن إشاعات الحرب وكان سعيداً . قال بقوة : «سيكون من الأسهل عليَّ أن أعود فأكسب صداقة الملك ، ثم ستكون الأمور كلها سهلة» .

جلسوا أخيراً في مرج بين الغابات . كانت الطفلة في حضن إرلند . وجلست كريستين إلى جواره . تحت غطاء العشب لعب بأصابعها . ضغط في يدها ثلاثة خواتم مربوطة بخيط :

همس : «بالمناسبة سيكون لديك منها ما يغطي كل أصابعك...»

قال حين افترقا : «سأنتظرك هنا في هذا الحقل كل يوم في حوالي هذه الساعة ، طالما أنت في سكوغ . وعليك أن تحضري إن استطعت» .

في اليوم التالي انطلق آسموند بيورغفولفسون مع زوجته وأطفاله إلى ضيعة قرب غيريد في هادلاند . كانوا خائفين من حديث الحرب . وكان الناس في نواحي أوسلو لا يزالون خائفين منذ أن أغار الدوق آيريك على ذلك الريف منذ بضع سنوات . كانت أم آسموند العجوز شديدة الخوف ، وقد طلب إليها أن تنشد المأوى في نونسيتر : وعلاوة على ذلك كانت أضعف من أن تسافر مع الآخرين . لذلك كانت كريستين ستبقى في سكوغ مع المرأة العجوز ـ كانت تناديها بجدتي ـ حتى عاد آسموند من هادلاند .

حوالي منتصف النهار ، حين كان الناس في المزرعة يرتاحون ، مضت كريستين إلى العلية حيث تنام عادة . كانت قد أحضرت بعض الملابس معها في حقيبة من جلد الغنم ، والآن بدلت ثيابها وهي تهمهم لنفسها في هذه الأثناء .

كان أبوها قد أعطاها ثوباً من قماش قطني سميك مستورد من الشرق ، لونه أزرق سماوي مع طبعات متقاربة من الزهور الحمراء ، فلبسته . ثم سرحت شعرها بالفرشاة والمشط وربطته إلى الخلف بعيداً عن وجهها بشريط حرير أحمر ، ولفت حزاماً حريراً أحمر حول خصرها بشدة ، ولبست خواتم إرلند على أصابعها . في كل هذه الأثناء كانت تفكر فيما إذا كان سيراها جميلة .

كان الكلبان اللذان رافقا إرلند في الغابة ينامان في العلية خلال الليل : نادت عليهما للذهاب معها . انسلت من حول المنازل وسارت في الممر نفسه كما في اليوم السابق عبر المراعي الجبلية .

كان الحقل في وسط الغابة يقبع وحيداً وصامتاً في شمس الظهيرة المحرقة . كانت غابات الصنوبر التي تحيط بالمكان من كل الجوانب تعطي رائحة حارة قوية . كانت الشمس تلسع ، وتبدو السماء الزرقاء قريبة على نحو غريب بل هي فوق قمم الأشجار مباشرة .

جلست كريستين في الظل عند أطراف الغابة . لم تكن غاضبة لأن إرلند لم يكن هناك . كانت على ثقة من أنه سيحضر ، وقد منحها الجلوس هناك وحدها قليلاً وأن تصل قبله شعوراً غريباً بالسعادة .

أصغت إلى الطنين الخفيف للحياة الدقيقة فوق العشب الأصفر المسفوع ، وجذبت بضع زهور جافة لها رائحة البهار والتي استطاعت الوصول إليها دون أن تحرك أكثر من يدها ، ثم لفتها بين أصابعها وشمتها... جلست بعينين مفتوحتين غارقتين في نوع من الوسن .

لم تتحرك حين سمعت حصاناً في الغابات . همر الكلبان وانتصب شعر عنقيهما... ثم قفزا فوق المرج وهما ينبحان ويلوحان بذنبيهما . قفز إرلند عن حصانه عند حافة الغابة ، وتركه يذهب بصفعة على كشحه ، ثم عدا نحوها والكلبان يتقافزان من حوله . أمسك بخطميهما بيديه ووصل إليها وهو

يقود الحيوانين الرماديين بلون الأيل والأشبه بذئبين . ابتسمت كريستين ومدّت يدها دون أن تنهض .

•

مرة ، وبينما كانت تنظر إلى الرأس الداكن الذي استكان إلى حجرها ، بين يديها ، ومض شيء من الماضي في ذهنها . لقد انتصب أمامها ، واضحاً إنما بعيد ، كما يبدأ بيت بعيد على منحدر جبل بالظهور أمام العينين فجأة ، من تحت غيوم سوداء ، حين يضربه شعاع شمس في يوم عاصف . وكأنما نبع من قلبها كل الحنان الذي التمسه منها مرة آرن غيردسون ، بينما هي لم تكن تفهم كلماته . وبعاطفة خجول ، جذبت الرجل إليها ووضعت رأسه على صدرها وقبلته كأنما هي تخشى أن يؤخذ منها . وحين رأت أن رأسه على ذراعها أحست كأنها كانت تمسك بطفل... أخفت عينيه بإحدى يديها وأمطرته بالقبل على فمه وخده .

كان نور الشمس قد غاب عن المرج : اللون الرصاصي فوق قمم الأشجار قد أصبح داكناً ، وانتشر فوق السماء كلها . التمعت ومضات صغيرة نحاسية مثل الدخان المشوب بالنار وذلك ضمن الغيوم . اقترب بايارد منهما وصهل بصوت مرتفع مرة واحدة ، ثم وقف ساكناً ، محدقاً أمامه . وسرعان ما وصلت الومضة الأولى من البرق ، وتبعها الرعد قريباً ، ليس بعيداً .

نهض إرلند وأمسك بالحصان . كانت هناك حظيرة قديمة عند نهاية المرج الدنيا . ذهبا إلى هناك ، وربط هو بايارد إلى خشبة داخل الباب . عند مؤخرة الحظيرة كان هناك بعض القش . نشر إرلند عباءة وجلسا والكلبان عند أقدامهما .

والآن هطل المطر مثل الحبال أمام الباب . هسهس في الأشجار وساط الأرض... وسرعان ما كان عليهما أن ينتقلا إلى مكان أبعد في الداخل ، بعيداً عن الدلف من السقف . وفي كل مرة كانت تبرق فيها وترعد كان إرلند يهمس :

«ألست خائفة يا كريستين... ؟»

وكانت تهمس : «قليلاً...» ، ثم تقترب منه أكثر .

•

لم يعرفا كم جلسا هناك ـ سرعان ما انقضت العاصفة ـ وأصبح صوت الرعد بعيداً ، ولكن الشمس التمعت على العشب الرطب خارج الباب ، وراحت النقط المتلألئة تسقط على نحو أقل فأقل من السقف . أصبحت رائحة القش الحلوة في الحظيرة أقوى .

قالت كريستين : «عليّ أن أمضي الآن» . فأجابها إرلند : «أجل ، يبدو الأمر كذلك» . أمسك بقدمها بيده : «ستصابين بالبلل... عليك أن تركبي وسأمشي أنا... إلى خارج الغابة...» ثم نظر إليها نظرة غريبة .

ارتجفت كريستين . ربما كان السبب لأن قلبها راح يدق بقوة كما فكرت ... كانت يداها باردتين ونديتين . وحين قبّلها بقوة حاولت بضعف أن تبعده عنها . رفع إرلند وجهه للحظة... فكرت برجل أعطي الطعام مرة في الدير فقبل الطعام الذي قدم له . عادت لتستلقي على القش...

•

جلست في مكانها حين رفع إرلند رأسه من ذراعيها . رفع نفسه فجأة واستند على مرفقه .

«لا تنظري هكذا... يا كريستين!»

أرسل صوته غصة مفاجئةً في روح كريستين ـ لم يكن سعيداً ـ كان هو بائساً أيضاً...!

«كريستين ، كريستين! أتظنين أني تحايلت عليك لأدخلك إلى الغابات وذلك لأمتلكك بالقوة... ؟» سأل بعد قليل .

ربتت على شعره ولم تنظر إليه .

«ليس بالقوة على ما أعتقد... كنت ستتركني أذهب كما جئت ، لو طلبت إليك ذلك...» قالت بصوت خفيض .

«لا أعرف» ، أجاب ثم دفن وجهه في حجرها .

سألها بقوة : «أتعتقدين أني سأخونك ؟ يا كريستين... أقسم لك بإيماني المسيحي ، فليتخلّ الله عني في آخر ساعة لي ، إن لم أكن مخلصاً لك حتى يوم وفاتي...»

لم تستطع قول أي شيء . بل تابعت الربت على شعره مجدداً .

سألته أخيراً : «لقد حان وقت ذهابي إلى البيت ، أليس كذلك ؟» ثم بدت كمن ينتظر في رعب مميت جوابه .

أجابها بكسل : «ربما هذا صحيح» . نهض بسرعة ومضى إلى الحصان وبدأ يفك رسنه .

ثم نهضت هي أيضاً . وببطء وتعب وألم ساحق خطرت لها الفكرة : لم تعرف ما كانت تأمل منه أن يفعل...أن يضعها على الحصان ، ربما ، ويحملها بعيداً معه ، حتى يوفّر عليها الذهاب للعيش بين أناس آخرين . وكأن جسدها كله كان يتألم من العجب... أن هذا الأمر الشرير كان هو مايُذكر في كل الأغاني . وبما أن إرلند قد سبّب لها هذا ، فقد شعرت أنها قد أصبحت كلها ملكاً له ، فهي لم تعرف كيف ستعيش بعيداً عنه بعد الآن . كان عليها

أن تبتعد عنه الآن ، ولكنها لم تستطع أن تفهم أن الأمر يجب أن يكون كذلك .

مضى عبر الغابات سيراً على قدميه ، وهو يقود الحصان . كان يمسك بيدها في يده ، ولكنهما لم يجدا ما يقولانه .

حين وصلا إلى مسافة يستطيعان منها مشاهدة المنازل في سكوغ ، ودّعها :

« كريستين... لا تكوني حزينة إلى هذا الحد... سيأتي ذلك اليوم قبل أن تدركي ذلك ، أعني حين ستصبحين زوجتي... »

و لكن قلبها غاص في مكانه حين تكلم .

سألته وجلة : « هل عليك أن ترحل إذن ؟ »

« حالما تغادرين سكوغ » ، قال وقد أضحى صوته أكثر تفاؤلاً الآن . « و إذا ما جرت حرب ، سأتحدث إلى مونان...لقد حثّني منذ زمن طويل على الزواج... سيذهب معي ويخاطب أباك نيابة عني » .

أحنت كريستين رأسها... عند كل كلمة قالها ، أحست أن الزمن الذي كان أمامها قد أصبح أطول وأقسى على التفكير فيه ـ الدير ويورروندغارد ـ فبدأت تطفو فوق نهر حلمها بعيداً عن كل هذا .

سألها إرلند : « هل تنامين وحيدة الآن في العلية بما أن أقرباءك قد رحلوا ؟ إذن سأحضر وأكلمك هذه الليلة... هل ستسمحين لي بالدخول ؟ »

قالت كريستين بصوت خفيض : « أجل » . وهكذا افترقا .

•

جلست بقية النهار مع زوجة جدّها ، وبعد العشاء اصطحبت السيدة العجوز إلى سريرها .ثم صعدت إلى العلية ، حيث كانت تنام . كانت هناك

نافذة صغيرة في الغرفة . جلست كريستين على صندوق النفائس التي كانت تحتها... لم تكن ترغب في الذهاب إلى السرير .

كان عليها أن تنتظر طويلاً . كان الظلام قد خيّم في الخارج حين سمعت صوت أقدام على الشرفة . قرع على الباب وعباءته تغطي براجمه ، ونهضت كريستين ، ورفعت المزلاج وأدخلت إرلند .

لاحظت مدى سعادته حين رمت بذراعيها من حول عنقه وتشبثت به .

قال : «خشيت أن تكوني غاضبة مني» .

ثم قال لاحقاً : «عليك ألاّ تحزني لخطيئتنا . ليست هذه بالخطيئة المميتة . قانون الرب ليس كقانون هذا البلد... إن «غونولف» أخي شرح هذه المسألة لي ذات مرة : لو تعاهد اثنان على الإخلاص إلى الأبد ، ثم اضطجعا معاً بعد ذلك ، عندها سيكونان قد تزوجا أمام الرب ولا يحق لهما أن يتخليا عن هذا العهد دون أن يكونا قد ارتكبا خطيئة كبرى . أستطيع أن أقول لك الكلمات باللاتينية حين أتذكرها... لقد حفظتها ذات مرة...»

تساءلت كريستين قليلاً عن السبب الذي جعل أخا إرلند يقول ذلك... ولكنها رمت بعيداً عنها الخوف الكريه بأنه قد يقال ذاك عن إرلند و... أخرى... وحاولت أن تجد السلوان في كلماته .

جلسا معاً على صندوق النفائس ، وقد وضع ذراعه من حولها ، وأحست كريستين الآن أن الأمور بخير وأنها آمنة : كانت البقعة الوحيدة التي تستطيع فيها أن تشعر بالأمان والحماية الآن هي إلى القرب منه .

أحياناً كان إرلند يتكلم كثيراً وببهجة : ثم يصمت مجدداً لفترة طويلة ، وهو جالس يداعبها . ودون معرفة ذلك ، جمعت كريستين من كل ما قاله أشياء جعلته أوسم وأعزّ عليها في نظرها ، وراحت تخفف اللوم عنه في كل ما هو غير لائق مما عرفته عنه .

كان والد إرلند ، السير نيكولاوس ، عجوزاً جداً حين رزق بولديه ، لذلك لم يكن لديه من الصبر والقوة ما يكفي ليربي ولديه بنفسه . وقد ترعرع الولدان كلاهما في منزل السير بارد بيترسون في هستنايس . لم يكن لإرلند أخوات أو أخ سوى غونولف . كان أصغر بسنة واحدة منه وهو كاهن في كنيسة المسيح في نيداروس . «إنه أغلى عليّ من كل البشرية ، عداك» .

سألته كريستين إن كان غونولف يشبهه ، ولكن إرلند ضحك وقال إنهما غير متشابهين من حيث العقل والجسد . والآن كان غونولف في بلاد أجنبية للدراسة... وهو غائب منذ ثلاث سنوات ، ولكنه أرسل رسالتين إلى البيت ، وكانت الأخيرة قبل عام ، وذلك حين فكر في أن يذهب من سانت جينيفييف في باريس إلى روما . «سيكون سعيداً غونولف ، حين يأتي إلى البيت ويجدني متزوجاً» ، قال إرلند .

ثم تحدث عن الإرث الكبير الذي حصل عليه من أبيه وأمه : رأت كريستين أنه لا يعرف وضع أملاكه الآن إلا بالكاد . كانت تفهم نوعاً ما بالأملاك من خلال معاملات أبيها بها... لقد تعامل إرلند مع أراضيه عكس ذلك ، إذ باع وبعثر وأضاع ورهن ، وخاصة في السنوات الأخيرة ، وهو يناضل ليحرر نفسه من عشيقته ، مفكراً أنه لو فعل ذلك ، فإن حياته الخاطئة قد تُنسى وأن أقرباءه سيقفون في صفه مرة أخرى . لقد فكر في أنه قد يصبح ذات مرة «الأمين»[١٩] على نصف أوركدولا كما كان أبوه من قبله .

قال : «و الآن لا أعرف إلا بالكاد كيف ستكون النهاية . ربما سأجلس أخيراً في مزرعة جبلية شأن بيورن غونارسون وأحمل الروث على ظهري كما فعل الأقنان قديماً ، لأنه ليس لدي حصان» .

قالت كريستين ضاحكة : «ليكن الرب في عونك . عندها عليّ أن

أذهب إليك بكل تأكيد ، أعتقد أني أعرف عن أساليب الزراعة والريف أكثر منك» .

«بالكاد أستطيع أن أفكر فيك على أنك تحملين سلة من الروث» ، قال وهو يضحك أيضاً .

«لا ، ولكني رأيت كيف ينشرون الروث وكيف يبذرون القمح ، كل عام في البيت . كان من عادة أبي أن يحرث بنفسه الحقول الأقرب إلى المزرعة ، وكان يسمح لي بأن أبذر أول قطعة من الأرض حتى أجلب الحظ الجيد» . أرسلت الفكرة ألماً في قلبها ، لذلك قالت بسرعة : «ويجب أن تكون لديك امرأة لتخبز وتخمر قليلاً من الجعة وتغسل قميصك الوحيد وتحلب... وعليك أن تستأجر بقرة أو اثنتين من المُزارع الغني المجاور...»

«أيها الرب شكراً أني أسمعك تضحكين مرة أخرى!» قال إرلند ثم أمسك بها وارتمت بين ذراعيه كطفلة .

•

في كل ليلة من الليالي الست التي مرت قبل عودة آسموند بيورغولفسون إلى البيت ، كان إرلند في العلية مع كريستين .

في الليلة الأخيرة بدا تعيساً بقدر ما كانت كريستين . قال مرات كثيرة إن عليهما ألاّ يفترقا الواحد عن الآخر ولو يوماً واحداً أكثر من المطلوب . وأخيراً قال بصوت خفيض جداً :

«و الآن لو ساءت الأمور جداً بحيث لا أستطيع العودة إلى أوسلو قبل الشتاء - وإذا ما حدث أنك احتجت إلى مساعدة أصدقاء - فلا تخشي أن تطلبي مساعدة «سيرا يون» هنا في غيرداروود . نحن صديقان منذ الطفولة وحتى الآن . كما يمكنك أن تثقي أيضاً بمونان باردسون» .

كل ما استطاعت أن تفعله هو أن تومئ برأسها . عرفت أنه كان يتحدث عما كانت تفكر فيه في كل يوم ، ولكن إرلند لم يعد يذكره . لذلك لم تقل هي أي شيء أيضاً ، ولم تكشف كم كان قلبها حزيناً هي أيضاً .

في الليالي الأخرى كان يتركها حين يتأخر الليل ، ولكن في هذه الليلة الأخيرة رجاها بشدة أن ينام قربها لساعة واحدة . كانت كريستين خائفة ، ولكن إرلند قال بتعال : « كوني واثقة أنهم لو وجدوني هنا في السرير ، فأنا قادر تماماً على الإجابة عن نفسي » . وكانت هي نفسها ترغب في أن يكون إلى جانبها فترة أخرى ، ولم تكن لديها القوة الكافية لترفض له أي طلب .

و لكنها خشيت أن يناما فترة طويلة جداً . لذلك جلست طوال الليل متكئة على رأس السرير ، فيغلبها النعاس قليلاً أحياناً ، وهي لا تكاد تعرف متى كان يداعبها ومتى كانت تحلم بأنه يفعل ذلك . كانت إحدى يديها على صدره ، حيث كانت قادرة على الإحساس بخفقان قلبه ، وكان وجهها ملتفتاً إلى النافذة حتى ترى الفجر .

و أخيراً اضطرت إلى إيقاظه . رمت عليها بعض الملابس وخرجت إلى الشرفة معه . تسلق من فوق الدرابزون على الجانب المواجه لمنزل آخر قريب . الآن ابتعد عن مرمى بصرها... كانت الزاوية تخفيه عنها . دخلت كريستين مجدداً وزحفت إلى سريرها . ثم انهارت وراحت تبكي لأول مرة منذ أن جعلها إرلند ملكه الخاص .

٥

في دير نونسيتر مرت الأيام كما في السابق . كانت كريستين تمضي وقتها بين حجرة النوم والكنيسة ، وغرفة الحياكة ، والمكتبة وغرفة الطعام . كانت الراهبات وجماعة الدير يجمعون الأعشاب الطبية والفاكهة من حديقة الأعشاب والبستان . جاء «عيد الصليب المقدس» في الخريف مع موكبه الاحتفالي ، ثم جاء الصوم قبل «عيد الملاك ميكائيل» . تساءلت كريستين : لم يبد أن أحداً كان يلاحظ أي تغيير فيها . ولكنها كانت بين أغراب ، وكانت إنجبيورغ فيليبوسداتر ، التي كانت قربها ليلاً ونهاراً ، قادرة تماماً على الثرثرة عنهما كلتيهما .

لذلك لم يلاحظ أحد أن أفكارها كانت بعيدة جداً عن كل ما هو حولها . عشيقة إرلند : كانت تقول لنفسها إنها عشيقة إرلند الآن . وقد بدا الآن وكأن ذلك كله كان حلماً ـ في مساء يوم قداس القديسة مارغريت ، تلك الساعة في الحظيرة ، الليالي في السرير في سكوغ ـ إما أنها حلمت بها أو أن كل ما حولها هو حلم . ولكن لا بدّ أن تستيقظ في يوم من الأيام ، ولا بدّ أن يخرج كل شيء إلى العلن في يوم من الأيام . ولم تفكر لحظة واحدة في أي شيء آخر عدا أنها تحمل طفل إرلند في جوفها .

ولكن ماذا سيحدث لها حين سيصبح هذا كله مفضوحاً ؟ لم تستطع أن تفكر جيداً في هذا الأمر . هل ستوضع في الحفرة السوداء ، أو ترسل إلى البيت ؟ لقد رأت صوراً باهتة لأبيها وأمها البعيدين . ثم أغلقت عينيها ، وشعرت بالدوخة والغثيان ، وراحت تنحني في الخيال تحت العاصفة القادمة وحاولت أن تقوّي نفسها لتتحمّلها ، بما أنها فكرت أن ذلك يجب أن ينتهي بدفعها إلى الأبد إلى ذراعي إرلند : المكان الوحيد الذي تشعر الآن أنه بيتها .

هكذا كان هناك أمل بقدر ما كان هناك رعب في ذلك الانتظار المتوتر . كانت بائسة : ولكنها أحست أن حبها لإرلند كان كزهرة زرعت فيها : وأنه رغماً عن تعاستها ، فقد كانت هذه الزهرة تنمو وتصبح أنضر وأكبر كل يوم . في تلك الليلة الأخيرة حين نام إلى جانبها ، أحست ، بغبطة فاترة خاطفة ، وأن بانتظارها فرحة وسعادة في ذراعيه لم تعرفهما قط من قبل... أحست بالاستثارة الآن حين فكرت فيها ؛ جاءها ذلك كأنفاس دافئة معطرة من حدائق سخّنتها الشمس .طفل على جانب الطريق : كانت إنغا قد رمت الكلمة في وجهها : فتحت ذراعيها له وضمته إلى صدرها . الطفل على جانب الطريق هو الاسم الذي يعطونه للطفل الذي يولد سراً في الغابات أو الحقول . أحست بأشعة الشمس ورائحة الصنوبر في مرعى الغابة . وكل رجفة جديدة زاحفة ، وكل دقة نبض مفاجئة في جسدها كانت تفهمها على أنها تذكير لها من الجنين أنها خرجت الآن إلى ممرات جديدة : ولم تكن هذه صعبة جداً على الاتباع حتى النهاية في الوقت الحاضر ، فقد كانت على ثقة أنها ستؤدي حتماً إلى إرلند في النهاية .

جلست بين إنجبيورغ والأخت أستريد وراحت تخيط في البساط

الموشى الكبير الذي نقشت عليه صور للفرسان والطيور بين ورق الشجر المعترش . وبينما راحت تخيط تذكرت كيف أن عليها أن تهرب حين يكون الحين قد آن ، ولا يمكن بعد إخفاؤه . رأت نفسها تمشي على امتداد الطريق العامة ، في ملابس امرأة فقيرة . وكل ما تملكه من ذهب وفضة ستحمله في رزمة في يدها . ستشتري لنفسها المأوى في مزرعة في مكان ناء من الريف . ستتظاهر بأنها خادمة ، وستحمل نير حمل دلاء المياه في عنقها ، وتعمل في حظيرة البقر ، وتخبز وتغسل ، وستكون ملعونة لأنها لن تفشي اسم والد الطفل . ثم سيأتي إرلند ويجدها .

أحياناً كانت تحلم بأنه سيصل متأخراً جداً . كانت تضطجع بيضاء كالثلج وجميلة في سرير فلاح فقير . سينحني إرلند وهو يدخل من الباب . سيكون مرتدياً تلك العباءة السوداء الطويلة التي اعتاد أن يلبسها حين كان يأتيها ليلاً في سكوغ . ستقوده المرأة إلى حيث كانت هي مضطجعة ، فيركع ويأخذ بيديها الباردتين ، وعيناه حزينتان كالموت : أتضطجعين هنا يا متعتي الوحيدة... ؟ ثم سيخرج وقد أحنى ظهره الأسى حاملاً ابنه الصغير مضموماً إلى صدره ، في ثنايا عباءته . لا ، لم تكن تفكر براحة بأن تجري الأمور على هذا النحو . لم تكن تريد أن تموت ، لا يجب أن يعاني إرلند مثل هذا الأسى... ولكن قلبها كان مثقلاً جداً حتى أن مثل هذه الأحلام كانت مفيدة لها...

ثم وللحظة كان يقف أمامها بارداً وواضحاً كالثلج : الطفل الذي ليس حلماً ، والذي يجب أن يُواجه . عليها أن تجيب في يوم من الأيام على ما فعلته... وبدا وكأن قلبها كاد يتوقف من الذعر .

•

ولكن بعد مرور فترة قصيرة ، بدأت تفكر بأن مسألة حملها لم تكن أمراً مؤكداً جداً على أي حال . لم تفهم هي نفسها لم كانت غير سعيدة : لكأنها قد رقدت وبكت تحت غطاء دافئ ، وكان عليها الآن أن تنهض في البرد . مرّ شهر واحد ، ثم شهران ، والآن كانت على ثقة أنها نجت من تلك المحنة . وبما أنها كانت فارغة وروحها باردة ، فقد شعرت بأنها أتعس من قبل . في قلبها بزغت مرارة صغيرة تجاه إرلند . كانت أيام الأحد الأربعة السابقة على ميلاد المسيح قد اقتربت ، ولكنها لم تسمع عنه أو منه شيئاً . لم تكن تعرف مكانه .

والآن شعرت أنها لم تعد تستطيع احتمال هذا الخوف والشك : كأنما كان بينهما رباط وانقطع . وكانت خائفة بالفعل : هل يا ترى لن تراه أبداً مرة أخرى ؟ كل ما كانت مرتبطة به على نحو آمن في مرة من المرات ، قد افترقت عنه الآن : والرابطة الجديدة التي كانت تربطها بحبيبها كانت ضعيفة . لم تفكر مطلقاً أنه سيخونها : ولكن كانت هناك أمور كثيرة يمكن أن تحدث... لم تكن تدري كيف تستطيع أن تستمر يوماً بعد يوم وهي تعاني الشك المعذّب خلال زمن الانتظار هذا .

بين الحين والآخر كانت تفكر بأبيها وأمها وأختيها... كانت مشتاقة إليهم ، ولكن كشيء فقدته إلى الأبد .

وأحياناً في الكنيسة ، وفي أماكن أخرى ، كانت تشعر بتوق شديد للمساهمة في كل ما يعنيه هذا ، شراكة البشرية مع الرب . كان ذلك دائماً جزءاً من حياتها . والآن تقف خارجها بخطيئتها غير المعترف بها .

كانت تقول لنفسها إن هذا الضياع عن البيت والأهل والكنيسة لم يكن سوى ضَياع لزمن محدود . على إرلند أن يأخذها من يدها ويعود بها إلى ذلك كله . حين يوافق أبوها على حبهما ستستطيع أن تذهب إليه كما في سالف

الأيام . حين تتزوج هي وإرلند ، يستطيعان أن يعترفا ويتوبا عن خطيئتهما .

بدأت تبحث عن علامات على أن الأشخاص الآخرين ما كانوا أقل خطيئة منهما . راحت تصغي إلى النميمة ، وتلاحظ كل الأشياء الصغيرة من حولها والتي تظهر أنه ولا حتى الأخوات في الدير هنا كنّ ورعات وعازفات عن مشكلات الدنيا تماماً . كانت هذه مجرد أمور صغيرة : تحت حكم الليدي غروا كان دير نونسيتر بالنسبة إلى العالم الخارجي نموذجاً لما يجب أن تكون عليه الأخوية الورعة . كنّ متحمسات في إخلاصهن ونشيطات وحريصات على رعاية الفقراء والمرضى ، أولئك الراهبات . لم تكن عزلتهن عن العالم صارمة جداً ولكن كانت الأخوات يتلقين زيارات من أصدقائهن وأقربائهن في البهو ، وكن يُمنحن الإذن لزيارة هؤلاء في البلدة حين تدعو الحاجة إلى ذلك . ولكن لم تكن هناك راهبة قد أنزلت العار بالدير خلال سنوات حكم الليدي غروا كلها .

إلاّ أنّ كريستين كانت تصيخ السمع جيداً الآن إلى الشجارات الصغيرة بين أسوار الدير : مشاجرات وأحقاد صغيرة وغرور . عدا رعاية المرضى ، لم تكن أي من الأخوات تساعد في الأعمال المنزلية الشاقة : كن جميعاً معتبرات على أنهن نساء متعلمات وماهرات في مهنة ما . كانت كل واحدة تحاول أن تبزّ الأخرى ، وكانت الأخوات اللواتي لا ميل لهن لعلم أو للمهن الأنبل ، يفقدن شجاعتهن ويتسكعن خلال الساعات وكأنهن نصف مستيقظات فحسب .

كانت الليدي غروا نفسها حكيمة وعالمة . كانت تبقي عيناً يقظة على أسلوب بناتها الروحيات في الحياة واجتهادهن ، ولكنها ما كانت تزعج نفسها إلاّ قليلاً فيما يخص صحتهن الروحية . كانت لطيفة وودودة مع كريستين في كل الأوقات ، وقد بدا أنها تحبها أكثر من الفتيات الأخريات ،

ولكن سبب ذلك كله كان كفاءة كريستين في دراسة الكتب وفي شغل الإبرة ، ولكونها مجتهدة وقليلة الكلام . لم تكن الليدي غروا تبحث عن جواب لدى أي من الأخوات . ولكن من ناحية أخرى ، كانت سعيدة بالتحدث مع الرجال . كانوا يأتون ويذهبون في بهوها : مزارعون مستأجرون ووكلاء مزارع الدير . رهبان واعظون من عند الأسقف وقهرمانات الضيع في هوفيدو الذين كانت في وضع مقاضاة معهم . كانت مشغولة جداً بالإشراف على عقارات وأملاك الدير الهائلة ، ومسك الحسابات ، وإرسال الملابس الكنسية ، وشراء الكتب التي ستنسخ وترسل مجدداً . ما كان يمكن لأكثر الرجال شراً في التفكير أن يجد ما هو غير ملائم في أسلوب حياة الليدي غروا . ولكنها لم تكن تحب سوى أن تتحدث عن الأمور التي نادراً ما تعرف النساء عنها شيئاً .

بدا رئيس دير الرهبان ،الذي يسكن في منزل لوحده إلى شمال الكنيسة ، وكأنه لا إرادة له سوى كونه ريشة كتابة للأم الرئيسة أو سوطها . كانت الأخت بوتنتيا تعتني بمعظم الأشياء ضمن المنزل ؛ وكانت تفكر كثيراً في حفظ النظام كما رأت في الدير الألماني رفيع الشهرة حيث أمضت فترتها كمبتدئة . كانت تسمى سيغريد راغنفالدتسداتر من قبل ، ولكنها اتخذت اسماً جديداً حين لبست خمار نظام الرهبنة ، فقد كانت تلك هي العادة في الدول الأخرى . وكانت هي أيضاً من فكر في السماح للفتيات اللواتي كن موجودات في نونسيتر كتلميذات ، ولفترة قصيرة فقط ، بارتداء ملابس المبتدئات .

لم تكن الأخت سيسيليا باردسداتر شأن الراهبات الأخريات . كانت تتجول بهدوء ، بعينين مسبلتين ، وتجيب دائماً بلطف وتواضع ، وكانت خادمة للجميع ، وتقوم بمحض اختيارها بأشق الأعمال وتصوم أكثر من

المطلوب ـ بقدر ما تسمح لها الليدي غروا ـ وكانت تركع ساعة كاملة في الكنيسة بعد صلاة المساء أو تذهب إلى هناك قبل صلاة الصباح .

و لكن حدث في إحدى الأمسيات ، وبعد أن كانت طوال النهار عند النهر مع خادمتين لغسل الملابس ، أن انفجرت فجأة في بكاء عال عند مائدة العشاء . رمت بنفسها على الأرض الحجرية ، وزحفت بين الأخوات على يديها وركبتيها ، وضربت على صدرها ، وبوجنتين محترقتين ودموع سيالة ، راحت ترجو من الجميع أن يغفروا لها . كانت أسوأ خاطئة بينهن جميعاً : كانت قاسية كالحجر من شدة غرورها طوال أيامها كلها ، كان الغرور وليس الوداعة أو الحمد لموت المسيح الافتدائي هو الذي يدعمها حين تتعرض للإغراء في هذه الدنيا ، وقد هربت إلى هناك ليس لأنها أحبت روح رجل ، ولكن لأنها أحبت خيلاءها . لقد خدمت أخواتها كنوع من الخيلاء ،والزهو الذي شربته من فنجان مائها ، وادعاء الصلاح الذي فرشته على خبزها اليومي الجاف ، بينما كانت الأخوات الأخريات يشربن جعتهن ويأكلن شرائح الخبز مع الزبدة .

لم تفهم كريستين أي شيء من كل هذا إلاّ أنه حتى سيسيليا باردسداتر لم تكن ورعة في أعماقها . شمعة غير مضاءة معلقة من السقف وقد اتسخت من السخام وأعشاب العنكبوت : هكذا شبّهت طهارتها غير المحبة .

مضت ليدي غروا بنفسها وأنهضت المرأة الباكية . ثم قالت بصرامة إنه بسبب هذه الفوضى ستنال سيسيليا عقاباً هو أن تنتقل من عنبر نوم الأخوات إلى سرير الأم الرئيسة نفسه ، وأن تبقى مضطجعة فيه حتى تشفى من هذه الحمى .

«و بعد ذلك يا أخت سيسيليا ستجلسين في مقعدي لمدة أسبوع ،

وسوف نأخذ مشورتك في الأمور الروحانية وسوف نمنحك شرفاً كبيراً لحياتك الورعة ، حتى تنالي حاجتك من ثناء البشرية الخاطئة . وهكذا ستحكمين إن كان الأمر يستحق كل هذا الكفاح ، وبعد ذلك ستختارين ما إذا كنت ستعيشين ملتزمة بالأنظمة ، كما نفعل نحن الأخريات ، أو تبقين على ممارسة تمارين لا يطلبها أحد منك . ثم تستطيعين أن تتأملي فيما إذا كنت تستطيعين أن تفعلي ـ لوجه الله ولمرضاته ـ تلك الأمور التي تقولين إنك فعلتها حتى نحترمك نحن » .

و هذا ما جرى . مكثت الأخت سيسيليا في غرفة الأم الرئيسة مدة أربعة عشر يوماً . كانت مصابة بحمى شديدة ، واعتنت بها الليدي غروا بنفسها . وحين نهضت من الفراش مجدداً ، كان عليها أن تجلس لمدة أسبوع إلى جانب الأم الرئيسة في الكرسي العالي في الكنيسة كما في الدير ، بينما راح الجميع يخدمها : كانت تبكي طوال الوقت وكأنها كانت تضرب بالسياط . ولكنها كانت أهدأ وأسعد بكثير لاحقاً . عادت إلى ديدنها السابق ، ولكنها كانت تحمر خجلاً كعروس لو نظر إليها أي شخص ، سواء كانت تمسح الأرض أو تسير وحدها في الكنيسة .

•

على أي حال أثارت قضية الأخت سيسيليا هذه في كريستين توقاً شديداً إلى السلام والتكفير مع كل ما كان يجعلها تشعر أنها منبوذة . فكرت بالأخ إدفين ، وتشجعت في أحد الأيام ورجت الليدي غروا أن تسمح لها بالخروج إلى « الأخوة حفاة الأقدام » لزيارة صديق تعرفه هناك .

لاحظت أن الليدي غروا امتعضت من ذلك . فلم تكن العلاقات ودية جداً بين الرهبان الفرنسيسكان والأديرة الأخرى في الأسقفية . ولم تكن الأم

الرئيسة أكثر سروراً حين سمعت اسم صديق كريستين . قالت إن الأخ إدفين كان رجلاً متقلباً بين رجال الله : كان كثير التجوال في البلد ويطلب الإذن للقيام بزيارات استعطاء إلى أسقفيات غريبة . كانت عامة الناس في أماكن كثيرة تعتبره رجلاً مقدساً ، ولكن لم يبد عليه أنه يفهم أن أول واجب من واجبات الفرنسيسكاني هو طاعة رؤسائه . لقد أحلّ قطاع طرق وخارجين على القانون من خطاياهم وعمّد أولادهم ورتّل لهم في جنازاتهم دون أن يطلب الإذن بذلك ... ومع ذلك ، فلا شك أنه ارتكب الخطيئة نتيجة للجهل كما للنكاية ، وقد تحمل بصبر وتواضع العقوبات التي فرضت عليه بسبب هذه الأفعال . كما أنه عومل برحمة لأنه ماهر في صنعته... ولكنه حتى في ممارسته لهذه الصنعة ، قد تشاجر مع زملائه فيها ، وقد رفض معلمو الرسم لدى أسقف برغن أن يذهب ليعمل لديهم في الأسقفية هناك .

تجرأت كريستين لتسأل عن بلده الأصلي ، هذا الراهب صاحب الاسم غير النرويجي . كانت الليدي غروا في مزاج طيب للحديث ، فحكت لها كيف أنه ولد هنا في أوسلو ، ولكن أباه كان إنكليزياً اسمه ريتشارد بليتماستر الذي تزوج من ابنة مزارع من « سكوغهايم هندريد » وسكن في البلدة : كان اثنان من أخوة إدفين صانعي أسلحة ودروع مشهورين في أوسلو . ولكن هذا الابن الأكبر لبليتماستر كان ذا روح قلقة طوال حياته . صحيح أنه أحس بالدعوة إلى حياة الأديرة منذ طفولته إذ أنه انضم إلى الرهبان البندكتيين في هوفيدو منذ أن أصبح في السن الملائمة . وقد أرسلوه إلى دير في فرنسا للتدريب ، إذ كانت مواهبه جيدة . وبينما كان لا يزال هناك استطاع أن يحصل على إذن لينتقل من النظام البندكتي إلى الفرنسيسكاني . وحين بدأ الرهبان العنيدون ببناء كنيستهم شرقاً في الحقول رغم أوامر الأسقف ، كان الأخ إدفين واحداً من أسوأهم وأعندهم... بل

إنه كاد يقتل بمطرقته أحد الرجال الذين أرسلهم الأسقف لإيقاف العمل .

كان قد مرّ زمن طويل منذ أن تحادث أحدهم مع كريستين مثل هذه المدة الطويلة مرة واحدة ، لذا قالت الليدي غروا إنه يمكنها الآن أن تذهب . انحنت الفتاة وقبلت يد الأم الرئيسة ، بحماسة ووقار ، وبينما كانت تفعل ذلك امتلأت عيناها بالدموع . وحين رأت الليدي غروا أنها كانت تبكي ، ظنت أن السبب في ذلك كان الحزن ، لذلك قالت لها : ربما تسمح لها في يوم من الأيام أن تذهب لمشاهدة الأخ إدفين على أي حال .

و بعد أيام قليلة قيل لها إن جماعة من الدير كانت ستذهب في مهمة إلى قصر الملك ، وأنهم يستطيعون أن يصطحبوها معهم لتزور «الأخوة» في الحقول .

كان الأخ إدفين في ديره . لم تكن كريستين تظن أنها قد تكون سعيدة إلى هذا الحد في أن ترى أي شخص آخر باستثناء إرلند . جلس الرجل العجوز وربت على يدها بينما راحا يتحدثان معاً كإشارة إلى شكرها على زيارته . لا ، لم يكن قد زار ذلك الجزء من البلد الذي تنتمي إليه منذ الليلة التي قضاها في يوروندغارد ، ولكنه سمع أنها كانت ستتزوج ، وتمنى لها حظاً طيباً . ثم رجته كريستين أن يذهب إلى الكنيسة معها .

كان عليهما الخروج من الدير والذهاب والالتفاف نحو الباب الرئيسي . لم يتجرأ الأخ إدفين على اصطحابها عبر الباحة . بدا شديد الإحباط ، وخائفاً من ارتكاب أي فعل قد يعتبر مُسيئاً . لقد أصبح عجوزاً جداً ، كما فكرت كريستين .

و حين وضعت على المذبح قربانها إلى الراهب المشرف على الصلاة الذي كان في الكنيسة ، سألت إدفين إن كان سيقبل اعترافها ، فشعر بخوف

شديد . لم يجرؤ بل قال إنه محظور عليه الاستماع إلى الاعتراف حظراً نهائياً .

قال : «ربما سمعت ذلك . لقد حدث أني شعرت أني لا أستطيع أن أنكر على أولئك البائسين الفقراء العطايا التي منحها لي الرب بكرمه . ولكنه صحيح أيضاً أنه كان يتوجب عليَّ أن أدعوهم إلى نشدان الغفران في المكان الصحيح... أجل ، أجل... وأنت يا كريستين من واجبك أن تعترفي لمقدّم ديرك» .

«كلا ، لأن هذا شيء لا أستطيع الاعتراف به لمقدم الدير» ، قالت كريستين .

«أتعتقدين أنك ستستفيدين إطلاقاً من الاعتراف لي بما تريدين إخفاءه عن أب الاعتراف الأصلي ؟» قال الراهب على نحو أشد صرامة .

«إذا لم تكن تستطيع الاستماع إلى اعترافي ، فسوف تسمح لي في الأقل بأن أحدثك وأطلب مشورتك حول ما هو جاثم على روحي» .

نظر الراهب فيما حوله . كانت الكنيسة خالية عند تلك اللحظة . ثم جلس على صندوق في وسط الزاوية : «عليك أن تتذكري أني لا أستطيع أن أمنحك الغفران ، ولكني سأمنحك المشورة ، وأبقى صامتاً وكأنك قلت لي ذلك في الاعتراف» .

وقفت كريستين أمامه وقالت :

«الأمر وما فيه أني لا أستطيع أن أكون زوجة لسايمون دار» .

«إذن تعرفين جيداً أني لا أستطيع إعطاءك مشورة خلافاً لما يعطيك إياه مقدم ديرك . الرب لا يمنح السعادة للأولاد غير المطيعين ، وأبوك كان يسعى دائماً إلى مصلحتك ، وأنت تعرفين ذلك جيداً جداً» ، قال الأخ إدفين .

«لا أعرف ما ستكون مشورتك حين تسمعني حتى النهاية» ، أجابت كريستين . «الأمر بيننا كما يلي الآن : سايمون أفضل بكثير من أن ينهش الغصن العاري الذي سبق لرجل آخر أن قطف برعمه» .

نظرت إلى الراهب مباشرة في الوجه . ولكن حين واجهت عينيه ولاحظت كيف تغير الوجه اليابس المغضن ، وأضحى مترعاً بالأسى والرعب : بدا وكأن شيئاً ما قد انقصف في داخلها ، وبدأت الدموع تترقرق في عينيها ، وكانت سترمي بنفسها على ركبتيه . ولكن إدفين أوقفها بسرعة :

«كلا ، كلا ، اجلسي هنا على الصندوق إلى جانبي... لا أستطيع تقبل اعترافك» . ثم انتحى جانباً وأفسح لها مكاناً .

تابعت البكاء . ربت على شعرها وقال بلطف :

«أتتذكرين ذلك الصباح يا كريستين حين رأيتك لأول مرة هناك على الدرج في كنيسة هامار... ؟ لقد سمعت حكاية ذات مرة ، حين كنت في البلاد الأجنبية ، عن راهب لم يستطع أن يصدق أن الرب يحبنا جميعاً نحن الخاطئين البائسين... ثم وصل ملاك ولمس عينيه ، ونظر فرأى حجراً في قعر البحر ، وتحت الحجر كان يعيش مخلوق أعمى وأبيض وعار ؛ وقد حدق إليه حتى أصبح يحبه ، فقد كان شديد الهشاشة والضعف . حين رأيتك جالسة هناك ، صغيرة وضعيفة إلى ذلك الحد ، ضمن ذلك البناء الحجري الهائل ، تذكرت أن الرب يجب أن يحب أمثالك . جميلة ونقية كنت ، ومع ذلك كنت في حاجة إلى من يساعدك ويحميك . أعتقد أني رأيت الكنيسة كلها ، وأنت فيها ، قابعة في تجويف قبضة الرب» .

قالت كريستين بصوت خفيض :

«لقد تعاقدنا بأغلى المواثيق ، وقد سمعت أنه في عيون الرب أن مثل

هذا الميثاق يقدس ارتباطنا كما لو أن آباءنا وأمهاتنا قد منحونا الواحد إلى الآخر» .

أجاب الراهب بحزن : «أرى جيداً يا كريستين أن شخصاً لا يعرف المسألة بالكامل قد حدثك عن القانون الشرعي . لا تستطيعين أن تلزمي نفسك بالقسم مع هذا الرجل دون أن تمارسي الخطيئة ضد أبيك وأمك : لقد وكلهما الله بك قبل أن تقابليه . ثم أليس أمراً مسبباً للحزن والعار لأهله أيضاً لو علموا أنه قد غرر بابنة رجل حمل ترسه بشرف في كل الأوقات... وهي ابنة مخطوبة لرجل آخر أيضاً ؟ أفهم من كلامك أنك لا تعتبرين أنك ارتكبت إثماً كبيراً... ومع ذلك لا تجرئين على الاعتراف بهذا الأمر إلى كاهنك المختص . وهكذا تعتقدين أنك متزوجة في النتيجة من ذلك الرجل ، مع أنك لم تلبسي على رأسك قبعة الرأس الكتانية الخاصة بالزواج ، ولا تزالين تسيرين وشعرك مسدل بين العذراوات الشابات اللواتي لم يعد بإمكانك أن تكوني زميلة لهن بعد الآن : ففي الوقت الحاضر تتركز كل أفكارك على أمور أخرى غير الشيء الذي في أذهانهن ؟»

قالت كريستين متعبة : «لا أعرف ما في أذهانهن . صحيح أن كل أفكاري هي مع الرجل الذي أتوق إليه ، ولولا أبي وأمي لكنت سأربط شعري هذا اليوم ، ولن آبه إلا قليلاً لو سميت بالمرأة السائبة إن كنت سأسمى امرأته» .

«أتعرفين أنه لو كان هذا الرجل صادقاً في معاملته معك ، فإنك قد تسمين يوماً ما زوجته بكل شرف ؟» سألها الأخ إدفين .

ثم حكت كريستين عن كل ذلك الذي حدث بين إرلند نيكولاوسون وبينها . وبينما راحت تتكلم ، لم يبد عليها حتى أنها تتذكر أنها شكت مطلقاً بنتيجة ذلك كله .

بدأت مجدداً : «ألا ترى أيها الأخ إدفين أننا لا نستطيع مساعدة أنفسنا . فليساعدنا الله ، لو كنت سأقابله خارج هذا المكان ، حين أبتعد عنك ، وطلب مني أن أذهب معه ، لذهبت معه . وأعرف جيداً أيضاً أني رأيت الآن أنه سيكون هناك أناس آخرون قد ارتكبوا الإثم كما فعلنا نحن... حين كنت فتاة صغيرة في البيت لم أستطع أن أستوعب كيف يمكن لأي شيء أن تكون له تلك السلطة على أرواح الناس بحيث يستطيعون نسيان الخوف من الخطيئة . ولكني قد تعلمت الكثير الآن : إن كانت الآثام التي يرتكبها الناس بسبب الشهوة والغضب لا يمكن التكفير عنها ، إذن لا بد أن الجنة مكان فارغ . ويقولون عنك إنك قد ضربت رجلاً مرة في لحظة غضب» .

قال الراهب : «هذا صحيح . وأشكر رحمة الرب وحدها لأني لا أدعى بالقاتل . حدث هذا قبل سنوات كثيرة... كنت شاباً آنذاك ، وأظن أني لم أستطع تحمل الإثم الذي كان الأسقف سيحمله لنا نحن الرهبان الفقراء . لقد أعطانا الملك هاكون ـ كان لا يزال دوقاً في ذلك الحين ـ أرضاً لبناء منزل لنا ، ولكننا كنا فقراء جداً حتى اضطررنا لبناء كنيستنا بأنفسنا ، مع عدد قليل من العمال الذين ساعدونا لقاء مكافأة من السماء وليس لقاء ما كنا قادرين على دفعه . ربما كان الغرور الآثم لدينا نحن الرهبان الشحاذين هو الذي دفعنا إلى بناء كنيستنا على نحو جميل وضخم ـ إلا أننا كنا سعيدين كالأطفال في الحقول ، وكنا نغني أغاني المديح بينما كنا نقطع ونبني ونكدّ . كان الأخ رانولف ـ رحمه الله ـ معلم بناء ، وكان نحات حجارة ماهر . كلا ، أعتقد أن الرجل قد منحه الرب نفسه المهارة في كل أنواع المعرفة والفنون . كنت نحات ألواح حجرية في تلك الأيام . كنت قد أنهيت للتو تمثالاً للقديسة كلارا التي كانت الملائكة تحملها إلى كنيسة القديس فرانسيس في فجر يوم عيد الميلاد ـ كان لوحاً جميلاً جداً ، وكلنا استمتع

به جداً ـ ثم حطم الكفار الجهنميون الجدران وسقط حجر وحطم ألواحي ـ ضربت رجلاً بمطرقتي ، ولم أستطع كبح جماح غضبي...

«أجل ، أنت تبتسمين الآن يا كريستيني . ولكن ألا ترين أن وضعك ليس جيداً الآن بما أنك تفضلين الآن حكايات كهذه عن عيوب الناس الآخرين أكثر من الحكايات عن حياة وأفعال الناس الصالحين الذين قد يكونون مثالاً جيداً لك... ؟

«ليست مسألة سهلة أن أمنحك المشورة» ، قال حين حان وقت رحيلها . «فلو كنت ستفعلين ما هو صحيح ، لجلبت الأسى إلى أبيك وأمك والعار لكل أقربائك . ولكن عليك أن تحرري نفسك من العهد الذي منحته لسايمون أندرسون ـ ثم عليك أن تنتظري بصبر المصير الذي كتبه الله عليك ، وقومي في قلبك بما تقدرين عليه من التعويض ـ ولا تتركي إرلند هذا يغويك على ارتكاب الخطيئة مجدداً ، ولكن عليك أن تناشديه أن يطلب التكفير من أقربائك ومن الرب .

«من خطيئتك لا أستطيع تحريرك» ، قال الأخ إدفين وهما يفترقان ، «و لكني سأصلي لأجلك من كل قلبي...»

وضع يديه النحيلتين العجوزين على رأسها وصلّى ، كنوع من الوداع ، حتى يباركها الرب ويمنحها السلام .

٦

لاحقاً ، كان هناك الكثير ممّا قاله الأخ إدفين لها ولم تستطع كريستين تذكره . ولكنها غادرته بذهن واضح وهادئ على نحو غريب .

حتى الآن كانت قد كافحت خوفاً سرياً غير واضح ، وحاولت أن تتخلص منه . كانت تقول لنفسها إنها لم تأثم بعمق . والآن أحست أن إدفين قد أراها ببساطة وبوضوح أنها قد أثمت بالفعل ، وأن إثمها كان كذا وكذا ، وعليها أن تلزم نفسها وتحاول أن تتحمله على نحو متواضع وملائم . حاولت أن تفكر بإرلند دون نفاد صبر : إما لأنه لم يرسل لها رسالة بنفسه ، أو لأن عليها أن ترغب في ملاطفته . وستكون مخلصة له ومفعمة بالحب له .

فكرت بأبيها وأمها ، وعاهدت نفسها على أنها ستعوضهما عن كل حبهما ، ما أن يتجاوزا الأسى الذي ستنزله عليهما بأن تقطع الصلة بجماعة دايفرين . وتقريباً كانت تفكر في أغلب الأحيان بكلمات الأخ إدفين عن كيف أن عليها ألا تنشد السلوان في البحث عن أخطاء الآخرين . شعرت أنها قد أصبحت متواضعة ولطيفة ، والآن رأت فوراً كم كان من السهل عليها أن تكسب صداقة الناس . ثم أحست بالراحة من فكرة أنه لم يكن من الصعب

جداً الوصول إلى تفاهم مع الناس ؛ وهكذا بدا لها أن الأمر لن يكون صعباً جداً عليها وعلى إرلند بكل تأكيد .

وحتى ذلك اليوم الذي منحت فيه إرلند العهد ، كانت تناضل بحماسة للقيام بما هو صحيح وصالح ، ولكنها فعلت ذلك كله بناء على أوامر الآخرين . والآن راحت تشعر أنها قد نضجت من فتاة لتصبح امرأة . ولم يكن ذلك عائداً للمداعبات الحارة السرية التي تبادلتها مع إرلند ، وليس أنها قد تخلت عن رعاية أبيها وأصبحت خاضعة لإرادة إرلند . فقد حمّلها إدفين عبء مسؤولية حياتها ، بل وحياة إرلند أيضاً . وكانت راغبة في تحملها جيداً وبشجاعة . وهكذا أمضت وقتها بين الراهبات في فترة أعياد الميلاد ، وخلال الطقوس الجميلة والمتعة والسلام اللذين تجلبهما الأعياد ، ورغم أنها شعرت بنفسها على أنها غير جديرة ، إلا أنها وجدت الراحة في التفكير في أنها سرعان ما سوف تستعيد نشاطها مجدداً .

•

ولكن في اليوم الثاني من السنة الجديدة ، وصل السير أندرس دار وزوجته وأولاده الخمسة كلهم ، دون سابق إنذار ، إلى الدير . كانوا قد وصلوا لقضاء الأيام الأخيرة من فترة عيد الميلاد مع أصدقائهم وأقربائهم في البلدة ، وقد طلبوا الإذن لكريستين لتمكث معهم في سكنهم فترة قصيرة .

قالت الليدي أنغيرد : «لقد فكرت يا ابنتي أنك لن تكرهي مشاهدة بعض الوجوه الجديدة فترة من الزمن» .

كانت جماعة دايفرين تقيم في منزل فخم في حي[١٥] قريب من قصر الأسقف ، كان ملكاً لابن عم السير أندرس . كانت هناك قاعة كبيرة ينام فيها الخدم ، وعليّة جميلة ذات مدفأة من الحجر وثلاثة أسرة جيدة ، في

أحدها ينام السير أندرس والليدي أنغيرد وابنهما الأصغر ، غودموند ، الذي كان مجرد طفل . وفي الآخر كانت تنام كريستين وابنتا الليدي : آستريد وسيغريد ، وفي الثالث سايمون وأخوه الأكبر غيرد أندرسون .

كان أولاد السير أندرس كافةوسيمين ، وكان سايمون أقلهم وسامة ، ولكن حتى هو أيضاً كان يعتبر بهيّ الطلعة . وقد لاحظت كريستين أكثر مما حدث في العام الماضي حين كانت في دايفرين أن كلاً من الأب والأم والأخوة والأخوات الأربع كافة يصغون في أغلب الأحيان إلى سايمون ، ويفعلون ما يأمر به . كانوا جميعاً يحبون بعضهم البعض بإخلاص ، ولكنهم متفقون دون ضغينة أو حسد ، على أن يكون سايمون متقدماً عليهم جميعاً .

كان هؤلاء القوم يعيشون حياة مرحة خالية من الهموم . راحوا يزورون الكنائس ويقدمون القرابين كل يوم ويجتمعون بأصدقائهم ويشربون في صحبتهم كل مساء ، بينما كان الشباب يُمنحون الإذن للعب والرقص . وقد أبدى الجميع تجاه كريستين أعظم اللطف والكياسة ، ولم يلحظ أحد كم كانت سعادتها قليلة .

في إحدى الأمسيات ، حين أطفئ النورَ في العلية ، وذهب كل إلى سريره ، كان من عادة سايمون أن ينهض ويذهب إلى حيث كانت تضطجع الفتيات . كان يجلس فترة على حافة السرير . كان حديثه في أغلبه موجهاً لأختيه ، ولكن في العتمة كان يترك يده ترتاح على صدر كريستين ، بينما كانت تضطجع هناك محمومة من شدة غضبها .

والآن حين أصبح إحساسها بمثل هذه الأمور أكثر حدة ، فقد فهمت جيداً أن هناك كثيراً من الأمور التي كان فيها سايمون أكثر غروراً وخجلاً من أن يخاطبها بها بما أنه رأى أنها لم تكن راغبة في سماع مثل هذا الحديث منه . وقد أحست بالمرارة والغضب تجاهه ، فقد بدا لها وكأنه يسره أن

يكون رجلاً أفضل من ذاك الرجل الذي جعلها ملكاً له... حتى لو لم يكن سايمون يدري بوجود مثل هذا الرجل .

ولكن في إحدى الليالي وبينما كانوا يرقصون في دار أخرى ، بقيت آستريد وسيغريد لتناما هناك مع زميلة لهما في اللعب . وحين ذهبت جماعة دايفرين لترتاح في عليتها ، جاء سايمون إلى سرير كريستين وصعد إليه . وضع نفسه فوق الغطاء الفرائي .

رفعت كريستين الغطاء حتى ذقنها وصالبت ذراعيها بشدة فوق صدرها . وبعد قليل حاول سايمون أن يضع يده على صدرها . أحست بالتطريز الحريري على سوار قميصه وعرفت أنه لم يخلع أياً من ملابسه .

«أنت خجولة في الظلام كما أنت في النور يا كريستين» ، قال سايمون ضاحكاً . «طبعاً تستطيعين أن تتركي لي يداً واحدة لأمسكها» ، قال ذلك وأعطته كريستين رؤوس أناملها .

«ألا تظنين أن لدينا ما نتحدث عنه وذلك حين يحدث أن نبقى وحدنا ؟» هذا ما قاله ، وفكرت كريستين أنه حان الآن موعد كلامها معه . لذلك أجابت بـ«نعم» . ولكنها لم تستطع التلفظ بكلمة واحدة .

رجاها ثانية : «هل أستطيع النزول تحت الفراء ؟ الجو بارد في الغرفة الآن...» ثم انزلق بين غطاء السرير والبطانية الصوفية التي كانت تتغطى بها . لف ذراعاً حول رأس السرير على نحو لا يلمسها معه . وهكذا مكثا بعض الوقت .

سرعان ما قال سايمون بضحكة مستسلمة : «لست سهلة جداً على المغازلة . والآن أتعهد لك بأني لن أقبّلك إذا كنت لا تريدينني أن أفعل . ولكنك تستطيعين التحدث إليّ في الأقل» .

بلّلت كريستين شفتيها برأس لسانها ولكنها بقيت صامتة .

«عجباً ، لكأنك تقبعين هناك ترتجفين!» ، تابع سايمون كلامه . «بالتأكيد لا يمكن أن يكون لديك شيء ما ضدي يا كريستين ؟»

أحست أنها لا تستطيع الكذب على سايمون ، لذلك قالت : «لا»... ولكن لا شيء آخر . بقي سايمون فترة أخرى . حاول أن يجعلها تكلمه . ولكنه ضحك أخيراً وقال :

«أرى جيداً أنك تعتقدين أن عليّ أن أكتفي بسماع أنه ليس لديك أي شيء ضدي -لهذه الليلة- وأن أكون سعيداً علاوة على ذلك . إنه لأمر محفوف بالمخاطرة أن تكوني شديدة الاعتزاز بنفسك ، ولكن عليك أن تمنحيني قبلة واحدة ؛ وعندها سأذهب في حال سبيلي ولن أزعجك بعد الآن...»

أخذ القبلة ، ثم جلس ووضع قدميه على الأرض . عندها فكرت كريستين في أن عليها أن تقول له ما كان عليها قوله... ولكنه كان قد سبق له وابتعد نحو سريره ، وسمعته يخلع ملابسه .

•

في اليوم التالي لم تكن الليدي أنغيرد ودودة جداً مع كريستين كما كان دأبها . لاحظت الفتاة أن الليدي قد سمعت شيئاً ما في الليلة الماضية وأنها اعتبرت أن خطيبة ابنها لم تتصرف تجاهه كما تظن هي أنه ملائم .

في وقت متأخر من عصر ذلك اليوم تحدث سايمون عن حصان صديق له كان ينوي أن يقايضه بحصان من أحصنته . سأل كريستين إن كانت تود الذهاب معه لمشاهدته . لم يكن لديها مانع ، ومضيا معاً إلى البلدة .

كان الطقس منعشاً وجميلاً . وكان الثلج قد هطل قليلاً خلال الليل ، ولكن الشمس كانت مشرقة الآن ، وكان الجو بارداً حتى أن الثلج كان

يطقطق تحت أقدامهما . أحست كريستين أنه لأمر جيد أن تكون خارجاً وأن تمشي في الهواء البارد . وحين جلب سايمون الحصان ليريها إياه ، كلمته على نحو مرح بما فيه الكفاية ، فقد كانت تعرف شيئاً عن الجياد لكثرة مصاحبتها لأبيها . وكان هذا الحصان جميلاً ، فحلاً رمادياً بلون الفأر له خط أسود على ظهره وعرف مقصوص ، كان جيد الشكل حيوياً ، ولكنه ضئيل الحجم وذو بنية نحيلة .

قالت كريستين : «لن يحتمل بالكاد رجلاً بكامل سلاحه فترة طويلة» .

قال سايمون : «لا ، لن يحتمل بالفعل . ولكني لا أريده لمثل هذا الراكب» .

قاد الحصان نحو حقل المنزل خلف الدار ، وجعله يسير خبباً ويمشي ، ركبه ليجرب خطواته ، وجعل كريستين تمتطيه أيضاً . وهكذا بقيا معاً فترة على الحقل المثلج .

وأخيراً ، وبينما وقفت كريستين تطعم الحصان خبزاً من يدها ، وبينما كان سايمون متكئاً على ظهره بذراعه ، قال على الفور :

«أعتقد يا كريستين أنك وأمي لا تحب إحداكما الأخرى» .

قالت : «لم أقصد أن أكون غير محبة لأمك ، ولكني لا أجد الكثير لأقوله لليدي أنغيرد» .

قال سايمون : «و لا يبدو أنك تجدين الكثير لتقوليه لي أيضاً . لن أفرض نفسي عليك بالقوة يا كريستين قبل أن يحين الأوان... ولكن لا يمكن للأمور أن تستمر كما هي عليه الآن ، حيث لا أستطيع مبادلتك الحديث» .

قالت كريستين : «لست ممّن يتكلمن كثيراً . أعرف نفسي . ولا آمل أن تفكر أنها ستكون خسارة كبيرة إن لم يصل الذي بيننا إلى شيء ما» .

«تعرفين جيداً ما هي أفكاري في هذا الخصوص» ، قال سايمون وهو ينظر إليها .

أصبح وجه كريستين أحمر كالدم . وقد آلمها أنها لم تستطع كره الأسلوب الذي كان يغازلها فيه سايمون دار . قال بعد برهة : «هل هو آرن غيردسون يا كريستين الذي تشعرين أنك لا تستطيعين نسيانه ؟» ولكن كريستين حدقت إليه فحسب . تابع سايمون يقول وصوته لطيف وودّي جداً : «لن ألومك قط على ذلك... فقد نشأتما كأخ وأخت ، ولم يمض بعد عام على ذلك . ولكن كوني على ثقة واطمئني إلى أني أحمل لك كل الخير في قلبي...»

كان وجه كريستين قد شحب كوجوه الموتى . لم يتكلم أحدهما بعد ذلك وهما عائدان عبر البلدة في الغسق . في نهاية الشارع ، تحت السماء الزرقاء–الخضراء ، كان منجل القمر الجديد ونجمة لامعة قرب قرنه .

إنه عام مضى ، فكرت كريستين ، ولا تستطيع أن تتذكر متى فكرت في آرن... أصبحت خائفة : ربما تحولت هي إلى امرأة فاسدة شريرة . ولكن مرّ عام منذ شاهدته على نعشه في غرفة السهر على الميت ، وكانت تظن أنها لن تكون سعيدة مرة أخرى في حياتها... أنّت في داخلها خوفاً من تقلّب قلبها ، وبسبب التحولات السريعة للأمور كلها . إرلند! إرلند! ـ هل يمكنه أن ينساها– ومع ذلك بدا لها أن الأمور قد تكون أسوأ ، إذا ما حدث ونسيته هي في أي وقت من الأوقات .

•

ذهب السير أندرس مع أولاده إلى وليمة عيد الميلاد الفخمة في قصر الملك . شاهدت كريستين كل أبهة ومظاهر الاحتفال المبهرجة . كما دخلوا

إلى القاعة حيث جلس الملك هاكون والليدي إيزابيل بروس ، أرملة الملك آيريك . تقدم السير أندرس وعبّر عن آيات الولاء للملك ، بينما وقف أولاده وكريستين إلى الخلف قليلاً . فكرت في كل ما حكته لها الليدي آشيلد . تذكرت أن الملك كان قريباً لإرلند ، فقد كانت جدتاهما -لأبويهما- أختين ، وكانت هي عشيقة إرلند . لم يكن يحق لها الوقوف هنا ، في الأقل بين هؤلاء الأشخاص الصالحين الشرفاء أولاد السير أندرس .

ثم فجأة رأت إرلند نيكولاوسون... كان قد تقدم نحو الملكة إيزابيل ، ووقف برأس منحنية ويده على صدره ، بينما راحت هي تنطق بكلمات قليلة مخاطبة إياه . كان يرتدي الملابس الحرير البنية اللون التي ارتداها في عيد النقابة . تراجعت كريستين خطوة إلى ما وراء ابنتي السير أندرس .

وحين قادت الليدي أنغيرد لاحقاً ابنتيها نحو الملكة ، لم تعد كريستين قادرة على مشاهدته في أي مكان ، ولكنها لم تتجرأ على رفع عينيها عن الأرض . تساءلت إن كان واقفاً في مكان ما من القاعة ، وفكرت أنها تستطيع أن تشعر بعينيه مسلطتين عليها -و لكنها فكرت أيضاً أن كل الناس كانوا ينظرون إليها وكأنهم يعرفون لا بدّ أنها كانت كاذبة ، وتقف هناك والإكليل الذهبي على شعرها المسدل .

●

لم يكن هو في القاعة حيث كان الشباب يحتفلون ، وحيث رقصوا حين رفعت الموائد . في هذا المساء كان عليها أن تراقص سايمون .

على امتداد واحد من الجدران الأطول كانت مائدة ثابتة ، وإلى هناك كان رجال الملك يحملون الجعة والميد والنبيذ طوال الليل . وفي إحدى المرات وبينما جذبها سايمون إلى هناك وشرب نخبها ، رأت إرلند واقفاً إلى

القرب منهما ، خلف ظهر سايمون . نظر إليها ، وارتجفت يد كريستين حين أخذت الكأس من يد سايمون ورفعتها إلى شفتيها . همس إرلند بقوة للرجل الذي كان في صحبته : رجل طويل وسيم متقدم في العمر وبدين إلى حد ما ، الذي راح يهز رأسه نافد الصبر ويبدو كأنما هو غاضب . وسرعان ما قادها سايمون إلى الرقص مجدداً .

لم تعرف كم دامت هذه الرقصة ، إذ بدت الموسيقى وكأنها لن تنتهي أبداً ، وكل لحظة كانت طويلة ومترعة بالشر بسبب توقها وقلقها . وأخيراً انتهت الرقصة وجذبها سايمون نحو مائدة الشراب مجدداً .

اقترب منه أحد الأصدقاء وقاده بعيداً خطوات قليلة إلى مجموعة من الشبان . ووقف إرلند أمامها .

همس لها : «لدي الكثير أود قوله لك ، ولا أعرف ما أقوله أولاً : بحق المسيح يا كريستين ما يمرضك ؟» سألها بسرعة فقد رأى وجهها يشحب حتى صار بلون الكلس .

لم تكن قادرة على رؤيته بوضوح . شعرت وكأن هناك ماء جارياً بين وجهيهما . تناول كأساً من المائدة وشرب منها ثم ناولها إياها . أحست كريستين بأنها ثقيلة جداً عليها ، وكأن ذراعها قد قطعت عند الكتف . ومهما بذلت من جهد لم تكن قادرة على رفع الكأس إلى فمها .

«هل الأمر هكذا إذن ؟ تستطيعين الشرب مع خطيبك ولكن ليس معي ؟ سألها إرلند بصوت لطيف . ولكن كريستين وضعت الكأس من يدها وسقطت بين ذراعيه . حين استيقظت كانت ممددة على مقعد ورأسها في حجر فتاة غريبة... كان شخص ما واقفاً إلى القرب منها ، وهو يضرب على راحتيها ، وكان هناك ماء على وجهها .

جلست . في مكان ما من الحلقة التي تجمعت حولها رأت وجه إرلند ،

شاحباً ونحيلاً . كان جسدها ضعيفاً وكأن كل عظامها قد ذابت ، وبدا رأسها وكأنه كبير وفارغ . ولكن في مكان ما ضمنه كانت فكرة واحدة واضحة ويائسة تشع : عليها أن تكلم إرلند .

قالت لسايمون دار وكان يقف إلى جوارها :

« كان الجو حاراً جداً بالنسبة إليّ... الكثير من الشموع تحترق هنا... وأنا لست معتادة على شرب كل هذا النبيذ... »

سأل سايمون : « هل أنت أحسن الآن ؟ لقد أخفت الناس . ربما تريدينني أن أصطحبك إلى البيت الآن ؟ »

« علينا أن ننتظر أباك وأمك بكل تأكيد » ، قالت كريستين بهدوء . « و لكن اجلس هنا : لم أعد أستطيع الرقص » . لمست الوسادة إلى قربها : ثم مدت يدها الأخرى إلى إرلند :

« اجلس هنا يا إرلند نيكولاوسون . لم تسنح لي الفرصة لأحييك تحية كاملة . لقد قالت إنجبيورغ مؤخراً إنها تعتقد أنك نسيتها تماماً » .

لاحظت أنه كان أصعب عليه أن يحافظ على هدوئه منها... وكل ما استطاعت فعله كان أن تحتفظ بالابتسامة الرقيقة التي تتجمع على شفتيها .

« عليك أن تحملي إلى الفتاة شكري لها لأنها لا تزال تفكر بي » ، فأفأ في كلامه . « لقد ظننت أنها نسيتني » .

توقفت كريستين قليلاً . لم تعرف ما تقوله على أن يحسب كلاماً قادماً من إنجبيورغ الطائشة ومع ذلك يمكنه أن يبلغ إرلند المعنى المطلوب . ثم خطرت لها مرارة كل هذه الشهور من الانتظار اليائس ، فقالت : « عزيزي إرلند ، هل يمكنك أن تفكر في أننا نحن الفتيات نستطيع أن ننسى الرجل الذي دافع عن شرفنا بكل تلك الشهامة... »رأت وجهه يتغير وكأنها قد ضربته... وعلى الفور أحست بالأسف . ثم سأل سايمون عمَّ كانا يتحدثان .

حكت له كريستين عن مغامرة إنجبيورغ ومغامرتها معها في غابات آيكابرغ . وقد لاحظت أن سايمون لم تعجبه الحكاية . ثم رجته أن يذهب ويسأل الليدي أنغيرد إن كان ممكناً لهم المغادرة بسرعة إلى البيت . لقد كانت مرهقة فعلاً . وحين ذهب ، نظرت إلى إرلند .

قال بصوت خفيض : « إنه لأمر غريب أن تكوني سريعة البديهة ... لم أصدق هذا منك إلا بالكاد » .

« ألا تظن أنه عليَّ أن أتعلم أن أخفي مشاعري وأن أكون متحفظة ؟ » قالت بكآبة .

كان تنفس إرلند ثقيلاً . كان لا يزال شديد الشحوب . همس : « هكذا هي الأمور إذن . ومع ذلك وعدتني أن تلجئي إلى أصدقائي إذا حدث مثل هذا الأمر . الله يعلم كم فكرت بك كل يوم ، خشية أن يقع الأسوأ... »

قالت كريستين : « أعرف جيداً ما تعنيه بالأسوأ . ليس عليك أن تخشى ذلك . كان الأسوأ بالنسبة إليَّ أن لا ترسل لي كلمة تحية واحدة...ألا تستطيع أن تفهم أني أعيش هناك بين راهبات... كطائر غريب... ؟ » توقفت عن الكلام فقد أحست أن دموعها كانت قادمة .

سألها : « ألهذا أنت بين جماعة دايفرين الآن ؟ » ثم طغى عليها حزن هائل فلم تجب .

رأت الليدي أنغيرد وسايمون يدخلان عبر الباب . كانت يد إرلند على ركبته ، قربها ، ولم تستطع أن تمسكها .

قال بحرارة : « يجب أن أكلمك . لم نتبادل كلمة واحدة ممّا علينا قوله » .

« تعال إلى القداس في كنيسة ماريا في عيد الغطاس » ، قالت كريستين وهي تنهض لتقابل الآخرين .

أظهرت الليدي أنغيرد منتهى الحب والرعاية لكريستين في طريقهم إلى البيت ، وساعدتها بنفسها على الصعود إلى السرير . ولم تتكلم مع سايمون حتى اليوم التالي . عندها قال :

« كيف حدث أنك تنقلين الرسائل بين إرلند هذا وإنجبيورغ فيليبوسداتر ؟ ليس ملائماً أن تتدخلي في هذه القضية ، إن كانت هناك علاقات خفية بينهما! »

قالت كريستين : « على الأرجح لا شيء في المسألة . إنها مجرد ثرثارة » .

قال سايمون : « أعتقد أيضاً أنه كان عليك أن تعتبري بما مضى ، وألا تثقي بنفسك ضمن الممرات في الغابة الوحشية وحيدة مع طائر العقعق ذاك » . ولكن كريستين ذكّرته وبحرارة ، أن الخطأ لم يكن خطأهما حين تاهتا وضاعتا . فلم يقل سايمون شيئاً بعد ذلك .

في اليوم التالي أعادها جماعة دايفرين إلى الدير ، قبل أن يغادروا هم إلى بيتهم .

•

ظل إرلند يأتي إلى صلاة المساء في كنيسة الدير كل يوم مدة أسبوع دون أن تحظى كريستين بفرصة تبادل كلمة واحدة معه . أحست -كما فكرت- بما يحس به الصقر وهو جالس مقيد بسلسلة إلى مجثمه وغماؤه فوق عينيه . كانت كل كلمة مرت بينهما في آخر لقاء لهما تجعلها غير سعيدة أيضاً… ما كان يجب أن يكون الأمر على هذه الحال . لم يكن هناك من فائدة في أنِ تقول لنفسها : لقد حدث ذلك على نحو مفاجئ جداً حتى أنهما لم يعرفا ما يقولان إلا بالكاد . ولكن في عصر أحد الأيام في الغسق

وصلت إلى البهو امرأة جميلة بدت كزوجة لرجل من المدينة . سألت عن كريستين لافرانسداتر ، وقالت إنها زوجة تاجر أقمشة وأن زوجها وصل من الدانمارك مؤخراً ومعه بعض العباءات الثمينة . إن آسموند بيورغولفسون يفكر في إهداء واحدة إلى بنت أخيه ، ويجب أن تذهب الفتاة معها لتختار عباءة بنفسها .

منحت كريستين الإذن للذهاب مع المرأة . فكرت أنه من غير المحتمل أن يهديها عمها هدية ثمينة ، وأنه من الغريب أن يرسل امرأة غير معروفة لإحضارها . كانت المرأة قليلة الكلام في البداية ، ولم تكن تقول إلا القليل رداً على أسئلة كريستين ، ولكن حين هبطت إلى البلدة ، قالت فجأة :

«لن أخدعك يا طفلتي الجميلة... سأحكي لك عن كنه هذا الأمر ، وعليك التصرف كما تجدين أنه لائق بك . لم يكن عمك من أرسلني إليك ، إنما رجل... ربما تستطيعين أن تخمني من هو ، وإذا كنت لا تستطيعين ، عندها عليك أن تأتي معي . ليس لي زوج... أتعيّش من فتح منزل للزيارات وبيع الجعة ؛ للشخص الذي لا يأبه بأن يكون خائفاً جداً لا من الخطيئة ولا من الحراس... ولكني لن أعيرك بيتي لتُمارس الخيانة عليك داخل منزلي» .

وقفت كريستين ساكنة ، وقد احمر وجهها خجلاً . كانت متألمة وخجلة على نحو غريب لأجل إرلند . قالت المرأة :

«سأعود إلى الدير معك يا كريستين . ولكن عليك أن تعطيني شيئاً ما مقابل تعبي... لقد وعدني الفارس بمكافأة كبيرة . ولكني كنت جميلة ذات مرة ، وأنا أيضاً ، تعرضت للخيانة . ولن يكون أمراً في غير مكانه أن تذكريني في صلاتك هذه الليلة... أدعى «برينهيلد فلوغا» .

خلعت كريستين خاتماً من أصبعها وأعطته للمرأة :

«لقد أبليت حسناً يا برينهيلد ، ولكن إن كان الرجل هو قريبي إرلند

نيكولاوسون ، عندها لن يكون عليّ أن أخاف شيئاً . وهو يريدني أن أصلح ما بينه وبين عمي . يمكنك أن تريحي بالك . ولكني أشكرك على أي حال لأنك حذرتني » .

التفتت برينهيلد فلوغا لتخفي ابتسامة .

قادت كريستين في الحارات خلف كنيسة « القديس كلمنت » شمالاً نحو النهر . وهنا كانت بعض المنازل الصغيرة القليلة تنتصب على امتداد ضفة النهر . ذهبتا باتجاه أحدها ، على طول ممرّ بين الأسيجة ، وهنا جاء إرلند لمقابلتهما . نظر فيما حوله في كل الاتجاهات ، ثم خلع عباءته ولفها حول كريستين ، وجذب القلنسوة فوق وجه كريستين .

سألها بسرعة وبصوت خفيض : « ما رأيك بهذه الحيلة ؟ أتظنينها خطأً كبيراً أرتكبه ؟... ولكن كان عليّ أن أحادثك » .

« لا يهم كثيراً الآن على ما أعتقد التفكير فيما هو صحيح وما هو خطأ » ، قالت كريستين .

قال إرلند برجاء : « لا تتكلمي على هذا النحو . أنا أتحمل اللوم... كريستين ، في كل نهار وكل ليلة كنت أحن إليك » ، همس لها مقترباً .

سرت قشعريرة في جسدها وهي تواجه عينيه لحظة . أحست وكأن هناك إثماً في داخلها حين نظر إليها ، ذلك أنها فكرت في أي شيء عدا حبها له .

كانت برينهيلد فلوغا قد غادرتهما الآن . سأل إرلند حين وصلا إلى الباحة :

« هل تريدين أن ندخل غرفة المعيشة أو هل نتحدث في العلية ؟ »

« كما تريد » ، أجابت كريستين ، وصعدا إلى العلية . وفي اللحظة التي أوصد بها الباب خلفهما ، كانت بين ذراعيه...

•

لم تعرف كم طال بقاؤها بين ذراعيه حين قال إرلند :

«و الآن علينا أن نقول ما علينا قوله ، يا كريستيني... لا أجرؤ إلاّ بالكاد على إبقائك هنا فترة أطول» .

«أجرؤ على البقاء الليل بطوله لو طلبت مني ذلك» ، همست .

ضغط إرلند بوجنتيه على وجنتيها .

«إذن فلن أكون صديقاً لك . الأمر سيئ بما فيه الكفاية كما هو الآن ، ولكنك لن تخسري سمعتك لأجلي» .

لم تجب كريستين ، ولكن تحرك في داخلها ألم ما . كيف يمكنه أن يتكلم هكذا وهو الذي أغراها بالقدوم إلى هنا إلى منزل برينهيلد فلوغا . لم تعرف السبب ، ولكنها شعرت أنه ليس منزلاً شريفاً . وقد حرص هو على أن تجري الأمور كما جرت ، وكانت واثقة من ذلك .

قال إرلند مجدداً : «لقد فكرت أحياناً أنه في حال عدم توفر طريقة أخرى ، فسوف أحملك بالقوة إلى السويد . لقد رحبت بي الليدي إنجبيورغ بكرم في الخريف وقد كانت متنبهة إلى قرابتنا . ولكني أعاني الآن من آثامي ـ فقد هربت من البلد سابقاً كما تعرفين ـ ولا أريد أن يدعوك الناس بأسماء كالتي دعوا بها تلك الأخرى» .

قالت كريستين بصوت خفيض : «خذني معك إلى بيتك في هوسابي . لا أستطيع احتمال الفراق عنك ، وأن أعيش بين العذارى في الدير . لا شك أن أهلك وأهلي سيصغون إلى صوت العقل ، ويدعوننا نعيش معاً ونتصالح معهم...»

ضمّها إرلند إليه ، وأنّ قائلاً :

«لا أستطيع اصطحابك إلى هوسابي يا كريستين» .

«لماذا ؟» سألت بصوت رقيق .

قال بعد لحظة : «وصلت «إلين» إلى هناك في الخريف» . ثم تابع بحرارة : «لا أستطيع إجبارها على مغادرة المكان ، إلاّ إذا وضعتها على المزلجة بالقوة وقدتها بعيداً عن هناك . وهذا ما لا أستطيعه على ما أظن... فقد جلبت معها ولدينا إلى البيت» .

أحست كريستين بنفسها تتهاوى ، تتهاوى . وبصوت حطمه الخوف قالت :

«حسبتك افترقت عنها» .

أجاب إرلند باختصار : «و هذا ما حسبته أنا أيضاً . ولكن لا بد أنها سمعت في أوستردال ، حيث كانت ، أني أفكر بالزواج . هل رأيت ذلك الرجل الذي كان في صحبتي في وليمة عيد الميلاد... كان ذلك هو أبي الذي رباني ، بارد بيترسون أوف هستنايس . لقد مضيت إليه بعد عودتي من السويد . ذهبت إلى قريبي ، همنغ ألفسون في سالتفيكن أيضاً . وقد حادثتهما كليهما عن رغبتي في الزواج ، وطلبت منهما المساعدة . لا بد أن إلين سمعت بذلك...

«عرضت عليها أن تطلب ما تشاء لنفسها وللطفلين ، ولكن سيغورد زوجها ليس من المحتمل أن يبقى حياً حتى نهاية فصل الشتاء... وبعدها لن ينكر علينا أحد أن نعيش معاً...

«أنام في الإسطبل مع هافتور وأولف ، وإلين تنام في القصر في سريري . وأعتقد أن خدمي يضحكون من وراء ظهري على هذه النكتة النادرة» .

لم تستطع كريستين أن تقول كلمة واحدة . وبعد برهة تكلم إرلند مجدداً :

«اسمعي . في اليوم الذي نعلن فيه خطوبتنا ، سيكون عليها أن تفهم أن

كل ما بيننا قد انقضى... لن تكون لها أي سلطة عليّ بعد ذلك...

«ولكن الأمر شاق على الطفلين . لم أشاهدهما منذ عام -هما طفلان جميلان- ولا أستطيع أن أفعل سوى القليل لأهيئ لهما مصيراً سعيداً . وما كان زواجي من أمهما سيساعدهما كثيراً» .

بدأت الدموع تنهمر فوق وجنتي كريستين . ثم قال إرلند :

«هل سمعت ما قلته للتو عن أني تكلمت مع أقربائي ؟ أجل لقد كانوا سعداء جداً . لأني أنوي الزواج . لقد قلت إني سأتزوج منك وليس من أي امرأة أخرى» .

سألت كريستين أخيراً بحزن : «و هم لم يوافقوا ؟»

قال إرلند بكآبة : «لقد قالوا شيئاً واحداً : إنهم لا يستطيعون ولن يذهبوا معي لمقابلة أبيك ، حتى تكون هذه المسألة بينك وبين سايمون أندرسون قد صُفّيت . إن قضاءك فترة عيد الميلاد مع جماعة دايفرين لم يسهّل الأمر علينا» .

انهارت كريستين تماماً وراحت تبكي بصمت . لقد أحست دائماً أن في حبها هذا شيء من الخطأ والعار ، وقد عرفت الآن أن الغلطة كانت غلطتها .

ارتجفت برداً حين نهضت بعد ذلك بفترة قصيرة ، ولفها إرلند بالعباءتين كلتيهما . كان الظلام مخيماً تماماً في الخارج ، ومضى إرلند معها حتى كنيسة القديس كلمنت . ثم رافقتها برينهيلد بقية الطريق إلى دير نونسيتر .



٧

بعد أسبوع وصلت برينهيلد فلوغا حاملة رسالة بأن العباءة أضحت جاهزة ، وذهبت كريستين معها لتقابل إرلند في العلية كما في المرة الماضية . حين افترقا أعطاها عباءة قائلاً : «حتى يكون لديك ما تعرضينه في الدير» . كانت من المخمل الأزرق محبوكة بحرير أحمر ، وجعلها إرلند تلاحظ أن لها الألوان نفسها التي كانت ترتديها في ذلك اليوم في الغابة . وقد تعجبت كريستين لأن كلامه أسعدها إلى ذلك الحد... ظنت أنه لم يسبق لها أن عرفت مثل هذه السعادة حين قال تلك الكلمات .

ولكن لم يعد الآن ممكناً الاستفادة من هذه الطريقة للاجتماع ، ولم يكن سهلاً إيجاد مبرر جديد . ولكن إرلند كان غالباً ما يأتي عند صلاة الغروب إلى كنيسة الدير ، وأحياناً كانت كريستين تجعل نفسها تقوم بمهمة ما بعد الصلاة إلى منازل العامة . وعندها كانا يتبادلان خلسة بضع كلمات عند السياج تحت عتمة المساء الشتوي .

ثم فكرت كريستين بطلب الإذن من الأخت بوتنتيا لزيارة بعض النساء العجائز العاجزات ، المتعيّشات على الحسنات في الدير ، واللواتي كن يقطنّ في كوخ في أحد الحقول . خلف الكوخ كان مبنى ملحق يحتفظن فيه ببقرة

وقد وعدت كريستين بالاعتناء بها لأجلهن . وبينما تكون هناك كان إرلند يلحق بها إلى هناك وتفتح له هي الباب .

وقد تعجبت قليلاً إذ لاحظت أنه رغم أن إرلند كان سعيداً بلقائها ، إلا أنه كان يعتمل في نفسه أنها كانت قادرة على ابتكار مثل هذه الخطة .

قال لها في إحدى الأمسيات : «لم يكن ذاك يوماً جيداً لك حين تعرفت إليّ . فلقد تعلمت الآن اتباع طرق الخداع» .

«ليس عليك أن تلومني» ، قالت كريستين بحزن .

قال إرلند بسرعة وبنظرة خجولة : «لا ألومك» .

تابعت كريستين : «لم أكن أظن نفسي قادرة على الكذب بهذه السهولة . ولكن يستطيع المرء أن يفعل ما يجب عليه فعله» .

«كلا ، ليس الأمر هكذا في كل الأوقات» ، قال إرلند كما سبق . «أتذكرين الشتاء الماضي حين لم تقدري على أن تقولي لخطيبك إنك لن تتخلّي عنه» .

لم تجب كريستين على هذا بشيء ، ولكنها ربتت على وجهه فحسب .

لم تشعر قط بتلك القوة كم كان إرلند عزيزاً عليها ، كما كان حين يقول مثل هذه الأشياء التي تجعلها تحزن أو تتعجب . كانت سعيدة حين كانت تستطيع أن تلوم نفسها على كل ما هو مخجل وخاطئ في حبهما . ولو وجدت الشجاعة لتكلم سايمون كما كان عليها أن تفعل ، لكانا قد قطعا الآن شوطاً طويلاً من الطريق الذي سيضع كل شيء في مكانه الصحيح . لقد فعل إرلند كل ما استطاع أن يفعله حين تكلم عن زواجهما إلى أقربائه . لقد قالت هذا لنفسها حين أصبحت الأيام في الدير تمر بطيئة وسيئة : كان إرلند قد رغب في جعل الأمور كلها صحيحة وصالحة مجدداً . وبابتسامات رقيقة صغيرة فكرت به وهو يرسم لها صورة لزفافهما : ستركب إلى الكنيسة في

ملابس من الحرير والمخمل ، وستؤخذ إلى فراش الزفاف والتاج الذهبي العالي على شعرها المسدل : شعرك الجميل الجميل ، كما قال ، وهو يداعب ضفائرها بيده .

« ولكن لا يمكن للأمر أن يكون هو نفسه بالنسبة إليك كما لو أني لم أكن ملكك من قبل » ، قالت كريستين مفكرة ، وذلك وهو يتحدث على هذا النحو .

ثم ضمها إليه بجنون :

« هل أستطيع تذكر المرة الأولى التي شربت فيها في موسم عيد الميلاد ، أو المرة الأولى التي رأيت فيها الجبال في البيت تتحول إلى اللون الأخضر بعد رحيل الشتاء ؟ أجل ، حسناً أتذكر تماماً المرة الأولى التي كنتِ فيها ملكاً لي ، وكل مرة منذ ذلك الحين... ولكن أن تكوني ملكاً خاصاً بي هو أشبه بأن أبقي عيد الميلاد وصيد الطيور على الجبال الخضراء إلى الأبد... »

استكانت إليه بسعادة . ليس ذلك أنها فكرت أبداً وللحظة واحدة أن الأمور ستنتهي كما كان إرلند واثقاً إلى أبعد الحدود أنها ستنتهي... فأحست كريستين أنه قبل مرور وقت طويل فإن يوم الدينونة لا بدّ أن يغشاهما . لا يمكن أن تنتهي الأمور إلى حسن الختام بينهما... ولكنها لم تكن خائفة إلى ذلك الحد : كانت تخشى أكثر بكثير بأن إرلند قد يذهب شمالاً قبل أن يبرز ذلك كله إلى النور وأن تُترك هي وراءه بعيدة عنه . كان في القلعة في أكرسنس الآن . لقد عُيّن مونان باردسون هناك خلال وجود الحرس الشخصي في تونسبرغ ، حيث كان الملك ملازماً فراش المرض الخطير . ولكن كان على إرلند أحياناً أن يذهب إلى بيته ليرعى أملاكه . وكونها كانت تخشى من ذهابه إلى هوسابي لأن إلين كانت قابعة هناك تنتظره ، فهي مسألة ما كانت لتعترف بها حتى لنفسها . ولا كانت ستعترف أنها كانت

أقل خشية من ارتكاب الإثم مع إرلند ، من وقوفها وحدها لتقول لسايمون وأبيها ما كان في قلبها .

كانت ستتمنى تقريباً أن ينزل بها العقاب ، وأن يحدث ذلك بسرعة . والآن لم تكن تفكر سوى بإرلند . كانت تتوق إليه في النهار وتحلم به في الليل . لم تستطع أن تشعر بالندم ، ولكنها كانت تجد السلوان في التفكير بأن ذلك اليوم سيأتي حين يكون عليها فيه أن تدفع غالياً ثمن كل ما اختطفاه خلسة . وفي ساعات المساء القصيرة كانت تستطيع التواجد مع إرلند في حظيرة البقر الخاصة بالنساء المتعيشات على الحسنات ، فكانت ترمي بنفسها بين ذراعيه بكل ما تستطيع من عاطفة وكأنها كانت تعرف أنها قد دفعت من روحها على نحو مسبق حتى تكون ملكاً له .

•

ولكن الوقت مضى ، وقد بدا وكأن إرلند قد ينال الحظ الجيد الذي كان قد اعتمد عليه . لم تلاحظ كريستين مطلقاً أن أي شخص في الدير كان لا يثق بها . لقد اكتشفت إنجبيورغ بالفعل أنها كانت تقابل إرلند ، ولكن كريستين لاحظت أن الأخرى لم تكن تحلم بأن ذلك كان أكثر من عبث عابر . لم يكن ليخطر في ذهن إنجبيورغ ، كما لاحظت كريستين ، أنه من الممكن لفتاة من أصل كريم ، ومخطوبة ، أن تتجرأ على فك عرى الخطوبة التي تمت . ومن جديد فإن نوبة رعب قد انتابتها : ربما يكون ذلك أمراً لم يسبق له مثيل ذاك الذي تقوم به . وعند هذه الفكرة كانت تتمنى مجدداً أن يحلّ هذا الاكتشاف وينتهي كل ذلك .

حلّ عيد الفصح . لم تعرف كريستين كيف مرّ الشتاء . كان كل يوم لا ترى فيه إرلند يمر طويلاً كسنة شريرة ، وكانت الأيام الطويلة الشريرة قد

ربطت نفسها معاً متحولة إلى أسابيع لا نهاية لها . ولكن حلّ الربيع الآن وجاء عيد الفصح ، فأحست أنه لم يكن هناك زمن منذ وليمة عيد الميلاد . رجت إرلند ألاّ يأتي إليها حتى يمر «الأسبوع المقدس» كله . وقد سلّم لها بذلك ، كما كان يفعل تجاه كل أمنياتها ، كما فكرت كريستين . كان الذنب ذنبها بقدر ما كان ذنبه فيما يخص أنهما ارتكبا الإثم معاً في عدم الالتزام بالصوم الكبير . ولكنها كانت مصممة على احترام عيد الفصح . ولكن مع ذلك كان عدم رؤيته هو البؤس بالنسبة لها . ربما سيكون عليه الرحيل قريباً . لم يكن هو قد ذكر الرحيل قط ، ولكنها كانت تعرف أن الملك كان يحتضر الآن ، وربما يتسبب هذا في حدوث تغيير في مصير إرلند ، كما فكرت .

•

هكذا جرت الأمور معها ، حين حدث في أول يوم بعد عيد الفصح أن جاءها أمر بالذهاب إلى البهو لترى خطيبها .

وما إن تقدم منها ومد يديه ، حتى أحست بأن هناك ما هو على غير ما يرام : كان وجهه مختلفاً عن المألوف ، ولم تكن عيناه الصغيرتان الرماديتان تضحكان ، ولم تبتسما حتى حين ابتسم هو . ولم تستطع كريستين إلا أن ترى أنه كان يلائمه جيداً أن يكون أقل مرحاً . لقد بدا في صحة جيدة أيضاً مرتدياً ملابس السفر : زياً خارجياً طويلاً أزرق اللون ضيقاً يسمى «كوتهاردي» ، وعباءة كتف بنية مع قلنسوة ، كانت مرمية إلى الخلف الآن . وقد جعل الهواء البارد شعره البني الطويل أكثر تجعيداً .

جلسا وتحادثا بعض الوقت . كان سايمون في فورمو خلال الصوم الكبير ، وكان يذهب إلى يوروندغارد في كل يوم تقريباً . الجميع هناك

بخير . كانت أولفهيلد في حالة حسنة بقدر ما كانوا يأملون لها . وكانت رامبورغ في البيت الآن ، وهي جميلة وحيوية .

قال سايمون : «سينقضي ذلك العام في أحد هذه الأيام... العام الذي عليك قضاؤه هنا في نونسيتر . ومع انقضائه فإنهم هناك في بيتكم سيبدؤون بالتحضير للاحتفال بزواجنا أنت وأنا» .

لم تقل كريستين شيئا ، فتابع سايمون : «لقد قلت للافرانس إني سأحضر إلى أوسلو وأتحدث إليك عن هذا الموضوع» .

نظرت كريستين أرضاً وقالت بصوت خفيض :

«و أنا أيضاً أود أن أكلمك عن هذه القضية يا سايمون... على انفراد» .

أجاب سايمون : «لقد لاحظت بنفسي جيداً أن علينا أن نتكلم على انفراد ، وكنت سأطلب منك الآن أن تطلبي من الليدي غروا الإذن لنخرج معاً إلى الحديقة فترة قصيرة» .

نهضت كريستين بسرعة وانزلقت خارجة من الغرفة دون صوت . وسرعان ما عادت ترافقها إحدى الراهبات تحمل مفتاحاً .

كان هناك باب يؤدي من البهو إلى حديقة الأعشاب يقع إلى أبعد نقطة غربية من أبنية الدير . فتحت الراهبة قفل الباب وخرجا إلى ضباب كثيف جداً حتى أنهما ما كانا قادرين سوى على رؤية بضع خطوات بين الأشجار . كانت أقرب الجذوع سوداء كالفحم ، وكانت الرطوبة تقف كحبات الخرز على كل غصين وغصن . كان القليل من الثلج الجديد يذوب على التراب الرطب ، ولكن تحت الشجيرات كانت بعض نباتات السوسن البيضاء والصفراء قد أخذت تزهر بالفعل ، وكانت رائحة نضرة باردة تفغ من أوراق البنفسج .

قادها سايمون إلى أقرب مقعد . جلس وقد انحنى قليلاً إلى الأمام ،

ومرفقاه مسندان على ركبتيه . ثم رفع بصره إليها بابتسامة صغيرة غريبة ، وقال :

«أعتقد أني أعرف تقريباً ما ستقولينه لي . هناك رجل آخر أعز عليك مني...»

أجابت كريستين بصوت واهن : «الأمر هكذا» .

قال سايمون بلهجة أقسى : «و أعتقد أني أعرف اسمه أيضاً . إنه إرلند نيكولاوسون أوف هوسابي» .

بعد برهة سألت كريستين بصوت خفيض :

«لقد سمعت بالأمر إذن ؟»

كان سايمون بطيئاً في الإجابة :

«ليس عليك أن تحسبيني غبياً إلى درجة لا أستطيع معها أن أرى ما حدث حين كنا معاً في احتفال عيد الميلاد ؟ لم أستطع قول أي شيء عندئذ ، فقد كان أبي وأمي معنا . ولكن هذا ما جعلني أحضر وحدي هذه المرة . لا أعرف إن كان تصرفاً حكيماً من قبلي أن أذكر الموضوع... ولكني فكرت في أن علينا أن نتحدث عن هذه الأمور قبل أن نصبح زوجين .

«... ولكن ما حدث الآن هو أني حين جئت إلى هنا البارحة... قابلت قريبي السيد أويستاين . وقد ذكرك أمامي . قال إنكما مررتما كلاكما عبر ساحة كنيسة القديس كلمنت في إحدى الأمسيات ، وكان معك امرأة تدعى برينهيلد فلوغا . وقد أقسمت له أنه كان مخطئاً لا بدّ! ولو قلت لي إن هذا غير صحيح لصدقتك» .

أجابت كريستين بتحد : «لقد كان ما شاهده الكاهن صحيحاً . لقد أقسمتَ قسماً كاذباً يا سايمون» .

جلس ساكناً لحظة قبل أن يسألها :

«أتعرفين من هي برينهيلد فلوغا هذه يا كريستين ؟»وحين هزت رأسها ، قال : «لقد وضعها مونان باردسون في منزل هنا في البلدة ، حين تزوج... إنها تمارس تجارة غير قانونية بالخمر... وبأمور أخرى... »

سألته كريستين بسخرية : «أتعرفها ؟ »

قال سايمون وقد احمر وجهه : «لم أنذر نفسي لأكون راهباً أو كاهناً ، ولكن أستطيع القول في الأقل إني لم أرتكب خطأ في حق أي عذراء أو زوجة لرجل . ألا ترين أن تلك فعلة ما كان يليق برجل شريف أن يرتكبها ، أي أن يخرجك لتسيري ليلاً مع امرأة كتلك... ؟ »

قالت كريستين وقد احمر وجهها غضباً : «لم يغوني إرلند ، ولا وعدني بشيء . لقد وهبته قلبي دون أن يفعل أي شيء من طرفه ليغريني... من أول مرة رأيته فيها أصبح أعز عليّ من كل الرجال الآخرين» .

جلس سايمون يلعب بخنجره ، ويرمي به من يد إلى أخرى .

قال : «هذه كلمات غريبة أسمعها من فتاة مخطوبة . هناك الكثير من الآمال أمامنا يا كريستين» .

«لن تكون محظوظاً بالزواج مني الآن يا سايمون» .

قال سايمون أندرسون : «أجل ، يعرف الرب كليّ القدرة أن الأمر يبدو هكذا بالفعل» .

قالت كريستين بتواضع وخجل : «إذن أنا أتجرأ على الأمل بأنك ستدعمني حتى ينهي السير أندرسون وأبي هذا الاتفاق المبرم فيما يخصنا» .

قال سايمون : «هل تأملين ذلك حقاً ؟» صمت لحظة . «الرب يعرف إن كنت تفهمين حقاً ما تقولينه» .

قالت كريستين : «بل أفهمه . أعرف أن القانون لا يجبر فتاة على الزواج رغم إرادتها . هذا إذا قدمت طلبها إلى «المجلس»... »

«أعتقد أنه يجب أن يقدم إلى الأسقف» ، قال سايمون بشيء كابتسامة كالحة . «صحيح أنه لا داعي لديّ أن أبحث عن النص القانوني المتعلق بمثل هذه الأمور . أعرف جيداً أنك لا تعتقدين أن ذلك سيؤدي إلى الحصول على الأذن . تعرفين جيداً أيضاً أني لن أجعلك تتمسكين بوعدك لو كان قلبك مصمماً على عدم الالتزام به . ولكن ألا تستطيعين أن تفهمي أن سنتين قد مضتا على الاتفاق على زواجنا ، وأنت لم تتلفظي بكلمة واحدة عن ذلك حتى الآن ، بينما كل شيء جاهز الآن للخطبة والزواج . هل فكرت ماذا سيعني ذلك لو حضرت الآن وطلبت فسخ الاتفاق يا كريستين ؟ »

قالت كريستين : «و لكنك لا تريدني أيضاً » .

«أجل ، أريدك» ، أجاب سايمون باقتضاب . «إذا كنت تعتقدين بالعكس ، فعليك أن تفكري بالأمر على نحو أفضل...»

«لقد أقسمنا إرلند نيكولاوسون وأنا بإيماننا المسيحي أنه إن لم نستطع أن نجتمع تحت سقف الزواج ، عندها لن يتزوج أي منا طوال حياته...» ، قالت كريستين مرتجفة .

صمت سايمون فترة . ثم قال بجهد :

«إذن لا أعرف يا كريستين ما الذي عنيته حين قلت إن إرلند لم يغوك ولم يعدك بشيء... لقد أغراك بأن تعاندي رأي أهلك كافة . هل فكرت أي نوع من الأزواج ستنالين لو تزوجت رجلاً اتخذ زوجة رجل آخر عشيقة له... والآن يود أن يتزوج خطيبة رجل آخر... ؟ »

«أنت لا تقول هذا إلاّ لتجرحني» .

«أتعتقدين أني أريد أن أجرحك ؟ » سأل سايمون بصوت خفيض .

قالت كريستين متلعثمة : «ليس الأمر هنا كما لو أنك... فأنت لم تُسأل

عن رأيك أيضاً يا سايمون... كان أبوك وأبي هما من عقدا الاتفاق . كان الأمر قد اختلف لو اخترتني بنفسك... »

غرز سايمون خنجره في المقعد وتركه هناك منتصباً . بعد قليل سحبه مجدداً وحاول أن يعيده إلى غمده ، ولكن ذلك لم يكن ممكناً لأن رأسه انثنى . ثم جلس وراح يمرّره من يد إلى أخرى كما فعل سابقاً .

قال بلهجة خفيضة وصوت مرتجف : « أنت تعرفين بنفسك أنك تكذبين ، إن كنت تصرين على أني لا أريدك... تعرفين جيداً ما كنت سأتحدث عنه معك -في كثير من المرات- حين قابلتني ، لذلك لا أكون رجلاً لو كنت قادراً على قول ذلك -على أي حال- ليس لو حاولوا أن يسحبوه مني بكماشة حمراء متوهجة...

« أولاً ظننت أنه ذلك الشاب المتوفى . ظننت أن عليّ أن أتركك في سلام فترة -فأنت لم تعرفيني- وقد اعتبرت أنه سيكون من الخطأ أن أزعجك بعد ذلك مباشرة . والآن أرى أنك لم تكوني في حاجة إلى كل ذلك الوقت لتنسي... الآن... الآن... الآن... »

قالت كريستين بهدوء : « لا . أعرف ذلك يا سايمون . لا أستطيع أن أعتبرك صديقاً بعد الآن » .

« صديق......! » ضحك سايمون ضحكة غريبة قصيرة . « هل أنت في حاجة إلى الصداقة الآن إذن ؟ »

احمر وجهها .

قالت بلطف : « أنت رجل ، وأنت في سن ناضجة بما يكفي الآن... تستطيع أن تختار بنفسك المرأة التي ستتزوجها » .

نظر إليها سايمون بحدة . ثم ضحك كما من قبل .

« أفهم ذلك . ستقولين لي إني أنا الذي... أي أنا من سيتحمل اللوم عن

حل الاتفاق ؟إن كنت مصممة على ذلك -إن كانت لديك الإرادة والجرأة على محاولة تنفيذ هدفك- عندها سأفعل ذلك» ، قال هو بصوت خفيض . «في البيت مع كل أفراد أسرتي ، وأمام كل أقربائك... باستثناء واحد . عليك أنت أن تقولي لوالدك الحقيقة ، كاملة كما هي . إن رضيت بذلك فسأحمل رسالتك إليه ، وأوفّر عليك بذلك المشقة إلى الحد الذي أستطيعه ... ولكن لافرانس بيورغولفسون سيعرف أنني لن أتراجع أبداً بإرادتي عن عهد قطعته له» .

أمسكت كريستين بحافة المقعد بكلتي يديها . كان تحمل هذا أقسى عليها من كل شيء آخر قاله سايمون دار . اختلست نظرة منه وهي شاحبة وخائفة .

نهض سايمون .

قال : «الآن علينا الدخول . أعتقد أننا على وشك التجمد كلانا ، والأخت جالسة هناك تنتظر مع المفتاح . سأعطيك أسبوعاً لتفكري في المسألة... لدي عمل في البلدة هنا . سأعود وأكلمك حين أكون مستعداً للذهاب ، ولكنك لن تريني أبداً في هذه الأثناء» .

٨

قالت كريستين لنفسها : الآن في الأقل انقضى الأمر . ولكنها أحست أنها محطمة من الإنهاك وتواقة إلى ذراعي إرلند .

بقيت ساهرة معظم الليل ، وقررت أن تفعل ما لم تجرؤ على التفكير فيه من قبل : سترسل رسالة إلى إرلند . لم يكن أمراً سهلاً أن تجد شخصاً ينفذ مثل هذه المهمة لأجلها . لم تكن الأخوات الخادمات يخرجن وحدهن قط ، كما لم تكن تعرف أن أياً منهن قد تكون راغبة في الذهاب . كان الرجال الذين يقومون بأعمال المزرعة شيوخاً ولكنهم نادراً ما كانوا يقتربون من سكن الراهبات ، باستثناء القدوم للتحدث مع الأم الرئيسة نفسها . كان هناك أولاف فحسب . كان شاباً يافعاً يعمل في الحدائق . وكان ابناً بالتبني لليدي غروا منذ أن وجد كطفل حديث الولادة على درج الكنيسة في صباح أحد الأيام . قال الناس إن واحدة من الأخوات/ الخادمات هي أمه . وكانت ستصبح راهبة . ولكن بعد أن وضعت في الزنزانة المعتمة لمدة ستة أشهر -بسبب عصيانها الخطير ، كما قيل -و كان ذلك حوالي الوقت الذي وجد فيه الطفل- فقد ألبست ملابس الأخوات/ الخادمات وراحت تعمل في المزرعة منذ ذلك الحين . غالباً ما فكرت كريستين بمصير الأخت إنغريد

خلال هذه الشهور ، ولكن لم تتح لها إلا فرص قليلة للتحدث إليها . كانت الثقة بأولاف أمراً مترعاً بالمخاطرة ، فقد كان طفلاً بعد ، وكان من عادة الليدي غروا والراهبات أن يثرثرن ويمزحن معه حين يرينه . ولكن كريستين اعتبرت أن أي مخاطر تخاطر بها الآن لن تهمها كثيراً . وبعد يوم أو يومين ، حين كان أولاف في صباح أحد الأيام ذاهباً إلى البلدة ، أرسلت كريستين رسالة معه إلى أكرسنس ، بأن على إرلند أن يجد وسيلة يستطيعان بها الاجتماع وحدهما .

في عصر ذلك اليوم نفسه جاء خادم إرلند ، أولف ، إلى الحاجز المشبك . قال إنه خادم آسموند بيورغولفسون وأنه يريد أن يرجو نيابة عن سيده ، أن تنزل ابنة أخ آسموند إلى البلدة لوقت قصير ، فليس لدى آسموند الوقت الكافي للوصول إلى نونسيتر . ظنت كريستين أن هذه الخطة ستفشل حتماً ، ولكن حين سألتها الأخت بوتنتيا إن كانت تعرف حامل الرسالة ، قالت : «أجل» . وهكذا مضت مع أولف إلى منزل برينهيلد فلوغا . كان إرلند ينتظرها في العلية : كان قلقاً ومضطرب البال ، وعرفت على الفور أنه كان يخشى ممّا بدا أنه يخافه أكثر من أي شيء آخر .

غالباً ما كان يؤلم روحها أن عليها أن تشعر بمثل هذا الخوف المسكون بالأرواح بأنها قد تكون حاملاً... مع أنهما لا يستطيعان الافتراق . وقد قالت له ذلك بكل مرارة إذ كانت منهكة وقلقة هذا المساء إلى أقصى حد . احمر وجه إرلند ووضع رأسه على كتفها .

قال : «أنت على حق . عليّ أن أحاول أن أتركك بحالك يا كريستين... ولن أعرض سعادتك للخطر . إذا...»

رمت بذراعيها من حوله وضحكت ، ولكنه أمسك بها من خصرها

وأجبرها على الجلوس على مقعد ،فجلست على الجانب الأبعد من اللوح . وحين مدت يدها نحوه ، غطى راحتها بقبل عنيفة .

قال متقداً بالعاطفة : «لقد حاولت أكثر منك . أنت لا تعرفين كم أعتقد أن زواجنا بشرف مهم لكلينا» .

قالت كريستين : «إذن كان عليك ألا تتملكني» .

خبأ إرلند وجهه بيديه .

قال : «أجل ، أتمنى من الرب لو لم أرتكب ذلك الخطأ معك» .

قالت كريستين وهي تضحك بجرأة : «لا أنت ولا أنا نرغب في ذلك . وإن أمكن الغفران لي والمصالحة أخيراً مع أهلي ومع الرب ، عندها لن أشعر كثيراً بالأسف رغم أن عليّ أن أرتدي قلنسوة المرأة حين أتزوج . أجل ، وغالباً يبدو لي أني أستطيع الاستغناء حتى عن السلام ، إن كنت معك فحسب» .

«ستجلبين الشرف معك إلى منزلي مرة أخرى» ، قال إرلند . «لا أن أجرّك أنا إلى حضيض العار» .

هزت كريستين رأسها ثم قالت :

«ستكون سعيداً على ما يبدو حين تسمع أني تكلمت مع سايمون أندرسون ، ولن يجبرني على الالتزام بالاتفاق الذي عقده نيابة عنا أبوانا قبل أن أقابلك» .

و فوراً جن جنون إرلند من الفرح ، وطلب من كريستين أن تحكي له كل شيء . ولكنها لم تحك له عن الكلمات المليئة بالاحتقار التي تلفظ بها سايمون عن إرلند ، رغم أنها قالت إنه لن يتحمل المسؤولية عن ذلك أمام لافرانس .

قال إرلند بعد ذلك بوقت قصير : «هذا منطقي ، فهما يحبان أحدهما

الآخر أبوك وهو ، أليس كذلك ؟ أجل سيحبني أقل كما أعتقد... لافرانس » .

فهمت كريستين هذه الكلمات على أنها إشارة إلى أن إرلند شعر معها أنه لا يزال أمامها طريق شائك تقطعه قبل أن يصلا إلى نهاية رحلتهما . وكانت شاكرة له لأجل ذلك . ولكنه لم يعد إلى هذا الموضوع . كان سعيداً إلى حد لا يوصف ، وقال إنه كان يخشى ألا تتحلى بالشجاعة على مخاطبة سايمون .

قال : « أنت تحبينه نوعاً ما ، كما أستطيع أن ألاحظ » .

سألت كريستين : « هل يعني لك شيئاً... بعد كل الذي جرى بينك وبيني ، أني أستطيع أرى أن سايمون رجل شريف وشجاع ؟ »

قال إرلند : « لو لم تقابليني ، لكنت قد قضيت معه على الأرجح أياماً سعيدة يا كريستين . لم تضحكين ؟ »

« أوه ، لقد تذكرت فحسب ما قالته الليدي آشيلد مرة » ، أجابت كريستين . « كنت طفلة فحسب ، وكان ذلك شيئاً ذكرته حول أيام طيبة تأتي للأشخاص الحكماء ، ولكن أفضل الأيام إطلاقاً هي لأولئك الذين يتجرؤون على أن يكونوا دون حكمة .

« فليبارك الله قريبتي لو علّمتك هذا » ، قال إرلند ثم وضعها على ركبته . « من الغريب يا كريستين أني لم ألاحظ بتاتاً أنك كنت خائفة » .

سألته وهي تلوذ به : « ألم تلاحظ ذلك إطلاقاً ؟ »

أجلسها على حافة السرير وخلع عنها حذاءها ، ولكنه أعادها مجدداً إلى الطاولة .

« أوه يا كريستين... أخيراً يبدو وكأن أياماً مضيئة قد تمر علينا كلينا . أعتقد أني ما كنت سأعاملك كما فعلت »ـ قال وهو يربت ويربت على شعرها- « لو لم يحدث في كل مرة أراك فيها أني أفكر في أنه ليس هناك من

سبب يدعو أهلك إلى منحي مثل هذه الزوجة الجميلة الرائعة... اجلسي هنا واشربي نخبي» ، هكذا رجاها .

بعد لحظة كانت هناك طرقة على الباب... بدت كضربة من مقبض سيف .

«افتح الباب يا إرلند نيكولاوسون إن كنت في الداخل!»

«إنه سايمون دار» ، قالت كريستين بصوت خفيض .

«افتح أيها الرجل باسم الشيطان... إن كنت رجلاً!» صرخ سايمون وهو يضرب على الباب مجدداً .

ذهب إرلند إلى السرير وتناول سيفه من المشجب الذي على الجدار . نظر فيما حوله ، وهو لا يدري ما يفعل : «لا مكان هنا تختبئين فيه...»

قالت كريستين : «لن تكون الأمور أفضل لو اختبأت» . كانت قد نهضت على قدميها . تحدثت بهدوء شديد ، ولكن إرلند لاحظ أنها كانت ترتجف : «عليك أن تفتح» ، قالت باللهجة نفسها . راح سايمون يضرب على الباب بقوة مجدداً .

ذهب إرلند ورفع المزلاج . دخل سايمون . كان يحمل سيفاً مجرداً في يده ، ولكنه أعاده إلى غمده فوراً .

لبرهة من الزمن وقف الثلاثة صامتين . كانت كريستين ترتجف . ولكنها في هذه اللحظة الأولى ، شعرت باستثارة غريبة عذبة -من أعماقها ظهر شيء وهي تشم رائحة المعركة بين رجلين- سحبت نفساً عميقاً . كانت هذه نهاية للأشهر التي لا تنتهي من الانتظار الأبكم والتوق والخوف . دارت بنظرها من هذا الرجل إلى الآخر ، كانا شاحبين وعيونهما لامعة ، ثم تحول التوتر الذي في داخلها إلى يأس بارد لا غور له . كان هناك الاحتقار البارد أكثر من الغضب أو الغيرة في عيني سايمون دار ، ورأت أن إرلند ، خلف

وقفته المتحدية ، كان يحترق من الخجل . وقد خطر لها ، كيف يفكر الرجال الآخرون فيه ، هو الذي سمح لها أن تأتي إليه في مثل هذا المكان ، ورأت أن الأمر بدا وكأنه كان عليه أن يعاني ضربة في الوجه . عرفت أنه كان يتحرق إلى استلال سيفه والانقضاض على سايمون .

صرخت صرخة عالية في خوف : «لم أتيت إلى هنا يا سايمون ؟ »

التفت كلا الرجلين إليها .

قال سايمون : «لأعود بك إلى البيت . لا يمكنك أن تبقي في هذا المكان... »

قال إرلند بشراسة : «لم يعد يحق لك أن تلقي بالأوامر على كريستين لافرانسداتر . إنها تخصني الآن... »

قال سايمون بوحشية : «لا أشك في ذلك ، ويا له من سرير عرس جميل جلبتها إليه... » توقف قليلاً وهو يلهث ، ثم سيطر على صوته وتكلم بهدوء : «و لكن الأمر وما فيه أني لا أزال خطيبها... حتى يستطيع أبوها أن يأتي من أجلها . وخلال ذلك أعني أن عليّ أن أحمي بحد سيفي ورأسه ما يمكن حمايته من شرفها... في عيون الآخرين... »

«و ما حاجتك إلى حمايتها . أنا أستطيع... » وهنا احمر وجه إرلند كما الدم تحت عيني سايمون . ثم صرخ غاضباً : «أتعتقد أني سأتحمل تهديدات من غلام مثلك» ، هكذا صرخ وهو يضع يده على مقبض سيفه .

صفّق سايمون بكلتي يديه خلفه .

«لست جباناً حتى أخشى أن تعتبرني خائفاً » ، قال كما في السابق . «سأبارزك يا إرلند نيكولاوسون ، ويمكنك أن تراهن بروحك على ذلك ، إذا لم تقم خلال الوقت الملائم بالتقدم لخطبة يد كريستين من أبيها... »

قال إرلند بغضب وقد اندفع الدم إلى وجهه مجدداً : «لن أفعل ذلك أبداً بناء على أوامرك» .

أجاب سايمون دون تأثر : «كلا ، فلتفعل ذلك لتصحح الخطأ الذي ارتكبته في حق فتاة شابة . سيكون الأمر أفضل على هذا النحو لكريستين» .

صرخت كريستين عالياً ، متألمة لألم إرلند . ضربت الأرض بقدمها :

«هيا اذهب يا سايمون ، اذهب... ما علاقتك بنا ؟»

قال سايمون : «لقد قلت لك للتو ، عليك أن تتحمليني حتى يحررك أبوك ويحررني» .

انهارت كريستين تماماً .

«هيا امض ، امض ، وسألحق بك مباشرة... يا للمسيح! لماذا تعذبني هكذا يا سايمون ؟... أنت تعرف أنك لا تعتبرني جديرة بأن تزعج نفسك لأجلي...»

أجاب سايمون : «لا أفعل هذا لأجلك... يا إرلند ، ألن تقول لها أن تذهب معي ؟»

ارتعش وجه إرلند . لمسها على كتفها :

«عليك الذهاب يا كريستين . سأتحدث أنا وسايمون دار عن هذا في وقت آخر...»

نهضت كريستين مطيعة ، وربطت عباءتها من حولها . كان حذاؤها قرب السرير... تذكرته ، ولكن لم تستطع أن ترتديه تحت نظر سايمون .

•

في الخارج كان الضباب قد حلّ مجدداً . اندفعت كريستين برأس مطأطئ ويدين منقبضتين في طيات عباءتها . كان حلقها يتفجر بالدموع...

لقد تاقت بجنون إلى مكان تستطيع أن تكون فيه وحدها لتبكي وتبكي . كان الأسوأ والأسوأ ما زال بانتظارها . ولكنها اكتشفت شيئاً جديداً هذا المساء وقد راحت تتلوى ألماً بسببه... لقد اكتشفت كيف يكون الإحساس بمشاهدة الرجل الذي منحته نفسها وهو يُذلّ .

كان سايمون عند مرفقها وهي تسرع عبر الحارات ، فوق الأراضي العمومية والأماكن المفتوحة ، حيث اختفت المنازل ولم يكن هناك من شيء يرى عدا الضباب . ومرة ، حين تعثرت بشيء ما ، فقد أمسك بذراعها ومنعها من السقوط .

« لا داعي للركض بهذه السرعة . الناس تحدق إلينا... لكم ترتجفين! » قال ذلك على نحو ألطف .

صمتت كريستين وتابعت المشي .

انزلقت في أوحال الشارع ، فقد كانت قدماها رطبتين من البرد المجلد... كان الجورب الطويل الذي ترتديه من الجلد ، ولكنه رقيق . أحست به يتمزق وبالوحل يتغلغل إلى قدميها العاريتين .

وصلا إلى الجسر فوق نهر الدير ، ومضيا على نحو أبطأ صاعدين المنحدرات على الجانب الآخر . قال سايمون فجأة : « يا كريستين لا يجب أن يعلم أبوك أبداً بهذا » .

سألته كريستين : « و كيف عرفت أني كنت... هناك ؟ »

أجاب بعد برهة قصيرة : « جئت لأكلمك . فقيل لي إنه جاء شخص من طرف عمك . بينما أعرف أن آسموند كان في هادلاند . لستما شديدي المكر في اختراع الحكايات... هل سمعت ما قلته الآن ؟ »

قالت كريستين : « أجل . أنا من أرسلت رسالة إلى إرلند بأن علينا أن نلتقي في منزل فلوغا . أنا أعرف المرأة... »

«عيب عليك! ولكن ما كان يمكنك أن تعرفي من هي... وهو... هل تسمعينني» ، قال سايمون بقسوة . «إن كان ممكناً إخفاء هذا ، فعليك أن تخفي عن لافرانس ما تخليت عنه . وإذا لم تستطيعي إخفاء ذلك ، إذن فعليك أن تبذلي جهدك لتوفري عليه أسوأ درجات العار» .

قالت كريستين وهي ترتجف : «أنت شديد الحرص على أبي» . حاولت أن تتكلم بتحدٍ ، ولكن صوتها كان جاهزاً للانخراط في البكاء .

سار سايمون إلى الأمام قليلاً . ثم توقف... لمحت وجهه ، وهما واقفان هناك وحدهما معاً في وسط الضباب . لم تكن قد رأته على هذا النحو قط .

قال : «لقد رأيت ذلك جيداً ، في كل مرة كنت فيها في بيتكم ، يا له من فهم قاصر فهمكن هذا للافرانس أنتن نساءه . إنه لا يعرف كيف يسيطر عليكن ، كما يقول تروند غييسلينغ ـ و كأنما كان عليه أن يزعج نفسه بمثل هذا العمل ـ هو الذي ولد ليسيطر على الرجال . لقد صنع كقائد ، أي ، كرجل كان من شأن الرجال أن يتبعوه بكل سرور . ليس هذا زمن الرجال من أمثاله : لقد عرفه أبي في باغهاوس... ولكن ، وكما هي عليه الحال الآن ، فقد عاش حياته هناك في «ديل» ، وكأنه ليس سوى مزارع... لقد تزوج صغيراً... وأمك ذات المزاج الكئيب لم تكن المرأة التي تجعل حياته سعيدة . لديه الكثير من الأصدقاء... ولكن أتظنين أن هناك رجلاً واحداً صديقاً حقيقياً له ؟ لقد سُرق أبناؤه منه... ولكن أنتن بناته اللواتي كان يجب أن يؤسسن نسله من بعده... أنتن اللواتي عليه أن يعيش حتى الآن ليرى هذا اليوم الذي ترك واحدة منكن دون صحة والأخرى دون شرف...»

ضغطت كريستين يديها بشدة فوق قلبها : أحست أن عليها أن تبقيه في مكانه حتى تستطيع أن تكون قوية بالقدر المطلوب .

همست بعد فترة : «لم تقول هذا ؟ لا يمكن أن تكون الرغبة لا تزال لديك بالزواج مني...»

قال سايمون دون ثبات : «لا رغبة لدي . فليساعدني الرب يا كريستين... أفكر فيك وأنت في ذلك المساء في العلية في فينسبريكن... ولكن فليأخذني الشيطان القذر إن كنت سأعيش إلى ذلك اليوم الذي أثق فيه بعيني فتاة مرة أخرى!»

«... عديني بأنك لن تري إرلند قبل أن يصل أبوك» ، قال عندما وقفا قرب البوابة .

أجابت كريستين : «لن أفعل ذلك» .

قال سايمون : «إذن هو من سيقوم بالوعد» .

قالت كريستين بسرعة : «لن أراه» .

قال سايمون وهما يفترقان : «الكلب الصغير الذي أرسلته لك ، يمكنك أن تهديه لأختيك... لقد أصبحتا مولعتين به... هذا إذا كنت تكرهين رؤيته في البيت .

«... سأسافر شمالاً غداً باكراً» ، قال ، ثم أخذ بيدها مودعاً ، بينما راحت الأخت حارسة الباب تنظر إليهما .

مشى سايمون دار هبوطاً باتجاه البلدة . رفع قبضته المشدودة وهو يمشي ، وراح يتحدث بصوت نصف مرتفع ، ويشتم في الضباب . أقسم لنفسه أنه ليس حزيناً عليها... كريستين... كأنما كان قد ظن الأمر ذهباً خالصاً ، وحين فحصه عن كثب ، وجد أنه لا شيء سوى النحاس والقصدير . كانت بيضاء كرقاقة ثلج وهي تركع وتدسّ يدها في النار... كان ذلك في العام الماضي . وفي هذه السنة هاهي تشرب النبيذ مع ماجن منبوذ في علية فلوغا . يا للشيطان ، لا! كان حزيناً على لافرانس بيورغولفسون القابع هناك

في يوروندغارد معتقداً أنه لا يمكن أبداً أن تخونه بنته . والآن كان عليه هو نفسه أن يتحمل نقل الأخبار ، وأن يساعد في الكذب على ذلك الرجل... لأجل هذا فإن قلبه يحترق من الأسف والغضب .

لم تكن كريستين راغبة في الحفاظ على وعدها لسايمون دار ، ولكن كما جرى ، فقد تبادلت كلمات قليلة فقط مع إرلند... في إحدى الأمسيات هناك على الطريق .

لقد وقفت وأمسكت بيده ، وكانت وديعة على نحو غريب ، بينما راح هو يتحدث عما جرى في علية برينهيلد في آخر لقاء لهما . ومع سايمون أندرسون سيتكلم هو مرة أخرى . «لو تبارزنا هناك ، لعرفت البلدة كلها بما جرى» ، قال إرلند بحرارة . «و كان هو يعرف ذلك أيضاً جيداً... سايمون هذا» .

لاحظت كريستين كم كان هذا الأمر يغيظه . وكانت هي قد فكرت أيضاً في ذلك باستمرار : لم يكن هناك مجال لإخفاء الحقيقة ، فقد خرج إرلند من هذه القضية بشرف أقل حتى منها هي . ثم أحست أنهما أصبحا بالفعل جسداً واحداً...أن عليها أن تتحمل مسؤولية كل ما كذب فيه ، حتى لو كرهت أفعاله ، وأن عليها أن تشعر بأثر ذلك في جسدها كلما حدث وخُدش جلد إرلند فحسب .

•

بعد ثلاثة أسابيع وصل لافرانس بيورغولفسون إلى أوسلو لإحضار ابنته .

كانت كريستين خائفة ، وكان قلبها يؤلمها حين مضت إلى البهو لتقابل أباها . وما أدهشها أولاً هي أنها حين رأته واقفاً هناك يحادث الأخت

بوتنتيا ، لم يكن يبدو عليها أنها تذكرته . ربما كان قد تغيّر قليلاً منذ أن افترقا قبل عام... ولكنها كانت تراه في كل سنوات عمرها في البيت ، على أنه الرجل الشاب القوي المليح الذي كانت فخورة به كأب حين كانت صغيرة . في كل شتاء وكل صيف كان يمر عليهم هناك في البيت ، كان العمر المتقدم يترك عليه آثاره ، بينما كانت هي تتحول إلى امرأة شابة ناضجة... ولكنها لم تكن ترى ذلك . لم تكن ترى أن شعره كانت تخف كثافته هنا وهناك ، وأنه قد اتخذ لوناً أحمر صدئاً عند الصدغين... كما يحدث للشعر الأصفر حين يشيب . كان خداه قد أخذا بالانكماش وأصبحا أطول حتى أن العضلات كانت تنزل في خطوط أقسى نحو فمه . كان لونه الشاب الأبيض والأحمر قد بهت ليصبح لوناً سفعته الشمس والرياح . كان ظهره غير منحنٍ... ولكن لوحي كتفيه كانا قد عرفا الآن انحناء غير معتاد تحت عباءته . كانت خطواته خفيفة وثابتة ، وهو قادم باتجاهها يمد يداً مفتوحة ، ولكنها لم تكن الحركة القديمة النشطة والمرنة . لا شكّ أن كل هذه الأشياء كانت موجودة هناك في العام الماضي ، إلاّ أنها لم تكن قد رأتها فحسب . وربما أضيفت لمسة صغيرة من الحزن جعلتها ترى هذه التغييرات الآن . فانفجرت باكية .

وضع لافرانس ذراعه حول كتفها ووضع يده على خدها .

قال بلطف : «هيا ، هيا ، اهدئي يا طفلتي» .

سألته بصوت خفيض : «أأنت غاضب مني يا أبي ؟»

أجاب : «لا بد أنك تعرفين أني غاضب» . ولكنه تابع الربت على خدّها . «ومع ذلك فأنت تعلمين جيداً أنه ليس عليك أن تخافي مني» ، قال هذا بحزن . «كلا ، الآن عليك أن تهدئي يا كريستين . ألست خجلة من التصرف كالأطفال ؟» فقد كانت تبكي حتى أنها اضطرت للجلوس على

المقعد . «لن نتكلم عن هذه الأمور هنا حيث يخرج الناس ويدخلون» قال لها هذا وجلس إلى جانبها وأخذ يدها . «ألن تسألي عن أمك... وأختيك إذن... ؟»

سألته ابنته : «ما رأي أمي بهذا ؟»

«لا داعي للسؤال عن هذا... ولكننا لن نتكلم الآن» ، قال مجدداً . «و خلاف ذلك هي بخير...» ثم راح يحكي لها عن هذه الحوادث وتلك ممّا جرى في البيت في مزرعتهم ، حتى أضحت كريستين أهدأ فأهدأ تدريجياً .

و لكن بدا لها أن التوتر قد أصبح أسوأ لأن أباها لم يذكر شيئاً حول انتهاكها لعهد الخطوبة . وقد منحها المال لتوزع على فقراء الدير وتقدم الهدايا إلى زميلاتها من التلميذات . كما قدم هو نفسه هدايا ثمينة إلى الدير والأخوات . ولم يعرف أي شخص في نونسيتر أي شيء عدا أن كريستين كانت ستعود إلى بيتها لأجل الخطوبة والزواج . وتناول كلاهما آخر وجبة على مائدة الليدي غروا في غرفة الأم الرئيسة وتحدثت الليدي عن كريستين بعبارات المديح العالي .

ولكن هذا كله انتهى أخيراً . ودعت الأخوات وصديقاتها عند بوابة الدير . قادها لافرانس إلى حصانها ورفعها إلى السرج . كان أمراً غريباً جداً الركوب مع أبيها والرجال من يوروندغارد إلى الجسر ، على امتداد هذا الطريق ، الذي كانت تتسلل منه في الظلام . كما بدا رائعاً أيضاً أن تركب عبر شوارع أوسلو بحرية وشرف . فكرت بقافلة زفافها الرائعة التي تكلم عنها إرلند مراراً : أصبح قلبها ثقيلاً . لو حملها بعيداً معه لكن الأمر أسهل . سيكون هناك وقت طويل أمامها ، سيكون عليها أن تعيش فيه حياة سرية وأخرى مكشوفة أمام الناس . ثم سقطت عيناها على وجه أبيها الجاد الآخذ بالهرم ، وحاولت أن تفكر أن إرلند كان على حق على أي حال .

كان هناك مسافرون آخرون في النزل . عند المساء تعشوا جميعاً معاً في غرفة صغيرة بمدفأة ، حيث كان هناك سريران فقط . كان لافرانس وكريستين سينامان هناك ، فقد كانا الأعلى مرتبة بين الضيوف . لذلك حين تقدم الليل قليلاً ، تمنى لهما الآخرون ليلة طيبة ثم انصرفوا إلى أماكن نومهم . فكرت كريستين كيف كانت هي من انسلّ إلى عليّة برينهيلد فلوغا إلى ذراعي إرلند... وهاهي عليلة من الأسى والخوف من أنها قد لا تعود لتكون له مجدداً ، ثم فكرت ، لا ، ليس هناك لها مكان بعد الآن بين هؤلاء الآخرين .

كان أبوها جالساً على المقعد البعيد ينظر إليها .

سألت كريستين لتحطم الصمت : «ألن نذهب إلى سكوغ هذه المرة ؟»

أجاب لافرانس : «لا . لقد سئمت ممّا لدى عمّك ليسمعني إياه... لأني لن اجعلك تُكْرَهِيْنَ على أمر» ، أضاف وهي تنظر إليه بتساؤل .

«و الحقيقة هو أني كنت سأجعلك تحافظين على عهدك لولا أن سايمون قال إنه لن يرضى بزوجة غير راغبة فيه» ، قال هو بعد فترة قصيرة .

قالت كريستين بسرعة : « لم يسبق لي إطلاقاً أن منحت عهداً لسايمون . وكنت قد قلت سابقاً إنك لن تجبرني على الزواج بالقوة...»

«ما كان ذلك بالقوة لو كنت سأجعلك تلتزمين بالصفقة التي تعمّمت منذ ذلك الحين وأصبحت معروفة من قبل كل الناس» ، أجاب لافرانس . «في فصلي الشتاء اللذين مضيا حملتما أنتما كلاكما اسم المخطوبين ، ولم تعترضا على ذلك ، ولا أظهرتما عدم الرغبة ، حتى هذا الوقت وقد تحدد موعد زفافكما . وإذا كنت ستحاجيني بأن الأمر تأجل في السنة الماضية ، وهكذا فأنت لم تمنحي عهداً لسايمون ، عندها لن أسمي هذه بالصفقة العادلة» .

وقفت كريستين تحدق إلى النار .

تابع أبوها قائلاً : «لا أعرف ما الذي سيبدو أسوأ ، أن يقال إنك تخليت عن سايمون أو أنه هو من تخلى عنك . لقد أرسل لي السير أندرس رسالة» . وهنا احمر وجه لافرانس وهو يتكلم : «كان غاضباً من الشاب ، وطلب مني أن أطلب أي تعويضات أراها ملائمة . وقد اضطررت إلى قول الحقيقة . لا أعرف ما هو الأفضل... ولو كانت هناك تعويضات لكان علينا نحن أن نقدمها . ونحن موسومون بالعار في كلتا الحالين» .

قالت كريستين بصوت خفيض : «لا أستطيع التفكير في وجود مثل هذا العار العظيم بما أن لنا سايمون وأنا رأي واحد» .

كرر لافرانس : «رأي واحد . لم يخف عني أنه كان تعيساً ، ولكنه قال إنكما بعد أن تبادلتما الحديث ، فقد اعتبر أن الأمر سيكون سيئاً لو أنه جعلك تحافظين على العهد... والآن عليك أن تقولي لي كيف توصلت إلى هذا» .

سألت كريستين : «ألم يقل سايمون شيئاً ؟»

قال أبوها : «يبدو وكأنه قد فكر في أنك قد منحت حبك إلى رجل آخر . والآن عليك أن تحكي لي ما حدث يا كريستين» .

فكرت كريستين قليلاً .

قالت بصوت خفيض : «الله يعلم أني أرى أن سايمون قد يكون ملائماً لي ، وربما أفضل مني . ولكن من الصحيح أني قد تعرفت إلى رجل آخر . وعندها عرفت أني لن أكون سعيدة لساعة واحدة طوال حياتي إن كنت سأعيش مع سايمون... حتى لو كان لديه كل الذهب الذي في إنكلترا... فسأفضل الرجل الآخر لو لم يكن يمتلك بقرة واحدة» .

قال أبوها : «لا تأملي في أن أمنحك إلى خادم ، على ما أعتقد ؟»

«إنه من أصل نبيل بقدر أصلي ، بل وأفضل . ولكني قصدت أن أقول

هذا... لديه ما يكفي من الأراضي والمتاع ، ولكني أفضل النوم معه على القش العاري على أن أنام مع رجل آخر في سرير حرير» .

بقي أبوها صامتاً برهة .

«يا كريستين ، لن أرغمك على الزواج من رجل لا ترغبين فيه... رغم أن الرب والقديس أولاف هما وحدهما من يعرف ما الذي تحملينه ضد الرجل الذي خطبته لك . ولكن أن يكون الرجل الذي منحته قلبك رجلاً يليق بي أن أزوجك له فهذه مسألة أخرى . أنت لا تزالين صغيرة السن ، ولست بالحكيمة على نحو كاف بعد... وأن يرغب رجل في امرأة موعودة لرجل آخر... حسناً ، لا أرى في هذا ديدن رجل مستقيم... »

قاطعته كريستين قائلة : «لا يوجد رجل يستطيع أن يتحكم بنفسه في هذا الأمر» .

«بلى ، بل يستطيع . ولكنك عليك أن تفهمي ما يلي : لن أسيء إلى جماعة دايفرين بحيث أوافق على خطبتك إلى رجل آخر في اللحظة التي تتخلين فيها عن سايمون... ولن أقبل أن تكون خطبتك إلى رجل قد يكون أعلى منزلة أو أكثر ثراء... عليك أن تقولي من هو هذا الرجل» ، قال بعد فترة قصيرة .

ضغطت كريستين يديها معاً وتنفست بعمق . ثم قالت ببطء شديد :

«لا أستطيع يا أبي . وسيكون الأمر كما يلي : إن لم أتزوج هذا الرجل ، عندها تستطيع أن ترجعني إلى الدير ولن تخرجني منه ثانية... ولن أعيش طويلاً هناك ، على ما أعتقد . ولكن لن يكون ملائماً أن أذكر اسمه ، قبل أن أعرف إن كان يحمل تجاهي النية الطيبة نفسها كالتي أحملها تجاهه . ليس عليك أن تجبرني على ذكر اسمه قبل أن... قبل أن نتأكد... إن كان... إن كان ينوي أن يخطبني من خلال أقربائه» .

صمت لافرانس مدة طويلة . لم يستطع سوى أن يكون مسروراً في أن ابنته تأخذ المسألة على هذا النحو . قال أخيراً :

«ليكن الأمر هكذا إذن . إنه لأمر منطقي أن تخفي اسمه عني ، إن كنت لا تعرفين المزيد عن نيّاته» .

قال بعد قليل : «والآن إلى الفراش يا كريستين» . ثم اقترب وقبلها .

«لقد سببت الحزن والألم لكثيرين بسبب عنادك هذا يا ابنتي... ولكن عليك أن تعرفي أن مصلحتك تقبع قرب قلبي... وليساعدني الله على أن يكون الأمر على هذا النحو ، إذ أخشى أنك مهما فعلت... فإنه [الرب] و«أمه الكريمة» سيمدان إلينا يد العون بكل تأكيد ، حتى تنتهي هذه القضية إلى أفضل نتيجة... هيا اذهبي وحاولي النوم جيداً الآن» .

بعد أن اضطجع في فراشه فكر لافرانس في أنه سمع صوت بكاء ضعيف قادم من السرير الذي إلى جوار الجدار الآخر ، حيث كانت ابنته تنام . لم يجرؤ على القول لها إنه يخشى أن يعود الكلام القديم الذي حُكي عنها وعن آرن وبنتاين إلى الظهور مجدداً الآن ، ولكن كان يثقل عليه أنه ما كان يستطيع أن يفعل الكثير لإنقاذ سمعة ابنته من أن تلطخ من وراء ظهره . وكان أسوأ ما في الأمر أن عليه أن يعتبر أن كثيراً من الشر قد حصل بسبب طيشها .

القسم الثالث

لافرانس بيورغولفسون



١

عادت كريستين إلى البيت والربيع في أوجه . كان نهر «لاغن» يندفع حول منحناه عبر الضيعة والحقول ؛ بتيار يلتمع ويتوهج بومضات من الفضة من خلال الأوراق الرقيقة لأجمات أشجار جار الماء . وكأنما كان لومضات النور صوتاً خاصاً بها قد انضم إلى أغنية النهر ، لأنه حين هبط غسق المساء ، بدا الماء وكأنه يمضي بهدير أخفت . ولكن في النهار كما في الليل كان الهواء فوق يورونڈغارد مليئاً بالصوت الهادر ، حتى فكرت كريستين أنها تستطيع الإحساس بأن أخشاب المنازل نفسها كانت ترتجف مثل صندوق موسيقى القيثارة .

التمعت خيوط صغيرة من الماء عالياً فوق جوانب الجبل الذي انتصب ملفوفاً بسديم أزرق يوماً بعد يوم . كانت الحرارة تتلبث ثم ترتجف في الحقول . وكانت التربة البنية للحقول المحروثة مختفية تقريباً تحت رماح القمح والمروج مغطاة بطبقة سميكة من العشب ، وقد راحت تلتمع كالحرير حيث تمر أنفاس الريح . هبت من البساتين ومروج الهضاب روائح حلوة . وما أن غربت الشمس ، حتى اندفع من كل الأرجاء النفس القوي البارد الحامض للنسغ والنباتات... لكأن الأرض قد أطلقت تنهيدة طويلة

مخفّفة . فكرت كريستين وهي ترتجف باللحظة التي حررتها فيها ذراعا إرلند . في كل مساء كانت تضطجع مريضة من الشوق ، وفي الصباحات كانت تستيقظ مبللة بعرقها ومتعبة من أحلامها .

كان الأمر الذي يتجاوز فهمها هو كيف أن الناس في بيتها قد استطاعوا الامتناع عن ذكر أي كلمة حول الشيء الوحيد الذي كان يعتلج في أفكارها . ولكن الأسبوع مضى إثر الأسبوع ، ولم يُذكر شيء عن سايمون أو عن عهدها الذي نكثته ، ولم يسألها أحد عما كان يعتمل في قلبها . كان أبوها يقضي معظم أوقاته خارجاً في الغابات ، فالآن كان أوان فلاحة الربيع وبذر البذور بيديه : كان يذهب ليشرف على حرّاقي القار العاملين لديه ، وكان يصطحب الصقور وكلاب الصيد معه ، وكان يغيب أياماً كثيرة دفعة واحدة . وحين كان يمكث في البيت ، كان يتحدث إلى بناته بلطف كما كانت عادته دائماً ، ولكن كأنما لم يكن لديه الكثير ليقوله لها ، ولم يسألها أن تصطحبه قط حين كان يغادر .

كانت كريستين خائفة من الذهاب إلى البيت خشية تقريع أمها ، ولكن راغنفريد لم تذكر كلمة واحدة ، مما جعل الأمور تبدو أسوأ لها .

•

في كل عام حين يولم لأصدقائه في قداس القديس يوحنا ، كان من عادة لافرانس بيورغولفسون أن يمنح الفقراء في أبرشيته اللحم والطعام المتنوع اللذين تم توفيرهما في بيته خلال الأسبوع الأخير من الصوم . كان أولئك الذين يسكنون أقرب ما يكون إلى يوروندغارد يأتون من تلقاء أنفسهم للحصول على الحسنات . هؤلاء الفقراء كانوا دائماً موضع ترحيب وإكرام ، وكان لافرانس وضيوفه وكل خدم بيته يتجمعون من حولهم . فقد

كان بعضهم رجالاً مسنين يحفظون عن ظهر قلب كثيراً من القصص البطولية والقصائد الغنائية . كانوا يجلسون في غرفة المدفأة ويقضون الوقت بشرب الجعة والكلام الودي . وفي المساء كانوا يرقصون في الساحة .

في هذه السنة كانت عشية عيد القديس يوحنا غائمة وباردة . ولكن لم يأسف أحد لذلك ، فالمزارعون في «ديل» قد بدأوا بالخوف من الجفاف . لم يكن المطر قد هطل منذ ليلة «سانت هالفارد ويك» ، ولم يكن هناك سوى ثلج قليل في الجبال . ولا يتذكر الناس أنهم رأوا النهر شديد الانخفاض إلى هذا الحد في منتصف الصيف منذ ثلاثة عشر عاماً .

و هكذا كان لافرانس وضيوفه في حالة معنوية جيدة حين هبطوا ليحيوا طالبي الصدقة في غرفة المدفأة . جلس الفقراء من حول المائدة يتناولون عصيدة الحليب ويغسلونها بالجعة القوية المسكرة . وقفت كريستين قرب المائدة وراحت تخدم المسنين والمرضى .

حيّا لافرانس ضيوفه الفقراء وسألهم إن كانوا راضين بزادهم . ثم تجوّل ليرحب بالمتسولين العجائز الذين أحضروا في ذلك اليوم خصيصاً إلى يورwندغارد . كان اسم الرجل هو هاكون وهو ممن حاربوا تحت إمرة الملك هاكون العجوز ، وكان مع الملك حين حارب لآخر مرة في اسكوتلاندة . كان أفقر الفقراء الآن ، وأعمى تقريباً . وقد عرض عليه مزارعو «ديل» الإقامة في كوخ يخصه وحده ، ولكنه اختار بالأحرى أن يُنقل كمتسول من مزرعة إلى أخرى ، ففي كل مكان كان الناس يرحبون به كضيف محترم ، بما أنه رأى الكثير في هذه الدنيا ، ولديه مخزون هائل من المعرفة .

وقف لافرانس إلى جانب ويده على كتف أخيه . فقد كان آسموند بيورغولفسون قد وصل إلى يورwندغارد في زيارة وقد سأل هاكون إن كان الطعام يعجبه .

«الجعة جيدة يا لافرانس بيورغولفسون» ، قال هاكون . «ولكن أعتقد أن امرأة ساقطة قد طهت لنا العصيدة اليوم» . بينما كانت تعانق أحد الرجال احترقت العصيدة ، هكذا يقول المثل . وهذه العصيدة شائطة» .

قال لافرانس : «هذا أمر سيئ فعلاً أن أقدم لكم عصيدة شائطة . ولكني أعتقد جيداً أن المثل القديم لا يقول الحقيقة دائماً ، فابنتي نفسها هي من طهت العصيدة لكم» . و ضحك وأمر كريستين وتورديس أن تسرعا بجلب قصعات اللحم .

انسلت كريستين خارجاً بسرعة واتجهت نحو المطبخ . كان قلبها يدق بقوة إذ كانت قد لمحت وجه آسموند حين تكلم هاكون .

في ذلك المساء رأت أباها وأخاه يتمشيان ويتحادثان معاً في الساحة فترة طويلة وحتى وقت متأخر . كانت مصابة بالدوار من الخوف ؟ ولم يكن الأمر أفضل في اليوم التالي ، حين لاحظت أن أباها كان صامتاً متكدراً . ولكنه لم ينبس ببنت شفة .

كما أنه لم يقل شيئاً بعد رحيل أخيه . إلا أن كريستين لاحظت جيداً أنه كان أقل كلاماً مع هاكون ممّا كان ديدنه ، وحين انقضى دورهم في إيواء المحارب العجوز ، لم يعط لافرانس أي أمارة تدل على الرغبة في إبقائه فترة أطول ، بل تركه ينتقل إلى المزرعة التالية .

•

أما بالنسبة إلى البقية فقد كان يحق للافرانس بيورغولفسون أن يكون مزاجياً وكئيباً هذا الصيف ، فقد كانت كل الدلائل تشير إلى أن هذه السنة لم تكن سنة خير في الريف . وكان المزارعون يعقدون الاجتماعات للتشاور حول ما سيفعلونه لمواجهة الشتاء المقبل . ومع مرور أواخر الصيف ، تبين

لمعظمهم أن عليهم أن ينحروا قسماً كبيراً من قطعانهم أو أن يقودوها جنوباً للبيع ولشراء القمح لإطعام أسرهم خلال فصل الشتاء . لم يكن العام الفائت جيداً للقمح لذا كان مخزونهم من القمح القديم قليلاً .

في صباح أحد أيام أوائل الخريف ، خرجت راغنفريد مع بناتها الثلاث لترى بعض الكتان الذي تركته على حقل تبييض الغسيل . امتدحت كريستين حياكة أمها إلى حد كبير . ثم ربتت الأم على شعر رامبورغ الصغيرة وقالت :

« علينا أن نوفر هذه لصندوق عرسك أيتها الصغيرة » .

قالت أولفهيلد : « ألن يكون لي صندوق عرس حين أذهب إلى دير الراهبات يا أمي ؟ »

قالت راغنفريد : « تعرفين جيداً أن دوطتك لن تكون أقل من دوطة أختيك . ولكنهما لن تكونا في حاجة إلى ما سوف تحتاجينه أنت . كما أنك تعرفين جيداً كذلك أنك ستبقين مع أبيك ومعي طالما نحن على قيد الحياة ، إن شئت ذلك » .

قالت كريستين بصوت مضطرب : « و حين تأتين إلى دير الراهبات ، يا أولفهيلد فسوف أكون قد سبقتك إلى هناك كراهبة بسنوات كثيرة » .

نظرت إلى أمها ، ولكن راغنفريد صمتت .

قالت أولفهيلد : « لو كنتُ فتاة تستطيع الزواج ، لما كنت لأتخلى عن سايمون . إنه لطيف جداً ، وكان حزيناً جداً حين ودعنا جميعاً » .

قالت راغنفريد : « تعرفين أن أباك أمرنا ألاّ نتكلم عن هذا الموضوع » . و لكن كريستين انتهكت الحظر متحدية :

« أجل . حسناً أعتقد أن فراقكم كان أقسى عليه من فراقي » .

قالت أمها بغضب :

« و أعتقد أن عزة نفسه قد منعته من إظهار حزنه أمامك... لم تعاملي

سايمون أندرسون جيداً وبعدل يا ابنتي . ومع ذلك فإنه رجانا ألا نستخدم التهديدات ولا السباب معك...»

قالت كريستين كما من قبل : «كلا ، لقد ظهر ربما أنه قد شتمني بنفسه إلى حد كاف حتى أنه لم تعد هناك حاجة لأي شخص آخر أن يحكي لي كم كان هو شريراً . ولكني لم ألاحظ أن سايمون كان شديد الاهتمام بي حين رأى أني أحب رجلاً آخر أكثر منه» .

قالت راغنفريد للفتاتين الأصغر سناً : «اذهبا إلى البيت أيتها الطفلتان» . ثم جلست على جذع شجرة كان ملقياً على المرج ، وجذبت كريستين إليها .

قالت لها : «تعرفين بكل تأكيد أنه ليس من اللائق والمشرف أن يتحدث الخاطب كثيراً عن الحب مع خطيبته ، ولا أن يجالسها على انفراد كثيراً ، ولا أن يغازلها بحرارة زائدة عن اللزوم...»

قالت كريستين : «أوه ، أتساءل كثيراً إن كان الشبان والشابات الذين يحبون بعضهم البعض يضعون في أذهانهم أن يحترموا ما يعتبره كبار السن ملائماً ، ولا ينسون مثل هذه الأمور كلها بين الحين والآخر» .

قالت أمها : «حاذري يا كريستين كي لا تنسي هذه الأمور» . ثم جلست صامتة فترة قصيرة : «ما أراه جيداً الآن يا ابنتي هو أن أباك يخشى أن تكوني قد وهبت قلبك لرجل لا يستطيع هو أبداً أن يزوجك له وهو سعيد » .

سألت كريستين بعد فترة : «ما الذي قاله عمي ؟ »

أجابت الأم : «لا شيء ، ولكنه ذكر أن إرلند أوف هوسابي يحمل اسماً أفضل مقاماً من سمعة صاحبه . أجل ، لقد تحدث هو [إرلند] إلى آسموند ، على ما يبدو ، ليقول كلاماً طيباً عنه أمام لافرانس . ولم يكن أبوك مسروراً إطلاقاً بأن يسمع ذلك» .

ولكن كريستين جلست تشع سعادة . لقد تحدث إرلند مع عمها . وكانت هي مكدرة البال لأنه لم يرسل أي إشارة!

ثم تكلمت أمها مجدداً :

«و لكن هناك أمر آخر : إن آسموند قال شيئاً عن إشاعة تدور في أوسلو ، وتفيد بأن الناس رأوا إرلند هذا يتسكع في الدروب حول الدير وأنك قد خرجت وكلمته عند السياج هناك» .

سألتها كريستين : «و ماذا إذن ؟»

«لقد نصحنا آسموند ، كما ترين أن نقبل هذا العرض» ، قالت راغنفريد . «ولكن لم يسبق لي أن رأيت لافرانس غاضباً إلى هذا الحد . قال إن الخاطب الذي يحاول التقرب من ابنته بتلك الوسيلة يجب أن يجده معترضاً طريقه وسيفه في يده . لقد تعاملنا مع أهل دايفرين على نحو مسيء للشرف . ولكن أن يقوم إرلند ذاك بإغوائك للتسكع على الطرقات في العتمة معه ، بينما أنت تقيمين في دير للراهبات المقدسات ، فقد كان ذلك كله دليلاً جيداً على أنه من الأفضل لك أن تخسري مثل هذا الزوج» .

عصرت كريستين يديها معاً في حضنها... كان لون وجهها يغادره ثم يعود . وضعت أمها ذراعاً حول خصرها... ولكن الفتاة انزوت مبتعدة عنها ، وقد فقدت رشدها من انفعالها ، وصاحت :

«دعيني في حالي يا أمي! هل تريدين أن تقيسي خصري ربما لتري إن كان قد أصبح أكبر من السابق...»

في اللحظة التالية كانت قد نهضت وقد رفعت يدها إلى خدها : نظرت إلى عيني أمها اللامعتين وقد أصابتها الحيرة . لم يسبق لأحد أن صفعها منذ أن كانت طفلة صغيرة .

«اجلسي ، قالت راغنفريد . «اجلسي» ، قالت لها ثانية ، فأطاعتها

الفتاة . جلست الأم صامتة فترة ، وحين تكلمت كان صوتها يرتجف :

«لقد رأيت كل ذلك جيداً يا كريستين... لم يسبق لك أن أحببتِني حباً جماً ، وربما كان السبب ظنك بأني لا أحبك كثيراً... بقدر ما يحبك أبوك . لقد انتظرت الفرصة... ظننت أنه حين يأتي دورك لترزقي بطفل ، ستفهمين بكل تأكيد...

«حين كنت أرضعك ، حتى في ذلك الحين ، كان يحدث في كل مرة يقترب فيها لافرانس منا نحن الاثنتين ، أن تتركي ثديي وتمدّي يدك إليه وتضحكي حتى يجري حليبي فيغمر شفتيك . كان لافرانس يظن ذلك تسلية لطيفة... والله يعلم أني كنت سعيدة جداً لأجله . كنت سعيدة جداً أيضاً لأجلك ، أن أباك كان يضحك ويصبح مرحاً كلما رآك . لقد ظننت أنه من المؤسف لك ، أنت أيتها الصغيرة ، أني لم أكن قادرة على التخلص من كل ذلك البكاء . كنت دائماً أفكر فيما لو كنت سأفقدك أنت أيضاً ، بدل أن أفكر في التمتع بوجودك . ولكن الرب وأمه المقدسة يعرفان أني لم أحبكِ أقل ممّا أحبك لافرانس» .

كانت الدموع تجري على وجنتي راغنفريد ، ولكنّ وجهها كان هادئاً تماماً الآن ، وكذلك صوتها :

«الرب يعلم أني لم أحسده أو أحسدك على الحب الذي كان بينكما . لقد فكرت في أنني لم أمنحه سوى القليل من الفرح في السنوات التي عشناها معاً . كنت سعيدة أنه كان يجد سعادته فيك . كما فكرت أن أبي إيفار كان أباً كهذا لي أنا أيضاً...

«هناك أمور كثيرة يا كريستين يجب أن تعلّمها الأم لابنتها حتى تحذر منها . ولكني ظننت أنه لم تكن هناك سوى حاجة قليلة لأفعل ذلك معك أنت التي كنت ترافقين أباك طوال هذه السنوات... عليك أن تعرفي ما هو الصواب

وما هو الشرف . تلك الكلمة التي تلفظت بها للتو... أتظنين أني أستطيع أن أصدق أنك تجرؤين على أن تسبّبي للافرانس كل ذلك الأسى... ؟

«سأقول هذا لك... رغبتي هي أن تتمكني من أن تكسبي زوجاً لك رجلاً يستطيع أن يحبك جيداً . ولكن مهما حدث فإن عليك أن تتصرفي بحكمة... لا تجعلي لافرانس يفكر أنك قد اخترت شخصاً محباً للمتاعب ، شخصاً لا يحترم خلوة النساء ولا شرفهن . فهو لن يتركك تتزوجين شخصاً كهذا ، حتى لو كان ذلك لإنقاذك من عار مفضوح . بل يفضل أن يدع السيف يقضي بينه وبين الرجل الذي شوه حياتك...»

وهنا نهضت الأم وابتعدت عنها .



٢

في مجلس هاوغا الذي انعقد في يوم قداس بارثولوميو ، أي في الرابع والعشرين من آب (أغسطس) ، نُودِيَ بابن ابنة (حفيد) الملك هاكون ذي الذكرى الطيبة ملكاً . وبين الرجال الذين أرسلوا إلى هناك من مقاطعة غودبراندسدال الشمالية كان لافرانس بيورغولفسون . كان يسمى برجل الملك منذ شبابه ، ولكن في كل هذه السنوات كان نادراً ما يقترب من «المنزل الملكي» ، وكانت السمعة الطيبة التي اكتسبها في الحرب ضد الدوق آيريك أمراً لم يحسن هو استغلاله . كما أنه لم يكن كثير الرغبة في الذهاب في هذه الرحلة إلى البيعة ، ولكنه ما كان يستطيع أن يرفض الدعوة . وعلاوة على ذلك ، كان هو والرجال البارزون من الوادي العلوي مكلفون بمحاولة شراء القمح في الجنوب وإرساله بالسفينة إلى رومسدال .

كان الناس من الأبرشيات المجاورة في حالة ذعر الآن ، وخائفين من الشتاء القادم . كما اعتبر المزارعون تنصيب طفل ملكاً مرة أخرى في النرويج أمارة غير حسنة . تذكر العجائز ذلك الزمن حين مات الملك ماغنوس وكان أبناؤه مجرد أطفال صغار ، وقال سيرا آيريك باللاتينية :

«لا راحة للجرذان ليلاً حين يكون القط الذي في البيت قطيطة» .

أدارت راغنفريد إيفارسداتر كل الأمور في الضيعة في غياب زوجها ، وكان أمراً جيداً لكل من كريستين ولها أن يكون رأساهما وأيديهما مليئة بشؤون المنزل وأعماله . في كل أنحاء الأبرشية كان الناس مشغولين بتجميع الطحالب من الجبال وقشر اللحاء عن الأشجار ، فقد كان محصول التبن ضئيلاً ، ولم يكن هناك تبن يذكر . وحتى أوراق الشجر التي جمعت بعد عشية عيد القديس يوحنا كانت صفراء خالية من النسغ . في عيد يوم الصليب المقدس ، حين حمل سيرا آيريك الصليب وجال في الحقول ، كان هناك الكثير من الناس في الموكب ممّن بكوا وصلوا بصوت مرتفع للرب ليرحم الناس والحيوانات العجماء .

•

بعد أسبوع من عيد الصليب ، وصل لافرانس بيورغولفسون إلى البيت من المجلس .

كان قد فات موعد نوم سكان البيت ، ولكنّ راغنفريد كانت ساهرة لا تزال في غرفة الحياكة . كان لديها الكثير من المشاغل خلال النهار الآن ، حتى أنها غالباً ما كانت تعمل حتى وقت متأخر في الليل وهي تحوك وتخيط . كانت راغنفريد تحب المنزل كثيراً أيضاً . كانت له شهرة كونه أقدم منزل في المزرعة وكان يسمى «منزل الرابية» ، ويقول الناس إنه موجود منذ الأيام الوثنية القديمة . كانت كريستين والفتاة المسماة أستريد هناك مع راغنفريد تغزلان عند المدفأة .

كن جالسات هناك وهن ناعسات صامتات ، حين سمعن صوت وقع حوافر حصان واحد... وصل رجل راكباً على حصان يعدو إلى داخل المزرعة .

مضت أستريد إلى الغرفة الخارجية لتنظر إلى الخارج : و خلال لحظات عادت مجدداً يتبعها لافرانس بيورغولفسون .

لاحظت كل من زوجته وابنته أنه كان قد شرب أكثر من المعتاد . كان يترنح في مشيته ويتمسك بعمود فتحة الدخان بينما أخذت راغنفريد منه عباءته وقبعته المبللتين اللتين يقطر منهما الماء وفكت له حزام سيفه .

قالت خائفة : «ما الذي فعلته بهالفدان وكولباين ؟ هل تركتهما خلفك على الطريق ؟»

«لا ، تركتهما خلفي في لوبتسغارد» ، قال بضحكة قصيرة . «كنت مصمماً على العودة إلى المنزل ثانية... ما كان ممكناً لي أن أرتاح حتى أصل إلى البيت... مضى الرجال إلى الفراش في لوبتسغارد ، ولكني ركبت غولدسفاينن وعدوت به إلى البيت...»

«عليك أن تحضري لي بعض الطعام يا أستريد» ، قال للخادمة . «اجلبيه إلى هنا ، أيتها الفتاة . ثم ليس عليك أن تمضي بعيداً في هذا المطر . ولكن أسرعي لأني لم أتناول طعاماً منذ الصباح الباكر» .

سألته زوجته مستغربة : «ألم تتناول طعاماً في لوبتسغارد إذن ؟»

جلس لافرانس وهو يتأرجح على المقعد من هذا الجانب إلى الآخر ، ويضحك قليلاً .

«كان هناك طعام... بكل تأكيد... ولكن لم تكن لي شهية له حين كنت هناك . شربت قليلاً مع سيغورد... ولكن... فكرت أن عليّ أن أعود إلى البيت فوراً على الانتظار حتى الغد...»

عادت أستريد وهي تحمل الطعام والجعة . وجلبت معها أيضاً حذاء جافاً لسيدها .

تلمّس لافرانس إبزيم مهمازه ليفكه ، ولكنه كاد يسقط على وجهه .

قال :«تعالي يا كريستين يا ابنتي إلى هنا وساعدي أباك . أعرف أنك ستفعلين ذلك من قلب محب ، أجل قلب محب... اليوم» .

ركضت كريستين لتلبي أمره . ثم أخذ رأسها بين يديه ورفع لها وجهها :

«هناك شيء واحد أعتقد أني أعرفه يا ابنتي... لا أتمنى سوى صالحك . لن أسبب لك الحزن أبداً ، إلا إذا رأيت أني بذلك قد أنقذك من أحزان كثيرة قادمة . أنت لا تزالين شابة جداً بعد يا كريستين . لقد بلغت السابعة عشرة فحسب هذا العام... بعد ثلاثة أيام من قداس هالفارد... السابعة عشر فحسب...»

كانت كريستين قد أنهت عملها الآن . كانت شاحبة بعض الشيء وهي تنهض من على ركبتيها لتجلس مجدداً على كرسيها قرب المدفأة .

بدأ ذهن لافرانس يصفو أكثر فأكثر بينما راح يأكل حتى شبع . أجاب على أسئلة زوجته والخادمة حول مجلس هاوغا . أجل كان اجتماعاً جميلاً . لقد استطاعوا شراء القمح وبعض الدقيق والشعير المنبّت بالنقع في الماء ، وقد اشتروا جزءاً في أوسلو والجزء الآخر في تونسبرغ . كانت البضاعة من خارج البلاد : ربما تكون أفضل وقد تكون أسوأ أيضاً . أجل لقد قابل الكثيرين من الأقرباء والأصدقاء ، وهم يرسلون تحياتهم إلى البيت معه... ولكن الأجوبة بدأت تتقطع الواحد بعد الآخر ، وهو جالس هناك .

«لقد تحادثت مع السير أندرس غودموندسون ،» قال حين خرجت أستريد . «سيتزوج سايمون الأرملة الشابة من مانفيك . لقد أقيمت مأدبة الخطوبة .و سيجري الزفاف في دايفرين في عيد قداس القديس أندرو . لقد اختار هذا التاريخ بنفسه ذلك الشاب . لقد ابتعدت عن السير أندرس في تونسبرغ ، ولكنه لاحقني... وذلك ليحكي لي أنه يعرف بكل تأكيد أن

سايمون رأى الليدي هالفريد لأول مرة في هذا الصيف . كان يخشى أن أفكر بأن سايمون كان يفكر بالزواج من أرملة ثرية حين فسخ اتفاقه معنا » . توقف لافرانس قليلاً وضحك بكدر . « أتفهمان أن ذلك الرجل الصالح الفاضل كان يخشى كثيراً من أن نظن هذا الظن بابنه ؟ » .

تنفست كريستين على نحو أشد حرية . فكرت أن هذا لا بدّ هو ما كان يزعج أباها إلى ذلك الحد المؤلم . ربما كان يأمل طوال هذه الفترة أن الأمر سيمر مرور الكرام على أي حال ، أي زواجها من سايمون أندرسون . أولاً كانت خائفة لئلا يكون أبوها قد سمع أنباء عن أفعالها هناك في أوسلو .

نهضت وتمنت لهما ليلة طيبة ، ولكن أباها أمرها أن تستمر في السهر فترة قصيرة أخرى .

قال لافرانس : « ما زال لديّ أمر واحد عليّ أن أقوله . كان يمكنني أن أصمت أمامك فيما يخص هذا الأمر... ولكن الأفضل أن تعرفيه . هذا هو الأمر يا كريستين : الرجل الذي اختاره لك قلبك ، عليك أن تبذلي جهدك لتنسيه » .

كانت كريستين واقفة وذراعاها مدلاتان ورأسها مطأطئ . رفعت نظرها الآن إلى وجه أبيها . حركت شفتيها ولكن لم يصدر أي صوت يمكن سماعه .

أشاح لافرانس بنظره عن عيني ابنته . وضرب بيده على جنبه .

« أعتقد أنك تعرفين جيداً أني ما كنت سأعارض ذلك لو كنت قادراً بأي وسيلة على الاعتقاد بأنه سيكون لصالحك » .

قالت كريستين بصوت واضح : « ما هي الأنباء التي قيلت لك خلال رحلتك يا أبي ؟ »

أجاب لافرانس : « لقد أتى إلي إرلند نيكولاوسون وقريبه السير مونان

باردسون في تونسبرغ . وطلب مونان يدك لإرلند ، وقد أجبته بلا » .

وقفت كريستين برهة وهي تتنفس بصعوبة :

سألت : «لم لا تريد أن تمنح يدي إلى إرلند نيكولاوسون ؟ »

قال لافرانس : «لا أعرف مدى معرفتك بالشخص الذي تريدينه زوجاً لك . وإذا كنت لا تستطيعين أن تحزري السبب بنفسك ، فلن يكون أمراً ساراً لك أن تسمعي ذلك من شفتيّ» .

سألت كريستين كما في السابق : «هل لأنه اعتبر خارجاً على القانون وصدر حرمان بحقه من الكنيسة ؟ »

«أتعرفين السبب في طرد الملك هاكون لقريبه لحاً من بلاطه... وكيف صدر الحرمان بحقه من الكنيسة لتحديه أوامر الأسقف... وأنه حين هرب من البلاد لم يكن يفعل ذلك وحده ؟ »

قالت كريستين : «أجل» . بدأ صوتها يضطرب . «أعرف أيضاً أنه كان في الثامنة عشرة حين عرفها لأول مرة : أعني عشيقته» .

أجاب لافرانس : «لم أكن أكبر سناً منه حين تزوجت . حين كنا صغاراً كنا نعتقد أن الرجل في الثامنة عشرة من العمر مسؤول عن نفسه ويحرص على مصلحة الآخرين ومصلحته» .

وقفت كريستين صامتة .

قال لافرانس بعد فترة وجيزة : «لقد أسميتها عشيقة ، تلك المرأة التي عاش معها عشر سنوات ، وأنجبت له أطفالاً . لن أكون سعيداً في ذلك اليوم الذي أرسل فيه ابنتي من بيتها مع زوج كان يساكن علناًعشيقة سنة ثم يغيب عنها سنة ، قبل أن يتزوج . ولكنك تعرفين أنها لم تكن حياة خليعة فحسب بل كانت تلك حياة زنا » .

تكلمت كريستين بصوت خفيض :

«لم يكن حكمك على الليدي آشيلد والسير بيورن قاسياً إلى هذا الحد» .

أجاب لافرانس : «و لكني لا أستطيع القول إني سأكون سعيداً بأن نصاهر أقرباءهما» .

قالت كريستين : «يا أبي ، هل كنت خالياً إلى هذا الحد من كل الخطايا طوال حياتك ، حتى تحكم على إرلند بكل هذه القسوة... ؟»

قال لافرانس بصرامة : «الرب يعرف أني لا أحكم على أي رجل بأنه صاحب خطايا أكثر مني أمام الرب . ولكن الأمر ليس الاعتقاد فحسب بأن عليَّ أن أزوج ابنتي لأي رجل يطلب يدها ، وذلك فقط لأننا كلنا في حاجة إلى غفران الرب» .

قالت كريستين بحماسة : «أنت تعرف أني لم أعن ذلك . يا أبي... يا أمي... لقد كنتما شابين صغيرين أنتما أيضاً... ألا تذكران شبابكما إلى الحد الذي تعرفان فيه أنه من الصعب أن يمنع المرء نفسه عن الخطيئة التي تأتي من الحب... ؟»

احمر وجه لافرانس كالدم :

«لا» ، قال باقتضاب فظ .

صرخت كريستين بجنون : «إذن فأنت لا تعرف ما تفعله لو كنت ستفرّق بين إرلند نيكولاوسون وبيني» .

جلس لافرانس مجدداً على المقعد .

عاد ليقول : «أنت في السابعة عشرة فحسب يا كريستين . وربما تكونان أنت وهو... أعني ربما قد أصبحتما عزيزين الواحد على قلب الآخر أكثر ممّا ظننت . ولكنه ليس بالشاب الصغير إلى ذلك الحد بل كان عليه أن يعرف... لو كان رجلاً صالحاً ، لما كان سيتقرّب بكلام الحب من طفلة

صغيرة غير ناضجة مثلك... أما أنك كنت موعودة لرجل آخر فإنها مسألة لم يأبه لها كثيراً .

«و لكني لن أزوّج ابنتي ، على أي حال ، من رجل أنجب طفلين من زوجة رجل آخر . أتعرفين أن لديه أطفالاً ؟

«أنت صغيرة جداً على فهم أن مثل هذا الخطأ يولّد العداء لدى الأقارب... وحقداً لا نهاية له . لا يستطيع الرجل التخلّي عن أولاده ، ولا يستطيع أن يؤديهم حقهم... لن يجد إلا بالكاد الوسيلة ليربي ابنه بين الناس الصالحين ، أو أن يجعل ابنته تتزوج من شخص ليس من مجرد خادم أو فلاح . لن يكون هذان الطفلان من لحم ودم إن لم يكرهاك وأطفالك كرهاً مميتاً...

«ألا ترين يا كريستين... مثل هذه الخطايا... قد يغفر الرب مثل هذه الخطايا بسهولة بالمقارنة مع الكثيرين... ولكنها تحطم القربى على نحو لا يمكن معه تصحيح الأمر مجدداً . لقد فكرت في بيورن والليدي آشيلد أيضاً... هاهو ابنها مونان . كان متوهجاً من كثرة الذهب الذي يرتديه... وهو يحضر «مجلس مستشاري الملك» . هو وأخوته حصلوا على ميراث أمهم ، وهو لم يأت مرة واحدة ليزور أمه التي تعيش في الفقر طيلة هذه السنوات . أجل ، وقد كان هذا الرجل هو من اختاره عاشقك ليكون الناطق باسمه .

«لا ، أقول لا . لن تدخلي في علاقة مع تلك الأسرة ما دام رأسي فوق الأرض» .

دفنت كريستين وجهها في يديها وراحت تبكي :

«إذن سأصلي للرب ليلاً ونهاراً ، ليلاً ونهاراً ، حتى تغير رأيك ، وقد يأخذني الرب بعيداً عن هذه الأرض» .

قال أبوها ، والألم في صوته :

«لا داعي للمزيد من الكلام عن هذا الموضوع في هذه الليلة . أنت لا تصدقين ذلك الآن ، ربما ، ولكن عليّ أن أوجه حياتك حتى أستطيع أن آمل بتحمل المسؤولية عنها من الآن فصاعداً . اذهبي وارتاحي الآن يا طفلتي» .

مدّ يده إليها ، ولكنها رفضت أن تراها ، وخرجت باكية من الغرفة .

•

استمر الأب والأم بالجلوس . ثم قال لافرانس لزوجته :

«هل لك أن تجلبي لي جرعة من الجعة ؟... لا ، اجلبي قليلاً من النبيذ . أنا متعب» .

فعلت راغنفريد ما طلبه منها . وحين عادت بكأس النبيذ الطويلة ، كان زوجها جالساً ووجهه مدفون في يديه . رفع نظره إليها ومرّر يده على غطاء رأسها وكميها :

«زوجتي المسكينة ، لقد بلّلك المطر... هيا اشربي نخبي يا راغنفريد» .

بالكاد لمست الكأس بشفتيها .

قال لافرانس بقوة : «كلا ، بل اشربي معي» . و حاول أن يجلسها على ركبتيه . وفعلت المرأة ما يريده دون رغبة . قال لافرانس : «ستؤيدينني في هذا الأمر يا زوجتي ، أليس كذلك ؟ طبعاً سيكون من الأفضل لكريستين نفسها أن تفهم من البداية أن عليها أن تطرد ذلك الرجل من أفكارها» .

قالت الأم : «سيكون ذلك صعباً على الطفلة» .

قال لافرانس : «أجل ، أرى ذلك جيداً» .

جلسا صامتين فترة ، ثم سألت راغنفريد :

«كيف يبدو إرلند أوف هوسابي ذاك ؟»

أجاب لافرانس ببطء : «أوه ، مظهره وسيم بما فيه الكفاية ، على نحو ما . ولكنه لا يبدو كرجل ملائم إلاّ ليخدع النساء» .

صمتا مجدداً . ثم قال لافرانس :

«الميراث الضخم الذي وصله من السير نيكولاوس... أعتقد أنه تصرف به على نحو جعله يتناقص بشدة . ليس من أجل صهر كهذا كافحت وناضلت لأصنع لبناتي حياة مضمونة» .

راحت الأم تذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً بقلق واضح . مضى لافرانس يقول :

«لم يعجبني إطلاقاً أنه حاول أن يغوي كولباين بالفضة... ليحمل رسالة سرية إلى كريستين» .

سألته راغنفريد : «و هل عرفت ما في الرسالة ؟»

قال لافرانس باقتضاب : «لا ، لم أفعل ذلك باختياري . لقد أعدتها إلى السير مونان وقلت له رأيي بمثل هذه الأفعال . كان إرلند قد وضع ختمه عليها أيضاً... لا أعرف ما يمكن أن يقوله رجل عن مثل هذه الحيل الصبيانية . لقد أراد السير مونان أن أرى شكل الختم ، وأنه كان ختم الملك سكول الخاص ، والذي ورثه إرلند عن أبيه . وأعتقد أن فكرته كانت هي أن عليّ أن أفكر في الشرف العظيم الذي يمنحونه لي بطلب يد ابنتي . ولكني أظن أن السير مونان ما كان سيشدد على هذه القضية نيابة عن إرلند لولا أن سطوة وشرف آل هوسابي اللذين أحرزهما سير نيكولاوس وسير بارد في أيامهما... لولا أنهما آخذان بالهبوط إلى قعر الوادي على يدي ذلك الرجل... لا يمكن لإرلند بعد اليوم أن يتطلع إلى زواج مكافئ لمرتبته التي كانت له عند مولده» .

توقفت راغنفريد قبل زوجها :

«لا أعرف الآن يا زوجي إن كنت على حق في هذه القضية . أولاً يجب أن يقال إنه في زمان كزماننا هذا ، فإن الكثير من الرجال من حولنا هنا من أصحاب الأملاك الكبيرة قد اضطروا إلى القبول بسلطة وشرف أدنى ممّا كان لآبائهم من قبلهم . وأنت نفسك تعرف جيداً أنه لأسهل على الرجل الآن أن يكسب ثروة من أرض أو تجارة ممّا كان عليه الحال في العالم القديم... »

قاطعها لافرانس نافد الصبر : «أعرف ، أعرف . كما أنه يليق بالرجل أن يدير بحرص الميراث الذي ورثه... »

و لكن زوجته تابعت قائلة :

«كما يجب أن يقال ما يلي : لا أرى أن كريستين لا تليق بإرلند كزوجة من حيث المرتبة . في السويد كان أقرباؤك يجلسون بين الناس الأرفع منزلة ، وكان أبوك وأبوه من قبله يحملان لقب الفارس في أرض النرويج هذه . كان أجدادي بارونات[١٩] لمقاطعات بالوراثة حتى نوغل في الزمن لنوصل إلى «إيفار العجوز» . كان أبي وجدي حاكمي مقاطعات[١٩] . صحيح أنك وتروند لم تحملا ألقاباً أو تملكا أملاكاً تحت وصاية التاج ، ولكن فيما يخص ذلك ، أعتقد أنه يمكن أن يقال إن شأن إرلند نيكولاوسون لا يختلف عن شأنك» .

قال لافرانس بمرارة : «ليس الأمر كذلك . كانت السلطة ولقب الفارس جاهزين تحت يد إرلند ، ولكنه أدار ظهره لهما ليمارس الفجور . ولكني أستطيع أن أرى الآن أنك ضدي أنت أيضاً . ربما تعتقدين ، شأن آسموند وتروند ، إنه لشرف لي أن هؤلاء الرجال العظام يطلبون يد ابنتي لأحد أقربائهم... »

تكلمت راغنفريد ببعض الانفعال : «لقد قلت لك إني لا أرى أنك في

حاجة إلى أن تكون شديد الدماثة بحيث تخشى أن أقرباء إرلند قد يظنون أنهم يتنازلون في مثل هذه الحالة . ولكن ألا ترى كيف تجري الأمور... هاهي ابنة دمثة مطيعة تتجرأ على تحدينا والتخلي عن سايمون دار... ألا تستطيع أن ترى أن كريستين لم تعد كما عهدناها منذ عودتها من أوسلو... ألا ترى أنها تدور في المكان كأنها مسحورة... ألن تفهم أنها تحب هذا الرجل إلى حد بعيد بحيث أنك إن لم توافق فقد تحدث مصيبة كبيرة ؟ »

سأل الأب وهو يرفع بصره بحدة : « ما الذي تعنينه ؟ »

قالت راغنفريد : « يحيّي رجال كثيرون أصهارهم دون أن يعرفوا ذلك» .

بدا على الرجل كأنه قد تيبس هناك حيث كان يجلس ، ثم بدأ وجهه يشحب ببطء :

« أنت أمها » قال بصوت أجش « هل رأيت أمارات أكيدة... تجعلك تتجرئين على اتهام ابنتك... »

قالت راغنفريد بسرعة : « لا . لا . لم أقصد ما ظننته أنت . ولكن حين تكون الأمور على هذا النحو ، فمن يستطيع أن يعرف ما حدث أو سيحدث ؟ لقد رأيت ما في قلبها . إنها لا تفكر إلا في هذا الرجل... ولا عجب إن أظهرت لنا يوماً أنه أغلى عندها من شرفها... أو حياتها » .

انتفض لافرانس واقفاً :

« أوه ، أنت مجنونة . هل تستطيعين أن تفكري بمثل هذه الأمور فيما يخص طفلتنا الجميلة الصالحة ؟ لا شك أنها لم تتعرض لأي أذى في ذلك المكان الذي كانت فيه... مع الراهبات الورعات . لا أعتقد أنها عاملة في زريبة أبقار لتذهب وتغامر خلف الأسوار والأسيجة . فكري في الأمر فحسب : ليس من الممكن أن تكون قد رأت هذا الرجل أو تحدثت إليه

مرات عديدة... كوني على ثقة أن هذا الأمر سينقضي... لن يكون أكثر من مجرد نزوة فتاة شابة . والله يعلم أنه ليشقّ عليّ أن أراها حزينة إلى هذه الدرجة ، ولكن كوني على ثقة من أن الأمر سينقضي دون شك مع مرور الزمن .

«تقولين الحياة والشرف... في بيتي هنا قرب مصطلاي سيكون الخطب جللاً إن لم أستطع حماية ابنتي العذراء . ولا أظن أن أي فتاة من أصل كريم نشأت نشأة مسيحية وتربت على الخجل سترمي بسرعة شرفها... ولا حتى حياتها . أجل ، مثل هذه الأمور تُروى في الأغاني والقصائد دون شك... ولكني أعتقد أنه حين ينوي رجل أو فتاة على ارتكاب مثل هذا الفعل ، تؤلف أغنية حول القصة ، وبذلك تُواسى القلوب... و لكنهما يمتنعان عن ممارسة الفعل نفسه...

«أنت نفسك» ، قال وهو يتوقف أمام زوجته : «كان هناك رجل آخر رغبت فيه زوجاً لك ، في تلك الأيام حين خُطبنا لبعضنا البعض . كيف تظنين أن الأمور كانت ستجري لو أن أباك انصاع لرأيك في هذه المسألة ؟ »

كانت راغنفريد هي من شحب شحوب الموتى الآن :

«يا للمسيح ومريم! و من أخبرك... ؟ »

«حكى سيغورد أوف لوبتسغارد شيئاً ما... كان ذلك بعد وصولنا إلى ديل مباشرة» ، قال لافرانس . «و لكن أجيبيني عما سألته... أتظنين أن حياتك كان من شأنها أن تكون أسعد لو أعطاك إيفار إلى ذلك الرجل ؟ »

وقفت زوجته مطأطئة الرأس .

قالت : «ذلك الرجل»... ما كان قادراً إلا بالكاد على سماع الكلمات : «كان هو من رفضني...» . بدا وكأن رجفة قد اعترت جسدها كله... ضربت الهواء أمامها بقبضتها .

وضع زوجها يده برقة على كتفيها :

سألها كأنما غلب على أمره وقد بدا في صوته استغراب عميق وحزين : «أهذا هو الأمر إذن... عبر كل هذه السنوات... أو كنت تتأسّين عليه... يا راغنفريد ؟ »

ارتجفت كثيراً ، ولكنها لم تقل شيئاً .

سألها مجدداً : «راغنفريد ؟ أجل ، ولكن لاحقاً... حين توفي بيورغولف... وفيما بعد... حين وافقتِ أن أكون بالنسبة لك ما لم أكن أستطيع أن أكونه... هل كنت تفكرين آنذاك بالرجل الآخر ؟ » كان يتكلم بصوت خفيض في خشية وحيرة وألم .

همست وهي على وشك البكاء : «و كيف يمكن لمثل هذه الأفكار أن تعتريك ؟ »

مرّر لافرانس جبينه على جبينها وحرك رأسه بلطف من جانب لآخر .

«لا أعرف . أنت غريبة جداً... وكذلك كل ما قلته الليلة . كنت خائفاً يا راغنفريد . لكأني لا أفهم قلوب النساء... »

ابتسمت زاغنفريد بشحوب ووضعت ذراعيها حول عنقه .

«الرب يعرف يا لافرانس... كنت أتسول حبك ، لأنني أحببتك أكثر ممّا لدى الروح البشرية القدرة على الحب... وكنت أكره ذلك [الرجل] الآخر حتى أني شعرت أن الشيطان سُرّ من كراهيتي » .

قال لافرانس وهو يقبلها : «لقد أحببتك جداً يا زوجتي ، أجل ، من كل قلبي أحببتك . أنت تعرفين ذلك بكل تأكيد ، أليس كذلك ؟ لقد فكرت دائماً في أننا سعيدان معاً أنت وأنا... يا راغنفريد ، أليس كذلك ؟ »

قالت وهي تبكي قليلاً : «كنت دائماً خير زوج لي » ، ثم التصقت به .

ضمها إليه بقوة .

«الليلة أود أن أنام معك يا راغنفريد . وإن كنت معي كما في الأيام القديمة ، فلن أكون... أحمق إلى تلك الدرجة...» .

بدت المرأة وكأنها تيبست بين ذراعيه ، وابتعدت عنه قليلاً :

تكلمت بصوت خفيض قاس وغريب : « إنها فترة الصيام » .

ضحك قليلاً : « إنها كذلك فعلاً . أنت وأنا ، يا راغنفريد... لقد حافظنا على فترات الصوم وبذلنا جهدنا لنقوم بكل الواجبات تجاه الرب من كل النواحي . والآن أستطيع أن أفكر الآن بأننا قد نكون أسعد لو كان لدينا ما نتوب عنه... » .

« أوه ، لا تتكلم على هذا النحو... » ، هكذا رجته بصوت هائج وهي تضغط بيديها النحيلتين على صدغيه .

« أنت تعرف جيداً أني لا أرغب في أن تقوم أنت بأي شيء عدا ما تشعر أنه الأمر الصحيح » .

قربها إليه مرة أخرى وأنّ عالياً : « ليساعدها الله! ليساعدنا الله جميعاً ، يا راغنفريدي... »

ثم : « أنا متعب » ، قال وهو يطلق سبيلها . « و لقد آن الأوان لترتاحي » .

وقف قرب الباب منتظراً بينما أطفأت هي الجمرات في المدفأة ، ونفخت على المصباح الحديد الصغير عند المغزل ثم قرصت الفتيل المتوهج . ومعاً عبرا تحت المطر إلى المنزل الرئيسي .

كان قد سبق للافرانس أن وضع قدمه على درج العلية ، حين التفت إلى زوجته التي كانت لا تزال واقفة عند باب المدخل .

ضمها بين ذراعيه بقوة مرة أخرى ، للمرة الأخيرة وقبلها في العتمة . ثم رسم إشارة الصليب فوق وجه زوجته ، وصعد الدرج .

خلعت راغنفريد ملابسها واندست في فراشها . وقد استلقت هناك فترة وهي تصغي إلى وقع خطوات زوجها في العلية فوقها . ثم سمعت السرير يصرّ ، وهدأ كل شيء . صالبت راغنفريد ذراعيها فوق ثدييها الذاويين .

أجل ، فليساعدها الرب! أي نوع من النساء هي ؟ وأي نوع من الأمهات ؟ سرعان ما ستصبح عجوزاً . ولكن هل كانت هي تلك المرأة نفسها ؟ رغم أنها لم تعد ترجو الحب على نحو عاصف ، كما حدث حين كانا شابين وكانت عاطفتها القوية قد جعلت هذا الرجل ينكمش ويصبح بارداً حين أرادته عاشقاً وليس مجرد زوج . هكذا كان الأمر... لذلك حدث في المرة تلو المرة ، حين كانت حاملاً ، أن كانت تشعر بالإهانة ، وكانت غاضبة من العار ، لأنها لم تكن راضية بهذا الحب الزوجي الفاتر . ثم ، حين كانت الأمور على هذه الحال ، واحتاجت هي إلى الطيبة والحنان... عندها كان لديه الكثير ليمنحه . كان الرجل يفكر فيها برقة دون كلل حين كانت مريضة ومعذبة ، وكان هذا يقع على روحها كالندى . كان يتحمل كل ما كانت تحمّله إياه ويصبر عليه... ولكن كان هناك دائماً شيء يخصّه فلا يمنحه . لقد أحبت أطفالها ، لذلك ففي كل مرّة كانت تفقد فيها أحدهم ، كان الأمر أشبه وكأن قلبها قد انتزع منها . يا إلهي! يا إلهي! أي امرأة كانت هي آنئذ ، لذلك حتى في ذلك الحين ، في وسط عذاباتها ، كانت تستطيع أن تشعر بذلك كقطرة من العذوبة التي كانت تأخذ أساها إلى قلبه وتضعها قريبة من قلبه .

كريستين... كانت راغنفريد مستعدة لعبور النار لأجل ابنتها . لم يصدقا الأمر ، لا لافرانس ولا الابنة ، ولكن الأمر كان كذلك . ومع ذلك شعرت تجاهها الآن بغضب أقرب إلى الكراهية... لقد تمنى [زوجها] الليلة أن ينسى أساه لأجل أسى ابنته فرغب في أن يستسلم لإرادة زوجته...

لم تجرؤ راغنفريد على النهوض ، فقد كانت تعرف أن كريستين قد تكون مستلقية إنما مستيقظة في السرير الآخر . ولكنها رفعت نفسها بهدوء إلى ركبتيها ، وبجبين منحنٍ فوق اللوح السفلي للسرير ، حاولت أن تصلي لأجل ابنتها ولأجل زوجها ولأجلها هي . وبينما راح جسمها ، تدريجياً ، يتيبّس من البرد ، فقد انطلقت مجدداً في واحدة من جولاتها الليلية التي تعرفها جيداً ، محاولة أن تشق طريقها إلى بيت سلام لقلبها .

٣

كانت «هاوغن» تقع عالياً في الجبال على الجانب الغربي من الوادي . وفي هذه الليلة المقمرة كان العالم بأسره أبيض اللون . قبعت الجبال البيضاء في موجة إثر أخرى مقبّبة تحت السماء الزرقاء الشاحبة بنجومها الرقيقة المنثورة . وحتى الظلال التي كانت القمم والقباب تمدّها فوق المنحدرات الجبلية بدت رقيقة وخفيفة على نحو غريب ، وكان القمر مبحراً على ارتفاع شاهق .

نزولاً نحو الوادي ، انتصبت الغابات بيضاء كجزات الغنم من كثرة الثلج والصقيع وذلك من حول الحقول البيضاء التي تناثرت فيها الأكواخ والأسيجة . ولكن هناك في الأسفل بعيداً في قعر الوادي كانت الظلال تتحول إلى عتمة .

خرجت الليدي آشيلد من حظيرة البقر ، أغلقت الباب خلفها ، ووقفت برهة في الثلج . العالم كله كان أبيض مع أنه ما زالت هناك ثلاثة أسابيع بحالها قبل حلول أيام الآحاد الأربعة السابقة على عيد الميلاد . برد قداس كلمنت... لكأن الشتاء قد سبق له وحل فعلاً . أجل ، أجل ، في السنوات الرديئة يكون الأمر غالباً كذلك .

تنهدت المرأة العجوز بقوة في الهواء الكئيب . لقد حل الشتاء والبرد

والوحدة مجدداً... ثم تناولت دلو الحليب ومضت نحو المنزل . نظرت مرة أخرى عبر الوادي .

خرجت أربع نقط سود من الأحراج عند منتصف الطريق صعوداً في الجبل . أربعة رجال على جياد... والتمع نور القمر منعكساً من رأس رمح . كانوا يحرثون الأرض بقوة في الأعلى... لم يكن أحد قد قطع ذلك الطريق منذ أن هطل الثلج . أكانوا قادمين إلى هنا ؟

أربعة رجال مسلحين... لم تكن من عادة أولئك الذين لديهم مهمة قانونية هنا أن يحضروا بهذا العدد . فكرت بالصندوق الذي يحوي أمتعتها وأمتعة بيورن . هل عليها أن تخفيه في المرحاض الخارجي ؟

نظرت مرة أخرى فيما حولها إلى القفر الشتوي فيما حولها . ثم دخلت إلى المنزل . كان الكلبان العجوزان القابعان أمام الموقد المدخن يضربان ألواح الأرضية بذيليهما . كان بيورن قد اصطحب الكلاب الشابة في رحلته إلى الجبال .

نفخت آشيلد على الجمرات حتى توهجت إلى لهب ، ووضعت بعض الحطب فوقها . ثم ملأت الوعاء الحديد بالثلج ووضعته على النار . بعدئذ سكبت الحليب في وعاء الخشب وحملته إلى قرب الغرفة الخارجية .

ثم نزعت ثوبها الصوفي الخشن القذر غير المصبوغ الذي تفوح منه رائحة الحظيرة والعرق ، وارتدت ثوباً بلون أزرق داكن ، واستبدلت قلنسوة أخرى ضيقة من الكتان الرقيق بقلنسوتها المصنوعة من نسالة الكتان وقد ملّستها من حول رأسها وعنقها على نحو ملائم . ثم خلعت حذاءها الجلدي الخشن وارتدت حذاء ذا إبزيم فضي . ثم بدأت ترتب غرفتها... ملست الوسائد والجلود في السرير الذي نام فيه بيورن في ذلك اليوم ، ونظفت المائدة الطويلة ثم رتبت وسائد المقعد الطويل .

حين بدأ الكلبان ينبحان محذرين ، كانت تقف قرب الموقد ، وهي تحرك عصيدة العشاء . سمعت جياداً في الساحة ، ثم وقع خطوات رجال في الغرفة الخارجية . قرع أحدهم على الباب بمؤخر الرمح . رفعت الليدي آشيلد القدر عن النار ، وسوّت ثوبها من حولها ، ومع الكلبين إلى جانبها ؛ مضت إلى الباب وفتحته .

تحت نور القمر كان هناك ثلاثة شبان يمسكون بأربعة جياد بيض من الصقيع . صرخ رجل كان واقفاً أمامها في الردهة بمرح :

«خالتي آشيلد! هل تأتين بنفسك لتفتحي لنا ؟ كلا ، إذن عليّ أن أقول : مرحى !»

«يا ابن أختي ، أهو أنت حقاً ؟ إذن أقول لك الشيء نفسه! ادخل إلى الغرفة بينما أدل رجالك على الاسطبل» .

سأل إرلند : «أأنت وحيدة هنا في المزرعة ؟» ثم تبعها حين دلّت الرجال أين يذهبون .

«أجل ، السير بيورن وخادمنا قد ذهبا إلى الجبل بالمزلجة... سيحضران بعض العلف الذي خزنّاه هناك» ، قالت الليدي آشيلد . «و ليس لدي أي خادمة» ، هذا ما أضافته ضاحكة .

بعد فترة قصيرة كان الشبان الأربعة جالسين على المقعد الخارجي الطويل وظهورهم إلى الطاولة ، وهم ينظرون إلى السيدة العجوز ، وهي تحضر لهم عشاءهم بانهماك إنما بهدوء . وضعت غطاء قماشياً على الطاولة ، ووضعت فوقه شمعة موقدة ، ثم جلبت الزبدة والجبن ولحم الدب المقدد وكومة كبيرة من الشرائح الرقيقة من الخبز الجيد . جلبت الجعة والميد من القبو تحت الغرفة ، ثم سكبت العصيدة في طبق من الخشب الرائع ، وطلبت إليهم الجلوس إلى الطاولة وتناول الطعام .

قالت ضاحكة : «هذا قليل عليكم أيها الشباب . عليَّ أن أغلي قدراً آخر من العصيدة . غداً سيكون الوضع أفضل... ولكني أغلق المطبخ في الشتاء ، إلاّ حين أخبز أو أخمّر . نحن قلة في المزرعة وأنا بدأت أشيخ يا قريبي» .

ضحك إرلند وهز رأسه . لقد لاحظ أن رجاله كانوا يتصرفون أمام المرأة العجوز على نحو ملائم ومتواضع كما لم يسبق له أن عهدهم من قبل .

«أنت امرأة غريبة يا خالتي . كانت أمي تصغرك بعشر سنوات ، وكانت تبدو أكبر سناً حين كنا في منزلك لآخر مرة مما تبدين عليه الآن» .

قالت الليدي آشيلد بصوت رقيق : «أجل ، لقد غادر ماغنهيلد شبابها مبكراً جداً . من أين أنتم قادمون الآن ؟» ، سألت بعد فترة من الزمن .

قال إرلند : «لقد كنت لسبب من الأسباب في إحدى المزارع في الشمال في ليسيا . لقد استأجرت منزلاً هناك . لا أعرف إن كنت تستطيعين أن تخمني السبب الذي أحضرني إلى هذا الريف ؟»

«عليك أن تسأل : هل أعرف أنا أنك قد طلبت من لافرانس بيورغولفسون أوف يوروندغارد يد ابنته ؟»

قال إرلند : «أجل ، لقد خطبتها على نحو ملائم وشريف ، وأجاب لافرانس بيورغولفسون بلا بكل فظاظة . والآن لا أرى من طريقة أفضل ، بما أن كريستين وأنا لا نستطيع العيش بعيدين الواحد عن الآخر ، إلاّ أن أحملها بعيداً بالقوة . لديّ عين هنا في هذا الريف ، وأعرف أن أمها ستكون في «سوندبو» في قداس كلمنت ولفترة أخرى بعده ، وأن لافرانس قد غادر إلى رومسدال مع الرجال الآخرين ليجلب مخزون الشتاء إلى «سيل»» .

جلست الليدي آشيلد صامتة فترة من الزمن .

قالت : «عليك أن تتخلى عن مثل هذا الرأي . لا أعتقد أن الفتاة ستذهب معك طوعاً ، وأعتقد أنك لن تستخدم القوة ؟ »

«أجل ، ولكنها ستفعل . لقد تحدثنا عن ذلك مرات عديدة... لقد رجتني هي بنفسها مرات كثيرة أن أحملها وأنطلق بها بعيداً » .

قالت الليدي آشيلد : «هل فعلت كريستين ذلك حقاً... ؟ » ثم ضحكت . «على أي حال ، لا أنصحك أن تكون واثقاً إلى ذلك الحد من أن الفتاة ستلحق بك حين تطلب منها أن تنفذ وعدها » .

قال إرلند : «بل ستفعل . ويا خالتي ، كانت فكرتي كما يلي : أن ترسلي رسالة إلى يوروندغارد تدعين فيها كريستين لتكون ضيفتك... مدة أسبوع أو نحوه ، خلال غياب أبيها وأمها عن البيت . عندها سنستطيع نحن أن نكون في هامار قبل أن يعلم أحد أنها قد رحلت» .

أجابت الليدي آشيلد وهي لا تزال تبتسم :

«و هل فكرت أيضاً بما علينا نحن ، أعني السير بيورن وأنا ، أن نجيب لافرانس حين يأتي ليسأل عن ابنته ؟ »

قال إرلند : «أجل ، فقد كنا أربعة رجال مسلحين والفتاة كانت راغبة» .

قالت الليدي بانفعال : «لن أساعدك في هذا . فقد كان لافرانس رجلاً موضع ثقة لدينا منذ سنوات كثيرة... وهو وزوجته شخصان محترمان ولن أساهم في خداعهما أو إنزال العار بابنتهما . دع الفتاة في سلام يا إرلند . سرعان ما يحل الوقت الذي يسمع فيه أقرباؤك عن أفعال أخرى لك عدا جولاتك إلى خارج البلاد وفي داخلها مع نساء مختطفات...»

قال إرلند باقتضاب : «عليَّ أن أكلمك على انفراد » .

حملت الليدي آشيلد شمعة وقادته إلى حجرة المؤونة وأغلقت الباب

خلفهما . جلست على صندوق القمح . وقف إرلند ويداه مقحمتان في حزامه ، وهو ينظر إليها من فوق .

«قد تقولين هذا أيضاً للافرانس بيورغولفسون . إن السيرا يون أوف غيردارود قد عقد قراننا قبل هروبنا إلى الليدي إنجبيورغ هاكونسداتر في السويد » . .

قالت الليدي آشيلد : «أهذا ما تراه ؟ هل أنت واثق تماماً أن الليدي آشيلد إنجبيورغ سترحب بكما حين تصلان إلى هناك ؟ » .

قال إرلند : «لقد تكلمت معها في الأمر في تونسبرغ . لقد حيّتني بصفتي قريبها العزيز ، وشكرتني حين عرضت عليها خدماتي سواء هنا أو في السويد . وقد وعدني مونان بإرسال الرسائل إليها » .

قالت آشيلد : «حتى لو وجدت كاهناً يعقد قرانك ، فهل ستقبل كريستين أن تتخلى عن كل حقوقها في ميراث أبيها من أراض ومتاع ؟ لن يستطيع أطفالها أن يكونوا ورثة شرعيين لك . أشك كثيراً في أن تعتبر زوجتك الشرعية» .

«ليس في هذه البلاد ربما . لذلك سنسرع إلى السويد . إن جدها لاورنتيوس لاغماند لم يكن متزوجاً من الليدي بنغتا إطلاقاً... إذ لم يستطيعا الحصول على موافقة أخيها . ومع ذلك اعتُبرت سيدة متزوجة...»

قالت الليدي آشيلد : «لم يرزقا بأطفال . أتظن أن أبنائي لن يطالبوا بميراثك إذا تركت كريستين أرملة مع أطفال وكان مولد هؤلاء الشرعي موضع نزاع ؟ »

قال إرلند : «أنت تخطئين بحق مونان . لا أعرف إلا القليل عن أولادك الآخرين... أعرف بالفعل أنه لا مبرر لديك للحكم عليهم بعطف . ولكن مونان كان دائماً قريبي الموثوق . وهو سيسعده أن أتزوج . إنه هو الذي ذهب إلى

لافرانس ليطلب يد ابنته نيابة عني... وعلاوة على ذلك ، أستطيع أن أضمن لك أن أولادنا من الناحية القانونية سينالون ميراثهم وحقوقهم » .

قالت الليدي آشيلد : «وبذلك تُعتبر أمهم محظيتك» ، قالت الليدي آشيلد . ولكن ما لا أفهمه هو كيف سيتجرأ رجل متواضع وورع شأن يون هلغيسون على تحدي أسقفه بأن يعقد قرانكما على نحو مخالف للقانون » .

«لقد اعترفت له بكل شيء في الصيف الماضي » ، قال إرلند بصوت خفيض . «و قد وعدني عندها بأن يعقد قراننا إن لم تفلح كل الطرق الأخرى... »

قالت الليدي آشيلد : ببطء : «هل الأمر كذلك حقاً ؟... لقد ألقيت بخطيئة كبرى على روحك يا إرلند نيكولاوسون . كانت كريستين في بيتها في وضع ملائم مع أبيها وأمها... وكان أمامها مشروع زواج جيد اتُّفق عليه مع رجل صالح وشريف من أسرة صالحة... »

«لقد حكت لي كريستين بنفسها كيف قلت لها مرة إننا هي وأنا نلائم أحدنا الآخر . وإن سايمون أندرسون ليس بالزوج الملائم لها... »

«أوه... لقد قلت وقلت!» قاطعته آشيلد . «لقد قلت أموراً كثيرة خلال حياتي... لا أستطيع أن أفهم إطلاقاً أنك استطعت أن تسيطر على إرادة كريستين بهذه السهولة . ما كان ممكناً لكما أن تتقابلا مرات كثيرة . وما كان يمكن لي أن أظن تلك الفتاة سهلة المنال إلى تلك الدرجة... »

قال إرلند : «لقد تقابلنا في أوسلو . وبعد ذلك أقامت في غيردارود مع عمها . كانت تخرج لتقابلني في الغابة» . نظر إلى الأرض وتحدث بصوت خفيض جداً : «لقد انفردت بها هناك... »

أجفلت الليدي آشيلد . أحنى إرلند رأسه أكثر من السابق .

«و بعد ذلك... ألا تزال هي على حال من الود معك حتى الآن ؟» سألت بلهجة من لا يصدق .

«أجل» . ابتسم إرلند ابتسامة ضعيفة مرتعشة . «كنا ولا نزال في حال من الود . ولم تشعر بمرارة كبيرة... ولكنها لا تلام على ذلك . عندها كانت تريد مني أن أذهب بها بعيداً... كانت كارهة العودة إلى أهلها...»

«و لكنك لم تفعل ؟»

«لا . كنت مصمماً على محاولة جعلها زوجة لي بموافقة أبيها» .

سألته الليدي آشيلد : «هل مرّ وقت طويل على ذلك ؟» .

«كان قد مرّ عام على ذلك حين حلّ «قداس لورنس»» ، أجاب إرلند .

قالت الأخرى : «أنت لم تستعجل كثيراً في طلب يدها» .

«لم تكن قد تحرّرت بعد من خطيبها الأول» .

سألت آشيلد : «ومنذ ذلك الحين لم تقترب منها ؟»

«لقد استطعنا أن نتقابل بين الحين والآخر» . ومن جديد فإن الابتسامة المرتعشة ارتسمت فوق وجه الرجل . «في منزل في البلدة» .

قالت الليدي آشيلد : «سأساعدكما باسم الرب ،أنت وهي ، بقدر ما أستطيع . أرى الأمر جيداً : لن تستطيع كريستين أن تتحمل طويلاً أن تعيش هناك مع أبيها وأمها ، وهي تخفي عنهما أمراً كهذا... هل هناك المزيد ؟» سألته فجأة .

قال إرلند باختصار : «لم أسمع شيئاً جديداً» .

سألت السيدة بعد برهة : «هل فكرت بأن لكريستين أصدقاء وأقرباء يعيشون جميعاً في ديل ؟»

قال إرلند : «علينا أن نسافر بأكبر سرية ممكنة . لذلك سيلائمنا ألاّ

نؤجل الانطلاق ، أي أن نكون قد أصبحنا على الطريق قبل عودة أبيها إلى البيت . عليك أن تعيرينا زلاجتك يا خالتي » .

هزت آشيلد كتفيها .

«ثم هناك عمها في سكوغ... ماذا لو سمع أنك ستعقد قرانك على ابنة أخيه في غيردارود ؟ »

«لقد تكلم آسموند مع لافرانس لصالحي » ، قال إرلند . «لن نطلعه على خططنا ، ولكن من المحتمل أن يتغاضى... علينا أن نصل إلى الكاهن ليلاً ، ثم نتابع السفر ليلاً . وبعد ذلك ، أعتقد أن آسموند سيبلغ لافرانس أنه لن يكون أمراً ملائماً لشخص يخشى الرب شأن لافرانس أن يفرق بين اثنين جمعهما الكاهن بعقد زواج... وأنه من الأفضل له أن يمنح موافقته ، حتى نصبح زوجاً وزوجة شرعيين . وعليك أن تقولي هذا الشيء نفسه للرجل ، يا خالتي . ويمكنه أن يحدد أي شروط يريدها ككفارة ، وأن يطالب بأي تعويضات يراها عادلة» .

«أعتقد أن لافرانس بيورغولفسون لن يكون بالرجل السهل في مثل هذه الأمور» ، قالت الليدي آشيلد . «و الرب والقديس أولاف يعرفان يا ابن أختي ، أني لا أحب هذه المسألة كلها . ولكني أرى جيداً أن الملاذ الأخير أمامك هو أن تعوض عن الأذى الذي سببته لكريستين . غداً سأذهب شخصياً إلى يوروندغارد ، هذا إذا أعرتني أحد رجالك ، وسوف أكلف أنغريد من المزرعة الصغيرة فوقنا هنا أن تعتني ببقراتي » .

•

وصلت الليدي آشيلد إلى يوروندغارد في مساء اليوم التالي بينما كان نور القمر يكافح آخر ومضات نور النهار . رأت كريستين الشاحبة

ذات الوجنتين الغائرتين حين خرجت هذه إلى الساحة لتستقبل ضيفتها .

جلست الليدي قرب المدفأة تداعب الطفلتين . بين الحين والآخر كانت تختلس نظرات حادة إلى كريستين بينما كانت هذه تتحرك في أرجاء المكان لتحضير مائدة العشاء . كانت نحيلة فعلاً ، ولا يزال قوامها كما هو . كانت دائماً هادئة ، ولكنه كان هدوءاً من نوع آخر يطغى على الفتاة الآن . حزرت الليدي آشيلد أن السبب هو كل التوتر والتحدي العنيدين القابعين تحت ذلك .

قالت كريستين وهي تقترب منها : «لكأنك قد سمعت ما حدث هنا في الخريف الماضي» .

«أجل... أن ابن أختي قد طلب يدك» .

قالت كريستين : «أتذكرين حين قلت لي مرة إننا نلائم بعضنا جيداً ؛ إلا أنه أغنى وأعظم نسباً مني ؟»

قالت الليدي بلهجة جافة : «سمعت أن لافرانس لم يوافق» .

كان هناك وميض في عيني كريستين ، وابتسمت قليلاً . فكرت الليدي آشيلد أن كريستين ستفعل ما هو مطلوب حتماً . ورغم أنها لم تكن تحب الأمر كثيراً ، إلا أن عليها أن تصغي إلى إرلند ، وتقدم له المساعدة .

•

حضرت كريستين سرير والديها لأجل الضيفة ، وطلبت آشيلد أن تنام الفتاة إلى جوارها . وبعد أن استلقتا في السرير وأصبح المنزل هادئاً ، شرحت آشيلد مهمتها .

لقد أصبح قلبها مثقلاً إلى حد غريب وهي ترى هذه الابنة لا تفكر إطلاقاً في الأسى الذي ستسببه لأبيها وأمها . ومع ذلك عشت أنا مع «بارد» أكثر من

عشرين سنة في الحزن والعذاب ، كما فكرت . حسناً ، ربما كانت هذه هي حالنا جميعاً . بدا وكأن كريستين لم تر حتى كيف هزلت أولفهيلد هذا الخريف... فكرت آشيلد في أن كريستين لن ترى أختها الصغيرة بعد الآن . ولكنها لم تذكر هذا إطلاقاً... كلما بقيت كريستين متعلقة بهذا المزاج من السعادة المجنونة المتهورة ، كانت الأمور أفضل ، كما فكرت .

نهضت كريستين في العتمة ، وجمعت زينتها في صندوق صغير أخذته معها إلى السرير . ثم لم تستطع الليدي آشيلد أن تمنع نفسها عن أن تقول :

« و لكني أعتقد يا كريستين أن أفضل طريقة ستكون أن يأتي إرلند إلى هنا ، حين يعود أبوك إلى البيت... أن يعترف له بصراحة أنه أساء إليك إساءة بالغة ، وأن يضع نفسه تحت تصرف لافرانس » .

قالت كريستين : « أعتقد أن أبي سيقتل إرلند عندئذ » .

« لن يفعل أبوك ذلك إن رفض إرلند أن يجرد سيفه ضد والد حبيبته » .

قالت كريستين : « لا أريد لإرلند أن يُذل على هذا النحو . ولا أريد لأبي أن يعرف أن إرلند قد لمسني قبل أن يطلب يدي بكل احترام وشرف » .

قالت آشيلد : « أتظنين أن لافرانس سيكون أقل غضباً حين يعلم أنك هربت من منزله مع إرلند ؟ وتعتقدين أن حزنه سيكون أقل ؟ طالما أنك تعيشين مع إرلند ، ولم يوافق أبوك على زواجكما ، فلن تكوني سوى عشيقته أمام القانون » .

قالت كريستين :« إنه لأمر آخر أن أكون عشيقة إرلند بعد أن حاول هذا عبثاً أن يطلب يدي لأكون زوجته قانونياً » .

صمتت الليدي آشيلد . فكرت بلقائها مع لافرانس بيورغولفسون حين سيأتي إلى المنزل ويعرف أن ابنته قد اختطفت .

ثم قالت كريستين :

«أري جيداً يا ليدي آشيلد أني أبدو لك كابنة شريرة ناكرة للجميل . ولكن ما جرى في هذا المنزل منذ أن عاد أبي من مجلس هاوغا هو أن أصبح كل يوم من الأيام تعذيباً له، ولي . الأفضل أن نضع حداً لهذه المسألة» .

•

غادرتا يورونداغارد باكراً في اليوم التالي ، ووصلتا إلى هاوغن بعد العصر بقليل . قابلهما إرلند في الساحة ، ورمت كريستين بنفسها بين ذراعيه دون أن تكترث بالرجل الذي كان يرافقها والليدي آشيلد .

في المنزل حيّت بيورن غونارسون ، ثم حيّت خادمي إرلند وكأنها تعرفهما جيداً من قبل . لم تر الليدي آشيلد أي أمارة فيها تدل على الخجل أو الخوف . ولاحقاً ، حين جلسوا إلى المائدة ، وشرح إرلند خطته ، شاركت كريستين في إبداء الرأي مع الآخرين وطرحت أفكارها حول الرحلة : أن عليهم أن يتحركوا من هاوغن في مساء اليوم التالي في وقت متأخر حتى يصلوا إلى الوادي مع غروب الشمس ، ليعبروا في العتمة عبر «سيل» إلى ما وراء لوبتسغارد ، ومن هناك على امتداد نهر أوتا إلى الجسر ثم على امتداد الجانب الغربي من نهري أوتا ولاغن عبر ممرات ثانوية خلال الأراضي المقفرة بقدر ما تستطيع الجياد حملهم . ثم عليهم أن يرتاحوا خلال النهار في إحدى سايترات الربيع الفارغة على جانب الجبل هناك . «لأنه حتى نخرج من منطقة هولديس هناك خوف دائم من أن نقابل أشخاصاً يعرفونني» .

قالت آشيلد : «هل فكرتم بالعلف للجياد ؟ لا تستطيعون سرقة سايتر الناس في سنة كهذه السنة - حتى لو كان هناك علف فيها - وأنتم لا تعرفون أحداً في كل ديل يملك علفاً يبيعه هذه السنة» .

أجابت كريستين : «لقد فكرت في ذلك . عليك أن تقرضينا طعاماً وعلفاً يكفي لثلاثة أيام . وهذا سبب يدعونا ألا نسافر مع كل هذا العدد الكبير من الرجال . على إرلند أن يرسل يون إلى هوسابي . كان الموسم أفضل في جانب تروندهايم ، ولا شك أن بعض الحمولات يمكن إحضارها عبر الجبال قبل ثلوج فترة عيد الميلاد . هناك بعض الفقراء الذين يسكنون هناك في الجنوب في الأبرشية ، يا ليدي آشيلد ، وأودّ أن أساعدهم بهدية من العلف من إرلند ومني» .

ضحك بيورن ضحكة غريبة خالية من المرح أشبه بضحكة حصان . هَزَّتْ الليدي آشيلد رأسها . ولكن خادم إرلند المسمى «أولف» رفع وجهه الحاد الداكن البشرة ونظر إلى كريستين بابتسامة جريئة :

«في هوسابي لا توجد وفرة على الإطلاق ، يا كريستين لافرانسداتر ، لا في السنوات الطيبة ولا في تلك الرديئة . ولكن ربما ستكون الأمور قد تغيرت حين تأتين لتصبحي سيدة المكان . من يسمع كلامك سيعتبرك ربة المنزل التي يحتاجها إرلند» .

أومأت كريستين برأسها إلى الرجل وتابعت الكلام . عليهم أن يبتعدوا عن الطريق العام بقدر ما يستطيعون . وهي لا تعتبر أنه من الحكمة اتباع الطريق التي تمرّ عبر هامار . ولكن إرلند قال إن مونان موجود هناك ، وعليهم أن يحصلوا على الرسالة الموجهة إلى الدوقة .

قالت بابتسامة : «إذن على أولف أن يغادرنا إلى فاغابيرغ ويمضي إلى السير مونان ، بينما نتابع طريقنا إلى الغرب من ميوسن ونشق طريقنا عبر الأرض والدروب الجانبية من خلال هادلاند حتى هاكيدال . ومن هناك سنجد طريقاً قفراً يؤدي إلى مارغريتادال ، كما سمعت عمي يقول . لن يكون من الحكمة لنا أن نمرَّ عبر راوماريك في هذه الأيام حيث سيقام حفل زفاف ضخم في دايفرين» .

التف إرلند ووضع ذراعه حول كتفيها ، فاستندت إليه ، دون أن تأبه بوجود الآخرين الذين جلسوا وراحوا ينظرون .

قالت الليدي آشيلد غاضبة :

«لن يصدق أحد إلا أنكما معتادان تماماً على الهروب» . وهنا ضحك السير بيورن مجدداً ضحكته الحصانية .

وبعد فترة قصيرة نهضت الليدي آشيلد لتذهب إلى المطبخ وتدبر أمر الطعام . كانت قد أشعلت نار المطبخ حتى يستطيع رجال إرلند النوم هناك ليلاً . طلبت من كريستين أن ترافقها : «لأنه سيكون عليّ أن أقسم أمام لافرانس بيورغولفسون أنك لم تكوني وحدك ولو لحظة واحدة في منزلي» ، هذا ما قالته بغضب .

ضحكت كريستين وذهبت مع الليدي . وسرعان ما جاء إرلند يمشي خلفهما ، وسحب كرسياً ووضعه أمام الموقد ، وجلس هناك ، معيقاً عمل المرأتين . كان يمسك بكريستين في كل مرة كانت تقترب فيها منه ، وهي منشغلة بأداء عملها بسرعة . وأخيراً أجلسها على ركبته :

«صحيح ما قاله أولف من أنك ربة البيت التي أحتاج إليها» .

قالت آشيلد : «أجل ، أجل» و ذلك بضحكة يشوبها الغضب . «ستخدمك جيداً . إنها هي من يخاطر بكل شيء في هذه المغامرة... أنت لا تغامر بالكثير» .

قال إرلند : «أنت تنطقين بالحقيقة . ولكني وددت كثيراً أن أبرهن على أنه كانت لديّ الإرادة على طلب يدها بالطريقة الصحيحة . لا تكوني غاضبة إلى هذا الحد ، يا خالة آشيلد» .

قالت الليدي : «لا بدّ من غضبي . ما أن نظمتَ أمور بيتك بشق الأنفس ، هاأنت تعود مضطراً إلى الهروب منه مجدداً مع امرأة» .

«عليك أن تتذكري يا قريبتي... وكما هي الحال دائماً... أن ليس أسوأ الرجال هم من يقعون في ورطة من أجل امرأة... هكذا تحكي لنا الحكايات البطولية» .

قالت آشيلد : «فليكن الرب في عوننا جميعاً!» كان وجهها قد عاد شاباً وناعماً . «لقد سمعت تلك الحكاية سابقاً يا إرلند» . وضعت يدها على رأسه وشدت شعره قليلاً .

في تلك اللحظة فتح أولف هالدورسون الباب بقوة وأغلقه من خلفه بسرعة :

«لقد جاء ضيف آخر يا إرلند... آخر شخص تتمنى أن تراه على ما أعتقد» .

قال إرلند مجفلاً : «هل هو لافرانس بيورغولفسون ؟» .

قال الرجل : «ليته كان هو . إنها إلين أورمسداتر» .

•

فُتح الباب من الخارج ، وكان أن دفعت المرأة التي دخلت أولف جانباً وتقدمت نحو النور . نظرت كريستين إلى إرلند . بدا أولاً وكأنه ينكمش ويتقلص معاً . ثم تمالك نفسه مع حميّا داكنة على وجهه :

«باسم الشيطان ، من أين أتيت ؟ ما الذي تريدينه هنا ؟»

تقدمت الليدي آشيلد وتكلمت :

«عليك أن تأتي معنا إلى المنزل الرئيسي يا إلين أورمسداتر . ما لدينا من حسن السلوك في هذا البيت يمنعنا من استقبال ضيوفنا في المطبخ .

قالت الأخرى : «لا أتطلع يا ليدي آشيلد إلى أن يرحب بي كضيفة من

قبل أقرباء إرلند . سألتني من أين أتيت ؟... لقد جئت من هوسابي ، كما تعرف . وأحمل لك تحيات أورم ومارغريت ، وهما بخير » .

لم يجب إرلند .

تابعت : «حين سمعت أنك طلبت من غيسور أرنفينسون أن يجمع لك بعض المال ، وأنك رحلت إلى الجنوب مجدداً ، فكرت أنك تريد قضاء بعض الوقت مع أقربائك في غودبراندسدال . كنت أعرف أنك طلبت يد ابنة جار من جيرانهم » .

نظرت إلى كريستين للمرة الأولى ، وقابلت عيني الفتاة . كانت كريستين شديدة الشحوب ، لكنها نظرت بهدوء وحدة إلى الأخرى .

كانت هادئة كالحجارة . لقد عرفت الأمر من لحظة سماعها اسم الشخص القادم... كانت هذه هي الفكرة التي كانت تهرب منها دائماً . هذه الفكرة حاولت هي أن تخنقها تحت نفاد الصبر والقلق والتحدي . لقد حاولت طوال الوقت جاهدة ألاّ تفكر فيما إذا كان إرلند قد حرّر نفسه تماماً وبالكامل من عشيقته السابقة . والآن غلبتها المفاجأة : لا مجال للنضال بعد الآن . ولكنها لم تتوسل ولم تتضرع لنفسها .

رأت أن إلين أورمسداتر كانت جميلة . ما عادت شابة الآن ، ولكنها كانت جميلة... لا بد أنها كانت فائقة الجمال ذات مرة . كانت قد رمت بقلنسوتها إلى الخلف . رأسها مدور كالكرة ، وقاس . كانت عظام وجنتيها بارزة... ولكن كان من الواضح للعيان أنها كانت جميلة جداً ذات مرة . كانت قبعتها الكتانية الضيقة لا تغطي سوى الجزء الخلفي من رأسها . وبينما كانت تتكلم كانت يداها تمسّدان باستمرار شعرها الأمامي المموج الذهبي اللون تحت القبعة الكتانية . لم تكن كريستين قد شاهدت امرأة لها مثل هاتين العينين الواسعتين . كان لونهما بنياً داكناً وكانتا مستديرتين وقاسيتين .

ولكن تحت الحاجبين الضيقين الأسودين كالفحم والرموش الطويلة كانتا جميلتين إلى حد غريب تحت ذلك الشعر الذهبي . كانت بشرة وجنتيها وشفتيها مقرحة ومسلوخة من سفرها في البرد ، ولكن ذلك لم يفسد جمالها كثيراً . كانت أجمل من أن يفسد ذلك من حسنها . كان ثوب الركوب الثقيل يغطي قوامها ، ولكنها كانت تتحرك كامرأة شديدة الاعتزاز بنفسها ومطمئنة إلى روعة جسدها الجميل . لم تكن طويلة ككريستين . ولكنها كانت تتحرك بحيث تبدو أطول من الفتاة الرشيقة ذات الأطراف كالرمح .

سألت كريستين بصوت خفيض : «هل كانت معك في هوسابي طوال الوقت ؟»

قال إرلند بغضب ووجهه يحمرّ مجدداً : «لم أكن في هوسابي . كنت أسكن في هستنايس معظم الصيف» .

قالت إلين : «إليك الأنباء التي أحملها لك يا إرلند . لم يعد هناك حاجة إلى أن تلجأ إلى أقربائك وتجرب ضيافتهم لأني أدير منزلك . منذ هذا الخريف أصبحت أرملة» .

وقف إرلند دون حراك .

قال بجهد : «لم أطلب منك القدوم إلى هوسابي في العام الماضي لتديري منزلي» .

قالت إلين : «سمعت أن كل شيء كان آخذاً بالضياع هناك . وكنت لا أزال أحتفظ لك ببعض الحنان من الأيام الغابرة ، يا إرلند ، ففكرت في أن أقدم لك يد المساعدة... رغم أن الرب يعلم أنك لم تعامل ولديك كما لم تعاملني بعدل» .

قال إرلند : «لقد فعلت ما استطعت للولدين . حسناً أنت تعرفين أني لأجلهم سمحت لك بالسكن في هوسابي . أما أنك كنت ذات فائدة لهما أو

لي فلا أعتقد أنك تظنين ذلك» . ثم أضاف وهو يبتسم باحتقار : «يمكن لغيسور أن يدير الأمور على نحو جيد دون مساعدتك» .

قالت إلين ضاحكة برقة : «أجل ، كانت لك دائماً ثقة كبيرة في غيسور . ولكن الأمر الآن يا إرلند هو ما يلي : أنا حرة الآن . وإن شئت تستطيع أن تفي بالوعد الذي قطعته لي ذات مرة» .

وقف إرلند صامتاً .

سألت إلين : «أتذكر الليلة التي ولدت فيها ابنك ؟ لقد وعدتني بالزواج حين يموت سيغورد» .

تخلّل إرلند شعره بيده ، شعره الرطب من العرق .

قال : «أجل... أذكر» .

سألت إلين : «هل ستفي بهذا الوعد الآن ؟»

قال إرلند : «لا» .

نظرت إلين أورمسداتر إلى كريستين... ثم ابتسمت قليلاً وأومأت برأسها . ثم نظرت مجدداً إلى إرلند .

قال الرجل : «لقد مرت عشر سنوات على ذلك الوعد يا إلين . ومنذ ذلك الحين عشنا أنت وأنا معاً الحلو والمر كروحين ملعونتين في جهنم» .

قالت بالابتسامة نفسها : «و لكن ليس ذلك فحسب ، على ما أعتقد» .

قال إرلند ببطء : «لقد مضت سنوات وسنوات منذ أن حدث أي شيء : لن يكون حال الطفلين أفضل . وأنت تعرفين... تعرفين أني لم أعد أحتمل المكوث في غرفة واحدة معك!» كان على وشك الصراخ .

قالت إلين بابتسامة ذات مغزى : «لم ألاحظ أياً من هذا حين كنت في البيت خلال الصيف . عندها لم نكن دائماً في جفوة» .

«إن كنت تعتقدين أننا كنا صديقين ، فلتفهميها كما تشائين» ، قال منهكاً .

قاطعت الليدي آشيلد : «هل ستقفين هنا إلى ما لا نهاية ؟» صبت العصيدة من القدر في طبقين خشبيين كبيرين وأعطت أحدهما إلى كريستين . تناولته الفتاة . «احمليه إلى القاعة... وأنت يا أولف ، خذ الآخر... ضعوهما على المائدة... علينا أن نتعشى مهما كان الأمر» .

خرجت كريستين والرجل وهما يحملان الطبقين . قالت الليدي آشيلد للآخرين .

«تعالا أنتما الاثنين الآن . ما الفائدة من وقوفكما هناوأحدكما ينبح على الآخر ؟»

قال إرلند : «الأفضل أن نتحادث إلين وأنا معاً الآن» .

لم تقل الليدي آشيلد شيئاً آخر ، بل خرجت وتركتهما .

•

في القاعة كانت كريستين قد حضرت المائدة وجلبت الجعة من القبو . جلست على المقعد الخارجي ، مستقيمة كالعصا وهادئة الوجه ، ولكنها لم تأكل شيئاً . ولم يكن لدى الآخرين شهيّة كبيرة لا رجال بيورن ولا إرلند . ولكن الرجل الذي رافق إلين وأجير بيورن فقد أكلا بشهية . جلست الليدي آشيلد وأكلت العصيدة . لم ينبس أحد ببنت شفة .

و أخيراً وبعد وقت طويل دخلت إلين أورمسداتر وحدها . طلبت منها الليدي آشيلد الجلوس بين كريستين وبينها . جلست إلين وأكلت قليلاً . بين الحين والآخر كان وميض من ابتسامة خفية يلوح على وجهها ، فتختلس نظرة من كريستين .

•

بعد فترة ، خرجت الليدي آشيلد إلى المطبخ .

كانت النار في الموقد قد انطفأت تقريباً . وكان إرلند يجلس قربها على كرسي واطئ وقد انطوى على نفسه ورأسه بين ذراعيه .

ذهبت الليدي آشيلد إليه ووضعت يدها على كتفه .

«فليغفر لك الله يا إرلند لأنك أوصلت الأمور إلى هذه النتيجة» .

التفت إرلند إليها بوجه لطخه البؤس .

قال : «إنها حامل» . ثم أغمض عينيه .

التهب وجه الليدي آشيلد . أمسكته بقوة من كتفه :

«أيهما ؟» سألت بخشونة واحتقار .

قال إرلند بالصوت الميت نفسه : «إنه ليس ابني . ولكن من المحتمل ألاّ تصدقيني -لن يصدقني أحد...» ثم غرق مجدداً في الصمت .

جلست الليدي آشيلد أمامه على حافة الموقد :

«الآن عليك أن تحاول لعب دور الرجل يا إرلند . ليس من السهل جداً تصديقك في هذه القضية . أتقسم أنه ليس ابنك ؟»

رفعٌ إرلند وجهه المحطم .

«كما أنا في حاجة إلى رحمة الرب بكل تأكيد -على ما آمل- وكما واسى الرب في السماء الأم لقاء كل ما عانته هنا -فإني لم ألمس إلين منذ أن شاهدت كريستين لأول مرة!» صرخ بهذه الكلمات حتى اضطرت الليدي آشيلد إلى إسكاته .

«إذن لا أرى أن هذه المصيبة كبيرة إلى هذا الحد . عليك أن تعرف من هو الأب ، وتجعله يتزوجها» .

«أعتقد أنه غيسور أرنفينسون ، وكيلي في هوسابي» ، قال إرلند منهكاً . «لقد تحدثنا معاً في العام الماضي-و منذ ذلك الحين أيضاً- فقد

كان موت سيغورد أمراً متوقعاً طوال هذه الفترة . كان راغباً في الزواج منها ، حين تصبح أرملة ، إن منحتها حصة ملائمة... »

قالت الليدي آشيلد : « حسناً إذن ؟ » وتابع إرلند :

« إنها تقسم أعظم الأيمان بأنه لا علاقة له بالأمر . وهي ستقول إني أنا الأب . ولو أقسمت بأني لست الأب ، هل تعتقدين أن أي شخص سيصدق سوى أني أحنث باليمين ؟ »

قالت الليدي آشيلد : «عليك أن تتمكن من ثنيها عن غرضها . لا مجال الآن أمامك سوى الذهاب إلى هوسابي معها في الغد لا أكثر . وهناك عليك أن تقسّي قلبك وتقف موقفاً حازماً حتى تحقق هذا الزواج بين وكيلك وإلين » .

قال إرلند : «أجل» . ثم رمى بنفسه إلى الأمام ثانية وأنّ بصوت مرتفع :

«ألا ترين الوضع يا خالتي ؟ ما الذي ستعتقده كريستين في رأيك ؟ »

•

في الليل استلقى إرلند في المطبخ مع الرجال . في المنزل الرئيسي نامت كريستين مع الليدي آشيلد في سريرها ، كما نامت إلين أورمسداتر في السرير الآخر . خرج بيورن ونام في الإسطبل .

في صباح اليوم التالي خرجت كريستين مع الليدي آشيلد إلى زريبة الأبقار . وبينما مضت الليدي إلى المطبخ لتحضر الإفطار ، حملت كريستين الحليب إلى المنزل الرئيسي .

كانت هناك شمعة موقدة على المائدة . كانت إلين جالسة على طرف سريرها مرتدية ملابسها . حيّتها كريستين بصمت ثم أحضرت وعاء حليب وصبت الحليب فيه .

سألت إليـن : «هل لك أن تعطيني جرعة من الحليب ؟» تناولت كريستين مغرفة خشبية وملأتها بالحليب وسلمتها إلى الأخرى . شربت برغبة ، وهي تنظر إلى كريستين من فوق حافة المغرفة .

قالت وهي تعيد المغرفة : «إذن أنت كريستين لافرانسداتر التي سرقت حب إرلند مني» .

قالت الفتاة : «أنت التي تعرف بالضبط إن كان قد تبقى هناك حب ليُسرق» .

عضت إلين شفتها .

قالت : «ما ستفعلين لو أن إرلند ملّ منك يوماً وعرض عليك الزواج من خادمه ؟ هل ستلبين مطلبه ذاك أيضاً ؟»

لم تجب كريستين . ثم ضحكت الأخرى وقالت :

«أنت تلبين رغباته كلها الآن ، كما أعتقد . ما رأيك يا كريستين... هل نرمي بالنرد لنرى من التي ستربح هذا الرجل نحن عشيقتي إرلند نيكولاوسون ؟» وحين لم تحصل على جواب ، ضحكت ثانية وقالت : «هل أنت ساذجة إلى حد تنكرين معه أنك عشيقته ؟»

قالت كريستين : «لا أهتم بالكذب عليك» .

«لن يفيدك هذا إلاّ قليلاً لو فعلته» ، أجابت إلين وهي لا تزال تضحك . «أعرف الفتى جيداً جداً . لقد رمى بنفسه عليك كديك أسود على ما أعتقد ، في المرة الثانية التي كنتما فيها معاً . أرثي لك أيتها الطفلة الجميلة» .

شحبت وجنتا كريستين . وإذ شعرت بالغثيان من الكراهية ، قالت بصوت خفيض :

«لن أكلمك...»

استأنفت إلين الكلام : «أو تظنين أنه سيعاملك أفضل من معاملته لي ؟» فأجابت كريستين بحدة :

«لن ألوم إرلند على أي شيء ، مهما فعل . لقد ضللت بإرادتي... لن أتذمر أو أنوح لو قادني ذلك الدرب إلى الصخور...»

صمتت إلين فترة . ثم قالت دون ثبات ووجهها آخذ بالاحمرار :

«كنت عذراء أيضاً حين عاشرني يا كريستين... رغم أني كنت زوجة بالاسم لذلك الرجل المسن منذ سبع سنين . ولكنك لن تفهمي على الأرجح أبداً بؤس تلك الحياة» .

بدأت كريستين ترتجف بشدة . نظرت إلين إليها . ثم أخرجت قرناً صغيراً من حقيبة سفرها التي كانت إلى القرب منها على درجة السرير . كسرت السدادة التي كانت على فم القرن وقالت برقة :

«أنت شابة وأنا عجوز يا كريستين . أعرف جيداً أني لن أنجح في المواجهة ضدك... فهذا أوانك . هل تشاركينني الشراب يا كريستين ؟»

لم تتحرك كريستين . ثم رفعت الأخرى القرن إلى شفتيها ، ولكن كريستين لاحظت أنها لم تشرب . قالت إلين :

«سيكون شرفاً عظيماً لي أن تشربي نخبي... هل تعدينني بألاّ تكوني زوجة أب قاسية لولديّ ؟»

أخذت كريستين القرن . في تلك اللحظة فتح إرلند الباب . وقف برهة وهو يُنَقِّلُ النظر بين المرأتين .

سأل : «ما هذا ؟»

أجابت كريستين بصوت هائج ثاقب :

«نحن نشرب نخب بعضنا البعض... نحن... عشيقتيك...»

أمسك برسغها وأخذ منها القرن .

قال بصوت قاس : «اهدئي . لن تشربي معها» .

سألت كريستين بالصوت نفسه : «و لم لا ؟ كانت طاهرة مثلي حين أغويتها...»

قال إرلند : «لقد كررت هذا غالباً حتى صرت أعتقد الآن أنها قد صدقته . أتذكرين يا إلين حين جعلتني أذهب إلى سيغورد بتلك الحكاية حتى أحضر شاهداً شهد بأنه قد أمسك بك من قبل وأنت تعاشرين رجلاً آخر ؟»

أشاحت كريستين بوجهها وقد شحب من الكراهية . كان وجه إلين قد احمر الآن فقالت بتحدٍ :

«و لكن الفتاة لن تصاب بالجذام لو شربت معي!»

التفت إرلند إلى إلين غاضباً... وفجأة استطال وجهه وأصبح قاسياً كالصخر ، وشهق في رعب .

«يا للمسيح» قال وهو يتنفس بصعوبة . وأمسك بألين من ذراعها .

«اشربي أنت نخبها إذن» ، قال بصوت قاس مرتجف . «اشربي أنت أولاً ، ثم ستشرب هي نخبك» .

خلصت إلين ذراعها من قبضته وهي تئنّ . هربت نحو الخلف في الغرفة والرجل يلاحقها . «اشربي الشراب الذي خمّرته لأجل كريستين!» أمسك بذراع إلين ثانية وجرها إلى المائدة ، ثم قرّب رأسها بالقوة من القرن .

زعقت إلين ودفنت وجهها في ذراعها . حرّرها إرلند ووقف يرتجف .

صرخت إلين : «كانت حياتي جحيماً مع سيغورد . لقد وعدتني... أنت... ولكنك أسوأ الجميع معي يا إرلند!»

تقدمت كريستين وأمسكت بالقرن :

«على إحدانا أن تشرب... لا يمكنك الاحتفاظ بنا كلتينا...»

انتزع إرلند القرن منها وأبعدها عنه بشدة حتى أنها دارت حول نفسها ثم سقطت قرب سرير الليدي آشيلد . ومن جديد دفع بالقرن أمام فم إلين أورمسداتر... وإحدى ركبتيه على المقعد . كان يقف إلى جانبها ، وبيد حول رأسها حاول أن يقحم الشراب بين أسنانها .

مدت يدها من تحت ذراعه وانتزعت الخنجر من المائدة وطعنته به بقوة . ولكن الطعنة خدشت لحمه فحسب عبر ملابسه . ثم وجهت رأس الخنجر نحو صدرها وفي اللحظة التالية كانت قد انهارت جانبياً بين ذراعيه .

نهضت كريستين واقتربت منهما . كان إرلند ممسكاً بإلين ، ورأسها مدلى على ذراعه . وعلى الفور سمعت حشرجة من حنجرتها ونبَع الدم وجرى من فمها . بصقت بعضاً منه وقالت :

« كنت أخبئ ذلك الشراب لك... منذ زمن بعيد... لقد خدعتني... »

قال إرلند بصوت خفيض : « أحضري الليدي آشيلد . وقفت كريستين دون حراك » .

قال إرلند بالصوت نفسه : « إنها تحتضر » .

قالت كريستين : « إنها في وضع أفضل منّا » . نظر إرلند إليها... ولكن اليأس في عينيه جعلها ترق . غادرت الغرفة .

« ما الحكاية » سألت الليدي آشيلد حين نادتها كريستين من المطبخ .

قالت كريستين : « لقد قتلنا إلين أورمسداتر . إنها تحتضر... »

هرعت الليدي آشيلد نحو المنزل الرئيسي . ولكن إلين لفظت أنفاسها الأخيرة حين تخطت الليدي العتبة .

•

مددت الليدي آشيلد المرأة الميتة على المقعد ، ومسحت الدم عن

وجهها وغطته بكتان قبعتها . وقف إرلند مستنداً على الجدار خلف الجثمان .

قالت آشيلد : «أتعرف أن هذا أسوأ أمر يمكن أن يحدث ؟ »

كانت قد ملأت الموقد بالأغصان والحطب .

و الآن أقحمت القرن في وسطها وأضرمت النار فيها .

سألته الليدي مجدداً : «هل تستطيع الثقة بالرجال ؟ »

«أولف وهافتور يمكن الوثوق بهما على ما أعتقد . أما يون والرجل الذي يرافق إلين فلا أعرفهما إلا قليلاً» .

قالت الليدي : «أنت تعرف أنه ربما لو كشف أنك كنت وكريستين معاً هنا وأنكما كنتما معها حين ماتت ، لكان أفضل لكريستين لو تركتها تشرب من شراب إلين... ولو جرى كلام عن السم ، فإن الجميع سيتذكرون التهمة التي وجهت إليَ ذات مرة... هل لها أي أقرباء أو أصدقاء ؟ »

قال إرلند بصوت خفيض : «لا . ليس لها سواي» .

قالت الليدي آشيلد ثانية : «و مع ذلك ، سيكون من الصعب إخفاء الأمر والتخلص من الجثة ، دون أن يُظن بك أسوأ الظنون» .

قال إرلند : «ستزتاح في أرض مقدسة ، ولو كلفني ذلك هوسابي . ما تقولين يا كريستين ؟ »

أومأت كريستين برأسها .

جلست الليدي آشيلد صامتة . وكلما فكرت في الأمر بدت لها المسألة أكثر صعوبة على الحل . في المطبخ كان أربعة رجال : حتى لو استطاع إرلند أن يرشوهم جميعاً ليبقوا صامتين ، وحتى لو أن بعضهم قد أعطي الرشوة ليغادر البلاد ، ومن بينهم مرافق إلين ، ما كان ممكناً ضمانهم جميعاً . وكان معروفاً في يورووندغارد أن كريستين كانت هنا... ولو سمع لافرانس بهذا ،فإنها تخشى من التفكير بما سوف يفعله . وكيف ستحمل المرأة الميتة من هنا . كان الممر

الجبلي إلى الغرب مستحيل العبور الآن... ولكن هناك الطريق إلى رومسدال أو عبر الجبال إلى تروندهايم أو جنوباً إلى «ديل» . وإذا ما كشفت الحقيقة ، لن يصدقها أحد ، حتى لوسمح الناس باعتبارها حقيقة .

قالت : «عليّ أن أشاور بيورن في هذه المسألة» ، ثم نهضت وذهبت لتناديه .

أصغى بيورن غونارسون إلى حكاية زوجته دون أن يحرك عضلة ودون أن يبعد عينيه عن وجه إرلند .

قالت آشيلد يائسة : «بيورن ، لا مجال أمامنا إلاّ أن يقسم أحدهم أنه رآها تقتل نفسها» .

بدأت عينا بيورن الميتتان تصبحان داكنتين ببطء والحياة تعود إليهما . نظر إلى زوجته فزوى فمه بابتسامة ماكرة .

«وتعنين أن عليّ أن أكون ذلك الشخص ؟»

فركت الليدي آشيلد يديها بقوة ورفعتهما باتجاهه :

«بيورن ، أنت تعرف جيداً ما يعنيه ذلك لهذين الشخصين» .

قال ببطء : «و تعتقدين أن الأمر انتهى بالنسبة إليّ على أي حال ؟ أو هل تظنين أن هناك الكثير لا يزال من ذلك الرجل الذي كنته حتى أتجرأ فأقسم يميناً كاذبة لأنقذ ذلك الفتى من الخراب ؟ أنا الذي حُط من قدره... قبل كل تلك السنوات» . ثم كرر قائلاً : «أنا الذي حُط من قدره» .

همست آشيلد : «تقول ذلك لأني أصبحت عجوزاً الآن» .

انفجرت كريستين تبكي بطريقة بحيث أن صوتها الثاقب ملأ الغرفة . جلست في الزاوية قرب سرير آشيلد ، متيبسة وصامتة . والآن راحت تبكي بكاء عاصفاً وعالياً . لكأن صوت الليدي آشيلد قد مزق قلبها . كان صوتها محملاً بذكريات حلاوة الحب . لكأن الصوت قد جعلها تفهم لأول مرة ماهيّة

حبها وحب إرلند . كانت ذكرى السعادة الحارة والمتقدة قد اجتاحت كل شيء آخر... اجتاحت اليأس والكراهية القاسيين اللذين عرفتهما الليلة الماضية . كل ما كانت تعرفه الآن كان حبها وإرادتها على الصمود .

نظروا إليها... ثلاثتهم . ثم مضى السير بيورن ورفع ذقنها بيده ونظر إليها :

« قولي لي يا كريستين ، هل قتلت نفسها بيدها ؟ »

قالت كريستين بصرامة : « كل كلمة سمعتها صحيحة . لقد هددناها حتى فعلتها » .

قالت آشيلد : « كانت تنوي لكريستين مصيراً أسوأ » .

ترك السير بيورن الفتاة . مضى نحو الجسد ورفعه إلى السرير الذي نامت عليه إلين في الليلة السابقة ، ثم جعله قريباً من الجدار ، وغطاه جيداً بالأغطية .

« عليك أن ترسل يون والرجل الذي لا تعرفه إلى هوسابي ، مع رسالة تفيد بأن إلين ستسافر جنوباً معك . اجعلهما يسافران ظهراً . قل إن النساء لا يزلن نائمات في المنزل الرئيسي ، وعليهن أن يتناولن الطعام في المطبخ . وبعد ذلك تكلم إلى أولف وهافتور . هل هددت هي سابقاً بالانتحار ؟ حتى تجعلهما شاهدين على ذلك إذا ما طُرح سؤال كهذا ؟ »

قال إرلند منهكاً : « كل شخص في هوسابي في آخر عام عشناه معاً هناك يستطيع أن يشهد بأنها كانت تهدد بالانتحار... وبقتلي أحياناً – في كل مرة حدثتها فيها عن انفصالي عنها » .

ضحك بيورن بقسوة :

« فكرت في ذلك . الليلة علينا أن نلبسها معاطف الركوب ونضعها في المزلجة . عليك الجلوس إلى جانبها... »

ترنح إرلند على قدميه حيث كان واقفاً :

« لا أستطيع ذلك» .

« الرب يعرف كم سيتبقى فيك من الرجولة بعد أن تعيش على هواك عشرين سنة أخرى» ، قال بيورن . « هل تظن أنك تستطيع قيادة المزلجة ؟ » إذن سأجلس أنا إلى جانبها . علينا أن نسافر ليلاً وفي ممرات منعزلة ، حتى نصل إلى فرون . في هذا البرد لن يعرف أحد كم مرّ عليها منذ موتها . سنسير حتى تكية الرهبان في روالدستاد . وهناك سنشهد أنت وأنا على أنكما كنتما معاً في المزلجة وأن عبارات مريرة قد تم تبادلها بينكما . هناك شهود على أنك كنت لا تريد العيش معها منذ أن رُفع التحريم عنك ، وأنك قد خطبت فتاة من أسرة تليق بمقامك . على أولف وهافتور أن يكونا منعزلين طوال الرحلة ، حتى يستطيعا أن يقسما عند الحاجة أنها كانت حية حين رأوها آخر مرة . تستطيع أن تطلب منهما القيام بذلك ، على ما أعتقد ، أليس كذلك ؟ في الدير تستطيع أن تجعل الرهبان يضعونها في تابوت... وبعد ذلك سيكون عليك أن تقايض الكهنة مقابل راحة روحها في القبر وراحة روحك...

« ... أجل ، هذا ليس بالعمل الجميل . ولكن حسب إدراتك أنت للأمور ، فلا يمكن أن تكون أجمل من ذلك . لا تقف هناك كامرأة حامل على وشك أن يغمى عليها . فليساعدك الله يا فتى ، يستطيع المرء أن يرى أنك لم تمرّ سابقاً بتجربة الإحساس بحد السكين على عنقك» .

وصلت ريح قارسة مندفعة من الجبال ، تدفع بدخان فضي رقيق من أكاليل الثلج إلى الهواء الأزرق القمري ، بينما استعد الرجال للرحيل .

تم تجهيز حصانين الواحد أمام الآخر . جلس إرلند في مقدمة المزلجة . مضت كريستين إليه :

« هذه المرة يا إرلند عليك أن ترسل إليّ رسالة تخبرني فيها عن مسار الرحلة وما سيحلّ بك بعدها » .

ضغط على يدها حتى ظنت أن الدم سيخرج من تحت أظافرها .

«أمازلتِ تجرؤين على البقاء مخلصة لي يا كريستين ؟»

قالت : «أجل» . وبعد لحظة : «نحن كلانا مذنبان في هذه الفعلة

-لقد حثثتك على فعل ذلك... لقد أردتُها أن تموت» .

وقفت الليدي آشيلد وكريستين ونظرتا إلى المزلجة وهي تبتعد صاعدة وهابطة فوق ركام الثلج . ثم ابتعدت عن الأبصار في وهدة لتصعد مرة أخرى على منحدر ثلجي . ثم مرّ الرجال تحت ظل جبل ، وابتعدوا عن الأنظار نهائياً .

•

جلست المرأتان قرب المدفأة ، وظهراهما إلى السرير الخالي ، الذي رفعت عنه آشيلد الفراش والقش . كانتا كلتاهما قادرتين على الإحساس به هناك فارغاً وفاغراً خلفهما .

«أتفضلين النوم في المطبخ الليلة ؟» سألت الليدي آشيلد أخيراً .

قالت كريستين : «سيكون الأمر هو نفسه أنّى نمنا» .

مضت الليدي آشيلد خارجاً لتنظر إلى الطقس :

«أجل ، إن اشتدت الريح أو جاء الدفء ، لن يسافروا مسافة بعيدة قبل اكتشاف الأمر» . قالت كريستين .

أجابت الليدي آشيلد : «هنا في هاوغن تهب الريح دائماً . لا دليل على تبدّل الطقس» .

جلستا كما من قبل .

قالت الليدي أخيراً : «لا تنسي المصير الذي أرادته لكما كليكما» .

أجابت كريستين بصوت خفيض :

« كنت أفكر أنني لو كنت مكانها لكنت رغبت في فعل الشيء نفسه » .

قالت آشيلد بقوة : « ما كنت رغبت في أن تصبح الأخرى مجذومة » .

« أتذكرين يا خالة أنك قلت لي مرة أنه لأمر جيد حين لا نجرؤ على فعل شيء نعتبره نحن غير صالح وغير عادل ، ولكنه ليس بالأمر الجيد حين نفكر أن الأمر غير صالح وغير عادل لأننا لا نجرؤ على فعله ؟ »

« لم تَجْرُئي على فعله لأنه كان خطيئة » ، قالت الليدي آشيلد .

قالت كريستين : « لا ، لا أعتقد بذلك . لقد فعلت الكثير حتى الآن مما اعتبرته سابقاً أمراً لا أجرؤ عليه لأنه خطيئة . ولكنني لم أستطع أن أرى حتى هذا الوقت ما تجلبه الخطيئة... أن علينا أن ندوس الآخرين تحت أقدامنا » .

قالت الليدي آشيلد بحماسة : « كان من شأن إرلند أن يضع حداً لحياته الرديئة قبل فترة طويلة من لقائه بك . كان كل شيء بين هذين الشخصين منتهياً » .

قالت كريستين : « أعرف ذلك . ولكني أعتقد أنها لم يكن لديها مبرر لتعتبر نيات إرلند شديدة الرسوخ إلى حد أنها لن تستطيع هزّها » .

قالت الليدي بخوف : « كريستين ، طبعاً لن تتخلي عن إرلند الآن ؟ لا يمكن إنقاذكما الآن إلاّ إذا أنقذ أحدكما الآخر » .

قالت كريستين وهي تبتسم ببرود : « هذه مشورة سيعطيها كاهن بشق الأنفس . ولكني أعرف أني لن أتخلى عن إرلند الآن... حتى لو كان عليّ أن أدوس أبي تحت قدميَّ » .

نهضت الليدي آشيلد . قالت :

«الأفضل أن نقوم بعمل ما بدلاً من الجلوس هكذا . ومن المحتمل أننا سنحاول عبثاً أن ننام» .

أحضرت ممخضة الزبدة من حجرة المؤونة ، ثم أحضرت بعض أوعية الحليب وملأت الممخضة واستعدت للبدء بصنع الزبدة .

قالت كريستين : «اسمحي لي بالعمل فظهري أكثر شباباً منك» .

عملتا دون كلام . وقفت كريستين قرب باب حجرة المؤونة وهي تصنع الزبدة ، بينما راحت آشيلد تسرّح الصوف عند الموقد . أخيراً سألت الفتاة فجأة :

«خالة آشيلد... ألا تخشين أبداً من اليوم الذي سيكون عليك فيه الوقوف أمام قضاء الله ؟»

نهضت الليدي آشيلد ، ثم جاءت ووقفت أمام كريستين في النور :

«ربما سأجد الشجاعة لأسأله لم صنعني كما أنا ، وإن كان سيشملني برحمته . لم يسبق لي أن طلبتُ رحمته حين خالفت وصاياه . كما لم يسبق لي أن طلبت من الرب أو من أي إنسان أن يسامحني على قرش واحد من السعر الذي دفعته هنا في هذا الكوخ الجبلي» .

و بعد فترة قالت برقة :

«مونان ابني الأكبر ، كان في العشرين من عمره . لم يكن كما هو عليه الآن . لم يكن أولادي كما هم الآن...»

أجابت كريستين بصوت خفيض :

«و لكن السير بيورن كان إلى جانبك في كل يوم وكل ليلة في كل هذه السنوات» .

«أجل لقد حصلت على هذا أيضاً» ، قالت آشيلد .

بعد فترة قصيرة ، انتهت كريستين من صنع الزبدة . قالت الليدي

آشيلد حينذاك أن عليهما أن تستلقيا وتحاولا النوم قليلاً .

في الداخل ، في السرير المعتم ، وضعت ذراعها حول كتف كريستين وجذبت رأسها الشاب إلى صدرها . ولم يمض وقت طويل قبل أن تعرف من تنفسها المنتظم الرقيق أن كريستين قد نامت .



٤

استمر الجليد . في كل زريبة في الأبرشية كانت الأبقار نصف الميتة من الجوع تخور بحزن من الجوع والبرد . كان المزارعون قد سبق لهم وراحوا يقنّنون ويوفرون في العلف ، في كل قشة يستطيعونها .

كانت هناك زيارات قليلة في موسم عيد الميلاد هذه السنة ، فقد بقي الناس في بيوتهم .

خلال فترة عيد الميلاد زاد البرد ـ وكأن كل يوم كان أبرد من سابقه . ما كان أحد قادراً على تذكر شتاء قارس كهذا... لم يعد الثلج يهطل ، ولا حتى في الجبال . ولكن الثلج الذي هطل في قداس كلمنت قد تجلّد حتى أصبح كالحجر . وكانت الشمس تلتمع في سماء صافية ، وراحت الأيام تصبح أكثر ضياء . في الليل كانت الأنوار الشمالية تلتمع وتضيء فوق المدى إلى الشمال... كانت تشع فوق نصف السماء ، ولكنها لم تحدث أي تغيير في الطقس . بين الحين والآخر كان يأتي يوم غائم ، وكان ثلج جاف قليل يتناثر... ثم يحل طقس صاف مجدداً مع برد قارس . كان نهر لاغن يهمهم ويقرقر بكسل تحت الجسور المتجلدة .

فكرت كريستين في كل صباح أنها لم تعد تحتمل ، وأنها ما كانت

تستطيع الصمود إلى نهاية اليوم . وفي كل يوم كانت تشعر أنه مبارزة بينها وبين أبيها . وهل يستطيعان أن يكونا ضد بعضهما البعض على هذا النحو ، بينما كل كائن حي في الأبرشية ، من بشر وحيوان ، يعاني تجربة مشتركة واحدة ؟... ولكن مع ذلك ، حين حلّ المساء ، كانت قد صمدت يوماً آخر .

لم يكن الأمر أن أباها كان غير ودود فحسب . لم يكونا يتبادلان أي كلمة حول ما جرى بينهما ، ولكنها أحست ، أنه خلف ما كان لا يتلفظ به ، كانت إرادته الصلبة العنيدة تستند إلى رفضه .

كان قلبها يؤلمها في الداخل لقلة الودّ لدى أبيها . كان الألم رهيباً في حدته ، لأنها عرفت كم كان العبء الذي يحمله والدها على كتفيه... ولو أن الأمور كانت كما هي في السابق ، لكان سيتحدث معها عن ذلك كله... وكان الأمر بالفعل على هذا النحو ، لذلك كانوا في يورروندغارد في وضع أفضل من معظم الأماكن الأخرى . ولكن هنا أيضاً كانوا يشعرون بعبء هذه السنة كل يوم وكل ساعة . في سنوات أخرى كان من عادة لافرانس في الشتاء أن يروّض أمهره الصغيرة . ولكن في هذه السنة كان قد أرسلها كلها جنوباً في الخريف وباعها . وقد افتقدت بناته سماع صوته في الساحة ، ورؤيته وهو يناضل مع الأمهر الرشيقة المرهقة ذات السنتين في اللعبة التي كان يحبها كثيراً . كانت المخازن والحظائر والمستودعات في يورروندغارد غير فارغة بعد... كان هناك مخزون متبق من حصاد السنة السابقة ، ولكن الكثيرين كانوا يأتون طلباً للمساعدة... للشراء أو للتسول ، ولم يرجع صاحب حاجة خالي الوفاض .

في وقت متأخر من إحدى الأمسيات وصل على مزلجة رجل عجوز ضخم يرتدي فروة . حادثه لافرانس في الساحة ، وحمل هالفدان الطعام إلى غرفة

الموقد لأجله . لم يعرفه أحد ممّن كانوا في المكان ، ربما يكون واحداً من أولئك الذين يعيشون في الجبال . ربما صادفه لافرانس هناك . ولكن لافرانس لم يذكر شيئاً عن الزائر ، كما لم يفعل هالفدان .

ولكن جاء في إحدى الأمسيات رجل لم يكن لافرانس بيورغولفسون على وفاق معه منذ سنوات كثيرة . ذهب لافرانس إلى المستودع معه . حين عاد إلى المنزل الرئيسي ثانية ، قال :

«لقد جاؤوا إليَّ طلباً للمساعدة ، كل واحد منهم . ولكن هنا في منزلي أنتم جميعاً ضدي . وأنت أيضاً يا زوجتي» ، قال بانفعال .

هاجمت الأم كريستين :

«أتسمعين ما يقوله أبوك لي! ؟ لا ، لست ضدك يا لافرانس . أعرف وأريدك أن تعرفي أيضاً يا كريستين... ما حدث في الجنوب بعيداً في رولدستاد في أواخر الخريف ، حين سافر إلى «ديل» مع ذلك الزاني الآخر ، قريبه من هاوغن... انتحرت تلك المرأة التعيسة ، تلك التي أغواها لترحل معه بعيداً عن كل أقربائها» .

وقفت كريستين بوجه قاس متجمد :

«أرى أن الأمر كله واحد : أنتم تلومونه على السنوات التي عاشها وهو يحاول أن يحرر نفسه من الخطيئة بقدر ما تلومونه على السنوات التي عاشها في الخطيئة» .

«يا للمسيح ومريم!» صاحت راغنفريد ، وهي تعصر يديها : «ما الذي جرى لك! ألم ينجح حتى هذا في تغيير قلبك ؟»

قالت كريستين : «لا . لم أتغير» .

ثم رفع لافرانس نظره عن المقعد الذي كان جالساً عليه قرب أولفهيلد ، وقال بصوت خفيض :

«و لا أنا تغيرت يا كريستين» .

•

ولكن كريستين أحسّت في داخلها أنها قد تغيرت بطريقة ما ، من حيث الأفكار إن لم يكن في القلب . وصلتها أنباء عن كيفية تطور الأحداث معهما في تلك الرحلة الرهيبة . وكما حدث فقد جرت الأمور على نحو أسهل ممّا توقعا . وسواء كان البرد قد تغلغل في الجرح أو مهما كان السبب ، إلا أن جرح الخنجر في صدر إرلند قد التهب ، وقد أجبره ذلك على أن يبقى في التكية في روالستداد ، واعتنى به السير بيورن . ولكن إصابة إرلند بالجرح جعل الأمر أسهل على التصديق حين رويا حكايتهما عن كيفية حدوث الأمر .

وحين أصبح أهلاً لمتابعة السفر ، أخذ جثمان المرأة الميتة في تابوت حتى أوسلو ، وهناك بمساعدة سيرا يون ، استطاع أن يحصل لها على دفن مسيحي في ساحة كنيسة القديس نيكولاوس القديمة التي هدمت . ثم اعترف أمام أسقف أوسلو بنفسه ، وقد فرض عليه الأسقف كفارة أن يذهب ليحج إلى «الدم المقدس في شفيرن»[٢٠] . والآن كان قد رحل إلى خارج البلاد .

لم تستطع هي أن تذهب للحج في أي مكان في هذه الأرض ، لتجد الغفران . لم يكن أمامها سوى الجلوس هنا والانتظار والتفكير ، ومحاولة الصمود في نزاعها مع أبيها وأمها . سقط نور شتائي بارد غريب على كل ذكرياتها عن لقاءاتها مع إرلند . فكرت بقوته... في الحب كما في الحزن... وقد كانت بالفطرة قادرة مثله ، على تنفيذ كل الأمور باندفاعة فجائية مباشرة ، وربما كانت تبدو تلك أقل تخويفاً وأثقل على التحمل . أحياناً كانت تفكر كما يلي : ربما سيتخلى عني إرلند . بدا لها أنه سيكون عليها دائماً أن تعاني خوفاً مترصداً مفاده أنه لو أضحت الأمور شديدة الصعوبة

عليها فسوف يتخلى عنها . ولكنها لن تتخلى عنه أبداً ، ما لم يحلّها هو من كل العهود .

•

وهكذا تجرجر الشتاء حتى نهايته . ولم تستطع كريستين غشّ نفسها بعد ذلك . كان عليها أن ترى أصعب محنة عليهم أن يواجهوها : أن أولفهيلد لم يعد أمامها فترة طويلة تعيشها . وفي وسط حزنها المرير على أختها رأت برعب أن روحها كانت مضللة ومستهلكة بالخطيئة . فمع وجود الطفلة المحتضرة وحزن الأبوين الذي لا يوصف أمام عينيها ، كانت لا تزال تفكر في هذا الأمر... لو ماتت أولفهيلد ، فكيف سأتحمل أن أنظر إلى أبي ولا أرمي بنفسي على قدميه والاعتراف بكل شيء وأطلب منه الغفران... وأن يأمرني بما عليَّ أن أفعله...

•

كانوا قد قطعوا شوطاً طويلاً من الصيام الكبير . كان الناس قد بدؤوا بذبح الحيوانات الصغيرة التي أملوا أن تبقى حية ، خشية أن تموت من تلقاء أنفسها . وكان الناس أنفسهم قد مرضوا وهزلوا من أكل السمك وحده ولا شيء آخر سوى القليل من الجريش والدقيق البائسين . منح سيرا آيريك سكان الأبرشية كلهم الإذن ليأكلوا الطعام المصنوع من الحليب إن شاؤوا [رغم الصيام/ المترجم] . ولكن ما استطاعت سوى قلة الحصول على قطرة من الحليب .

كانت أولفهيلد تستلقي في سريرها . كانت وحيدة في سرير الأخوات ، وكان هناك من يرعاها كل ليلة . وكان يحدث أحياناً أن يرعاها كل من كريستين وأبوها . وفي ليلة كتلك قال لابنته :

«أتذكرين ما قاله الأخ إدفين تلك المرة حول مصير أولفهيلد ؟ حتى في ذلك الحين خطرت لي فكرة مفادها أنه ربما عنى هذا . ولكني أبعدتها عني في ذلك الحين» .

أحياناً في هذه الليالي كان يتحدث عن هذا الأمر أو ذاك من ذكريات طفولة البنات . كانت كريستين تجلس هناك شاحبة ويائسة... كانت تعرف أن أباها كان يتضرع إليها من وراء الكلمات .

•

في أحد الأيام كان لافرانس مع كولبراين لملاحقة دب في وجاره الشتوي في الجبال الحرجية إلى الشمال . وقد عاد إلى البيت بدبة على مزلجة ، وجلب معها لافرانس ديسمها الحي في صدر معطفه . انتعشت أولفهيلد قليلاً حين أراها الديسم . ولكن راغنفريد قالت إنه لم يكن الوقت المناسب لتربية مثل هذا الحيوان... ما الذي يمكن فعله به في مثل هذا الوقت ؟

«سأربيه وأربطه أمام كوخ بناتي» ، قال لافرانس وهو يضحك بقسوة .

ولكنهم لم يستطيعوا أن يتدبروا للديسم الحليب الدسم الذي كان في حاجة إليه ، واضطر لافرانس إلى قتله بعد بضعة أيام .

•

كانت الشمس تكتسب الكثير من القوة الآن حتى أنه كان يحدث أحياناً ، عند منتصف النهار ، أن يذوب الثلج فيقطر من السقوف . كانت طيور القرقف تتسلق بجهد وهي تتشبث بالجانب المشمس من الجدران الخشبية ، وتنقر حتى يرن الخشب ، باحثة عن الذباب الذي ينام بين

الشقوق . عبر الحقول المنتشرة من حولهم ، كان الثلج يلمع بقسوة وببريق كالفضة .

و أخيراً في إحدى الأمسيات بدأت الغيوم تتجمع فوق القمر . وفي صباح اليوم التالي استيقظ الناس في يوروندغارد في وسط عالم مدوّم من الثلج جعلهم في حالة حصار من كل جانب ، فلا يستطيع البصر أن يرى شيئاً .

•

في ذلك اليوم عرفوا أن أولفهيلد كانت تحتضر .

كان كل سكان المنزل في الداخل ، ووصل سيرا آيريك لزيارتهم . كان كثير من الشموع يحترق في القاعة . في وقت مبكر من المساء ماتت أولفهيلد بهدوء وسلام بين ذراعي أمها .

تحملت راغنفريد ما جرى أفضل ممّا كان متوقعاً من أي شخص . كان الأب والأم جالسين معاً ، وكانا كلاهما يبكيان بهدوء شديد . كل من كان في الغرفة كان يبكي . حين مضت كريستين إلى أبيها ، وضع ذراعه حول كتفيها . أحسّ كيف أنها كانت ترتجف وترتعد فأدناها منه . ولكن بدا الأمر لها وكأنه لا بدّ قد شعر أنها كانت أبعد عنه من الفتاة الميتة في السرير .

لم تفهم كيف أنها لا تزال صامدة . لم تذكر إلاّ بالكاد ما كانت تصمد لأجله . ولكنها إذ جعلها الحزن كليلة وخرساء ، فقد صمدت ولم تستسلم...

... اقتلعت بعض ألواح الخشب من أرضية الكنيسة أمام ضريح القديس توماس ، وحفر قبر في الأرض القاسية كالصخر تحتها لتكون قبراً لأولفهيلد لافرانسداتر .

كان الثلج يهطل كثيفاً وبصمت خلال تلك الأيام كلها ، بينما كانت الطفلة

ممددة فوق عشب الموتى . وكان الثلج لا يزال يهطل حين حُملت إلى القبر ؛ وقد استمر الثلج بالهطول دون توقف تقريباً حتى مضى شهر كامل .

•

بدا الربيع وكأنه لن يأتي أبداً بالنسبة إلى سكان ديل الذين راحوا ينتظرون وينتظرون مجيئَهُ ليخلصهم . أضحت الأيام أطول وأكثر ضياء ، وكانت غيوم البخار من الثلج المنصهر تقبع فوق كل الوادي طالما كانت الشمس مشرقة . ولكن البرد كان لا يزال يمسك بالهواء ، ولم يكن في الحرارة قوة على التغلب عليه . في الليل كان كل شيء يتجمد بقسوة... كان هناك صوت فرقعة الجليد ، وأصوات مدوية من الجبال البعيدة . كانت الذئاب والثعالب تعوي بين المزارع كما في منتصف الشتاء . قام الرجال بنزع لحاء الأشجار لإطعام أبقارهم ، ولكن هذه أخذت تقع ميتة أرضاً بالعشرات . ولم يكن هناك من يعرف كيف سينتهي هذا كله .

خرجت كريستين في يوم كذاك حين كان الماء يجري في القنوات وكان الثلج على الحقول المجاورة يلتمع كالفضة . كانت أكاليل الثلج قد تبخرت على الجانب المقابل للشمس ، حتى أن التعريشة الجليدية الدقيقة لحواف القشرة الثلجية كانت تتكسر برنين فضي حين تلمسها بقدمها . ولكن في كل مكان ، حيث سقطت أصغر الظلال ، كان البرد القارس يمسك بالهواء وكان الثلج قاسياً .

صعدت نحو الكنيسة... لم تعرف هي نفسها ما تفعله هناك ، ولكن جذبها شيء ما إلى هناك . كان أبوها هناك ،و قد عرفت أن بعض الملأك الأحرار وأعضاء النقابة سيلتقون هناك في الرواق .

في منتصف الطريق إلى التل قابلت مجموعة من المزارعين وهم يهبطون وكان سيرا آيريك معهم . كانوا جميعاً راجلين . وكانوا يمشون وقد أحنوا

ظهورهم مشكلين عقدة داكنة مضطربة ، دون أن يتبادلوا الكلام فيما بينهم . ردوا على تحيتها بتجهم حين مرت بهم .

فكرت كريستين كم أصبح ذلك الزمن بعيداً حينما كان كل فرد في الأبرشية صديقاً لها . على الأرجح أنهم أضحوا كلهم يعرفون أنها ابنة عاقة . وربما كانوا يعرفون أكثر من ذلك عنها . وربما كانوا يعتقدون جميعاً أن هناك بعض الحقيقة في الكلام القديم الذي حُكِيَ عنها وعن آرن وبنتاين . ربما تكون قد أصبحت ذات سمعة سيئة . رفعت رأسها عالياً وتابعت طريقها إلى الكنيسة .

كان الباب موارباً والجو بارداً في الكنيسة ، ولكن كأنما كان دفء لطيف يتغلغل إلى قلبها من القاعة البنية المعتمة ذات الأعمدة العالية المنصوبة التي تحمل العتمة تحت أعمدة السقف . لم يكن هناك أي نور عند المذابح ، ولكن شعاعاً من الشمس كان يلتمع داخلاً عبر شق الباب ويومض على نحو باهت مرتداً من الصور والأوعية المقدسة .

أمام مذبح القديس توماس شاهدت أباها منحنياً إلى الأمام على يديه المطوّيتين اللتين تحملان قبعته التي كانت تلتصق بصدره منسحقة .

تسللت كريستين خارجة بعد أن ارتدّت إلى الخلف من الخوف والحزن ، ووقفت في الرواق ويداها حول اثنين من الأعمدة الصغيرة . وبينما وقفت متأطرة في القوس الذي بينهما رأت يوروندغارد ممتدة تحتها ، وخلف منزلها كان السديم الأزرق الشاحب الذي يملأ الوادي . وحيث امتد النهر عبر الريف كان جليده وماؤه يرسلان التماعات تحت نور الشمس . ولكن أجمات شجر جار الماء على امتداد حوضه كانت ذات لون بني مصفرّ من تفتح الزهر ، وحتى غابة الصنوبر قرب الكنيسة كانت ملونة بلون الربيع الأخضر ، وكانت هناك أنغام وزقزقة وتغريد الطيور الصغيرة في البستان

المجاور . أجل ، كان هناك شدو للعصافير مشابه لهذا في كل مساء بعد أن تغرب الشمس .

و شعرت أن التوق الذي ظنت أنه قد غادرها منذ زمن طويل ، التوق الذي في جسدها ودمها ، قد أخذ يتحرك مجدداً الآن ، على نحو ضعيف وواهن ، وكأنه يكاد يستيقظ من سبات شتوي .

خرج لافرانس بيورغولفسون وأقفل باب الكنيسة من خلفه . اقترب ووقف إلى جانب ابنته ، وهو ينظر من خلال القوس المجاور لها . رأت كيف أن الشتاء الذي انقضى قد ترك آثاره على وجه أبيها . لم تفهم كيف كان يمكن لها أن تذكر ما كان بينهما ، ولكن الكلمات بدت كأنها تندفع من تلقاء نفسها .

«هل صحيح ما قالته لي أمي في ذلك اليوم أي أنك قلت لها : لو كان آرن غيردسون هو خاطبي لوافقت على تزويجي منه لو طلبت ذلك ؟ »

قال لافرانس دون أن ينظر إليها : «أجل» .

قالت كريستين : «لم تقل ذلك حين كان آرن لا يزال حياً» .

«لم يطرق الموضوع قط . لقد رأيتُ غلى نحو كاف أن ذلك الفتى كان يقدّرك كثيراً... و لكنه لم يقل شيئاً - وكان شاباً صغيراً - و أنا لم ألاحظ إطلاقاً وجود أفكار كهذه تجاهه من قبلك . ما كان يمكن التفكير إلا بالكاد في أن أعرض ابنتي على رجل لا أملاك له ، أليس كذلك ؟» ابتسم ابتسامة خفيفة . «و لكني كنت أحب ذلك الفتى» ، قال بصوت خفيض ؛ «ولو كنت رأيت أنكِ كنتِ تذوين في حبه...»

وقفا ساكنين ، محدقين . شعرت كريستين أن أباها كان ينظر إليها : حاولت بجهد أن تكون هادئة الوجه ، ولكنها شعرت بنفسها تشحب كالموتى . ثم اقترب منها أبوها ووضع ذراعيه من حولها وضمها إليه بقوة .

ثنى رأسها نحو الخلف ، ونظر إلى وجه ابنته ، ثم أخفاه مجدداً في كتفه .

«يا يسوع المسيح يا كريستين الصغيرة ، هل أنت تعيسة إلى هذا الحد ؟...»

«أعتقد أني سأموت من شدة التعاسة يا أبي» ، قالت ووجهها مدفون في جسمه .

انفجرت باكية . ولكنها بكت لأنها شعرت في ضمته ورأت في عينيه أنه كان الآن منهكاً من الألم وأنه لم يعد يستطيع الصمود أمامها بعد الآن . لقد غلبته .

•

في الليل أيقظتها في الظلام لمسة أبيها على كتفها .

قال برقة : «انهضي . هل تسمعيني... ؟»

سمعت غناء الريح من حول زوايا المنزل... النغمة العميقة المليئة للريح الجنوبية ، المترعة بالرطوبة . كانت جداول من الماء تنهمر من السقف . كانت هناك همسة مطر يتساقط على الثلج الطري الذائب .

رمت كريستين بثوبها فوق ظهرها وخرجت خلف أبيها إلى الباب الخارجي . وقفا معاً ينظران إلى غسق ليلة من ليالي أيار (مايو) . كانت الريح الدافئة والمطر يهبان عليهما بقوة ، وكانت السماء خليطاً من الغيوم الماطرة المتشابكة المنجرفة ، وراحت الغابات تزمجر ، والريح تصفر بين المنازل . ومن بعيد في الجبال سمعا الوقع المدوي لكتل الثلج الساقطة .

تلمست كريستين يد أبيها وأمسكت بها . كان قد ناداها ليريها هذا . هكذا كان الأمر بينهما من قبل . كان من شأنه أن يفعل هذا من قبل . وهاهو قد عاد إلى دأبه ثانية .

حين دخلا ليذهبا إلى الفراش مجدداً قال لافرانس :

«الخادم الغريب الذي وصل الأسبوع الماضي جلب لي رسائل من السير مونان باردسون . إنه ينوي القدوم إلى ديل في الصيف القادم ليرى أمه . وقد طلب الإذن ليراني ويكلمني» .

همست : «بم ستجيبه يا أبي ؟»

قال لافرانس : «لا أستطيع أن أقول لك الآن . ولكني سأتحدث معه . وثم سأرتب هذه القضية كما يأمر به الله يا ابنتي» .

زحفت كريستين إلى جانب رامبورغ ، ومضى لافرانس ونام إلى جانب زوجته النائمة . استلقى وراح يفكر أنه لو جاء الطوفان فجأة وبقوة ، لما كان سيجد في طريقه سوى أمكنة قليلة في هذه الأبرشية شأن يوروندغارد ليجتاحها . كان الناس يقولون إن هناك نبوءة تفيد بأن النهر سيحمل يوروندغارد بعيداً في أحد الأيام .

٥

جاء الربيع دفعة واحدة . وبعد أيام قليلة فحسب من الذوبان المفاجئ للجليد ، غرقت الأبرشية تحت مطر متواصل وقد أضحت بلون بني داكن . اندفعت المياه وهي تزبد من على المنحدرات الجبلية ، وفاضت الأنهار في قعر الوادي حتى صارت كبحيرة ضخمة بلون رمادي رصاصي ، مع خطوط من قمم الأشجار تطفو فوق المياه وأخدود غادر مزبد حيث يجري التيار . في يوروندغارد طغت المياه على الحقول . ولكن كان الضرر الذي حصل في كل مكان أقل مما توقع الناس .

وبالضرورة تأخرت أعمال الربيع ، وبذر الناس حبات القمح القليلة مع صلوات إلى الرب أن ينقذهم من جليد الليالي الخريفية . وبدا وكأن الرب سيصغي لهم ويخفف قليلاً من عبئهم . جاء حزيران بطقس لطيف تدريجي ، وكان الصيف جيداً ، وأمل الناس أن تُمحى أمارات السنة الرديئة في الوقت الملائم .

•

كان جمع التبن قد بدأ حين وصل في إحدى الأمسيات أربعة رجال على

جيادهم إلى يوروندغارد . وصل أولاً فارسان ، وخلفهم خادماهما . كان الفارسان هما السير مونان باردسون والسير بارد بيترسون أوف هستنايس .

كان راغنفريد ولافرانس قد حضّرا المائدة في القاعة العلوية ، وجُهزت الأسرة في غرفة الضيوف فوق بناء المخزن . ولكن لافرانس طلب إلى الفارسين أن يرجئا المهمة إلى اليوم التالي ، بعد أن يكونا قد ارتاحا من رحلتهما .

أدار السير مونان الحوار خلال تناول وجبة الطعام . التفت إلى كريستين كثيراً خلال كلامه ، وتحدث وكأنه وإياها كانا على معرفة جيدة الواحد بالآخر . وقد لاحظت أن هذا لم يرق لأبيها . كان السير مونان ذا بنية مربعة ، أحمر الوجه ، قبيحاً ، ثرثاراً ، وأشبه بالمهرج نوعاً ما في هيئته . كان الناس يسمونه «مونان القصير البدين» أو «مونان الراقص» . ولكن رغم مظهره الطائش كان ابن الليدي آشيلد ذا فهم وكفاءة ، وقد استخدمه التاج أكثر من مرة في مسائل تتطلب الثقة ، وقد عُرِفَ عنه أنه صاحب كلمة في مجالس أولئك الذين كانوا يديرون شؤون المملكة . كان قد حصل على ميراث أمه في «سكوغهايم هندرد» : كان ثرياً للغاية وقد تزوج من امرأة ثرية . أما زوجته الليدي كاترين فكانت امرأة ذات ملامح قاسية أكثر من المعتاد ، ونادراً ما تفتح فمها . ولكن زوجها كان غالباً ما يتحدث عنها على أنها أحكم النساء ، وأنها معروفة باسم «ليدي كاترين سريعة البديهة» من حيث قول النكات ، أو «ذات اللسان الفضي» . وقد بدا أنهما يعيشان متفاهمين ، رغم أن السير مونان كان معروفاً بحياته الفاجرة قبل الزواج وبعده .

أما السير بارد بيترسون فكان رجلاً عجوزاً وسيماً وجليلاً ، رغم أنه أصبح الآن بديناً ثقيل الأطراف . كان شعره ولحيته قد أخذا بالاضمحلال ،

ولكن لونهما كان لا يزال أصفر بقدر ما هو أبيض . ومنذ وفاة الملك ماغنوس هاكونسون عاش متقاعداً ، يدير أملاكه الضخمة في نوردمور . كان أرملَ للمرة الثانية ، ولديه الكثير من الأطفال ، وكانوا كلهم كما يقال وسيمين جيدي التربية وأغنياء .

•

في اليوم التالي ذهب لافرانس مع ضيفيه إلى القاعة العليا لإجراء الحوار . أراد لافرانس أن تحضر زوجته ولكنها رفضت :

«هذه مسألة يجب أن تكون بين يديك برمتها . أنت تعرف جيداً أن ابنتنا ستعاني أعظم الأسى لو لم تصلوا إلى نتيجة . ولكني أرى جيداً أن هناك أشياء كثيرة جداً قد تقف عثرة أمام هذا الزواج» .

كان السير مونان قد أحضر رسالة من إرلند نيكولاوسون . وكان عرض إرلند هو أن يحدد لافرانس نفسه كل الشروط(٢١) ، هذا إن قبل تزويجه من ابنته كريستين . كان إرلند راغباً في جعل كل أملاكه ومداخيله موضع التقييم من قبل أشخاص حياديين ، وأن يمنح كريستين هدية استثنائية وهدية صباحية العرس ، وأن تحوز على ثلث مجموع أملاكه علاوة على بائنتها وكل الميراث الذي قد يصلها من أقربائها لو أنها تُركت أرملة دون أولاد أحياء . كما كان عرضه يشمل منح كريستين كامل السلطة للتصرف كما تشاء بحصتها من الأملاك المشتركة ، سواء كان من ميراثها من أقربائها أو ما سترثه من زوجها . ولكن لو أراد لافرانس فرض شروط أخرى على الاتفاق ، فإن إرلند مستعد دائماً للاستماع إلى رغباته وتلبيتها جميعاً . أما هو فلديه شرط واحد يطلبه من أهل كريستين ، وهو أن عليهم من جانبهم أن يلتزموا بما يلي : أنه لو حصل وانتقلت رعاية ولديه وكريستين إليهم ،

فهم لن يحاولوا أن يلغوا الهدايا التي منحها لولديه من إلين أورمسداتر ، بل سيدعون تلك الهدايا كما هي ، كونها قد أصبحت ملكاً لهما قبل زواجه من كريستين لافرانسداتر . وفي النهاية تعهّد إرلند بإقامة حفل زفاف فخم في هوسابي .

أجاب لافرانس :

«هذا عرض جيد . وأرى من خلاله أن قريبكما راغب من كل قلبه في أن يصل إلى اتفاق معي . وما يجعل هذا واضحاً لي هو أنه قد طلب منك يا سير مونان أن تأتي إليّ للمرة الثانية في هذه المهمة نفسها ، أنا الشخص صاحب القيمة الضئيلة خارج هذا الريف ؛ وأن فارساً من مقامك أيها السير بارد ، قد تحمل مشاق السفر لدعم طلبه هذا . ولكن فيما يخص عرض إرلند ، أود أن أقول إن ابنتي لم تنشأ على التعامل شخصياً بمسائل التجارة ، وكنت آمل أن أزوجها إلى رجل أستطيع أن أسلمه مصالح الفتاة وأنا مرتاح البال . لا أعرف بالضبط إن كانت كريستين قادرة على تسلم مثل هذه السلطة ، ولكني لا أعتقد إلا بالكاد أن ذلك في مصلحتها . إنها صاحبة مزاج لطيف وطيّعة ، وهذا كان أحد الأسباب الذي جعلني أعارض هذا الزفاف . إنه لمن المعروف عن إرلند أنه أظهر تقصيراً في فهم أكثر من أمر . ولو كانت [ابنتي] امرأة محبة للسلطة وجريئة وعنيدة ، لكانت المسألة قد اتخذت منحى آخر» .

انفجر السير مونان ضاحكاً :

«عزيزي لافرانس ، أتحزن لأن الفتاة ليست عنيدة بما فيه الكفاية ؟»

وقال السير بارد بابتسامة خفيفة :

«أعتقد أن ابنتك قد أثبتت أنها لا تفتقر إلى إرادة خاصة بها ، فهي قد حافظت منذ سنتين وإلى الآن على إخلاصها لإرلند ضد رغبتك» .

قال لافرانس :

«لم أنس ذلك . ولكني أعرف جيداً ما أقوله . لقد عانت هي شخصياً كثيراً خلال هذه الفترة التي وقفت فيها ضدي . ولن تكون سعيدة فترة طويلة مع زوج لا يستطيع أن يسيطر عليها » .

قال السير مونان : « كلا ، إذن فالشيطان يتحكم بهذه القضية! لا بد أن ابنتك لا شبيه لها بين كل النساء اللواتي عرفتهن . فأنا لم يسبق لي أن رأيت امرأة واحدة لا تحب أن تحكم نفسها بنفسها وأن تحكم زوجها أيضاً! »

هزّ لافرانس كتفيه ولم يجب .

ثم قال بارد بيترسون :

«أعتقد جيداً يا لافرانس بيورغولفسون أنك لا تجد هذا الزواج بين ابنتك وابني بالتربية مرضياً لك ، بما أن المرأة التي عاشت معه انتهت تلك النهاية التي نعرفها في العام الماضي . ولكن عليك أن تعرف أنه قد أصبح معلوماً الآن أن تلك المرأة قد سمحت لنفسها أن تضل عن الطريق بتوجيه من رجل آخر ، هو وكيل إرلند في هوسابي . لقد كان إرلند عارفاً بذلك حين سافر معها إلى ديل . وكان قد عرض عليها أن يقدم لها بائنة ملائمة لو تزوجها ذلك الرجل» .

سأل لافرانس : «أأنت على ثقة تامة من هذا ؟ وأنا لا أعرف مع ذلك إن كانت الأمور أفضل لأنها جرت على هذا النحو . إنه لأمر صعب على امرأة من أسرة طيبة أن تدخل منزلاً ويدها في يد سيد المنزل ثم تخرج منه ويدها في يد الخادم» .

تكلم مونان باردسون :

«من الواضح لي يا لافرانس بيورغولفسون أن ما لديك ضد ابن خالتي

هو ما فعله من أمور غير لائقة مع زوجة سيغورد ساكسولفسون . ولاشك أن ما فعله لم يكن أمراً لائقاً . ولكن أستحلفك بالله يا رجل أن تتذكر ما يلي : هذا فتى صغير يسكن في منزل مع امرأة شابة وجميلة لها زوج عجوز بارد لا حول له... والليل هناك يستغرق نصف سنة بحالها : أعتقد أنه ما من إنسان لا يتوقع ما سيحدث ما لم يكن إرلند قديساً . لا مجال لإنكار ذلك : لم يكن إرلند طوال تلك الفترة راهباً حزيناً . إلا أني أعتقد أن ابنتك الشابة الجميلة لن تكون سعيدة لو زوجتها إلى زوج أشبه بالرهبان . صحيح أن إرلند قد تصرف كأحمق آنذاك ، وكأحمق كبير منذ ذلك الحين... ولكن لا يجب أن نظلمه بهذا الأمر إلى الأبد... فنحن أقرباءه قد بذلنا جهدنا لمساعدة الشاب كي ينهض على قدميه مجدداً . فالمرأة قد ماتت ، وقد بذل إرلند كل جهده للعناية بجثمانها وروحها . لقد أحلّه أسقف أوسلو نفسه من خطيئته ، وقد عاد إلى بيته الآن طاهراً بعد الحج إلى «دم شفيرين»... فهل ستكون أشد صرامة من أسقف أوسلو وأسقف شفيرين... أو أياً يكون ذاك المسؤول عن ذاك الدم الأثير... ؟

«عزيزي لافرانس : صحيح أن العفة أمز جميل بالفعل . ولكن من الصعب حقاً على رجل ناضج أن يحوزها دون هبة خاصة من الله . وحق القديس أولاف... أجل ، وعليك أن تتذكر أيضاً أن الملك المقدس لم يكن يتحلى بتلك الهبة حتى انتهت حياته... وربما كانت إرادة الله أن يرزق أولاً بذلك الابن أي الملك ماغنوس الذي أباد الوثنيين الذين ثاروا على النوردلاند . وأعتقد أن الملك أولاف قد رزق بذلك الابن من امرأة أخرى غير زوجته الملكة... ولكن أليس موضعه بين أسمى القديسين في السماء . أجل ، أستطيع أن أرى في وجهك أنك تعتبر هذا كلاماً غير لائق... »

و هنا قاطع السير بارد قائلاً :

«يا لافرانس بيورغولفسون : أنا نفسي لم أكن راضياً عن المسألة حين جاء إرلند ليقول لي إنه قد أحب فتاة مخطوبة لرجل آخر . ولكن منذ ذلك الحين عرفت أن هناك الكثير من الود بين هذين الشابين ، حتى أنه سيكون أمراً مؤسفاً جداً أن نفرق بينهما . كان إرلند معي في آخر حفل لعيد الميلاد أقامه الملك هاكون لرجاله : وقد تقابلا هناك ، ولم تره ابنتك حتى غابت عن الوعي واستلقت هناك فترة طويلة كالميتة... ورأيت في وجه ابني بالتربية أنه يفضل أن يخسر حياته على أن يخسرها» .

صمت لافرانس فترة قبل أن يجيب :

«أجل ، كل هذه الأمور ستكون جيدة وملائمة حين يسمعها المرء تروى في حكاية بطولية عن الفرسان في البلاد الجنوبية . ولكننا لسنا في بريتلاند هنا ، وأعتقد أنكما أيضاً ستطلبان من الرجل الذي قد تختاراه كصهر لكما ما هو أكثر من مجرد أن يجعل ابنتكما تغيب عن الوعي من شدة الحب تحت أنظار الناس كلهم...»

صمت الآخران وتابع لافرانس :

«إنه في ذهني أيها السيدان الصالحان ، أنه لو لم يضيع إرلند نيكولاوسون كلاً من أملاكه وسمعته ، لما كنتما جالسين هنا تلتمسان بهذه الشدة من رجل بمثل مركزي أن يمنح ابنته له . ولكنني سأكره أن يقال عن كريستين إنه لشرف لها أن تتزوج من رجل ذي أملاك كبيرة ومركز هو بين الأعلى في البلاد... بعد أن مرّغ نفسه في العار إلى ذلك الحد ، حتى أنه ما عاد قادراً على أن يأمل في زواج أفضل ، أو أن يرفع من شرف بيته» .

نهض منفعلاً وبدأ يمشي جيئة وذهاباً .

و لكن السير مونان قال :

« والآن بحق الرب يا لافرانس ، إن كنت تتكلم عن العار ، فإني أود أن أعلمك أنك تبالغ في الاعتزاز بـ ... »

قاطعه السير بارد بسرعة وذهب إلى لافرانس :

« أنت معتز بنفسك يا لافرانس... أنت أشبه بأولئك المزارعين الذين سمعنا عنهم قديماً ، والذين رفضوا الحصول على ألقاب من الملك لأن اعتزازهم بأنفسهم لم يكن يسمح لهم أن يقول الناس إنهم ممتنون لأي شخص سوى أنفسهم . وأقول لك إنه لو بقي إرلند محافظاً على كل شرفه وثروته اللذين آلا إليه ، لما كنت سأعتبر أني أحطّ من قدره أو قدري في أن أطلب من رجل كريم المحتد وغني أن يمنح ابنته إلى ابني بالتربية ، لو كنت أعرف مسبقاً أن الشابين قد يحطمان قلبيهما لو كتب عليهما الفراق » . ثم قال بصوت خفيض وهو يضع يده على كتف لافرانس : « و أنه حريّ بهما والحال هذه أن يتزوجا لأن في ذلك راحة لكل الأرواح » .

انسحب لافرانس من يد الرجل الآخر . بدا وجهه مصمّماً وبارداً :

« لا أعتقد إلا بالكاد أني أفهم ما تعنيه يا سيدي الفارس » .

نظر الرجلان أحدهما إلى الآخر فترة . ثم قال السير بارد :

« أعني أن إرلند قد حكى لي أنهما أقسما أغلظ أيمان الولاء أحدهما للآخر . ربما ستقول إنك قادر على أن تحل ابنتك من قسمها ، بما أنها أقسمته دون إرادتك . ولكنك لن تستطيع أن تحل إرلند من قسمه... وأرى أن ما يقف في الطريق هو اعتزازك بنفسك وكرهك للخطيئة . ولكنك تبدو لي في ذلك أكثر صرامة من الرب نفسه يا لافرانس بيورغولفسون » .

أجاب لافرانس دون ثقة نوعاً ما :

« ربما تكون هناك حقيقة فيما تقوله لي يا سير بارد . ولكن ما يجعلني

أعارض هذا الزواج هو أني أعتبر إرلند رجلاً غير موثوق فيه ولا أستطيع أن أسلم ابنتي إلى عهدته» .

«أعتقد أني أستطيع أن أجيب نيابة عن ابني بالتربية الآن» ، قال بارد بهدوء . «إن كريستين عزيزة عليه كما أعرف إلى حد أنك لو زوجته منها ، سيثبت لك في النهاية أنه الصهر الذي لن يسبب لك أي أسى» .

لم يجب لافرانس فوراً . ثم قال السير بارد بحماسة وهو يمد يده :

«باسم الرب يا لافرانس بيورغولفسون ، امنحني موافقتك!»

وضع لافرانس يده في يد السير بارد :

«باسم الرب» .

•

نودي على راغنفريد وكريستين لتصعدا إلى القاعة العلوية ، وأنبأهما لافرانس بموافقته . حيّا السير بارد المرأتين بأسلوب ملائم ومهذب . أخذ السير مونان يد راغنفريد وتحدث إليها بلباقة ، ولكنه حيّا كريستين بالأسلوب الأجنبي بأن قبّلها ، وأطال تحيته . أحست كريستين أن أباها كان ينظر إليها خلال ذلك .

سأل ممازحاً حين تُرِكَ وحده معها لحظة في مساء ذلك اليوم : «كيف تجدين قريبك الجديد السير مونان ؟»

نظرت إليه كريستين بتوسل . ثم ربت على وجهها ولم يقل شيئاً آخر .

•

حين مضى السير بارد والسير مونان إلى غرفتهما ، انفجر السير مونان قائلاً :

«سأعطي الكثير لأرى وجه لافرانس بيورغولفسون هذا حين يعرف الحقيقة حول ابنته الغالية تلك . هاأنت وأنا نضطر إلى الركوع توسلاً إليه لنحوز لإرلند المرأة التي اصطحبها إلى منزل برينهيلد مرات عديدة» .

أجاب السير بارد بغضب : «اهدأ ، لا تذكر ذلك إطلاقاً . كانت تلك أسوأ فعلة قام بها إرلند حتى الآن ، أن يغوي تلك الطفلة للذهاب إلى مثل تلك الأماكن... وعليه أن يحرص على ألا يسمع لافرانس ذلك . أفضل ما يمكن أن يحدث للجميع الآن ، هو أن يصبح هذان صديقين» .

•

تم تحديد موعد احتفال شرب نخب الخطوبة في ذلك الخريف نفسه . قال لافرانس إنه لن يستطيع أن يجعل الاحتفال فخماً جداً لأن السنة السابقة كانت رديئة جداً في «ديل» . ولكنه سيعوّض عن ذلك بأن يتحمل نفقات العرس بنفسه وأن يقيمه في يوروندغارد مع كل الأبهة المطلوبة . ثم ذكر السنة الرديئة مجدداً على أنها السبب في طلبه أن تستمر فترة الخطوبة سنة كاملة .

٦

حصلت أسباب أخرى جعلت حفل الخطوبة يؤجل حيث أنه لم يقم حتى رأس السنة الجديدة . ولكن لافرانس وافق على أن يكون حفل الزفاف دون تأجيل ، أي أن يجري بعد قداس ميكائيل كما تم الاتفاق على ذلك في البداية .

إذن مكثت كريستين الآن في يوروندغارد على أنها خطيبة إرلند في عيون كل الرجال . وراحت مع أمها تشرف على كل البضائع والملابس التي تم تجميعها وتوفيرها لبائنتها ، وحاولتا جهدهما لإضافة المزيد إلى الأكوام الكبيرة من الفراش والملابس . لأنه ما أن أعطى لافرانس موافقته على زواج ابنته من سيد هوسابي ، كانت إرادته ألاّ ينقص شيء عليها .

كانت كريستين تتساءل أحياناً لماذا لم تشعر أنها أكثر سعادة . ولكن رغم كل الانهماك ، لم تكن هناك سعادة حقيقية في يوروندغارد .

كان أبوها وأمها يفتقدان أولفهيلد إلى حد الألم ، وكانت هي ترى ذلك . ولكنها فهمت أيضاً أن الذي كان يجعلهما صامتين وبائسين إلى ذلك الحد لم يكن هذا السبب وحده . كانا لطيفين معها ، ولكن حين كانا يتكلمان معها عن خطيبها ، كانت ترى أنهما كانا يجبران نفسيهما على

ذلك ليرضياها ويظهرا لها العطف . لم يكن الأمر عدم وجود رغبة لديهما في التحدث عن إرلند . ولكن لم يتعلما أن يستمدا الفرح من الزواج الذي كانت ستدخل فيه ، بعد أن عرفا الرجل الآن . كما أن إرلند أيضاً قد بَقيَ صامتاً ومنعزلاً خلال الفترة القصيرة التي قضاها في يوروندغارد لأجل حفل الخطوبة ، وربما لم يكن ممكناً أن يكون الأمر خلاف ذلك ، كما فكرت كريستين فقد كان يعرف أن أباها لم يمنح موافقته عن طيب خاطر .

لم يتح لها ولإرلند الفرصة لتبادل عشر كلمات على انفراد إلا نادراً . وقد تسبب الجلوس على هذا النحو تحت أنظار الناس في شعور غريب غير مرغوب فيه . في مثل تلك الأوقات ما كان لديهما شيء يقولانه ، بسبب الأمور الكثيرة بينهما والتي لا يمكن قولها . نشأ لديها خوف مليء بالشك ، من النوع الغامض والمعتم ، ولكنه الموجود دائماً : ربما سيكون من الصعب عليهما على نحو ما بعد زواجهما ، أن يقتربا كثيراً ، أحدهما من الآخر ، بعد أن عاشا طوال هذه الفترة متباعدين تماماً .

ولكنها حاولت أن تبعد الخوف عنها . كان من المفروض أن يزورهم إرلند في أسبوع العنصرة . كان قد سأل لافرانس وراغنفريد إن كان لديهما اعتراض على قدومه ، وقد ضحك لافرانس قليلاً ، وأجاب بأن إرلند يجب أن يكون واثقاً بأن عريس ابنته سيكون مرحباً به .

في أسبوع العنصرة سيكونان قادرين على الخروج معاً . سيكون لديهما الفرصة للتحادث معاً كما في الأيام الخالية ، ثم ما سيحدث بالتأكيد هوأن يضمحلّ ذلك الظل الذي ظهر بينهما خلال هذه الفترة الطويلة من الفراق ، حين انصرف كل واحد لشأنه حاملاً عبئاً لا يستطيع الآخر المشاركة فيه .

•

في عيد الفصح وصل سايمون أندرسون وزوجته إلى مورمو . رأتها كريستين في الكنيسة . كانت زوجة سايمون واقفة غير بعيد عنها .

لا بدّ أنها أكبر منه بكثير ، كما فكرت كريستين : ربما لها حوالي الثلاثين من العمر . كانت الليدي هالفريد ضنيلة الجسم ، رشيقة ونحيلة ، ولكن كان لها وجه فاتن تماماً . كان لون شعرها البني الفاتح وهو ينسدل في موجات من تحت القبعة الكتانية ، يبدو شديد النعومة ، وكانت عيناها مترعتين جداً بالرقة . كانتا عينين رماديتين واسعتين مبقعتين بنقط ذهبية في منتهى الصغر . كان كل ملمح من ملامح وجهها دقيقاً ونقياً... ولكن بشرتها كانت باهتة ورمادية ، وحين تفتح فمها يرى المرء أن أسنانها لم تكن جيدة . لم يبد عليها أنها قوية البنية ، ويقول البعض إنها عليلة : لقد أجهضت أكثر من مرة حتى الآن ، كما سمعت كريستين . وقد تساءلت كيف هي حال سايمون مع زوجته .

تبادلت جماعة يوروندغارد وجماعة فورمو التحيات عبر مرج الكنيسة أكثر من مرة ، ولكن دون أن يتبادلوا الحديث . ولكن في يوم عيد الفصح ، كان سايمون في الكنيسة دون زوجته . مضى نحو لافرانس وتحادثا معاً فترة قصيرة . سمعت كريستين اسم أولفهيلد يلفظ . بعدها تحدث مع راغنفريد . أما رامبورغ التي كانت واقفة قرب أمها فقد صاحت بصوت مرتفع : «أتذكرك جيداً... أعرفك» . رفع سايمون الطفلة قليلاً ودوّرها [في الهواء] : «مرحى لك يا رامبورغ ، لأنك لم تنسني» . أما كريستين فحيّاها من بعيد . ولم يقل أبوها وأمها أي كلمة بعد ذلك اللقاء .

و لكن كريستين فكرت كثيراً بذلك اللقاء . فرغم كل ما جرى وما حصل كان غريباً عليها أن ترى سايمون دار مجدداً كرجل متزوج . الكثير ممّا كان ماضياً عاد إلى الحياة مجدداً أمام ذلك المشهد : تذكرت حبها

الأعمى والمستسلم كلياً لإرلند في تلك الأيام . أحست الآن بوجود تغيير ما فيه . وصلت الفكرة إليها : ماذا لو حكى سايمون لزوجته كيف افترقا ، هو وهي... ولكنها كانت تعرف أنه حافظ على صمته... «لأجل خاطر أبي» كما فكرت هازئة . كان زعماً ضعيفاً ، وإنه لمن الغريب أنها لا تزال هنا دون زواج ، في منزل والديها . ولكنهما مخطوبان في الأقل . كان بإمكان سايمون أن يرى أنهما توصلا إلى ما يريدانه رغم كل شيء . ومهما يكن ، إرلند قد فعل ، فإنه قد حافظ على إخلاصه لها ، وهي لم تكن فالتة أو لعوباً .

•

في إحدى الأمسيات في بداية الربيع كان على راغنفريد أن ترسل شخصاً إلى الوادي إلى غونهيلد العجوز ، تلك الأرملة التي تخيط الفراء . كان المساء جميلاً جداً حتى أن كريستين طلبت أن تذهب وأخيراً مُنحت الإذن بما أن كل الرجال كانوا مشغولين .

كان الوقت بعد غروب الشمس ، وكان ضباب جليدي أبيض يتصعّد نحو السماء الخضراء الذهبية . كانت كريستين تسمع عند كل وقع لحافر صوت تكسر جليد المساء وهو يتهشم ويطير نحو الخارج في شظايا ذات رنين . ولكن من كل الأجمات على جانبي الطريق كان هناك الضجيج السعيد لشدو الطيور ، الناعم إنما الحماسي مع قدوم الربيع ، في الغسق .

كانت كريستين تهبط بحصانها الطريق المنحدرة ، دون أن تفكر بأي شيء ، إلا أنها أحست أنه لأمر طيب أن تكون في الخارج وحيدة مرة أخرى . كانت عيناها مثبتتين على القمر الجديد الذي راح يغرق وراء حافة الجبل على الجانب البعيد من «ديل» ، وكادت مرة أن تسقط عن حصانها حين انحرف فجأة إلى الجانب وشب على قائمتيه الخلفيتين .

رأت جسماً داكناً متمدداً وقد أقعى ملتفاً على بعضه عند جانب الطريق ، وشعرت بالخوف أولاً . لم تكن قادرة على التخلص تماماً من الخوف الكريه الذي تسلّل إلى دمها... الخوف من مقابلة الناس وهي على الطريق وحدها . ولكنها ظنت أنه قد يكون عابر سبيل وقع فريسة المرض ، لذلك عادت لتتحكم بحصانها مجدداً ، واستدارت وعادت إليه منادية تسأله من هو .

تحركت الكومة قليلاً وقال صوت :

«أعتقد أنك كريستين لافرانسداتر» .

سألت برقة : «الأخ إدفين ؟» كادت تظن أنه شبح من أشباح الشيطان جاء يحتال عليها . ولكنها اقتربت منه . وكان ذاك هو الراهب العجوز نفسه ولم يكن قادراً على النهوض دون مساعدة .

«يا أبي العزيز... هل خرجت تتجول في هذا الوقت من السنة ؟» قالت متعجبة .

«الشكر للرب الذي أرسلك في هذه الدرب الليلة» ، قال الراهب . لاحظت كريستين أن جسده كله كان يرتجف . «و لكن ساقيّ ما عادت تحملانني هذه الليلة . وقد كدت أحسب أنها إرادة الله أن أستلقي وأموت على الطرقات التي تجولت عليها طوال حياتي . ولكني سعيد لرؤيتك مرة أخرى يا ابنتي...»

ساعدت كريستين الراهب على الصعود إلى حصانها . ثم قادته إلى البيت من لجامه ، بينما كانت تمسك بالراهب . وكان هذا يندب طوال الطريق بأنها ستبلّل قدميها بالوحل الجليدي ، واستطاعت أن تسمعه يئنّ بصوت خفيض من الألم .

حكى لها أنه كان في «إيابو» منذ عيد الميلاد . فقد كان بعض

المزارعين الأغنياء من الأبرشية قد تعهدوا في هذه السنة الرديئة على تجميل كنيستهم بزخارف جديدة . ولكن العمل كان يسير ببطء ، فقد مرض فترة آخر الشتاء كلها ـ كان الشر في معدته ـ لم تعد هذه تستطيع تحمل أي طعام ، وكان يتقيأ دماً . كان يعتقد أنه لن يعيش طويلاً بعد ، وقد راح يتوق إلى العودة إلى ديره ، إذ كان يتمنى أن يموت هناك بين أخوته . إلا أنه كان راغباً أولاً في أن يتجه شمالاً إلى «ديل» للمرة الأخيرة ، وهكذا انطلق في طريقه ، برفقة الراهب الذي جاء من هامار ليكون مقدم الدير الجديد لتكية الحجاج في «روالدستاد» . واعتباراً من «فرون» كان وحيداً على الطريق .

قال : «سمعت أنك خطبت لذلك الرجل... وهكذا شعرت بتوق شديد لرؤيتك . بدا لي أنه أمر مؤلم أن يكون ذلك اللقاء بيننا في أوسلو في الكنيسة هو الأخير . لقد كان ذلك عبئاً ثقيلاً على قلبي يا كريستين ، أنك قد ضللت بعيداً في طريق لا سلام فيه...»

قبلت كريستين يد الراهب .

«لا أعرف حقاً يا أبت ما الذي فعلته حتى أستحق منك كل هذا الحب أو كيف لي أن أستحقه» .

أجاب الراهب بصوت خفيض :

«لقد فكرت مرات كثيرة يا كريستين ، أنه لو حدث واجتمعنا مرات أكثر ، لكانت هناك فرصة كبيرة في أن تصبحي «ابنتي الروحية»» .

سألت كريستين : «أتعني أنك كنت ستجعلني أتجه بقلبي إلى حياة الدير المقدسة ؟» ثم قالت بعد برهة : «لقد فرض عليَّ سيرا آيريك أمراً مفاده أني إن لم أحصل على موافقة أبي وأتزوج من إرلند ، عندها عليَّ أن أنضم إلى رهبانية وأكفّر عن ذنوبي...»

«لقد صليت مرات عديدة حتى يعتريك التوق إلى حياة الرهبنة» ، قال الأخ إدفين . «و لكن ليس منذ أن أخبرتني بما تعرفينه ـ كنت سأجعلك تأتين إلى الرب مرتدية إكليلك يا كريستين...»

حين وصلا إلى يوروندغارد حُمل الأخ إدفين إلى السرير . وضعوه في المنزل الشتوي القديم ، في غرفة المدفأة ، واعتنوا به بكل عطف . كان مريضاً جداً ، وكان سيرا آيريك يأتي ليعطيه دواء لجسده ولروحه . ولكن الكاهن قال إن مرض الرجل العجوز كان السرطان وأن أيامه أضحت معدودة . وقال الأخ إدفين نفسه إنه حين سيسترد بعض القوة سيسافر جنوباً مرة أخرى ليحاول الوصول إلى ديره . ولكن سيرا آيريك قال إنه لا يظن أن هذا أمر ممكن التفكير فيه .

بدا للجميع في يوروندغارد أن سلاماً وسعادة كبيرين قد حلاّ عليهما مع وصول الراهب . كان الناس يدخلون ويخرجون من غرفة المدفأة طوال اليوم ، ولم يكن هناك نقص في وجود أشخاص يسهرون ليلاً على الرجل المريض . وكان الكثيرون يحضرون للاستماع ، حين يحضر سيرا آيريك ، ليتلو للرجل المحتضر من الكتب الإلهية ، كانوا يحدثون الأخ إدفين كثيراً عن الأمور الروحانية . ورغم أن كثيراً مما قاله كان غامضاً وملتبساً ، كما هو حديثه عادة ، فقد بدا لهؤلاء الناس أنه يقوّي أرواحهم ويسليها ، لأن الجميع كانوا قادرين على أن يروا أن الأخ إدفين كان ورعاً مترعاً بحب الله .

ولكن الراهب كان سعيداً أيضاً بالإصغاء إلى كل أنواع الحديث الأخرى... فيسأل عن أحوال الأبرشيات المجاورة ، ويطلب من لافرانس أن يحكي له قصة سنة القحط الرديئة . كان هناك بعض الناس الذين اتخذوا مسارات شريرة في تلك المحنة ، فالتجؤوا إلى طلب العون ممّا يشمئز منه المسيحيون . على مسافة إلى الغرب من «ديل» هناك في الجبال كان مكان

يحوي بعض الصخور البيضاء الضخمة التي لها أشكال بذيئة ، وقد انحط بعض الناس إلى حد أنهم ضحوا بخنازير وهررة مخصية أمام هذه الأشياء البغيضة . لذلك حثّ سيرا آيريك بعض أكثر المزارعين شجاعة وورعاً على الذهاب معه في إحدى الليالي وهناك حطموا تلك الحجارة . كان لافرانس معهم ، وشاهد الحجارة ملطخة كلها بالدماء ، وكانت هناك عظام ونفايات أخرى من حولها . وكان يقال إنه في هايدال شمالاً كان الناس قد جعلوا عجوزاً شمطاء تجلس على صخرة ترابية كبيرة هناك في ثلاث ليال من ليالي الخميس وهم ينشدون رقى قديمة .

•

في إحدى الليالي سهرت كريستين وحدها على الأخ إدفين . استيقظ في منتصف الليل وبدا أنه يعاني ألماً عظيماً . ثم طلب من كريستين أن تقرأ له من كتاب «معجزات مريم العذراء» الذي أعاره له سيرا آيريك .

لم تكن كريستين معتادة على القراءة بصوت مرتفع ، ولكنها جلست على درجة السرير ووضعت شمعة إلى جوارها ، ووضعت الكتاب في حجرها وراحت تقرأ له بأفضل ما تستطيع .

بعد فترة قصيرة رأت الرجل المريض مستلقياً بأسنان مطبقة وهو يشد على قبضتيه ونوبات الألم تعتصره .

قالت كريستين بحزن : «أنت تتألم كثيراً يا أبي العزيز» .

«يبدو لي هذا الآن ، ولكني أعرف أن الرب قد أعادني طفلاً مرة أخرى ، وهو يدحرجني في أرجاء المكان صعوداً ونزولاً...

«أتذكّرني حين كنت طفلاً ـ كنت في الشتاء الرابع من عمري ـ وكنت

قد هربت من البيت إلى الغابات . هناك تهت ورحت أتجول في المكان أياماً وليالي كثيرة . كانت أمي برفقة الأشخاص الذين وجدوني ، وحين ضمتني بين ذراعيها ، أتذكر جيداً أنها عضتني من عنقي ، وظننت أنها كانت غاضبة مني ، ولكني عرفت الحقيقة لاحقاً...

«أنا أتوق الآن إلى العودة إلى بيتي خارجاً من هذه الغابة . لقد كتب : «تخلوا عن كل شيء واتبعوني »... ولكن لقد حدث في هذه الدنيا كثير مما لا أحب أن أتخلى عنه...»

سألته كريستين : «أنت يا أبي ؟ إن ما سمعته دائماً من كل الناس هو أنك كنت نموذجاً للحياة الطاهرة والفقر والتواضع...»

ضحك الراهب بمكر .

«أجل ، الطفلة الصغيرة شأنك تظن على الأرجح أنه لا شيء في هذه الدنيا سوى المسرات والثروات والسلطة . ولكني أقول لك إن هذه أمور صغيرة يجدها الناس على جانب الطريق . أما أنا... فقد أحببت الطريق نفسها... ولم أتجنب الأشياء الصغيرة الدنيوية ، إنما تجنبت الدنيا كلها . لقد منحني الربّ نعمة حب «السيدة فقر» و«السيدة طهارة» منذ يفاعتي وحتى الآن ، وهكذا ظننت أني سأكون مع رفاق اللعب هؤلاء قادراً على التجول بأمان ، ولذلك طفت وتجولت ، وكان من شأني أن أتجول على كل طرقات الأرض . كما أن قلبي وأفكاري قد طافت وتجولت أيضاً... وأخشى أني غالباً ما تهت في أفكاري في أكثر الأمور سرية . ولكن انقضى الآن كل شيء يا كريستين الصغيرة . سأعود الآن إلى بيتي وأضع جانباً كل أفكاري ، وأصغي إلى كلمات «الراعي» الواضحة وهو يأمرني بما عليّ أن أؤمن به وأفكر به فيما يتعلق بذنوبي ورحمة الله...»

بعد فترة قصيرة ، غرق في النوم . مضت كريستين وجلست قرب

الموقد ، وراحت تعتني بالنار . ولكن مع اقتراب الصباح ، حين كانت على وشك النوم هي أيضاً ، قال الأخ إدفين فجأة من سريره :

«أنا سعيد يا كريستين أن قضيتك مع إرلند نيكولاوسون قد وصلت إلى هذه النهاية السعيدة» .

انفجرت كريستين باكية :

«لقد ارتكبنا الكثير من الأخطاء قبل الوصول إلى هنا . وما ينهش قلبي أكثر ما ينهشه هو أني جلبت لأبي الكثير من الحزن . لا أراه سعيداً بهذا الزواج . ورغم أنه لا يعرف ، إلا أنه لو عرف كل شيء لكان حرمني من كل حنانه على ما أعتقد» .

قال الأخ إدفين بلطف : «يا كريستين ألا ترين يا طفلتي أنه لأجل ذلك عليك أن تبقي الأمر سراً عنه وألاّ تسببي له المزيد من الحزن ، لأنه لن يطلب منك أبداً دفع الغرامة . لا شيء تفعلينه سيجعل قلب أبيك يتحول عنك» .

●

بعد أيام قليلة تحسنت حالة الأخ إدفين كثيراً حتى أنه رغب في الانطلاق في رحلته جنوباً . وبما أنه كان مصمماً على ذلك من كل قلبه ، فإن لافرانس صنع له محفّة تعلق بين حصانين وعليها وضع الرجل المريض ونقل جنوباً حتى لبدستاد . وهناك زُوّد بأحصنة جديدة ورجال رافقوه حتى هامار . ثم مات في «دير الأخوة الواعظين» ، ودفن في كنيستهم . فيما بعد طالب «الرهبان حفاة الأقدام» باسترجاع رفاته ، لأن كثيراً من الناس من كل الأبرشيات كانوا يعتبرونه رجلاً مقدساً ويلقبونه باسم «القديس إيفان» . كان فلاحو «الأبلاند» و«ديل» شمالاً إلى تروندهايم يصلون له كقديس .

وهكذا اندلع نزاع طويل بين الأخويتين حول رفاته .

لم تسمع كريستين بذلك إلاّ بعد وقت طويل . ولكنها حزنت جداً عند فراقها للراهب . لقد بدا لها أنه كان وحده من يعرفها طوال حياتها... لقد عرف الطفلة البريئة وهي تحت حمى والدها ، وعرف حياتها السرية مع إرلند . لذلك كان هو الرابطة التي تجمع ما كان أولاً عزيزاً عليها مع كل ما يملأ قلبها وعقلها الآن . لقد أضحت الآن مقطوعة عن نفسها كما كانت وهي عذراء بعد .



٧

قالت راغنفريد وهي تتحسس بيدها الشراب المخمر الفاتر في الرواقيد : «أجل ، أعتقد أنه بارد بما فيه الكفاية لخلطه مع خميرة الجعة» .

كانت كريستين جالسة في مدخل غرفة التخمير وهي تغزل بينما تنتظر الشراب المخمر حتى يبرد . وضعت المغزل على العتبة ورفعت الدثار الغليظ عن دلو الخميرة المنتفخة وبدأت تقيس .

قالت لها أمها : «أغلقي الباب أولاً حتى لا يدخل تيار الهواء... تبدين كمن يمشي في نومه يا كريستين» ، قالت ذلك بنكد .

صبت كريستين الخميرة في الرواقيد بينما راحت راغنفريد تحرك .

(... نادت غايرهيلد دريفسداتر على هارت[٢٢] لكنه كان «أودين» . لذلك جاء وساعدها بالتخمير . وكان تواقاً للحصول على أجره الذي كان بين الراقود وبينها...) كانت تلك حكاية بطولية اعتاد لافرانس أن يقصها عليها وهي صغيرة بعد

... الذي كان بين الراقود وبينها...

أحست كريستين بالدوار والغثيان من الحرارة والبخار الحلو المعطر الذي كان يملأ غرفة التخمير المغلقة .

في الخارج في المزرعة كانت رامبورغ وعصبة من الأطفال يرقصون في حلقة ويغنون :

« يجلس النسر على قمة أعلى شق في الجبل
و هو يلوي مخالبه الذهبية... »

لحقت كريستين بأمها عبر الغرفة الخارجية حيث كانت براميل الجعة الفارغة وكل الأنواع من عدد التخمير . كان أحد الأبواب يؤدي منها إلى قطعة أرض ضيقة بين الجدار الخلفي لغرفة التخمير والسياج المحيط بحقل الشعير . كان قطيع من الخنازير يتصادم ويعض الواحد منها الآخر وتصرخ صرخات حادة وهي تتقاتل على الحبوب نصف المغلية التي ترمى إليها .

ظللت كريستين عينيها أمام شمس الظهيرة المبهرة . نظرت الأم إلى الخنازير وقالت :

« مع أقل من ثمانية عشر أيلاً لن نصمد » .

« أتظنين أننا في حاجة إلى كل هذا العدد ؟ » قالت ابنتها غائبة الذهن .

« أجل ، لأنه يجب أن يكون لدينا ما يكفي من لحم الصيد لتقديمه مع لحم الخنزير كل يوم » ، أجابت راغنفريد . « أما لحوم الطيور والأرانب البرية فليس لدينا منها ما يكفي لمائدة القاعة العلوية . تذكري أن العدد سيكون حوالي مائتي شخص - من بينهم الخدم والأطفال من بينهم - والفقراء الذين يجب أن نطعمهم . وإذا انطلقت في اليوم الخامس أنت وإرلند ، فإن بعض الضيوف ، على ما أعتقد ، سيبقون ليكملوا الأسبوع في الأقل... »

« عليك البقاء هنا ومراقبة الجعة يا كريستين ، هكذا استأنفت كلامها ، لقد حان وقت تحضير الغداء لأبيك وللحصادين » .

•

جلبت كريستين عدة غزلها وجلست هناك في المدخل الخلفي . وضعت فلكة الغزل مع حزمة من الصوف تحت إبطها ، ولكن يديها ، والمغزل بينهما ، غرقتا في حجرها .

ما وراء السياج كانت سنابل الشعير تلتمع فضية وحريرية تحت نور الشمس . فوق أغنية النهر سمعت بين الحين والآخر رنين المناجل من مروج جزيرة النهر . كان المنجل يضرب أحياناً بصخرة . كان أبوها وخدم المنزل منهمكين في الحصاد حتى ينتهوا منه . لقد كان هناك الكثير من الأعمال التي يجب أن تنجز قبل الزفاف .

كانت رائحة الحبوب نصف المغلية والرائحة الزنخة للخنازير قد جعلتها تشعر بالغثيان مجدداً . وقد جعلتها حرارة الظهيرة دائخة وواهية . جلست شاحبة متيبسة وانتظرت أن يتلاشى ذلك الشعور... لن تصاب بالغثيان مجدداً...

لم تشعر مطلقاً من قبل بما تشعر به الآن . لم يكن هناك من فائدة في تعزية نفسها . لم يكن الأمر أكيداً بعد... قد تكون على خطأ... ذلك الذي كان بين الراقود وبينها...

ثمانية عشر أيلاً... حوالي مائتي ضيف في حفل الزفاف... سيكون لدى الناس نكتة نادرة يضحكون عليها حين سيُعرف أن كل هذا الهرج والمرج كان حول امرأة حامل كان عليهم أن يروها ويزوجوها قبل أن ...

أوه ، كلا رمت بالغزل بعيداً عنها ونهضت حين عاودها الغثيان... أوه ، كلا كان الأمر مؤكداً بما فيه الكفاية!...

كانا سيزفان لبعضها في يوم الأحد التالي بعد «قداس ميكائيل» ، على أن يدوم حفل الزفاف خمسة أيام . كان لا يزال أمامها شهران من الانتظار . لا شك أن الأمر سيكون جلياً لهن... لأمها وربات منازل الأبرشية الأخريات .

لقد كن دائماً ماهرات في مثل هذه الأمور... كن يميزن الأمر قبل شهور من تمييزه من قبل كريستين . «مسكينة ، إنها شاحبة جداً...» راحت كريستين تفرك يديها بصبر نافد على خديها... شعرت أنهما شاحبان دون دماء .

غالباً ما فكرت من قبل : لا بد أن يحدث هذا إن عاجلاً أم آجلاً . ولم تكن تخشاه إلى هذا الحد الرهيب . ولكن ما كان الأمر ليبدو هكذا آنئذ ، حين لم يكونا قادرين... حين كانا ممنوعين من اللقاء قانونياً . كان هذا يعتبر عاراً على نحو ما ، وخطيئة أيضاً ، ولو كان هناك شابان صغيران لا يريدان أن يفرق بينهما بالقوة ، لتذكر الناس أن الأمر كان كذلك ، وتحدثوا عنهما برفق . ما كانت لتشعر بالخجل . ولكن حين تحدث مثل هذه الأمور بين خطيبين... فليس أمامهما سوى الضحك والنكات السمجة . لقد رأت ذلك بنفسها ، ما كان المرء يستطيع مغالبة نفسه في الضحك : هاهي أعمال تخمير ومزج النبيذ قائمة ، وكذلك الذبح والخبز والطبخ لزفاف يجب أن يصل ضجيجه إلى خارج البلاد... وهي العروس ، تصاب بالغثيان لو شمت رائحة الطعام ، وهاهي تزحف تحت العرق البارد خلف المراحيض الخارجية لتتقيأ .

إرلند! أطبقت أسنانها بقوة من الحنق . كان عليه أن يوفر عليها هذا العبء كله . لم تكن هي راغبة . كان عليه أن يتذكر أنه من قبل ، حين كان الأمر كله غير مضمون لها ، وحين لم يكن لديها ما تثق به سوى حبّه ، فقد منحته نفسها بكل سعادة . وكان عليه أن يتركها وشأنها الآن ، حين حاولت أن ترفض طلبه لأنها ظنت أنه ليس بالأمر المناسب أن يختلسا شيئاً بالسر بعد أن ضم أبوها يديهما معاً تحت أنظار أقرباء إرلند وأقربائها . ولكنه ، ضمها بالقوة حيناً وبالضحك واللمسات أخرى . لذلك لم تجد القوة الكافية لتبرهن له أن رفضها كان جدياً .

دخلت وراقبت الجعة في الرواقيد ، ثم عادت مجدداً ووقفت مستندة على السياج . كانت سنابل الحبوب تتحرك بلطف في موجات لامعة أمام نسمة الهواء . لم تستطع أن تتذكر أي سنة رأت فيها حقول القمح في مثل هذا النمو الوافر... كان النهر يلتمع من بعيد ، وسمعت صوت أبيها يصرخ... لم تستطع فهم الكلمات ، ولكنها سمعت الحصادين فوق الجزيرة يضحكون .

... هل تذهب إلى أبيها وتحكي له : سيكون الأفضل التخلي عن كل هذا الاهتياج الصاخب المنهك وأن يدعهما يتزوجان إرلند وهي بهدوء ودون زفاف كنسي أو ولائم رائعة : طالما أن الشيء الوحيد المطلوب الآن كان أن تحمل اسم زوجة قبل أن يتضح للجميع أنها تحمل بالفعل طفل إرلند تحت قلبها ؟

سيكون هو مادة للضحك ، وإرلند أيضاً ، وهي بالقدر نفسه : أو حتى ما هو أسوأ ، فهو ليس بالفتى الغرّ الآن . ولكنه هو من يريد إقامة هذا الاحتفال بالزفاف . لقد كان مصراً على رؤيتها تقف كعروس له في الحرير والمخمل وتاج ذهبي عال : كانت هذه هي إرادته أيضاً أن يتملكها في تلك الساعات السرية العذبة في الربيع الماضي . لقد استسلمت له في ذلك المجال . وعليها أن تلبي إرادته أيضاً في هذه المسألة الأخرى .

ولكن في النهاية سيكون عليه أن يرى : لا يمكن لأي شخص أن يحصل على الأمرين معاً في مثل هذه الأمور . لقد تحدث كثيراً عن احتفال عيد الميلاد الهائل الذي سيقيمه في هوسابي في السنة الأولى من وجودها هناك كسيدة للمنزل : كيف سيري كل أقربائه وأصدقائه وكل الناس من حوله كم هي جميلة الزوجة التي حصل عليها . ابتسمت كريستين باحتقار . سيبدو احتفال عيد الميلاد ذاك كشيء ملائم ، يا له من احتفال عودة إلى البيت!

ستضع وليدها في ذكرى قداس القديس غريغوري أو نحوه . وقد بدأت

الأفكار تتزاحم وتتراكب في ذهنها حين قالت لنفسها إنه في ذكرى قداس القديس غريغوري كانت ستضع الوليد . كان هناك خوف ما بين تلك الأفكار... تذكرت صرخات أمها التي ترددت في كل أنحاء المزرعة ليومين متتاليين حين ولدت أولفهيلد . في أولفسفولد ماتت زوجتان شابتان خلال الوضع ، الواحدة بعد الأخرى ـ كما حدث أيضاً لأولى زوجات سيغورد أوف لوبتسغارد . كما جرى ذلك لأم أبيها التي تحمل هي اسمها...

ولكن لم يكن الخوف هو الطاغي على أفكارها . لقد فكرت غالباً أنه بعد تلك المرة الأولى لم تر أي دليل على أنها حامل ـ ربما كانت تلك عقوبتها ـ هي وإرلند . ستكون عقيمة دوماً . سينتظران وينتظران عبثاً لما كانا يخشيانه من قبل ، وسيأملان عبثاً كما في الماضي في أن يكون خوفهما دون مبرر... حتى يعرفا أخيراً أنه في أحد الأيام سيطردان من منزل آبائه ، ويصبح هو كأنه لم يكن... فأخوه كاهن ، والأطفال الذين لديه لا يمكنهم أن يرثوا منه شيئاً . سيأتي مونان القصير البدين وأبناؤه ليدخلوا ويجلسوا في مقاعدهم ، وسيُمحى إرلند من خط أقربائه .

ضغطت بيديها بقوة على جسمها . كان هناك بين السياج وبينها ـ بين الداقور وبينها . كان هناك بينها وبين العالم ـ ابن إرلند . لقد سبق لها أن أجرت التجربة التي سمعت الليدي آشيلد تذكرها ؟ مع الدم من ذراعها اليمنى واليسرى . كان ذاك ابناً قادماً إليها... مهما يكن المصير الذي سيجلبه معه... تذكرت أخوتها الصغار الميتين ، ووجهي أبويها الحزينين حين يذكرانهم . تذكرت كل المرات التي رأتهما فيها معاً في حالة يأس لأجل أولفهيلد... والليلة التي ماتت فيها أولفهيلد . كما فكرت بكل الأسى الذي جلبته هي لهما ، ووجه أبيها الذي أنهكه الحزن... ولم تكن النهاية قد وصلت بعد ، نهاية الأحزان التي ستجلبها على أمها وأبيها .

ومع ذلك ، وضعت كريستين رأسها على الذراع التي كانت تستريح على السياج وباليد الأخرى كانت لا تزال ممسكة بجسدها . وحتى لو جلب لها ذلك الأمر الأحزان ، وحتى لو قاد قدميها إلى الموت... ستفضل الموت بالأحرى خلال ولادتها لابن إرلند على أن يموتا كلاهما في يوم واحد ، وأن تشخص منازلهما فارغة ، ويتموج القمح الذي في أراضيهما للأغراب...

سمعت وقع خطوات في الغرفة التي خلفها . الجعة! فكرت كريستين... كان عليّ أن أتفحصها منذ وقت طويل . نهضت والتفتت... ووصل إرلند وهو ينحني عبر الباب ويخطو خارجاً إلى نور الشمس... كان وجهه يشع سعادة .

سأل : «أأنت هنا ؟ أولن تتقدمي خطوة واحدة لتقابليني حتى ؟» قال ذلك ثم رمى بذراعيه من حولها .

قالت مستغربة : «يا أعز الأعزاء ، هل أتيت إلى هنا ؟»

كان من الواضح أنه ترجل عن حصانه للتو... كانت عباءته لا تزال معلقة على كتفه ، وسيفه إلى جانبه... كان غير حليق ، ومعفراً بتراب السفر ووعثائه . كان يرتدي معطف فرسان أحمر معلقاً بثنيات من قبته ومفتوحاً عند الجوانب حتى الإبطين تقريباً . وحين مر عبر غرفة التخمير وعبر الساحة ، كان المعطف يتأرجح ويخفق من حوله فظهرت فخذاه حتى الخصر . كانت ساقاه تنحنيان قليلاً نحو الخارج وهو يمشي ـ من الغريب أنها لم تلاحظ مطلقاً ذلك من قبل ـ فقد كانت ترى أن لهساقين طويلتين رشيقتين فحسب ، مع كاحلين جيدين وقدمين حسنتي الشكل .

وصل إرلند مع رفقة جيدة : خمسة رجال وأربعة أحصنة مُقادة . قال لراغنفريد إنه قد وصل ليأخذ أمتعة كريستين... سيكون أبهج لها ـ كم فكر ـ في أن تجد الأمتعة تنتظرها في هوسابي حين سيصلان إلى هناك . وفي وقت متأخر من الخريف الذي هو موعد الزفاف ، قد يكون نقل الأمتعة عبر الجبال

أصعب... كما أنه يمكن أن يتلفها بسهولة ماء البحر لو نقلت على السفينة . كان رئيس دير الرهبان في نيدارهولم قد منحه الإذن لإرسال الأمتعة على السفينة الشراعية الضخمة «لاورانثيوس»... وكان المفترض بها أن تبحر من «فيوي» حوالي يوم ذكرى صعود العذراء . لذلك جاء لنقل الأمتعة إلى «رومسدال» ثم إلى «نايس» .

جلس في مدخل المطبخ ، يشرب الجعة ويتحدث بينما راحت راغنفريد وكريستين تنتفان ريش البطة البرية التي أحضرها لافرانس في اليوم السابق . كانت الأم والابنة وحدهما في المكان . بدا شديد السعادة والحبور... كان مسروراً بنفسه لأنه وصل لإنجاز هذه المهمة الحكيمة والحصيفة .

خرجت راغنفريد ، وبقيت كريستين وهي تعتني بالسفود الذي يحمل الطائر الذي يشوى . عبر الباب المفتوح استطاعت أن تلمح رجال إرلند جالسين في الظل على الجانب الآخر من الساحة ، وكأس الجعة تنتقل فيما بينهم . كان إرلند نفسه جالساً على العتبة ، يثرثر ويضحك... وكانت الشمس تلتمع مباشرة على شعره الأسود الفحمي المكشوف ، فلاحظت بعض الخيوط البيضاء فيه . أجل ، لا شك أنه أصبح في حوالي الثانية والثلاثين من العمر الآن ، ولكنه يتصرف كغلام شرير . عرفت أنها لن تستطيع أن تحكي له عن مشكلتها... سيكون أمامها من الوقت ما يكفي ليرى ذلك بعينه . سرى في قلبها حنان ضاحك وذلك فوق البقعة الصغيرة القاسية من الغضب القابعة في مركزه ، مثل نهر لامع يتدفق فوق أحجار .

أحبته أكثر من جميع من هم فوق الأرض... كانت روحها مترعة بحبه ، رغم أنها كانت ترى وتتذكر طوال الوقت كل تلك الأمور الأخرى . كم كان هذا الشاب الأنيق في معطف الفرسان الأحمر الثمين والمهمازين الفضيين

على كعبيه والحزام المطلي بالذهب ، كم كان غير ملائم لفترة الحصاد المترعة بالعمل والنشاط في يورونداغارد... لاحظت جيداً أيضاً أن أباها لم يأت إلى المزرعة ، رغم أن أمها قد أرسلت رامبورغ إلى النهر لتحمل له رسالة عن وصول الضيف .

وقف إرلند قربها ومرر ذراعه من حول كتفيها :

«هل تصدقين!» قال بمرح . «أليس رائعاً بالنسبة إليك... أنه لأجل زفافنا يبذل كل هذا الجهد والجلبة ؟»

منحته كريستين قبلة ودفعته بعيداً... ثم التفتت إلى عملها في تطرية لحم الطيور وأمرته أن يبتعد عن الطريق . لا ، لن تحكي له عن الأمر ...

•

لم يعد لافرانس الى المزرعة حتى وقت العشاء ... مع الحصّادين الآخرين . كان يرتدي ملابس لا تختلف عن تلك التي يرتديها عماله ، أي معطف من الصوف الخشن غير المصبوغ مقصوص عند الركبتين وبنطال فضفاض يصل إلى الكاحلين . كان يمشي حافي القدمين ومنجله فوق كتفه . لم يكن في ملبسه ما يميزه عن الخدم الآخرين ، باستثناء قطعة الجلد على كتفه التي كانت مجثماً للصقر الذي يحمله على كتفه اليسرى . كان يقود رامبورغ من يدها .

حيّا صهره وهو منهك إلى حد كاف ، ورجاه أن يسامحه لعدم قدومه في وقت أبكر... كان عليهم أن يعجلوا في أعمال المزرعة بقدر ما يستطيعون ، فقد كان هو نفسه مضطراً للذهاب في رحلة إلى بلدة ذات سوق بين جمع التبن وحصاد القمح . ولكن حين حكى له إرلند عن المهمة التي جاء من أجلها ، وهما جالسان إلى مائدة العشاء ، تعكر مزاج لافرانس .

كان من المستحيل عليه أن يكرس عربات وجياداً لمثل هذا العمل الآن . أجاب إرلند : أنه جلب أربعة أحصنة حمولة معه . ولكن قال لافرانس إنه ستكون هناك حمولة ثلاث عربات في الأقل . وعلاوة على ذلك يجب أن تحتفظ الفتاة بملابسها هنا معها . كما أن أثاث الفراش الذي ستحمله كريستين معها يجب أن يكون هنا لأجل الزفاف ، فسيكون لديهم الكثير من الضيوف .

حسناً ، حسناً ، قال إرلند . لا شك أن هناك طريقة ما لإرسال الأمتعة خلال الخريف . ولكنه كان سعيداً ، وقد فكر في أن الأمر يبدو كمشورة حكيمة ، حين عرض عليه رئيس دير الرهبان نقل البضاعة في سفينة الكنيسة الشراعية . لقد ذكره رئيس الدير بقرابتهما . «كلهم مستعدون لتذكر ذلك» ، قال إرلند وهو يبتسم . لم يبد أن انزعاج حميه قد أثر فيه إطلاقاً .

لكن وفي النهاية تم الاتفاق على أن إرلند سيستعير عربة وسيصطحب معه حمولة عربة من الأشياء التي تحتاجها كريستين في الأغلب حين تصل إلى بيتها الجديد أول ما تصل .

في اليوم التالي كانوا منشغلين بالحزم والتوضيب . النول الكبير والصغير يمكن أن يذهبا حالاً كما قالت الأم : فلن يكون لدى كريستين الوقت إلا بالكاد للنسج قبل الزفاف . قطعت راغنفريد وابنتها الشبكة التي كانت على النول . كانت من الصوف الخشن غير المصبوغ ، إلا أنها من أفضل وأرق أنواع الصوف ، مع حزمات خيوط صوفية متداخلة من صوف خروف أسود مما شكل نموذجاً مبقعاً . لفت كريستين وأمها القماش ووضعتاه في الجراب الجلدي . فكرت كريستين : من شأنه أن يكون قماطاً جيداً... وقماطاً جميلاً أيضاً مع شرائط زرقاء أو حمراء تُلف من حوله .

كما كان سيرسل أيضاً كرسي الخياطة الذي صنعه لها آرن ذات مرة . أخرجت كريستين من المقعد الصندوقي كل الأشياء التي كان إرلند يقدمها لها بين الحين والآخر . أرت أمها العباءة الزرقاء المخملية المخططة بالأحمر التي كانت سترتديها في العرس ، وهي في طريقها إلى الكنيسة . قلبتها الأم بين يديها وتحسست القماش والبطانة التي من الفرو .

قالت راغنفريد : «عباءة ثمينة بالفعل . متى قدمها لك إرلند ؟»

قالت ابنتها : «لقد قدمها لي حين كنت في دير نونسيتر» .

كان صندوق عرس كريستين الذي يحوي كل الأشياء التي جمعتها لها أمها وخبأتها لها منذ أن كانت طفلة صغيرة قد تم إفراغه وحُزم مجدداً... كانت جوانبه وغطاؤه منقوشة بالمربعات ، مع رسم لوحش في حالة انقضاض أو طير بين أوراق الشجر في كل مربع . وضعت راغنفريد ثوب العرس في أحد صناديقها . لم يكن جاهزاً تماماً بعد ، رغم أن العمل به كان جارياً طوال الشتاء . كان من الحرير القرمزي وقد خيط ليكون لصيقاً بالجسم . فكرت كريستين أنه سيكون ضيقاً جيداً عند الصدر الآن .

حوالي المساء كانت الحمولة كلها قد أصبحت جاهزة ، وقد حزمت بقوة تحت غطاء العربة . كان إرلند سينطلق باكراً في صباح اليوم التالي .

وقف مع كريستين مستنداً إلى بوابة الساحة ، يتطلع نحو الشمال إلى حيث كانت غيمة عاصفة زرقاء سوداء تملأ «ديل» . كان الرعد يقصف في الجبال... ولكن باتجاه الجنوب كانت الحقول الخضراء والنهر تحت شمس صفراء حارقة .

سألها برقة وهو يداعب أصابعها : «أتذكرين تلك العاصفة في ذلك اليوم في الغابات في غيردارود ؟» .

أومأت كريستين برأسها وحاولت أن تبتسم . كان الجو كثيفاً وثقيلاً

حتى أن رأسها كان يؤلمها ، وعند كل نفس كانت تستنشقه ، كانت بشرتها تتبلل من العرق .

اقترب لافرانس منهما وهما واقفان عند البوابة ، وتحدث عن العاصفة . من النادر أن تتسبب في أضرار هنا في الأبرشية... ولكن الرب يعلم إن كانوا سيسمعون عن أبقار أو جياد تقتل هناك في الجبال .

كانت السماء سوداء كالليل فوق الكنيسة هناك على حافة الجبل . وقد كشفت لهم لمعة برق مجموعة من الأحصنة تقف بقلق وقد تجمعت معاً على المرج الأخضر خارج باب الكنيسة . فكر لافرانس في أن هذه لا يمكن أن تكون ملكاً لأحد في الأبرشية... بل هي في الأغلب أحصنة من دوفر كانت تعدو حرة صاعدة الجبال تحت «يتا» ؛ ومع ذلك فكر في أن يصعد ليراها ، فصرخ تحت قصف الرعد... قد يكون بينها بعض أحصنته...

مزق وميض برق مخيف العتمة فوق الكنيسة... قصف الرعد وجأر حتى كاد يصم آذانهم عن كل الأصوات الأخرى . تفرق شمل الأحصنة المجتمعة ، فتناثرت فوق منحدر التلة تحت حافة الجبل . رسم ثلاثتهم إشارة الصليب...

ثم جاء وميض آخر ، ولكأن السماء انشطرت فوق رؤوسهم مباشرة ، وانقض عليهم لهيب قوي أبيض كالثلج... ارتمى الثلاثة الواحد على الآخر ، ووقفوا بعيون مغلقة معمية ، مع رائحة بأنوفهم أشبه برائحة الحجر المحترق... بينما مزق الرعد القاصف آذانهم .

قال لافرانس بصوت خفيض : «عونك أيها القديس أولاف» .

صرخ إرلند : «انظروا! شجرة البتولا... البتولا!» كانت شجرة البتولا الضخمة في الحقل القريب قد بدت وكأنها تترنح ، وافترق عنها غصن ضخم وهوى على الأرض ، تاركاً ثغرة كبيرة في الجذع .

صرخ لافرانس : «أتعتقدون أنها ستشتعل... يا للمسيح يسوع! الكنيسة تحترق!»

وقفوا وحدقوا... لا... أجل! كانت ألسنة اللهيب الحمراء تندلع من بين الألواح الخشبية تحت البرج التزييني .

اندفع الرجلان كلاهما عبر الساحة . فتح لافرانس أبواب كل الأبنية التي وصلها ، وصرخ على من هم في الداخل ، فخرج الناس مندفعين .

صرخ : «أحضروا الفؤوس ، أحضروا الفؤوس... فؤوس ألواح الخشب ، ومناجل تشذيب الأغصان» . ركض إلى الإسطبلات . خلال لحظة خرج وهو يقود غولدسفاينن من عرفه . قفز فوق ظهر الحصان العاري وانطلق به صاعداً التلة ، وفي يده الفأس الكبيرة العريضة . كان إرلند على حصانه إلى خلفه مباشرة... وتبعهم كل الرجال . البعض على ظهور الجياد ، ولكن البعض الآخر لم يستطع السيطرة على الحيوانات المذعورة ، فتخلوا عنها ، فانطلقوا على أقدامهم . أخيراً وصلت راغنفريد وكل النساء في المكان حاملات الدلاء والسطول .

لم يبدُ أن أحداً عاد يأبه بالعاصفة . تحت نور الوميض كان ممكناً مشاهدة الناس يخرجون من المنازل في الوادي بعيداً في الأسفل . كان قد سبق للسيرا آيريك أن صعد التلة ، وهو يجري وأهل منزله من ورائه . كان هناك صوت وقع حوافر هائل عند الجسر في الأسفل... كان بعض الرجال يعبرونه وقد شحبت وجوههم الخائفة باتجاه كنيستهم المحترقة[٢٢] .

كان الهواء يهب قليلاً من الجنوب الشرقي . كانت النار قد تشبثت بالجدار الشمالي . إلى الغرب كان باب دخول قد سُدّ مسبقاً . ولكن النار لم تكن قد وصلت بعد إلى الجانب الجنوبي أو الجزء الناتئ نصف الدائري .

دخلت كريستين ونساء يوروندغارد إلى مقبرة الكنيسة إلى جنوب الكنيسة في مكان كان السياج فيه محطماً .

كان الوهج الأحمر الهائل ينير البستان إلى شمال الكنيسة والمرج إلى القرب منها حيث كانت هناك أوتادٌ لربط الأحصنة إليها . ما كان ممكناً لأحد الاقتراب من هناك من شدة الحرارة المتقدة... كان الصليب الضخم يقف وحده هناك ، مستحماً في نور اللهب . بدا كأنه حي يتحرك .

عبر هسهسة وزمجرة اللهيب وصل صوت ضرب الفؤوس على عوارض الجدار الجنوبي . كان هناك رجال في الرواق ذي الأعمدة وهم يضربون الجدار بالفؤوس والمطارق ، بينما راح آخرون يحاولون أن يهدموا الرواق نفسه . صرخ أحدهم على نساء يوروندغارد بأن لافرانس وبعض الرجال الآخرين قد لحقوا بسيرا آيريك إلى داخل الكنيسة ، وأنه قد حان الوقت لشق طريق عبر الجدار الجنوبي... كانت ألسنة صغيرة من اللهيب تصل من بين الألواح الخشب هنا أيضاً ، وإذا ما التفت الريح من حول المكان أو توقفت ، فإن الحريق سيلتهم الكنيسة كلها .

كان التفكير في إطفاء الحريق لا طائل فيه . لم يكن هناك وقت كاف لتشكيل سلسلة بشرية حتى النهر . ولكن بناء على أوامر راغنفريد شكلت النساء سلسلة صغيرة ومرّرن الماء من الجدول الصغير الذي يجري على جانب الطريق... كان هناك القليل من الماء فقط لرميه فوق الجدار الجنوبي وعلى الرجال العاملين هناك . بكت وناحت نساء كثيرات خلال هذه الفترة ، خوفاً على الرجال الذين شقوا طريقهم إلى داخل المبنى ، وحزناً على الكنيسة .

كانت كريستين واقفة في آخر صف النساء اللواتي رحن يتناقلن

الدلاء . راحت تحدق لاهثة الأنفاس إلى الكنيسة الملتهبة . كانا كلاهما في الداخل... أبوها وإرلند أيضاً دون شك .

كانت الأعمدة المنتزعة من الرواق ممددة في كومة متشابكة من الألواح الخشب والعوارض التي أخذت من السقف . كان الرجال يهجمون الآن على الجدار الداخلي للعوارض بكل قوتهم... كانت مجموعة منهم قد رفعت جذعاً ضخماً وراحت تضرب الجدار به .

خرج إرلند وواحد من رجاله من الباب الصغير في الجدار الجنوبي من الجزء الخاص بالكهنة من الكنيسة ، حاملين بينهما الصندوق الكبير من الموهف... الصندوق الذي اعتاد سيرا آيريك الجلوس عليه لدى سماع الاعترافات . رمى إرلند وخادمه الصندوق خارجاً في ساحة الكنيسة .

صرخ بشيء ما ، ولكن كريستين لم تستطع سماعه . اندفع فوراً إلى الرواق . بدا رشيقاً كالهر وهو يعدو : كان قد خلع عنه ملابسه الخارجية ولم يكن يرتدي سوى قميص وبنطال قصير وجوارب .

سمع الآخرون صراخه... كان الجزء المخصص للكهنة والموهف يحترقان . ما كان ممكناً لأحد المرور من صحن الكنيسة إلى الباب الجنوبي الآن... فقد سدت النار كلا طريقي النجاة . كانت بعض العوارض في الجدار قد تشظت من ضربها بالمدك . وكان إرلند قد أمسك بخطاف نار ، وبه راح يشدّ ويسحب حطام العوارض الخشب . كان هو ومن معه يحاولون أن يصنعوا ثقباً في جانب الكنيسة ، بينما كان آخرون يصرخون بأن عليهم أن يحذروا ، فالسقف قد ينهار ويسد الطريق على الرجال الذين في الداخل . كان السقف المؤلف من ألواح خشب على هذا الجانب أيضاً آخذاً بالاحتراق بقوة الآن ، والحرارة قد زادت حتى ما عاد ممكناً احتمالها .

دخل إرلند عبر الثقب وساعد سيرا آيريك على الخروج . خرج الكاهن يحمل الأوعية المقدسة من المذابح في الجزء السفلي من ردائه .

تبعه فتى ويده فوق وجهه والأخرى تحمل الصليب الطويل الخاص بالمواكب كمن يحمل رمحاً أمامه . ثم خرج لافرانس . كان يبقي عينيه مغمضتين من الدخان ، وقد ترنح تحت وزن الصليب الضخم الذي كان يحمله بين ذراعيه . كان أطول بكثير من الرجل الذي يحمله .

هرع الناس وساعدوهم في الخروج نحو ساحة الكنيسة . تعثر سيرا آيريك وسقط على ركبتيه ، وسقطت أوعية المذبح وتدحرجت هابطة المنحدر . انفتحت الجامة الفضية وسقط خبز القربان المقدس . حمله الكاهن ومسح عنه التراب وقبّله وهو ينوح عالياً . قبل الرأس المذهّب أيضاً والذي كان يوضع عادة على المذبح مع بقايا أظافر وشعر القديس أولاف عليه .

كان لافرانس بيورغولفسون لا يزال واقفاً ممسكاً بتمثال المسيح مصلوباً . كانت ذراعه ممتدة على طول ذراعي الصليب ، ورأسه منحن فوق كتف تمثال المسيح . كان يبدو كأن المخلّص نفسه كان يحني رأسه الجميل الحزين فوق الرجل إشفاقاً ومواساة .

كان السقف على الجانب الشمالي من الكنيسة قد بدأ يتهاوى قطعاً... وهوت قطعة مشتعلة من عمود ساقط خارجاً وضربت الجرس الكبير في بيت الجرس عند بوابة الكنيسة . أصدر الجرس رنة باكية عميقة تلاشت في نواح طويل غرق تحت زمجرة اللهيب .

لم يكن أحد قد انتبه إلى الطقس خلال هذه الفترة كلها... لم يكن كل ذلك قد دام فترة طويلة قط ، ولكن سواء كانت الفترة قصيرة أم طويلة ما كان أحد قادراً على أن يعرف . كان الرعد والبرق قد عبرا الآن بعيداً نحو

«ديل» . وكان المطر الذي قد بدأ بالهطول قبل فترة قد راح ينهمر على نحو أقوى ، بينما سكنت الريح .

ولكن فجأة بدا وكأن صفحة من اللهب اندلعت من عتبة البناء... وما هي إلا برهة من الزمن حتى كانت زمجرة متصاعدة للنيران قد ابتلعت الكنيسة من أولها إلى آخرها .

تناثر الناس ، مندفعين بعيداً للنجاة من الحرارة الملتهمة . كان إرلند إلى جانب كريستين في تلك اللحظة ، وجذبها بعيداً هابطين من التلة . كانت رائحة الرجل كلها رائحة حريق... حين مسّدت رأسه ووجهه خرجت يدها مليئة بالشعر المحروق .

ما كانا قادرين على سماع صوتيهما من شدة هدير النار . ولكنها رأت أن حاجبيه قد احترقا حتى الجذور . وكانت هناك حروق على وجهه وثقوب كبيرة محترقة في قميصه . لقد ضحك وهو يجذبها معه وراء الناس الآخرين .

تبع الناس كافة الكاهن العجوز وهو يمشي باكياً ، بينما حمل لافرانس بيورغولفسون الصليب .

عند الجزء الأدنى من ساحة الكنيسة أسند لافرانس تمثال المسيح المصلوب إلى شجرة ، وجلس منهكاً على مقعد فوق حطام السياج . كان قد سبق لسيرا آيريك أن جلس هناك ، ثم مد ذراعيه نحو الكنيسة المحترقة :

« وداعاً ، وداعاً يا كنيسة أولاف ، فليباركك الله ، يا كنيسة أولاف يا كنيستي . فليبارك الله كل ساعة رتلت فيها وأنا بداخلك وتلوت القداس فيك... أنت يا كنيسة أولاف... فلتصبحي على خير... فلتصبحي على خير... » .

بكى أهل الكنيسة مع كاهنهم بصوت مرتفع . كان المطر ينهمر بقوة على المجموعات من الناس ، ولكن لم يفكر أحد في البحث عن مأوى . ولم يبد أن المطر قد أوقف الاحتراق العنيف للخشب المطلي بالقطران... كانت

جمرات وألواح خشبية متقدة تتناثر من كل جانب . ثم فجأة انهار البرج التزييني نحو الفرن الناري مرسلاً نثاراً هائلاً من الشرار عالياً في السماء .

جلس لافرانس ويده فوق وجهه . كانت الذراع الأخرى في حجره ، ورأت كريستين أن الكم كان كله مدمّى من الكتف ونازلاً ، وكان الدم يجري فوق أصابعه . ذهبت إليه ولمست ذراعه .

قال وهو يرفع نظره : « أعتقد أنها مسألة بسيطة ، فقد سقط شيء ما فوق كتفي » . كان شاحباً حتى الشفتين . همهم متألماً وهو يحدق إلى الكومة المحترقة : « أولفهيلد » .

سمع سيرا آيريك الكلمة فوضع يده على كتفه :

« لن يوقظ هذا طفلتك يا لافرانس... ستنام نوماً عميقاً رغم صوت الاحتراق فوق رأسها . لم تفقد موطن روحها ، كما فقدناه نحن في هذه الليلة » .

خبأت كريستين وجهها في صدر إرلند ، ووقفت هناك وهي تشعر بذراعه تمسك كتفيها . ثم سمعت أباها يسأل عن زوجته .

أجابه أحدهم بأن امرأة قد أتاها المخاض من الخوف . لقد حملوها إلى بيت الكاهن ومضت راغنفريد إلى هناك .

ثم تذكرت كريستين أنها نسيت تماماً منذ أن رأت الكنيسة تحترق . كان عليها ألا تنظر إلى هذا . فقد كان هناك رجل يعيش إلى الجنوب من الأبرشية وله بقعة حمراء تغطي نصف وجهه . وكان يقال إن السبب هو أن أمه قد نظرت إلى منزل يحترق وهي حامل به . صلت في قلبها : « عزيزتي أيتها الأم المقدسة العذراء . لا تدعي طفلي يتشوه من هذا! »

•

في اليوم اللاحق ، دعيت الأبرشية كلها إلى اجتماع على مرج الكنيسة للتشاور حول كيفية بناء الكنيسة مجدداً .

مضت كريستين لترى سيرا آيريك في روموندغارد قبل الوقت المحدد للاجتماع . سألت الكاهن إن كان يظن أن عليها أن تأخذ ما حدث على أنه علامة . ربما كانت تلك إرادة الله أن عليها أن تقول لأبيها إنها لا تستحق ارتداء تاج العروس ، وأنه من الأنسب أن تتزوج إلى إرلند نيكولاوسون دون احتفال أو مراسيم زفاف .

ولكن سيرا آيريك انفجر غاضباً بعينين تلتمعان بالحنق :

«أتظنين أن الرب يهتم كثيراً بما تفعلنه أنتن الفاسقات من عبث ولهو ، حتى أنه ليحرق كنيسة جميلة محترمة لأجلكن ؟ تخلّي عن غرورك الآثم ولا تجلبي لأمك وللافرانس مثل هذا الحزن الذي لن يعرفا مثله فترة طويلة قادمة . إن لم ترتدي التاج بشرف في يوم تبجيلك... فهذا أسوأ لك . ولكنك ستكونين أنت وإرلند أكثر حاجة إلى كل طقوس الكنيسة حين يتم جمعكما معاً . كل واحد منا ونحن جميعاً لنا خطايا نسأل عنها ، لذلك أعتقد أن هذا العقاب الإلهي الذي قد نزل حل بنا جميعاً . حاولي أن تصلحي من شأن حياتك وأن تساعدي على إعادة بناء الكنيسة أنت وإرلند كلاكما» .

كان في ذهن كريستين أنه لا يعرف كل شيء ، فهي لم تحك له بعد عن هذا الأمر الأخير الذي حصل لها ، ولكنها كانت راضية ولم تقل أي شيء آخر .

مضت إلى الرجال المجتمعين . وصل لافرانس وقد ربط ذراعه في معلاق . وكان على وجه إرلند الكثير من الحروق . كان منظره غير محبب ولكنه كان يضحك هازئاً من ذلك . لم يكن أي من الجروح كبيراً ، وقال إنه يأمل أنها لن تتلف وجهه كثيراً حين سيحتفل به عريساً . وقف إرلند بعد

لافرانس ووعد بدفع أربعة ماركات من الفضة كهبة إلى الكنيسة ، وعن خطيبته ،و بموافقة لافرانس ، سيهب أرضاً[٢٤] قيمتها ستون بقرة من ضمن أملاكها في الأبرشية .

كان من الضروري أن يبقى إرلند أسبوعاً في يوروندغارد بسبب حروقه . رأت كريستين أن لافرانس أصبح يحب صهره أكثر منذ ليلة الحريق : فقد بدا الرجلان وكأنهما أصبحا صديقين جيدين . وفكرت ربما سيحب أبوها إرلند نيكولاوسون كثيراً إلى درجة أنه لن يكون قاسياً جداً في حكمه عليه ، ولن يغالي في غضبه كما كانت تخشى حين سيحل الوقت ويكون عليه أن يعرف أنهما قد أثما .

٨

كانت السنة خيّرة على نحو نادر في الجزء الشمالي من «ديل» كافة . كان محصول التبن كبيراً ، وقد تم تخزينه جافاً . وقد عاد الناس إلى البيوت من «السايترات» في الخريف مع مخزون كبير من الأجبان وقطعان سمينة ممتلئة : لقد نجت بأعجوبة من الحيوانات المتوحشة هذا العام . أما القمح فكان كثيفاً وطويلاً إلى حد لا يتذكر معه إلا قلة من الناس أنهم رأوا شبيهاً له من قبل : كان ينمو بسنابل مليئة وجيدة النضوج ، والطقس كان جميلاً كما يتمنى القلب . بين عيد القديس بارتولوميو وعيد مولد العذراء ، حين يخشى الجليد الليلي كأكثر ما تكون الخشية ، أمطرت السماء قليلاً وكان الجو لطيفاً وغائماً ، ولكن بعد ذلك مضى موسم الحصاد مع شمس وريح وليال لطيفة ضبابية . وفي الأسبوع الذي جاء بعد قداس ميكائيل كان معظم القمح قد كدّس في كل أنحاء الأبرشية .

•

في يوروندغارد كان الناس جميعاً يعملون بكد ونشاط ويجهزون لحفل الزفاف العظيم . في الشهرين الأخيرين كانت كريستين منهمكة من الصباح

إلى الليل حتى أنه لم يكن لديها من الوقت ما يكفي لتهتم بشيءٍ سوى عملها . كانت قد رأت صدرها وقد كبر ، كما أن الحلمتين الصغيرتين الزهريتين قد أصبحتا بنيتين ، وأصبحتا تؤلمانها حين تخرج من السرير في البرد... ولكن كان الألم يزول حين تدفئ نفسها . وبعد ذلك لم تكن تفكر إلاّ بأن عليها أن تنتهي قبل المساء . وحين كانت تضطر بين الحين والآخر إلى رفع ظهرها والوقوف والاستراحة قليلاً ، فقد أحست أن العبء الذي تحمله كان يصبح أثقل فأثقل... ولكنها حين ينظر إليها تبدو رشيقة ونحيلة كما كانت دائماً . مررت يديها على طول فخذيها الطويلتين الجميلتين . لا ، لن تحزن على ذلك الآن . وأحياناً كان توق زاحف ضعيف ينتابها مع الفكرة التالية : ربما خلال شهر أو نحوه ستشعر بالجنين يتحرك في داخلها... وفي ذلك الحين ستكون قد أصبحت في هوسابي... ربما سيكون إرلند سعيداً... أغمضت عينيها وثبتت أسنانها على خاتم خطبتها... ثم رأت أمامها وجه إرلند ، شاحباً ومنفعلاً ، وهو واقف في القاعة هنا في الشتاء يتلفظ بكلمات الزواج بصوت مرتفع واضح :

« فليكن الرب إذن شاهدي وكذلك هؤلاء الناس الواقفون هنا أني إرلند نيكولاوسون أتزوج فعلاً كريستين لافرانسداتر بموجب قوانين الرب والناس ، بالشروط التي ذكرت هنا أمام هؤلاء الشهود الواقفين هنا . سأتخذك زوجة لي وستتخذينني زوجاً لك ، طالما نحن على قيد الحياة ، وأن نعيش معاً كزوجين ، مع كل الألفة والمودة اللتين ينص عليهما قانون الرب وقانون البلاد » .

وبينما كانت تقوم بالمهمات بين منزل وآخر عبر المزرعة ، كانت تتوقف قليلاً... كانت أشجار السمّان مترعة بالتوت هذا العام... سيكون شتاء ثلجياً . كانت الشمس تلتمع فوق الحقول المحصودة الشاحبة حيث كانت

أكداس القمح مكومة على سناداتها . لو أن هذا الطقس يدوم حتى الزفاف!

•

أصر لافرانس على أن ابنته يجب أن تتزوج في الكنيسة . لذلك تقرر إجراء زفاف في الكنيسة الصغيرة في سوندبو . في يوم السبت سينطلق موكب العرس فوق التلال إلى «فاغ» . ثم سيقضون الليل في سوندبو والمزارع المجاورة ، ويعودون يوم الأحد بعد قداس الزفاف . في المساء نفسه بعد صلاة الغروب ، حين ينتهي اليوم المقدس ، فإن حفل الزفاف سيجري ، وكان على لافرانس أن يقدم ابنته إلى إرلند . وبعد منتصف الليل فإن العروس والعريس سيمضيان إلى الفراش .

•

في عصر يوم الجمعة ، وقفت كريستين في شرفة القاعة العلوية ، وراحت تراقب موكب الزفاف وهو قادم من الشمال ، عبر الآثار المتفحمة للكنيسة على جانب التلة . كان إرلند قادماً مع كل أشابينه . حدقت جيداً لتميزه بين الآخرين . لا يجب أن يرى احدهما الآخر... لا يجب أن يراها أي رجل الآن قبل أن تُقاد غداً في ثوب زفافها .

عند مفترق الطرق غادر بعض النساء الموكب واتخذن طريق يوروندغارد . ركب الرجال نحو لاوغاربرو . كن سينمن الليلة هناك .

هبطت كريستين لتقابل النساء القادمات . أحست بالإجهاد بعد الحمام ، وكانت فروة رأسها تؤلمها بعد محلول القلي الكثيف الذي استخدمته أمها في غسل شعرها ، حتى يلتمع في الغد أشقر براقاً .

نزلت الليدي آشيلد من سرجها برشاقة إلى ذراعي لافرانس . كيف

يمكنها أن تبقى رشيقة وشابة حتى الآن ؟ هكذا فكرت كريستين . كانت زوجة ابنها السير مونان ، الليدي كاترين ، تبدو أكبر سناً منها ، فقد كانت سيدة بدينة ضخمة لها بشرة وعينان دون لون أو لمعة . إنه لأمر غريب ، كما فكرت كريستين . فهي بغيضة وهو غير مخلص ، ومع ذلك يقول الناس إنهما يعيشان معاً بوفاق ومودة . ثم كان هناك ابنتا السير بارد بيترسون ، واحدة متزوجة والأخرى عزباء . لم تكونا جميلتين ولا بغيضتين ؛ بل بدا عليهما الصدق واللطف ، إنما كانتا تبدوان غير مرتاحتين بين هذه الرفقة من الغرباء . شكر لافرانس السيدات بدماثة على تكرمهن بتشريف هذا الزفاف بعد قطع كل هذه المسافة الطويلة في مثل هذا الوقت من العام .

«لقد تربى إرلند في بيت أبينا حين كان صبياً» ، قالت البنت الكبرى ، وهن يتقدمن ليحيين كريستين .

و لكن وصل الآن شابان على ظهور الخيل إلى المزرعة بعدو سريع . قفزا من فوق حصانيهما واندفعا ضاحكين وهما يطاردان كريستين ، التي هربت إلى الداخل واختبأت . كانا ولدي تروند غيسلنغ ، وهما شابان وسيمان وأشقران . لقد جلبا تاج الزفاف معهما من سوندبو في صندوق . لم يكن تروند وزوجته ليصلا قبل يوم الأحد ، حين سينضمان إلى موكب الزفاف بعد القداس .

هربت كريستين إلى غرفة الموقد . ولحقت بها الليدي آشيلد ، ووضعت يديها فوق كتفي الفتاة وجذبت وجهها إليها لتقبلها .

قالت الليدي آشيلد : «يسرني أن أعيش حتى أرى هذا اليوم» .

شاهدت كم كانت يدا كريستين قد هزلتا ، وهي تمسكها بيديها . لاحظت أن كل شيء فيها قد نحل عدا صدرها الذي كان ناهداً وممتلئاً . كل ملامح الوجه كانت أصغر وأدق من قبل . بدا الصدغان وكأنهما قد غارا في

ظل الشعر الكثيف الرطب . لم تعد وجنتا الفتاة مستديرتين ، كما كان لونها النضر قد بهت . ولكن عينيها كانتا قد أصبحتا أوسع وأدكن .

قبلتها الليدي آشيلد مجدداً ثم قالت :

«أرى جيداً أنه كان لديك الكثير لتناضلي ضده ، والليلة سأعطيك شراباً منوماً حتى ترتاحي وتكوني نشيطة غداً» .

بدأت شفتا كريستين بالارتجاف .

قالت الليدي آشيلد وهي تربت على يدها : «اصمتي! لقد شعرتُ بالفعل بالمتعة لأني سأزينك غداً... لم يسبق لأحد أن شاهد عروساً أجمل ، على ما أعتقد ، من العروس التي ستكونينها غداً» .

•

ركب لافرانس حصانه إلى لاوغاربرو ليولم لضيوفه الذين كانوا نازلين هناك .

لم يستطع الرجال أن يجدوا الكلمات المناسبة لمديح الطعام... ما كان ممكناً لشخص أن يجد طعام يوم جمعة أفضل من هذا في أكثر الأديرة غنى . كانت هناك عصيدة الشوفان المطحون ، والفاصولياء المسلوقة والخبز الأبيض... ومن أنواع السمك كان هناك السلمون المرقط فقط ، وكان مملحاً وطازجاً ، وكذلك السمك المفلطح المجفف من النوع السمين .

و مع مرور الوقت ومع استمرار الرجال بالشراب ، أصبح مزاجهم أكثر مرحاً وراحت النكات التي تنزل على رأس العريس تتعاظم . كل أشابين إرلند كانوا أصغر منه سناً بكثير... فأنداده في السن وأصدقاؤه كانوا قد تزوجوا منذ زمن بعيد . كانت النكتة المفضلة بين الأشابين أنه كان عجوزاً الآن ومع ذلك فعليه أن يعتلي سرير الزفاف لأول مرة . جلس بعض أقرباء إرلند الأكبر

سناً ، الذين كانوا قد حافظوا على رشدهم ، في خشية من كل نكتة جديدة ، لئلا يتطرق الكلام إلى مسائل يفضل ألا تُذكر . كان السير بارد أوف هستنايس يراقب لافرانس . راح المضيف يشرب بإسراف ، ولكن بدا أن الجعة لم تكن تزيده مرحاً... كان يجلس في مقعد مرتفع ، ووجهه يبدو أكثر فأكثر توتراً وعيناه تصبحان أكثر ثباتاً . ولكن إرلند ، الذي جلس إلى يمين حميه ، كان يردّ على النكات البذيئة التي ترمى عليه بمثلها ، وكان يضحك كثيراً ، وقد التمع وجهه وعيناه .

و فجأة اندفع لافرانس قائلاً :

«تلك العربة يا صهري ـ بينما ما زلت أتذكر ـ ما الذي فعلته بالعربة التي استعرتها مني في الصيف ؟»

«العربة... ؟» ، قال إرلند .

«هل سبق لك ونسيت أنك استعرت مني عربة في الصيف... الله يعلم أنها كانت عربة جيدة جداً لا آمل أن أرى أفضل منها ، فقد أشرفت على صنعها في ورشتي الخاصة بالحدادة في المزرعة . لقد وعدت وأقسمت... وأنا أشهد الله على ذلك ويعرف ذلك أهل منزلي ـ أنك وعدت بإعادتها إليّ... ولكنك لم تحافظ على وعدك...»

قال بعض الضيوف بأن هذه ليست مسألة يجري طرحها الآن ، ولكن لافرانس ضرب المائدة بقبضته وأقسم أنه يريد أن يعرف ما فعله إرلند بعربته .

قال إرلند بخفة : «أوه ، أعتقد أنه من المحتمل أنها لا تزال في المزرعة في نايس ، حيث أخذنا القارب إلى فيوي . لم أكن أظنها ذات شأن . ألا ترى يا عمي أنها كانت رحلة طويلة ومتعبة مع عربة ثقيلة عبر الجبال ، وحين وصلنا إلى المخاضة (الشريعة) ، لم يتذكر أي من رجالي أن

يعيد العربة طوال طريق العودة إلى هنا ، ثم يسافر شمالاً مجدداً عبر الجبال إلى تروندهايم . لذلك فكرنا في أن نتركها هناك لبعض الوقت... »

انفجر لافرانس قائلاً : « ليخطفني الشيطان من حيث أجلس في هذه الساعة ، لو سبق لي أن سمعت بمن يشبهك . أهكذا تدار الأمور في منزلك... من الذي يأمر أنت أم رجالك... أين يذهبون أو لا يذهبون... ؟ »

هزّ إرلند كتفيه :

« هذا صحيح ، لقد جرت أمور ما كان يجب أن تجري في منزلي... ولكني سأعمل على إرسال العربة جنوباً إليك من جديد ، وذلك حين أتوجّه أنا وكريستين إلى هناك... يا عمي العزيز » . ، قال ذلك ومد يده : « كن واثقاً من أني ما أن أوصل كريستين إلى البيت لتصبح سيدة منزلي حتى تتغير الأمور كلها فيما يخص كل شيء ، حتى فيما يخصني أنا . كان تصرفاً سيئاً مني فيما يخص العربة . ولكني أعدك بأن هذه ستكون آخر مرة أسبب لك فيها إزعاجاً » .

قال بارد بيترسون : « عزيزي لافرانس ، سامحه في هذه المسألة الصغيرة » .

شرع لافرانس يقول : « صغيرة أم كبيرة... » ولكنه أمسك لسانه وأخذ يد إرلند .

وسرعان ما أعطى الإشارة بإنهاء الاحتفال ، وبدأ الضيوف يذهبون إلى أماكن نومهم .

•

في يوم السبت قبل الظهر كانت كل النساء والفتيات منهمكات في علية مبنى المخزن ، وبعضهن كن يجهزن سرير الزفاف ، والبعض الآخر يلبس العروس ويزينها .

كانت راغنفريد قد اختارت هذا المبنى للعروس ، وذلك لأن فيه أصغر علية... وكان ممكناً منح المجال للكثير من الضيوف في علية مبنى المخزن الجديد ، تلك التي استخدموها في الصيف للنوم حين كانت كريستين طفلة صغيرة ، قبل أن يشيد لافرانس المسكن الجديد الكبير الذي يقطنون فيه الآن صيفاً وشتاء . ولكن إلى جانب هذا ، لم يكن هناك مبنى أجمل في المزرعة من مبنى المخزن القديم ، بما أن لافرانس قد رمّمه ورتّبه... فقد كان آيلاً للسقوط حين انتقلوا إلى يوروندغارد . كان مزخرفاً بأجمل نقش على الخشب من الخارج والداخل ، وإن لم تكن العلية كبيرة ، إلا أن تزيينها بالسجاجيد والأبسطة والجلود كان أسهل .

كان سرير الزفاف جاهزاً ، مع وسائد مغطاة بالحرير ، وقد علقت من حوله الستائر الفخمة حتى بدت كخيمة . وفوق الجلود والأغطية على السرير وضع غطاء حرير مزخرف . كانت راغنفريد وبعض النساء الأخريات مشغولات بتعليق النسيج المزركش على الجدران الخشب ووضع الوسائد بانتظام على المقاعد .

جلست كريستين في كنبة كبيرة جلبت إلى هناك . كانت ترتدي ثوب زفافها القرمزي الذي تمسك به دبابيس تزيينية فضية كبيرة فوق صدرها ، وتثبت القميص الحرير الأصفر التحتاني الذي يظهر من فتحة العنق . كانت الأساور الذهبية تلتمع فوق الأكمام الفراء الحريرية . كان حزامٌ فضيٌ مذهبٌ قد مُرّر ثلاث مرات حول خصرها ، وعلى عنقها وصدرها كانت سلسلة ذهبية ، وفوق ذلك كله سلسلة أبيها الذهبية القديمة مع صليب المذخر الضخم . كانت يداها الموضوعتان في حجرها مثقلتين بالخواتم .

وقفت الليدي آشيلد خلف كرسيها وهي تمشط لها شعرها البني المذهب الكثيف من كل الجوانب .

قالت مبتسمة وهي تلف الشرائط الحمراء والخضراء التي كانت ستسند التاج ، حول رأس كريستين : «غداً ستطلقينه حراً للمرة الأخيرة» . ثم تجمعت النساء من حول كريستين .

تناولت راغنفريد وغيريد أوف سكوغ التاج الزفافي العظيم الخاص بآل غييسلينغ من الطاولة . كان مذهباً من كل جوانبه ، وكانت رؤوسه تنتهي بصلبان وأوراق النفل على التوالي ، وكانت حليته الدائرية مرصعة بأحجار كريستالية كبيرة .

وضعوه فوق رأس العروس . كانت راغنفريد شاحبة ، ويداها ترتجفان وهي تقوم بذلك .

نهضت كريستين ببطء على قدميها . يا للمسيح! كم كان ثقيلاً حمل كل ذلك الذهب والفضة... ثم أمسكت الليدي آشيلد بيدها وقادتها نحو الأمام إلى حوض كبير من الماء... بينما فتحت وصيفات العروس الباب أمام نور الشمس الخارجي ، حتى يكون النور في الغرفة ساطعاً .

قالت الليدي آشيلد : «انظري الآن إلى نفسك في الماء يا كريستين» . وانحنت كريستين فوق الحوض . لمحت صورة وجهها الشاحب في الماء ؛ واقترب وجهها منها حتى شاهدت التاج الذهبي من فوقه . من حولها كانت ظلال كثيرة لامعة وداكنة ، وكانت هذه تتحرك في المرآة ـ كان هناك شيء كادت تتذكره ـ ثم أحست وكأنه سيغمى عليها ـ فتمسكت بحافة الحوض أمامها . في تلك اللحظة وضعت الليدي آشيلد يدها فوق يد كريستين ، وغرزت أظافرها بشدة في لحمها حتى عادت كريستين إلى وعيها من جراء الألم .

سمعت نفخات بوق كبير من قرب الجسر في الأسفل . راح الناس يصرخون من الساحة بأن العريس كان قادماً مع الموكب . قادت النسوة كريستين إلى الشرفة .

في الساحة كانت جمهرة متدافعة من الخيل في أغطية مزركشة وأشخاص في ملابس احتفالية ، والكل يلمع ويبرق تحت الشمس . نظرت كريستين بعيداً إلى ما وراء ذلك كله ، بعيداً نحو «ديل» . كان وادي موطنها يقبع لامعاً وهادئاً تحت سديم أزرق ضبابي رقيق . عالياً فوق السديم برزت الجبال رمادية من اكوام الصخور ، وسوداء من الغابات ، وراحت الشمس تصب نورها في حوض الوادي الكبير من سماء دون غيوم .

لم تكن قد لاحظت ذلك من قبل ، ولكن الأشجار كانت قد تعرت من كل أوراقها : والبساتين المجاورة تلتمع عارية بلون رمادي فضي . كانت أجمات شجر جار الماء وحدها على امتداد النهر لها لون أخضر باهت على أعلى أغصانها ، وهنا وهناك كانت شجرة بتولا قد احتفظت ببعض الأوراق البيضاء المصفرة التي ما زالت تلتصق بآخر أغصانها . ولكن الأشجار في أغلبها كانت عارية تقريباً ـ كلها عدا أشجار السمّن ، فقد كانت هذه لا تزال لامعة ذات أوراق حمراء بنية من حول عناقيد ثمارها الحمراء الدموية . في النهار الهادئ الدافئ كانت هناك رائحة عفونة خريفية تبرز من اللون الرمادي الذي كان يغطي الأوراق الساقطة التي تغطي الأرض فيما حولها كافة .

لولا شجيرات السمن لكان ذلك أشبه ببدايات الربيع . وكذلك الهدوء ـ ولكن هذا كان هدوءاً خريفياً ، هادئاً إلى حد الموت . وحين توقف نفخ البوق ، لم يسمع أي صوت آخر في الوادي عدا رنين الأجراس من الحقول المحصودة والأرض المراحة حيث كانت الحيوانات تتجول وترعى .

كان النهر قد تضاءل وتحول هديره إلى همهمة ، فقد أضحى مجرد حبال قليلة من الماء تجري وسط ضفاف من الرمل وامتدادات واسعة من حجارة كبيرة مستديرة بيضاء . لا ضجيج لجداول نازلة من الجبال : لقد كان الخريف شديد الجفاف . كانت الحقول المجاورة ما تزال تلتمع رطبة ـ إلا

أنها الرطوبة التي تنزّ من التربة في الخريف ، مهما كانت الأيام دافئة ومهما كان الجو صافياً .

كان الحشد الذي ملأ المزرعة قد تراجع ليفسح في المجال أمام موكب العريس . ومباشرة وصل أشابين العريس يركبون الجياد : حدث اضطراب بين النساء في الشرفة .

كانت الليدي آشيلد تقف قرب العروس .

قالت : «تحملي جيداً الآن يا كريستين فلن يطول الأمر حتى تكوني آمنة تحت القبعة الكتانية» .[٢٥]

أومأت كريستين برأسها دون حول . أحست أن وجهها بدا شاحباً كالموتى دون شك .

قالت بصوت خفيض : «أعتقد أني عروس شاحبة جداً» .

قالت الليدي آشيلد : «أنت أجمل عروس وهاهو إرلند قد وصل على جواده : من الصعب أن يجد المرء زوجاً أجمل منكما أنتما الاثنين» .

والآن سار إرلند نفسه متقدماً إلى ما تحت الشرفة . قفز بخفة من على حصانه ، دون أن تعيقه ملابسه الثقيلة المتدلية . بدا جميلاً جداً لكريستين إلى حد أن النظر إليه كان مؤلماً .

كان في ملابس داكنة . معطف حرير ذو شق طويل يصل إلى قدميه ، لونه بني كورق الشجر ومطرز بالأسود والأبيض . من حول خصره كان حزام مرصع بالذهب وإلى جوار فخذه اليسرى علق سيفاً مذهب المقبض والغمد . وعلى كتفيه كانت عباءة مخملية زرقاء داكنة اللون وثقيلة ، وقد ارتدى على رأسه ذي الشعر الأسود الفحمي قبعة فرنسية من الحرير كانت ناتئة من الجانبين على شكل جناحين مغضنين ومنتهية بقصاصتين طويلتين إحداهما تنزل إلى كتفه اليسرى عبر صدره والأخرى خلف الذراع الأخرى .

انحنى إرلند انحناءة خفيفة أمام عروسه وهي واقفة هناك . ثم ذهب إلى حصانها ووقف قربه ويده على قوس السرج ، بينما صعد لافرانس الدرج . طغى شعور غريب على كريستين سبب لها الدوار لدى رؤيتها كل هذه الروعة : كان أبوها في ملابسه الوقورة من المخمل الأخضر النازلة حتى قدميه يبدو كشخص غريب . وكان وجه أمها تحت القلنسوة الكتانية ، يبدو أبيض رمادياً بالمقارنة مع اللون الأحمر لثوبها الحرير . تقدمت راغنفريد ووضعت العباءة على كتفي ابنتها .

ثم أخذ لافرانس بيد العروس وقادها إلى الأسفل إلى إرلند . رفعها العريس إلى السرج ، ثم ركب هو نفسه على حصانه . أبقيا حصانيهما الواحد إلى جانب الآخر ، هذان الاثنان ، تحت شرفة العروس ، بينما بدأ الموكب يتشكل ويخرج عبر باب الساحة . أولاً الكهنة : سيرا آيريك ، سيرا تورمود أوف أولفسفولدن وأخ من «الصليب المقدس» من «هامار» ، وهو صديق للافرانس . ثم الأشابين والاشبينات ، زوجاً زوجاً . والآن كان دورها هي وإرلند للتقدم . ومن بعدهما جاء والدا العروس والأقارب والأصدقاء والضيوف ، في صف طويل بين الأسيجة حتى الطريق العام . الطريق كان لمسافة طويلة مزروعاً بعناقيد توت السمّن وأغصان الصنوبر الصغيرة ، وآخر زهور الأقحوان الخريفية البيضاء ، ووقف الناس محتشدين على امتداد الطريق حيث سيمر الموكب ، وراحوا يحيونه بهتافات عالية .

•

في يوم الأحد ، بعد الغروب مباشرة ، عاد موكب الزفاف إلى يوروندغارد . عبر طيات الظلمة الأولى كانت النيران الكبيرة تلتمع حمراء

من ساحة منزل العروس . كان المغنون والعازفون يغنون ويقرعون الطبول ويعزفون على آلات الكمان بينما اقترب الموكب من المشعلات الحمراء المتقدة .

كادت كريستين تسقط بطولها على الأرض حين رفعها إرلند من حصانها تحت شرفة القاعة العليا .

همست : «كان البرد شديداً في الجبال . أنا منهكة جداً...» وقفت لحظة ، وحين صعدت الدرج إلى العلية ، ترنحت وتعثرت عند كل درجة .

في القاعة سرعان ما شعر الضيوف نصف المتجمدين بالدفء مجدداً . كانت الشموع الكثيرة التي تشتعل في الغرفة تبث الحرارة . أدخلت أطباق الطعام الساخنة المدخنة وكذلك النبيذ والميد والجعة القوية ووزعت على الحاضرين . بدت الهمهمة المرتفعة للأصوات وضجيج المتناولين للطعام كهدير بعيد في أذني كريستين .

تهيأ لها وهي جالسة هناك أنها لن تشعر بالدفء أبداً مجدداً . خلال فترة بدأت وجنتاها تحرقانها ، ولكن قدميها كانتا لا تزلان باردتين ، وكانت رعدات البرد تسري في ظهرها . لقد أجبرها كل الذهب الثقيل الذي كان فوق رأسها وجسدها على أن تنحني نحو الأمام وهي جالسة في الكرسي العالي إلى جانب إرلند .

وفي كل مرة كان عريسها يشرب نخبها ، لم تستطع أن تبقي عينيها على البقع واللطخات الحمراء التي تظهر على وجهه على نحو بارز . وقد بدأ يدفأ بعد تلك الرحلة في البرد على ظهر الحصان . كانت تلك العلامات التي خلفتها حروق الصيف الماضي .

•

كان الرعب قد حلّ بها في المساء الماضي ، حين جلسا إلى مائدة

العشاء في سوندبو ، وقابلت هي عيون بيورن غونارسون الخاليتين من النور المثبتتين عليها وعلى إرلند : كانت عيناه لا تطرفان ولا ترتعشان . كانوا قد ألبسوا السير بيورن ملابس الفرسان : بدا كشخص ميّت أعيد إلى الحياة برقية شريرة .

في الليل كانت قد نامت مع الليدي آشيلد ، أقرب القريبات إلى العريس في موكب العرس .

سألت الليدي آشيلد ببعض الحدة : «ما خطبك يا كريستين ؟ الآن حان الوقت لتتحملي بصلابة حتى النهاية... وليس أن تستسلمي على هذا النحو» .

قالت كريستين وقد جعلها الخوف تشعر بالبرد : «أنا أفكر بكل هؤلاء الذين سبّبنا لهم الأسى حتى نرى هذا اليوم» .

«أعرف أنكما لم تسببا الفرح فحسب أنتما الأثنين ، ليس إرلند في الأقل . وأعتقد أن الأمر أسوأ بالنسبة إليك» ، قالت الليدي آشيلد .

قالت العروس مجدداً : «أفكر بولديه البائسين . أتساءل إن كانا يعرفان أن أباهما يشرب اليوم في احتفال عرسه...»

قالت الليدي : «فكري في طفلك أنت . كوني سعيدة وأنت تشربين في زفافك مع الرجل الذي هو أبوه» .

استلقت كريستين فترة قصيرة ، ضعيفة ودائخة . كان الأمر غريباً جداً أن تسمع ذلك الاسم الذي ملأ قلبها وعقلها في كل يوم من الأيام خلال ثلاثة شهور ونيف ، وهي التي لم تكن تجرؤ على ذكر كلمة واحدة عنه لأي شخص . ولكن هذا لم يساعدها إلا قليلاً .

همست وهي ترتجف : «أفكر بها تلك التي اضطرت إلى دفع الثمن بحياتها ، لأنها كانت تحب إرلند كثيراً» .

قالت الليدي آشيلد بقسوة : «حسناً هذا إذا لم تضطري إلى دفع حياتك ثمناً أنت نفسك قبل مرور نصف سنة أخرى . كوني سعيدة أنك...

«ما الذي أقوله لك يا كريستين ؟» قالت المرأة العجوز بعد برهة ، يائسة . «هل فقدت كل شجاعتك مرة واحدة في هذا اليوم بين كل الأيام ؟ سرعان ما سيطلب إليكما كزوجين أن تدفعا ثمن كل ما فعلتماه خطأ... لا تخشي من أن الأمور لن تكون خلاف ذلك» .

•

ولكن كريستين أحست أن كل الأشياء في روحها كانت تنزلق ، تنزلق... وكأن كل ما عمرته منذ يوم الرعب ذاك في هاوغن قد تهاوى . في تلك المرة الأولى التي فكرت فيها ـ وقد أفقدها الخوف الرشد والبصر ـ بأن تصمد يوماً آخر ، ثم يوماً آخر . وقد صمدت حتى أصبح عبئها أخف... وأخيراً أصبح أخف ، حين رمت كل تلك الأفكار بعيداً عدا هذه الفكرة : أن يوم زفافهما قد أزف أخيراً ، يوم زفاف إرلند أخيراً .

و لكن حين ركعا هي وإرلند معاً في قداس الزفاف ، بدا كل ما حولها مجرد خداع بصر... الشموع والصور والأوعية الملتمعة والكهنة في غفّاراتهم وأرديتهم البيضاء . كل هؤلاء الذين عرفوها حيث عاشت من قبل ـ بدوا لها مثل رؤى في حلم ، يقفون هناك ، متراصين في الكنيسة في ملابسهم غير المعتادة . ولكن السير بيورن كان يقف مستنداً إلى عمود ، ينظر إلى هذين بعينين ميتتين ، وبدا لها أن تلك التي ماتت كان يجب أن تعود معه ، مستندة إلى ذراعه .

حاولت أن ترفع بصرها إلى صورة القديس أولاف ـ كان يقف هناك أحمر وأبيض ووسيماً ، مستنداً على فأسه ، وقد راح يدوس طبيعته البشرية الآثمة

تحت قدمه ـ ولكن نظرتها كانت تعود دائماً إلى السير بيورن ، وإلى القرب منه كانت ترى وجه إلين أورمسداتر الميت ، وهي تنظر دون أن تتحرك إليها وإلى إرلند . لقد داساها تحت الأقدام حتى يصلا إلى هنا... وهي لم تضنّ عليهما بذلك .

كانت المرأة الميتة قد نهضت ورمت بعيداً كل الأحجار الضخمة التي حاولت كريستين جاهدة أن تكومها فوقها : شباب إرلند الضائع وشرفه وسعادته وفضائل أصدقائه وصحة روحه . لقد تخلصت المرأة الميتة من هذه جميعاً . سيتملكني وسأتملكه ؛ سيكون لك وتكوني له قالت إلين . لقد دفعت الثمن وهو عليه أن يدفع وأنت عليك أن تدفعي حين يحين أوانك . حين يكون زمن الخطيئة قد اكتمل سيجلب لك الموت...

بدا لها أنها كانت تركع مع إرلند على حجر بارد .ركع هناك بالبقع الحمراء المحترقة على وجهه الشاحب .وركعت تحت تاج الزفاف الثقيل وأحست بالعبء الكئيب الساحق في داخلها ـ عبء الخطيئة التي حملتها . لقد عبثت وأسرفت في خطيئتها ، وقد وزنتها كما في لعبة من ألعاب الأطفال . يا للعذراء المقدسة! لقد حان الآن الوقت الذي يجب أن تكون فيه خطيئتها مولوداً كاملاً أمامها ، ينظر إليها بعينين حيتين ، ويريها علامات الخطيئة موسومة على نفسه ، يريها التشوه البشع للخطيئة ، ويضرب بحقد بيدين مشوهتين على صدر أمه . حين ستلد ابنها وترى علامات خطيئتها عليه ، ومع ذلك ستحبه كما أحبت خطيئتها ، عندها ستكون اللعبة قد لُعبت حتى النهاية .

فكرت كريستين : ماذا لو صرخت بصوت عال الآن ، صرخة تقاطع الأغنية والأصوات العميقة التي تنشد القداس ، وتتردد في رؤوس الناس ؟ هل ستتخلص حينها من وجه إلين ...هل ستعود الحياة إلى عيني الرجل الميت ؟ ولكنها أطبقت على أسنانها .

... أيها الملك أولاف المقدس ، أناديك . أطلب منك العون وحدك في السماء ، لأني أعرف أنك أحببت العدل الإلـهي فوق كل شيء آخر . أناشدك أن ترفع يدك لتحمي البريء الذي في رحمي . أبعد غضب الرب عن البريء ودعه ينزل عليّ . آمين باسم الرب العزيز...

وطفلاي ، قالت إلين ، أليسا هما بريئان ؟ ومع ذلك ليس لهما مكان في الأراضي التي يسكن فيها المسيحيون . لقد حبلت بطفلك خارج القانون كما هو شأن طفليّ . لا يمكنك أن تطالبي له بأي حقوق في البلد الذي ضللت فيها ، أكثر مما يحق لي أن أطالب لأجل طفليّ...

يا أولاف المقدس! ومع ذلك أصلي لأجل الرحمة . أطلب الرحمة لأجل ابني ، خذه تحت جناح حمايتك ، حتى أحمله إلى كنيستك بقدمي الحافيتين ، حتى أحمل إكليل عذريتي الذهبي إليك وأضعه على مذبحك ، إن كنت ستساعدني . فحسب . آمين .

كان وجهها قد أصبح قاسياً كالحجر في نضالها لتبقى ساكنة وهادئة . إلا أن جسدها كله كان يخفق ويرتجف وهي تركع هناك خلال القداس الذي بموجبه أصبحت زوجة لإرلند .

•

والآن ، وبينما هي جالسة إلى القرب منه في الكرسي العالي في بيتها ، كان كل شيء حولها مجرد ظلال في حلم محموم .

كان هناك مغنون يعزفون على القيثارة والكمان في العلية ، وكان صوت الموسيقى والأغاني يخرج من القاعة في الأسفل والساحة في الخارج . كان هناك توهج أحمر للنار من الخارج ، حين يفتح الباب لتحمل الأطباق والأكواب إلى الداخل أو إلى الخارج .

أولئك الذي كانوا من حول المائدة كانوا وقوفاً الآن . كانت تقف بين أبيها وإرلند . كان أبوها قد أعلن بصوت مرتفع أنه منح ابنته كريستين كزوجة إلى إرلند نيكولاوسون . شكر إرلند حماه وشكر كل الناس الطيبين الذين اجتمعوا هناك ليشرفوه هو وزوجته .

كان عليها أن تجلس ، كما قالوا ... والآن وضع إرلند هدية الزفاف في حجرها . نشر سيرا آيريك والسير مونان باردسون صكوكاً وقرآ بصوت مرتفع منها كل ما يتعلق بالمهر العقاري والاتفاقيات المتعلقة بالعروسين . بينما كان الأشابين يقفون من حول المائدة ، وفي أيديهم رماح ، وكانوا بين الحين والآخر ، خلال القراءة ، أو حين كانت الهدايا أو منح المال توضع على المائدة ، يضربون الأرض بأعقاب الرماح .

نظفت الموائد . قادها إرلند نحو الأمام ورقصا معاً . فكرت كريستين : إن أشابيننا وإشبيناتنا كلهم أصغر سناً منا بكثير... كل من كان شاباً معنا قد رحل عن هذه الأمكنة ، كيف عدنا إلى هناك يا ترى ؟

همس إرلند وهما يرقصان : «أنت غريبة جداً يا كريستين . أنا خائف منك يا كريستين... هل أنت غير سعيدة... ؟ »

●

تنقّلا من مبنى إلى آخر وحيّا ضيوفهما . كان هناك الكثير من الأنوار في كل غرفة ، وفي كل مكان كانت حشود من الناس تشرب وتغني وترقص . بدا لكريستين أنها لا تعرف إلا بالكاد بيتها... وأنها فقدت كل معرفة بالزمن... الساعات والصور في دماغها بدت وكأنها تطفو على نحو غريب بحرية ، وقد امتزجت الواحدة بالأخرى .

كانت الليلة الخريفية معتدلة . كان هناك مغنون في الساحة أيضاً ،

وأشخاص يرقصون حول النيران الكبيرة . وقد صاحوا بأن على العروسين أن يشرفاهم أيضاً... ثم راحت ترقص مع إرلند فوق المرج البارد والرطب . بدا وكأنها راحت تستيقظ قليلاً عندئذ ، وأصبح فكرها أوضح .

في العتمة إلى البعيد كانت حزمة من الضباب الأبيض تطفو فوق همهمة النهر . انتصبت الجبال من حولها سوداء كالفحم أمام السماء التي انتثرت فيها النجوم .

قادها إرلند خارج حلقة الراقصين وضمها إليه بقوة في العتمة تحت الشرفة .

« لم تتح لي الفرصة مرة واحدة لأقول لك... إنك جميلة جداً... جميلة وحلوة جداً . وجنتاك حمراوان كاللهيب... » ضغط بخده على خدها وهو يتكلم : « كريستين ، ما خطبك ؟ »

همست : « أنا متعبة جداً ، متعبة جداً » .

« سرعان ما سنذهب للنوم الآن » ، أجابها عريسها وهو يتطلع إلى السماء . كانت درب التبانة قد انعطفت وأصبحت الآن باتجاه الشمال والجنوب... « أتعرفين أننا لم ننم مرة واحدة معاً منذ تلك الليلة الوحيدة التي كنت فيها معك في مخدعك في سكوغ ؟ »

سرعان ما صرخ سيرا آيريك بعد ذلك عالياً عبر المزرعة بأن يوم الاثنين قد حل . وصلت النساء لتقود العروس إلى الفراش . كانت كريستين منهكة إلى حد أنها ما كانت قادرة على المقاومة والعناد كما كان يليق بها أن تفعل . تركت نفسها يمسك بها وتقاد خارج العلية من قبل الليدي آشيلد وغيريد أوف سكوغ . وقف الأشابين قرب أسفل الدرج حاملين المشاعل وبسيوف مشرعة . وقد شكلوا حلقة حول مجموعة النساء ورافقوا كريستين عبر المزرعة ثم صعوداً إلى العلية .

خلعت عنها النسوة ملابس العرس وزينته قطعة قطعة ، ووضعوها

بعيداً . رأت كريستين أنه كان قد وضع على الجزء السفلي من السرير الثوب المخملي البنفسجي الذي كانت سترتديه في الغد ، وفوقه كان قماش كتاني مضفور بدقة أبيض كالثلج . كان هذا هو قلنسوة الزوجة . كان إرلند قد أحضرها لها . غداً سيكون عليها أن تربط شعرها في عقدة وتربط الكتان فوقه . بدا لها نضراً وبارداً ومريحاً جداً .

و أخيراً هاهي تقف أمام سرير الزفاف على قدميها الحافيتين ، وبذراعين عاريتين ، لا ترتدي سوى القميص الحرير الأصفر الذهبي الطويل . كانوا قد وضعوا التاج على رأسها مجدداً ، فقد كان على العريس أن يخلعه حين يتركان وحدهما .

وضعت راغنفريد يديها على كتفي ابنتها ، وقبلتها على وجنتها... كان وجه الأم ويداها في منتهى البرودة ولكن بدا وكأن البكاء كان يعتمل في مكان عميق في صدرها . ثم رفعت أغطية السرير وأمرت العروس أن تجلس فيه . أطاعت كريستين الأمر واستندت إلى الوسائد المكومة على رأس السرير... كان عليها أن تحني رأسها قليلاً إلى الأمام لتبقي التاج عليه . رفعت الليدي آشيلد الأغطية حتى خصر العروس ، ووضعت يديها فوق الغطاء العلوي الحرير ، ثم لملمت شعرها اللامع ونثرته فوق صدرها وذراعيها العاريتين الرشيقتين .

ثم قاد الرجال العريس إلى العلية . فك مونان باردسون الحزام الذهبي والسيف من على خصر إرلند . حين انحنى ليعلقه على الجدار من فوق السرير همس بشيء ما للعروس... لم تفهم كريستين ما قاله ، ولكنها بذلت جهدها لتبتسم .

فك الأشابين ثوب إرلند الحرير ورفعوا الرداء الطويل الثقيل من فوق رأسه . جلس في الكرسي الكبير وساعدوه على خلع مهمازه وحذائه .

مرة واحدة ، مرة واحدة فحسب وجدت العروس الشجاعة لترفع نظرها وتقابل عينيه .

ثم بدأ تبادل التمنيات بليلة سعيدة . وقبل أن يمضي وقت طويل كان ضيوف العرس قد غادروا العلية . وقد كان آخر من خرج هو لافرانس بيورغولفسون الذي أغلق باب غرفة الزفاف .

•

نهض إرلند وخلع ملابسه التحتانية ورماها على المقاعد . وقف قرب السرير ورفع التاج والحبال الحرير عن شعرها ووضعها على الطاولة . ثم عاد وصعد إلى السرير . ركع بالقرب منها فأمسك بها من رأسها وضغطه على صدره الحار العاري ، بينما راح يقبل جبينها على امتداد الخط الأحمر الذي خلفه التاج .

رمت بذراعيها من حول كتفيه وناحت بصوت عال... اعتراها شعور عذب كئيب بأن الرعب ورؤى الأشباح كانت تتبخر في الهواء... الآن مرة أخرى لم يعد هناك من شيء سواه وسواها : رفع وجهها لحظة ، ونظر إليه ، ثم مرّر يده على وجهها وجسمها ، بسرعة وخشونة غريبتين ، وكأنه يمزق غطاء ما .

رجاها بهمسة حارة : «انسي ، انسي كل شيء يا كريستين... كل شيء باستثناء أنك زوجتي ، وأنا زوجك...»

و بيده أطفأ شعلة آخر شمعة ، ثم رمى بنفسه إلى جانبها في الظلام : كان هو أيضاً يبكي الآن :

«لم أصدق ذلك مطلقاً ، مطلقاً خلال كل هذه السنين ، أننا سنرى هذا اليوم...»

•

في الخارج ، في الساحة خفتت الضجة تدريجياً . كان الضيوف المنهكون من الرحلة الطويلة على الجياد في النهار ، والثملين من الشراب القوي الكثير ، لا يزالون يمرحون حتى الآن ، ولكن المزيد ثم المزيد منهم راحوا يتسللون إلى أماكن نومهم .

أوصلت راغنفريد كل ضيوف الشرف إلى أماكنهم ، وتمنت لهم ليلة سعيدة . أما زوجها الذي كان من المفروض أن يساعدها في هذا فلم يكن يُرى في أي مكان .

كانت الساحة المعتمة فارغة ، باستثناء مجموعات صغيرة قليلة من الشبان ـ معظمهم من الخدم ـ حين انسلّت أخيراً لتجد زوجها وتحضره إلى سريره . كانت قد لاحظت والليل ينقضي أن زوجها كان ثملاً جداً .

تعثرت به أخيراً ، بينما كانت تمشي ببطء باحثة عنه خارج ساحة القطعان : كان مستلقياً على وجهه فوق العشب خلف الحمام .

راحت تتلمس في العتمة ، فوجدت يده... أجل ، كان هو . ظنته نائماً ، وأمسكت به من كتفه : عليها أن ترفعه عن الأرض الباردة كالجليد . ولكنه لم يكن نائماً ، في الأقل ليس تماماً .

سألها بصوت غليظ : «ما الذي تريدينه ؟»

قالت زوجته : «لا تستطيع النوم هنا» . أسندته حين وقف مترنحاً . وبيد واحدة مسحت التراب عن ردائه المخملي . «لقد حان وقت ذهابنا نحن الاثنين للراحة يا زوجي» . أخذته من ذراعه وسحبته وهو يترنح ناكصاً على عقبيه ، باتجاه مباني المزرعة .

قال لها بالصوت نفسه : «لم ترفعي بصرك أنت يا راغنفريد حين كنت جالسة في سرير الزفاف خاصتك تحت التاج . أما ابنتنا فلم تكن بالخجولة : لم تكن عيناها خجلتين حين رفعتهما إلى عريسها» .

«لقد انتظرته سبعة أنصاف سنة» ، قالت الأم بصوت خفيض . «لا عجب أنها وجدت الشجاعة لترفع بصرها...»

«كلا ، فليلعنني الشيطان لو كانا قد انتظرا!» صرخ الرجل بينما حاولت زوجته بخوف إسكاته .

كانوا في الممر الضيق بين ظهر المرحاض والسياج . ضرب لافرانس بقبضته على العمود عبر حفرة المجرور .

«وضعتك هنا احتقاراً وسخرية ، أنت أيها العمود . وضعتك هنا حتى تتآكلك القذارة . وضعتك هنا عقاباً لأنك ضربت ابنتي الرقيقة الصغيرة... كان عليّ أن أضعك عالياً فوق باب غرفة القاعة ، وأن أشرّفك وأشكرك بأجمل زينة منقوشة ، لأنك أنقذتها من العار والحزن... لأن ما فعلته هو الذي جعل أولفهيلد تموت طفلة دون خطيئة...»

التفت ، ثم ترنح نحو السياج وسقط نحو الأمام عليه ، ثم انخرط ورأسه بين ذراعيه في نوبة انفعال من البكاء لا يمكن إخمادها ، تتخلّلها أنّات طويلة عميقة .

أمسكت به زوجته من كتفيه .

«لافرانس ، لافرانس!» ولكنها لم تستطع إيقاف بكائه . «زوجي!»

«أوه ، ما كان يجب عليّ أبداً أبداً أبداً أن أزوجها لذلك الرجل! فليساعدني الله ـ كان عليّ أن أعرف الأمر خلال ذلك الوقت كله ـ لقد حطم شبابها وشرفها . لم أصدق ذلك... كلا ، هل كنت أستطيع أن أصدق أن كريستين يمكن أن تفعل مثل ذلك ؟... ولكني عرفت ذلك رغم كل شيء . وهي إلى ذلك أفضل بكثير من هذا الفتى الضعيف ، الذي ضيّع نفسه وضيّعها... ولو أنه أغواها على طريق الضلال عشرة أضعاف ما فعله ، ما كان عليّ أن أزوجها إياه ، حتى لا يضيّع المزيد من حياتها وسعادتها...»

«و لكن هل كان هناك سبيل آخر ؟» قالت المرأة بيأس . «أنت تعرف الآن كما أعرف أنا... أنه كان قد سبق له وامتلكها...»

قال لافرانس : «أجل ، ما كانت هناك حاجة كبيرة بي للقيام بكل ذلك المنح لإرلند ، أن أمنحه ما سبق له أن أخذه بنفسه على نحو مسبق . لقد نالت زوجاً شهماً... كريستين...» مزق السياج ثم عاد إلى البكاء . لقد بدا لراغنفريد على أنه قد عاد إلى رشده قليلاً ، ولكن نوبة أخرى انتابته الآن مجدداً .

ظنت أنها لن تستطيع أن تحضره ثملاً وفاقداً رشده من اليأس كما كان ، إلى السرير في غرفة المدفأة حيث كان عليهما أن يناما... فالغرفة مليئة بالضيوف . نظرت فيما حولها... إلى القرب منها كانت حظيرة صغيرة كانا يبقيان فيها أفضل التبن لإطعام الأحصنة عند حراثة الربيع . ذهبت ونظرت إلى الداخل... لم يكن هناك أحد . أخذت زوجها من يده وقادته إلى داخل الحظيرة ، وأغلقت الباب خلفهما .

كومت التبن عالياً فوقها وفوقه ووضعت عباءتيهما من الأعلى ليبقيا دافئين . كان لافرانس يبدأ بالبكاء بين الحين والآخر ويقول شيئاً ما... ولكن حديثه كان غير متماسك إلى حد أنها لم تفهم منه شيئاً . خلال فترة قصيرة رفعت رأسه إلى حضنها .

«يا زوجي العزيز... بما أنهما يحبان بعضهما إلى هذا الحد ، فقد يكون الأمر أفضل مما نتوقع» .

كان لافرانس يتحدث في نوبات واندفاعات... بدأ ذهنه يصفو :

«ألا ترين... إنها الآن تحت سيطرته الكاملة... هو الذي لم يكن رجلاً بما فيه الكفاية ليسيطر على نفسه... سيكون الأمر صعباً عليها قبل أن تجد الشجاعة لتقف أمام إرادة زوجها في أي شيء... وإذا ما اضطرت هي في أحد الأيام لفعل ذلك ، سيكون في ذلك حزن مرير... طفلتي اللطيفة...

« ... لم أفهم حتى الآن لماذا وضع الرب كل هذه الأحزان الكثيرة والثقيلة على كاهلي... فلقد حاولت بكل إخلاص أن أنفذ أوامره . لِمَ أخذ أطفالنا منا يا راغنفريد واحداً واحداً... أولاً أبناؤنا... ثم أولفهيلد الصغيرة... والآن لقد منحتها ، تلك التي أحببتها أكثر من الجميع ، دون شرف ، إلى شخص لا يستحق الثقة ومخبول . والآن كل ما تبقى لدينا هي تلك الصغيرة... ولن أعتبر أنه من الحكمة أن أسعد بها... قبل أن أرى كيف ستجري الأمور معها... مع رامبورغ » .

ارتجفت راغنفريد كورقة . ثم وضع الرجل ذراعه حول كتفيها :

قال : « هيا لنستلق ونحاول أن ننام... »

استلقى فترة ورأسه على ذراع زوجته ، متنهداً بين الحين والآخر ، ولكنه نام أخيراً .

•

كان الظلام ما زال كثيفاً في الحظيرة حين تحركت راغنفريد... تعجبت حين علمت أنها نامت . تحسست بيدها مَا حولها . كان لافرانس جالساً ، وركبتاه إلى فوق وذراعاه من حولهما .

سألته مستغربة : « هل سبق لك واستيقظت ؟ هل أنت بردان ؟ »

قال بصوت خشن : « لا ، ولكني لا أستطيع النوم مجدداً » .

سألت الأم : « أتفكر بكريستين ؟ ربما ستجري الأمور على نحو أفضل مما نتوقعه يا لافرانس » .

« أجل ، كنت أفكر بذلك . أجل... أجل... عذراء أم ثيب... في الأقل فقد ذهبت إلى فراش الزفاف مع الرجل الذي تحبه . ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة إليّ ولا بالنسبة إليك يا راغنفريد المسكينة » .

أنّت زوجته أنة عميقة كئيبة ، ثم رمت بنفسها على جانبها بين التبن . مدّ لافرانس يده ووضعها على كتفها .

«و لكني لم أستطع» ، قال بانفعال وألم . «لا ، لم أستطع... أن أكون كما أردتني أن أكون... حين كنا شابين . لست من ذلك النوع...»

بعد فترة قالت راغنفريد برقة عبر دموعها :

«و مع ذلك فإن الأمر كان جيداً بيننا في حياتنا معاً ، يا لافرانس... أليس كذلك ؟... كل هذه السنوات ؟»

أجاب بكآبة : «هذا ما ظننته أنا بنفسي» .

ازدحمت الأفكار وراحت تضطرب في داخله . تلك النظرة الوحيدة المكشوفة التي قفز بها قلبا العروس والعريس معاً... الوجهان الشابان يتضرجان معاً... بدا له ذلك وقاحة . كان هناك ألم ، ألم حارق له ، أن هذه كانت ابنته . ولكن منظر تينك العينين ما كان يغادره ، وحاول بجنون وبتخبط أن يناضل ضد رفع الستار عن شيء كان في قلبه ، شيء ما لم يمتلكه ولكنه كان هناك ، وهو كان يمنعه عن زوجته حين كانت تحاول أن تبحث عنه .

المسألة أنه لم يستطع ، هذا ما قاله بعناد لنفسه . باسم الشيطان... لقد تزوج وهو صبي بعد . لم يختر عروسه بنفسه . كانت أكبر منه سناً... لم يشتهيها . لم يكن راغباً في أن يتعلم منها الحب . إنه ينفعل من الخجل حتى الآن حين يفكر بذلك... أنها كانت تريده أن يحبها ، حين لم يكن راغباً في أن ينال مثل ذلك الحب منها . إنها قد عرضت عليه كل ما لم يطلبه هو قط .

كان زوجاً صالحاً لها... هكذا كان يفكر دائماً . لقد أظهر لها كل الشرف الذي يستطيعه ، ومنحها كامل السلطة للتصرف بشؤونها ؛ وكان يطلب مشورتها في كل الأمور . كان صادقاً معها... وقد رزقا بستة أطفال .

كل ما كان يطلبه هو أن يعيش معها ، دون أن تفهم هي أبداً ذلك الشيء في قلبه الذي لا يريد هو أن يكشفه بعد...

لم يحمل قلبه الحب لأي امرأة... «إنغون» ، زوجة كارل ستاينسون ، في «برو» ؟ تضرج وجه لافرانس في العتمة الشاملة . لقد كان ينزل ضيفاً عليهما كلما سافر إلى «ديل» . لم يستطع أن يتذكر أنه حادث ربة البيت مرة واحدة على انفراد . ولكنه كان حين يراها... لو فكر بها فحسب ، يعتريه إحساس يشبه الشعور بأول نسيم في الأراضي المفلوحة في الربيع ، حين تكون الثلوج قد ذابت للتو وتلاشت . لقد عرف ذلك الآن... كان يمكن للأمر أن يحدث له هو أيضاً... هو أيضاً كان يمكنه أن يحب .

ولكنه كان قد زُوِّجَ وهو صغير جداً ، وأصبح يخجل من الحب . لذلك حصل أنه راح يشعر أنه في أحسن حالاته في الغابات البرية... أو في الأراضي القفر الجبلية... ـ حيث يجب أن يكون لكل الأشياء التي تعيش فضاءات واسعة حولها ـ مكان تهرب عبره ـ وحيث تنظر بخوف إلى أي غريب يسترق النظر اليها...

في وقت ما من السنة ، يحدث أن تنسى كل الوحوش في الغابات والجبال خجلها... فتندفع إلى أقرانها في المضاجعة . ولكنه مُنح قرينته دون أن يطلبها . وقد منحته كل ما لم يطلب منها .

أما الصغار في العش... فقد كانوا البقعة الخضراء الصغيرة الدافئة في البرية... المتعة العميقة الأعذب في حياته . تلك الرؤوس الصغيرة للفتيات تحت يده...

الزواج... لقد زوجوه دون أن يستشيروه تقريباً . الأصدقاء... كان لديه الكثير منهم... وليس لديه صديق واحد . الحرب... لقد جلبت له السعادة ، ولكن ما عادت هناك حروب... فدرعه معلق هناك في العلية ، دون استخدام .

لقد تحول إلى مزارع... ولكنه رزق ببناته... أصبحت كل حياته وكفاحه عزيزين عليه ، لأنه بوساطتها كان يحافظ عليهن ويجعلهن آمنات ، تلك الكائنات الناعمة الرقيقة الصغيرة التي كان يحملها بين يديه . تذكر جسد كريستين الصغير وهي في السنتين من عمرها على كتفه ، وشعرها الحرير على خده بلونه التبني الشاحب ، ويداها الصغيرتان تتمسكان بحزامه ، بينما تروح تضرب بجبينها المستدير القاسي الطفولي على لوح كتفه حين كان يخرج وهي وراءه على حصانه .

وهاهو الآن ذلك التوهج نفسه في عينيها... لقد حازت على ما هو لها . كانت تجلس هناك في نصف الظل على الوسائد الحرير للسرير . تحت نور الشمعة كانت كلها ذهبية... تاج ذهبي ورداء ذهبي وشعر ذهبي مسدل فوق ذراعيها الذهبيتين العاريتين . لم تعد عيناها خجلتين...

أجفل أبوها من العار .

و مع ذلك فقد بدا الأمر وكأن قلبه كان ينزف في جوفه ، بسبب ما لم يفز به هو نفسه . ولأجل زوجته التي كانت إلى جانبه ، والتي لم يمنحها قط ما كان يجب أن يكون ملكاً لها .

تحسس في العتمة يد راغنفريد وقد أضعفته الشفقة :

قال : « أجل ، أظن أن حياتنا معاً كانت جيدة... أعتقد أن الأمر كذلك لولا أنك حزنت على أطفالنا... أجل ، وأنك ولدت بمزاج كئيب . لم يخطر لي مطلقاً أن الأمر قد يعود إلى أني لم أكن زوجاً صالحاً لك » .

ارتجفت راغنفريد كمن أصابتها نوبة :

« كنت دائماً الزوج الصالح » .

جلس لافرانس وذقنه مستريح على ركبتيه : « و مع ذلك أعتقد أن الأمر كان أفضل لك لو تزوجت كما فعلت ابنتنا اليوم... »

أجفلت راغنفريد بصرخة خفيفة ثاقبة :

«أنت تعرف! كيف عرفت ذلك... منذ متى عرفت... ؟»

«لا أعرف ما تتحدثين عنه» ، قال لافرانس بعد فترة قصيرة بصوت غريب خافت .

«أنا أتحدث عن هذا : أني لم أكن عذراء حين تزوجتك» ، قالت راغنفريد ورنّ صوتها واضحاً في يأسها .

خلال فترة قصيرة أجاب لافرانس كما في السابق :

«هذا ما لم أعرفه حتى الآن» .

وضعت راغنفريد يدها في التبن وهي ترتجف من البكاء . حين انتهت نوبة البكاء ، رفعت رأسها قليلاً . كان نور رمادي باهت قد بدأ يزحف عبر ثقوب النافذة في الجدار . استطاعت أن تميز زوجها بصعوبة وهو جالس وذراعاه من حول ركبتيه ، ساكن كالحجر .

أعولت : «لافرانس... كلمني...»

سألها دون أن يتحرك : «ما الذي عليّ قوله ؟»

«أوه ، لا أعزف... اشتمني... اضربني...»

أجاب الرجل : «لقد فات أوان ذلك» . كان هناك ظل ابتسامة احتقار في صوته .

بكت راغنفريد مجدداً : «أجل... لم أفكر حينها في أني كنت أخونك . فلقد كنت تعرضت للخيانة ولإهانة الشرف أنا نفسي . لم يغفر لي أحد . أتوا وجلبوك لي... وأنت تعرف بنفسك ، ما كنت قد شاهدتك سوى ثلاث مرات قبل أن نتزوج... أعتقد أنك كنت مجرد غلام ، أبيض وأحمر... صغيراً جداً وطفولياً...»

«كنت كذلك» ، قال لافرانس ، وعادت رنة ضعيفة من الحياة إلى

صوته . «لذلك قد يعتبر المرء أنك أنت ، أنت التي كنت امرأة... كنت أكثر خشية من... أن تخدعي من كان صغير السن إلى حد لا يعرف معه شيئاً...» .

قالت راغنفريد باكية : «هذا ما ظننته لاحقاً . حين أصبحت أعرفك . سرعان ما حل ذلك الوقت الذي كنت مستعدة فيه أن أمنح روحي عشرين مرة لأكون بريئة من الإثم أمامك» .

بقي لافرانس صامتاً دون حراك ، ثم قالت زوجته :

«ألا تسألني أي سؤال ؟»

«ما الفائدة من السؤال ؟ كان هو الذي... لقد قابلنا موكبه الجنائزي عند فيغنسبريكا ، حين حملنا أولفهيلد إلى نيداروس...»

قالت راغنفريد : «أجل . كان علينا أن نخلي الطريق... أن نتنحّى جانباً إلى أحد المروج ، وقد رأيتهم يحملونه على نعش... مع كهنة ورهبان وحرس مسلح . سمعت أن نهايته كانت جيدة... فقد تصالح مع الرب . صليت وأنا واقفة هناك ونقالة أولفهيلد بيننا... صليت أن توضع خطيئتي وحزني عند قدميه في يوم الدينونة...»

«أجل ، لا بد أنك فعلت» ، قال لافرانس ، وكانت هناك لمسة الاحتقار نفسها في صوته الهادئ .

قالت راغنفريد وقد اعترتها القسوة من اليأس : «أنت لا تعرف كل شيء . أتذكُر أنه جاء إلينا في سكوغ في أول شتاء بعد زواجنا... ؟»

أجاب الرجل : «أجل» .

«حين كان بيورغولف يحتضر... أوه ، لم يغفر لي أحد ، لم يغفر لي أحد... كان ثملاً حين فعل ذلك... قال لاحقاً إنه لم يكن يهتم بي إطلاقاً ، ولم يكن ليتزوجني... طلب مني أن أنسى الأمر . لم يكن أبي يعرف ذلك . لم يخدعك أبي... إياك أن تظن ذلك . ولكن تروند... كنا صديقين جداً في ذلك

الحين... لقد اعترفت له . حاول أن يجبر الرجل على الزواج مني ، ولكنه كان مجرد غلام في ذلك الحين ، وقد تلقى ضرباً مبرحاً... ثم نصحني بأن أصمت وأتزوجك... »

جلست لفترة في صمت .

« ثم جاء إلى سكوغ... بعد مرور عام . لم أكن قد فكرت كثيراً في الأمر لاحقاً . ولكن وصل إلى هناك... قال إنه نادم ، وأنه مستعد للزواج مني لو لم أكن متزوجة... وأنه يحبني . قال ذلك . والله يعلم إن كان صادقاً . وحين رحل... لم أجرؤ على الخروج إلى المخاضة (الشريعة) ، لم أجرؤ بسبب خطيئتي ، ليس مع الطفل . وكنت قد بدأت... كنت قد بدأت أحبك كثيراً! »
صرخت صرخة واحدة من ألم مجنون . التفت الرجل برأسه بسرعة إليها .

« حين ولد بيورغولف... أوه ، ظننت أنه أعزّ عليّ من حياتي . وحين راح يحتضر ، فكرت في أنه لو مات ، فسأموت أنا أيضاً . ولكني لم أصل لله لينقذ حياة ابني... »

جلس لافرانس صامتاً فترة طويلة ، ثم سأل بصوت خافت كئيب :

« أكان ذلك لأني لم أكن أباه ؟ »

قالت راغنفريد وهي تتصلب وتتخشب في جلستها :

« لم أعرف إن كنت أباه » .

جلسا هناك طويلاً في سكون كالأموات . ثم سأل الرجل بقوة وفجأة :

« باسم المسيح يا راغنفريد... لم تحكين لي هذا كله... الآن ؟ »

« أوه ، لا أعرف! » فركت يديها حتى طقطقت مفاصلها . « حتى تنتقم مني... تطردني من بيتك... »

« أتظنين أن هذا سيساعدني... ؟ » كان صوته مرتجفاً من الاحتقار . « ثم هناك ابنتانا » ، قال بهدوء .

« كريستين... والصغيرة » .

كانت راغنفريد هادئة فترة .

قالت برقة : « حين أتذكر كيف حكمت على إرلند نيكولاوسون ، أتساءل كيف ستحكم عليّ إذن ؟ »

اعترت جسد الرجل رجفة طويلة من البرد... ومع ذلك بدا أن بعض التخشب قد غادره .

« أنت... لقد عشنا معاً حتى الآن سبعاً وعشرين سنة... تقريباً . ليس الأمر مماثلاً لقضائها مع غريب . أرى ذلك ، أيضاً... كان الأمر لك أسوأ من البؤس » .

انهارت راغنفريد وهي تبكي من كلماته . تجرأت فوضعت يدها على إحدى يديه . لم يحركها إطلاقاً... بل جلس ساكناً كأنه ميت . بدأ بكاؤها يعلو أكثر فأكثر... ولكن زوجها كان لا يزال دون حراك ، وهو يتطلع إلى النور الرمادي الضعيف يزحف من حول الباب . وأخيراً بدا وكأن دموعها قد نفدت . ثم لمس ذراعها بخفة مجدداً وعادت تبكي من جديد .

« أتذكر ذلك الرجل الذي زارنا ذات مرة ونحن نسكن في سكوغ ؟ » قالت عبر دموعها . « ذاك الذي كان يعرف كل الحكايا الشعرية القديمة ؟ » أتذكر تلك الحكاية عن رجل ميت عاد من عالم العذاب ، وحكى لابنه عن كل ما رآه ؟ لقد سُمع أنين من أعمق أعماق جهنم ، إنها أصوات المطاحن اليدوية للنساء غير المخلصات وهن يطحنّ التراب ليطعمنه لأزواجهن بدلاً من اللحم . كانت الحجارة التي تجرها النساء مدماة... وكانت قلوبهن معلقة خارج صدورهن وهي مدماة... »

كان لافرانس صامتاً .

« فكرت خلال كل هذه السنوات بتلك الكلمات » ، قالت راغنفريد .

«في كل يوم كأن قلبي كان يدمى ، وفي كل يوم كنت أظن أني أطحن التراب بدلاً من اللحم...»

لم يعرف لافرانس نفسه لم أجاب كما فعل . بدا له أن صدره كان فارغاً وأجوف ، كصدر رجل أعدم بطريقة «نسر الدم»(٢٦) . ولكن وضع يده بثقل وتعب على رأس زوجته ونطق :

«ربما يكون التراب في حاجة إلى أن يطحن يا راغنفريد قبل أن ينمو اللحم» .

وحين حاولت أن تأخذ يده لتقبلها ، خطفها منها . ولكنه نظر بعدئذ إلى زوجته ، وأخذ إحدى يديها ووضعها على ركبته ، ثم أحنى وجهه البارد المتخشب باتجاهها . وهكذا جلسا معاً دون حراك ودون كلام .

انتهت



حواشي المترجم

من النرويجية إلى الإنكليزية

١ ـ إكليل العروس

كانت هذه هي الكلمة النرويجية القديمة (التي أخذت مباشرة عن الكلمة الإنكليزية) garland والتي يقصد بها الدائرة المذهبة المقصور ارتداؤها على العذارى من محتد نبيل ، في المناسبات الرسمية ، وذلك بأن يوضع على الشعر المرسل . وفي عنوان هذا الجزء من الثلاثية فإنه يعني علاوة على الدائرة المذهبة ، إكليل الأزهار الذهبية الذي حاولت به الجنية أن تغوي كريستين وكذلك تاج الزفاف الذي كان إرثاً يحتفظ به لترتديه العرائس خلال احتفالات الزفاف .

٢ ـ يورونـد غارد

إن مباني الضيعة النرويجية القديمة كانت تجمع عادة في مربعين متجاورين أو مستطيلين من حول «الساحة» و«فناء المزرعة» . ومنازل السكن والمخازن ، الخ كانت تتجمع حول «الساحة» ، بينما أبنية المزرعة (الحظائر وحظائر البقر والماعز والغنم ، الخ) فكانت حول «فناء المزرعة .» كان الإسطبل يقسم الساحتين ، مما يجعل أحد الجملونين يواجه «الساحة» والثاني «فناء المزرعة» . كانت أبنية صغيرة من كل الأنواع تبنى عند الحاجة ، وحين لا يعود أحد المباني مطلوباً ، سواء كان كبيراً أم صغيراً ، كان يترك ليتهاوى وحده من البلى ، ما لم يكن موقعه

مطلوباً لبناء جديد . وحتى هذا اليوم فإن عدد الأبنية في مزرعة كبيرة من هذا الطراز قد يصل إلى ما بين ثلاثين إلى أربعين مبنى رمادياً عتيقاً .

لم تكن هناك عادة تحصينات من حول الضيعة القروسطية ، إلا أن المباني كانت تحاط بأسيجة خشبية تتخللها هنا وهناك بوابات خشب ، وكانت هناك بوابة كبيرة تسد المدخل الرئيسي إلى الساحة . وكان الطريق المؤدي إلى الضيعة محاطاً بحقول القمح المسورة بالأسيجة .

كانت الساحة مرجاً وأسطح المباني تغطى بالتراب الذي يكون لونه أخضر مغطى بالزهور في فصول الصيف الماطرة أو أصفر جافاً في سنوات القحط الشائعة في غودبراندسدال . وتبنى كل الأبنية من الجذوع الضخمة من شجر التنوب .

في الأصل كان كل منزل يحوي غرفة واحدة (عادة مع إضافة العلية في حال المخازن الموصوفة أدناه) . وهكذا فإن الكلمة المعتادة لوصف الغرفة بالنرويجية (Stue) كانت غالباً ما تعني «منزلاً أو مبنى» . ومع بداية أحداث هذه الرواية ، فإن المباني المؤلفة من غرفة واحدة كبيرة أصبحت تلحق بها مبانيَ إضافية مؤلفة من أضلاع خشب (انظر الحاشية رقم ٢٣) ، تبنى من حولها من أحد الجوانب أو الاثنين أو الثلاثة أو الأربعة كلها وذلك لحماية جذوع الغرفة الرئيسية من عوامل الطقس ولدرء الريح . والمبنى الإضافي يتم الدخول إليه عبر رواق مدعم على أعمدة وأقواس خشب . وعلى امتداد أحد جوانب المنزل ، كانت الحواجز تقام لتقسمه بحواجز إلى غرف صغيرة . ومن بين هذه الغرف كانت «الغرفة الخارجية» التي يفتح منها الباب الرئيسي لغرفة المعيشة ، والأخرى كانت حجيرات تستخدم لوضع الخزائن أو الأسرّة .

و كان الطبخ يتم في مبنى مستقل هو المطبخ ، كما كان يوجد في العادة بناء للتخمير وآخر للحياكة ولوضع أنوال السيدة والخادمات ، وكذلك الورشات : فكل أدوات الزراعة كانت تصنع وتصلح في المكان . وكانت ورشة الحدادة والحمام (حمام البخار) توضع على مسافة بعيدة بين الحقول درءاً لخطر الحريق .

عبر الساحة من المباني الرئيسية المخصصة للسكن كان صف من المخازن وهي مبان تبنى من الجذوع ولها طابقان في العادة . كان الطابق الأرضي من

المخزن يستخدم لتخزين كل أنواع المنتجات : الجلود والزبدة والجبنة والشموع وأرغفة الخبز والسمك المجفف واللحم المملح ، الخ . والرجل الغني الذي يملك عدة مزارع علاوة على مزرعته ، كان يتلقى إيجاره عيناً ، وهكذا كانت المنتجات التي تصله على هذا النحو إضافة إلى ما تنتجه مزرعته تخزن في هذه المخازن . كان الصوف والسمك والجلود والمنتجات الأخرى ذات الرائحة القوية توضع في أحد المخازن وأما منتجات الألبان والدقيق والخبز ، الخ فتوضع في آخر .

من أبرز المباني من النوع القديم كان مبنى غرفة الموقد ومبنى المخزن . كان السريران (اللذان يبنيان إلى جانب الجدار) يشغلان عادة من قبل السيد والسيدة وغالباً مع أحد الأطفال الأصغر سناً وربما أكثر من واحد ، بينما كان الأطفال الأكبر سناً أو أفراد آخرون من الأسرة ينامون في السرير الآخر ، أما أفراد الأسرة الذين لا مكان لهم للنوم في السريرين ، فكانوا ينامون على المقاعد الجدارية الطويلة . في المزارع الصغيرة كان الخدم ينامون أيضاً على هذه المقاعد ؛ ولكن في المزارع الكبيرة مثل يوروندغارد كانت هناك مبان مستقلة للخدم والخادمات ، وكذلك مبنى مستقل للوكيل وزوجته : يون وتروند في هذه الرواية .

أما الموقد في وسط غرفة الموقد فكان المركز المقدس لحياة المنزل والأسرة . وكان الدخان يخرج عبر منفذ للدخان في حافة السطح . وكان المبنى الذي يحوي عادة غرفة الموقد من طابق واحد حتى تؤدي فتحة الدخان إلى الهواء الطلق . وغرفة الموقد هي الأدفأ وبالتالي الأكثر استخداماً في الشتاء ، لذلك كانت تسمى أحياناً الغرفة الشتوية .

أما الأنواع الأخرى من المباني مثل «القاعة» في يوروندغارد فكانت تبنى من طابقين ، أما صعوبة التدفئة فكان يتم التغلب عليها بوضع مدفأة حجرية في الطابق الأرضي والعلية ، وتبنى من الحجر والطين في زاوية الغرفة . في المنازل الريفية كانت هذه المدافئ تعطي دخاناً مزعجاً ، حتى أصبحت تسمى «مدافئ الدخان» . وكانت الطوابق الأرضية من هذا الطراز الجديد لها نوافذ زجاجية ، بينما كانت غرف الموقد تنار من فتحة الدخان والباب .

كان الطابق العلوي من المخزن له شرفة بأقواس تطل على الساحة ويصعد إليه

بدرج خارجي يؤدي إلى الشرفة . وكان المخزن هو البناء المفضل لدى النرويجيين فكان يبنى على نحو جميل ويزين بالنقوش . وكان يستخدم لتخزين ملابس ومجوهرات الأسرة وكذلك الفرش الإضافية والأسلحة الخاصة بالسيد . كما كانت توجد أسرّة فيه ، حتى يستخدم كحجرة للضيوف ، أو كغرفة نوم صيفية للأسرة أو للبنات أو الخادمات . وبما أن المخزن كله كان دون تدفئة فلم يكن ممكناً استخدامه للنوم في الشتاء .

و كان الفراغ تحت الشرفة المعلقة هو المكان المفضل للقاءات العشاق في أغاني الحب النرويجية والدانماركية ، وغالباً ما كانت حواراتهما تتسلل إلى مسامع مسترقّي السمع في الشرفة .

و كانت القاعة/ المنزل الرئيسي تبنى كالمخزن من حيث الطابق العلوي والشرفة والدرج الخارجي ، إلا أنها تكون أكبر حجماً . وكانت علية هذا المبنى تعتبر الحجرة الرئيسة في مقر صاحب المزرعة . والطابق الأرضي من القاعة كان غرفة المعيشة الشتوية الجديدة للسيد وأسرته مع المدفأة الجدارية والنافذة الزجاجية .

٣ ـ لاغماند

كان منصب «لاغماند» السويدي فيما يتعلق بمجلس المقاطعة مرادفاً لرئيس مجلس العموم في إنكلترا . كان الشعب يختاره وكان يرأس جلسات المجلس ، وحين يكون الملك حاضراً ، فكان من واجب اللاغماند أن يوصل إليه قرارات المجلس وأن يمثل عموماً حقوق العامة .

٤ ـ الملك هاكون العجوز

الملك هاكون العجوز أو الملك هاكون الرابع ، وهو حفيد الملك سفير وبطل مسرحية إبسن «المتظاهرون» . كان ملوك النرويج في الفترة التي تشملها هذه الرواية والفترة السابقة مباشرة هم :

هاكون الرابع ١٢١٧ ـ ١٢٦٣

ماغنوس السادس (لاغابوتر)	١٢٦٣ ـ ١٢٨٠
آيريك	١٢٨٠ ـ ١٢٩٩
هاكون الخامس	١٢٩٩ ـ ١٣١٩
ماغنوس السابع (سميك)	١٣١٩ ـ ١٣٤٣

كان ماغنوس السابع هو حفيد هاكون الخامس كونه ابن ابنة هاكون المسماة انجبورغ (و هي السيدة انجبيورغ في الرواية) وأبوها هو الدوق آيريك السويدي . وقد تسلم عرش النرويج والسويد صغيراً لم يبلغ سن الرشد بعد . هذا وتشكل المضاعفات الناجمة عن منح ملك واحد التاجين معاً أساساً لحوادث الجزء الثاني من هذه الثلاثية .

٥ ـ أوضاع الكهنة

« سيرا » كلمة مأخوذة عن اللغة الإنكليزية وتطلق على كهنة الأبرشيات .

٦ ـ نقابات الفلاحين

(انظر الهامش رقم ١٧)

٧ ـ الجنية

بالنسبة للكثير من الخرافات المتعلقة بسكان الجبال يمكن العودة إلى مجموعات الحكايات الشعبية والخرافية النرويجية وأهمها مؤلف : « أرسبيورنسن ومو » .

٨ ـ القديسة سونيفا ورجال سليي

كانت القديسة سونيفا أميرة ايرلندية هربت ، بصحبة عدد من أتباعها المخلصين في سفينة دون دفة أو شراع أو مجاديف لتتحاشى الغزل غير المرغوب فيه لزعيم وثني ، فوصلوا الشاطئ النرويجي حيث هبطوا في جزيرة سليي . سكن اللاجئون الكهوف في الجبال وعاشوا على صيد السمك . وقد شك السكان الوثنيون

في الجزر المجاورة بأن هؤلاء الغرباء كانوا يسرقون بعض أغنامهم التي تترك على الجزر لترعى ، فأرسلوا ضدهم فرقة مسلحة . وعند وصول هؤلاء وجدوا الكهوف التي يقطنها اللاجئون قد سدت منافذها وأن سكانها قد دفنوا في داخلها بسبب انهيار صخري هائل .

بعد مضي فترة من الزمن كان المارون في زوارق يلاحظون نوراً غريباً يتسلل من البقعة التي دفن فيها هؤلاء الغرباء . وقد وصلت هذه الأنباء إلى أسماع الملك أولاف تريغفسون (الذي كان منهمكاً آنئذ في نشر المسيحية في البلاد) ، فوصل إلى المنطقة برفقة الأسقف ، وطلب فتح الكهوف ، وبينما ظهرت قداسة رفات رفاق سونيفا من خلال بعثها لأنوار فوق طبيعية ورائحة عذبة ، فإن جسد الأميرة وجد سليماً دون أي آثار للفساد عليه . فأمر الملك ببناء كنيسة في المكان ودفن الجثمان هناك . وبعد مائة سنة نقل الجثمان إلى كاتدرائية برغن .

و كان قداس جماعة سليي يقام سنوياً في الثامن من تموز (يوليو) لتكريس ذكرى سونيفا ورفاقها .

٩ ـ كرسي الخياطة

كرسي بذراعين وصندوق في المقعد لاحتواء أدوات الخياطة والتطريز إلخ .

١٠ ـ سيقان البتولا

كان أتباع الملك سفير يسمون هكذا لأنهم غطوا عوراتهم خلال مغامراتهم التي أوصلته إلى العرش بأردية مصنوعة من لحاء البتولا .

١١ ـ هوفيدو

أكبر جزر المخاضة (الشريعة) كريستيانا القريبة من البلدة . وفيها الدير الذي بني هناك في القرن الثاني عشر من قبل رهبان وصلوا من كيركستيد في لينكولنشاير .

١٢ ـ بارون

بالنرويجية (لندرماند) وهو إقطاعي رفيع المقام يملك إقطاعة منحها التاج لقاء خدمات قدمت إلى الملك في الحرب أو السلم ، ولم يكن هذا المنصب أو الأملاك من النوع الذي يورث .

و قد تغير لقب «لندرماند» ليصبح «باروناً» من قبل الملك ماغنوس لاغابوتر ، ولكن بقي شخصياً غير وراثي .

أما الملك هاكون الخامس الذي اتبع سياسة عدم تشجيع نمو الأرستقراطية النرويجية ولمنع تشكيل طبقة نبلاء إقطاعيين كما في أوروبا ، فأصدر عام (١٣٠٨) مرسوماً بعدم تعيين أي «بارونات» . وهكذا ألغي هذا المنصب نهائياً .

١٣ ـ العامة

هؤلاء هم أشخاص كانوا يسكنون ويطعمون في الدير لقاء أجر . وكانت الأديرة الخاصة بالرهبان والراهبات تحوي مثل هؤلاء ، لذلك كانوا من الجنسين (رغم أوامر الأساقفة القاضية بعكس ذلك) وكانوا يسكنون عادة في أبنية خارج بوابات الأديرة .

١٤ ـ أيام وأعياد القديسين

القديس غريغوري	١٣ شباط (فبراير)
القديس هالفارد	١٥ أيار (مايو)
القديس يوحنا	٢١ حزيران (يونيو)
القديس لورنس (لافرانس)	١٠ آب (أغسطس)
القديس بارتولوميو	٢٤ آب (أغسطس)
مولد العذراء	٨ أيلول (سبتمبر)
عيد الصليب	١٤ أيلول (سبتمبر)
قداس ميكائيل	٢٩ أيلول (سبتمبر)

١٥ ـ مساكن البلدة

تُرجمت كلمة « غارد » حين تستخدم في الريف إلى « ضيعة » أو « مزرعة » أما في المدن فهي تستخدم أيضاً لتعني مساكن العائلات وساحات التجار وأصحاب الحوانيت .

و كان من عادة البيوت أن تتجمع حول ساحة مشتركة .

و حسب تشريعات الملك هاكون الخامس فقد نظم لكل حرفة « غارد » خاص . وهكذا كان « ميكل غارد » حياً لصناع الأحذية والجلود .

١٦ ـ النقود

منح لافرانس إلى كريستين مصروف جيب هو عبارة عن « مارك فضي في نقود معدودة » . وإليكم باختصار أنواع النقود في تلك الفترة وهي ذات نظام معقد :

« المارك الفضي الصافي » ما يعادل (٢١٥,٨) غرام من الفضة .

أقسام المارك هي :

المارك =٨ أوره =٢٤ أورتوغ =٢٤٠ بنينغر

و لكن قيمة مارك الفضة كان ٣/١ قيمة المارك الفضي الصافي .

كما كان يتم تداول كل أنواع العملات الأجنبية حسب أوزانها ونقائها .

وفي القسم الثاني من الرواية تفاوض كريستين رجال روستوك على منحهم « أورتوغ » .

و في القسم الثالث منها يعد إرلند بالمساهمة بـ « أربعة ماركات فضة » لإعادة بناء الكنيسة وهذا لا شك من الفضة الصافية .

١٧ ـ نقابات الفلاحين أو المزارعين

و تشمل هذه الملاكين الأحرار والمستأجرين من كلا الجنسين الذكور

والإناث ؛ وكانت النقابات تهدف إلى تقديم أنواع العون المشترك والحماية ، من التأمين ضد الحريق (في أوقات السلم ـ في أوقات الحرب وظائف النقابة كانت تعلق جزئياً) إلى الانتقام من موت الأعضاء وتقديم الرعاية لأرواحهم بالصلوات والقداسات .

لقد نشأت النقابات في عهود الوثنية ، ولكن تم تبنيها بحماسة من قبل الكنيسة الكاثوليكية . كان يعين لكل نقابة قديس عام ، ويقام لكل نقابة احتفال كبير يقدم فيه الشراب بمناسبة عيد قديسها والأيام التي تليه . وكانت هذه الاحتفالات ذات تنظيم معقد تذكر في قوانين النقابة ، على أن تكون فخمة ومجيدة . وهكذا كان الشجار واللغة البذيئة والتصرفات غير اللائقة محظورة تجاه النساء . كما كان محظوراً على أي رجل أن يثمل إلى درجة فقدان السيطرة على نفسه . كان إحضار الكلاب والصقور محظوراً . وكذلك كان محظوراً إحضار الأطفال في سن تقل عن الثالثة إلا إذا كان تحت إشراف أمه أو مربيته . وكان أعضاء النقابة مسؤولين عن تصرفات ضيوفهم من خارج النقابة ، إلخ .

كانت الأنخاب تشرب لذكرى «المخلّص» ومريم العذراء والقديسين والأعضاء الراحلين في النقابة من رجال ونساء .

١٨ ـ البعثة إلى فارغويهوس

فارغويهوس الآن بلدة صغيرة تسمى «فاردو» في شمال شرق فينمارك . وكان الهدف من بعثة غيسور غال (١٣١٠ ـ ١٣١١) كان الهدف منها تنظيم الضرائب المفروضة على سكان لابلاند وإنشاء وتدعيم القلعة الصغيرة على فارغوي (جزيرة وولف) ، أصبحت هذه في القرون التالية ثغراً أمامياً للنرويجيين ضد الغزوات الروسية لفينمارك .

١٩ ـ البارونات والحكام

بالنسبة للبارونات انظر الهامش رقم (١٢)

أما منصب الحاكم فكان الإداري والقائد العسكري وضابط الشرطة في منطقة

من المناطق . وكان التعيين يتم من قبل التّاج ويتم الاختيار بين السادة ذوي الامتياز . وفي فترة الرواية يكون الحاكم عادة فارساً . وكان يحتفظ بعدد من الرجال المسلحين والموظفين التابعين له . وكان راتبه يختلف بين حالة وأخرى ، وقد يدفع له التاج مباشرة أو يأخذ حصة من الغرامات والإقطاعات .

٢٠ ـ الدم المقدس في شفيرين

بعض نقط الدم من خبز قربان مقدس نازف تم الاحتفاظ بها في شفيرين وكانت مقدسة جداً في الشمال كله ، ويزورها الكثير من الحجاج الاسكندنافيين .

٢١ ـ اتفاقيات الزواج

حسب القانون النرويجي القديم والعادات كانت تجري اتفاقية الزواج كما يلي :

تحضر العروس معها إلى الشراكة بائنتها ، أما العريس فكان ملتزماً حسب القانون بأن يقدم لها «هدية إضافية» هي ثلث أو نصف قيمة بائنتها . وكانت قيمة الدوطة والهدية الإضافية تصل إلى ثلث الأملاك المشتركة .

و هذه البائنة والهدية الإضافية هما حصة الزوجة من الأملاك المشتركة للزوجين . وفي حال عدم الانجاب ووفاة الزوجة وبقاء الزوج حياً تعود هذه الحصة إلى عائلة الزوجة . أما إذا مات الزوج قبلها ، فإن أسرتها ستحرص على أن يدفع ورثة الزوج هذه الحصة إلى الأرملة .

في حال ارتكاب الزوجة الزنا ، فإن الزوج كان يحتفظ بالهدية الإضافية تحت رعايته حتى وفاتها . ثم يعود ليدفع قيمتها إلى ورثتها .

في حال ارتكاب الزوج الزنا (فقط مع زوجة رجل آخر) يمكن لزوجته إن رغبت أن تطالب بأن تنقل حصتها إلى رعاية أقاربها .

لا يرث الزوج والزوجة احدهما الآخر .

« هدية الصباح » هي ما يقدمه الرجل إلى زوجته صباح اليوم التالي على الزواج . وقد تكون أثمن من الهدية الإضافية . ولكن أبوي العروس غالباً ما يتركان العريس يثبت « هدية الصباح » المنوي تقديمها حين يبرم عقد الزواج .

٢٢ ـ هات

كان « هات » واحداً من تجسدات « أودين » .

٢٣ ـ كنائس الأضلاع

كانت الكنائس القروسطية في المناطق الداخلية من النرويج تبنى من « الأضلاع » ، وهي قطع سميكة وثقيلة جداً من الخشب تنشر من الجذع بوساطة الفؤوس ـ كان استخدام المنشار والمسحاج غير معروف تقريباً . وكان السقف يبنى من ألواح مطلية بالقار .

لتدعيم البناء وحماية الجدران ضد العواصف والمطر ، كان ثمة رواق معمّد له أقواس منخفضة تفتح نحو الخارج يحيط بكل الكنيسة . في هذا الرواق كان الرجال يضعون سيوفهم وفؤوسهم قبل دخول الكنيسة . كما كانت الكنيسة تستخدم كمكان للاجتماع وتنظيم الوثائق القانونية ولمجالس الأبرشية واجتماعات التحكيم وما شابه .

لم يكن للكنيسة برج بل بريج صغير يحوي جرساً صغيراً أما الأجراس الكبيرة فكانت في برج مستقل قرب المدخل المسقوف إلى الكنيسة .

٢٤ ـ قياسات الأرض

بالنسبة للأربع ماركات من الفضة انظر الهامش رقم (١٦)
« الأراضي التي تساوي ستين بقرة » : ما يعادل أرضاً قيمتها(٢٠) ماركاً فضياً .

٢٥ ـ قلنسوة المرأة المتزوجة

كانت العذارى فقط يرسلن شعورهن . أما كل النساء غير العذراوات فكان عليهن أن يغطين شعورهن إلزامياً . فالمتزوجات يربطن شعورهن إلى الأعلى ويغطينه بقماش من الكتان الأبيض .

٢٦ ـ نسر الدم

طريقة إعدام كانت تمارس في عهد الفايكنغ . كانت الأضلاع تقص من عظم الظهر ثم تنتزع الرئتان والقلب عبر الجرح . وأحياناً كان رجل ما يطلب أن يعدم على هذا النحو ليظهر روح التحدي لديه ويثبت شجاعته ، في الأقل في الحكايات البطولية .

سيغريد أوندست

نوبل ١٩٢٨

- ولدت سيغريد أوندست (١٨٨٢ ـ ١٩٤٩) في كالدوندبورغ . وحين بلغت السنتين من عمرها انتقلت أسرتها إلى النرويج واستقرت في كريستيانيا (المعروفة الآن باسم أوسلو) . وبعد وفاة والدها في عام (١٨٩٣) ، تخلّت عن طموحها في أن تصبح رسامة ، وحين أصبحت في السادسة عشرة بدأت بالعمل في أحد المكاتب .

- أعاد الناشر لها أولى مخطوطاتها ، رواية تاريخية ، حوالي عام (١٩٠٥) مع العبارات التالية : «لا تحاولي أبداً كتابة رواية تاريخية مرة أخرى . لست قادرة على هذا النوع من الكتابة . قد تحاولين كتابة شيء معاصر . ولا يمكن لكِ أن تعرفي ما قد يحدث» . في عام (١٩٠٧) كان أول ظهور لها مع رواية «السيدة مارتا أولي» ، ولكن الفتح الحقيقي لها جاء مع رواية «جني»(١٩١١) .

- إنتاج سيغريد أوندست غني ومتنوع ، ويمتد من الروايات المعاصرة إلى الروايات القروسطية العظيمة والقصص القصيرة والمقالات وحكايات السفر .

- «كريستين لافرانسداتر» هي قمة عطائها وهذه الثلاثية هي التي كانت السبب في منحها جائزة نوبل للآداب في عام (١٩٢٨) .

ISBN => 2-84305-090-1
EAN => 9782843050909

١٩٢٨

مكتبة نوبل

سيغريد أوندست

كريستين لافرانسداتر



ترجمة
توفيق الأسدي

الجزء الثاني

سيدة هوسابي



مكتبة نوبل

Author : Sigrid Undset
Title : 2/ The Mistress of Husaby
Kristin Lavransdatter
Translator: Tawfik Al-Assadi
Al- Mada : P. C.
First Edition 1999

This title was published in collaboration with Norla (Norwegian literature abroad)

اسم المـــؤلف : سيغريد أوندست
عنوان الكتـاب : ٢/ سيدة هوسابي
من ثلاثية كريستين لافرانسداتر
ترجـــمـــة : توفيق الأسدي
النـاشـــر : المدى
الطبـعـة الأولى : عام ١٩٩٩

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع مـؤسـسـة نورلا النرويجـيـة .

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

١٩٢٨

مكتبة نوبل

سيغريد أوندست

كريستين لافرانسداتر

الجزء الثاني

سيدة هوسابي

ترجمة

توفيق الأسدي



القسم الأول

ثمرة الخطيئة



١

في الليلة السابقة على قداس سايمون (٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر) ، كانت سفينة بارد بيترسون الشراعية راسية في مرسى بيرغسي وكان رئيس الدير أولاف من نيدارهولم قد نزل إلى الشاطئ ليحيّي قريبه إرلند نيكولاوسون ويرحب بزوجته الشابة التي كان يحضرها إلى بيته . كان الزوجان سيحلان ضيفين على رئيس الدير ويبيتان في "فيغ" في تلك الليلة .

كانت زوجة شابة شاحبة شحوب الموتى تلك التي اقتادها إرلند إلى الشاطئ من الرصيف البحري . تحدث رئيس الدير مازحاً عن آلام السفر في البحر . ضحك إرلند وقال إنه يعتقد فعلاً أن زوجته ما كانت تتوق إلى أي شيء آخر عدا الاستلقاء مجدداً في سرير مثبّت جيداً إلى جدار المنزل . جاهدت كريستين لتبتسم ، ولكنها فكرت في داخلها أنها لن تضع -بإرادتها- قدمها ثانية على سفينة طالما بقيت على قيد الحياة . كانت تشعر بالغثيان إذا ما اقترب منها إرلند مجرد اقتراب ، فقد كانت تفوح منه رائحة السفينة والبحر : كان شعره متلبّداً ودبقاً من ماء البحر . كان مجنوناً من الفرح طوال فترة وجوده على متن السفينة ، وكان السير بارد قد ضحك : ففي منزله في مور ، حيث ترعرع إرلند ، كان الفتية يخرجون بقوارب إلى

البحر ويمارسون التجديف في أوقات مبكرة ومتأخرة . فكرت كريستين : صحيح أنهما كانا آسفين قليلاً لأجلها ، أي إرلند والسير بارد ، ولكن ليس كثيراً ، ليس بقدر ما يستحقه بؤسها . ظلاّ يقولان إن دوار البحر سينقضي حين تعتاد ركوب السفينة . ولكن بؤسها استمرّ منذ البداية إلى النهاية .

حتى في صباح اليوم التالي ظلت تشعر وكأنها لا تزال مبحرة في السفينة ، وذلك وهي تمتطي حصانها عبر الأراضي المستوطنة . وسواء صعوداً في الجبل أو هبوطاً فيه ، كان دربهم يؤدي عبر سلاسل طينية من التلال الكبيرة الحادة ، وحين حاولت أن تثبّت عينيها على بقعة ما فوق الجبال البعيدة أمامها ، بدا لها وكأن الريف كله كان يغطس ثم يصعد ، في موجات ترتفع أمام سماء الصباح الشتائي اللامعة ذات اللون الأزرق الأبيض .

كانت مجموعة كاملة من أصدقاء وجيران إرلند قد وصلت إلى "فيغ" في الصباح الباكر لاستقبال العروسين ، لذلك راحوا يسيرون ضمن موكب كبير . كان للأرض صوت أجوف تحت وقع حوافر الجياد ، فقد كانت هذه الأرض قاسية كالحديد من الجليد الأسود . وكان الهواء مترعاً بالبخار الصادر عن الرجال والجياد . كانت أجساد الحيوانات وشعور الرجال وفراؤهم بيضاء من الجليد . بدا إرلند أبيض الشعر مثل رئيس الدير ، ملتمع الوجه من جرعة الصباح والريح اللاذعة . كان يرتدي رداء العرس . بدا الشباب والسعادة وهما يشعان منه ، كما كان الفرح والبهجة ينبعان من لهجة صوته الرخيم الهادئ وهو راكب حصانه ، صارخاً وضاحكاً بين ضيوفه .

بدأ قلب كريستين يرتجف على نحو غريب : بالحزن والحنان والخوف . كانت لا تزال تشعر بالغثيان من الرحلة البحرية . كما كان هناك ذلك الشعور الحارق في صدرها والذي كان ينتابها كلما أكلت أو شربت حتى

القليل . كانت بردانة إلى حد مرير ، وفي مكان عميق من ذهنها كانت هناك بقعة ساكنة خرساء من الغضب تجاه إرلند ، لأنه كان قادراً على أن يكون مرحاً وخالي البال إلى هذا الحد... ومع ذلك ، وحين رأت الآن اعتزازه الطفولي وسعادته البراقة في إحضارها إلى بيته كزوجة له ، فإن ندماً مريراً كان ينتابها . كان صدرها يؤلمها من شفقتها عليه . كانت تتمنى الآن لو أنها لم تصغ إلى مشورة إرادتها الشخصية ، وأبلغت إرلند بدلاً عن ذلك حين كان في منزلها في الصيف الماضي... أبلغته بما كان لا يجعل الاحتفال بزفافهما بكل تلك الأبهة أمراً ملائماً . لقد أدركت الآن أنها قد تمنت لو جعلته يشعر -هو أيضاً- بأنهما لن يستطيعا النجاة ممّا ارتكباه دون إذلال .

... وكانت خائفة من أبيها أيضاً . وقد فكرت كما يلي :

ما أن يتم شرب نخب زفافهما ، سيرحلان في رحلة طويلة إلى ذلك المكان البعيد . ومن المحتمل أنها لن ترى بيتها مجدداً لفترة طويلة جداً... وعندها يكون كل الكلام حولها قد مرّ عليه زمن كاف لنسيانه...

و الآن راحت ترى أن الأمور هنا ستكون أسوأ بكثير ممّا كانت تظن . صحيح أن إرلند تحدث عن حفل عظيم بمناسبة انتقالها إلى منزلهما في هوسابي ، ولكنها لم تعتقد أن الحفل سيكون أشبه بحفل زفاف ثان . وكان الضيوف هنا هم الناس الذين كان عليهما هي وإرلند أن يعيشا بينهم ؛ وكان عليهما كسب احترامهم وصداقتهم . كان هؤلاء الناس هم من كانوا يرون بأم أعينهم حماقة إرلند وشروره طوال هذه السنوات . والآن كان هو نفسه يعتقد أنه قد حرّر نفسه في نظرهم من أخطاء الماضي لأنه استطاع أن يحتل مجدداً المكانة التي تلائم محتده وثروته بين أقرانه . وبدا الآن أنه سيكون مادة للضحك في كل هذا الريف حين سيتبيّن أنه قد ارتكب الخطيئة مع عروسه وهي خطيبته بعد .

انحنى رئيس الدير نحوها وهو لا يزال على حصانه :

"تبدين حزينة جداً يا كريستين لافرانسداتر . ألم تتخلصي بعد من دوار البحر ؟ أو هل أنت في شوق إلى أمك ؟"

قالت كريستين برقة : "صحيح يا سيدي ، أنا أفكر بأمي" .

•

كانوا قد وصلوا إلى "سكاون" ، وقد بدأوا يصعدون جانب جبل مرتفع . من تحتهم في قعر الوادي كانت الغابات بيضاء وشعثاء من الجليد . في كل مكان كان نور الشمس يشع ، والتمعت بحيرة صغيرة في الوسط بلون أزرق . ثم فجأة مرّ الموكب عبر غابة صنوبر وأشار إرلند نحو الأمام :

"هناك تقبع هوسابي [1] يا كريستين . فليمنحك الرب أياماً سعيدة كثيرة هناك يا زوجتي!" قال لها ذلك وقد اعترت صوته الإثارة .

امتدّت أمامهم أراض مفلوحة واسعة ، بيضاء من الجليد . وكانت الضيعة تنتصب على طاق واسع في منتصف الدرب على جانب الجبل... وإلى القرب منهم كانت كنيسة صغيرة ذات أحجار فاتحة اللون ، وإلى الجنوب منها كانت المنازل المتراكمة . كانت كثيرة وعظيمة ، وكان الدخان يتصاعد من مداخنها . بدأت الأجراس ترنّ في الكنيسة ، وخرج كثير من الناس من الساحة للقائهم ، وهم يصرخون بهتافات الترحيب . قام الشبان في موكب العرس بضرب سيوفهم ببعضها البعض... وتقدم الموكب بقعقعة هائلة ووقع حوافر الخيل المدوية والهتافات المرحة نحو مسكن العريس .

•

توقفوا أمام الكنيسة . أنزل إرلند عروسه عن حصانها وقادها نحو باب الكنيسة ، حيث كان حشد صغير من الكهنة ورجال الدين ينتظر ليرحب بهما . في الداخل ، كان البرد قارصاً ، وكان نور النهار الذي يتسلل عبر النوافذ الصغيرة المستديرة المقوسة لصحن الكنيسة يبهت من نور الشموع المحترقة على المذبح .

أحسّت كريستين بالبرد والخوف حين أطلق إرلند يدها ومضى إلى ناحية الرجال ، بينما اتخذت هي مكانها بين عصبة النساء الغر يبات المرتديات جميعاً ملابس العيد . كانت الصلاة رائعة جداً . ولكن كريستين كانت تشعر بالبرد إلى حد كبير ، وبدا وكأن صلواتها كانت تهبّ عائدة إليها حين حاولت أن تحرر قلبها وترفعه إلى الأعلى . وفكرت أنه طالما كان هذا اليوم هو يوم القديس سايمون فليس ذلك بالفأل الحسن : فقد كان هذا هو القديس الحارس للرجل الذي أساءت إليه .

خرج الناس كلهم من الكنيسة في موكب نحو الضيعة ، أولاً الكهنة ثم كريستين وإرلند يداً بيد ، ثم ضيوفهما زوجاً زوجاً . لم تكن كريستين متمالكة نفسها إلى حد تستطيع معه مشاهدة كثير من أبنية الضيعة . كانت الساحة طويلة وضيقة . والمباني كانت على صفين إلى جنوبها وشمالها . كانت أبنية كبيرة وقد شيدت قريبة إلى بعضها البعض ، إلا أنها بدت عتيقة ومهملة .

توقف الموكب عند باب القاعة ، وباركه الكهنة بالماء المقدس . ثم قادها إرلند عبر غرفة خارجية معتمة . إلى يمينها فتح باب سمح لفيض من النور بالدخول . انحنت وهي تمر عبر الباب ، ووقفت مع إرلند في قاعته .

كانت أكبر غرفة[٢] سبق لها أن رأتها في أي منزل . وكانت هناك مدفأة

في وسط الأرضية ، طويلة إلى حد أنه كان فيها موقدان ، واحد عند كل جانب . وكانت الغرفة عريضة إلى حد أن العوارض المتقاطعة كانت محمولة على أعمدة منحوتة : بدت لها وكأنها كنيسة أو قاعة ملك أكثر ممّا هي غرفة في ضيعة . عند نهاية الجملون الشرقي ، حيث كان الكرسي العالي منتصباً في وسط المقعد الجداري ، كانت أسرّة صندوقية قد نُصبت بين الأعمدة الخشبية .

و يا له من حشد من الأنوار المشتعلة في القاعة : المسلطة على الموائد التي كانت تئنّ تحت ثقل الأكواب والأوعية الثمينة وعلى حاملات المصابيح المثبتة على الجدران! ووفق أسلوب العهود القديمة ، كانت الأسلحة والتروس معلقة بين قطع النسيج المطرّزة الممدودة . وخلف الكرسي العالي كان الجدار مغطى بستارة مخملية ، وفوقها كان رجل الآن يثبّت سيف إرلند المطعم بالذهب وترسه الأبيض الذي رسم عليه أسد أحمر بارز .

كان الخدم من رجال ونساء قد خلعوا عن الضيوف أرديتهم الخارجية . أمسك إرلند بيد زوجته وقادها إلى الأمام نحو الموقد ، والضيوف واقفون في نصف حلقة من خلفهما . تقدمت سيدة بدينة ذات وجه لطيف منهما وسوّت غطاء كريستين الكتاني الأبيض حيث كان قد تجعّد من قلنسوة عباءتها . وحين عادت إلى مكانها ، أومأت برأسها إلى الزوجين الشابين وابتسمت . أومأ إرلند وردّ بابتسامة ثم عاد فنظر إلى زوجته : كان وجهه وهو ينظر إليها جميلاً . وأحست كريستين مجدداً بأن قلبها كان يغور في جوفها إشفاقاً عليه . كانت تعرف بما يفكر فيه الآن ، وهو يراها واقفة هناك في قاعته والغطاء الكتاني الأبيض الثلجي فوق ثوب العروس القرمزي . وفي هذا الصباح اضطرت أن تلف حزاماً طويلاً محبوكاً حول خصرها تحت ملابسها حتى

يلائمها الثوب ، كما كانت قد فركت وجنتيها بمرهم أحمر أعطتها إياه الليدي آشيلد . وبينما راحت تزين نفسها على هذا النحو فكرت بأسى ومرارة أن إرلند لم يكن ينظر إليها كثيراً ، فقد أصبحت ملكاً له الآن... فهو لم يلاحظ ولم يعرف بعد . لقد ندمت الآن بمرارة أنها لم تخبره .

و بينما وقف الزوجان هكذا ، يداً بيد ، كان الكهنة يمشون حول القاعة ويباركون المنزل والموقد والسرير والمائدة .

ثم حملت إحدى الخادمات مفاتيح المنزل إلى إرلند الذي ربط الحزمة الثقيلة إلى حزام كريستين بكلاّب ، وقد بدا وهو يفعل ذلك وكأنه سيقبّلها حيث كانت واقفة . جلب أحد الرجال قرناً ضخماً محاطاً بخواتم ذهبية : رفعه إرلند إلى شفتيه وشرب نخبها :

"مرحباً وأهلاً بك في بيتك ، يا سيدة هوسابي" .

و صاح الضيوف وضحكوا بينما شربت هي مع زوجها وصبّت بقية النبيذ فوق نار الموقد .

ثم بدأ المغنون بالعزف على آلاتهم ، بينما قاد إرلند نيكولاوسون عروسه إلى الكرسي العالي ، واتخذ ضيوف الزفاف أماكنهم على المائدة .

•

في اليوم الثالث بدأ عقد الضيوف بالانفراط ، ومع حلول ساعة العصر كان آخرهم قد رحل ، وبقيت كريستين وحيدة مع زوجها في هوسابي .

كان أول شيء فعلته أنها أمرت الخدم بأخذ كل أغطية السرير وغسلها مع الجدران المحيطة به بالقلي ، وأن يحملوا القش خارجاً ويحرقوه . ثم

ملأت هيكل السرير بقش جديد ووضعت فوقه أغطية الفراش والبطانيات التي أحضرتها معها . ولم ينته هذا العمل إلا في ساعة متأخرة من الليل ، ولكن كريستين أعطت الأوامر بأن يتم هذا الأمر نفسه على كل أسرّة المكان ، وأن يتم تعريض كل البسط المصنوعة من جلود الحيوانات إلى حرارة شديدة في الحمام ، وعلى الخادمات البدء بهذا العمل في الصباح الباكر ، وأن ينجزن من هذا العمل أكبر مقدار ممكن قبل يوم الأحد . هزّ إرلند رأسه وضحك : إنها ربة بيت بالفعل! ولكن خجله لم يكن قليلاً .

لم تستطع كريستين النوم في الليلة الأولى ، رغم أن الكهنة باركوا سريرها . لقد نشرت فوقه الوسائد الحريرية وشراشف الكتان وأروع البطانيات الفراء ، ولكن تحت هذا كان قش قذر عفن ، وقمل في أغطية السرير وفي جلد الدب الأسود الرائع الذي نشر فوق هذا كله .

لقد سبق لها ورأت أشياء كثيرة في هذه الأيام القليلة . خلف الستائر الثمينة المعلقة ، فإن الجدران غير المغسولة كانت سوداء من القذارة والسخام . في الاحتفال كانت هناك أكوام من الطعام ، ولكن فسد معظمه بسبب الترتيب والخدمة السيئين . أما لأجل التدفئة فلم يكن لديهم سوى الحطب الأخضر الرطب ، الذي لا يشتعل إلا بالكاد ، والذي ملأ القاعة بالدخان .

في كل مكان شاهدت رعاية سيئة ، وذلك في اليوم التالي حين قامت بجولة مع إرلند لتتفرج على الضيعة والمزرعة . ومع انتهاء الاحتفال ، ما كان قد تبقى سوى القليل في مخزن الحبوب والمستودع . كانت صناديق القمح قد نظفت تماماً . ولم تستطع أن تفهم كيف يستطيع إرلند أن يفكر في أن يحتفظ بكل هذه الجياد والكثير من الماشية خلال الشتاء على ذلك القليل من القش والتبن الموجودين في مخزن الحبوب : ولم يكن هناك من العلف الورقي ما يكفي حتى للخراف والماعز .

و لكن كانت هناك علية نصف ممتلئة بالكتان الذي كان قد ترك هناك دون استخدام . لابد أنه الجزء الأعظم من محصول كثير من السنين . كما كان هناك مستودع مليء بالصوف العتيق غير المغسول الذي تفوح منه رائحة كريهة ، البعض منه في أكياس والبعض الآخر في أكوام . وحين أمسكت كريستين بحفنة منه ، نزل منه رشاش من البيوض الصغيرة بنية اللون : لقد أتى عليه العث والديدان .

كان وضع الماشية بائساً فهي نحيلة مقرحة وجرباء . لم يسبق لكريستين أن رأت كل ذلك العدد من الحيوانات المتقدمة في السن معاً في مكان واحد . الجياد فحسب كانت في وضع جيد ومعتنى بها . ومع ذلك لم يكن بينها من هو ندّ لغولدسفاينن أو رينغندتروتن ، ذلك الفحل الذي لدى أبيها الآن . أما سلونغفانباوغ ، ذلك الحصان الذي منحها إياه لدى مغادرتها البيت ، فكان أجمل حصان في الاسطبلات . وحين اقتربت منه ، كان عليها أن ترمي بذراعيها من حول عنقه وتضغط بوجهها على خده .

فكرت في وجه أبيها حين حل أوان ركوبها لهذا الحصان لتغادر البيت مع إرلند ورفعها هو إلى السرج . كان يتظاهر بالسعادة ، فقد كان هناك الكثير من الناس الذين وقفوا يحيطون بهما ، ولكنها شاهدت عينيه . ربت على ذراعها نزولاً ، وأمسك بيدها في يده مودعاً . في تلك اللحظة ، على الأرجح ، كان تفكيرها يتركز في أغلبه حول مدى سعادتها لأنها كانت سترحل أخيراً . ولكن بدا لها الآن أنها مهما عاشت فإن روحها كانت ستعاني من الألم كلما تذكرت عيني أبيها في تلك الساعة .

•

و هكذا بدأت كريستين لافرانسداتر ترتب وتنظم الأمور في بيتها . كانت تستيقظ مع صياح الديك في كل صباح ، رغم اعتراضات إرلند ، وتظاهره بأنه سيبقيها في الفراش بالقوة ؛ فلا يتوقعنّ أحد من زوجة لازالت عروساً أن تقوم من سريرها قبل الفجر لتتجول بين الأبنية والدور .

حين رأت الحالة السيئة التي وصلت إليها الأمور ، وكم عليها من أعمال تتطلب الإنجاز ، مرّت في خاطرها فكرة واضحة وقاسية . لو أنها أثقلت روحها بالخطيئة حتى تصل إلى هنا ، فليكن الأمر كذلك... ولكن التعامل مع عطايا الرب على هذا النحو الجاري هنا لم يكن خطيئة من وزن أقل . فليحلّ العار على المسؤولين عن الأمور هنا ، وعلى كل من ترك متاع إرلند يذهب هباء على هذا النحو! لم يكن هناك وكيل كفؤ في هوسابي في السنتين الأخيرتين . أما إرلند نفسه فكان كثير الغياب عن بيته خلال هذه المدة ، كما أنه لم يكن يفقه إلاّ قليلاً في شؤون إدارة أملاكه . لم يكن متوقعاً سوى أن يقوم وكلاء مزارعه في الأبرشيات البعيدة بغشّه ، كما كانت على ثقة من ذلك ، وأن الخدم في هوسابي ما كانوا يعملون إلا بقدر ما يرضيهم ، ومتى وكيف يروق لهم . ولن تكون مهمتها سهلة في إعادة الأمور إلى نصابها .

تطرقت في أحد الأيام إلى هذه الأمور مع أولف هالدورسون ، التابع الأمين لإرلند . كان يتوجب القيام بدرس القمح على الفور ، على الأقل ذاك القمح الذي في مزرعة البيت – ولم يكن هناك الكثير منه على أي حال – وذلك قبل أن يحين الأوان للذبح لأجل مؤونة الشتاء من اللحوم . قال أولف :

"تعرفين يا كريستين أني لست عامل مزرعة . كان عملي هو حمل سلاح إرلند –أنا وهافتور– ولم أعد ماهراً في أعمال الزراعة ."

قالت سيدة الدار : "أعرف ذلك . ولكن على ما يبدو يا أولف لن يكون

أمراً سهلاً عليّ إدارة الأمور هنا في هذا الشتاء ، أنا القادمة الجديدة إلى شمال دوفر ، دون معرفة كافية بالناس هنا . وستكون لفتة ودية منك أن تقدم لي يد المساعدة والمشورة ."

"أعتقد ذلك جاداً يا كريستين : أن مهمتك لن تكون سهلة هذا الشتاء" ، قال الرجل وهو ينظر إليها بابتسامة صغيرة ، تلك الابتسامة الغريبة التي كانت دائمة الارتسام على وجهه كلما حادثها أو حادث إرلند . كانت جريئة وساخرة ، ومع ذلك كان في تصرّفه لطف ونوع من الاحترام لها . ولم يكن يحق لها ، كما بدا لها ، أن تشعر بالإساءة لأن أولف يعاملها بتلك الجرأة الزائدة عن المعتاد . لقد جعلت هي نفسها وكذلك إرلند من هذا الخادم فريقاً في كل أفعالهما العابثة والخادعة . واستطاعت أن تلاحظ أنه كان يعرف أيضاً وضعها الحالي . عليها أن تترك هذا الأمر يمرّ... وبالفعل فقد لاحظت أن إرلند كان يتحمل أي شيء كان أولف يقوله أو يفعله ، وأن الرجل كان لا يبدي سوى القليل من الاحترام لسيّده . صحيح أنهما كانا صديقين منذ الطفولة . كان أولف من "مور" وكان ابناً لمزارع صغير يعيش قرب ضيعة بارد بيترسون . كان ينادي إرلند باسمه المجرّد ، ويناديها هي باسمها المجرّد أيضاً... ولكن كان صحيحاً أن هذا النوع من المخاطبة كان أكثر شيوعاً هنا في شمال دوفر ممّا هو في منطقتها .

كان أولف هالدورسون رجلاً وسيماً ، طويل القامة ، ذا شعر أسود داكن وعينين جميلتين . ولكن فمه كان قبيحاً وخشناً . كانت كريستين قد سمعت قصصاً بشعة عنه من الفتيات في ذلك المكان –حين يكون في المدينة فإنه يشرب على نحو مفرط وينفق وقته في القصف والعربدة في أسوأ بيوت الزيارة . ولكن في البيت في هوسابي كان أفضل الرجال ، طوع الإشارة ،

وأكثر العمال ملاءمة وقوة وحكمة . لقد أضحت كريستين تميل إليه كثيراً .

استأنف قائلاً : "لم يكن بالأمر السهل على أي امرأة أن تأتي إلى هنا ، إلى هذا المنزل... بعد كل الذي جرى . ومع ذلك أيتها السيدة كريستين ، فأنا أعتبر أنك ستنتصرين على نحو أفضل من أي شخص آخر . لست المرأة التي تجلس وتئن وتتذمّر . ولكنك ستركزين تفكيرك على حفظ إرث أولادك بنفسك طالما لا يوجد هنا أحد يفكر في مثل هذه الأمور . وأعتقد أنك تعرفين أنك تستطيعين أن تثقي بي ، وأني سأساعدك بقدر استطاعتي . وعليك أن تتذكري أني لست معتاداً على أعمال المزرعة . ولكن لو شاورتني وسمحت لي بمنحك المشورة ، أعتقد أننا سنجتاز هذا الشتاء في أحسن حال ."

شكرت كريستين أولف ، ثم دخلت المنزل .

•

كان قلبها مثقلاً بالقلق والخوف ، ولكنها حاولت أن تنسى ذلك من خلال العمل . الأمر الوحيد الذي لم تفهمه أن إرلند لم يبد عليه أنه يشك في أي شيء . ولكن المشكلة الأخرى والأسوأ كانت أنها لم تستطع أن تشعر بوجود حياة في الطفل الذي تحمله في أحشائها . ففي الأسبوع العشرين كان عليه أن يتحرك ، كما كانت تعرف... والآن مرّ أكثر من ثلاثة أسابيع فوق الأسابيع العشرين . كانت تبقى مستيقظة في الليل وتشعر بالعبء الذي في داخلها والذي كان يصبح أثقل فأثقل ، ولكنه كان ساكناً دون حياة دائماً . ثم كان يمر بذهنها كل ما سمعته عن الأطفال الذين يولدون مشلولين ، بأوتار قاسية كالحجارة ، وعن ولادات لأطفال دون أطراف لا تكون لهم إلا

بالكاد أشكال بشرية . وكانت تمر أمام عينيها المغلقتين بشدة صور عن أطفال صغار ، مشوهين على نحو مروّع ؛ والشكل المشوّه الواحد يتحول إلى آخر أكثر ترويعاً . في الجنوب في الوادي حيث موطنها ، في ليدستاد ، رزق أحد البيوت بطفل ؛ لابدّ أنه صار كبيراً الآن . لقد رآه والدها ولكنه لم يذكره قط . وقد لاحظت أنه كان يضطرب لو ذكره أي شخص أمامه . كيف كان يبدو ؟ -أوه ، كلا! أيها القديس أولاف ، صلّ لأجلي! -عليها أن تثق تماماً برحمة الملك المقدس الرقيقة . أولم تضع طفلها تحت رعايته ؟ ستعاني لأجل خطاياها بالتواضع ومن كل قلبها ستثق أنها ستتلقى المساعدة والرحمة لأجل الطفل . لابد أن "العدو" نفسه هو الذي أغراها بتلك الرؤى البشعة ، حتى يقودها إلى اليأس . ولكن لياليها كانت سيئة... إن لم يكن للطفل أطراف ، لو كان مشلولاً ، فإن الأم على الأرجح لن تشعر بأي أثر للحياة في داخلها... لاحظ إرلند ، نصف المستيقظ ، أن زوجته كانت قلقة ، فجذبها إلى ذراعيه ، ودفن وجهه في نحرها .

و لكنها لم تكن تظهر أي أمارة من أمارات القلق . في كل صباح كانت ترتدي ملابسها بحيث تحرص على أن تخفي عن أهل المنزل لفترة أطول أنها كانت تحمل حياة أخرى في داخلها .

كما جرت العادة في هوسابي كان الخدم ينطلقون إلى أماكن نومهم بعد وجبة المساء ، بحيث كانت تُترك هي وإرلند وحيدين في المنزل الرئيسي . على أي حال كانت أساليب الحياة في هذه الضيعة تشبه كثيراً أساليب الأيام الغابرة ، حين كان الناس يستخدمون الرقيق والإماء للأعمال المنزلية . لم تكن هناك مائدة ثابتة في المنزل الرئيسي ، ولكن الوجبات الصباحية والمسائية كانت توضع فوق لوح خشبي كبير يوضع على جحوش خشبية ،

وبعد انتهاء الوجبة كان اللوح يعلق مجدداً على الجدار . في الوجبات الأخرى كان الناس يأخذون طعامهم إلى المقاعد ويجلسون ويتناولونها هناك . عرفت كريستين أن العادة كانت تجري على هذا النحو في الأزمان الغابرة . ولكن في هذه الأيام ، حين أضحى من الصعب إيجاد رجال يخدمون على الموائد ، وأضحى الناس كلهم راضين بوجود خادمات للأعمال المنزلية ، فلم يعد ذلك يلائم هذا العصر : أضحت النساء كارهات أن يتركن ظهورهن تنكسر في رفع الموائد الثقيلة . تذكرت كريستين كيف كانت أمها تحكي لها كيف أنهم وضعوا مائدة ثابتة في سوندبو في القاعة حين كان عمرها لا يتجاوز ثمانية شتاءات وأن النساء اعتقدن أن ذلك كان أروع هدية -فلم تعد هناك حاجة إلى حمل أدوات الخياطة إلى منزل النساء ، بل يستطعن الجلوس في القاعة والقص والقطع- كما كان منظراً جميلاً إبقاء الشمعدانات وبعض الأوعية الثمينة أمام أنظارهم . فكرت كريستين : في الصيف التالي سترجو إرلند أن يضع مائدة ثابتة على امتداد الجدار الشمالي .

هكذا كان الأمر في بيت أهلها ، وهناك كان كرسي أبيها العالي في نهاية اللوح الخشبي ، ولكن هناك كانت الأسرّة عند جدار المدخل . في بيت أهلها كانت أمها تجلس في أعلى مكان على المقعد الخارجي ، حيث تستطيع أن تتحرك جيئة وذهاباً وتراقب خدمة الطعام . ولكن حين يكون هناك عيد فحسب كانت راغنفريد تجلس قرب زوجها . ولكن هنا كان الكرسي العالي في وسط نهاية الجملون الشرقي ، وكان إرلند سيجلسها دائماً عليه معه . في البيت كان أبوها يضع دائماً خدم الرب في الكرسي العالي إن كان مثل أولئك ضيوفاً على الضيعة ، وكان هو نفسه وراغنفريد يخدمانهم خلال الأكل والشرب . ولكن إرلند ما كان يمارس ذلك ، إلاّ إذا كان هؤلاء من رتبة عالية . لم يكن محبّاً كبيراً للكهنة والرهبان : كانوا

أصدقاء مكلفين كما اعتاد أن يقول لكريستين . لم تكن كريستين قادرة على مغالبة التفكير فيما كان أبوها وسيرا آيريك يقولانه دائماً ، حين كان الناس يتذمّرون من طمع رجال الكنيسة الشديد في المال : كان الناس ينسون المتع الخاطئة التي اختطفوها لأنفسهم حين يحلّ أوان دفع التعويضات عنها .

سألت إرلند عن الحياة هنا في هوسابي في الأيام السالفة . ولكنه ويا للعجب ما كان يعرف سوى القليل . كانت الأمور على هذا النحو أو ذاك ، كما كان قد سمع . ولكنه لم يستطع التذكر جيداً . كان الملك سكوله يمتلك هذه الضيعة وقد شيّد عليها الأبنية . ويُقال إنه أراد أن يجعل هوسابي سكناً له ، حين تخلّى عن "راين" إلى دير للنساء . كان إرلند شديد الفخر لأنه سليل لذلك "الدوق" ، الذي كان يدعوه بالملك دائماً ، وكذلك للأسقف نيكولاوس . كان الأسقف والد جده ، مونان بيشوبسون . ولكن بدا لكريستين أنه لم يكن يعرف عن هؤلاء الناس أكثر ممّا تعرفه هي من حكايات أبيها . في بيت أهلها كان الأمر خلاف ذلك . فلا أبوها ولا أمها كانا شديدي الاعتزاز بسلطة أجدادهما والاعتبار الكبير الذي كانوا يتمتعون به . ولكنهم كانوا غالباً ما يذكرونهم ، وكانوا يتخذون من الأمور الطيبة التي يعرفونها عنهم مثالاً يُحتذى ، ويحكون عن أخطائهم وعن الأعمال الشريرة التي اقترفوها كتحذير . كما كانت لديهم حكايات صغيرة مرحة أيضاً : عن إيفار غييسلينغ العجوز وشجاره مع الملك "سفير" ؛ عن نوادر إيفار بروفست السريعة والذكية ، عن ضخامة جسم هافارد غييسلينغ ، وعن حظ إيفار غييسلينغ الرائع في الصيد . كان لافرانس يحكي عن أخي جده الذي حمل عذراء فولكونغا من دير فريتا . عن أم جده رامبورغ سونسداتر التي كانت تتوق دائماً إلى بيتها في ويستر غوتلاند ، وأخيراً كيف مضت إلى هناك عبر

الجليد وتاهت ، وذلك وهي تقود عربتها على بحيرة فينير في إحدى المرات التي كانت تمكث فيها مع أخيها في سولبرغا . كان يحكي عن براعة أبيه الفائقة في الأسلحة وحزنه الشديد على زوجته الشابة الأولى ، كريستين سيغوردسداتر ، التي ماتت خلال ولادتها للافرانس . وكان يحكي من أحد الكتب عن جدته السيدة المقدسة إلين من سكوفد ، التي مُنحت كرامة أن تكون إحدى شهود دم الرب . كثيراً ما كان أبوها يتحدث عن رحلة حج مع كريستين إلى قبر هذه الأرملة المقدسة . ولكن هذه الرحلة لم تتم قط .

في خوفها وبؤسها ، حاولت كريستين أن تصلي لهذه القديسة التي ترتبط بها بروابط الدم . صلت للقديسة إلين لأجل طفلها ، وقبّلت المذخر الذي أخذته من أبيها ، وكان فيه مزقة من كفن السيدة المقدسة . ولكن كريستين كانت تخشى القديسة إلين ، بعد أن جلبت العار على جنسها . حين كانت تصلّي للقديس أولاف والقديس توماس لأجل شفاعتهما ، غالباً ما كانت تشعر أن شكاواها تصل إلى آذان حية وقلوب رحيمة . هذان الشهيدان من شهداء الورع اللذان كان أبوها يحبهما أكثر من كل القديسين الآخرين ، وحتى أكثر من القديس لاورنتيوس نفسه ، رغم أن هذا هو القديس الذي سمي هو باسمه ، والذي كان يقيم على شرفه في أواخر الصيف حفل شراب كبير ويتبرع بمبالغ كبيرة للفقراء . لقد رأى والدها مرة في أحلامه القديس توماس وهو راقد بعد إصابته بجرح خارج باغاهوس . لم يكن هناك لسان قادر على وصف مدى جماله وروعته ، ولم يستطع لافرانس نفسه قول أي شيء عدا : "أيها الرب!" ولكن الشخص المشع في ملابس الأسقف لمس بلطف جراحه ووعده بأنه سيُمنح الحياة واستخدام أطرافه حتى يرى مجدداً زوجته وابنته ، حسب صلاته . ولكن لم يصدق أحد في ذلك الحين أن لافرانس بيورغولفسون سيتمكن من البقاء حيّاً حتى الصباح .

أجل ، قال إرلند . يسمع المرء بمثل هذه الأمور . فلم يحدث له أي شيء مشابه ، ولاشكّ أنه لن يحدث ، فهو ليس بالرجل الورع كما هو لافرانس .

ثم سألت كريستين عن كل الناس الذين كانوا في احتفال وصولها إلى البيت . لم يكن لدى إرلند الكثير ليقوله عنهم أيضاً . بدا لكريستين أن زوجها لم يكن شبيهاً بأناس هذا الريف . كانوا أشخاص وسيمين ، شقراً حمر البشرة ، لهم رؤوس مستديرة قاسية وأجساد قوية متينة : كان كثير من المسنين بدينين إلى حد كبير . بدا إرلند كطائر غريب بين ضيوفه . كان أطول بمقدار رأس عن معظم الرجال ، رشيقاً ضامراً بأطراف نحيلة ومفاصل ممتازة وشعر حريري أسود وبشرة سمراء فاتحة ، إنما بعينين زرقاوين فاتحتين تحت حاجبين أسودين كالفحم ورموش سوداء طويلة . كان جبينه عالياً وضيقاً ، وصدغاه غائرين ، أما الأنف فكبير نوعاً ما والفم صغير جداً وضعيف بالنسبة إلى رجل : ولكنه كان وسيماً على أي حال . لم تكن قد رأت رجلاً له نصف وسامة إرلند . حتى صوته الرقيق الهادئ لم يكن مشابهاً لأصوات الآخرين الغليظة الشبعانة .

ضحك إرلند وقال إن أجداده لا ينتمون إلى هذه المنطقة أيضاً ، عدا أم جده راغنفريد سكولسداتر . ويقول الناس إنه يشبه كثيراً جده لأمه المسمى غاوت إرلندسون من سكوغهايم . سألته كريستين عمّا يعرفه عن جده هذا ، ولكن تبين أنه لا يعرف عنه شيئاً .

•

في إحدى الليالي كان إرلند وكريستين يخلعان ملابسهما في المنزل

الرئيسي . لم يستطع إرلند فك شريط حذائه . وبينما راح يقطعه انزلقت السكين وجرحت يده . وقد نزف كثيراً وراح يشتم بوحشية . أحضرت كريستين قطعة من القماش الكتاني من خزانتها . كانت ترتدي شلحتها فقط . وبينما راحت تربط له يده ، مرّر إرلند ذراعه الأخرى من حول خصرها .

و فجأة نظر إلى وجهها والخوف والاضطراب في عينيه ، وقد تضرج وجهه حتى أصبح أحمر نارياً . أحنت كريستين رأسها . رفع إرلند ذراعه ، دون أن يقول شيئاً . ثم ذهبت كريستين في صمت ودخلت إلى السرير . كان قلبها يدق دقات قوية مصمتة على أضلاعها . بين الحين والآخر كانت تنظر إلى زوجها . كان قد أدار لها ظهره وراح يخلع ملابسه ببطء وأخيراً جاء إلى السرير واضطجع فيه .

انتظرت منه كريستين أن يتكلم . لقد انتظرت وكأن قلبها لم يعد يخفق ، بل توقف وراح يرتعش في صدرها .

و لكن إرلند لم ينبس ببنت شفة . كما أنه لم يضمّها بين ذراعيه . وأخيراً ، وبتردّد ، مد يده من فوق صدرها وضغط بذقنه على كتفها بقوة حتى أن لحيته النامية خدشت بشرتها . وبما أنه لم ينطق بكلمة واحدة ، فقد أدارت كريستين وجهها إلى الجدار .

كأنما كانت تغرق وتغرق . لم يستطع أن يجد كلمة يقولها لها ، بعد أن عرف الآن أنها كانت تحمل طفله في أحشائها طوال هذه الفترة المديدة . أطبقت على أسنانها بقوة في الظلام . لن ترجو وتتوسل أبداً... إن اختار هو الصمت ، فستصمت هي أيضاً ، حتى يوم الولادة ، إن دعا الأمر . تدفقت المرارة في قلبها ، ولكنها بقيت ساكنة عند الجدار . كما بقي إرلند ساكناً

في الظلام . وساعة بعد ساعة بقيا مضطجعين على هذا النحو ، وكل واحد منهما يعرف أن الآخر لم يكن نائماً . وأخيراً عرفت من تنفسه المنتظم أنه قد أغفى ، فأطلقت العنان لدموعها التي تفجرت حزناً ومرارة وعاراً . لن تسامحه أبداً ، كما بدا لها ، على هذا الفعل .

•

و لثلاثة أيام بحالها بقي إرلند وكريستين على هذا المنوال : وهو يبدو ككلب مبلّل ، كما فكرت الزوجة الشابة . كانت محتدّة من الغضب : وقد جُنّت من الغضب حين لاحظت أنه كان يبحث عنها بعينيه ثم ينظر بعيداً إن التفتت بعينيها نحوه .

•

في صباح اليوم الرابع ، وبينما كانت جالسة في المنزل الرئيسي ، دخل إرلند عبر المدخل وقد ارتدى ملابس الركوب . كان سيتجه غرباً إلى "ميدالبي" . ربما تود القدوم معه ومشاهدة المكان . كانت ميدالبي إحدى المزارع التي وهبت لها كهدية من "هدايا الصباح" . أجابت كريستين بنعم . وساعدها إرلند بنفسه على ارتداء حذائها الطويل القاسي والعباءة السوداء ذات الأكمام والأبازيم الفضية .

في الساحة كانت أربعة جياد مسرجة ، ولكن إرلند قال إن "هافتور" و"إغيل" قد يبقيان في المنزل ويساعدان في الدراسة . ثم ساعد زوجته على الركوب . أحست كريستين بأنه كان في ذهن إرلند أن يتكلما الآن حول ما كان يجري بينهما دون كلام . ومع ذلك لم يقل شيئاً وهما سائران في طريقهما ببطء جنوباً نحو الغابات .

كان الشتاء قد بدأ منذ زمن ، ولكن لم يكن الثلج قد هطل في هذا الريف بعد . كان النهار منعشاً ولطيفاً ، وقد بزغت الشمس للتو ، والجليد الأبيض يلتمع بلون فضي وذهبي في كل مكان ، على الحقول وعلى الأشجار . كانا يجتازان أراضي هوسابي . لاحظت كريستين أنه لم يكن هناك سوى القليل من الأرض المبذورة أو المحصودة ، فقد كانت معظم الأراضي أراضي خالية من الزرع تركت للأعشاب ، ومروجاً قديمة غير مستوية نمت عليها الطحالب ، واختنقت بفروع أشجار جار الماء . تحدثت عن هذا الموضوع .

أجابها زوجها :

"ألا تعرفين يا كريستين ، أنت التي تتمتع بمهارة كبيرة في إدارة البضائع والمعدات ، أنه ليس بالأمر المربح زراعة القمح إلى القرب من تلك السوق الكبيرة ؟... الأفضل للمرء أن يقايض صوفه وزبدته لقاء ذرة ودقيق التجار الأجانب..."

قالت كريستين : "إذن كان عليك أن تقايض كل ذلك الصوف الذي هو قابع الآن في عليّاتك وقد أصابه التلف منذ زمن بعيد . ولكن بحدود علمي فإن القانون يقول إن كل رجل يؤجر الأرض سيبذر قمحاً في ثلاثة أرباعها ، ويترك الربع الأخير مراحاً للعشب . وليس ملائماً أن تتلقى ضيعة صاحب الأرض عناية أقل من مزارع المستأجرين ، هذا ما كان أبي يقوله على الدوام ."

ضحك إرلند قليلاً ، ثم أجاب :

"لم يسبق لي أن بحثت في القانون المتعلق بهذه القضية... طالما أحصل على ما هو حقي فإن المستأجرين لديّ يستطيعون حراث مزارعهم كما يحبون ، وأما بالنسبة إلى هوسابي ، فأنا أديرها حسب ما أرى أنه الأفضل والأكثر ملاءمة ."

سألت كريستين : "هل أنت إذن أكثر حكمة من آبائنا الذين سبقونا ، ومن القديس أولاف والملك ماغنوس اللذين وضعا هذه القوانين ؟"

ضحك إرلند مجدداً وقال :

"هذه مسألة لم يسبق لي أن فكرت فيها... ولكن لابدّ أن الشيطان وكل شيء آخر وراء كونك عارفة بقوانين الأرض إلى هذا الحد يا كريستين ."

قالت كريستين : "لا أعرف إلا القليل عن هذه الأمور لأن أبي كان غالباً ما يطلب من سيغورد من لوبتسغارد أن يكرر القوانين أمامنا حين كان يأتي لزيارتنا ونجلس في البيت مساء . لقد اعتبر أبي أنه أمر مفيد للخدم والشبان أن يتعلموا شيئاً عن مثل تلك الأمور . وهكذا كان سيغورد يكرر هذا المقطع أو ذاك ."

قال إرلند : "سيغورد... أجل ، أتذكر الآن أني شاهدته في حفل زفافنا . إنه ذلك الرجل العجوز الأدرد ذو الأنف الطويل الذي بكى وثرثر وسال لعابه وربت على صدرك... لقد كان ثملاً كبومة حتى في صباح اليوم التالي حين وصل الناس ليروني أضع القبعة الكتانية على رأسك..."

قالت كريستين بغضب : "لقد عرفني منذ نعومة أظفاري . وقد اعتاد أن يجلسني في حضنه ويلعب معي حين كنت فتاة صغيرة..."

ضحك إرلند مجدداً .

"حسناً ، لابد أنها كانت تسلية غريبة بما فيه الكفاية... أن تجلسوا جميعاً هناك وتصغوا إلى ذلك الرجل العجوز وهو ينشد القوانين ، مادة مادة . لا شك أن لافرانس لا نظيرله بين الرجال في مسائل كثيرة... فالآخرون يقولون إنه لو عرف الفلاح قوانين الأرض بالكامل ، وعرف الفحل القوة ، فسيصبح الشيطان فارساً ."

فجأة وبصرخة ، لطمت كريستين حصانها على مؤخرته واندفعت إلى الأمام ، تاركة إرلند وهو يحدق ملاحقاً زوجته بعينيه وقد اعتراه العجب والغضب .

و فجأة همز حصانه . يا للمسيح... الزقاق البحري بين الجروف الصخرية كان دون معبر فوقه الآن... فالضفة الطينية قد انزلقت في الخريف .

مطّ سلونغفانباوغ نفسه ليعدو على نحو أسرع حين سمع الحصان الآخر خلفه . كان إرلند في حالة من الخوف القاتل : فها هي تنطلق هابطة المنحدر الجبلي الشاهق أيضاً! وأخيراً استطاع أن يسبقها عبر الشجيرات ، ثم التفّ إلى الدرب حيث كان مستوياً لمسافة قصيرة ، ووقف بحيث تضطر إلى التوقف . حين اقترب منها رأى أنها بدت خائفة قليلاً هي أيضاً .

انحنى إرلند إلى الأمام نحو زوجته وصفعها بقوة تحت أذنها... حتى أن سلونغفانباوغ قفز جانباً وشبّ رعباً .

قال إرلند بصوت مرتجف بعد أن هدأ روع الحصانين وراحا يسيران الواحد إلى جانب الآخر مجدداً : "أجل ، لقد كنت تستحقين ذلك . أن تتابعي السير هكذا... مجنونة تماماً من الغضب . لقد أخفتني..."

رفعت كريستين رأسها على نحو لا يرى معه وجهها . تمنى إرلند لو أنه لم يضربها . ولكنه قال مجدداً :

"لقد أدخلت الرعب في قلبي يا كريستين... تصرفك على ذلك النحو! وأن يحدث ذلك الآن وليس في أي وقت آخر..." ، أضاف بصوت خفيض .

لم ترد كريستين عليه كما لم تنظر إليه . ولكن إرلند استطاع أن

يشعر أنها كانت أقل غضباً الآن ممّا سبق ، حين راح يسخر من أهلها . وقد تعجب من ذلك... ولكنه رأى أن الأمر كان على هذا النحو .

•

وصلا إلى ميدالبي ، وخرج أحد مستأجري إرلند وطلب منهما الدخول إلى مسكنه . ولكن إرلند قال إنه يريد منه مرافقته للقيام بجولة حول أبنية المزرعة أولاً ، على أن تذهب كريستين معهما . "لقد صارت المزرعة ملكاً لها الآن ، وهي تفهم في هذه الأمور أكثر مني يا ستاين ." قال هذا ضاحكاً . كان هناك مزارعون آخرون أيضاً وصلوا ليكونوا شهوداً ؛ وكان بعضهم من مستأجري أراضي إرلند .

كان ستاين قد وصل إلى المزرعة في آخر يوم من أيام العقد ، وكان منذ ذلك الحين يرجو أن يصل مالك الأرض ويرى حالة الأبنية لدى استلامه لها ، أو سيرسل رجاله لينوبوا عنه . وقد شهد المزارعون الآخرون بأن أياً من الأبنية لم يكن صاداً للريح والمطر ، وأن تلك الأبنية التي تداعت لم تكن في حال أفضل حين وصل ستاين . لاحظت كريستين أنها كانت مزرعة جيدة ، ولكن دون عناية ملائمة بها . استطاعت أن ترى أن ستاين هذا كان مجداً في عمله . وكان إرلند أيضاً منطقياً ووعده ببعض السماح في الإيجار حتى يتم ترميم الأبنية .

ثم دخلا إلى المنزل الرئيسي ووجدا المائدة وقد أعدت بطعام طيب وجعة قوية . رجت زوجة المزارع كريستين أن تسامحها لأنها لم تخرج لمقابلتها . قالت إن زوجها لن يسمح لها بالخروج تحت السماء حتى تكون قد دخلت الكنيسة بعد إنجابها . حيّت كريستين المرأة بلطف وجعلتها

تقودها إلى المهد لترى الطفل . كان الطفل الأول لهذه العائلة : كان صبياً في يومه الثاني عشر ، وكان كبير الحجم قوي البنية .

ثم اقتيد إرلند وكريستين إلى المقعد العالي ، وجلس الناس جميعاً وأكلوا وشربوا لفترة طويلة . كانت كريستين هي التي تكلمت خلال الوجبة أكثر من غيرها . أما إرلند فلم يقل سوى القليل ، ولم يقل الفلاحون الكثير . ولكن كريستين فكرت أنها استطاعت أن تلاحظ أنهم أحبوها جيداً .

ثم استيقظ الطفل وبدأ أولاً بالنشيج ثم صرخ على نحو مخيف حتى اضطرت أمه إلى إحضاره وتلقيمه ثديها لتوقف صراخه . نظرت كريستين أكثر من مرة نحو الأم والطفل ، وحين شبع الطفل وهدأ ، أخذته من المرأة ووضعته على ذراعها .

قالت : "انظر يا زوجي! أليس هذا وغداً جميلاً وشرهاً ؟

قال زوجها دون أن ينظر في اتجاهها : "لا شك في ذلك ."

جلست كريستين تحمل الطفل لفترة قصيرة قبل أن تعطيه لأمه .

قالت : "سأرسل هدية لابنك الصغير هذا يا آندريس ، لأنه أول طفل أحمله بين ذراعي منذ أن وصلت إلى هنا شمالاً من دوفر ."

نظرت بحرارة وتحد وبابتسامة صغيرة إلى زوجها ثم إلى صف الفلاحين الجالسين على المقعد الطويل . كان هناك أقل القليل من الارتعاش على زوايا فم واحد أو اثنين منهم . ولكنهم حدقوا إلى الأمام على الفور ، وقد اعترتهم الرزانة . ثم وقف شخص عجوز جداً كان قد سبق له وأكثر من الشراب . أخذ المغرفة من وعاء الجعة ، ووضعها على المائدة ورفع الوعاء الثقيل عالياً :

"إذن سنشرب نخبك أيتها السيدة مع أمنية : نتمنى أن يكون الطفل

التالي الذي ستحملينه بين ذراعيك هو سيد هوسابي!" نهضت كريستين وتناولت الوعاء الثقيل . أولاً رفعته إلى زوجها ، ولكن إرلند مسّه فحسب بشفتيه ، ولكن كريستين عبّت عبّاً عميقاً وطويلاً .

قالت : "شكراً على الأمنية الطيبة يا يون الغابات ." وأومأت برأسها إليه ، ووجهها مترع بالنور والفرح . ثم مررت الوعاء .

جلس إرلند هناك وقد تورّد وجهه بلون أحمر داكن ، كما استطاعت كريستين أن ترى ، من الغضب الشديد . لم تكن تشعر الآن بأي شيء عدا الحاجة التي لا مبرر لها إلى الضحك والشعور بالسعادة . بعد فترة ، أعطى إرلند إشارة النهوض ، وانطلقا في رحلة العودة .

•

كانا قد قطعا شوطاً طويلاً دون كلام ، حين حطم إرلند الصمت فجأة :

"هل تعتقدين أنه كانت هناك حاجة لجعل فلاحينا يعرفون أنك كنت حاملاً حين عقد قرانك ؟ يمكنك أن تراهني بروحك على أن هذه الحكاية عنا نحن الاثنين ستكون قد وصلت إلى مسامع كل أبرشية في غروندهايم فيورد بأسرع ممّا تتوقعين..."

لم تجب كريستين . نظرت إلى الأمام مباشرة من فوق رأس حصانها ، ثم شحب وجهها حتى اعترى إرلند الخوف .

قالت أخيراً دون أن تنظر إليه : "لن أنسى أبداً أن هذه كانت أول تحية لابنك الصغير الذي هو تحت زناري ."

قال إرلند متوسلاً : "كريستين!" ثم قال برجاء : "يا كريستين" ، حين لم تجب ، ولم تنظر إليه . "كريستين!"

قالت بلهجة باردة متحفظة دون أن تلتفت برأسها : "سيدي ؟"

شتم إرلند غاضباً ، ثم همز حصانه واندفع إلى الأمام على امتداد الطريق . ولكنه عاد بعد قليل ليقابلها .

قال : "لقد أغضبتني إلى حد أني كنت على وشك أن أنطلق في طريقي وأتركك لوحدك ."

أجابت كريستين بهدوء : "و لو فعلت ذلك ، لربما كان عليك أن تنتظر طويلاً وطويلاً جداً قبل أن ألحق بك إلى هوسابي ."

قال الرجل يائساً : "عجباً كيف تتكلمين!"

و من جديد قطعا مسافة دون كلام . ثم وصلا إلى مكان كان فيه ممر ضيق يؤدي إلى حافة جبل . قال إرلند لزوجته :

"لقد كنت عازماً على الذهاب إلى البيت من هذا الدرب فوق الجبل ، إنه أبعد قليلاً ، ولكني كنت أتوق إلى اصطحابك إلى هذا المكان في وقت من الأوقات ."

أومأت كريستين برأسها بفتور .

بعد فترة قصيرة قال إرلند إنه من الأفضل لهما أن يسيرا على الأقدام . ثم ربط حصانيهما إلى شجرة .

قال : "كان لأخي غونولف قلعة على قمة الجبل هنا . وأريد أن أرى إن كان قد تبقى من قلعتنا شيء..."

أمسك بيدها . تركته يمسك بها ، ولكنها مشت وهي تنظر إلى الأرض ، إلى حيث تمشي . ولم يمر وقت طويل حتى وصلا إلى القمة . عبر الغابات التي غطاها الصقيع في وادي النهر الصغير شاهدا هوسابي على جانب

الجبل أمامهما ، كانت واسعة الامتداد ورائعة ، بكنيستها الحجرية والأبنية الضخمة الكثيرة ، والأراضي الواسعة المفلوحة من حولها والمنحدرات الداكنة المغطاة بأحراج الصنوبر .

قال إرلند بصوت خفيض : "كانت أمي تأتي معنا إلى هنا... غالباً . ولكنها كانت تجلس دائماً وتحدّق جنوباً ، نحو دوفرفييلد . أعتقد أنها كانت تتوق في البداية وفي النهاية إلى مغادرة هوسابي . أو كانت تلتفت أحياناً نحو الشمال وتنظر نحو الوادي الجبلي حيث ترين الجبال الزرقاء والبعيدة إلى ما وراء الزقاق البحري . لم تكن تنظر إلى هوسابي أبداً ."

كان صوته رقيقاً ومتوسلاً . ولكن كريستين لم تتكلم ولم تنظر إليه . سرعان ما ابتعد عنها وبدأ يرفس نباتات الخلنج المتجمدة :

"لا ، لا أستطيع أن أرى أن أي شيء قد بقي من قلعتنا ، قلعة غونولف وقلعتي . هذا صحيح ، فقد مرّ وقت طويل منذ أن كنا نلعب هنا ، غونولف وأنا..."

لم يكن هناك جواب... هناك إلى الأسفل حيث وقفا سابقاً كانت بركة متجمدة... تناول إرلند حجراً ورماه فوق الجليد . كانت البركة متجمدة حتى قاعها ، لذلك فإن الحجر رسم نجمة بيضاء صغيرة فحسب فوق المرآة السوداء . تناول إرلند حجراً آخر ورماه بقوة أكبر... ثم ثالثاً فرابعاً ، حتى كان في النهاية يمطر البركة بالأحجار بجنون ، وقد صمم على تكسير الجليد كله . ثم لمح وجه زوجته... كانت واقفة هناك وعيناها داكنتان بالاحتقار ، تبتسم بازدراء على تصرفه الطفولي .

التفت إرلند بحدة ، ولكن كريستين شحبت في اللحظة نفسها شحوب الموتى ، وأغمضت عينيها . وقفت وهي تقبض الهواء بيديها ، وتترنح

وكأنها على وشك السقوط... ثم تمسكت بجذع شجرة واستندت إليه .

سأل خائفاً : "كريستين... ما الأمر ؟"

لم تجب ، بل وقفت كأنها تصغي إلى شيء ما . كانت عيناها بعيدتين وغريبتين .

لقد أحست بذلك مجدداً . ففي أعماقها كانت تحسّ وكأن هناك سمكة تحرك ذيلها . ثم بدا لها مجدداً وكأن الأرض كلها كانت تترنح فيما حولها ، فشعرت بالدوخة والوهن ، ولكن على نحو أقل الآن ممّا سبق .

قال إرلند مجدداً : "ما خطبك ؟"

كانت قد انتظرت هذا كثيراً... ولكنها لم تكن تجرؤ على الاعتراف لنفسها بألم الانتظار . لم تكن قادرة على البوح بذلك... وخاصة الآن بعد ذلك اليوم كله من الشجار . ولكنه قالها أخيراً :

"هل هو الطفل الذي ينمو بسرعة في أحشائك ؟" سأل بصوت خفيض ، وهو يلمس كتفها .

في تلك اللحظة نسيت كل غضبها ضده ، وتمسكت بوالد الطفل وخبأت وجهها في صدره .

•

و سرعان ما هبطا إلى المكان الذي ربطا فيه جواديهما . كان النهار القصير قد قارب على الانقضاء . إلى الخلف منهما في الجنوب الغربي ، كانت الشمس تهبط وراء رؤوس الأشجار ، كرة حمراء ضبابية في السديم الجليدي .

اختبر إرلند حزام وأبازيم سرج حصان زوجته بعناية قبل أن يرفعها إليه . ثم ذهب وحرّر حصانه . تحسس حزامه بحثاً عن قفازيه اللذين حشرهما هناك ولكنه لم يجد سوى واحد منهما . بدأ يتطلع فيما حوله عند المنحدر .

لم تستطع كريستين أن تغالب القول :

"لا فائدة من البحث عن قفازك هنا يا إرلند ."

قال : "كان عليك أن تخبريني حين رأيتني أسقطه ، رغم أنك كنت غاضبة مني كما لم يسبق لك من قبل ." كان هذان القفازان هما اللذان حبكتهما له كريستين وأهدتهما له ضمن هدايا الخطوبة .

قالت كريستين بصوت خفيض جداً وبعينين مسبلتين :

"لقد سقط منك حين ضربتني ."

وقف إرلند قرب كتف حصانه ويده على قوس السرج . بدا خجولاً وحزيناً . ولكنه بدأ يضحك على حين غرة :

"لم يسبق لي أن حلمت يا كريستين –في تلك الأيام التي كنت أخطب فيها ودّك ، وأنا أتجول متوسلاً أقربائي أن يخطبوك باسمي ، حين كنت أذلّ نفسي لأكسبك – أنك قد تكونين جنيّة إلى هذا الحد!"

عندها ضحكت كريستين أيضاً :

"لا... فلو أنك فعلت ، لكنت تخليت عن مطلبك قبل ذلك بوقت طويل... ولاشك أن ذاك كان في مصلحتك ."

سار إرلند خطوتين باتجاهها ووضع يده فوق ركبتها :

"فليكن يسوع في عوننا يا كريستين... هل سبق لك وسمعت أنه سبق لي وقمت بفعل لمصلحتي... ؟"

وضع رأسه على حجرها ونظر بعينين لامعتين إلى وجه زوجته . أحنت كريستين رأسها وقد تضرج وجهها وشعرت بالسعادة ، وحاولت أن تخفي عنه ابتسامتها وعينيها .

قاد حصانها من شكيمته وترك حصانه يلحق بهما ، وسارا على هذا النحو حتى هبطا من الجبل . وفي كل مرة كان ينظر فيها إليها ، كان يضحك ، وكانت هي تلتفت بعيداً برأسها حتى لا يرى أنها كانت تضحك أيضاً .

قال بمرح حين وصلا إلى الطريق مجدداً : "و الآن سنمضي إلى البيت في هوسابي ، يا كريستين ، وسنكون سعيدين كلصّين!"

٢

في مساء عيد الميلاد ، هبت الرياح وهطل وابل من الأمطار . لم يكن ذاك طقساً ملائماً لركوب مزالج الجليد ، لذلك اضطرت كريستين للبقاء في البيت حين انطلق إرلند وجماعته إلى قداس منتصف الليل في كنيسة بيرغسي .

وقفت في مدخل المنزل الرئيسي وراقبتهم وهم يبتعدون . كانت مشاعل جذور التنوب التي يحملونها تلتمع حمراء فوق جدران المنزل القديم المعتم ، وكانت تنعكس على صفحة الماء المتجمع في الساحة . أمالت الريح لهيب المشاعل نحو الجانب . وقفت كريستين حتى تلاشت أصوات رحيلهم في الليل .

في الداخل ، في المنزل الرئيسي ، كانت الشموع منارة فوق اللوح الخشبي . وكانت قد تبعثرت فوقه بقايا وجبة العشاء : العصيدة اللزجة في الأطباق ، شرائح الخبز نصف المأكولة وحسك الأسماك في برك من الجعة المراقة . كانت الخادمات اللواتي سيبقين في البيت قد سبق لهن واضطجعن في أماكن الاستراحة فوق قش الأرضية . كانت كريستين لوحدها في الضيعة

معهن ومع رجل عجوز واحد يدعى "آن" . كان هذا قد خدم في هوسابي منذ أيام جد إرلند . وهو يعيش الآن في كوخ صغير قرب البحيرة ، ولكن غالباً ما كان يأتي إلى الضيعة في وقت النهار ، ويمارس صناعة الفخار ، أي أنه حسب رأيه كان يقوم ببعض العمل . كان "آن" قد نام عند اللوح الخشبي في هذه الليلة ، وكان إرلند وأولف قد حملاه إلى زاوية ، وهما يضحكان ، وقد وضعاه هناك وغطياه بسجادة .

في مثل هذا الوقت ، في يورونداغارد في بيت أهلها ، كان من شأن البيت أن يكون في فورة من النشاط ؛ فقد كانت كل جماعة في البيت تنام في المنزل الرئيسي في الليالي المقدسة في فترة عيد الميلاد . وقبل أن ينطلقوا نحو الكنيسة كان من عادتهم تنظيف بقايا الطعام من وجبة عشاء الصوم ، كما كانت أمها والفتيات يرتبن المائدة على أفضل نحو ، مع الزبدة والأجبان ، وأكوام من شرائح الخبز الرقيقة السمراء ، اللامعة بلحم الخنزير المقدد الأبيض ولحم رسغ الخروف المدخن . كانت الأباريق الفضية وقرون "الميد" تلتمع على المائدة . كما كان أبوها يضع بنفسه براميل الجعة الخشبية على المقعد .

حولت كريستين كرسيّها نحو المدفأة : ما عادت تنظر إلى المائدة القذرة . كانت إحدى البنات تشخر : كان الصوت رهيب الوقع في أذنيها .

كان هذا أحد الأمور التي لم تستطع أن تحبّها في إرلند : ففي بيته كان يأكل بأسلوب قذر ، وينقب في الأطباق بحثاً عن طعام شهي ، ونادراً ما كان يغسل حتى يديه قبل الطعام . ثم كان يدع كلابه تقفز إلى حجره وتختطف كسرات الطعام بينما لا يزال الناس يأكلون . لذلك كان من المتوقع أن يكون الخدم مفتقرين إلى التهذيب على المائدة...

في بيت أهلها كانت قد تعلمت كيف تأكل بأناقة... وببطء . فلم يكن أمراً ملائماً ، كما قالت أمها ، أن يجلس أهل المنزل ينتظرون بينما يأكل الخدم ؛ كما أن أولئك الذين يكدحون ويتعبون يجب أنْ يمنحوا الوقت الكافي ليأكلوا ويشبعوا .

نادت كريستين برقة الكلبة الصفراء الضخمة التي كانت ترقد مع مجموعة جراء كاملة عند الحافة الحجرية للمدفأة : "غونا" . كانت شديدة النزق حتى أسماها إرلند باسم سيدة منزل راسفولد العجوز ذات المزاج النكد .

همست كريستين : "يا للمسكينة العجوز النحيلة!" وهي تربت على الكلبة حين اقتربت هذه ووضعت رأسها على ركبة كريستين . كان عظم ظهرها حاداً كالمنجل ، كما كانت حلمات أثدائها تكاد تلامس الأرض . كانت الجراء تلتهم أمها تدريجياً . "حسناً ، حسناً يا نحيلتي العجوز المسكينة!"

مالت كريستين برأسها إلى الكرسي ونظرت إلى العوارض التي غطاها السخام . كانت متعبة...

أوه ، كلا... لم تكن أوقاتاً سهلة تلك التي تمر بها ، تلك الشهور التي قضتها في هوسابي . لقد تحادثت مع إرلند في مساء اليوم الذي كانا فيه في ميدالبي . ولقد لاحظت أنه يعتقد أنها كانت تشعر بالمرارة تجاهه لأنه جلب عليها هذه المحنة .

قال همساً : "أتذكر جيداً ذلك اليوم في الربيع حين ذهبنا إلى الغابات شمال الكنيسة . أتذكر جيداً أنك رجوتني أن أدعك بحالك..."

سُرّت كريستين لأنه قال هذا . ففي أوقات أخرى تعجبت دائماً من الأشياء الكثيرة التي يبدو أن إرلند قد نسيها . ولكنه قال الآن :

"لم أصدق أنك يا كريستين تستطيعين أن تحملي كل هذا الحقد الدفين ضدي ، ومع ذلك يبدو عليك اللطف والمرح شأنك دائماً . لأنك لابد قد عرفت منذ فترة طويلة حالتك . كنت أظنك صافية القلب وصريحة كالشمس في كبد السماء..."

قالت بحزن : "آه يا إرلند ، عليك أن تعرف أكثر من أي شخص آخر في العالم أني مارست أساليب سرية وأني كذبت على أولئك الذين وضعوا ثقتهم بي ." ولكنها كانت راغبة في أن يفهم . "لا أعرف إن كنت لا تزال تتذكر يا أعز الناس ، أنه قبل ذلك بزمن طويل ، لم تكن أفعالك تجاهي من النوع الذي يمكن لأي شخص أن يدعوها بالعادلة . ومع ذلك فإن الرب ومريم العذراء يعرفان أني لم أحمل لك الضغينة ، كما أن حبي لك لم يتراجع..."

رقّ وجه إرلند .

قال بصوت خفيض : "هذا ما حسبته . ولكني أعتقد أنك تعرفين هذا أيضاً... ناضلت خلال تلك السنوات لأصحح ما كسرته . إني أجد السلوان في فكرة أن هذه الأمور ستنقضي في النهاية حتى أستطيع أن أكافئك لقاء معاناتك الطويلة وكونك صادقة إلى هذا الحد ."

ثم سألته :

"لقد سمعت عن أخي جدي والليدي بنغتا اللذين هربا معاً من السويد ضد إرادة أهلهما . وقد عاقبهما الرب بالعقم . أو لم تخش في هذه السنوات الأخيرة أن يعاقبنا الرب بالطريقة نفسها... ؟"

ثم قالت له برقة وهي ترتجف :

"عليك أن تصدق يا إرلند أنها كانت مزحة صغيرة لي في الصيف

الماضي حين عرفت لأول مرة بأني حامل . ومع ذلك فقد فكرت... فكرت في أنك لو مُتَّ وتركتني قبل أن نتزوج ، فسأكون أسعد أن تتركني مع طفل من صلبك على أن أُترك وحيدة . كما فكرت في أني لو كنت سأموت وأنا ألِدُ طفلك ، فسيكون ذلك أفضل من ألاّ يكون لك ابن شرعي تضعه مكانك على الكرسي العالي في منزلك حين يكون عليك أن تغادر هذه الدار الدنيا ."

أجاب إرلند بحماسة :

"بالنسبة إليّ ، سأعتبر أن ابني سيكون مكلفاً جداً لو كان سيكلفك حياتك . لا تتحدثي على هذا النحو يا كريستين... ليست هوسابي عزيزة جداً عليّ . على الأقل منذ أن عرفت على وجه الثقة أن (ابني) أورم لن يستطيع أن يرثني أبداً..."

سألته كريستين عندئذٍ :

"أيهمك أمر ابنها أكثر مما يهمك أمر ابني ؟"

"ابنك ؟" ضحك إرلند قليلاً . "كل ما أعرفه عنه هو هذا ، أنه سيأتي إلى هذه الحياة قبل موعده بنصف سنة أو نحو ذلك . أما أورم فقد أحببته منذ اثنتي عشرة سنة..."

بعد برهة سألته كريستين :

"طفلاك هذان... ألا تفتقدهما أحياناً ؟"

أجاب الرجل : "أجل . في السابق غالباً ما كنت أمضي إلى الداخل إلى أوستردال حيث هما لأراهما ."

"تستطيع الذهاب إلى هناك في الشهر السابق على عيد الميلاد هذا" ، هذا ما قالته كريستين بصوت خفيض .

سألها إرلند بتوق : "ألن تكرهي ذهابي ؟"

أجابت كريستين بأنها تعتقد أن هذا هو العمل الصحيح . ثم سألها إن كانت ستمتعض لو أحضر معه طفليه إلى البيت لأجل فترة عيد الميلاد . "سيكون عليك أن تريهما إن عاجلاً أو آجلاً ." ومن جديد أجابت أن هذا يبدو لها على أنه الأمر الصحيح .

خلال غياب إرلند في أوستردال ، عملت كريستين بجد لتحضير الأمور لعيد الميلاد . لقد ضايقها كثيراً أن تتجول في هذا المكان بين هؤلاء الأتباع والخادمات : لقد بذلت جهداً كبيراً لإرغام نفسها على أن تلبس وتخلع ملابسها في وجود خادمتين ، واللتين قال إرلند إنهما ستنامان إلى القرب منها في المنزل الرئيسي . كان عليها أن تذكّر نفسها أنها ما كانت لتستطيع تحمل النوم لوحدها في ذلك المنزل الكبير : حيث كانت امرأة أخرى قد نامت مع إرلند قبلها .

لم تكن خادمات الضيعة أفضل ممّا كان المرء يتوقعه . كان الفلاحون الذين يهتمون جيداً ببناتهم غير راغبين بإرسالهن للخدمة في منزل يعيش فيه السيد في علاقة زنا صريحة مع امرأة متزوجة ، ويجعلها تتحكم بالمنزل . كانت الخادمات كسولات وغير متعوّدات على إطاعة سيدة . ولكن بعضهن بدأن يحببن النظام الجديد الذي أدخلته كريستين ، خاصة وأنها كانت تشارك بنفسها في مهماتهن . لقد أصبحن ثرثارات ومرحات ، بما أن السيدة كانت تصغي إليهن وترد عليهن بلطف وبشاشة . كما أظهرت كريستين لأهل المنزل كل يوم وجهاً هادئاً ولطيفاً . لم تكن توبخ أحداً بقسوة ، ولكن لو أن أي خادمة خالفت أمراً من أوامرها ، كانت السيدة تظن أن الفتاة لا تعرف ما تفعله ، وتريها بهدوء كيف يكون عليها أداء العمل .

هكذا رأت كريستين أباها يعامل الخدم الجدد الذين كانوا يتذمرون : ولم يحدث أن رفض أي رجل في يورونداغارد عملاً أمره به لافرانس مرة ثانية .

و هكذا فقد يمرّ الشتاء هذا العام دون مشاكل . لاحقاً سيكون عليها التخلّص من النساء اللواتي لم تستطع أن تحببهن ، أو اللواتي لم تستطع أن تهذّبهن .

كان هناك عمل واحد لم تستطع أن تسيطر عليه ، إلا حين تتحرر من مراقبة هؤلاء الغريبات . ولكن في الصباحات حين تجلس وحيدة في المنزل الرئيسي ، فإنها كانت تخيط الملابس لطفلها : قماطات من الصوف الناعم ، ورزم من المواد المشتراة ، الحمراء والخضراء ، والكتان الأبيض لثوب حفلة العماد . وبينما جلست تخيط راح ذهنها يتخبط بين الخوف والثقة بأصدقاء البشرية المقدسين الذين صلّت لهم حتى يتدخلوا في صالحها . صحيح أن الطفل كان حياً ويتحرك في جوفها الآن حتى أنها لم تعد تعرف الراحة ليلاً ونهاراً . ولكنها سمعت عن الأطفال الذين يولدون ولهم بطن حيث من المفروض وجود وجه أو برؤوس ملتفتة إلى الخلف أو أصابع قدم حيث يجب أن تكون كواحلهم . واستطاعت أن ترى أمام عينيها "سفاين" الذي له لطخة زرقاء - حمراء فوق نصف وجهه ، لأن أمه أصيبت بصدمة خوف من حريق...

ثم كانت ترمي بأدوات الخياطة وتذهب وتركع أمام صورة مريم العذراء ، وتتلو صلاة "السلام عليك يا مريم" سبع مرات . كان الأخ إدفين قد قال إن أم الرب كانت تمتلئ بمتعة فائقة جداً في كل مرة تسمع فيها تحية "الملاك" ، حتى لو كان ذلك من فم أكثر الخطاة شراً . وكانت كلمتا "ممتلئة نعمة " هما أكثر الكلمات التي تسعد قلب مريم العذراء ، لذلك كان على كريستين أن تكررهما ثلاث مرات .

كان هذا يساعدها لفترة من الزمن .

•

في إحدى الأمسيات بينما كانت جالسة إلى المائدة مع جماعة من المنزل ، قالت إحدى النساء ، وهي شابة تساعد في الأعمال داخل المنزل :

"أعتقد يا سيدتي أنه كان من الأفضل لو بدأنا بخياطة القماطات وملابس الطفل الآن ، قبل أن ننصب هذه الشبكة التي تتحدثين عنها..."

تظاهرت كريستين بأنها لم تسمع ، وتابعت الحديث عن صباغة الشبكة . ثم بدأت الفتاة تقول مجدداً :

"و لكن هل جلبت معك يا ترى ملابس الطفل من بيت أهلك ؟"

ابتسمت كريستين قليلاً والتفتت مجدداً نحو الأخريات . وحين نظرت فيما حولها لاحقاً ، كانت الفتاة جالسة ، وقد احمرّ وجهها ، وراحت تحدق بخوف إلى سيدتها . ابتسمت كريستين مجدداً وبدأت تحادث أولف عبر المائدة . وفجأة ، انفجرت الفتاة باكية . ضحكت كريستين قليلاً ، فبكت الفتاة أكثر فأكثر ، حتى سال أنفها وأعولت .

قالت كريستين أخيراً وبهدوء : "كلا يا فريدا ، لا نريد الكلام عن هذا بعد الآن . لقد جئت إلى هنا كخادمة ناضجة . حاولي ألاّ تتصرفي كطفلة ."

بكت الفتاة –لم تكن تعني أن تكون وقحة– لا يجب على كريستين أن تغضب منها .

قالت كريستين وهي لا تزال تبتسم : "لا . تناولي عشاءك الآن وتوقفي عن البكاء . لا تتحلّى أي منا بذكاء يزيد عمّا منحه الله لها ."

قفزت فريدا من مكانها وخرجت وهي تعدو باكية بمرارة .

لاحقاً ، حين وقف أولف هالدورسون يتحدث مع كريستين عن العمل الذي سيتم في اليوم التالي ، قال ضاحكاً :

"كان على إرلند أن يتزوجك قبل عشر سنوات يا كريستين . لكانت أموره الآن أصلح بكثير من كل النواحي ."

قالت وهي لا تزال تبتسم : "أتعتقد ذلك ؟ في تلك الأيام كان عمري لا يتجاوز تسع شتاءات . أتظن أن إرلند كان ذلك الرجل الذي ينتظر سنوات طويلة عروساً طفلة ؟"

ضحك أولف وخرج .

و لكن في تلك الليلة بقيت كريستين مستيقظة ، وهي تبكي بدموع الوحدة والعار .

ثم عاد إرلند إلى البيت ، في الأسبوع السابق على عيد الميلاد ومعه ابنه "أورم" راكباً إلى جانب أبيه . شعرت كريستين بطعنة مؤلمة تخترق قلبها حين قاد الصبي نحوها وطلب منه أن يحيّي زوجة أبيه .

كان طفلاً جميلاً جداً . فكرت أن ابنها الذي تحمله سيبدو هكذا على الأرجح . حين كانت تتجرأ أحياناً على الشعور بالسعادة ، تتجرأ على أن تثق بأن طفلها سيولد صحيحاً ووسيماً ، وأن تحلم مسبقاً بأن الطفل سينمو إلى جوارها ، فقد كان هذا الطفل يبدو هكذا في حلمها : شبيهاً جداً بأبيه .

كان ربما ضنيل الحجم بالنسبة إلى سنه ، ورقيق الحاشية ، إنما كان ذا شكل حسن وله أطراف حسنة ووجه جميل . كان داكن البشرة والشعر ، إنما له عينان زرقاوان كبيرتان وفم أحمر ناعم . حيّا زوجة أبيه على نحو

مؤدب ، ولكن وجهه كان قاسياً وبارداً . لم تتح لكريستين الفرصة لتحادث الصبي كثيراً . ولكنها أحست بعينيه عليها ، أينما تحركت ، وأحست كأنها كانت تصبح أثقل وأكثر اضطراباً في الجسد والمشية حين كانت تشعر أنه كان يحدق إليها .

لم تلاحظ أن إرلند كان يحادث ابنه كثيراً ، ولكنها استطاعت أن ترى أنه من بين الاثنين كان الصبي هو الذي يتراجع . تحدثت كريستين إلى زوجها عن أورم ، وقالت إنه فتى وسيم وذو ذكاء جيد . لم يكن إرلند قد جلب ابنته معه . كان يعتبر مارغريت أصغر من أن تقوم برحلة طويلة خلال الشتاء . كانت أوسم من أبيها ، كما قال لها باعتزاز حين سألته كريستين عن الفتاة الصغيرة ، وأذكى منه . كانت تستطيع أن تلعب بمربيها بإصبعها الصغيرة . كانت لها خصلات ذهبية مجعدة وعينان بنيتان .

إذن لابد أنها تشبه أمها ، هكذا فكرت كريستين . ورغماً عنها ، راحت الغيرة تنهش قلبها . هل يحب إرلند ابنته كما كان أبوها هي يحبها ؟ كان صوته رقيقاً ودافئاً جداً حين يتحدث عن مارغريت .

•

نهضت كريستين وذهبت إلى البوابة الخارجية . كان الظلام شديداً في الخارج والمطر يهطل بغزارة لذلك لم يكن ممكناً مشاهدة القمر أو النجوم . فكرت على أي حال أن الوقت هو منتصف الليل الآن . أحضرت القنديل من الغرفة الخارجية وأشعلته . ثم لفت نفسها بعباءتها وخرجت في المطر .

همست وهي تصالب على نفسها ثلاث مرات : "باسم المسيح" ، وذلك هي تخطو في الليل إلى الخارج .

في أعلى الساحة كان منزل الكاهن . ورغم أن إرلند كان قد رُفع عنه التحريم الكنسي منذ مدة طويلة ، إلا أنه لم يحضر أي كاهن للسكن في هوسابي . بين الحين والآخر ، كان أحد القساوسة من أوركيدال يأتي ليتلو القداس . ولكن الكاهن الجديد الذي عُيّن للكنيسة كان في بلاد أجنبية مع السيد غونولف . ويبدو أنهما كانا زميلي دراسة . كان متوقعاً وصولهما في الصيف الماضي ، ولكن إرلند قال إنه لن يتوقع وصولهما قبل أواخر الربيع القادم . لقد أصيب غونولف بمرض رئوي في صغره ؛ وكان لا يستطيع إلا بالكاد السفر في الشتاء .

خرجت كريستين إلى البناء البارد الفارغ ووجدت مفتاح الكنيسة . ثم توقفت لبرهة . كانت الأرض زلقة والعتمة شديدة وكانت هناك الريح والمطر . كان أمراً محفوفاً بالخطر خروجها ليلاً في مثل حالتها ، خاصة في ليلة عيد الميلاد ، حين تكون كل الأرواح الشريرة في الجو . ولكنها لم تستطع التخلي عن نيّتها ؛ عليها أن تدخل الكنيسة .

همست في العاصفة : "باسم الرب القادر على كل شيء أدخل إلى هذا المكان" . وإذ أنارت لنفسها الطريق بالقنديل ، فقد خطت بحرص حيث برز العشب والأحجار فوق قشرة الجليد . في العتمة بدا الطريق إلى الكنيسة طويلاً ، ولكنها وقفت أخيراً على حجر العتبة .

في الداخل ، كان البرد قارساً ، أبرد بكثير من الخارج تحت المطر . مضت كريستين نحو الأمام إلى الهيكل وركعت أمام الصليب الذي كان يومض على نحو باهت من فوقها .

بعد أن تلت صلواتها ونهضت ، وقفت ساكنة لبعض الوقت . كأنما كانت تنتظر أن يحدث شيء لها . ولكن لم يحدث أي شيء . كانت بردانة

وخائفة في الكنيسة المعتمة المهجورة . مشت إلى المذبح ببطء وقربت قنديلها من الصور . كانت صوراً قديمة وقاسية وقبيحة . كانت طاولة المذبح من الحجر العاري : كانت تعرف أن أغطية المذبح القماشية والكتب والأوعية مودعة في خزانة .

في صحن الكنيسة كان مقعد يمتد على طول الجدار . مشت كريستين إليه وجلست وقد وضعت قنديلها فوق الأرض . كانت عباءتها مبللة أما قدماها فكانتا رطبتين وباردتين . حاولت أن تضع إحدى قدميها تحتها ، ولكن آلمها الجلوس فوقها . لذلك لفّت عباءتها جيداً من حولها ، وحاولت تجميع وتركيز أفكارها على شيء واحد ، أن ساعة منتصف الليل المقدسة قد حلّت مجدداً ، حين ولد المسيح نفسه من مريم العذراء في بيت لحم .

(والكلمة ، صار جسدا وحل بيننا)

(إنجيل يوحنا)

تذكرت صوت سيرا آيريك العميق والواضح . وكذلك أودون الشماس العجوز الذي لم يكن أي شيء آخر إلاّ شماساً . وتذكرت كنيستهم في بيت أهلها حيث كانت تقف إلى جانب أمها وتصغي إلى قداس عيد الميلاد . في كل سنة كانت تصغي إليه . حاولت أن تتذكر مزيداً من الكلمات المقدسة ، ولكنها لم تستطع أن تفكر بأي شيء آخر عدا الكنيسة وكل الوجوه المألوفة . إلى أبعد نقطة في المقدمة ، حيث قسم الرجال ، كان أبوها يقف ويحدق بعينين شاردتين إلى وهج النور من المكان المخصص لجوقة المرتلين .

كان أمراً لا يصدق أن كنيستهم قد اندثرت . فلقد احترقت بكاملها .

انفجرت باكية عندما تذكرت هذا . وهاهي تجلس هنا لوحدها في هذه الليلة ، حين كان كل المسيحيين مجتمعين معاً في فرح وسعادة في بيوت الرب . ولكن بدا لها أن الأمر كان كما يجب أن يكون : أنها كانت محظورة هذه الليلة من الاحتفال بمولد ابن الرب من عذراء طاهرة نقية... لا شك أن أباها وأمها كانا في سوندبو في عيد الميلاد هذا . لن يكون هناك قداس هذه الليلة في المعبد هناك . كانت تعرف أنه في ليلة عيد الميلاد كان سكان سوندبو يتجهون إلى الكنيسة في لادالم للاستماع إلى القداس هناك .

كانت تلك أول مرة ، بقدر ما تستطيع ذاكرتها أن تعود إلى الوراء ، لا تحضر فيها قداس عيد الميلاد . لا شك أنها كانت صغيرة جداً عندما اصطحبها أبوها وأمها معهما . فقد كانت قادرة على تذكر أنهما حشراها في كيس من جلد الخروف في داخله صوف ، وكيف حملها والدها بين ذراعيه . كانت تلك ليلة باردة إلى حد مخيف ، وقد عبرا غابة : كان نور مشاعل جذور التنوب يومض فوق أشجار الصنوبر المثقلة بالثلج . كان وجه أبيها أحمر أرجوانياً في الوهج ، بينما كانت الحافة الفراء لقلنسوته بيضاء كالثلج من الجليد . بين الحين والآخر كان يحني رأسه قليلاً ويعض أرنبة أنفها ، ويسألها إن كانت قد شعرت بالعضّة . ثم كان ينادي على أمها ملتفتاً إليها ضاحكاً قائلاً إن أنف كريستين لم يكن قد تجمد تماماً بعد . حدث ذلك حين كانوا لا يزالون يسكنون في سكوغ لابدّ : كان عمرها ثلاثة شتاءات فقط . في تلك الأيام كان أبوها وأمها لا يزالان شابين بعد . تذكرت الآن صوت أمها في تلك الليلة : عالياً وسعيداً ومليئاً بالضحك وهي تنادي على زوجها وتسأل عن الطفلة . أجل ، كان صوت أمها شاباً ونضراً عند ذاك...

... بيت لحم... تعني هذه الكلمة باللغة النرويجية مكان الخبز الثقيل . فقد منح إلى الرجال الخبز الذي يغذي الحياة الأبدية...

في يوم القداس النهاري دخل سيرا آيريك إلى المقرأ وترجم الإنجيل إلى لغة هذا الشعب .

بين القداسات كان الناس يجلسون في أكواخ الضيوف شمال الكنيسة . كانوا يحتسون الشراب والأكواب كانت مستديرة . بين الحين والآخر كان الرجال يخرجون إلى مرابط الجياد ليطمئنوا عليها . ولكن في ليالي العيد في أوقات الصيف كان كل من سكان الأبرشية يسهرون خارجاً على مرج الكنيسة ، وكان الشبان يرقصون بين الصلوات .

و لفّت العذراء المباركة مريم ابنها بالقماط . ثم وضعته في المعلف الذي اعتادت الثيران والحمير على الأكل منه...

ضغطت كريستين يديها بقوة على جبينها .

ابني الصغير ، يا أحلى ابن ، يا ابني أنا ، سيرحمنا الرب لأجل أمه المباركة . يا مريم المباركة ، أنت يا ألمع نجمة في البحر ، أنت يا فجر الحياة الأبدية ، التي ولدت شمس العالم كله... ساعدينا! يا طفلي الصغير ما الذي يقلقك هذه الليلة حتى تكون مضطرباً كل هذا الاضطراب... ألا تستطيع أن تشعر ، حتى تحت قلبي ، أني مقرورة إلى ذلك الحد المرير... ؟

في قداس كيلدار في عيد الميلاد الماضي ، كان سيرا آيريك قد قرأ من الإنجيل ما يتعلق بالأطفال الأبرياء الذين ذبحهم الجنود القساة بين أذرع أمهاتهم . ولكنّه قال إن الرب قد اختار هؤلاء الأطفال الصغار ليدخلوا قاعة الجنة قبل كل الشهود من الأقارب . وكانت تلك علامة على أن ملكوت السماء هو من أطفال كهؤلاء . ثم أخذ الرب طفلاً ووضعه في وسطهم . وإن لم تجعلوا أنفسكم مشابهين لهؤلاء ، أيها الأخوة والأخوات ، لن تستطيعوا دخول قاعات ملكوت السماء . وليكن في هذا سلواناً للجميع ، رجالاً

ونساء ، ممّن ثكلوا بأطفالهم الصغار... عند ذلك رأت كريستين عيني أبيها تقابل عيني أمها عبر الكنيسة . ثم نظرت هي بعيداً بسرعة ، لأنها عرفت أنه لم يكن لها دور في ذلك .

حدث ذلك في العام الماضي . أول عيد ميلاد بعد وفاة أولفهيلد . أوه ، ولكن ليس طفلي أنا! أيها المسيح ، يا مريم! دعوني أحتفظ بابني!

كان أبوها كارهاً الذهاب إلى موكب ركوب القديس ستيفن في العام الماضي... ولكن جميع الرجال : الرجال كلهم رجوه وتوسلوا إليه حتى انضم إليهم أخيراً . انطلق الموكب من مرج الكنيسة قرب المنزل وانطلق عدواً إلى ملتقى النهرين في لوبتسغارد . وهناك التقوا بالرجال القادمين من أوتادال . تذكرت أباها وهو يندفع عبر الحشد على حصانه الكميت الذهبي : وقف في ركابه وانحنى إلى الأمام مع عنق حصانه ، وهو يصيح ويهتف على الحصان ، والموكب كله يهدر من خلفه .

و لكن في العام الماضي عاد أبوها باكراً إلى البيت ، وقد وصل وهو صاح تماماً . في السنوات الأخرى اعتاد الرجال أن يصلوا في وقت متأخر في مثل ذلك اليوم ، وقد ثملوا إلى أقصى حد . فقد كان عليهم زيارة المزارع على الطريق وشرب الأنخاب التي تُحضر إليهم كنخب المسيح والقديس ستيفن ، الذي كان أول من رأى النجمة في الشرق وهو يقود أمهار الملك حيرود إلى نهر الأردن ليسقيها . حتى الجياد كانت تُسقى الجعة في ذلك اليوم حتى تثور وتجمح . في عيد القديس ستيفن كان المزارعون منهمكين دائماً بمباريات الأحصنة حتى المساء... وكان صعباً جعل الرجال يفكرون بأي شيء أو يتحدثون بأي شيء عدا الجياد...

تذكرت إحدى أعياد الميلاد حين أقيم حفل الشراب الكبير في

يورونـدغارد ، كـما أن أباها وعد الـكاهن الـذي كان بيـن ضيوفه أنه سيـهـديه مهراً صغيراً كميتاً ، هو ابن غولـدسفاينن ، إن استـطاع الإمساك بـه وإرجاعه القهقرى ، وهو يعدو حراً ودون سرج في الساحة .

لقد مرّ وقت طويل على ذلك - قبل حادث أولفهيلد . كانت أمهما تقف عند باب المـنزل وأختها الصغيرة على ذراعها ، بـينمـا وقفت كريـستيـن وهي تتشبث بتنورتها... خائفة قليلاً .

عدا الـكاهـن وراء الحصـان ، أمسـك بـالـرسـن وقـفـز عن الأرض حتـى أن رداءه الطويـل طار من كل الجوانـب . ولكنه اضطر إلـى تحرير الحصـان الناري الذي شـب على قائمـتيه الخلفيتيـن مجدداً . غنّى الـكاهـن وهو يقفز ويـرقص مثل ذكر المـاعز : "هيـا يا مهـري... يا مهـري... هيا يـا مهري ، هيّا ، يا بـنيّ!" وقف أبـوها ومـزارع عجوز هنـاك عـاجزين ، والـواحد منـهمـا ممسكاً بـالآخر ، وقد حرفت ملامحهما من الضحك والشراب القوي .

إمّا أن الكاهن ربح الرهان وكسب المهر ، أو أن لافرانس قد أعطاه إياه دون أن يستحقه ، لأن كريـستين تـتذكر أنه كـان يركبه وهو يغادر الضيعة . ثـم كانـوا جميعـاً في حالـة كافية من الـصحو . وحين ركـب الـكاهـن الـمهر ، أمسـك لافـرانـس بـالـركـاب لـه بإجلال كـبـيـر ، فبـاركـهم بـثلاث أصابع وهو يودعهم . كان يبدو ككاهن له بعض الوقار...

أجل كان بيـت أهلها شـديد الـمرح غالبـاً في فتـرة عيد المـيلاد . كـان هناك وصـول الـمهرجيـن أيضـاً . رماها أبوهـا على ظهـره ، وشعـرت بـمـعـطفـه مثلجاً وشعـره رطبـاً . وحتـى يصحـو الرجال قبـل الذهـاب إلى صلاة المـساء ، مضى الرجال إلى البئر وصبوا ماء مثلجاً الـواحد فوق الآخر . كانوا يـضحكون حين كـانـت الـنـاس تـؤنـبـهـم على ذلك . كـان أبـوهـا يـأخذ بـيديـهـا الصـغيـرتيـن

الباردتين ويضغطهما على جبينه الذي كان أحمر وساخناً ما يزال . وكان هذا في الساحة خارجاً ، في المساء ؛ وكان هناك قمر فضي أبيض صغير معلق فوق سلسلة الجبال في السماء الخضراء كالحبر . وحين كان يحملها إلى القاعة ، صدمت رأسها خطأ بأعلى الباب ، بحيث برز لها في جبينها ورم كبير . لاحقاً جلست على حجره عند اللوح الخشبي . وضع هو مقبض خنجره على الورم وأطعمها الأطعمة الشهية وسمح لها بشرب الميد من كأسه . وبينما كانت تجلس هناك لم تكن تشعر بالخوف من المهرجين المقنّعين الصاخبين الذين كانوا يثبون في أرجاء القاعة .

... يا أبي ، يا أبي... يا أبي اللطيف العزيز!

أخفت كريستين وجهها بيديها وهي تبكي بصوت مرتفع . أوه ، لو أن أباها يعرف كيف هي حالها في أمسية عيد الميلاد هذه!

•

حين عادت إلى المنزل الرئيسي ، رأت شراراً يتطاير فوق سطح المطبخ . كانت الخادمات يحضرن الطعام لأولئك الذين مضوا إلى الكنيسة .

كانت القاعة معتمة . فالشموع على المائدة قد انطفأت والموقد أسود تقريباً . وضعت كريستين المزيد من الحطب ونفخت على الجمر . ثم لاحظت أن أورم كان يجلس في كرسيها . لكنه نهض ما إن رأته .

قالت كريستين : "أورم . ألم تذهب إلى القداس مع أبيك والآخرين ؟"

بلع أورم ريقه مرة أو مرتين :

"لا شكّ أنه نسي أن يوقظني على ما أعتقد . لقد أمرني أن أنام قليلاً في السرير الجنوبي . قال إنه سيوقظني ."

قالت كريستين : "يا للأسف يا أورم" .

لم يجب الصبي . خلال فترة وجيزة قال :

"ظننت أنك قد ذهبت معهم على أي حال... لقد استيقظت ووجدت نفسي وحيداً في القاعة ."

قالت كريستين : "ذهبت إلى الكنيسة لبعض الوقت ."

سألها الغلام : "و هل تجرأت على الذهاب إلى هناك في ليلة عيد الميلاد ؟ ألا تعرفين أن موكب أسغاردس كان يمكن أن يمرّ ويأخذك بعيداً... ؟"

أجابت : "أعرف أن ليس الأرواح الشريرة فحسب هي التي تكون خارجة في هذه الليلة . ففي ليلة عيد الميلاد كما يقولون تخرج كل الأرواح... -عرفت راهباً ذات مرة وهو ميت الآن... وأنا واثقة تماماً من أنه واقف أمام وجه الرب ، إذ لم يكن فيه شيء آخر عدا الخير . وقد حكى لي مرة... هل سمعت عن الحيوانات في حظائرها وكيف تتحادث مع بعضها في ليلة عيد الميلاد ؟ كانت قادرة على النطق باللاتينية في تلك الأيام . لذلك صاح الديك : "و كريستوس ناتوس إست" (المسيح قد ولد) ، كلاّ ، لا أتذكر القصة كلها . ولكن الحيوانات الأخرى سألت : "أين ؟" فأجابت العنزة وهي تثغو : "بيت لحم... بيت لحم..." وقالت الغنمة : "إياموس ، إياموس..."

ابتسم أورم بازدراء .

"أتظنينني طفلاً إلى هذا الحد حتى أنك تريدين أن تواسيني بحكايات المربيات... ؟ لم لا تعرضين عليّ أن تجلسيني في حجرك وترضعيني... ؟"

قالت كريستين بهدوء : "أعتقد أني حكيتها لأواسي نفسي على الأغلب يا أورم . فأنا أيضاً وددت الذهاب معهم إلى القداس ."

شعرت الآن أنها ما عادت قادرة على احتمال النظر إلى المائدة القذرة المغطاة بالبقايا . ذهبت إليها وجمعت البقايا كلها في طبق ثم وضعته على الأرض لأجل الكلاب . ثم أخرجت الممسحة المصنوعة من أعشاب البردي من تحت المقعد ومسحت الطاولة ثم جففتها .

سألت كريستين : "هل تود القدوم معي إلى المخزن الغربي يا أورم ، لإحضار الخبز واللحم المملح ؟ ثم سنجهز المائدة لصباح عيد الميلاد ."

سأل الغلام : "لم لا تأمرين خادماتك بذلك ؟"

قالت الزوجة الشابة : "لقد تعلمت في بيت أبي وأمي أنه في عيد الميلاد لا يجب أن يطلب أحد شيئاً من شخص آخر ، ولكن على كل شخص أن يبذل جهده ليفعل الأفضل . والشخص الذي ينال البركة أكثر من الكل هو الذي يخدم الجميع خلال الأيام المقدسة كلها ."

سأل أورم : "و مع ذلك أنت تطلبين مني طلباً الآن ."

"الطلب منك أمر آخر... فأنت ابن البيت ."

أخذ أورم القنديل وذهبا معاً عبر الساحة . في المخزن ملأت كريستين طبقين كبيرين بطعام عيد الميلاد وجلبت شمعتين كبيرتين . وبينما كانا يقومان بهذا العمل ، قال الصبي :

"أعتقد أن ما تحدثت به للتو هو أسلوب يخص المزارعين . فقد سمعت أن لافرانس بيورغولفسون مجرد مزارع يرتدي الصوف الخشن غير المصبوغ ؟"

سألت كريستين : "ممّن سمعت هذا ؟"

قال أورم : "من أمي . لقد سمعتها مرات كثيرة تقول لأبي حين كنا

نعيش في هوسابي من قبل ، إنه سيرى الآن أنه حتى مزارع يرتدي اللون الرمادي لن يزوجه من ابنته ."

قالت كريستين بعد وقت قصير : "لقد كانت هوسابي بيتاً يبعث السرور في تلك الأيام ."

لم يجب الصبي ولكن فمه ارتجف قليلاً .

حملت وأورم الأطباق المليئة إلى القاعة ، ورتّبت هي المائدة للوجبة . ولكن كانت هناك أمور ناقصة لا تزال ، ويجب إحضارها من المخزن . أخذ أورم طبقاً وقال ببعض الخجل :

"سأذهب لأجلك يا كريستين . الأرض زلقة في الساحة ."

وقفت خارج الباب وانتظرته حتى عاد .

لاحقاً ، جلسا عند الموقد... هي في الكنبة والصبي على كرسي واطئ إلى القرب منها . بعد فترة قال أورم إرلندسون بصوت خفيض :

"إحك لي المزيد بينما نحن جالسان هنا يا زوجة أبي ."

سألت كريستين باللهجة نفسها : "أحكي لك... ؟"

قال الصبي بخجل : "أجل... حكاية أو ما شابهها... شيء يلائم ليلة عيد الميلاد ."

استندت كريستين في كرسيها وهي تمسك بين يديها رؤوس الحيوانات المحفورة عند نهاية ذراع الكنبة .

"ذاك الراهب الذي ذكرته قبل قليل ، كان في انكلترا أيضاً . وقد اعتاد أن يقول إن هناك مكاناً فيها تنمو فيه نباتات شوكية تزهر زهوراً بيضاء في كل ليلة عيد ميلاد . لقد هبط القديس جوزيف أوف أريماثيا إلى أرض في

الريف وهو هارب من وجه الوثنيين ، وهناك أقحم عصاه في الأرض ، إلا أنه نمت لها جذور وأزهرت . كان أول من جلب الدين المسيحي إلى بريتلاند . يسمى ذلك المكان غلاستونبورغ... تذكرت الآن . لقد رأى الأخ إدفين تلك الشجيرات بنفسه... لقد دفن هناك في غلاستنبورغ ، مع ملكته ، أعني الملك آرثر الذي سمعت عنه... هو ذاك الذي يُعد بين الأبطال السبعة للمسيحية .

"يقولون في إنكلترا إن صليب المسيح مصنوع من خشب جار الماء . ولكننا اعتدنا في بيت أهلي أن نحرق الدردار في الأيام المقدسة . فقد صنع القديس جوزيف النار من خشب الدردار ، حين أراد أن يشعل ناراً لأجل مريم وابن الرب حديث الولادة . وقد سمع أبي أيضاً عن الأخ إدفين..."

قال الصبي : "و لكن القليل من الدردار ينمو هنا إلى الشمال من دوفر . لقد استهلكوه في الأيام الغابرة لصنع الرماح ، كما تعلمين . لا أعرف بوجود شجرة دردار واحدة في كل أراضي هوسابي عدا تلك التي تقف عند البوابة الشرقية للساحة وأن أبي لا يستطيع قطعها ، حيث أن "براوني" يسكن تحتها... ولكن يا كريستين أتمنى لو أنهم يضعون "الصليب المقدس" نفسه في رامبورغ . لا شك أنهم يستطيعون أن يكتشفوا أنه مصنوع فعلاً من شجر جار الماء..."

قالت كريستين : "أجل . لا أعرف إن كان ذلك صحيحاً . فأنت تعرف أنه يقال إن الصليب كان مصنوعاً من فرع من "شجرة الحياة" ، تلك التي مُنح "شيث" نعمة إحضارها من جنة عدن وحملها إلى آدم قبل أن يموت ."

قال أورم : "أجل ، ولكن احكها لي ."

بعد برهة قالت كريستين للصبي :

"سيكون أمراً حسناً أن تنام قليلاً الآن يا قريبي . لن يعودوا من الكنيسة قبل وقت طويل ."

نهض أورم واقفاً .

"نحن لم نتعاهد بعد على أن نكون قريبين يا كريستين لافرانسداتر ، وذلك بأن نشرب نخب أحدنا الآخر ."

مضى وجلب قرن شراب من المائدة وشرب نخب زوجة أبيه ثم ناولها القرن .

أحست كأن جدولاً مثلجاً جرى هابطاً ظهرها . لم تستطع سوى أن تتذكر تلك الساعة حين أرادت أم أورم منها أن تشاركها الشراب . وتحرك الطفل الذي في رحمها بقلق . كيف هو الليلة ؟ هكذا فكرت الأم . لكأن الطفل الذي لم يولد بعد كان يحس بكل ما تحس به هي ، وأنه كان يحس بالبرد حين تكون هي بردانة ، وكان ينكمش خوفاً حين تكون خائفة ، ولكن بما أن الأمر هكذا ، فعليّ ألاّ أكون ضعيفة إلى هذا الحد ، كما فكرت كريستين . أخذت القرن وشربت نخب ابن زوجها .

حين أعادته إلى أورم ربتت بيدها بخفة على شعره الأسود الطويل . لا ، هكذا فكرت كريستين ، لن أكون زوجة أب قاسية معك ، كن على ثقة... أنت يا ابن إرلند الوسيم الوسيم الصغير...

كانت قد أغفت في كرسيها حين وصل إرلند ورمى بقفازيه المتجمدين على المائدة .

سألت كريستين مستغربة : "هل سبق لك وعدتَ ؟ ظننت أنك ستبقى حتى قداس الصباح ."

قال إرلند : "أوه ، إن من شأن قداسين أن يكفياني مدة طويلة . "كانت العباءة التي تناولتها منه كريستين ثقيلة من الجليد . "أجل ، لقد صفا الجو مجدداً ، وهو يتجمد بقوة..."

قالت زوجته : "من المؤسف أنك نسيت أن توقظ أورم" .

سأل الأب : "هل كان منزعجاً من الأمر ؟ ولم تكن المسألة أني نسيت فحسب " ، قال بصوت خفيض . "ولكنه كان نائماً على نحو عميق جداً حتى أني فكرت... ويمكن أن تكوني على ثقة من أن الناس الطيبين فغروا أفواههم بما فيه الكفاية باتجاهي في الكنيسة ، لأني وصلت إلى هناك دونك... ولم يكن في ذهني فوق ذلك كله أن أصطحب الصبي أيضاً معي ."

لم تقل كريستين شيئاً ، ولكن الكلمات جرحتها . لم تعتقد أن إرلند قد تصرف على النحو الصحيح .



٣

لم يريا الكثير من الناس الغرباء في هوسابي في موسم عيد الميلاد ذاك . كان إرلند يرفض الخروج إلى أي مكان يُطلب منه الذهاب إليه ، بل يفضل البقاء في بيته في الضيعة دون مزاج يبعث السرور .

و حقيقة الأمر كانت أن هذه البليّة (حمل الزوجة قبل الزواج) كانت تغضبه أكثر من قدرة زوجته على المعرفة بهذا الغضب . فقد كان تبجّح كثيراً بخطيبته منذ أن ذهب قريباه إلى يورونداغارد ونالا موافقة أبيها . وكان آخر أمر يريده هو أن يعتقد أي شخص بأنه كان يعتبر أهلها أدنى منزلة من أهله... كلا... على الجميع أن يعلموا أنه قد اعتبر نفسه على أنه نال شرفاً ومجداً بأن يقبل لافرانس بيورغولفسون بتزويجه من ابنته . والآن سيقول الجميع إنه عامل الفتاة كما تُعامل ابنة فلاح ، بما أنه تجرأ على تحقير أبيها بمضاجعة ابنته قبل الزواج . خلال حفل زفافه ، ضغط إرلند كثيراً على والديّ عروسه لزيارته في هوسابي في الصيف التالي ليريا كيف هي الأمور هناك . ولم يكن راغباً فحسب في أن يريهم المستوى الجيد الذي ستعيش فيه ابنتهم ، ولكنه كان سعيداً أيضاً بفكرة التجوّل ليراه الناس في صحبة هؤلاء الأقرباء الجدد ذوي المظهر اللائق الجليل ، لأنه كان عارفاً بأن لافرانس وراغنفريد كانا

قادرين على أن يبزّا بحضورهما الجميع أينما كانا . كما أنه كان يظن ، منذ ذلك الحين وقت احترقت الكنيسة ، أن لافرانس أحبه بعض الشيء رغم كل ما حدث . ولكن لم يعد لديه الآن أي سبب يجعله يفكر بأن اللقاء التالي بينه وبين أهل زوجته سيجلب السرور إلى أي من الفريقين .

كان ممّا يثير ضيق كريستين أن يصبّ إرلند سوء مزاجه على أورم غالباً . لم يكن لدى الصبيّ رفاق لعب من سنّه ، لذلك غالباً ما كان مثيراً للمشاكل ولجوجاً . كما كانت له أخطاؤه أيضاً . ففي إحدى المرات أخذ قوس أبيه الفرنسي دون إذن وكسر شيئاً في قفله . غضب إرلند غضباً شديداً ، فلكم أورم على أذنه ، وأقسم أن الصبي لن يلمس قوساً مرة ثانية في هوسابي .

قالت كريستين دون أن تلتفت : "لم تكن تلك غلطة أورم ." كانت جالسة تخيط وظهرها إليهما كليهما . "كان النابض معطلاً حين أخذ القوس ، وقد حاول إصلاحه . لا يجب أن يعوزك الإنصاف حتى تنكر على صبي رائع كابنك استخدام واحد من كل تلك الأقواس التي لديك في المنزل . الأجدر بك أن تعطيه أحد الأقواس الموجودة في خزانة السلاح ."

قال إرلند بغضب : "الأجدر بك أن تمنحيه قوساً من لدنك إن كنت راغبة في ذلك ."

أجابت كريستين بالأسلوب السابق نفسه : "سيسرّني ذلك . سأكلم أولف في الموضوع حين يذهب إلى المدينة في المرة التالية" .

قال إرلند بصوت مترع بالغضب والازدراء :

"عليك أن تشكر زوجة أبيك يا أورم ."

فعل أورم ما أُمر به ثم خرج من الغرفة بأسرع ما تحمله به قدماه . وقف إرلند صامتاً لبرهة .

قال : "لقد فعلت ذلك لتثيري حنقي" .

أجابت : "أجل . أعرف أني جنية . لقد سبق لك وذكرت لي ذلك ."

قال إرلند باحتقار : "و لكن أتعتقدين أني لم أكن جاداً حين قلت تلك الكلمة يا حلوتي ؟"

لم تجب كريستين ولا التفتت عن عملها . وسرعان ما خرج هو ، وحين أصبح خارجاً راحت تبكي . كانت قد أصبحت تود أورم وتعتبر أن إرلند كان غالباً غير منصف مع ابنه . ولكن صمت زوجها ومظهره الكئيب كانا يعذبانها حتى أنها كانت تبكي نصف الليل . ثم كان رأسها يؤلمها طوال النهار التالي . كانت يداها قد هزلتا إلى حد أنها اضطرت إلى لبس بعض الخواتم الفضية الصغيرة التي كانت في حوزتها منذ الطفولة فوق خاتم الخطبة وخاتم الزواج حتى لا يسقطا من أصابعها خلال النوم .

●

في يوم الأحد السابق على بداية الصوم ، وفي وقت متأخر من العصر ، وصل سير بارد بيترسون وابنته الأرملة وكذلك سير مونان باردسون وزوجته إلى هوسابي كضيوف غير متوقعين . خرج إرلند وكريستين إلى الساحة للترحيب بالضيوف .

ما أن رأى السير مونان كريستين حتى أمسك بكتف إرلند :

"أرى جيداً يا قريبي أنك قد عرفت كيف تعتني بزوجتك حتى أنها قد

اكتسبت العافية في بيتك . ما عدت نحيلة وشاحبة كما كان حالك يوم زفافك يا كريستين... كما أن لونك أنضر بكثير ." هذا ما قاله ضاحكاً إذ أن كريستين احمر وجهها حتى أصبح بلون التوت .

لم يجب إرلند . كان وجه السير بارد مكفهراً . ولكن لم يبد على السيدتين أنهما سمعتا أو رأتا شيئاً . وقد حيتا مضيفيهما على نحو لائق وهادئ .

قدمت لهم كريستين الجعة والميد عند المدفأة ريثما ينتظرون الطعام . تحدث مونان باردسون دون توقف . كانت معه رسائل لإرلند من الدوقة... تسأل فيها عما حدث له ولعروسه . وهل كانت الفتاة التي تزوجها هي التي كان يريد أن يهرب بها إلى السويد ؟ كانت رحلة شيطانية حقاً تلك التي قام بها في منتصف الشتاء ، (أي مونان) ، عبر الوديان ثم بالسفينة إلى نيداروس . ولكنه سافر في مهمة للملك ، ولم يكن مسموحاً التذمر . وقد زار أمه في هاوغن وهي ترسل تحياتها .

سألته كريستين بصوت خفيض : "هل مررت بيوروندغارد ؟"

لا ، فهو قد عرف أن (أهلها) قد غادروا البيت لحضور جنازة في بلاكارساروف . فقد جرى حادث مشؤوم . إذ أن ربة المنزل تورا ، وهي ابنة عم راغنفريد ، قد سقطت من شرفة المخزن وكسرت ظهرها . كان زوجها هو الذي دفعها دون أن يدري فسقطت من عل... كان المخزن واحداً من تلك المخازن القديمة التي ليس لها شرفة ملائمة ، بل مجرد بضعة ألواح وضعت فوق نهايات الأعمدة في الطابق العلوي . وقد سمع أنهم اضطروا إلى شد الوثاق على "رولف" وأن يراقبوه ليل نهار منذ ذلك الحادث المشؤوم ، وذلك حتى لا ينتحر .

جلس المستمعون في هدوء شديد ، وهم يرتجفون . لم تكن كريستين تعرف هؤلاء الأقرباء إلا قليلاً ، إلا أنهم حضروا زفافها . وفجأة انتابها إحساس غريب وشعرت بالضعف : ظهر سواد أمام عينيها . قفز مونان ، الذي كان جالساً قبالتها ، واقترب منها . حين وقف إلى القرب منها وذراعه حول كتفيها ، بدا عليه اللطف كما فكرت كريستين . لم يكن أمراً غريباً جداً ربما أن يكون ابن خالة إرلند هذا عزيزاً عليه .

قال : "كنت أعرف رولف منذ كنا صغاراً . كان الناس يرثون لتورا غوتورمسداتر... كانوا يقولون إنه عنيف قاسي القلب . ولكن المرء يستطيع أن يرى الآن أنها كانت عزيزة عليه . أجل ، أجل... كثير من الرجال يتبجحون ويتفاخرون بمدى سعادتهم لو استطاعوا الهروب من الزوجية ، ولكن معظم الرجال يعرفون جيداً أن خسارة الزوجة هي أكبر خسارة يمكن أن تصيبهم..."

نهض بارد بيترسون فجأة ومضى إلى المقعد الذي قرب الجدار .

قال السير مونان برقة : "اللعنة على فمي . كلما فكرت في أني لا أستطيع أبداً أن أراقب لساني..."

لم تفهم كريستين ما الذي كان على خطأ . كانت الدوخة قد تلاشت الآن ، ولكنها راحت تعاني من شعور بعدم الراحة... لقد بدوا جميعاً غريبين جداً . كانت سعيدة أن الخدم أحضروا الطعام .

نظر مونان إلى المائدة وفرك يديه :

"لقد كنت واثقاً من أننا سنفعل خيراً في زيارتكم يا كريستين ، قبل أن نبدأ بالتعود على طعام الصوم . من أين حصلت على هذه الأطباق الشهية خلال فترة قصيرة كهذه ؟ قد يعتقد المرء أنك تعلمت السحر من أمي . ولكني أرى جيداً أنك سريعة في تدبير الأمور التي على الزوجة أن تُسعد زوجها بها ."

جلسوا إلى المائدة . كانت وسائد مخملية قد وضعت لأجل الضيوف على المقعد الجداري على كلا جانبي الكرسي العالي . جلس الخدم على المقعد الخارجي ، وأولف هالدورسون في الوسط مقابل سيده .

تحدثت كريستين قليلاً وبهدوء مع السيدتين الغريبتين ، محاولة أن تخفي مدى قلقها واضطرابها . وبين الحين والآخر كان مونان باردسون يتلفّظ بكلمات هازلة ، ضارباً باستمرار على وتر وضعها الحالي . وكانت تتظاهر بأنها لم تسمع .

كان مونان بديناً أكثر من المعتاد . كانت أذناه الصغيرتان الجميلتان غارقتين في لحم عنقه الأحمر الغليظ ، وكان كرشه يعترض طريقه حين يجلس إلى المائدة .

قال : "أجل ، غالباً ما تساءلت حول قضية انبعاث الجسد ، أي ما إذا كنت سأُبْعَثُ مع كل الدهن الذي جمعته من حول عظامي ، حين يأتي ذلك اليوم . سرعان ما ستعودين إلى خصرك النحيل مجدداً يا كريستين ، أما أنا فليست قضيتي سهلة إلى هذا الحد . لن تصدقي ذلك إلا بالكاد ، ولكن حزامي لم يكن أعرض من حزام إرلند حين كنت في العشرين من عمري..."

رجاه إرلند بصوت خفيض : "إهدأ الآن يا مونان . أنت تزعج كريستين..."

وبّخه الآخر قائلاً : "سأكون لطيفاً جداً . أنت رجل فخور بنفسك الآن ، كما أجرؤ على القول تحت اليمين... وأنت جالس إلى مائدتك مع زوجتك إلى جانبك في الكرسي العالي . أجل ، والرب الذي فوق الجميع يعرف أن هذا لم يحدث سريعاً أيضاً ، فأنت عجوز بما فيه الكفاية يا فتى! بالطبع سأمسك لساني ، بما أنك أمرتني بذلك . ولكن لم يسبق لأحد أن قال لك متى يكون

عليك الكلام أو الصمت ، في الأيام الماضية حين كنت تجلس إلى مائدتي . غالباً ولفترة طويلة كنت ضيفي ، لا أعتقد أنك لاحظت في أي مرة من المرات أنك لم تكن مرحّباً بك .

"و لكني أتساءل ما إذا كانت كريستين تتضايق فعلاً من مزاحي معها... ما تقولين يا زوجة قريبي الجميلة ؟... ما كنت معتادة أن تكوني شديدة الحساسية في الأيام السابقة . لقد عرفت إرلند منذ كان طوله يصل إلى ركبتي ، وأعتقد أني أستطيع القول بأني تمنيت للصبي دائماً الخير على الدوام . أنت متّقد نشاطاً ورجولة يا إرلند وهذا السيف في يدك ، سواء على ظهر الحصان أو على متن سفينة . ولكن سأصلّي للقديس أولاف ليشطرني نصفين بفأسه في اليوم الذي أراك فيه تقف على ساقيك الطويلتين هاتين ، وتنظر إلى الرجل أو المرأة مباشرة في الوجه ، وتردّ على الشر الذي ارتكبته بسبب خفّة عقلك . لا يا قريبي العزيز ، ستطأطئ رأسك كطائر في الفخ ، وتنتظر حتى يأتي الرب وأقرباؤك لمساعدتك لتخرج من المأزق . وأنت يا كريستين امرأة واضحة الذهن ، فأنا أعتقد أنك تعرفين ذلك... وأعتقد أنك في حاجة إلى بعض الضحك الآن . فأنا أراهن أنك شاهدت ما يكفي في هذا الشتاء الماضي من النظرات الخجلة والأسف والندم..."

جلست كريستين بوجه شديد الاحمرار . كانت يداها ترتجفان ولم تكن لتجرؤ على النظر إلى إرلند . كان الغضب يحتدم في داخلها وهاهما السيدتان الغريبتان جالستان وكذلك أورم وخدمها . هكذا هي الأساليب المهذبة لأقرباء إرلند الأغنياء...

ثم قال السير بارد بصوت خفيض حتى لا يسمعه سوى أولئك الذين يجلسون قريباً منه :

"لا أرى في هذا الأمر هزلاً... أن يكون إرلند قد تصرّف على هذا النحو قبل زفافه . لقد أعطيت عهداً نيابة عنك يا إرلند وذلك إلى لافرانس بيورغولفسون" .

قال إرلند بصوت مرتفع وبغضب : "أجل ، والشيطان يعرف أن ذلك لم يكن أمراً حكيماً منك يا أبي بالتربية . وأنا أتعجب كيف يمكنك أن تكون أحمق إلى هذا الحد . فأنت تعرفني أيضاً..."

و الآن لم هناك ما يمنع مونان من الانفجار :

"أجل ، ولكني سأقول الآن لماذا يبدو الأمر لي هازلاً مرحاً . أتتذكر ذلك الجواب الذي قدمته لي يا بارد ، حين جئت إليك وقلت إن علينا أن نساعد إرلند على إتمام هذا الزواج... كلا... سأحكي الآن كل شيء . سيعرف إرلند ما صدقته أنت مني... لقد قلتَ إن الأمر بينهما على هذا النحو ، وإذا لم يستطع أن يتزوج من كريستين لافرانسداتر ، فالرب ومريم العذراء وحدهما يعرفان ما هي الأعمال الجنونية التي سنسمع عنها تالياً . ثم سألتني إن كنتُ راضيا إلى ذلك الحدّ أن يتزوج هو من الفتاة التي خانها لأني ظننتُ أنا أيضاً أنها كانت عاقراً ، حيث لم تظهر عليها أي أمارات بعد مرور تلك الفترة الطويلة جداً ؟ ولكني أعتقد أنكم تعرفونني ، أنتم أيها الآخرون... تعرفونني قريباً يثق به أقرباؤه..." وهناك كان شديد التأثر إلى حد أنه انفجر باكياً . "ليكن الرب وكل القديسين شهوداً عليّ... لم يسبق لي أن اشتهيت متاعكم يا أقربائي... وثم تأكدوا أن هناك غونولف بيني وبين هوسابي . وقد أجبتك يا بارد ، وأنت تعرف ذلك جيداً بأن أول صبي تحمله كريستين سيحصل على خنجري الملبّس بالذهب ذي الغمد العاجي... ويمكنك الحصول عليه الآن!" صرخ من خلال دموعه بهذا ورمى بالسلاح الثمين عبر المائدة نحوها ." وإذا لم يكن صبياً هذه المرة ، فمن المحتمل أن يكون كذلك في العام التالي..."

تدحرجت دموع العار والغضب على خدي كريستين . مرّت بصراع قاس حتى لا تنهار تماماً . ولكن السيدتين الغريبتين جلستا وهما تأكلان بهدوء وكأنهما معتادتان جيداً على هذه المشاهد . همس لها إرلند أن عليها أن تأخذ الخنجر : "أو أن مونان سيبقى يتكلم على هذا النحو طوال الليل ."

تابع مونان : "أجل ، ولا أنكر يا كريستين أني لست منزعجاً من أن أباك لا بد أن يكتشف أنه كان شديد التهوّر حين أجاب لصالحك . كان لافرانس شديد التكبّر : لم نكن نحن في منزلة ملائمة له حقاً... وكنت أنت أكثر نقاء وطهارة من أن تقبلي إرلند زوجاً لك . لقد تكلم وكأنك ما كنت تحتملين أن تفعلي أي شيء في الليالي سوى أن تغنّي ضمن جوقة من الراهبات . قلت له : "عزيزي لافرانس ، ابنتك فتاة شابة جميلة ونقيّة ومفعمة بالحيوية ، وليالي الشتاء طويلة وباردة في بلادنا هذه..."

أسدلت كريستين كتان قبعتها فوق وجهها . كانت تبكي بصوت مرتفع وعلى وشك أن تنهض من مكانها ، ولكن إرلند جذبها وجعلها تبقى في مكانها .

قال بقوة : "ابقي في مكانك . لا تكترثي بمونان... لا شك أنك تستطيعين أن تري أنه يهذر من السكر ، أليس كذلك ؟..."

أحست أن ليدي كاترين وليدي فيلبورغ كانتا تعتبران أنه ليس لائقاً منها ألاّ تكون أقدر على التحكم بنفسها على نحو أفضل, ولكنها لم تستطع كبح دموعها .

قال بارد بيترسون حانقاً :

""أمسك عليك لسانك الفاسد . لقد كنت خنزيراً طوال حياتك... ولكن عليك أن تترك امرأة مريضة في أمان من حديثك القذر..."

"هل قلت خنزير ... ؟ أجل ، هذا صحيح ، فلديّ من أولاد الزنا أكثر مما لديك . ولكن هناك شيء واحد لم أفعله – ولم يفعله إرلند أيضاً – أن نشتري رجلاً آخر ليُسمّى والداً لأطفالنا بدلاً عنا..."

صرخ إرلند وهو ينهض من مكانه :

"مونان! إنّي أطلب الهدوء الآن في منزلي!"

"أوه ، فلتطلب الهدوء في ذيلك!... إن أطفالنا ينادون بكلمة أبي ذاك الذي أنجبهم : في حياة خنزيرية كما تسميها!" ضرب مونان المائدة ضربة قوية حتى أن الأكواب والأطباق قد قفزت في الهواء ." لا يسكن أبناؤنا كخدم في بيوت أقربائهم . ولكن يجلس معك هنا ابن لك إلى هذه المائدة على مقعد الخدم . وأنا أعتبر هذا أسوأ أنواع العار..."

نهض بارد وضرب الآخر بإبريق في وجهه . تشابك الرجلان حتى كادا يقلبان المائدة ، حتى أن الطعام والأواني انزلقت إلى أحضان أولئك الجالسين عند المقعد الخارجي .

جلست كريستين شاحبة كالموتى وفمها نصف فاغر . نظرت مرة واحدة نحو أولف : كان الرجل يضحك بصوت مرتفع ضحكة خشنة شريرة . ثم ، أمسك بأعلى المائدة وأعادها إلى وضعها الصحيح دافعاً إياها نحو الرجلين المتماسكين .

قفز إرلند إلى المائدة . ركع فوقها بين بقايا الطعام وأمسك بمونان من حول ذراعيه تحت كتفيه وجرّه رغماً عنه... كان وجهه يحمرّ من الجهد . رفس مونان الرجل العجوز فجعله ينزف من فمه ، ولكن في تلك اللحظة التالية كان إرلند قد رماه عبر المائدة إلى الأرضية الخالية . ثم قفز وراءه ووقف يلهث كمنفاخ .

وقف مونان على قدميه بصعوبة واندفع نحو إرلند الذي انزلق من قبضته مرة أو مرتين ثم قفز فوقه فجأة وأمسكه بشدة بين ساقيه الطويلتين قويتي الأعصاب وذراعيه . كان إرلند رشيقاً كهرّ ، ولكن مونان الوطيد الثقل حافظ على توازنه ولم يقع . ترنّحا وهما يتصارعان في أرجاء القاعة ، بينما راحت الخادمات يزعقن ويصرخن ولم يحرك أي من الرجال يداً ليفرقهما .

ثم نهضت الليدي كاترين ، البدينة الثقيلة بطيئة الحركة كما هو دأبها ، من مكانها ، وصعدت فوق المائدة بهدوء كأنها تصعد درج بيتها .

قالت بصوتها الغليظ البطيء : "انتهى الآن . اتركه يا إرلند . لقد أسأت التصرف يا زوجي... لا يجوز أن تكلم على هذا النحو رجلاً عجوزاً وقريباً من أقربائك..."

أطاعها الرجلان . وقف مونان بضعةٍ وترك زوجته تمسح الدم عن أنفه بحاشية قبعتها . أمرته بالذهاب إلى السرير ، وتبعها مطيعاً حين قادته إلى حجرة السرير الجنوبية . قامت زوجته وأحد رجاله بجذب أغطية السرير لأجله ، ثم دحرجاه إلى السرير وأغلقا أبواب السرير لأجله .

كان إرلند قد ذهب إلى المائدة . انحنى عبرها قرب أولف الذي لم يتحرك من مكانه .

قال بصوت بائس : "يا أبي بالتربية!" بدا عليه أنه نسي زوجته تماماً . جلس السير بارد وهو يهز رأسه ، والدموع تنزل على خديه .

"لم يكن هناك من داع أن يعمل أولف كخادم أيضاً" ، قال عبر دموعه التي جعلته يلهث ويشهق . "كان بإمكانك الحصول على المزرعة حين يموت هالدور... كنت تعرف جيداً أن هذه هي نيّتي ."

قال أولف : "المزرعة التي أعطيتها إلى هالدور لم تكن رائعة جداً... لقد

اشتريت زوجاً لخادمة زوجتك بسعر بخس . لقد نظّف الأرض وفلحها وحسّنها... وأعتقد أنه فعل ذلك حتى تؤول إلى أخوتي بعد أبيهم . وعلاوة على ذلك ، ما كنت أهتم إلاّ قليلاً بأن أصبح مزارعاً... وأن أكون مزارعاً في ذلك المنحدر الجبلي النازل إلى ساحة هستنز... لقد بدا لي الأمر وكأني أسمع هناك في الأعلى أصوات (بال) و(فيلبورغ) وهما يجدّفان لأنك منحت ابنك بالزنا تلك الهدية الثمينة..."

قال بارد وهو لا يزال يبكي : "لقد قدمت لك المساعدة يا أولف حين كنت مصمماً على العمل مع إرلند . لقد حكيت لك كل الحقيقة فيما يخص هذه المسألة ، وذلك في العمر الذي كان يؤهلك لتفهم الأمر . وقد رجوت أن تلتفت إلى أبيك..."

"أنا أسمي (أبي) ذاك الذي ربّاني حين كنت طفلاً . واسم ذلك الرجل هو هالدور . كان طيباً مع أمي ومعي . لقد علمني ركوب الخيل والمبارزة بالسيف... كما يبارز الحراث بالهراوة كما قال بال مرة ."

رمى أولف من يده السكين التي كان يحملها ، فطارت عبر المائدة وانغرزت فيها وهي ترنّ . ثم نهض وأمسك بها ، مسحها على فخذه ووضعها في غمدها . ثم التفت إلى إرلند :

"فَلْتُنْهِ وليمتّك هذه الآن ولتجعل الناس يذهبون إلى أسرّتهم . ألا ترى أن زوجتك غير معتادة على الأساليب الراقية لأقربائنا في ولائمهم ؟"

و بهذا غادر القاعة .

تابعه السير بارد بنظره... بدا فجأة عجوزاً وضعيفاً على نحو بائس ، وهو جالس هناك ، جاثماً بين الوسائد المخملية . ساعدته ابنته فيلبورغ وأحد رجاله على النهوض على قدميه وقاداه إلى الخارج .

جلست كريستين لوحدها على الكرسي العالي ، وهي تبكي وتبكي . وحين حاول إرلند أن يمسك بها أزاحت يده جانباً بقوة . ترنحت وهي تقف على قدميها مرة أو مرتين حين مشت عبر الأرضية . ولكنها أجابت بلطف : "لا" ، حين سألها زوجها إن كانت تحس بالضعف .

ما كانت تحب هذه الأسرّة المغلقة ذات الصندوق . في بيت أهلها كانت الأسرّة محاطة بستارة لتحجبها عن القاعة ولكنها ستارة معلّقة ، بحيث أن الهواء في الداخل كان أقل حرارة وليس خانقاً . والليلة كان الأمر أسوأ هناك من أي وقت آخر... فهي لن تستطيع في أفضل الحالات أن تتنفس . لا بد أن الكتلة القاسية التي تحس بها ضاغطة على عظام صدرها رأس الطفل... تخيّلت أنه يقبع هناك برأسه الصغير وهو يشعر بالملل بين جذور قلبها... كان يمنع تنفسها كما فعل إرلند في الماضي حين كان يضغط برأسه ذي الشعر الداكن على صدرها . ولكن في هذه الليلة لم تكن هناك عذوبة في الفكرة...

سألها زوجها وهو يحاول أن يمرر ذراعه من تحت كتفيها :

"ألن ينتهي هذا البكاء أبداً ؟"

كان صاحياً تماماً . كان قادراً على تحمل الكثير من الشراب ، ولكنه لم يكن يشرب إلاّ قليلاً . كانت كريستين تفكر : ما كان ممكناً لمثل هذا الأمر أن يحدث إطلاقاً في بيت أهلها . لم يسبق لها أن سمعت هناك الناس يشتم أحدهم الآخر ، أو أن يثيروا في حديثهم أموراً يتوجب أن تبقى سرية . غالباً ما رأت أباها ثملاً يترنح والقاعة ملأى بالضيوف السكارى ، ولكن لم يحدث في أي مرة أنه لم يكن قادراً على فرض النظام في منزله : السلام والإرادة الطيبة كانا سائدين دائماً ، وحتى حين كان الناس يقعون عن المقاعد إلى الأرض فقد كانوا ينامون معاً في مرح وانسجام .

رجاها إرلند : " يا أعز الناس ، لا تأخذي الأمر بكل هذه الجدية ."

قالت من خلال الدموع :

"و السير بارد ، أن يقوم بتلك الأفعال ، فيا للعار... هو الذي كلّم أبي وكأنه يحمل رسالة من الرب نفسه... أجل ، لقد حكى لي مونان في وليمة خطبتنا عن ذلك..."

أجاب إرلند برقة :

"أعرف الأمر جيداً يا كريستين ، أعرف أن لديّ المبرّرات حتى أغضّ من بصري أمام أبيك . إنه رجل صالح... ولكن أبي بالتربية ليس أسوأ منه . لقد مكثت إنغا – أم بال وفيلبورغ – مريضة ومشلولة ست سنوات قبل أن تموت . كان ذلك قبل وصولي إلى (هستنس) ، ولكني سمعت الحكاية كلها ، ولم يكن هناك زوج (مثل بارد) يعتني كل تلك العناية بزوجته المريضة وبكل ذلك الصدق والحب . ولكن أولف ولد في ذلك الحين..."

"إنه لعار أكبر إذن... مع خادمة زوجته المريضة..."

"تبدين أحياناً طفولية جداً ، حتى لا يستطيع المرء أن يحادثك بأي أمر" ، قال إرلند يائساً . "فليساعدنا الله يا كريستين ، ستصبحين في العشرين في الربيع القادم... وقد مرّ أكثر من شتاء واحد على ذلك العمر الذي تعتبرين فيه امرأة ناضجة..."

"أجل ، يحق لك أن تزدريني لذلك..."

أنّ إرلند بصوت مرتفع :

"تعرفين أني لم أعن ذلك... ولكنك عشت هناك في يورروندغارد وأصغيت إلى لافرانس... ورغم أنه رجل شجاع ورجولي ، إلا أنه غالباً ما يتكلم وكأنه راهب وليس رجلاً ناضجاً..."

سألته بغضب : "هل سبق لك وسمعت براهب أنجب ستة أولاد ؟"

قال إرلند يائساً : "سمعت بواحد يدعى سكوردا-غريم وأنه أنجب سبعة . كان ذاك هو رئيس دير الرهبان في هولم... كلا يا كريستين ، يا كريستين ، لا تبكي هكذا... أستحلفك باسم الرب! أعتقد أنك فقدت رشدك..."

•

كان مونان خجولاً في صباح اليوم التالي . قال بجدية وهو يربت على خدها : "ما كنت أظن أبداً أنك ستأخذين هذري وأنا ثمل على محمل الجد يا كريستين يا فتاتي . وإلاّ لكنت قد راقبت لساني على نحو أفضل ، وعليك أن تكوني واثقة من ذلك ."

تكلم إلى إرلند حول أورم ، قائلاً إنه سيكون أمراً مثيراً للضيق أن ترى كريستين أورم في أرجاء المكان في هذا الوقت . وسيكون الأمر أفضل لو أُرسل إلى مكان آخر خلال هذه الفترة... وقد عرض أن يصطحب الغلام لفترة من الزمان . أُعجب إرلند بالعرض ، وكان أورم مسروراً بالذهاب مع مونان . ولكن كريستين افتقدت الطفل كثيراً... فقد كانت بدأت تشعر بمودة كبيرة تجاهه .

و ها هي تبقى وحيدة من جديد وحيدة مع إرلند في الأمسيات ، ولم يكن هو رفيقاً جيداً لها . كان يجلس قرب الموقد ، ويتلفظ بكلمة بين الحين والآخر ، أو يحتسي جرعة من الجعة ، ويداعب كلابه قليلاً . ثم يذهب ويضطجع على المقعد ثم يمضي إلى السرير... وكان يسألها مرة أو مرتين إن لم يكن عليها أن تخلد إلى الراحة ، ثم يغط في النوم .

كانت كريستين تجلس وتخيط . كانت أنفاسها قصيرة وثقيلة إلى حد

أنه يمكن سماعها . ولكن لم يعد هناك وقت طويل من الانتظار الآن . ما عادت تستطيع أن تتذكر إلا بالكاد ، كما بدا لها ، كيف تكون حرة ورشيقة الخصر وقادرة على ربط حذائها دون ألم وجهد .

و الآن بعد أن نام إرلند لم يعد هناك جدوى من محاولة حبس دموعها . لم يكن هناك صوت في القاعة ، إلاّ حين كانت جمرة متفتتة قد سقطت على الموقد ، أو أن كلباً تحرك في نومه . أحياناً كانت تتساءل عمّا كانا يتحدثان عنه في الأيام الخوالي... هي وإرلند ؟ على الأرجح لم يكونا يتكلمان كثيراً... كانت لديهما تسليات أخرى في مواعيدهما القصيرة المختلسة...

كان هذا هو الوقت من السنة الذي اعتادت فيه أمها والخادمات الجلوس في الأمسيات في مبنى الحياكة . وكان أبوها والرجال يدخلون ويجلسون قرب النساء ولديهم مهماتهم...إصلاح معدات الجلود وأدوات الزراعة والحفر على الخشب . كان المبنى الصغير يمتلئ بالناس ، والحوار يجري بهدوء وسهولة بينهم . وحين يذهب أحدهم لإحضار شراب من حوض الجعة ، كان يسأل دائماً قبل أن يعلق المغرفة مجدداً ، إن كان أي شخص راغباً في المزيد من الشراب : كانت تلك قاعدة ثابتة .

ثم كان هناك من يستطيع أن يتلو مقطعاً من حكاية بطولية ما : عن الأبطال في العصور القديمة الذين حاربوا سكان الروابي وماردات الجبال . أو كان أبوها يحكي لهم ، وهو جالس يمارس الحفر على الخشب ، حكايات عن الفروسية ، ممّا سمعه يُقرأ عالياً في قاعة اللورد ، حين كان وصيفاً للدوق هاكون في شبابه . أسماء أجنبية جميلة : الملك أوسانتريكس والسير تيتوريل الفارس... وسيسيب وغونيفر وغلوريانا وإيسود ، وكانت هذه أسماء الملكات... ولكن في الأمسيات الأخرى كانوا يحكون حكايات الديك

والثور وحكايات مرحة ، حتى كان الرجال يقهقهون من الضحك ، بينما تهز أمها والخادمات رؤوسهن ويضحكن ضحكات مكبوتة .

كانت أولفهيلد وآستريد تغنيان . كان لأمها أعذب الأصوات ، ولكن كانوا يرجونها كثيراً قبل إقناعها بالغناء لهم . لم يكن أبوها رجعياً جداً ، وكان قادراً على العزف على قيثارته على نحو متناغم .

ثم كانت أولفهيلد تترك دولابها ومغزلها وتضغط بيديها على ظهرها .

"هل ظهرك متعب الآن يا أولفهيلد الصغيرة ؟" كان أبوها يسألها ، ثم يأخذها في حضنه ، ثم كان أحدهم يجلب لوح الداما وكان الأب وأولفهيلد يلعبان حتى يحين موعد النوم . تذكرت ضفائر أختها الصغيرة الصفراء وهي تتدلى فوق كم قميص أبيها الصوفي ذي اللون البني المخضّر . كان يمسك بالظهر الصغير الضعيف بكل رقة ضمن دائرة ذراعه .

كانت يدا أبيها الطويلتان الرشيقتان تحملان خاتماً ذهبياً في كل خنصر . وكان هذان الخاتمان لأمه . الخاتم ذو الفص الأحمر هو خاتم زفافها ، وكان يقول إن كريستين ستناله من بعده . ولكن ذاك الذي على يده اليمنى وله فصّ نصفه أزرق ونصفه أبيض مثل شعار ترسه ، فكان ذاك الذي صنعه السير بيورغولف لزوجته حين حملت لافرانس... كانت ستُمنح هذا الخاتم حين تلد له صبياً . وقد لبست كريستين سيغوردسداتر هذا الخاتم لثلاث ليال ، ثم ربطته من حول عنق الصبي . وقال لافرانس إنه سيأخذه معه إلى قبره .

أوه ، ما الذي سيقوله أبوها حين يسمع بما حدث لها ؟ حين سيعمّ الخبر في كل الريف المحيط ببيت أهلها ، وهو سيعرف حتماً ، أن كل الرجال كانوا يسخرون منه من وراء ظهره ، لأنه سمح لنفسه أن يُخدع على هذا

النحو . في يوروندغارد زينوا رأس فتاة فاسقة بتاج سوندبو الزفافي ووضعوه فوق شعر العذرية المسدل...

"يقول الناس عني ، كما أعرف جيداً ، أني لا أستطيع التحكم بأطفالي" . وهي تتذكر نظرة أبيها حين قال هذا الكلام... كان يريد أن يبدو حزيناً وصارم الوجه ، ولكن عينيه كانتا مرحتين . كانت قد أخطأت في مسألة صغيرة ، كلّمته أو لم تكلّمه أمام أناس غرباء ، أو ما شابه . "أجل يا كريستين ، إنه ليرضيك أنك لا تخافين أباك كثيراً ." ولم يعرف أي منهما ما الخطأ : أنها لم تخف منه ، أو أنه لم يستطع أن يحافظ على جبين غاضب حين كان عليه أن يقرّعها .

لكأنما كان الخوف الذي لا يحتمل من وجود شيء ليس على ما يرام في الجنين قد أصبح أضعف وأبعد مع ازدياد آلام ومشاكل كريستين الجسدية . حاولت أن ترسل أفكارها إلى الأمام - خلال شهر سيكون ابنها قد ولد . ولكنها لم تستطع أن تصدق ذلك . كانت تتوق وتتوق لبيت أهلها فحسب .

كان إرلند قد سألها ذات مرة إن كانت ترغب في أن يرسل وراء أمها . ولكنها قالت : لا... فهي لا تعتقد أن أمها كانت قادرة على السفر تلك المسافة الطويلة في الشتاء . والآن هي نادمة على هذا . كما أنها نادمة لأنها قالت لا لتورديس من لاوغاربرو التي كانت راغبة جداً بالقدوم شمالاً معها ومساعدتها في أول شتاء لها كسيدة للمنزل . ولكنها فكرت أنه من العار أن تكون تورديس إلى جوارها . كانت تورديس خادمة لراغنفريد في بيتها في سوندبو ، وقد لحقت بسيدتها إلى سكوغ ثم عادت مجدداً إلى "ديل" . حين تزوجت ، عَيّن لافرانس زوجها وكيلاً في يوروندغارد ، لأن راغنفريد

لم تكن تطيق بعاداً عن وصيفتها العزيزة . لم تكن كريستين راغبة في وجود أي امرأة من بيت أهلها معها هنا .

و لكن بدا لها الآن أنه لأمر مخيف ألا يكون معها وجه أليف واحد ينظر إليها حين سيأتيها المخاض وتتمدد على القش . كانت خائفة... كانت لا تعرف سوى القليل عن الولادة . لم تذكر أمها لها هذا الموضوع إطلاقاً ، كما كانت ترفض وجود الفتيات الصغيرات حين كانت تساعد النساء في المخاض... كان من شأن الأمر أن يخيف الفتيات الصغيرات كما كانت تقول . ولكن كريستين كانت تعرف أن الأمر كان مخيفاً أحياناً... تذكرت ولادة أولفهيلد . رغم أن راغنفريد قالت إن الأمر حدث كذلك لأنها نسيت نفسها وزحفت تحت حاجز ، أما أولادها الآخرون فقد ولدتهم بسهولة . ولكن كريستين تذكرت أنها كانت هي نفسها مهملة فقد مرت تحت حبل فوق ظهر السفينة...

و لكن هذا ما كان يسبب دائماً مخاضاً عسيراً... لقد سمعت أمها ونسوة أخريات يتحدثن عن مثل هذه الأمور . كان لدى راغنفريد اسم أفضل قابلة في الريف المجاور ، وما كانت تتردد في طلب مساعدتها ، حتى لو كانت المرأة الموشكة على الوضع شحاذة أو ابنة أفقر رجل ، وحتى لو كان الطقس يتطلب ذهاب ثلاثة رجال على الزلاجات والتناوب على حملها على ظهورهم...

و لكن جاءت الفكرة لكريستين كومضة ، ما كان ممكناً بكل تأكيد التصديق بأن امرأة لها كل تلك الدراية في مثل هذه الأمور كأمها لم تلاحظ وضعها في الصيف الماضي ، حين كانت متوعكة إلى ذلك الحد . لذلك... لا بدّ أن أمها ستأتي ، رغم أنهما لم يرسلا في طلبها . لن تتحمل راغنفريد

فكرة أن تترك ابنتها تعاني كل تلك المعاناة بين ذراعي امرأة غريبة . ستحضر أمها... لا شك أنها على الطريق الآن إليها... وعندها ستطلب من أمها أن تغفر لها كل ما ارتكبته من خطايا في حقها... وأمها ستسامحها ، ستركع على ركبة أمها حين تحمل لها طفلها . أمي قادمة ، أمي قادمة... بكت كريستين خلف يديها من قلب ارتفعت عنه الغمّة . يا أمي ، سامحيني يا أمي .

أصبحت فكرة أن أمها كانت في طريقها إليها ملحة جداً على كريستين حتى أنها ظنت يوماً أنها تستطيع أن تشعر ضمن نفسها أن أمها قادمة هذا اليوم . وفي الصباح لفت عباءتها من حولها وخرجت لتقابلها على الطريق التي تؤدي من غاودال إلى سكاون . لم يلاحظها أحد حين غادرت الضيعة .

كان إرلند قد طلب إحضار أخشاب من الغابة لإصلاح وترميم المباني ، لذلك كان الطريق ممهداً جيداً من كثرة الاستخدام . ولكن السير عليه كان ثقيلاً عليها على أي حال . انبهرت أنفاسها ، وبدأ قلبها يدق بقوة ، وأحست بألم حاد في جنبيها : أحست كأن اللحم المشدود بإفراط سيتمزق بعد أن مشت لمسافة صغيرة أخرى . كان الطريق في معظمه يمر بغابة كثيفة . أحست فعلاً بالخوف... ولكنها لم تكن قد سمعت بوجود أي ذئاب في الريف في هذا الشتاء . ولا شك أن الرب سيحميها لأنها ماضية لتلاقي أمها ، لتركع عند قدميها وتطلب غفرانها... ولم تستطع سوى الاستمرار في السير .

وصلت أخيراً إلى بحيرة صغيرة تقع على شاطئها بعض المزارع الصغيرة . وحيث يؤدي الطريق إلى الجليد ، جلست على جذع شجرة... راحت تمشي أحياناً وتجلس أحياناً لتبقى دافئة ، وهي تنتظر هناك لساعات كثيرة . وأخيراً كان عليها أن تعود إلى البيت .

في اليوم التالي ، خرجت مرة أخرى على الطريق نفسه . ولكنها حين مرت بساحة إحدى المزارع الصغيرة عند البحيرة ، رأتها ربة المنزل فأتت تعدو وراءها .

"باسم الرب يا سيدتي ، ما هذا الذي تفعلينه ؟"

ما أن نطقت المرأة حتى أحست كريستين فجأة بالخوف الشديد حتى أنها لم تعد تستطع أن تتحرك من مكانها... وراحت تحدق إلى الفلاحة وهي ترتجف وعيناها قد أصابهما الفزع .

"أتذهبين عبر الغابات... ماذا لو أن الذئب اشتم رائحتك! كما أن أموراً سيئة أخرى قد تحيق بك أيضاً... كيف تتصرفين على هذا النحو الخالي من الذكاء ؟"

رمت المرأة الطيبة بذراعيها من حول سيدة الضيعة الشابة وأمسكت بها... ثم نظرت إلى وجهها النحيل الأبيض المصفرّ والمبقع باللون البني :

"ادخلي إلى بيتنا وارتاحي قليلاً... ثم سيصطحبك إلى بيتك... شخص ما من هنا » ، قالت وهي تقود كريستين .

كان بيتاً صغيراً وفقيراً ، وفي الداخل كانت الفوضى سائدة لوجود الكثير من الأطفال الصغار يلعبون على الأرض . أرسلتهم الأم إلى المطبخ وأخذت عباءة ضيفتها وقادتها إلى كرسي ، ثم خلعت عنها حذاءها المغطى بالثلج . ثم لفّت جلد خروف من حول قدميها .

و رغم أن كريستين رجت المرأة ألا تزعج نفسها ، إلا أن المضيفة لم تكن لتتأخر عن خدمتها بالطعام والجعة من برميل عيد الميلاد الخشبي . وكانت تفكر في هذه الأثناء... لا شك أن لديهم قانوناً نادراً في هوسابي! إنها

مجرد زوجة رجل فقير ، ولم تكن تصلهم إلا مساعدات قليلة إلى مزرعتهم ، وغالباً ما لا يأتي أي شيء . ولكن "أويستاين" ما كانت لتخرج وحيدة خارج سياج ساحة مزرعتها حين تكون حاملاً... حتى لو أنها كانت ستعبر إلى زريبة الأبقار بعد الظلام ، فلا بدّ من وجود من يرعاها . ولكن أغنى سيدة في هذا الريف تخرج لتشرد في الطرقات وتعرض نفسها لخطر الموت المريع ، وليس من روح مسيحية تعتني بها... رغم أن الخدم في هوسابي كانوا كثرة ولا يفعلون شيئاً . لا شك أن ما كان يقال عن أن إرلند نيكولاوسون كان قد سبق له وملّ من زواجه وأنه لم يكن يهتم بزوجته... لا شك أن هذا صحيح...

و لكنها راحت تثرثر مع كريستين طوال الوقت وتجبرها على الطعام والشراب . وكانت كريستين تشعر بخجل شديد لأنها وجدت نفسها ذات شهية للطعام كما لم تشعر بها من قبل... ليس منذ الربيع الماضي . كان طعام المرأة اللطيفة شهياً جداً . وقد ضحكت المرأة وقالت إن نساء كبار القوم ما كنّ مختلفات عن نساء فقرائهم . والأمر غالباً ما يكون هكذا ، فحين لا يكون للمرأة قدرة حتى على النظر إلى الطعام في البيت ، فإنها تكون نهمة تماماً لتناول طعام شخص غريب حتى لو كان رديئاً وفقيراً .

كان اسمها أودفينا أندونسداتر ، وكانت من "أوبدال" كما قالت . وحين لاحظت أن هذا بعث البهجة في نفس ضيفتها ، فقد راحت تحكي لها عن بيتها الأصلي ومنطقتها . وقبل أن تلاحظ كريستين ، فإن لسانها هي أيضاً قد انطلق ، وراحت تتحدث عن بيتها الأصلي وأبويها وريفها . لاحظت أودفينا جيداً أن قلب الزوجة الشابة كان على وشك الانكسار من شوقها إلى بيتها ، لذلك أغرت كريستين وتحايلت عليها حتى تتابع الحديث . وتابعت كريستين ، التي شعرت بالدفء والدوار ، الحديث ، حتى راحت تضحك

وتبكي في آن معاً . كل ما حاولت عبثاً أن تطرده بالدموع من قلبها في ساعات المساء الوحيدة في هوسابي ، بدا الآن وكأنه يذوب قليلاً قليلاً وهي تحكي حكايتها لهذه الفلاحة الطيبة .

كان الظلام مخيماً تماماً الآن فوق فتحة الدخان ، ولكن أودفينا طلبت من كريستين البقاء حتى يصل أويستاين أو أبناؤهما من الغابة ليرافقاها إلى بيتها . أصبحت كريستين أميل إلى الصمت والنعاس ، ولكنها جلست تبتسم ، بعينين لامعتين... كانت سعيدة جداً كما لم يسبق لها أن كانت منذ أن أتت إلى هوسابي .

و فجأة فُتح الباب ودخل رجل وهو يصرخ سائلاً إن كانوا قد رأوا السيدة... ثم شاهدها جالسة هناك واندفع إلى الخارج مجدداً . بعد دقيقة دخل إرلند بشكله الطويل وانحنى ليمرّ من الباب . أبعد عنه الفأس التي كان يحملها ، وترنح على الجدار... كان عليه أن يسند نفسه بيدين مدفوعتين إلى الخلف ، ولم يستطع أن يتكلم .

سألت أودفينا وهي تتجه نحوه :

"كنت خائفاً على السيدة ؟"

"أجل... لا أخجل من قول ذلك ." ومرّر يده تحت شعره . "لم يشعر بالخوف أي رجل من قبل كما شعرت أنا بالخوف هذه الليلة ، على ما أعتقد . حين سمعت أنها ذهبت إلى الغابات..."

حكت له أودفينا كيف وصلت كريستين إلى هنا . أخذ إرلند بيد المرأة :

قال : "لن أنسى أبداً ما أدين به لك ولزوجك لقاء هذا" .

ثم مضى نحو مكان جلوس زوجته ووقف إلى القرب منها ، ووضع يداً على عنقها . لم ينطق بكلمة واحدة ، بل وقف صامتاً على هذا النحو خلال وجودهما في ذلك المنزل .

و الآن دخلت جمهرة من الخدم من هوسابي ورجال من المزارع القريبة . وقد بدا الجميع كأنهم في حاجة إلى جرعة تشدّ من عزمهم ، فحملت أودفينا لهم وعاء الجعة وجعلته يدور بينهم قبل أن يغادروا مجدداً .

كان الرجال قد انطلقوا على زلاجاتهم عبر الحقول ، ولكن إرلند كان قد أعطى زلاجته إلى أحد أتباعه . هبط التل وهو يمشي الآن ويمسك بكريستين داخل عباءته . كان الظلام شديداً ، والنجوم لامعة جداً .

ثم وصل صوت من الغابات خلفهم... عواء ممطوط راح يرتفع ويرتفع في الليل . تلك كانت ذئاباً... والكثير منها . توقف إرلند ، وهو يرتجف ، وخفّف من قبضته عليها ، وعرفت كريستين أنه رسم إشارة الصليب على نفسه ، بينما كان يمسك بالفأس باليد الأخرى . "لو كنت الآن... أوه ، لا..." ضمّها إليه بقوة وعنف إلى حد أنها أنّت من الألم .

التفّ راكبو الزلاجات في الحقول وعادوا إلى الزوجين بأسرع ما يستطيعون الصعود . ثم رموا بالزلاجات من فوق أكتافهم ، وشكلوا حلقة وثيقة من حولها برماحهم وفؤوسهم . لحقت بهم الذئاب طول الطريق إلى هوسابي... كانت قريبة جداً إلى حد أنهم كانوا يرونها عبر الظلام أحياناً .

حين دخلوا القاعة المضاءة ، كانت وجوه الكثير من الرجال رمادية وبيضاء . قال أحدهم : "كانت هذه أكثر شراسة..." ثم راح يتقيأ في نار الموقد . اصطحبت الخادمات الخائفات سيدتهن إلى سريرها . لم تكن تستطيع أن تأكل . ولكن الآن ومع انقضاء الخوف المُمْرض الرهيب ، فقد بدا لها أنه أمر يبعث على الراحة أن ترى الجميع خائفين لأجلها .

حين تُرِكا لوحدهما في القاعة ، اقترب إرلند وجلس على حافة سريرها .

همس : "لم فعلت ذلك ؟" وحين لم تجبه ، قال بصوت أخفض بعد :

"هل أنت حزينة جداً لدخولك منزلي... ؟"

لم تفهم قصده إلا بعد برهة قصيرة :

"يا يسوع ، يا مريم! كيف يمكن لك أن تفكر في مثل هذا ؟"

"ما الذي كان في ذهنك في تلك المرة حين قلت -وقتما كنا في ميدالبي ، حين ابتعدت بجوادي عنك- إنه كان عليّ أن أنتظر فترة طويلة قبل أن تلحقي بي إلى هوسابي ؟" سألها باللهجة الخفيفة نفسها .

قالت كريستين خجلة بصوت خفيض : "أوه ، لقد نطقت عن غضب" . ثم حكت ما الذي كان يجعلها تخرج في هذه الأيام الأخيرة . جلس إرلند هادئاً تماماً وراح يصغي .

قال وهو ينحني فوقها في الظلام : "أتساءل كثيراً متى سيحين ذلك الوقت الذي سيبدو فيه منزلي في هوسابي بيتك أيضاً ."

همست كريستين بضحكة مرتجفة : "أوه ، ربما خلال أسبوع على الأكثر ."و حين وضع وجهه على وجهها ، رمت بذراعيها من حول عنقه وردّت له قبلته بلهفة .

"هذه أول مرة ترمين فيها بذراعيك من حول عنقي من تلقاء نفسك منذ أن ضربتك" ، قال إرلند بصوت خفيض . "أنت لا تغفرين بسرعة يا كريستين..."

و قد مرّ في خاطرها أن هذه كانت المرة الأولى منذ تلك الليلة التي

عرف فيها أنها حامل ، التي تتجرأ فيها على أن تداعبه دون أن يطلب إليها ذلك .

و لكن بعد هذا اليوم ، راح إرلند يظهر لها من المودة الشيء الكثير حتى أن كريستين ندمت على كل ساعة كانت فيها غاضبة منه .

٤

هلّ قدّاس غريغوري (١٣ شباط / فبراير) ومضى . كانت كريستين على اعتقاد راسخ بأنها ستضع حملها في ذلك الحين على الأكثر . وهاهو قداس مريم (٢٥ آذار / مارس) قد اقترب خلال الصوم الكبير وكانت لا تزال على قدميها .

اضطر إرلند إلى الذهاب إلى نيداروس لحضور مجلس منتصف فترة الصيام . قال إنه سيعود إلى البيت ليلة الاثنين بكل تأكيد ، وهاهو صباح الأربعاء قد حلّ ولم يكن قد عاد بعد . جلست كريستين في القاعة وهي لا تعرف ما تفعله... كأنما لم تكن لديها القدرة على البدء بأي عمل .

تسلّل نور الشمس عبر فتحة الدخان : أحست أن الطقس في الخارج ربيعي هذا اليوم . نهضت ورمت بعباءتها من حولها .

قالت إحدى الخادمات لها إن الناس تقول إنه لو تأخرت امرأة عن أجلها المحدّد ، فالأفضل لها أن تدع الحصان الذي ركبته في عرسها يأكل القمح من حضنها . وقفت كريستين لفترة قصيرة عند باب القاعة... في نور الشمس المبهر . كانت الساحة كلها بنية اللون ، ولكن جداول لامعة من الماء كانت

تجري في أخاديد صغيرة براقة متجمدة عبر روث الجياد وبقاياها . كانت السماء تنتشر لامعة وزرقاء فوق الأبنية القديمة... على التمثالين المثبتين على أعمدة المخزن الشرقي ، كانت آثار الطلاء بالذهب تلتمع هذا اليوم في الجو الصافي . كان الماء ينقّط ويجري من الأسطح ، والدخان يتلوى ويرقص في نفحات الريح الصغيرة الرقيقة .

ذهبت إلى الإسطبل وهناك ملأت حضن تنورتها بالشوفان من حوض القمح . أنعشتها رائحة الإسطبل وصوت الجياد وهي تتحرك هناك في العتمة . ولكن بعض الأشخاص كانوا في الإسطبل ، وقد خجلت من أن تنجز ما جاءت لتقوم به .

خرجت ورمت بالحبوب إلى الدجاجات التي كانت تنقر الأرض وتتشمّس في الساحة . انطلقت أفكارها بعيداً ، وهي تنظر إلى "تور" عامل الإسطبل ، وهو يمشط شعر الفرس الرمادية وينظفه بالفرشاة... كانت تبدّل جلد الشتاء بسرعة . بين الحين والآخر كانت تغمض عينيها وتلتفت بوجهها ، الذاوي والشاحب من المكوث بين الجدران ، نحو نور الشمس .

و هكذا كانت واقفة حين وصل ثلاثة رجال إلى الساحة على خيولهم . كان أولهم كاهناً شاباً لم تكن هي تعرفه . وما أن شاهدها حتى قفز عن حصانه واقترب منها بيدٍ ممدودة .

قال مبتسماً : "لم يكن هذا الشرف الكبير موجهاً إليّ ، على ما أعتقد ، أي أن تقومي أنت سيدة المنزل ، بالخروج للترحيب بي . ولكن عليّ أن أشكرك على ذلك على أي حال . لأني أعتقد جيداً أنك لابدّ زوجة أخي ، كريستين لافرانسداتر ؟"

أجابت ووجهها يتورّد : "إذن أنت لا بدّ السيد غونولف ، أخو زوجي . أهلاً بك يا سيدي وسهلاً في بيتك في هوسابي!"

قال الكاهن : "شكراً لهذا الترحيب الجميل" ، ثم انحنى وقبّل خدها ، حسب الأسلوب الذي عرفت أنه كان متّبعاً في البلدان الأجنبية حين يتقابل الناس . "فليكن سعيداً قدومك إلى هنا يا زوجة إرلند!"

خرج أولف هالدورسون وأمر سائساً بأخذ جياد الغرباء . حيّا غونولف أولف تحية من القلب :

"أأنت هنا يا قريبي ؟... كنت أتطلع إلى أن أسمع أنك أصبحت رجلاً متزوجاً وصاحب منزل الآن ."

"كلا ، لن أتزوج قط ، إلا إذا كان عليّ أن أختار بين الزوجة والمشنقة" ، قال أولف ضاحكاً ، وضحك الكاهن أيضاً . "لقد عاهدت الشيطان أن أعيش دون زواج بالحزم نفسه الذي عاهدت به الرب أنت نفسك ."

"أجل ، فلتكن آمناً أنّي توجهت يا أولف" ، أجاب الماستر غونولف ضاحكاً . "فأنت ستحسن عملاً يوم تنكث عهدك لذلك الرجل في الأسفل . ومع ذلك سيُقال أيضاً إن على الرجل أن يحافظ على عهده حتى لو كان مع الشيطان نفسه... أليس إرلند في البيت ؟" سأل متعجباً . عرض يده على كريستين وهما يلتفتان ليدخلا القاعة .

ولإخفاء خجلها ، راحت كريستين تتحرك بين الخادمات ، وأشرفت على مدّ لوح المائدة الخشبي . وقد طلبت من أخ إرلند العلاّمة الجلوس في الكرسي العالي ، ولكن حين رفضت الجلوس هناك إلى جانبه ، انتقل إلى المقعد إلى جوارها .

و الآن إذ جلست إلى القرب منه ، لاحظت أن السيد غونولف كان

أقصر من إرلند بنصف الرأس على الأقل... ولكنه كان يبدو ذا حجم أكبر . كان ذا بنية أقوى كما كان بدنه وأطرافه أضخم ، وكتفاه العريضتان كانتا مستقيمتين... أما كتفا إرلند فكانتا مترهلتين قليلاً . كان غونولف يرتدي رداء داكناً ملائماً جداً لكاهن ، أما الغفّارة التي كانت تصل إلى قدميه وصعوداً تقريباً حتى حزام قميصه الكتاني ، فكانت مثبتة بأزرار من المينا ، ومن حزامه المحبوك كانت عدة طعامه معلقة في غمد فضّي .

نظرت إلى وجه الكاهن . كان له رأس مستدير قوي ووجه مستدير إنما نحيل ، مع جبين منخفض وواسع وعظام وجنة كبيرة قليلاً وذقن دقيق مستدير . كان أنفه مستقيماً وأذناه صغيرتين جميلتين ، ولكن فمه كان واسعاً وشفتاه نحيلتين ، بينما الشفة العليا بارزة إلى الأمام جيداً وتغطي الشفة الحمراء . شعره فقط كان كشعر إرلند : وكانت الحلقة المحلوقة حول البقعة الجرداء من رأس الراهب سوداء ، لها لمعة جافة سخامية ، وتبدو كأنها حريرية ناعمة شأن شعر إرلند . أما من حيث البقية فكان يشبه ابن خالته مونان باردسون... استطاعت أن ترى الآن أنه ربما كان صحيحاً أن مونان كان وسيماً في شبابه . كلا ، لقد كان يشبه آشيلد خالته ، لقد لاحظت الآن أن له عيني الليدي آشيلد... العينان الصفراوان الكهرمانيتان اللامعتان تحت حاجبين أسودين مستقيمين ضيقين .

في البداية كانت كريستين خجلة قليلاً من أخي زوجها الذي تلقى الكثير من العلم في أكبر المعاهد في باريس وفالاند (الاسم العام الذي يطلق على الدول اللاتينية) . ولكنها نسيت خجلها تدريجياً . كان من السهل جداً أن تحادث ماستر غونولف . لم يبد أنه يتحدث عن نفسه... كما لم يكن يتظاهر بمعرفته . ولكن حين أتيح لها الوقت لتفكر قليلاً ، وجدت أنه قد

حكى لها الكثير حتى أن كريستين ظنّت أنها لم يسبق لها أن عرفت من قبل كم كان العالم خارج النرويج هائلاً . لقد نسيت نفسها وكل مشاغلها ، وهي جالسة تنظر إلى وجه الكاهن المستدير ذي العظام الكبيرة ، وابتسامته المرحة اللطيفة . كان قد وضع ساقه فوق ركبة الساق الأخرى تحت ردائه ، وجلس ويداه البيضاوان القويتان مشبكتان من حول كاحله .

و حين انضم إليها في القاعة ، عصراً ، سأل إن كان يمكن لهما أن يلعبا الداما . ولم تستطع كريستين سوى أن تجيب بأنها تظن أن ليس هناك أي لوح داما في المنزل .

سأل الكاهن مستغرباً : "ألا يوجد ؟" ثم مضى نحو أولف .

"أتعرف يا أولف ما فعله إرلند بلوح الداما المذهب الخاص بأمنا ؟... أدوات التسلية التي خلّفتها هنا ؟... لا شك أنه لم يسمح لأحد أن يأخذها .

قال أولف : "إنها في صندوق في غرفة السلاح في الأعلى . لقد فكّر هو أيضاً في أنها لا يجب أن تقع في حوزة أشخاص آخرين... من الذين كانوا في الضيعة سابقاً" ، وقد قال الجملة الأخيرة بصوت خفيض . "هل تريدني إحضار الصندوق يا غونولف ؟"

"أجل... لا يمكن لإرلند أن يعارض في ذلك الآن" ، قال الكاهن .

بعد فترة قصيرة وصل الاثنان حاملين صندوقاً كبيراً مزخرفاً . كان مفتاحه فيه ، ففتحه غونولف . في الأعلى كانت هناك قيثارة وآلة وترية أخرى لم يسبق لكريستين أن رأت شبهاً لها . وقد سماها غونولف "سالتريون" (السنطور)... ترك أصابعه تسرح على الأوتار ، ولكنها كانت غير مدوزنة . كانت هناك لفّات من الشرائط والحرير والقفازات المطرزة والقبعات الحريرية

وثلاثة كتب ذات مشابك . وأخيراً وجد الكاهن لوح الداما . كانت المربعات بيضاء وذهبية والحجارة من عاج كركدن البحر بلونين أبيض وذهبي .

كان على كريستين أن تعترف الآن لأخي زوجها بأنها غير ماهرة في الداما وليست موهوبة جداً في عزف الآلات الوترية . ولكنها كانت تواقة إلى قراءة الكتب .

"أجل... هل تُرى تعلمت قراءة الكتب يا كريستين ؟" سأل الكاهن . والآن استطاعت أن تجيب ببعض الفخر ، أنها تعلمت الكثير وهي طفلة بعد . وفي الدير امتُدحت لمهارتها في القراءة والكتابة .

وقف الكاهن يراقبها وابتسامة على وجهه بينما راحت هي تقلّب صفحات الكتب . كان أحدها حكاية بطولية فروسية عن "تريستان" و"إزولده" ؛ والآخر يحوي حكايات عن القديسين... ففتحته على حكاية القديس مارتين . أما الثالث فكان باللاتينية ، وكان ذا كتابة جميلة بأحرف كبيرة ملونة بألوان كثيرة .

قال غونولف : "هذا الكتاب كان يخص جدّنا الأسقف نيكولاوس" .

قرأت كريستين بصوت نصف مرتفع (باللاتينية) :

"استر وجهك عن خطاياي وامح كل آثامي
قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله وروحاً مستقيماً جدّد في أحشائي .
لا تطرحني من قدام وجهك وروحك القدوس لا تنزعه مني ."

(المزمور ٥١)

سأل غونولف : "هل تفهمين هذا ؟" فأومأت كريستين وقالت إنها تفهم القليل . كانت تعرف ما يكفي من معنى الكلمات حتى أنها تأثرت على نحو

غريب لأنه كان على عينيها أن تقعا عليها الآن بالذات . ارتجف وجهها قليلاً ثم وضع غونولف السنطور في حضنه ، وقال إنه سيحاول دوزنته .

و بينما كانا جالسين هكذا ، سمعا صوت حوافر الخيل في الساحة... ومباشرة دخل إرلند القاعة وهو يشعّ سعادة... كان قد سمع أن أخاه قد وصل . وقف الأخوان وكلٌ يضع يديه على كتفي الآخر ، وإرلند يطرح الأسئلة دون أن ينتظر الأجوبة . كان غونولف في نيداروس لمدة يومين ، وكانت محض صدفة أنهما لم يلتقيا هناك .

قال إرلند : "و إنها لغريبة حقاً . ظننت أن كل كهنة كنيسة الرب سيتقدّمون في موكب لمقابلتك ، حين تعود إلى البيت... وأنت مترع بالحكمة ومحشوّ بالعلم كما هي حالك الآن..."

سأل أخوه ضاحكاً : "و هل تعرف عن ثقة أنهم لم يفعلوا ذلك ؟ فأنت لا تقترب من كنيسة المسيح حين تكون في المدينة ، كما سمعت عنك ."

"صحيح يا غلام... لا أقترب من اللورد الأسقف حين أستطيع أن أبتعد عنه... لقد ترك توقيعه على جلدي سابقاً ولمرة واحدة..." ضحك إرلند دون ندم أو توبة . "كيف تجدين أخا زوجك يا حلوتي ؟... أرى أنه سبق لك وقابلت كريستين يا أخي... إنها لا تهتم كثيراً بأقربائنا الآخرين..."

و لم يلحظ إرلند أنه كان لا يزال يرتدي قبعته الفرو وعباءته وأن سيفه كان إلى جنبه إلاّ حين جلسوا إلى مائدة العشاء .

كانت تلك أكثر الأمسيات مرحاً منذ أن وصلت كريستين إلى هوسابي . كان إرلند قد أجبر أخاه على الجلوس معها في الكرسي العالي ، وراح هو يخدمه ويملأ له كوبه . في المرة الأولى التي شرب فيها نخب غونولف ، ركع على ركبة واحدة وتظاهر بأنه كان سيقبّل يد أخيه .

"فليتبارك الرب! علينا أن نعتاد يا كريستين على أن نقدم فروض الطاعة إلى الأسقف... حسناً ، فأنت ستصبح أسقفاً لا بدّ يا غونولف!"

لم تغادر جماعة المنزل القاعة إلاّ في وقت متأخر من الليل ، ولكن الأخوين وكريستين تابعوا الشراب . كان إرلند قد جلس على الطاولة مواجهاً أخاه .

قال وهو يشير إلى صندوق أمه : "أجل ، فكرت في هذا الصندوق في يوم زفافنا ، ورأيت أن يكون من حصة كريستين . ولكني أنسى بسهولة . وأنت يا أخي ، إنك لا تنسى شيئاً . ولكني أعتقد أن الخاتم الذي تركته أمي قد وجد طريقه إلى يد جميلة ، على ما أعتقد ، ما رأيك ؟" ثم وضع يد كريستين على ركبته ودوّر خاتم الخطبة .

أومأ غونولف برأسه . وضع السنطور في حضن إرلند :

"غنّ الآن يا أخي . كان من عادتك أن تغني على نحو جميل وتعزف جيداً فيما مضى..."

قال إرلند على نحو أكثر جدية : "لقد مضت سنون كثيرة على ذلك ." ثم مرّر أصابعه على الأوتار :

"ركب الملك الطيب أولاف ابن هارالد
جواده تحت ظل الغابة الكثيفة .
فرأى في الأرض آثار أقدام صغيرة
... ماهي أنباء عظيمة!

*

قال فين أرنسون

... بعد أن ركب متقدماً على عصبته :

"ستكون جميلة من تترك هذا الأثر الصغير للأقدام

في جوارب قرمزية..."

ابتسم إرلند وهو يغني ، ونظرت كريستين إلى الكاهن بخجل... فهو قد لا تعجبه قصيدة أولاف وآلفهيلد الغنائية . ولكن غونولف جلس مبتسماً... ولكنها شعرت فجأة بأنها متأكدة من أنه كان يبتسم لإرلند وليس للأغنية .

قال إرلند وهو يربت على خدّها :

"لا داعي لأن تغني يا كريستين الليلة . أعتقد أن أنفاسك لا تسمح لك الآن بذلك يا عزيزتي . ولكن حان دورك الآن..." وأعطى السنطور إلى أخيه .

و يستطيع المرء أن يعرف من عزف الكاهن وغنائه أنه كان على دراية كبيرة بالغناء والعزف :

سار الملك شمالاً إلى الجبال...

*

سمع حمامة تئنّ

تندب أليفها :

"لالي ، لالي! لالي ، لالي!

كان مستعداً لمطاردة الصقر

الذي طار عبر الجبال الواسعة البعيدة .

و قد قاده الصقر إلى الأعلى ثم إلى أسفل

ثم قاده إلى بستان سفعته الشمس .

في ذلك البستان كان منزل
علقت فيه ستائر نعش أرجوانية .

هناك كان يتمدد فارس جميل مخضباً بدمه
إنه السيد الشجاع الطيب .

عند رأس سريره كان حجر
كتب عليه "جسد الرب"

لا لي ، لالي! لالي لالي!
لقد حمل الصقر أليفي بعيداً" (٣)

سأله إرلند : "أين تعلمت هذه الأغنية ؟"

قال غونولف : "أوه... كان بعض الصبية يغنونها خارج النُزُل الذي نزلت به في كانتربورغ . وفكرت في محاولة ترجمتها إلى لغتنا النرويجية . ولكنها ليست جيدة جداً بالنرويجية ." جلس وهو يعزف نتفاً من اللحن على الأوتار .

"حسناً يا أخي... لقد تجاوز الوقت منتصف الليل بكثير . وعلى الأرجح فإن كريستين في حاجة إلى الخلود إلى الفراش الآن... هل أنت متعبة يا زوجتي ؟"

"لا أعرف... أعتقد أنه من الأفضل الآن ألاّ أضطجع في السرير هنا..."

"هل أنت مريضة ؟" سألاها كلاهما وهما ينحنيان عليها .

"لا أعرف" ، قالت ، ثم ضغطت بيديها على وركيها . "لديّ إحساس غريب جداً في ظهري..."

قفز إرلند ومضى نحو الباب . تبعه غونولف :

"من سوء الحظ أنك لم تحضر النساء قبل ذلك إلى هنا ، أي النساء اللواتي سيساعدنها . هل حصل الأمر قبل توقعها له بكثير... ؟"

احمرّ وجه إرلند كثيراً .

"تعتقد كريستين أنها لن تحتاج إلاّ إلى خادماتها... لقد سبق لهنّ وولدن أطفالاً ، البعض منهن..." ثم حاول أن يضحك .

حدّق غونولف إليه : "هل فقدت رشدك ؟ أليس لدى كل زوجة فلاح نساء ماهرات وزوجات جيران[٤] لمساعدتها حين الوضع... وهل ستزحف زوجتك وتخفي نفسها في حفرة ، كما تفعل القطة عند الوضع ؟ كلا يا أخي... سأقدّرك كثيراً كرجل لو جلبت أفضل القابلات في الريف لأجل كريستين..."

طأطأ إرلند برأسه وقد احمرّ خجلاً :

"ما تقوله صحيح يا أخي . سأركب بنفسي إلى راسفولد... علي أن أرسل رجالاً إلى ضيع أخرى . هل لك أن تبقى هنا مع كريستين!"

سألت كريستين خائفة : "هل أنت راحل ؟" ، وذلك حين رأته يرتدي عباءة الركوب خاصته .

عبر نحوها ورمى بذراعيه من حولها.

"سأذهب لأحضر أفضل القابلات في الريف ، يا كريستيني . سيبقى

غونولف إلى جانبك ، بينما ستجهز لك الخادمات القاعة الصغيرة" ، قال لها وهو يقبلها .

رجته قائلة : "هل يمكنك أن ترسل شخصاً يحضر لي أودفينا أندونسداتر ؟ ولكن ليس قبل الفجر . لا أريدها أن توقظ من النوم لأجلي... لديها أعمال كثيرة ، كما أعرف..."

سأل غونولف إرلند من تكون أودفينا تلك .

قال الكاهن : "لا يبدو الأمر لي ملائماً . زوجة واحد من مستأجريك..."

قال إرلند : "سيكون الأمر لكريستين كما تشاء ." وحين خرج الكاهن معه ووقف هو ينتظر حصانه ، روى للآخر كيف تعرفت كريستين على زوجة المزارع . عضّ غونولف شفته ووقف متأملاً بعمق .

•

ساد الضجيج والاضطراب في الضيعة كلها الآن ، فهناك رجال يركبون جيادهم مبتعدين في الليل ، وخادمات يهرعن بالدخول للسؤال عن حال سيدتهن . قالت كريستين إنه لم يكن هناك ما يقلق بعد ، ولكن عليهن أن يجهّزن كل شيء في القاعة الصغيرة . وسترسل لهن في الوقت الملائم لتطلب إدخالها إلى تلك القاعة .

ثم تُركت لوحدها مجدداً مع الكاهن . حاولت أن تتكلم معه على نحو عادي ومرح كما في السابق .

قال بابتسامة صغيرة : "أنت لست خائفة ."

"كلا ، بل خائفة!" نظرت إلى عينيه... كانت عيناها داكنتين وخائفتين .

"أتعرف يا أخا زوجي إن كان ولدا إرلند الآخران قد ولدا هنا في هوسابي ؟"

قال الكاهن بسرعة : "لا ، لقد ولد الصبي في هونهالس والفتاة الصغيرة في ستريند إلى الشمال... في مزرعة كان يمتلكها ذات مرة هناك... هل الأمر وما فيه أنك تنزعجين عندما تتذكرين أن تلك المرأة عاشت هنا مع إرلند سابقاً ؟"

قالت كريستين : "أجل" .

"من الصعب عليك الحكم بعدل على تصرفات إرلند في قضية إلين هذه" ، قال الكاهن بصوت جدّي . "لم يكن أمراً سهلاً على إرلند أن يتحكم بنفسه... لم يكن من السهل على إرلند أبداً أن يعرف ما هو الصواب . لأنه منذ أن كنا صغاراً ، فإن أمنا كانت تعتبر أي شيء يقوم به إرلند صواباً ، ويعتبره أبونا خطأ . أجل لا شك أنه حدثك عن أمنا ، حتى أنك تعرفين هذا كله..."

"بقدر ما أتذكر ، فإنه ذكرها مرتين أو ثلاثاً ، قالت كريستين . "و لكنني لاحظت جيداً أنه كان يحبها ."

قال غونولف برقة :

"بكل تأكيد لم يكن هناك قط مثل هذا الحب بين أم وابنها . كانت أمي أصغر سناً بكثير من أبي . ثم جرت تلك الواقعة المنحوسة لأختها آشيلد... مات بارد ، عمّنا ، أخو أبونا ، وقيل... أجل ، أجل ، لابدّ أنك تعرفين ذلك ؟ لقد اعتقد أبي بأسوأ الأمور ، وقال ذلك لأمي... وقد رمى إرلند أبانا بسكين ذات مرة ، حين كان مجرد غلام بعد... وقد انقض على رقبة أبيه أكثر من مرة لأجل خاطر أمّنا ، حين كان فتى...

"و حين مرضت أمنا ، ابتعد هو عن إلين أورمسداتر . أصيبت أمنا

بقروح وتقرّحات على جلدها ، وقال أبي إنها مصابة بالجذام . وقد أبعدها عن البيت ، وكان سيجبرها على الإقامة كشخص من العوام في دير للراهبات في القسم المخصص للمرضى* . ولكن إرلند اصطحب أمنا إلى أوسلو... ومن هناك مضيا إلى آشيلد الماهرة في "الحكمة" ، وقد قالت آشيلد وكذلك حكيمة الملك الفرنسية أيضاً أنها ليست مصابة بالجذام . رحّب الملك هاكون بإرلند وطلب إليه أن يجرّب بركة قبر آيريك فالدمارسون المقدس... جدّ الملك لأمه . لقد وجد الكثيرون الشفاء هناك من الأمراض الجلدية .

"انطلق إرلند إلى الدانمارك مع أمنا ، ولكنها توفيت على متن سفينة إلى الجنوب من ستاد . وحين عاد إرلند إلى البيت مع جثمانها ، أجل... عليك أن تتذكري أن أبانا كان قد بلغ من العمر عتيّاً ، وأن إرلند كان ابناً غير بارّ به طوال حياته – حين وصل إرلند إلى نيداروس مع جثمان أمي – كان أبونا في بيتنا في البلدة آنئذ ، ورفض أن يسمح لإرلند بالدخول إلى البيت... قبل أن يتأكد من أن الفتى لم يصب بالعدوى . ركب إرلند حصاناً وانطلق به ، ولم يتوقف حتى وصل إلى المزرعة التي كانت فيها إلين مع ابنها . وبعد ذلك تشبث بها ، رغم كل شيء ، رغم أنه كان هو نفسه متعباً منها . وهكذا حدث أنه جلبها إلى هوسابي وجعلها سيدة على المنزل ، حين أصبح هو نفسه سيداً على المنزل هنا . كانت ذات سطوة عليه ، حتى أنها قالت إنه لو تخلى عنها بعد هذا ، فإنه يستحق أن يموت بالجذام... ولكن حان الوقت الآن لتعتني بك النساء يا كريستين..." ، قال وهو ينظر إلى وجهها الشاب ، الذي أصبح رمادياً ومتخشباً من الرعب والعذاب . ولكنه حين اقترب من الباب ، صاحت به بصوت مرتفع :

---

* انظر الهامش رقم (١٢) من الجزء الأول من هذه الثلاثية "إكليل العروس"

"لا ، لا ، لا تبتعد عني..."

قال الكاهن ليواسيها : "سينتهي الأمر بسرعة طالما أنك مريضة إلى هذا الحد الآن ."

أمسكت بذراعه بقوة : "ليس الأمر كذلك يا غونولف..." وقد بدا له أنه لم يسبق له أن رأى مثل ذلك الرعب في وجه بشري .

"كريستين... تذكري... عليك أن تتذكري أن هذا ليس أسوأ بالنسبة إليك ممّا هو للنساء الأخريات ."

"أجل . أجل ." ضغطت بوجهها على ذراع الكاهن . "فالآن أعرف أن إلين وطفليها يجب أن يكونوا جالسين في مكاني . فهو قد عاهدها بإيمانه ومعتقده على الزواج قبل أن أصبح أنا عشيقته..."

قال غونولف بهدوء : "أتعرفين ذلك ؟ لم يكن إرلند نفسه يعرف ما يفعله في ذلك الحين . ولكنك تعرفين أنه لم يكن قادراً على الحفاظ على عهده ذاك... فالأسقف لم يمنح موافقته أبداً على زواجهما . لا تحسبي زواجك غير صالح . أنت زوجة إرلند الشرعية..."

"أوه ، لقد رميت بعيداً بكل حق في أن أطأ الأرض قبل فترة طويلة من زواجه مني . وكان الأمر أسوأ ممّا عرفت... أوه ، أتمنى لو متّ ، ولو أن هذا الطفل ما كان ليولد أبداً... لا أجرؤ على رؤية ما أحمله في داخلي..."

"ليسامحك الرب يا كريستين... أنت لا تعرفين ما تتلفظين به! هل تريدين أن يموت طفلك دون أن يولد ودون أن يُعمّد... ؟"

"أجل ، لأنه مهما حدث ، فإن ما أحمله تحت قلبي يجب أن يكون ملكاً للشيطان . لا يمكن إنقاذه . أوه ، لو أني شربت فحسب الشراب الذي

عرضته عليّ إلين... لربما كان في ذلك بعض التكفير عن كل الذنوب التي ارتكبناها إرلند وأنا... ولم يكن هذا الطفل ليولد أبداً... أوه يا غونولف ، طوال هذا الوقت كنت أعرف ذلك... أنه حين سأرى الشيء الذي غذيته في داخلي ، عندها سأعرف تماماً أنه كان الأجدر بي أن أشرب شراب الجذام الذي عرضته عليّ ، لا أن أدفعها إلى الموت ، تلك التي ربط إرلند نفسه إليها بعهد..."

قال الكاهن : "يا كريستين ، أنت تتكلمين عمّا لا تعرفين . لم يكن أنت من دفع تلك المرأة التعيسة إلى حتفها . لم يكن إرلند قادراً على الحفاظ على عهده الذي منحها إياه حين كان غرّاً ولا يعرف إلاّ القليل عن القانون أو الحق . ما كان يمكنه أبداً أن يعيش معها إلاّ تحت ظل الخطيئة . وهي تركت نفسها تضل عن الطريق القويم من قبل رجل آخر أيضاً ، وكان إرلند سيسمح لها بالزواج من ذلك الرجل الآخر حين سمع بذلك . لم يكن انتحارها من فعلك أنت..."

"و هل عرفت كيف انتحرت ؟" كانت كريستين يائسة جداً الآن إلى درجة أنها راحت تتحدث بهدوء تام . "كنا في هاوغن معاً ، إرلند وأنا ، وجاءت هي إلى هناك . كان معها قرن ، وأرادت مني أن أشاركها الشراب... كانت قد أحضرته لأجل إرلند ، كما أرى الآن ، ولكنها حين وجدتني هناك معه ، كانت تريدني أن أشرب منه... عرفت أنه كانت هناك خيانة... رأيت أنها لم تشرب أي قطرة هي نفسها حين وضعت شفتيها على القرن... كنت سأشرب عن طيب خاطر... ما كنت مهتمة بأن أعيش أو أموت حين عرفت أنها كانت معه في هوسابي طوال ذلك الوقت . ثم دخل إرلند... هدّدها بخنجره ، وذلك ليجعلها تشرب أولاً . توسلت إليه ورجته ، ولكنه لم يطلق

سراحها . ثم ركبني الشيطان... وأخذت القرن... "واحدة منا نحن عشيقتيك..." هكذا قلت له... وقد حثثت إرلند على المتابعة... "لا يمكنك أن تحتفظ بنا كلتينا" ، هذا ما قلته له . وهكذا حدث أنها ذبحت نفسها بخنجر إرلند... ولكن بيورن وآشيلد وجدا خطة لإخفاء حقيقة الأمر..."

"إذن قدمت الخالة آشيلد هذه المشورة!" قال غونولف بحزن . "أفهم الآن أنها قد ضللتك للوصول إلى يدي إرلند..."

قالت كريستين بقوة : "لا . لقد توسلت إلينا الليدي آشيلد... توسلت إلى إرلند وإليّ ، على نحو لم أكن أعرف معه كيف أستطيع مقاومتها... أن علينا أن نتصرّف على نحو مشرّف بقدر ما كان ذلك ممكناً... وأن أركع عند قدمي والدي وأطلب منه السماح عن أخطائنا . ولكني لم أجرؤ على ذلك . تظاهرت بأني كنت أخشى من أن يقتل أبي إرلند... أوه ، رغم أني كنت أعرف جيداً أن أبي ما كان ليؤذي شخصاً سلم نفسه وأمره إليه . تظاهرت بأني كنت أخشى أن أسبّب له حزناً إلى حد أنه لن يرفع معه رأسه عالياً مجدداً . أوه ، ولكني أثبتّ منذ ذلك الحين ، أني لا أخشى من أن أسبب الحزن لأبي... لا تستطيع أن تصدق يا غونولف ، كم أن أبي إنسان طيب... لا أحد يستطيع أن يعرف إلا إذا كان يعرف أبي ، وكم كان طيباً معي طوال حياتي . لقد أحبّني أبي كثيراً ودائماً . لم أستطع أن أتحمل أن يعرف أبي أني تصرفت على هذا النحو المخزي ، وأنه بينما كان هو يظنني جالسة بين الراهبات في أوسلو ، وأتعلم كل ما هو صالح وصادق... أجل... لقد كنت أرتدي ملابس المبتدئات من الراهبات حين كنت أنام مع إرلند في الحظائر والعليّات في المدينة..."

رفعت نظرها إلى غونولف . كان وجهه ممتقعاً وقاسياً كالصخر .

"أترى الآن سبب خوفي ؟ هي التي احتضنته حين وصل ملوثاً بالجذام..."

سألها الكاهن بصوت هادئ : "أما كنت لتفعلي مثل ذلك ؟"

"أجل ، أجل ، أجل ." طار ظلّ من ابتسامة مجنونة من الأيام الماضية فوق وجه المرأة المنهكة .

قال غونولف : "و لكن إرلند لم يكن ملوثاً . لم يعتقد سوى أبي بأن أمي ماتت بالجذام ."

"و لكني مجذومة لا شك في نظر الرب" ، قالت كريستين . وضعت وجهها على ذراع الكاهن التي كانت تتشبث بها . "أنا الآن ملطخة بكل الخطايا..."

قال الكاهن برقة وهو يضع يده الأخرى على قبعتها الكتانية : "يا أختي ، لا يمكنك أن تكوني خاطئة إلى ذلك الحد ، أنت أيتها الشابة الصغيرة ، لدرجة أنك قد نسيت أن الرب الذي يستطيع بكل تأكيد أن يطهّر اللحم من الجذام ، يستطيع بكل تأكيد أن يطهّر روحك من الخطيئة..."

"أوه ، لا أعرف" ، بكت ووجهها لا زال مدفوناً في ذراعه . "لا أعرف... وأنا لست نادمة على ذلك أيضاً ، يا غونولف . أنا خائفة ، ومع ذلك... فقد كنت خائفة حين وقفت أمام باب الكنيسة مع إرلند وقام الكاهن بتزويجنا... وكنت خائفة حين ذهبت معه إلى قداس العروس... وعلى شعري المسدل تاج ذهبي ، فأنا لم أكن أجرؤ على التحدث عن عاري إلى أبي...و كل خطاياي لم يتم التكفير عنها ، أجل ، لم أجرؤ على الاعتراف بالحقيقة إلى كاهن أبرشيتي . ولكن حين جئت إلى هوسابي هنا في الشتاء ، ووجدت نفسي أصبح أكثر دنساً مع كل يوم يمرّ... عندها أصبحت أشد خوفاً ، لأن إرلند لم

يعد يعاملني كما كان يفعل في السابق... وفكرت في ذلك الزمن الذي كان يأتي لزيارتي في سريري في سكوغ ليلاً..."

"كريستين..." . حاول الكاهن أن يرفع وجهها . "لا يمكن التفكير في مثل هذه الأمور الآن! فكري فقط في أن الرب يرى أساك وتوبتك الآن . التفتي بفكرك إلى العذراء الرؤوم مريم التي تكنّ العطف لكل من هم حزانى..."

"و لكن ألم تفهم ؟... لقد دفعت بامرأة أخرى إلى الانتحار..."

"كريستين" ، قال الكاهن بحزم . "أتظنين من خلال غرورك الشرير أن خطيئتك تلك كبيرة إلى حد أن رحمة الله ليست أكبر منها ؟"

ثم ربت وربت على قبعتها الكتانية .

"ألا تعرفين يا أختي حكاية الشيطان حين أراد أن يغوي القديس مارتين ؟ أ لم يسأل الشيطان إن كان القديس مارتين يجرؤ على تصديق وعده حين وعد كل الخاطئين الذين اعترفوا له وأحلّهم من خطاياهم ؟ ولكن الأسقف أجاب : «أتجرأ أن أعدك أنت أيضا بغفران الرب» ، في الساعة التي تتوسلين فيها مثل هذا الغفران... هذا إذا ما رميت بغرورك جانباً وآمنت بأن محبة الرب أكبر من حقدك..."

وقف غونولف قليلاً ، وهو لا يزال يربت على رأس المرأة الباكية . وقد فكر في تلك الأثناء – وفمه شاحب الشفتين ومزموم بشدة – هل عامل إرلند هذه العروس الشابة على هذه الشاكلة!

كانت أودفينا أنونسداتر أول امرأة تصل إلى المنزل . وجدت المرأة التي على وشك الولادة في القاعة الصغيرة . كان غونولف جالساً إلى القرب منها واثنتان من الخادمات منهمكتان في العمل ضمن الغرفة .

حيّت أودفينا الكاهن بإجلال ، ولكن كريستين نهضت ومضت إليها بيد ممدودة :

"شكراً يا أودفينا على قدومك... أعرف أنه ليس أمراً سهلاً على ذويك في البيت أن يستغنوا عنك... ؟"

نظر غونولف بدقة إلى المرأة . والآن نهض هو أيضاً :

"كان أمراً رائعاً منك أن تحضري بهذه السرعة . هناك حاجة إلى أن يكون مع زوجة أخي شخص تستطيع الوثوق فيه... إنها غريبة في هذا الريف ، شابة وغريبة..."

همست أودفينا : "يا للمسيح ، إنها بيضاء من شدة شحوبها كقبعتها الكتانية! أتظن ياسيدي أن عليّ أن أسقيها قليلاً من الشراب المنوّم ؟... أظن أن عليها أن تنال بعض الراحة قبل أن يشتد المخاض عليها ."

بدأت تحضر الشراب بانهماك إنما بهدوء . تحسست المضجع الذي حضرته الخادمتان على الأرض وأمرتهما أن تحضرا المزيد من الوسائد والقش . ثم وضعت وعائين حجريين صغيرين فيهما بعض الأعشاب على النار . بعد ذلك راحت تفك الأحزمة والعقد في ثوب كريستين ، وسحبت أخيراً كل الدبابيس من شعر المرأة المريضة .

قالت حين تدفق الطوفان من الخصل الذهبية البنية الحريرية حول الوجه الأبيض الشاحب : "لم يسبق لي أن رأيت أجمل من هذا الشعر ." لم تستطع مغالبة الضحك قليلاً . "لا أظن أنه فقد شيئاً من قوته أو لمعانه ، حتى لو أنك تركته مكشوفاً فترة أطول قليلاً ممّا كان واجباً..."

جعلت كريستين تضطجع برقة بين الوسائد على الأرض وغطتها جيداً بالبسط .

"اشربي هذا الآن . لن تشعري أن الآلام شديدة جداً . وحاولي النوم قليلاً بين النوبة والأخرى .

كان قد حان الوقت لذهاب غونولف . اقترب من كريستين وانحنى فوقها .

"ستصلي من أجلي يا غونولف" ، طلبت إليه متوسلة .

"سأصلي لأجلك حتى أرى طفلك على ذراعك... وبعد ذلك أيضاً" ، قال ، ثم وضع يدها مجدداً تحت الغطاء .

اضطجعت كريستين ونامت . أحست أنها بخير تقريباً . كانت الآلام الثاقبة عبر خاصرتها تأتي وتذهب ثم تأتي ثانية... ولكنها كانت مختلفة عمّا كانت تحس به سابقاً ، وفي كل مرة كان يزول فيها الألم كانت تتساءل إن لم يكن ذاك كله يجري في خيالها تقريباً . وبعد العذاب والرعب اللذين عانت منهما في ساعات الصباح الأولى أحست كأنها قد تجاوزت بسعادة أسوأ المخاوف والآلام . كانت أودفينا تتحرك برقة وتعلق ملابس الوليد ، حتى أن رائحة عطرة راحت تتسلل إلى الغرفة . وأخيراً راحت كريستين تنام بنصف إغفاءة بين نوبات الألم وتحلم أنها في بيت ذويها في غرفة تخمير الجعة في يورروندغارد ، وأنها كانت تساعد أمها في صباغة شبكة كبيرة من القماش . لا شك أن هذا بسبب البخار المتصاعد من قدر لحاء الدردار والقرّاص .

ثم وصلت القابلات من السيدات (من رتبة ليدي) الواحدة في إثر الأخرى... سيدات من ضيع أبرشيتهم ومن بيرغسي . انسحبت أودفينا لتنضم إلى الخادمات . ومع دنو المساء ، أحست كريستين بأن آلامها بدأت تتعاظم . قالت السيدات إن عليها أن تتمشى في أنحاء الغرفة طالما كانت

قادرة على القيام بذلك . كان ذلك عذاباً لها...فقد كانت الغرفة مليئة بالنساء إلى حد الاختناق الآن ، وكان عليها أن تخطو كمهرة معروضة للبيع . وبين النوبات أيضاً ، كان عليها أن تدع النساء الغريبات يضغطن ويتحسسن جسمها بأيديهن . ثم كن يتحادثن معاً . فإن الليدي غونا أوف راسفولد ، التي كانت قيّمة على كل الأمور في الغرفة ، قالت إن الوقت قد حان لتضطجع على الأرض . قسمت الليدي النساء إلى فئتين ، واحدة تنام بينما تستيقظ الأخرى وتراقب : "أجل ، لن يمرّ الأمر بسرعة... ولكن يا كريستين اصرخي حين تشعرين بألم شديد... لا تأبهي بالنائمات . نحن كلنا هنا لأمر واحد فحسب هو مساعدتك يا طفلتي المسكينة!" هذا ما قالته بلطف وحنان وهي تربت على خد الفتاة .

و لكن كريستين بقيت مضطجعة وهي تعض شفتيها وتعصر حواف الغطاء بيديها المتعرقتين . كان الجو حاراً على نحو خانق... ولكنهن قلن إنه يجب أن يكون كذلك . وبعد كل نوبة ألم ، كان العرق يتصبب منها .

بين النوبات كانت تفكر بإطعام كل هؤلاء النسوة . كانت راغبة جداً في أن يروا أن منزلها كان في حالة جيدة من النظام . وكانت قد أمرت توربيورغ الطباخة ، بأن تصب المخيض في الماء الذي سيغلى فيه السمك الطازج . لو أن غونولف لن يعتبر هذا فحسب انتهاكاً للصوم . فقد كان السيرا آيريك قد قال إنه ليس انتهاكاً ، فالمخيض ليس نوعاً من الأغذية اللبنية ، كما أن مرق السمك كان يُرمى به بعيداً . أما السمك المجفف الذي أحضره إرلند إلى المنزل في الخريف الماضي فلا يجب لمسه بأي حال... فهو فاسد ومليء بالديدان .

يا مريم ، يا مريمي المباركة... هل سيطول الأمر ، كما تعتقدين ، قبل أن تساعديني ؟... أوه... الآن الألم قاس ، قاس جداً... قاس جداً...

عليها أن تحاول الصمود لفترة أطول قليلاً الآن ، قبل أن تستلم وتصرخ...

كانت أودفينا جالسة عند الموقد ، وهي تراقب أوعية الماء الحار . تمنت كريستين لو أنها تجرؤ على مناداتها لتأتي إليها وتمسك بيدها . لم تكن تعرف ما هي مستعدة الآن للتخلي عنه مقابل أن تمسكها يد ودودة تعرفها من قبل . ولكنها خجلت أن تطلب ذلك...

خلال فترة ما قبل الظهر التالية كان هناك نوع من الهدوء المضطرب قابعاً فوق هوسابي . كانت تلك هي عشيّة قداس مريم ، وكان يتوجب أن تكون كل الأعمال قد أُنجزت مع صلاة العصر . ولكن الرجال كانوا مذهولين وحزينين ، بينما الخادمات الخائفات يندفعن في الأعمال المنزلية بإهمال . كان خدم المنزل يحبون سيدتهم الشابة ، ولم يكن مخاضها سهلاً كما قيل .

وقف إرلند خارجاً في الساحة يحادث حدّاده . حاول أن يبقي أفكاره مركزة على ما كان الرجل يقوله . ثم اقتربت منه الليدي غونّا مسرعة :

"لا نستطيع تدبر أمر زوجتك يا إرلند... بعد أن جرّبنا كل الوسائل . عليك أن تأتي... وربما سيكون الأمر أسهل لو وُضعت هي في حضنك . ادخل وارتد معطفاً قصيراً ، ولكن أسرع . إنها منهكة جداً تلك الشابة المسكينة ."

تضرج وجه إرلند . تذكر ما كان قد سمعه ، من أن المرأة التي تعسّر مخاضها وكانت قد حبلت سراً ، فإنها لو وضعت على ركبة الأب فقد يسهل ذلك الأمر عليها .

كانت كريستين مضطجعة على الأرض تحت بعض البطانيات بينما تجلس امرأتان إلى القرب منها . وحين دخل إرلند ، رأى أنها انكمشت

ودفنت رأسها في حجر إحدى المرأتين وراحت تدوره هنا وهناك... ولكن لم يصدر أي صوت أنين عنها .

حين انتهت نوبة الألم ، رفعت بصرها بعينين مجنونتين فزعتين . كانت شفتاها البنيتان المشققتان فاغرتين . كان كل أثر للشباب والجمال قد غادر الوجه المتورم الأحمر الملتهب... حتى شعرها كان قد أصبح متشابكاً وقد تحول إلى كومة قذرة علقت فيها قطع من القش والصوف من جلود الخراف . نظرت إلى إرلند كأنها لم تعرفه أولاً . ولكنها حين فهمت لماذا أرسلت النساء في طلبه ، هزّت رأسها بقوة :

"ليس من عادتنا في ناحيتنا... أن يحضر الرجال مخاض النساء..."

قال إرلند برقة : "تُمارس هذه العادة هنا شمال دوفر إن كان من شأنها أن تخفّف من آلامك قليلاً يا كريستيني . عليك قبول ذلك ."

"أوه...!" وحين ركع إلى جانبها ، رمت بذراعيها من حول خصره وضمته بقوة . ناضلت ضد نوبة الألم دون صرخة واحدة وقد جثمت مرتجفة .

قالت بسرعة لاهثة الأنفاس بعد أن مرت نوبة الألم : "هل يمكنني أن أقول كلمتين لزوجي على انفراد ؟" انسحبت النسوة إلى الخلف .

"هل عاهدتها وهي في المخاض... لقد قالت إنك وعدتها بالزواج حين تصبح أرملة... في تلك الليلة التي ولد فيها أورم ؟" همست كريستين .

لهث إرلند وكأنما تلقى ضربة فوق القلب . ثم هزّ رأسه بقوة :

"كنت في القلعة في تلك الليلة... كان فصيلي مكلفاً بالحراسة . حدث ذلك حين عدت إلى مكان سكننا في الصباح ووضعوا الصبي بين ذراعيَّ... هل كنت تضطجعين هنا وتفكرين بهذا يا كريستين ؟"

"أجل..." ومن جديد تشبثت به ، بينما راحت موجة من الألم تجتاحها . جفّف إرلند العرق الذي كان يتصبّب فوق وجهها .

سألها حين هدأت مجدداً : " والآن بعد أن عرفت هذا ، ألا تريدين أن أتصرف معك كما تقول الليدي غونا ؟"

إلاّ أن كريستين هزت رأسها مجدداً . وأخيراً اضطرت النساء إلى ترك إرلند يرحل .

و لكن بهذا بدا وكأن قدرتها على الصمود قد تحطمت . صرخت عالياً في رعب مجنون من الآلام التي كانت تشعر بها قادمة ، وناحت مصليّة تطلب النجدة . ومع ذلك حين تحدثت النساء عن إدخال الزوج مجدداً ، صرخت : لا... فهي تفضل بالأحرى أن تُعذّب حتى الموت...

•

ذهب غونولف ورجل الدين الذي كان معه إلى الكنيسة لإقامة صلاة المساء . وقد حضر كل شخص موجود في الضيعة ولم يكن مع المرأة التي في المخاض معهما إلى الكنيسة . ولكن تسلّل إرلند خارجاً من الكنيسة قبل نهاية الصلاة ، واتجه جنوباً نحو المنازل .

في الغرب فوق قمم الجبال على الجانب الأبعد من "ديل" ، كانت السماء حمراء مصفرّة... كان الغسق قد بدأ يهبط في المساء الربيعي اللطيف . كانت النجوم تظهر هنا وهناك ، بيضاء في السماء ذات اللون الفاتح . وكان سديم رقيق ينجرف فوق الغابة عند البحيرة في الأسفل... كانت هناك بقع عارية حيث كانت الحقول تواجه الشمس ، وكانت رائحة العفونة والثلج الذائب في الجو .

كانت القاعة الصغيرة تقع في أقصى الغرب من المنازل ، خارجاً إلى حيث تهبط الأرض إلى الوادي . مضى إرلند إليها ووقف بعض الوقت خلف جدارها . كانت الأخشاب لا تزال دافئة من الشمس ، حين اتكأ عليها . أوه ، يا لصرخاتها...! لقد سمع ذات مرة صوت عجلة صغيرة وقعت في قبضة دب... كان ذلك هناك في الأعلى عند سايترهم ، حين كان فتى غراً بعد . كان هو وراعي البقر آربيورن قد ركضا جنوباً عبر الغابات . تذكر الكتلة الشعثاء التي انتصبت وتحولت إلى دب ذي فم حار أحمر فاغر . تحطم رمح آربيورن بين مخالب الدب... ثم اختطف رمح إرلند منه ، فقد كان واقفاً وقد شلّه الخوف . وكانت العجلة الصغيرة ممددة هناك وهي ما زالت حية رغم أن ضرعها وفخذيها كانا قد التُهما...

يا كريستيني... أوه يا كريستيني...! أيها الرب . لأجل أمك المباركة ، الرحمة...

عاد هارباً إلى الكنيسة .

•

دخلت الخادمات إلى القاعة حاملات العشاء... لم تكن المائدة قد جُهّزت ، ولكنهن وضعن الطعام عند الموقد . أخذ الرجال الخبز والسمك لتناولهما فوق المقاعد ، وجلسوا صامتين في أماكنهم . أكلوا قليلاً ، ولكن لم يبد على أي منهم أن له شهية للطعام . لم يحضر أحد لأخذ الأطباق بعد الوجبة ، ولم ينهض أحد من الرجال ليذهب إلى النوم . جلسوا ، يحدقون إلى نار الموقد ، دون أن يتبادلوا أطراف الحديث .

كان إرلند قد أخفى نفسه في الزاوية عند السرير... لم يستطع أن يتحمل أن يرى أحد وجهه .

كان الماستر غونولف قد أوقد مصباحاً يدوياً ووضعه على ذراع الكرسي العالي . جلس على المقعد تحته وكتاب بين يديه... وقد جلس هناك وشفته تتحرك دون صوت ودون توقف .

نهض أولف هالدورسون ومضى نحو الموقد وأخذ شريحة من الخبز الطري ، ثم بحث قليلاً بين قضبان الحطب والتقط واحداً منها . ذهب إلى زاوية قرب الباب ، حيث كان "آن" العجوز جالساً . شغل الاثنان نفسيهما بالخبز ، وهما مختبئان خلف عباءة أولف ، وقام آن بقصّ وحفر العصا . كان الرجال الآخرون يرنون إليهما بين الحين والآخر . في هذه الأثناء نهض أولف وآن وغادرا القاعة .

تابعهما غونولف بنظره ، دون أن يقول شيئاً . ثم تابع صلواته .

سقط أحد الفتيان عن المقعد حيث كان نائماً وتدحرج على الأرض . نهض ونظر حوله في حيرة . ثم تنهّد قليلاً وجلس مجدداً على المقعد .

دخل أولف هالدورسون وآن مجدداً بهدوء وذهبا إلى مكانيهما حيث كانا جالسين من قبل . نظر إليهما الرجال ، ولكن لم يقل أحد شيئاً .

و فجأة قفز إرلند . عبر القاعة نحو جماعته . كان وجهه رمادياً كالطين وعيناه مجوفتين .

قال : "أليس بينكم من يعرف طريقة ما ؟" همس : "أنت يا آن ؟"

همس أولف : "لم تنفع" .

قال آن : "أعتقد أنه مقدّر عليها ألا تنجب هذا الطفل" ، وذلك وهو يفرك أنفه . "لذلك لن تفيد الرقى ولا النذور . من المؤلم لك يا إرلند أن تخسر مثل هذه الزوجة الشابة على هذا النحو السريع ."

قال إرلند محطماً يائساً : "أوه ، لا تتحدث عنها كأنه سبق لها وماتت ." عاد إلى زاويته ورمى بنفسه أرضاً ورأسه عند نهاية السرير .

خرج رجل ثم عاد ودخل مجدداً . قال : "لقد بزغ القمر . سرعان ما سيحلّ الصباح" .

•

بعد فترة قصيرة ، دخلت الليدي غونا إلى القاعة . انهارت عند مقعد الشحاذين عند الباب... كان شعرها الأشيب بارزاً من كل الجوانب . كان غطاء رأسها قد انزلق إلى كتفيها .

نهض الرجال... واقتربوا منها ببطء .

قالت باكية : "على أحدكم أن يدخل إلى هنا ويمسك بها . لم نعد نقدر على ذلك . عليك أن تذهب إليها يا غونولف... لا أحد يعلم كيف سينتهي الأمر..."

نهض غونولف وأقحم كتاب الصلوات في الجيب الذي عند حزامه .

قالت الليدي : "عليك أن تأتي أيضاً يا إرلند" .

•

قابله البكاء القاسي الأبحّ عند الباب... توقف إرلند مرتجفاً . لمح وجه كريستين المشوه الذي لا سبيل إلى معرفته في وسط مجموعة من النساء الباكيات... كانت على ركبتيها ، وكنّ يمسكن بها .

قرب الباب كانت بعض الخادمات قد رمين بأنفسهنّ أرضاً ووجوههن مخفية في المقاعد . كنّ يصلين بصوت مرتفع ودون توقف . رمى بنفسه أرضاً إلى القرب منهنّ وأخفى وجهه بين ذراعيه . كانت الصرخات تتوالى منها ، وفي كل مرة كان يبدو له أن وخزة ثلجية من رعب لا يصدّق كانت تخترق جسده . لا يمكن أن يكون...

ثم تجرأ ونظر باتجاهها . كان غونولف جالساً الآن أمامها فوق كرسي واطئ ، ممسكاً بها من تحت ذراعيها . كانت الليدي غونا تركع إلى جوارها وتضع ذراعيها حول خصر كريستين ، ولكن كريستين كانت تناضل ، في رعب مميت ، لتبعد المرأة الأخرى عنها .

"أوه كلا... أوه ، كلا... اتركيني... لا أستطيع الاحتمال... ساعدني يا ربي يا ربي..."

كان الكاهن يقول في كل مرة : "سيساعدك الرب الآن يا كريستين ." كانت هناك امرأة واقفة عن قرب وهي تحمل وعاء من الماء ، وبعد كل نوبة ألم كانت تأخذ قطعة قماش مبللة وتمسح وجه المرأة المتألمة... العرق الذي كان ينزّ من جذور شعرها والزبد الذي كان يخرج من بين شفتيها .

ثم سقط رأسها إلى الأمام بين ذراعي غونولف ، ونامت للحظة... ولكن العذابات أخرجتها من نومها مجدداً وعلى الفور . وتابع الكاهن القول :

"الآن يا كريستين... سرعان ما سيأتيك العون..."

ما عاد أحد يفكر بالزمن . ولكن عبر فتحة الدخان كان الفجر قد بدأ يبتسم بلون رمادي .

ثم ، وبعد صرخة جنونية من الألم ، حلّ هدوء مفاجئ مطلق . سمع

إرلند النساء يعملن بنشاط واهتياج... كان يودّ أن يرفع عينيه ليرى ، ولكنه سمع شخصاً يبكي بصوت مرتفع ، فانكمش على نفسه مجدداً... لم يجرؤ على أن يعرف...

ثم صرخت كريستين مجدداً... كانت صرخة مجنونة زاعقة نادبة ، لا تشبه الصرخات الحيوانية اللاإنسانية التي صدرت من قبل . أجفل إرلند .

وقف غونولف وقد أحنى جسده ، ممسكاً بكريستين التي كانت لا تزال راكعة . كانت تنظر في رعب مميت إلى شيء ما كانت الليدي غونا تحمله في جلد خروف... كتلة فجة ذات لون أحمر داكن ، لا تشبه سوى أحشاء حيوان ذبيح .

شدّها الكاهن إليه :

"يا كريستيني... لقد أنجبت ابناً سليماً وجميلاً يستحق أن تشكر الرب عليه أي أم تلده... وهو يتنفس! " قال بقوة للمرأة الباكية . "إنه يتنفس... لن يكون الرب قاسياً إلى حد لا يصغي فيه إلينا..."

و حتى خلال كلام الكاهن مرّت الصورة بذهنها . عبر رأس الأم المنهكة المنذهلة لمعت رؤيا لبرعم رأته ذات مرة في حديقة الدير... شيء ما انبثقت منه بتلات حريرية حمراء متغضنة... ثم بسطت نفسها في شكل زهرة .

تركت كتلة اللحم التي لا شكل لها... وصلت منها أصوات... تمطمطت وتحولت إلى طفل بلون النبيذ الأحمر صغير تماماً له شبه بالإنسان... كانت له ذراعان وساقان ويدان وقدمان ، مع أصابع يدين وقدمين كاملتي الشكل... كان يتحرك ويتنفس قليلاً...

صرخت عالياً بصوت أبح ضعيف : "إنه صغير جداً ، صغير جداً ، صغير

جداً..." ، وهي دون حول بين ضحك وبكاء . انفجرت النساء من حولها ضاحكات وجففن لها دموعها ، وسلمها غونولف إلى أذرعتهن .

قال الكاهن : "فليوضع في حوض حتى يزعق على نحو أفضل" ، وهو يلحق بالنساء اللواتي حملن الوليد بعيداً نحو الموقد .

•

حين أفاقت كريستين من إغمائها الطويل ، كانت متمددة في سريرها . كانت إحداهن قد خلعت عنها ملابسها الكريهة التي تشربت بالعرق وكان إحساس مبارك بالدفء والإبلال يتسلّل إلى جسدها... كانت أكياسٌ صغيرة من عصيدة القرّاص قد وضعت عليها وقد لفّت جسدها بالبطانيات وقطع الفرو التي سبق تسخينها .

طلبت إليها إحداهن السكوت حين حاولت النطق . كان هناك هدوء كبير في الغرفة . وعبر الهدوء وصل إليها صوت لم تستطع إلاّ بالكاد تذكره :

"... نيكولاوس ، باسم الأب والابن والروح القدس..."

كان هناك صوت سيلان ماء .

نهضت كريستين قليلاً على مرفقها ونظرت . هناك عند الموقد وقف كاهن في ملابس بيضاء ، ورفع أولف هالدورسون طفلاً عارياً باسطاً ذراعيه وقدميه من القدر النحاسي ، وقدّمه إلى العرّابة ، ثم أخذ منها الشمعة المتقدة .

لقد أنجبت طفلها... كان هو ذاك الذي يزعق الآن حتى ليغطي زعيقه

كلمات الكاهن . ولكنها كانت متعبة جداً... ما كانت لتهتم إلاّ قليلاً ، ولم ترغب سوى في النوم...

ثم سمعت صوت إرلند ، قائلاً بسرعة وخوف :

"رأسه ، رأسه غريب جداً ."

قالت امرأة بهدوء : "إنه متورم . لا شيء غريب في هذا... كان عليه أن يناضل بقوة ، هذا الصبي ، لأجل حياته ."

صرخت كريستين بشيء ما . كأنما استيقظت مباشرة في لبّ قلبها... هذا كان ابنها ، وقد ناضل لأجل حياته كما فعلت هي .

التفت غونولف بسرعة ، ضاحكاً... ثم التقط الرزمة الصغيرة من الأقمطة من حضن الليدي غونا وحملها إلى السرير . وضع السرير بين ذراعي أمه . فركت وجهها على اللحم الصغير من الوجه الأحمر الناعم كالحرير ضمن الملابس القطنية وقد أشعرها الحنان والمتعة بالغثيان .

وقعت عينيها على إرلند . عرفت أنها رأته مرة من قبل بوجه رمادي منهك كهذا... لا تتذكر متى ، فقد كانت تحس إحساساً غريباً وكان في رأسها دوار... ولكنها عرفت أنه لأمر جيد أنها لا تحتاج إلى أن تتذكر . وكان أمراً حسناً أن تراه يقف هكذا قرب أخيه... وكان الكاهن قد وضع يداً فوق كتفه . هبط إحساس بسلام وطمأنينة لا حدود لهما فوقها ، وهي تنظر إلى الرجل طويل القامة في الثوب الكهنوتي والبطرشيل . كان الوجه المستدير النحيل تحت الحلقة السوداء من الشعر قوياً جداً ، ولكن ابتسامته كانت جميلة ولطيفة .

أقحم إرلند خنجره عميقاً في عمود الجدار الخشبي خلف الأم والطفل .

قال الكاهن ضاحكاً : "لا حاجة إلى ذلك الآن طالما أن الصبي قد عُمّد ."

راحت كريستين تفكر على نحو ما بما قاله لها ذات مرة الأخ إدفين . قال إن الطفل المعمّد حديثاً مقدس بمقدار الملائكة في السماء . إنه مغسول تماماً من أخطاء والديه وهو لم يرتكب أي خطيئة بعد . وبخجل وحذر قبّلت الوجه الصغير .

اقتربت منهما الليدي غونا . كانت منهكة ومتعبة ، وغاضبة من الأب الذي لم ينتبه إلى أن عليه أن يتلفظ بكلمة شكر للسيدات اللواتي قدمن يد المساعدة . وقد أخذ الكاهن الطفل منها وحمله إلى أمه... كان عليها هي أن تفعل ذلك ، فهي التي ولّدت المرأة ، وعلاوة على ذلك ، فقد كانت عرّابة الصبي .

قالت بغضب : "لم تقم حتى الآن بتحية ابنك يا إرلند ولا حملته بين ذراعيك ."

رفع إرلند الطفل من بين ذراعي أمه ، وغمره بوجهه للحظة .

"أشك في أني سأحبك من كل قلبي يا «ناكفه» قبل أن أنسى أنك عذبت أمك على ذلك النحو شديد القسوة" ، قال هذا ووضع الطفل مجدداً قرب أمه .

قالت السيدة العجوز بغضب : "أجل ، ضع اللوم عليه في ذلك . ضحك الماستر غونولف ثم ضحكت الليدي غونا أيضاً . كانت ستأخذ الطفل وتضعه في المهد ، ولكن كريستين رجتها بقوة أن تبقيه معها لفترة أطول . وسرعان ما نامت وابنها إلى القرب منها... وقد عرفت على نحو غير جليّ أن إرلند لمسها ، بحذر ، وكأنه يخشى أن يؤذيها من لمسة واحدة ، ثم نامت مجدداً .

٥

في اليوم العاشر بعد ولادة الطفل ، قال الماستر غونولف لأخيه حين كانا لوحدهما في القاعة صباحاً :

"أعتقد أن الوقت قد حان الآن يا إرلند لترسل الأنباء إلى أسرة زوجتك لتخبرها بما جرى ."

أجاب إرلند : "لا أرى داعياً لمثل هذه السرعة . لن يكونوا شديدي السرور في يورونداغارد حين سيسمعون أنه قد سبق وأصبح لدينا صبي في المنزل" .

قال غونولف : "هل تستطيع أن تصدق أن أم كريستين لم تكن تعرف في الخريف بأن ابنتها كانت متوعكة ؟ وأنها إن كانت تعرف فلا بدّ أنها تعاني من الخوف الآن ؟"

لم يجب إرلند .

و لكن بعد وقت قصير من ذلك ، وحين كان غونولف جالساً في القاعة الصغيرة ، دخل إرلند . كان يرتدي قبعة من الجلد ومعطفاً خارجياً قصيراً وسميكاً من النسيج الصوفي الخشن ، وبنطالاً طويلاً وجزمة متينة . انحنى فوق زوجته وربت على خدّها :

"قولي لي يا كريستين... هل تريدين مني أن أحمل أي تحيات منك إلى يوروندغارد ؟... فأنا متجه جنوباً الآن لأنبئهم بنبأ ابننا ."

تضرج وجه كريستين بشدة... بدت خائفة وسعيدة معاً .

قال إرلند بجدية : "هذا لا يزيد عمّا يحق لأبيك أن يطلبه مني ، أي أن أحمل بنفسي هذه الأنباء ."

بقيت كريستين صامتة لفترة .

قالت برقة : "قل لهم في البيت أني كنت أتوق كل يوم ، منذ أن غادرت بيتي ، إلى أن أنحني على قدمي أبي وأمي وأتوسل إليهما أن يغفرا لي ."

و سرعان ما غادرها إرلند . لم تفكر كريستين في سؤاله عن طريقة سفره . ولكن غونولف خرج مع أخيه إلى الساحة . خارج باب القاعة كانت أدوات تزلج إرلند وعصاه ذات الرأس الرمحي .

قال غونولف : "هل ستتزلج إلى هناك ؟ من سيذهب معك ؟"

قال إرلند ضاحكاً : "لا أحد . عليك أن تعرف ذلك أفضل من الجميع يا غونولف ، أنه ليس بالأمر السهل على أي شخص أن يتحمل التزلج بصحبتي ."

قال الكاهن : "أعتقد أن في هذا حماقة وطيشاً . هناك الكثير من الذئاب في غابات هويلاند في هذا العام ، كما يقولون..."

ضحك إرلند فحسب وبدأ يثبت أدوات التزلج .

"سأكون قد صعدت إلى سايترات غييتسكار ، على ما أعتقد ، قبل

حلول الظلام... سبق للنهار وأصبح طويلاً . في مساء اليوم الثالث سأكون في يوروندغارد..."

"ليس مستحسناً المتابعة من غيبتسكار على الطريق المألوفة... كما أن هناك جيوباً ضبابية سيئة عليك المرور عبرها . كما أنك تعرف أن هذه السايترات أماكن مشؤومة في فصل الشتاء ."

قال الآخر وهو لا يزال يضحك : "إذن فلتعطني حجر الصوان والفولاذ خاصتك ، هذا إذا كنت سأسقط خاصتي صدفة... على امرأة جنية لو طلبت هذه مني مجاملة لا تلائم شخصاً متزوجاً . هيا يا أخي ، ألا ترى أني أنفذ أوامرك... أنا ذاهب إلى والد كريستين لأرجوه أن يطالبني بأي ترضية يراها عادلة وملائمة... أما طريقة سفري فعليك أن تتركها لي ."

وبهذه الكلمات اضطر الماستر غونولف إلى أن يكون راضياً . ولكنه حذّر من في المنزل بصرامة أن عليهم ألاّ يبلّغوا كريستين بأن إرلند قد غادر وحيداً .

•

كانت السماء الجنوبية تمتد بلون أصفر شاحب فوق اللون الأزرق الداكن لحقول الثلج الجبلية ، وذلك في المساء الذي اندفع فيه إرلند عبر ساحة كنيسة "سيل" ، والقشرة الثلجية تتحطم وتهسهس تحت مزلجته . في الأعلى كان الهلال يسير وقد التمع بلون أبيض ضبابي في غسق المساء .

في يوروندغارد كان دخان داكن يلتفّ صاعداً من فتحة الدخان نحو السماء الصافية الشاحبة . سمع رنّة ضربات الفأس المنتظمة والباردة عبر الهدوء .

من البوابة اندفعت مجموعة من كلاب المزرعة وهي تنبح على القادم الجديد . في داخل الساحة كان قطيع من الماعز المشعث يشق طريقه ، داكناً في الغسق الصافي... كانت العنزات تنهش في كومة من أغصان الصنوبر في وسط الساحة . كان ثلاثة أطفال صغار في ملابس شتائية يركضون فيما بينها .

أثّر هذا السلام المألوف لهذا المكان على إرلند على نحو غريب . وقف بقلق وانتظر لافرانس ، الذي خرج ليقابل الشخص الغريب... كان واقفاً عند كوخ الحطب يحادث رجلاً كان يصنع أعواداً للسياج . توقف في مكانه حين لاحظ أن القادم كان صهره... وأقحم الرمح الذي كان يحمله بقوة في الثلج .

سأله بصوت خفيض : " أهو أنت ؟ لوحدك... ؟ هل هناك... هل من شيء... ؟ كيف جئت على هذه الشاكلة ؟" أضاف خلال لحظة .

لملم إرلند نفسه ونظر إلى حميّه وجهاً لوجه : "هذا ما جرى . لقد ظننت أن أقل ما أستطيع فعله هو أن أحضر بنفسي لأحمل لكم الأنباء : لقد ولدت كريستين صبياً في يوم قداس مريم صباحاً... أجل ، هي في صحة جيدة الآن" ، أضاف بسرعة .

وقف لافرانس بهدوء لحظة . ضغط أسنانه بشدة على شفته السفلى... اهتزت ذقنه وارتجف قليلاً .

قال أخيراً : "يا لها من أنباء!"

كانت رامبورغ الصغيرة قد وصلت ووقفت قرب أبيها . رفعت نظرها وقد تضرج وجهها .

"اصمتي" ، قال لافرانس بقسوة ، رغم أن الفتاة الصغيرة لم تقل كلمة واحدة ، بل احمرت خجلاً فحسب . "لا تقفي هنا... اذهبي..."

لم يقل المزيد . وقف إرلند منحنياً إلى الأمام ، متكئاً على عصاه التي كان يقبض عليها بيده اليسرى . كان ينظر إلى الثلج . أما يده اليمنى فكانت مقحمة في صدره . أشار لافرانس :

"هل أنت جريح ؟"

قال إرلند : "قليلاً . لقد اصطدمت ببعض الصخور الجرداء في العتمة الليلة الماضية ."

أمسك لافرانس برسغه وتحسسها بحذر : "لا عظام مكسورة على ما أظن . عليك أن تبلّغ أمها بنفسك..." مضى نحو القاعة حين خرجت راغنفريد إلى الساحة . لاحقت زوجها بعينيها في استغراب ، ثم ميّزت إرلند وذهبت نحوه بسرعة .

أصغت دون كلمة واحدة منها ، بينما كان على إرلند للمرة الثانية أن يروي أنباءه . ولكن عينيها اخضلتا بالدموع حين قال في النهاية :

"أعتقد أنك كنت قد لاحظت على الأرجح حالها قبل أن نغادركم في الخريف الماضي... وأنك لابدّ قلقة عليها..."

قالت بصوت مرتجف : "هذا لطف منك يا إرلند ، أن تفكر بهذا . الواقع أني كنت خائفة عليها كل يوم منذ أن أخذتها منّا" .

عاد لافرانس :

"هذا دهن الثعلب... أرى خدّك متجمداً يا صهري . عليك أن تقبع لفترة في الغرفة الخارجية بينما تضمده لك راغنفريد بهذا ويزول التجمّد... كيف حال قدميك ؟... عليك أن تخلع جزمتك حتى نرى..."

●

حين دخلت جماعة البيت للعشاء ، أبلغهم لافرانس بالأنباء ، وطلب إحضار جعة قوية لهم ليحتفلوا . ولكن لم يَسُدْ جوٌ احتفالي خلال تناول الجعة... كان السيد نفسه قد جلس مع كوب ماء . وقد توسل إلى إرلند أن يغفر له ذلك... فقد كان قد أخذ على نفسه عهداً منذ أن كان غلاماً بألاّ يشرب سوى الماء خلال فترة الصوم . وهكذا جلس الناس بجدية نوعاً ما ، وراحوا يتبادلون الحديث بتمهّل وهم يحتسون الجعة . كان الأطفال يقتربون من لافرانس بين الحين والآخر... فكان يحيطهم بذراعه حين يقتربون من ركبته ، ولكنه كان يجيبهم بذهن غائب حين يخاطبونه . وقد ردت رامبورغ باختصار وحدّة حين حاول إرلند أن يداعبها... فقد كانت مصممة على ما يبدو على إظهار عدم محبتها لزوج أختها . كانت في شتائها الثامن الآن ، حيوية وجميلة ، ولكنها لا تشبه أختيها إطلاقاً .

سأل إرلند من يكون الطفلان الآخران . أجاب لافرانس بأن الصبي كان هافارد تروندسون ، أصغر الأولاد في ضيعة سوندبو . كان يشعر بالملل هناك بين الراشدين من أخوته وأخواته . وفي عيد الميلاد الماضي أبدى رغبته لعمته راغنفريد في القدوم معها . أما الفتاة الصغيرة فكانت هلغا رولفسداتر من بلاكارسارف... فما كان ممكناً للأقرباء سوى أن يصطحبوا أطفال (رولف) معهم إلى بيوتهم بعد جنازة (أمهم)... إذ كان أمراً مثيراً للشفقة أن يروا أباهم في تلك الحال التي صار عليها . بالنسبة إلى رامبورغ فقد كانت سعيدة بالحصول على هذا الأخ والأخت بالتربية . قال لافرانس : "بدأنا نشيخ راغنفريد وأنا ، وهذه الصغيرة أكثر مرحاً وحبّاً باللعب ممّا كانت عليه كريستين"... ثم ربت على شعر ابنته المجعّد .

مضى إرلند ليجلس إلى قرب حماته ، فسألته عن نفاس كريستين .

لاحظ أن لافرانس كان يصغي إلى ما يقولانه . ولكنه سرعان ما نهض ، وعبر الغرفة ، وارتدى قبعته وعباءته . كان ينوي الذهاب إلى منزل الكاهن كما قال... وهناك سيطلب من سيرا آيريك القدوم لمشاركتهم الشراب .

•

مضى لافرانس على الممر المطروق جيداً عبر الحقول إلى روموندغارد . كان القمر يغطس وراء الجبال الآن... ولكن آلاف النجوم راحت تومض فوق الجبال البيضاء . كان يأمل أن يكون الكاهن في البيت ، فما عاد يتحمل البقاء وحيداً مع الآخرين .

و لكنه حين وصل إلى ما بين الأسيجة قرب المزرعة ، رأى شمعة صغيرة تقترب منه . كان أودون العجوز يحملها... حين لاحظ وجود شخص ما على طريقه ، رنّ بجرسه الفضي الصغير . ارتمى لافرانس بيورغولفسون على ركبتيه في كومة الثلج قرب الممر .

مرّ أودون حاملاً الشمعة والجرس الذي كان لا يزال يرن بلطف . من خلفه جاء سيرا آيريك على ظهر حصانه . رفع حُقّ القربان المقدس في يديه حين اقترب من الرجل الراكع... ولم ينظر يميناً أو يساراً ، بل مرّ راكباً حصانه بهدوء ، بينما انحنى لافرانس ورفع يديه إلى الأعلى محيّياً (صورة) المخلّص .

... كان ذاك هو ابن آينار هنوفا ، ذاك الرجل الذي كان برفقة الكاهن... إذن كان الرجل العجوز يقترب من نهايته الآن...!

أجل ، أجل ، راح لافرانس يتلو الصلوات على الشخص المحتضر قبل

أن ينهض من الثلج ويعود إلى البيت . ومع ذلك ، فإن هذا اللقاء مع الرب في الليل قد شدّ من عزيمته ومنحه السلوان كثيراً .

•

حين ذهبوا ليرتاحوا ، سأل زوجته :

"ألم تكوني عارفة بهذا... أن الأمر كان على هذا النحو مع كريستين ؟"

سألت راغنفريد :

"أولم تكن أنت عارفاً ؟"

"لا" ، أجاب زوجها باختصار شديد ؛ ففهمت أن هذا الأمر كان يجول في فكره في بعض الأحيان .

"صحيح أني كنت خائفة لفترة خلال الصيف الأخير" ، قالت الأم مترددة . "لقد لاحظت أنها كانت قد فقدت شهيتها للطعام . ولكن مع مرور الوقت ، ظننت أني كنت قد خُدعت بذلك . لقد بدت مرحة طوال الوقت الذي كنا نستعدّ خلاله للزفاف..."

"أجل كان لديها سبب جيد لتكون كذلك" ، قال الأب ببعض التجهّم . "و لكن ألاّ تقول لك شيئاً... أنت أمها..."

"أجل تستطيع أنت أن تتذكر ذلك ، لأنها ارتكبت خطأ الآن" ، أجابت راغنفريد بمرارة . "أنت تعرف جيداً أن كريستين ما كانت قد اعتادت اللجوء إليّ أبداً..."

توقف لافرانس عن الكلام . خلال فترة قصيرة طلب من زوجته أن تنام

جيداً ، ثم اضطجع بهدوء إلى جوارها . شعر أن النوم ما كان سيعرف طريقه إليه قبل مرور فترة طويلة .

كريستين... كريستين... فتاته الصغيرة...

... لم يكن قد تطرق بكلمة واحدة إلى اعتراف راغنفريد له في ليلة الزفاف تلك . ولم تكن هي قادرة على التفكير بأنه قد جعلها تشعر بأنه يفكر في ذلك . لم يكن قد تغيّر في سلوكه معها... بل أنه قد أخذ يبذل جهده لإظهار المزيد من الود والحب . ولكن لم تكن هذه هي المرة الأولى في هذا الشتاء التي يلاحظ فيها هذه المرارة في راغنفريد ، أو يراها تبحث عن إهانة مستترة في كلماته البريئة . لم يفهم هو السبب ولم يعرف علاجاً لذلك ، فكان عليه أن يترك الأمور على حالها .

"أبانا الذي في السماوات"... صلّى لافرانس لأجل كريستين وطفلها . ثم صلى لأجل زوجته ولنفسه . وأخيراً صلّى ليتحلّى بالقوة على تحمل إرلند نيكولاوسون بصبر في الروح ، طالما كان مضطراً لإبقاء صهره في ضيعته .

•

لم يدع لافرانس صهره يغادر إلى موطنه قبل أن يطمئن على رسغه . كما أنه رفض فكرة عودة إرلند وحيداً .

قال إرلند في أحد الأيام : "ستكون كريستين شديدة السرور لو رافقتني إلى هناك" .

صمت لافرانس لفترة . ثم ذكر حججاً وعوائق كثيرة . لن تقبل راغنفريد أن تُترك وحيدة هنا في الضيعة . ولو سافر تلك المسافة البعيدة

شمالاً ، فهو لا يأمل إلاّ بالكاد أن يعود لأجل البذار الربيعي . ولكنه انطلق مع إرلند في النهاية . لم يصطحب معه أحداً... سيعود بالسفينة إلى رامسدال . ثم سيستأجر أحصنة توصله إلى "ديل"... كان لديه معارف في كل مكان على طول الطريق .

•

لم يتبادلا أطراف الحديث كثيراً على الطريق ، ولكنهما سافرا في حال من الوفاق . كان أمراً مجهداً للافرانس أن يواكب إرلند ، فهو ما كان ليرضى أن يعترف بأن الآخر كان سريعاً جداً بالنسبة إليه . إلاّ أن إرلند سرعان ما لاحظ ذلك ، وراح يوائم سرعته مع سرعة حميه . كان يبذل قصارى جهده لإرضاء حميه... فكان يمارس الأسلوب المذعن الهادئ حين كان يرغب في كسب ودّ أي شخص .

في الليلة الثالثة أويا إلى كوخ حجري . كان الطقس سيئاً وضبابياً ، ولكن بدا أن إرلند يعرف الطريق بكل ثقة وعلى الدوام . لاحظ لافرانس أن لإرلند عيناً واثقة رائعة لكل الإشارات والعلامات في الهواء وعلى الأرض ، وكذلك لطبيعة الحيوانات وأساليبها... وكان دائماً على علم بمكان تواجده . كان كل ما تعلّمه هو بنفسه ، وهو الذي كان معتاداً على الجبال ، عن طريق النظر والملاحظة والتذكر ، معروفاً على ما يبدو للآخر وكأنه يعرفه عن ظهر قلب . كان إرلند يضحك هو نفسه على ذلك... لقد كان يشعر بذلك كله على أنه في داخله .

وجدا الكوخ في العتمة الحالكة ، في الساعة نفسها التي تنبأ بها إرلند . فكر لافرانس في نفسه بليلة كهذه حين كان قد صنع فراشاً لنفسه في

الثلج على مرمى قوس من مخيم جياده . كان الثلج قد تكوم عالياً من حول الكوخ ، لذلك اضطرا إلى الدخول عنوة عبر فتحة الدخان . غطى إرلند الفتحة بفروة حصان وجدها في الكوخ ، وثبتها بشرائح خشبية ضغطها تحت الروافد . كشط الثلج الذي كان تغلغل إلى الداخل بزلاجته ، ونجح في إشعال نار في الموقد بالحطب المتجمد الموجود هناك . ثم سحب من تحت المقعد ثلاثة أو أربعة طيور من نوع الترمجان كان قد خبأها هناك خلال رحلته جنوباً... وغطاها بالطين الذي أخذه من الأرضية قرب الموقد حيث ذاب الصقيع عنها هناك ، ثم رمى بالكل على الحجر المتقد .

تمدّد لافرانس على المقعد الترابي حيث كان إرلند قد صنع أريكة له على أفضل ما يستطيع بواسطة حقائبهما وعباءتيهما .

قال ضاحكاً : "هذا هو أسلوب الجنود في التعامل مع الطيور المسروقة ."

"أجل ، فقد تعلمت بعض الأمور حين كنت أخدم مع الكونت" ، قال إرلند باللهجة نفسها .

كان نشيطاً ومليئاً بالحياة مثلما كان هادئاً بل وكسولاً تقريباً في بعض الأحيان كما رآه حموه في معظم الأوقات . وقد بدأ يروي حكايات ، وهو جالس على الأرض أمام الآخر ، عن السنوات التي قضاها في خدمة الكونت ياكوب أوف هالاند . كان قائداً لفصيل في القلعة ، وقد قاد ثلاثة سفن صغيرة لحماية الشاطئ . كانت عينا إرلند أشبه بعيون الأطفال الآن... لم يكن يتبجح ، إلاّ أنه ترك العنان للسانه . كان لافرانس ينظر إليه وهو مضطجع .

كان قد صلى للرب ليمنحه الصبر على صهره هذا... والآن كاد يكون غاضباً من نفسه لأنه أحبّ إرلند أكثر ممّا كان ينوي . كما تذكر أيضاً أنه

في تلك الليلة التي احترقت فيها الكنيسة ، كان قد أحب صهره جيداً . لم يكن إرلند يفتقر إلى الرجولة في جسمه الطويل . مرت وخزة ألم في قلب لافرانس... كانت من الإشفاق على إرلند ، فقد كان هذا مهيئاً لأمور أفضل من مجرد خداع النساء . ولكن كما كانت عليه الأمور ، فإنه لم يخرج سوى ببعض المزحات الصبيانية . ولو أن الأمور جرت على نحو يقوم معه أحد الزعماء بأخذ هذا الرجل من يده وجعله يقوم بعمل ما... ولكن الزمن لم يسمح بذلك ، والعالم الآن يجعل كل امرئ مضطراً إلى الوثوق بحكمه الخاص في أمور كثيرة... خاصة رجلاً في مكان إرلند وضعت في يديه ليس مصلحته الخاصة ، بل مصلحة أناس كثيرين آخرين... وهكذا كان زوج كريستين...

نظر إرلند إلى حميّه . أصبح هو أيضاً جدياً . ثم قال :

"هناك أمر واحد أود أن أتوسله منك... قبل أن تصل إلى منزلي... أن تقول لي ما الذي يثقل على قلبك" .

بقي لافرانس صامتاً .

قال إرلند كما في السابق : "أنت تعرف جيداً أني سأرضخ لك بأي أسلوب ترغبه ، ومستعد لتقديم أي ترضية قد تعتبرها عقاباً ملائماً لي ."

نظر لافرانس إلى وجه الشاب ثم ابتسم ابتسامة غريبة :

"قد يكون ذلك أمراً صعباً يا إرلند... صعباً عليّ قوله وصعباً عليك فعله... ولكن على الأقل عليك أن تقدم هدايا ملائمة إلى الكنيسة في سوندبو والكهنة الذين خدعتهم مع الأشخاص الآخرين" ، قال بقوة . "لن أتحدث عن ذلك بعد الآن . لا تستطيع إلقاء اللوم على شبابك أيضاً . لكان أشرف لك يا إرلند لو أنك اعترفت وخضعت قبل أن أقيم حفل زفافك..."

قال إرلند : "أجل . ولكني لم أعرف أن الأمور ستؤول إلى كشف الخطأ الذي ارتكبته في حقك ."

انتصب لافرانس في جلسته .

"ألم تكن تعرف حين تزوجت أن كريستين... ؟"

قال إرلند بنظرة خجلة : "لا . لم أعرف إلا بعد زفافنا بشهرين تقريباً ."

نظر إليه لافرانس متعجباً ، ولكنه لم يقل شيئاً . ثم استأنف إرلند الكلام بتردّد وضعف :

"أنا سعيد أنك حضرت معي يا عمي . كانت كريستين طوال هذا الشتاء كئيبة جداً... لم تكن مهتمة حتى بمخاطبتي بكلمة واحدة . وقد ظننت في مرات عديدة أنها لم تكن تجد السعادة لا معي ولا في هوسابي ."

أجاب لافرانس بلهجة فيها بعض البرود :

"أعتقد أن هذا ينطبق على كل الزوجات الشابات . والآن هي في حال جيدة ثانية ، ودون شك سرعان ما تعودان مجدّداً إلى التمتع بصداقة وثيقة كما كنتما سابقاً" ، هذا ما أضافه وهو يبتسم بسخرية .

و لكن إرلند جلس مجدداً وراح يحدق إلى كومة الجمر . لقد خطر له على نحو أكيد جداً ، وعلى نحو فجائي... رغم أنه أحس بذلك عندما شاهد الوجه الطفولي الصغير الأحمر لأول مرة على كتف كريستين الأبيض... لن تكون الأمور بينهما مرة أخرى كما كانت ذات مرة .

•

حين دخل والدها إلى القاعة الصغيرة حيث كانت كريستين مستلقية ، جلست في سريرها ومدّت يديها إليه . رمت بذراعيها من حوله وبكت وبكت على نحو مؤلم إلى حد أن لافرانس شعر بالخوف .

كانت قد غادرت الفراش لفترة من الزمن ، ولكنها حين علمت أن إرلند مضى جنوباً عبر الجبال لوحده ، وحين مرّ الوقت ولم يعد ، بدأت تشعر بخوف شديد فعادت لتستلقي في الفراش مجدداً .

كان واضحاً أنها لا تزال ضعيفة الجسم... كانت تبكي لأتفه الأمور... وصل الكاهن الجديد سيرا آيليف سيركسون إلى الضيعة خلال غياب إرلند . وكان قد قرّر الذهاب بين الحين والآخر والجلوس إلى قرب سيدة المنزل ليقرأ لها... ولكنها كانت تنخرط بالبكاء عند أقل ذكر لأي أمر ودون سبب ، حتى أنّه ما عاد يعرف إلا بالكاد ما كان عليه أن يُسمعها .

•

في أحد الأيام حين جلس أبوها معها ، كانت كريستين قد صمّمت على تبديل قماط الطفل بنفسها ، حتى يرى هو فعلاً كم كان وسيماً حسن الشكل . وبينما راح الطفل يحرك أطرافه بين الأقمطة على غطاء السرير أمام أمه ، سأل لافرانس : "ما هي تلك العلامة على صدره ؟"

فوق قلب الصبي مباشرة كانت هناك بقع صغيرة بلون الدم... كانت تبدو وكأن يداً مدمّاة قد لمسته في ذلك الموضع . لقد انزعجت كريستين أيضاً حين رأت هذه العلامة لأول مرة . ولكنها حاولت أن تجد العزاء في السبب التالي الذي ستذكره لوالدها :

إنها مجرد علامة النار على ما يبدو... لقد التقطتها بصدري حين رأيت الكنيسة تحترق ."

أجفل أبوها . أجل... صحيح أنه لم يكن يعرف مدى طول المدة التي أخفت فيها سرها أو مدى ما أخفته . ولم يستطع أن يفهم أنه كان ممكناً لها - هي ابنته - أن تخفي عنه هو كل ذلك...

•

قالت كريستين لأبيها مرات كثيرة : "أظن أنك لا تحب ابني كما يجب" ، وكان لافرانس يضحك ويقول : كلا ، بل يحبّه كما يجب . كان قد أحضر هدايا ثمينة أيضاً ليضعها في المهد وفي سرير المرأة النفساء . ولكن كريستين رأت أنه لم يكن هناك من يقدّر ابنها حق قدره... وخاصة إرلند . توسلت : "انظر إليه يا أبي ، ألا ترى أنه يضحك... هل سبق لك ورأيت طفلاً بجمال «ناكفه» يا أبي ؟"

كانت تطرح عليه هذا السؤال المرة تلو المرة .

في إحدى المرات أجابها لافرانس :

"هافارد أخوك... ابننا الثاني... كان طفلاً جميلاً جداً ."

و خلال وقت قصير سألت كريستين بصوت خفيض :

"أكان هو الذي عاش لفترة أطول بين كل أخوتي ؟"

"أجل ، لقد عاش حتى صار عمره شتاءين... كلا ، ليس عليك يا كريستين أن تبكي مجدداً" ، توسل إليها بلطف .

•

لم يكن لافرانس ولا غونولف نيكولاوسون يحبان أن يلقب الصبي بـ "ناكفه" . كان عُمِّد باسم نيكولاوس وكان إرلند يقول إن هذين الاسمين هما شيء واحد . ولكن غونولف قال : لا ، تروي الحكايات البطولية عن رجال كانوا يسمون باسم "ناكفه" في أيام الوثنية . ولكن ما كان هناك شيء يجعل إرلند يستخدم اسم أبيه ، وراحت كريستين تنادي الصبي بالاسم الذي سمعت إرلند يحيّي به ابنه للمرة الأولى .

•

لذلك كان في ذهن كريستين شخص واحد آخر عداها كان يفهم تماماً كم هو الطفل "ناكفه" نبيل وواعد . وكان هذا الشخص هو الكاهن الجديد ، السيرا آيليف... وفي هذه المسألة كان حكمه أقل صحة بالكاد من حكم الأم .

كان سيرا آيليف شخصاً قصيراً نحيل الأطراف بكرش صغيرة مستديرة ، وكان هذا يمنحه منظراً يدعو إلى الضحك نوعاً ما . كان حضوره لا يدعو إلى الانتباه... فالأشخاص الذين حادثوه أكثر من مرة واحدة لا يزالون يجدون صعوبة في تمييز الكاهن مرة أخرى ، فقد كان وجهه مألوفاً جداً . كان شعره وبشرته من اللون نفسه... مثل الرمل الأصفر المحمرّ... وكانت عيناه الزرقاوان بلون المياه غير جاحظتين . في مشيته كان هادئاً ومنكفئاً . ولكن الماستر غونولف قال إن سيرا آيليف كان على درجة عالية من المعرفة ، وأنه كان في وسعه أن ينال أعلى المناصب لو كان يتحلى ببعض الجرأة . ولكن علاوة على المعرفة كان يتحلّى بالطهارة في الحياة وبالتواضع وبالحب الورع للمسيح وكنيسته .

كان من منبت وضيع ، ورغم أنه لم يكن يكبر غونولف نيكولاوسون إلا قليلاً ، إلاّ أنه كان يبدو أقرب إلى رجل عجوز . كان غونولف على معرفة به منذ أن كانا يرتادان المدرسة معاً في نيداروس ، وكان يتحدث دائماً عن آيليف سيركسون بكثير من الحب . لم يعتبره إرلند مكسباً كبيراً ككاهن في هوسابي ، ولكن كريستين سرعان ما راحت تتطلع إليه بثقة وودّ .

كانت كريستين لا تزال تنام في القاعة الصغيرة مع الطفل ، حتى بعد أن تم دخولها الكنيسة . كان يوماً متعباً لكريستين ذلك اليوم... لقد قادها سيرا آيليف عبر باب الكنيسة ، ولكنه لم يجرؤ على مناولتها . كانت قد اعترفت له . ولكن فيما يخص الخطيئة التي ارتكبتها ، كشريكة في ذنب وفاة شخص آخر دون مباركة ، فعليها أن تنشد الغفران من الأسقف . في ذلك الصباح حين جلس غونولف معها وهي تعاني من عذاب الروح ، نصحها بأن عليها ، ما أن تتحرر من خطر الموت الجسدي ، أن تنشد شفاء روحها . لذلك ما أن تعود الصحة والقوة إليها على حد كاف ، فإن عليها أن تؤدي نذرها للقديس أولاف . فهو بعد تدخّله قد أنقذ ابنها وجعله يولد حياً وفي صحة جيدة وأن يُعمَّد فيطهّر ، لذلك عليها الآن أن تمشي حافية القدمين إلى قبره وأن تضع فوقه إكليل العذرية الذهبي ، الذي لم تصنه بل حملته دون وجه حق . وقد نصحها غونولف بتحضير نفسها لهذه الحجة بالحياة المنعزلة والصلوات والتلاوة والتأمل ، وكذلك بالصوم ، ولكن هذا سيكون محدوداً لأجل الطفل الذي ترضعه .

في مساء دخولها الكنيسة (بعد الانقطاع الذي تبع الولادة) ، وبينما هي جالسة في أسف ، دخل عليها غونولف وأعطاها سبحة . قال إنه في الدول الأجنبية لم تكن من عادة الرهبان والكهنة فحسب استخدام السبحات

للمساعدة في الممارسات الدينية . وكانت تلك السبحة جميلة جداً . كانت حباتها من نوع من الخشب الأصفر الهندي ، ولها رائحة حلوة ورقيقة حتى أنها كانت ملائمة جداً لتذكّر المرء بماهية الصلاة الجيدة... تضحية القلب والتوق للمساعدة على العيش بورع أمام الرب . كانت بعض الحبات من العنبر والذهب ، أما الصليب فكان من المينا الرائعة .

•

في هذا الربيع انشغل إرلند نيكولاوسون كثيراً بتنظيم ضيعته . في هذا العام تم إصلاح كل الأسيجة ونصبت البوابات في الوقت الملائم كما جرت أعمال الفلاحة والبذار الربيعي في وقت مبكر وعلى نحو ملائم ، كما اشترى إرلند بعض القطعان ذات القرون . كان قد اضطر إلى ذبح كثير من حيواناته في السنة الجديدة ، ولم تكن تلك خسارة كبيرة ، فقد كان كثير منها عجوزاً وبائساً . كما كان قد أحضر عمالاً مختصين بحرق القار وتقشير لحاء شجر البتولا . ثم جرى إصلاح المنازل والأبنية وترميم السقوف . لم يسبق لهوسابي أن عرفت مثل هذا الترتيب والنظام كما قالت الناس ، منذ أن كان السير نيكولاوس العجوز في كامل عنفوانه . أجل ، كما كان معروفاً أيضاً أن السيد كان يستمع إلى نصيحة حميه ويتلقى المساعدة منه . ومضى إرلند معه ومع أخيه الكاهن ، وراح يزور الأصدقاء والأقرباء في الريف المجاور على نحو ملائم ، مع بعض الخدم النشيطين المناسبين . في الأيام الخالية كان من عادة إرلند أن يتجول على ظهور الجياد مع مجموعة كاملة من الرجال العنيدين المتهورين . وهكذا تحول حديث الريف ، الذي كان لفترة طويلة يدور حول حياة إرلند نيكولاوسون الشريرة المخزية ، وعن الأعمال الزراعية

السيئة والمدمرة في هوسابي ، تحول الآن إلى نكات ذات مغزى إيجابي . أصبح الناس يبتسمون قائلين بأن الزوجة الشابة التي حظي بها إرلند قد جلبت الكثير من التغيير خلال ستة أشهر .

قبل قداس بوتولف ، انطلق لافرانس بيورغولفسون نحو نيداروس في صحبة الماستر غونولف . كان سيحلّ ضيفاً على الكاهن لبضعة أيام ، وذلك خلال زيارته لضريح القديس أولاف والكنائس الأخرى في المدينة ، وذلك قبل انطلاقه جنوباً إلى بيته مجدداً . وقد ودّع ابنته وزوجها بكل حب وودّ .



٦

كان على كريستين أن تنطلق في مشوارها مشياً على الأقدام إلى نيداروس بعد ثلاثة أيام من قداس سليمن (٨ تموز / يوليو)... وفي وقت متأخر من ذلك الشهر ستكون المدينة في حالة من الاضطراب والازدحام استعداداً لاحتفال قداس أولاف (٢٩ تموز / يوليو) أما الأسقف فلن يكون في البلدة في وقت أبكر .

في الليلة الماضية كان الماستر غونولف قد وصل إلى هوسابي ، وقد رافق في وقت مبكر من الصباح سيرا آيليف إلى الكنيسة لأجل صلاة الصباح . كان العشب أشبه بغطاء سرير من الفراء الرمادي لكثافة الندى فوقه ، بينما راحت كريستين تسير إلى الكنيسة . ولكن نور الشمس كان ذهبياً على الغابات التي كانت تعلو حافة الجبل ، وراح طائر الوقواق يصيح من جانب الجبل... بدا وكأنها ستحظى بطقس جميل خلال حجّها .

لم يكن من أحد في الكنيسة عدا إرلند وزوجته والكاهنين في مكان الجوقة الذي أنير . نظر إرلند إلى قدمي كريستين الحافيتين . لا بدّ أن الأرض باردة جليدية بالنسبة إليها وهي واقفة عليها . كان عليها أن تمشي

مسافة العشرين ميلاً دون أي رفيق عدا صلواتها . حاول أن يرفع قلبه إلى الرب ، كما لم يحاول منذ سنوات كثيرة .

كانت ترتدي ثوباً طويلاً رمادياً ، وتلفّ حبلاً حول خصرها . تحت ثوبها ، كما كان يعرف هو ، لبست شلحة من قماش الأكياس . وكانت قماشة من الصوف الخشن غير المصبوغ تغطي شعرها بعد أن ربطته بشدة .

حين نزلا من الكنيسة وخرجا إلى نور شمس الصباح ، قابلتهما خادمة تحمل الطفل . جلست كريستين على بعض جذوع الحطب . وقد جلست بعد أن أدارت ظهرها إلى زوجها وأرضعت الطفل حتى شبع ، حتى يكون شبعاناً تماماً عند الانطلاق . وقف إرلند ، دون حراك ، وقد ترك مسافة صغيرة بينهما... كان شاحباً وبارداً في مواجهة الانفعال .

خرج الكاهنان بعد فترة قصيرة... كانا قد خلعا رداءيهما في المَوْهِف . توقفا قرب كريستين . ثم مضى سيرا آيليف نحو الضيعة ، ولكن غونولف مكث وساعدها على ربط الطفل بأمان على ظهرها . في كيس معلق من عنقها كانت قد وضعت الإكليل الذهبي والنقود وبعض الخبز والملح . أمسكت عصاها بيدها وانحنت أمام الكاهن انحناءة عميقة ثم بدأت تمشي بهدوء شمالاً على الطريق المؤدي إلى الغابات .

•

تُرك إرلند واقفاً... شاحب الوجه كالأموات . وفجأة بدأ يركض . إلى شمال الكنيسة كانت بعض الأكمات الصغيرة المغطاة بالقليل من الأعشاب وأشجار العرعر والبتولا المقصوصة قصاً قصيراً جداً... كان الماعز معتاداً على الرعي هناك . ركض إرلند صاعداً الأكمات... من هناك استطاع رؤيتها وقد ابتعدت على الطريق مسافة قصيرة... ثم ابتلعتها الغابات .

لحق غونولف أخاه ببطء . بدا الكاهن طويلاً وداكناً في نور الصباح اللامع . كان هو أيضاً شديد الشحوب .

وقف إرلند بفم فاغر ، والدموع تسيل فوق خدّيه الشاحبين . وفجأة سقط على ركبتيه... ثم رمى بنفسه أرضاً على العشب القصير ، وتمدد هناك وهو ينوح وينوح ويمزق نباتات الخلنج بأصابعه السمراء الطويلة .

وقف غونولف دون حراك . نظر إلى الرجل الباكي... ثم نحو الغابات حيث اختفت المرأة .

رفع إرلند رأسه قليلاً .

"يا غونولف ، أكان ضرورياً أن تفرض هذا عليها ؟ أكان ضرورياً ؟" هكذا سأله مجدداً . "أما كان ممكناً لك أن تحلّها من نذرها ؟"

لم يجب الآخر . ثم تابع يقول :

"أولم أعترف وأكفّر ؟" جلس في مكانه . "لقد اشتريت لها ثلاثين يوماً من القداسات وصلوات المساء وقداساً سنوياً في يوم وفاتها وإلى الأبد وقبراً في أرض مقدسة... وقد اعترفت بالخطيئة للأسقف «هلغه» وحججت إلى «الدم المقدس» في «شفيرين»... أولم يساعد هذا كله كريستين قليلاً ؟"

قال الكاهن بهدوء : "لو فعلت هذا ، ووضعت أمام الرب قلباً نادماً ونلت غفرانه... فإن عليك أن تعرف تماماً أن العلامات التي خلّفتها خطاياك هنا على الأرض ، لا بد لها حتى تمحى بدلاً من أن تكافح سنة بعد سنة . إن ما ارتكبته بحق هذه المرأة التي أصبحت زوجتك الآن ، حين هبطت بها إلى حضيض الحياة القذرة ثم إلى القتل... لا يمكن لك أن ترفعه عن كاهلها ، إنما

الرب هو القادر على ذلك . صلّ له حتى يحميها في هذه الرحلة ، حيث لا تستطيع مرافقتها وحراستها . ولا تنس ، طالما أنكما على قيد الحياة ، أنك شاهدت زوجتك تغادر منزلك على هذا النحو... وذلك بسبب خطاياك أنت أكثر من خطاياها هي ."

قال إرلند بعد برهة :

"لقد أقسمت بالرب وإيماني المسيحي ، قبل أن أسلبها شرفها ، أني لن أتخذ غيرها زوجة لي . وقد وعدت هي بأنها لن تتخذ غيري زوجاً لها ، طالما بقينا أحياء على هذه الأرض . لقد قلت أنت نفسك يا غونولف إن من أقسما على هذا النحو فهما زوجان أمام الرب . وإن أياً منهما لو تزوج من شخص آخر لاحقاً فسيكون في حالة زنا في عيني الرب . فإن كان هذا صحيحاً فإن حياة كريستين معي ليست بالدنسة على ما أعتقد..."

"لا تكمن الخطيئة في أنك تعيش معها" ، قال الكاهن بعد برهة . "لو كان ذلك ممكناً دون انتهاك لقوانين أخرى... ولكنك قدت تلك الطفلة إلى تمرد آثم ضد كل من جعلهم الرب مسؤولين عنها... وأخيراً وضعت عليها وزر دم . كما سبق أن قلت لي هذا أيضاً ، في تلك المرة حين تحدثنا في القضية : لذلك رسمت الكنيسة قوانين تتعلق بالزواج ، والتي تنص على أن إشعارات الزواج يجب أن تنشر على الناس ، وأن علينا نحن الكهنة ألاّ نزوج رجلاً وفتاة ضد إرادة أقربائهما ." جلس وشبّك إحدى ركبتيه بيديه ، وحدّق عبر الريف اللامع من الصيف ، والبحيرة الصغيرة تومض بلون أزرق في قعر الوادي . "كان عليك أن تعرف المسألة بنفسك يا إرلند... لقد بذرت من حولك غابة من العوسج والقرّاص... كيف يمكنك أن تجذب فتاة شابة إلى جانبك ولا تتوقع منها أن تكون ممزقة وجريحة ونازفة..."

"لقد وقفت إلى جانبي أكثر من مرة يا أخي في زمن قضيتي مع إلين" ، قال إرلند بصوت خفيض . " وقد كنتُ دائماً ممتنّاً لك..."

قال غونولف بصوت مرتجف : "لا أظنّ إلاّ بالكاد أني كنت سأفعل ما فعلته لو عرفت أنك سترتكب تلك الفعلة مع عذراء شابة طاهرة... طفلة بالمقارنة مع عمرك" .

لم يجب إرلند . سأله غونولف بصوت خفيض :

"في تلك المرة في أوسلو... ألم يخطر لك أن تفكر بما كان سيحلّ بكريستين لو حملت... وهي تسكن في دير للراهبات ؟... وكانت هي مخطوبة لرجل آخر... وأبوها رجل معتزّ بنفسه وغيور على شرفه... كما أن أقرباءها كلهم من علية القوم ، غير معتادين على العار... ؟"

"يمكنك أن تصدق جيداً أني فكرت في ذلك..." كان إرلند قد التفت برأسه جانباً . "لقد وعدني مونان بالوقوف إلى جانبها... وقد قلت لها ذلك..."

"مونان! كيف استطعت أن تكلم شخصاً كمونان عن شرف كريستين ؟"

قال إرلند بعد وقت قصير : "إنه ليس بالرجل الذي تحسبه إياه ."

"و ماذا عن زوجته ، قريبتنا ، الليدي كاترين ؟ لم تكن تقصد أنت ، على ما أعتقد ، أن عليه أن يحملها إلى واحد من تلك الأماكن خاصته حيث يحتفظ بعشيقاته... ؟"

ضرب إرلند الأرض بقبضته حتى أدمى براجمه :

"أجل ، إن اعتراف زوجتي لأخي أمر دبره الشيطان ضدي كرجل ."

قال الكاهن : "لم تعترف لي . ولست كاهن أبرشيتها . لقد شكت لي

عذابها المرير وخوفها... وقد بذلت جهدي لأساعدها وأمنحها المشورة والراحة على أفضل نحو ."

"حسناً" ، رفع إرلند وجهه ونظر إلى أخيه . "أعرف ذلك بنفسي... ما كان يجب أن أفعل ما فعلت... أي أن أجعلها تأتي إلى منزل برينهيلد..."

جلس الكاهن صامتاً للحظة .

"في منزل برينهيلد فلوغا... ؟"

"أجل . ألم تحكِ لك هي عن هذا حين حكت البقية ؟"

"كان من شأنه أن يكون أمراً صعباً على كريستين ، على ما أعتقد ، أن تروي مثل هذه الأمور عن زوجها خلال الاعتراف" ، قال الكاهن بعد برهة . "أعتقد أنها تفضل الموت بالأحرى على أن تحكي عن هذا الأمر في مكان آخر ." جلس لفترة قصيرة ، ثم قال بقوة وقسوة :

"إن كان الأمر كذلك يا إرلند ، أنك اعتبرت نفسك زوجها أمام الرب ، وأنت الذي عليك حمايتها وحراستها ، فإن أفعالك تبدو لي بكل تأكيد على أنها أسوأ في نظري . لقد ضلّلتها عن الطريق القويم نحو البساتين ومخازن التبن ، كما قدت خطواتها إلى بيت عاهرة... وأخيراً أحضرتها إلى بيورن غونارسون والليدي آشيلد..."

"لن أسمح لك بالكلام على هذا النحو عن خالتي آشيلد" ،

"لقد قلت أنت نفسك قبل الآن إنك تعتقد أنها مذنبة بقتل عمنا... هي وذاك الرجل بيورن..."

"لا أكترث بهذا كله" ، قال إرلند بقوة . "الخالة آشيلد عزيزة عليّ ."

قال الكاهن : "أجل ، أفهم ذلك" . ارتسمت على فمه ابتسامة ازدراء ملتوية صغيرة . "بما أنك لم تنكر عليها أن تقابل لافرانس بيورغولفسون بعد أن حملت ابنته وانطلقت بها بعيداً . سيبدو بالفعل يا إرلند أنك تعتبر أن صداقتك يمكن أن تشترى بثمن بخس..."

"يا للمسيح!" أخفى إرلند وجهه في يديه ، ولكن الكاهن تابع قائلاً :

"أرأيت عذاب الروح عند زوجتك ، وهي ترتجف من هول خطاياها ، في حالة من البؤس واليأس... وهي جالسة هناك على وشك أن تضع ابنك ، والموت واقف عند بابها... وهي بحد ذاتها مجرد طفلة ، وشديدة التعاسة..."

ارتجف إرلند : "أعرف ، أعرف! . أعرف أنها كانت تفكر في الأمر خلال الوضع ، في عذابها . لأجل المسيح يا غونولف ، اصمت الآن... فأنا أخوك على أي حال!"

و لكن الكاهن تابع دون رحمة :

"لو كنت رجلاً مثلك وليس كاهناً... وضلّلت فتاة شابة وطيبة كهذه... لكنت حرّرت نفسي من الأخرى... فليساعدني الرب ، بل كنت سأفعل ما فعلته الخالة آشيلد بزوجها ولاحترقت في جهنم لأجل ذلك إلى النهاية ، مفضلاً ذلك على جعلها تعاني مثل هذه الأمور التي أنزلتها على رأس حبيبتك البريئة..."

ظل إرلند جالساً وهو يرتجف .

قال بصوت خفيض : "تسمّي نفسك كاهنا . أ أنت كاهن جيد إلى حد أنك لم ترتكب خطيئة أبداً... مع امرأة ؟"

لم ينظر غونولف إلى أخيه . تضرج وجهه :

"لا يحق لك أن تطرح مثل هذه الأسئلة... ومع ذلك سأجيب عليك . يعرف ذاك الذي مات على الصليب كم أنا في حاجة مريرة إلى رحمته . ولكني أقول لك يا إرلند... لو لم يكن لديه فوق هذه الأرض كلها خادم واحد طاهر نقي من الخطيئة ، ولو لم يكن في كنيسته المقدسة كاهن واحد أكثر إخلاصاً وشرفاً منّي ، أنا الخائن البائس لربي... إلاّ أن ما يُدرّس في هذه الكنيسة هو قوانين الرب ووصاياه . لا يمكن أبداً لكلمته أن تلوث بفم كاهن غير طاهر ، فهي لن تحرق شفاهنا وتأكلها... ولكنك لن تستطيع أن تفهم هذا . أنت تعرف هذا كما أعرفه أنا ويعرفه كل عبد للشيطان افتداه (هو) بدمه : لا يمكن لقانون الرب أن يهتز ولا لشرفه أن يُمس . كما أن شمسه قوية سواء سطعت على البحر المقفر والجبل الرمادي المقفر أو على هذه الأرض الجميلة والخصبة..."

كان إرلند قد أخفى وجهه بين يديه . جلس صامتاً لفترة طويلة ، وحين تكلم كان صوته جافاً وقاسياً :

"سواء كنت كاهناً أم لا... بما أنك لا تعيش حياة القديسين المطلقة... ألا تفهم... ؟ هل كنت قادراً على أن تفعل بامرأة نامت بين ذراعيك وولدت لك طفلين... هل كنت قادراً على أن تفعل بها ما فعلته آشيلد بزوجها ؟"

صمت الكاهن لفترة قصيرة . ثم قال ببعض السخرية :

"ما كنت ميّالاً إلى الحكم على الخالة آشيلد بهذه القسوة..."

"لا يمكن للأمر أن يكون بالنسبة إلى الرجل ما هو إلى المرأة . أتذكر آخر مرة كانا فيها هنا في هوسابي ، وكان السير بيورن معهما . كنا جالسين قرب الموقد ، أمي وآشيلد ، وكان السير بيورن يعزف على قيثارته ويغني لهما... كنت واقفاً قرب ركبته . ثم ناداها «بارد »... كان في الفراش وكان

يريد منها أن تذهب لترتاح على الفور... لقد استخدم كلمات شديدة البذاءة قليلة الاحتشام... نهضت الخالة آشيلد وكذلك السير بيورن . ثم غادر هو القاعة ، ولكنهما تبادلا النظرات أولاً... أجل ، لاحقاً فكرت حين كبرت إلى الحد الكافي لأفهم... قد يكون الأمر صحيحاً... كنت قد طلبت الإذن لأدل السير بيورن على الطريق إلى المبنى الذي كان سينام فيه ، ولكني لم أجرؤ ، كما لم أجرؤ على النوم في القاعة . ركضت خارجاً ونمت قرب الرجال في غرفة الخدم . وحق المسيح يا غونولف... لا يمكن أن يكون الأمر بالنسبة إلى آشيلد كما هو بالنسبة إلى رجل في تلك الليلة...

"لا يا غونولف... أن أقتل امرأة قامت بـ... إلا أني اكتشفت أنها كانت مع رجل آخر..."

و لكن هل فعل ذلك الشيء نفسه يا ترى ؟ لم يستطع غونولف أن يقول هذا لأخيه . لذلك سأله ببرودة :

"ألم يكن صحيحاً أيضاً أن إلين قد خانتك ؟"

"غير صحيح ؟" التفت إرلند إلى أخيه فجأة وقد اشتعل غضباً ." "أتعني أنه كان عليَّ أن ألومها لأنها سلمت نفسها إلى غيسور... بعد أن أوضحتُ لها مرة إثر أخرى أن ما بيننا كان قد انتهى ؟"

أحنى غونولف رأسه .

"لا ، الأحرى أنك على حق" ، قال منهكاً ، بصوت خفيض . ولكن رغم سماعه بهذه الموافقة من إرلند استثار إرلند فجأة ورفع رأسه ونظر إلى الكاهن :

"أنت رفيق جداً بكريستين يا غونولف . لكم هو غريب منك تعلّقك

بمرافقتها طوال فصل الربيع... أكثر تقريباً ممّا هو لائق بأخ وكاهن . لقد بدا الأمر وكأنك – تقريباً – تضنّ بها عليّ... ولولا أنها كانت في تلك الحالة التي هي عليها حين تقابلتما للمرة الأولى ، لكان الناس سيظنون..."

نظر غونولف إليه . قفز إرلند تحت نظرة أخيه وقد فقد توازنه ، ونهض غونولف أيضاً . لم يسحب نظرته فضربه إرلند بقبضته . أمسك الكاهن برسغه . حاول إرلند أن يتشابك مع أخيه ، ولكن غونولف توقف دون حراك وهو يصده عنه .

هدأ إرلند فوراً . "كان عليّ أن أتذكر أنك كاهن" ، قال بصوت خفيض . قال غونولف بابتسامة صغيرة : "أنت تعرف أنه من هذه الناحية لا حاجة بك للندم ." وقف إرلند وهو يفرك رسغه .

"أجل ، كانت لديك دائماً قوة الشيطان في يديك..."

"هذا أشبه بأيام كنا صغاراً" ، جاء صوت غونولف رقيقاً وخفيضاً على نحو غريب . "غالباً ما فكرت بتلك السنوات كلها التي كنت فيها بعيداً عن البيت... أيام كنا صغاراً . غالباً ما كنا نتخاصم في تلك الأيام ، ولكن ذلك ما كان يدوم طويلاً يا إرلند ."

قال الآخر بأسف الآن : "و لكن الآن يا غونولف ، لا يمكن أن يكون الأمر الآن كما كان حين كنا صغاراً ."

أجاب الكاهن بهدوء : "لا . لا يمكن ذلك على ما يبدو..."

وقفا صامتين لفترة طويلة . وأخيراً قال غونولف :

"سأتركك الآن يا إرلند . سأهبط إلى آيليف ، وأودّعه ثم سأنطلق في طريقي . أجل ، سأذهب إلى ذلك الكاهن في أوركدال ، ولن أذهب إلى نيداروس وهي هناك ." ابتسم قليلاً .

"يا غونولف! لم أعن ذلك... لا ترحل عني هكذا..."

وقف غونولف صامتاً . سحب نفساً أو نفسين عميقين ، ثم قال :

"هناك أمر واحد أريدك أن تعرفه عني يا إرلند... بما أنك تعرف أنه لديّ معرفة بكل ما يتعلق بك . اجلس ."

"جلس الكاهن على الأرض كما سبق . تمدّد إرلند على الأرض ، ثم نظر ، ويده تحت ذقنه ، إلى وجه أخيه المتيبّس والمتوتر على نحو غريب . ابتسم قليلاً :

"ما الأمر يا غونولف... هل تريد أن تعترف لي ؟"

قال أخوه برقة : "أجل ." ومع ذلك ظل جالساً بصمت لفترة طويلة . رأى إرلند شفتيه تتحركان مرة واحدة ، ثم قبض على ركبتيه بقوة بيديه :

"ما الأمر ؟" التمعت ابتسامة فوق وجه إرلند . "طبعاً لا يمكن للأمر أن يكون هكذا...أن سيدة جميلة ما... بعيداً هناك في البلاد الجنوبية..."

قال الكاهن : "لا ." أصبح صوته أبحّ خشناً : "لا يتعلق الأمر بالحب...

"أتعرف يا إرلند ، كيف عاهدت نفسي أن أصبح كاهناً ؟"

"أجل ، حين مات أخوتنا ، وكان (أبوانا) يخشيان أن يخسرانا أيضاً..."

قال غونولف : "لا . لقد ظنوا أن مونان قد تعافى مجدداً ولم يكن "غاوته" قد التقط العدوى... فهو لم يمت إلا في الشتاء التالي . ولكن كنت أنت في الفراش تختنق حتى تكاد تموت ، فنذرتني أمي لخدمة القديس أولاف لو أنقذ هو حياتك..."

سأله إرلند بعد برهة : "و من قال لك ذلك ؟"

"إنغريد ، أمي بالتبنّي" .

"أجل هذا صحيح بالفعل أني كنت هدية غريبة للقديس أولاف" ، قال إرلند ضاحكاً ضحكة صغيرة . "لقد كنتُ هدية غير ملائمة له... ولكنك قلت أنت نفسك يا غونولف ، إنك كنت راضياً تماماً أنك أصبحت كاهناً منذ طفولتك..."

قال الكاهن : "أجل . ولكن الأمر لم يكن كذلك على الدوام . أتذكر جيداً ذلك اليوم الذي غادرتَ فيه هوسابي برفقة مونان باردسون لتنضم إلى الملك ، قريبنا ، وتصبح من رجاله . رقص حصانك تحتك . التمع درعك الجديد وبرق . لم أحمل درعاً أبداً... أنت وسيم يا أخي - كنت في السادسة عشرة فحسب . وكنت قد رأيت على نحو مسبق ، منذ زمن بعيد ، أنك كنت محبوباً جداً من السيدات والآنسات..."

قال إرلند : "لم يدم ذلك المجد طويلاً . لقد تعلمت تقليم أظافري ، وكيف أقسم بالمسيح عند كل كلمة ثانية ، واستخدم خنجري لأصدّ به الضربات بينما أضرب بسيفي . ثم أُرسلتُ شمالاً وقابلتُها... وقد لاحقني الحراس بالعار وأغلق أبي أبوابه في وجهي..."

"ثم هربت من البلاد مع سيدة جميلة" ، قال غونولف بهدوء كما من قبل . "و سمعنا في البيت أنك أصبحت قائداً لقلعة الكونت ياكوب ."

"أجل ، لم تكن تلك قضية كبرى كما بدت هنا في البيت" ، قال إرلند ضاحكاً .

"لم تكن على علاقة طيبة مع أبينا... أما أنا فلم يكن هو يأبه بما فيه الكفاية بأن يكون على علاقة طيبة معي . كانت أمي تحبني ، أعرف ذلك... ولكنها لم تكن تقدرني إلاّ قليلاً بالمقارنة معك... وقد لاحظت هذا على أفضل نحو حين هربت من البلاد . كنت يا أخي الشخص الوحيد الذي يحبني عن

حق . والرب يعرف أنك كنت أعزَّ صديق لي على الأرض . ولكن في تلك الأيام حين كنت شاباً وأحمق ، فقد مرّت أوقات اعتبرتُ فيها أنك قد مُنحتَ أكثر مني بكثير . كان هذا ما أريد أن أقوله لك يا إرلند ."

بقي إرلند مستلقياً ووجهه نحو جانب الجبل .

رجاه قائلاً : "لا تتركنا يا غونولف" .

قال الكاهن : "أجل . أنا ذاهب . لقد تبادلنا الكثير من الكلام الآن . فليسمح الرب ومريم العذراء بأن نلتقي ثانية في وقت أفضل . وداعاً يا إرلند..."

قال إرلند دون أن يرفع بصره : "وداعاً" .

حين عاد غونولف بعد ساعات من بيت الكاهن ، ليستعدّ لرحلته ، رأى رجلاً يركب حصاناً يتجه عبر الحقول نحو الغابات الجنوبية . كان يحمل قوساً معلقاً على ظهره ، وكانت ثلاثة كلاب تعدو إلى جانب حصانه . كان ذلك هو إرلند .

•

في هذه الأثناء كانت كريستين تمضي مسرعة في طريقها ، وذلك عبر ممر الغابة بين الجبال . كانت الشمس عالية في السماء الآن ، وراحت قمم أشجار الصنوبر تومض أمام سماء الصيف ، ولكن ضمن الغابات كانت برودة وعذوبة الصباح ما زالتا متلبثتين . كان الهواء مترعاً برائحة أبر الصنوبر والتربة الخثّية المنعشة وبعطر زهور نبات الليّنة المنتشرة على كل الهضاب الصغيرة بأجراسها الوردية الصغيرة . وكان الممر العشبي رطباً وطرياً ومريحاً

لقدميها . مشت كريستين ، وهي تردّد صلواتها ، وكانت ترفع بصرها بين الحين والآخر إلى غيوم الطقس اللطيف البيضاء التي راحت تسبح في الزرقة فوق قمم الأشجار .

لم تستطع طوال الوقت سوى أن تفكر في الأخ إدفين . لقد سار هو على هذا النحو دائماً ، سنة بعد سنة ، من بداية الربيع إلى أعماق الشتاء . عبر الممرات الجبلية ، تحت السموات السوداء وحقول الثلج البيضاء . كان يرتاح في السايترات ويشرب من الجداول ويأكل الخبز الذي تحمله إليه فتيات السايتر وقطعان الخيل... ثم كان يودّع الناس ويدعو الرب ليمنح السلام والبركة على الناس والحيوانات . إلى الأسفل عبر الغابات المتنهّدة على جوانب الجبال التي كان يمر بها ، ونزولاً إلى "ديل" ، كان يتجول ، طويلاً محني الكتفين برأس يميل إلى الأمام ، وذلك على امتداد الطرقات عبر المزارع المحروثة جيداً والمساكن... وفي كل مكان ، وأنّى كان يمرّ ، كانت توسطاته المترعة بالحب لكل الناس تترك طقساً نيّراً وراءه .

لم تقابل أي كائن حيّ ، باستثناء بعض الأبقار أحياناً... كانت هناك سايترات فوق قمم الهضاب . ولكن الممر كان مطروقاً على نحو جيد ، وفوق الأراضي المستنقعية وضعت جسور خشبية . لم تكن كريستين خائفة... أحست وكأن الراهب كان يمشي غير مرئي إلى جانبها . أيها الأخ إدفين ، إن كنت فعلاً قديساً مباركاً ، ولو كنت تقف أمام وجه الرب ، صلّ لأجلي الآن!

يا يسوع المسيح ، يا مريم المباركة ، أيها القديس أولاف... كانت تتوق إلى الوصول إلى مكان حجّتها...و كانت تتوق إلى أن ترمي عن كاهلها عبء الخطايا الخفية منذ سنين ، عبء القداديس والواجبات التي سرقتها

على نحو غير شرعي خلال فترة عصيانها ولا توبتها... كانت تتوق إلى أن تصبح طليقة وطاهرة ، ولكن على نحو أشد حدة من التوق الذي كانت تحس به لتتخلص من عبئها في الربيع قبل أن يولد الصبي...

كان ينام بعمق وأمان على ظهر أمه . لم يستيقظ حتى كانت قد عبرت الغابات ونزلت إلى مزارع عصفور الثلج ، واستطاعت أن ترى إلى ما وراء لسان بودفيك وسالتنز من الزقاق البحري . جلست في مرعى بعيداً عن الممر وأنزلت الرزمة والطفل فيها إلى حضنها ، ثم فتحت صدر ثوبها . كان أمراً عذباً أن تشعر به على صدرها ، وأمراً عذباً أن تجلس لبعض الوقت . سرت عذوبة مباركة عبر كل جسدها وهي تشعر بالثديين القاسيين كالحجر والمتورمين بالحليب يصبحان طريين وهو يرضع .

كان الريف ساكناً من حولها ، يتدفأ تحت الشمس ، مع مروج خضراء وحقول قمح لامعة بين غابات سوداء . هنا وهناك كانت نفحة دخان صغيرة تصعد فوق أسقف المنازل . في بعض الأماكن كان حصاد التبن قد بدأ .

حصلت على الإذن لتعبر من سالتنس-ساند إلى ستاين بالقارب . وبعد العبور ، كان عليها أن تدخل منطقة مجهولة تماماً . كان الطريق الذي عليها اتباعه عبر" البايننز " يؤدي إلى درب بين مزارع ، ثم وصلت إلى الغابات مجدداً ، ولكنها ما كانت تبتعد هنا كثيراً عن أنظار مساكن البشر . كانت تمرّ من هناك منهكة . ولكنها فكرت بأبويها : ألم يمشيا حافيي القدمين من يورروندغارد إلى سيل ، عبر دوفر ثم نزولاً إلى نيداروس ، حاملين أولفهيلد بينهما على محفة ؟ لم يكن عليها أن تفكر في مدى ثقل "ناكفه" على ظهرها .

الأسوأ كانت الحكة الرهيبة في رأسها من القلنسوة الصوفية الخشنة

المشبعة بالعرق . ومن حول خصرها ، حيث كان الحبل يضغط الملابس على جسدها ، كانت شلحتها تنهش من لحمها حتى أن أماكن كثيرة من لحمها أصبحت تؤلمها .

بدأ عابرو سبيل آخرون يعبرون الطريق . بين الحين والآخر كان الناس يمرون بها على ظهور الجياد ، يتجهون بهذا الاتجاه أو الآخر . أدركت عربة فلاح متجه إلى المدينة محملا البضائع... كانت العجلات الثقيلة الصلدة تصطدم وترتطم بالجذور والحجارة ، فتصرّ وتصرف . كان هناك رجلان يجران حيواناً إلى المسلخ . نظرا قليلاً إلى الحاجّة الشابة ، لأجل جمالها... إلاّ أن عابري السبيل من أمثالها كانوا مشهداً مألوفاً في هذا الريف . في أحد الأماكن كان بعض الرجال مشغولين بإنشاء منزل على مسافة قصيرة من الطريق . نادوا عليها ، ولحق بها رجل عجوز راكضاً وعرض عليها جرعة من الجعة . حيته كريستين بانحناءة ، شربت ثم شكرته بكلمات تشبه ما كان الفقراء يقولونه لها حين كانت تقدم لهم الحسنات .

سيكون عليها أن ترتاح مجدداً عمّا قريب . وجدت منحدراً أخضر صغيراً قرب الطريق مع جدول يمرّ إلى القرب منه . وضعت كريستين الطفل في العشب ، فاستيقظ وراح يبكي على نحو مثير للشفقة ، فأسرعت تقول بذهن تائه الصلوات التي كان عليها أن تقولها . ثم وضعت "ناكفه" في حضنها وفكت قماطه . كان قد لوث ملابسه ولم يكن معها سوى القليل من الغيارات . لذلك غسلت الملابس ووضعتها فوق صخرة ملساء دافئة لتجفّ في الشمس . أما الملابس الخارجية فلفّتها من حول الصبي . وقد أحبّ هو هذا كثيراً ، فقد كان قادراً على أن يركل برجليه ويبسط ذراعيه وساقيه وهو يرضع من ثدي أمه . نظرت كريستين بمتعة إلى أعضائه البيضاء الوردية وضغطت إحدى يديه بين ثدييها وهي ترضعه .

مرّ فارسان إلى القرب منها خبباً . رفعت كريستين نظرها... كان سيداً وتابعه ، ولكن السيد لجم حصانه فجأة وقفز من على سرجه ورجع يمشي على قدميه إلى حيث كانت هي جالسة . كان ذاك هو سايمون أندرسون .

سألها : "ربما كنت تفضّلين ألاّ أحييك ؟" وقف ممسكاً بحصانه وهو ينظر إليها . كان يرتدي ملابس السفر ، سترة طويلة ضيقة دون كمّين فوق جاكيت من الكتان بلون أزرق فاتح... وقبعة حريرية على رأسه ، بينما كان وجهه أحمر لامعاً من العرق . "من الغريب أن أراك ، ولكن ربما لا تريدين أن تخاطبيني... ؟"

"لا شك أنك تعرف... كيف حالك يا سايمون ؟" جذبت كريستين قدمها العارية إلى ما تحت تنورتها ، وحاولت أن تبعد الطفل عن ثديها . ولكن الصبي صرخ وغصّ وراح يتخبّط حتى أجبرها على أن تضعه على صدرها مجدداً . جمّعت ثوبها فوق صدرها بقدر ما استطاعت ، وجلست بعينين مسدلتين .

سألها سايمون وهو يشير إلى الطفل : "هل هو طفلك ؟" كلا ، كان سؤالاً أحمق!" قال ضاحكاً . "إنه صبي كما أعتقد ؟ إن إرلند نيكولاوسون شخص محظوظ ." كان قد ربط حصانه إلى شجرة ، وجلس الآن على حجر على مسافة قصيرة من كريستين . جذب سيفه إلى الأمام بين ركبتيه ، وجلس وقد وضع يديه فوق مقبض السيف ، وراح يقلّب التراب بنهاية الغمد .

قالت كريستين حتى تتلفظ بأي شيء : "لم أكن أتوقع مقابلتك هنا ، شمال دوفر ، يا سايمون ."

قال سايمون : "كلا . لم تكن لي مهمات في هذا الجزء من البلاد سابقاً ."

تذكرت كريستين أنها سمعت - خلال الاحتفال الذي جرى في مناسبة وصولها إلى بيتها الجديد - أن الابن الأصغر لآرن غيافالدسون أوف رونهايم سيتزوج من الابنة الصغرى لأندرس دار . سألته إن كان في رانهايم .

قال سايمون : "تعرفين إذن . أجل ، لقد عُرف الأمر على نحو مسبق في هذا الريف كما أرى ."

قالت كريستين : "أجل ، أن غيافالد سيتزوج من سيغريد ؟"

رفع سايمون بصره بحدة وضغط شفتيه معاً :

"أرى أنك لا تعرفين الأمر بعد ."

قالت كريستين : "لم أغادر ساحة هوسابي طوال الشتاء . ولم أر سوى قلة من الناس . لقد سمعت كلاماً عن هذا الزفاف..."

"أجل... ستسمعين الأمر من شفتيّ أنا ، كما أعتقد... لا بدّ أن الأمر قد وصل إلى هنا ." جلس صامتاً لبرهة - "لقد مات غيافالد قبل ثلاثة أيام من ليلة الشتاء (١٤ تشرين الأول / أكتوبر أو بداية نصف السنة الشتوية)... لقد سقط هو وحصانه وكسر ظهره . أتذكرين ، قبل أن تصلي إلى دايفرين ، حيث الطريق تتجه شرقاً إلى النهر ، والأرض تصبح شديدة التحدّر... ولكن لا ، لن تتذكري إلاّ بالكاد . كنا في طريقنا إلى حفل خطوبتهما . لقد وصل آرن وأبناؤه بحراً إلى أوسلو..." توقف سايمون عن الكلام فجأة .

سألته كريستين بخجل وخوف : "أكانت سيغريد تحب غيافالد وكانت سعيدة بأنها ستتزوج منه ؟ على الأرجح ؟"

قال سايمون : "أجل . وقد ولدت له ابناً... في يوم قداس الرسل في الربيع الماضي..."

"أوه ، سايمون!"

سيغريد أندرسداتر ذات الخصلات البنية من حول وجهها الصغير المدوّر! حين كانت تضحك كانت تظهر غمازات صغيرة في وجنتيها . غمازات وأسنان بيضاء صغيرة طفولية... كانت لسايمون هذه الملامح نفسها . تذكرت كريستين أنها حين كانت تمر بحالات لا تتعاطف فيها مع خطيبها ، كانت هذه الملامح تبدو لها لا رجولية... وخاصة بعد أن عرفت إرلند . كانا متشابهين جداً ، سيغريد وسايمون . ولكن لأنها كانت ممتلئة وضاحكة فقد جعلها ذلك أجمل . كانت في الرابعة عشرة من عمرها في ذلك الحين... لم يسبق لكريستين أن سمعت ضحكة أشد مرحاً من ضحكتها . كان سايمون دائم الإغاظة والمزاح مع أخته الصغرى . شعرت كريستين أن هذه كانت أعزّ الجميع على قلبه .

قال سايمون : "تعرفين أن سيغريد كانت الأغلى عند أبي ، لذلك كان أميل إلى أن يترك لها الفرصة هي وغيافالد حتى يريا إن كانا يحبان واحدهما الآخر... أعتقد أنهما فعلا ذلك أكثر من المطلوب... كانا يندفعان الواحد نحو الآخر كلما كانا يتقابلان ، ويتبادلان النظرات ويضحكان... جرى هذا في الصيف الماضي في دايفرين . ولكنهما كانا صغيرين جداً... ما كان أحد ليشك في أن يحدث مثل هذا الأمر . أما آستريد – تعرفين أنها كانت مخطوبة حين كنا أنت وأنا ـ أجل ، لم تعارض ذلك . إن تورغريم كما تعرفين صاحب ثروة كبيرة ، وهو لطيف أيضاً على نحو ما – ولكن لا شيء ولا إنسان يمكنه أن يرضيه ، كما يعتقد دائماً أنه يعاني من كل الأوصاب والأمراض التي يسمع بها الناس . لذلك كنا سعيدين ، جميعاً ، أن سيغريد كانت سعيدة جداً بالزواج الذي كان يهيأ لها...

"و حين أحضرنا غيافالد إلى البيت على هذا النحو ، فإن هالفريد

زوجتي ، قد رتبت الأمر بحيث تجعلها تذهب معنا إلى ماندفيك . ثم ، في وقت لاحق ، تبين أن غيافالد لم يكن قد تركها...وحيدة..."

صمتنا لفترة وجيزة . ثم قالت كريستين برقة :

"لم تكن هذه إذن بالرحلة الممتعة لك يا سايمون ؟"

ضحك قليلاً : "أوه ، لا . ولكن سرعان ما سوف أعتاد على الركوب للانطلاق في مهمات حزينة ، يا كريستين . وبالنسبة لهذه المهمة ، فأنت ترين أني كنت الأنسب... فليس لدى أبي القوة كما أن سيغريد والصبي معي في ماندفيك . والآن بعد أن رتبنا الأمور ليحلّ هذا الصبي محل أبيه بين آل رانهايم ، ولقد لاحظت أنه سيكون موضع ترحيب منهم ، ذلك الصبي الصغير المسكين ، وذلك حين سيرسل إلى هناك في الوقت الحاضر..."

سألته كريستين وهي تلتقط أنفاسها : "و ماذا عن أختك ؟ أين ستكون ؟"

نظر سايمون إلى الأرض .

"سيبقيها أبي في البيت في دايفرين الآن" ، قال بصوت خفيض .

"سايمون! أوه ، كيف يسمح قلبك بهذا ؟"

أجاب دون أن يرفع بصره : "لا شك أنك ترين كم أنه كسب كبير للصبي أن يكون مع أهل أبيه ، وهذا هو الأمر الأهم . سيسرنا هالفريد وأنا أن يكون كلاهما معنا في بيتنا . فليس كهالفريد أخت مخلصة ومحبة لسيغريد . ولا حتى أبي... رغم أن هذا الأمر قد حطّمه . ولكن ألا ترين ما حصل ؟ كان من شأن الأمر أن يكون مخالفاً للعدالة لو أن أياً منّا قد عارض منح الصبي البريء اسم أبيه وإرثه ."

تـرك طفل كريستين ثديها . وبسـرعة غطت الأم ثـديها بثوبـها ، ثم ضمـت الصغير إليـها ، وهي ترتجف . غصّ بـرضا مرتين ثم تـقيأ قليلاً على نفسه ويدي أمه .

نظر سايمون إلى الاثنين ، ثم قال بابتسامة من نوع ما :

"كنت أفضل حظاً من أختي يا كريستسن " .

قالـت كريستين بـرقة : "أجل ، لا شك أنه يبدو لـك مصيراً صالحاً أني أدعى زوجة وأن ابني شرعي المولد . لأني لـو تركت مع ابن زنـا لا أب له ، لكنت قد تلقيت ما أستحق عن عدل..."

قال سـايمون : "لـكنـت اعتبرت ذلـك أسـوأ نـبأ يـمكن أن أسـمعه . لا أتـمنى لك سوى الـخير يا كريستين" . وقد قال العـبارة الأخيرة بصوت أخفض .

سرعان ما سألها عن الطريق . كان قد سافر شمالاً بالسفينة من تونسبرغ ، كما قال . "عليّ أن ألحق بتابعي الآن..."

سألت كريستين : "هل «فين» هو تابعك ؟"

"لا . «فين» متزوج الآن . لـم يعد يـعمل لديّ ، ألا زلـت تـذكرينه ؟" سأل سايمون وقد امتزج صوته ببعض السرور .

سألت كريستين وهي تنظر إلى ناكفه : "هل هو جميل ابن سيغريد ؟"

أجاب سايمون : "سمعتهم يقولون ذلك . في نظري يبدو لي أي طفل بين ذراعي أمه شبيهاً بأي طفل آخر" .

قالت كريستين : "إذن أعتقد أنك لم ترزق بأطفال ؟" ولم تـستطع أن تغالب ابتسامة .

أجاب باختصار : "لا ." ثم ودعها وانطلق في طريقه .

•

حين انطلقت كريستين مجدداً في طريقها ، لم تعد تحمل الطفل على ظهرها . بل حملته بين ذراعيها ، وهي تضغط بوجهه على نحرها . ما عادت تستطيع التفكير بأي شيء عدا سيغريد أندرسداتر .

و لكن أباها هي ما كان سيفعل ذلك . أن يقوم لافرانس بيورغولفسون بركوب حصانه وأن يذهب ليتوسل حصة حفيده المولود ولادة خسيسة من أهل أبيه!... ما كان سيفعلها أبداً . ولم يكن قلبه ليسمح له أن يأخذ طفلها الرضيع منها... أن ينتزعه من ذراعي أمه ، بعيداً عن ثديها ، وحليبها لا زال على شفتيه البريئتين . ناكفه ابني أنا ، لا ، ما كان قلبه سيسمح له بذلك... ولو كان ذلك عادلاً عشرة أضعاف ما كان أبي ليفعل ذلك أبداً...

و لكنها لم تستطع أن تبعد صورة ما عن ذهنها . مجموعة من الفرسان تختفي شمالاً عبر الوادي ، حيث يضيق "ديل" وتحتشد الجبال ، سوداء من أحراج الصنوبر . هبات باردة تأتي من النهر الذي يندفع هادراً عبر الصخور الكبيرة ، الخضراء الجليدية ، المزبدة ، مع برك سوداء هنا وهناك . إن من يسقط هناك سيتدحرج من صخرة إلى أخرى ويتهشم جسده فوراً... يا للمسيح ، يا لمريم...

ثم شاهدت الحقول في بيت أهلها في يوروندغارد في ليلة صيف صافية... ورأت نفسها تعدو هابطة الممر المؤدي إلى المرجة الصغيرة ضمن أجمة أشجار جار الماء... حيث اعتادوا غسل ملابسهم . كان النهر يجري هادراً بقوة ورتابة بين الصخور الكبيرة بحوضه المنحدر... أيها الرب يسوع ، لا أستطيع أن أفعل أي شيء آخر...

أوه ، ولكن أبي ما كان ليسمح له قلبه بذلك . حتى لو كان الأمر منافياً للعدل . حين كنت أصلي على ركبتيَّ العاريتين المثنيتين : يا أبي ، عليك ألاّ تأخذ ابني مني...

•

وقفت كريستين فوق فيغينسبريكا وشاهدت المدينة تمتدّ تحتها تحت نور الشمس الذهبي . إلى ما وراء منحنيات النهر العريضة اللامعة كانت منازل بنية ذات أسقف خضراء مكسوة بالأعشاب ذات جملونات مدبّبة ، وكنائس ذات أسقف خشبية عالية وكنائس ذات أسقف رصاصية تلمع على نحو باهت . ولكن فوق الأرض الخضراء ، فوق المدينة الجميلة ، كانت "كنيسة المسيح "(٥) تبرز هائلة وتلتمع على نحو رائع ، وكأن كل شيء آخر كان منبطحاً عند قدميها . ومع شمس المساء التي تلمع فوق صدرها وعلى زجاج نوافذها المومضة ، والأبراج والقمم التي تصيب بالدوار ودواراتها الذهبية ، كانت الكنيسة تنتصب مشيرة إلى السماء الصيفية اللامعة .

من حولها كان الريف أخضر بلون الصيف ، يحوي ضياعاً عظيمة ذات سكان ورعين على منحدراته . في الخارج مجدداً كان الزقاق البحري يمتدّ واسعاً ولامعاً ، مع ظلال تنجرف فوقه من غيوم الصيف الكبيرة التي كانت تبرز فوق الجبال الزرقاء المومضة إلى البعيد . كانت جزيرة الدير ، الواطئة بين مويجات متلاطمة ، تبدو كإكليل أخضر ذي أزهار بيضاء هي أبنيته الحجرية . كانت هناك صواري سفن كثيرة في المرسى ، منازل جميلة جداً وكثيرة جداً...

رمت المرأة الشابة بنفسها ، وقد أنهكت تماماً وهطلت دموعها ، أمام

الصليب المنصوب على جانب الطريق ، كما كان آلاف الحجاج قد فعلوا قبلها ، وهم يحمدون الرب لأن هناك أيد تقدّم المساعدة للأرواح البشرية في رحلتها عبر هذا العالم الجميل والخطير .

•

كانت الأجراس تدق لأجل صلاة المساء في الكنائس والأديرة حين دخلت كريستين ساحة كنيسة المسيح . تجرأت فرفعت بصرها لبرهة إلى واجهة الكنيسة الغربية ، ثم وقد غشاها العمى ، أسدلت عيناها .

لم يقم البشر بقوتهم الذاتية بإنجاز هذا العمل... لقد عملت روح الرب عملها في أوستاين المقدس وكذلك فيمن شيّدوا هذا الصرح من بعده . ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض... الآن فهمت معنى الكلمات . إنه انعكاس لمجد ملكوت الرب شاهد في هذه الحجارة على أن إرادة الرب كانت عادلة . ارتعدت كريستين . أجل ، إن الرب حريّ بأن يتقلّب غضباً من كل ما هو فاسد... من الخطيئة والعار والدنس .

في دهاليز المسكن السماوي يقف رجال ونساء مقدسون وجميلون إلى حد أنها لم تجرؤ على النظر إليهم . كانت حوالق جميلة لا تذوي من الأبدية تلتف بصمت صاعدة إلى السماء : تورق على البرج أو الطربال وتزهر على كؤوس القربان الحجرية . فوق الباب المتوسط كان المسيح معلقاً على صليبه ، بينما مريم ويوحنا المعمدان يقفان إلى جانبه ، وهم بلون أبيض كأنهم منحوتون من الثلج وكان الذهب يتلألأ فوق اللون الأبيض .

دارت ثلاث مرات من حول الكنيسة وهي تصلي . الأسوار الضخمة القوية ذات الغنى المذهل بالأعمدة والأقواس والنوافذ ، ولمحات إلى

المنحدرات الهائلة للسقف ، البرج ، يذهب الطربال عالياً في الفراغ السماوي : غرقت كريستين تحت عبء خطيئتها .

ارتجفت حين قبّلت الحجر المنحوت للبوابة . وفي ومضة كالبرق رأت الخشب المحفور الداكن حول باب الكنيسة في موطنها حيث كانت تقبّله بشفتيها الطفوليتين بعد أبيها وأمها...

رشّت الماء المقدس على الطفل وعلى نفسها... وفكرت في ذلك الزمن حين اعتاد أبوها ممارسة هذا الطقس حين كانت صغيرة . ثم تقدمت نحو الكنيسة وقد ضمت الطفل بقوة بين ذراعيها .

مرت عبر غابة : الأعمدة كانت مغضنة مثل أشجار قديمة ، وعبر الغابة كان النور يتدفق متعدد الألوان وواضحاً كأغنية ، من النوافذ المزينة بالصور . فوقها عالياً كانت وحوش وكائنات بشرية تلعب بين الأوراق الحجرية المنحوتة ، وكانت الملائكة تلهو... وكانت الأقواس ترتفع عالياً عالياً على نحو مثير للدوار وتحمل الكنيسة عالياً نحو الرب . سقطت كريستين على ركبتيها عند أحد الأعمدة . لقد اخترقها الغناء شأن نور قوي جداً . وهاهي ترى الآن كيف كانت تتمدّد في التراب...

أبانا . نؤمن بإله واحد . السلام عليك يا مريم ، الكثير من الشكر . كانت قد تعلمت صلاتها بترددادها بعد أبيها وأمها قبل أن تفهم منها كلمة واحدة... منذ زمن لا تستطيع تذكره . يا يسوع المسيح! هل هناك امرأة تحمل من الخطايا مثل ما تحمل هي... ؟

عالياً تحت قوس النصر المرفوع فوق الناس ، علق المسيح المصلوب . أما العذراء البتول التي كانت أمه فوقفت تحدق في ألم مهلك إلى ابنها البريء ، وهو يعاني موتاً مترعاً بالعذاب وكأنه فاعل للشر .

و هنا ركعت هي ، وثمرة الخطيئة بين ذراعيها . ضمت الطفل إليها... كان نضراً كثمرة تفاح ، أحمر وأبيض كوردة... كان مستيقظاً الآن ، وراح يتطلع إليها بعينين حلوتين صافيتين...

لقد حملت به بالخطيئة . حملتها تحت قلبها القاسي الشرير . ثم سُحب من جسدها الذي لوثته الخطيئة ، جميلاً جداً وصحيحاً جداً ، رائعاً ونضراً ونقياً إلى حد لا يوصف . كانت الرحمة التي لا تستحقها قد حطمت قلبها . ركعت وقد دمرها الندم ، ونبع البكاء من روحها كما يتدفق الدم من جرح الموت .

ناكفه... ناكفه... يا بنيّ... يحلّ الرب خطايا الآباء على الأبناء . ألم أكن أعرف ذلك ؟... أجل ، عرفت ذلك . ولكن لم تكن هناك رحمة في قلبي للحياة البريئة التي قد تستيقظ في رحمي... لتكون ملعونة ومدانة بالعذاب بسبب خطيئتي...

هل تبتُ عن خطيئتي حين حملتك في داخلي يا ابني الحبيب ، الحبيب ؟ أوه ، كلا ، لم تكن تلك توبة... كان قلبي قاسياً من الغضب والأفكار الشريرة في الساعة التي شعرت فيها بك تتحرك ، صغيراً جداً وعاجزاً جداً...أيها الكائن الرائع سيطر عليّ . يا أيتها الروح الممجدة السلام عليّ...هكذا غنت ، ملكة كل النساء حين اختيرت لتحمله هو الذي كان سيموت لأجل خطايانا... لم أتذكره هو القادر على أن يحمل عبء خطيئتي وخطيئة طفلي... أوه ، كلا ، لم تكن تلك توبة ،ولكني تظاهرت بالدناءة والبؤس وتوسلت وتوسلت أن تُخرق أوامر الصلاح والاستقامة ، لأني لم أكن قادرة على تحمل الأمر لو كان الرب سيدعم قانونه ويعاقبني حسب كتابه الذي عرفته طوال حياتي...

أوه ، أجل ، الآن عرفت الأمر . لقد ظنت أن الرب كان واحداً كأبيها وأن القديس أولاف كان كأبيها . كانت تظن طوال الوقت ، عميقاً في قلبها ، أنه حين سيصبح عقابها أثقل من أن تتحمله ، عندها ستواجه ، ليس العدالة ، بل التعاطف...

كانت تبكي لذلك لم تستطع أن تنهض حين نهض الناس خلال الصلاة . بقيت على الأرض وقد تكومت فوق طفلها . إلى القرب منها كان أشخاص آخرون لم يستطيعوا النهوض... فلاحتان في ملابس لائقة مع صبي صغير بينهما .

نظرت ناحية الكورس . خلف الأبواب المذهبة ذات القضبان كان ضريح القديس أولاف يتلألأ في العتمة ، عالياً خلف المذبح . سرت فيها قشعريرة باردة كالثلج . هناك كان جسده المقدس راقداً ينتظر يوم البعث . يوم سيرتفع الغطاء ويقوم هو . وبفأسه في يده سيمشي في هذه الكنيسة الهائلة . ومن الأرضية المرصوفة ، ومن التراب في الخارج ، ومن كل مقبرة في أرض النرويج ، ستقوم هياكل الموتى الصفراء... ستُكسى الهياكل لحماً وسيحتشد الجميع حول ملكهم . أولئك الذين ناضلوا حتى يسيروا على خطاه المعلّمة بالدم ، وأولئك الذين سعوا إليه حتى يساعدهم بأعباء الخطيئة والأسف والمرض التي حلت عليهم هنا في هذه الحياة وعلى أولادهم . وهاهم الآن يتحلقون من حول سيدهم ويتوسلون إليه حتى يوصل طلباتهم إلى الرب . أيها الرب أصغ إلى صلواتي لأجل هذا الشعب الذي أحمل له الكثير من الود حتى أني لأفضل أن أخرج عن القانون وأعاني من الفاقة والكره والموت ، على أن يترعرع رجل أو امرأة في النرويج ولا يعرفان أنك قد متّ لتخلّص كل الخاطئين . أيها الرب ، أنت الذي أمرتنا بالخروج وجعل كل الشعوب من

تابعيك... بدمي كتبت أنا أولاف هارالدسون إنجيلك بلسان النرويجيين ، لأجل هؤلاء الأحرار الفقراء من شعبي...

أغمضت كريستين عينيها ، وهي تشعر بالغثيان والدوار . كان وجه الملك أمامها : عيناها المشعتان شاهدتا قاع روحها... ارتجفت تحت نظرة القديس أولاف .

هل فهمت الآن يا كريستين أنك في حاجة إلى العون ؟

أجل يا سيدي ومليكي ، الآن فهمت ذلك . إن حاجتي ماسة لعونك لي ، حتى لا أبتعد عن الرب مجدداً . كن معي ، أنت يا زعيم شعبه ، حين أتقدم بصلواتي ، وأتوسل إليك أن أُمنح الرحمة . يا أولاف المقدس ، صلّ لأجلي .

قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله وروحاً مستقيماً جدد في داخلي .

لا تطرحني من قدام وجهك

حررني من الوباء ، ايها الرب ، أيها الرب امنحني السلام...

•

انتهت الصلاة . كان الناس يغادرون الكنيسة . نهضت الفلاحتان اللتان ركعتا إلى القرب من كريستين . ولكن الصبي الذي كان بينهما لم ينهض . بدأ يتحرك فوق الأرضية بضغط براجم قبضتيه على الألواح الحجرية ثم بقذف نفسه إلى الأمام مثل غراب صغير لم ينبت ريشه بعد . كانت له ساقان ضئيلتان ملويتان تحت جسده . سارت المرأتان بحيث تخفيانه عن الأنظار على أفضل نحو تستطيعانه تحت ملابسهما .

حين ابتعدتا عن النظر ، رمت كريستين بنفسها أرضاً وقبّلت أرض الكنيسة حيث مرّتا إلى القرب منها .

وقفت ، وهي في حالة الشك وضائعة ، قرب المدخل إلى الكورس ، حين خرج كاهن شاب من الباب ذي القضبان المشبكة . توقف أمام الشابة ذات العينين المحمرتين ، وأبلغته كريستين بمهمتها ، بقدر ما تستطيع من الدقة . في البداية لم يفهمها إلا بالكاد . ثم أخرجت الإكليل الذهبي وقدمته إليه .

"أوه ، أنت كريستين لافرانسداتر ، زوجة إرلند من هوسابي... ؟" نظر إليها ببعض العجب . كان وجهها متورّماً من البكاء . "أجل ، أجل ، لقد تحدث أخو زوجك الماستر غونولف عن ذلك ، أجل ."

قادها إلى المَوْهِف ، وأخذ منها الإكليل ، ثم فكّ القماش الكتاني من حوله ونظر إليه . ثم ابتسم قليلاً .

"أجل ، ستفهمين على ما أعتقد... لا بدّ من وجود شهود وما شابه... لا يمكنك التخلّي عن مثل هذا الشيء الثمين ، أيتها السيدة ، وكأنه كسرة خبز مغطاة بالزبدة... ولكن يمكنني أن آخذه كعهدة في هذه الأثناء... هذا أشبه برغبتك في عدم اختيار حمله خلال تجوالك في المدينة... أوه ، اطلب إلى الكاهن آرن أن يتفضل ويأتي إلى هنا" ، قال إلى أحد خدم الكنيسة .

"أعتقد أن زوجك يجب أن يكون معك حقاً . ولكن ربما وصلت رسالة منه إلى غونولف...

"عليك أن تتقدمي إلى الأسقف نفسه... أليس الأمر كذلك ؟ أو إلى هاوك توماسون الذي هوالكاهن المسؤول .لا أعرف إن كان غونولف قد تكلم مع

اللورد آيليف... ولكن عليك الحضور إلى هنا عند صلاة الصباح غداً ، وتستطيعين أن تطلبيني بعد الصلاة . اسمي بال أسلاكسون . أما هو" ، وهنا أشار إلى الطفل ، فعليك أن تتركيه في النزل . ستنامين في منزل الأخوات في باكه ، هذا ما أتذكر أن أخا زوجك قد قاله ."

دخل كاهن آخر وتبادل الاثنان أطراف الحديث لبعض الوقت . فتح الأول خزانة صغيرة في الجدار ، وأخرج ميزاناً ثم وزن الإكليل ، بينما راح الآخر يكتب في سجل . ثم وضعا الإكليل في الخزانة وأقفلاها .

كان كانون بال على وشك أن يقودها إلى الخارج... ولكنه سألها أولاً إن كانت ترغب في أن يرفع لها ابنها إلى ضريح القديس أولاف .

حمل ابنها بالرشاقة الواثقة إنما غير المبالية لكاهن اعتاد على حمل الأطفال خلال العماد . دخلت كريستين معه إلى الكنيسة ، وسألها إن كانت هي راغبة أيضاً في تقبيل الضريح .

فكرت كريستين في أنها لا تجرؤ ، ولكنها لحقت بالكاهن صاعدة الدرج المؤدي إلى المصطبة العالية حيث كان الضريح . وقد مرّ أمام عينيها نور هائل مبهر حين قرّبت شفتيها من الضريح .

نظر إليها الكاهن للحظة وقد اعتراه الخوف من أن تقع مغشياً عليها . ولكنها نهضت مجدداً على قدميها . ثم جعل هو جبين الطفل يلمس الضريح المقدس .

مضى كانون بال معها إلى باب الكنيسة وسألها إن كانت واثقة من قدرتها على أن تجد طريقها إلى الممرّ . ثم تمنى لها ليلة طيبة... كان يتكلم طوال الوقت بأسلوب ناعم جاف مثل أي رجل بلاط شاب مهذب .

كان المطر قد بدأ بالهطول قليلاً ، وبدأت روائح عذبة تهبّ على نحو منعش من الحدائق ومن الممرّ الذي كان نضراً وأخضر كفسحة ريفية ، باستثناء المساحات الضيقة الطويلة العارية من وطء أقدام الناس .

حمت كريستين الطفل من المطر بقدر ما استطاعت . كان ثقيلاً جداً الآن ، ثقيلاً إلى حد أن ذراعيها أصيبا بالخدر من حمله . وكان يتذمر ويبكي دون توقف... لا شك أنه جاع مجدداً .

كانت أمه منهكة إلى أقصى حد... من المشي طوال اليوم ومن كل البكاء وشدة انفعالها في الكنيسة . شعرت بالبرد ، وراح المطر يشتد وبدأت أوراق الشجر تومض وترتجف تحت حبات المطر المطرطشة . شقت طريقها عبر الممرات ثم خرجت إلى فسحة سماوية حيث استطاعت أن ترى إلى الأمام حيث كان النهر عريضاً رمادي اللون ، كما كان سطحه مثقباً كالمنخل من المطر المتساقط .

لم يكن هناك زورق للعبور . تكلمت كريستين مع رجلين كانا يحتميان تحت أرضية مستودع كان قد بني على دعامات عند حافة النهر . قالوا لها إن عليها الذهاب إلى مكان الرسو... كان للراهبات منزل هناك كما يوجد رجل مسؤول عن زورق العبور .

جرّت كريستين قدميها عابرة مرة أخرى المكان المفتوح ، وقد تقرحت قدماها وتبللتا وتعبتا . وصلت إلى كنيسة حجرية صغيرة داخل سياج . كان ناكفه يزعق بجنون ، فلم تستطع دخول الكنيسة . ولكن صوت الغناء وصلها عبر فتحات النوافذ غير المطلية ، وعرفت الترنيمة التجاوبية :

"استبشري يا ملكة السماوات فذاك الذي حملت قد صعد كما قال . هللويا .

كانت تلك الأغنية التي كانت راهبات دير المينوريت يغنينها بعد آخر الصلوات . كان الأخ إدفين قد علّمها هذه الترنيمة الموجهة إلى أم الرب خلال سهرها على فراشه في تلك الليالي التي قضاها في بيت أهلها يعاني من الداء العضال في يورونـدغارد . تسللت إلى ساحة الكنيسة ، ووقفت قرب الجدار وطفلها على ذراعها ، وراحت ترددها بصوت خفيض لنفسها .

لاشيء تفعلينه يا كريستين يمكنه أن يجعل أباك يكرهك . لذلك عليك ألاّ تسببي له المزيد من الحزن...

حتى ويداك مسمرتان على الصليب ، يا رب السماء الغالي... ومهما كانت أي روح قد ضلّت بعيداً عن الطريق القويم ، إلاّ أن يديك المسمّرتين كانتا تمتدان إليها بتوق . ما كانت هناك حاجة إلى أي شيء عدا هذا : أن على الأرواح الخاطئة أن تلتفت إلى تينك الذراعين المفتوحتين ، بحرية ، كما يتوجه الطفل إلى أبيه ، وليس كما يجبر الأرقاء الآبقون على العودة إلى سيدهم القاسي . لقد فهمت الآن كم كانت الخطيئة كريهة . شعرت مجدداً بذلك الألم في صدرها ، وكأن قلبها كان سينفطر من الندامة والعار بسبب عدم استحقاقها للرحمة التي حلّت عليها...

إلى القرب من جدار الكنيسة كان ملتجأ صغير من المطر . جلست على شاهدة قبر وبدأت تطعم الطفل الجائع . بين الحين والآخر كانت تنحني وتقبل الرأس الصغير المغطى .

لا بدّ أنها أغفت . لمس شخص ما كتفها . كان راهب وأخ من الخدم يحمل رفش حفار القبور في يده يقفان أمامها . كان الراهب حافي القدمين يسألها إن كانت تريد مأوى لليلتها .

التمعت الفكرة في رأسها... فهي ستفضل البقاء هنا الليلة مع المينوريت ، أخوة الأخ إدفين . وكان الطريق بعيداً إلى باكه... وكانت هي منهكة جداً . ثم طلب الراهب من الأخ الخادم أن يوصل هذه المرأة إلى نزل النساء... «وأعطها بعض غسول لأجل قدميها فهما مقرحتان كم أرى» .

كان المكان خانقاً ومظلماً في نزل النساء : كان يقع خارج السياج ، قرب الممر . جلب لها الأخ الخادم الماء لتغتسل به والقليل من الطعام ، فجلست قرب الموقد وحاولت أن تهدئ الطفل . كان واضحاً أن ناكفه كان يشعر في غذائه أن أمه كانت منهكة وقد صامت ذلك النهار . راح يبكي وينّ بين الحين والآخر خلال رضاعته من ثدييها المنهكين . شربت كريستين بعض الحليب الذي أحضره الأخ الخادم إليها . حاولت أن تلفظ الحليب من فمها إلى فم الطفل... ولكن الوغد الصغير تذمّر بصخب احتجاجاً على هذا الأسلوب الجديد من تناول الطعام ، فضحك الرجل العجوز وهزّ رأسه . عليها أن تشربه بنفسها ، كما قال ، وعندها سرعان ما سيحصل الصبي على الفائدة منه...

و أخيراً مضى بعيداً . زحفت كريستين إلى واحدة من الأسرة الصندوقية العليا تحت السقف . ومنه كانت قادرة على الوصول إلى السقف لفتح شباك فيه... وكانت هناك حاجة إلى ذلك ، فقد كانت رائحة مغثية تنتشر في المنزل . فتحت كريستين الشباك : دخل هواء الليلة الصيفية الباردة الصافية وأحاط بها . جلست في السرير القصير ورأسها وكتفها مستند إلى خشب الجدار... كان هناك عدد قليل جداً من الوسائد في السرير . نام الصبي في حضنها . كانت تريد أن تغلق الشباك خلال فترة قصيرة ، ولكنها نامت دون أن تعي ذلك .

استيقظت بعد فترة في الليل . كان القمر الصيفي يشع إلى الداخل ، شاحباً وأصفر كالعسل ، فوق الطفل وفوقها ، وأنار الجدار المقابل لهما . وقد أدركت وجود شكل بشري في وسط شعاع القمر ، وهو يحلّق بين الأرضية وشجرة السقف .

كان يرتدي رداء الرهبان الرمادي : كان طويلاً أحدب الظهر . والآن التفت بوجهه العجوز ذي الأخاديد نحوها . كان الأخ إدفين . ابتسم وكانت ابتسامته رقيقة إلى حد لا يوصف : مرحة على نحو فظّ قليلاً ، كما كان شأنه حين كان حياً يسعى على هذه الأرض .

لم تتعجب كريستين إطلاقاً . نظرت إليه بتواضع وسعادة وأمل ، وانتظرت ما سيقوله أو يفعله .

ضحك الراهب ومدّ إليها قفازاً عتيقاً ثقيلاً من الفرو... ثم علّقه على شعاع القمر وتركه معلقاً هناك . ثم ابتسم مجدداً وأومأ إليها برأسه وتلاشى .

القسم الثاني

هوسابي

١

في أوائل السنة الجديدة ، وصل إلى هوسابي بعض الضيوف غير المتوقعين : لافرانس بيورغولفسون وسميد غودلايكسون العجوز من دوفر ومعهما سيدان لم تعرفهما كريستين . وتعجب إرلند كثيراً إذ رأى حماه قادماً في صحبتهما : فقد كانا السير إرلينغ فيدكونسون أوف جيسكه وهاتفور غراوت أوف غودري... لم يكن إرلند يحسب أن لافرانس يعرف هذين الرجلين . ولكن السير إرلينغ أوضح الأمر ، فحكى كيف التقوا جميعاً في "نس أوف رامسدال" ، حيث جلس لافرانس وسميد في "محكمة الستة"[٦] الذي حلّ أخيراً النزاع بين ورثة السير يون هاوكسون المتنازعين . كان هو ولافرانس قد انخرطا في الحديث عن إرلند وخطر للسير إرلينغ أنه طالما كان منطلقاً نحو نيداروس في مهمة ، فسوف يود زيارة سكان هوسابي ، إذا انضم إليه لافرانس وأبحر شمالاً معه . قال سميد غودلايكسون ضاحكاً ، إنه قد أخفى نفسه ليصطحبهما :

"كنت راغباً في الحضور لمشاهدة كريستين مجدداً... أجمل وردة في نوردال . ثم فكرت في أن قريبتي ، راغنفريد ، ستكون ممتنة لي لو راقبت زوجها عن كثب ، لألاحظ ما هي الخطط الهامة التي يحضّرها مع رجال حكماء

وأقوياء مثل هؤلاء . لدى أبوك خطط أخرى لهذا الشتاء يا كريستين ، عدا القيام بجولات على الضياع معنا ، وتعاطي الشراب من عيد الميلاد حتى حلول الصيام . لقد كان علينا الآن أن نبقى في بيوتنا في سلام وهدوء طوال هذه السنين وأن يرعى كل منا شؤونه بنفسه . ولكن لافرانس جعل كل رجال الملك في ديل يمتطون جيادهم معاً إلى أوسلو في منتصف الشتاء شديد القسوة... والآن علينا أن نشاور اللوردات الكبار في مجلس الملك لمصلحة الملك... إنهم لا يديرون دفة الأمور جيداً في مصلحة الولد القاصر ، كما يقول لافرانس..." (٧) .

بدا السير إرلينغ قلقاً على نحو ما . رفع إرلند حاجبيه .

"أ أنت من مؤيدي هذه الخطة يا عماه... الدعوة إلى الاجتماع الكبير لرجال الملك ؟"

قال لافرانس : "لا ، لا . ولكني ذاهب إلى الاجتماع أسوة ببقية رجال الملك في ديل ، بما أننا قد دعينا إلى هناك..."

و لكن سميد غودلايكسون استأنف حكايته مجدداً : "كان لافرانس هو من أقنعه... ولم يكن هرستاين أوف كروكه وتروند غييسلينغ وغوتورم سنايس وآخرون راغبين في الذهاب...

سأل لافرانس : "و لكن أليس من عادتكم في هذه الأنحاء دعوة الغرباء إلى منزلكم ؟ هيا بنا الآن لنرى إن كانت كريستين تخمر جعة جيدة شأن أمها!"...

نظر إرلند نظرة ارتياب وتعجبت كريستين كثيراً .

سألته بعد فترة قصيرة حين كان معها في القاعة الصغيرة ، حيث جلبت الطفل ليكون بعيداً عن الغرباء : "ما الحكاية يا أبي ؟"

جلس لافرانس وراح يرقّص حفيده على ركبتيه . كان ناكفه في الشهر العاشر من عمره الآن ، طفلاً كبير الحجم وجميلاً . كان قد سبق له منذ فترة عيد الميلاد أن ألبس جاكيتة قصيرة وبنطالاً ضيقاً .

"لم يسبق لي أن عرفتك يا أبي تتدخل في قضايا كهذه" ، تابعت كريستين كلامها . «لم يسبق أن سمعتك تقول إنه لصالح البلاد في السلام والحرب ، ولصالح رعاياه فإن على الملك بالأحرى أن يدخل الكهنوت وكذلك الرجال الذين دعاهم إلى جانبه . يقول إرلند إن هذه المغامرة من عمل النبلاء في الجنوب... فهم سينحّون جانباً الليدي انجبورغ والرجال الذين عيّنهم لها والدها كمستشارين... ثم يستولون مجدداً لأنفسهم على أكبر قدر من السلطة كما كان عليه الحال حين كان الملك هاكون وأخوه طفلين . ولكن أنت نفسك كنت معتاداً على القول إن المملكة قد عانت ضرراً كبيراً من حكمهم..."

همس لها لافرانس أن تبعد مربّية الطفل . وحين أصبحا وحيدين سألها :

"من أين وصلت هذه الأنباء إلى إرلند ؟... هل هي من مونان ؟"

حكت له كريستين أن أورم قد جلب معه رسالة من السير مونان حين عاد إلى البيت في الخريف . لم تقل له إنها قرأتها بنفسها لإرلند... فلم يكن هذا ماهراً جداً في القراءة . ولكن في الرسالة كان مونان يشتكي بمرارة من أن كل رجل في النرويج يحمل شعاراً على ترسه راح يعتبر الآن أنه يفهم كيف يحكم المملكة أفضل من الرجال الذين وقفوا إلى جانب الملك هاكون حين كان حياً . وهم يعتقدون أنهم يعرفون على نحو أفضل ما كان في مصلحة الملك الطفل ممّا تعرفه تلك السيدة ذات النسب الرفيع ، أي أم الملك . وقد

حذّر إرلند من أن هناك دلائل على أن النبلاء النرويجيين يريدون أن يحاكوا ما فعله السويديون في "سكارا" في الصيف... وهم يجهزون الخطط ضد الليدي انجبيورغ ومستشاريها العجائز المجربين... وعلى أقرباء الملكة أن يكونوا مستعدين ، وعلى إرلند الذهاب جنوباً لمقابلة مونان في هامار .

قال لافرانس وهو يدفع بإصبعه تحت ذقن ناكفه السمين : "أولم يقل أيضاً أني كنت واحداً من الرجال الذين عارضوا نداء حمل السلاح غير القانوني الذي جلبه معه مونان إلى ديل... باسم ملكنا ؟"

قالت كريستين : "أنت! هل قابلت مونان باردسون في الخريف ؟"

أجاب لافرانس : "لقد فعلت ذلك . ولم نتفاهم معاً ."

سألته كريستين : "و هل تكلمتما عني ؟"

قال أبوها ضاحكاً بعض الشيء : "لا يا كريستين الصغيرة . لا أستطيع أن أتذكر أن اسمك ذكر خلال تلك اللقاء... هل تعرفين إن كان زوجك ينوي الاتجاه جنوباً لمقابلة مونان باردسون ؟"

قالت كريستين : "أعتقد ذلك . لقد أملى إرلند رسالة على سيرا آيليف منذ فترة ليست بالطويلة... وقد تحدث فيهاعن السفر جنوباً خلال وقت قصير ."

جلس لافرانس صامتاً لبعض الوقت ، وهو ينظر إلى الطفل الذي كان يتحسس بأصابعه غمد خنجره ويحاول أن يعض الحجر البلوري الذي يزيّنه .

سألت كريستين : "هل صحيح أنهم سيستولون على حكم المملكة من الليدي انجبيورغ ؟"

أجاب أبوها وهو لا يزال يبتسم : "الليدي في عمرك أو حوالي ذلك .

ولن يأخذ أحد من أم الملك الشرف أو السلطة اللذين تمتعت بهما حين ولدت . ولكن الأسقف وبعض أصدقاء وأقرباء ملكنا الراحل ، قد دعوا إلى اجتماع للتشاور حول كيفية تدبير الحماية المثلى لسلطة وشرف الليدي وصالح شعب هذه البلاد ."

قالت كريستين بصوت خفيض :

"أرى جيداً يا أبي أنك لم تأت إلى هوسابي هذه المرة لمجرد أن ترى ناكفه وتراني ."

قال لافرانس : "ليس لأجل ذلك فحسب . وأستطيع أن أرى يا ابنتي أنك لا تحبين هذا!"

وضع يديه فوق وجهها وتلمّسه صعوداً ونزولاً . كان من عادته أن يفعل ذلك ، منذ أن كانت فتاة صغيرة ، وذلك كلما كان يعنّفها أو يغيظها .

•

في هذه الأثناء سهر السير إرلينغ وإرلند في مخزن السلاح... هذا ما كان يسمى المخزن الكبير إلى شمال شرق الساحة قرب البوابة الرئيسية . كان عالياً كبرج ، ومؤلفاً من ثلاثة طوابق ، وفي الطابق الأعلى كانت حجرة ذات جدران مزوّدة بفتحات للرمي ، وهناك كانت تحفظ كل الأسلحة غير المستخدمة يومياً في الضيعة . كان الملك سكوله هو من شيّد هذا البناء .

كان السير إرلينغ وإرلند يرتديان عباءتيهما المصنوعتين من الفرو ، فالبرد قارس في الغرفة . راح الضيف يتجول وهو يتفحص بعينيه الكثير من الأسلحة والدروع الممتازة التي ورثها إرلند من جده لأمه : غاوته إرلندسون .

كان إرلينغ فيدكونسون رجلاً قصيراً إلى حد ما ، ذا بنيان ليس بالثقيل ، وإن كان ممتلئ الجسم ، إلا أنه كان خفيف الحركة رشيقها . لم يكن ذا وجه جميل ، رغم أن ملامحه كانت ذات شكل حسن ، إلا أن شعره كان ذا لون أحمر فاتح وكان أبيض رمش العينين والحاجبين... أما عيناه فكانتا زرقاوين فاتحتين جداً . لقد كان السير إرلينغ يُعتبر ، على أي حال ، رجلاً وسيماً لأنه كان من المعروف عنه أنه أغنى فارس في النرويج . ولكن كان أمراً صحيحاً أنه كان ذا أسلوب هادئ رابح . كان ذا فهم ممتاز ، متعلّماً وغنياً في المعرفة ، وبما أنه لم يكن يبذل جهداً لعرض معرفته ، بل كان دائم الاستعداد للإصغاء إلى الآخرين ، فقد حصل أيضاً على الشهرة كونه واحداً من أحكم الرجال في البلاد . كان في عمر إرلند نيكولاوسون تقريباً ، وكانا على صلة قربى ، رغم أنها قرابة بعيدة ، وذلك من خلال قرابتهما لآل ستوفرايم . كانا يعرفان الواحد الآخر منذ زمن طويل ، ولكن لم تجمعهما الصداقة الوثيقة يوماً .

جلس إرلند فوق صندوق كبير ، وراح يتحدث عن السفينة التي بناها في الصيف الماضي . كانت ذات اثنين وثلاثين مجذافاً ، وقد عبّر عن رأيه في أنها ستكون سريعة وسهلة القيادة . كان قد جلب اثنين من صانعي السفن من نوردلاند وقد أشرف بنفسه على العمل معهما .

قال : "السفن هي بين الأشياء القليلة التي أعرف عنها قليلاً يا إرلينغ ، وسترى أن مراقبة «مارغيغرن» وهي تخوض عباب البحر سيكون أمراً مبهجاً للنظر..."

"مارغيغرن (غولة البحر)... ياله من اسم مخيف وثني منحته لسفينتك يا قريبي" ، قال السير إرلينغ ضاحكاً ضحكة صغيرة . "هل تعني أن تبحر بها جنوباً إذن ؟"

"أنت ورع شأن زوجتي... هي تقول أيضاً إنه اسم وثني . أجل ، إنها لا تحب السفينة أيضاً . فهي قد تربت في الداخل... لا تستطيع تحمل البحر ."

"أجل تبدو ورعة وجميلة ولبقة سيدتك" ، قال السير إرلينغ ، بتهذيب . "كما يتوقع المرء بعد أن يرى أهلها ."

ضحك إرلند قليلاً : "أجل . لا يمرّ يوم لا تحضر فيه قداساً . أما سيرا آيليف كاهننا الذي رأيت ، فيقرأ لنا بصوت مرتفع من الكتب المقدسة... هذا ما يفضله هو ، بعد الجعة والأطباق اللذيذة ، أن يقرأ بصوت مرتفع . ويأتي الناس الفقراء إلى هنا إلى كريستين للمشورة والمساعدة... ويكونون سعداء بتقبيل حاشية ثوبها ، كما أعتقد... أما رجالي فلم أعد أعرفهم . إنها واحدة من أحب السيدات اللواتي سبق ذكرهن في الملاحم المقدسة التي كان الملك هاكون يرغمنا على الجلوس والاستماع إلى الكاهن وهو يقرأها بصوت مرتفع... أتذكر ؟... حين كنا وصيفين معاً . لقد تغيّر الكثير في هوسابي منذ أن كنت ضيفي لآخر مرة ، يا إرلينغ... وأتعجب بالفعل أن تحضر إليّ والأمور على ما كانت عليه عندئذٍ" ، قال بعد قليل .

قال إرلينغ فيدكونسون بابتسامة لاءمته كثيراً : "لقد تحدثت عن أيام كنا وصيفين معاً . لقد كنا صديقين آنئذ ، أليس كذلك ؟ في تلك الأيام كنا جميعاً يا إرلند نعتقد أنك ستحقق الكثير في بلادنا هذه..."

و لكن إرلند ضحك فحسب : "أجل ، وهكذا كنت أعتقد أنا" .

"ألا تستطيع أن تبحر جنوباً معي يا إرلند ؟" سأله السير إرلينغ .

أجاب الآخر : "هدفي أن أسافر براً ."

قال السير إرلينغ : "رحلة متعبة لك... عبر الجبال في وسط الشتاء . سيكون أمراً ممتعاً لو أنك تصاحبني أنا وهافتور ."

أجاب إرلند : "لقد أعطيت وعداً لأشخاص آخرين بأن أصحبهم ."

"لا شك أنك ستذهب مع حميك... أجل... هذا سبب معقول ."

"لا ، ليس الأمر كذلك... لا أعرف إلا القليل عن هؤلاء الرجال من ديل الذين يرافقهم" . جلس إرلند صامتاً لفترة قصيرة . "لا ، لقد وعدت مونان بأن أزوره في ستينج" ، قال ذلك بسرعة .

أجاب الآخر : "وفّر على نفسك الجهد . لقد نزل مونان جنوباً إلى أملاكه في هيسينغ ، ولن يصعد شمالاً إلا بعد وقت طويل . هل مرّ وقت طويل على وصول رسالة منه ؟"

"كان ذلك في موسم قداس ميكائيل... لقد كتب إليّ من رينغابو" .

"اجل... ولكنك تعرف ما حدث في ديل في هذا الخريف الأخير ؟ سأل إرلينغ . "ألا تعرف ؟ لا شك أنك تعرف أنه ذهب بنفسه إلى الأوصياء على العرش" ، في "ميوس" وفي "ديل" ، مع رسائل تقول إن المزارعين يجب أن يدفعوا مكوساً كاملة من الجياد والمؤن... حصان واحد عن كل ستة مزارعين... كما أن على النبلاء والملاكين الأحرار أن يرسلوا جياداً ، ولكنهم يستطيعون البقاء في بيوتهم ؟ ألم تسمع بهذا ؟ وأن رجال الديل الشمالي رفضوا تقديم المكوس حين جاء مونان مع آيريك توب إلى المجلس في فاغه ؟ وعلاوة على ذلك فإن لافرانس بيورغولفسون هو الذي قاد المعارضين... لقد تحدى آيريك إن كانت أي مكوس قانونية متبقية وذلك لتحصيلها بالطريقة القانونية ، ولكنه سماها كبحاً متعالياً للناس لجعلهم يدفعون ضرائب حرب من مزارعين وذلك لمجرد مساعدة رجل دانمركي على شن حرب على الملك الدانمركي . وإذا ما نادانا ملكنا للخدمة بواسطة رجال الملك ، قال لافرانس ، فإن عليه أن يجدهم مستعدين بما فيه الكفاية

ليأتوا إلى مكان اللقاء بأسلحة وجياد جاهزة ورجال مسلحين ، ولكنه لم يرسل من يوروندغارد ولا حتى تيس واحد له رسن من الخيش ، إلا إذا أراد الملك أن يركبه بنفسه إلى مكان تحشد الجيش . كلا ، والآن ، أ أنت لا تعرف هذا ؟ يقول سميد غودلايكسون إن لافرانس وعد مزارعيه بأنه سيدفع عنهم غرامات المكوس[٨] ، إن دعت الحاجة..."

جلس إرلند متعجباً :

"هل فعل لافرانس ذلك ؟ لم يسبق لي أن سمعت أن والد زوجتي يتدخل في أي شيء عدا ما يخص أملاكه أو أصدقاءه..."

قال السير إرلينغ : "إنه لا يفعل ذلك غالباً ، ولكن بقدر ما رأيت حين كنت في «نس» معه ، أنه حين يعبر لافرانس بيورغولفسون عن رأيه في مسألة ما ، فإنه لا ينقصه الأتباع الكثيرون... فهو لا يتكلم إلاّ عما يعرفه جيداً حتى أن كلمته لا يمكن أن تردّ إلا بالكاد . والآن فيما يتعلق بهذه المؤن ، يقال إنه تبادل الرسائل مع أقربائه في السويد... كما تعرف فإن الليدي رامبورغ ، جدته لأبيه ، وكذلك جد السير إرنغيزل كانا ولدي عمومة ، لذا فإن أقرباءه هناك كثيرون ومبجّلون . ورغم أنه رجل هادئ ، حموك هذا ، إلا أن سلطته في الريف ليست بالقليلة حيث يعرفه الناس... رغم أنه لا يستخدمها غالباً ."

"أجل ، إذن فأنا أفهم لماذا تنشد رفقته يا إرلينغ" ، قال إرلند ضاحكاً . "لقد تعجبت من أنكما قد أصبحتما صديقين حميمين إلى هذا الحد ."

أجاب إرلينغ دون أن يتأثر : "أتستغرب ذلك ؟ إن رجلاً لا يسعده أن يسمي لافرانس أوف يوروندغارد صديقاً له هو رجل غريب حتماً . أنت يا قريبي سيكون وضعك أفضل لو أصغيت إليه بدلاً عن الإصغاء إلى مونان" .

"لقد كان مونان أشبه بأخ كبير لي منذ أن غادرت منزلي" ، قال إرلند ببعض الحماسة . "لم يسبق له أن تخلى عني في الشدة . وإذا ما عانى هو الآن من الشدة..."

قال إرلينغ فيدكونسون بهدوء كما من قبل : "سيكون مونان في أمان كاف . الرسائل التي حملها وتجول بها كانت مختومة بخاتم النرويج الكبير... على نحو لا قانوني ، ولكن لا علاقة له بهذا . صحيح أن هناك المزيد... هذا ما هو متهم به ، وقد صادق عليه بخاتمه ، حين شهد زواج الليدي يوفينا... ولكن لا يمكن إلقاء الضوء على هذا دون التطرق إلى أمر لا نريد التطرق إليه... والحقيقة يا إرلند... أعتقد أن مونان يستطيع إنقاذ نفسه دون مساعدتك... ولكنك قد تؤذي نفسك..."

قال إرلند : "إنك تهدف إلى الليدي انجبيورغ ، كما أرى . لقد وعدت قريبتنا بأن أخدمها هنا وفي البلدان الأجنبية ."

أجاب إرلينغ : "و حتى أنا وعدت بذلك . وأنوي المحافظة على ذلك الوعد... وكذلك أعتقد أن كل النرويجيين خدموا وأحبوا سيدنا وقريبنا الملك هاكون . وأفضل خدمة يمكن أن نقدمها لها هو أن نبعدها عن هؤلاء المستشارين الذين يعطون هذه السيدة الشابة جداً نصائح تؤدي إلى أذيتها هي وابنها ."

سأله إرلند بصوت خفيض : "أتعتقد أنك تستطيع فعل ذلك ؟"

قال إرلينغ فيدكونسون بحزم : "أجل . أعتقد ذلك . وأعتقد أن كل من لا يستمع إلى الحديث الشرير الفالت يصدق ذلك أيضاً . وأن علينا نحن ، أقرباء الليدي ، أن نكون آخر من يفعل ذلك ."

رفعت خادمة الباب الأفقي في الأرضية ، وسألت إن كان يلائمهما أن تأمر السيدة الآن بحمل العشاء إلى القاعة...

•

بينما كان سكان المنزل لا يزالون جالسين إلى المائدة ، ظل الحديث يدور حول هذه القضايا الهامة التي كانت موضع البحث . لاحظت كريستين أن كلاً من أبيها والسير إرلينغ كانا يحاولان إعاقة ذلك . راحا يتجهان بالحديث نحو صفقات الزواج والوفيات والنزاع بين الورثة ، والتجارة في المزارع . كانت قلقة ، رغم أنها ما كانت تعلم السبب في ذلك . كانت لديهم مهمة قيّمة لإرلند ، كما استطاعت أن تلاحظ . ورغم أنها ما كانت لتعترف لنفسها بذلك ، فقد كانت تعرف زوجها جيداً الآن حتى أنها لتشعر ، أنه مع عناده ، فقد يكون من السهل جعله يغيّر موقفه من قبل شخص لديه يد ثابتة في قفاز ناعم ، كما يقول المثل .

بعد الوجبة ، انتقل الرجال إلى المدفأة وجلسوا هناك يحتسون الشراب . استقرت كريستين على المقعد الطويل ، ووضعت إطار التطريز في حجرها ، وبدأت تضفر الحواشي . بعد وقت قصير اقترب منها هافتور غراوت ووضع وسادة على الأرض ، وجلس عليها عند قدميها . كان قد وجد سيتار إرلند ، فوضعه على ركبته وجلس وهو يداعب الأوتار ويهذر كالأطفال . كان هافتور شاباً هادئاً ذا شعر أصفر مجعّد ووجه جميل جداً إنما مغطى بالنمش إلى أبعد الحدود . وسرعان ما لاحظت كريستين أنه مهذار جداً . كان قد تزوج للتو من امرأة غنية . ولكنه كان يشعر بالملل في بيته وأملاكه ، كما قال . لذلك كان ذاهباً الآن إلى اجتماع رجال الملك .

"و لكن ليس من المعقول أن يبقى إرلند نيكولاوسون في البيت" ، قال ثم وضع رأسه على حجر كريستين . أزاحت نفسها جانباً وضحكت وقالت إنها لم تكن مخطئة فإن زوجها كان ينوي الرحيل جنوباً... "مهما يكن السبب" ، قالت بلهجة بريئة . "هناك الكثير من القلاقل في البلاد في هذه الأيام . وليس بالأمر السهل على امرأة بسيطة أن تحكم على مثل هذه الأمور" .

أجاب هاتفورد : "و لكن اللوم في هذا يقع على بساطة امرأة ما" ، أجاب هافتور ضاحكاً ، وهو يقترب منها مجدداً . "أجل ، هكذا يقول على الأقل إرلينغ ولافرانس بيورغولفسون... وسيسرني أن أعرف ما يعنيانه بذلك . ما رأيك يا سيدة كريستين ؟ الليدي انجبيورغ امرأة طيبة بسيطة... وربما تجلس الآن ، كما تفعلين ، وتضفر الحرير بأصابعها البيضاء كالثلج وهي تفكر : سيكون أمراً يدل على قسوة القلب أن ننكر على الخادم الأمين لزوجها الراحل مجرد مساعدة صغيرة ليحسّن أحواله..."

تقدم إرلند وجلس قرب زوجته . اضطر هافتور إلى الابتعاد قليلاً ليتيح له ذلك .

"إنها لحكايات تافهة تلك التي تتداولها النساء في مساكنهن حين يكون أزواجهن حمقى بما فيه الكفاية لاصطحابهن إلى الاجتماعات..."

قال هافتور : "يقول الناس في المكان الذي أنتمي إليه إنه لا دخان بلا نار..."

قال لافرانس : "أجل ، لدينا مثل هذا القول المأثور أيضاً" . كان هو وإرلينغ قد انضما إليهم الآن . "ولكني خدعت يا هافتور في الشتاء الماضي حين أضأت قنديلي بقطعة من روث حصان طازج ." جلس على حافة

المائدة . وعلى الفور أحضر السير إرلينغ كوب لافرانس وقدمه إليه مع انحناءة ، ثم جلس إلى القرب منه على المقعد .

قال إرلند : "ليس ممكناً يا هافتور أنك تستطيع أن تعرف ، وأنت بعيد هناك في الشمال في هالو غالاند ما الذي تعرفه الليدي انجبيورغ ومستشاروها عن أهداف وخطط الدانمركيين . لا أعرف إن لم تكن أنت يا ترى قصير النظر حين عارضت نداء الملك لأجل المساعدة . إنه السير كنوت... أجل يمكننا أن نسميه باسمه ، فهو الذي في أذهاننا... لم يبد لي أنه الرجل الذي يسمح لنفسه أن يضبط وهو يغفو على كرسيه . أنتم تقطنون في مكان بعيد جداً عن القدور الكبيرة حتى تستطيعوا أن تشموا ما يُطبخ فيها . والأفضل في رأيي أن يكون المرء واعياً قبل أن يسبق السيف العذل..."

قال السير إرلينغ : "أجل . يكاد المرء يقول إنهم يطبخون لنا الآن في ضيعة جارنا... سرعان ما سنصبح نحن النرويجيين أشبه بأشخاص يتعيّشون على حصة صغيرة من ورثتهم . سيرسلون إلى بابنا العصيدة التي طبخت في السويد... وكلْها إن كان لديك لحم! أعتقد أنه كان خطأ من سيدنا... الملك هاكون... لأنه كما كان عليه الحال ، فقد نقل المطبخ إلى ضاحية المزرعة ، حين جعل أوسلو أول مدينة في البلاد . كانت من قبل في منتصف طريق المزرعة ، إذا حافظنا على هذه الصيغة من الكلام... بيرغن أو نيداروس... ولكن لا يوجد الآن من يحكم في تلك الأنحاء سوى الأسقف ورجال الكنيسة... أجل ، ما رأيك يا إرلند... أنت «التروندي» الذي كل متاعه وكل أملاكه الخاضعة له في تروندهايم هنا... ؟"

"أجل ، ودم الرب يا إرلينغ... إن كنت تقصد هذا... فلنحمل القدر إلى البيت ونعلقه في المصطلى الملائم مرة أخرى..."

قال هافتور : "أجل . لقد رضينا طويلاً هنا في الشمال برائحة الشياط وبجرعة من المرق البارد...

قاطع لافرانس قائلاً : "هكذا هي الحال يا إرلند... لم ألتزم بأن أكون الناطق باسم سكان الريف في موطني ، ولكني أحتفظ برسائل من قريبي السير إرنغيزل . لذلك لم أعرف أياً من الرجال الذين يحق لهم الحكم سواء في أراضي ملك الدانمارك أوأراضي ملكنا ممن يفكرون في تعكير صفو السلام والصداقة بين هذين البلدين ."

قال إرلند : "إن كنت تعرف من يحكم في الدانمارك الآن يا عمي ، فأنا أعلم أنك تعرف أكثر من الرجال الآخرين ."

"أعرف أمراً واحداً . هناك رجل واحد لا يراه أحد وهو يحكم ، لا هنا ولا في السويد ولا حتى في الدانمارك . وكان هذا هو معنى أفعال السويديين في سكارا في الصيف الماضي ، وهو معنى الاجتماع الذي سنعقده الآن في أوسلو... أي أن نوضح للجميع ممن لم يفهموا بعد أنه حول هذا الموضوع يتفق الرجال الحكماء كلهم ."

كانوا قد شربوا الكثير الآن حتى أن أصواتهم أضحت عالية... الجميع عدا سميد غودلايكسون العجوز الذي كان جالساً في كرسيه وقد نكس رأسه قرب الموقد . صاح إرلند :

"أجل ، أنتم أيها الناس حكماء جداً حتى أن الشيطان نفسه لا يستطيع خداعكم . لا عجب أن تخشوا كنوت بورس . لا تستطيعون فهمه أنتم أيها الارستقراطيون الطيبون... فليس هو بالرجل الذي يجلس لامبالياً مراقباً الأيام وهي تمر والعشب ينمو كما يريد الرب . سيسرني أن أقابل مجدداً ذلك الفارس : لقد عرفته حين كنت في هالاند . وما كنت لأعترض على ذلك لو كنت في مكان كنوت بورس ."

قال هافتور غراوت : "ما كنت لأجرؤ على قول كل هذا من حيث تستطيع زوجتي سماعي ."

و لكن إرلينغ فيدكونسون كان الآن أيضاً قد شرب الكثير . حاول أن يحافظ على أسلوبه المهذب ولكن الأمر أفلت من يده :

قال ضاحكاً ضحكة مجلجلة : "أنت! أنت يا قريبي!... كلا يا إرلند!" وضرب الآخر على كتفه وضحك وضحك .

قال لافرانس بفظاظة : "كلا يا إرلند . ستكون هناك حاجة أكبر إلى ما هو متعلق بخداع السيدات الجميلات . لو كان هناك في كنوت بورس ما هو أكثر من لعب دور الثعلب في حظيرة الإوز ، لاعتقدت أننا نبلاء النرويج أكسل من أن نخرج من منازلنا لصيده... حتى لو كانت الإوزة أمّ ملكنا . ولكن أياً يكن الشخص الذي يستطيع السير كنوت خداعه ليلعب دور الأحمق لأجله ، فإنه هو نفسه لن يمارس أي حيل ليس فيها مغزى . إن لديه هدفاً ، وكونوا على ثقة أنه لا يزيح عينيه عنه..."

توقف الكلام . ثم قال إرلند وعيناه تومضان :

"إذن أتمنى لو أن السير كنوت كان نرويجياً ."

جلس الآخرون صامتين لفترة قصيرة . تجرع السير إرلينغ جرعة من كوبه ثم قال :

"لا سمح الله... لو كان بيننا رجل كهذا في النرويج ، فإني أخشى أنه سرعان ما سينتهي السلام في هذا البلد ."

قال إرلند باحتقار : "سلام في هذا البلد!"

"أجل سلام في هذا البلد" ، أجاب إرلينغ فيدكونسون . "تذكر يا

إرلند... إن من يملك هذه البلاد ويعيش فيها ليس نحن الفرسان فحسب . ربما سيبدو لك الأمر كنوع من التسلية لو برز هنا رجل تواق إلى المغامرة والسلطة شأن كنوت بورس . لذلك في الأيام الغابرة حين كان رجل يتمرد في بلادنا ، كان سهلاً عليه أن يجد أتباعاً بين النبلاء . فهم إما ستكون لهم اليد العليا ويكسبون الألقاب والإقطاعات ، أو أن أقرباءهم يكسبون كما يُمنحون هم العفو مدى الحياة والأموال : أجل ، يذكر السجل من خسروا حياتهم ، ولكن القسم الأكبر فروا بجلودهم ، سواء سارت الأمور على هذا النحو أو خلافه... القسم الأكبر من آبائنا ، عليك الانتباه . ولكن جمهرة المزارعين والعاديين وسكان البلدات ، يا إرلند... العمال الذين تنتزع منهم الضرائب مرتين زيادة في العام الواحد ، وقد يكونون مرحين مع ذلك ، في كل مرة تمرّ فصيلة من الجند عبر الريف دون أن تحرق مزارعهم وتنحر ماشيتهم... كان على العامة أن يعانوا أعباء وضغوطاً لا يمكن احتمالها... على ما أعتقد ، وشكراً للرب والقديس أولاف لوجود الملك هاكون العجوز والملك ماغنوس وأبنائه الذين دعموا القوانين وضمنوا السلام"...

"أجل ، أعتقد جازماً أنك تؤمن بأن الأمر هكذا"... عاد إرلند برأسه إلى الخلف . جلس لافرانس وهو ينظر إلى الرجل الأصغر سناً منه... كان إرلند مستيقظاً بما فيه الكفاية الآن . كان وجهه الأسمر القوي قد احمرّ الآن وبدت حنجرته وكأنها قد انتفخت متحولة إلى قوس في العنق الرشيق الأسمر . ثم نظر لافرانس إلى ابنته . كانت كريستين قد تركت عملها يسقط على حجرها وكانت تتابع حديث الرجال باهتمام .

"هل أنت واثق أن الفلاحين والعامة يفكرون على هذا النحو ويمتدحون إلى هذا الحد النظام الجديد للأمور ؟ صحيح أنهم عانوا من أوقات صعبة في

الغالب... في الأيام الماضية حين كان الملوك والملوك المتنافسون يتحاربون الواحد مع الآخر في طول البلاد وعرضها . أعرف أنهم لا زالوا يتذكرون حتى الآن تلك الأزمان حين كانوا يضطرون إلى الرحيل إلى الجبال مع قطعانهم وزوجاتهم وأطفالهم ، بينما كانت مزارعهم تحترق في كل الأودية . لقد سمعتهم يتحدثون عن ذلك . ولكني أعرف أنهم يتذكرون أمراً آخر أيضاً : أن آباءهم كانوا في عداد تلك الجيوش . لم نلعب نحن لوحدنا لعبة السلطة يا إرلينغ ، بل لعبها أبناء الفلاحين أيضاً... وقد أخذوا منا أراضينا مرة أخرى . لا يحدث تحت سيادة القانون في البلاد أن يقوم ابن عاهرة من سكيدان (تسمى البلدة الآن سكيين) ، والذي لا يعرف اسم أبيه ، بكسب أرملة بارون كزوجة له مع أراضيها ومتاعها ، كما فعل "رايدر دار"... لقد اعتبرتَ ابنه زوجاً ملائماً لابنتكَ يا لافرانس ، والآن تزوج هذا الابن ابنة أخ زوجتك ، يا إرلينغ! ولكن القانون والعدالة يسودان الآن... ولا أعرف كيف حدث ذلك ، ولكني أعرف أن الأمر على هذا النحو... إن أراضي الفلاحين تصبح في حوزتنا على نحو متزايد ، وأنه بالقانون... المزيد من القانون والحكم الصحيح ، فإن الأمر سيجري على نحو أسرع ، وسرعان ما تنزلق سلطتهم في شؤون المملكة وشؤونهم من أيديهم . ويا إرلينغ ، يعرف الفلاحون من العامة هذا أيضاً! أوه كلا! لا تكونوا واثقين جداً أيها السادة الطيبون ، من أن العامة سيتوقون إلى ذلك الزمن الذي كانوافيه معرضين لخسارة مزارعهم بالحريق أو بالسلب والنهب... ولكنهم قد يكسبون أيضاً بالسلاح أكثر مما يكسبونه بالقانون ."

أومأ لافرانس برأسه :

"هناك بعض الحقيقة فيما يقوله إرلند" ، قال بصوت خفيض .

و لكن إرلينغ فيدكونسون نهض :

"أستطيع تصديق ذلك فعلاً... أن العامة تتذكر القليل من الرجال الذين خرجوا من العدم وأصبحوا أصحاب قوة وسيادة في زمن السيف ، أكثر من تذكرها الكثير من الرجال الذين ذلوا بعد عزّ ليعيشوا في فقر وبؤس . ومع ذلك ، فإن هؤلاء الأوائل هم الذين تحولوا إلى سادة قساة لصغار الناس... وأعتقد أن المثل السائر قيل عنهم : ظلم ذوي القربى أشد . إن لم يولد المرء سيداً ، يتحول إلى سيد قاس... ولكنه لو نشأ في طفولته بين الخدم من رجال ونساء ، فسيكون أسهل عليه أن يفهم أننا دون العامة عاجزون كالأطفال طوال أيامنا ، وأنه ليس لأجل خاطر حب الرب فحسب ، بل لأجل خاطرنا نحن أيضاً ، بأن علينا أن نعاملهم بدورنا بمعرفة وأن نحميهم بفروسيتنا . لم يسبق لمملكة أن وقفت على قدميها إلا كان فيها رجال كبار يتمتعون بالقوة والإرادة على استخدام قوتهم لضمان حقوق الناس ذوي المرتبة الأدنى..."

قال إرلند ضاحكاً : "تستطيع أن تبزّ أخي بالوعظ تحت الرهان ، ولكني أعتقد أن هؤلاء التروندييين العنيدين كانوا يحبوننا أكثر نحو كبار القوم في الأيام السالفة حين كنا نقود أبناءهم إلى المعارك والغزوات ، ونجعل دماءنا تسيل فوق أخشاب ظهور المراكب ممتزجة بدمائهم ، خواتم مقطعة إلى شطرين ، ونشارك خدم منازلنا في الغنيمة... أجل ، ترين يا كريستين أني أنام أحياناً وقد تركت أذناً واحدة مفتوحة حين يقرأ سيرا آيليف من كتبه العظيمة ."

قال لافرانس بيورغولفسون : "المال الذي يُكسب دون وجه حق لا يصل إلى الوريث الثالث . هل سمعت بهذا يا إرلند ؟"

قهقه إرلند : "طبعاً سمعت به ولكني لم أره بعيني..."

قال إرلينغ فيدكونسون :

"هكذا هي الأمور يا إرلند . أن القلة القليلة تولد مهيأة لتكون من السادة ، ولكن الجميع يولدون ليخدموا . السيد الحق هو خادم خدمه..."

شبك إرلند يديه خلف كتفه وتمطى مبتسماً :

"لم يسبق لي أن فكرت في هذا . ولا أعتبر أن المزارعين المستأجرين عندي لديهم أي خدمة يشكرونني عنها . ومع ذلك ، ورغم أن الأمر قد يبدو غريباً ، فإني أعتقد أنهم يحبونني جيداً... فرك خده بقطيطة كريستين السوداء التي قفزت إلى كتفه وقوست ظهرها وراحت تتمشى وهي تهرّ فوق عنقه . "ولكن زوجتي هنا... أكثر السيدات خدمة للجميع... رغم أنك لست مضطراً في الواقع إلى تصديق ذلك... حيث أن صفائحنا وأباريقنا فارغة ، يا كريستيني!"

نهض أورم الذي كان يجلس صامتاً خلال حديث الرجال على الفور وخرج .

قال هافتور مبتسماً : "لقد تعبت السيدة حتى غفت ، والخطأ يقع عليك... كان الأجدر بك أن تتركها في سلام لتحادثني وأنا الذي أعرف كيف أحادث السيدات ."

"أجل هذا الكلام قد طال كثيراً بالنسبة إليك ، كما أخشى يا سيدتي" ، بدأ سير إرلينغ الكلام معتذراً ، ولكن كريستين أجابت مع ابتسامة :

"الأمر هكذا بالفعل يا سيدي أني لم أفهم كل ما قيل هذه الليلة ، ولكني أتذكره جيداً وسوف أتمتع بوقت جيد حين أعود للتفكير فيه لاحقاً..."

عاد أورم مع بعض الخادمات وهن يحملن المزيد من الشراب . جال على الحضور يملأ الأقداح . نظر لافرانس بأسف إلى الغلام الوسيم . لقد حاول أن يحادث أورم إرلندسون ، ولكن الصبي كان لا يتلفظ سوى بكلمات قليلة ، رغم أن سلوكه كان مهذباً وملائماً .

همست إحدى الخادمات إلى كريستين بأن ناكفه قد استيقظ في القاعة الصغيرة وكان يزعق على نحو رهيب . عند هذا تمنت السيدة لضيوفها ليلة طيبة وغادرت القاعة مع خادماتها .

التفت الرجال إلى أقداح الجعة مجدداً . تبادل السير إرلينغ ولافرانس النظرات الآن بين الحين والآخر ، وأخيراً قال الفارس :

"هناك مسألة أود أن أكلمك فيها يا إرلند . لا شك أن رسوم السفن ستفرض على الأراضي حول الزقاق البحري هنا ومن'مور'... الناس في الشمال يخشون من أن الروس سيحضرون مجدداً بجيش قوي في الصيف وأنهم دون مساعدة لن يكونوا أكفاء لحماية الأرض . هذا النزاع الروسي هو المكسب الأول الذي أخذناه من مشاركتنا السويد في ملك واحد... ولن يكون من العدل أن يترك سكان هالوغالاندر يتمتعون بكل ذلك لوحدهم . والآن حدث أن آرن غيافالدسون قد أصبح عجوزاً ومريضاً جداً... وقد جرت أحاديث عن تسميتك رئيساً لكل السفن على هذا الجانب من الزقاق البحري . ما رأيك بذلك ؟..."

ضرب إرلند قبضته في كف اليد الأخرى... التمع وجهه كله : "ما هو رأيي...!"

قال إرلينغ كأنما ليجعله يصحو : "لن يكون ممكناً إلا بالكاد تجميع أي قوة كبيرة . ولكننا فكرنا في أنك لو أردت ، فسيكون جيداً أن تضع الأمور

في نصابها مع الأوصياء في الجوار... أنت تعرف هذه المنطقة جيداً... وكان يقال بين لوردات المجلس إنك قد تكون على الأرجح الأنسب للقيام بهذه المسألة . هناك من لا يزال يتذكر أنك قد ربحت الكثير من الشرف حين كنت وصياً على شاطئ هالاند تحت وصاية الكونت ياكوب... أتذكر أني سمعته يقول للملك هاكون إنه ليس أمراً حكيماً التعامل على هذا النحو القاسي مع شاب لطيف... قال إنك تحمل في شخصك ما يؤهلك لتكون خادماً موثوقاً للملك .

طقطق إرلند بأصابعه . "كلا ، لا تقل لي إنك ستصبح ملكاً يا إرلينغ فيدكونسون! هل هذه هي الخطة التي تحضر لها ، أن تصبح الملك إرلينغ ؟" قالها مقهقهاً .

قال إرلينغ بنزق :

"كلا يا إرلند ، ألا ترى أني أتكلم بكل ذلك الحزن ؟..."

"فليكن الرب في عوننا... هل كنت تمزح من قبل ؟ ظننتك تتكلم بحزن كاف طوال الليل... أجل ، أجل ، فلنتكلم في حزن ، إذن أيها الأقرباء... احك لي كل ما يتعلق بهذه المسألة ."

•

كانت كريستين نائمة والطفل عند صدرها حين هبط إرلند إلى القاعة الصغيرة . أضاء قضيب جذر تنوب من الجمرات في الموقد ، ثم نظر إلى الاثنين لبعض الوقت بنوره .

كانت جميلة جداً... وكان الطفل جميلاً جداً أيضاً ، ابنهما . كانت

دائمة شديدة النعاس في الأمسيات في هذه الأيام ، كريستين... ففي اللحظة التي تضطجع فيها وتقرب ابنها منها ، كانا كلاهما ينامان على الفور . ضحك إرلند قليلاً ورمى بالقضيب إلى الموقد . ثم خلع ملابسه ببطء .

شمالاً في الربيع مع (السفينة) "مارغيغرن" وثلاث أو أربع سفن حربية . هافتور غراوت مع ثلاث سفن من هالوغالاند... ولكن هافتور كان جديداً وغير مجرّب في مثل هذا العمل ، ربما يستطيع أن يديره كما هو ملائم له . أجل ، رأى جيداً أنه سيجعل الأمور تجري كما يريد هناك في الشمال . ولم يكن هافتور يبدو جباناً أو دون حماسة . مطّ إرلند جسمه وابتسم في العتمة . كان قد فكر في استخدام طاقم للسفينة "مارغيغرن" من مور ، خارج الزقاق البحري . ولكن هذا الجانب من البلاد وبيرغسي أيضاً يزدحمان بشبان جريئين أقوياء... كان قادراً على اختيار أفضل الرجال...

مرّ على زواجه أكثر قليلاً من عام . الحمل ثم الكفارة والصوم ، والآن الطفل أولاً والطفل أخيراً ، في الليل والنهار . ومع ذلك... كانت كريستين الشابة الحلوة لا تزال... حين كان قادراً على جعلها تنسى الكهنة الثرثارين وإرضاعها النهم للطفل لفترة قصيرة...

قبل كتفها ، ولكنها لم تنتبه . يا للطفلة المسكينة ، دعها نائمة... لديه الكثير ليفكر فيه هذه الليلة . التفت إرلند مبتعداً عنها وحدق إلى الغرفة إلى الشرارة المتقدة الصغيرة في الموقد . أجل ، ربما كان عليه أن ينهض ويغطي الجمرات... ولكنه لم يكن راغباً في ذلك...

بدأت ذكريات شبابه تتوارد على خاطره في نتف ولمحات . مقدم السفينة المرتعش يقف كأنه ينتظر برهة الموجة القادمة... والبحر كان الذي يغسل متن السفينة . الصخب القوي للعاصفة والأمواج . كانت السفينة كلها

تئنّ تحت ضغط البحار... رأس الصارية ينحني فوق الغيوم الطائرة . كان ذلك في مكان ما بعيداً عن شاطئ هالاند... كان إرلند مضطجعاً وهو مستغرق في التفكير... شعر بالدموع تملأ عينيه . لم يكن يعرف هو نفسه كم كانت سنوات البطالة تلك قد أغضبته .

•

في صباح اليوم التالي وقف لافرانس بيورغولفسون والسير إرلينغ عند النهاية العلوية للساحة ، وهما ينظران إلى بعض جياد إرلند التي كانت تعدو حرة خارج السياج .

قال لافرانس : "أعتقد أنه إذا ما ظهر إرلند في هذا الاجتماع وهو بمثل هذه المرتبة والمحتد الكريم ، بما أنه قريب الملك وأم الملك... أنه سيتقدم لا بد ليكون بين الأوائل . لا أعرف الآن يا سير إرلينغ ، إن كنت تظن أنه باستطاعتك أن تتأكد من أن حكمه في مثل هذه الأمور لن يؤدى به بالأحرى إلى الجانب الآخر . إذا ما حاول إيفار أوغموندسون أن يتحرك حركة مضادة... فإن إرلند لديه روابط وثيقة أيضاً مع الرجال الذين سيتبعون السير إيفار..."

قال إرلينغ فيدكونسون : "لا أظن أن السير إيفار سيفعل أي شيء . أما مونان" -هنا ارتجفت شفته قليلاً- "فسوف يكون حكيماً بما فيه الكفاية ، كما أعتقد ، ليبقى بعيداً... إنه يعرف أنه من الأفضل توضيح الأمر لجميع الرجال عن مدى قيمة أو لا قيمة مونان باردسون ." ضحكا كلاهما . "ثم هناك أمر يجب أن نفكر فيه... أجل ، أنت تعرف أفضل مني يا لافرانس لاغماندسون (انظر الحاشية رقم /٣/ من الجزء الأول من هذه الثلاثية) ،

أنت الذي لديك أنسباء وأقرباء هناك ، أن اللوردات السويديين لا يطيقون أن ينظروا إلى فرساننا على أنهم مساوون لهم . قد تدعو الحاجة إذن إلى ألاّ نترك أي رجل يغيب بين أولئك الأغنى وأصحاب المحتد الأصيل... لا نستطيع أن نسمح بأن نترك رجلاً كإرلند يقعد في البيت يداعب زوجته ويعتني بمزارعه... سواء اعتنى بها على نحو جيد أو سيىء" ، أضاف ذلك وهو يرى نظرة لافرانس .

ابتسم لافرانس قليلاً .

"و لكن لو اعتبرت أمر الضغط على إرلند حتى يكون في صفنّا أمراً غير حكيم ، فسوف أتخلى عنه ."

قال لافرانس : "أعتقد يا سيدي العزيز أن إرلند سيقدم خدمة أفضل هنا ، في موطنه . وكما قلت بنفسك... لا ننظر إلى هذه المكوس بارتياح في الأبرشيات جنوب نامدالسيد والتي يعتبر أهلها أنه ليس عليهم أن يخشوا شيئاً من الروس . وقد يكون إرلند الشخص الملائم لتغيير أفكار الناس حول هذه القضية على نحو ما..."

"أجل ، إذا لم تستطع إبقاءه ."

"لا أستطيع فعل ذلك إطلاقاً ، ما أن يقابل طيور السرب ممّن اعتاد الطيران معهم... صهري وأنا مختلفان إلى حد كبير . "

اقترب إرلند منهما :

"هل كسبتما الكثير في القداس حتى لم تعد لديكما حاجة إلى الإفطار ؟"

"لم أسمع شيئاً عن الإفطار... أنا جائع كذئب... وعطشان..." رَبَتَ

لافرانس على حصان أبيض قذر كان يداعبه وهو واقف هناك . "الرجل الذي يعتني بجياد مزرعتك يا صهري ، كان من شأني أن أطرده من هذا المكان قبل جلوسي إلى المائدة ، لو كان يعمل لديّ ."

قال إرلند : "لا أجرؤ على ذلك لخشيتي من كريستين . إحدى خادماتها حامل منه..."

"كلا ، ولكن أتظن هذا مسألة هامة في هذا الريف" ، قال لافرانس وهو يرفع حاجبيه قليلاً . "حتى أنك تظن أنك لا تستطيع الاستغناء عنه بسبب ذلك... ؟"

قال إرلند ضاحكاً : "كلا ، ولكنك ترى أن كريستين والكاهن يريدان تزويجهما... وسيريدان مني أن أجعله يكسب قوته وقوتها . والفتاة نفسها لا تريد ، ووليّ أمرها لا يريد ، و«تور» نفسه غير راغب كثيراً... ولكنهم لن يدعوني أطرده . إنها تخشى أنه سيغادر الأبرشية . وهناك أيضاً أولف هالدورسون الذي يشرف عليه... حين يكون أولف في البيت..."

ذهب إرلينغ فيدكونسون ليقابل سميد غودلايكسون . قال لافرانس لصهره :

"أعتقد أن كريستين تبدو شاحبة في النهار..."

قال إرلند بحماسة : "أجل . ألا تستطيع أن تكلمها ، يا عمي ؟... إن ابنها ذاك يمتص منها حتى نقي عظامها . وأعتقد أنها ستبقيه على صدرها حتى يأتي الصوم الثالث مثل أي فلاحة...

قال لافرانس بابتسامة صغيرة : "أجل ، إنها تحبّ ابنها كثيراً ."

هزّ إرلند رأسه : "أجل . إنهما يجلسان لثلاث ساعات... هي وسيرا

آيليف... ويتحدثان عن الأمر لو ظهر احمرار على جلده هنا أو هناك . وعند كل سن ينبت له يبدو لهما الأمر وكأن معجزة حدثت . كل ما أعرفه أن الأطفال تنبت لهم الأسنان ، وأعتقد أنها كانت أعجوبة أكبر لو لم ينبت لناكفه أي سن ."

٢

في السنة التالية ، وفي إحدى الأمسيات في نهاية الاحتفال بموسم عيد الميلاد ، وصلت كريستين لافرانسداتر وأورم إرلندسون دون سابق إنذار إلى منزل الماستر غونولف في المدينة .

كانت الريح قد عصفت وهطل المطر المتجمد طوال النهار ومنذ ما قبل الظهر ، والآن في أواخر المساء كانت عاصفة ثلجية قد بدأت . كان الاثنان قد غطيا بطبقة سميكة من الثلج حين دخلا إلى الغرفة حيث كان الكاهن جالساً إلى مائدة العشاء مع أهل بيته .

سأل غونولف بشيء من الخوف إن كان هناك ما هو على غير ما يرام في الضيعة . ولكن كريستين هزت رأسها . كان إرلند قد غادر البيت ليذهب إلى احتفال في غلمين ، هذا ما أجابت الكاهن به حين سألها . ولكنها كانت منهكة جداً ، فلم تستطع الذهاب معه .

فكر الكاهن كيف أنها قطعت الطريق كله على حصانها لتصل المدينة... كان حصانها وحصان أورم منهكين تماماً ، ففي آخر الطريق ما عاد بهما من قوة كافية ليشقّا طريقهما عبر الثلج الهاطل . أرسل غونولف المرأتين اللتين

تقطنان معه في المنزل مع كريستين... كان عليهما أن تحصلا على ثياب جافة لها . كانتا أمه بالتبنّي وأختها... ولم تكن هناك نساء أخريات في منزل الكاهن . وقام هو بالاعتناء بابن أخيه . في هذه الأثناء كان أورم يتكلم :

"كريستين مريضة ، على ما أعتقد . لقد قلت ذلك لأبي ، ولكنه غضب مني..."

لم تكن كريستين على ما يرام في هذه الأيام الأخيرة ، كما قال الصبي . لم يكن يعرف حقيقة الأمر . لم يكن قادراً على تذكر ما إذا كانت هي أو هو من فكر أولاً بالقدوم إلى هنا... أوه ، أجل ، كانت هي أول من تكلم عن مدى توقها للوصول إلى "كنيسة المسيح" ، فقال لها إن كان الأمر كذلك فسوف يرافقها . لهذا حدث في هذا الصباح ، مباشرة بعد أن غادر أبوه على حصانه ، أن قالت كريستين إن عليهما أن يذهبا الآن . كان أورم قد تركها تقوم بما ترغب فيه رغم أنه لاحظ أن الطقس كان منذراً بالسوء... ولكنه لم يحبب النظرة في عينيها .

فكر غونولف في أنه لم يحببها هو أيضاً حين شاهد كريستين تدخل الآن . بدت نحيلة إلى حد مؤلم في ثوب إنغريد الأسود . كان وجهها شاحباً بلون الليف ، وعيناها غائرتين ، مع حلقات سوداء زرقاء تحتهما... كانت نظراتها داكنة وغريبة .

كان قد مر أكثر من ثلاثة أشهر منذ أن رآها لآخر مرة... حين كان في هوسابي لاحتفال العماد . كانت تبدو في صحة جيدة في ذلك الحين ، وهي في سريرها في فترة ما بعد المخاض ، وقالت إنها تشعر بالقوة... كانت ولادة سهلة . لذلك عارض هو فكرة إعطاء الطفل إلى مرضعة ، وهي الفكرة التي طرحتها راغنفريد إيفارسداتر وإرلند... بينما راحت كريستين تبكي وترجو

أن يدعوها ترضع بيورغولف بنفسها... لقد سمي الابن الثاني باسم والد لافرانس (جد كريستين) .

لذلك سأل الكاهن أولاً عن حال بيورغولف... فقد كان يعرف أيضاً أن كريستين لم تكن تحب المرضعة التي أعطي الطفل إليها . ولكنها قالت إنه في أحسن حال وأن "فريدا" مغرمة به ، وكانت تعتني به على نحو أفضل ممّا توقعه أي شخص . وماذا عن نيكولاوس ؟ سأل العم . هل لا زال وسيماً ممتلئاً صحة كما كان دائماً ؟ وارتسمت ابتسامة صغيرة على وجه الأم . كان ناكفه يزداد وسامة كل يوم . لا ، لم يكن كثير الكلام ، ولكنه كان سابقاً لعمره في كل أمر آخر ، وكان ضخماً... ما كان أحد ليصدق أنه في شتائه الثاني... وقد قالت "الليدي غونا" هذا الكلام أيضاً .

ثم جلست كالضائعة مجدداً . نظر الماستر غونولف إلى الاثنين : زوجة أخيه وابن أخيه ، وكانا يحيطان به . لقد بدا عليهما التعب والأسى ، فحزن من كل قلبه لرؤيتهما على هذه الشاكلة .

لقد بدا أورم كئيباً . كان عمر الغلام الآن خمسة عشر عاماً . كان يجدر به أن يبدو الأوسم بين الشبان لولا أن الإعياء والمرض كانا ظاهرين عليه . كان بطول أبيه تقريباً ، ولكنه كان نحيلاً ضيق المنكبين ، كما كان وجهه أشبه بوجه إرلند ، ولكن لون عينيه الزرقاوين كان أغمق من لون عيني أبيه ، كما كان الفم الذي بدأ الشارب يخطه أصغر وأكثر ليونة من فم أبيه ، وكلما كان مغلقاً كانت تغضينة سمراء ضيقة تظهر تحت شعره الأسود المجعد ممّا يجعله يبدو تعيساً على نحو غريب وهو جالس هناك ، وقد انحنى قليلاً فوق طعامه .

لم تكن كريستين قد جلست مع أخي زوجها على مائدته في منزله من

قبل . في السنة الماضية ، كانت مع إرلند في المدينة لأجل موسم الربيع[٩] ، ثم نزلا في هذا المنزل ، الذي ورثه غونولف عن أبيه... ولكن الكاهن نفسه كان يعيش في ذلك الحين في منزل "الأخوة المصلوبين" ، ككاهن لإحدى الفرق . والآن كان الماستر غونولف راعياً لأبرشية ستاين . ولكن كان معه قسيس يعمل تحت أمرته ، وكان هو يشرف على أعمال إعداد الكتب للكنائس التابعة للأسقفية ، بينما كان قائد جوقة المرتلين ، آيريك فينسون ، مريضاً . وهكذا كان يعيش في هذه الأثناء في منزله الخاص .

لم تكن القاعة مخالفة في شكلها للغرف التي اعتادت كريستين رؤيتها . كان منزلاً خشبياً ، ولكن في وسط جدار الجمالون الشرقي بنى غونولف مدفأة حجرية كبيرة ، مثل تلك التي رآها في البلاد الجنوبية ، وكانت نار الحطب مشتعلة بين منصبين من الحديد الصب . كانت المائدة تقف على امتداد أحد الجدران الطويلة ، وعلى الجدار المقابل كانت مقاعد ذات مكاتب خاصة بالكتابة . وأمام صورة لمريم العذراء كان هناك مصباح منار من معدن أصفر ، وإلى القرب منها كانت إطارات مملوءة بالكتب .

بدت الغرفة غريبة لها وبدا أخو زوجها غريباً ، وقد رأته الآن جالساً هناك إلى مائدته وأهل بيته ، مع رجال دين وخدم ونظرة غريبة نصف كاهنية . كان هناك بعض الفقراء أيضاً... رجال عجائز وصبي صغير بأهداب رقيقة كالغشاء تلتصق بشدة بالمحجرين الفارغين . على مقعد النساء جلست مع الخادمتين العجوزين فتاة في حضنها طفل في الثانية . كانت تلتهم وجبتها بجوع وتملأ فم الطفل بالطعام حتى كاد خداه ينفجران .

لقد كان كل كهنة "كنيسة المسيح" يطعمون الفقراء في المساء . ولكن كريستين كانت قد سمعت أن الشحاذين الذين يلجأون إلى غونولف

نيكولاوسون كانوا أقل عدداً من أولئك اللاجئين إلى الكهنة الآخرين . رغم أنه كان يجعلهم -أو بسبب ذلك- يجلسون إلى مائدته في قاعة منزله ويرحب بكل شحاذ كضيف موقر . كانوا يمنحون الطعام من طبقه الخاص والشراب من براميله الخاصة . لذلك كانوا يأتون إليه حين يحسون بالحاجة إلى وجبة من اللحم... إلا أنهم كانوا يفضلون الذهاب إلى الكهنة الآخرين حيث تقدم لهم العصيدة والقليل من الجعة في المطبخ .

و ما أن تلا رجل الدين الصلاة بعد الوجبة حتى استعد الفقراء للرحيل . تحدث إليهم غونولف بمودة واحداً واحداً ، وسألهم إن كانوا يودون المبيت عنده ليلاً ، أو إن كانوا يرغبون بأي شيء آخر ، ولكن الصبي الأعمى لم يغادر . طلب الكاهن على وجه الخصوص من الفتاة التي معها طفل أن تبقى وألا تخرج بالصغير ليلاً ، ولكنها همهمت بعذر ما وغادرت مسرعة . طلب غونولف من الخادم أن يمنح آرنستاين الأعمى الجعة وسريراً جيداً في منزل الضيافة . ثم نهض ورمى من حوله عباءة ذات قلنسوة : "اعتقد أنكما متعبان ، يا أورم وكريستين ، وتودان أن ترتاحا . ستعتني بكما أودهيلد... والأرجح أن تكونا قد نمتما حين أعود من الكنيسة ."

و لكن كريستين رجته أن يصطحبها معه . "لهذا السبب أنا هنا" ، قالت وهي تثبت عينين يائستين على غونولف . طلب من إنغريد أن تعيرها عباءة جافة ومضت هي وأورم مع المجموعة الصغيرة التي لحقت به انطلاقاً من المنزل .

بدا رنين الأجراس وكأنه فوق رؤوسهم مباشرة في سماء الليل السوداء... لم تكن الكنيسة بعيدة سوى بضع خطوات . مشوا وهم يجرون

أقدامهم بثقل عبر الثلج العميق الرطب . كان الطقس هادئاً الآن... بين الحين والآخر كانت رقاقات صغيرة من الثلج تهطل وهي تلتمع في العتمة .

•

حاولت كريستين وهي في حالة إجهاد مميت أن تتكئ على العمود الذي كانت إلى القرب منه . ولكن الحجر أشعرها بالبرد في كل أنحاء جسدها . وقفت في الكنيسة المعتمة ونظرت نحو أنوار مكان الجوقة . لم تستطع أن ترى غونولف هناك في الأعلى . ولكنها عرفت أنه كان جالساً هناك بين الكهنة ، وشمعته قرب كتابه... لا ، على أي حال فقد كانت واثقة أنها لا تستطيع أن تكلمه...

كان يبدو الأمر الليلة وكأنها ما كانت لتجد العون في أي مكان . لقد قرّعها سيرا آيليف في البيت لأنها كانت تؤاخذ نفسها بشدة على الخطايا اليومية... قال إن ذلك هو وهم الاعتداد الروحي بالنفس : فلتكن نشيطة في الصلاة وأعمال الخير ولن يكون لديها متسع من الوقت للتفكير كثيراً في مثل هذه الأمور . "ليس الشيطان ذلك الأحمق الكبير إلى حد أنه لن يرى أن روحك لابد ستنجو منه في النهاية ، ولن يعود هو ليهتم بإغوائك كثيراً..."

أوه ، كلا! لم يبد على الشيطان أنه واثق إلى ذلك الحد من أنه لابدّ فاقد روحها... ولكن حين مكثت هنا سابقاً وقد سحقتها خطاياها وقساوة قلبها وحياتها الدنسة وعمى روحها... عندها أحست أن الملك الذي تحول قديساً قد حماها تحت حاشية عباءته . لقد أحست بقبضة يده القوية الدافئة على يدها ، وقد أشار لها بيدهِ إلى النور الذي هو مصدر كل القوة والقداسة . لقد وجه القديس أولاف عينيها نحو المسيح على صليبه... انظري يا

كريستين كرم الرب المحب... أجل ، لقد بدأت تفهم حب الرب بمعاناته الطويلة... ولكن منذ ذلك الحين عادت لتلتفت بعيداً عن النور وتغلق قلبها أمامه ، والآن لم يعد في روحها سوى القلق والغضب والخوف .

كانت بائسة بائسة . لقد رأت الأمر بنفسها : إن امرأة مثلها كانت في حاجة إلى محن قاسية قبل أن تشفى من روحها غير المحبّة . ومع ذلك كانت هي شديدة التمرّد حتى أن قلبها كان لا بد سيتحطم تحت ضغط المحن التي حلت بها . كانت محناً صغيرة جداً... ولكنها كثيرة... وكانت هي شديدة التمرد .

لمحت شكل ابن زوجها الطويل الرشيق عند الناحية التي يجلس فيها الرجال...

لم تستطع السيطرة على نفسها . كانت تحب أورم كأنه ابن لها ، ولكنها لم تستطع أن تحب مارغريت . لقد ناضلت وناضلت محاولة أن تجبر نفسها على أن تحب الطفلة منذ ذلك اليوم في الشتاء الماضي حين جلبها أولف هالدورسون إلى البيت في هوسابي . وقد اعتبرت هي الأمر شيئاً مخيفاً... هل يمكنها أن تشعر بالكره والغضب تجاه فتاة صغيرة في التاسعة من عمرها! وكانت تعرف جيداً أن ذلك يعود جزئياً إلى أن الطفلة كانت تشبه أمها إلى حد غريب... ولم تقدر أن تفهم إرلند الذي كان يظهر كل الفخر في أن ابنته الصغيرة ذات العينين البنيتين كانت جميلة جداً . لم تكن الفتاة لتوقظ أبداً ذكريات مقلقة في أبيها . لكأنما كان إرلند قد نسي كل ما يتعلق بأم هذين الطفلين . ولكن لم يكن كرهها لمارغريت يعود إلى أنها تشبه أمها . ما كانت مارغريت تتحمل أن يعلّمها أحد شيئاً . كانت متعالية وقاسية في معاملتها للخدم . كما كانت غير صادقة ، أما أبوها فكانت

تتملّقه . لم تكن تحبه كما يحبه أورم ، بل كانت تتعلق بإرلند وتمطره بالقبلات والمداعبات لتنال شيئاً ما منه . وكان إرلند يغرقها بالهدايا ويلبي لها كل طلباتها . ولم يكن أورم يحب أخته أيضاً ، وقد لاحظت هي ذلك...

كان أمراً مؤلماً لها أن تشعر أنها قاسية عديمة الشفقة إلى حد أنها لم تكن قادرة على النظر إلى أفعال مارغريت دون غضب وأحكام قاسية . ولكن كان الألم أشد لرؤيتها وسماعها المشاحنات التي لا نهاية لها بين إرلند وابنه البكر . وكان الألم أشد لأنها كانت ترى أن إرلند كان في أعماق قلبه يحب الصبي حباً جماً... ولكنه كان ظالماً وقاسياً تجاه أورم لأنه كان حائراً لا يعرف ما يفعله بابنه أو كيف يضمن له مستقبله . لقد منح طفليه غير الشرعيين أراضي وأمتعة... ولكن لم يكن يبدو أمراً معقولاً أن يصبح أورم مزارعاً . وكان إرلند يصاب باليأس كلما رأى كم كان ابنه ضعيفاً ورقيقاً ، فكان يناديه بالفاسد ، ويحاول أن يقسّيه ، ويمرّنه ساعات طوالاً ، ويجعله يستخدم الأسلحة الثقيلة التي ما كان ممكناً للصبي أن يتقن استعمالها . كما كان يجبره على الشرب حتى الغثيان في الأمسيات ، ويعيده نصف ميت من رحلات صيد خطرة ومنهكة . وخلال هذا كله كانت كريستين قادرة على رؤية الألم في قلب إرلند ، فغالباً ما كان حزيناً إلى حد الجنون ، لأن ابنه المرهف والوسيم كان ملائماً لمكان واحد فحسب... وكان مولده يمنعه من الوصول إليه . وهكذا بدأت كريستين تفهم كم كان صبر إرلند نافذاً حين يكون خائفاً على شخص عزيز جداً عليه أو يشعر بالشفقة عليه .

كما لاحظت أن أورم يفهم ذلك أيضاً . ولاحظت أن قلب الصبي كان ممزقاً بين حبه لأبيه والاعتزاز به... والاحتقار للاعقلانية الرجل حين كان إرلند يجعل الصبي يقاسي بسبب المشاكل الكامنة أمامهما والتي يلام هو

عليها وليس الصبي . ولكن أورم كان قد أصبح على علاقة وثيقة بزوجة أبيه الشابة... لكأنما كان يتنفس معها بحرية ويشعر أن مزاجه أفضل . حين يكون وحيداً معها ، كان يمازحها ويضاحكها بأسلوبه الهادئ . ولكن إرلند لم يحبب هذا ، وكأنه كان يخشى أن هذين قد يحكمان على تصرفه .

أوه كلا ، لم يكن الأمر سهلاً على إرلند... ولا عجب أنه كان غاضباً ومتسرعاً في كل ما يتعلق بالطفلين . ومع ذلك...

كانت تجفل في ألم كلما فكرت بالموضوع .

كانت الضيعة ملأى بالضيوف في الأسبوع الذي مضى . والآن حين جاءت مارغريت إلى البيت ، جعل إرلند العلية في النهاية السفلى من القاعة ، فوق الغرفة الخارجية والمختلى ، غرفة للنوم... حيث سريرها العذري كما قال..و كانت تنام هناك ، مع الخادمة التي خصصها لها والدها لترعاها وتخدمها . كانت "فريدا" تنام هناك أيضاً ، مع بيورغولف . ولكن الآن مع هذا الحشد من الضيوف في موسم عيد الميلاد ، جعلت كريستين هذه العلية غرفة نوم للشبان ، وكان على الخادمتين والطفل الرضيع أن يناموا في منزل الخادمات . ولكن بما أنها فكرت أن إرلند قد لا يحب فكرة إرسال مارغريت لتنام مع الخادمات ، فقد جهزت لها سريراً على واحد من المقاعد في القاعة ، حيث تنام السيدات والفتيات . كانت مارغريت تكره كثيراً الاستيقاظ صباحاً . وكانت كريستين قد أيقظتها هذا الصباح مرات كثيرة ، ولكنها تقلبت في السرير وبقيت نائمة بعد أن نهضت كل الأخريات . أرادت كريستين أن تفرغ القاعة وتجهزها... فعلى الضيوف أن يتناولوا وجبة الإفطار... وأخيراً نفد صبرها . سحبت الوسائد من تحت رأس مارغريت ، ثم الأغطية من عليها . ولكن حين رأت الطفلة وقد اضطجعت عارية فوق البساط

المصنوع من الفرو ، رمت فوقها العباءة التي كانت على كتفيها . كانت تلك قطعة من الصوف الخشن غير المصبوغ... وكانت ترتديها فقط حين تمضي إلى المطبخ والمخازن لتفقد خدمة الطعام .

دخل إرلند في تلك اللحظة... كان قد نام في واحدة من عليات المخازن مع رجال آخرين ، فقد كانت الليدي غونا تنام مع كريستين في السرير الكبير . حين شاهد ما حدث جن جنونه . أمسك بذراع كريستين بقوة إلى حد أن آثار أصابعه ما زالت بادية على لحمها .

"أتظنين أن ابنتي هذه يلائمها النوم بين القش والصوف الخشن ؟ مارغريت هي ابنتي كما ترين ، حتى لو لم تكن ابنتك... إن ما لا يلائم ولديك لا يلائمها أيضاً . ولكن بما أنك قد حقّرت هذه الطفلة البريئة أمام هؤلاء النسوة ، فعليك أن تسوّي الأمر أمامهن أيضاً... غطي مارغريت مجدداً بما سحبته عنها...!"

صحيح أن إرلند كان قد شرب كثيراً في الليلة الماضية ، وأنه حين يفعل ذلك يكون ذا مزاج معكر في الصباح التالي . وربما ظن أنه جرى حديث ما بين النساء حين شاهدن طفلي إلين . وكان هو حساساً وسريع الغضب في كل ما يتعلق بطريقة معاملتهما... ومع ذلك...

لقد حاولت أن تكلّم سيرا آيليف عن الموضوع . ولكنه لم يكن قادراً على مساعدتها في هذا الخصوص . كان غونولف قد قال إن الخطايا التي اعترفت بها وكفّرت عنها ، قبل أن يصبح آيليف سيركسون أب الاعتراف لأبيها ، هي خطايا ليس عليها ذكرها له ما لم تر أنّ عليه أن يعرفها حتى يستطيع أن يقدم لها النصح فيما يتعلق بشؤونها ويكون قادراً على الحكم عليها . لذلك كان هناك الكثير مما لم تحكه له قط ، ورغم أنها أحست أنها

أصبحت في نظر سيرا آيليف امرأة أصلح مما كانت عليه . ومع ذلك كان أمراً مواسياً لها أن تنال صداقة هذا الرجل الطيب نقي القلب . كان إرلند يسخر منها ، ولكنها كانت تحصل على الكثير من السلوان من سيرا آيليف . كانت تستطيع معه أن تتحدث بقدر ما تريد عن أولادها . كل الأمور الصغيرة التي كانت تنهك إرلند حتى الموت ، كان الكاهن مستعداً أن يناقشها معها . كان له أسلوبه الخاص مع الأطفال الصغار ومهارة جيدة بالتعامل مع مشاكلهم الصغيرة وأمراضهم . كان إرلند يضحك منها حين كانت تذهب إلى المطبخ وتطهو أطباقاً لذيذة ترسلها إلى منزل الكاهن... فقد كان سيرا آيليف مغرماً بالطعام والشراب الجيدين ، وكانت تستمتع بإشغال نفسها بهذه الأمور وأن تجرب أن تمارس ما علمتها إياه أمها أو ما شاهدته في الدير . لم يكن إرلند يهتم بما يأكله ، إذا كان يحصل على اللحم في كل الأوقات ، حين لا يكون هناك صوم . ولكن سيرا آيليف كان يأتي ويتكلم ويشكرها ويمدح مهارتها حين كانت ترسل له سفوداً من طيور الترمجان ملفوفة بلحم الخنزير الطيب أو طبقاً من ألسنة الرئة مع النبيذ الفرنسي والعسل . وقد كان يمنحها المشورة حول حديقتها ، ويجلب لها شتلات من تاوترا حيث كان أخوه يقيم كراهب ، ومن "دير أولاف" حيث كان رئيس الدير صديقاً حميماً له . ثم كان يقرأ لها ، وكان قادراً على أن يحكي لها الكثير من الأمور عن الحياة هناك في العالم الخارجي الفسيح .

و لكن بسبب كونه طيباً وبسيط القلب إلى ذلك الحد ، فقد كان أمراً صعباً أن تحدثه هي عن الشر الذي كان في قلبها . وحين اعترفت له كم كانت غاضبة على إرلند بسبب سلوكه مع مارغريت ، فقد أكد لها أن واجبها يحتم عليها أن تتحمل زوجها . ولكن بدا عليه كأنه يعتبر أن إرلند وحده المخطىء لأنه كلم زوجته على هذا النحو غير العادل . وذلك تحت سمع

أشخاص غرباء . وقد فكرت كريستين بالفعل بشيء مشابه . ولكن في أعماق قلبها كانت تحس أنها تشترك معه في الذنب . لم تقدر على توضيح المسألة ، ولكنها كانت تقلقها جداً .

رفعت كريستين بصرها إلى الضريح المتلألئ على نحو باهت بلونه الذهبي في الغسق خلف المذبح العالي . لقد بدت واثقة جداً أنها حين تقف هنا مرة أخرى ، فلا بد أن يحدث لها شيء ما... شيء يخلص روحها . ومن جديد تهجر نبع حيّ في قلبها وغسل كل القلق والخوف والمرارة والشك التي كانت تملؤه .

و لكن في هذه الليلة لم يكن هناك أحد حليم معها . ألم يسبق لك يا كريستين أن تعلمت ذات مرة... بأن تطرحي اعتقادك بأنك أقوم أخلاقاً من الآخرين تحت عدالة الرب ، وأن تكبحي رغبتك الوثنية والأنانية تحت نور الحب ؟ هذا ما لم تتعلميه يا كريستين...

و لكن في المرة الماضية حين ركعت هناك كان ناكفه بين ذراعيها . كان فمه الصغير على ثديها يبعث الدفء في قلبها حتى أنه أصبح ليناً كالشمع الطري وطيّعاً ليعيد الحب الرباني تشكيله . وهي لا تزال تحظى بناكفه... كان يبدو في أنحاء القاعة في البيت ، جميلاً وعذباً حتى أن صدرها كان يؤلمها لمجرد أن تفكر فيه . كان شعره الناعم المجعد قد بدأ يصبح داكن اللون... سيكون ذا شعر أسود كأبيه . وكان مليئاً بالحيوية والعبث الطفولي... كانت تصنع له دمى على شكل حيوانات من قطع أبسطة الفراء القديمة ، وكان يرميها بعيداً ثم يعدو خلفها مسابقاً الكلاب الصغيرة . وكان هذا غالباً ما ينتهي بالدب في الموقد محترقاً بالكثير من الدخان والرائحة الخبيثة ، بينما كان ناكفه يقف وهو يعوي ويقفز ويضرب الأرض بقدمه ثم

يدفن رأسه في حجرها... إذ كانت كل مغامراته تنتهي هناك حتى الآن . كانت الخادمات يتنافسن على كسب مودته ، ويمسك به الرجال ويرمون به إلى السقف كلما دخلوا القاعة . وكلما كان الصبي يرى أولف هالدورسون كان يعدو نحوه على الفور ويتشبث بساقه... كان أولف يخرجه إلى المزرعة بين الحين والآخر . كان إرلند يطقطق بأصابعه نحو ابنه ثم يضعه على كتفه للحظة... ولكن أباه كان أقل الناس في هوسابي اهتماماً به . ورغم أن إرلند كان مولعاً بناكفه ، إلا أنه كان سعيداً لأنه أضحى لديه ابنان شرعيان الآن .

كان قلب الأم يتفتت في داخلها :

لقد أخذوا بيورغولف منها . كان يتذمر الآن حين تحمله ، وتقوم فريدا على الفور بتلقيمه ثديها... إذ كانت المرضعة تغار عليه الآن . ولكنها لن تتخلى عن الطفل الجديد . كانت أمها وإرلند قد قالا إن عليها أن توفر قوتها في الوقت الحاضر ، وهكذا أخذ منها وليدها وأعطي إلى امرأة أخرى . لكأنها أحست بنوع من المتعة الثأرية في فكرة أن كل ما نتج عن هذا كان أنها تتطلع الآن إلى إنجاب طفل ثالث قبل أن يصبح بيورغولف في الشهر الحادي عشر من عمره .

لم تجرؤ على النطق بذلك أمام سيرا آيليف ، فربما سيظن فحسب أنها غاضبة لأن عليها أن تمرّ بكل هذه المحنة مجدداً . ولكن الأمر لم يكن كذلك .

من حجتها كانت قد عادت إلى البيت برعب عميق في روحها... لن تدع هذا الجنون يسيطر عليها مرة أخرى . طوال فترة الصيف كانت قد جلست لوحدها مع الطفل في القاعة القديمة وهي تزن في ذهنها كلمات الأسقف

وأقوال غونولف ، حول أن تكون نشيطة في الصلوات والكفارة ، وأن تكون دؤوبة في العمل على ترميم أوضاع الضيعة المهملة وأن تكسب محبة الخدم بالكرم وبالتفكير في مصلحتهم ، وتكون تواقة إلى المساعدة وخدمة الجميع ممن هم حولها بكل ما تستطيعه يداها وسلطتها . كان سلام هادئ لذيذ قد حلّ عليها . كانت تتماسك بأفكارها التي تدور حول أبيها ، والصلوات للقديسين والقديسات الذين كان سيرا آيليف يقرأ لها عنهم ، والتأمل في شجاعتهم وثباتهم . وكانت تتذكر بقلب مرهف من السعادة والامتنان الأخ إدفين ، حين ظهر لها تحت نور القمر في تلك الليلة . لقد فهمت رسالته جيداً حين ابتسم لها بكل رقة وعلق قفازه على عمود نور القمر . لو كان لديها ما يكفي من الإيمان لأصبحت امرأة صالحة .

حين كانت السنة الأولى من الزواج على وشك الانتهاء ، كان عليها أن تنتقل عائدة إلى زوجها . واست نفسها ، حين شعرت بأنها غير واثقة من نفسها... لقد أمرها الأسقف نفسه أنها في حياتها المشتركة مع زوجها يجب أن تظهر قلبها الجديد . وبالفعل فقد ناضلت بكل عناية تواقة لتحفظ له سعادته وشرفه . كان إرلند نفسه قد قال ذلك : "لقد تبين يا كريستين على أي حال ، أنك أعدت الشرف إلى هوسابي ." لقد أظهر لها الناس الكثير من اللطف والاحترام : بدا الجميع تواقين إلى نسيان أنها بدأت حياتها الزوجية على نحو مبالغ في تسرعه . وحين كانت ربات البيوت يجتمعن معاً ، كانت تستشار . لقد كن يمدحن ترتيبها لأمور منزلها . لقد طلب إليها أن تكون إشبينة للعروسات وتساعد في الولادات في الضيعات الكبيرة ، ولم تجعلها أي واحدة منهن تشعر أنها كانت صغيرة السن دون خبرة ، أو جديدة على المنطقة . كان الخدم يجلسون في القاعة خلال المساء كله ، كما في

يورونـدغارد حتى... وكان لدى كل واحد شيئاً يسأل عنه سيدته . لقد اكتشفت فجأة ، في توهج من الفرح ، كم كان الناس طيبين معها وأن إرلند كان فخوراً بها...

ثم ذهب إرلند ليعمل في الإشراف على مكوس السفن من الموانئ إلى الجنوب من الزقاق البحري . راح يسافر في أنحاء البلاد ، راكباً جواده أو مبحراً ، وكان مشغولاً بالناس الذين كانوا يحضرون إليه ، والرسائل التي كان يتوجب إرسالها . كان شاباً وسعيداً ووسيماً إلى حد كبير... وقد بدا الآن وكأن المزاج الكسول الكئيب الذي غالباً ما كانت تراه فيه في الأيام الماضية قد زال عنه . كان يتلألأ وقد عاد للاستيقاظ كالصباح . لم يكن لديه سوى القليل من وقت الفراغ الآن... ولكنها بدأت تشعر مجدداً بالدوار والجنون حين كان يقترب منها بوجهه المبتسم وعينيه المحبتين للمغامرة .

كانت تضحك معه على الرسالة التي وصلت من مونان باردسون . لم يكن الفارس حاضراً اجتماع رجال الملك ، ولكنه راح يسخر من المسألة كلها وخاصة تعيين إرلينغ فيدكونسون وصياً على العرش . لقد بدا – كما قال مونان – أن مهمته الأولى كانت إضفاء ألقاب جديدة على نفسه : كان يريد من الناس أن يلقبوه بـ "الوكيل السامي" كما كان يقال . كتب مونان عن أبيها أيضاً :

"زحف ذئب الجبال من «سيل» تحت صخرة وجلس صامتاً . أي أن حماك اتخذ له سكناً مع كهنة كنيسة القديس لاورنتيوس ولم يرفع صوته المعسّل في المفاوضات . هناك في حوزته رسائل مختومة بخاتم السير إرنغيزل والسير كارل تورسون ، وإن لم تكن هذه الرسائل قد اهترأت الآن ، فلا بدّ أن الورق أقسى من نعل حذاء الشيطان . وعليك أن تعرف ما

يلي أيضاً : أن لافرانس منح ثمانية ماركات من الفضة الصافية إلى دير نونسيتر . لا بدّ أن الرجل قد وضع في ذهنه أن كريستين عانت من حياة متعبة جداً هناك من حيث الحقوق التي كان عليها..."

لقد أحست بالفعل بوخزة من العار والألم ، ولكنها لم تستطع مغالبة الضحك مع إرلند . كان الشتاء والربيع قد مرّا عليها في دوامة من المرح والسعادة . بين الحين والآخر كانت تهب عاصفة بشأن أورم : لم يكن إرلند يعرف إن كان عليه أن يصطحب الغلام معه شمالاً . وقد انتهى الأمر بانفجار في فترة عيد الفصح . في تلك الليلة بكى إرلند بين ذراعيها . لم يكن يجرؤ على اصطحاب ابنه معه على سطح السفينة . كان يخشى أن أورم لن يكون كفؤاً في الحرب . قد هدأت هي من روعه وروعها وروع الغلام... ربما سيصبح الغلام أقوى مع تقدمه في السن .

في اليوم الذي مضت فيه مع إرلند إلى المرفأ في بيرغسي ، لم تستطع أن تشعر بأي خوف أو أسف على فراقه . كانت ثملة ، كما جرى ، به وبسعادته الفائضة .

لم تكن تعرف هي في ذلك الحين أنه سبق لها وحملت مجدداً . ظنت حين شعرت بالغثيان أن الأمر يتعلق بالاهتياج المصاحب لرحيل إرلند ، مع الأوقات الصاخبة وحفلات الشراب في البيت ، وأنها كانت مرهقة من إرضاع ناكفه . وحين أحست بالحياة الجديدة تتحرك في داخلها ، فقد عرفت... كانت تتطلع بتوق إلى الشتاء ، إلى الذهاب إلى المدينة والريف مع زوجها الوسيم الشجاع... بينما هي أيضاً كانت جميلة وشابة . كانت متأكدة تماماً أن إرلند في حربه الروسية سيبرهن على أنه ملائم لأمور أخرى عدا تلويث اسمه وسمعته وأمواله . كانت تفكر في فطام الطفل في الخريف... كان أمراً

مزعجاً اصطحابه مع مرضعته إلى أي مكان تذهب إليه . والآن... لا ، لم تكن سعيدة ، وقد قالت هذا للسير آيليف . ثم قام الكاهن بتعنيفها على نحو حاد بسبب روحها غير المحبّة والدنيوية . وقد أمضت الصيف كله وهي تحاول أن تكون سعيدة وتشكر الرب على الطفل الجديد الذي كانت تحمله ، وبسبب الأنباء الطيبة التي وصلتها عن المآثر التي كان إرلند يقوم بها في الشمال .

ثم عاد إلى البيت قبل قداس ميكائيل . كانت قد لاحظت جيداً أنه لم يكن في سعادة مفرطة حين رأى حالتها . وفي تلك الليلة قال لها :

"ظننت أنك ما أن تصبحي ملكي... فسيكون الأمر أشبه بتذوق فرحة موسم عيد الميلاد كل يوم . ولكن يبدو وكأن معظم الوقت سيكون صياماً طويلاً ."

و كلما تذكرت هذا الكلام ، كانت موجة من الدم تطغى على وجهها ، وكانت حارة كحرارة ذلك المساء حين نأت عنه ، وقد احمر وجهها وجفت دموعها . حاول إرلند أن يعوضها بالحب واللطف . ولكنها لم تستطع نسيان الأمر . كانت النار التي تشتعل في داخلها لا يمكن أن تطفئها كل دموع كفارتها ، كما كان ألمها على خطيئتها لا يمكن تخفيفه... كأنما كان إرلند قد داس بقدمه عليها حين تلفظ بتلك الكلمات .

•

في وقت متأخر من الليل ، جلسوا قرب المدفأة في قاعة غونولف ، هو وكريستين وأورم . كانت قارورة من النبيذ مع بعض الأقداح الصغيرة موضوعة على حافة المدفأة . كان الماستر غونولف قد سأل ضيفيه أكثر من مرة إن لم يكونا راغبين في الراحة الآن . ولكن كريستين رجته أن يسمح لها بالبقاء .

سألته : "أتذكر يا أخا زوجي حين حكيت لك مرة أن كاهننا في البيت قد أشار عليّ بأن أهب نفسي للدير ، إذا لم يوافق أبي على زواجي من إرلند ؟"

نظر غونولف بسرعة نحو أورم . ولكن كريستين قالت بابتسامة صغيرة شاحبة :

"أتظن أن هذا الغلام اليافع لا يعرف أني ضعيفة وخاطئة ؟"

أجاب غونولف برقة :

"هل كنت تشعرين بنداء يُوجه إليك لتعيشي في الدير يا كريستين في ذلك الحين ؟"

"لا شك أن الرب كان سيفتح لي عينيّ ما أن أدخل في خدمته ."

"ربما اعتبر هو أن عينيك في حاجة إلى فتح لتفهمي أن عليك أن تكوني في خدمته أينما تكونين . لا شك أن الزوج والأولاد وخدم المنزل في هوسابي في حاجة إلى خادمة من خادمات الرب موثوقة وصبورة لتكون بينهم وترعى مصالحهم...

"و لا شك أن الفتاة التي تتزوج العريس الذي يختاره لها المسيح هي التي تحظى بأفضل زواج ، على ألاّ تستسلم إلى سلطة رجل خاطئ . ولكن الطفل الذي سبق له وأخطأ..."

همست كريستين : "أفضل أن تأتي إلى الرب وأنت تلبسين إكليل العروس" ، هذا ما قاله لي الأخ إدفين ريكاردسون ، الذي حكيت لك عنه مراراً . أتظن ذلك أيضاً ؟"

أومأ غونولف نيكولاوسون برأسه :

"...رغم أن نساء كثيرات قد ارتقين من حياة الخطيئة بقوة وثبات حتى أننا نصلي بأمان الآن لأجل أن يتشفعن لنا ، ولكن هذا حدث على الأغلب في الأزمان الماضية ، حين كانت المرأة تهدد بالتعذيب والإعدام حرقاً والكلابات المتقدة إذا ما اعترفت بأنها مسيحية . لقد سبق لي يا كريستين وفكرت مراراً في أنه كان أسهل آنئذ أن يتحرر المرء من وثاق الخطيئة ، حين كان ذلك ممكناً فعله بالقوة والعزم بليّة واحدة . ورغم أن البشرية فاسدة جداً -ولكن الشجاعة ما زالت تسكن على نحو طبيعي في كثير من القلوب- والشجاعة هي التي غالباً ما تدفع روحاً ما إلى أن تنشد الرب . وهكذا فإن التعذيب حث كثيراً من الأرواح على الصمود كما أرهب الكثير فارتدوا . ولكن طفلة ضالة انتزعت من شهوات الجسد قبل أن تتعلم فهم ما تجلبه هذه على روحها ، قد أحضرت إلى جماعة من الأخوات مع عذراوات متدينات تخلين عن أرواحهن لأجل أن يحرسن ويصلين لأولئك الذين ينامون خارجاً في هذا العالم..."

ثم أردف فجأة وهو ينهض : "لو أن الصيف يأتي سريعاً!" نظر إليه الاثنان الآخران في استغراب .

"أجل... لقد خطر لي نداء طائر الوقواق من الجبال في هوسابي في الصباح . كنا غالباً ما نسمعه من الغابات البعيدة حول باي... كان صوته عذباً جداً من حول البحيرة في هدوء الصباح . ألا تظنين أن هوسابي مكان جميل يا كريستين ؟"

قال أورم إرلندسون بصوت خفيض : "الوقواق الشرقي وقواق الحزن . أعتقد أن هوسابي أجمل مكان في العالم ."

وضع الكاهن يديه على كتفي ابن أخيه الضيقين لحظة :

"و هذا ما كنت أظنه يا قريبي . وكان ذاك بيت أبي أيضاً . ليس الابن الأصغر أقرب إلى الميراث منك يا أورم العزيز ."

"حين كان أبي يعيش مع أمي ، كنت أنت الوريث الأقرب" ، قال الغلام برقة كما من قبل .

قالت كريستين بحزن : "لا يمكننا أن نفعل شيئاً أنا وابناي يا أورم ."

فأجاب بهدوء : "أعتقد أنك لاحظت جيداً أيضاً أني لا أحمل لكم أي ضغينة ."

قالت كريستين بعد برهة : "إنها لأرض واسعة مفتوحة . ويستطيع المرء أن يرى إلى البعيد من هوسابي... والسماء واسعة جداً . أما في موطني ، فإنها تقبع كسقف فوق قمم الجبال . "تكمن «ديل» في مكان منخفض كالمأوى ، أجوف وأخضر ونضر . حجم العالم ملائم جداً... ليس كبيراً جداً ولا ضيقاً جداً ." تنهدت وحركت يديها في حضنها .

"أكان بيته هناك ذاك الرجل الذي كان أبوك راغباً في تزويجك إياه ؟" سأل الكاهن ، وأومأت المرأة برأسها .

"هل سبق لك وندمت لأنك لم تتزوجيه ؟" سأل مجدداً فهزت رأسها .

عبر غونولف الغرفة وتناول كتاباً من المكتبة . جلس مجدداً قرب النار وفتح الكتاب ذا المشبك وقلب صفحاته . لم يكن يقرأ فيه بل جلس والكتاب في حضنه .

"حين تحدى آدم وحواء إرادة الرب ، شعرا في جسديهما بقوة تتحدى إرادتهما . لقد خلقهما الرب ، رجلاً وامرأة ، شابين وسيمين ، لذلك كان عليها أن يعيشا كزوج وزوجة ، وأن ينجبا شركاء في ميراث عطايا الرب

الكريمة ، جمال جنة الفردوس ، شجرة الحياة والبركة الأبدية . لم يكن عليهما أن يخجلا من جسديهما ، لأنهما طالما كانا مطيعين للرب ، طالما كان جسداهما بالكامل وأعضاؤهما تحت سيطرة إرادتهما ، حتى اليدين والقدمين ."

ضغطت كريستين يديها وقد تضرج وجهها تحت صدرها على شكل صليب . انحنى الكاهن نحوها قليلاً . أحست بعينيه الصفراوين القويتين فوق وجهها المنحني .

"لقد تخلت حواء عما هو ملك للرب ، وقام زوجها بتلقي ذلك ، حين أعطته ما كان عن حق ملكاً لأبيهما وخالقهما . كانا يودان أن يصبحا شبيهين له... ولكنهما لاحظا الآن أنهما يشبهانه أولاً في هذا : كما خانا سيادته في العالم الكبير ، فإن سيادتهما كانت الآن على العالم الصغير ، بيت الروح المصنوع من اللحم قد خان . كما خانا الرب إلههما ، فإن الجسد الآن يخدع سيده ، الروح .

"ثم بدا هذان الجسدان لهما بشعين وكريهين حتى أنهما صنعا ملابس ليغطياهما . في البداية مجرد مئزر قصير من أوراق التين . ولكنهما راحا يعرفان المزيد ثم المزيد عن جوهر طبيعتهما الشهوانية ، فراحا يصعدان بالملابس أعلى فأعلى ، فوق قلبيهما وظهريهما اللذين يأبيان الانحناء . وحتى هذه الأيام الحاضرة حين يرتدي الناس الفولاذ ليغطوا به حتى مفاصل أصابع أيديهم وأرجلهم ، ويخفون وجوههم خلف قضبان الخوذة... فإن النزاع والخيانة ينتشران في العالم خارجاً ."

توسلت كريستين : "ساعدني يا غونولف ." كانت شاحبة حتى في لون شفتيها . "لا أعرف إرادتي ."

"قولي إذن : إرادتك أيها الرب ستتم ." ، أجاب الكاهن برقة . "أتعرفين أن إرادته هي أن تفتحي قلبك لحبه ، وأن عليك أن تحبيه من كل روحك ."

التفتت كريستين فجأة نحو أخي زوجها :

"ألا تعرف كم أحب إرلند وطفليّ..."

"يا أختي... كل حب آخر هو مجرد صورة للسماء في برك الماء على طريق موحلة . لا بد أن تتلوثي بالوحل إن كان عليك أن تمرّي بها . ولكن لو كنت تفكرين أن هذا انعكاس للنور في مرآة من بيت آخر ، عندها ستفرحين من جماله ، وسوف تحرصين على عدم تدميرها بتحريك الوحل في الأسفل..."

"أجل ، ولكنك يا غونولف كاهن... لقد عاهدت الرب على أن تهرب من... هذه الأشراك..."

"و أنت أيضاً يا كريستين... حين وعدت بالتخلي عن الشيطان وكل أفعاله . يبدأ الشيطان في الرغبة الحلوة ، وينتهي بهم أولئك الذين يلسعون ويعضّون الواحد الآخر مثل الضفدعة والأفعى السامة . كان هذا ما تعلمته حواء... أنه حين ستعطي هي إلى زوجها ونسلها ما هو ملك للرب ، عندها لن تحصد سوى الخروج على القانون وخطيئة الدم والموت ، التي دخلت هذا العالم حين ذبح الأخ أخاه في ذلك الحقل الصغير الأول حيث الأشواك والعوسج ينموان على أكوام الحجارة بين القطع الصغيرة من الأراضي..."

قالت كريستين كما من قبل : "أجل ولكنك كاهن . ليس عليك أن تكافح كل يوم لتتفق مع شخص آخر في إرادتك..." انفجرت باكية..."لتكون صبوراً..."

قال الكاهن بابتسامة صغيرة :

"في تلك المسألة هناك نزاع بين الروح والجسد في كل ابن أم . لذلك هناك قداس عروس وزواج ، حتى يجد الرجل والمرأة المساعدة على العيش ، زوجين ووالدين وأطفالاً ورفاق بيت ، كرفاق سفر موثوقين معاونين في الرحلة نحو دار السلام ."

قالت كريستين بصوت خفيض :

"أعتقد أنه من الأسهل على المرء أن يرقب ويصلي لأجل أولئك الذين ينامون في الخارج في الكفاح ضد خطايا الذات..."

قال الكاهن بحدة : "أجل الأمر كذلك . ولكن هل تظنين يا كريستين أن هناك رجلاً ورعاً واحداً لم يكن عليه أن يدافع عن نفسه ضد العدو ، في الوقت نفسه الذي كان يكافح فيه ليحمي الحملان من الذئب... ؟"

قالت كريستين بصوت خفيض وبخجل :

"لقد كنت أظن... أن أولئك الذين ينتقلون من مكان مقدس إلى مكان مقدس ويسيطرون على كل الصلوات وكلمات القوة..."

انحنى غونولف نحو الأمام ، أصلح النار ، وبقي جالساً ومرفقاه على ركبتيه .

"منذ ست سنوات ، في حوالي هذا الوقت من السنة ، وصلنا إلى روما ، آيليف وأنا وكاهنان سكوتلانديان تعرفنا عليهما في أفينيون . كنا نمشي على أقدامنا طوال النهار...

"وصلنا إلى المدينة قبل الصوم مباشرة . في ذلك الحين ، كان الناس في الأراضي الجنوبية يقيمون احتفالات وولائم كبيرة... ويسمونها كرنفالاً . ثم

يجري النبيذ ، الأحمر والأبيض ، كالنهر في الحانات ، ويرقص الناس ليلاً خارج البيوت . كان الفصل ربيعاً في إيطاليا ، وكانت الزهور قد تفتحت في المروج والحدائق ، والنساء قد زينّ أنفسهن بها ، كما كنّ يرمين الورود والبنفسج على المارة في الشوارع... كن يجلسن في النوافذ ، وقد علقن البسط المصنوعة من الحرير والبروكار المذهب من العتبات فوق حجارة الأسوار . فكل المنازل مبنية من الحجارة هناك ، كما أن الفرسان يبنون قلاعهم وحصونهم في وسط المدن . وكأنه لا قانون مديني ولا سلام أسواق في تلك المدينة... فهم وخدمهم يتبارزون في الشوارع حتى تسيل الدماء...

"كانت هناك قلعة كبيرة في الشارع الذي كنت أقطن فيه ، وكان السيد الذي يحكمها يسمى إرمس مالافولتي . كانت القلعة تظلل كامل الزقاق الضيق الذي كنا نقطن فيه ، وكانت حجرتنا معتمة وباردة كزنزانة في حصن حجري . وغالباً ما كنا نضطر لدى خروجنا إلى أن نلتصق بالجدار بينما كان السيد ماراً مع أجراس فضية على ملابسه ومجموعة كاملة من التابعين المسلحين ، بينما كانت القاذورات والعفن تتناثر من تحت حافر الجياد... ففي تلك البلاد كان الناس يرمون بالقاذورات وبقايا الكناسة خارج الأبواب . كانت الشوارع باردة ومعتمة وضيقة مثل الجروف الصخرية... لا تشبه إلا قليلاً الطرق الخضراء لبلداتنا . في تلك الشوارع يُقيمون سباقات في فترة الكرنفال : يجعلون الجياد العربية البرية تسابق الواحد الآخر..."

توقف الكاهن قليلاً ، ثم مضى يقول :

"كان للسير إرمس هذا قريبة تقطن في منزله . كان اسمها إيزوتا ، ومن شأنها أن تكون إزولد الجميلة نفسها . كانت بشرتها وشعرها بلون العسل ، ولكن عينيها كانتا سوداوين على ما أعتقد . كنت أراها بين الحين والآخر في النافذة...

"و لكن في خارج المدينة كانت الأرض أكثر قفراً من النجود الأكثر بؤساً في بلادنا ، حيث لا يسكن سوى الذئاب والرنة ، ويزعق النسر . ومع ذلك فإن هناك بلدات وقلاعاً في الجبال المجاورة ، وفي النجود الخضراء يمكن للمرء أن يرى في كل مكان آثاراً لأناس كانوا يقطنون هناك لا بدّ في الأيام الغابرة . وكانت هناك قطعان ضخمة من الغنم والثيران البيضاء ترعى فيها . كان الرعاة المسلحون برماح طويلة يلاحقونها على ظهور الجياد ، وهؤلاء أشخاص خطرون على عابري الطرقات ، فهم يقتلونهم ويسرقونهم ويرمون بجثثهم في حفر في الأرض...

"و لكن في السهول الخضراء كنائس للحج" .

صمت الماستر غونولف لفترة :

"ربما تبدو تلك الأرض مقفرة على نحو لا يصدق لأن المدينة تقع في وسطها ، هي التي كانت ملكة لكل العالم الوثني واختيرت لتكون عروس المسيح . فالآن تخلى الحرس عن المدينة ، وفي وسط دوامة الاحتفال والقصف تبدو المدينة كزوجة مهجورة . كان السفهاء قد استقروا في القلعة ، حين لم يكن الزوج في بيته ، وقد أغروا السيدة بالعبث معهم في شهواتهم ونزاعهم وسفكهم للدماء...[١٠] .

"و لكن تحت الأرض هناك كنوز أغلى من كل تلك التي يشع عليها نور الشمس . هناك قبور الشهداء المقدسين ، المنحوتة في الصخور... وهناك الكثير ممّا يشعر المرء بالدوار لو فكّر فيه . وحين يتذكر المرء عددها الهائل ، وشهود العذاب الذين عانوا من الموت لأجل قضية المسيح ، فقد يعتقد المرء أن كل ذرة غبار تثور من سنابك خيل السفهاء يجب أن تكون مقدسة وتستحق العبادة"...

سحب الكاهن سلسلة رقيقة من تحت ملابسه ، وفتح الصليب الفضي الصغير المعلق فيها . وفي داخلها كان شيء أسود يبدو أشبه بالصوفان وعظمة خضراء صغيرة .

"في إحدى المرات نزلنا في هذه الممرات طوال النهار ، وكنا قد تلونا صلواتنا في كهوف ومصليات ، حيث كان التلاميذ الأوائل للقديس بطرس والقديس بولص يجتمعون لإقامة القداس . ثم منحنا الرهبان الذين كانوا يملكون الكنيسة التي مضينا إليها ، هذه التذكارات المقدسة . إنها قطعة صغيرة من إسفنجة كانت العذارى المقدسات يمسحن بها دم الشهداء ، حتى لا يضيع سدى . وهذه برجمة أصبع رجل مقدس لا يعرف اسمه إلاّ الله . ثم عاهدنا نحن الأربعة أحدنا الآخر بأننا سنقوم كل يوم بمناجاة هذا الشخص المقدس الذي لا يعرف الرجال قدره ، وقد أشهدنا هذا الشهيد المجهول على أننا لن ننسى أبداً كم كنا غير جديرين بأن يكافئنا الرب أو يحترمنا الناس ، وأن نتذكر دائماً أن لا شيء في العالم يستحق أن يرغب فيه المرء سوى رحمة الرب"...

قبلت كريستين الصليب باحترام وأعطته إلى أورم الذي فعل كما فعلت . ثم قال غونولف فجأة :

"سأعطيك هذا التذكار المقدس يا قريبي" .

ركع أورم على ركبة واحدة وقبل يد عمه . علق غونولف الصليب حول عنق الغلام .

"ألا تود رؤية هذه الأماكن يا أورم ؟"

ابتسم الغلام ابتسامة جعلت وجهه يشع :

"أجل... وأعرف الآن أنني سأذهب إلى هناك في يوم من الأيام ."

سأل غونولف : "هل فكرت في أن تصبح كاهناً ؟"

أجاب الغلام : "أجل . حين شتم أبي ذراعي الضعيفين هذين . ولكن لا أدري إن كان يوافق على أن أصبح كاهناً . ثم هناك ذاك الأمر الذي تعرفه" ، قال برقة .

قال الكاهن بهدوء : "فيما يخص مولدك يمكن الحصول على تحلّة على ما أعتقد . ربما سنسافر معاً يا أورم جنوباً أنت وأنا..."

قال أورم برقة : "احك لنا المزيد يا عماه ."

" أجل سأفعل ذلك ." أمسك غونولف بذراعي الكرسي بيديه ونظر إلى النار . "خلال تجوالي هناك ، دون أن أرى سوى تذكارات شهود الدم ، تذكرت صنوف العذاب التي لا يمكن احتمالها التي عانوها لأجل اسم المسيح ، فقد راودني إغراء مؤلم . فكرت كيف علق الرب على الصليب بالمسامير ست ساعات . ولكن شهوده عذبوا عذاباً لا يحتمل لأيام كثيرة... رأت النساء أولادهن وهم يعذبون حتى الموت أمام أعينهن ، الفتيات الصغيرات الرقيقات نزع لحمهن عن عظامهن بأمشاط حديدية ، غلمان صغار رمي بهم إلى مخالب الوحوش وقرون الثيران الهائجة... ثم بدا لي وكأن كثيراً من هؤلاء قد تحملوا أكثر ممّا تحمل المسيح نفسه...

"فكرت في هذا حتى ظننت أن قلبي وعقلي سينشطران . ولكن النور الذي توسلته وصليت لأجله جاءني أخيراً . وقد فهمت أنه كما عانى هؤلاء ، فإن علينا جميعاً أن تكون لدينا القوة على المعاناة . من هو الأحمق إلى حد أنه لن يتحمل عن رغبة الآلام والعذاب ، حين يكون هذا هو الدرب المؤدي

إلى عريس مخلص ووفيّ ، ينتظر بذراعين ممدودتين وصدر دام ومتحرّق للحب ؟

"إنه الرب الذي أحب البشرية . لذلك مات ، كما مات العريس الذي مضى لينقذ عروسه من أيدي اللصوص . فقام هؤلاء بتوثيقه وتعذيبه حتى الموت ، بينما يرى محبوبته الغالية تحتفل مع قاتليه ، وتمازحهم وتسخر من عذابه وحبه الوفي..."

دفن غونولف نيكولاوسون وجهه في يديه :

"ثم فهمت أن هذا الحب القوي يدعم كل أمور الدنيا عالياً... حتى نيران جهنم . فلو شاء الرب ، لأخذ الروح عنوة... سنكون مجرد ذرات لا حول لها بين يديه . ولكنه يحبنا كما يحب العريس عروسه ، وهو لن يجبرها بالقوة ، ولكنها إن لم تستسلم له بإرادتها ، فعليه أن يعاني من هجرها له وتخليها عنه . ولكني فكرت أيضاً أنه ليست هناك روح يمكن أن تضيع في الأبدية كلها . فكل روح يجب أن ترغب بهذا الحب ، على ما أعتقد ، ولكنه يبدو حباً غالي الثمن جداً إذ أن علينا لقاءه أن نتخلى عن كل المتع الأخرى . ولكن حين تذهب النار بكل الإرادة المتكبرة والمتمردة ، عندها أخيراً فإن الرغبة في الرب ستبقى في الروح دون أن تهلك ، حتى لو كان حجمها حجم مسمار واحد في منزل ، إنه المسمار الحديدي الذي يبقى في رماد منزل احترق بكامله..."

"غونولف..." نهضت كريستين نصف نهضة... "أنا خائنة..."

رفع غونولف نظره إليها بوجه شاحب وعينين متوهجتين :

" أنا أيضاً كنت خائفاً . لأني فهمت أن هذا العذاب في سبيل حب الرب

لا يمكن أن تكون له نهاية طالما كان الرجل والمرأة قد ولدا على هذه الأرض وعلى الرب أن يخشى من ضياع روحيهما... طالما يمنح هو يومياً وكل ساعة جسده ودمه على ألف مذبح... وهناك أناس يزدرون التقدمة...

"و قد كنت خائفاً من التفكير بنفسي ، أن أكون غير طاهر وأنا أخدم على مذبحه ، وأن أتلو القداس بشفاه غير طاهرة ، وأن أرفعه بيدين غير طاهرتين... وقد حسبت نفسي أشبه حتى بالرجل الذي أوصل حبيبته إلى منزل العار وخانها..."

أمسك بكريستين بين ذراعيه وهي توشك على الوقوع ، وحمل هو وأورم المرأة المترنحة إلى السرير .

خلال وقت قصير فتحت عينيها... جلست منتصبة وغطت وجهها بيديها . انفجرت في نحيب جنوني :

"لا أستطيع ، لا أستطيع... غونولف ، حين تتكلم ، أرى أني لن أستطيع أبداً..."

أمسك غونولف بيدها ، ولكنها التفتت بوجهها بعيداً عن وجه الرجل الشاحب الطائش :

"كريستين ، لا يمكنك أن تقنعي بأي حب أقل من الحب الذي بين الرب والروح...

"كريستين ، انظري من حولك... لتري ما هو العالم . لقد أنجبت طفلين... ألم تفكري أبداً بهذا : أن كل طفل يولد يُعمد بالدم ، وأن كل إنسان يولد إلى هذا العالم يسحب معه مع أول أنفاسه رائحة الدم ؟ ألا تعتقدين أنك ، أنت الأم ، عليك أن تثبّتي نيتك على هذا : أن أبناءك لن

يرتدوا إلى ذلك العهد المعمودي الأول ، بل يتمسكون بالحلف الآخر الذي عقدوه مع الرب حين طهرهم بمياه جرن المعمودية... ؟"

بكت وبكت .

قالت ثانية : "أنا خائفة منك . يا غونولف ، حين تتكلم على هذا النحو ، أرى جيداً أني لن أجد طريقي إلى السلام ."

قال الكاهن برقة : "سيجدك الرب . اهدئي ولا تهربي من الرب الذي بحث عنك قبل أن تتشكلي في رحم أمك ."

جلس هناك لفترة قرب السرير . ثم سألها بهدوء ورباطة جأش إن كان عليه أن يوقظ إنغريد ويطلب منها أن تأتي لتساعدها على خلع ملابسها . هزت كريستين رأسها .

ثم رسم إشارة الصليب فوقها ثلاث مرات ، وبعد أن تمنى لأورم ليلة سعيدة ، ذهب إلى حجرته حيث ينام .

خلع أورم وكريستين ملابسهما . بدا الغلام غارقاً في أفكار لا غور لها . وحين اضطجعت كريستين ، تقدم منها . نظر إلى وجهها المنقط بنقاط رمادية اللون وسألها إن كانت تريده أن يجلس إلى القرب منها حتى تنام .

"أوه ، أجل... أوه ، كلا يا أورم . لا بدّ أنك منهك ، أنت صغير السن . لا بد أن الليل قد ولّى معظمه..."

و مع ذلك ظل أورم واقفاً لفترة قصيرة أخرى .

قال فجأة : "ألا يبدو غريباً لك أن أبي وعمي غونولف... رغم كل اختلافهما الواحد عن الآخر ، إلاّ أنهما متشابهان نوعاً ما أيضاً..."

تمددت كريستين وهي تفكر :

"أجل ، ربما يكون الأمر كذلك... إنهما لا يشبهان الرجال الآخرين ."

و سرعان ما نامت ومضى أورم إلى السرير الآخر . خلع ملابسه بالكامل وزحف إلى السرير . كان من تحته شرشف كتاني ، وغطاء كتاني على الوسائد . تمدّد الغلام بسهولة على المضجع البارد الناعم . راح قلبه يدق ، وقد أثارته فكرة هذه المغامرات الجديدة التي وعدته بها كلمات عمه . الصلوات والصوم وكل الفروض التي مارسها لأنه لُقن إياها... لقد أصبحت كلها فجأة أسلحة في حرب خيّرة كان يتوق إليها . ربما سيصبح راهباً -أو كاهناً- إن لم يستطع أن يكسب تحلّة بسبب ولادته من علاقة زنا .

•

كان سرير غونولف مضجعاً خشبياً مع شرشف من الجلد مفروش فوق القليل من القش ، ووسادة صغيرة واحدة... لذلك كان مضطراً للاضطجاع وهو ممدد باستقامة . خلع الكاهن رداءه ، وتمدد في ملابسه الداخلية ، ثم سحب الغطاء الرقيق المصنوع من الصوف الخشن فوقه . وقد ترك الفتيلة المضاءة الصغيرة الملفوفة حول قضيب معدني ، مضاءة .

كانت كلماته قد تركته محطماً من القلق والخوف . كان ضعيفاً من التوق لتلك الأيام التي مضت... ألن يجد ثانية يا ترى السعادة الزفافية للقلب التي ملأت كيانه الكامل والتي انطلقت في روما ؟

•

لقد حدث حين عاد إلى النرويج أن اعتراه قلق شديد .

كان هناك كثير من الأمور التي من شأنها بث القلق في نفسه . كانت هناك ثروته . الميراث الكبير من أجداده... والرتبة الكنسية الغنية . كان هناك الدرب الذي رآه ممتداً أمامه . مكانه بين كهنة الكاتدرائية... كان يعرف أن المنصب كان مخصصاً له . لو تخلى عن كل ممتلكاته ، لأجل أن يدخل دير "الأخوة الواعظين" ، وينذر النذور ، ثم يضع نفسه تحت إمرة الحكم -كانت تلك هي الحياة التي يرغب فيها- ولكن ليس من كل قلبه .

...ثم كان هو قد وصل إلى سن مناسبة وأصبح متمرساً بما فيه الكفاية للقتال... كان هناك أناس في مملكة النرويج ممن يعيشون ويموتون في حالة من الوثنية المطلقة ، أو تضلّلهم مبادئ مزيفة يطرحها الروس تحت اسم الدين المسيحي . وكان هناك اللابلانديون (سكان المناطق الشمالية القصوى من النرويج والسويد وفنلندا - المترجم) والشعوب الأخرى نصف الهمجية التي لم يكن قادراً على التفكير فيها... ألم يكن الأمر أشبه بأن الرب قد أيقظ فيه هذا التوق للسفر شمالاً إلى أراضيها ليوصل إليهم "كلمة" الرب و"نور"ه... ؟

... ولكنه رمى بفكرة البعثة التبشيرية بعيداً عن خاطره ، على أساس أن عليه أن يطيع الأسقف . كان اللورد آيليف ينصحه بألاّ يقوم بها . كان اللورد آيليف قد أصغى إليه وتحدث معه مظهراً له بوضوح أنه إنما يحدث ابن صديقه القديم السير نيكولاوس أوف هوسابي . "و لكنك غير ممكن ضبطك ضمن حدود ، أنت الذي تنتمي إلى نسل بنات سكوغهايم - غاوته القديم ، وسواء كان الأمر جيداً أو رديئاً ، طالما أنك صممت على القيام بالأمر ." قال إن إنقاذ شعب اللابلانديين أمر يتمناه من كل قلبه هو أيضاً... ولكنهم لم

يكونوا في حاجة إلى معلّم يكتب وينطق باللاتينية كما يكتب وينطق بلغته الأم ، متبحّر في "القانون" شأنه في الحساب واللوغاريتم . لا شك أن تلقى علوماً وعليه استخدامها . "و في رأيي أنه ليس بالأمر الأكيد أن تكون لديك موهبة التحدث إلى شعوب فقيرة وبسيطة هناك في الشمال ."

آه ، ولكن في ذلك الربيع العذب بدا له عمله وكأنه لا ينال من الاحترام أكثر من ذلك العلم الذي تتلقاه كل فتاة صغيرة من أمها -أن تغزل وتخمر الجعة وتخبز وتحلب البقرة- العلم الذي يحتاجه كل طفل ليقوم بعمله في هذه الدنيا .

•

نهض غونولف . عند نهاية أحد جدران الحجرة كان قد علق صليب كبير الحجم ، وأمامه كان حجر كبير مسطح على الأرض .

ركع على الحجر ومدّ ذراعيه خارجاً . كان قد عوّد جسده على احتمال هذه الوضعية ، لذلك كان قادراً على الركوع على هذا النحو ساعة كاملة جامداً كالصخر . وبعينين مثبتتين على الصليب كان ينتظر السلوان الذي يصله حين كان قادراً على أن ينسى نفسه تماماً خلال تأمّله للصليب .

و لكن أول فكرة انتابته كانت هذه : هل كانت لديه الإرادة لمفارقة هذا الصليب ؟ كان للقديس فرانسيسكوس وأخوته صلبان صنعوها بأنفسهم من أغصان الشجر . عليه أن يتخلى عن هذا الصليب الذي يمثل المسيح مصلوباً... إلى الكنيسة في هوسابي ربما . فالفلاحون والأطفال والنساء الذين

يأتون إلى هناك لأجل القداس... سيغذون أبصارهم بصورة مرئية لرقة "المخلّص" الجميلة في "آلامه" . الأرواح البسيطة كروح كريستين... أما هو فلا يحتاج إليه .

كان يركع الليلة إثر الليلة بحواس مغلقة وأطراف مخدّرة حتى يبصر الرؤيا . الجبل بالصلبان الثلاثة أمام السماء . هناك صليب في الوسط كان مخصصاً لحمل جسد "سيد الأرض والسماء" ، وكان يهتز ويرتجف ، وينحني كما الشجرة أمام العاصفة ، خائفاً من أن يحمل كل ذلك الحمل الثمين ، التضحية لأجل خطايا العالم كله . كان "سيد خيام العاصفة" محبوساً فيه ، وحين يميل الفارس بفرسه ، فإنها تحمل "قائد قلعة السماء" إلى المعركة . ثم كانت تتجلى له الأعجوبة التي كانت المفتاح نحو المزيد من الأعاجيب الأعمق فالأعمق . الدم الذي كان يسيل على الصليب ليغفر كل الخطايا ويبعد كل الأحزان ، كان هو المعجزة المرئية . وبهذه الأعجوبة الأولى كان ممكناً لعين الروح أن تفتح لترى الأسرار الأعمق : الرب الذي هبط إلى الأرض وأصبح "ابن العذراء" و"أخا البشر" ، الذي أغار على جهنم وانطلق بغنيمته من الأرواح حراً نحو بحر النور المعشي ، من حيث بدأ العالم ومن حيث رفع . ونحو هذه الأعماق السحيقة الأبدية من النور كانت أفكاره تنسحب ، وهناك تمرّ عبر النور وتختفي ، كسرب من الطيور الذي يمرّ إلى مجد سماء المساء .

•

لم يتحرك غونولف حتى دقت أجراس الكنيسة لأجل صلاة الصباح . كان كل شيء هادئاً حين مرّ عبر القاعة... كانا نائمين : كريستين وأورم .

في الساحة المعتمة في الخارج تمهّل الكاهن قليلاً . ولكن لم يأت أحد

من أهل البيت ليرافقه إلى الكنيسة . ما كان يطلب منهم الذهاب معه للعبادة أكثر من مرتين في اليوم . ولكن إنغريد ، أمه بالتبني ، غالباً ما كانت ترافقه إلى صلاة الصباح . في هذا الصباح بدا أنها كانت نائمة أيضاً . أجل ، لقد سهرت ليلة أمس .

•

طوال ذلك النهار لم يتبادل الأقرباء الثلاثة سوى القليل من الكلام ، وكان ذلك حول أمور صغيرة . وبدا غونولف منهكاً ، ولكنه راح يتكلم ممازحاً حول هذا الأمر أو ذاك . "لقد كنا حمقى مساء البارحة... لقد جلسنا هناك في حالة من الحزن الشديد كثلاثة أطفال يتامى" ، قال في إحدى المرات . ثم روى كثيراً من الحوادث الصغيرة المرحة التي حدثت هنا في نيداروس ـ مع الحجاج ومن شابههم من الناس- والتي كان الكهنة يتندرون بها فيما بينهم . لقد وصل رجل عجوز من هيرييدال حاملاً معه مهمات عن كل سكان أبرشيته ، وقد خلط الصلوات ببعضها... ستجري الأمور بشكل سيىء في الأبرشية ، كما خطر له لاحقاً ، لو كان القديس أولاف سيصدقه في كل ما قاله!

•

في وقت متأخر من المساء وصل إرلند ، مبلّلاً بالكامل... كان قد أبحر نحو المدينة والعاصفة تهب مجدداً . كان غاضباً وقد هاجم أورم على الفور بكلمات مجنونة . أصغى غونولف في صمت ، ثم قال : "حين تتكلم على هذا النحو مع أورم يا إرلند ، فأنت أشبه بأبينا ، حين كان يكلمك..."

صمت إرلند على الفور . ثم التفت قائلاً :

"حسناً أعتقد أني لم أكن أتصرف على هذا النحو الأحمق قط حين كنت غلاماً... الخروج من الضيعة ، امرأة مريضة وغلام مجرد جرو ، في عاصفة ثلجية! ليس لدى أورم من الرجولة ما يكفيه للتفاخر به ، سوى أنه لا يخشى أباه كما ترى!"

قال أخوه مبتسماً : " وأنت لم تكن تخشى أباك أيضاً . "

وقف أورم أمام أبيه دون أن يقول شيئاً ومحاولاً أن يبدو غير مبال .

قال إرلند : "أجل ، يمكنك الذهاب ." ثم أردف : "أنا قرفان من كل الحالة في هوسابي . ولكني أعرف شيئاً واحداً : في الصيف القادم سيسافر أورم معي شمالاً... وعندها أعتقد أننا سنربّي حَمَلَ كريستين المدلل هذا . وهو ليس بالأخرق أيضاً ." ثم مضى نحو أخيه بتوق . "إنه يطلق النار بذراع ثابتة... وليس هو بالجبان... ولكنه غالباً مشاكس وكئيب ، وكأنما لا نقي في عظامه..."

قال الكاهن : "أجل ، إن كنت توبخ ابنك دائماً كما فعلت الآن ، فلا عجب أنه كئيب ."

غيّر إرلند من لهجته وضحك قائلاً :

"فيما يخصّ تلك المسألة ، فقد كنت أعاني غالباً من أمور أسوأ من أبي... والرب يعلم أني كنت نكد المزاج بسبب ذلك . ولكن لننس ذلك الأمر... فالآن بعد أن حضرت إلى هنا ، هيا نحتفل بعيد الميلاد ، طالما نحن في عيد الميلاد . أين كريستين ؟... ما الذي كانت تريد أن تحدثك به مجدداً ؟"

قال الكاهن : "لا أعتقد أنه كان لديها ما تريد أن تكلمني بشأنه . لقد كانت مصممة على أن تحضر قداس عيد الميلاد هنا ."

قال إرلند : "كان يمكنها تدبر أمرها مع القداس الذي تسمعه في البيت ، على ما أعتقد . ولكن من المؤسف لها أن يذوي شبابها منها ." ضرب يداً بأخرى . "لا أرى كيف يمكن للرب أن يفكر أننا في حاجة إلى ابن جديد كل عام..."

رفع غونولف بصره إلى أخيه :

"ماذا...! كلا ، لا أعرف ما قد يعتبره الرب أمراً أنت في حاجة إليه . ولكن ما تحتاج إليه كريستين على ما أعتقد هو أن تكون لطيفاً معها الآن..."

"أجل ، لا شك في ذلك" ، قال إرلند بصوت خفيض .

●

في صباح اليوم التالي ذهب إرلند لحضور القداس النهاري مع زوجته . مضيا إلى كنيسة القديس غريغوري . كان إرلند يحضر القداس هناك دائماً حين يتواجد في المدينة . سار الاثنان معاً لوحدهما . وهناك في الشارع كان الثلج مكوماً ، ثقيلاً ورطباً . قاد إرلند زوجته من يدها بلطف وكياسة . لم يكن قد تلفظ بكلمة واحدة حول هربها من المنزل ، وكان ودوداً مع أورم بعد العاصفة الأولى .

سارت كريستين بهدوء وشحوب ، وبرأس محنيَ قليلاً . كانت العباءة السوداء الطويلة المصنوعة من الفرو ذات المشبك الفضي تبدو ثقيلة على جسدها الرقيق الهش .

"هل تريدين مني أن أصطحبك إلى البيت... ونترك أورم يبحر مع السفينة ؟" قال لها لمجرد أن يتكلم . "ربما لا تهتمين أبداً بعبور الزقاق البحري ؟"

"لا... أنت تعرف أني لا أحب السفن..."

كان الطقس هادئاً لطيفاً الآن... بين لحظة وأخرى كان حمل من الثلج الثقيل الرطب يسقط على الشارع . كانت السماء واطئة ورمادية داكنة فوق المدينة البيضاء . وكانت هناك مسحة خضراء رمادية مائية فوق الثلج ، أما جدران المنازل الخشبية والحواجز وجذوع الأشجار فكانت تبدو سوداء في الهواء الرطب . لم يسبق لها أن رأت العالم بارداً وشاحباً وكئيباً على هذا النحو... هكذا فكرت كريستين .

٣

جلست كريستين وغاوته على حضنها ، وهي تحدق إلى التل الصغير شمال الضيعة . كان المساء جميلاً جداً والبحيرة تقع إلى الأسفل لامعة وهادئة ، تعكس الهضاب والمزارع في "باي" ، والغيوم الذهبية في السماء . كان المطر قد هطل سابقاً في النهار ، ورائحة الأوراق والأرض قد تصاعدت . لا بد أن العشب على المروج في الأسفل كان قد وصل طوله إلى الركبة الآن ، والحقول قد اختبأت تحت رماح من القمح .

كانت الأصوات قادمة من البعيد هذا المساء . وقد راحت النايات والطبول والكمانات تصدح الآن مجدداً ، هناك على المرج عند "فينيار" ، وكانت الأصوات تصل إلى هنا عذبة على الآذان .

كان الوقواق يصمت لفترات طويلة ، ثم يرسل نداءه مرة أخرى من البعيد من الغابات الجنوبية . وفي كل البساتين المجاورة للضيعة كانت الطيور تغرد وتغني... ولكن في ألحان متناثرة رقيقة ، فقد كانت الشمس لا تزال عالية .

وصل القطيع والأجراس تدق والأبقار تخور ، عائداً من المرعى فوق بوابة الساحة .

"أترى ، أترى... سينال غاوته حليبه على الفور..." كلمته بلغة طفولية وهي ترفعه . وضع الصبي ، كعادته ، رأسه الثقيل على كتف أمه . بين الحين والآخر كان يلتصق بها أكثر... وكانت كريستين تفهم ذلك على أنه يتقبل تدليلها وهذرها .

سارت نحو الأبنية . أمام باب القاعة ، كان ناكفه وبيورغولف يجريان في أنحاء المكان ، ويحاولان أن ينزلا القطة من السقف حيث هربت منهما . ولكن خلال لحظة كانا قد عادا مجدداً ليلعبا بالخنجر المكسور الذي كانا يمتلكانه معاً ، فراحا ينبشان على نحو أعمق في الحفرة التي كانا قد حفراها في أرض الغرفة الخارجية .

وصلت داغرون إلى القاعة حاملة حليب الماعز في دلو خشبي ، وراحت السيدة تسقي غاوته مغرفة إثر أخرى من الحليب الدافئ . كان الصبي ينخر بغضب كلما كلمته الخادمة ، فيروح يضربها ثم يخفي نفسه في صدر أمه حين كانت المرأة تمسك به .

قالت راعية الأبقار : "أعتقد أنه يتحسن" .

رفعت كريستين الوجه الصغير بيدها... كان أصفر شاحباً مثل الشمع ، والعينان منهكتين دائماً . كان لغاوته رأس كبير ثقيل ونحيل ، وأطراف لا قوة فيها . سيبلغ عمره السنتين بعد أسبوع من "قداس لورنس" ، ولكنه لم يكن حتى الآن قادراً على المشي ، وقد نبتت له خمس أسنان فقط ، كما كان غير قادر على النطق بكلمة واحدة .

قال سيرا آيليف إن ما يعاني منه ليس كساح الأطفال ، إذ لم ينفع معه لا الثوب الكهنوتي الأبيض ولا كتب المذبح . كان كلما دخل الكاهن إليهم يحاول أن يجد دواء لهذا المرض الذي حل بغاوته . كانت تعرف أنه يذكره

في كل صلواته . ولكن بالنسبة إليها ما كان قادراً سوى أن يقول إن عليها أن تنحني في صمت أمام إرادة الرب . وأن عليها أن تسقيه الكثير من حليب الماعز...

يا للطفل الصغير المسكين ، طفلها ذاك! ضمت كريستين الطفل وقبلته بعد أن ذهبت المرأة . كان جميلاً وجميلاً جداً! فكرت في أنه يشبه أقرباء أبيها... وكانت عيناه رماديتين داكنتين وشعره أبيض كتانياً ، كثيفاً وناعماً كالحرير .

و الآن بدأ يئنّ مجدداً . نهضت كريستين ومشت من حول الغرفة حاملة إياه . رغم كونه صغيراً ونحيلاً ، إلا أنه كان يصبح ثقيلاً بعد فترة من حمله... ولكن غاوته لن يكون راضياً في أي مكان سوى ذراعي أمه . لذلك حملته وراحت تمشي به جيئة وذهاباً في القاعة المعتمة ، وهي تدندن له خلال سيرها .

دخل أحدهم راكباً على جواد إلى الساحة ، وتردد صوت أولف هالدورسون عالياً من جدران المنزل . خرجت كريستين إلى بوابة الغرفة الخارجية ، والطفل بين ذراعيها .

"عليك أن تنزل السرج عن حصانك الليلة يا أولف ، على ما أعتقد... إنهم في حفلة الرقص... كل الرجال . عار عليك لو شعرت بالانزعاج ، ولكن عليك أن تنسى الأمر..."

همهم أولف بنزق وهو ينزل السرج عن حصانه . التصق به ناكفه وبيورغولف خلال هذه الفترة ، وراحا يرجوانه أن يركبهما على الجواد حتى مدخل الحديقة .

"كلا ، عليك أن تبقى هنا مع غاوته يا ناكفه... العب مع أخيك ولا تجعله يبكي بينما أنا في المطبخ..."

بدا الصبي مكتئباً ، ولكن خلال لحظة كان قد ركع على أطرافه الأربعة ، وهو ينطح الطفل الصغير ويخور له ، بعد أن وضعته كريستين على وسادة عند الباب . انحنت الأم وداعبت شعر ناكفه . كان جيداً جداً في معاملته لأخويه الصغيرين .

•

حين عادت كريستين إلى القاعة حاملة الطبق الكبير على ذراعيها ، كان أولف هالدورسون جالساً على المقعد يداعب الأطفال . كان غاوته سعيداً مع أولف ، حين تكون أمه بعيدة عن الأنظار... ولكنه راح يئن الآن على الفور وراح يمد يديه إليها . وضعت كريستين الطبق وحملت غاوته بين ذراعيها .

نفخ أولف الرغوة عن سطح الجعة المخمرة حديثاً ، وشرب منها ، وبدأ يأكل من الصحون الصغيرة التي كانت على الطبق .

"هل كل خادماتك في الخارج الليلة ؟"

قالت كريستين :

"هناك كمانات وطبول ونايات... مجموعة من الرجال المرحين وصلت من أوركدال من العرس هناك . أنت تعرف ما حدث حين سمعن بذلك... فهن مجرد فتيات صغيرات على أي حال..."

"إنك لتتركينهن يتسكعن ويمرحن كما يشأن يا كريستين . قد يظن المرء أنك تخشين من أنه سيكون من الصعب عليك أن تجدي مرضعة هذا الخريف هنا..."

و دون تفكير ، مسدت كريستين ثوبها من حول خصرها النحيل . كان وجهها قد تضرج بحمرة قانية من كلام الرجل . ضحك أولف ضحكة قصيرة قاسية :

"و لكنك لو تابعت التحرك وأنت تجرّين غاوته معك ، سيمضي بك الوقت كما في العام السابق ، على ما أعتقد... تعال إلى هنا إلى أبيك بالتربية يا بني وسوف تأكل من طبق واحد معي"...

لم تجب كريستين . وضعت أبناءها الثلاثة على المقعد في صف واحد عند الجدار الآخر ، وجلبت وعاء من عصيدة الحليب ، ولنفسها كرسياً صغيراً . وقد جلست هناك وراحت تطعمهم ، رغم أن ناكفه وبيورغولف راحا يتذمران... كانا يريدان الملاعق ليأكلا لوحدهما . كان أحدهما في سن الرابعة الآن والآخر قريباً من الثالثة .

سأل أولف : "أين إرلند ؟"

"كانت مارغريت راغبة في الذهاب إلى الرقص ، لذلك مضى معها ."

قال أولف : "إنه لأمر جيد على الأقل أن يكون لديه ما يكفي من العقل ليراقب ابنته ."

و من جديد لم تقل الزوجة شيئاً . خلعت ملابس الأطفال عنهم ووضعتهم في الفراش ، غاوته في المهد والآخران في سريرها بالذات . كان إرلند قد وافق على أن يناما هناك منذ أن تحسنت صحتها بعد مرضها الكبير في العام الذي سبق .

حين شبع أولف ، تمدد فوق المقعد . جذبت كريستين الكرسي نحو المهد ، وأحضرت سلة من الغزل الصوفي وبدأت تلف كرات من الصوف لأجل الحياكة ، بينما راحت تهز المهد برقة بقدمها .

"ألن تذهب لترتاح ؟" سألته مرة دون أن تلتفت برأسها . "لا بد أنك منهك يا أولف ؟"

نهض الرجل ، وضع بعض الحطب في النار واقترب من سيدته . جلس على المقعد مقابلها . لاحظت كريستين أنه لم يكن شديد الإرهاق من المعيشة القاسية كما كانت عادته حين يكون قد قضى بضعة أيام في نيداروس .

قال وهو ينحني نحو الأمام ومرفقاه فوق ركبتيه وهو يحدق إليها : "أنت لم تسأليني عن الأنباء القادمة من المدينة يا كريستين ؟"

بدأ قلبها يدق من الخوف... فهمت من نظرات الرجل وجلسته أنه لا بد من وجود أنباء غير جيدة . ولكنها أجابت بابتسامة هادئة ولطيفة :

"عليك أن تحكي لي يا أولف . هل سمعت بشيء ؟"

"أوه... أجل..." ولكنه أحضر حقيبته أولاً وأخرج منها ما جلبه لها من البلدة . شكرته كريستين :

"أرى أنك سمعت أنباء في البلدة ؟" سألت بعد مهلة قصيرة .

نظر أولف إلى سيدته الشابة ، ثم التفتت عيناه إلى الطفل الشاحب النائم في المهد .

سألها بصوت خفيض وهو يلمس الشعر بلطف حيث هو داكن ورطب : "هل يتعرق إلى هذا الحد من رأسه دائماً ؟ يا كريستين ، حين تزوجت من إرلند... فإن الرسالة التي كتبت حول التصرف بممتلكاتك... ألم تنص على أن عليك أن تتعاملي حسب رغبتك بالهدية الإضافية وهدية صباحيتك ؟"

بدأ قلب كريستين يدق بقوة أكبر ، ولكن تكلمت بهدوء :

"أجل ، وهكذا هي الحال يا أولف ، أي أن إرلند يطلب دائماً مشورتي ويأخذ موافقتي على كل المعاملات المتعلقة بهذه الأراضي . هل تعني تلك المزارع في فيردالين التي باعها إلى فيغلايك أوف لينغ ؟"

قال أولف : "أجل ، والآن اشترى «هوغركن» (الشجاع) من فيغلايك ، حتى تكون له سفينتان الآن ، كما يبدو... وما الذي ستحصلين عليه يا كريستين ؟"

قالت : "حصة إرلند من سكييرفاستاد ، نصف "هد" (١١) في أولفكلستاد ، وما يملكه في آرهامر . لابدّ أنك لم تصدق أن إرلند باع هذه الأراضي دون رغبتي ودون أن يعوّض علي ما يساوي قيمتها ؟"

"هه ." بقي أولف صامتاً لفترة وجيزة . "و مع ذلك فإن دخلك سيصبح أقل يا كريستين . فبالنسبة إلى سكييرفاستاد ، قام إرلند بالحصول على التبن من هناك في الشتاء الماضي وأعفى المزارع الذي فيها من إيجار ثلاث سنوات..."

"لم يكن خطأ إرلند أننا لم نحصل على تبن جاف في العام الماضي . أعرف يا أولف أنك فعلت كل ما استطعت... ولكن مع كل البؤس الذي شهدناه هنا في الصيف الماضي..."

"أما عن آرهامر ، فقد باع أكثر من نصفها إلى الأخوات من دير راين ، في ذلك الحين عندما استعد للهرب من البلاد برفقتك ." ضحك أولف قليلاً... أو "رهنها"... إنه الأمر نفسه بالنسبة لإرلند . بعد أن تحرر من مكوس الملك... أي كل العبء الذي وقع على كاهل أودون الذي يحتفظ بالمزرعة التي ستسمى الآن ملكاً لك!"

"ألا يستطيع أن يؤجر الأرض التي أصبحت للدير ؟" سألت كريستين .

قال أولف : "لقد استأجرها المستأجر لدى الأخوات في المزرعة المجاورة . إنها لمهمة صعبة وغير مضمونة للمستأجرين أن يكونوا منصفين حين تُقسم المزارع شأن ما يفعله إرلند ."

صمتت كريستين . كانت تعرف جيداً أن ما يقوله صحيح .

قال أولف مجدداً : "إنه عمل سريع مع إرلند . إن ممتلكاته تتضاءل بينما تكبر أسرته .

و حين لم تجب المرأة ، تكلم ثانية :

"سرعان ما تنجبين أولاداً كثراً يا كريستين لافرانسداتر ."

أجابت بصوت مرتجف قليلاً : "و لكني لا أستطيع الاستغناء عن أحد ."

"لا تخافي على غاوته... سيصبح قوياً ، أضمنه لك" ، قال أولف بصوت خفيض .

"لا بدّ أنها إرادة الرب... ولكنه انتظار طويل" .

سمع المعاناة الخفية في صوت الأم... بدت نظرة غريبة تدل على العجز وكأنها تطغى على الرجل الأسمر المليء الجسم .

"هذا لا يفيد كثيراً يا كريستين... لقد تجاوزت عن الكثير هنا في هوسابي ، ولكن لو أن إرلند سيبحر مجدداً مع سفينتين ، فإني أعتقد أنه لن يعم سلام كثير في الشمال ، كما أن زوجك ليس بالحاذق كثيراً بحيث يعرف كيف يدير لصالحه ما كسبه في هذين العامين . لقد كانا عامين رديئين... وكنت خلالهما مريضة . لو سارت الأمور على هذا المنوال ، فسوف تتحطم

شجاعتك في النهاية ، أنت الزوجة الشابة . لقد ساعدتك بقدر ما أستطيع في الضيعة هنا... ولكن هذا الأمر الآخر... افتقار إرلند إلى الحكمة..."

قاطعته قائلة : "أجل ، الرب يعرف أنك فعلت ذلك... لقد كنت أخلص الأقرباء إلينا ، أيها الصديق أولف ، ولن أستطيع أبداً أن أشكرك أو أرد لك الجميل على النحو الملائم..."

نهض أولف ، أشعل شمعة عند الموقد ، وضعها على حامل الشمعة على المائدة ، ثم وقف هناك وظهره نحو السيدة . تركت كريستين يديها تغرقان في حجرها... والآن بدأت تلف الصوف من جديد وتهز المهد .

سألها أولف برقة : "ألا تستطيعين أن ترسلي رسالة إلى أهلك ، حتى يأتي لافرانس هذا الخريف أيضاً حين ستحضر أمك ؟"

"لم أكن أنوي إقلاق أمي في هذا الخريف . لقد بدأت تشيخ... ويحدث غالباً أني أكون في النفاس حتى أني لا أود أن أطلب منها أن تأتي كل مرة..." ثم ابتسمت ابتسامة مفحمة .

أجاب أولف : "بل افعلي ذلك هذه المرة . وتوسلي إلى أبيك ليصاحبها... حتى تطلبي نصيحته في مثل هذه المسائل..."

"في هذه المسألة لن أطلب رأي أبي" ، قالت بهدوء وحزم .

"إذن ما رأيك لو تشاوري غونولف ؟ " سألها أولف بعد وهلة . "ألا تستطيعين أن تخاطبيه ؟"

قالت كريستين كما من قبل : "لن يكون أمراً ملائماً أن أزعجه بمثل هذه الأمور الآن ."

"أتعنين لأنه التجأ إلى دير ؟" ضحك أولف ساخراً ." لم ألاحظ أبداً أن

الرهبان يعرفون في مسائل البضاعة والتجارة أقل من الناس الآخرين . إن كنت لا تريدين أن تشاوري أحداً يا كريستين ، فعليك إذن أن تكلمي إرلند بنفسك" . قال حين لم تجبه : " فكري بأبنائك يا كريستين!"

جلست كريستين لفترة طويلة في صمت .

قالت أخيراً : "أنت طيب جداً مع أولادنا يا أولف . أعتقد أنه الأجدر بك أن تتزوج ويكون لك عائلة خاصة بك تهتم بها ، فذاك أفضل من أن تبذل اهتمامك هنا... وتزعج نفسك بهموم إرلند... وهمومي ."

التفت أولف نحو المرأة . وقف ويداه تمسكان بحافة المائدة خلفه ونظر إلى كريستين لافرانسداتر . إنها لا تزال معتدلة القوام ورشيقة وجميلة مثلما كانت دائماً ، وهي جالسة هناك . كان ثوبها من الصوف الداكن المصبوغ في البيت ، ولكن الغطاء الكتاني الذي كان يحيط بوجهها الهادئ الشاحب كان جميلاً ورقيقاً . أما الحزام الذي كانت تتدلى منه حزمة المفاتيح فكان محلى بورود فضية صغيرة . على صدرها كانت تلتمع سلسلتان تحملان صلباناً . كانت السلسلة الكبيرة ذات الحلقات المذهبة تصل إلى خصرها... هدية من أبيها . فوقها كانت سلسلة فضية رقيقة ذات صليب صغير وقد تركها لها أورم وقال لهم أن يطلبوا منها أن ترتديها على الدوام .

حتى الآن هاهي تنهض بعد كل ولادة جميلة كما كانت دائماً... ولكن أهدأ بقليل ، والعبء على كتفيها الشابتين أثقل قليلاً . إنها أكثر نحولاً في الوجنتين ، والعينان أدكن قليلاً وأكثر حزناً تحت الجبين الأبيض العريض ، والفم أقل امتلاء واحمراراً . ولكن كأنما كان جمالها سيذوي قبل مرور سنوات كثيرة لو استمرت الحال على ما هي عليه...

"ألا تعتقد يا أولف أنك ستكون أسعد لو كنت تعيش في مزرعتك

الخاصة ؟" تابعت الكلام ثانية . "لقد اشتريت ما قيمته عشرون ماركاً من أرض سيكولدفيركستاد ، كما قال إرلند... وأنت تملك نصف المزرعة تقريباً الآن . وإيزاك لديه ابنة واحدة... «آيسه» ، وهي امرأة جميلة ولطيفة ومتميزة... ويبدو أنها تحبك..."

"و لكني لا أريدها إن كان علي أن أتزوجها" ، قال الرجل بفظاظة مع ضحكة قاسية . "إن آيسه إيزاكسداتر أفضل بكثير..." تغير صوته . " لم أعرف أبداً غير أبي بالتربية يا كريستين... وأعتقد أن قدري هو ألاّ أرزق إلاّ بأولاد بالتربية..."

"كلا ، سأصلي لمريم العذراء أن يكون حظك أفضل من هذا يا قريبي ."

"لم أعد شاباً إلى هذا الحد أيضاً . عمري خمسة وثلاثون شتاء يا كريستين ." ضحك . "أكاد أكون في عمر والدك ."

"لو كنت أبي لكان عليك أن تكون ارتكبت الخطيئة في عمر مبكر جداً" ، أجابت كريستين وهي تحاول التكلم بخفة ومرح .

سألها أولف بعد قليل : " "ألا تريدين أن تؤوي إلى فراشك ؟"

"أجل ، خلال وقت قصير... ولكن لا بدّ أنك متعب يا أولف... عليك أن تذهب لتنال قسطاً من الراحة ."

تمنى لها الرجل ليلة سعيدة بهدوء ثم خرج .

•

أخذت كريستين الشمعة من على المائدة ، ونظرت على نورها إلى الصبيين النائمين في السرير . لم تكن هناك مادة على رموش بيورغولف...

شكراً للرب على ذلك . كان الطقس جميلاً في المدة الأخيرة . ما أن تهب الريح بقوة أو يصبح الطقس قاسياً ويكون على الأطفال أن يلعبوا في داخل البيت قرب نار الموقد ، كانت عيناه تلتهبان . وقفت لفترة طويلة تنظر إليهما . ثم انحنت فوق غاوته في المهد .

كان ثلاثتهم نضرين وفي صحة جيدة كالطيور الصغيرة ، كل أبنائها الثلاثة الصغار... حتى وصل المرض إلى الريف في الصيف الماضي . سماه الناس الحمى القرمزية... كان المرض يقتل الأطفال في كل البيوت المحيطة بالزقاق البحري ، حتى أنه كان أمراً مثيراً للشفقة أن ترى أو تسمع ما يحكى عنه . لقد مُنحت بركة الاحتفاظ بأولادها جميعاً... كل أولادها...

لقد جلست خمسة أيام وخمس ليال قرب السرير الجنوبي ، حيث كانوا ينامون ثلاثتهم وبقع حمراء تغطي كل بشرتهم ، وعيونهم المريضة تتأذى من النور... أما أجسامهم الصغيرة فكانت حارة كالنار . كانت تجلس ويدها تحت غطاء السرير تربت على باطن قدمي بيورغولف ، وتغني وتغني ، حتى أصبح صوتها الرشيق همساً أبح :

"حدوة ، حدوة ، لحصان الحارس...
كيف يمكن أن نحدوه على أفضل نحو عند الحاجة ؟
حدوة حديدية ملائمة لحصان الحارس .

حدوة ، حدوة ، لحصان إيرلي...
كيف يمكن أن نحدوه على أفضل نحو عند الحاجة ؟
حدوة فضية ملائمة لحصان إيرلي .

حدوة ، حدوة ، لحصان الملك ،
كيف يمكن أن نحدوه على أفضل نحو عند الحاجة ؟
حدوة ذهبية ملائمة لحصان الملك .

كان بيورغولف أقلهم مرضاً وأكثرهم قلقاً . لو توقفت عن الغناء للحظة ، كان يرمي بالغطاء بعيداً عنه فوراً . كان غاوته في الشهر العاشر من عمره فحسب... وكان مريضاً إلى حد الموت ، فاعتبرت أنه لن يعيش . كان ينام على صدرها ، ملفوفاً بالأقمشة والفراء ، دون قدرة على الرضاعة . كانت تحمله بذراع واحدة وتربت على باطن قدم بيورغولف باليد الأخرى .

بين الحين والآخر ، حين كان يحدث أن ينام الثلاثة جميعاً لفترة قصيرة ، كانت تتمدد أمام السرير إلى القرب منهم بكامل ملابسها . كان إرلند يأتي ويذهب ، وينظر بعجز إلى أبنائه الثلاثة . كان يحاول أن يغني لهم ، ولكنهم ما كانوا يهتمون أبداً بصوت أبيهم الرخيم... كانوا يريدون من أمهم أن تغني ، رغم أن صوتها لم يكن صالحاً للغناء .

كانت الخادمات يحمن من حولها ويردن من سيدتهن أن ترتاح ، وكان الرجال يأتون ويسألون عن الأنباء . حاول أورم أن يبعث جواً من المرح بين أخوته الصغار . أما مارغريت فأرسلها إرلند بعيداً إلى أوستردال بموجب نصيحة كريستين . أما أورم فكان مصمماً على البقاء... علاوة على أنه كان قد كبر الآن . كان سيرا آيليف يجلس إلى قرب سرير الأطفال حين لا يزور مرضاه الآخرين . لقد ذوب الجهد الكثير والحزن الكثير كل الدهن الذي كان قد اكتسبه الكاهن في هوسابي... كان يصعب عليه أن يرى الكثير من الأطفال الصغار الوسيمين يموتون . وقد مات بعض الكبار أيضاً .

في مساء اليوم السادس كان الأطفال في حال أفضل بكثير حتى أن

كريستين وعدت زوجها أنها في تلك الليلة ستخلع ملابسها وتذهب إلى سريرها... وقد عرض إرلند أن يسهر على الأطفال مع الخادمات ويناديها إن دعت الحاجة . ولكن عند مائدة العشاء رأت وجه أورم أحمر نارياً... وكانت عيناه تلتمعان من الحمى . قال إنه على ما يرام... ولكنه نهض فجأة من المائدة وخرج . حين لحق به إرلند وكريستين ، وجداه يتقيأ في الساحة .

رمى إرلند بذراعيه من حوله :

"أورم... يا بنيّ... أأنت مريض ؟"

"رأسي يؤلمني كثيراً" ، أنّ الغلام ثم ترك رأسه يتكئ ثقيلاً على كتف أبيه .

في تلك الليلة سهرا على أورم . كان يهمهم معظم الليل من حمى الدماغ... كان يصرخ عالياً ويعارك الهواء بذراعيه الطويلتين... بدا وكأنه يرى رؤى بشعة . وما كان يقوله لم يستطيعا فهمه .

و في الصباح انهارت كريستين . لقد ثبت أنها حامل مجدداً وقد أجهضت هذه المرة ، وغرقت لاحقاً في سبات ، كأنها نصف ميتة ، ثم أصيبت بحمى قوية . كان أورم قد مات ، ودفن منذ أسبوعين ، قبل أن تعرف بموت ابن زوجها .

كانت ضعيفة جداً آنذاك حتى أنه لم يكن فيها من القوة ما يكفي لتشعر بالأسى . كانت شاحبة وضعيفة إلى حد أنه ما كان هناك شيء يمكنه أن يؤثر فيها بحدة... كان يبدو لها أنها في حال جيدة طالما كانت مضطجعة هناك نصف ميتة . مرّ عليها وقت رهيب حين كانت النسوة لا يجرؤن إلاّ بالكاد على لمسها للقيام بما هو مطلوب لأجل النظافة... ولكن ذلك كله بدا

كأنه جزء من تهويماتها المحمومة . كان جيداً الآن أن تتمدد ويُعتنى بها . من حول سريرها كانت قد علقت أكاليل عديدة طيبة الرائحة من زهور الجبال لإبعاد الذباب... كان الناس قد أرسلوها من السايترات ، وكانت لها رائحة عذبة جداً ، وخاصة حين يكون هناك مطر في الجو . أحضر لها إرلند أطفالهما ذات يوم... رأت أن المرض قد أذواهم ، وأن غاوته لم يعد يميزها ، ولكن حتى هذا لم يكن قادراً على إيلامها بعد . كانت تشعر فحسب أن إرلند كان دائماً إلى جوارها .

كان يذهب لحضور القداس كل يوم ، وكان يركع طويلاً ليصلي قرب أورم . كان فناء الكنيسة ومدفنها قريبين من كنيسة الأبرشية في فينيار ، ولكن بعض الأطفال الصغار من الأسرة كانوا قد دفنوا في المعبد الذي في هوسابي... شقيقا إرلند وابنة صغيرة لمونان بيشوبسون . كثيراً ما كانت كريستين تشعر بالشفقة على هؤلاء الصغار الراقدين لوحدهم تحت الصفائح الحجرية . والآن وجد أورم إرلندسون مكان راحته الأخير بين هؤلاء الأطفال .

حين كان الآخرون لا يزالون يخشون على حياة كريستين بدأت مجموعة من الشحاذين من نيداروس تأتي عبر الأبرشية مع اقتراب عيد القديس أولاف... كانوا على الأغلب أولئك المتسولين أنفسهم ، رجالاً ونساء ، ممن اعتادوا القدوم إلى هناك كل عام... كان الحجاج دائماً كرماء معهم ، فقد كان يعتقد أن شفاعة الفقراء تفيد كثيراً . كما كانوا قد اعتادوا الحضور عبر "سكاوم" خلال فترة وجود كريستين سيدة هوسابي ، فقد كانوا يعرفون أنهم سيمنحون المأوى الليلي والطعام الكثير والصدقات قبل أن يتابعوا طريقهم . في هذه المرة كان الخدم على وشك طردهم ، بما

أن السيدة كانت على فراش المرض . ولكن حين سمع إرلند ، الذي كان بعيداً عن المنزل في الشمال في آخر صيفين ، أن زوجته اعتادت أن تعامل الشحاذين بودّ ، فقد أمر أن يُمنحوا المأوى والطعام كما كان من شأن كريستين أن تقدمهما لهم . وفي الصباح ذهب بنفسه وساعد على صب الشراب لهم ودار عليهم بالطعام ، وقدّم لهم الصدقات بنفسه ، بينما كان يرجوهم بضِعة أن يصلوا لزوجته . وقد بكى الكثير من الشحاذين حين سمعوا أن الشابة الكريمة كانت مريضة على شفا الموت .

كان السيرا آيليف قد حكى لها هذا كله حين تحسنت حالتها . ولكن لم تعد إليها قوتها ولا استعادت حزمة مفاتيحها مرة أخرى إلا مع اقتراب موسم عيد الميلاد .

كان إرلند قد أرسل من يبلغ والديها حالما وقعت فريسة المرض ، ولكنهما كانا قد رحلا جنوباً لحضور زفاف في سكوغ . وفي وقت لاحق حضرا إلى هوسابي . كانت في حال أحسن آنئذ ، إنما منهكة جداً حتى أنها لم تكن قادرة على التكلم كثيراً معهما . كانت لا تسرّ على أفضل نحو إلا بوجود إرلند إلى القرب من سريرها .

كانت تزحف لتحتمي تحت خيمة صحته وقوته وهي في ضعفها وقشعريرتها وشحوبها . كانت نار دمها القديمة قد خبت ، إلى حد أنها لم تعد تتذكر كيف يمكن للمرء أن يعيش على ذاك النحو . ولكن ذهب مع هذا أيضاً قلق ومرارة السنين الأخيرة . بدا لها أنها كانت سعيدة الآن... حتى لو كان الحزن على أورم يقبع ثقيلاً عليهما كليهما ، ورغم أن إرلند لم يكن يعرف كم كانت خائفة على غاوته الصغير ، ولكنها كانت على أي حال سعيدة معه الآن . لقد فهمت كم كان يخشى أن يفقدها...

كان أمراً لطيفاً وقاسياً آنئذ أن تضطر أن تخاطبه... أن تتحدث عن أمور قد تحطم السلام والرضا اللذين كانا بينهما .

•

كانت واقفة في الخارج أمام باب القاعة في ليلة الصيف اللامعة حين عاد أهل المنزل من حفلة الرقص . كانت مارغريت تتعلق بذراع أبيها وقد ارتدت ملابسها وتزينت كمن تذهب لحضور احتفال بالزفاف وليس احتفالاً راقصاً على مرج الكنيسة ، حيث كانت كل أنواع البشر تجتمع هناك . ولكن زوجة الأب كانت قد تخلّت عن أي تدخل في شؤون تربية الفتاة . كان على إرلند أن يوجّه ابنته كما يريد .

كانا ظمآنين إرلند ومارغريت ، وذهبت كريستين لتحضر لهما الجعة . جلست الفتاة تثرثر في هذه الأثناء... فقد كانت قد أصبحت على وفاق مع زوجة أبيها الآن بعد توقف كريستين عن محاولة تعليمها . كان إرلند يضحك من ثرثرة ابنته عن حفلة الرقص . ولكن مارغريت وخادمتها صعدتا أخيراً إلى علية النوم .

ظل الرجل يذرع القاعة جيئة وذهاباً... ثم تمطمط وتثاءب ، ولكنه قال إنه غير متعب . مرّر أصابعه عبر شعره الأسود الطويل .

"لم يكن هناك وقت كاف حين خرجنا من الحمام -بسبب حفلة الرقص هذه- وأعتقد أن عليك أن تقصّي لي شعري يا كريستين... لا أستطيع الاستمرار بهذا الشعر الطويل في الأيام المقدسة..."

أجابت كريستين بأن الظلام لا زال مخيماً ، ولكن إرلند ضحك وأشار إلى فتحة الدخان قائلاً إن الفجر قد أطل مجدداً . وهكذا أضاءت الشمعة

مجدداً ، وطلبت منه الجلوس ، ثم نشرت قماشة على كتفيه . وبينما راحت تقص له شعره ، كان يتحرك متدغدغاً ويضحك حين يقترب المقص من عنقه .

لملمت الشعر المقصوص بعناية وأحرقته بنار المدفأة ، ثم هزت القماشة أيضاً فوق النار . ثم مشطت شعر إرلند من قمة رأسه إلى الأسفل وراحت تستخدم المقص هنا وهناك حيث لم تكن نهايات الشعر مستقيمة .

أمسك إرلند بيديها وهي واقفة خلفه ، ثم أحاط بهما عنقه ، ونظر إليها بوجه مبتسم ، مرفوع إلى الخلف .

قال مجدداً : "أنت منهكة" ، ثم أفلت يديها وهو ينهض بتنهيدة صغيرة .

•

أبحر إرلند إلى بيورغفين حين كان منتصف الصيف قد مرّ . وقد تذمر كثيراً لأن زوجته كانت غير قادرة مجدداً على أن ترافقه... لقد ابتسمت منهكة . وعلى أي حال فإنها ما كانت تستطيع ترك غاوته في مثل تلك الحالة التي كان بها .

و هكذا جرى أن بقيت كريستين لوحدها في هوسابي مجدداً . على الأقل فإنها في هذا العام ما كانت تنتظر أن تلد الطفل قبل قداس ماثيوس (٢١ أيلول / سبتمبر) . وقد كان صعباً عليها صعوبة مضاعفة وعلى السيدات اللواتي كن يحضرن لرعايتها في موسم الحصاد حيث تكثر الأعمال والنشاطات .

لقد تساءلت إن لم تكن الأمور ستبقى هكذا إلى الأبد . لم تكن الأوقات الآن كما كانت وهي بعد فتاة صغيرة . لقد كانت قد سمعت عن

الحرب الدانمركية من أبيها وهي تتذكر ذلك الوقت حين كان بعيداً عن البيت في الحرب ضد الدوق آيريك . وقد رجع من تلك الحرب حاملاً تلك الندوب الكبيرة على جسمه . ولكن رغم كل شيء ، ففي موطنها في "ديل" كانوا بعيدين كما بدا لهم عن الحرب... فهي لن تصل إلى هناك أبداً... هكذا كانت تشعر هي وهكذا كان الناس جميعاً يظنون . كانت أغلب ذكرياتها عن السلام ، عن أبيها وهو يقطن في البيت ويدير أملاكه ، ويعتني بهم ويهتم بأمورهم جميعاً .

في هذه الأيام كانت هناك قلاقل مستمرة : كان الناس كلهم يتحدثون عن النزاع والرسوم الحربية وحكومة المملكة . في ذهن كريستين كان هذا كله مرتبطاً بصورة البحر والشاطئ ، كما رأتهما في تلك المرة الوحيدة حين وصلت إلى هنا شمالاً في المرة الأولى . على امتداد الشاطئ كانوا يأتون مبحرين أولئك الرجال برؤوس مليئة بالمشاورات والخطط والخطط المضادة والتأملات والأسياد الروحيين والعامة من الشعب . كان إرلند ينتمي إلى هؤلاء بموجب مولده النبيل وثروته . ولكنها أحست أنه كان يقف ضمن دائرتهم إنما جزئياً .

لقد تأملت كثيراً في سبب وقوفه على هذا النحو ، بين بين . ما كان رأي زملائه به في حقيقة الأمر ؟

حين كان هو مجرد الرجل الذي تحب ، لم تكن تسأل مثل هذه الأسئلة . لقد رأت بالفعل أنه كان نزقاً وعنيفاً ، متهوراً ودائم الاستعداد لارتكاب عمل طائش . ولكنها كانت تجد أعذاراً لكل ذلك... ما كانت تزعج نفسها بالتفكير فيما يمكن لمزاجه أن يسببه لهما كليهما . ما أن يحصلا كلاهما على الموافقة على الزواج ، حتى يتغير كل شيء... هكذا كانت تعزي

نفسها . أحياناً كانت تشعر على نحو غامض أنها لم تبدأ بالتفكير بمن هو إرلند ، ذاك الذي يسميه الناس بالمستهتر واللاحكيم ، والشخص الذي لا يمكن الوثوق به... إلا في تلك الساعة حين عرفت أنهما قد منحا الحياة لطفل...

كانت تثق به . تذكرت عليّة برينهيلد . تذكرت كيف كان الرابط بينه وبين تلك الأخرى قد انقطع في النهاية . تذكرت معاملاته بعد أن أصبحت خطيبته الشرعية . ولكنه بقي مخلصاً لها رغم كل الصدود والإذلال ، وقد لاحظت الآن أيضاً أنه لم يكن مستعداً للتخلي عنها لقاء كل ذهب الدنيا...

لم تستطع أن تغالب التفكير في هافتور أوف غودوي . فكلما التقت به كان يحوم من حولها بتودد عابث ، ولكنها لم تكن تكترث بهذا . لقد اعتبرت ذلك أسلوبه الخاص بالمزاح . ما كانت قادرة على تصديق أي شيء آخر حتى الآن . كانت قد أحبت الشاب الوسيم المزوح... أجل وهي لا تزال تحبّه . ولكن أن يظن أي شخص في أن هذه الأمور مجرد مزحة... لا ، لم تستطع أن تفهم ذلك .

كانت قد قابلت هافتور غراوت ثانية في المآدب الملكية في نيداروس ، وقد حام من حولها هناك أيضاً حسب عادته . في إحدى الأمسيات جعلها تذهب معه إلى إحدى العليّات ، وقد اضطجعت معه على سرير مرتب كان موجوداً هناك . في موطنها في "ديل" ما كانت لتفكر بأي أمر من هذا النوع... لم يكن معتاداً في الاحتفالات أن يتسلل الرجال والنساء إلى أماكن جانبية ، لوحدهما ، اثنين اثنين . ولكن كان الجميع هنا معتادين على ذلك ، ولم يبد لهم هذا الأمر مشيناً... كان يقال إنها عادة يمارسها الفرسان والسيدات في البلاد الأجنبية . حين دخلا لأول مرة فإن الليدي إلين ، زوجة سير إرلينغ ،

تمددت على السرير الآخر مع فارس سويدي . سمعتهما يتحدثان عن ألم الأذن الذي يعاني الملك منه... وقد بدا السويدي مسروراً حين أومأت له الليدي إلين بالنهوض للعودة إلى القاعة .

حين فهمت أن هافتور كان جاداً وحزيناً فيما طلبه منها وهما مضطجعان هناك يتبادلان الحديث ، فقد أصيبت بالحيرة إلى حد أنها بدت غير قادرة على أن تكون خائفة ولا أن تغضب إلى حد كبير . ألم يكونا كلاهما متزوجين ، أولم يكن لهما كليهما أطفال رزقا بهم من قرينيهما ؟ شعرت أنها لم تكن تستطيع أن تصدق أن تصدق تصديقاً كاملاً من قبل أن مثل هذه الأمور يمكن أن تحدث . وحتى بعد أن جرى ما جرى لها... لا... كانت تعتقد أن هذا لا يجب أن يحدث . كان هافتور يضحك معها ويمازحها ويلاطفها... لم تستطع أن تقول إنه حاول أن يقودها إلى طريق الضلال ، فهو لم يكن جدياً بما فيه الكفاية . ومع ذلك بدا أنه كان سيجعلها ترتكب أسوأ خطيئة...

نزل من السرير في اللحظة التي طلبت منه الرحيل... أصبح خنوعاً جداً ، ولكنه بدا أشد حيرة منه خجلاً . وقد سألها غير مصدق إن كانت تحلم حقاً بأن المتزوجين لا يخونون أزواجهم أبداً... ؟ لا شك أنها تعرف أن قليلاً من الرجال مستعدون أن يقسموا بأنهم لم يسبق لهم أبداً أن احتفظوا بعشيقات . أما النساء فربما كان وضعهن أفضل ، ولكن الصحيح...

سألها : "أكنت تصدقين إذن أيضاً حين كنت شابة صغيرة كل ما يعظ به الكهنة عن الخطيئة ؟ أنا لا أفهم يا كريستين لافرانسداتر كيف استطاع إرلند إذن أن يفرض إرادته عليك ؟"

كان قد رفع نظره إلى وجهها... ولا بد أن عينيها قد نطقتا ، رغم أنها ما كانت لتحاور هافتور عن هذا الموضوع لقاء الكثير من الذهب . فقد قال بصوت شديد التعجب عالي النبرة :

"كنت أظن أن مثل هذا الأمر هو ما تتحدث عنه الأغاني والقصائد فحسب..."

لم تكن قد حكت لأحد عن هذا ، ولا حتى لإرلند الذي كان يحب هافتور جيداً . ولا شك أنه أمر مخيف أن يكون هناك أشخاص خفيفو العقل شأن هافتور غراوت... ولكن كأنما لم تكن تستطيع أن تشعر أن هذا الأمر يعنيها إطلاقاً . كما أنه لم يحاول أبداً أن يكون متحرراً معها منذ ذلك الحين... كان يجلس ويحدق فحسب حين يلتقيان ، وعيناه اللتان بزرقة البحر مشدوهتان من شدة التعجب .

لا ، لو كان إرلند خفيف العقل ، فإنه ليس خفيف العقل على هذا النحو . كما فكرت : هل كان هو غير حكيم ؟ لقد لاحظت أن الناس كانوا ينذهلون من الأمور التي يقولها ، وكانوا يتهامسون عليها لاحقاً . كان هناك غالباً الكثير من الحق والمنطق فيما يقوله إرلند نيكولاوسون . كان الأمر وما فيه أنه لم يكن يرى أبداً ما كان الناس الكبار الآخرين لا يدعونه يفلت من أنظارهم... ذلك الاحتراس الحذر الذي يراقب فيه واحدهم الآخر . كان إرلند يسميه الخداع ثم يضحك ضحكته المتهورة التي كانت تزعج الناس إلى حد ما ولكنها تجردهم على المدى الطويل من أسلحتهم . وكان هؤلاء أيضاً يضحكون عندئذ ، يربتون على كتفه ، ويقولون إنه قد يكون متوقد الذهن بما فيه الكفاية ، ولكنه كان بالتأكيد عكس ذلك .

ثم كان يبطل مفعول كلماته بالمزاح الداعر الوقح . وكان الناس يعانون الكثير من إرلند بسبب مزاحه هذا . كانت زوجته تشعر على نحو غامض - وكان هذا الشعور يجعلها تحس بالضعة- بالسبب الذي يجعل الناس يتحملون لسانه الفالت . كان إرلند يحجم ويستسلم في اللحظة التي يقابل

فيها شخصاً يتمسك برأيه الخاص... رغم أن هذا الرأي كان حماقة في نظر إرلند ، فإنه كان مستعداً مع ذلك للتخلي عن رأيه ، مهما تكن تلك المسألة ، لكنه كان يغطي تراجعه بالحديث الساخر حول ذاك الرجل . وكان الناس راضين جيداً إذ يعرفون أن إرلند كان يعاني من مثل هذا الجبن في العقل... رغم أنه كان متهوراً فيما يخص مصلحته ، وتواقاً للمغامرة ، ويعشق على نحو يائس كل خطر يمكن أن يجابه بقوة السلاح . وعلى أي حال ، فقد كانوا لا يشعرون بالحاجة إلى أن يقلقوا من جهة إرلند نيكولاوسون .

في العام الماضي حين كان الشتاء على وشك الانقضاء ، كان "الوصي السامي" في نيداروس ، وقد جلب الملك الطفل معه . كانت كريستين في المدينة لأجل الوليمة الضخمة في القصر . كانت قد جلست هادئة ومهيبة في غطاء رأسها الحريري ، وقد ارتدت ثوب زفافها الأحمر مع أثمن زينة لديها ، بين السيدات الأرفع مقاماً في البلاط الملكي . وبعينين يقظتين راحت تتابع تصرفات زوجها بين الرجال ، تراقب وتصغي وتتأمل... مثلما كانت تراقب وتصغي وتتأمل كلما مضت مع إرلند أو كلما لاحظت أن الناس كانت تتكلم عنه .

لقد فهمت أمراً ما ثم آخر . كان السير إرلينغ فيدكونسون راغباً في المخاطرة بكل شيء لأجل تثبيت حكم النرويج شمالاً نحو "البحر المتجمد" ، وعلى حماية هالوغالاند والاحتفاظ بها . ولكن المجلس الاستشاري ومجلس الفرسان كانا يخالفانه ولا يريان الموافقة على القيام بأي مشروع كبير لخدمة هذا الغرض . كان كبير الأساقفة نفسه وكهنته راغبين في الوقوف إلى جانبه ودعمه بالمال -كانت تعرف هذا من غونولف- ولكن كان رجال الكنيسة في كل أرجاء البلد ضده حتى لو كانت تلك حرباً ضد

أعداء الرب والهراطقة والوثنيين . كما كان العامة ضد الوصي السامي هنا في تروندهايم على الأقل ، إذ كانوا قد اعتادوا على عدم الاكتراث كثيراً بكلام كتب القانون وحقوق التاج ، ولم يكونوا راضين أن يقف السير إرلينغ بكل حدة في هذه المسائل مؤيداً رأي قريبه الملك هاكون طيب الذكر . ولكن لم يكن إرلند غير راغب في أن يكون موضع استغلال بسبب هذا الأمر ، فقد فهمت الآن أن الوصي السامي كان ينوي استغلال زوجها لمصلحته . بالنسبة إلى إرلند كان ما يقلقه هو المظهر الجدي المهيب لذلك الشخص ، وقد انتقم لنفسه بالسخرية قليلاً من قريبه صاحب السلطة .

ظنت كريستين أنها فهمت موقف إرلند من السير إرلينغ الآن . فقد كان الفارس يحمل نوعاً من المودة لإرلند منذ يفاعتهما وحتى الآن . ثم كان يظن في أنه لو استطاع أن يكسب إلى صفه سيد هوسابي كريم المحتد والشجاع ، الذي كان قد اكتسب بعض المهارة أيضاً في فن الحرب من خدمته مع الكونت ياكوب –والذي كان على الأقل يعرف عن الحرب أكثر من معظم زملائه ولكنه لا يفعل شيئاً عدا البقاء في البيت– فقد يخدم هذا مشاريعه ومصلحة إرلند . ولكن الرياح لم تجر كما كان يشتهي .

بقي إرلند صيفين كاملين في البحر حتى نهاية الخريف ، متخبطاً في البحار التي تغسل الشاطئ الشمالي الطويل ، ملاحقاً مراكب اللصوص بالسفن الأربعة الصغيرة التي كانت تحت إمرته . كان يصل للحصول على اللحم الطازج إلى مستوطنة نرويجية جديدة في أقصى الشمال في "تانا" ، في الوقت الذي كان سكان كاريليا منهمكين في نهبها... وبحفنة من الرجال الذين اصطحبوه إلى الشاطئ ، فقد أسر ثمانية عشر لصاً وشنقهم على جذع سقف الحظيرة نصف المحترقة . كما كان قد أباد عصبة من الروس الهاربين

إلى الجبال ، وأحرق بعض سفن العدو بين الجزر الصخرية الخارجية وقضى على أطقمها . لقد انتشرت شهرة سرعته وجرأته انتشار النار في الهشيم في الشمال . كان تروندر ورجاله القادمون من "موره" يحبون قائدهم لبسالته ومشاركته لهم في كل الأعمال الشاقة والصعوبات . كان يصادق الناس العاديين والأبناء الشبان من الضيع الكبيرة إلى الشمال في هالوغالاند ، حيث كان الناس قد اعتادوا سابقاً على التفكير في أن عليهم أن يحرسوا شواطئهم دون مساعدة من أحد .

و لكن ألا يستطيع إرلند أن يخدم مصالح الوصي السامي في خططه للقيام بحملة شمالية كبيرة . لاشك أن سكان تروندهايم كانوا يتفاخرون ببطولاته ضد الروس ، وحين يحين دورهم في الكلام ما كانوا يدعون أحداً ينسى أنه كان واحداً من أبناء ريفهم . أجل ، لقد تبين على نحو واضح أن هناك الكثير من الحماسة الجيدة القديمة في الشبان الساكنين حول الزقاق البحري هنا . ولكن ما كان يقوله إرلند أوف هوسابي وما كان يفعله لم تكن أموراً تلائم رجلاً ناضجاً حكيماً :

لقد لاحظت أن إرلند لا زال يعتبر واحداً من الشبان -رغم أنه كان أكبر بسنة من الوصي السامي . وقد فهمت أن هذا كان يلائم الكثير من الناس إذ كانت كلماته وأفعاله سينظر إليها على أنها أفعال وآراء شاب متهور . وهكذا كان محبوباً ومدللاً ومتفاخراً به . ولكنه ليس محسوباً كرجل وصل إلى كمال رجولته . وقد لاحظت هي كم كان هو راغباً في أن يكون جزءاً من هذا الأمر وكما يريد له رفاقه أن يكون .

كان مؤيداً للحرب الروسية . كما كان يتكلم عن السويديين الذين كانوا يتقاسمون معنا ملكنا ولكنهم يرفضون أن يعتبروا أفراد الطبقة العليا

والفرسان النرويجيين على أنهم نبلاء مساوون لهم . أو هل سُمع عن مثل هذا الأمر في أي بلد من البلدان ، كما راح يسأل ، طالما كان هذا العالم لا يزال موجوداً ، أي أن يكون شخص ما قد طلب رسوماً حربية من نبلاء إلا بشكل واحد : أن يركبوا أحصنتهم ويحملوا تروسهم إلى الميدان ؟... كانت كريستين تعرف أن هذا هو إلى حد كبير ما كان أبوها يقوله في المجلس في فاغ قبل بضع سنوات ، وكان قد ضغط على إرلند حين كان صهره كارهاً أن يفارق صحبة مونان باردسون ومستشاريه . كان إرلند يقول لا الآن... وقد ذكر أقرباء حميه الأقوياء ذوي السلطة في السويد... وكان يعرف جيداً كيف يقيّمنا هؤلاء النبلاء السويديون . إذا لم نبرهن على ما نستطيع فعله ، فسوف لا نستحق سوى أن يُنظر إلينا كمتقاعدين لدى السويديين...

أجل ، سيقول الناس إنه كان هناك بعض الصواب في هذا الأمر . ولكنهم كانوا يذكرون الوصي السامي مجدداً . كان لدى السير إرلينغ ما يفعله في الشمال . فالكارليون قد أحرقوا بياركو فوق رأس وكيله هناك في إحدى السنوات وراحوا يضايقون مزارعيه . ثم غيّر إرلند لهجته وبدا مرحاً مع الفارس : لم يكن إرلينغ فيدكونسون يفكر بمصالحه الخاصة ، فقد كان ضامناً لهذه . كان نبيلاً ورائعاً ومهيباً كفارس... وما كان ممكناً لهم أن يجدوا رجلاً أكثر ورعاً ليكون حجر الزاوية في إدارة شؤونهم . كان إرلينغ بحق الصليب ورعاً وموقراً مثل أروع حرف مذهّب في "كتاب القانون" . ضحك الناس ولم يتذكروا كثيراً مديح إرلند لشرف الوصي السامي حتى أنه شبهه بالحرف المذهّب في كتاب .

لا ، لم يأخذوا إرلند على محمل الجد... ولا حتى الآن بعد أن اكتسب الاحترام نوعاً ما . ولكن في تلك الأيام حين كان يعيش في حالة من الزنا مع

امرأة وحين رفض التخلي عنها رغم أمر الملك وحرمان الكنيسة ، أي حين كان شاباً وعنيداً ويائساً ، عندها كانوا ينظرون إليه بحزن ويديرون له ظهورهم غضباً من حياته التي يعيشها دون ورع ومجللاً بالعار . والآن كان هذا كله قد نسي وغفر له... وقد فهمت كريستين أنه كان هناك شيء من الامتنان لرغبة زوجها في الإذعان وأن يكون كما يريده الناس... فلقد عانى بمرارة ، كما كانت تعرف ، في تلك الأيام حين كان يعيش كمنبوذ هنا في بيته وبين رفاقه .

و لكن كان هناك أمر واحد فحسب -عليها أن تفكر بأبيها حين كان يغض النظر لقاء لا شيء عن دفع إيجار الأرض أو دين من الديون- وذلك بمجرد هزة من كتفيه . كان هذا واجباً بين واجباتنا كمسيحيين أن نتحمل أولئك الذين لا يستطيعون أداء دور الرجل . أهكذا نال إرلند الغفران على خطايا شبابه... ؟

و لكن إرلند دفع بالفعل ثمن هذه الأفعال حين كان يعيش مع إلين . لقد كفّر عن خَطِيئته حتى اليوم الذي قابلها فيه (كريستين) ولحقت هي به ، دون كره ، ليمارسا خطايا جديدة . هل كانت هي إذن من... ؟

لا ، لقد أصبحت خائفة من أفكارها بالذات .

و قد حاولت أن تبعد عن ذهنها كل الاهتمام بالأمور التي لا تستطيع التدخل فيها . كانت تفكر فحسب بتلك المسائل التي تستطيع أن تفيد فيها بعنايتها . وعليها أن تترك الباقي كله بين يدي الرب . لقد ساعدها الرب في كل الأمور التي كان ممكناً فيها لجهدها وآلامها أن تكون ذات فائدة . إن مزرعة البيت في هوسابي قد تحولت الآن إلى مزرعة جيدة كما كانت في الأيام الخالية... رغم سنوات القحط . لقد منحها الرب ثلاثة أبناء وسيمين

أصحاء... في كل عام كان يمنحها الحياة مجدداً حين يكون عليها أن تواجه الموت خلال المخاض . كان قد سمح لها أن تقوم من جديد بكامل صحتها بعد كل ولادة . لقد مُنحت نعمة الاحتفاظ بكل أولادها الصغار الأحباء في العام الماضي حين أودى المرض بكثير من الأطفال الصغار العذبين في المنطقة المحيطة بها . أما غاوته فسوف يتحسن حتماً ، كانت تؤمن بذلك حقاً .

لا شك أن الأمر هو كما قال إرلند... عليه أن ينفق بحرية كما كان يفعل وأن تحيط به كل الأشياء الثمينة . وإلاّ فلن يستطيع أن يلعب دوره أبداً بين أنداده أو أن يشق طريقه بنجاح إلى مثل تلك الحقوق والمنح تحت إمرة الملك كما يستحق هو بموجب حقوق محتده الرفيع . وعليها أن تصدق أنه كان يفهم في مثل تلك الأمور أفضل منها .

كان أمراً خالياً من الفطنة أن يظن المرء أن الأمور كانت في حال أفضل بالنسبة إليه على نحو ما في تلك الأيام حين كان يعيش تحت نير الخطايا مع تلك المرأة الأخرى... مما هي الآن معها . كانت اللمحة إثر اللمحة تمر أمام عينيها لوجهه كما كان في تلك الأيام ، وقد كان منهكاً من الحزن ونحيلاً من الانفعال . كلا ، كان حسناً كما هو الآن . إلا أنه كان نوعاً ما قليل الاكتراث والتفكير .

•

عاد إرلند إلى البيت في موسم عيد القديس ميكائيل . كان يأمل في أن يجد كريستين في السرير ، ولكنها كانت لا تزال مستيقظة ، وقد وصلت لاستقباله على الطريق . كانت ثقيلة الخطوات إلى حد مثير للشفقة هذه

المرة... ولكنها كانت تحمل غاوته على ذراعها كما هو دأبها أبداً ، أما الصبيان الأكبر سناً فكانا يجريان أمامها .

قفز إرلند من فوق جواده ووضع الصبيين فوقه . ثم أخذ الصغير من ذراع زوجته وكان يريد حمله . أضاء وجه كريستين الأبيض المتعب حين لم يبد غاوته أي علائم تدل على الخوف من أبيه... لا شك أنه عرفه مجدداً . لم تسأل زوجها عن أعماله . بل تحدثت فحسب عن أربع أسنان صغيرة نبتت لغاوته . لقد مرض بشدة حين راحت تنبت له .

ثم انفجر الصبي في البكاء... كان قد جرح فخذه بدبوس عنق أبيه . راح يناضل ليعود إلى أمه مجدداً ، وكانت تريد أن تستعيده رغم كل ما كان إرلند سيقوله .

و لم تسأل كريستين زوجها حتى المساء ، حين جلسا في القاعة وكان الأطفال قد ناموا ، عن إقامته في بيورغفين... وكأنها كانت أمراً لم تتذكره إلا الآن فحسب .

اختلس إرلند نظرة من زوجته . يا للحبيبة المسكينة... بدت شديدة البؤس . لذلك راح أولاً يذكر نتفاً من الأخبار . كان إرلينغ قد طلب إليه أن يوصل لها تحياته وأن يقدم لها هذا الخنجر من البرونز أخضر اللون المتآكل من صدأ النحاس . لقد وجدوه في كومة حجارة في غيسهكه ، ويقال إن مثل هذه الأشياء مفيدة إذا وضعت في المهد ، إن كان مرض غاوته هو كساح الأطفال .

لفت كريستين القماشة من حول الخنجر مجدداً ، ونهضت بصعوبة من كرسيها ، ثم مضت نحو المهد ، وضعت الرزمة الصغيرة بين كل الأشياء الأخرى التي كانت هناك تحت الأغطية... فأس من الصوان وجد تحت الأرض ،

شحم القندس ، صليب صغير من المازريون (نبتة أرجوانية الزهر) ، فضة متوارثة ، فولاذ ناري ، وجذور السرخس والأرجوان .

رجاها بتودد : "استريحي الآن يا كريستيني ." اقترب منها وخلع عنها حذاءها وجوربها... وراح يحكي لها أخباره .

لقد عاد هاكون أوغموندسون ، والسلام مع الروس والكاريليين قد أنجز وتم التوقيع عليه . كان عليه الآن أن يسافر شمالاً مجدداً في مهمة هذا الخريف . فلم يكن أمراً مؤكداً الآن أن تهدأ الأمور بسرعة ، وكانت هناك حاجة إلى أن تحكم "فارغوي" (فاردو المعاصرة) من قبل شخص يعرف المنطقة والناس . أجل ، ستكون لديه كامل السلطة كحاكم باسم الملك هناك... وكانت القلعة في حاجة إلى تدعيم حتى يتم فرض سلام الملك في الأراضي الواقعة الآن ضمن علامات الحدود الجديدة .

نظر إرلند في قلق وترقب إلى وجه زوجته . بدت خائفة قليلاً... ولكنها لم تطرح الكثير من الأسئلة ، وكان واضحاً أنها لم تفهم كثيراً المعنى الكامل لأنبائه . لاحظ كم كانت منهكة... لذلك توقف عن الحديث حول هذه الأمور ، ولكنه بقي إلى القرب منها لفترة أخرى ، جالساً على حافة السرير .

كان يعرف هو نفسه ما كان قد التزم به . ضحك إرلند بهدوء لنفسه وهو يخلع ملابسه بتمهل . لن يكون الأمر مجرد جلوس ببطن يلفه حزام فضي ، وإقامة ولائم الجعة للأصدقاء والأقرباء ، وتقليم أظافرك أحسن تقليم ، بينما ترسل مأموريك ومساعديك إلى هنا وهناك في مهمات تخصك... وذلك حسب أسلوب حكام الملك في القلاع الواقعة في الجنوب . إذ أن قلعة فارغوي كانت معقلاً من نوع آخر .

إن على اللابلانديين والروس والكاريليين والنسل المختلط من كل هذه

الأجناس... عصابات الجن والسحرة والكلاب الوثنية وحملان الشيطان القذر المدللة... كل هؤلاء يجب أن يتعلموا كيف يدفعون ما عليهم مجدداً إلى المندوبين النرويجيين ، وأن يتركوا بسلام بيوت النرويجيين المتناثرة على مسافات شديدة البعد ، ربما بقدر المسافة من هنا إلى "موره" . السلام... ربما ستعرف الأرض هنا السلام لبعض الوقت الآن... خلال زمانه سيكون سلاماً يدوم خلال وجود الشيطان في القداس . ثم ستكون هناك أعماله المتهورة لتبقي الأمور عند حدها . وبما أن الربيع سيكون على الأبواب حين يبدأون بالمعاناة من الجنون من العتمة والعواصف والبرد والضجيج الجهنمي للبحر... سيصبح الطعام والزبدة والشراب أقل ، وسوف يتقاتلون على النساء ، والحياة على الجزيرة ستكون أكثر مما يستطيع اللحم والدم تحمله . لقد رأى شيئاً من هذا حين كان هناك مع غيسور غاله كشاب صغير . لن يكون ذلك سريراً من الورود .

كان "إنغولف بايت" الرجل المسؤول هناك الآن رجلاً جيداً بما فيه الكفاية . ولكن يجب أن يتسلّم الأمور هناك رجل من بين الفرسان... وحتى يتم هذا العمل ، ما كان هناك أحد يفهم أنها كانت نية الملك النرويجي في أن يبسط حكمه على البلاد . في تلك الأرض سيكون عالقاً كإبرة في بطانية . إن أقرب أبرشية نرويجية هي عند مالانغ في الجنوب ، ولا يعرف إلا الشيطان كم تبعد هذه .

كان إنغولف رجلاً جيداً... حين يكون هناك من يشرف عليه . سيمنح إنغولف إمرة "هوغركن" . أما "مارغيغرين" فكانت أفضل سفينة بينها كلها ، وقد برهن على ذلك حتى الآن . ضحك إرلند برقة وسعادة . لقد قال ذلك لكريستين كثيراً : لا بدّ أن تكون خادمة طيعة تلك التي ستجعله يتشبث بها .

•

أيقظته ضجة صادرة عن طفل يبكي في الظلام . سمع عند السرير على الجدار المقابل كريستين وهي تتحرك وتتحدث ملاطفة بصوت خفيض... كان بيورغولف هو الذي يبكي . أحياناً كان هذا الصبي يستيقظ في الليل ولا يستطيع فتح عينيه بسبب المادة المتجمعة بين الرموش... ثم تقوم أمه بترطيبها بلسانها . لقد بدا له الأمر بشعاً دائماً .

هدهدت كريستين الطفل برقة . أثارت حنقه نغمات صوتها الرقيقة .

تذكر إرلند ما كان يحلم به . كان يمشي في مكان ما على شاطئ صخري... كان البحر في حالة جزر وراح يقفز من صخرة إلى أخرى . كان البحر باهت اللون لامعاً ، يلعق الطحالب بعيداً... وكأنما كانت تلك ليلة صيف غائمة هادئة ، دون شمس . أمام النور الفضي عند فم الزقاق البحري رأى سفينة راسية ، سوداء ورشيقة ، وهي تهتز بنعومة على الأمواج . كانت هناك رائحة حلوة غير أرضية نابعة من البحر وطحالبه...

أحس بتوق شديد في قلبه . هاهو الآن في عتمة الليل ، مضطجعاً هناك في سرير الضيوف مع نغمات ممطوطة من تهويدة المرضعات راحت تثير أذنيه... لقد شعر الآن كم كان توقه كبيراً . بعيداً عن بيته والأطفال الذين كان المنزل يعج بهم ، بعيداً عن حديث الاقتصاد في النفقات وسكان المنزل والمستأجرين والأطفال... وبعيداً عن الشعور بالحزن عليها تلك التي تعاني من المرض والعلة ، والتي يجب أن يشفق عليها دائماً...

ضغط إرلند قبضتيه على قلبه . كأنما كان توقف عن النبض وهو قابع هناك يرتجف من الخوف في صدره . كان يتوق إلى مغادرتها! حين فكر فيما ستمر هي به ، وهي في تلك الحالة من الضعف والعجز كما هي الآن... فقد كان الأمر على وشك أن يجري في أي لحظة ، كما كان يعرف... كأنما كان مخنوقاً من الخوف . لو فقد كريستين... لم يكن يعرف كيف سيتحمل العيش دونها .

ولكنه ما كان قادراً أيضاً على تحمل العيش معها… ليس الآن . لا بد له من الابتعاد عن ذلك كله ، وأن يتنفس بحرية مجدداً… كأنما كانت حياته في خطر أيضاً .

أيها المسيح ، يا مخلّصي… أوه ، أي نوع من الرجال كان هو . لقد رأى الليلة الأمر بوضوح… كريستين حبيبته الحلوة العزيزة… لم يعرف أبداً المتعة الحقيقية القلبية معها ، إلا في تلك الأيام حين كان يضلّلها على طريق الخطيئة .

و كان يعتقد بكل ثقة أن اليوم الذي سيكسب فيه كريستين ويتزوجها أمام الرب والإنسان… أن ذلك اليوم سيمحو الشر بكامله من حياته حتى أنه سينسى أنه قد وجد على الإطلاق .

يبدو أنه من النوع الذي لا يستطيع احتمال ما هو خير ونقي إلى القرب منه . أما بالنسبة إلى كريستين… أجل ، بما أنها نجت من الخطيئة واللاطهارة بعد أن قادها إليهما ، فقد كانت ملاكاً من سماء الرب . رقيقة وموثوقة ، مهذبة ، دؤوبة وتستحق الشرف . لقد أعادت الشرف إلى هوسابي مجدداً . لقد أصبحت مجدداً ما كانت عليه في تلك الليلة الصيفية حين أوت روحها الشابة العذراء الطاهرة تحت عباءته هناك في حديقة الدير وكان قد فكر ، وهو يشعر بالجسد الشاب الرشيق إلى جانبه بأن الشيطان نفسه ما كان سيجد في قلبه القدرة على إيذاء هذه الطفلة أو أن يسبب لها الأسى…

جرت الدموع على وجه إرلند .

…إذن لا بدّ أن الأمر صحيح ، وأن ما كان يقوله له الكهنة من أن الخطيئة كانت تأكل روح الإنسان كالصدأ… فهو لم يعد يعرف الراحة أو

السلام هنا مع حبيبته الحلوة... وهاهو يتوق إلى أن يبتعد عنها وعن كل ما له علاقة بها...

كان قد بكى حتى كاد أن ينام حين لاحظ أنها قد نهضت من الفراش وكانت تمشي في أنحاء الغرفة وهي تهدهد وتناغي الطفل .

قفز إرلند من السرير متعثراً في العتمة بأحذية الأطفال التي على الأرض ، ووصل إلى زوجته وأخذ غاوته منها . صرخ الطفل عالياً وقالت كريستين بحزن :

"كنت قد جعلته يغفو تقريباً" .

هز الأب الطفل الزاعق ، ضربه على ظهره بضع مرات... وحين زعق الطفل بصوت أعلى أمره بالسكوت بصوت قاس إلى حد أن غاوته صمت فجأة من الرعب . لم يسبق له في حياته أن مرّ بمثل هذه التجربة...

"بحق الرب يا كريستين ، استخدمي ما تبقى لديك من فطنة" . بدا أن حدة عنفه قد جردته من كل قوة وهو واقف هنا في الغرفة المعتمة ، عارياً ، مرتجفاً ونصف مستيقظ ، مع طفل باك بين ذراعيه . "لا بد من وضع حد لهذا ، كما أقول لك... ولم كل تلك المربيات من حولك ؟... لا بد أن ينام الأطفال معهن . لا يمكنك الاستمرار هكذا ."

"ألا تستطيع أن تسمح لي أن يكون أطفالي معي فيما تبقى لي من وقت ؟" أجابت زوجته بصوت باك خفيض .

ما كان إرلند ليفهم ما تعنيه .

"فيما تبقى من وقت أنت في حاجة إلى الراحة . اضطجعي الآن يا كريستين ." هكذا رجاها بلهجة ألطف .

أخذ غاوته إلى سريره... هدهد للطفل قليلاً ثم تلمس في العتمة حتى وجد حزامه على درج السرير . راحت القشور الفضية التي تزينه ترن وتصلصل بينما راح الصبي يلعب بها .

سألته كريستين بخوف من سريرها : "هل الخنجر في الحزام ؟" وانطلق غاوته بنواح جديد حين سمع صوت أمه . أسكته إرلند مجدداً وجعل الحزام يصلصل ثانية... وأخيراً استسلم الطفل وهدأ .

يا للصغير البائس المسكين ، ربما ما كان المرء يتمنى له أن يعيش حتى يكبر... فقد كان أمراً غير أكيد أن غاوته يتمتع بكامل قواه العقلية .

أوه ، كلا ، كلا ، كلا... يا مريم العذراء المقدسة... لم يكن يعني ذلك... لم يكن يتمنى أن يموت ابنه الصغير . كلا ، كلا... حمل إرلند الطفل بين ذراعيه ووضع وجهه على الشعر الدافئ الأزغب .

أولادهما الوسيمون... ولكنه قد ملّ من سماع ذلك صبحاً ومساء ، من التعثر بهم كلما ذهب إلى البيت . أن يتمكن الثلاثة الصغار من أن يتواجدوا في كل الأماكن في آن واحد في ضيعة كبيرة كهذه كان أمراً يفوق فهمه . ولكنه تذكر غضبه الحارق من إلين لأنها كانت تزعج نفسها قليلاً بولديهما . لم يكن هو بالرجل العادل... فقد كان حانقاً الآن لأنه لم يعد يرى كريستين في أي مكان دون أطفال يحومون من حولها .

لم يعرف أبداً ، حين كان يحمل أبناءه المولودين حديثاً بين ذراعيه ، ما يعادل ذلك الشعور الذي انتابه لأول مرة حين وضعوا أورم بين ذراعيه . أوه يا أورم يا أورم ، يا بنيّ... كان منهكاً جداً من إلين حتى ذلك الحين... التي كان قد أمرضها العناد والغضب وحبها الذي لا تستطيع السيطرة عليه . كان قد لاحظ أنها كانت أكبر منه سناً بكثير . وكان قد بدأ يفهم ما سيكلفه

جنونه . ولكنه كان قد فكر هكذا : ما كان قادراً على التخلي عنها... بما أنها كانت قد خسرت كل شيء لأجله . كان مولد الصبي قد منحه ، كما فكر ، سبباً يدعوه إلى تحمل الأم على نحو أقوى . كان صغير السن إلى حد كبير حين أصبح أباً لأورم حتى أنه لم يفهم تماماً ما سيكون عليه وضع الطفل... مع أم هي زوجة رجل آخر .

غلبه البكاء مجدداً وضم غاوته إليه على نحو أوثق . أورم... لم يحبب أياً من أطفاله كما أحب أورم... كان يفتقده كثيراً ويندم بمرارة شديدة على كل كلمة قاسية ومتعجلة قالها له . ما كان ممكناً لأورم أن يعرف كم أحبه أبوه . كانت كل تصرفاته نابعة من مرارته ويأسه ، حين بدأ يرى بوضوح أن أورم لن يعتبر أبداً ابنه الشرعي ، كما لن يحق له أبداً أن يحمل درع أبيه وشارته . ومن الغيرة أيضاً وهو يرى ابنه يصبح على علاقة أوثق بزوجة أبيه من علاقته به ، وكذلك أن معاملة كريستين اللطيفة العادلة للشاب بدت له وكأنها تقريع .

ثم جاءت الأيام التي لا يحتمل تذكرها . كان أورم راقداً في العلية في قش الموتى ووصلت النساء وأبلغنه أنهن لا يعتقدن أن كريستين تستطيع أن تنجو من مرضها . ثم حفروا قبر أورم عند المصلى ، وسألوا إن كانوا سيوارون كريستين هناك أو هل سيأخذ جثمانها إلى كنيسة القديس غريغوري ليدفن حيث دفن أبوه وأمه .

أوه ولكن... عند هذا أمسك أنفاسه خوفاً . كانت وراءه حياته كلها ، المترعة بذكريات كان يهرب منها لأنه لم يكن قادراً على تحمّل التفكير بها . والآن رآها في هذه الليلة... ربما يستطيع أن ينسى نوعاً ما ، ضمن الزمالة اليومية مع رفاقه . ولكنه لم يكن قادراً على حماية نفسه منها حين

تحضر إليه في ساعة كهذه... ثم يبدو له وكأن تعويذة شريرة قد سرقت منه كل شجاعته .

•

تلك الأيام في هاوغن... كان غالباً ما ينجح تقريباً في نسيانها . لم يكن قد ذهب إلى هاوغن منذ تلك الليلة التي غادرها فيها مع بيورن . وهو لم ير بيورن وآشيلد منذ يوم زفافه . كان يخشى من مقابلة السير بيورن . والآن... فكر بما حكاه له السير مونان... كان يقال إنهما يتمشيان هناك... لقد أصبحت هاوغن مسكونة بالأشباح إلى حد أن المساكن كانت فارغة . ما كان هناك أحد ليسكن هناك الآن ، حتى لو مُنح المزرعة مجاناً .

كان بيورن غونارسون يتمتع بنوع من القسوة كان إرلند يعرف أنه ما كان يستطيع الوصول إليها . كانت يده ثابتة حين طعن زوجته (آشيلد)... في القلب تماماً ، كما قال مونان .

مع حلول الشتاء القادم سيكون قد مضى عامان على وفاة بيورن والليدي آشيلد . لم ير الناس دخاناً يخرج من منزلهما في هاوغن لمدة أسبوع . وأخيراً تجرأ بعض الرجال وذهبوا إلى هناك . كان السير بيورن متمدداً في السرير مذبوحاً من العنق . وكان يمسك بجسد زوجته بين ذراعيه . أمام السرير على الأرض كان خنجره الدامي .

لم يشك أحد بكيفية حصول ما حصل... ومع ذلك فإن مونان باردسون وأخاه رتّبا الأمور بحيث يتم دفن الاثنين في أرض مقدسة... وقد قيل إن اللصوص قد يكونون الفاعلين ، رغم أن الصندوق الذي يحوي متاع بيورن وآشيلد كان سليماً لم يمس . لم تكن الجثتان قد مستا من قبل الجرذان أو

الفئران... والحقيقة هي أن مثل هذه المخلوقات الضارة لم تكن موجودة في هاوغن... وكان الناس يفهمون هذه الأمارة على أنها برهان أكيد على مهارة الليدي في فن السحر .

لقد تأثر مونان باردسون كثيراً بنهاية أمه هذه . وقد انطلق مباشرة في رحلة حج إلى مقام القديس جيمس أوف كومبوستيلا .

تذكر إرلند ذلك الصباح بعد ليلة موت أمه مباشرة . لقد رموا المرساة داخل "مولدوي ساوند" ، ولكن الضباب الأبيض كان سميكاً إلى درجة أنهم ما كانوا قادرين على أن يلمحوا الجدار الصخري الذي كانوا قابعين تحته إلا للحظات قصيرة بين الفينة والأخرى . لكنه كان يعطي صدى مكبوتاً للأصوات الجوفاء مع تحرك الزورق بالمجاذيف نحو اليابسة مع الكاهن . وقف في المقدمة وراقبهم وهم يبتعدون عن السفينة . كل الأشياء التي اقترب منها كانت رطبة من الضباب . كانت الرطوبة تشكل حبات من الخرز على شعره وملابسه ، وجلس الكاهن الغريب وقندلفته في مقدمة المركبة وقد جثما رافعين أكتافهما فوق الأدوات المَقدسة الموضوعة في حضنهما . ظهرا كصقرين في طقس ماطر . كان صوت ضربات المجاذيف وصرير مساند المجذاف والصدى من الجرف الصخري يصل كله ضعيفاً بعد أن غاب الزورق في الضباب .

ثم نذر هو على نفسه أن يقوم برحلة حج . كانت لديه فكرة واحدة فحسب... أن عليه أن يرى مجدداً وجه أمه الجميل العذب كما كان في القديم... مع البشرة الناعمة الصقيلة ذات اللون الأسمر الفاتح . كانت تتشقق وينز منها قطرات صغيرة صافية من الرطوبة حين كانت تحاول أن تبتسم له...

هل كانت تلك غلطته في أن أباه قد قابل عودته بمثل هذا الأسلوب ؟ أو هل حوّله آنئذ إلى منبوذ مثله ؟ وبعد كل هذا رمى بعيداً بفكرة الحج من ذهنه ولم يعد يفكر بأمه بعدها . ورغم أن أمورها كانت رديئة على الأرض فربما وجدت السلام حيث هي الآن... ولكنه لم يعرف سوى القليل من السلام بعد أن التجأ إلى إلين مجدداً...

السلام... ولكنه لم يعرفه في حياته سوى مرة واحدة... في تلك الليلة حين جلس خلف السور الحجري باتجاه الغابات عند هوغفين ، وضم كريستين في حجره ، وهي تنام ذلك النوم الرقيق الآمن المتواصل الطفولي . ولم يستطع أن يمنع نفسه من مقاطعة هذا الهدوء لفترة طويلة . ولم يكن السلام هو الذي وجده معها منذ ذلك الحين... أو يجده الآن . رغم أنه رأى كل الآخرين في بيته قد وجدوا السلام مع زوجته الشابة .

كان توقه الوحيد الآن هو الذهاب إلى النضال مجدداً . كان يتوق بجنون إلى تلك الصخرة المقفرة النائية ، إلى البحر الهادر من حول تلك الرؤوس الشمالية ، إلى الشاطئ اللامتناهي ، والأزقة البحرية الهائلة حيث ستنتظره كل الخدع والمكائد ، إلى الناس الذين كانوا ينطقون بلغة لا يعرف منها إلا شذرات ، إلى أعمالهم السحرية وليونتهم وخدعهم الزلقة ، إلى الحرب والبحر وأغنية أسلحة رجاله وسلاحه...

و أخيراً أغفى ، ولكنه استقيظ مجدداً... ما الذي كان يحلم به ؟ أجل بالفتيات اللابلانديات السمراوات... شيء نسيه جزئياً وقد جرى له حين كان في الشمال مع غيسور... ليلة عاصفة جنّ فيها الجميع من الشراب .

و ها هو مضطجع هنا مع ابنه الصغير المريض بين ذراعيه ويحلم مثل تلك الأحلام... لقد أصبح يخشى نفسه حتى أنه لم يتجرأ على محاولة النوم بعد

ذلك . ولم يستطع تحمل أن يبقى متمدداً وهو مستيقظ . أجل ، لا بد أنه رجل بائس تعيس... كان متيبساً من الخوف ، حين تمدد دون تحرك وأحس بقلبه يدق في صدره ، بينما راح يتوق للفجر كي يحرره .

•

أقنع كريستين بالبقاء في سريرها في اليوم التالي ، فهو قد شعر أنه لن يتحمل أن يراها تجرجر نفسها في أنحاء المنزل... في مثل ذلك البؤس . جلس إلى القرب منها وعبث بيدها . كانت لها سابقاً أجمل ذراعين... رشيقتان إنما شديدتا الالتفاف حتى أن العظام الصغيرة الدقيقة عند المفاصل الرشيقة لم تكن تظهر . والآن كانت هذه بارزة مثل عقد على الذراعين النحيلتين اللتين كانت البشرة في الجانب السفلي منهما أكثر ميلاً في لونها إلى الزرقة منها إلى البياض .

في الخارج كانت الريح تعصف والمطر يهطل حتى بدأ الماء ينزل في جداول من منحدرات الجبال . في إحدى المرات ، خلال النهار ، وبينما هو نازل من غرفة الأسلحة ، سمع غاوته يزعق في مكان ما في الساحة . في الممر الضيق بين بنائين وجد أولاده الثلاثة الصغار جالسين في وسط المياه النازلة من الأسطح . كان ناكفه يمسك الصغير بشدة ، بينما راح بيورغولف يحاول أن يقحم دودة أرض حية في فمه... كان يده مليئة بالديدان الوردية اللون المتلوية .

قال ناكفه فخوراً بمعرفته مفتاح اللغز : "أمنا ستضع أختنا الصغيرة ، هذا هو السبب في مرضها" . شدّ إرلند أذن الصبي حتى جلس على ركبته :

"أجل... وحين تولد أختك هذه ، سأجعل عجوزي اللابلاندية ترمي

سحرها عليكم أنتم الثلاثة ، وسوف تتحولون إلى دببة بيضاء وتهيمون في الغابات . ولكن ابنتي الصغيرة سترث كل متاعي وأملاكي ."

زعق الأطفال ، ثم صعدوا إلى سرير أمهم… لم يفهم غاوته ما يحدث ، ولكنه زعق أيضاً وزحف ليبقى مع أخويه . عنّفت كريستين زوجها… مثل هذا المزاح غريب . ولكن ناكفه خرج مجدداً –و في موجة من الضحك والخوف اندفع نحو أبيه ، تعلق بحزامه وراح يعض له يديه ، مع زعقات وصرخات الفرح .

•

لم يحصل إرلند على البنت التي كان سيسعده الحصول عليها في هذه المرة أيضاً . لقد وضعت له كريستين صبيين كبيري الحجم ووسيمين ، ولكنهما كادا يكلفانها حياتها .

و قد عمد إرلند أحدهما باسم إيفار غييسلينغ والآخر باسم الملك سكوله . لم يكن اسم سكوله وارداً في سلالته… ولقد قالت الليدي راغنفريد إن أباها كان رجلاً سيئ الحظ ، وكان يفضل بالتالي أن يغفل اسمه . ولكن إرلند أقسم أن أياً من أبنائه لا يحمل اسماً أدعى إلى التفاخر من هذا الاسم ، وكان ذاك أصغر أبنائه .

و هكذا مضى الخريف الذي كان على إرلند فيه أن ينطلق شمالاً ما أن تكون كريستين قد مرت بأسوأ مراحل الخطر . وقد فكر في قلبه أن عليه أن يرحل قبل أن تنهض على قدميها من جديد . خمسة أبناء في خمس سنوات… كان هذا كافياً لأي رجل . وكان يكره أن يكون لديه سبب للخوف من أن تموت خلال الوضع بينما هو عالق في فارغوي .

لقد لاحظ أن كريستين كانت من الرأي نفسه نوعاً ما . لم تعد تهمهم بأن كان ينوي تركها وحيدة . كانت تعتبر كل طفل مع مجيئه كهدية ثمينة من الرب ، كما أن المتاعب التي يجلبها الطفل معه أمور عليها أن تتحملها دون تذمر . ولكن في هذه المرة وصلت الأمور إلى حد مخيف في قسوته حتى أن إرلند رأى وكأن قلبها كله قد انتزع منها . كانت تضطجع هناك ، بوجه أصفر كالطين ، وتنظر إلى كومتي القماط إلى القرب منها ، وعيناها ليستا سعيدتين كما كانتا حين نظرتا لأول مرة إلى الأبناء الآخرين .

مضى إرلند في ذهنه عبر الرحلة شمالاً بأكملها وهو جالس إلى القرب منها . ستكون رحلة قاسية ، في ذلك الوقت المتأخر جداً من فصل الخريف ، وغريبة ستكون مع حلول الليل الطويل هناك . ولكنه كان تواقاً للرحيل إلى حد لا يوصف . هذا الرعب الأخير على زوجته قد حطم كل المقاومة في روحه... لقد استسلم مسلوب الإرادة إلى هذا التوق إلى الهروب من البيت .

٤

استلم إرلند نيكولاوسون منصب قائد قلعة فارغوي والقيّم على المستنقعات الشمالية لمدة سنتين تقريباً . وخلال هذه الفترة لم يصل جنوباً إلى أبعد من بياركوي ، وذلك لمرة واحدة حين عقد لقاء مع السير إرلينغ فيدكونسون هناك . في الصيف الثاني كان إرلند في الشمال . فقد توفي همينغ ألفسون أخيراً ، وعين إرلند حاكماً[١٢] على مقاطعة أوكدولا بدلاً عنه . وقد ذهب هافتور غراوت شمالاً ليتسلّم مكانه في فارغوي .

كان إرلند رجلاً سعيداً حين أبحر جنوباً بعد أيام من قداس مريم في الخريف . كان ذاك علاجاً لشرفه تمناه طوال هذه السنوات... أي أن يمنح منصب الحاكمية الذي كان لأبيه ذات مرة . ولا يعني هذا أنه كان يسعى إلى هذا الهدف بفطنة وذكاء . ولكن كان يبدو له دائماً أن هذا هو ما يحتاج إليه ، حتى يحلّ في المكان الذي ينتمي إليه عن حق... وذلك في نظره ونظر أقرانه . والآن لم يعد يهمه لو اعتبره الرجال غير مشابه للآخرين ، أي للنبلاء الذين يبقون في بيوتهم... فلم يعد هناك عيب في هذا اللاتشابه بعد الآن .

و كان يتوق للذهاب إلى بيته . كانت الأمور أهدأ في فينماركن مما

توقعها هو . حتى الشتاء الأول كان ممضاً له... لقد جلس هناك في القلعة متكاسلاً ، ولم يفعل أي شيء في ذلك الفصل لإصلاح وترميم التحصينات . كانت الأمور قد وضعت في نصابها قبل سبعة عشر عاماً ، ولكنها أصبحت الآن خراباً .

ثم جاء الربيع والصيف ، ومعهما الحياة والنشاط ، الاجتماعات هنا وهناك في الأزقة البحرية مع محصلي الضرائب النرويجيين ونصف النرويجيين وزعماء القبائل في الأراضي العالية . راح إرلند يطوف البحار والأزقة البحرية بسفينته ويسلي نفسه كأفخم ما تكون التسلية . في الجزيرة تم ترميم الأبنية وتدعيم التحصينات . ولكن في العام التالي لم يكن قد تبقى الكثير من العمل .

لا شك أن هافتور سيعتني بالأمر دون شك بحيث أن الهدوء لم يدم طويلاً . ضحك إرلند . كانا قد أبحرا معاً شرقا حتى تريانيما تقريباً ، ثم نال هافتور هناك امرأة لابلاندية روسية وعاد بها . كان إرلند قد كلّمه بجدية : عليه أن يتذكر أن هناك حاجة ماسة إلى أن يفهم الوثنيون أننا نحن السادة... ولهذه الغاية ، ومع وجود مجرد حفنة من الرجال لدينا ، فإن على المرء أن يحرص على عدم إثارة المشاكل دون داع . لا يجب التورط في نزاعات اللابلانديين ولو ذبحوا أحدهم الآخر . على المرء أن يتركهم يستمتعون بتلك السعادة في سلام . ولكن كن مستعداً دائماً للانقضاض كالصقر على الروس والكولبياغ وأي قوم آخرين مهما كانت الأسماء التي يدعون أنفسهم بها . وعليك ترك النساء في سلام... وهناك سبب واحد على الأقل هو أنهن ساحرات ، كل واحدة منهن... وهناك سبب آخر أيضاً... إنهن يعرضن أنفسهن... ولكن على الشاب غودوي أن يدير شؤونه كما يشاء . وسوف

يتعلم مع مرور الوقت . كان هافتور مرحاً لتحرره من مزارعه وزوجته ، والآن كان إرلند راغباً في العودة إلى بيته . كان لديه توق صحيح ومبارك لكريستين وهوسابي وريفه وكل أولاده... لكل الأشياء في بيته حيث كانت كريستين .

في لينغسفيورد سمع أنباء عن سفينة تحمل بعض الرهبان على متنها . وقد قيل إنهم "أخوة وعاظ" من نيداروس ، كانوا متجهين شمالاً ، وقد صمموا على زرع الدين الحقيقي بين الوثنيين والهراطقة من سكان المستنقعات .

أحس إرلند في داخله أن غونولف كان بينهم . وقد كان حدسه صحيحاً ، فبعد ثلاث ليال كان يجلس وحيداً مع أخيه في كوخ طيني في مزرعة نرويجية صغيرة تقع قرب الشاطئ حيث التقيا .

•

تأثر إرلند على نحو غريب . كان قد حضر القداس وتناول السر المقدس مع طاقمه... وكانت هذه هي المرة الوحيدة منذ أن وصل هنا إلى الشمال ، باستثناء تلك المرة حين كان في بياركوي . كانت الكنيسة في فارغوي دون كاهن باستثناء قندلفت تُرك في القلعة وكان يحاول جاهداً أن يذكّرهم بالأيام المقدسة ، وباستثناء ذلك لم تكن هناك سوى مؤونة ضئيلة لأرواح النرويجيين في تلك المناطق الشمالية . بل كان عليهم أن يواسوا أنفسهم بفكرة أنهم كانوا في حملة صليبية من نوع ما ، لذلك ما كانوا سيُحاسبون بشدة على خطاياهم .

جلس يحدث غونولف عن هذا ، وراح أخوه يصغي بابتسامة نائية غريبة

على شفتيه العريضتين الرقيقتين . بدا عليه وكأنه كان دائماً يمصّ شفته السفلية قليلاً ، كما قد يفعل شخص ما وهو يفكر بشدة بمسألة من المسائل ، وهو قريب من فهمها ، ولكنه لم يصل بعد إلى وضوح كامل في أفكاره .

كان الليل على وشك الانقضاء . وكان الآخرون في المزرعة ينامون في الكوخ . كان الأخوان على علم بأنهما الوحيدان اللذان لا يزالان مستيقظين . وقد كانا كلاهما متأثرين بغرابة جلوسهما هناك... وحدهما .

كان هدير البحر والعاصفة يصل إليهما مكتوماً ومخففاً بسبب الجدران الطينية . بين الحين والآخر كانت هبة ريح تقحم نفسها إلى الداخل فتجعل الجمرات في المدفأة تتوقد وتجعل لهب مصباح زيت الحوت يتراقص قليلاً . لم يكن هناك من أثاث في الكوخ . جلس الأخوان على المقعد الترابي الواطئ الذي كان يحيط بالجوانب الثلاثة من الغرفة ، وبينهما كان لوح غونولف الخاص بالكتابة ، وفيه قرن الحبر وريشة الكتابة ولفافة ورق . كان غونولف يكتب بين الحين والآخر ما يقوله أخوه عن أماكن اللقاء والمزارع المستوطنة وعلامات الإبحار وإشارات الطقس وكلمات باللغة اللابلاندية... وفق تدفق الكلمات في ذهن إرلند . كان غونولف آمر السفينة المسماة "سونيفا" ، فقد اختار "الأخوة الواعظون" اسم القديسة سونيفا لتكون القديسة الحامية لبعثتهم .

"أجل ، إن كنتم لن تلاقوا مصير سليمان نفسه" ، (انظر الهامش رقم ٨ من الجزء الأول من هذه الثلاثية) ، قال إرلند وابتسم غونولف مجدداً .

تابع إرلند يقول : "تسميني بالقَلِق ، ولكن ما يمكن أن أسميك أنت ؟ أولاً تذهب لتتجول في البلاد الجنوبية طوال تلك االسنوات ، وما أن تعود

إلى الوطن حتى تدير ظهرك للحياة والكهنوت وتنطلق لتعظ الشيطان وعفاريته كلها في مكان ناء في الشمال في فيليا . وأنت لا تعرف لغتهم ولا يفهمون هم لغتك . أعتقد أنك أكثر قلقاً مني ."

قال الراهب : "ليس لديّ أملاك ولا أسرة أُسأل عنها . لقد تحررت من كل رابط ، ولكنك مرتبط يا أخي ."

"أجل . إنه الرجل الحر الذي لا يملك شيئاً ."

أجاب غونولف :

"كل الأشياء التي يملكها المرء تقيده أكثر مما يقيدها هو ."

"كلا بحق الرب ، ليس الأمر هكذا على الإطلاق . صحيح أن كريستين تقيدني ، ولكن ليس في ذهني أن أجعل أراضيّ وأطفالي يتملكونني ."

قال غونولف بصوت خفيض : "لا تفكر على هذا النحو يا أخي . فقد تخسرهم بسهولة ."

"كلا ، لست أفكر في أن أصبح مثل كل أولئك الرجال الآخرين... أن أغرق حتى أذنيّ في وحل أراضيّ" ، قال إرلند ضاحكاً ، ومن جديد ابتسم أخوه مجدداً .

قال : "لم أر طفلين أجمل من إيفار وسكوله . أعتقد أنك كنت تبدو مثلهما حين كنت في سنهما... ولا عجب أن أمنا أحبتك كثيراً ."

وضع كل أخ يده على لوح الكتابة الذي كان بينهما . وحتى تحت النور الخافت لمصباح زيت الحوت ، فقد كان ممكناً ملاحظة عدم التشابه بين يدي هذين الرجلين . كانت يد الراهب خالية من الخواتم وكل الزينة ، بيضاء وقوية العصب ، أصغر وأدق صنعاً من يد الرجل الآخر ، وتبدو أقوى نوعاً

ما... رغم أن قبضة إرلند كانت قاسية كالقرن في الكف ، وذات ندبة زرقاء بيضاء من جرح بسهم شق اللحم الداكن من الرسغ حتى الكم . ولكن أصابع اليد الضيقة السمراء الملوحة بالشمس ، الجافة وذات العقد عند المفاصل فكانت كأغصان الشجر ومغطاة بالخواتم الذهبية والمطعمة بالأحجار الكريمة .

كان سيسعد إرلند أن يمسك بيد أخيه ، ولكنه خجل من فعل ذلك... لذلك استمر يشرب وهو يقلب وجهه اشمئزازاً من الجعة الرديئة .

سأله إرلند بعد برهة : "هل بدت لك كريستين في صحة جيدة وحال حسنة من جديد ؟"

"أجل ، كانت تزهو كوردة حين كنت في هوسابي في الصيف" ، قال الراهب مبتسماً قليلاً . ثم انتظر قليلاً وقال بجدية : "هناك شيء واحد أرجوه منك يا أخي... أن تفكر أكثر بصالح كريستين والأطفال مما فعلت حتى الآن . وأن تشاورها وتبتّ في الصفقات التي وافقت هي وسيرا آيليف عليها . إنهما ينتظران موافقتك لإبرامها ."

قال إرلند متردداً : "لا أحب كثيراً خططها هذه التي تتحدث عنها... كما أن وضعي الآن سيكون مختلفاً عما كان سابقاً..."

أجاب الراهب : "ستكون أملاكك أثمن حين تضمان عقاراتكما معاً . أعتقد أن آراء كريستين كانت حكيمة حين حكت لي عن القضية ."

قال إرلند : "أعتقد جازماً أنه لا توجد امرأة في أرض النرويج أكثر حرية منها في توجيه الأمور حسب إرادتها" .

أجاب الراهب : "في النهاية أنت الذي سيوجه الأمور . وأنت... توجه كريستين أيضاً كما تريد" ، أضاف بصوت خفيض .

ضحك إرلند برقة ، في حلقه ، ثم تمدد وتثاءب . ثم قال فجأة وهو صاح :

"لقد وجّهتها أنت أيضاً في بعض الأحيان يا أخي . وأتساءل إن لم تكن نصائحك قد كادت تفسد ودّنا ."

"أتعني الودّ بينك وبين زوجتك أو الود بيننا نحن الأخوين ؟" قال الراهب ببطء .

قال إرلند : "كلاهما ." وكأنها كانت فكرة خطرت له للتو . "ليس ضرورياً لامرأة عادية أن تكون متديّنة إلى هذا الحد" ، وقد قال هذا بلهجة أرق .

"لقد منحتها مشورتي حسب ما اعتقدت أنه الأفضل . كما هو الأفضل حقاً ." وهنا صحّح نفسه .

نظر إرلند إلى الراهب في الرداء الرمادي الأبيض الخشن الخاص "بالأخوة الواعظين" والقلنسوة السوداء مجذوبة نحو الخلف ، لذلك كانت تقبع في طيات كثيفة حول العنق وفوق الكتفين . كانت قمة رأسه حليقة الآن حتى أنه لم يعد بها سوى حاشية ضيقة من الشعر حول الوجه المستدير النحيل والشاحب... ولكن الشعر بدا سميكاً وأسود شأنه في أيام يفاعة غونولف .

"أجل ، لست أخي الآن ، على ما أعتقد ، أكثر من كونك أخاً لكل البشرية" ، قال إرلند وهو يتعجب من المرارة العميقة في صوته .

"ليس الأمر كذلك... رغم أنه يجب أن يكون كذلك ."

قال إرلند : "فليساعدني الرب إذن... أعتقد تقريباً أنك ستذهب لتقيم بين اللابلانديين بسبب ذلك" .

أحنى غونولف رأسه . كان هناك وميض في عينيه الصفراوين البنيتين .

"الأمر كذلك إلى حد ما" ، قال بصوت خفيض وبسرعة .

نشرا الجلود والسجاجيد التي جلباها معهما . كان البرد قارساً ومؤلماً في الكوخ بحيث لم يكن ممكناً خلع ملابسهما ، فتمنى أحدهما للآخر ليلة طيبة واضطجعا على المقعد الطيني الذي كان يرتفع قليلاً عن الأرض لتجنب الدخان الذي كان يحوم فوقه .

تمدد إرلند مفكراً بالأنباء التي وصلته من البيت . لم يكن قد سمع الكثير خلال السنتين الماضيتين : وصلته رسالتان من زوجته ، ولكنهما كانتا قديمتين جداً حين استلمهما . كان سيرا آيليف هو من كتبهما لها : فهي كانت تتقن الكتابة على نحو واضح وجميل ، ولكنها كانت تكره الكتابة ، حيث أنها لم تكن تبدو إلا بالكاد أمراً ملائماً لامرأة غير متبحّرة في العلم .

لا شك أنها أصبحت أكثر تديناً الآن مع بناء معبد جديد في أبرشيتهما المجاورة ، وقد كُرس المعبد لرجل عرفته خلال حياتها بنفسها... ومع شفاء غاوته من مرضه هناك وعودة العافية إليها مجدداً بعد أن كانت عليلة منذ ولادتها للتوأمين . لقد حكى له غونولف أن "الأخوة الواعظين" في هامار قد اضطروا أخيراً لإعادة جثمان إدفين ريكاردسون إلى أخوته في أوسلو ، وكان هؤلاء الآن يقومون بكتابة سجل كامل عن الأمور المتعلقة بسيرة حياة الأخ إدفين والمعجزات التي قيل أنه حققها في حياته وبعد مماته . كانوا ينوون إرسال هذا الكتاب إلى البابا ، ويحاولون تطويب هذا الراهب . لقد ذهب بعض الفلاحين من غاودال ومدالدال جنوباً وشهدوا على العجائب التي حققها الأخ إدفين في أبرشياتهم بشفاعته وبواسطة الصليب الذي كان قد نحته ، والذي كان موجوداً الآن في ميدالهاوس . لقد قرروا بناء كنيسة صغيرة في

فاتسفييلد ، حيث عاش بعض فصول الصيف كناسك ، وحيث كان نبع شاف للأمراض يعود الفضل فيه إليه . لذلك منحوا يداً من جثمانه ليحتفظ بها كذخر مقدس في الكنيسة .

أهدت كريستين كوبين من الفضة والمشبك الضخم المطعم بالحجارة الزرقاء الذي ورثته عن جدتها لأمها ، أولفهيلد هارفاردسداتر ، وجعلت تيدكن باوس ، أحد الصاغة في المدينة ، يصنع يداً فضية منها لتحمل عظام يد الأخ إدفين وأصابعه . وقد ذهبت إلى فاتسفييلد مع سيرا آيليف وأطفالها والكثير من الأتباع حين قام كبير الأساقفة بتقديس الكنيسة في موسم قداس القديس جون في السنة التي تلت رحيل إرلند إلى الشمال .

بعد هذا عادت عافية غاوته إليه بسرعة ، فقد تعلم المشي والنطق : لقد أصبح الآن مثل أترابه . مطمط إرلند جسده... لا شك أنها كانت أعظم فرحة يمكن أن تحل بهم أن غاوته عاد إلى صحته . سيمنح بعض الأرض إلى تلك الكنيسة . كان غاوته وسيماً كما قال غونولف ، وجميل الوجه كأمه . من المؤسف أنه ليس بنتاً... عندها كانوا سيدعونها ماغنهيلد . أجل... كان راغباً الآن في مشاهدة كل أبنائه الوسيمين...

أما غونولف نيكولاوسون فكان مضطجعاً يفكر بذلك اليوم الربيعي قبل ثلاث سنوات ، حين انطلق نحو هوسابي على جواده . فعلى الطريق قابل رجلاً من الضيعة وقال إن السيدة ليست في المنزل ، بل كانت تعود امرأة مريضة .

عبر بجواده ممراً معشباً ضيقاً بين أسيجة قديمة من القضبان . كانت هناك أشجار مورقة صغيرة تغطي الضفاف الطينية ، من فوقه وإلى الأسفل نحو النهر الذي كان يجري هناك في القعر هادراً بطوفان الربيع . سار باتجاه

الشمس ، وراحت الأوراق الخضراء الرقيقة تشع مثل الذهب على الأغصان ، ولكن بعد أن توغل في الغابة كان الظل بارداً وعميقاً على المرج المعشوشب .

ظل متابعاً الركوب حتى لمح البحيرة ، التي كانت إلى الأسفل وتعكس كالمرآة الشاطئ الأبعد إنما على نحو معتم ، والسماء كلها زرقاء وصورة غيوم الصيف الخضراء وقد تكسرت وتغضنت بأمواج التيار . تحت الممر الخاص بالجياد كانت مزرعة تقوم على المنحدرات الخضراء المنثورة بالزهور . كانت مجموعة من ربات البيوت ذوات الأغطية البيضاء على الرؤوس يقفن في الساحة ، ولكن لم تكن كريستين بينهن .

بعد قليل شاهد حصانها ، كان حراً في بقعة مسيجة مع أحصنة أخرى . انخفض الممر أمامه متحولاً إلى تجويف مليء بالظل الأخضر ، وحيث كان الممر يلتف عند المنحدر الثاني من الضفاف الطينية كانت هي واقفة قرب السياج تحت الأوراق تصغي إلى أغنية الطيور . شاهد شكلها الرشيق المرتدي السواد منحنياً فوق السياج باتجاه الغابة . غطاء الرأس والذراع كانا بيضاوين فحسب . لجم حصانه واتجه نحوها بسرعة المشي على الأقدام . ولكنه حين اقترب رأى أنه كان مجرد جذع شجرة بتولا عجوز وقد انتصب هناك .

في مساء اليوم التالي ، حين أبحر به خدمه نحو المدينة ، كان الكاهن نفسه عند دفة المركب . شعر بأن قلبه راسخ وأنه قد ولد من جديد في صدره . لا شيء يمكنه الآن أن يثنيه عن هدفه .

لقد عرف آنذاك أن ما كان يعيقه ويبقيه في هذه الدنيا هو التوق الذي لا يرتوي والذي حمله في جوفه منذ يفاعته... التوق لكسب محبة الناس .

حتى يكون محبوباً كان كريماً ولطيفاً ومرحاً مع صغار الناس . لقد ترك نور العلم يضيء ، ولكن بكل تواضع واعتدال ، بين الكهنة في المدينة ، حتى يحبوه . لقد كان مطيعاً للورد آيليف كورتين بما أن كبير الأساقفة كان صديقاً لأبيه ، وكان يعرف كيف يحب اللورد آيليف ممن هم من حوله أن يتصرفوا . كان لطيفاً وودوداً مع أورم ليكسب القليل من حب الصبي الذي كان يكنه لأبيه ذي المزاج المتقلب . وكان صارماً وقاسياً مع كريستين لأنه كان يعرف أنها في حاجة إلى شيء لا ينهار حين تتشبث به طلباً للدعم . شيء لا يضللها حين تتقدم مستعدة لتلحق به .

و لكنه فهم في تلك الأمسية... كان قد نشد أن يكسب ثقتها فيه أكثر من نشدانه أن يقوي ثقتها بالرب...

لقد وجد إرلند الكلمة هذه الليلة . لست أخي أكثر من كونك أخاً لكل البشرية . كان ذلك هو الدرب الذي عليه أن يسير فيه قبل أن يفيد حبه الأخوي أي شخص .

بعد أسبوعين كان قد وزع ممتلكاته بين أقربائه والكنيسة ، واتخذ لباس "الأخ الواعظ" المنذور . وفي الربيع الماضي ، حين كانت كل الأرواح قد اهتزت بعمق جراء المصيبة المروعة التي حلت بالبلاد... كانت الصاعقة قد ضربت كنيسة المسيح في نيداروس والتهمت نصف مبنى القديس أولاف... كان غونولف قد كسب دعم كبير الأساقفة من أجل خطته القديمة . وهاهو الآن مع الأخ أولاف يونسون الذي كان كاهناً منذوراً شأنه ، وثلاثة رهبان شبان ، أحدهم من نيداروس واثنان من "دير الواعظين" في بيورغفين ، يبحرون شمالاً لإيصال نور "الكلمة" إلى الوثنيين البؤساء الذين كانوا يعيشون ويموتون في ظلام دامس ضمن حدود البلاد المسيحية .

أيها المسيح ، أنت أيها المصلوب ، لقد تخليت عن كل ما يمكنه أن يقيدني . لقد وضعت نفسي بين يديك ، فهل تتفضل بقبول حياتي لشراء منزل الشيطان مجاناً . خذني على نحو أشعر معه أني عبدك ، فهكذا سأعرفك... وهكذا قد يغني قلبه ويصرخ في صدره كما غنى وانتشى حين عبرنا السهول الخضراء عند روما بورغ ، من كنيسة حج إلى أخرى... "أنا ملك محبوبي وله رغبتي..."

اضطجع الأخوان ، كل على مقعده في الكوخ الصغير ، وكلاهما يفكران ويفكران حتى أغفيا . كانت هناك جمرة متقدة في الموقد بينهما راحت تومض على نحو ضعيف . وقد دفعتهما أفكارهما بعيداً الواحد عن الآخر . وفي اليوم التالي انطلق أحدهما شمالاً والآخر جنوباً .

•

كان إرلند قد وعد هافتور غراوت بالإبحار من حول غودوي لاصطحاب أخت هافتور معه جنوباً . كانت متزوجة من ثورولف أسولفسون أوف لنسفيك... وكان هذا أيضاً قريباً لإرلند ، ولكنها قرابة بعيدة .

في صباح اليوم الأول ، حين توقفت السفينة "مارغيغرن" في غودوي ساوند ، وشراعها ينتفخ على خلفية الجبال الزرقاء في النسيم اللطيف ، وقف إرلند على السطح وأولف هالدورسون عند الدفة . صعدت الليدي سونيفا إلى متن السفينة . كانت قد أسدلت قلنسوة عباءتها وراحت الريح تدفع غطاء رأسها الكتاني إلى الخلف كاشفة عن شعرها الأشقر المجعد الذهبي كشعاع الشمس . كانت لها عينان زرقاوان بلون البحر مثل عيني أخيها ، كما كانت مثل أخيها جميلة المحيا ، إنما كان النمش كثيفاً على وجهها ويديها الصغيرتين المدملجتين .

منذ المساء الأول حين رآها في غودوي كانت عيونهما قد تقابلت ثم نظر كل واحد منهما جانباً ، وابتسامة خفية على كل من الوجهين... كان إرلند واثقاً أنها عرفته وأنه عرفها... سونيفا أولافسداتر... كان قادراً على امتلاكها بيديه الفارغتين وكانت هي تنتظر منه ذلك .

و الآن وبينما هو واقف ويدها في يده -كان قد ساعدها على الصعود- فقد حدث أن نظر إلى وجه أولف الخشن الأسمر . كان أولف يعرف ذلك أيضاً ، كما استطاع أن يلاحظ . كان مرتبكاً على نحو غريب من نظرة الرجل . وتذكر في لمحة كل ما عرفه هذا القريب والخادم عنه طوال حياته... كل زاوية دفعته إليها حماقته منذ أن كان يافعاً وحتى الآن . لم يكن هناك مبرر لأولف أن ينظر إليه بكل هذا الاحتقار... هكذا واسى نفسه... وكأنه أراد أن يكون أكثر تحرراً في سلوكه مع السيدة ممّا يسمح به الشرف . كان في سن ناضجة بما فيه الكفاية الآن ، وكان حكيماً بما فيه الكفاية من كثرة ما أحرق أصابعه ، حتى يتحرر في هالوغالاند دون أن ينزلق في عمل من أعمال الحماقة الخالية من الحكمة مع زوجة رجل آخر . فهو نفسه لديه زوجة الآن... وقد كان مخلصاً لكريستين منذ أول يوم رآها وحتى الآن... أما الحادثة أو الحادثتان اللتان جرتا بعيداً في الشمال فليس هناك رجل يمكنه أن يأخذهما في الاعتبار . ولكنه لم ينظر إلى أي امرأة أخرى باشتهاء . كان يعرف الأمر هو بنفسه... مع امرأة نرويجية... من المحتد النبيل نفسه علاوة على ذلك... لا ، لن يعرف راحة البال ولو لساعة واحدة لو كان سيخون كريستين على هذا النحو . ولكن هذه الرحلة البحرية جنوباً وهذه المرأة على متن السفينة... قد يكون الأمر خطيراً .

و قد ساعده في الأمر أن طقساً عاصفاً واجههم على امتداد الشاطئ ،

لذلك كان منهمكاً في عمل آخر غير العبث مع السيدة . في "دينوي "اضطروا للتوقف واللجوء إلى مأوى ، والتوقف هناك في المرفأ لأيام عدة . وبينما كانوا هناك حدث شيء جعل الليدي سونيفا أقل إغراء بكثير في نظره .

كان إرلند مع أولف ورجل آخر أو اثنين ينامون في الكوخ نفسه حيث كانت تنام هي وخادماتها . في صباح أحد الأيام كان وحيداً هناك ولم تكن الليدي قد نهضت من فراشها بعد . نادته وقالت إنها فقدت أحد خواتمها في السرير . وقد التفت الواحد منهما تجاه الآخر الآن ، ثم خلال البحث ، وفي كل مرة كانت هناك ابتسامة كامنة في عيونهما... ولكن حين أمسكت به... أجل ، لم يكن هو شديد الاحتشام ، ولكن الزمان والمكان لم يكونا ملائمين... ولكنها كانت شديدة الجرأة والوقاحة حتى أنه أصبح قاسياً وبارداً فجأة . وبوجه مضرج من الخجل أشاح بنظره بعيداً عن وجهها الضاحك والشهواني ، ثم حرر نفسه بعذر سخيف ، وخرج وأرسل إليها خادماتها .

لا ، ليأخذها الشيطان ، لم يعد هو شاباً صغيراً إلى حد أن يقع في الشرك بكل هذه السهولة . أن يقوم هو نفسه بالخداع مسألة تختلف عن أن يكون موضع خداع . ولكنه لم يستطع مغالبة الضحك... هاهو واقف هنا ، وكان قد هرب للتو من امرأة جميلة ، مثل "يوسف العبراني" ذاك! أجل ، تحدث أمور غريبة في البحر والبرّ .

كلا... ليدي سونيفا... آه ، لم يستطع سوى أن يتذكر واحدة ، امرأة عرفها . لقد ذهبت إلى لقاء معه في منزل مخصص لمواعيد الجنود والسفهاء ، وكانت قد جاءته بخجل وورع كما هو شأن عذراء شابة من منبت ملكي في طريقها إلى القداس . التقيا في الغابات والحظائر... فليسامحه الرب ، فقد نسي محتدها الأصيل وشرفها . كما نسيتهما هي لأجله ، ولكنها

لم تستطع أن ترميهما بعيداً عنها . كان دمها يغلي وينطق عنها ، حتى حين لم تكن تفكر بالأمر .

ليباركك الله يا كريستين... فليساعدني الرب ، لقد منحتك عهدي سراً أمام المذبح ، وهذا العهد سأحافظ عليه طالما بقيت رجلاً . فليكن الأمر كذلك .

أنزل الليدي سونيفا بعد ذلك بفترة قصيرة في إرجار ، حيث لديها أقارب هناك . وأفضل ما في الأمر أنها لم تبد شديدة الغضب أيضاً حين افترقا . لم تكن هناك حاجة إلى إحناء رأسه والاستغراق في التفكير كالرهبان... فقد مارس الكثير من اللعب والمرح على الطريق . عند الفراق قدم لليدي بعض الجلود الثمينة لصنع عباءة منها ، وقد وعدته بأنه سيراها وهي ترتدي تلك العباءة . كانا سيلتقيان مجدداً دون شك وثم... يا للمرأة المسكينة ، فزوجها كان مريضاً ولم يعد شاباً...

و لكنه كان سعيداً لعودته إلى البيت إلى زوجته ولم يكن في ذهنه شيء يخفيه عنها . كما كان فخوراً بصموده الراسخ . كان توقه إلى كريستين شديداً إلى حد الدوار والجنون . كانت أحلى وأجمل الورود والليلك على أي حال... وكانت ملكاً له .

•

كانت كريستين عند المرفأ لتستقبل إرلند حين وصل إلى بيرغسي وكان صيادو السمك قد أوصلوا الأنباء إلى "فيغ" بأن "مارغيغرين" قد شوهدت عند "إرجار" . كان معها أكبر ولدين من أولادها ومارغريت ، أما في البيت في هوسابي ، فقد كان الجميع منهمكين في الاستعداد لإقامة وليمة كبرى للأصدقاء والأقرباء بمناسبة عودة إرلند سالماً .

كانت قد أضحت جميلة إلى حد أن إرلند حبس أنفاسه حين رآها . ولكن كانت قد تغيرت أيضاً وهذا صحيح . لقد زالت عنها تلك الملامح الطفولية التي كانت تعود إليها بعد الإبلال من كل نفاس ، وكذلك المظهر الرقيق الهش الأشبه بمظهر الراهبات تحت غطاء رأس السيدات المتزوجات . كانت زوجة وأماً شابة ومتوردة . وكان خداها مستديرين وأحمرين بين طيتي غطاء رأسها البيضاوين . أما صدرها فكان عامراً وقاسياً تلتمع فوقه السلاسل ودبابيس الزينة ، وفخذاها أكثر استدارة وامتلاء تحت حزام المفاتيح والحقيبة المذهبة الحاوية للسكين والمقص . أجل ، أجل ، لقد أضحت أجمل ، وبدت صعبة المنال على من يريدون أن يطيروها بكل سهولة إلى السماء كما من قبل . حتى اليدين الطويلتين النحيلتين أصبحتا أكثر امتلاء وأشد بياضاً .

توقفوا في "فيغ" لقضاء الليل ، في بيت القس هناك . وكانت كريستين شابة ومتوردة ومرحة ورقيقة وتشع بالسعادة حين ذهبت معه هذه المرة إلى المأدبة في هوسابي ، حين ذهبا إلى البيت في اليوم التالي .

كانت هناك مسائل خطيرة كثيرة عليها أن تحكيها لزوجها حين وصل إلى البيت . وكان هناك ألف مسالة تتعلق بأولادها . وكذلك هواجس تتعلق بمارغريت . كما كانت هناك خططها لجعل الأملاك تستعيد حالتها الطبيعية . ولكن كل هذا ضاع في زحمة الجو الاحتفالي .

راحا يحضران الوليمة إثر الأخرى ، ورافقت هي الحاكم خلال جولاته . كان إرلند قد عين المزيد من الخدم في هوسابي ، فقد كانت هناك دائماً رسائل ومكاتيب تمر بينه وبين مأموريه ونوابه . طوال الوقت كان إرلند مرحاً ومتهوراً كعادته... كيف لا يكون هو الرجل المناسب لمنصب الحاكم ،

كما راح يسأل ، وهو الذي خالف كل قانون من قوانين البلاد والكنيسة ؟ ما يتم تعلمه بصعوبة يتم تذكره جيداً!... كان الرجل ذا بديهة سريعة وحاضرة ، فقد تعلم جيداً في صغره ، وهذا أمر مفيد له الآن . لقد اعتاد أن يقرأ رسائله بنفسه ، وقد اتخذ من شخص آيسلندي كاتباً له . حتى الآن كان من عادته وضع خاتمه على كل ما يقرأه له الآخرون بصوت مرتفع ، وكان يكره دائماً أن ينظر إلى سطر كتابة واحد... وقد لمست كريستين ثمرة هذا خلال سنتين ، فقد اطلعت على كل الأوراق المحفوظة في خزانة الوثائق خاصته .

و لكن بدأ طيش ما ينتاب كريستين لم تكن قد خبرته من قبل . أصبحت أكثر حيوية وأقل هدوءاً في سلوكها حين تكون بين غرباء... فهي تشعر بنفسها أنها جميلة جداً ، وكانت في صحة جيدة ونضرة لأول مرة منذ أن تزوجت . وفي الليالي كان إرلند وهي ينامان في سرير غريب في علية إحدى ضيع الناس الكبار أو في قاعة مزرعة ، فيضحكان ويهمسان ويمزحان حول الأشخاص الذين تقابلا معهم ، ثم ينكتان حول الأنباء التي سمعاها . كان لسان إرلند أكثر فلتاناً من قبل وبدا الناس كأنهم يحبونه أكثر من أي وقت مضى .

لقد رأت ذلك في أطفالها... كانوا مصعوقين من الفرح حين كان أبوهم يلاحظ وجودهم بين الفينة والأخرى . لم يكن ناكفه وبيورغولف يفعلان أي شيء الآن سوى اللعب بالأقواس والسهام والفؤوس وما شابهها من الأسلحة . وقد يحدث أحياناً أن يتوقف أبوهم خلال عبوره الساحة ، فينظر إلى ألعابهم ويصححها : "ليس هكذا يا بنيّ... أمسك بها هكذا ."... كان يبدّل مسكة القبضة الصغيرة ويضع الأصابع في مكانها الصحيح . وحين يحدث مثل هذا ، كانوا يفرحون إلى حد كبير .

كان الولدان الأكبر سناً لا يفترقان . كان بيورغولف الأكبر حجماً والأقوى من كل الأطفال ، بطول ناكفه الذي يكبره بسنة ونصف سنة وأقوى منه . كان له شعر مجعد أسود فاحم . أما وجهه الصغير فكان عريضاً إنما وسيم . أما العينان فزرقاوان داكنتان . في أحد الأيام سأل إرلند الأم بخشية نوعاً ما إن كانت تعرف أن بيورغولف لا يعاني من ضعف في بصر إحدى عينيه... وأنه كان أحول إلى حد قليل جداً أيضاً . قالت كريستين إنها لا تعتقد بوجود ما هو على غير ما يرام . ويبدو أنه حين يكبر سيتخلص من ذلك . ما جرى أن هذا الطفل كان أقل الأطفال تطلباً للاهتمام... لقد ولد حين كانت منهكة من إرضاع ناكفه ، وتبعه غاوته مباشرة . كان الأقوى بين الأطفال ، وبدا أنه الأذكى ، ولكنه كان شديد الصمت . كان إرلند يفضل هذا الطفل على البقية .

و رغم أنه لم يوضح الأمر لنفسه ، فقد كان غاضباً قليلاً من ناكفه لأن الصبي ولد قبل أوانه ، ولأنه سمي باسم جده (لأبيه) . وكان غاوته أقل مما توقعه... فالصبي له رأس كبير وكان هذا منطقياً ، فلمدة سنتين كان رأسه الشيء الوحيد الذي ينمو فيه... والآن كان جسمه وأعضاؤه تعوض عن هذا النقص في النمو . كان ذكاؤه جيداً بما فيه الكفاية ، ولكن نطقه كان بطيئاً ، إذ لو تحدث بسرعة لبدأ يلثغ أو يفأفئ ، ثم كانت مارغريت تقلده ساخرة . كانت كريستين شديدة الولع بهذا الصبي رغم أن إرلند كان قادراً على أن يرى أن الولد البكر كان ما يزال الأغلى عندها... ولكن غاوته كان مريضاً جداً وكان يشبه أباها نوعاً ما بشعره ذي اللون الشبيه بلون التبن وعينيه الرماديتين الداكنتين ، وكان دائم التعلق بملابس أمه . كان ميالاً إلى الوحدة قليلاً ، بين الصبيين الأكبر سناً واللذين كانا معاً طوال الوقت ، والتوأمين اللذين كانا صغيرين جداً بعد حتى أنهما كانا دائماً مع المربيات .

كان لدى كريستين وقت أقل الآن للعناية بأطفالها ، فقد اضطرت إلى القيام بأعمال تزيد عما تقوم بها النساء الأخريات وراحت تترك الخادمات يعتنين بهم... ولكن الطفلين الأكبر سناً كانا يجولان في أنحاء المكان بين الرجال على المزرعة كنوع من الاختيار . لم تعد تفكر بهم بالحنان القديم المبالغ فيه ، ولكنها كانت تضحك وتلعب معهم أكثر حين يكون لديها الوقت لتجمعهم من حولها .

في السنة الجديدة وصلت إلى هوسابي رسالة مختومة بختم لافرانس بيورغولفسون . كانت مكتوبة بخط يده وأرسلت بواسطة بواسطة كاهن أوركيدال الذي كان في الجنوب... لذلك تأخرت شهرين . كان أهم نبأ أوصلته الرسالة هو أنه وافق على خطبة رامبورغ لسايمون أندرسون أوف فورمو . وقد حدد موعد الزواج في الربيع ، في موسم عيد الصليب .

كانت دهشة كريستين كبيرة إلى حد لا يقاس ، ولكن إرلند قال إنه ظن أن الأمور ستجري على ذلك النحو منذ أن سمع أن سايمون دار قد ترمّل ، وأنه عاد ليعيش في ضيعته في "سيل" بعد وفاة السير أندرس غودمونسون العجوز .



٥

كان سايمون دار قد نظر إلى المسألة على أنها بديهية حين اتفق أبوه مع لافرانس بيورغولفسون على خطبة ابنته له . ضمن عائلته كانت العادة هي ترك مثل هذه المسائل بين أيدي الآباء . كان سعيداً حين رأى أن عروسه جميلة ومهذبة إلى ذلك الحد . ولم يكن يتطلع بالفعل إلى ما هو أكثر من أن يكون على علاقة ودية جيدة مع الزوجة التي اختارها له أبوه . كان هو وكريستين متلائمين من حيث السن والمحتد والثروة... ولو كان لافرانس من عائلة أعلى قدراً إلا أن أباه كان فارساً وممّن يتواجدون كثيراً في صحبة الملك هاكون ، بينما عاش لافرانس متقاعداً في ضيعته على الدوام . كما كان سايمون قد لاحظ أن الأزواج المتساوين من حيث المقام والثروة تكون زيجاتهم موفقة .

ثم جاءت تلك الليلة في العلية في فينغسبريكن... حين راحت الألسن الشريرة تلوك شرف الفتاة الشابة البريئة . من تلك الساعة عرف جيداً أن كريستين كانت أعز على قلبه من مجرد خطيبة يشعر نحوها بالحب كواجب . لم يفكر كثيراً في المسألة... ولكنه كان سعيداً . لقد رأى أن الفتاة كانت خجولة وخفرة ، ولكنه لم يفكر كثيراً في هذه المسألة أيضاً . ثم

جاءت تلك الحوادث في أوسلو حين اضطر إلى إعادة التفكير في الأمر... ثم ذلك المساء في عليّة فلوغا .

لقد اصطدم هنا بشيء لم يكن يفكر أنه قد يحدث في هذا العالم... لأناس شرفاء من عائلة جيدة وفي هذا الزمن . لقد حرّر نفسه من هذه الروابط بعد أن لم يعد يتمكن من أن يرى طريقه وكان مذهولاً... رغم أنه من حيث المظهر كان بارداً وهادئاً وثابتاً حين تحدث عن الأمر مع أبيه وأبيها .

و هكذا خالف عادات بيته . ثم لقد قام بشيء آخر لم يُسمع به ضمن عائلته : خطب الأرملة الشابة الغنية في ماندفيك دون التشاور مع أبيه . لقد ذهل حين رأى أن الليدي هالفريد قد أحبته... كانت أشد ثراء وأعلى محتداً بكثير من كريستين ، فهي حفيدة البارون توره هاكونسون أوف تونسبرغ ، وأرملة السير فين أسلاكسون... وكانت جميلة وذات مظهر راق ونبيل ، حتى أن كل النساء اللواتي كان معتاداً على رؤيتهن رحن يظهرن في عينيه أشبه بزوجات المزارعين . وباسم الشيطان سيري الجميع أنه قادر على الحصول على أكثر الزوجات نبلاً . فمن حيث الثروة وكل شيء آخر كانت تبزّ كريستين التي سمحت لسمعتها بأن تُلطخ . وكانت أرملة -هذا أيضاً حسن- أمر معروف ودون حاجة إلى إخفائه- فقد يثق الشيطان نفسه بالعذارى بعد الآن ولكن ليس هو .

لقد تعلم أن العيش في هذا العالم ليس بالأمر البسيط المباشر كما كان يظن وهو بعد في بيته في دايفرين . فهناك كان أبوه يتحكم بالأمور كلها ، وكانت أحكامه على حق . صحيح أن سايمون كان ضمن الحرس الشخصي (للملك) وقد خدم كوصيف (للملك) لفترة من الفترات ، كما أنه اكتسب بعض المعرفة من كاهن أبيه في البيت ، إلا أنه كان يعتبر حكمة أبيه بين

الحين والآخر متخلّفة عن زمنها . كان يغامر أحياناً بمخالفته أيضاً -و لكن ذلك كان مزاحاً ويعتبر كنكتة- فسايمون شاب سريع البديهة ، كما كان يقول والده وأمه ضاحكين ، وكذلك أخوته وأخواته الذين ما كانوا يخالفون قط السير أندرس . ولكن الأمور كلها كانت تتم حسب ما يراه أبوه... وكان سايمون نفسه يعتبر أن هذا هو المنطق .

في السنوات التي عاشها كزوج لهالفريد إرلينغداتر وهو يسكن في ماندفيك راح يتعلم كل يوم على نحو أشد شمولية بأن الحياة قد تكون أكثر عناداً والتواء مما قد سبق للسير أندرس غودموندسون أن حلم به .

أما ألاّ يكون سعيداً مع الزوجة التي نالها... فهذه فكرة ما كان يمكن أن تخطر له في بال . في أعماق تفكيره كان يتلبّث تعجب حزين حين كان ينظر إلى زوجته وهي تتحرك في أرجاء المنزل طوال النهار... كانت جميلة جداً بعينيها اللطيفتين والفم الذي كان رائعاً جداً وخاصة حين تنطبق الشفتان... لم يسبق له أن رأى امرأة ترتدي أثوابها وحليها بكل تلك الرشاقة . وفي عتمة الليل كان كرهه لها يبلي كل شبابه ونضارته... كانت مريضة ، وكانت أنفاسها عليلة ، كما كانت مداعباتها له تعذبه . كانت طيبة جداً إلى حد أنها كانت تشعره بعار يائس... ولكنه لم يستطع أن يتغلب على كرهه لها .

ثم عرف بعد أن مرّ وقت ليس بالطويل على زفافهما أنها لن تستطيع أن تنجب له طفلاً حياً صحيح الجسم . وقد رأى أنها حزينة لذلك أكثر منه... وكان يحز في قلبه أن يفكر بمصيرها في ذلك الأمر . لقد سمع أشياء عنها : كان الأمر هكذا لأن السير فين قد ضربها ورفسها أكثر من مرة حين كانت زوجته ، لذلك فقد أجهضت . كان مجنوناً من الغيرة على زوجته الشابة الجميلة . كان من شأن عائلتها أن تستردها منه ، ولكن هالفريد اعتبرت أن على الزوجة المسيحية أن تتشبث بزوجها في السراء والضراء .

و لكن إن لم يرزق بأولاد منها ، فإن عليه دائماً أن يشعر ، كما يشعر الآن ، بأنهما كانا يسكنان في أرضها ، وأنه كان يدير ثروتها . لقد أدار لها ثروتها بحكمة وتروٍ . ولكن خلال كل هذه السنوات نما في خاطره توق إلى "فورمو" ، الضيعة التي كانت إرث أم السير أندرس ، وكانت ستؤول إليه بعد موت أبيه . وأخيراً أصبح يعتبر أن بيته كان هناك بعيداً في الشمال في غودبراندسدال ، وذلك أكثر ممّا هو في رومريك .

استمر الناس في مناداة زوجته بالليدي هالفريد ، كما كانت عليه الحال في أيام زوجها الأول ، الفارس . وكان هذا يجعل سايمون يشعر أنه مجرد وكيل للأملاك في "ماندفيك" .

•

لقد حدث في أحد الأيام أن كانا جالسين لوحدهما في القاعة ، سايمون وزوجته . كانت إحدى الخادمات قد دخلت إلى القاعة لغرض ما . تابعتها هالفريد بنظرها وهي تغادر .

قالت : "أتساءل... أخشى أن جورون حامل هذا الصيف ."

جلس سايمون وقد وضع قوساً في حجره وهو يصلح قفله . غيّر العزقة ثم نظر إلى علبة النابض وقال دون أن يرفع بصره :

"أجل ، والطفل طفلي ."

صمتت زوجته . حين رفع بصره إليها أخيراً ، كانت جالسة تخيط ، وقد انهمكت في عملها كما كان هو منهمكاً في عمله .

كان سايمون حزيناً لأنه أهان زوجته وكذلك من حماقته لتورطه مع

الفتاة ، وغاضباً لأنه تحمل مسؤولية الأبوة . لم يكن واثقاً من ذلك إطلاقاً . فجورون كانت فتاة رخيصة سهلة كما كان يعرف جيداً . وفي الحقيقة فإنه لم يحببها كثيراً . كانت بشعة وذات لسان حاد ، كما كانت مرحة في حديثها . كانت هي التي تسهر لأجله كلما كان يعود إلى البيت متأخراً خلال الشتاء الأخير . لقد أجاب بسرعة شديدة خشية أن تشكو زوجته وتضع اللوم عليه . كان خوفه أخرق . كان عليه أن يعرف أن هالفريد ما كانت لتنزل إلى مستوى مثل تلك الشكاوى . ولكن بعد أن جرى ما جرى لم يعد ممكناً له التراجع عما قاله . عليه أن يتحمل مسؤولية أبوة طفل الخادمة سواء كان هو الأب أم لم يكن .

لم تتحدث هالفريد مجدداً عن المسألة إلا بعد مرور سنة . ثم حدث في أحد الأيام أن سألت إن كان يعرف أن جورون كانت ستتزوج في بورغ . كان سايمون على علم بذلك ، فقد منحها البائنة بنفسه . أين سيتم وضع الطفلة ؟ سألت زوجته . ستبقى مع جديها لأمها حيث هي الآن ، أجاب سايمون . ثم قالت :

"أعتقد أنه سيكون أكثر ملاءمة لك أن تنمو ابنتك في ضيعتك ."

"أتعنين في ضيعتك ؟" سألها سايمون .

سرت رجفة صغيرة في وجه الليدي .

قالت : "تعرف جيداً يا زوجي أننا طالما كنا على قيد الحياة معاً فإنك السيد هنا في ماندفيك" .

ذهب سايمون ووضع يديه على كتفي زوجته :

"إن كنت تظنين حقاً يا هالفريد أنك قادرة على تحمل رؤية الطفلة هنا في بيتنا ، فسأكون ممتناً جداً لقلبك الكبير ."

لم يحبب ذلك . كان قد رأى الطفلة أكثر من مرة . لم تكن طفلة جميلة ، ولم ير أنها تشبهه أو تشبه أحداً من أقربائه . لم يعد مقتنعاً أبداً بأنه أبوها . وقد كان غاضباً إلى حد كبير حين سمع أن جورون قد عمّدت الطفلة باسم "آرنغييرد" وهو اسم أمه ، دون أن تأخذ منه الإذن بذلك . ولكن عليه أن يترك هالفريد تفعل ما تريده .

أحضرت الطفلة إلى ماندفيك ، ووجدت لها مربية ، ورتبت لها أمورها بحيث لا ينقصها شيء . فكلما وقعت عيناها على الطفلة كانت تأخذها دائماً في حضنها وترعاها بلطف ومحبة . وبالتدريج ومع مشاهدة سايمون للطفلة أكثر فأكثر ، فقد أصبح مولعاً بها... فقد كان يحب الأطفال كثيراً . والآن راح يفكر أيضاً أنه يستطيع أن يرى شبهاً بين أرنغييرد وأبيه . كأنما كانت جورون حكيمة بما فيه الكفاية حتى تسلك سلوكاً حسناً بعد أن تقرب منها السيد... إذن ، فقد تكون إنغييرد ابنته فعلاً ، وما فعله بناء على طلب هالفريد كان الأسلوب الأفضل والأشرف .

بعد زواجهما بخمس سنوات ، أنجبت هالفريد ابناً لزوجها ، طفل كامل الخلقة . لقد طرأ عليها تحول كبير من الفرح ، ولكنها مرضت مرضاً شديداً بعد الولادة حتى لقد بات واضحاً أنها ستموت لابدّ . ومع ذلك كانت شديدة السعادة فهي قد عادت إلى طبيعتها الأصلية لفترة من الزمن . "ستتابع العيش هنا الآن يا سايمون كسيّد ، وسوف تسلم ماندفيك وكل أراضينا إلى أولادك وأولادي" ، قالت لزوجها .

بعد هذا ارتفعت حرارتها كثيراً من الحمى حتى أنها لم تعد واعية ، ولم تحزن أيضاً وهي لا زالت فوق أديم الأرض ، لسماعها بأن ابنها مات قبل أمه بيوم واحد . وفي الدنيا الأخرى ، فكر سايمون ، لن تشعر على الأرجح

بحزن على مثل هذه الأمور ، بل ربما ستكون سعيدة لوجود ابنهما إرلينغ معها .

تذكر سايمون لاحقاً أنه ، في ليلة سجي فيها الجثمانان في العلية ، وقف متكئاً على سياج حقل عند شاطئ البحر . لقد حدث ذلك قبل موعد قداس القديس جون ، وكان الليل صافياً إلى حد أن نور البدر كاد يُكسف . كان الماء يلمع هناك بشحوب ، كما راح يرش الشاطئ ويتدفق عليه . لم يكن سايمون قد نام أكثر من ساعة بالكاد ، منذ ليلة مولد الصبي -بدا له الآن أن هذا حدث منذ زمن طويل- وكان منهكاً جداً حتى أنه ما كان إلا بالكاد قادراً على الشعور بالحزن .

كان في السابعة والعشرين من عمره آنذاك .

•

بعد انقضاء شطر كبير من الصيف ، وحين انتهت تسوية مسائل الإرث ، نقل سايمون ملكية مندفيك إلى "ستيغ هاكسونسون" ابن عم هالفريد . ثم انتقل إلى دايفرين وقضى فيها الشتاء .

كان السير أندرس طريح الفراش وهو يعاني من مرض الاستسقاء وأمراض وأوجاع كثيرة أخرى . كانت نهايته قد أضحت وشيكة وكان كثير الأنين والشكوى... فالحياة لم تكن بالنسبة إليه بسيطة ويسيرة في هذه الأيام الأخيرة . كما لم تكن الأمور تجري كما يجب مع أولاده الوسيمين المحبوبين كما أرادها لهم وبذل جهده في سبيل ذلك . راح سايمون يجلس إلى جوار أبيه ويحاول جاهداً أن يعيد إليه لهجة المزاح التي كانت من دأبه في الماضي... ولكن الرجل العجوز كان يئن دون توقف . إن هيلغا

ساكسسداتر التي تزوجها غيرد كانت رائعة إلى حد أنها لم تكن تعرف ما هي الحماقات التي سترتكبها تالياً... لم يكن غيرد ليجرؤ على أن يتجشأ في بيته دون أن يطلب موافقة زوجته . أما تورغريم هذا فهو دائم القلق حول بطنه... ما كان يجب أن يتزوج تورغريم هذا من ابنته ، لو كان يعرف أن الرجل بائس إلى هذا الحد بحيث لا يستطيع الاستمرار في الحياة ولا الموت . أما آستريد فهي لا تستمتع بشبابها ولا بثروتها طالما كان زوجها على قيد الحياة . وها هي سيغريد المحطمة والحزينة... بعد أن غادرتها الابتسامة ونسيت الغناء ، تلك الابنة الطيبة . وأن ترزق بذلك الطفل... وسايمون دون أولاد! كان السير أندرس يبكي ، فهو رجل عجوز تعيس ومريض . أما غودموند فرفض كل محاولة من أبيه لاختيار عروس له . وأصبح الآن عجوزاً لا نفع فيه بينما ترك ابنه يعيش حياة لا رادع فيها...

و لكن سوء الطالع كله بدأ حين راح سايمون وخطيبته من "ديل" يعارضان والديهما . وكان اللوم يقع على لافرانس... فهو رغم أنه معروف بشجاعته بين الرجال ، فقد كان جباناً أمام نساء بيته . لا شك أن الفتاة تباكت وزعقت حتماً... وفوراً استسلم هو ووافق على تزويجها من مُعاشر البغايا ذاك القادم من تروندهايم والذي لم يستطع الانتظار حتى تصبح خطيبته زوجة شرعية له . ولكن لو كان لافرانس سيداً في بيته ، فإن أندرس دار ، كان سرعان ما سيظهر قدرته على وضع عقل ما في رأس ابنه... ذلك الجرو الأمرد . لقد أنجبت كريستين لافرانسداتر الكثير من الأولاد... ابن صحيح قوي كل أحد عشر شهراً ، كما كان قد انتهى إلى سمعه...

قال سايمون ضاحكاً : "أجل ، ولكن لهذا ثمن باهظ يا أبي . سيتم تقسيم الإرث على نحو يدعو إلى الحزن ." حمل أرنغييرد ووضعها على حضنه... كانت دخلت إلى الغرفة وهي تتمايل في مشيتها .

"أجل ، لن يتوزع إرثك من خلالها هي (يقصد ابنة سايمون) إلى أجزاء صغيرة جداً... كائناً من كان ذاك الذي سيقسمه" ، قال السير أندرس بنزق . كان مولعاً بحفيدته نوعاً ما ، ولكن كان يغضبه أن سايمون كانت له ابنة ذات مولد وضيع . "هل فكرت بالزواج مجدداً يا سايمون ؟"

"كلا ، عليك أن تترك هالفريد تبرد في قبرها أولاً يا أبي" ، قال سايمون ، وهو يربت على شعر الطفلة فاتح اللون . "سأتزوج ثانية في الوقت الملائم... ولكن لا داعي للعجلة الآن ."

أخذ قوسه وأدوات التزلج وانطلق إلى الغابات حيث يستطيع أن يتنفس بحرية أكبر . ومع كلابه راح يطارد الأيائل فوق القشرة الثلجية ، وراح يطلق أسهمه على طيور الطهيوج النائمة فوق أعالي الأشجار . في الليل نام في سايتر غابة دايفرين ، وشعر بالراحة لأنه كان وحيداً .

سمع صوت احتكاك لمزلجة على الثلج القاسي . بدأت كلابه بالنباح ، وأجابت الكلاب من بعيد . فتح سايمون الباب ليرى ليلاً أزرق من نور القمر ، ودخل أخوه الأكبر غيرد ، طويلاً ورشيقاً ووسيماً وهادئاً . بدا أصغر سناً من سايمون الآن ، الذي كان بديناً نوعاً ما طوال عمره وأصبح الآن أكثر بدانة بعد تلك السنوات التي قضاها في ماندفيك .

جلس الأخوان وبينهما حقيبة الطعام ، وراحا يأكلان ويشربان ويحدقان إلى نار المدفأة .

قال غيرد : "لا بد أنك لاحظت أن تورغريم يريد أن يبذر الشقاق بيننا ما أن يرحل والدنا عن هذه الدنيا... وهو قد كسب غودموند إلى جانبه . وكذلك هيلغا . وهم يودون حرمان سيغريد من حصة كحصة أختها الكاملة..."

"لقد لاحظت ذلك . ستنال حصتها الكاملة... أما أنت وأنا يا أخي ، فنستطيع أن نتدبر الأمر رغماً عنهم ."

قال غيرد : "ربما كان من الأفضل أن يرتب والدنا الأمور قبل أن يموت ."

قال سايمون : "كلا ، فلندع والدنا يرحل في سلام . سنكون أنت وأنا قادرين على حماية أختنا وأن نمنعهم من حرمانها لأنها ذات حظ عاثر ."

•

و هكذا حدث أنه لدى وفاة السير أندرس دار أن افترق ورثته وهم على خلاف مرير . كان غيرد هو الوحيد الذي ودعه سايمون حين انطلق مبتعداً عن بيته... وكان يعرف أن الحياة التي يعيشها غيرد تحت إمرة زوجته ليست بالحياة السعيدة . وقد اصطحب سيغريد معه إلى فورمو... كان عليها أن تدير له بيته ويشرف هو على أراضيها وأملاكها .

دخل ضيعته في يوم أزرق رمادي من الثلوج الآخذة بالذوبان ، حين كانت غابات جار الماء عند لاغن بنية اللون من الأزهار . وحين هبط عن حصانه ودخل القاعة ، وأرنغييرد على ذراعه ، قالت سيغريد أندرسداتر :

"لم ابتسمت يا سايمون ؟"

"ابتسمت... ؟"

كان يفكر كم كانت هذه العودة إلى البيت مختلفة عما كان يتطلع إليه ذات مرة... حين سيحين الوقت له ليتخذ له سكناً هنا في الضيعة التي كانت

لجدته لأبيه . ها هي أخته وقد ضيّعت شرفها وطفلته غير شرعية ، هاتان هما أسرته الآن .

•

في الصيف الأول لم ير سكان يورونداغارد إلا لماماً... كان يبذل أقصى جهده ليتجنبهم .

و لكن في يوم الأحد التالي على قداس مريم الثاني في الخريف ، حدث أن وقف إلى جانب لافرانس بيورغولفسون في الكنيسة ، حتى كان عليهما أن يمنح الواحد منهما الآخر قبلة السلام حين صلى السيرا آيريك متوسلا ازدياد سلام الكنيسة المقدسة فينا . عندما أحس بشفتي الرجل العجوز الرقيقتين اليابستين على وجهه ، فقد تأثر إلى حد كبير . لقد لاحظ أن لافرانس كان يعني من قبلته ما هو أكثر من مجرد ممارسة عادة قديمة من عادات الكنيسة .

أسرع بالخروج حين انتهى القداس . ولكنه قابل لافرانس عند مربط الخيل ثانية وقد رجاه هذا أن يصطحبه إلى يورونداغارد ليشاركه في وجبة الغداء . أجاب سايمون بأن ابنته مريضة وأن أخته كانت تمرضها . دعا لافرانس الرب أن يشفي الطفلة . ثم صافحه مودعاً .

في إحدى الأمسيات بعد ذلك اللقاء بعدة أيام ، كان العمل جارياً في فورمو للانتهاء من الحصاد ، فقد بدا الطقس مريباً . كان معظم القمح قد وضع في المخازن مع حلول المساء وذلك حين هطلت أول زخة مطر . ركض سايمون عبر الساحة تحت المطر المنهمر ، بينما راح شعاع من نور الشمس من بين الغيوم يتلألأ على مبنى القاعة والجبل الذي خلفه... هناك

انتبه إلى وجود فتاة صغيرة واقفة عند الباب في الشمس والمطر . كان معها كلبه المفضل... وقد أفلت منها وقفز على الرجل ، وهو يجر وراءه حزام امرأة محبوكاً وقد التف من حول طوقه .

لاحظ أن الفتاة كانت ابنة أناس من علية القوم... كانت دون عباءة وحاسرة الرأس ، ولكن ثوبها الأحمر النبيذي كان مصنوعاً من قماش المدينة ، وكان مطرزاً وقد ثبت عند الصدر بدبوس فضي مذهب . كان هناك شريط حريري يشد إلى الخلف الشعر المجعد ، الذي أصبح داكن اللون الآن من البلل ، بعيداً عن جبينها . كان لها وجه حيوي صغير وجبين واسع وذقن مدببة وعينان كبيرتان لامعتان ، كما كان خداها مضرجين بحمرة قانية وكأنها كانت تعدو بقوة .

عرف سايمون الفتاة وحياها باسمها ، رامبورغ .

"كيف حدث أن منحتنا كل هذا الشرف فجئت إلينا ؟"

كان الكلب هو السبب كما قالت ، فقد دخلت معه إلى المنزل هرباً من المطر . كان من عادته أن يعدو إلى يوروندغارد . وها هي تعيده الآن . أجل ، كانت تعرف كلبه . لقد رأته وهو يتبعه كلما كان يمرّ من جوارهم .

أنّبها سايمون قليلاً لأنها سارت إلى هنا على قدميها ووحدها . قال إنه سيسرج حصانين ويصطحبها إلى بيتها بنفسه . ولكن لا بدّ أولاً من تناول بعض الطعام . ركضت رامبورغ فوراً إلى السرير الذي كانت أرنغييرد الصغيرة تضطجع فيه مريضة ، وقد سرت الطفلة وسيغريد بالضيف ، فقد كانت رامبورغ نشيطة وحيوية . لم تكن مثل أختيها ، كما فكر سايمون .

ركب مع رامبورغ حتى الطريق الجانبي المؤدي إلى الضيعة ، وكان

سيستدير راجعاً لولا أنه قابل لافرانس الذي كان قد علم للتو أن الطفلة لم تكن مع رفيقاتها في اللعب في لاوغاربرو ، وكان قد انطلق مع جماعته للبحث عنها... وكان شديد القلق . طلب إلى سايمون الدخول ، وحين جلس في القاعة سقط الخجل عنه وشعر بسرعة أنه في بيته مع راغنفريد ولافرانس . وقد أمعنوا في الشراب إلى وقت متأخر ، وبما أن الطقس كان رديئاً ، فقد كان ممتناً لقضاء الليل عندهم .

كان هناك سريران في القاعة . جهزت راغنفريد أحدهما على نحو جيد للضيف ، وقد سألها أحدهم أين ستنام رامبورغ : طبعاً مع أبويها أو في مبنى آخر .

قالت الطفلة : "كلا ، أريد أن أنام في سريري . ألا أستطيع أن أنام معك يا سايمون ؟" هكذا رجته .

قال أبوها إن ضيفهم لا يجب أن يزعجه الأطفال وهو في سريره . ولكن رامبورغ تابعت التذمر قائلة إنها تريد أن تنام مع سايمون . وأخيراً قال لافرانس بصرامة إنها أكبر سناً من أن تشارك رجلاً غريباً فراشه .

قالت بعناد : "لست كبيرة يا أبي . هل أنا كبيرة إلى هذا الحد يا سايمون ؟"

قال سايمون ضاحكاً : "أنت صغيرة جداً . اطلبي مني الزواج بعد خمس سنوات وثقي أني لن أرفض يا رامبورغ . ولكني أعتقد أنك ستريدين نوعاً آخر من الرجال آنذاك يا رامبورغ ، وليس رجلاً أرمل بديناً وقبيحاً» .

بدا على لافرانس أنه انزعج من المزحة وقال للفتاة بحدة إن عليها أن تمسك لسانها وتذهب لتنام في سرير والديها . ولكن رامبورغ صرخت مجدداً :

"لقد طلبت يدي يا سايمون دار في حضور أبي ."

أجاب سايمون ضاحكاً : "لقد فعلت ذلك حقاً ، ولكني أخشى يا رامبورغ أنه سيجيب بالرفض ."

•

بعد ذلك اليوم فإن سكان يوروندغارد وسكان فورمو أصبحوا أكثر تزاوراً . كانت رامبورغ تذهب إلى الضيعة المجاورة كلما سنحت لها الفرصة . كانت تلعب مع أرنغييرد كأن الطفلة كانت دميتها ، وتجري من حول سيغريد لتساعدها في إدارة المنزل ، وتجلس في حضن سايمون حين يكون في القاعة . لقد اعتاد مجدداً على تدليل الفتاة والمزاح معها ، كما كان يحدث في سالف الأيام حين كانت هي وأولفهيلد بمثابة أختيه الصغيرتين .

كان سايمون قد سكن لمدة سنتين في "ديل" وذلك حين خطب غايرموند هرستاينسون أوف "كروكه" سيغريد آندرسداتر . كانت جماعة "كروكه" هذه من نسل حارس ملكي قديم ، ولكن رغم أن واحداً أو أكثر من الأجداد قد خدموا الملوك ضمن "الحرس الخاص" ، إلا أنه لم يسبق لأحدهم أن اكتسب أي شهرة خارج ريفه الخاص . ومع ذلك كان ذلك الزواج ملائماً لتطلعات سيغريد ، وكانت هي شخصياً راغبة بالزواج من غايرموند . وهكذا عقد أخوها الصفقة ، وأجرى سايمون حفل زفاف أخته في منزله .

في إحدى الأمسيات قبل الزفاف ، وبينما كانت جلبة الاستعداد للاحتفال في أسوأ حالاتها ، قال سايمون مازحاً إنه كان لا يعرف ما سيحل ببيته حين تغادره سيغريد . عندها قالت رامبورغ :

"عليك أن تبذل قصارى جهودك لسنتين يا سايمون . في سن الرابعة عشرة تكون الفتاة قد أضحت في سن ملائمة للزواج وتستطيع أن تصطحبني إلى بيتك ."

قال سايمون ضاحكاً : "كلا ، لن تحظي بي . لا أجرؤ على الالتزام بكبح جماح فتاة طائشة مثلك ."

"إن أهدأ البحيرات هي الأعمق ، كما يقول أبي!" هكذا صرخت رامبورغ . "أنا من النوع الطائش . أختي كانت خجولة ورقيقة . هل نسيت كريستين يا سايمون أندرسون ؟"

قفز سايمون من مقعده ورفع الفتاة إلى صدره وقبل نحرها بقوة إلى حد أن بشرتها قد تبقّعت بلون أحمر . ولشدة دهشته وحيرته من نفسه ، فقد أنزلها وأمسك بأرنغييرد ، ورمى بها عالياً ثم ضمها إليه بالأسلوب نفسه ليخفي اضطرابه . تابع اللعب مع الفتاتين ، الصغيرة وتلك نصف الناضجة ، وراح يطاردهما في أرجاء المكان ، بينما كانتا تهربان منه إلى الطاولات والمقاعد . وأخيراً أجلسهما على العارضة الخشبية التي أمام الباب وخرج مسرعاً .

لم يكن اسم كريستين يذكر إلاّ نادراً في يوروندغارد في حضور سايمون .

•

مع مرور السنين ازدادت رامبورغ لافرانسداتر جمالاً على جمال . كان حديث الريف منصباً على اختيار عرسان لها . ففي إحدى المرات كان

العريس آيندريد هاكونسون من آل غييسلينغ من فالدرز . كانوا أقرباء من الدرجة الرابعة ، ولكن لافرانس وهاكون كانا غنيين إلى حد أنهما كانا قادرين على إرسال الرسائل إلى البابا في فالاند والحصول على الإذن . وهذا العريس سيضع حداً إلى الأبد لبعض الدّعاوى القانونية التي استمرت منذ أن خرج آل غييسلينغ القدماء مع الدوق سكوله وصادر منهم الملك هاكون أراضي "فاغ" وأعطاها إلى سيغورد إلديازان . كان إلفار غييسلينغ الشاب قد استعاد سوندبو بالزيجات والمبادلات ، ولكن هذه المسائل أدت إلى صدامات ونزاعات . كان لافرانس يضحك من هذه الأمور كلها . فالجزء من الغنيمة الذي يستطيع الادعاء أنه حق لزوجته لم يكن يستحق جلد العجل والشمع اللذين استهلكهما في الدعوى : هذا إن لم نذكر المشقة والسفر . ولكن بما أنه كان مشاركاً في النزاع منذ أن تزوج ، فقد كان عليه الاستمرار حتى النهاية...

و لكن آيندريد غييسلينغ اتخذ زوجة أخرى ، وبدت جماعة يوروندغارد غير ناقمين كثيراً . لقد حضروا شرب نخب العروس ، وقالت رامبورغ لصديقاتها بفخر ، حين عادت إلى البيت ، أن أربعة رجال قد تقربوا من لافرانس ليخطبوها منه ، إما لأنفسهم أو لأقربائهم . ولكن لافرانس أجاب بأنه لن يعقد أي صفقة تخص يد ابنته حتى تبلغ من العمر سناً يؤهلها أن يكون لها رأي في المسألة هي نفسها .

و هكذا جرت الأمور حتى ربيع العام الذي بلغت فيه رامبورغ سن الربعة عشرة . في إحدى الأمسيات من ذلك الربيع كانت في زريبة الأبقار في "فورمو" مع سايمون لتتفرج على عجل ولد مؤخراً . كان أبيض اللون مع بقعة بنية ، وبدت البقعة لرامبورغ وكأنها تشبه كنيسة . جلس سايمون على حافة

جرن القمح ، بينما اتكأت الفتاة على ركبتيه ، وراح هو يشد لها ضفائرها :

"إذن أراهن أن هذه علامة على أنك سرعان ما تذهبين إلى الكنيسة عروساً يا رامبورغ" .

"أجل ، أنت تعرف جيداً أن أبي سيوافق في اليوم الذي تطلب فيه يدي منه . أنا كبيرة بما فيه الكفاية الآن ، وقد أتزوج هذا العام ."

فوجئ سايمون قليلاً ، ولكنه حاول أن يضحك :

"أتحاولين العبث معي بتلك المزحة القديمة الحمقاء ؟"

قالت الفتاة وهي ترفع إليه عينيها الواسعتين : "تعرف جيداً أن هذا ليس مزاحاً . لقد عرفت منذ زمن طويل... أني أود القدوم إلى هنا إلى فورمو إليك . لم قبلتني ووضعتني في حجرك كثيراً من المرات إن لم تكن تريدني ؟"

"صحيح أنه سيسعدني أن أتزوجك يا رامبورغ . ولكني لم أفكر أبداً بأن فتاة جميلة وشابة إلى هذا الحد يمكن أن تقبل بي . أنا أكبر منك بسبعة عشر عاماً... وأنت لم تفكري على ما أعتقد في أنك قد ترغبين في أن يكون لك زوج ضعيف البصر كبير الكرش في الوقت الذي تبلغين فيه العمر الذي تكونين فيه في أفضل سنوات عمرك..."

قالت بسعادة : "هذه هي أفضل سنوات عمري . ولست أنت عجوزاً متهالكاً بعد يا سايمون ."

"و لكني قبيح... وسرعان ما ستملّين من تقبيلي ."

أجابت ضاحكة كما من قبل : "ليس عليك أن تصدق ذلك لأي سبب من الأسباب" . ثم قدمت له فمها ليقبلها . ولكنه لم يفعل .

"لن أستغل براءتك يا حلوتي . سيصطحبك لافرانس معه جنوباً هذا الصيف . وإذا لم تغيري أفكارك قبل عودتك ، عندها سأشكر الرب وسيدتنا (العذراء) على هذا الحظ الأفضل ممّا كنت أتطلع إليه... ولكنني لن ألزمك الآن يا رامبورغ الجميلة ."

•

نادى على كلابه وتناول رمحه وقوسه وصعد الجبال في ذلك المساء نفسه . كان هناك الكثير من الثلج لا يزال في المرتفعات . انطلق نحو سايتره وحصل على زوج من الزلاجات ثم أمضى أسبوعاً عند البحيرة جنوب "شلالات الخنزير البري" في صيد الغزلان . ولكن في الأسبوع الذي انطلق فيه عائداً إلى البيت بدأ يشعر بالقلق والخوف مجدداً . سيكون من شأن رامبورغ أن تحادث أباها بالموضوع رغم كل شيء . حين وصل إلى قمة الجبل عند سايتر يوروندغارد ، رأى الدخان والشرار يتصاعد من السقف . ظن أن لافرانس نفسه قد يكون هناك ، فصعد إلى الأكواخ .

ظن أنه قادر أن يرى من مظهر الرجل الآخر أن تخميناته كانت صحيحة . ولكنهما جلسا هناك يتحدثان عن فصل الصيف الرديء في السنة الماضية ومتى سيكون الزمن الأمثل لنقل الماشية هذا العام ، عن الصيد وعن صقر لافرانس الجديد ، الذي كان قابعاً على الأرض وهو يرفرف بجناحيه فوق بقايا ريش الطيور التي كانت تشوى على سفود فوق النار . كان لافرانس قد صعد إلى هناك ليتفقد مأوى الجياد خاصته في إلماندسال... كان بعض الناس من إلفدال ممن مروا به ذلك اليوم قد أبلغوه بأنه قد انهار . هكذا مرّ معظم المساء . وأخيراً تكلم سايمون :

"لا أعرف إن كانت... رامبورغ قد ذكرت لك أي شيء عن قضية تطرقنا إليها هي وأنا ذات مساء ؟"

قال لافرانس ببطء :

"أعتقد أنه أمر حسن أنك حادثتني أولاً ، يا سايمون... ربما تعرف الجواب الذي سأعطيك إياه . أجل ، أجل... أفهم كيف حدث أن ذكرت الموضوع أمام الفتاة... وهذا لن يسبب أي إحراج . يسعدني أن أسلم ابنتي إلى يدي رجل أمين ."

بعد هذا لم يكن هناك من داع للمزيد من الكلام ، كما فكر سايمون . يا له من أمر غريب على أي حال... ها هو جالس هنا وهو الذي لم يحلم أبداً بالعبث مع عذراء أو زوجة شريفة ، وها هو قد تلقى وعد شرف للزواج من فتاة كان يتمنى لو لم يحصل عليه ، ولكنه قام بمحاولة واحدة :

"و لكن ليس الأمر وما فيه يا لافرانس أني كنت أغازل ابنتك من خلف ظهرك... ظننت أني كبير في السن إلى حد أنها لن تأخذ هي الأمر إلا أنه مجرد لطف أخوي متلبث من الأيام السالفة حين حادثتها في الأمر . وإذا كنت تعتبرني كبيراً عليها من حيث السن ، فلن أتعجب من ذلك ، ولن أجعل الأمر نهاية للصداقة التي بيننا ."

قال لافرانس : "لم أقابل سوى قليل من الرجال أستطيع تفضيلهم عليك ليصبحوا بمثابة أبناء لي يا سايمون . وإنه ليسعدني أن أقدم لك رامبورغ بنفسي . أنت تعلم من سيكون الوصي عليها حين أرحل ." كانت هذه أول مرة يتم فيها ذكر إرلند نيكولاوسون بين هذين الرجلين . "من نواح كثيرة فإن صهري رجل أفضل مما توقعته منه حين عرفته لأول مرة . ولكني لا أعرف إن كان هو الشخص الذي يستطيع التعامل بحكمة بمسألة تزويج فتاة صغيرة . وقد لمست جيداً رغبة رامبورغ نفسها" .

قال سايمون : "هذا ما تظنه هي الآن . ولكنها بالكاد فارقت مرحلة الطفولة . لذلك لا أريد أن أضغط عليك في هذا الخصوص ، إذا كنت راغباً في تأجيل الموضوع ."

قال لافرانس وهو يعبس قليلاً : "و أنا ليست لدي الرغبة في فرض ابنتي عليك فرضاً ، إياك أن تصدق ذلك ."

قال سايمون بسرعة : "عليك أن تصدق أنه لا توجد فتاة في بلاد النرويج أرغب بها زوجة أكثر من رامبورغ . هكذا هو الأمر يا لافرانس ، أني أعتبر حظي جيداً جداً لو أتيح لي الحصول على مثل هذه العروس الجميلة جداً والشابة جداً والصالحة جداً ، الغنية والأصيلة المحتد من كلا الأبوين . وأن تكون أنت حماي " ، قال بلهجة مرتبكة .

ضحك لافرانس ضحكة خفيفة :

"أوه ، أنت تعرف جيداً رأيي فيك . وأعرف أنك ستعامل ابنتي وميراثها بحيث لن نندم أبداً على إبرام هذه الصفقة ، أمها وأنا..."

"هذا ما سأفعله ، وليساعدني الرب والمقدسون" ، قال سايمون .

و على هذا تصافحا . تذكر سايمون المرة الأولى التي صافح فيها يد لافرانس على صفقة مشابهة ، وأحس بقلبه صغيراً في صدره وأنه يؤلمه .

و لكن رامبورغ كانت بالفعل عروساً أفضل بكثير ممّا كان يأمل فيه . فقد كانت هناك ابنتان فحسب ستتقاسمان ما سيتركه لافرانس . وسيكون هو بمثابة ابن للرجل الذي يجلّه ويقدره أكثر من كل الرجال الذين عرفهم . رامبورغ كانت صغيرة ونضرة وحلوة...

لا شك أنه قد أصبح رجلاً ناضجاً له ذكاء الرجل الناضج . لو كان آخذا

بالانتظار هنا مفكراً في أنه قد يتزوج (يوماً ما) أرملة لم يستطع أن ينالها وهي عذراء (كريستين) -بعد أن يكون ذلك الرجل الآخر قد استمتع بشبابها- ولديها دزينة من الأولاد من نسل ذلك الرجل... كلا ، عندها سيكون أخوته على حق لو أعلنوا أنه عاجز ومنعوه من إدارة شؤونه الخاصة . سيعيش إرلند حتى يشيخ كالجبال... أمثاله يعيشون طويلاً...

أجل ، إذن سيكونان الآن عديلين . لم ير أحدهم الآخر منذ تلك الليلة في ذاك المنزل في أوسلو . حسناً ، لا بدّ أن تذكر الأمر سيكون أصعب على إرلند مما هو عليه .

سيكون زوجاً جيداً لرامبورغ ، دون زيف أو خداع . ورغم أنه قد يقال إن الطفلة قد أوقعته في الشرك...

قال لافرانس : "أتضحك ؟"

"هل ضحكت ؟ كانت تلك مجرد فكرة خطرت في رأسي ."

"عليك أن تقول لي ما هي تلك الفكرة يا سايمون... حتى أضحك أنا أيضاً ."

ثبت سايمون أندرسون عينيه الصغيرتين على الرجل الآخر .

"كنت أفكر في... النساء . أتساءل إن كانت أي امرأة تنظر إلى إيمان الرجال وقوانينهم كما نفعل نحن بين أنفسنا... حين تستطيع هي أن تكسب دون أن تتحمل أي مسؤولية . هالفريد زوجتي الأولى... أجل ، لم أقل هذا لأي روح مسيحية قبلك يا لافرانس بيورغولفسون ، ولن أحكيه لأحد غيرك... كانت طيبة وورعة جداً ومستقيمة إلى حد لم أعرفه في أي امرأة أخرى...لقد حكيت لك كيف تصرفت إزاء مسألة مولد آرنغييرد . ولكن في ذلك الحين

حين رأينا كيف هي الأمور مع سيغريد -أجل- كانت تريدني أن أخفي أختي وأنها ستدعي أنها حامل ، ثم تدعي أن طفل سيغريد هو لها . وهكذا يكون لدينا وريث ، ويكون مستقبل الطفل قد تأمن ، وستسكن سيغريد معنا دون أن تضطر إلى أن تفارق الطفل . وأعتقد حقاً أنها لم تفهم أن هذا الأمر من شأنه أن يكون خيانة ضد أقربائها..."

قال لافرانس بعد وقفة :

"عندها كنت ستقدر على الاحتفاظ بماندفيك ، يا سايمون..."

"أجل" . ضحك سايمون دار بقسوة . "و ربما كنت سأحتفظ بها مثلما يحتفظ أي رجل آخر بالأراضي التي يسميها إرث آبائه . بما أنه ليس لدينا من نأتمنه على مثل هذه الأمور سوى شرف النساء ."

أنزل لافرانس غماء الصقر على رأسه ورفع الطائر على رسغه .

"هذا حديث غريب لرجل يفكر بالزواج" ، قال بصوت خفيض . كان هناك شيء أشبه بالاشمئزاز في صوته .

أجاب سايمون : "فيما يخص بناتك لا يفكر المرء بمثل هذه الأمور ."

نظر لافرانس إلى الصقر وحك ريشه بعصا .

سأله بصوت أخفض : "حتى فيما يخص كريستين أيضاً ؟"

أجاب سايمون بثبات : «لا . لم تتصرف جيداً معي ، ولكني لم أجد في تصرفاتها خداعاً لي . لقد حكت لي ببساطة وصدق أنها قابلت رجلاً تحبه أكثر مني ."

سأله الأب بصوت خفيض : "حين تخليت عنها بكل إرادتك ، ألم يكن ذلك لأنك سمعت بعض... بعض الإشاعات...عنها ؟"

قال سايمون كما من قبل : "لا . لم أسمع أي إشاعات عنها أبداً ."

•

تم الاتفاق على شرب نخب الخطوبة في ذلك الصيف نفسه ، والزفاف سيجري بعد عيد الفصح من العام المقبل حين تكون رامبورغ قد أتمت الخامسة عشرة .

•

لم تكن كريستين قد رأت ديار أهلها منذ يوم غادرته كعروس... وكانت قد مضت ثمانية شتاءات على ذلك . وها هي تعود الآن مع رفقة كبيرة : زوجها ومارغريت وخمسة أبناء ومربيات وخادمات ورجال وأحصنة حمولة مع الأمتعة . خرج لافرانس على حصانه ليلاقيهم على الطريق ، وقابلهم عند دوفر . لم تعد كريستين بكل تلك الخفة كما كان يحدث وهي صغيرة ، ولكن حين رأت أباها قد أتى ليلاقيها ، فإن عينيها اغرورقتا بالدموع . أوقفت حصانها وانزلقت من على السرج ، ثم عادت لتقابله ، وحين تقابلا تناولت يده وقبلتها بتواضع . قفز لافرانس من على حصانه فوراً ورفع ابنته بين ذراعيه . ثم تصافح مع إرلند الذي ترجل أيضاً ، ووصل الآن ليقابل حماه بتحية احترام .

في اليوم التالي وصل سايمون إلى يوروندغارد ليحيّي أنسباءه الجدد . كان غيرد دار وغايرموند أوف كروكه معه ، ولكن زوجتيهما كانتا قد بقيتا في فورمو . لقد اختار سايمون إقامة زفافه في بيته ، لذا كانت النساء منهمكات هناك في نشاط محموم .

أما فيما يخص طريقة اللقاء... فإن سايمون وإرلند قد حيّا واحدهما الآخر بحرية ودون كوابح . كان سايمون مسيطراً على نفسه وإرلند شديد المرح والسرور حتى أن سايمون ظنه نسي حتماً أين كان آخر لقاء بينهما . ثم قدم سايمون يده لكريستين . كانا أقل ثقة بنفسيهما وقد التقت عيونهما إنما للحظة واحدة .

فكرت كريستين في نفسها أنه قد تراجع إلى حد كبير من حيث مظهره . ففي شبابه المبكر كان وسيماً إلى حد كاف ، رغم أنه كان حتى آنذاك ممتلئاً قصير العنق . كانت عيناه الرماديتان بلون الفولاذ تبدوان صغيرتين تحت رموشهما الكثيفة . كان فمه صغيراً جداً ، والغمازات في وجهه الطفولي المستدير كبيرة جداً . إلا أن لون وجهه كان نضراً وكان جبينه أبيض كالحليب تحت شعره البني الفاتح الجميل . كان شعره المجعد لا زال كما هو ، كثيفاً وكستناوياً كما في السابق ، ولكن وجهه كان ذا لون بني أحمر ، وقد تجعد تحت العينين ، وله وجنتان ممتلئتان وذقن مزدوجة . كما كان جسده قد اكتسب المزيد من الوزن... كان له كرش من نوع ما . لم يعد يبدو الآن رجلاً مستعداً للتمدد في الليل على حافة سرير لأجل أن يتهامس مع خطيبته . أحست كريستين بالشفقة على أختها الصغيرة . كانت نضرة وفاتنة وفرحة على نحو طفولي لأنها ستتزوج . منذ أول يوم راحت تعرض لكريستين الصناديق المملوءة بجهاز الزفاف وهدايا سايمون بمناسبة الخطوبة... كما حكت لها كيف سمعت من سيغريد أندرسداتر عن علبة مذهبة موجودة في علية الزفاف في فورمو . كان فيها اثنا عشر غطاء كتانياً ثميناً للرأس ، وهي هدية لها من زوجها في الصباح الأول بعد الزفاف . يا للمسكينة الصغيرة ، كيف يمكنها أن تفهم ما هو الزواج ؟ كان أمراً مؤسفاً أنها لا تعرف هذه الأخت الصغيرة إلا قليلاً... لقد زارت رامبورغ هوسابي

مرتين ، ولكنها كانت هناك كئيبة وغير ودودة... لم تستطع أن تحب إرلند ولا مارغريت التي كانت في مثل سنها .

كان سايمون قد فكر في أنه كان يتطلع إلى ـ أو ربما يأمل في ـ أن يرى كريستين منهكة إلى حد ما بعد أن أنجبت العديد من الأطفال . ولكنها كانت عامرة بالشباب والصحة ، وكانت معتزة بنفسها كما كانت دائماً ، وتمشي بفتنة رغم أن خطواتها أصبحت أثبت على الأرض الآن من الماضي . كانت أجمل أم مع خمسة أبناء وسيمين صغار ملتفين من حولها .

كانت ترتدي ثوباً صوفياً بني اللون من صنع البيت وقد حيكت عليه طيور زرقاء داكنة... تذكر حين كان يقف ويتكئ على نولها وهي جالسة تحوك عليه .

•

حدث بعض الاضطراب حين جلسوا إلى المائدة في القاعة العليا . بدأ سكوله وإيفار بالزعيق ، فقد كانا معتادين على الجلوس بين أمهما ومربيتهما . لم ير لافرانس أنه من اللائق أن تجلس رامبورغ بين خادمة أختها وأطفالها الصغار... لذلك أمر ابنته الأصغر أن تجلس في المقعد العالي إلى جواره ، طالما أنها كانت سرعان ما ستفارق منزله .

كان الصبيان الصغار القادمون من هوسابي هائجين ، ولم يبد عليهم أنهم يعرفون كيف يتصرفون على المائدة . لم تكن الوجبة قد امتدت بهم طويلاً إلا وكان الصبي الصغير الأشقر قد انزلق تحت المائدة وخرج عند المقعد الجداري قرب ركبة سايمون .

قال : "هل لي أن أرى ذلك الغمد الغريب الذي في حزامك يا قريبي ؟" كان يتحدث ببطء وجدية . كان ذاك هو الغمد المطعم بالفضة الذي يحمل ملعقة وسكينين ذاك الذي رآه .

"يمكن لك ذاك يا قريبي . ما اسمك يا ابن العم ؟"

"اسمي غاوته إرلندسون ، يا ابن العم ."

وضع قطعة لحم الخنزير المقدد التي يمسكها في حضن صدارة سايمون الاحتفالية المصنوعة من القماش الفلمنكي الرمادي الفضي ، وسحب السكين من الغمد ونظر عن كثب إليها . ثم أخذ السكين التي كان سايمون يأكل بها والملعقة ووضعها كلها في أماكنها ، حتى يستطيع أن يرى كيف تبدو حين تكون كلها في أغمادها . كان جدياً إلى حد كبير وأصابعه ووجهه قد غطاها الدهن إلى حد كبير . ابتسم سايمون وهو ينظر إلى الوجه الصغير الوسيم والمنهك .

بعد ذلك شق الطفلان الأكبر سناً طريقهما عبر مقعد الرجال ، وانزلق التوأمان تحت المائدة وبدآا يزحفان من حول أقدام الناس... ثم خرجا نحو الكلاب قرب الموقد . لم تكن هناك سوى فرصة ضئيلة أمام الكبار ليتناولوا طعامهم في سلام . كلم الأب والأم أطفالهما وأمراهم أن يجلسوا بهدوء وأدب ، ولكن الأطفال لم يكترثوا . وبدأ الولدان من جانبهما بالضحك منهم طوال الوقت وبدا عليهما أنهما يفكران في أن سلوكهما السيئ ليس بالمسألة المهمة... ولكن حتى قام لافرانس ، بحدة بالأحرى ، وأمر أحد الخدم بإخراج الكلاب إلى الغرفة التي في الأسفل ، حتى يستطيع الناس أن يسمعوا بعضهم البعض وهم يتحدثون في القاعة العليا .

غادرت رامبورغ القاعة مع خطيبها وذهبت معه عبر الليل الربيعي لبعض

من الطريق بين الأسيجة . كان غيرد وغايرموند قد سبقاهما ، وتوقف سايمون ليتمنى لها ليلة سعيدة . كانت قدمه في الركاب حين التفت ثانية وأخذها بين ذراعيه ، وسحق الطفلة الرقيقة حين ضمها إليه بشدة إلى حد أنها أنّت برقة وسعادة .

"فليباركك الله يا رامبورغ العزيزة... أنت رائعة وجميلة... رائعة وجميلة بحيث لا أستحقك" ، هكذا همهم في خصلات شعرها المجعدة المتشابكة .

وقفت رامبورغ وهي تلاحقه بنظرها في ضوء القمر السديمي . فركت أعلى ذراعها... لقد أمسكها بشدة إلى حد أنه آلمها . وراحت تفكر وهي مصابة بالدوار من شدة الفرح في أنها ستزف إليه بعد ثلاثة أيام .

•

وقف لافرانس مع كريستين أمام سرير الأطفال ، وراح يراقبها وهي تضع الأجسام الصغيرة في أمكنتها . كان الأكبر بينهم قد أصبحوا صبياناً كباراً بأجسام نحيلة وأطراف رشيقة ، ولكن الصغيران كانا ممتلئين ولهما لون وردي مع تغضينات في لحمهما ونقرات في مفاصلهما . كان المشهد جميلاً في نظره ، الأطفال النائمون هناك بلونهم الوردي ودفئهم ، وبشعورهم الكثيفة وقد تبللت من العرق ، يتنفسون بانتظام في نومهم . كانوا في صحة جيدة ، وكانوا وسيمين... ولكن لم يسبق له أن رأى أطفالاً رديئي التربية مثل أحفاده هؤلاء . ربما كان أمراً حسناً أن أخت سايمون وزوجة أخيه لم تحضرا المأدبة في هذه الليلة . ولكن ربما لم يكن من شأنه هو أن يتحدث عن تربية الأطفال... تنهد لافرانس قليلاً ، ثم رسم إشارة الصليب فوق الرؤوس الصغيرة .

•

و هكذا احتسى سايمون أندرسون نخب العروس مع رامبورغ لافرانسداتر وكان الزفاف رائعاً ولائقاً من كل النواحي . بدت العروس والعريس سعيدين ، واعتبر كثيرون أنها كانت أجمل في يوم شرفها هذا ممّا كانت عليه أختها... ليست جميلة إلى حد مبهر مثل كريستين ، ولكنها أرق بكثير وأسعد بكثير . لقد استطاع الجميع أن يروا في العينين الصافيتين البريئتين لهذه العروس أنها كانت تضع التاج الذهبي لآل غييسلينغ بكل شرف في هذا اليوم .

و قد جلست سعيدة وفخورة على الكنبة أمام سرير زفافها وشعرها مربوط إلى الأعلى حين صعد الضيوف في صباح اليوم التالي ليحيوا العروسين . وبالضحك والمزاح المنفلت راحوا يتفرجون على سايمون وهو يضع على رأس زوجته الشابة غطاء رأس النساء المتزوجات . جعلت صرخات التهليل وصليل السيوف العوارض الخشبية ترنّ ، بينما نهضت رامبورغ وأخذت يد زوجها وقد انتصبت باستقامة ووجنتين حمراوين تحت غطاء الرأس الأبيض .

لم يكن أمراً مألوفاً جداً أن يقترن سليلا بيتين كبيرين من بيوت أبرشية واحدة... حيث يكون النسب متغلغلاً في كل الفروع ، تكون القرابة وثيقة إلى حد كبير . لذلك اعتبر الجميع هذا الزفاف على أنه احتفال نادر مليء بالفرح والسعادة .

٦

بين أول الأمور التي لاحظتها كريستين في بيتها القديم هي أن كل تماثيل رؤوس الرجال التي كانت منصوبة حيث تلتقي حواف الألواح الخشبية في جمالونات البناء كانت قد أزيلت . وبدلاً عنها كانت وضعت الآن رؤوس مستدقة نقشت عليها طيور ونباتات ، كما كان المخزن الجديد قد زيّن بدوارة ريح مذهبة . أما الأعمدة القديمة للكرسي العالي في مبنى الموقد أيضاً فقد استبدلت بأخرى جديدة . القديمة منها كانت محفورة على شكل رجلين ، قبيحين بما فيه الكفاية... ولكن كان يُظن أنهما موجودان هناك منذ أن بني المنزل لأول مرة ، وكانت العادة هي تلطيخهما بالدهن وغسلهما بالجعة في الاحتفالات . على الأعمدة الجديدة كان أبوها قد أمر بنحت رجلين بخوذتين وترسين رسم عليهما الصليب . لم يكن ذاك هو القديس أولاف نفسه ، كما قال ، فقد كان يرى أنه لا يجوز لرجل آثم أن يضع صور القديسين في منزله ، إلا ليصلي لها... ولكنهما قد يكونان محاربين من حرس أولاف . أما المنحوتات القديمة فقد قطعها إرلند بنفسه وأحرقها... فالخدم لم يجرؤوا على لمسها . كان لا يزال يسمح لهم ، ببعض الريبة ، بحمل الطعام إلى الحجارة العظيمة في التلة التي دفن فيها "يوروند" في الأيام المقدسة...و

لكنه كان يعتبر أنه من الإثم والعار أن يمنع مستأجراً للتلة من أن يمارس ما كان الناس يمارسونه منذ أول ما سكنوا في ذلك المكان . لقد مات هذا قبل فترة طويلة من وصول المسيحية إلى النرويج ، لذلك لم تكن تلك غلطته في أنه كان وثنياً .

لم يحبب الناس هذه الأفعال الجديدة للافرانس كثيراً . كان الأمر جيداً بما فيه الكفاية له هو الذي استطاع شراء الحماية في مجالات أخرى . إن ما حصل عليه بدا بالفعل وكأنه يتمتع بكل الفضيلة المطلوبة ، فقد تمتع هو بالحظ الجيد في الزراعة كما في السابق ولكن هناك أناس سألوا إن لم يكن أولئك الناس هناك سينتقمون لأنفسهم حين يأتي إلى الضيعة سيد أقل ورعاً وليس شديد الكرم إلى هذا الحد مع الكنيسة وكل أملاكها . وبالنسبة إلى الناس صغار الشأن كان الأرخص هو أن تمنح أولئك القدماء ما اعتادوا أن يأخذوه ، وليس أن تكسب عداوتهم وتثق ثقة كلية بالكهنة .

و علاوة على ذلك لم يكن الأمر موثوقاً تماماً ، كما ظن الناس ، فيما يتعلق بمصير الصداقة بين يوروندغارد وبيت الكاهن حين يموت سيرا آيريك . لقد أصبح الكاهن عجوزاً ضعيفاً الآن ، حتى أصبح في حاجة إلى قسيس يساعده . لقد ذكر للأسقف أنه يريد حفيده (ابن ابنته) بنتاين يونسون (ليكون مساعداً له)... ولكن لافرانس تحدث أيضاً إلى الأسقف الذي كان صديقاً قديماً له . ولكن الناس اعتبرت هذا خطأ في التقدير . صحيح أن الكاهن الشاب كان شديد الجرأة مع كريستين لافرانسداتر في ذلك المساء (البعيد) وربما أخاف الفتاة... ولكن لا أحد يعرف إن لم تكن الفتاة نفسها مسؤولة عن مدى جرأة الشاب . لقد تبين لاحقاً وبكل وضوح أنها لم تكن تلك الفتاة الخجولة كما كان يبدو عليها . ولكن الحقيقة كانت هي أن لافرانس كان يثق كثيراً بابنته ويعتبرها كأنها شيء مقدس تقريباً .

بعد هذا طغت البرودة على العلاقة بين سيرا آيريك ولافرانس لفترة من الزمن . ولكن وصل آنذاك سيرا سولموند كقسيس ، وقد تشاجر فوراً مع كاهن الأبرشية حول بعض الأراضي ، حول ما إذا كانت تخص الكنيسة أو سيرا آيريك شخصياً . كان لافرانس يعرف أكثر من كل الرجال الآخرين في الأبرشية عن كل مبيعات الأراضي وما شابه من القديم ، وقد تم إصدار الحكم على القضية بناء على شهادته . ومنذ ذلك الحين لم يعد هو وسيرا سولموند على حال من المودة . ولكن سيرا آيريك وأودون ، القندلفت العجوز ، كانا يعيشان في يورروندغارد الآن ، كما قد يقال . فقد كانا يذهبان يومياً إلى هناك الآن ويجلسان إلى لافرانس ، ليشكوا أخطاء القسيس الجديد ومعاناتهما من تصرفاته المخيفة ، وكانا يُعاملان بكرم يليق بأسقفين .

لقد سبق لكريستين أن سمعت شيئاً ما عن كل هذا من بورغار تروندسون أوف سوندبو . كان قد تزوج امرأة من منطقة تروندهايم وحلّ ضيفاً على هوسابي أكثر من مرة . كان تروند غييسلينغ (خالها) قد توفي قبل بضع سنين . لم يعتبره كثيرون خسارة كبيرة ، فقد كان غصْناً فاسداً من شجرة قديمة ، كما كان فظاً مشاكساً وعليلاً . كان لافرانس هو الوحيد الذي يتحمل تروند ، فقد كان يشعر بالشفقة على ابن حميه وكذلك على غودريد زوجته . الآن كانا قد رحلا عن هذه الدنيا ، فإن كل أبناءهما الأربعة كانوا يسكنون معاً في الضيعة . كانوا رجالاً وسيمين وجريئين ومحبوبين ، لذلك اعتبر الناس ذلك استبدالاً جيداً . كانت هناك صداقة وثيقة بينهم وبين (زوج عمتهم) في يورروندغارد... كان يمضي إلى سوندبو مرتين كل عام ويذهب إلى الصيد معهم في "الجبال الغربية" . ولكن بورغار كان قد أخبر كريستين أن الطريقة التي كان لافرانس وراغنفريد يعذبان بها نفسيهما

بالكفارات والورع كانت أمراً يتعدى أي منطق . "إنه يتجرع الماء بكل صعوبة في أيام الصوم . ولكنه لا يتناول العشاء الرباني بكوب الجعة ، أبوك ، وذلك بالحماسة القديمة نفسها التي اعتاد عليها" ، قال بورغار . لم يكن هناك شخص قادر على فهم هذا الرجل... ما كان أحد يصدق أن لافرانس كان قد ارتكب أي خطيئة سرية حتى يكفر عنها . حسب ما يعرفه الناس ، فلا بدّ أنه عاش حياته كمسيحي بقدر ما فعل أي ابن آدم آخر ، باستثناء القديسين .

في مكان عميق من قلب كريستين كان هناك حدس غامض حول السبب الذي يجعل أباها يجاهد على هذا النحو ليتقرب من الرب أكثر فأكثر . ولكنها لم تجرؤ على التفكير بوضوح في ذلك .

لم تكن لتعترف لنفسها كم لاحظت أن أباها قد تغير . لم يكن الأمر أنه أصبح هرماً إلى حد كبير . لقد حافظ على شكله الوسيم ووقفته المنتصبة واللبقة . كان شعره يشيب بسرعة ، ولكن الناس لم يلاحظوا ذلك كثيراً لأن شعره كان دائماً فاتح اللون . ومع ذلك... فإن ذاكرتها كانت مسكونة دائماً بصورة الرجل الشاب الأشقر اللامع... الخدان النضران المستديران في الوجه الضيق الطويل ، واللون الأحمر الصافي للبشرة التي لفعتها الشمس ، والفم الأحمر المليء ذو الزوايا العميقة . والآن كان الجسد العضلي المصقول قد انكمش إلى مجرد عظام وأوتار ، والوجه أصبح أسمر وحاداً كأنما نحت من خشب ، والخدان مسطحين ونحيلين ، والفم له عقدة عضلية في كل زاوية . أجل ، ولكنه لم يعد شاباً الآن... كما لم يكن عجوزاً أيضاً .

كان على الدوام هادئاً ورزيناً وكانت تعرف منذ طفولتها أنه كان يتبع دائماً أوامر المسيح بحماسة نادرة ، ويحب القداسات والصلوات باللغة

اللاتينية ، وكان دائماً ما يذهب إلى الكنيسة على أنها المكان الذي يجد فيه أفضل سلوان . ولكن الجميع كانوا يشعرون أن تياراً كاملاً ولطيفاً من الشجاعة والاستمتاع بالحياة كان يتدفق عبر روح الرجل الهادئ . وكان يبدو الآن وكأن شيئاً ما قد غادره .

لم تكن قد رأته ثملاً أكثر من مرة واحدة منذ أن عادت إلى البيت... كان ذلك في إحدى الأمسيات خلال فترة الاحتفال بالزفاف في فورمو . كان يترنح نوعاً ما آنذاك وأصبح نطقه ثقيلاً ، ولكنه لم يكن مرحاً إلى حد مبالغ فيه . تذكرته كما كان خلال طفولتها في حفلات شرب الجعة الضخمة في مواسم الأعياد والمآدب... ضاحكاً ضحكته العريضة وضارباً على فخذيه عند كل نكتة . كان يعرض الملاكمة أو المصارعة على أي رجل هناك معروف بقوته . كان يجرب الأحصنة ويقفز خلال الرقص ، وكان أول من يضحك حين كانت قدماه تخونانه ، وكان يوزع الهدايا ويتدفق بالكرم والمحبة نحو كل البشر . لقد فهمت أن أباها كان في حاجة إلى هذه المناسبات الحافلة بالصخب والقصف وسط كل الأعمال الشاقة التي كان يقوم بها والصيام القاسي وحياته العائلية الهادئة مع أسرته ، التي كانت ترى فيه أفضل صديق وأضمن سند .

و أحست أيضاً أنه لو لم يكن زوجها في حاجة إلى أن يشرب حتى الثمالة ، فذلك لأنه كان لا يسيطر على نفسه إلا قليلاً حتى لو أنه لم يكن صاحياً أبداً ، ولكنه يتبع دائماً أساليبه الخاصة دون التأمل كثيراً في مسألة ما هو الصحيح وما هو الخطأ أو ما يعتبره الناس سلوكاً ملائماً وحكيماً . كان إرلند أكثر الرجال الذين عرفتهم حتى الآن صحواً عند شرب المشروبات القوية... كان يشرب ليطفئ ظمأه ولأجل الصداقة الجيدة دون أن يهتم كثيراً بالمسألة .

و لكن كان لافرانس بيورغولفسون قد فقد الآن حماسته القديمة الطيبة من خلال شرب الجعة . لم يعد لديه ما هو في حاجة إلى التنفيس عنه في القصف واللهو . لم يكن قد خطر في باله أبداً أن يغرق همومه في الشراب الكثير ، ولم يكن ذلك في باله الآن... فبالنسبة إليه كان يبدو دائماً أن على الرجل أن يأخذ مرحه إلى حفلات الشراب .

لقد رحل إلى مكان آخر بأحزانه . كانت هناك صورة معلقة دائماً على نحو غائم ونصف متذكر في ذهن ابنته... أبوها في تلك الليلة التي احترقت فيها الكنيسة . كان واقفاً تحت الصليب الكبير الذي أنقذه من النار ، وكان يحمله ويسند نفسه إليه . ودون تفكير بذلك بوضوح ، أحست كريستين في قلبها أن خوفه عليها وعلى مستقبل أطفالها مع الرجل الذي اختارته من ناحية والإحساس بالعجز في هذه المسألة من ناحية أخرى هو ما غيّر لافرانس هذا التغيير .

هذه المعرفة كانت تنهش في قلبها بالسر . وقد وصلت إلى يوروندغارد منهكة من الشتاء القلق الذي كانوا قد أمضوه ، ومن ضعفها لأنها لم تقف أمام تهور إرلند . كانت تعرف أنه كان وسيبقى أبداً مبذراً . أنه لم تكن لديه حنكة في تجارة البضائع والأدوات... وكانت هذه تتضاءل بين يديه ببطء إنما دون توقف . لقد استطاعت أن تجعله يحسن إدارة أمر أو أمرين حين منحته المشورة هي والسيرا آيليف... ولكن لم تكن قادرة بعد الآن على التحدث إليه عن مثل هذه الأمور ، وكان أمراً مغرياً أيضاً الآن أن تستسلم للسعادة معه . كانت منهكة جداً من النضال والكفاح ضد كل الأمور خارج روحها وداخلها على السواء . ومع ذلك كانت هي امرأة تجعلها المتعة اللامبالية مليئة بالهموم وخائفة .

هنا في بيت أهلها تطلعت لتجد السلام الذي أحست به في طفولتها تحت حماية أبيها .

و لكن لا... لم تشعر بالأمان . كان لدى إرلند دخل جيد من عمله كحاكم ، ولكنه كان يعيش الآن بالمزيد من الأبهة مع عائلة أكبر وخدم أكثر وأتباع زعيم كبير . وكان قد بدأ يجعلها خارج كل شؤون حياته التي لا تخص الأشياء الحميمة من حياتهما المشتركة . وقد فهمت أنه لن يرغب في جعل عينيها الحريصتين تراقبان أفعاله . مع الرجال كان يتحدث برغبة عن كل ما رآه وجرّبه في الشمال..و لكنه لم يكن يذكر لها شيئاً عن ذلك . وكانت هناك أمور أخرى . كان قد قابل الليدي انجيبورغ ، أم الملك ، والسير كنوت بورس أكثر من مرة واحدة خلال هذه السنوات . ولم يحدث أن كانت معه خلال كل هذه المرات . كان السير كنوت دوقاً في الدانمارك الآن ، وكانت ابنة الملك هاكون قد ارتبطت به بعرى الزواج . كان الزواج قد أيقظ غضباً مراً في أذهان كثير من النرويجيين . وقد اتُخذت خطوات -لم تفهم كريستين ما هي- ضد الليدي . ولكن أسقف بيورغفين قد أرسل بعض الصناديق إلى هوسابي . كانت الآن على متن السفينة "مارغيغرن" والسفينة راسية في "نيس" . كان إرلند قد أعطي رسائل وكان عليه أن يبحر إلى الدانمارك في وقت لاحق في الصيف . راح يضغط عليها لترافقه ، ولكنها كانت مصمّمة على عدم الذهاب . كانت تعلم أن إرلند كان يتحرك بين هؤلاء الناس الكبار كندّ لهم وكقريبهم العزيز ، وكانت تخشى ما يمكن أن ينتج عن ذلك . كان الأمر غير آمن مع شخص شديد الاندفاع والتهور كإرلند . ولكنها لم تستطع أن تستجمع شجاعتها للذهاب معه... ما كانت قادرة على جعله يصغي إلى المشورة هنا ، وكانت تكره أن تغامر بنفسها في

رفقة أشخاص كانت هي بينهم مجرد ربة بيت عادية . ثم كان هناك رعبها من البحر... وكان دوار البحر بالنسبة إليها أمراً أسوأ من أصعب مخاض .

و هكذا ، وبينما راحت تتجول في بيتها القديم ، فقد كان قلبها مرتجفاً وقلقاً .

•

في أحد الأيام مضت مع أبيها إلى سكيين . ثم رأت مجدداً التحفة الثمينة التي كانت لدى أصحاب تلك الضيعة . كان مهمازاً من الذهب الخالص ، كبيراً عتيق الطراز ، مع زخارف غريبة . وشأن كل طفلة في الريف كانت تعرف مصدره .

كان ذاك في المرة الأولى بعد أن عمّد القديس أولاف "ديل" حين اختطفت "أودهيلد حسناء سكيين" إلى الجبل . لقد جروا جرس الكنيسة صعوداً نحو الجبل وهناك قرع الجرس لأجل الفتاة العذراء ، وفي مساء اليوم الثالث عادت ماشية عبر المراعي ، وكانت مزينة بالذهب إلى حد أنها كانت تلمع كنجم . ثم انقطع الحبل ، وسقط الجرس إلى الوادي ، وكان على أودهيلد أن تعود إلى الجبل مجدداً .

و لكن بعد سنوات كثيرة من ذلك وصل في إحدى الليالي اثنا عشر محارباً إلى الكاهن... كان أول كاهن يتواجد في "سيل" . كانوا يرتدون خوذات ذهبية ودروعاً فضية ويركبون جياداً سمراء داكنة اللون . كان هؤلاء هم أبناء أودهيلد من "ملك الجبل" وقد طلبوا برجاء أن تمنح أمهم فرصة أن تُدفن كامرأة مسيحية وقبراً في أرض مقدسة . لقد ناضلت لتحتفظ بإيمانها وأن تحترم أيام الكنيسة المقدسة وهي في الجبل ، وقد كانت تصلي بحرقة

شديدة لتحصل على مثل هذه البركة . ولكن الكاهن أنكر عليها ذلك... قال الناس إنه بسبب هذا لم يجد الراحة في قبره ، ولكن في ليالي الخريف كان يسمع وهو يمشي في البستان إلى شمال الكنيسة ، وهو يبكي ويئنّ من قسوته . وفي الليلة نفسها ظهر أبناء أودهيلد في سكيين حاملين تحية أمهم إلى والديها العجوزين . وفي الصباح وجدوا المهماز الذهبي في الباحة . وكان واضحاً أن أولئك الأشخاص هناك لا زالوا يعتبرون رجال سكيين أقرباء لهم ، فقد كان حظهم كبيراً في الجبال .

قال لافرانس لابنته وهما يتجهان إلى البيت في الليلة الصيفية على جواديهما :

"لقد تلا أولاد أودهيلد الصلوات التي تعلموها من أمهم . لم يستطيعوا التلفظ باسم الرب أو يسوع ، ولكنهم تلوا "صلاة السيد" و"العقيدة" على هذا النحو : أؤمن بالرب القادر ، وأؤمن بالابن الوحيد المنجب ، وأؤمن بالروح الكلية القدرة . ثم قالوا : تباركت أيتها السيدة المباركة بين النساء... وتباركت ثمرة رحمك... راحة العالم أجمع..."

نظرت كريستين بخجل إلى وجه أبيها النحيل الملوح . في ليلة الصيف النيرة بدا وجهه وقد أنهكته الأحزان والتأملات كما لم يسبق لها أن رأته .

قالت بصوت خفيض : "لم تذكر لي هذا من قبل ."

"ألم أفعل ؟ أوه ، كلا . ربما اعتبرت أن هذه الحكاية قد تمنحك أفكاراً أثقل ممّا قد تتحمله سنك . يقول السيرا آيريك إنه مكتوب في كتاب القديس بولص الإنجيلي : "لا يئن مانهوم لوحده من العبء الثقيل" .

•

في أحد الأيام جلست كريستين تخيط على أعلى الدرج المؤدي إلى

القاعة العليا ، حين دخل سايمون إلى الساحة راكباً جواده وتوقف تحتها مباشرة ، ولكنه لم يرها . خرج أبواها كلاهما لملاقاته . لا ، سايمون لا يريد الترجل . لقد طلبت منه رامبورغ أن يجلب لها خلال مروره الخروف الذي كان حملها المدلل ، حيث لا يجب أن يرسل إلى الجبال بل تود أن تبقيه معها الآن .

سمعت كريستين أباها يضرب رأسه بيده . أجل خروف رامبورغ... ثم ضحك ضحكة غاضبة . لقد حدث أمر سيئ... فقد كان يأمل أن تكون قد نسيته . فقد أعطى أكبر حفيدين من أحفاده بلطتين صغيرتين ، لكل واحد منهما واحدة . وأول شيء فعلاه هو استخدامهما لذبح خروف رامبورغ .

ضحك سايمون قليلاً :

"أجل ، صبيان هوسابي... يا لهم من طاقم من الأوغاد...!"

هبطت كريستين الدرج بسرعة وقد نزعت مقصها الفضي من السلسلة المربوطة بحزامها :

"فلتعط رامبورغ هذا كتعويض عن ذبح ابنيّ لخروفها... أعرف أنها كانت تريد هذا المقص منذ كانت صغيرة . ولن يقول أحد إن أولادي..." كانت تتكلم بانفعال ثم صمتت فجأة . لقد رأت وجهي أبيهاوأمها... كانا ينظران إليها بجدية واستغراب .

لم يتحرك سايمون لأخذ المقص . بدا كأنه مرتبك . ثم شاهد بيورغولف فسار بحصانه نحوه ثم انحنى ورفع الصبي إلى قوس سرجه ووضعه أمامه : "إذن فأنت من الفايكنغ الذين يهاجمون شواطئنا ؟ حسناً ، أنت سجيني ، وغداً يستطيع والداك القدوم إليّ وسوف نتفاوض على فديتك ."

و هكذا لوح ضاحكاً للآخرين وانطلق والصبي يناضل ويضحك بين ذراعيه . كان سايمون قد بنى علاقة ودية مع أولاد إرلند . تذكرت كريستين أنه كان دائماً يعرف كيف يتعامل مع الأطفال ، فقد كانت أختاها الصغيرتان أحبتاه . كان يثيرها إلى حد غريب أن يكون شديد الولع بالأطفال ولديه تلك النزعة للعبث معهم ، بينما كان زوجها يكره الإصغاء إلى حديث الأطفال .

و في اليوم التالي ، حين كانوا في فورمو ، استطاعوا أن يروا بوضوح أن زوجة سايمون لم تكن ممتنة جداً لجلبه ذلك الضيف إلى المنزل .

قالت راغنفريد : "لا أحد يتوقع أن تهتم رامبورغ كثيراً بالأطفال الآن . فهي لم تغادر سن الطفولة إلا بالكاد بعد . ولكني أضمن أنها ستتغير حين تكبر ."

"لا شك أنها ستفعل ." تبادل سايمون وحماته نظرة ثم ابتسامة خفيفة جديدة . آه ، فكرت كريستين ، أجل ، لقد مرّ على الزواج شهران تقريباً حتى الآن...

●

من خلال الانزعاج والقلق اللذين راحت كريستين تعاني منهما الآن ، كانت ميالة إلى تنفيس غضبها في إرلند . كان يمضي رحلته في ضيعته أبيها بسرور ورضا ، كرجل ذي ضمير مرتاح . كان على علاقة طيبة مع راغنفريد ولم يكن يخفي حبه القلبي لحميه . كما بدا لافرانس مولعاً بصهره . ولكن كريستين كانت قد أصبحت شديدة الحساسية والمراقبة حتى أنها أحست في لطف لافرانس لإرلند الكثير من ذلك الحنان المشفق الذي كان لافرانس

يبديه دائماً لكل ما هو حيّ وغير ملائم للوقوف على قدميه على نحو ما . كان حبه لزوج ابنته الأخرى من نوع آخر : كان سايمون صديقاً ورفيقاً له .

كما كان سايمون وإرلند ودودين حين يلتقيان ، ولكنهما لم يكونا يحبان رفقة أحدهما للآخر . كانت كريستين لا تزال تشعر بنفور خفيّ من سايمون دار... وذلك بسبب ما كان يعرفه عنها ، وكذلك لأنها كانت تعرف أنه منذ ذلك اليوم في أوسلو فقد خرج من المسألة بشرف وإرلند بالعار . لقد كانت غاضبة من فكرة أن يكون إرلند قادراً حتى على نسيان هذا . وهكذا لم تكن أبداً ذات مزاج طيب مع زوجها . ولو كان إرلند في مزاج يتحمل فيه تذمرها بطيبة وتواضع ، فقد كان يثيرها ألاّ يأخذ كلامها على مأخذ الجد . وفي يوم آخر قد يصدف أن يكون مزاجه نكداً فعندها كان يغضب وكانت ترد عليه ببرود ومرارة .

في إحدى الأمسيات جلسوا في مبنى المدفأة في يوروندغارد . كان لافرانس يشعر أنه في بيته في هذا المبنى ، وخاصة في الطقس الماطر حين يكون الهواء ثقيلاً ، كما هو اليوم ، ففي القاعة الكبرى السقف مسطح والدخان من المدفأة كان مزعجاً جداً . ولكن في غرفة المدفأة كان الدخان يصعد ويعلق تحت شجرة السقف حين كان عليهم أن يغلقوا فتحة التهوية بسبب الطقس العاصف .

جلست كريستين إلى القرب من المدفأة ، وهي تخيط . كانت في مزاج سيئ وكئيبة . إلى فوق كانت مارغريت نصف نائمة فوق عملها بالخياطة ، وتتثاءب بين الحين والآخر . أما الأطفال فيلعبون بصخب في الغرفة . كانت راغنفريد في مورمو ، ومعظم الخدم خارجاً . جلس لافرانس في مقعد مرتفع ، وإرلند في النهاية العليا للمقعد الخارجي . كان لوح الشطرنج

بينهما ، وراحا يحركان القطع في صمت وبعد الكثير من التأمل . مرة حين بدا على إيفار وسكوله أنهما مصممان على تمزيق جرو إلى نصفين بينهما ، نهض لافرانس وأخذ الحيوان الزاعق الصغير من يديهما . لم يقل شيئاً ، ولكنه جلس مجدداً ليستأنف اللعب وهو يضع الجرو في حضنه .

اقتربت منهما كريستين ووقفت ويدها على كتف زوجها ، وراحت تراقب اللعب . كان إرلند أقل مهارة بكثير في اللعب من حميه ، وغالباً ما كان يضيع حين يلعب في الأمسيات . ولكنه كان يأخذ هذه الأمور بمزاج جيد لامبال . في هذا المساء كان يلعب على نحو أسوأ من عادته . قرّعته كريستين مرة أو مرتين... ليس بلطف كبير . ثم قال لافرانس أخيراً بنكد :

"كيف يمكن لإرلند أن يركز أفكاره على اللعب بينما تقفين هكذا وأنت تزعجينه ؟ ما الذي تريدينه هنا يا كريستين ؟ لم تكوني ماهرة في مثل هذه الألعاب أبداً ."

"لا ، أعتقد أنكم تظنونني لا أفهم في أي شيء..."

"هناك شيء واحد لا تفهمين فيه" ، قال أبوها بحدة ." وهو كيف يليق بالزوجة أن تكلم زوجها . كان الأجدر بك أن تبقي أولادك ضمن حدودهم...الضجة التي يثيرونها أسوأ من الصيد الوحشي ."

مضت كريستين ووضعت أولادها في رتل واحد على المقعد وجلست إلى القرب منهم .

قالت : "اهدؤوا أيها الأطفال . جدكم لا يحب أن تسببوا أي ضجيج أو أن تلعبوا هنا ."

رفع لافرانس نظره إلى ابنته ، ولكنه لم يقل شيئاً . سرعان ما دخلت المربيات وخرجت كريستين والمربيات ومارغريت مع الأطفال لوضعهم في أسرتهم . قال إرلند بعد أن بقي وحيداً مع حميه :

"كنت أتمنى يا حماي لو أنك لم تقرّع كريستين كما فعلت . لو كان يريحها أن تهاجمني حين تكون في مزاج سيئ ، عجباً ،... فالأمر لا يستحق أن تكلمها عنه ، ولن تسمح لأحد أن يقول كلمة واحدة عن أطفالها..."

سأل لافرانس : "و أنت ، هل تريد أن تسمح بأن يكبر أبناؤك دون تقويم ؟ أين هن الخادمات اللواتي يجب أن يحتفظن بالأطفال إلى جانبهن ويرعينهم ؟"

قال إرلند ضاحكاً وهو يتمطمط : "لقد ذهبن إلى مساكن خدمك الذكور على ما أعتقد جازماً . ولكني لا أجرؤ على قول كلمة لكريستين حول خادماتها... لأنها ستغضب عندئذ ، وتقول إنها وأنا لم نكن مثالاً يحتذى من قبل الآخرين ."

•

في اليوم التالي ، وبينما ذهبت كريستين لقطف الفريز على امتداد المرج إلى الجنوب من الضيعة ، ناداها أبوها من باب ورشة الحدادة ، وأمرها أن تأتي إليه .

ذهبت كريستين ولكن ضد إرادتها . كان السبب هو ناكفه مجدداً ، على وجه الاحتمال... فقد ترك هذا الصباح بوابة مفتوحة وقد دخل القطيع إلى حقل الشعير .

تناول أبوها قطعة حديد محماة حمراء من الكير ووضعها على السندان . جلست الابنة وانتظرت ، ولمدة طويلة لم يكن هناك صوت سوى ضربات المطرقة ، وهي تضرب الحديد الذي يصدر الشرار محولة إياه إلى كلاّب قدر ، ورنين السندان . وأخيراً سألته كريستين عمّا يريد .

كان الحديد بارداً الآن . وضع لافرانس الملقط والمطرقة جانباً واقترب منها . وبالسخام الذي على وجهه وشعره ، وملابسه ويديه المسودتين ، والمريلة الجلدية الكبيرة أمامه ، بدا لها أكثر صرامة من عادته .

"لقد ناديتك يا ابنتي لأقول لك ما يلي : عليك هنا في منزلي أن تظهري لزوجك الاحترام اللائق بزوجة . لا أريد أن أسمع ابنتي تخاطب سيدها كما فعلت مع إرلند البارحة ."

"هذا أمر جديد نوعاً يا أبي ، أن تعتبر إرلند رجلاً يستحق الاحترام من الناس ."

قال لافرانس : "إنه زوجك . لم أجبرك على الزواج منه . عليك أن تتذكري هذا ."

أجابت كريستين : "أنتما الاثنان صديقان حميمان . لو كنت تعرفه آنذاك كما تعرفه اليوم ، لا شك أنك كنت ستسعد بالضغط علي" .

نظر أبوها إليها بجدية وحزن :

"الآن تتكلمين بسرعة يا كريستين وتقولين ما تعرفين أنه غير صحيح . لم أحاول الضغط عليك ، حتى حين كنت مصممة على التخلّي عن خطيبك الشرعي ، رغم أنك تعرفين أني كنت أحب سايمون من كل قلبي..."

"كلا... ولكن لأن سايمون أيضاً ما عاد يريدني..."

"كلا... كان نبيلاً إلى حد أنه كان مصراً على حقوقه ، حين رآك غير راغبة فيه . ولكني لا أعرف إن كان في أعماق قلبه غير راض لو أني فعلت ما طلبه مني أندرس دار... ألاّ أهتم إطلاقاً بعناد كما أنتما الاثنين . وكنت أكاد أشك في أن السير أندرس لم يكن على حق... حيث أني أرى الآن أنك لا

تستطيعين الحياة على نحو لائق مع الزوج الذي بذلت كل ما في وسعك لتناليه..."

ضحكت كريستين عالياً ، ضحكة قبيحة :

"سايمون! ما كان يمكنك أن تجبر سايمون على الزواج من امرأة وجدها مع رجل آخر في منزل كذاك..."

أمسك لافرانس بأنفاسه . "منزل ؟" وقد لفظ هذه الكلمة لاهثاً .

"أجل... منزل من ذاك النوع الذي تسمونه أنتم الرجال بالماخور . والمرأة التي كانت تمتلكه... كانت عشيقة مونان... وقد حذرتني بنفسها من أن عليّ ألاّ أذهب إلى هناك . ولكني قلت إني سأذهب لمقابلة قريبي... لم أكن أعرف أنه كان قريبها هي..." ضحكت مجدداً ضحكة مجنونة قاسية .

قال الأب : "صه!"

وقف هادئاً للحظة . ارتجف وجهه... كانت هناك ابتسامة جعلته شاحباً . ثم خطرت لها فكرة جبل حُرجي... كيف يصبح أبيض حين تهب عليه عاصفة فتقلب كل أوراق الشجر في موجة من النور اللامع الشاحب :

"لا يتعلم من لا يطرح الأسئلة..."

جثمت كريستين حيث كانت جالسة على المقعد ، متكئة على مرفق واحد ، وهي تخفي عينيها باليد الأخرى . ولأول مرة في حياتها شعرت بالخوف من أبيها... بالخوف الشديد .

التفت بوجهه عنها ، وذهب وحمل المطرقة ووضعها في مكانها بين المطارق الأخرى . ثم جمع المبارد والأدوات الصغيرة الأخرى ، وراح يضعها كلاً في مكانها على عمود العارضة المستعرضة بين الجدران . وقف وظهره إليها ويداه ترتجفان بعنف .

"ألم تفكري أبداً يا كريستين... أن إرلند بقي صامتاً فيما يخص هذا ؟" وقف أمامها وهو ينظر إلى وجهها الشاحب الخائف . "لقد أجبته بلا ، بكل كياسة ، حين جاء إليّ في تونسبرغ مع أقربائه الأغنياء وخطبك مني... لم أكن أعرف آنذاك أنه كان عليّ أن أشعر بالامتنان له لأنه كان راغباً في حماية شرف ابنتي المهدور... كان من شأن غيره من الرجال وهم كثر أن يعلموني بذلك آنذاك...

"لقد جاء ثانية وخطبك بكل شرف . لم يكن من شأن كل الرجال أن يكونوا مخلصين إلى هذا الحد في النضال لنيل زوجة كان قد سبق لها –سبق لها– أن كانت كما كنت أنت آنذاك ."

"أعتقد أن أي رجل لم يتجرأ على إخبارك بذلك..."

"لم يكن إرلند يخشى السيف..." أصبح وجه لافرانس متعباً إلى حد لا يوصف . كما أن صوته صار أجوف وميتاً . ولكن سرعان ما قال بهدوء وثبات :

"رغم أن كل هذه القضية كانت رديئة... إلا أني أعتقد أن أسوأ ما فيها أن تحكي أنت عن ذلك الآن بعد أن أصبح زوجك أباً لأبنائك...

"لو كان الأمر كما تقولين ، فأنت عرفت أسوأ ما فيه قبل أن تتحدّي كل شيء حتى تتزوجي منه . وكان هو راغباً في شرائك بأغلى سعر ممكن وكأنك كنت فتاة شريفة . لقد منحك الكثير من الحرية في إدارة حياتك وشؤونك... لذلك عليك أن تكفري عن إثمك بأن تديري بالتفاهم وأن تعوّضي عما ينقص إرلند من الحكمة... أنت مدينة بالكثير لربك وأطفالك .

"لقد قلت أنا نفسي –و قال آخرون ما قلته– إن إرلند لم يبد ملائماً

لأي شيء آخر عدا خداع الناس . أنت مسؤولة جزئياً عن مثل هذه الأمور التي قيلت... والتي شهدت عليها للتو . ومنذ ذلك الحين أظهر أنه على أي حال أهل لأمر آخر : فقد اكتسب لنفسه شهرة في الجرأة والقيادة السريعة في الحرب . وليست هذه بالمكاسب الضئيلة لأبنائك أن يكون أبوهم قد اكتسب شهرة بالجرأة وفن حمل السلاح . أما أنه غير حكيم ، فقد كان عليك أن تعرفي ذلك أفضل منا جميعاً . والأفضل أن تعوضي عن عارك بأن تكرمي وتساعدي الزوج الذي اخترته بنفسك..."

كانت كريستين قد انحنت نحو الأمام من فوق حضنها ، ورأسها بين يديها . رفعت بصرها الآن بعنف ويأس :

"لقد كان تصرفاً قاسياً مني أن أحكي لك كل هذا . أوه ، لقد رجاني سايمون ، كان ذاك هو الأمر الوحيد الذي رجاني أن أفعله... أنه عليّ أن أعفيك من معرفة الأسوأ..."

"أطلب منك سايمون أن تعفيني ؟" سمعت المعاناة في صوته . كما عرفت أن هذا أيضاً كان تصرفاً قاسياً منها ، أن تحكي له أن غريباً رأى أنها في حاجة إلى أن يطلب إليها أن تعفي والدها .

ثم جلس لافرانس إلى القرب منها وأخذ إحدى يديها بين كلتا يديه ووضعها على ركبته .

قال بلطف وحزن : "كان تصرفاً قاسياً يا كريستيني . أنت لطيفة مع الجميع يا طفلتي ويا كنزي ولكن... رأيت الأمر قبل هذا أيضاً... تستطيعين أن تكوني قاسية مع أولئك الذين تحبينهم جداً . لأجل خاطر يسوع ، يا كريستين ، أعفيني من الحاجة إلى الخوف عليك على هذه الحال... الخوف من أن هذا القلب الثائر خاصتك سيجلب المزيد من الحزن لك ولأسرتك . أنت

تحرنين وتعاندين كأي مهرة تربط إلى وتد ، كلما ربطتك خيوط قلبك ."

اتكأت على أبيها باكية ، واحتضنها أبوها بين ذراعيه وضمها بقوة . وقد جلسا على هذا النحو لفترة طويلة ، ولكن لافرانس توقف عن الكلام . وأخيراً رفع لها رأسها .

قال بابتسامة صغيرة : "الآن أصبح لونك أسود . هناك خرقة في تلك الزاوية ، ولكنها قد تجعلك أكثر اسوداداً لو استخدمتها . عليك أن تذهبي إلى البيت وتنظفي نفسك... أي شخص يراك سيعرف أنك كنت جالسة في حضن حداد..."

دفعها إلى خارج الباب وأغلقه خلفها ، وتوقف للحظة . ثم تعثر فوق الدرجات القليلة حتى المقعد وغرق هناك فوق ورأسه مسند إلى الجدار الخشبي ووجهه مرفوع إلى الأعلى وقد التوت ملامحه . وبكل قوته ضغط بيد واحدة على قلبه .

و لكن هذا لم يدم طويلاً . اللهاث ، الدوار الأسود ، والألم المنطلق عبر الأطراف من القلب الذي راح يناضل ويرتجف ، ثم ضرب ضربة أو ضربتين قويتين ووقف يرتجف لا يزال . كان الدم يقرع في عروق الرقبة .

ستمرّ الأزمة بعد فترة قصيرة . غالباً ما تمر بعد أن يجلس قليلاً . ولكنها تكررت مجدداً مرات ومرات أخرى .

كان إرلند قد تواعد مع طواقم سفينته على اللقاء في فيوي[١٣] في مساء يوم قداس القديس جيمس ، ولكنه تأخر في يوروندغارد لفترة أطول ليصاحب سايمون في رحلة لصيد الدب الكبير الذي كان يهاجم قطعان السايتر . حين عاد إلى البيت من الصيد ، وجد رسالة تنتظره بأن رجاله قد

تشاجروا مع رجال البلدة وعليه الإسراع إلى هناك لإخراجهم من السجن بكفالة . كان لدى لافرانس مهمة في تلك المنطقة ، فركب مع صهره إلى هناك .

لم يتمكنوا من الذهاب إلى الجزيرة إلا مع اقتراب احتفال قداس أولاف من نهايته . كانت سفينة إرلينغ فيدكونسون راسية هناك ، وعند صلاة المساء في كنيسة بطرس قابلا الوصي السامي . وصل معهما إلى الدير حيث كان لافرانس يقيم ، وتناول العشاء معهما هناك وأرسل رجاله إلى السفينة ليحضروا بعض النبيذ الفرنسي النادر الجيد كان قد حصل عليه في نيداروس .

و لكن الحديث جرى متعثراً مع شرب النبيذ . جلس إرلند ملتفاً بأفكاره ، وعيناه لامعتان وتواقتان ، شأنه كلما كان مقدماً على مغامرة جديدة ، ولكنه غير مكترث بكلام الآخرين . راح لافرانس يرتشف النبيذ أما سير إرلينغ فكان هادئاً ولم يقل سوى القليل .

قال إرلند له : "تبدو مرهقاً يا قريبي" .

أجل كان مرورهم عبر هوساستادفيكن ضمن ظروف جوية قاسية في الليلة السابقة ، وقد بقي مستيقظاً...

"و عليك أن تقود جوادك بسرعة إن أردت أن تكون في تونسبرغ في يوم قداس لافرانس . ولن تجد سوى القليل من السلوان أو الراحة هناك . هل الماستر بال مع الملك الآن... ؟"

"أجل . هل ستمرّ بتونسبرغ في طريقك ؟"

"لأسأل إن كان الملك يود مني أن أحمل تحياته الودية والدالة على الطاعة إلى أمه ؟" ضحك إرلند . "أو إن كان الأسقف أولفين يود أن يرسل كلمة إلى الليدي معي... ؟"

"يستغرب الكثيرون سفرك إلى الدانمرك الآن مع أن زعماء المملكة يصلون في الوقت الحاضر لعقد الاجتماع في تونسبرغ ،" قال السير إرلينغ .

"أجل ، أليس غريباً أن يستغرب الناس دائماً من تصرفاتي ؟ لا شك أنه ليس بالأمر العجيب أن تكون لدي رغبة في رؤية تلك الأخلاق وتلك التربية التي لم أر مثلها منذ أن كنت في الدانمارك آخر مرة... وأن أشترك في مباراة للفرسان مرة أخرى... بما أن قريبتنا قد دعتني للذهاب إلى هناك . أنت تعرف جيداً أنه ليس بين أقربائها في هذه البلاد من يعترف بها الآن سوى مونان وأنا " .

"مونان..." ، عبس إرلينغ ثم ضحك . "هل لا زالت هناك بقية حياة في الخنزير العجوز بحيث يستطيع أن يحرك لحمه ؟ هذا ما كدت أسألك عنه... إذن سيقيم الدوق كنوت مباراة للفرسان . لا شك إذن في أن مونان سيشارك في المبارزة ؟"

"أجل... لأنه لأمر مؤسف يا إرلينغ أنك لا تستطيع مرافقتنا لتشاهد ما سيجري ." ضحك إرلينغ أيضاً . "ألاحظ جيداً أنك تخشى أن تكون الليدي انجبيورغ قد أمرتنا بالذهاب لحضور احتساء نخب العماد حتى نخمر الجعة لحفل آخر وندعوها إليه . كلا ، لا بد أنك تعرف جيداً أني ثقيل اليد جداً بحيث لا أصلح للمؤامرات . وأنت قلعت كل ضرس في فم مونان..."

"أوه كلا ، لسنا خائفين إلى هذا الحد أيضاً من المؤامرات . أعتقد أنه يجب أن يكون واضحاً كالنهار لإنجبيورغ هاكونسداتر الآن أنها قد تنازلت عن كل حقوقها في أرضها حين تزوجت من ذلك البورسي . ستكون مسألة صعبة عليها أن تضع قدماً داخل أبوابنا ، بعد أن وضعت يدها في يد ذلك الرجل الذي لا نريد منه أن يتدخل إطلاقاً في شؤوننا ."

"اجل ، كان ذاك أمراً حكيماً منك بالفعل عندما فصلت الولد عن أمه" ، قال إرلند بغموض . "إنه مجرد طفل لا يزال... ويحق لنا نحن النرويجيين أن نرفع رؤوسنا عالياً حين نفكر أن الملك الذي يحكمنا قد أقسم يمين الولاء لـ..." .

قال إرلينغ فيدكونسون بصوت خفيض وبشدة : "اصمت! ليس الأمر صحيحاً ونحن على ثقة من ذلك..."

قال إرلند :

"هذا ما يُهمس به في كل ضيعة وفي كل كوخ في الشمال هناك بأن كنيسة المسيح قد احترقت لأن ملكنا ليس أهلاً للجلوس على كرسي القديس أولاف..."

"باسم الرب يا إرلند... أقول إن الأمر لم تتأكد صحته بعد . ولو صح ذلك ، فإن طفلاً شأن الملك ماغنوس ، هو حتماً دون خطيئة في عيني الرب... وهو قادر على إصلاح نفسه... أتظن أننا أبعدناه عن أمه ؟ أقول فليعاقب الرب تلك الأم التي تخون ابنها مثلما خانت انجبيورغ ابنها... ولا تضع ثقتك بشخص كهذا يا إرلند... تذكر أن من تسافر لتقابلهم الآن أناس غير جديرين بالثقة!"

"أعتقد أنهم قد حافظوا على ثقة الواحد منهم بالآخر جيداً... أما فيما يخصك أنت ، فأنت تتكلم وكأن الرسائل من السماء كانت تسقط في حجرك يومياً... هذا ما يجعلك جريئاً على النزال مع أسياد الكنيسة على الأرجح ."

"كلا ، دعنا ننهي هذا يا إرلند . تكلم عن أمور لديك من الذكاء ما يكفي لفهمها يا ولد ، وإلاّ فاصمت ."... كان السير إرلينغ قد نهض ووقف هو وإرلند وجهاً لوجه ، وقد احمر وجهه من الغضب .

"أوه ، انتبه للسانك يا إرلند" ، تابع بعد قليل . فكّر مرتين قبل أن تنطق في ذلك المكان الذي أنت مسافر إليه . وفكر ، فكر عشرين مرة قبل أن تفعل أي شيء..."

"إن كان هذا ما تفعله أنت ، يا من تحكم البيت هنا ، فلا عجب أن كل الأمور لا تتحرك إلا ببطء . ولكن عليك ألا تخشى شيئاً" ، تثاءب . "لن أفعل شيئاً على ما أعتقد . ولكن بلادنا هذه أصبحت صعبة على العيش...

"أجل... أنت ستنطلق باكراً في الصباح . يبدو على حميّ أنه متعب..."

جلس الآخران في صمت ، بعد أن تمنى لهما ليلة طيبة... كان إرلند ينام على متن سفينته... جلس إرلينغ فيدكونسون يقلب قدحه بين أصابعه .

قال لمجرد أن ينطق بشيء ما : "أ أنت تسعل ؟"

"يصاب الرجال العجائز بالرشح بسهولة كبيرة . لدينا نحن الكثير من الأمراض كما ترى يا سيدي ، والتي لا تعرفونها أنتم الشبان" ، قال لافرانس مبتسماً .

و صمتا من جديد ، حتى قال إرلينغ فيدكونسون كأنما يخاطب نفسه :

"أجل... هكذا يفكر كل الرجال... أن هذه البلاد لا تدار جيداً . منذ ست سنوات في أوسلو ، ظننت أني رأيت بوضوح أن هناك نية وطيدة لدعم السلطة الملكية... بين رجال البيوتات الكبيرة الذين يقع عليهم هذا الواجب بموجب مولدهم . وقد اعتدت أنا على ذلك ."

"أعتقد أن ما رأيته كان صواباً يا سيدي ولكنك قلت بنفسك إننا معتادون على التجمع من حول ملكنا... والآن ملكنا طفل... وهو يقضي نصف أوقاته في بلد أجنبي..."

"أجل . هناك أحيان أفكر فيها أننا قد نجد خيراً في أشياء نكرهها . في

قديم الزمان حين كان ملوكنا يتصرفون كالجياد البرية... كان هناك دائماً احتياطي من المهور الشجاعة لتربيتها . كان على شعبنا أن يختار فحسب المهر الذي كان أفضل المقاتلين..."

ضحك لافرانس قليلاً : "أوه ، أجل..."

لقد تكلمنا معاً قبل ثلاث سنوات يا لافرانس لاغماندسون ، حين عدت من حجك إلى سكوفده وزرت أقرباءك في غاوتلاند..."

"أتذكر يا سيدي أنك شرفتني بالبحث عني ."

"كلا ، كلا ، يا لافرانس ، لا حاجة إلى كل هذه المجاملات" ، ثم ضرب بيده الهواء لنفاذ صبره . "الأمر حتى كما قلت آنئذ" ، تابع بكآبة . "لا أحد يستطيع لمّ شمل النبلاء الآن في هذه البلاد . إنهم يدفعون إلى الصفوف الأمامية أولئك الأشد رغبة في ملء بطونهم... لا يزال هناك بعض اللحم في القدر . أما أولئك الطامحون في كسب السلطة والثروة بمثل هذه الخدمة التي كانت مشرفة في أيام آبائنا ، فهم ما عادوا يتقدمون ."

"هكذا يبدو الأمر . صحيح أن الشرف يتبع راية الزعيم" .

"إذن لا بد أن الرجال يعتقدون أن رايتي لا يتبعها سوى القليل من الشرف" ، قال إرلينغ بلهجة جافة . "أنت أيضاً ابتعدت عن كل ما حقق لك الشهرة ، يا لافرانس لاغماندسون" .

"هذا ما فعلته منذ أن تزوجت يا سيدي . لقد تزوجت في سن مبكرة... كانت زوجتي مريضة ، وصحتها لا تتحمل التجول في صحبتي . ويبدو كأن سلالتنا لا تزدهر في النرويج هنا . لقد مات أبنائي صغاراً ، ولم يعش سوى واحد من أولاد أخي ليبلغ مبلغ الرجال ."

جلسا مجدداً في صمت .

قال الوصي السامي بصوت خفيض : "الرجال من أمثال إرلند... إنهم الأشد خطراً . إنهم أولئك الذين لهم أفكار تذهب إلى أبعد من اهتماماتهم بقليل... ولكن ليس إلى مسافة كافية . أجل ، أليس هو أشبه بطفل كسول ، إرلند هذا... ؟" راح يحرك قدح النبيذ بعصبية على المائدة . "ليس هو بالمغفل! كما أنه نبيل المحتد وشجاع . ولكنه لا يزعج نفسه بسماع الكثير عن أي مسألة بحيث يفهمها بالكامل... ولو أنه اهتم بسماع ما يقوله له شخص ما ، لكان سينسى البداية قبل أن يصل إلى النهاية..."

نظر لافرانس إلى الآخر . كان السير إرلينغ قد شاخ كثيراً منذ أن رآه لآخر مرة . بدا منهكاً وتعباً... لم يعد يملأ كرسيه كما من قبل . كانت ملامحه جميلة واضحة ، ولكنها كانت صغيرة جداً ، كما كان لونه شاحباً... شأنه دائماً . أحس لافرانس أن هذا الرجل... رغم أنه كان رجلاً مستقيماً وذا أخلاق فروسية وحكيماً وراغباً في أن يخدم بإخلاص وإقدام ، ومع ذلك ومهما كان قياسه ، إلا أنه كان صغيراً جداً ليحتل المركز الأول في هذه البلاد . لو كان أطول قامة بقليل ، لكان قد وجد بسهولة أكبر الكثير من الأتباع .

قال لافرانس بصوت خفيض :

"إن السير كنوت شخص حكيم بما فيه الكفاية حتى يرى هذا... إن كانوا يتآمرون على شيء ما هناك... فإنه لن يكون لإرلند نفع كبير فيما يخص أي مشاورات سرية..."

"أنت تحبّ صهرك هذا بأسلوب ما يا لافرانس" ، قال الآخر بحنق تقريباً . "رغم أنه ليس لديك -والحق يقال- سبب يدعوك إلى ذلك..."

جلس لافرانس يرسم بإصبعه على المائدة مستعملاً بعض النبيذ

المراق . لاحظ السير إرلينغ كم كانت الخواتم فضفاضة على أصابعه الآن .

رفع لافرانس بصره وهو يبتسم ابتسامة ضعيفة : "هل لديك سبب أنت ؟ ومع ذلك أعتقد أنك تحبه أيضاً ."

"أوه ، أجل ، والرب يعرف... ولكنك تستطيع أن تقسم يا لافرانس أن كثيراً من الأمور تجري في رأس السير كنوت الآن... فهو أب لابن هو حفيد الملك هاكون ."

"أجل ، ولكن حتى إرلند يجب أن يفهم أن أبا ذلك الطفل لديه طموح أكبر من أن يستطيع ذاك اللورد الصغير أن يلتف من حوله . كما أن الأم لديها كامل بلدنا ضدها بسبب ذلك الزواج ."

بعد برهة نهض إرلينغ فيدكونسون وتزنّر بسيفه . كان لافرانس قد أنزل بحركة تدل على المجاملة عباءة ضيفه من على الخطاف حيث كانت معلقة ، ووقف هناك وهي بين يديه... ثم ترنح فجأة وكاد يقع أرضاً ، لولا أن أمسك به السير إرلينغ بين ذراعيه . وبكثير من الألم والجهد استطاع أن يحمل الآخر ، وهو رجل ضخم طويل القامة ، إلى السرير . لم تكن تلك سكتة دماغية ، ولكن لافرانس كان متمدداً هناك وشفتاه زرقاوان وبيضاوان ، وأطرافه مرخية لا حول فيها . عدا السير إرلينغ عبر الباحة وأيقظ الأب المسؤول عن النزل .

بدا لافرانس شديد الخجل حين صحا . أجل ، كان الضعف يسيطر عليه بين الحين والآخر... وقد بدأ ذلك خلال رحلة صيد للأيائل جرت قبل شتائين... ضلّ طريقه في عاصفة ثلجية . ربما كان شيء كهذا مطلوباً ليلقن المرء درساً مفاده أن شبابه قد ولى... ابتسم معتذراً .

انتظر السير إرلينغ حتى قام الراهب بفصد الرجل المريض ، رغم أن لافرانس رجاه ألاّ يزعج نفسه ، وهو يعرف أن الرجل سينطلق عند الفجر .

كان القمر لامعاً ، وهو يصعد عالياً فوق جبال البر الرئيس ، وكان الماء أسود في ظل الجبال ، ولكن على الزقاق البحري طفا النور في رقاقات من فضة . لم يكن هناك دخان يخرج من أي فتحة تهوية ، والعشب على أسقف المنازل كان يلتمع من الندى تحت نور القمر . لم يكن هناك شخص واحد في الشارع القصير الوحيد في هذه البلدة الصغيرة ، بينما راح السير إرلينغ يمشي بسرعة قاطعاً المسافة القصيرة ، التي لا تتعدى بضع خطوات ، نحو بيت الملك ، حيث كان ينام . بدا رشيقاً على نحو غريب تحت نور القمر... والعباءة السوداء قد لفته على نحو وثيق... وهو يرتجف قليلاً . وصل زوج من الخدم كانا ساهرين في انتظاره وهما يتعثران إلى الباحة مع مصباح . أخذ الوصي السامي المصباح وأرسل الرجلين إلى الفراش... ارتجف ثانية وهو يصعد الدرج إلى علية المخزن ، حيث كان سينام .

٧

ما أن مرّ قداس بارتولوميو حتىٰ انطلقت كريستين إلى بيتها مع جماعتها الكبيرة المؤلفة من الأطفال والخدم وكل أمتعتهم . ركب لافرانس معهم حتى وصلوا إلى هييردكين .

كانا يتمشيان في الساحة يتحادثان ، هو وابنته ، في الصباح الذي كان سينطلق فيه هابطاً "ديل" مجدداً . كانت المنطقة المجاورة قابعة تحت نور الشمس اللامعة... فقد كانت الطحالب حمراء الآن ، والهضاب الصغيرة المدورة صفراء كالذهب من غيضات أشجار البتولا الصغيرة . هناك عالياً في الأراضي البور المرتفعة ، كانت البرك الجبلية تتلألأ وتعود لتصبح داكنة من جديد ، مع مرور الغيوم الكبيرة اللامعة ، غيوم الطقس الجميل من فوقها . بقيت تلتف نحو الأعلى دون توقف ، ثم هبطت فوق الصدوع والوديان الصغيرة البعيدة ، بين القمم الرمادية الحجرية والجبال الزرقاء مع أمشاط من الثلج الجديد وحقول الثلج القديم التي كانت تمتد بقدر ما تستطيع العين رؤيته . كانت البقع الرمادية الخضراء الصغيرة من القمح التي تنتمي إلى منزل الاستراحة تنتصب على نحو غريب أمام الألوان الخريفية لهذا العالم الجبلي اللامع .

كانت الريح تهب نضرة وقوية... شد لافرانس قلنسوة عباءة كريستين فوق رأسها بعد أن كانت قد نزلت فوق كتفيها ، ثم ملّس بأصابعه شريط غطاء الرأس الكتاني الذي كان بارزاً من تحتها .

قال : "أعتقد أنك قد شحبت ونحلت في منزلي . ألم نهتم بصحتك جيداً في البيت يا كريستين ؟

"لقد فعلتم ذلك . ولكن الأمر ليس كما تظن..."

قال الأب : "حقاً ، هذه رحلة متعبة لك ، مع كل هؤلاء الأطفال ."

"أجل . ولكن ليس بسبب هؤلاء الخمسة شحبت وجنتاي..." ثم التمعت ابتسامة على وجهها ، وحين نظر إليها أبوها متسائلاً في انزعاج ، أومأت برأسها وابتسمت ثانية ابتسامة صغيرة . أشاح الأب نظره عنها ، ولكنه سأل بعد قليل :

"بما أن الأمر على ما هو عليه ، فإنك لن تستطيعي القدوم إلينا مرة أخرى هنا في "ديل" خلال وقت قصير ؟"

"آمل على الأقل أنه لن يكون بعد ثماني سنوات" ، قالت باللهجة نفسها . ثم لمحت وجه الرجل فقالت : "أبي! أوه... أبي!"

"هدوءاً ، هدوءاً يا ابنتي..." ودون أن يقصد أمسكها من أعلى ذراعها وأوقفها حين أرادت أن ترمي بنفسها عليه . "كلا يا كريستين" .

أخذ بيدها بقوة في يده ، وبدأ يمشي مجدداً إلى القرب منها . كانا قد ابتعدا عن البيوت وراحا يجتازان الآن ممراً صغيراً بين أجمات أشجار البتولا الصفراء... لم يلاحظا أين كانا يتجهان . قفز لافرانس فوق جدول صغير كان يقطع الممر والتفت إلى ابنته وأعطاها يده .

لاحظت حتى في هذه الحركة الصغيرة أنه لم يعد رشيقاً ونشيطاً كما كان في الماضي . كانت قد رأت ذلك سابقاً ولكن دون أن تنتبه له جيداً... لم يعد يقفز إلى السرج بخفة كما كان يفعل . لم يعد يعدو صاعداً درج العلية . لم يعد يرفع شيئاً ثقيلاً بسهولة كما كانت عادته . لقد أصبح يتحرك بجسده على نحو أكثر تيبساً وحرصاً... كأنه كان يعاني من ألم هاجع في داخله وكان يتحرك ببطء حتى لا يوقظه . كان ممكناً مشاهدة الدم وهو يدق في عروق عنقه حين يدخل بعد ركوب لجواده . أحياناً كانت قد رأت ما بدا أنه انتفاخات أو جيوب تحت عينيه... وتذكرت أنه في صباح أحد الأيام حين دخلت القاعة حيث كان مضطجعاً نصف عار في السرير وساقاه العاريتان فوق قدم السرير ، فقد راحت أمها الجاثمة أمامه تفرك مفاصل كاحليه .

"إن كنت ستشعرين بالحزن على كل رجل يشيخ ، يا ابنتي ، فسيكون حدادك طويلاً " ، قال ذلك ببساطة وهدوء . "لديك أبناء رائعون الآن يا كريستين . لا شك أنك لم تكوني تتوقعين أن تري أباك رجلاً عجوزاً . حين افترقنا في الأيام السابقة بينما كنت لا أزال شاباً... لم نكن قادرين أن نعرف في ذلك الحين أكثر ممّا نعرفه الآن ، أي إن كان قدرنا أن نتقابل مجدداً على هذه الأرض . قد أعيش لفترة طويلة بعد... وهذه إرادة الله يا كريستين ."

"أأنت مريض يا أبي ؟" سألته بلهجة حيادية .

"بعض الأمراض تأتي مع التقدم بالعمر" ، أجاب أبوها بخفة .

"و لكنك لست عجوزاً يا أبي . أنت في الثانية والخمسين فحسب..."

"لم يعش أبي حتى هذه السن . تعالي واجلسي إلى القرب مني ."

كان هناك رف منخفض يكسوه العشب تحت جدار صخري يتكئ على

جدول . فكّ لافرانس مشبك عباءته وطواها وجلس عليها ، ثم جذب ابنته إلى جانبه . أمامهما كان الجدول يقرق ويتموج فوق أحجار صغيرة في حوضه ، ويؤرجح غصن صفصاف كان في الماء . جلس الأب وعيناه مثبتتان على الجبال الزرقاء والبيضاء البعيدة خلف الأراضي العالية الخريفية ذات الألوان الدافئة .

قالت كريستين : "أنت بردان يا أبي . خذ عباءتي..." فكت عباءتها ورفعت أسفلها إلى كتفيه بحيث جلسا كلاهما تحتها كأنما تحت مأوى . وتحتها وضع هو ذراعه من حول خصرها .

"أنت تعرفين جيداً يا كريستيني : إن الذي يحزن على من يذهب بعيداً إلى هناك شخص غير حكيم... فلتتركي المسيح يأخذك وليس أنا بالأحرى... لكأنك سمعت القول السائر . أثق بقوة برحمة الرب . لا يفترق الأصدقاء طويلاً أحدهم عن الآخر . ربما يبدو لك الأمر هكذا أحياناً ، وأنت لا تزالين شابة . ولكن لديك أبناؤك وزوجك . حين تصبحين في مثل عمري سوف تعتبرين أن الوقت قد مضى بسرعة شديدة منذ أن رحلنا ، وسوف تتعجبين حين تعدين الشتاءات التي مرت... من أنها كثيرة إلى ذلك الحد... بالنسبة إليّ يبدو الأمر لي وكأنه ليس بعيداً منذ أن كنت صبياً... ومع ذلك فإنها سنوات كثيرة منذ أن كنت الفتاة ذات الشعر الأشقر التي تلاحقني أنّى وقفت أو ذهبت... كنت تتبعين أباك عن حب شديد... فليجزك الله خير جزاء على السعادة التي منحتها لي..."

"أجل... لو كان سيجزيني كما جزيتك..." نزلت على ركبتيها أمامه ، وأمسكت برسغيه ، وقبلت كفيه وهي تخبئ وجهها الباكي فيهما . "يا أبي ، يا أبي العزيز... ما أن أصبحت فتاة ناضجة حتى سددت لك ثمن حبك بأكثر الأحزان مرارة..."

"كلا يا طفلتي ، لا تبكي هكذا ." حرّر يديه منها ، ورفعها لتجلس إلى جواره ، وجلسا كما من قبل .

"لقد حصلت على الكثير من الفرح منك في هذه السنوات أيضاً يا كريستين . لقد رأيت أطفالاً جميلين وواعدين ينمون إلى القرب منك ، ولقد أصبحت امرأة بارزة ومتفهمة... ولقد رأيت أنت قد عودت نفسك على طلب العون حيث يكون مثل هذا الطلب ملائماً ، أي حين تكونين واقعة في ورطة . يا كريستين ، أنت يا ذهبي الأثمن ، لا تبكي بكل هذه الحرقة . يمكنك أن تؤذي ذاك الذي تحملينه تحت حزامك" ، همس هذا الكلام همساً . "كلا ، لا تحزني" .

و لكنه لم يستطع أن يمنعها عن البكاء . ثم حمل ابنته ووضعها في حجره وأجلسها على ركبته ، تماماً كما كان يحدث حين كانت لا تزال طفلة... كانت ذراعاها من حول عنقه ووجهها مضغوط على كتفه .

"هناك أمر لم أخبره لابن امرأة سوى لكاهني... والآن سأحكيه لك . حين كنت يافعاً لا أزال ، في بيتنا في سكوغ ، وحين كنت مع الحرس الشخصي... فقد فكرت في أن أصبح راهباً ، ما أن أبلغ السن المناسبة لذلك . كلا ، لم أف بالوعد ، ولا حتى ضمن قلبي . كان هناك الكثير الذي يشدني إلى الجهة الأخرى أيضاً... ولكن حين كنت أمارس الصيد في "بوتن فيورد" وسمعت أجراس الدير في هوفيدو... وقد بدا ذلك وكأنه يشدني أكثر من أي شيء آخر... ثم حين صرت في السادسة عشرة ، كان أبي قد صنع ذلك الدرع القصير من صفائح الفولاذ الإسباني التي لحمت مع الفضة... ولحمها ريكارد الإنكليزي في أوسلو مع بعضها البعض . وقد حصلت على سيفي أيضاً... ذاك الذي أستعمله دوماً ، وكذلك درع حصاني . لم يكن السلام مخيماً على

البلاد آنذاك كما كانت الحال وأنت صغيرة... كانت هناك حرب مع الدانمركيين... وكنت أعرف أني سرعان ما سأنال الفرصة لاستخدام أسلحتي الجميلة . ولم أستطع أن أضعها جانباً... لقد كانت تواسيني فكرة أن أبي كان سيمتعض لو أن ابنه البكر أصبح راهباً ، وأنه ليس عليّ مخالفة أبويّ .

"و لكني اخترت بنفسي الدنيا ، وقد كافحت لأفكر حين أصبحت الدنيا ضدي : سيكون أمراً غير رجولي أن أتذمر من المصير الذي اخترته لنفسي . فلقد رأيت الأمر أكثر فأكثر مع كل عام عشته... لا يوجد عمل أعلى قيمة للروح البشرية التي عرفت البركة المتأتية من فهم محبة الرب الكريمة ، من أن تخدم الرب وتسهر وتصلي لأجل أولئك الناس الذين لا تزال أبصارهم مغشاة بظل شؤون هذه الدنيا . ولكن علي أن أقول يا كريستين... إنه سيكون من الصعب علي التخلي لأجل الرب عن الحياة التي عشتها فوق مزارعي وأراضيّ ، والاهتمام بالأمور الدنيوية وبمرح دنيوي... مع أمك إلى جانبي ومعك أنت وأطفالك . لذلك على المرء أن يعاني في صبر ، حين يكون قد رُزق بأولاد من لحمه ودمه ، وأنه لأمر يحرق قلبه أن يخسرهم أو إذا لم تكن الدنيا طيبة معهم . الرب الذي منحهم الروح هو الذي يملكهم وليس أنا..."

كان جسد كريستين لا يزال يرتجف من البكاء . وبدأ والدها يهدهدها بين ذراعيه كطفلة صغيرة .

"كانت هناك أمور كثيرة لم أفهمها حين كنت صغيراً . كان أبي يحب آسموند أيضاً ، ولكن ليس بقدر ما كان يحبني . كان ذلك لأجل خاطر أمي ، كما تعرفين... فهو لم ينسها أبداً ، رغم أنه تزوج إنغا لأن تلك كانت رغبة أبيه . والآن أتمنى لو أستطيع أن أقابل زوجة أبي مجدداً في هذه الدنيا وأن أرجوها أن تغفر لي لأني لم أستوعب لطفها..."

"و لكن غالباً ما كنت تقول يا أبي أن زوجة أبيك لم تعاملك معاملة تحمل الخير أو الشر على حد سواء " ، قالت كريستين من خلال دموعها .

"أجل ، فليساعدني الرب... كان ذلك تقصيراً مني في فهمها . والآن يبدو لي أنه كان أمراً كبيراً أنها لم تكرهني ، ولم تخاطبني بكلمة غاضبة واحدة . كيف سيكون رد فعلك يا كريستين لو كنت سترين ابن زوجك يُفضل على ابنك في كل الأوقات وكل الأمور ؟"

كانت كريستين قد هدأت نوعاً ما . كان وجهها ملتفتاً الآن إلى الخارج نحو السلسلة الجبلية . كانت كومة كبيرة رمادية زرقاء من الغيوم تعبر الشمس ، ممّا جعل الجو أعتم... كانت أعمدة صفراء تخترقها ، كما التمع ماء الجدول بحدة .

ثم انفجرت دموعها مجدداً :

"أوه ، كلا... يا أبي ، يا أبي... إن لم أرك حياً مرة أخرى..."

"فليحفظك الله يا كريستين يا ابنتي ، حتى يجد أحدنا الآخر ثانية في ذاك اليوم ، نحن جميعاً الذين كنا أصدقاء في الحياة – وكل روح بشرية... ليحفظك المسيح ومريم العذراء والقديس أولاف والقديس توماس خلال أيام حياتك كلها ." أخذ وجهها بين يديه وقبلها على فمها . "فليكن الله كريماً معك... فليمنحك الرب النور في نور هذه الدنيا وفي النور العظيم لاحقاً..."

•

بعد ساعات من ذلك ، حين ركب لافرانس بيورغولفسون خارجاً من هييردكين ، ذهبت ابنته معه لبعض الطريق ، وهي تمشي إلى جانب

حصانه . كان خادم لافرانس قد ابتعد مسافة كبيرة إلى الأمام ، ولكنه كان لا يزال يحافظ على مسافة معقولة . كان أمراً محزناً أن ينظر إلى وجهها اليائس ، الذي شوهه البكاء . وهكذا جلست أيضاً في كوخ الضيوف ، طوال الوقت ، بينما راح هو يأكل ويتحدث إلى الأطفال ويمازحهم ويضعهم في حضنه الواحد إثر الآخر .

قال لافرانس برقة :

"لا تحزني بعد الآن على ما عليك أن تتوبي عنه لأجلي ، يا كريستين . ولكن تذكري ذلك حين يكبر أطفالك ، وقد تعتبرين أنهم لا يتصرفون تجاهك أو تجاه أبيهم كما تعتقدين أنه الصواب . وتذكري آنذاك أيضاً ما قلته لك عن شبابي . حبك لهم مخلص ، وأعرف ذلك جيداً ، ولكنك تكونين في أقسى حالاتك حيث يكون حبك في أقصى حالاته ، وقد لاحظت أنه في هؤلاء الصبيان أولادك يوجد ما يكفي من العناد" ، قال بابتسامة صغيرة .

و أخيراً طلب منها لافرانس أن تعود أدراجها : "لا أريدك أن تعودي لوحدك لمسافة أطول عن البيوت ." كانا قد وصلا إلى واد صغير بين تلال صغيرة مع أشجار البتولا تحيط بسفوحها وصخور كبيرة على جانبها .

ضغطت كريستين نفسها على قدم والدها في الركاب . راحت تتشبث بأصابعها بثيابه ويده في السرج وعنق الحصان ومؤخرته ، وتهز رأسها من جانب إلى آخر ، وتبكي بكاء عميقاً حزيناً إلى حد أن أباها ظن أن قلبه سينفطر لرؤيتها منغمسة في مثل هذا الأسى .

قفز من على حصانه وأخذ ابنته بين ذراعيه وهو يعانقها للمرة الأخيرة . وقد رسم إشارة الصليب عليها المرة تلو الأخرى وتمنى لها أن يرعاها الله والقديسون . وأخيراً قال إن عليها الآن أن تتركه يمضي في طريقه .

و هكذا افترقا . ولكن بعد أن ابتعد قليلاً ، رأت كريستين أن أباها أبطأ من سير حصانه ، وعرفت أنه كان يبكي وهو يبتعد عنها على ظهر جواده .

ركضت عبر غابة البتولا ، وأسرعت وهي تعبرها ، ثم بدأت تتسلق الصخور الذهبية المغطاة بالطحالب على أقرب تلة . ولكن الصخور كانت كبيرة وصعبة على التسلق ، وكانت التلة الصغيرة أعلى مما توقعت . وأخيراً وصلت إلى القمة ، ولكن كان هو قد ابتعد عن مرمى النظر بين تلال أخفض . تمددت فوق الطحالب ونبات توت الدب الذي كان ينمو على أعلى التلة ، وبقيت هناك تبكي ووجهها مدفون بين ذراعيها .

•

وصل لافرانس بيورغولفسون إلى بيته في يوروندغارد في وقت متأخر من المساء . أحس بدفء مرح صغير حين رأى أن هناك من لا يزال ساهراً في مبنى غرفة المدفأة... كان هناك وميض ضعيف من نور المدفأة خلف لوح الزجاج الصغير في جدار السقيفة . كان يشعر دائماً أن معظم ما هو بيته بالنسبة إليه كان في هذا المبنى .

كانت راغنفريد جالسة في الغرفة مع أشغال درز ذات حجم كبير أمامها فوق المائدة... كما كانت شمعة كبيرة على شمعدان نحاسي قريبة منها . نهضت على قدميها فوراً وحيته تحية المساء ، وضعت المزيد من الحطب في المدفأة وذهبت بنفسها لإحضار الطعام والشراب . لا... لقد أرسلت الخادمات إلى الفراش منذ زمن طويل... فقد كان يومهن قاسياً . ولكن أصبح لديهم الآن ، على أي حال ، خبز شعير جاهز ويكفي حتى موسم عيد الميلاد . كانت بال وغوسنتاين قد مضتا إلى الجبال لجمع الطحالب . وبمناسبة

الحديث عن الطحالب ، هل يود لافرانس أن تصنع ملابسه الشتائية من شبكة من القماش مصبوغة بأوراق دوار الشمس أو من نبات الخلنج الأخضر ؟ كان أورم أوف موار هناك في الصباح طالباً شراء بعض الحبال الجلدية . كانت قد أخرجت الحبال المعلقة قرب الباب في الكوخ ، وقالت له إنه يستطيع أن يأخذها كهدية . أجل ، ابنته أصبحت أفضل الآن... فالجرح في ساقها كان آخذاً بالاندمال الآن...

كان لافرانس يجيب أو يومئ برأسه ، بينما راح هو وخادمه يأكلان ويشربان . ولكن السيد سرعان ما انتهى من الطعام . وقف ، وجفف سكينه على الجهة الخلفية من فخذه ، ثم تناول بكرة كانت قريبة من مكان جلوس راغنفريد . كان الخيط ملفوفاً على وتد منحوت على شكل طائر عند كل نهاية من نهايتيه... كان أحد هذين مكسور الذيل . دوّر لافرانس الكسر وراح ينحته قليلاً ، وجعل للطائر ذيلاً مبتوراً . في وقت من الأوقات ، كان قد صنع الكثير من أوتاد البكرات هذه لزوجته .

"هل عليك أن تصلحي هذا بنفسك ؟" سألها وهو ينظر إلى عملها . كانت تعمل على سرواله الجلدي وتخيط رقعاً على الجزء الداخلي من الفخذين ، حيث اهترأ من ركب السرج . "إنه عمل قاس على أصابعك يا راغنفريد ."

"أوه..." وضعت زوجته حواف قطع الجلد الواحدة إلى قرب الأخرى وراحت تثقب ثقوباً فيها بواسطة مخرزها .

تمنى لهما الخادم ليلة سعيدة وخرج . بقي الزوج والزوجة لوحدهما . وقف قرب المدفأة ليدفئ نفسه ، وقد وضع إحدى قدميه على حافة المدفأة ويده على عمود فتحة الدخان . نظرت راغنفريد نحوه . وقد لاحظت أن

الخاتم الصغير المطعّم بأحجار الياقوت -خاتم خطوبة أمه- لم يعد في يده . عرف أنها لاحظت ذلك .

قال : "أجل... لقد أعطيته لكريستين . لم يكن الخاتم مخصصاً لها... ولكني فكرت في أن عليّ أن أعطيه لها الآن ."

لاحقاً سيقول الواحد للآخر : ربما حان الوقت للذهاب إلى الفراش . ولكنه وقف حيث كان ، وجلست هي إلى عملها . تحدثا قليلاً عن رحلة كريستين ، عن العمل الذي كان جارياً في المزرعة ، وحول رامبورغ وسايمون . ثم تكلما حول الذهاب إلى السرير للراحة ، ولكن لم يتحرك أي منهما .

ثم خلع لافرانس الخاتم الذهبي ذا الحجر الأزرق والأبيض من يده اليمنى واقترب من زوجته . وبخجل واضطراب أخذ يدها ووضع الخاتم في أصبعها... كان عليه أن يبدل مكانه مرة أو مرتين قبل أن يجد الأصبع الملائم . وقد ارتاح على الأصبع الوسطى ، فوق خاتم الزواج .

قال بصوت خفيض ودون أن ينظر إليها : "أريدك أن تأخذي هذا الآن" .

جلست راغنفريد صامتة كصخرة... وخداها قد تضرجا بلون الدم .

همست أخيراً : "لمَ تفعل ذلك ؟ أتظن أني أحسد ابنتنا على خاتمها ؟"

هز لافرانس رأسه وابتسم قليلاً :

"أوه ، أعتقد أنك تعرفين سبب ذلك ."

"قلت من قبل إنك ستأخذ هذا الخاتم معك إلى القبر" ، قالت وهي تهمس أيضاً . ما كان أحد سيحمله بعد رحيلك..."

"لذلك عليك ألاّ تخلعيه من يدك يا راغنفريد... أريد وعداً منك بذلك . لا أريد لأحد أن يحمله من بعدك..."

"لم فعلت ذلك ؟" سألته ثانية وهي تمسك بأنفاسها .

نظر الرجل إلى وجهها .

"في الربيع مرّت أربع وثلاثون سنة على زواجنا . لم أكن وقتها رجلاً ناضجاً بعد... وخلال كل فترة رجولتي كنت إلى جانبي ، وذلك حين كنت أشعر بالأسى أو كانت الأمور تجري على نحو جيد معي . فليكن الرب في عوننا... لم أفهم إلا قليلاً كم كان العبء الذي حملته أنت ثقيلاً ، بينما كنا نعيش معاً . ولكني أعتقد الآن أنه كان يبدو أمراً جيداً أنك كنت هناك معي...

"لا أعرف إن كنت تعتقدين فعلاً أني أحب كريستين أكثر منك . صحيح أنها كانت أكبر دواعي سروري وأنها سببت لي حزناً عظيماً... ولكنك كنت أماً لهم كلهم . ويبدو لي الآن أن أسوأ الأمور هو أن أغادرك ، حين أذهب إلى هناك...

"لذلك عليك ألا تعطي خاتمي إلى أي شخص... لا تعطيه حتى إلى أي من ابنتينا... بل قولي لهما إنه يجب أن يبقى في يدك .

"ربما تعتقدين يا زوجتي أنك كنت تعيسة معي أكثر مما كنت سعيدة... وربما جرت الأمور على نحو خاطئ بيننا . ولكني أعتقد أننا كنا صديقين مخلصين الواحد للآخر . وأظن أنه في الحياة الأخرى سنجد أحدنا الآخر مجدداً على نحو يكون الخطأ معه لا يفرقنا أبداً ، وأن الحب الذي كان بيننا سيعيد الرب بناءه أفضل مما كان سابقاً..."

رفعت الزوجة وجهها الشاحب المجعد... كانت عيناها الكبيرتان

الغائرتان تحترقان وهي تنظر إلى زوجها . كان لا يزال يمسك بيدها . نظرت إليها وهي في يده ، ورفعتها قليلاً . التمعت الخواتم الثلاثة ، الواحد فوق الآخر ، في المستوى الأدنى خاتم الخطبة ثم خاتم الزفاف ثم هذا الخاتم فوقهما .

تذكرت الأمر على نحو غريب . تذكرت حين وضعت الخاتم الأول في يدها... عند الموقد في قاعة بيتها في سوندبو ، وأبواهما واقفان إلى جانبهما . كان (لافرانس) أبيض وأحمر اللون ، بوجنتين مستديرتين لم يغادر مرحلة الصبا إلا بالكاد... وخجولاً قليلاً وهو يتقدم إلى الأمام بعيداً عن السير بيورغولف .

أما الثاني فوضعه على أصبعها أمام باب الكنيسة في غيردارود ، مع لفظ اسم الثالوث ، تحت يد الكاهن .

تحسسته... وبهذا الخاتم الأخير يكون قد تزوجها مجدداً . وحين ستجلس بعد زمن قصير عند جسده الذي فارقته الحياة ، فقد أراد أن تعرف أنه بهذا الخاتم كان قد زوّجها من القوة القادرة والحية التي كانت تسكن في ذلك التراب والرماد .

أحست كأن قلبها كان سينخلع في صدرها ، وأنه ينزف وينزف ، بجنون كما في أيام الشباب... حزناً على الحب الدافئ والحيّ بينما راحت تئن سراً لأنها ستفتقده ، على الفرح المليء بالخوف في حبه الشاحب اللامع هذا الذي كان يجذبها معه نحو الحدود القصوى للحياة الأرضية . عبر الظلمة الداكنة التي كانت تهبط شاهدت التماعة شمس أخرى أرق ، اشتمت رائحة الأعشاب في الحديقة عند نهاية العالم...

أعاد لافرانس يد زوجته إلى حجرها ، وجلس على المقعد ، بعيداً عنها

قليلاً ، وظهره إلى المائدة ،وإحدى ذراعيه من حوله . لم ينظر إليها ، ولكنه حدق إلى نار المدفأة .

حين تكلمت مجدداً كان صوتها هادئاً وساكناً :

"لم أفكر يا زوجي أني كنت عزيزة عليك إلى هذا الحد ."

"أجل ، لقد كنت كذلك" ، تحدث ببساطة كما فعلت هي .

جلسا صامتين لفترة أخرى . حركت راغنفريد خياطتها من حضنها إلى المقعد بجوارها ، وخلال برهة سألته بصوت خفيض :

"الأمر الذي حدثتك عنه في تلك الليلة... هل نسيته ؟"

"لا يستطيع الرجل نسيان مثل هذه الأمور في هذه الدنيا . وهكذا شعرت أن الأحوال لم تكن أفضل بيننا بعد معرفتي بالأمر . رغم أن الرب يعرف يا راغنفريد أني كافحت بشدة حتى لا تلاحظي الكثير من ذلك..."

"لم أعرف أنك كنت تفكر كثيراً بهذا الأمر ."

التفت بحدة نحو زوجته ونظر إليها . ثم قالت راغنفريد :

"كان ذلك خطأي أن الأمور ساءت بيننا يا لافرانس . أظن أنه بما أنك لم تستطع أن تكون معي من كل النواحي كما كنت في السابق -بعد تلك الليلة- إذن فلا بد أنك تهتم بي أقل مما كنت أعتقده . لو أنك أصبحت زوجاً قاسياً معي ، لو أنك ضربتني ، حتى لو فعلت ذلك مرة واحدة حين كنت ثملاً... عندها كنت سأتحمل أساي وندمي على نحو أفضل . ولكنك تعاملت مع الأمر بخفة...!"

"هل اعتقدت أني تعاملت مع الموضوع بخفة ؟"

جعلتها الرجفة الضعيفة في صوته يجنّ من التوق . تاقت إلى أن تغرق نفسها فيه ، لتعرف الأعماق المضطربة التي كان صوته يأتي منها متوتراً ومكافحاً . التهبت :

"أجل ، لو أخذتني بين ذراعيك مرة واحدة ، ليس لأني كنت زوجتك التي تزوجتها حسب الطقوس المسيحية والتي وضعوها هم إلى جوارك ، ولكن كوني الزوجة التي كنت تتوق لها وتناضل لتكسبها... ما كنت لتكون معي أبداً كأنما لم أنطق بتلك الكلمات إطلاقاً ."

فكر لافرانس قليلاً :

"كلا . ربما لا . كلا ."

"هل كنت سعيداً بالخطيبة التي منحت لك كما كان سايمون سعيداً بكريستين ابنتنا..."

لم يجب لافرانس . وبعد قليل قال برقة كأنما ضد إرادته وبخوف :

"لم ذكرت... سايمون ؟"

"لا ، ما كان سيخطر في بالي أن أشبهك بالآخر" ، أجابت زوجته وهي أيضاً مضطربة وخائفة إنما تحاول الابتسام : "أنت وهو لا تشبهان بعضكما البعض أبداً ."

نهض لافرانس على قدميه وسار بضع خطوات ، بقلق... ثم قال بصوت أخفض :

"لن يتخلى الرب عن سايمون ."

سألته زوجته : "هل بدا لك الأمر هكذا لأن الرب قد تخلى عنك ؟"

"لا ."

"ما كانت أفكارك في تلك الليلة التي جلسنا فيها هناك في الحظيرة... حين علمت خلال ساعة واحدة أننا نحن اللتين كنت تحبهما أشد الحب ، غششناك كل ذلك الغش..."

قال الرجل : "لم أفكر كثيراً على ما أعتقد ."

استأنفت زوجته قائلة : "و منذ ذلك الحين رحت تفكر فيه دائماً كما قلت..."

التفت لافرانس بعيداً عنها . رأت الحمرة تضرج عنقه الذي سفعته الشمس .

قال بصوت خفيض جداً : " كنت أفكر بكل المرات التي غششتُ فيها المسيح ."

نهضت راغنفريد... وقفت ساكتة للحظة قبل أن تجرؤ على التقدم من زوجها وتضع يديها على كتفيه . حين وضع ذراعيه من حولها ، وضعت جبينها على صدره ، فأحس أنها كانت تبكي . ضمها إليه وضغط بوجهه على رأسها .

قال بعد وهلة : "الآن يا راغنفريد سنذهب لنرتاح ."

مضيا معاً نحو الصليب ، انحنيا أمامه ، ثم رسما إشارة الصليب . تلا لافرانس صلاة المساء . تلا الصلاة بصوت خفيض وواضح وبلغة الكنيسة ، ورددت زوجته الكلمات من بعده .

خلعا ملابسهما . اضطجعت راغنفريد على الجانب الداخلي من السرير... كانت الوسائد أخفض بكثير مما كانت عليه قديماً ، لأن زوجها في

هذه الأيام الأخيرة كان يعاني من الدوخة . أغلق لافرانس باب الغرفة بالرتاج والقضيب الحديدي ، ورمى رماداً فوق النار ، وأطفأ الشمعة وتمدد إلى القرب منها . تمددا في العتمة ، وذراعاهما يتلامسان . وبعد قليل فإن أصابع أيديهما تشابكت .

فكرت راغنفريد إيفارسداتر : كانت تلك أشبه بليلة زفاف جديدة ، وهي ليلة زفاف غريبة . تدفقت السعادة والتعاسة معاً ورفعتاها فوق موجات قوية جداً إلى حد أنها شعرت في داخلها الآن بأول انحلال لجذور روحها... لقد جذبتها يد الموت... لأول مرة .

قالت له برقة : "كلمني يا لافرانس . أنا مرهقة جداً..."

همس الرجل :

"تعالوا إليّ يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكم" (إنجيل متى) هكذا قال الرب . "

مرّر ذراعه من حول كتفيها وضمها إلى جنبه . وقد بقيا لفترة قصيرة والوجنة على الوجنة ثم قالت هي برقة :

"لقد صليت لأم الرب أن تستجيب لدعائي بألاّ أعيش من بعدك يا زوجي أياماً كثيرة ."

لمست شفتاه ورموشه خدها في العتمة بخفة تشابه خفة لمسة أجنحة الفراش .

"يا راغنفريدي ، يا راغنفريدي..."



٨

بقيت كريستين في بيتها في هوسابي هذا الخريف والشتاء ولم ترغب في الذهاب إلى أي مكان... وكان السبب الذي قدمته هو أنها مريضة . ولكنها كانت متعبة فحسب . متعبة كما لم تكن سابقاً طوال حياتها... متعبة من كونها مرحة ومتعبة من الحزن ومتعبة من التأمل أكثر من أي شيء آخر .

سيكون الأمر أفضل حين تكون قد ولدت الطفل الجديد ، كما فكرت... كانت تتوق له كثيراً ، كأنما سيكون منقذها . إن كان صبياً ، ومات أبوها قبل ولادته ، سيحمل اسمه . وفكرت كيف أنها ستحب هذا الطفل وسوف ترضعه من ثدييها ، لقد مرّ زمن طويل منذ أن أرضعت حتى أنها تستطيع أن تبكي من الشوق حين تفكر في أنها سرعان ما سيكون لديها طفل رضيع بين ذراعيها مرة أخرى .

جمعت أبناءها من حولها مجدداً كما اعتادت أن تفعل في الأيام الماضية ، وحاولت أن تكون تربيتهم أكثر انتظاماً وانضباطاً . لقد شعرت أنها كانت في هذا الأمر تطيع رغبة والدها ، وقد جلب هذا بعض السلام إلى روحها . كان سيرا آيليف قد بدأ الآن يعلم ناكفه وبيورغولف الأحرف

الأبجدية واللغة اللاتينية ، وغالباً ما كانت كريستين تجلس في منزل الكاهن حين يكون الصبيان هناك للدرس . ولكنهما لم يظهرا كتلميذين ظمأ كبيراً للمعرفة ، وكان كل الأولاد طائشين وعنيدين ، باستثناء غاوته وحده ، لذلك كان "مدلّل أمه" .

عاد إرلند من الدانمارك في موسم عيد كل القديسين بمعنويات عالية . كان قد حظي بأعظم درجات الشرف من قبل الدوق وقريبته الليدي انجبيورغ . كانا قد شكراه من القلب على هداياه من الفضة والفرو . شارك إرلند في المبارزات وطارد الأيائل من ذكور وإناث . وحين افترق عنهما ، منحه السير كنوت حصاناً إسبانيا أسود اللون ، بينما أرسلت الليدي تحيات ودية وكلاباً سلوقية فضية اللون إلى زوجته . اعتبرت كريستين أن هذه الكلاب الأجنبية تبدو غير مخلصة وخائنة ، وكانت تخشى من أن تؤذي أولادها . وراح الناس في كل أنحاء الريف يتحدثون عن الفحل القشتالي . كان الأمر صحيحاً ، فقد كان إرلند يبدو رائعاً على الحصان ذي السيقان الطويلة الخفيفة البنية ، ولكن مثل هذا الحيوان ما كان يلائم هذه البلاد الشمالية ، والرب وحده يعرف كيف يستطيع الحصان أن يدبر أموره في الممرات الجبلية . وعلى أي حال ، فإن إرلند راح يشتري الآن ، وكلما تجول بالحصان ، أكرم الأفراس السوداء ، حتى أضحت لديه مزرعة لاستيلاد الخيل من أجمل المزارع . في الأيام الأخرى اعتاد إرلند نيكولاوسون أن يمنح جياد الركوب خاصته أسماء أجنبية جميلة : "بلكولور" و"بايارد" وماشابههما من الأسماء ، أما حصانه فكان يقول إنه نادر إلى حد أنه ليس في حاجة إلى مثل هذه الزينة… سيكون اسمه "سوتن" (السخام بالنرويجية) وهذا الاسم البسيط يكفيه .

غضب إرلند كثيراً لأن زوجته كانت ترفض الذهاب معه إلى أي مكان . لم يلاحظ مرضها -لم تكن تدوخ أو تتقيأ هذه المرة- ولم تكن هناك علامة واضحة عليها بعد -و بدا أن شحوبها وإرهاقها ناجمان عن جلوسها الدائم داخل البيت وهي تفكر وتتأمل في أخطائه . وصل موسم عيد الميلاد وثارت بينهما شجارات حامية . لم يعد إرلند الآن يأتي لاحقاً ليطلب المغفرة عن مزاجه العنيف ، كما اعتاد أن يفعل دائماً في السابق . حتى الآن كان يفكر أنه كلما تشاجرا يكون الخطأ خطأه . كانت كريستين طيبة . كانت دائماً على حق . ولو كان قلقاً ومنزعجاً في بيته ، فذلك يعود إلى أنه كان من طبيعته أن يقلق مما هو جيد وحق حين يكون لديه الكثير منهما . ولكنه في الصيف الماضي لاحظ أكثر من مرة أن حماه كان يؤازره ويبدو وكأنه يعتبر أن كريستين تفتقر إلى الرقة والصبر اللذين يليقان بالزوجات . ثم خطر له أنها كانت تحمل الأمور محمل الجد على نحو يتسم بضيق الأفق ولم تكن تغفر له بسهولة هفواته الصغيرة التي لم يكن سوء النية من ورائها . ودائماً ما كان يرجو منها الغفران حين يكون لديه الوقت ليفكر..و كانت تقول له إنها غفرت له ، ولكنه كان يلاحظ لاحقاً أن الأمر كان يُكتم ولا يُغفر . لذلك أصبح يغيب كثيراً عن البيت ، وكان غالباً ما يصطحب ابنته مارغريت معه . كانت تربية الفتاة واحداً من الأمور التي تسبب لهما اختلافاً دائماً . لم تكن كريستين تذكر الموضوع إطلاقاً ، ولكن إرلند كان يعرف ما تفكر هي به ؛ والآخرون كذلك . كان يتعامل مع مارغريت كأنما كانت طفلته الشرعية ، وكان الناس يرحبون بها وكأنها كذلك حين ترافق أباها وزوجته . في زفاف رامبورغ كانت واحدة من وصيفات العروس ، وقد حملت إكليل غار ذهبياً على شعرها المتطاير . لم ينل هذا رضا كثير من النساء ، ولكن لافرانس أقنعهن وكذلك سايمون أنه ليس على أحد أن يتفوه بأي شيء

مخالف لذلك أمام إرلند أو يذكره أمام الفتاة نفسها... لم يكن ذنب الطفلة الجميلة أنها كانت سيئة الحظ إلى هذا الحد في ولادتها . ولكن كريستين لاحظت أن إرلند كان قد خطط لتزويج مارغريت من مرشح لرتبة فارس يخدم في الجندية ، وكان هو يعتقد أنه بعد أن حقق ما حققه من مركز ، فسيكون قادراً على إنجاز هذه المهمة ، رغم أن الفتاة ولدت من علاقة زنا ، وسيكون أمراً صعباً أن يكسب لها مكانة ثابتة بين كبار الناس . وربما سيتم ذلك صدفة لو شعر الناس عن حق بأن إرلند يود أن يحافظ على ويزيد من سلطة وثروة بيته . ولكن ورغم أن إرلند كان محبوباً ومحترماً على نحو ما ، فإن الأمر كان وكأنما ما كان أحد ليصدق أن حظوظ هوسابي الطيبة ستدوم . وهكذا كانت كريستين تخشى أن يكون مصمماً على تنفيذ خططه فيما يخص مارغريت للوصول إلى نتيجة طيبة . ورغم أنها لم تكن تحب مارغريت كثيراً ، ومع ذلك فقد كانت تشفق على الفتاة وتخشى ذلك اليوم الذي لا بد أن يتحطم فيه كبرياؤها... إن كان عليها أن تقبل بعريس أكثر ضعة بكثير ممّا رباها أبوها على التطلع إليه ، وأن تعيش بطريقة أخرى في الحياة من تلك التي عوّدها عليه .

هذا ما كان عليه الحال حين حضر بعد "عيد تطهير مريم العذراء" (٢شباط / فبراير) ثلاثة رجال من فورمو إلى هوسابي . كانوا قد عبروا الجبال على المزالج مسرعين وقد جلبوا لإرلند رسائل من سايمون أندرسون . كتب سايمون أن حماهما كان مريضاً جداً الآن إلى حد أنه ما كان يؤمل له أن يعيش طويلاً ، وأن لافرانس طلب منه أن يرسل في طلب إرلند ليحضر إلى "سيل" إن كان ذلك ممكناً . كان يود أن يخاطب صهريه عن كل الأمور التي يتوجب ترتيبها بعد رحيله .

راح إرلند يتجول وهو يختلس النظر إلى زوجته . كانت على وشك أن تلد الآن ، وكانت شاحبة نحيلة الوجه -بدت حزينة جداً- في كل لحظة كانت الدموع تنهمر من عينيها . بدأ يندم على سلوكه تجاهها في الشتاء . لم يكن مرض أبيها أمراً غير متوقع ، ولو كانت مضطرة لتخفي حزنها السرّي ، فقد استطاع الآن أن يفهم سبب تصرفها اللاعقلاني .

كان يستطيع القيام بالرحلة لوحده إلى "سيل" والعودة بسرعة كافية ، مستخدماً الزلاجات عبر الجبال . ولكنه لو اصطحب زوجته لكانت رحلته بطيئة ومرهقة . وعندها سيضطر إلى البقاء هناك إلى ما بعد "آرمسماستر" في فترة الصوم الكبير ثم يحدد موعداً للاجتماع مع مأموريه هناك . وكانت هناك بعض الاجتماعات أيضاً عليه حضورها بنفسه . قبل أن يتمكنوا من الانطلاق سيكون موعد ولادتها قد أزف… وكريستين لا تستطيع احتمال السفر بالبحر حتى حين تكون في أتم صحة . ولكنه كان كارهاً أن يفكر في عدم رؤيتها لأبيها قبل أن يموت . في المساء حين كانا مضطجعين ، سألها إن كانت تجرؤ على القيام بالرحلة .

و قد بدا له أنه تلقى مكافأته حين رمت بنفسها بين ذراعيه ، وهي مترعة بالامتنان ، وبالندم على عدائيتها تجاهه في الشتاء . رق قلب إرلند كما هي حاله دائماً حين يسبب حزناً لامرأة وعليه أن يراها حزينة أمام عينيه . كما أنه تحمل لاحقاً خيالات كريستين . قال منذ البداية إن الأطفال لن يصطحبوها . ولكن الأم أصرت على أن ناكفه كان كبيراً الآن ، وسيكون أمراً جيداً له أن يحضر رحيل جده . قال إرلند : لا . ثم كانت هي متأكدة من أن إيفار وسكوله كانا صغيرين جداً على أن يتركا في رعاية الخادمات . كلا ، قال الأب . ثم كان لافرانس شديد الولع بغاوته . كلا ، قال إرلند

-فالأمر سيكون صعباً بما فيه الكفاية- وهي على تلك الحال من الحمل- على راغنفريد ، أي أن يكون لديها ولادة في البيت بينما زوجها على فراش المرض... وكذلك سيكون الأمر صعباً عليهما في رحلة العودة ومعهم طفل حديث الولادة . إما أن تعطي الطفل إلى مرضعة في إحدى مزارع لافرانس ، أو عليها المكوث في يورونَدغارد حتى الصيف... ولكن سيكون عليه أن يحضر قبلها إلى البيت . كان عليه أن يكرر كل هذا أمامها مرة إثر أخرى . ولكنه حاول جاهداً أن يتكلم بهدوء ومنطق .

ثم فكر في أن عليه أن يأخذ من نيداروس بعض الأشياء التي قد تحتاجها أمها في حفلة الشراب ما بعد الدفن : نبيذ وشمع ودقيق القمح والدخن وما شابه . ولكنهم استعدوا أخيراً للانطلاق ، ووصلوا إلى يورونَدغارد في اليوم السابق على "قداس جرترود" .

•

و لكن كريستين وجدت الأمر مختلفاً عما توقعته في بيت أهلها .

كان من شأنها أن تفرح من كل قلبها لأنها مُنحت الفرصة لترى أباها مرة أخرى . وحين تذكرت فرحته بقدومها وكيف شكر إرلند على ذلك ، فقد كانت سعيدة بالفعل . ولكنها شعرت أنها أصبحت مبعدة الآن عن كثير مما يجري وهذا ما آلمها .

كان قد تبقى شهر على ولادتها ، وحظر عليها لافرانس أن تشارك في تمريضه والعناية به . لم يسمحوا لها بالسهر عليه ليلاً مع الأُخريات اللواتي كن يتناوبن على ذلك ، ولم تسمح لها أمها بتحريك أصبع واحدة لتقدم العون رغم كل ضغط العمل . كانت تجلس إلى القرب من أبيها طوال النهار ، ولكن

نادراً ما كانا لوحدهما في أي وقت . وفي كل يوم كان الضيوف يحضرون إلى البيت -أصدقاء يأتون لزيارة لافرانس بيورغولفسون مرة أخرى خلال حياته . كانت هذه الزيارات تسرّ أباها ، رغم أنها كانت ترهقه أشد الإرهاق . كان يتحدث بحماسة ومرح مع الجميع ، رجالاً ونساء ، أغنياء وفقراء ، شباناً وشيباً -يشكرهم جميعاً على صداقتهم ، ويطلب منهم أن يصلوا لأجل خلاص روحه- ونرجو من الله أن نلتقي في يوم النعيم!- في الليل ، حين تكون أسرته فحسب معه ، كانت كريستين تضطجع في القاعة العليا وهي تحدق إلى العتمة ، ولا تستطيع النوم من تفكيرها في رحيل أبيها وحماقة قلبها وخبثه .

كانت نهاية لافرانس تقترب بسرعة . لقد بقي محافظاً على تماسكه حتى ولدت رامبورغ طفلتها ولم تعد هناك حاجة لراغنفريد أن تمكث كثيراً في فورمو . وقد طلب مرة أن يؤخذ إلى هناك ليرى ابنته وحفيدته التي سميت أولفهيلد . ولكنه أوى إلى السرير بعد ذلك ولم يكن أمراً وارداً أن ينهض منه مجدداً .

كان يضطجع في الغرفة الكبيرة تحت القاعة العليا . كانوا قد رتبوا له نوعاً من السرير هناك فوق مقعد الكرسي العالي ، فهو لم يكن يحتمل أن يبقى رأسه عالياً على الوسادة -فهو يشعر فوراً بالدوخة وكانت تنتابه نوبات إغماء ونوبات قلبية . لقد توقفوا عن فصده ، بعد أن اضطروا إلى القيام بذلك خلال الخريف والشتاء حتى أنه أصبح مستنزف الدم . كان لا يقدر سوى على تناول القليل من الطعام والشراب .

كانت ملامح أبيها الدقيقة الوسيمة حادة الآن ، أما سمرته فقد غادرت وجهه الذي كان ذا لون نضر سابقاً . كان أصفر الآن كالعظام ، وكانت شفتاه

وزوايا عينيه باهتة اللون خالية من الدم . أما الشعر الكثيف ، بلونه التبني المرشوش بالأبيض ، فكان مرسلاً وذابلاً لا قوة فيه فوق غطاء الوسادة المطرز بالأزرق ، ولكن ما غيّره أعظم التغيير كان اللحية الخشنة الرمادية على أسفل وجهه والعنق العريض الطويل ، حيث كانت الأوتار بارزة كالحبال القاسية . كان لافرانس دائماً حريصاً على حلاقة لحيته قبل كل يوم مقدس . أما جسده فكان قد هزل الآن إلى مجرد هيكل عظمي . ولكنه قال إنه مرتاح طالما بقي متمدداً دون أن يتحرك إلا قليلاً . وكان مرحاً وسعيداً طوال الوقت .

كانوا ينحرون الذبائح ويخمّرون الجعة ويخبزون تحضيراً لوليمة الدفن . كما حضروا أغطية لكل الأسرة وعملوا عليها باهتمام... كل ما كان ممكناً تحضيره الآن تم تحضيره ، حتى يكون كل شيء هادئاً وساكناً حين يأتي النزع الأخير . لقد كان أمراً يسرّ لافرانس إلى حد كبير أن يسمع عن كل هذه التحضيرات... لن تكون آخر ولائمه أدنى من كل الولائم التي أقيمت في يورونداغارد . سيغادر الإشراف على أراضيه وناسه بشرف وعبادة . في أحد الأيام أراد أن يرى البقرتين اللتين كانتا ستلحقان بموكب جنازته ، كهدية إلى سيرا آيريك وسيرا سولموند . وقد اقتيدتا إلى القاعة . كانتا قد غذيتا تغذية مضاعفة طوال فصل الشتاء ، وكانتا باختصار رائعتين وسمينتين كبقرات السايتر في عيد قداس أولاف ، رغم أنهم كانوا الآن في وسط موسم الندرة في الربيع . كان هو الذي ضحك أكثر من الجميع حين سقطت إحدى البقرتين على أرض القاعة... لكنه كان يخشى أن تكون زوجته مرهقة تماماً . كانت كريستين تظن بأنها ربة بيت ممتازة هي نفسها... وكانت معروفة بهذا الاسم في البيت في سكاون . ولكن بدا لها أنها لا شيء بالمقارنة مع أمها . لم يكن هناك من هو قادر على فهم كيف كانت راغنفريد

قادرة على القيام بكل ما تقوم به... ومع ذلك بدت وكأنها لا تبتعد كثيراً عن زوجها ، وكانت تشارك في السهر عليه في كل ليلة .

كانت تقول وهي تضع يدها في يد زوجها : "لا تقلق عليّ يا زوجي . بعد أن تموت ، فأنت تعرف أني سأرتاح تماماً من كل هذه الهموم ."

كان لافرانس بيورغولفسون قد اشترى قبل بضع سنوات قبراً في كنيسة الأخوة الواعظين في هامار ، وكانت راغنفريد إيفارسداتر مصممة على حمل جثته إلى هناك والإقامة هناك إلى جواره . كانت ستقيم هناك كشخص من العامة في نزل يمتلكه الرهبان في البلدة . ولكن في البداية كان التابوت سينقل إلى كنيسة أولاف هنا في البيت ، مع عطايا كبيرة إلى الكنيسة والكهنة . أما حصانه فكان سيقاد إلى هناك لاحقاً حاملاً درعه وأسلحته ، وكانت هذه ستشترى من قبل إرلند لقاء خمسة وأربعين ماركاً من الفضة . وربما سيعطى أحد أبنائه من كريستين هذه الأشياء... وبالاختيار سيكون ذلك هو الطفل الذي ستلده قريباً ، إن كان ذكراً... وربما سيكون في أحد الأيام لافرانس أوف يوروندغارد ، كما قال الرجل المريض مع ابتسامة . في الطريق عبر غودبراندسدال أيضاً ، كان جسده سيمرر على بعض الكنائس خلال الليل... وكل هذه الكنائس مذكورة في وصية لافرانس مع هدايا مالية وشموع .

•

أحست كريستين بالدوار ، ولكن السبب كان الأسى والقلق في روحها . فهي لم تكن قادرة على أن تخفي الأمر عن نفسها... كان يؤلمها أكثر وجودها لفترة أطول في البيت . كان قلبها يؤلمها لأنها ترى الآن أن

أباها إذ راح يقترب من حتفه ، أصبحت زوجته هي الأقرب إليه من الجميع .

لطالما سمعت أن حياة والديها معاً كانت نموذجاً للزواج اللائق الفاضل من حيث الاتحاد والصدق والود . ولكنها شعرت ، دون أن تفكر بالأمر ، أنه كان هناك شيء ما على أي حال يقف بينهما ، ظل غير أكيد ، إلا أنه كان يلقي بثقله على الحياة في بيتهم ، رغم أنهما كانا يتعايشان في سلام وحسن معاملة . لم يعد الآن من ظل بين والديها . كانا يتحادثان ببساطة وهدوء معاً ، وخاصة عن الأمور الصغيرة اليومية . ولكن كريستين شعرت أن هناك شيئاً ما جديداً في عيونهما وفي لهجة صوتيهما . لقد لاحظت أن أباها كان يفتقد زوجته دائماً حين لا تكون إلى القرب منه . حين كان يحاول إقناعها بنيل قليل من الراحة ، كان يمكث منتظراً بقلق . وحين تدخل ، فكأنما كان السلام والسعادة يأتيان معها إلى الرجل المريض . في أحد الأيام سمعتهما يتحدثان عن أطفالهما المتوفين . ولكنهما بدت عليهما السعادة . وحين وصل سيرا آيريك وراح يقرأ للافرانس ، كانت راغنفريد تجلس دائماً إلى القرب منهما ، ثم غالباً ما كان يمسك بيد زوجته ويداعب أصابعها ويدير الخواتم فيها .

كانت تعرف أن أباها يحبها كما من قبل . ولكنها لم تكن قد رأت بوضوح سابقاً أنه كان يحب أمها . وقد فهمت كم هو مختلف حب الرجل لزوجته التي عاشت معه حياة طويلة في السراء والضراء عن حبه لابنة لم تشاركه سوى أفراحه وأخذت منه حنان دواخل قلبه . وقد بكت وصلت للرب وللقديس أولاف طلباً للمساعدة... فقد تذكرت ذلك الوداع الدامع والرقيق في الخريف الماضي على الجبال ، ولكن لا يمكن أن يكون صحيحاً أنها راحت تتمنى الآن لو كان ذلك الوداع هو الأخير!

•

في اليوم الذي يبدأ فيه نصف سنة الصيف (١٤ نيسان / أبريل) ولدت

كريستين ابنها السادس ، وفي اليوم الخامس بعد الولادة كانت قد نهضت من فراشها ومضت إلى القاعة لتجلس مع أبيها . لم يعجب لافرانس هذا... فلم تكن العادة في منزله أن تقوم امرأة نفساء بالخروج إلى الهواء الطلق قبل أن تدخل الكنيسة . قال إن عليها على الأقل ألاّ تعبر الساحة إلا حين تكون الشمس في أعالي السماء . كانت راغنفريد تصغي وهو يتحدث عن هذا :

قالت : "كنت أفكر الآن يا زوجي بأنك لم تلق منّا نحن نساء بيتك إلا القليل من الطاعة ، وأننا غالباً ما كنا نفعل ما نريده ."

سألها زوجها ضاحكاً : "أما كنت تعرفين ذلك من قبل ؟ لم تكن إذن تلك غلطة أخيك تروند... ألا تذكرين أنه كان دائماً يلومني قائلاً إني امرأة عجوز لأني أعطيكن اليد العليا أنتن أيتها النساء ؟"

كان سيرا آيريك يأتي يومياً ليعود الرجل المحتضر . كان بصر كاهن الأبرشية العجوز قد أصبح حسيراً تقريباً ، ولكنه كان يقرأ قصة الخلق باللغة النرويجية والأناجيل والمزامير باللاتينية بوضوح وتدفق كما كانت عادته ، فقد كان يعرف هذه الكتب جيداً جداً . ولكن لافرانس كان قد حصل على كتاب ضخم قبل سنوات من ساستاد ، وكان سعيداً في أن يقرأ عليه منه... إلا أن سيرا آيريك ما كان قادراً على القراءة فيه ، بسبب بصره الحسير . لذلك كان الأب يرجو من كريستين أن تحاول القراءة منه . وحين اعتادت على القراءة منه ، فقد لاحظت أنها قادرة على القراءة فيه جيداً ، وكانت تجد في ذلك متعة كبيرة حيث أصبح لديها ما تقوم به لأجل أبيها .

كان هذا الكتاب يحوي أشياء مثل الحوارات بين "الخوف" و"الشجاعة" وبين "الإيمان" و"الشك" وبين "الجسد" و"الروح" . كما كان يحوي حكايات قديمة عن رجال مقدسين ، وأكثر من حكاية عن أشخاص هاموا

وهم أحياء في ملكوت الروح وعرفوا آلام مكان العذاب ومحنة نار المطهر وسعادة المملكة السماوية . كان لافرانس يتحدث الآن كثيراً عن نار المطهر التي كان ينتظر دخولها سريعاً ، ولكنه لم يكن خائفاً . كان يأمل في الحصول على سلوان كبير من أصدقائه ومن توسطات الكهنة ، ويثق بشدة بأن القديس أولاف والقديس توماس سيمنحانه القوة في آخر محاكماته هذه ، كما أحس غالباً بأنهما كانا يدعمانه في حياته . لقد سمع دائماً أن ذاك الذي يكون ثابت الإيمان لن يضيع ولو للحظة واحدة السعادة الأبدية التي ستستمر بها روحه عبر النيران المحرقة . لاحظت كريستين أن أباها يفكر بسعادة بما كان آتياً ، وكأنه امتحان لرجولته . تذكرت على نحو غامض من أيام طفولتها ذلك اليوم الذي انطلق فيه رجال الملك المحلفون من "ديل" إلى الحرب ضد الدوق آيريك... لقد بدا لها الآن أن أباها كان يتطلع إلى موته كما كان يتطلع آنئذ إلى المغامرات والمعارك .

في أحد الأيام قالت له إنها تعتقد أنه مرّ بامتحانات كثيرة في هذه الحياة حتى أنه سيجتاز امتحانات العالم الآخر بسهولة . أجابها لافرانس : لا يبدو الأمر هكذا له الآن . لقد كان رجلاً غنياً ، وقد ولد لأسرة نبيلة . لقد عرف الأصدقاء وتقدم جيداً في هذا العالم . "إن أعظم أحزاني كان هو أني لم أر وجه أمي ، وأني فقدت أطفالي... ولكن سرعان ما سوف تنقضي هذه الأحزان . وهكذا سيكون الحال بالنسبة للأمور الأخرى التي أثقلت عليّ خلال حياتي... لم تعد تلك أحزاناً ."

غالباً ما كانت أمها معهما خلال قراءة كريستين . وبعض الأغراب أيضاً . وكان يسعد إرلند الآن أن يجلس ويصغي . كان هؤلاء جميعاً يستمتعون بالقراءة ، ولكنها كانت هي نفسها مهزوزة ويائسة... وقد فكرت

في قلبها أنها كانت تعرف جيداً ما هو الجيد والحق ، ومع ذلك فقد كانت مصممة دائماً على اللاورع . وكانت تخشى على طفلها الصغير... فهي لا تتجرأ إلا بالكاد على النوم ليلاً حتى لا يموت وثنياً . كان معها امرأتان تسهران باستمرار للمراقبة ، ومع ذلك كانت تخشى أن تغفو هي نفسها . كان أطفالها الآخرون كلهم معمدين قبل أن يبلغوا ثلاثة أيام من أعمارهم . ولكنهم كانوا قد أجلوا تعميد هذا الأخير ، حيث أنه كان طفلاً كبيراً قوياً ، وكانوا يريدون أن يسموه باسم لافرانس... وفي "ديل" هنا كان الناس يحافظون بإصرار على عادة عدم تسمية الأطفال باسم أشخاص أحياء . في أحد الأيام وبينما كانت جالسة قرب أبيها والطفل في حجرها ، رجاها أن تفك عنه قماطه . فهو لم يكن قد رأى سوى وجه الطفل الصغير . وقد فعلت ذلك ووضعت الصبي على ذراع أبيها . ربت لافرانس على الصدر الصغير المستدير وأخذ بيده واحدة من اليدين المنقبضتين :

"من الغريب يا قريبي أنك ستحمل درع صدري... وأنت لا تملأ فيه الآن ما تملؤه دودة في جوزة فارغة ، وهذه اليد أمامها طريق طويل تقطعه قبل أن تستطيع الإمساك بقراب سيفي . حين يرى المرء مثل هذا الوغد الصغير ، سيفهم تقريباً أن إرادة الرب لم تكن أن نحمل السلاح . ولكنك لن تكبر كثيراً قبل أن تحمل السلاح أيها الصغير . إن قلة قليلة بين الرجال تولد من النساء وتحمل حباً كبيراً للرب حتى تنكر على أنفسها حمل الأسلحة . لم أحمل مثل هذا الحب للرب ."

تمدد قليلاً وهو ينظر إلى الطفل الوليد .

قال ضاحكاً : "تحملين أطفالك تحت قلب محب يا كريستيني... الصبي كبير وسمين ، ولكنك شاحبة ونحيلة كالعصا ، وهكذا كانت حالك كما تقول

أمك حين ولدت كل واحد منهم . كانت بنت رامبورغ صغيرة ونحيلة ، ولكن رامبورغ متوردة كزهرة ."

قالت كريستين : "و لكن يبدو لي أمراً غريباً أنها لا ترضع ابنتها بنفسها ."

"سايمون لا يريدها أن تفعل ذلك... يقول إنه لا يستطيع أن يرد لها هديتها بأن يجعلها ترهق نفسها . تذكري أن رامبورغ لم تكن تبلغ السادسة عشرة... لم تكن قد أبلت خف الطفولة إلا بالكاد حين أنجبت هذه الطفلة... ولكنها لم تعانِ من أي دوار من قبل... ليس أمراً عجيباً أن تكون ذات صبر نافذ . أما أنت فكنت امرأة ناضجة حين تزوجت يا كريستيني ."

و فجأة انهارت كريستين باكية بجنون... لم تكن تعرف إلاّ بالكاد سبب بكائها . ولكنه كان أمراً صحيحاً تماماً... لقد أحبت أطفالها من أول ساعة عرفت فيها أنها تحملهم في رحمها . كانت تحبهم وهم يسببون لها القلق ويثقلون عليها ويجعلونها سيئة المظهر . لقد أحبت وجوههم الصغيرة من أول لحظة رأتهم فيها ، وأحبتهم في كل ساعة وهم يكبرون ويتغيرون . ولكن لم يحببهم أحد عن حق معها ، أو تمتع بهم معها... لم يكن ذاك أسلوب إرلند رغم أنه كان مغرماً بهم إلى حد كاف . ولكنه كان يعتقد أن ناكفه وصل مبكراً جداً ، ومع وصول كل واحد منهم ، كان يفكر أنهم أصبحوا أكثر ممّا هو ضروري . وتتذكر على نحو غامض أفكارها حول ثمرة الخطيئة في أول شتاء قضته في هوسابي : عرفت أنها كانت مضطرة لتذوق مرارتها ، رغم أن ذلك كان مخالفاً لما كانت تخشاه . كان شيء ما قد جرى على نحو منحرف بينها وبين إرلند في تلك الأيام الأولى ، وتبيّن أنه ما عاد ليستقيم مجدداً .

سأل الأب بهدوء بعد وهلة : "ما الأمر الآن يا كريستين ؟" لم تستطع أن تحكي له كل هذا . لذلك قالت ما أن استطاعت الكلام من شدة البكاء :

"ألا يجب أن أحزن يا أبي ، وأنت مضطجع هنا... ؟"

و أخيراً ، حين ضغط عليها لافرانس ، تحدثت عن خشيتها على ابنها غير المعمّد . وهنا أعطى أوامره مباشرة بأن يؤخذ الطفل إلى الكنيسة في اليوم المقدس التالي... قال إنه لا يعتقد أن هذا سيقتله قبل الموعد الذي حدّده له الرب .

قال ضاحكاً : "و علاوة على ذلك ، فقد مرّ علي زمن كاف وأنا راقد هنا . إن حضورنا ورحيلنا (عن هذا العالم) أمر حزين يا كريستين... فنحن نولد بالمرض وبالمرض نموت ، إن لم نمت فجأة . حين كنت شاباً كان يبدو لي أفضل موت هو أن يقتل المرء في ساح الوغى . ولكن الرجل الآثم قد يكون في حاجة إلى سرير المرض... رغم أني لا أستطيع أن أشعر الآن أن روحي ستنمو أقوى من خلال وجودي هنا مضطجعاً..."

و هكذا عمّد الطفل في يوم الأحد التالي ، وأعطي اسم جده لأمه . وقد وُجّه اللوم بشدة في الريف إلى كريستين وإرلند بسبب هذا ، رغم أن لافرانس بيورغولفسون قال لكل من زاره أن ذلك قد تم بموجب رغبته : ما كان يرغب بوجود وثني في منزله حين يأتي الموت إلى بابه .

بدأ لافرانس يخشى الآن أن يأتيه الموت في غمرة بذار الربيع ، مما يفرض صعوبات كبيرة على الناس الراغبين في المشاركة في جنازته باللحاق بموكبها . ولكن في صباح أحد الأيام ، وبعد أربعة عشر يوماً من التعميد ، دخل إرلند إلى كريستين في مبنى الحياكة القديم ، حيث كانت تنام منذ ولادة الصبي . كان شطر كبير من الصباح قد انقضى ، بعد وقت الغداء ،

ولكنها كانت لا تزال في الفراش ، فقد كان الصبي قلقاً . كان إرلند شديد التأثر ، قال لها بهدوء ومودة إن عليها أن تنهض وتأتي إلى أبيها . كان لافرانس قد عانى من نوبات قلبية مخيفة عند الفجر ، وهو منذ ذلك الحين يعاني من نوبات إغماء طويلة ؛ كان سيرا آيريك معه الآن وقد سمع اعترافه للتو .

كان ذلك هو اليوم الخامس بعد قداس هالفارد . كان المطر يهطل برقة إنما باستمرار . حين خرجت كريستين إلى الساحة ، وصلتها نفحة هواء من الجنوب تحمل رائحة الحقول المحروثة والمسمدة حديثاً . كان الريف يقبع بنياً تحت مطر الربيع ، والجو أزرق بين الجبال العالية ، وراح الضباب ينجرف على امتداد نصف المسافة صعوداً إلى جوانب الجبال . وصلها رنين أجراس من الدغل على امتداد النهر الرمادي الطافح... كانت قطعان الماعز قد أطلقت وراحت تقضم من الغصينات المزهرة . كان ذاك هو الطقس الذي كان يفرح قلب أبيها دائماً ، نهاية الشتاء والبرد للناس والقطعان ، فالحيوانات ستتحرر من الحظائر المعتمة الضيقة والعلف القليل .

لاحظت من وجه أبيها أن الموت أصبح وشيكاً جداً . من حول منخريه كانت البشرة بيضاء كالثلج وقد ازرقت شفتاه والدائرتان من حول عينيه الكبيرتين ، وشعره قد تجمع في خصل مخضلة فوق جبينه الندي . ولكنه كان واعياً تماماً الآن ، ويتحدث بوضوح ، إنما ببطء وبصوت ضعيف .

اقترب خدم بيته من سريره ، الواحد في إثر الآخر ، وكان لافرانس يأخذ كل واحد منهم بيده ، ويشكرهم على خدمتهم ويودعهم ويرجو منهم الصفح إن كان قد ارتكب أي خطأ تجاههم مهما كان . كما رجاهم أن يذكروه في صلاة على روحه . ثم ودع أسرته . طلب من ابنتيه أن تنحنيا

حتى يقبلهما ، ثم دعا الرب وكل القديسين أن يباركوهما . بكت الاثنتان بمرارة ، ورمت رامبورغ الشابة بنفسها بين ذراعي أختها . ثم وبأذرع متشابكة ابتعدت ابنتا لافرانس نحو مكانهما عند أسفل السرير ، والصغرى ما تزال تبكي على صدر كريستين .

ارتجف وجه إرلند ، وجرت الدموع على وجنتيه حين رفع يد لافرانس وقبلها ، بينما راح يرجو حماه بصوت خفيض أن يغفر له كل الخطايا التي ارتكبها ضده في كل الأوقات . قال لافرانس إنه يغفر له من كل قلبه ، ودعا الرب أن يكون معه على الدوام . كان هناك نور شاحب غريب فوق وجه إرلند الوسيم حين استدار ووقف إلى جانب زوجته يده في يدها .

لم يبك سايمون دار ، ولكنه ركع عندما أخذ يد حميه ليقبلها ، وبقي راكعاً لفترة قصيرة وهو يمسك بها بشدة . قال لافرانس بابتسامة ضعيفة : "يدك دافئة وطيبة يا صهري ." التفتت رامبورغ إلى زوجها حين اقترب ليقف إلى جوارها ، ورمى سايمون بذراعه من حول كتفيها الرقيقتين الأشبه بأكتاف البنات الصغار .

و أخيراً ودع لافرانس زوجته . تهامسا ببعض الكلمات دون أن يسمعهما أحد ، وتبادلا قبلة أمام الجميع ، كما كان ملائماً ولائقاً والموت متلبث في الغرفة . وبعد هذا ركعت راغنفريد أمام سرير زوجها ووجهها نحو وجهه ، شاحبة وهادئة وساكنة .

تلبث سيرا آيريك بعد أن مسح على الرجل المتوفي بالزيت المقدس وقدم إليه قربان الموت . جلس عند رأس السرير ، وهو يتلو صلواته . كانت راغنفريد جالسة الآن على حافة السرير . مضت بضع ساعات . كان لافرانس مضطجعاً بعينين مغمضتين . حرك رأسه الآن باضطراب فوق

الوسادة ، وراح يتلمس بيديه غطاء السرير ويتنفس بصعوبة ويئن مرة أو مرتين . ظنوا أنه فقد القدرة على الكلام ، ولكن لم يكن هناك نزاع الموت .

حل الغسق مبكراً ، وأشعل الكاهن شمعة . جلس الناس بصمت وهم ينظرون إلى الرجل المحتضر ويصغون إلى هطول وتنقيط المطر خارج المنزل . ثم بدأ الاضطراب يطغى على الرجل المريض ، فارتجف جسده ، وغطى ظل أزرق جسده ، كما بدا وكأنه يناضل ليلتقط أنفاسه . مرّر سيرا آيريك ذراعه من خلف كتفيه ورفعه إلى وضعية الجلوس ، بينما أبقى رأسه على صدره ورفع الصليب عالياً أمام وجهه .

فتح لافرانس عينيه ، ثبتهما على الصليب الذي في يد الكاهن ، وتكلم بضعف إنما بوضوح حتى سمع معظم من كان في الغرفة كلماته (باللاتينية) :

" *"لأنك أنت اقتنيتني بكليتي"*

(المزمور ١٣٩) .

و من جديد اعترته بعض الرجفة في جسده ، وراحت يداه تتلمس غطاء السرير . تابع سيرا آيريك الإمساك به بقوة لبعض الوقت . ثم وبحذر أعاد جسد صديقه إلى الوسادات ، وقبل جبينه ومسح الشعر من حوله ، ثم أغلق له جفنيه ومنخريه ، وبعدها نهض على قدميه وبدأ بالصلاة .

•

منحت كريستين الإذن لتأخذ دورها في السهر على الجثمان ليلاً . كانوا قد وضعوا لافرانس على القش في القاعة العليا . كان المكان واسعاً هناك ، وكانوا يتوقعون تجمع حشد من الناس لأجل السهر على الجثمان .

بدا أبوها جميلاً إلى حد لا يوصف وهو ممدّد هناك تحت نور الشمعة ووجهه الذهبي الشاحب عارياً . كانوا قد أنزلوا الفوطة من على وجهه حتى لا يتسخ بأيدي الكثير من الناس الذين وصلوا ليلقوا نظرة على الجثمان . كان سيرا آيريك وكاهن الأبرشية من كفام يرنمون من فوقه... كان كاهن كفام قد وصل في المساء ليودع لافرانس ، إلا أنه تأخر كثيراً .

و لكن في اليوم الثاني كان قد سبق للناس وبدأوا يفدون راكبين إلى الضيعة ، وقد أصبح متوجباً على كريستين الآن ، لأجل اللياقة ، أن تخلد إلى السرير مجدداً ، فهي لم تدخل الكنيسة بعد . والآن كان دورها لتغطي سريرها بأغطية حريرية وأفضل الوسائد التي في البيت . لقد أحضر مهد آل غييسلسنغ من فورمو على أساس الإعارة . لقد وضع لافرانس الصغير فيه ، وفي كل يوم كان الناس يدخلون ويخرجون ليروها هي والطفل .

بقي جسد أبيها نضراً طيب الرائحة ، كما سمعت... ولكنه زاد اصفراراً نوعاً . ولم يكن هناك من شاهد من قبل كل هذا العدد من الشموع من حول سرير شخص ميت .

في اليوم الخامس بدأت وليمة الجنازة... وكانت فخمة إلى أقصى حد من كل ناحية... حضر أكثر من مئة حصان غريب إلى الضيعة وفي لاوغاربرو ، وعلاوة على ذلك فإن بعض الضيوف اضطروا إلى النوم في فورمو . في اليوم السابع تقاسم الورثة الأراضي والأملاك بكل ود واتفاق... كان لافرانس قد رتب كل الأمور بنفسه قبل أن يموت ، وقد اتبع الجميع رغباته بإخلاص .

و في اليوم التالي كان يجب أن يجلب الجثمان الراقد الآن في كنيسة أولاف للبدء بالرحلة إلى هامار .

في مساء اليوم السابق... وكان ذلك بالأحرى في الليل ، دخلت

راغنفريد غرفة المدفأة ، حيث كانت ابنتها تنام مع طفلها . كانت سيدة المنزل في منتهى الإرهاق ، ولكن وجهها كان صافياً وهادئاً . طلبت من الخادمات المغادرة .

"كل مكان في المنزل مليء ، ولكنني أعتقد أنك ستجدين زاوية في مكان ما . أنا أفكر في السهر على صحة ابنتي بنفسي ، في آخر ليلة لي في بيتي ."

أخذت الطفل من ذراعي كريستين ، وحملته إلى المدفأة ، وجهزته لليل .

قالت كريستين : "لا بد أنه أمر غريب بالنسبة إليك يا أمي أن تهربي من هذا المكان حيث عشت مع أبي كل هذه السنين . لا أفهم إلا بالكاد كيف تستطيعين احتمال ذلك ."

قالت راغنفريد وهي تهدهد لافرانس الصغير في حجرها... سيكون الأمر أهون على الاحتمال من العيش هنا دون أن أرى أباك وهو يتجول بين الأبنية ."

ثم بدأت تقول بعد فترة : "لم تعرفي أبداً كيف هربنا إلى هنا إلى ديل واتخذناه بيتاً . لقد جرى الكلام عن أن أبي إيفار على وشك أن يلفظ أنفاسه ، وكنت غير قادرة على السفر على الطرقات . كان على لافرانس السفر شمالاً لوحده . وأتذكر جيداً أن الطقس كان جميلاً في مساء ذلك اليوم حين انطلق... كان قد سبق له وبدأ يحب الركوب في وقت متأخر ، في الجو البارد . لذلك كان عليه أن يسير إلى أوسلو في تلك الليلة . كان منتصف الصيف قريباً . وقد مضيت معه إلى حيث كان الطريق من الضيعة يتقاطع مع طريق الكنيسة... أتعرفين أين ؟ هناك بعض الصخور العارية الضخمة

وبعض التربة القاحلة من حولها... إنها أسوأ أرض في منطقة سكوغ كلها ، فهناك يشعرون بالقحط قبل الجميع... ولكن في ذلك العام كان القمح ينمو جيداً في تلك الحقول ، وقد تحدثنا عن ذلك . سار لافرانس وهو يقود حصانه ، وكنت أمسك بيدك... كنت في سن الرابعة...

"حين وصلنا إلى حيث يلتقي الطريقان ، طلبت منك أن تذهبي إلى البيوت . كنت كارهة ذلك ، ولكن أباك قال إن عليك أن تمضي لتفتشي عن خمسة أحجار بيضاء وتضعيها بشكل صليب في الجدول الذي تحت النبع... كان ذلك لحمايته من الأقزام في غابة ميورسا وهو يبحر قريباً منها . ثم انطلقت تركضين..."

سألتها كريستين : "أهو أمر يتحدث عنه الناس هناك ؟"

"لم أسمع به أبداً لا قبل ذلك ولا بعده . لا بدّ أن أباك قد اخترعه على ما أعتقد في التّو واللحظة . ألا تذكرين أنه كان يختلق الكثير من الحكايات وهو يلاعبك ؟"

"أجل ، أتذكر ذلك" .

"لقد مضيت معه عبر الغابة ، طول الطريق إلى حجر القزم . ثم جعلني أرجع وعاد هو أيضاً معي إلى مفترق الطرق مجدداً... ضحك وقال إنني قد عرفت أنه لن يدعني أمشي وحدي عبر الغابة ، وبعد غروب الشمس أيضاً . وبينما كنا واقفين هناك عند مفترق الطرق وضعت ذراعيّ حول عنقه . كنت في معنويات منهارة جداً لأني لم أستطع العودة إلى موطني... لم أكن قادرة على العيش في سكوغ ، وكنت أتوق إلى العودة شمالاً إلى ديل . واساني لافرانس وأخيراً قال : "حين أعود ، وإن وجدتك حاملة ابني بين ذراعيك ، عندها قد تطلبين مني ما تشائين على أن يكون ضمن مقدرة الإنسان على

منحك إياه ، ولن يكون طلبك عبثاً" . فأجبته : إذن هل أطلب منك أن تهرب إلى هناك ونسكن في أرض ميراثي . لم يكن أبوك يحب ذلك وقال : «أما كنت قادرة على إيجاد شيء أهم تطلبينه ؟... ضحك قليلاً ، وفكرت : لن يفعل ذلك أبداً... وبدا لي أيضاً أنه أمر معقول ألا يفعل ذلك . ولاحقاً ، تعرفين كيف جرت الأمور معي... سيغورد أصغر أخوتك لم يعش حتى لساعة واحدة... وقد عمّده هافلاند ومات مباشرة بعد ذلك...

"وصل أبوك في الصباح الباكر من أحد الأيام... كان قد سمع في أوسلو في الليلة السابقة ما حدث في البيت ، وقد ركب حصانه بشكل متواصل دون أن يتوقف . كنت لا أزال في السرير . كنت حزينة جداً إلى حد أني لم أستطع النهوض... وقد بدا لي أني لن أنهض مجدداً . فليسامحني الرب ، فحين أدخلوك إليّ ، التفتّ بوجهي إلى الجدار ، ورفضت النظر إليك ، يا طفلتي الصغيرة . ولكن لافرانس قال آنئذ وهو يجلس على طرف سريري ، وعباءته وسيفه لا زالا عليه ، إن علينا أن نحاول لنرى إن كانت الأمور ستسير على نحو أفضل لو ذهبنا لنعيش في يورووندغارد... وهكذا هربنا من سكوغ . ولكن بما أن الأمور كانت على ما هي عليه ، لذلك فقد تعتقدين أني لا أرغب بالسكن هنا ، بعد أن رحل لافرانس ."

مضت راغنفريد حاملة الطفل ووضعته على صدر أمه . رفعت الغطاء الحريري الذي كان ينشر فوق سرير كريستين في النهار ، طوته ووضعته جانباً . ثم وقفت لفترة وهي تنظر إلى ابنتها ، ولمست الضفيرة الشقراء البنية السميكة التي كانت تقبع بين ثدييها الأبيضين .

"لقد سألني أبوك غالباً إن كان شعرك لا يزال سميكاً وأشقر كما كان دائماً . لقد سره كثيراً أنك لم تفقدي جمالك من حملك للكثير من الأولاد .

لقد كان فرحاً جداً بك في هذه السنوات الأخيرة ، وأنك قد أصبحت امرأة قديرة ولا تزالين نضرة وجميلة مع كل أبنائك الوسيمين من حولك ."

شرقت كريستين بدموعها مرة أو اثنتين .

"كان دائماً يتحدث إليّ عنك وكيف أنك أفضل الزوجات... قال لي أن أخبرك بذلك..." توقفت خجلة ، وضحكت راغنفريد برقة .

"قد يكون لافرانس عرف أنه ليس في حاجة إلى أي شخص ليحمل إليّ رسالة عن حبه لي ." ربتت على رأس الطفل وعلى يد ابنتها التي كانت تحيط بالطفل الصغير . "و لكن ربما فعل ذلك... لا تظنّي يا كريستين أني حسدتك في أي يوم من الأيام على حب أبيك لك . كنت حلوة وجميلة جداً وأنت صغيرة... لم أكن ممتنة بما فيه الكفاية لأن الرب حفظك لي . ولكني كنت أفكر فيما خسرته أكثر من تفكيري فيما كنت أمتلكه ."

جلست راغنفريد على جانب السرير .

"كانت لديهم أساليب أخرى في سكوغ غير أساليبنا في البيت هنا . لا أستطيع أن أتذكر أن أبي قبلني ولو مرة واحدة... كان يقبل أمي حين تضطجع في فراش الولادة . كانت أمي تقبل فودرون في أيام القداس ، فقد كانت تقف إلى القرب منها ، ثم قبلتني أختي... ولكننا لم نعتد التقبيل...

"في سكوغ اعتدنا حين نصل من الكنيسة بعد تناول القربان المقدس وبعد أن نترجل عن أحصنتنا في الساحة ، أن يقبل السير بيورغولف ابنه ويقبلني على الخد ، وكنا نقبل يده . لاحقاً كان كل زوجين يقبل الواحد منهما الآخر ، ثم كنا نتصافح بالأيدي مع كل الخدم الموجودين في الخدمة ، ونتمنى الواحد للآخر أطيب التمنيات مع الطعام المقدس . وكان من عادة

لافرانس وآسموند أن يقبلا يد أبيهما حين يقدم لهما الهدايا في مناسبات كتلك . وحين كان هو أو إنغا يدخلان ، فإن الابنين كانا ينهضان واقفين ويبقيان كذلك حتى يطلب منهما الجلوس . في البداية بدا لي هذا على أنه أمر أحمق ، على أنها أساليب أجنبية في السلوك...

"لاحقاً ، في السنوات التي عشتها مع أبيك ، وحين فقدنا أبناءنا ، وعبر كل تلك السنوات حين كنا نعاني من الخوف والأسى الكبيرين على أولفهيلد... كان أمراً جيداً لي عندها أن لافرانس كان قد نشأ على ذلك النحو ، أي أن يكون رقيقاً ومحباً ."

بعد برهة قالت كريستين :

"إذن لم ير أبي سيغورد أبداً ."

قالت راغنفريد باللهجة الخفيضة نفسها : "لا . ولم أره أنا أيضاً وهو حيّ ."

بقيت كريستين صامتة لبرهة ، ثم قالت :

"على أي حال ، يا أمي ، يبدو لي الأمر وكأنك عرفت الكثير من الخير في حياتك..."

بدأت الدموع تهطل من وجه راغنفريد إيفارسداتر الأبيض :

"أجل . ليكن الرب في عوني . هكذا يبدو الأمر لي الآن ."

و سرعان ما أخذت الطفل الذي قد نام الآن ، من على صدر أمه ، ووضعته في المهد . ثبتت شلحة كريستين بالدبوس الصغير ، وربتت على خد ابنتها ، ثم طلبت منها أن تنام . رفعت كريستين يدها .

قالت بتوسل : "أمي..." .

انحنت راغنفريد ، قرّبت ابنتها منها محتضنة إياها بين ذراعيها وقبلتها مرات كثيرة . لم تكن قد فعلت هذا من قبل في كل السنوات التي مرت منذ أن ماتت أولفهيلد .

•

في اليوم التالي كان الطقس ربيعياً جميلاً كأجمل ما يكون الطقس الربيعي ، وقد وقفت كريستين وراء زاوية مبنى القاعة وراحت تتطلع إلى الجبال وراء النهر . كانت رائحة النمو في كل مكان ، وأغنية الجداول قد انطلقت بحرية . كانت هناك لمسة خضراء على كل الغابات والمروج . وحيث يجري الطريق على امتداد جانب الجبل فوق لاوغاربرو ، كانت بقعة من الجاودار الشتائي تلتمع نضرة متلألئة... كان يون قد أحرق الحشائش هناك في العام الماضي وبذر الجاودار في البقعة المحروقة .

كانت سترى الموكب الجنائزي وهو يمر من هناك .

و ها هو يمر الآن ، متحركاً ببطء ، تحت ركام الحجارة في جانب الجبل ، وفوق حقل الجاودار الجديد النضر .

استطاعت أن تميز الكهنة كلهم وهم يتقدمون فوق جيادهم في المقدمة . كان هناك مساعدو كهنة أيضاً في المجموعة الأولى ، يحملون الصلبان والشموع . لم تستطع أن ترى الشعلة في ضوء النهار ، ولكنها رأت الشموع نفسها كخطوط بيضاء رشيقة . ثم كان هناك حصانان يحملان بينهما تابوت أبيها على محفة ، ثم استطاعت أن تميز إرلند على جواده الأسود وأمها وسايمون ورامبورغ ، وكثيراً من الأقرباء والأصدقاء في الموكب الجنائزي الطويل .

و لفترة استطاعت أن تسمع بوضوح غناء الكهنة فوق هدير نهر لاغن ، ثم تلاشى صوت الترنيمة بين صخب النهر وهمهمة الجداول على جوانب الجبل . وقفت كريستين صامتة ، محدقة وذلك بعد فترة طويلة من مرور آخر حصان حمولة مع الأمتعة وغيابه عن الأنظار في الغابات الجانبية .

القسم الثالث

إرلند نيكولاوسون



١

لم تعش راغنفريد إيفارسداتر سنتين كاملتين بعد وفاة زوجها ، فقد ماتت في بداية شتاء عام (١٣٣٢) . المسافة من هامار إلى سكاون بعيدة ، لذلك لم يسمعوا في هوسابي بوفاتها إلا بعد شهر من دفنها . ولكن في موسم وايتسونسايد في العام التالي وصل سايمون أندرسون لزيارتهم . كان هناك أمر أو اثنان للتناقش حولهما بين الأقرباء حول ميراث راغنفريد . كانت كريستين لافرانسداتر تمتلك يورونغارد الآن ، وقد تقرر أن يكون سايمون مسؤولاً عن أراضيها وأملاكها ، وأن يحاسب مزارعيها . كان قد أدار أملاك حماته في "ديل" خلال سكنها في هامار .

في هذا الوقت بالضبط كان إرلند يعاني من الكثير من المشاكل والحنق فيما يخص بعض الأمور التي برزت خلال عمله كقيّم . ففي الخريف السابق ، قام هونتيوف ، وهو مزارع من مزارعي فوريغد في أوبدال بقتل أحد جيرانه لأنه دعا زوجته بالجنية القزمة . جلب أعضاء الأبرشية القاتل موثقاً إلى "الحاكم" ، وقد أمر إرلند بحبسه في إحدى العليات . ولكن حين اشتد البرد في الشتاء ، ترك الرجل يتجول حراً بين أتباعه . كان هونتيوف مع إرلند على متن "مارغيغرن" في الشمال ، وكان قد أدى خدمته برجولة هناك .

لذلك حين أرسل إرلند رسائل تتعلق بقضية هونتيوف ، فقد توسل أن يمنح "مهلة"(١٤) بحيث يبقى في منزله حتى يصدر الحكم بحقه ، وقد مدح الرجل إلى حد كبير . وحين ضمن أولف هالدورسون أن هونتيوف سيتقدم إلى المحكمة في الوقت الملائم في مجلس أوركيدال ، ترك إرلند الرجل يمضي إلى بيته لقضاء فترة عيد الميلاد . ولكنه انطلق من بيته بصحبة زوجته لزيارة حارس بيت الراحة في دريفدال -كان يمت إليهم بصلة قرابة- وخلال تلك الرحلة اختفيا . اعتقد إرلند أنهما ماتا خلال العاصفة الكبيرة التي هبت في ذلك الحين ، ولكن الكثيرين قالوا إنهما هربا بجلدهما... ويمكن لجماعة "الحاكم" أن تطالب بهما دون طائل الآن . ثم برزت أمور أخرى تخص الهاربين... كان هونتيوف قد قتل رجلاً قبل بضع سنين في الجبال ودفنه في كوم حجارة... وهو رجل اعتقد أنه جرح مهرةً له في كفلها . وقد تبين بوضوح أن الزوجة كانت تمارس السحر .

ثم قام كاهن أوبدال ومفوض الأسقف بالتحقيق والبحث في هذه الشائعات عن ممارسة السحر . وقد أدى هذا إلى حدوث أمور مؤسفة تتعلق بالأسلوب الذي كان فيه الناس يتعاملون مع الدين المسيحي في كثير من أنحاء مقاطعة أوركدولا . وكان ذلك بارزاً أشد البروز في الأبرشيات البعيدة ، مثل رينابو وأوبسدالكوغ ، ولكن حكاية الرجل العجوز من بودفيك ، قد طرحت أيضاً أمام محكمة الأسقف في نيداروس . وفي هذه القضية لم يظهر إرلند سوى القليل من الحماسة رغم كثرة الكلام عنها . كان للأمر علاقة بالخادم العجوز "آن" ، الذي كان يعيش قرب البحيرة إلى الجنوب من هوسابي ، ويكاد يحسب واحداً من سكان ضيعة إرلند . كان يمارس كتابة الطلاسم والرقى ، وجرى حديث كبير عن بعض الأصنام في كوخه ، والتي كان الناس يقولون إنه معتاد على التضحية لها . ولكن لم يكتشف شيء من

هذا بعد وفاته . كان إرلند نفسه وأولف هالدورسون معه ، كما هو معروف ، حين مات... ولا بد أنهما قد أزالا دون شك بعض الأشياء قبل وصول الكاهن ، كما قالت الناس . أجل ، وحين يفكر الناس في مثل هذه الأمور ، ألم تكن خالة إرلند قد اتُهمت بممارسة السحر والدعارة وقتل الزوج ؟... رغم أن الليدي آشيلد غاوتسداتر كانت شديدة البراعة وماهرة في التهرب ، وكان لديها الكثير من الأصدقاء الأقوياء ، فلم يثبت شيء من هذا ضدها . وفي الوقت نفسه تذكر الناس أن إرلند عاش في شبابه بأسلوب مخالف للعقيدة المسيحية إلى حد كبير ، ولم يكترث بالحرمان الكنسي .

و كانت نهاية ذلك كله أن استدعى الأسقف إرلند نيكولاوسون لزيارته والتشاور معه في نيداروس . وقد ذهب سايمون برفقة عديله إلى المدينة ، إذ كان عليه أن يحضر ابن أخته من رانهايم ، إذ كان من المفروض أن يعود الصبي معه إلى "ديل" ، ليكون مع أمه لبعض الوقت .

كان قد بقي أسبوع على انعقاد مجلس المقاطعة ، وكانت المدينة تعجّ بالناس . وحين وصل العديلان إلى قصر الأسقف وأدخلا إلى قاعة المقابلات الرسمية ، فإن عدداً من "رهبان الصليب" وبعض الناس من ذوي الصيت... وكان بينهم رئيس مجلس المقاطعة ، هارالد نيكولاوسون ، وأولاف هرمانسون رئيس مجلس نيداروس ، والسير غوتورم هلفسون ، حاكم يمتدلند . كما كان هناك آرن غيافالدسون الذي تقدم من سايمون دار وحياه بحرارة . تنحى آرن لسايمون جانباً وأخذه إلى زاوية إحدى النوافذ وجلسا هناك .

كان سايمون قلقاً . لم يكن قد قابل الشخص الآخر منذ أن كان في رانهايم قبل عشر سنوات ، ورغم أن سكان رانهايم كانوا قد استقبلوه بحفاوة

في ذلك الحين ، إلا أن زيارته إلى هناك كانت في مهمة تركت أثراً موجعاً في نفسه .

و بينما راح آرن يتفاخر بغيافالد الشاب ، جلس سايمون يراقب عديله . كان إرلند جالساً يخاطب "أمين الخزينة"[١٥] الذي كان اسمه السير بارد بيترسون ، ولم يكن قريباً من آل هستنايس . لا يمكن للمرء أن يقول إن إرلند كانت تنقصه الكياسة ؛ إلا أنه كان شديد التحرر والجرأة وهو واقف هناك يتحدث إلى الرجل النبيل العجوز... وهو يتأرجح قليلاً إلى الأمام والخلف ، ويداه خلف ظهره . وكما كانت عادته غالباً ، فقد كان يرتدي ملابس داكنة اللون ، ولكنها غالية الثمن : كوثاردي بنفسجي لصيق بجسده ومشقوق عند الجانبين ، ذيل كم أسود ، مع قلنسوة مدفوعة إلى الخلف لإظهار البطانة الحريرية الرمادية ، وحزام مطعم بالفضة ، وجزمة حمراء طويلة مربوطة بشرائط حول الكعبين وتبرز ساقي وقدمي الرجل حسنة الشكل .

في النور الحاد القادم من نوافذ القاعة الزجاجية ، كان واضحاً بما فيه الكفاية مشاهدة فودي إرلند نيكولاوسون وقد وخطهما شيب كثير . من حول فمه وتحت عينيه فإن البشرة التي لفحتها الشمس كانت مغضنة بغضون دقيقة ، كما كانت بعض التجاعيد المتصالبة تظهر في العنق الطويل المقوس على نحو جميل . ومع ذلك فقد كان يبدو شاباً بين الآخرين المتواجدين هناك ، رغم أنه لم يكن أبداً أصغر الحضور سناً . ولكنه كان رشيقاً ونحيلاً كعادته ، وكان يتحرك بليونة وبلا اهتمام كما كان شأنه في شبابه ، ويمشي بخفة وحيوية ، كما يفعل الآن بعد أن تركه أمين الصندوق ، إذ راح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ويداه ما زالتا معقودتين خلف ظهره . كان الرجال

الآخرين جالسين جميعاً ، يتكلمون بأصوات خفيضة جافة . أما خطوات إرلند الخفيفة ورنين مهمازيه الفضيين الصغيرين فكانت مسموعة بوضوح .

و أخيراً طلب منه أحد الشبان الجلوس : "كن أهدأ قليلاً يا رجل!"

توقف إرلند وعقد حاجبيه ، ثم التفت إلى الرجل الذي تكلم .

"أين كنت تشرب مساء البارحة يا قريبي يون حتى يؤلمك رأسك إلى هذا الحد اليوم ؟" قال ضاحكاً وجلس . وحين اقترب منه هارالد لاغماند ، نهض بالفعل ووقف ساكناً حتى جلس الآخر ، ولكنه سقط إلى القرب من لاغماند ، ووضع ساقاً فوق ساق ، وجلس ويداه مشبوكتان على ركبتيه ، بينما راح هارالد يتكلم .

كان إرلند قد صارح سايمون بكل المشاكل التي وقع فيها بسبب هروب القاتل والساحرة من يديه . ولكن ما كان شخص يبدو أكثر لا مبالاة من إرلند وهو جالس هناك يناقش الأمر مع لاغماند .

دخل الأسقف الآن . وقد اقتيد إلى كرسيه العالي من قبل شخصين أسنداه بالوسائد . لم يكن سايمون قد شاهد من قبل اللورد آيليف تورتين . بدا عجوزاً وضعيفاً ، وبدا أنه يشعر بالبرد رغم ارتدائه لعباءة من الفرو وقبعة مبطنة بالفرو . وحين جاء دورهما ، قاد إرلند عديله نحو الأسقف ، وركع سايمون على ركبة واحدة وهو يقبل خاتم اللورد آيليف . كما قبل إرلند أيضاً الخاتم بكل احترام .

كان يتصرف بكل لباقة واحترام أيضاً حين وقف أخيراً أمام الأسقف بعد أن تحدث رجل الكنيسة لفترة طويلة مع الآخرين حول أمور مختلفة . ولكنه أجاب بخفة بالأحرى على أسئلة أحد كهنة الكاتدرائية وكان أسلوبه أسلوب شخص واثق من براءته .

و لكنه كان قد سمع الشائعات عن ممارسة السحر منذ سنوات كثيرة ولكن طالما لم يطلب منه أحد الإرشاد ، فهو ما كان قادراً على البحث عن الحقيقة بين كل الحديث الذي كانت تتداوله نساء الأبرشية . لا شك أن القيام بالتحقيق كان من اختصاص الكاهن ، إن كان هناك أساس لدعوى ضد أي شخص كان .

ثم سئل عن الرجل العجوز الذي كان يقطن في هوسابي ، والذي كان الناس يقولون إنه ساحر .

ابتسم إرلند قليلاً . أجل ، كان "آن" يتبجّح بنفسه ، ولكن لم ير إرلند أي دليل على ممارساته السرية . فمنذ طفولته كان يسمع "آن" وهو يتكلم عن بعض النسوة اللواتي دعاهن "هان" و"سكوغول" و"سنوترا" ، ولكنه لم يأخذ هذه الأمور إلا على أساس أنها حكايات للأطفال . استجوبه أخي غونولف وكاهننا سيرا آيليف مرة أو مرتين ، على حد علمي ، ولكني أعتقد أنهما لم يجدا ما يدينه ، حيث أنهما لم يفعلا شيئاً . كان الرجل يرتاد الكنيسة في كل قداس ، وكان يعرف صلواته المسيحية ." لم يكن إرلند يصدق قدرات "آن" السحرية ، وبما أنه رأى في شمال لابلاند السحر والرقى ، فقد أدرك جيداً أن السحر الذي كان يمارسه "آن" كان مجرد حماقات .

ثم سأله الكاهن إن كان صحيحاً أن إرلند نفسه قد أخذ من "آن"" شيئاً يجلب له الحظ في الحب ؟

أجاب إرلند بسرعة ووضوح وبابتسامة بالإيجاب . كان ذلك وهو في الخامسة عشرة من عمره ، على ما يتذكر ، أي منذ ثمانية وعشرين عاماً أو نحوها . كان ذلك كيساً من الجلد فيه حجر أبيض وأشياء مجففة... قطع

صغيرة من حيوان ، كما كان يعتقد . ولكنه لم يكن يؤمن كثيراً في مثل هذه الأشياء حتى في تلك الأيام... وكان تخلى عنه في السنة التالية ، أي في السنة الأولى من وجوده في القصر . كان ذلك في أحد حمامات البلدة... ففي لحظة اندفاع ومرح أخرج الرقية ليريها لبعض الفتيان الآخرين... وقد جاءه لاحقاً أحد رجال الحرس عارضاً شراءها . وقد بادلها إرلند بموسى من الفولاذ الجيد .

و قد سئل من كان ذلك الرجل .

في البداية رفض إرلند أن يذكر الاسم . ولكن الأسقف نفسه أمره أن يفعل . رفع إرلند نظره ووميض من الشر في عينيه الزرقاوين : "كان ذلك السير إيفار أوغموندسون" .

بدا على وجوه الرجال التوتر . أما السير غوتورم هلفسون العجوز فقد نخر على نحو غريب . أما اللورد آيليف نفسه فحاول جاهداً ألاّ يبتسم . ثم تابع إرلند وقد اعترته الحماسة وعيناه تنظران إلى الأرض وهو يعض على شفته السفلى قليلاً :

"يا سيدي ، أعتقد أنك لن تزعج فارساً ممتازاً بهذه الحكاية القديمة . وكما قلت لكم ، فإني لا أؤمن كثيراً في هذه الرقية ، كما أني لم ألحظ أنها حققت شيئاً لأي منا بعد أن أعطيته هذا الكنز..."

ضحك السير غوتورم عالياً ، واستسلم الآخرون للقهقهة . أما الأسقف فضحك ضحكة مكبوتة صغيرة ، ثم سعل وهز رأسه . كان معروفاً عن السير إيفار أن إرادته أقوى من حظه بكثير في مسائل معينة .

بعد برهة صحا واحد من رهبان الصليب وذكّر الحاضرين بأنهم قد

اجتمعوا لمناقشة أمور جدية . سأل إرلند بحدة إن كانت قد وجهت إليه تهمة من جهة من الجهات ، وإن كان يُحاكم هنا ، فهو قد افترض أنه قد استدعي للتشاور الودي . واستؤنف الكلام الآن كما في السابق ، ولكن مع بعض الاضطراب الذي كان يثيره غوتورم هلغسون بين الحين والآخر إذ ينفجر بالضحك .

في اليوم التالي ، حين كان العديلان في طريق العودة من رانهايم ، تطرق سايمون إلى هذا الاجتماع . لقد بدا له أن إرلند كان يأخذ الأمور بخفة : قال إنه لاحظ بوضوح أن أكثر من واحد من أولئك الرجال الكبار هناك كان مستعداً لإيذائه لو استطاع .

قال إرلند إنه يعرف ذلك جيداً ، وأنهم قد يفعلون لو استطاعوا . ففي الشمال هنا كان معظم الناس من حزب "المستشار"... ولكن ليس الأسقف : فإرلند يثق بهذا كصديق . ولكن معالجة إرلند لكل الأمور كانت لا تخالف القانون... وكان يشاور كاتبه كلونغ أرسون في كل المسائل ، وكان هذا شديد البراعة في هذه القضايا . كان إرلند يتحدث بجدية الآن ، ولكنه كان يبتسم بخفة وهو يقول إنه ما كان أحد يتوقع منه أن يكون ماهراً في معالجة المسائل التي وضعت تحت إشرافه كما أثبت هو بالفعل ، لا أصدقاءه الأعزاء في هذا الريف ولا حتى لوردات المجلس . أما بالنسبة إلى البقية ، فلم يكن واثقاً أنه مهتم بالبقاء في منصب "الحاكم" لو كانت وفق شروط أخرى غير تلك التي وضعت خلال وجود إرلينغ فيدكونسون في القمة . كانت أموره الآن في وضع -منذ وفاة والدي زوجته- لم يعد فيها مضطراً للمقايضة لصالح الرجال الذين وصلوا إلى السلطة حين أعلن أن الملك قد بلغ سن الرشد .

أجل فليدّعوا أن ذلك الفتى الفاسد قد بلغ سن الرشد الآن أو لاحقاً ،

فمن غير المحتمل أنه لن يصبح رجلاً بمزيد من الوصاية عليه . وسيعرف المرء الآن على نحو أسرع ما كان هذا ينوي فعله... هو أو اللوردات السويديون الذين كانوا يمسكون بالخيطان . وسرعان ما سيعرف الناس أن إرلينغ كان ذا بصيرة واضحة على أي حال . وسيكلفنا الأمر كثيراً لو حاول الملك ماغنوس أن يضع "سكان" تحت وصاية التاج السويدي ، وسيعني ذلك الحرب مع الدانمركيين في لحظة وصول رجل واحد ، سواء كان دانمركياً أو ألمانياً ، إلى السلطة في الدانمارك . وكان السلام في الشمال سيدوم عشر سنوات... وكان نصف هذه المدة قد انقضى الآن ، ولم يكن الأمر مؤكداً أن الروس سيحافظون على الحلف حتى في السنوات الخمس المتبقية . لم يكن إرلند يثق بهم كثيراً ، كما لم يكن إرلينغ يثق بهم أيضاً ، فيما يخص ذلك . أجل ، كان المستشار "بال" رجلاً عالماً دون شك وحكيماً علاوة على ذلك ، من نواح كثيرة ، ربما . أما نبلاء المجلس الذين عينوه قائداً لهم... فقد كان "سوتن" ،(حصانه)هذا يتحلى بالذكاء أكثر منهم كافة . حسناً ، لقد تخلوا عن إرلينغ الآن... مؤقتاً . ومؤقتاً أيضاً فإن إرلند يود أن يتنحى جانباً هو أيضاً . ولكن إرلينغ وأصدقاءه كانوا يحبذون بالأحرى أن يستمر في التمسك بسلطاته وثرواته في الشمال هنا... لذلك لم يكن قد حزم أمره بعد .

لم يستطع سايمون دار أن يغالب القول : "أعتقد أنك تعلمت الآن كيف تتناغم مع السير إرلينغ ."

أجاب إرلند : أجل كان الأمر كذلك . فقد كان سكن في منزل السير إرلينغ في الصيف الماضي ، حين كان في بيورغفين ، وقد تعلم كيف يفهم الرجل على نحو أفضل الآن . الأمر وما فيه أن السير إرلينغ كان يرغب فوق كل شيء في أن يدعم سلام الملك في البلاد . ولكنه كان يرغب أيضاً في أن

يكون لمملكة النرويج سلام الأسود ، أي ألاّ يكون لأحد الإذن بكسر سن أو بتقليم مخلب من أسد قريبهم الملك هاكون... وأنه لا يجب أن يُحول إلى كلب صيد مدرب لشعب بلد آخر . أما بالنسبة إلى البقية ، فإن إرلينغ كان راغباً جداً الآن في أن يضع حداً للنزاعات القديمة بين النرويجيين والليدي إنجبيورغ . وبما أنها أصبحت أرملة الآن بعد وفاة السير كنوت ، فإن المرء لا يستطيع سوى أن يتمنى أن تعود إليها بعض السلطة على ابنها مجدداً . صحيح أنها تحمل الكثير من الحب العظيم للأطفال الذين رزقت بهم من كنوت بورس حتى لقد بدا أنها نسيت إلى حد ما ابنها البكر ، ولكن لا شك أن هذا كله سيتغير حين ستلتقي به مجدداً .

اعتبر سايمون أن كل هذا يبدو وكأنه يدل على أن إرلند كان إلى حد ما مطلعاً على مجريات الأمور . ولكنه تساءل إن كان إرلينغ فيدكونسون... ذلك الوصي المخلوع يعتقد أن إرلند نيكولاوسون كان يتحلى بالذكاء الكافي ليصدر حكماً في مثل هذه الأمور ، أو هل كان إرلينغ الآن يتمسك بأي قشة ضمن متناوله ؟ لم يكن هناك من يستطيع أن يقول عنه إنه كان يستخدم الأمور لصالحه ، ولكن مع كل ثروته ومنصبه ، فإنه ما كان في حاجة إلى فعل ذلك . وقال الجميع إنه مع مرور سنوات فترة وصايته فقد أصبح أكثر عناداً وحكمة في تقديره الشخصي ، ومع ازدياد مقاومة اللوردات الآخرين في المجلس له ، فقد صار في النهاية شديد الاستبداد إلى حد أنه ما عاد يقبل بالكاد الاستماع إلى كلمة من أي رجل .

لكأنما كان إرلند الآن -إذا جاز التعبير- قد صعد إلى متن سفينة إرلينغ فيدكونسون بكلتا قدميه ، ولكن في اللحظة التي واجهتها فيها رياح معاكسة وبدا وكأنه لم يكن واثقاً فيما إذا كان إلقاؤه لنفسه من كل قلبه إلى جانب

قريبه الغنيّ سيكون في صالح أي منهما سواء السير إرلينغ أو إرلند نفسه . ومع ذلك لم يستطع سايمون سوى أن يعترف لنفسه بأنه مهما كان إرلند متهوراً في كلامه عن الناس وعن الأمور ، إلا أنه بدا وكأن هناك جوهراً من الصواب فيما كان يقوله .

و لكن في تلك الليلة كان في مزاج عصبي متهور . كان ينزل الآن في دارة السير نيكولاوسون التي تخلى عنها أخوه إلى إرلند حين لبس قلنسوة الراهب . كانت كريستين معه وكذلك ثلاثة من أطفالهما ، الاثنان الأكبر سناً وأصغرهم طراً ، وكذلك ابنته مارغريت .

في وقت متأخر من المساء كان كثير من الناس يزورونهما ، ومن بينهم بعض الرجال الذين حضروا الاجتماع في مقر الأسقف في الصباح السابق . وبينما كانوا يجلسون وهم يحتسون الشراب على المائدة بعد العشاء ، أصدر إرلند الكثير من الضجيج والضحك . كان قد تناول تفاحة من طبق على المائدة وراح يكتب ويخرمش عليها بخنجره ، ثم دحرجها عبر المائدة إلى حضن الليدي سونيفا أولافسداتر التي كانت تجلس مقابله .

أرادت السيدة الجالسة إلى القرب من سونيفا أن ترى التفاحة وحاولت اختطافها . إلا أن الأخرى لم تقبل التخلي عنها ، وراحت المرأتان تتدافعان وتتنازعان الواحدة مع الأخرى وهما تضحكان وتصرخان . ولكن إرلند صاح بأن السيدة إيفور ستنال تفاحة كاملة هي الأخرى . وقبل أن يمر وقت طويل كان قد رمى بالتفاح إلى كل النساء الموجودات في الغرفة ، وكان قد رسم طلاسم الحبّ عليها كلها كما قال .

صرخ أحد الرجال : "ستكون قد انتهيت أيها الشاب قبل أن تستطيع تلبية كل تلك الوعود!"

أجاب إرلند : "إذن سأتركها كلها دون تلبية... وهذه ليست المرة الأولى التي اضطر إلى فعل ذلك ." ومن جديد عم الضحك الجميع .

و لكن كلونغ الإيسلندي كان قد نظر إلى إحدى التفاحات وصرخ بأن ما يكتبه ليس طلاسم ، بل مجرد كتابات لا معنى لها . وهو مستعد أن يريهم ، كما قال ، كيف ترسم الطلاسم . ولكن إرلند صرخ به ألاّ يفعل شيئاً كهذا :

"لأنهم سيطلبون مني أن أسجنك يا كلونغ ، ولا أستطيع أنا الاستغناء عنك ."

في وسط كل هذا الاضطراب ، دخل أصغر أولاد إرلند وكريستين إلى القاعة بخطى قصيرة قلقة . كان لافرانس إرلندسون قد تجاوز السنتين بقليل الآن ، طفلاً وسيماً جداً ، أشقر وسميناً ، بشعر حريري جميل ومجعّد . وهكذا راحت كل النسوة الجالسات فوق المقعد الخارجي يحاولن أن يمسكن بالطفل... ورحن يمررنه من حضن إلى حضن ، ويربتن عليه ، ليس بلطف كبير ، فقد كنّ الآن ثملات جميعاً وفي حالة مرح شديد . توسلت كريستين التي كانت جالسة مع زوجها فوق الكرسي العالي أمام الجدار أن يجلبوا الطفل إليها ، وكان الصغير يتذمر ويحاول الوصول إليها ، ولكن دون جدوى .

و فجأة ، قفز إرلند من فوق المائدة وأخذ الطفل الذي كان يزعق الآن ، لأن الليدي سونيفا والليدي إيفور كانتا تشدّانه وتتقاتلان عليه . رفع الأب الصبي بين ذراعيه ، وراح يلاطفه ، وبينما كان الصغير لا يزال مستمراً في البكاء ، فقد بدأ هو يسكته ويهدهده ، وهو يذرع القاعة به في نصف العتمة . وقد بدا الآن أن إرلند قد نسي ضيوفه تماماً . كان رأس الطفل اللامع الصغير على كتف أبيه تحت شعر الرجل الأسود ، وكان إرلند بين

الحين والآخر يربت بشفتين نصف مفتوحتين اليد الصغيرة التي كانت ترتاح على صدره . وهكذا تابع السير حتى دخلت الخادمة التي كان عليها أن تعتني بالطفل وتضعه في فراشه قبل وقت طويل .

صاح بعض الضيوف بأن على إرلند أن يغني لهم الآن حتى يرقصوا على غنائه... كان له صوت جميل قوي . في البداية لم يكن راغباً ، ولكنه ذهب إلى حيث كانت ابنته الشابة جالسة على مقعد النساء . وضع ذراعه من حول مارغريت وجذبها إلى الأرض .

"عليك أن ترقصي إذن يا مارغريت ، مع أبيك ."

اقترب شاب وأخذ يد الفتاة... "لقد وعدتني مارغريت بأن ترقص معي هذه الليلة"... ولكن إرلند رفع ابنته بين ذراعيه ووضعها على الجانب الآخر :

"ارقص مع زوجتك يا هاكون... لم أرقص أبداً مع الأخريات حين كنت عريساً جديداً مثلك" .

"تقول إنجبيورغ إنها لا تستطيع الرقص الليلة... وقد وعدت هاكون بالرقص معه يا أبي" ، قالت مارغريت .

لم يكن سايمون دار راغباً في الرقص . وقف لفترة من الوقت مع سيدة عجوز ، وهو يتفرج... كانت نظرته تستقر بين الحين والآخر على كريستين . وبينما كانت خادماتها ينظفن المائدة ويمسحنها ويجلبن المزيد من الشراب وأطباق الجوز ، كانت هي تقف عند نهاية المائدة . لاحقاً ، جلست قرب المدفأة وتكلمت مع كاهن كان بين الضيوف . وخلال فترة وجيزة كان سايمون يجلس إلى جانب هذين الاثنين .

بعد أن رقصا رقصة أو اثنتين ، اقترب إرلند من زوجته .

"تعالي وارقصي معنا يا كريستين" ، قال بتوسل وهو يمدّ يده .

قالت وهي ترفع بصرها للحظة : "أنا متعبة ."

"ألن تطلب منها الرقص يا سايمون... لا تستطيع أن ترفض طلبك للرقص ."

نهض سايمون نصف نهضة من كرسيه ومدّ يده ، ولكن كريستين هزت رأسها : "لا تطلب مني يا سايمون... أنا منهكة جداً..."

وقف إرلند هناك قليلاً . بدا وكأنه غاضب جداً من هذا . ثم عاد إلى الليدي سونيفا وأخذ يدها ضمن سلسلة الراقصين ، بينما راح يطالب مارغريت بأن تغني لهم .

سأل سايمون : "من ذاك الذي يراقص ابنة زوجك ؟" لقد فكر في ذهنه في أنه لم يعجب بمنظر الرجل ، رغم أنه كان يبدو شاباً ذا مظهر رجولي ببشرة سمراء نضرة وأسنان جيدة وعينين لامعتين... إلا أن العينين كانتا قريبتين من جسر الأنف ، ورغم أن فمه كان كبيراً وقوياً وكذلك ذقنه ، إلا أن جبينه وأعلى رأسه كانا ضيقين . قالت كريستين إنه هاكون آيندريدسون من غيسار ، حفيد توره أيندريدسون ، حاكم مقاطعة غاولدولا . كان هاكون هذا قد تزوج للتو من المرأة الجميلة الضئيلة الحجم الجالسة هناك في حضن أولاف لاغماند... الذي كان عرّابها . كان سايمون قد لاحظ هذه المرأة ، فهي تشبه نوعاً ما زوجته الأولى ، رغم أنها لم تكن جميلة بقدر ما كانت تلك . واكتشف الآن وجود قرابة بعيدة أيضاً ، فقد مضى نحو إنجبيورغ وحياها وجلس يحادثها .

انفرط عقد حلقة الراقصين بعد فترة وجيزة . مضى كبار السن نحو

مائدة الشراب ، ولكن الشبان تابعوا الغناء واللهو في القاعة . مضى إرلند نحو المدفأة مع بعض الرجال الأكبر سناً ، ولكنه كان لا يزال ممسكاً بيد الليدي سونيفا وقادها معه ، كأنما دون تفكير . جلس الرجال قرب النار ، لم يكن هناك كرسي للسيدة ، فوقفت قرب إرلند تأكل الجوز الذي كان يكسره لها بأصبعه .

قالت فجأة : "يا لك من رجل يخلو من اللباقة دون شك يا إرلند . فها أنت جالس وعليّ أن أقف أمامك ."

قال إرلند ضاحكاً : "لا ، بل ستجلسين أنت أيضاً ." ثم جذبها وأجلسها في حضنه . قاومت ضاحكة ونادت على سيدة المنزل وهي تطلب إليها أن ترى ما كان زوجها يفعله بها .

أجابت كريستين ضاحكة : "هذه مجرد الشفقة التي في قلب إرلند . فما أن تحك قطة فروها على ساقيه حتى يحملها ويضعها في حضنه ."

بقي إرلند والسيدة جالسين كما من قبل ، دون أن يقوما بأي إشارة ، ولكن تضرج وجهاهما كلاهما بالأحمر القاني . كان يضع إحدى ذراعيه من حولها بارتخاء ، وكأنه لا يلاحظ إلا بالكاد أنها كانت جالسة هناك ، بينما راح هو والرجال الآخرون يتحدثون عن النزاع بين إرلينغ فيدكونسون والمستشار بال ، وهو الموضوع الذي كان يشغل بال الناس كثيراً في تلك الأيام .

سأل سايمون بعد برهة : "ما رأيك الآن يا كريستين ؟"... كانت جالسة هادئة ومستقيمة ، ويداها مطويتان في حجرها . أجابت :

"كنت أفكر في مارغريت ."

في وقت لاحق من الليل ، حين خرج إرلند وسايمون في مهمة إلى الساحة ، فقد أجفلا زوجاً كانا يقفان خلف زاوية المنزل فابتعد أحدهما عن الآخر . كان الليل صافياً كالنهار ، وعرف سايمون أنهما هاكون من غيسمار ومارغريت إرلندسداتر . لاحقهما إرلند بنظره -كان صاحياً بما فيه الكفاية- ولاحظ سايمون أنه كره ما رآه ؛ ولكنه قال ، وكأنما في محاولة لإيجاد العذر ، إن هذين الاثنين يعرفان أحدهما الآخر منذ الطفولة وكانا معتادين دائماً على إغاظة أحدهما الآخر والمزاح فيما بينهما . وقد فكر سايمون في أنه حتى لو لم يكن في الأمر أي ضرر آخر ، فقد كان أمراً مثيراً لشفقة بالنسبة للزوجة الشابة إنجبيورغ .

و لكن في اليوم التالي ، حين دخل هاكون الشاب إلى المنزل في مهمة له وسأل عن "مارغيت" ، صرخ إرلند في وجهه غاضباً :

"ابنتي ليست مارغريت بالنسبة إليك . وإذا كنت لم تنه حديثك معها البارحة ، فالأفضل لك أن تجعل ما لديك لتقوله لها ينتظر..."

هزّ هاكون كتفيه ، وتوسل إليهم وهو خارج أن يوصلوا سلامه إلى "مارغريتا" .

•

بقيت جماعة هوسابي في نيداروس حتى انتهت اجتماعات "المجلس" ، ولكن سايمون لم يشعر بسعادة كبيرة أو أنه مرتاح بينهم . كان من عادة إرلند الوقوع في نوبات من الشكوى حين يكون في منزل المدينة ، لأن غونولف كان قد منح للمستشفى ، الذي كان يقع على الجانب الآخر من البستان ، حق استخدام بعض الأبنية التي تفتح على البستان ، وكذلك بعض

الحقوق في الحديقة . كان إرلند مصمماً على شراء هذه الحقوق . لم يكن يحب مشاهدة المرضى في الحديقة وفي الباحة... كان البعض منهم في حالة مزرية جداً... وكان يخشى أن يلتقط أولاده العدوى من مرض ما . ولكنه لم يستطع الوصول إلى اتفاق مع الرهبان الذين كانوا يديرون المستشفى .

ثم كانت هناك قضية مارغريت إرلندسداتر . فهم سايمون أن كثيراً من الحديث كان يجري عنها ، وأن كريستين كانت منزعجة من ذلك . ولكن والد الفتاة لم يبد عليه الاكتراث... لقد بدا أنه يشعر بالثقة في قدرته على حماية ابنته وأنه لا شيء يدعو للخوف . ومع ذلك فقد ذكر يوماً لسايمون أنه يظن أن كلونغ آرسون يفكر في الزواج من ابنته ، وهو لا يعرف ما يفعله في هذا الشأن . لم يكن لديه أي شيء ضد ذلك الأيسلندي سوى أنه كان ابن كاهن... كان يكره أن يقال عن أولاد مارغريت إن هناك شائبة تتعلق بمولد الأبوين كليهما . أما فيما عدا ذلك فقد كان كلونغ رجلاً محبوباً ومرحاً حاد الذكاء ومثقفاً . أما أبوه ، "سيرا آر" ، فكان قد رباه وعلّمه بنفسه . كان يريد لابنه أن يكون كاهناً ، ويقال إنه قد اتخذ خطوات ليحصل له على الإعفاء اللازم ، ولكن كلونغ انسحب ورفض لبس المسوح . لقد بدا وكأن إرلند كان ينوي أن يترك المسألة تنتظر قليلاً... وإن لم يجد عريساً أفضل ، فهو يستطيع أن يقدم الفتاة إلى كلونغ آرسون .

و لكن كان معروفاً أنه سبق لإرلند أن تلقى عرضاً جيداً لأجل ابنته حتى أن الناس بدأوا يتحدثون عن اعتزازه بنفسه وحماقته في جعل تلك الصفقة تفلت من يديه . كان العرض قد وصل من حفيد بارون سيغفات أوف لايرهول... كان اسم الرجل هو سيغموند فينسون . لم يكن غنياً ، فقد رزق (أبوه) فين سيغفاتسون بأحد عشر طفلاً بقوا جميعاً على قيد الحياة . وما

كان ممكناً أن ندعوه شاباً ، فقد كان في عمر إرلند تقريباً -و لكن كان رجلاً يحظى بتقدير كبير ويتحلى بفهم كبير . ومع الأراضي التي منحها إرلند لابنته حين تزوج من كريستين لافرانسداتر ، ومع كل المجوهرات والهدايا الثمينة التي كان يهبها للطفلة بين الحين والآخر ، ومع البائنة التي اتفق مع سيغموند على أن يمنحها لمن يتزوجها ، فإن مارغريت ستكون أكثر من غنية . لقد كان إرلند بالفعل سعيداً بما فيه الكفاية في أن يجد مثل هذا الخطيب لابنته ذات المولد غير الشرعي . ولكنه حين عاد إلى البيت مع العريس لتراه الفتاة ، فإنها قالت إنها لن تتزوج سيغموند لأن له ثآليل على حافة أحد جفنيه ، وقالت إن هذا يجعلها تكرهه . استسلم إرلند أمام نزوة الفتاة ، وحين غضب سيغموند وتكلم عن فك عهد الخطوبة ، فإن إرلند غضب أيضاً وقال إن على الآخر أن يفهم بالتأكيد أن كل عهود الخطوبة تتم على شرط أن تكون الفتاة راغبة... ولا يجب إجبار ابنته على دخول فراش الزوجية بالقوة . فكرت كريستين مع زوجها في أن عليه ألاّ يجبر الفتاة بالقوة ، ولكن كان معروفاً أنها كانت تعتقد أنه كان من واجب إرلند أن يتكلم بجدية مع ابنته ويجعلها تفهم أن سيغموند فينسون عريس ملائم ، وذلك لأسباب تتعلق بمولدها ، وأنها لن تأمل في أن تجد عريساً أفضل منه . ولكن إرلند غضب من زوجته لتجرؤها على هذا الكلام ، رغم أنها قالته له وحده . سمع سايمون هذه الأمور في رانهايم . لقد تنبأ الناس هناك بأن كل هذا سينتهي نهاية سيئة . صحيح أن إرلند كان رجلاً ذا أهمية الآن ، وأن الفتاة كانت جميلة ، ولكن كان من المستحيل أن تنتهي الأمور لصالحها إن كان أبوها سيدللها كل هذه السنوات ويغذي اعتزازها بنفسها وعنادها .

•

بعد انتهاء "مجلس فروستا" ، مضى إرلند إلى هوسابي مع زوجته وأولاده ، وكذلك سايمون دار .

و الآن ، حين أصبح الأبناء الأكبر في عمر ملائم لركوب الخيل مع أبيهم خارج المنزل ، فقد بدأ يمنحهم المزيد من الاهتمام . لاحظ سايمون أن كريستين لم تكن سعيدة جداً بذلك... كانت تعتبر أن اختلاطهم برجال أبيهم لم يكن فيه الخير فحسب . وكان غالباً ما يتم تبادل الكلمات غير الودية بين الزوجين على الأغلب حين تتم مناقشة موضوع الأطفال... وحتى لو لم يتشاجرا مباشرة ، فقد كانا غالباً ما يقتربان من ذلك إلى حد لا يراه سايمون ملائماً . وقد بدا له أن كريستين كانت هي المخطئة في أغلب الأحيان . كان إرلند سريع الغضب ومتسرعاً ، ولكنها كانت غالباً ما تتكلم من حقد دفين . وهذا ما جرى أحد الأيام حين راحت تتذمر حول ناكفه . أجاب إرلند بأنه سيتحدث بصرامة مع الصبي ، ولكن حين تلفظت زوجته بمزيد من الكلام ، فقد انفجر بمرارة ، قال إنه لا يستطيع أن يضرب غلاماً كبيراً مثله بسبب قلة خدم المنزل .

"كلا ، فقد سبق السيف العذل . لو أنك ضربته وهو أصغر سناً ، لكان سيصغي إليك الآن . ولكنك ما كنت في تلك الأيام حتى لتنظر في اتجاهه ."

"أوه ، بل كنت . رغم أن المنطق كان يقول إن عليَّ أن أتركه يبقى معك حين كان صغيراً ما يزال... وليس عملاً يليق بالرجال في اعتقادي أن يضرب الأطفال الصغار الذين لم يرتدوا البنطال بعد ."

قالت كريستين باحتقار ومرارة : "لكنك لم تكن من هذا الرأي في الأسبوع الماضي ."

لم يجب إرلند ، بل نهض وخرج . وقد رأى سايمون في هذا أن الغلط

صادر عن زوجة إرلند . فها هي تستذكر أمراً حدث في الأسبوع الذي مضى . إذ حدث حين وصل إرلند وسايمون إلى الساحة وهما يمتطيان جواديهما أن جرى باتجاههما لافرانس الصغير حاملاً سيفاً من الخشب ؛ وبينما راح يجري قرب جواد أبيه ، ضربه بسيفه ، في نوع من اللعب الشرير ، على ساقه . شب الحصان على قائمتيه الخلفيتين... وفي اللحظة التالية كان الصبي قد سقط أرضاً تحت حوافره . شد إرلند الحصان إلى الخلف ثم جذبه إلى الجانب وقفز منه ، ورمى بالعنان إلى سايمون . كان وجهه شاحباً من الخوف وهو يرفع الصبي بين ذراعيه . ولكن حين لاحظ أن الطفل لم يصب بأذى ، فقد وضعه على ذراعه اليسرى ، وتناول السيف الخشبي وضربه به على مؤخرته العارية : لم يكن الصبي قد ألبس بنطالاً بعد . في فورة غضبه لم يعرف كم كان ضربه قاسياً ، وها هو لافرانس ما زال حتى الآن يعاني من آثار زرقاء وسوداء . ولكن إرلند كان يحاول منذئذ أن يصادق الصبي مرة أخرى طوال الوقت... بينما كان الرجل الصغير يقطب جبينه ، ويتمسك بتنورة أمه ، ويهدد أباه ويلطمه . وحين وضع لافرانس ليرتاح في المساء في سرير أبويه ، حيث ينام عادة (فقد كانت أمه لا تزال ترضعه حتى الآن) ، جلس إرلند قرب السرير طوال المساء ، وهو يرنو إلى الطفل النائم ويتلمسه . وقد قال لسايمون إن هذا الصبي هو الأحب إلى نفسه بين أخوته .

•

حين انطلق إرلند لحضور الاجتماعات الصيفية للناس الذين تحت إمرته ، مضى سايمون إلى بيته . سار بجواده خبباً نحو الجنوب عبر

غاولدال ، حتى أن الشرار قد تطاير من الحجارة تحت حوافر جواده . وقد سأله رجاله ذات مرة ، حين أبطأوا المسير عند جبل شديد الانحدار ، إن كانوا سيقطعون مسيرة الأيام الثلاثة في يومين ، فضحك سايمون وقال إنه ينوي ذلك... "فأنا راغب في أن أكون في فورمو الآن ."

كان يتوق إلى العودة حين يكون بعيداً عن ضيعته لفترة من الزمن... فقد كان رجلاً محباً لبيته ، وكان يبتهج دائماً حين يوجه حصانه نحو الطريق المؤدية إلى بيته . ولكن بدا له أنه لم يكن مرة مشتاقاً إلى العودة إلى "ديل" وضيعته وابنتيه كهذه المرة... أجل ، هو مشتاق الآن لرامبورغ أيضاً . بدا له أنه ليس لديه سبب معقول لشوقه ، ولكن الحياة في هوسابي قد أثقلت على نفسه حتى أنه يظن أنه أصبح يعرف الآن كيف تشعر القطعان حين تكون هناك عاصفة على وشك الهبوب .

٢

خلال الصيف كله ، لم تكن كريستين تفكر سوى بما حكاه لها سايمون عن وفاة أمها .

ماتت راغنفريد إيفارسداتر وحيدة -لم يكن أحد بجوارها حين لفظت آخر أنفاسها ، باستثناء خادمة كانت نائمة . لم يكن في ذلك سلوان كبير... أي فيما قاله سايمون... أنه رغم حدوث الموت على نحو فجائي جداً ، ومع ذلك فقد كانت هي على أتم استعداد له . بدا وكأن العناية الإلهية الخاصة قد ارتأت أن تجعل راغنفريد تشعر قبل أيام قليلة من وفاتها بجوع لجسد المخلص إلى حد أنها ذهبت للاعتراف والتناول في الدير عند الكاهن مرشدها . لا شك أن ميتتها كانت ميتة صالحة ، فقد رأى سايمون جثمانها ، وقال إنها بدت له رائعة في موتها . فقد كانت جميلة جداً . كانت في الستين من عمرها تقريباً ، وكان وجهها كثير التجاعيد والأخاديد منذ سنوات . ولكن هذا تغيّر تماماً : لقد عاد وجهها شاباً وصقيلاً ، حتى بدت كامرأة شابة في حالة سبات . وقد دفنت قرب زوجها . كانوا قد أحضروا إلى هناك أيضاً رفات أولفهيلد لافرانسداتر بعد فترة قصيرة من وفاة أبيها . وقد وضع فوق القبور لوح حجري كبير ينصّفه صليب منحوت على نحو جميل ،

وقد كتب على لفافة قصيدة لاتينية طويلة نظمها مقدّم الدير . ولكن سايمون لم يستطع تذكرها على النحو الصحيح ، فقد كان لا يعرف إلا القليل من تلك اللغة .

كان لراغنفريد منزل في الباحة في البلدة حيث يعيش عامة الدير : هو عبارة عن غرفة منفردة وفوقها عليّة جميلة . هناك كانت تعيش لوحدها مع فلاحة فقيرة آواها الرهبان لقاء مبلغ زهيد مقابل أن تقدم يد العون لواحدة من نساء العامة الثريات . ولكن في نصف السنة الأخيرة على الأقل كانت راغنفريد هي التي تساعد المرأة الأخرى ، فهذه الأرملة -التي كان اسمها "تورغونا"- كانت مريضة ، وراحت راغنفريد تعتني بها بكثير من اللطف والاهتمام .

في الأمسية الأخيرة من حياتها حضرت صلاة المساء في كنيسة الدير ، ثم مضت إلى المطبخ في باحة العامة . وهناك طبخت قدراً كبيراً من الحساء ووضعت فيه أعشاباً مقوية ، وقالت للنساء الأخريات هناك إنها ستطعم تورغونا منه ، وأنها كانت تأمل أن تكون تلك في حالة جيدة في الصباح بحيث ترافقها إلى صلاة الصبح . وكانت تلك آخر مرة شوهدت فيها تلك الأرملة من يورونديغارد على قيد الحياة . لم تحضر المرأتان صلاة الصبح ، لا راغنفريد ولا الفلاحة -كما لم تحضرا صلاة الضحى . وحين لاحظ بعض الرهبان في الجوقة أن راغنفريد لم تكن في الكنيسة لأجل القداس النهاري أيضاً ، فقد بدأوا يتساءلون... إذ لم تكن قد فوتت ثلاث صلوات من قبل . أرسلوا إلى البلدة يسألون إن كانت أرملة لافرانس بيورغولفسون مريضة . وحين دخل الناس إلى العلية ، وجدوا قدر الحساء لم يمس على المائدة . في السرير كانت تورغونا تنام نوماً هنيئاً قرب الجدار ، ولكن راغنفريد

إيفارسداتر كانت تضطجع على الجانب الخارجي من السرير ويداها متصالبتان فوق صدرها ، ميتة ، وقد برد جثمانها . وصل سايمون ورامبورغ لحضور الدفن ، وكانت جنازة ممتازة .

بما أن سكان هوسابي قد زاد عددهم الآن إذ رزقت كريستين بستة أبناء ، فلم تعد قادرة على الاهتمام بكل نواحي التدبير المنزلي . كانت مضطرة إلى استخدام مدبرة منزل ، وهكذا فإن سيدة المنزل أضحت تقضي معظم وقتها في القاعة وهي تخيط . كان هناك على الدوام من هو في حاجة إلى ملابس... إرلند ، مارغريت ، أو أحد الصبيان .

آخر مرة رأت فيها أمها كانت وهذه تمتطي جوادها خلف نعش زوجها... في ذلك اليوم الربيعي المشرق حين وقفت في مرج يورووندغارد وشاهدت جنازة أبيها تمر عبر الرقعة الخضراء من شوفان الشتاء تحت ركام الصخور .

كانت أبرة كريستين تطير وتطير ، وفكرت في والديها وبيتها في يورووندغارد . الآن بعد أن أصبح كل شيء مجرد ذكرى ، فقد بدا لها أنها أصبحت واعية بالكثير مما لم تره حين كانت تعيش في وسطه ، وكانت تعتبر رعاية أبيها الحنون لها وعمل أمها الصامتة ذات الوجه الحزين وعنايتها الدؤوب على أنها أمور مسلّم بها . فكرت بأطفالها : كانوا أعز عليها من دم قلبها . لم يكونوا ليغيبوا عن ذهنها ساعة واحدة من يقظتها . ولكن كان هناك الكثير من الأمور كانت تتأملها أكثر... كانت تحب أطفالها دون تفكير في الأمر . ما كانت قد فكرت قط ، حين كانت تسكن في منزل أبويها ، إلاّ أن هذين كانا يكرسان كل حياتهما وأفعالهما ونضالهما لأجلها ولأجل أختيها . والآن بدا لها أنها ترى بين هذين الأبوين الذين زوّجا وهما صغيران بإرادة أبويهما ، دون أن يستشارا ، تيارات سريعة قوية جارية من الحزن

والفرح... لكنها لم تكن تعرف عنها شيئاً سوى أنهما قد مضيا الآن ، يداً بيد ، خارجين من حياتهما . الآن فهمت أن حياة هذا الرجل وهذه المرأة كان فيها أكثر من مجرد حبهما لأطفالهما... ومع ذلك كان ذلك الحب قوياً وواسعاً وعميقاً دون غور ، بينما كان الحب الذي بادلتهما إياه ضعيفاً عديم التفكير وأنانياً ، حتى حين كانا هذان ، في طفولتها ، هما عالمها كله . بدا وكأنها ترى نفسها واقفة بعيدةً ، بعيدةً جداً... صغيرة جداً ، صغيرة جداً أمام الامتداد الهائل للزمن والمكان . وقفت تحت عمود نور الشمس الذي كان يتسلل هابطاً عبر فتحة الدخان في غرفة المدفأة القديمة في بيت أهلها ، في بيت شتاء طفولتها . وقف والداها إلى الخلف قليلاً ، في الظل... كانا يبدوان ضخمين كما كانت تراهما وهي صغيرة بعد ، وكانا يبتسمان لها... تلك الابتسامة التي تعرف الآن أنها تنتاب الشخص حين يأتي الطفل ليبعد أفكاراً ثقيلة ومزعجة .

"اعتقدت يا كريستين أنك حين ستحملين طفلاً أنت نفسك ، فلا شك أنك ستفهمين على نحو أفضل ."

تذكرت حين قالت لها أمها هذه الكلمات . فكرت بحزن... لم يكن صحيحاً ، كما خشيت ، أنها قد فهمت أمها حتى الآن . ولكنها بدأت تفهم كم كان هناك من أمور لم تفهمها .

•

في هذا الخريف مات الأسقف آيليف . وفي الوقت نفسه تقريباً غيّر الملك ماغنوس فترات الخدمة لكثير من الحكام ، ولكن ليس إرلند نيكولاوسون . وحين كان إرلند في بيورغفين في آخر صيف قبل بلوغ الملك

سن الرشد ، فقد أعطي رسائل تمنحه ربع دفعات العفو(١٤) كافة ، وكذلك الغرامات والمصادرات التي تتم في حاكميته... وقد تحدث المجلس كثيراً عن منحه هذه المنحة مع اقتراب نهاية فترة الوصاية على العرش . بما أن إرلند كان يمتلك الكثير من الأراضي الآن ، وغالباً ما كان يعيش في مزارعه لدى الانتقال في أنحاء حاكميته ، وبما أنه سمح لمزارعيه بفك الرهن عن رسوم أراضيهم ، فإن دخله كان كبيراً . صحيح أن هذا كان يعني أن الدخل من رسوم الأراضي عيناً كان صغيراً ، وأنه كان يحتفظ بحاشية كبيرة مكلفة... هذا علاوة على تابعيه في الضيعة حيث كانت ترافقه ثلة من اثني عشر رجلاً مسلحاً في هوسابي . وكان هؤلاء من الفرسان المسلحين جيداً . وحين كان يتجول في مهماته كان رجاله يعيشون عيشة اللوردات .

و قد جرت أحاديث عن ذلك اليوم بعينه حين وصل لاغماند هارالد وتوره ، الحاكم السابق لمقاطعة غالدولا ، إلى هوسابي . أجاب إرلند بأن كثيراً من هؤلاء الرجال كانوا معه حين كان يقوم بالمسيرات في الشمال . «وهناك كنا نتشارك فيما كنا نستطيع الوصول إليه... السمك المجفف والجعة الخفيفة الحامضة . والآن أمنح الرجال الطعام واللباس ليعرفوا أني لا أغبطهم الخبز الأبيض والجعة القوية . وإن غضبوا بين الحين والآخر ، فإني آمرهم بالذهاب إلى جهنم ، فيفهمون جيداً أني لا أعني أن عليهم أن ينطلقوا قبل أن أقود الطريق بنفسي .

قال أولف هالدورسون الذي كان رئيس مجموعة حرس إرلند الآن ، لعشيقته لاحقاً إن الأمر كان كذلك حقاً . كان رجال إرلند يحبونه وكان هو مسيطراً عليهم جيداً .

"تعرفين جيداً يا كريستين أن المرء لا يجب أن يأبه كثيراً بما يقوله إرلند . على المرء أن يحكم عليه بما يفعله ."

كانت هناك مسألة أخرى أثارت الكثير من الكلام ، أن إرلند علاوة على خدم منزله ، كان يحتفظ برجال في كل أنحاء الريف... وليس في أوكدولا فحسب... وأنه قد حلف الأيمان على خدمته على قراب سيفه . كان قد تلقى منذ بعض الوقت رسائل ملكية حول هذا الموضوع ، ولكنه أجاب بأن هؤلاء الرجال كانوا يشكلون طاقم سفينته ، وأنّه قد جعلهم يحلفون اليمين في أول ربيع حين كان عليه الإبحار شمالاً . وبناء على هذا فقد كان ملتزماً بإحلال هؤلاء الرجال من يمينهم لدى انعقاد المجلس القادم لنشر الأحكام والمراسيم الخاصة باجتماع "لاغ" ، وأنه لأجل هذا الغرض سيكون عليه استدعاء الرجال من خارج البلاد ، على أن يتحمل بنفسه نفقات سفرهم . وكان قد أرسل في الحقيقة بعضاً من بحارته القدماء من مور إلى مجلس أوركدال . ولكن لم يسمع أحد عن إحلاله لهم من يمينهم ، أو عن إحلال أي رجل آخر كان تابعاً له من يمينه . على أي حال لم يتم التطرق إلى هذا الأمر مجدداً . وهكذا ، مع مرور الخريف توقف الكلام حول هذه المسألة .

في أواخر الخريف سافر إرلند جنوباً وبقي موسم عيد الميلاد في بلاط الملك ماغنوس الذي كان في أوسلو في تلك السنة . كان غاضباً لأنه لم يستطع إحضار زوجته معه ، ولكن كريستين كانت تكره تلك السفرة الشتائية المرهقة ، وبقيت في البيت في هوسابي .

•

عاد إرلند بعد ثلاثة أسابيع من عيد الميلاد ، حاملاً معه هدايا ثمينة لزوجته ولكل الأطفال . قدم لكريستين جرساً فضياً لتنادي به على خادماتها . أما مارغريت فقدم لها مشبكاً من الذهب الخالص ، لم تكن قد

حصلت على مثيله من قبل ، رغم أنها كانت تملك الكثير من أدوات الزينة المنوّعة الفضية والمطلية بالفضة . ولكن بينما كانت المرأتان تضعان هداياهما الثمينة كل في صندوق مجوهراتها ، فإن شيئاً ما في صندوق مارغريت قد علق بكمّها وظل معلقاً فيه . غطته الفتاة بسرعة بيدها وهي تقول لزوجة أبيها :

"أمي هي من تركت لي هذا ، لذلك لا يريد مني أبي أن أريك إياه ."

كان وجه كريستين قد تضرج أكثر من وجه االفتاة . راح قلبها يدق بقوة من الخوف ، ولكن بدا أن عليها أن تكلم الفتاة لتحذرها .

بعد برهة قالت لها بصوت خفيض متعثر :

"هذا يشبه الإبزيم الذهبي الذي كانت الليدي هيلغا أوف غيمسار ترتديه في الاحتفالات ."

"أجل... تتشابه الأشياء الذهبية كلها" ، أجابت الفتاة باختصار .

أقفلت كريستين صندوقها ووقفت ساكنة ويداها ما تزالان فوقه ، حتى لا ترى مارغريت كيف كانتا ترتجفان .

قالت برقة ولطف : "يا مارغريت العزيزة" -كان عليها أن تتوقف- ولكنها استجمعت قواها وتابعت تقول : "يا مارغريت العزيزة ، لقد ندمت بمرارة – ولم أستطع قط التمتع بأي سعادة ، رغم أن أبي سامحني من كل قلبه على أخطائي في حقه- وأنت تعرفين أني أخطأت في حق أبويَ لأجل خاطر أبيك . ولكن كلما عشت لفترة أطول سأشعر أني على وشك أن أفهم ، وكلما ثقل عليّ أن أتذكر أني سدّدت دينهما علي بأن سببت لهما الحزن . يا مارغريت العزيزة ، لقد كان أبوك طيباً في معاملته معك طوال أيام حياتك..."

أجابت الفتاة : "لا حاجة إلى الخوف يا أمي ، فأنا لست ابنتك . لا حاجة بك إلى الخوف من أني سأبلي شلحتك الوسخة أو أحلّ محلك..."

التفتت كريستين بوجه متضرج من الغضب نحو ابنة زوجها . ثم قبضت بيدها على الصليب الذي كانت ترتديه من حول عنقها بقوة ، وابتلعت الكلمات التي كانت على شفتيها .

•

مضت إلى سيرا آيليف في ذاك المساء نفسه بعد صلاة الغروب ، ونظرت عبثاً في وجه الكاهن بحثاً عن أي علامة... هل حلّ الأسوأ وهل عرف به ؟ تذكرت شبابها المضطرب ، ووجه سيرا آيريك الذي كان لا ينمّ عن شيء ، بينما كان يعيش اليوم إثر اليوم معها ومع أبويها الواثقين ، ومع سرها الآثم المكتوم في صدرها... وهي نفسها قاسية وصماء تحت تهديداته وتحذيراته الصارمة . وتذكرت ذلك الوقت بعد أن كانت مخطوبة شرعاً لإرلند ، حين عرضت أمام أمها الهدايا التي جلبها لها وهي في أوسلو . كان مظهر الأم ساكناً في هدونه وهي تتحسس الهدايا بيدها ، واحدة إثر أخرى ، وتنظر إليها تثني عليها ثم تضعها من يدها .

كانت في حالة من الخوف القاتل اليائس ، وراحت تراقب مارغريت مراقبة لصيقة . لاحظ إرلند وجود شيء ما على غير ما يرام في زوجته ، وفي إحدى الأمسيات ، حين ذهبا ليرتاحا ، سألها إن كانت حاملاً مرة أخرى .

لم ترد كريستين في البداية ولكنها أجابت بعد برهة أنها تعتقد الأمر كذلك . وحين أخذها زوجها ، لدى سماعه هذا ، ثم احتضنها بين ذراعيه بمودة ولم يعد يطرح المزيد من الأسئلة ، لم تستطع أن تجبر نفسها على

القول إن مسألة أخرى كانت تثقل عليها . ولكن حين همس إرلند أن عليها في هذه المرة أن تؤدي واجبها وتنجب له ابنة ، لم تعد فيها القوة على الإجابة ، بل تمددت هناك وقد تيبّست من الخوف ، مفكرة أن إرلند قد يعرف خلال وقت وجيز جداً نوع الفرح الذي تجلبه الفتيات .

•

بعد بضع ليال من هذا أوى سكان هوسابي إلى فُرُشهم بعد الكثير من الشراب ومتخمين من الطعام ، فقد كانت تلك هي الأيام السابقة على "الصوم"... وهكذا نام الجميع نوماً ثقيلاً . ولكن في وقت متأخر من الليل استيقظ لافرانس الصغير في سرير أبويه ، وبدأ يتذمر ويبكي ، وهو لا يزال نصف نائم ، طالباً ثدي أمه . إلا أنه كان قد حان أوان فطامه . استيقظ إرلند ، ونخر بغضب ، إلا أنه حمل الصبي وسقاه حليباً من فنجان كان موضوعاً على درج السرير ، ثم وضعه على جانبه من السرير .

كانت كريستين قد غرقت مجدداً في وسن عميق ، حين أحست فجأة بإرلند يجلس منتصباً في السرير . وقد سألته نصف مستيقظة عما يحصل ، ولكنه أمرها بالسكوت بصوت لم تعرفه . ودون صوت تسلل من الفراش . لاحظت أنه كان يرتدي بعض ملابسه ، ولكن حين اتكأت على مرفقها ، فقد ضغط عليها بيد واحدة فوق الوسادة ثم تناول السيف الذي كان معلقاً فوق رأس السرير .

تحرك بهدوء الوشق ، ولكنها أحست أنه قد نزل السلم الذي يؤدي إلى غرفة نوم مارغريت فوق الغرفة الخارجية .

شلّها الخوف لحظة . ثم جلست ووجدت شلحتها وتنورتها ، وتلمست في العتمة باحثة عن حذائها على الأرض قرب السرير .

في اللحظة نفسها سمع زعيق امرأة في العلية... لا شك أنه سُمع في الضيعة كلها . صرخ صوت إرلند بكلمة أو اثنتين... ثم سمعت صليل السيوف ودبيب الأقدام من العلية... ثم صوت سلاح يسقط على الأرض ، وصرخة رعب من مارغريت .

ركعت كريستين جاثية قرب المدفأة... حركت الرماد الساخن بيديها ونفخت على الجمر . وحين استطاعت أن توقد المشعل المصنوع من جذور التنوب ، وحملته بيديها المرتعشتين ، رأت إرلند وهو في الأعلى هناك في العتمة... قفز الدرج دون توقف ، حاملاً سيفه المجرد بيديه وهو يعدو خارجاً من الباب الخارجي .

من كل جانب ، في العتمة ، كانت رؤوس الصبيان قد برزت . ذهبت إلى السرير الشمالي حيث كان الثلاثة الكبار ينامون ، وأمرتهم بأن يناموا ، ثم أغلقت باب السرير . أما إيفار وسكوله اللذان جلسا فوق المقعد الذي كان سريراهما قد رتبا فوقه ، فقد كانا يرتعشان خوفاً وحيرة من النور ، فجعلتهما يزحفان إلى سريرها وأغلقت عليهما الباب أيضاً . ثم أضاءت شمعة وخرجت إلى الساحة .

كان المطر يهطل... للحظة واحدة ، وبينما كان نور شمعتها منعكساً في قشرة الجليد اللامعة الرطبة ، رأت جمهرة من الناس خارج باب أقرب مبنى... كان ذاك هو مسكن الخدم حيث ينام تابعو إرلند . ثم انطفأت الشمعة... وحلّ الليل الحالك مجدداً... ثم جاء أولف هالدورسون من مبنى الخدم يحمل قنديلاً .

انحنى فوق جسد معتم كان ممدداً في كومة على الجليد الرطب المتكتّل . ركعت كريستين وتحسست جسد الرجل بيديها... كان ذاك هو

الشاب هاكون أوف غيمسار... وكان مغمى عليه أو ميتاً . وعلى الفور كانت يداها مغطاتين بالدم . ساعدها أولف على قلب الجسد ورفعه . كان الدم ينزف من الذراع اليمنى التي فصلت عنها اليد بالكامل .

و بدون وعي رمت بنظرة إلى الأعلى إلى حيث كان مصراع نافذة غرفة نوم مارغريت ينصفق تحت الريح لم تستطع أن ترى وجهاً هناك... ولكن الظلام كان شديداً .

و بينما هي راكعة في بركة من الماء وهي تضغط رسغ هاكون بكل قوتها لتوقف اندفاع الدماء ، فقد كانت واعية على نحو غامض برجال إرلند الملتفين من حولها نصف عراة . ثم رأت وجه إرلند الرمادي الملتوي –و كان يمسح سيفه المدمى بالجزء السفلي من معطفه– كان عارياً تحت المعطف وقدماه حافيتين .

قالت : "فليجد لي أحدكم عصبة ، وأنت يا بيورن ، اذهب وأيقظ سيرا آيليف... علينا أن نحمله إلى منزل الكاهن ."

تناولت الشريط الجلدي الذي قدم لها ولفته من حول جدعة الذراع . وفجأة قال إرلند بصوت وحشي قاس :

"لا تدعوا أحداً يلمسه! دعوا الرجل ملقياً حيث رمى نفسه..."

قالت كريستين بهدوء رغم أن قلبها كان يدق حتى كاد يخنقها : "أنت تعرف جيداً يا زوجي أن هذا غير ممكن ."

غرز إرلند رأس سيفه في الأرض بقوة .

"أجل... إنها ليست من لحمك ودمك... لقد جعلتني أشعر بذلك طوال هذه السنين ."

نهضت كريستين وتكلمت بصوت رقيق قريباً منه :

"و مع ذلك أودّ لأجل خاطرها أن يُخفى هذا... إن كان ذلك ممكناً . أنتم أيها الرجال" -التفتت إلى الرجال الواقفين من حولها- "مخلصون حقاً لسيدكم ، على ما أعتقد ، إلى الحد الذي لن تذكروا معه هذا الأمر حتى يقول هو لكم كيف سينتهي هذا النزاع بين هاكون وبينه ؟"

أجاب الرجال جميعاً بنعم . تقدم أحدهم إلى الأمام... لقد استيقظوا -كما قال- إذ سمعوا امرأة تصرخ وكأن شخصاً كان يغتصبها -ثم قفز أحدهم على سقف مبناهم ، ولكن لا بد أنّ قدمه زلّت على القشرة الجليدية ، فقد سمعوا شيئاً ينزلق نزولاً ثم سقطة ثقيلة في الساحة . ولكن كريستين طلبت من الرجل الصمت . ثم وصل سيرا آيليف وهو يعدو الآن .

حين التفت إرلند ودخل ، لحقت به زوجته محاولة أن تسبقه . وحين اقترب من درج العلية ، سبقته وأمسكت به من ذراعيه .

"إرلند... ما الذي تريد أن تفعله بالطفلة ؟" لهثت في وجهه الرمادي الثائر .

لم يجب... حاول أن يبعدها جانباً ، ولكنها تشبثت به .

"توقف يا إرلند ، توقف... ابنتك! أنت لا تعرف... فالرجل كان في كامل ملابسه" ، صرخت يائسة .

صرخ صرخة عالية مبحوحة قبل أن يجيب... وقد شحبت هي من الرعب... كانت كلماته غليظة وصوته قد تغيّر كثيراً بسبب ألمه المجنون .

و من جديد تصارعت بصمت مع الرجل الهائج الذي كان يهدر ويصرّ بأسنانه . وأخيراً التقت عيناها عينيه في نصف النور :

"إرلند... دعني أذهب أولاً . لم أنس اليوم الذي كنت فيه في وضع ليس أفضل من وضع مارغريت" .

ثم أطلقها ، وهو يترنح مستنداً إلى جدار الحجرة ، ووقف هناك مرتجفاً كحيوان يحتضر . ذهبت كريستين وأضاءت شمعة ، ثم عادت ومرت به وهي صاعدة إلى مارغريت في حجرة نومها .

كان أول شيء سقط عليه النور سيفاً ملقياً على الأرض ليس بعيداً عن السرير ، وإلى القرب منه اليد المقطوعة لرجل . خلعت كريستين غطاء رأسها الذي كان دون أن تدري معلقاً من حول شعرها المسدل قبل أن تخرج إلى الرجال . والآن رمته فوق هذه الأشياء الملقية على الأرض .

كانت مارغريت جالسة وهي متكومة على الوسائد عند رأس السرير وتحدق إلى كريستين بعينين مفتوحتين على آخرهما . كانت تلف أغطية السرير من حولها ، ولكن كتفيها العاريين كانا يلتمعان بيضاوين عبر خصل شعرها الذهبي . كان هناك الكثير من الدم في أرجاء الغرفة .

انفجر كبت روح كريستين في نوبة قوية من البكاء... كان مشهداً شديد البؤس ، مشهد الطفلة الجميلة بين كل هذا الرعب . ثم صرخت مارغريت :

"أمي... ما الذي سيفعله بي أبي ؟"

لم تستطع كريستين مغالبة الأمر... ففي غمرة إشفاقها العميق على الفتاة ، بدا قلبها وكأنه يضمر ويصبح قاسياً في صدرها . لم تسأل مارغريت عمّا فعله أبوها بهاكون . وفي ومضة تجلت الصورة أمامها : إرلند وهو ممدد على الأرض ، وأبوها واقف فوقه حاملاً سيفه المدمى ، وهي بنفسها... ولكن

مارغريت لم تتحرك من المكان . لم تستطع أن تعيق الكره القديم المترع بالاحتقار من أن يبرز مرة أخرى في صدرها ، بينما كانت مارغريت تتشبث ، مرتجفة ، وتكاد تجنّ من الخوف ، بينما جلست هي على حافة السرير محاولة تهدئة الطفلة قليلاً .

و هكذا كانتا جالستين حين دخل إرلند عبر الباب المسحور . كان يرتدي كامل ملابسه الآن . زعقت مارغريت مجدداً ، واختبأت بين ذراعي زوجة أبيها... رفعت كريستين عينيها إلى زوجها للحظة . كان هادئاً الآن ، إنما شاحب وغريب الوجه . ولأول مرة بدا في عمره الحقيقي .

و لكنه قال بهدوء : "عليك أن تنزلي يا كريستين... سأتحدث مع ابنتي لوحدي" . أطاعته . وضعت الفتاة في السرير بعناية ، وغطتها حتى الذقن بالأغطية ، ثم مضت نحو الدرج .

و كما فعل إرلند ، مضت لترتدي كامل ملابسها... ما كان هناك أحد في هوسابي سيعود إلى النوم في تلك الليلة... ومضت لتهدئ من روع الأطفال والخدم الخائفين .

•

في صباح اليوم التالي ، وفي عاصفة ثلجية عاتية ، خرجت خادمة مارغريت وهي تبكي مغادرة المكان حاملة حوائجها في كيس على ظهرها . كان سيدها قد طردها بأقسى العبارات والتهديد بأنه سيسلخها حية لأنها باعت سيدتها على هذا النحو .

ثم استجوب بقية الخدم... ألم تشك الخادمات بوجود شيء شرير حين بدأت "انغلايف" في الخريف والشتاء تنام معهن بدلاً من نومها في غرفة نوم

مارغريت ؟ وكيف حدث أن الكلاب كان مقفلاً عليها داخل وجارها ؟ ولكنهن أنكرن كل شيء كما هو متوقع .

و أخيراً استجوب زوجته ، على انفراد . أصغت كريستين المتألمة المنهكة إليه وحاولت أن تحوّل عنها ظلمه بالإجابات الرقيقة . لم تنكر أنها كانت خائفة ، وأنها امتنعت عن أن تقول إنها لم تكلمه خوفاً منه ، لأنها لم يسبق لها أن حصدت سوى نكران الجميل منه حين حاولت أن تنصحه أو مارغريت في صالح الفتاة . ولكنها أقسمت بالله وبالعذراء مريم أنها لم تكن تعرف ولا استطاعت أن تفكر في أن رجلاً قد يصعد إلى غرفة مارغريت في العلية ليلاً .

قال إرلند باحتقار : "أنت! تقولين أنت نفسك إنك تتذكرين ذلك الزمان حين لم تكوني في وضع أفضل من وضع مارغريت... والرب في السماء يعرف أنك جعلتني ألاحظ ، في كل يوم من أيام السنين التي عشناها سوية ، أنك تتذكرين الخطأ الذي ارتكبته في حقك -رغم أن رغبتك لم تكن أقل من رغبتي ، وأن أباك وليس أنا هو الذي سبب الكثير من المشاكل برفضه تزويجك مني- كنت راغباً بما فيه الكفاية منذ الساعة الأولى في افتداء خطيئتي . وحين شاهدت قطعة المصاغ خاصة غيمسار"... وهنا أمسك بيدها بقوة ورفعها حتى التمع الخاتمان اللذان أهداهما إياهما في غيردارود في النور..." ألم تعرفي معناها ؟ لقد كنت ترتدين في كل يوم من أيام هذه السنين الخواتم التي أهديتك إياها يوم منحتني شرفك..."

كانت كريستين على وشك الانهيار من الإنهاك والحزن ، فأجابت بصوت خفيض :

"أستغرب يا إرلند لو كنت لا تزال تتذكر ذلك الزمن الذي هزمت فيه شرفي..."

دفن رأسه بين ذراعيه ورمى بنفسه على المقعد ، وهو يتقلّب ويتلوى . جلست كريستين على مسافة قريبة منه... كانت تتمنى لو تستطيع مساعدة زوجها . فهمت أن هذه البليّة قد حلّت على نحو أشد عليه لأنه هو نفسه قد ارتكب بحق الآخرين إثماً مشابهاً لما ارتكب ضده الآن . وهو إذ لم يكن راغباً في مجابهة خطئه وجهاً لوجه في أي مشكلة سببها هو بنفسه ، فلن يستطيع قط أن يلوم نفسه على هذا... ولم يكن هناك شخص آخر سواها يستطيع هو أن يلقي اللوم عليه . ولكنها لم تكن كثيرة الغضب أو الحزن أو الخوف مما سيحصل الآن .

بين الحين والآخر كانت تصعد لتجلس مع مارغريت في العلية . كانت الفتاة تقبع شاحبة دون حراك ، تحدق أمامها . لم تكن قد سألت بعد عمّا جرى لهاكون... ولم تكن كريستين تعرف إن كان ذلك بسبب عدم جرأتها على طرح السؤال أو أن بؤسها قد جعلها بليدة الحس .

في عصر ذلك اليوم رأت كريستين إرلند وكلونغ الأيسلندي يمضيان معاً عبر الثلج الذي كان يهطل كثيفاً نحو مخزن السلاح . ولكن بعد مضيّ زمن قصير ، عاد إرلند لوحده . رفعت كريستين بصرها للحظة وهو عائد نحو النور ومرّ إلى القرب منها... بعد ذلك لم تجرؤ على النظر باتجاه زاوية القاعة حيث كان يخفي نفسه . لقد لاحظت أنه كان محطماً تماماً .

و بعد ذلك بوقت قصير ، وحين ذهبت لأمر ما إلى المستودع ، وصل إيفار وسكوله وهما يعدوان وقالا لأمهما إن كلونغ الأيسلندي سيرحل هذا المساء... كان الصبيان حزينين لذلك ، فقد كان رجل الدين ذاك صديقاً حميماً لهما . كان يحزم أغراضه الآن وسيمضي إلى بيرغسي هذه الليلة...

لقد سبق لها وخمّنت ما كان قد جرى . لقد عرض إرلند ابنته على

رجل الدين ، وقد رفض هذا يد الفتاة الساقطة . ولكن كم كانت تلك المفاوضات صعبة على إرلند... شعرت بالدوخة والغثيان ولم تستطع تحمل التفكير في ذلك .

في اليوم التالي ، وصل خبر من منزل الكاهن . لقد رجاه هاكون ايندريدسون أن يطلب له الإذن لمخاطبة إرلند . ردّ إرلند على ذلك بأنه ليس لديه ما يقوله لهاكون . قال سيرا آيليف لكريستين إن هاكون لو بقي على قيد الحياة فسيكون معوقاً بالكامل... وعلاوة على ذلك فإنه فقد يده اليمنى ، كما أنه قد آذى ظهره ووركيه بشدة حين سقط من سطح مبنى الخدم . ولكنه كان مصمماً على الذهاب إلى بيته ، حتى في حالته تلك ، وقد وعده الكاهن بأن يحصل له على عربة جليد . كان قد ندم على خطيئته الآن من كل قلبه... قال إن والد مارغريت تصرف ضمن حقوقه ، مهما يقول القانون في ذلك ، ولكنه كان راغباً في أن يبذل الجميع جهدهم لإبقاء المسألة سراً ، حتى يكون تصرفه الشائن وعار مارغريت مكتومين قدر الإمكان . في عصر ذلك اليوم حمل إلى عربة الجليد ، التي استعارها سيرا آيليف من ربستاد ، وصحبه الكاهن بنفسه إلى غاولدال .

•

و هكذا حدث في اليوم التالي الذي كان أربعاء الرماد (أول أيام الصوم الكبير) ، أن كان على سكان هوسابي النزول إلى فينيار إلى كنيسة الأبرشية . ولكن مع حلول صلاة الغروب جعلت كريستين القندلفت يقودها إلى المعبد في البيت .

استطاعت أن تشعر بالرماد وهو لا يزال على جبينها حين ركعت قرب قبر ابن زوجها وتلت صلاة "أبانا الذي" على روحه .

لن يكون قد تبقى سوى العظام من الفتى الآن ، هناك تحت حجارة قبره . العظام والشعر وبقايا الثياب التي دفن فيها . لقد شاهدت عظام أختها الصغيرة حين نبشوها ليدفنوها قرب أبيها في هامار . تراب ورماد... فكرت بوجه أبيها الوسيم وبأمها ذات العينين الواسعتين في الوجه المغضن والقد الذي بقي شاباً ورشيقاً على نحو غريب ، رغم أن وجهها شاخ مبكراً . هاهم هناك تحت الأحجار ، وقد انهاروا كما تنهار المنازل حين يغادرها ساكنوها . رفرفت الصور ثم بهتت... الخرائب المحترقة للكنيسة في ضيعة أهلها ، مزرعة في سيلسادال اعتادوا أن يمروا بها في طريقهم إلى "فاغ"... كانت المنازل تقف فارغة ومتهاوية ، والناس الذين كانوا يفلحون الأرض ما عادوا يجرؤون على الاقتراب منها بعد غروب الشمس . فكرت بالموتى من الأحباب -بمظهرهم وأصواتهم وابتساماتهم وقدودهم- والآن بعد أن رحلوا بعيداً إلى هناك إلى ذلك البلد البعيد ، فإن التفكير في أشكالهم كان مؤلماً . كان ذلك أشبه بتذكر بيت المرء وهو يعرف أنه خاو ، وأن أعمدته الخشب كانت غارقة في التراب .

جلست عند المقعد الجداري في الكنيسة الخاوية ، وجعلت رائحة البخور البارد العتيق أفكارها تتلبث على صور الموت وفساد كل الأشياء الدنيوية . وكانت عاجزة عن التسامي بروحها لتلقي نظرة على الأرض حيث كان أحباؤها ، إلى حيث أُخذ كل الخير والحب والحقيقة أخيراً ليُكنز هناك . في كل يوم حين كانت تصلي لسلام أرواحهم ، كان يبدو لها أمراً غريباً وغير لائق أن يكون عليها أن تصلي لهم ، أولئك الذين كانت أرواحهم على الأرض قد عرفت السلام على نحو أعمق بكثير ممّا عرفته هي منذ أن دخلت طور النساء . وقد قال سيرا آيليف بالفعل إن الصلاة على الأموات كانت دائماً مفيدة ، مفيدة لها ، حتى لو كان أولئك الآخرون قد سبق لهم وورثوا سلام الرب .

و لكن ذلك لم يساعدها . بدا لها أنه حين سيكون جسدها المنهك آخذاً بالتعفن تحت حجر القبر ، فإن روحها القلقة ستبقى محكوماً عليها بالتجوال في مكان ما قريب ، كما يتجول شبح حزين من حول البيوت المنهارة في مزرعة خربة . ففي روحها لا تزال الخطيئة موجودة كما هي نسج جذور الأعشاب المتجذرة في التربة . لم تعد تزهر وتضطرم وتفغ بعطرها في الهواء ، ولكنها كانت ما تزال هناك في التربة ، مبيّضة إنما قوية مترعة بالحياة . ورغم الحنان الذي كان ينبع من قلبها حين كانت ترى يأس زوجها ، إلاّ أنها لم تكن تتمتع بالإرادة أو القوة على إخماد الصوت الذي في داخلها صارخاً في مرارة وغضب : هل تستطيع أن تكلمني أنا على هذا النحو ؟ هل نسيت ذلك الوقت الذي وهبتك فيه عهدي وشرفي ؟ هل نسيت ذلك الوقت الذي كنت فيه أعز الأحباء على قلبك ؟ ومع ذلك كانت تعرف أنه طالما كان هذا الصوت يتساءل في داخلها على هذا النحو ، فإنها كانت ستكلمه وكأنها قد نسيت .

أغرقت نفسها في أفكارها أمام ضريح القديس أولاف ، تأملت في العظام المتعفنة ليد الأخ إدفين بعيداً في الكنيسة في فاتسفييلد . كوّرت قبضتها من حول المذخرات التي تحوي مزقاً من كفن امرأة ميتة وشظايا عظام شاهد دموي... بحثت عن الأمان في البقايا الصغيرة التي بقي فيها من خلال الموت واللاشيء قليل من فضيلة الروح المغادرة... مثل القوة السحرية التي تتشبث بالسيوف الصدئة التي تُنبش من قبور المحاربين القدماء .

•

في اليوم التالي ، ركب إرلند حصانه إلى المدينة ، مصطحباً معه أولف

ورجلاً واحداً آخر فحسب . وخلال فترة الصيام كلها لم يعد قط إلى هوسابي ، ولكن أولف جاء لاصطحاب الحرس لمقابلته في مجلس منتصف الصيام في أوركيدال .

في حديثه المنفرد مع كريستين ، قال لها أولف إن إرلند قد اتفق مع تييدكن باوس ، الصائغ الألماني في نيداروس ، على أن تتزوج مارغريت من ابن تييدكن المسمى غرلاك ما أن يمرّ عيد الفصح .

عاد إرلند إلى البيت في عيد الفصح . كان هادئاً وساكناً الآن ، ولكن كريستين فكرت أنها قادرة على ملاحظة أنه ما كان قادراً على رمي هذا الموضوع جانباً كما فعل فيما يخص أموراً أخرى كثيرة... وسواء كان السبب هو أنه لم يعد شاباً إلى ذلك الحد ، أو أنه لم يسبق لأي أمر آخر أن أشعره بهذه الضعة إلى ذلك الحد .

بدت مارغريت غير مكترثة بكيفية ترتيب أبيها الأمور لها .

و لكن حدث في أحد الأمسيات أن كان الزوجان لوحدهما ، فقال إرلند :

"لو كانت ابنتي الشرعية -أو لو كانت أمها امرأة غير متزوجة- لما كنت سأزوجها إلى رجل غريب وحالها على ما هي عليه . كنت سأحميها وأحرسها هي ومن يخصها . هذه طريقة بشعة للخلاص ، ولكن بالنظر إلى مولدها غير الشرعي ، فإن زوجاً شرعياً يستطيع أن يرعاها على أفضل نحو ممكن ."

و بينما كانت كريستين تجهز الأمور الآن لرحيل ابنة زوجها ، قال إرلند في أحد الأيام بلطف :

"يبدو أنك لست في حالة صحية تؤهلك للذهاب معنا إلى المدينة ؟"

قالت كريستين : "إن كنت ترغب في ذلك ، فأنت تعرف أني سأذهب ."

"و لمَ أرغب بذلك ؟ بما أنك لم تكوني قط في مقام أمها بالنسبة إليها ، فلا حاجة بك إلى فعل ذلك الآن... كما أنه لن يكون زفافاً بهيجاً إلا بالكاد . إن الليدي غونا أوف راسفولد وكنّتها قد وعدتا بالحضور مراعاة منها للقرابة بيننا ."

و هكذا بقيت كريستين في هوسابي ، بينما قام إرلند في نيداروس بعقد قران ابنته على غرلاك تييدكنسون .

٣

في ذلك الصيف ، قبل قداس القديس يوحنا ، عاد غونولف نيكولاوسون إلى ديره . كان إرلند في المدينة آنئذ لحضور "مجلس فروستا" ، فأرسل إلى زوجته يسألها إن كانت قادرة على القدوم إلى هناك لترى أخاه . لم تكن كريستين في صحة جيدة ، ومع ذلك فقد جاءت . حين قابلت إرلند ، حكى لها أن صحة أخيه بدت له منهارة تماماً . لم يكن "رهبان مونكفيورد" قد أنجزوا الكثير من مهمتهم في الشمال . أما الكنيسة التي بنوها فلم يستطيعوا تكريسها ؛ فالأسقف لم يستطع السفر إلى أقصى الشمال في ذلك الزمن العصيب . وكانوا مضطرين لتلاوة القداس في مذبحهم الخاص بالسفر . وفي النهاية أضحوا دون خبز ونبيذ وشموع وزيت لأجل الصلوات ، وحين أبحر الأخ غونولف والأخ أسلاك إلى فارغوي للحصول على هذه المواد رمى اللابلانديون سحراً عليهما ، فانقلب بهما الزورق واضطرا إلى البقاء ثلاث ليال وثلاثة أيام على جزيرة صغيرة صخرية... وبعد هذا مرضا كلاهما ، وتوفي الأخ أسلاك لاحقاً . لقد عانيا من داء الأسقربوط في "الصوم الكبير" ، فلم يكن لديهم الدقيق أو الأعشاب لتناولها مع السمك المجفف . لذلك أمر الأسقف هاكون ، أسقف بيورغفين والماستر آرن (الذي كان رئيس

دير الكاتدرائية في نيداروس خلال رحيل الأسقف الجديد ، السير بال ، إلى الإدارة البابوية لتكريسه) بأن يعود الرهبانَ الذين كانوا ما يزالون على قيد الحياة بالعودة ، وأن على كهنة فارغوي أن يهتموا بالرعية في مونكفيورد حتى إشعار آخر .

و على الرغم من هذا التمهيد ، إلا أن كريستين أصيبت بالهلع حين رأت غونولف نيكولاوسون مرة أخرى . مضت مع إرلند إلى الدير في اليوم التالي ، وقد اقتيدا إلى البهو . دخل الراهب... كان محني الظهر ، وقد شاب شعره المحلوق على شكل حلقة ، وتحت عينيه الغائرتين كانت البشرة مجعدة وذات لون بني داكن ، ولكن على البشرة البيضاء الناعمة للوجه كانت بقع ذات لون رصاصي ، كما بدت على يده بقع مشابهة حين سحبها من كمه ومدها نحو كريستين . ابتسم... فلاحظت أنه فقد كثيراً من أسنانه .

جلسوا وتحادثوا فترة من الوقت ، ولكن بدا وكأن غونولف قد نسي كيف يتكلم . ولم يقل الكثير قبل أن يغادره الآخران .

"و لكن أنت يا إرلند لم تتغير... لا يبدو عليك أنك قد تقدمت في السن" ، قال بابتسامة صغيرة .

كانت كريستين تعرف جيداً أنها كانت تبدو بائسة الآن . وكان إرلند ذا مظهر وسيم ، وهو واقف هناك بطوله ورشاقته وسمرته وملابسه الثمينة . ومع ذلك فقد فكرت كريستين في أنه قد تغيّر كثيراً... لقد كان أمراً غريباً أن غونولف لم ير ذلك... وهو الذي كان حاد البصر قديماً .

•

في أحد أيام أواخر الصيف كانت كريستين في علية الملابس ، وكانت الليدي غونا أوف راسفولد معها... لقد جاءت إلى هوسابي لتساعد كريستين ، فقد كانت على وشك أن تضع مولوداً جديداً . وبينما هما واقفتان هناك سمعتا ناكفه وبيورغولف يغنيان في الباحة ، وهما يشحذان خنجريهما ، أغنية سفيهة فظة كانا يصرخان بها بأعلى صوتيهما .

غضبت أمهما إلى أقصى حد... ذهبت إليهما وعنّفتهما بأقسى العبارات . ثم قالت إنها تريد أن تعرف ممن تعلّما مثل هذه الأغنية... ربما كان ذلك في مبنى الخدم ، ولكن أي من الرجال هو من يعلم الأطفال مثل هذه الأمور ؟ لم يجب الصبيان . ثم خرج سكوله من تحت درج العلية وقال إن على الأم أن تصمت لأنهم تعلموها من أبيهم .

عندها تكلمت الليدي غونا . ألا يخشون الرب حتى يغنوا مثل هذه الأغنية... ؟ ألا يعرفون ، أنهم قد ينامون في إحدى الليالي ليستيقظوا وقد فقدوا أمهم قبل أن يصيح الديك ؟ لم تقل كريستين شيئاً بعد ذلك ، بل دخلت المنزل بهدوء .

و فيما بعد ، وحين اضطجعت قليلاً في سريرها ، دخل ناكفه واقترب منها . أخذ يد أمه ، ولكنه لم يقل شيئاً ، ثم بدأ يبكي بهدوء . حادثته بلطف ومازحته طالبة منه التوقف عن البكاء أو النواح . لقد مرت بهذه الأزمة ست مرات حتى الآن ولا بد أنها ستمر بها للمرة السابعة أيضاً بنجاح . ولكن الصبي راح يبكي أكثر فأكثر . وأخيراً تركته يزحف إلى السرير بينها وبين الجدار ، وهناك راح يبكي وذراعاه من حول عنقها ورأسه على صدرها . ولكنها لم تستطع أن تجعله يحكي سبب حزنه ، رغم أنه بقي ممدداً هناك حتى أدخلت الخادمة طعام العشاء .

كان ناكفه في الثانية عشرة الآن ، صبياً كبير الحجم بالنسبة إلى سنه ، وكان يحب التصرف كشخص راشد وبرجولة ، ولكن قلبه كان رقيقاً ، وكانت الأم قادرة على أن تلاحظ أحياناً أنه لا يزال طفولياً جداً . كان في سن تؤهله ليفهم مصيبة أخته ، وقد تساءلت الأم إن كان قد فهم أيضاً كم تغير أبوه .

كان إرلند على الدوام رجلاً قادراً على التلفظ بأسوأ الأمور حين يغضب... ولكنه قبل الآن لم يكن يوجه عبارات قاسية إلى أحد إلاّ إذا كان غاضباً . وكان سريعاً في المصالحة بعد أن يفتر غضبه . ولكنه كان قادراً الآن على التلفظ بأمور قاسية وبشعة بكل برود . كان رجلاً فظيعاً من حيث الشتم واللعن . ولكنه تخلى عن هذه العادة الشريرة ، إلى حد ما ، لأنه لاحظ أنها تؤذي مشاعر زوجته وكذلك سيرا آيليف الذي كان قد بدأ يكنّ له الكثير من الاحترام تدريجياً . ولكنه لم يكن قط بذيئاً أو غير لائق في كلامه... ففي كلامه كان أكثر احتشاماً من كثير من الرجال الذين عاشوا حياة أنقى من حياته . لقد شعرت كريستين بألم شديد من سماع مثل تلك الكلمات تخرج من شفاه أولادها الصبيانية ، خاصة أنها كانت في تلك الحال التي هي عليها ، أما أن تسمع منهم أنهم تعلموها من أبيهم ، فقد كان ذلك أمراً جعلها تحس بمرارة هي الأشد : لقد لاحظت أن إرلند كان لا يزال طفولياً بما فيه الكفاية حتى يظن أنه قادر على أن يجابه سقطة ابنته بكلماته غير اللائقة .

لقد حكت لها "فرو غونا" أن مارغريت رزقت بولد ميت قبل قداس أولاف . وقد عرفت الليدي أيضاً أن مارغريت لم تكن تعيسة إلى حد كبير... فقد كانت على وفاق مع غرلاك وكان هو لطيفاً معها . كان إرلند يذهب لزيارة ابنته حين يكون في المدينة . وكان غرلاك يستقبل حماه بكل

حفاوة ، رغم أن إرلند لم يكن يعامل الآخر كقريب . لم يكن إرلند قد ذكر اسم ابنته منذ أن غادرت هوسابي .

أنجبت كريستين ابناً آخر ، وقد سمي "مونان" باسم جده لأبيه . وخلال الفترة التي قضتها مضطجعة في القاعة الصغيرة ، كان ناكفه يأتي يومياً ، ليرى أمه ، حاملاً التوت والجوز ممّا قطفه من الغابات ، أو أكاليل من الأعشاب الشافية التي قام بضفرها . وقد عاد إرلند إلى البيت حين أصبح عمر الوليد ثلاثة أسابيع . كان يجالس زوجته كثيراً ، ويحاول جاهداً أن يكون لطيفاً ومحباً... وهذه المرة لم يتذمر لأن الوليد لم يكن بنتاً ، أو أنه ضعيف البنية ويبدو مريضاً . ولكن كريستين لم تكن ترد كثيراً على كلماته اللطيفة . كانت هادئة وحزينة متأملة... وفي هذه المرة كان إبلالها شديد البطء .

خلال الشتاء كله كانت كريستين مريضة ، وبدا أن الطفل لن يبقى حياً على الأرجح . وهكذا لم يكن لدى أمه أي وقت توفره إلاّ للاهتمام بالصغير المسكين ، وقد سمعت دون اهتمام كبير عن الأحداث الجسام التي كانت تجري في هذا الشتاء . كان الملك ماغنوس يعاني من ضائقة مالية كبيرة بسبب محاولاته بسط السيطرة على "سكان" ، وقد طلب النجدة من النرويج . كان بعض لوردات "المجلس" راغبين في الوقوف إلى جانبه في هذه القضية . ولكن وصلت الرسل إلى تونسبرغ بالنبأ القائل إن أمين الخزينة قد رحل ، وأن ستيغ هاكونسون حاكم تونسبرغهوس قد أغلق بوابات القلعة أمام رجال الملك ، واتخذ الاستعدادات للاستعصاء في المكان بقوة السلاح . كان معه قلة من الرجال ، ولكن إرلينغ فيدكونسون الذي كان عم زوجته ، ويقيم آنذاك في ضيعته في آكر ، أرسل له أربعين من رجاله المسلحين لدعم

القلعة ، بينما أبحر هو بنفسه غرباً . في هذه الأثناء كان أبناء عم الملك ، يون وسيغورد هافتورسون قد تمرّدا على الملك لأن حكماً قضائياً صدر ضد بعض رجالهم . ضحك إرلند على هذه الأنباء ، وقال إن ابنا هافتور قد برهنا على أنهما جاهلان وأحمقان . ساد الكثير من السخط على الملك ماغنوس في كل أنحاء البلاد . طالب النبلاء بأن يعين وصي سام للإشراف على شؤون المملكة وأن يوضع الخاتم الكبير بين يدي رجل نرويجي ، بما أن الملك ، كان مصمماً على إنفاق معظم وقته في السويد ، بسبب مسألة "سكان" . ساد الخوف السكان ورجال الدين في المدن من الإشاعات التي تحدثت عن قروض الملك من المدن الألمانية . كانت غطرسة الألمان واستهزاؤهم بقوانين وعادات البلاد أكبر مما يمكن احتماله الآن ، وكان يقال إن الملك قد وعدهم بحقوق وامتيازات أكبر في النرويج ، حتى أن الأمور ستصبح غير محتملة إطلاقاً للتجار النرويجيين الذين كانوا في حالة ضيق . بين العامة كانت الشائعات التي تتعلق بخطيئة الملك ماغنوس السرية واسعة الانتشار ، وكان الكثير من كهنة الأبرشيات والرهبان الجوالين خلف واحدة من هذه الإشاعات ، فقد قالوا إن هذه هي السبب في احتراق كنيسة أولاف في تروندهايم . وهكذا وجد المزارعون في هذه أيضاً السبب في الكثير من الكوارث التي نزلت بهم في خلال السنوات الأخيرة : الأوبئة التي حلت بالقطعان والآفات التي أصابت القمح ، والتي تسببت في أمراض وعلل للإنسان والحيوان وكذلك مواسم القمح والتبن الرديئة . لذلك قال إرلند إنه لو كان لدى ابني هافتور من الحكمة ما يكفي للصمود قليلاً ولو استطاعا أن يكسبا لنفسيهما السمعة في الكرم والزعامة ، فلا شك أن الناس كانوا سرعان ما يتذكرون أن هذين هما أيضاً من أحفاد الملك هاكون .

هدأت هذه الاضطرابات ، ولكن نتيجتها كانت أن الملك عيّن إيفار

أوغموندسون وصياً سامياً في النرويج . كان إرلينغ فيدكونسون وستيغ هاكونسون وآل هافتورسون وكل أتباعهم مهددين الآن بتهمة الخيانة العظمى . وقد استسلموا عندما عرفوا بذلك وتصالحوا مع الملك . كان هناك رجل قوي في "الأراضي المرتفعة" اسمه أولف ساكسسون كان قد انضم إلى انتفاضة آل هافتورسون إلا أنه لم يشارك الآخرين في الصلح بل جاء إلى نيداروس بعد عيد الميلاد . كان يخالط إرلند كثيراً في المدينة ، وقد حصل الناس شمال دوفر منه على الأنباء المتعلقة بكل هذه الأمور ، من وجهة نظره هو فيها . ارتابت كريستين كثيراً بهذا الرجل ؛ لم تكن تعرفه ولكنها كانت تعرف أخته هيلغا ساكسسداتر التي تزوجت من غيرد دار أوف دايفرين . كانت جميلة إنما شديدة الاعتزاز والغرور بنفسها ، ولم يكن سايمون يحبها ، رغم أن رامبورغ كانت على وئام معها . وسرعان ما بدأ الصوم ووصلت رسائل من الحكام تعلن أن أولف ساكسسون خارج على القانون في "المجالس" ، ولكنه كان قد غادر البلاد في ذلك الحين إذ أبحر في وسط الشتاء .

•

في ذلك الربيع كان إرلند وكريستين في منزلهم في المدينة لأجل عيد الفصح ، وكان معهما ابنهما الأصغر مونان ، فقد كانت هناك راهبة في "دير باكه" ماهرة في الطب حتى أن كل الأطفال الذين وضعوا تحت رعايتها قد شفوا على يديها ، إلاّ إن كانت تلك إرادة الرب في ألاّ يموتوا .

في أحد الأيام بعد العيد مباشرة ، عادت كريستين إلى البيت من الدير مع الطفل الصغير . كان الخادم والخادمة اللذان اصطحباها قد دخلا القاعة .

كان إرلند وحيداً هناك ، وقد اضطجع على أحد المقاعد . بعد أن خرج الرجل ووضعت المرأة العباءات في مكانها... جلست كريستين قرب النار مع الطفل ، وكانت الخادمة تدفئ بعض الزيت الذي جلبوه من الراهبة... فبدأ إرلند يسأل من المكان الذي كان مضطجعاً فيه عما قالته الأخت راغنهيلد عن الطفل . أجابته كريستين باختصار ، وهي جالسة تفك قماط الطفل . وأخيراً ما عادت تجيب إطلاقاً .

"هل حال الطفل سيئة إلى هذا الحد يا كريستين حتى أنك لا تريدين الحديث عنها ؟ سأل وقد ساد صوته بعض نفاد الصبر .

"لقد سألتني هذا من قبل يا إرلند" ، أجابت زوجته ببرود . "و قد حكيت لك كل ما لديّ مرات عديدة . ولكنك لا تهتم بالصبي بما فيه الكفاية لتتذكره من يوم لآخر..."

قال إرلند وهو ينهض ويقترب منها : "لقد حدث يا كريستين أن أضطر أنا أحياناً أيضاً إلى أن أجيبك مرتين وثلاث فيما يخص أموراً سألتني أنت عنها بنفسك ، لأنك لم تكوني مهتمة بتذكر ما قلته لك ."

"لم تكن تلك أموراً تافهة أيضاً... في هذا الشتاء الأخير . فأنا على الأقل كان لدي الكثير في القلب ."

"هذا ليس صحيحاً يا إرلند . لقد مرّ زمن طويل منذ أن تحدثت إليّ عن الأمور التي تخص قلبك ."

قال إرلند للخادمة : "اخرجي يا سغنه" . كان وجهه قد احمر حتى الجبين... وقد التفت إلى زوجته الآن . "أفهم ما تودين التطرق إليه . من تلك الناحية لن أكلمك تحت سمع خادمتك... حتى لو كنت على علاقة ودية معها

بحيث لا تكترثين لو سمعتك تتشاجرين مع زوجك وتتهمينني بعدم الصدق..."

قالت كريستين باختصار : "هذا آخر أمر يراه الرجل ، وهو الخشبة التي في عينه ."

"لا أفهم جيداً ما تعنينه . لم يسبق لي أن تحدثت إليك تحت سمع شخص غريب ، أو نسيت أن أظهر لك كل الاحترام والتقدير أمام الخدم ."

انفجرت كريستين في ضحكة غريبة قانطة مهزوزة .

"أنت بارع في النسيان يا إرلند! خلال كل هذه السنوات عاش أولف هالدورسون معنا . أتتذكر أنك قد أرسلته هو وهافتور لإحضاري إليك في علية النوم في منزل برينهيلد في أوسلو ؟"

غرق إرلند في المقعد وهو يحدق إلى زوجته ، بشفتين فاغرتين . ولكنها تابعت تقول :

"لم يحدث الكثير في هوسابي -أو في مكان آخر- من الأمور غير اللائقة أو المخزية التي فكرت في إخفائها عن خدمك... سواء كان ذلك مشيناً لك أو لزوجتك..."

جلس إرلند صامتاً وهو ينظر إليها في فزع .

"أتتذكر الشتاء الأول بعد زواجنا ؟ كنت حاملاً بناكفه ، وكانت الأمور قاسية جداً عليَ حتى أنجح في كسب الطاعة والتقدير من خدم منزلي . أتتذكر كيف ساعدتني ووقفت إلى جانبي ؟ أتذكر حين وصل أبوك بالتربية ليكون ضيفنا مع سيدات غريبات وخدم من الجنسين ، وكان خدمنا يجلسون إلى المائدة معنا... أتذكر كيف قام مونان بتجريدي من كل خرقة ثياب كان يمكنها أن تخفيني وراءها وكنت أنت صامتاً أبكم لا تجرؤ على جعله يغلق فمه... ؟"

"يا للمسيح! هل كنت تختزنين هذا ضدي منذ خمس عشرة سنة!" نظر إليها... وقد بدت عيناه بتلك النظرة بلون أزرق فاتح غريب ، وكان صوته ضعيفاً يائساً . "و مع ذلك يا كريستين العزيزة... أعتقد أن ما هو أسوأ من هذا أن نتبادل نحن الاثنين عبارات عدائية ومريرة..."

قالت كريستين : "أجل ، ولقد حزَ في قلبي على نحو أسوأ ما جرى في تلك المرة في عيد الميلاد حين قرّعتني وهزأتني لأني وضعت عباءتي على مارغريت... وكانت هناك سيدات من ثلاث بلدان مختلفة واقفات وهن يصغين..."

لم يجب إرلند .

"و الآن تلومني لأن الأمور جرت مع مارغريت على ما جرت عليه... بينما كانت هي في كل مرة أحاول فيها تقويم اعوجاجها تهرع إليك ، وكنت تأمرني بعبارات عدائية أن أتركها في حالها... فقد كانت ابنتك وليس ابنتي..."

" لمتك أنا ؟... كلا لم أفعل!" قال إرلند بصوت مجهد ، وهو يحاول جاهداً أن يتحدث بهدوء . "لو كان لنا ابنة ، لربما كان الفهم أسهل عليك حين تحل مثل هذه الأمور بابنتك... وكيف تؤثر في الأب حتى نقي العظام..."

"اعتقدت أني أظهرت لك في العام الماضي أني فهمت" ، قالت زوجته بصوت خفيض . "كان يكفيني أن أتذكر أبي..."

قال إرلند بهدوء كما من قبل : "فيما يخص ذلك فقد كان هذا أمراً أسوأ . كنت رجلاً عازباً . وهذا الرجل متزوج . لم أكن مرتبطاً... كما هو" ، صحح نفسه . "على نحو لا أستطيع معه أن أتحرر..."

قالت كريستين : "و مع ذلك لم تحرر نفسك . أتتذكر كيف تحررت... ؟"

قفز إرلند وصفعها على وجهها . وقف مذهولاً فيما بعد... وقد ارتسمت علامة حمراء على وجنتها البيضاء . ولكنها جلست متيبسة وصامتة وبعينين قاسيتين . كان الطفل قد بدأ يبكي من الخوف... هدهدته قليلاً في حضنها وأسكتته .

قال الرجل بصوت مرتجف : "لقد كان كلامك شديد القسوة..."

قالت برقة" :حين ضربتني آخر مرة ، كنت أحمل طفلك تحت قلبي . والآن ضربتني وأنا أضع ابنك في حضني..."

"أجل ، هؤلاء الأطفال... نحن دائماً معهم..." صرخ بنفاذ صبر .

صمتا . بدأ إرلند يمشي بسرعة جيئة وذهاباً في القاعة . حملت الطفل إلى المختلى ووضعته في السرير . وحين خرجت من باب المختلى ، توقف أمامها :

"ما كان عليّ أن... أن أصفعك يا كريستين . أتمنى من كل قلبي لو أني لم أفعل ذلك... سأندم على ذلك بقدر ما ندمت على المرة الأخيرة . ولكنك وبختني لأنك تظنين أني أنسى بخفة . ولكنك لا تنسين شيئاً... لا تنسين أي خطأ واحد ارتكبته في حقك . رغم محاولاتي... لقد حاولت أن أكون زوجاً صالحاً لك . ولكنك لا تعتبرين هذا أمراً يستحق التذكر . أنت... أنت جميلة يا كريستين..." نظر إليها وهي تمرّ به .

أجل ، كانت مشية الزوجة الهادئة الجليلة جميلة كما كانت وهي شابة . كان صدرها وردفاها أكثر امتلاء ولكنها كانت أطول أيضاً . كانت ذات وقفة مستقيمة ويحمل عنقها الرأس المستدير باعتزاز ورشاقة كما كان شأنه دائماً . أما الوجه الشاحب النحيل بعينيه الواسعتين الرماديتين

الداكنتين فكان يثيره ويوقد روحه القلقة بهدوئه الغامض . مضى نحوها وأمسك بيدها :

"كنت يا كريستين ولا تزالين وستبقين أجمل النساء وأعزهن على قلبي..."

تركته يمسك بيدها ، ولكنها لم ترد على ضغطته . ثم رمى بيدها بعيداً عنه حين طغت عليه مرارته مجدداً .

"أتقولين أني نسيت ؟ لا أعتقد أن أسوأ الخطايا هو النسيان . لم أدّع أبداً أني رجل ورع . ولكني أتذكر ما تعلمته من سيرا يون وأنا طفل ، وقد ذكرني رجال الدين به منذ ذلك الحين . إنه لخطيئة أن نتأمل ونستذكر الخطايا التي اعترفنا بها أمام الكاهن وكفّرنا عنها أمام الرب ، ومنحنا عفوه بواسطة الكاهن . ولست تقومين بنبش هذه الخطايا القديمة ، خطايانا ، من شدة ورعك يا كريستين ، بل هي مجرد سلاح تشهرينه في وجهي كلما جابهتك في أي شيء..."

سار مبتعداً عنها ، ثم عاد .

"أنت تطمعين في أن تسودي -الله يعلم أني أحبك يا كريستين- ومع ذلك فأنا أرى أنك طماعة في السيادة ، ولم يسبق لك أن غفرت لي لأني أسأت إليك وأغويتك على الشر . لقد تحملت منك الكثير يا كريستين ، ولكني لن أتحمل من الآن فصاعداً ألاّ أُترك في سلام بسبب هذه الحوادث المؤسفة القديمة ، كما لن أتحمل أن أسمعك تكلمينني وكأنني عبد لك..."

كانت كريستين ترتجف من الانفعال وهي تجيبه :

"لم أحكمك قط كعبد . هل سبق لك وسمعتني أكلم بقسوة أو بغضب

أي شخص يمكن أن يعتبر أقل مني منزلة... حتى لو كان ذاك أسوأ وأدنى الخدم قيمة ؟ أعرف أني بريئة أمام الله من خطيئة الإساءة إلى فقرائه بالقول أو بالفعل . ولكن يجب أن تكون أنت سيدي . أنت من يجب أن أطيع وأحترم ، وأن أنحني أمامك وأعبدك بعد الله... حسب قانون الله يا إرلند . وإن كنت قد فقدت صبري وكلمتك على نحو لا يليق بزوجة أمام زوجها... فأعتقد أن ذلك مرده إلى أنك صعَبت عليّ الأمر مرات عديدة فلم أستطع أن أجعل بساطتي تركع أمام فهمك الأفضل ، وأن أُجلّ وأطيع زوجي وسيدي إلى الحد الذي كنت أتمنى فعله... وربما كنت آمل أنك... ربما ظننت أني كنت أحثّك لأريك أنك رجل ، وأني مجرد امرأة بسيطة مسكينة...

"و لكن فلتشعر بالراحة يا إرلند ، فلن أزعجك بعد اليوم بعباراتي ، فبعد هذا اليوم لن أنسى أبداً أن أكلمك بكل لطف ، وكأنك بالفعل ، قد ولدت من نسل عبيد..."

تضرج وجه إرلند... رفع قبضته... ثم التفت بحدة على كعبه ورفع بعباءته وسيفه عن المقعد قرب الباب واندفع خارجاً .

•

في الخارج كان نور الشمس وريح قوية... كان الجو بارداً ولكن الشرارات اللامعة التي انتشرت عليه من أفاريز المنزل والأشجار التي اكتسحتها الريح كانت قطرات من الماء ذابت ثم تجمدت مجدداً في الهواء . كان الثلج على قمم المنازل يتلألأ كالفضة ، وخلف الهضاب الخضراء الداكنة المغطاة بالأشجار من حول المدينة كانت الجبال تشع بلون أزرق بارد وأبيض لامع في النهار القارس المضيء الشتائي الربيعي .

مرّ إرلند عبر الشوارع والحارات... بسرعة ودون هدف . كان يغلي في الداخل... لقد كانت هي على خطأ ، وكان ذلك واضحاً وضوح النهار أنها على خطأ منذ البداية ، وكان هو على حق . وقد لعب هو دور المغفل وضربها وبدا أقل أحقية منها... ولكن الخطأ كان خطأها . ما الذي عليه أن يفعله بنفسه الآن ، كان لا يعرف . لم يكن يرغب في الذهاب إلى منزل أي من معارفه ، ولا يريد العودة إلى البيت .

كانت المدينة تشهد بعض النشاط والحركة . لقد وصل تاجر كبير من آيسلندا -الأول هذا العام- إلى رصيف الميناء في الصباح . تجول إرلند غرباً عبر الحارات ، ووصل إلى كنيسة القديس مارتين ، ثم هبط نحو الحارات القريبة من الشاطئ فقد كان الوقت بداية فترة ما بعد الظهر ، إلا أنه سمع الضجيج والصياح من حانات الجعة ومن البارات . في شبابه ، كان قادراً على الدخول إلى مثل تلك الأماكن مع رفاقه وأصدقائه . ولكن الناس جميعاً سيحدقون إليه ويغتابونه لاحقاً إن كان هو حاكم مقاطعة أوركدولا ، صاحب الدارة الكبيرة في المدينة ، قد دخل حانة جعة وطلب كأساً من جعتهم الخفيفة الرديئة . ولكن هذا ما كان في ذهنه أن يفعله... أن يجلس ويشرب مع المزارعين الصغار الموجودين في المدينة هذا اليوم ومع الخدم والبحارة . لم يكن ليحدث أي لغط حين يصفع هؤلاء الرجال نساءهم ، وبعد ذلك يعود كل شيء كما كان... يا للجحيم! كيف يستطيع الرجل أن يسود امرأة حين لا يستطيع أن يضربها ضرباً مبرحاً بسبب محتدها النبيل وشرفه الخاص ؟... لدى تبادل العبارات لا يمكن للشيطان نفسه أن يكون نداً لهن . كانت جنّية... وجميلة جداً أيضاً... لو أنه يستطيع فحسب أن يضربها حتى تعود صالحة من جديد...

●

بدأت الأجراس تقرع في كل كنائس المدينة لتنادي الناس إلى صلاة المساء... وخلطت ريح الربيع كل الأصوات معاً في الهواء الصاخب فوق رأسه . كأنما كانت هي ذاهبة الآن إلى "كنيسة المسيح" ، تلك الجنية الورعة ، لتشكو إلى الرب ومريم العذراء وأولاف المقدس أن زوجها صفعها . أرسل إرلند نحو القديسين الراعين لزوجته أفكاراً مترعة بالخطيئة ، بينما راحت الأجراس ترن وتصلصل وتتردد أصداؤها . شق طريقه نحو كنيسة القديس غريغوري .

كان قبر أبيه وأمه أمام مذبح القديسة آن في الجناح الشمالي . وبينما راح يتلو صلواته ، فقد رأى الليدي سونيفا أولافسداتر وخادمتها وهما تدخلان من باب الكنيسة . وحين أنهى صلاته ، ذهب إليها ليحييها .

كان من عادته هو وهذه السيدة منذ أن تعرف إليها ، أنه كلما التقى بها راحا يتداعبان ويتمازحان . في هذا المساء ، وبينما هما جالسان على المقعد الجداري ينتظران صلاة المساء حتى تبدأ ، فقد كان شديد المباشرة حتى أنه أتيحت لها الفرصة لتذكره بأنهما كانا في كنيسة وأن الناس كانوا يمرون بهما باستمرار .

قال إرلند : "أجل ، أجل ، ولكنك جميلة جداً هذا المساء يا سونيفا . إنه لأمر جيد أن أمزح مع سيدة لها مثل هاتين العينين اللطيفتين..."

قالت ضاحكة : "أنت لا تستحق كثيراً يا إرلند نيكولاوسون أن أنظر إليك بعينين لطيفتين ."

قال إرلند وهو يضحك أيضاً : "إذن سأحضر وأمازحك في العتمة حين تنتهي صلاة المساء ، سأذهب إلى البيت معك..."

ثم دخل الكهنة إلى الجوقة ، ومضى إرلند إلى الجانب الجنوبي ليأخذ مكانه بين الرجال .

و حين انتهت الصلاة ، خرج من البوابة الكبيرة . شاهد الليدي سونيفا وخادمتها وقد تقدمتا على الطريق وفكر في أنه من الأفضل له ألا يذهب معها ، بل أن يذهب إلى بيته مباشرة . في تلك اللحظة ، وصلت عصبة من الأيسلنديين من رفاق التاجر إلى الشارع ، كانوا يترنحون ويتدافعون ، وبدا وكأنهم يعيقون طريق المرأتين . عدا إرلند خلف السيدة . وما أن رأى البحارة سيداً يحمل سيفاً في حزامه يقترب منهما ، حتى ابتعدوا عن الطريق وسمحوا للمرأتين بالمرور .

قال إرلند : "أعتقد أنه من الأفضل أن أوصلك إلى البيت على أي حال ، فالمدينة ليست شديدة الهدوء الليلة ."

"أتستطيع أن تصدق يا إرلند... رغم أني امرأة عجوز ، فإني لا أكره أن يظن بعض الرجال أني ما زلت جميلة إلى حد أستحق معه أن يُعترض طريقي..."

لم يكن هناك سوى جواب واحد يستطيع رجل مهذب أن يجيب به على هذا الكلام .

•

عاد إلى بيته في صباح اليوم التالي مع غبش الفجر ، وتوقف قليلاً خارج الباب المقفل للقاعة ، متجمداً ، منهكاً تماماً ، حزيناً ومشمئزاً . هل يوقظ أهل البيت بأن يقرع على الباب ثم يدخل ليتسلل إلى السرير إلى جوار كريستين النائمة والطفل على صدرها... لا! كان معه مفتاح علية مبنى المستودع الشرقي . هناك كانت البضائع مخزنة في عهدته . دخل وخلع

حذاءه وجمع بعض شبكات النسيج الصوفي الخشن وبعض الأكياس الفارغة ونشرها على القش الذي في هيكل السرير . لف عباءته من حوله ثم تسلل تحت الأكياس ، وبما أنه كان منهكاً ومرهقاً فقد استطاع أخيراً أن ينسى كل شيء في النوم .

كانت كريستين شاحبة ومنهكة من السهر حين جلست إلى فطور الصباح مع سكان المنزل . حكى لها أحد الخدم أنه توسل إلى السيد أن يأتي إلى طعام الفطور... فقد كان نائماً في علية مبنى المستودع الشرقي كما قال... ولكن إرلند طلب منه أن يذهب إلى الشيطان .

•

كان لدى إرلند موعد في إلغسايتر بعد القداس النهاري ، إذ كان عليه أن يكون شاهداً في بعض المعاملات العقارية . ولكنه تمكن من التهرب من الوليمة التي تلت ذلك وأقيمت في حجرة الطعام في الكنيسة ، وكذلك من آرن غيافالدسون الذي لم يستطع مثله أن يبقى ليشرب مع الرهبان ، ولكنه كان مصمماً على جعل إرلند يرافقه إلى رانهايم .

ندم لاحقاً لأنه فارق الآخرين... انتابه الفزع وهو عائد لوحده إلى البلدة... عليه أن يفكر الآن فيما فعله . فكر برهة في الذهاب مباشرة إلى كنيسة القديس غريغوري... كان معه الإذن بأن يعترف لأحد الكهنة هناك ، حين يكون في نيداروس . ولكنه لو فعل ذلك مجدداً بعد الاعتراف ستكون الخطيئة أعظم . كان من الأفضل أن ينتظر بعض الوقت...

لا شك أن سونيفا تفكر الآن أنه مجرد فرّوج أمسكت به بيديها المجردتين . ولكن ليأخذه الشيطان لو سبق له وفكّر بأن هناك امرأة قادرة

على تعليمه الكثير ممّا هو جديد... وهاهو يتجول متثائباً لا يزال من تلك المغامرة . كان يثني على نفسه لأنه كان بارعاً فيما يسمى "فن الحب" أو مهما يكن الاسم الذي يطلقه العلماء عليه . لو أنه كان لا يزال شاباً وغرّاً لاعتزّ بنفسه ولاعتبره عملاً جيداً وجريئاً . ولكنه لم يكن يحب تلك المرأة -المرأة المجنونة- كان مشمئزاً منها . كان مشمئزاً من النساء كافة عدا زوجته... وكان مشمئزاً من هذه أيضاً! وإنه يقسم بالصليب... أنه كان متزوجاً منها إلى حد أنه أصبح ورعاً هو نفسه... فقد كان يصدق ورعها... ولكن كانت مكافأته العادلة من زوجته الورعة على إخلاصه وحبه... تلك الجنية! تذكر كلماتها اللاذعة السامة في اليوم السابق... إذن فهي تعتبر أنه يتصرف وكأنه ابن عبد رقيق!... وتلك الأخرى ، سونيفا ، لا شك أنها تظن أنه لم يكن سوى شخص ضعيف فج ، فقد سمح لها أن تفاجئه وأن يعبر عن فزعه من طريقتها في ممارسة الحب . سيريها الآن أنه لم يعد بالرجل الورع . لقد وعدها بأن ينزل إلى منزل ثورولف في المدينة تلك الليلة ، وقد يذهب فعلاً . لقد ارتُكبت الخطيئة وارتُكبت ، فلماذا لا يتمتع بأي لهو قد يصاحبها ؟

لقد سبق له ونكث بعهده لكريستين ، وهي نفسها من سبّب ذلك ، بأساليبها الكريهة الجائرة نحوه...

ذهب إلى البيت ، وتجول في الإسطبلات والأبنية الخارجية ليجد شيئاً معيباً ينتقده . أنّب خادمة كاهن المستشفى لأنها جلبت الملت إلى مبنى التجفيف خاصته ، رغم أنه يعرف جيداً أنهم ما كانوا في حاجة إليه وهم في المدينة . تمنى لو كان أولاده هنا -كانوا سيمنحونه رفقة طيبة- وتمنى لو يذهب تواً إلى هوسابي . ولكن كان عليه أن ينتظر في المدينة رسائل ستأتيه من الجنوب... كان أمراً غير مضمون أن تصله مثل تلك الرسائل إلى بيته في الريف بالسرعة المطلوبة .

لم تحضر سيدة المنزل إلى مائدة العشاء... كانت مضطجعة في السرير في الحجرة ، كما قالت "سيغنه" خادمتها ، وهي تنظر إلى سيدها نظرة تأنيب . أجابها إرلند بقسوة بأنه لم يسأل عن سيدتها . وحين غادر الخدم القاعة ، ذهب إلى الحجرة . كان الظلام دامساً هناك . انحنى إرلند فوق السرير .

"هل تبكين ؟" سألها بصوت خفيض جداً إذ كان تنفسها غريباً جداً . ولكنها أجابت بصوت أجش أبح أنها لم تكن تبكي .

"هل أنت متعبة ؟ أجل... سأذهب لأرتاح الآن" ، قال بالصوت الخفيض نفسه .

ارتجف صوت كريستين وهي تقول :

"إذن أتمنى يا إرلند أن تذهب وتنام هذه الليلة حيث نمت الليلة الماضية ."

لم يجب إرلند . خرج وأحضر الشمعة من القاعة إلى الحجرة ، وفتح صندوق ملابسه . كان يرتدي ملابس لانقة للذهاب إلى حيث كان ينوي ، فقد كان لا يزال يلبس "الكوثاردي" البنفسجي الذي كان يلبسه في "إلغسايتر" في الصباح . ولكنه غيّر ملابسه ببطء وتعمّد... فارتدى قميصاً حريرياً أحمر وجاكيتاً مخملياً رمادياً يصل إلى الركبة مع أجراس فضية صغيرة عند رؤوس الأكمام ، ومشط شعره وغسل يديه . وراح ينظر المرة تلو الأخرى إلى زوجته... كانت تضطجع صامتة دون حراك . ثم خرج دون أن يتمنى لها ليلة سعيدة . وفي اليوم التالي عاد إلى البيت صراحة وقت الإفطار .

و هكذا مضت الأمور لأسبوع كامل . ثم عاد إرلند إلى البيت في إحدى الليالي من "هانفرار" حيث كان قد ذهب إلى هناك في مهمة وعلم أن كريستين قد انطلقت في ذلك الصباح إلى هوسابي .

لقد توضح له أنه لم يسبق لرجل أن نال متعة أقل من متعته هو في ممارسة الخطيئة مع سونيفا أولافسداتر . ففي قلبه كان منهكاً إلى أقصى حد من تلك المخلوقة المجنونة... وكان يشمئز منها حتى وهو يداعبها ويلاطفها . كان تصرفه هذا عملاً جنونياً ومتهوراً أيضاً... فقد كان من المحتمل الآن أن يكون قد عُرف في كل أنحاء الريف أنه يقضي الليالي في منزل ثورولف... كان عملاً جنونياً أن يلطخ اسمه بالعار لأجل سونيفا تلك! بين الحين والآخر كان يفكر أيضاً أن الأمر قد يثير بعض المشاكل... فقد كان للمرأة زوج عجوز ومريض... كان أمراً مؤسفاً أن يتزوج ثورولف من مثل هذه المرأة المتهورة الغبية... والأرجح أنه لم يكن أول رجل يتلاعب بشرف الزوج . وماذا عن هافتور... كان قد نسيه تماماً ، حين بدأ هذه المغامرة مع سونيفا ، لقد نسي أنها كانت أخت هافتور... لم يتذكر ذلك إلا بعد فوات الأوان . لقد أصبحت الأمور في أسوأ حال الآن... ويبدو الآن أن كريستين تعرف بالأمر أيضاً .

لن تستطيع دون شك أن تفكر في رفع دعوى ضده أمام الأسقف... مطالبة بالانفصال عنه . كان لديها يوروندغارد لتلتجئ إليها... ولكن كان من المستحيل السفر إلى هناك عبر الجبال في مثل هذا الوقت من العام ، وكان من المستحيل إطلاقاً لو كانت ستصطحب الأولاد الصغار معها... وما كانت كريستين لتتركهم وراءها . لا... هكذا راح يفكر ليريح نفسه... وما كانت قادرة على السفر بحراً أيضاً ، مع مونان ولافرانس ، في هذا الوقت المبكر

من الربيع . أوه ، ولكن لم يكن من دأب كريستين أن تطلب من الأسقف المساعدة ضده -رغم أن لديها السبب الملائم لذلك- إلا أنه سيبتعد عن فراشها من تلقاء نفسه... حتى تعرف أنه كان نادماً من كل قلبه . لم تكن كريستين لتتمنى أن تطرح هذه المسألة علناً . ولكنه كان يعرف في قلبه أنه قد مضى وقت طويل منذ أن كان يعرف عن حق ما تستطيع أو لا تستطيع زوجته أن تفعله .

كان يضطجع ليلاً في سريره ، ويترك أفكاره تسرح وتمرح . لقد اتضح له أنه تصرف على نحو أشد غباء ممّا كان قد ظنه في البداية ، فقد ترك نفسه يتورط في هذه المغامرة البائسة ، في هذا الوقت الذي كانت فيه الدولة في خضم أعظم المشاريع .

لعن نفسه لأنه كان لا يزال أحمق في علاقته مع زوجته إلى حد أنه مكّنها من أن تدفعه إلى ارتكاب هذا . لعن كلاً من كريستين وسونيفا . لا شك أنه لم يكن مغرماً بالنساء أكثر من الرجال الآخرين وحق الشيطان... بل كانت علاقاته النسائية أقل عدداً بكثير من علاقات غيره من الرجال الذين يعرفهم . ولكن بدا وكأن الشيطان القذر نفسه قد رتّب له أموره... لم يكن قادراً على الاقتراب من أي امرأة دون أن يجد نفسه وقد غرق حتى العنق في مستنقع...

ستكون هناك نهاية لذلك الأمر الآن . حمداً لله أنه كان مشغولاً بأمور أخرى الآن . وسرعان ما سيكون قد حصل دون شك على رسائل الليدي انجبيورغ . أجل ، فيما يخص تلك المسألة أيضاً ، فقد كان عليه أن يكون قادراً على معرفة طباع النساء . ربما كان ذلك عقاب الرب على خطايا شبابه . ضحك إرلند في نفسه في العتمة . على الليدي أن ترى أن الأمور

كانت كما طرحت أمامها . أما المسألة فكانت ما إذا كان أحد أبنائها أو أبناء أختها التي لم تكن بنتاً شرعية هو من سيناصره النرويجيون ضد الملك ماغنوس . وكانت هي تحب أولادها من كنوت بورس كما لم تحبب قط أولادها الآخرين .

سرعان ما سيكون معانقاً الرياح العاتية ومتكسّرات الماء المالح . يا للرب في السماء! سيكون أمراً جيداً أن تبلّله الأمواج مجدداً وأن تهب عليه الريح النقية حتى تصل إلى نقي عظامه... سيهجر كل النساء لفترة طويلة ولذيذة .

أما سونيفا ، فتستطيع أن تفكر بما تشاء . لن يذهب إليها بعد الآن . وقد تذهب كريستين إلى يورونداغارد لو شاءت ، بسببه . ربما سيكون أفضل وآمن لها وللأطفال لو كانوا بعيدين تماماً عن غودبراندسال هذا الصيف . وفيما بعد لن يكون هناك شك في أنهما سيتصالحان مجدداً...

في صباح اليوم التالي ركب جواده إلى سكاون . ولكنه لم يستطع أن يجد الراحة حتى تأكد ممّا كانت زوجته ستفعله .

قابلته بلباقة باردة لطيفة حين وصل إلى هوسابي في وقت متأخر من النهار . لم تخاطبه بكلمة واحدة بمبادرة منها ، كما لم تتلفظ بكلمة عدائية واحدة . كما أنها لم تعارض حين ذهب في الليل ، وكأنه يتحسس طريقه ، نحو سريرهما وتمدّد فيه . وبعد أن استلقى هناك لفترة ، حاول بتعثر أن يضع يده على كتفها .

كان صوت كريستين يرتجف ، ولكن إرلند لم يستطع أن يعرف إن كان ذلك بسبب الحزن أو الغضب بينما كانت تهمس قائلة :

"لا أعتقد أنك رجل وضيع إلى هذا الحد يا إرلند ، حتى أنك تريد أن تجعل الأمر أسوأ بالنسبة إليّ مما هو عليه . لا أستطيع أن أقاومك وأولادنا ينامون من حولنا . وبما أني رزقت بسبعة أبناء منك ، فلن يسعدني أن يعرف خدم المنزل أني امرأة مظلومة..." بقي إرلند صامتاً لفترة طويلة قبل أن يجيب :

"أجل ، فليرحمني الله يا كريستين ، فقد ظلمتك . ما كنت... ما كنت لأفعل ذلك لو استطعت ألاّ أبالي بالكلمات القاسية التي قلتها لي في ذلك اليوم في نيداروس . أنا لم أحضر إلى البيت لأطلب منك الغفران . فأنا أعرف أيضاً أنه سيكون أمراً خطيراً جداً أن أطلب ذلك منك الآن..."

أجابت زوجته : "أرى أن مونان باردسون قد نطق بالصواب ، فلن يأتي قط ذلك اليوم الذي ستقف فيه وتتحمل مسؤولية أفعالك . من الأفضل لك أن تلتفت إلى الرب وتحاول أن تتصالح معه... فالأجدر بك تطلب الغفران منه وليس مني..."

قال إرلند بمرارة : "أجل ، أستطيع أن أرى ذلك" . وبعد هذا لم يتبادلا الحديث . وفي صباح اليوم التالي عاد إلى نيداروس .

•

كان في المدينة منذ بضعة أيام حين اقتربت منه خادمة الليدي سونيفا في إحدى الأمسيات وهو في كنيسة القديس غريغوري . بدا لإرلند أنه لا بأس في أن يكلم السيدة مرة أخرى وأخيرة . وقد أمر الفتاة بأن تسهر للمراقبة هذه الليلة ، فهو سيأتي بالطريقة السابقة نفسها .

كان عليه أن يزحف ويتسلق بجهد مثل لص الدجاج حتى يصل إلى

العلية حيث تجري لقاءاتهما . كان مشمئزاً من العار الآن إذ راح يفكر كم كان أحمق... أيفعل ذلك رجل في مثل عمره ومقامه ؟ ولكنه كان يعتبر في البداية أن في ممارسة مثل هذه الألعاب الصبيانية بعض التسلية .

كانت السيدة في الفراش حين دخل .

"هل أتيت أخيراً ومتأخراً إلى كل هذا الحد ؟" ضحكت وتثاءبت . "أسرع الآن يا حبيبي ، وتعال إلى الفراش . ثم سنتحدث لاحقاً حول سبب غيابك الطويل ."

لم يعرف ما يفعله أو كيف سيقول لها ما كان في قلبه . ودون تفكير بدأ يخلع ملابسه .

قال : "إن ما فعلناه يا سونيفا حماقة... أعتقد أنه ليس أمراً جيداً أن أمكث هنا هذه الليلة . لا بد أن ثورولف سيبدأ بالشك قريباً ؟"

"أأنت خائف من زوجي ؟" سألت سونيفا بلهجة مغيظة . "لقد رأيت بنفسك أن ثورولف لم يهتز له جفن بينما كنا نلعب ونمزح أمام عينيه . ولو أنه سمع أنك كنت تأتي إلى المنزل ، فأنا أضمن أن أجعله يصدق أنها مجرد حماقة عجائز . إنه يثق بي جيداً..."

"أجل ، يبدو أنه يثق بك جيداً" ، ضحك إرلند وهو يدفن أصابعه في الشعر اللامع فوق كتفيها البيضاوين المكتنزتين .

"أهذا رأيك ؟" وأمسكت به من رسغه . "و مع ذلك فأنت تثق بزوجتك أيضاً . وأنا كذلك كنت خجولة وحييّة حين تزوجني بارد..."

"اتركي زوجتي خارج هذه القضية" ، قال إرلند بحدة ، وهو يفلت يده منها .

"لماذا ؟... أتعتقد أنه أمر غير لائق أن نتكلم عن كريستين لافرانسداتر بينما هو لائق أن نتكلم عن سير ثورولف ، زوجي ؟"

صرّ إرلند بأسنانه ولم يجب .

قالت سونيفا بسخرية : "أعتقد أنك واحد من أولئك الرجال يا إرلند الذين يظنون أنهم رابحون وعادلون حتى أنهم لا يعتقدون إلا بالكاد أنه من الخطأ أن تكون فضيلة المرأة هشة كالزجاج أمامهم ، بينما قد تكون صلبة كالفولاذ أمام كل الآخرين ."

أجاب إرلند بخشونة : "لم أفكر بك على هذا النحو ."

التمعت عينا سونيفا .

"ما الذي تريده مني يا إرلند... بما أنك سعيد في زواجك إلى هذا الحد ؟"

"لقد قلت لك إنه ليس عليك أن تذكري زوجتي..."

"زوجتك أو زوجي..."

"أنت من بدأت الكلام عن ثورولف ، وأنت من سخر منه على أسوأ نحو" ، قال إرلند بمرارة . "و لو لم تهزئي منه بكلماتك... فقد كان واضحاً كم تحافظين على شرفه ، حين تدخلين رجلاً إلى سرير زوجك . أما هي... فهي لم تنزل إلى مثل هذا الدرك ."

"هل هذا ما تريد قوله لي... إنك تحب كريستين ، رغم أنك تودني بما فيه الكفاية لتعبث معي..."

"لا أعرف كم أودك... لقد أظهرت لي أنك تودينني..."

"و كريستين ألا تقوّم حبك التقويم الصحيح ؟" ضحكت هازئة . "لقد رأيت بما فيه الكفاية كم تعتني بك بلطف يا إرلند ."

صرخ الرجل : "أمسكي عليك لسانك الآن! ربما هي تعرف ما أستحق!" قال بقسوة ووحشية . "ربما كنا أنت وأنا متشابهين..."

سألت سونيفا بلهجة تهديدية : "هل الأمر هكذا إذن ؟ أني كنت مجرد سوط تلهب به ظهر زوجتك ؟"

"سمّيه هكذا ، إن شئت . ولكنك وضعت نفسك تحت تصرفي ."

جلست في السرير وانتظرت . ولكن إرلند لم يخالفها ولم يحاول أن يصطنع شجاراً . عاد ليرتدي كامل ملابسه مجدداً وغادرها دون أي كلمة .

لم يكن شديد السرور من نفسه ، أو من الأسلوب الذي غادر به سونيفا . لم يكن في الأمر الكثير من التصرف الشريف بالنسبة إليه . ولكن ما كان ممكناً أن يفعل سوى ذلك... وعلى الأقل فهو قد تخلص منها الآن .

٤

في فصلي الربيع والصيف هذين لم يكن السيد يُرى كثيراً في هوسابي . وفي الأوقات التي يتواجد خلالها في الضيعة ، كان يعامل زوجته باحترام وودّ . لم يحاول إرلند قط أن يحطم الجدار الذي أنشأته هي الآن بينهما ، رغم أنه كان غالباً ما يتابعها بنظراته بدقة . أما فيما يتعلق بالبقية ، فقد كان يبدو وكأن لديه الكثير ليفكر فيه خارج بيته . أما فيما يتعلق بإدارة الأملاك فلم يكن يطرح سؤالاً واحداً .

و كانت قضية الأملاك هذه هي ما طرحته عليه زوجته حين أرادها بعد يوم الصليب المقدس في الربيع أن تصطحبه إلى راومسدال . كان لديه بعض الأعمال في أوبلاندز... فما رأيها لو تصحب الأطفال معها ، وتبقى لبعض الوقت في يوروندغارد ، فترى أقرباءها وأصدقاءها في "ديل" ؟ ولكن كريستين رفضت رفضاً باتاً الموافقة على هذا .

كان في نيداروس حين جرى اجتماع مجلس "لاغ" ، وبعد ذلك في أوركيدال . ثم عاد إلى هوسابي ، ولكنه شغل نفسه فوراً بالاستعداد للرحلة إلى بيورغفين . كان السفينة "مارغيغرن" راسية في نيدارهولم ، وكان ينتظر فحسب هافتور غراوت الذي كان سيبحر معه .

قبل ثلاثة أيام من قداس مارغريت (١٠ حزيران / يونيو) بدأوا بجمع التبن في هوسابي . كان الطقس كأجمل ما يمكن ، وحين عاد التبّانون إلى المروج بعد استراحة منتصف النهار ، فإن أولاف ، رئيس العمال ، استأذن ليصطحب الأطفال معه .

كانت كريستين في مستودع الملابس الذي كان في الطابق الثاني في مبنى الأسلحة . كان للمبنى درج خارجي يؤدي إلى هذه الغرفة التي لها شرفة أمامها . أما الطابق الثالث ، فهو مستودع الأسلحة ، فكان فوق الشرفة ، وما كان ممكناً الوصول إليه إلا عبر سلم معلق من علية الملابس يؤدي إلى فتحة في الأرضية . كانت الفتحة مشرعة إذ كان إرلند في مستودع الأسلحة .

حملت كريستين خارجاً عباءة الفرو التي كان إرلند سيأخذها معه لأجل الرحلة البحرية ، وهزّتها في الشرفة . ثم سمعت ضجيج مجموعة كبيرة من الفرسان ، ورأت في اللحظة نفسها أشخاصاً يخرجون من الغابات على ظهور الجياد . وفي اللحظة التالية كان إرلند يقف إلى القرب منها .

"هل قلت يا كريستين إن النار في المطبخ قد أطفئت هذا الصباح ؟"

"أجل... لقد قلبت غودريد قدر المرق . علينا أن نقترض ناراً من سيرا آيليف ."

نظر إرلند بعيداً نحو منزل الكاهن .

"كلا ، لا يجب أن نورطه في هذا الأمر . يا غاوته" ، نادى بصوت رقيق على ابنه ، الذي كان يتسكع تحت الشرفة ، وهو يرفع المدمّة إثر الأخرى ، غير راغب في الانطلاق نحو جمع التبن . "تعال إلى هنا ، اصعد السلم... لا تصعد أكثر حتى لا يروك ."

حدقت كريستين إلى زوجها . لم يسبق لها أن رأته في مثل هذه الحالة... كان الهدوء المتوتر اليقظ في صوته ، في وجهه ، وهو يتطلع نحو الجنوب على امتداد الطريق... وفي كامل قامته الطويلة المرنة يهرع إلى داخل العلية ويعود فوراً ومعه رزمة مسطحة ، وقد غلفت بقماشة مخيطة من الكتان . أعطاها للصبي :

"خبئ هذه في صدرك... وانتبه جيداً لما سأقوله لك . عليك أن تنقذ هذه الرسائل... الخطر المحدق أكبر ممّا تستطيع فهمه يا غاوته . ضع مدمّتك فوق كتفك واذهب بهدوء عبر الحقول حتى تصل إلى أجمة جار الماء . ابق بين الشجيرات حتى تصل إلى الغابة... أنت تعرف كل الممرات هناك وأنا أعرف ذلك... وازحف بين أكثف الأجمات طول الطريق إلى سكيولدفيركستاد . حين تصل إلى هناك ، تأكد أولاً أن كل شيء هادئ في المزرعة . وإن رأيت علامات تدل على أن هناك ما هو غير ما يرام أو وجود أغراب ، عندها اختبئ . ولكن لو كنت واثقاً أن كل شيء آمن ، فامض إلى المزرعة وأعط هذه إلى أولف إن كان في البيت . ولكن إن لم تستطع أن تعطي الرسائل إليه باليد وأنت متأكد من عدم وجود أحد في الجوار ، فأحرقها في اللحظة التي تستطيع فيها ذلك . ولكن تأكد أن كلاً من الكتابة والأختام قد احترقت تماماً ، وأنها لن تقع بين يدي أحد آخر عدا أولف . فليكن الرب في عوننا يا ابني... هذه أمور عظيمة حتى توضع بين يدي صبي في العاشرة... إنها حياة ومصالح كثير من الرجال الصالحين... أتفهم يا ترى مدى الخطر يا غاوته ؟"

"أجل يا أبي ، لقد فهمت كل ما قلته لي . "رفع غاوته بصره من الدرج ووجهه الوسيم الصغير مليء بالحماسة .

"قل لإيزاك إن لم يكن أولف في البيت ، إن عليه أن يركب جواده

وينطلق مباشرة إلى هافنه وأن يسير الليل بطوله... ويقول لهم بأن ريحاً رئيسية قد هبت ، وأني أخشى أن أعمال سحر شريرة قد أفسدت رحلتي . هل تفهم ؟

"أجل يا أبي . أفهم تماماً كل ما قلته لي ."

"اذهب إذن . فليحفظك الرب يا بنيّ" .

هرع إرلند إلى مستودع السلاح ، وكان يودّ إغلاق الفتحة ، ولكن كريستين كان قد سبق لها ودخلت الفتحة . انتظر صعودها الكامل ، ثم أغلق الفتحة ، وأسرع إلى خزانة ، وأخرج بعض الأوراق . مزّق الأختام وداسها بقدميه على الأرض ، ومزق الأوراق ولفها مع بعضها حول مفتاح الخزانة وأسقط الرزمة الصغيرة من ثقب النافذة إلى وسط الأشواك التي كانت تنمو خلف المخزن . وقف ويداه على إطار النافذة يتابع الصبي بعينيه وهو يمشي على امتداد طرف حقل القمح نحو المرج ، حيث كان الحصادون يتحركون نحو الأمام في خط واحد ، وهم يحملون مناجلهم ومدماتهم . وحين اختفى غاوته في الأيكة الصغيرة بين حقل القمح والمرج ، أغلق المصراع . كان هدير الحوافر قد أضحى عالياً الآن ويأتي من مكان قريب .

التفت إرلند إلى زوجته :

"هل يمكنك التخلص ممّا رميته الآن ؟... ابعثي بسكوله ، فهو ذكي... قولي له أن يرمي بالرزمة في الحفرة خلف الزريبة . من المرجح أنهم سيراقبونك وربما الصبيان الكبار أيضاً . ولكنهم لن يفتشوك..." وضع كسور الأختام في صدر ثوبها . "لا أحد سيميزها على ما أعتقد ، ومع ذلك..."

"هل أنت في خطر يا إرلند ؟" سألت بهدوء . وحين نظر إلى وجهها ،

جذب ذراعيها الممدودتين من حولها . ضغطها إليه لحظة :

"لا أعرف يا كريستين . سرعان ما سنرى ، على ما أعتقد . إن "توره أيندريدسون" يقود الرجال والسير بارد معهم ، لو كنت على صواب فيما رأيت . لا أعتقد إلاّ بالكاد أن "توره" قادم إلى هنا لأي أمر طيب..."

كان الفرسان في الباحة الآن . وقف إرلند ساكناً لحظة . ثم قبّل زوجته بقوة ، وفتح الفتحة ، ونزل منها مسرعاً . وحين خرجت كريستين إلى الشرفة ، رأت إرلند في الباحة يساعد أمين الخزنة ، الذي كان عجوزاً وبديناً على الترجل عن حصانه . كان هناك ثلاثون رجلاً مسلحاً على الأقل مع السير بارد وحاكم مقاطعة غاولدولا . وحين عبرت كريستين الباحة ، سمعت الحاكم يقول :

"أنقل إليك تحيات أولاد عمك يا إرلند . إن بورغار وغوتورم تروندسون هما ضيفا الملك الموقران في فيوي ، وأعتقد أن هافتور تورسون سيكون الآن قد قام بزيارة ودية لإيفار والشاب الصغير في منزلهم في سوندبو . لقد وضع السير بارد غراوت تحت الحراسة صباح أمس ."

"أرى الآن أنكم أتيتم إلى هنا لتأمروني بحضور اجتماع الحراس نفسه" ، قال إرلند مبتسماً .

"هكذا هي الحال يا إرلند " .

"و لا شك أنكم قادرون تفتيش ضيعتي هنا أيضاً ؟ أوه لقد أديت مثل هذه الأمور غالباً حتى أني أعرف كيف تتم ."

قال توره : "و لكنك لم تتعامل بأمور خطيرة كقضية الخيانة العظمى ."

قال إرلند : "لا ، ليس قبل الآن . ويبدو كأني كنت ألعب مع الرجال

السود يا توره ، وأنت كنت رفيقي... أليس كذلك يا قريبي ؟"

"علينا أن نجد الرسائل التي في حوزتك والتي بعثت بها الليدي انجبيورغ هاكونسداتر" ، قال توره أندريدسون .

"إنها في الخزانة مغطاة بجلد أحمر في مستودع السلاح... ولكن لن تجد الكثير فيها عدا بعض التحيات كما هي من عادة الأقرباء أن يحيوا أحدهم الآخر... وهي رسائل قديمة .سيصطحبك ستاين هذا إلى هناك ."

كان الفرسان الغرباء قد ترجلوا الآن وقد راح خدم المنزل يتجمهرون في الباحة .

"في تلك الرسالة التي أخذناها من بورغار تروندسون كان هناك ما هو أكثر من ذلك" ، قال توره . صفّر إرلند قليلاً .

قال : "الأفضل أن ندخل إلى القاعة ، فقد بدأ المكان يصبح شديد الازدحام هنا ."

لحقت كريستين بالرجال إلى القاعة . وبإشارة من توره ، فإن اثنين من الرجال المسلحين دخلا معهم .

قال توره أوف غيمسار حين وقف داخل القاعة : "عليك أن تسلم سيفك يا إرلند ، كعلامة على أنك سجيننا ."

ضرب إرلند على فخذيه ليظهر لهم أنه لم يكن يحمل أي سلاح آخر عدا الخنجر الذي في حزامه . ولكن توره قال مجدداً :

"عليك أن تسلم سيفك كعلامة..."

"أجل ، أجل ، إن كان هذا كله سيتم بكل هذه اللباقة... قال إرلند

ضاحكاً قليلاً . مضى نحو المشجب وسحب سيفه ثم أمسك بالغمد وقدم مقبض السيف إلى توره آيندريدسون بانحناءة صغيرة .

حلّ عجوز غيسمار شرائط السيف وجرده ثم مرّر أصابعه على امتداد حدّه .

"أكان هذا هو السيف يا إرلند الذي... ؟"

ومضت عينا إرلند الزرقاوان كالفولاذ ، وضاق فمه ورقّت شفتاه :

"أجل . بهذا السيف أدّبت حفيدك حين وجدته مع ابنتي ."

وقف توره حاملاً السيف . نظر إليه وتكلم بلهجة التهديد :

"أنت الذي عليك أن تدعم القانون يا إرلند... لا شك أنك عرفت ذلك في الحين الذي تجاوزت فيه ما يسمح به القانون لك..."

عاد إرلند برأسه إلى الخلف ، وقد تضرج وجهه وقال بغضب :

"هناك قانون يا توره لا يمكن للملوك ولا لأعضاء المجالس أن ينحوه جانباً... يمكن للرجل أن يحمي عرضه بالسيف..."

"من حسن حظك يا إرلند أنه لم يستخدم أحد هذا القانون ضدك" ، أجاب توره أوف غيمسار بخبث . "وإلاّ لكنت في حاجة إلى عدد من الأرواح بقدر ما للهرّة..."

قال إرلند بلهجة لاذعة البطء :

"ألا تعتقد أن هذه المسألة شديدة الخطورة حتى أن الوقت غير ملائم لخلطها مع حكايات قديمة من أيام فتوتي ؟"

"لا أعرف إن كان ثورولف أوف لنسفيك يعتبر هذه المسائل شديدة القدم ."

ثار غضب إرلند وكاد يردّ عليه ، ولكن توره صرخ قائلاً :

" كان عليك أن تعرف أولاً يا إرلند إن كانت عشيقاتك ماهرات في قراءة الخطوط قبل أن تنطلق نحو مواعيدك الليلية حاملاً رسائل سرية في حزام خصرك! اسأل بارد هناك الذي حذرنا من أنك تدبر مؤامرات خيانية ضد ملكك الذي حلفت يمين الولاء له ، وتحتل منصبك وتتلقى راتباً من..."

و دون قصد رفع إرلند يداً إلى صدره... نظر إلى زوجته برهة ، وتضرج وجهه . ثم هرعت كريستين نحوه ورمت بذراعيها من حول عنقه . نظر إرلند إلى وجهها... فلم ير فيه سوى الحب :

"إرلند... زوجي ."

لم يكن أمين الخزينة قد نطق بكلمة واحدة حتى الآن . مضى الآن نحو الزوجين وقال برقة :

"سيدتي العزيزة... ربما كان من الأفضل لك أن تأخذي الأطفال والخادمات معك إلى دار النسوة ، وأن تبقوا هناك طالما كنا في الضيعة ."

أطلق إرلند سراح زوجته بضغطة أخيرة من ذراعه حول كتفيها .

"هذا أفضل يا كريستين... افعلي ما يقوله السير بارد ."

وقفت كريستين على رؤوس أصابعها وقدمت له فمها ليقبله . ثم خرجت إلى الباحة . ثم جمعت أطفالها من بين الحشد المختلط من أطفالها وخادماتها وحملتهم معها إلى القاعة الصغيرة...لم تكن هناك دار أخرى للنسوة في هوسابي .

مرّت بضع ساعات وهم جالسون هناك ، بينما كان هدوء وثبات السيدة يبقي الأطفال الصغار المروعين في حالة من الهدوء . ثم دخل إرلند ، مجرداً

من السلاح ومرتدياً ملابس السفر . وقف رجلان مسلّحان غريبان عند الباب .

صافح أولاده الأكبر سناً ثم رفع الصغار بين ذراعيه ، بينما سأل عن غاوته..." ولكن عليك أن تبلغه تحياتي يا ناكفه . لقد عدا إلى الغابات مع قوسه ، كما أعتقد ، كعادته . قل له إنه يستطيع الحصول على القوس الطويل الإنكليزي على أي حال... لقد أنكرت عليه ذلك حين طلبه مني يوم الأحد ."

ضمته كريستين إليها دون أي كلمة .

"متى تعود يا إرلند ، يا أعز الناس ؟ "همست له بتوسل .

"متى شاء الله يا زوجتي" .

تراجعت عنه ، محاولة ألاّ تنهار . لم يكن معتاداً على مخاطبتها إلا باسمها الأول ، وهذه الكلمات الأخيرة التي نطقها هزّتها حتى الصميم . كأنما فهمت الآن فحسب ما كان يجري بالفعل .

•

عند غروب الشمس جلست كريستين على التلة الواقعة إلى شمال المباني .

لم تكن قد رأت السماء حمراء وذهبية إلى هذا الحد من قبل . فوق التلة المشرفة عليها مباشرة كانت غيمة كبيرة . كان شكلها كجناح طائر ، وكانت تتوهج في داخلها كما الحديد في الكير ، وتلتمع كالعنبر . كانت خيوط ذهبية كالريش قد تحررت منها وراحت تعوم في السماء . في مكان عميق إلى الأسفل فوق البحيرة في قعر الوادي كانت السماء تعكس الغيوم

والجبال التي فوقها... بدا وكأنه من هناك في الأسفل في الأعماق كان الوهج المشتعل يخرج ليلوّن كل ما كان يمتد أمامها .

كان العشب في المروج ينشر بذوره ، وكانت أوراقه الحريرية تلتمع بلون أحمر داكن في النور الأحمر القادم من السماء . أما الشعير فكان في سنابله ، وقد عكس الوهج من لحاه الحريرية الشابة . كانت أسقف دور الضيعة المصنوعة من الخث مغطاة بطبقة سميكة من نبات الحماض والحوذان ، ونور الشمس يغطيها كلها بأشعة واسعة . أما ألواح سقف الكنيسة السوداء فكانت تتوهج بلون داكن ، كما طليت حجارة الجدران الفاتحة بلون ذهبي رقيق .

خرجت الشمس من تحت الغيمة ، وارتاحت فوق قمة الجبل وأرسلت نورها عبر مدى وراء مدى من الجبال الحرجية . كان المساء شديد الصفاء... وقد كشف النور أمام الأبصار أماكن صغيرة مقصوصة الأشجار بين حواف الجبال المغطاة بأشجار الصنوبر . استطاعت أن ترى سايترات ومزارع صغيرة بين الغابات التي لم تكن تعرف من قبل أنه من الممكن مشاهدتها من هوسابي . كتل هائلة من الجبال ، لونها بنفسجي داكن ، وورديّ في الجنوب ، نحو "دوفر" ، حيث كان الغيم أو السديم يتواجد هناك .

بدأ أصغر أجراس المعبد في الأسفل بالرنين ، ثم بدأ جرس الكنيسة في فينيار يردّ عليه . جلست كريستين وقد انحنت فوق يديها المطويتين حتى توقفت ضربات الكنيسة الثلاثية في الهواء .

كانت الشمس الآن تحت قمة الجبل ، والشعاع الذهبي راح يشحب ويتحول اللون الأحمر إلى لون زهري رقيق . وبعد أن صمتت الأجراس ، بدأ تنهّد الغابات يرتفع مجدداً وينتشر إلى الخارج . بدا هدير النهر الصغير الذي

يجري عبر غابات الأوراق هناك في الوادي أعلى على الأذن . ومن البقعة المسيجة إلى الجوار وصل الرنين المألوف من أجراس قطعان المنزل . راحت خنفساء محوّمة تهمهم من حولها ثم ابتعدت .

أطلقت تنهيدة أخيرة بعد صلواتها... صلاة لأجل الغفران لأن أفكارها كانت في مكان آخر وهي تصلّي .

كانت الضيعة الكبيرة الجميلة تقع تحتها على جانب التلة ، مثل جوهرة على صدر التلة العريض . نظرت عبر كل الأراضي التي كانت تمتلكها مع زوجها . كان التفكير في هذه الضيعة والاهتمام بها قد ملأا ذهنها حتى الحافة . كانت قد عملت وناضلت... ولم تعرف حتى هذه الليلة كيف كافحت لتجعل هذه الضيعة تقف على قدميها ولتبقيها آمنة... لقد وجدت القوّة لفعل ذلك ولكم نجحت .

كانت قد فهمت الأمر على أنه قدرها الذي يجب أن تتحمله بصبر ودون إحجام ، وأن هذا كله كان يقع على عاتقها . وحتى لو ناضلت لتكون صبورة ولترفع رأسها عالياً تحت العبء الذي فرضته عليها حياتها ، في كل مرة كانت تعرف أنها كانت حاملاً من جديد بطفل تحت قلبها... مرة إثر أخرى . ومع كل ابن يضاف إلى القطيع ، كانت تحس على نحو أقوى بواجب حماية مصلحة وسلامة المنزل... ولقد لاحظت الليلة أيضاً أن قدرتها على مراقبة كل شيء ويقظتها قد ازدادتا مع كل طفل جديد يكون عليها مراقبته والكفاح من أجله . لم يسبق لها أن رأت بكل هذا الوضوح مثلما ترى هذا المساء ما الذي كتبه لها القدر وما الذي منحها إياه ، وذلك حين وهبها هؤلاء الأبناء السبعة . ومجدداً ثم مجدداً فإن المتعة المستمدة منهم كانت تسرّع دقات قلبها ، والخوف عليهم كان يخترق قلبها... كانوا أولادها ، هؤلاء

الصبيان الكبار بأجسادهم النحيلة الصبيانية البارزة العظام ، كما كانوا أولادها أيضاً حين كانوا صغاراً جداً وممتلئي الأبدان إلى حد ما كانوا قادرين معه على إيذاء أنفسهم حين يتعثرون في رحلاتهم بين المقعد وركبتها . كانوا أولادها ؛ وقد كانوا كذلك حين كانت تضطر إلى رفع رأسها حين ترفع أحدهم من المهد إلى صدرها لترضعه ، لأن رأسه كان يضرب على عنقها الرقيق كما تطرق زهور الجريس رؤوسها على سيقانها . أنى تجولوا في هذا العالم أو أنى ذهبوا ، وقد نسوا أمهم ، فقد كانت تشعر أن حياتهم كانت لا تزال فعلاً من أفعال حياتها ، وأنهم يجب أن يبقوا متحدين معها كما كانوا حين كانت الوحيدة في هذا العالم التي تعرف عن الحياة الجديدة التي كانت مختبئة في داخلها تشرب من دمها وتشحب خديها . لقد عرفت مرة أخرى ومجدداً الرعب الممرض المعرق : والآن فإنه حان أوانها مرة أخرى ، والآن مجدداً كانت ستمرّ بتجربة المخاض... حتى تحمل طفلاً جديداً بين ذراعيها . كم كانت تصبح أغنى وأقوى وأشجع مع كل طفل ، وهي لم تفهم ذلك قط حتى هذه الليلة .

و مع ذلك فقد لاحظت الليلة أنها ما زالت كريستين من يورونندغارد التي لم تتعلم قط تحمّل كلمة غير لطيفة ، لأنها كانت محمية طوال حياتها بحبّ قوي وحنون جداً . بين يدي إرلند كانت لا تزال كما هي...

أجل ، أجل ، أجل . كان صحيحاً أنها قد تابعت تكديس ذكرى كل جرح أصابها في كل سنة من سنوات عمرها... رغم أنها عرفت دائماً أنه كان يجرحها ليس بنيّة سيئة كما يجرح الرجل الراشد رجلاً آخر ، بل كما يضرب طفل رفيقه في اللعب خلال اللعب . لقد كانت ذكرى كل مرة ضربها بها كذكرى ضربة سوط على اللحم إذ كانت تترك أثراً يفرز قيحاً . لم تكن

تخزّن أحقادها ضد زوجها عن رغبة وتعمّد . كانت تعرف أنها لم تكن ضيقة الأفق تجاه الآخرين ، ولكن حيث يتعلق الأمر به هو فقد كانت شديدة المباشرة . حين يكون إرلند على صلة بالموضوع ، فهي لا تستطيع أن تنسى شيئاً ، وكل خدش صغير في روحها كان يؤلم وينزف ويتورم ويخفق ، وذلك حين يكون هو من سبّبه .

لم تكن تزداد حكمة تجاهه ، ولا قوة . قد تناضل لتبدو ، في حياتها معه أيضاً ، قادرة وشجاعة وقوية وورعة ، ولكن لم يكن صحيحاً أنها كانت كذلك . لطالما كان التوق ينهشها من الداخل... التوق إلى أن تكون بالنسبة إليه مجدداً كريستين غابة غيردارود .

في تلك الأيام كانت راغبة في فعل كل ما تعرف أنه شرير وخاطئ مقابل ألاّ تخسره . وحتى تربط إرلند بها ، فقد منحته كل ما تملكه : حبها وجسدها وشرفها ودورها في خلاص ربها . كما منحته ما استطاعت أن تجده لتمنحه إياه رغم أنه لم يكن ملكاً لها : شرف أبيها وثقته في ابنته . لقد قلبت رأساً على عقب كل ما أسسه الرجال الراشدون الحكماء العقلاء لضمان سلامة عذراء شابة في سني قصورها . لقد تحدّت خططهم الرامية إلى رفاه وتقدم سلالتهم وآمالهم بأن عملهم سيثمر حين يكونون قد أضحوا تحت التراب ، تحدت كل ذلك بحبّها . لقد غامرت بأكثر من حياتها في هذه اللعبة ، حيث كانت المكافأة الوحيدة هي حب إرلند نيكولاوسون .

و لقد ربحت . لقد عرفت ، من ذلك الحين الذي قبّلها فيه أول مرة في الحديقة في هوففين ، وحتى اليوم حين قبّلها في القاعة الصغيرة قبل أن يقاد سجيناً من بيته... أن إرلند يحبها كما يحب حياته . وإن لم يكن قد عرف كيف يقود حياته جيداً ، ومع ذلك فقد كانت تعرف تقريباً منذ الساعة الأولى .

التي قابلته فيها كيف كان يقود حياته . وإن لم يكن قد عاملها جيداً إلا أنه كان يعاملها أفضل ممّا كان يعامل نفسه .

يا للمسيح ، كيف كسبته! لقد اعترفت لنفسها هذا المساء... كانت هي نفسها قد دفعته إلى أن ينتهك قدسية الزواج بسبب برودها وكلماتها السامة . لقد اعترفت لنفسها الآن...حتى في هذه السنوات حين كانت تنظر إلى مداعباته غير اللائقة مع هذه المرأة سونيفا ، وقد غضبت بسبب ذلك ، وأحست في وسط غضبها بمتعة متعالية ومتحدية... لم يكن هناك من يعرف بهذه اللطخة المكشوفة في شرف سونيفا أولافسداتر ، ومع ذلك كان إرلند يحادثها ويمازحها كما يفعل خادم مع امرأة الحانات . وقد عرف هو منها أنها تستطيع أن تكذب وتخون الذين يثقون بها أشد الثقة ، وأنها كانت تترك نفسها تُغوى في أكثر الأماكن إثارة للخجل... ومع ذلك فقد وثق بها ، ولم يخنها . وبما أنه من السهل عليه أن ينسى كل الخوف من الخطيئة ، ورغم أنه كان سهلاً عليه أن يحنث بوعد قام به أمام الله عند المذبح ، ومع ذلك فقد أسف على خطاياه ضدها ، وناضل طوال سنوات حتى يستطيع أن يحافظ على وعوده لها .

لقد اختارته بنفسها . لقد اختارته في جنون الحب ، كما اختارته مجدداً في كل يوم من أيام تلك السنوات القاسية في بيت أهلها في يورروندغارد... اختارت انفعاله المتهور الثائر أمام حب أبيها لها وهو الذي لم يكن يتحمل أن تهب عليها الريح بقوة . لقد رمت بعيداً بالمصير الذي اختاره لها أبوها حين كان سيعطيها إلى رجل كان من شأنه أن يقودها ضمن أسلم الطرق ، وكان سينحني علاوة على ذلك ليبعد كل حجرة صغيرة قد تدوسها قدمها . لقد اختارت أن تلحق بالآخر ، الذي كانت تعرف أنه تائه

في ممرات خطرة . لقد أشار الرهبان والكهنة إلى طريق التوبة والكفارة حتى تصل إلى السلام... وقد اختارت الشقاء على أن تتخلى عن خطيئتها وحبها .

لذلك كان أمامها طريق واحد : ألاّ تتذمّر أو تبكي ، مهما أصابها من جانب ذلك الرجل . وقد تراءى لها الآن ، دون وضوح ، ذلك الزمان حين غادرت أباها . ولكنها شاهدت وجهه الحبيب وتذكرت كلماته ذلك اليوم في ورشة الحدادة حين طعنت قلبه تلك الطعنة الأخيرة ، وتذكرت حديثهما عالياً في الجبال في الساعة التي رأت فيها باب الموت وقد انفتح بانتظاره . إنه لأمر غير لائق أن تتذمر من المصير الذي اختاره المرء لنفسه... يا أولاف المقدس ، ساعدني على أن أبدو جديرة بحب أبي!

إرلند ، إرلند... حين قابلته في شبابها ، كانت الحياة قد أضحت بالنسبة إليها نهراً سريعاً يندفع فوق الصخور والشلالات . في هذه السنوات في هوسابي ، انتشرت الحياة متسعة وهادئة كبحيرة ، عاكسة كل ما يحيط بها . تذكرت حين كانت في بيت أهلها وكان نهر "لاغن" يفيض في فصل الربيع ، ويبدو رمادياً وقوياً في قعر الوادي ، حاملاً على صدره ما جرفه التيار ، بينما كانت قمم الأشجار الورقية في طريقه تتمايل فوق المياه . في وسطه كانت تبدو دوامات صغيرة داكنة مهدّدة ، حيث يجري التيار مسرعاً ثائراً وخطراً تحت السطح اللامع . والآن عرفت أنه رغم كل ذلك كان حبها لإرلند يجري كتيار سريع وخطر تحت سطح حياتها عبر كل هذه السنوات . والآن كان يندفع إلى الأمام... ولكنها لا تعرف إلى أين .

إرلند ، أيها الحبيب...!

و من جديد تلت كريستين "سلام لك يا مريم" تحت توهج المساء . وسلام لك يا مريم ، يا ممتلئة بركة! أتجرأ على أن أتوسل إليك أن تمنحيني

هذه الرحمة الوحيدة التي أراها الآن : أنقذي إرلند ، أنقذي حياة زوجي...!

نظرت إلى هوسابي هناك في الأسفل وفكرت بأبنائها . والآن كانت الضيعة قابعة هناك في نور المساء كرؤيا حلم قد يذوب مبتعداً... الآن حين كان الخوف على المصير المبهم لأبنائها يهز قلبها... خطر لها خاطر : إنها لم تشكر الرب قط من كل قلبها على الثمار الرائعة التي نجمت عن تعبها طوال هذه السنوات . كما أنها لم تشكره قط كما يجب أنه منحها ابناً سبع مرات .

من خارج قبة سماء المساء ، من كل الريف القابع تحت عينيها ، وصلت العبارات المهمهمة للقداس الذي سمعته آلاف المرات ، بصوت أبيها الذي كان يقول لها الكلمات وهي بعد طفلة صغيرة على ركبته : هكذا يغني سيرا آيريك في "برافاتيو" حين يلتفت إلى المذبح ، وهكذا يقول باللغة النرويجية :

إنه لأمر لائق وعادل وحق ومتاح للخلاص علينا دائماً ، وفي كل الأماكن ، أن نشكر الرب ، أيها الرب المقدس ، أيها الأب كلي القدرة ، أيها الإله الخالد .

حين رفعت وجهها من بين يديها رأت غاوته صاعداً الجبل باتجاهها . جلست كريستين صامتة وانتظرت حتى وقف الصبي أمامها ، ثم مدت يدها وأخذت يده . كان هناك مرج مغطى بالأعشاب لمسافة طويلة من حول الصخرة التي كانت تجلس عليها ولا مكان يمكن لها أن تختبئ فيه .

سألت برقة : "كيف نفذت المهمة التي أوكلها أبوك إليك ؟"

"كما أمرني . وصلت إلى المزرعة بحيث لا يراني أحد . لم يكن أولف

في البيت ، لذلك أحرقت ما أعطانيه أبي في الموقد الذي في القاعة . أخرجته من القماشة ." تردد قليلاً . "أمي ، كان فيها تسعة أختام..."

"يا غاوته العزيز" . رفعت الأم يديها حتى ارتاحتا فوق كتفي الصبي ونظرت إلى وجهه . "لقد وضع أبوك مسائل كبرى بين يديك . إن كنت تظن أنك لا تستطيع سوى أن تحكي عنها لشخص ما ، إذن فاحك لأمك عمّا يثقل عليك . ولكن الأفضل في رأيي أن تبقى صامتاً تماماً يا بنيّ ."

الوجه ذو اللون الفاتح تحت الشعر ذي اللون التبْني ، والعينان الكبيرتان والفم الأحمر المكتنز... لكم يشبه أباه الآن! أومأ غاوته برأسه . ثم وضع ذراعاً من حول كتف أمه .

و قد خطر بعذوبة وحزن لكريستين الآن أنها تستطيع أن تضع رأسها على صدر الصبي النحيل الصغير . كان طويلاً الآن إلى حد أنه حين يقف وهي جالسة ، فإن رأسه كان يصل إلى ما فوق قلبها . ولأول مرة اتكأت على ابنها .

قال غاوته :

"كان إيزاك وحيداً في المنزل . لم أُرِه ما كنت أحمله بل قلت له فحسب إن عليّ أن أحرق شيئاً ما . لذلك أوقد ناراً كبيرة في المدفأة قبل أن يخرج ليسرج الحصان .

أومأت أمه برأسها . ثم تخلى عن عناقها والتفت نحوها وقال برعب واستغراب طفوليين في صوته :

"أمي ، أتعرفين ما يقولون ؟ يقولون إن أبي... كان سيصبح **ملكاً**..."

أجابت بابتسامة : "لا يبدو الأمر محتملاً جداً يا بنيّ..."

"و لكنه من عائلة ملكية يا أمي" ، قال الصبي بحماسة وفخر . "و أعتقد أن من شأن أبي أن يكون ملكاً أفضل من الرجال الآخرين ."

"اسكت" . أخذت يده مجدداً . "يا غاوته العزيز... عليك أن تفهم بعد أن أظهر أبوك ثقته بك إلى هذا الحد ، أن عليك وعلينا جميعاً ألا نفكر بشيء أو نقول أي شيء ، ولكن علينا أن نراقب ألسنتنا جيداً حتى نكون قد تعلمنا شيئاً ما ، حتى نستطيع أن نحكم على ما يكون علينا أن نقوله وكيف نقوله . سأذهب إلى نيداروس غداً ، وإذا ما استطعت مخاطبة أبيك وحدي في أي وقت من الأوقات ، فسوف أحكي له دون شك أنك نفذت المهمة التي أوكلها إليك جيداً...

"خذيني معك يا أمي!" توسل الصبي بقوة .

"علينا ألاّ ندع أحداً يفكر يا غاوته أنك أكثر من مجرد طفل خالي البال . عليك أن تحاول يا بنيّ الصغير أن تلعب هنا في البيت وتكون مرحاً بقدر ما تستطيع... حتى تخدم أباك على أفضل نحو ."

•

صعد ناكفه وبيورغولف التلة ببطء . وصلا إلى أمهما ووقفا هناك ، ووجهاهما الشابان متوتران من المشاعر . لاحظت كريستين أنهما مازالا طفلين يلجأان إلى أمهما حين يواجهان المتاعب... ومع ذلك فقد اقتربا من سن الرجولة حتى أنهما كانا راغبين في منحها السلوان والتشجيع ، لو استطاعا أن يجدا السبيل إلى ذلك . ولكن لم يقل أي منهما أي شيء .

و سرعان ما هبطوا جميعاً ، وقد وضعت كريستين يديها على كتف كل واحد من ولديها الأكبر .

"لم تنظر إليّ يا ناكفه ؟" ولكن الصبي تضرج وجهه ، والتفت برأسه بعيداً ، ولم يجب .

لم يكن قد فكر سابقاً بمنظر أمه . كان قد مر زمن طويل منذ أن بدأ يقارن أباه مع الرجال الآخرين... كان أبوه أوسمهم ويبدو كزعيم أكثر منهم جميعاً . كانت أمه هي الأم التي ترزق بأولاد جدد كانوا ينضمون ، وهم يكبرون خارج أيدي النساء ، إلى تلك المجموعة الصغيرة من الأخوة ، وذلك ليشاركوا في حياة المجموعة في رفاقية وصداقة وكفاح . كان للأم يدان مفتوحتان يتدفق منهما كل ما هم في حاجة إليه . كانت الأم تعرف ما تفعله فيما يتعلق بكل الأمراض تقريباً . كانت أمهم أشبه بالنار في الموقد ، كانت تحمل حياة البيت كما تحمل الأراضي المحيطة بهوسابي المحاصيل كل سنة . كانت الحياة والدفء ينبعان منها كما من البقر في الزريبة أو الجياد في الإسطبلات . لم يفكر الصبي أبداً في تشبيه أمه بالنساء الأخريات...

في هذا المساء شاهد كل شيء على الفور : كانت سيدة أبيّة وجميلة . ومع الجبين الواسع الأبيض تحت غطاء الرأس الكتاني ، والتحديقة المباشرة للعينين الرماديتين الفولاذيتين تحت الحاجبين الجميلين المقوسين ، والصدر الممتلئ والأطراف الطويلة حسنة الشكل . كانت تحرك جسدها كله باستقامة كرمح . ولكنه لم يقدر أن يتحدث عن هذا . كان يتابع السير متضرج الوجه وصامتاً ويدها فوق عنقه .

سار غاوته خلف بيورغولف وهو يتمسك بحزام أمه . بدا الأخ الأكبر يتذمر لأن غاوته كان يدوس على كعبيه... وراح الاثنان يتدافعان ويتشاجران قليلاً . أوقفت الأم الشجار وأمرتهما بالهدوء ، وقد لان وجهها الجدي وابتسمت . على أي حال كان أولادها جميعاً مجرد أطفال .

●

استلقت كريستين مستيقظة في الليل... كان مونان نائماً على صدرها ولافرانس بينها وبين الجدار .

حاولت أن تتوصل إلى حكم في قضية زوجها . لم تستطع أن تصدّق أن الحظ يمكن يكون عظيماً إلى هذا الحد . لقد اتهم إرلينغ فيدكونسون وأولاد عم الملك في سودرهايم بعدم الولاء والخيانة . ولكنهم عادوا الآن إلى بيوتهم سالمين غانمين كما كانوا دائماً ، رغم أنهم لم يكونوا قد نالوا رضا الملك إلى ذلك الحد من قبل .

يبدو أن إرلند قد تورط في أعمال غير شرعية في خدمته لليدي إنجبيورغ . وفي كل هذه السنوات كان يحافظ على الصداقة مع قريبته النبيلة تلك . كانت تعرف أنه منحها نوعاً من المساعدة اللاقانونية التي كان يجب أن تبقى سراً وذلك قبل خمسة شتاءات حين حلّ ضيفاً عليها في الدانمارك . وبما أن إرلينغ فيدكونسون قد تبنّى قضية الليدي ، وكان سيجعلها تحوز على أملاك لها في النرويج ، فقد يكون إرلينغ قد نصحها باللجوء إلى إرلند ، أو أنها لجأت إلى قريب أبيها من تلقاء نفسها ، بعد أن قام إرلينغ بالتصالح مع الملك . ويبدو أن إرلند قد تصرف بحماقة في هذه القضية...

و لكنها لم تستطع أن تفهم جيداً كيف أن أقرباءها في سوندبو قد تورطوا في هذا أيضاً .

و لكن كان من المستحيل أن تكون نهاية المسألة لا شيء سوى أن إرلند سيتوصل إلى أن يدفع كفارة إلى الملك ، إن كانت كل جريمته هي أنه كان شديد الحماسة في خدمة أم الملك .

خيانته . لقد سمعت عن سقوط أودون هستاكورن... وموته على

المشنقة في نوردنس... وقد جرى ذلك خلال فترة شباب أبيها . ولكن تهماً مخيفة أحيلت على سير أودون . كلا... ما كان عليها أن تفكر في مثل هذه الأمور . كان أمراً قليل الاحتمال أن تكون لقضية إرلند نهاية أسوأ من... من نهاية إرلينغ فيدكونسون وأولاد هافتور ، مثلاً...

نيكولاس إرلندسون أوف هوسابي . آه ، لقد بدا لها الأمر الآن كذلك... كانت هوسابي أجمل ضيعة في أراضي النرويج . ستذهب إلى السير بارد وتعرف منه كل ما يمكن أن يُعرف . إن أمين الخرينة كان صديقها على الدوام . وكذلك أولاف لاغماند... في الأيام السالفة . ولكن إرلند فهم الموضوع من جانبه السيئ حين صدر مرسوم لاغماند ضده في تلك الدعوى المتعلقة بالمنزل الذي في المدينة . وقد تأثر أولاف كثيراً بالمصيبة التي حلّت بزوج ابنته بالمعمودية .

لم يكن لهما أقرباء مقربون ، لا إرلند ولا هي... رغم أن أقرباءهما كانوا كثراً . ما كان مونان باردسون معدوداً من بينهم . لقد أدين لقيامه بصفقات غير قانونية وهو يتولى منصب حاكم رنجريك . كان يتوق جداً إلى أن ينجح أولاده الكثر في هذه الدنيا... كان قد رزق بأربعة زواجاً وخمسة من خارج الزواج . ويقال إن حاله تدهورت منذ وفاة الليدي كاترين . لم تكن إنجه من ريفيكله ولا جوليتا وزوجها ولا راغنفريد المتزوجة في السويد يعرفون إرلند إلاّ قليلاً . هؤلاء كن بنات الليدي آشيلد . بين آل هاستنس وإرلند لم تكن هناك مودة إطلاقاً منذ وفاة السير بارد بيترسون . أما تورمود أوف راسفولد فكان يعيش طفولته الثانية ، فأولاده من الليدي غونا قد توفوا ، بينما أحفادهما لا يزالون دون سن الرشد .

لم يكن لديها أقرباء آخرون هي نفسها من ناحية أبيها في النرويج عدا

كتيل آسموندسون من سكوغ ، وسيغورد كيرنينغ ، الذي كان متزوجاً من ابنة آسموند الكبرى . أما الابنة الثانية فكانت أرملة ، والثالثة راهبة . أما رجال سوندبو فكانوا أربعتهم منخرطين في القضية .

كان الراهب المريض في "دير الواعظين" هو القريب اللحّ الوحيد لإرلند . وكان الرجل الأقرب إليها في هذا العالم هو سايمون دار المتزوج من أختها الوحيدة .

استيقظ مونان وهو ينشج ، والتفتت كريستين إليه ووضعته على ثديها من الجهة الأخرى . لم تكن تستطيع اصطحابه معها إلى نيداروس ، إذ لم تكن واثقة من سير الأمور هناك . ربما ستكون هذه هي المرة الأخيرة التي سيرضع فيها هذا الصغير من ثدي أمه . وربما ستكون هذه هي المرة الأخيرة في هذه الدنيا تستلقي فيها هي على هذا النحو ، وهي تضم طفلها ، على هذا النحو المبارك الميمون . لو كانت حياة إرلند في خطر...! يا مريم المباركة ، يا أم الرب ، هل سبق لها وتذمرت مرة واحدة في أي وقت من الأوقات بسبب الأولاد الكثيرين الذين منحهم إياها الرب... ؟ هل ستكون هذه هي القبلة الأخيرة التي ستنالها من هذا الفم الصغير اللبني... ؟

٥

ذهبت كريستين إلى القصر في صباح اليوم التالي بعد أن وصلت إلى المدينة . أين وضعوا إرلند يا ترى ضمن هذا المبنى الكبير ؟ هكذا فكرت وهي تنظر إلى الأبنية الحجرية الكثيرة . بدا لها أنها تفكر في حال إرلند أكثر ممّا تفكر فيما ستعلمه عنه . ولكن قيل لها لدى السؤال إن أمين الخزينة قد غادر البلدة .

آلمتها عيناها بعد الرحلة الطويلة بالزورق في نور الشمس اللامع ، وكان ثدياها المترعان بالحليب يزعجانها . وحين نام الخدم في الغرفة ، نهضت وذرعت أرض الغرفة جيئة وذهاباً طوال الليل .

في اليوم التالي أرسلت هالدور ، خادمها ، إلى القصر... عاد إلى البيت ، مذعوراً وتعيساً : لقد أخذ عمه أولف هالدورسون ، سجيناً في الزقاق البحري ، وهو يحاول العبور نحو الدير في هولم . لم يكن أمين الخزينة قد عاد بعد .

و هذا النبأ وضع كريستين أيضاً في حالة من الخوف . حاولت كريستين إرسال رسالة إلى زوجها ولم تصله . فكرت في مشاهدة غونولف في الدير ،

ولكنها أحست أنها لا تستطيع ذلك . ذرعت أرض القاعة جيئة وذهاباً في البيت ، بعينين نصف مغمضتين تحرقانها باستمرار . كانت تضطجع أحياناً ، ولكن يطغى الخوف والآلام عليها مجدداً فتستيقظ وتمشي لتحتملها .

بعد العصر بقليل وصل غونولف نيكولاوسون . هرعت كريستين لتستقبل الراهب .

"هل شاهدت إرلند يا غونولف ، ما هي التهمة ضده... ؟"

"هناك أنباء حزينة يا كريستين . لا ، إنهم لا يسمحون لأحد بمشاهدة إرلند... وخاصة جماعة الدير . وهم يعتقدون أن رئيس الدير أولاف كان على اطلاع على مخططاته . صحيح أنه اقترض أموالاً من هناك ، ولكن "الأخوة" جميعاً يقسمون بأنهم ما كانوا يعرفون شيئاً عما كان ينوي إرلند فعله حين وضعوا خاتم الدير مع الصك . كما أن رئيس الدير لا يذكر شيئاً عن أفعاله...

"أجل . ولكن ما هو هذا الأمر ؟... هل أن الدوقة قد أغرت إرلند ليسير في هذا الطريق... ؟"

و أجاب غونولف :

"يبدو وكأنهم اضطروا إلى الضغط عليها بشدة قبل أن تنضم إلى مخططاتهم . والرسالة التي رأى شخص ما مسودتها ، والتي أرسلها إرلند وأصدقاؤه إليها في الربيع الماضي ، فهم لا يستطيعون وضع اليد عليها ، على ما أعتقد ، إلا إذا أجبروا الليدي على أن تسلمهم إياها . ولم يجدوا المسودة . ولكن في الرسالة الجوابية وفي رسالة السير آغه لاوريسن ، التي أخذوها من بورغار توروندسون في فيوي ، يبدو مؤكداً أنها تلقت رسالة من هذا النوع من إرلند والرجال الذين تعهدوا بالوقوف معه في خطته .

ويبدو واضحاً أنها كانت تخشى منذ زمن طويل إرسال الأمير هاكون إلى النرويج... ولكنهم حثّوها على ذلك ، فمهما تكن نتيجة الأمر كله ، إلا أن الملك ماغنوس ما كان سيقدم على إيذاء الطفل الذي هو أخوه . وإن لم ينجح هاكون كنوتسون في كسب تاج النرويج ، فلن يكون الأمر أسوأ ممّا كان قبلاً... ولكن هؤلاء الرجال كانوا راغبين في المغامرة بحياتهم وأموالهم ليضعوه على العرش ."

بقيت كريستين صامتة فترة طويلة .

"أفهم ذلك . أليست هذه مسائل أخطر ممّا كان بين السير إرلينغ أو أولاد هافتور والملك ؟"

"أجل" ، قال غونولف بصوت خفيض . "كان من المقرر أن هافتور غراوت وإرلند سيبحران إلى بيورغفين . إلا أنهما كانا ينويان الذهاب إلى كالدونبورغ ، وكانا سيجلبان الأمير هاكون معهما إلى النرويج بينما كان الملك ماغنوس خارج النرويج لا يزال مشغولاً بمغازلاته..."

بعد فترة قصيرة قال الراهب بصوت لا يزال خفيضاً :

"لقد مرّ أكثر من... لقد مرّ مئتا عام تقريباً منذ أن تجرأ أي نبيل نرويجي على فعل مثل هذا الأمر ، أن يحاول خلع ملك ورث العرش وتنصيب ملك منافس في مكانه..."

جلست كريستين تحدق أمامها . لم يستطع غونولف مشاهدة وجهها .

"أجل" ، قالت بعد وهلة مفكرة . "آخر الرجال الذين تجرؤوا على ممارسة هذه اللعبة كان أسلافك وأسلاف إرلند... وفي تلك المرة أيضاً فإن أقربائي المتوفين الراحلين من غييسلنغ وقفوا إلى جانب الملك سكوله ."

قابلت نظرة غونولف المتسائلة ، ثم انفجرت بحرارة وقوة :

"أنا مجرد امرأة بسيطة يا غونولف... ولم أكن أهتم كثيراً حين كان زوجي يتحدث مع رجال آخرين حول مثل هذه الأمور... كما لم أكن راغبة في الإصغاء حين كان يحدثني عنهم... فليكن الرب في عوني ، كانت هذه الأمور الهامة تتجاوز مستوى فهمي . ولكن رغم أني امرأة بسيطة لا أتقن سوى أعمالي المنزلية وتربية أطفالي... ورغم أني أعرف أن الحق والعدل سيكون عليهما أن يقطعا مسافة طويلة قبل أن تستطيع قضية زوجي أن تصل إلى الملك ويعودا مجدداً من حيث انطلقا ؛ إلاّ أني فهمت أيضاً أن العامة في هذه البلاد يعانون الآن من ازدهار أقل ويعيشون أوقاتاً أصعب ممّا كان عليه الحال وأنا طفلة وكان الملك هاكون طيب الذكر هو ملكنا . زوجي..." تنفست بسرعة وارتجفت مرة أو اثنتين... "زوجي... أرى الآن أنه قد اتخذ على عاتقه قضية كبيرة إلى حد أن أياً من الزعماء الآخرين في البلاد لم يجرؤوا على المشاركة فيها..."

"و لكنه تجرأ على ذلك ." كور الراهب قبضتيه بشدة وانخفض صوته إلى مجرد همسة . "قضية كبيرة جداً إلى حد أن الكثيرين سيعتبرون الأمر على أنه نحس لأنه كان السبب في سقوطه... وعلى هذا النحو..."

صرخت كريستين وأجفلت . جعلت هذه الحركة العنيفة المفاجئة الألم في صدرها وذراعيها حاداً إلى درجة أن جسدها كله استحم بالعرق . التفتت إلى الراهب على نحو عنيف ومحموم وصرخت بصوت مرتفع :

"لم يكن إرلند من فعل ذلك –لقد كان محكوماً على الأمر بالإخفاق– كان ذلك حظه السيئ..."

رمت كريستين بنفسها على ركبتيها ، ويداها مضغوطتان على المقعد ورفعت وجهها المحمر اليائس نحو الراهب :

"ليس علينا أنت وأنا يا غونولف -أنت أخاه وأنا زوجته منذ ثلاث عشرة سنة- أن نلقي باللوم على إرلند ، لأنه أضحى الآن سجيناً مسكيناً ، وربما تكون حياته مهددة..."

ارتجف وجه غونولف . نظر إلى المرأة الجاثية .

"فليكافئك الرب يا كريستين لأنك تستطيعين أن تستوعبي الأمر على هذا النحو ." ومن جديد عصر يديه معاً . "فليمنح الرب الحياة لإرلند ، والقدرة على تعويضك عن إخلاصك . أرجو من الله أن يبعد عنك هذا الشر وعن أطفالك يا كريستين..."

"لا تنطق بمثل هذا الكلام!" جلست باستقامة على ركبتيها ورفعت عينيها إلى وجه الرجل . "لم ينته الأمر نهاية جيدة يا غونولف حين تدخلت في شؤون إرلند وشؤوني . لم يحكم عليه أحد بالقسوة التي حكمت أنت بها عليه... أنت أخاه وخادم الرب!"

"لم تكن إرادتي قط أن أحكم على إرلند على نحو أقسى من... ممّا يجب ." كان وجهه الأبيض قد ازداد بياضاً . "ليس هناك شخص على الأرض أحبه كما أحب أخي . لذلك فإنه لأمر يعتصر روحي كأنما كانت الخطيئة خطيئتي أنا وعليّ أنا أن أكفّر عنها ، وذلك حين أساء إرلند إليك . ثم كانت هناك هوسابي... كان على إرلند وحده أن يتابع مسيرة سلالته التي هي سلالتي أيضاً . منحته الجزء الأكبر من إرثي . أبناؤك هم أقرب الأقرباء إليّ..."

"لم يسئ إرلند إليّ! لم أكن أفضل منه! لمَ تحدثني على هذا النحو يا غونولف ؟... لم تكن أبداً كاهني في الاعتراف . لم يلم سيرا آيريك زوجي بسببي... لقد قوّمني بسبب أخطائي حين كشفت له عن مشاكلي . كان كاهناً

أفضل منك... وهو الذي عيّنه الرب وصياً علي ، وأن عليّ أن أصغي إليه... ولم يقل أبداً إني تعرضت إلى الإساءة . سأصغي إليه!"

كان غونولف قد نهض حين وقفت هي . همهم ووجهه شاحب وقلق :

"أنت تقولين الحقيقة . عليك الإصغاء إلى سيرا آيريك فحسب..."

التفت ليرحل ، ولكنها أمسكت بيده متضرعة :

"كلا ، لا تتركني هكذا! أتذكر يا غونولف... أتذكر حين كنت ضيفتك هنا في هذا المنزل... كان منزلك في ذلك الحين ، وكنت طيباً معي . أتذكر المرة الأولى التي قابلتك فيها... كنت خائفة ومتألمة... أتذكر أنك تحدثت إليّ معتذراً عن إرلند -لم تستطع أن تعرف- لقد صليت وصليت لأجل حياتي وحياة ابني . أعرف أنك كنت تتمنى لنا الخير وأنك تحب إرلند...

"أوه ، لا تتكلم عن إرلند بقسوة يا غونولف... من منا طاهر أمام الرب ؟ لقد أحبه أبي في النهاية . وأولادنا يحبون أباهم . تذكر أنه وجدني ضعيفة وسهلة على الإغواء ، ولكنه حفظ لي شرفي . أجل ، إن الجو جميل في هوسابي... في المساء الأخير قبل أن أغادر البيت كان الجو جميلاً جداً ، وكان الغروب رائعاً في ذلك المساء . لقد عشنا أياماً طيبة كثيرة معاً هناك ، إرلند وأنا . وكيفما سينتهي بنا الأمر ، كيفما سينتهي بنا الأمر ، سيبقى هو زوجي ، زوجي الذي أحب..."

"كريستين ، لا تثقي الآن بوهج الغروب وبالحبيب الذي تتذكرين الآن أنك تخشين على حياته .

"...أتذكر أمراً من أيام شبابي حين كنت مساعد قندلفت فحسب . كانت غودبيورغ التي تزوجت لاحقاً من ألف أوف أوفاسون ، خادمة في

سيهايم في ذلك الحين ؛ وقد اتهمت بسرقة خاتم ذهبي . وقد تبين لاحقاً أنها كانت بريئة . ولكن العار والخوف هزّا روحها إلى حد أن العدو سيطر عليها . ذهبت إلى البحيرة وكانت تريد أن تغرق نفسها فيها . وقد شهدت لنا غالباً فيما بعد أنها وهي تدخل البحيرة بدا لها العالم بلون أحمر وذهبي وجميل ، والتمع الماء وأحست به دافئاً ومريحاً ، ولكنها حين وقفت فيه حتى وسطها ذكرت اسم يسوع ورسمت إشارة الصليب على نفسها ، ثم بدا العالم كله رمادياً ، والمياه باردة ، وعرفت إلى أي مصير كانت تتجه..."

تكلمت كريستين برقة : "إذن لن أسميها" . نهضت ووقفت باستقامة وتصلّب... "إذا استطعت أن أصدق ذلك عندها سأشعر بإغراء يجذبني إلى التخلي عن سيدي وهو في الشدة . ولكني أعتقد أنه لن يكون اسم المسيح بل اسم عدوه بالأحرى هو القادر أن يفعل أمراً مشابهاً..."

"لم أكن أعني ذلك ، بل عنيت -و لتكوني قوية يا كريستين بعون الرب- تحمل أخطاء زوجك بروح محبّة..."

"أنت ترى أني أفعل ذلك" ، قالت الزوجة باللهجة نفسها..."

التفت غونولف بعيداً عنها ، وقد شحب وراح يرتجف . مرّر يده فوق وجهه :

"سأمضي إلى البيت . أستطيع بسهولة أكبر... في البيت أستطيع بسهولة أكبر أن أجمّع أفكاري... إني سأبذل كل ما لدي من مقدرة لأجل إرلند ولأجلك . فليحفظ الرب... الرب وكل القديسين حياة أخي وحريته . أوه يا كريستين إياك أن تصدقي أن أخي ليس عزيزاً عليّ..."

بعد أن غادر المكان ، اعتبرت كريستين أن كل الأمور كانت تجري

نحوالأسوأ . رفضت أن يدخل الخدم إليها ، وراحت تمشي وتمشي ، وهي تفرك يديها وتئنّ بصوت رقيق . كان المساء قد توغل حين سمعت ضجيج رجال على جياد في الباحة . بعد لحظة ، فتح الباب واقترب منها مسرعاً رجل طويل بدين في عباءة ركوب ، رأته أولاً دون وضوح في نور الغسق بمهمازين رنانين وسيف يتجرجر على الأرض . حين عرفت أنه سايمون أندرسون انفجرت في بكاء عال وركضت نحوه بذراعين مفتوحتين ، ولكنها صرخت متألمة حين شدّها إليه . حررها سايمون من قبضته . وقفت ويداها على كتفيه وجبينها على صدره ، تبكي بيأس . وضع ذراعاً من حولها برقة :

"باسم الرب يا كريستين!"... بدا وكأن هناك نغمة إنقاذ في لهجة صوته الجاف الدافئ ، وفي الرائحة الحية الرجولية الصادرة عنه... الممتزجة بالعرق وغبار الطرقات والجياد والملابس الجلدية . "باسم الرب... لا زال الوقت باكراً على فقدان الأمل والشجاعة... لابد من وجود حلّ ، كوني واثقة..."

خلال وقت قصير هدأت بما فيه الكفاية لترجوه العفو . كانت مريضة وبائسة جداً ، كما قالت ، فقد كان عليها أن تفطم ابنها الأصغر على نحو فجائي جداً .

عرف منها سايمون ما جرى لها خلال هذه الأيام والليالي الثلاث الأخيرة . نادى على خادمتها وسألها بغضب إن لم يكن هناك في المنزل امرأة واحدة لديها من الذكاء ما يكفي لتعرف ما الذي كان يمرض سيدتهن . ولكن كانت هذه خادمة شابة غرة وكان وكيل منزل إرلند في المدينة أرمل له ابنتان عازبتان . أرسل سايمون رجلاً إلى المدينة ليجلب الحكيمة وطلب من كريستين أن تذهب إلى سريرها . وحين ستصبح في حال أفضل سيذهب إليها ويكلمها .

وبينما راحا ينتظران الحكيمة ، قُدِّم له ولتابعه الطعام في القاعة . وخلال الطعام حادثها بينما كانت تخلع ملابسها ضمن حجرة النوم . أجل ، لقد ركب شمالاً ما أن سمع ما جرى في سوندبو... لقد وصل إلى هناك وذهبت رامبورغ إلى هناك لتكون مع زوجتي إيفار وبورغار . لقد اقتيد إيفار إلى "قلعة ميوس" ، ولكن هافارد ترك حراً طليقاً ، ولكن على أن يتعهد بعدم مغادرة الأبرشية . ويقال إن بورغار وغوتورم كانا محظوظين بما فيه الكفاية إذ هربا... أما يون من لاوغاربرو فقد أسرع على جواده إلى راومسدال ليعرف الأنباء ، وكان سيرسل رسالة إلى هنا . أما سايمون فقد كان في هوسابي في منتصف النهار ، ولكنه لم يتأخر طويلاً . الأولاد كلهم بخير ، إلا أن ناكفه وبيورغولف توسّلا وتوسلا إليه ليصطحبهما معه .

كانت كريستين قد استعادت رباطة جأشها وهدوءها حين جلس سايمون في وقت متأخر من المساء على حافة سريرها . كانت تستلقي وهي تشعر بتعب مترع بالامتنان بعد أن ولت أوجاعها التي لا تطاق ، ونظرت إلى وجه زوج أختها البدين الذي لوحته الشمس وعينيه الصغيرتين القويتين . لقد أراحها وهدأها أنه قد جاء . وقد بدا على سايمون الجدية حين سمع على نحو مفصل عن القضية ، ومع ذلك فقد تكلم على نحو متفائل .

بقيت كريستين تنظر إلى حزام جلد الأيائل من حول خصره السمين . كان الإبزيم الكبير المسطح من النحاس الملبس بالفضة ، دون أي زينة أخرى سوى حرفي " A" و" M" اللذين يرمزان إلى Ave Maria (السلام عليك يا مريم) . أما الخنجر الطويل فكان مطعماً بالفضة المذهبة والأحجار البلورية الكبيرة التي تزين القبض ؛ وإلى سكين الطاولة الصغيرة ذات

المقبض من القرن المتشقق والمربوطة بأسلاك نحاسية... كل هذا كانت تعرفه منذ كانت طفلة كجزء من عدة أبيها اليومية . تذكرت حين حصل سايمون على هذه الأشياء... قبل أن يموت أبوها مباشرة ، إذ كان ينوي إعطاء سايمون أفضل حزام مذهّب لديه وكذلك بعض الفضة لصنع صفائح تكفي لتطويله ليلائم خصر صهره . ولكن سايمون توسل أن يعطى هذا الحزام... وحين قال لافرانس إن سايمون يغش نفسه ، قال سايمون إن الخنجر على الأقل كان قطعة ثمينة . "أجل ، ثم السكين" ، قالت راغنفريد بابتسامة صغيرة ، ثم ضحك الرجلان وقالا : "أجل ، السكين ، طبعاً" . أما فيما يخص السكين فإن أباها وأمها قد تجادلا كثيراً حولها . كان أمراً مثيراً لغضب راغنفريد في كل يوم وكل ساعة أن ترى مثل هذا الشيء القبيح الرديء في حزام زوجها . ولكن لافرانس أقسم إنه لن يسمح لها بتحقيق مأربها فيفارق السكين . "لم يسبق لي قط أن سحبتها ضدك يا راغنفريد . وهي سكين جيدة كأي سكين أخرى في النرويج لقطع الزبدة... حين تكون ساخنة بما فيه الكفاية ."

رجت سايمون أن يدعها ترى السكين ، وبقيت بين يديها مدة من الزمن وهي تنظر إليها .

قالت برقة وتوسل : "كنت أتمنى لو امتلكت هذه السكين ."

"اجل -أستطيع أن أصدق ذلك- أنا سعيد بامتلاكي هذه السكين... وإني لن أبيعها حتى بعشرين من الماركات ." أمسك برسغيها ضاحكاً واستعاد منها السكين . كانت يدا سايمون الصغيرتان المكتنزتان مريحتين عند اللمس دائماً ، فهما دافئتان وجافتان .

بعد ذلك بقليل تمنى لها ليلة طيبة وأخذ الشمعة وخرج إلى القاعة .

سمعته يجثو أمام الصليب هناك ثم يقف مجدداً ويرمي بحذائه إلى الأرض ، ثم يرمي بنفسه بثقل بعد ذلك على السرير قرب الجدار الشمالي . ثم غرقت كريستين في نوم عذب عميق .

•

لم تستيقظ إلا وقد انقضى شطر كبير من اليوم التالي . كان سايمون أندرسون قد خرج منذ وقت طويل ، وكان خدم المنزل قد تلقوا الأوامر بأن يتوسلوا إليها باسمه أن تبقى هادئة في المنزل .

لم يعد إلا قبل صلاة العصر بقليل ، ولكنه قال على الفور :

"أحمل لك تحيات إرلند يا كريستين... لقد كلمته ."

لاحظ كم أصبح وجهها شاباً ورقيقاً وحنوناً على نحو قلق . لذلك أمسك يدها وهو يحكي لها القصة . لم يكونا قادرين على التكلم كثيراً هو وإرلند ، فالرجل الذي رافق سايمون إلى السجين مكث معهما طوال الوقت . حصل أولاف لاغماند على إذن لسايمون لأجل هذه الزيارة ، وذلك في سبيل القرابة التي كانت تجمعهما حين كانت هالفريد لا تزال على قيد الحياة... يرسل إرلند تحيات المحبة إليها وإلى الأطفال . لقد سأل عنهم جميعاً ، وخاصة غاوته . ويعتقد سايمون أنه في يوم ما قد تستطيع كريستين الحصول على الإذن لترى زوجها . بدا إرلند هادئاً وفي معنويات عالية .

"لو خرجت معك اليوم لشاهدته أنا أيضاً" ، قالت الزوجة برقة .

قال سايمون إن هذا ليس صحيحاً ، فقد استطاع الوصول إليه لأنه كان وحيداً . "على أي حال يا كريستين ، فقد يكون أسهل عليك أن تشقي طريقك حين يسبقك رجل ."

كان إرلند مسجوناً في غرفة في "البرج الشرقي" تطل على النهر... وهي غرفة من غرف السادة وإن تكن صغيرة . أما أولف فكان في الزنزانة كما يقال . أما هافتور فهو في زنزانة أخرى .

و بينما راح يتحسس طريقه بحذر ، ليتأكد من مدى قدرتها على التحمل ، حكى لها سايمون ما سمعه في البلدة . وحين لاحظ أنه سبق لها وتفهمت الوضع تماماً ، فإنه لم يخف عنها أنه يعتقد أيضاً أن القضية خطيرة . ولكن كل من تحدث إليهم قالوا إنه لم يكن أمراً ممكناً أن يكون إرلند قد تجرأ على التخطيط لمثل هذه المهمة ، وأن يستمر فيها كما فعل ، إلاّ إن كان واثقاً أن قسماً كبيراً من الفرسان والنبلاء يدعمونه . وبما أن الكبار المتذمرين عديدين ، فلن يكون محتملاً أن يتجرأ الملك على التعامل بقسوة شديدة مع قائدهم ؛ بل ربما سيفضل بالأحرى أن يتصالح إرلند معه على نحو ما .

سألت كريستين بصوت خفيض :

"و أين موقع إرلينغ فيدكونسون في هذه القضية ؟"

"هذا كما أرى أمر هناك كثير من الناس مستعدون لدفع ثمن ما لقاء معرفته" . قال سايمون .

و رغم أنه لم يقله لكريستين ولم يقله للرجال الذين تحدث إليهم عنه ، فقد بدا له أن الاحتمال كان ضعيفاً في أن تدعم إرلند أي مجموعة من الرجال الذين غامروا بحياتهم وأموالهم في هذه المسألة الخطيرة... وإن كان الأمر كذلك فإنهم ما كانوا سيختارونه زعيماً لهم ، فقد كان إرلند مندفعاً وغير مستقر وكل رفاقه لا بدّ يعرفون ذلك . كان صحيحاً أنه قريب الليدي انجبيورغ والطامع صغير السن في العرش ، لقد تمتع بالكثير من السلطة

والتقدير في هذه السنوات الأخيرة ، كما لم يكن مفتقراً إلى الخبرة في الحرب كما كان معظم الرجال الذين في سنه... وكان محبوباً ومطاعاً من رجاله... ورغم أنه كان يتصرف غالباً دون ذكاء ، ومع ذلك كان قادراً لو أراد أن يتحدث جيداً وبدقة . لذلك كان يعتقد إلى حد كبير أنه قد تعلم أخيراً الحكمة من أخطائه . وفكر سايمون في أنه من المحتمل أن هناك البعض ممّن عرف بخطة إرلند وقد شجعه على التقدم بها . ولكنه ما كان قادراً إلا بالكاد على أن يصدق بأنهم متماسكون بقوة إلى حد أنهم لا يستطيعون الانسحاب الآن وترك إرلند يتحمل اللوم لوحده .

لقد رأى سايمون أن إرلند نفسه ما كان يتطلع إلى أي شيء آخر ، وأنه كان مصمماً على أن يدفع ثمن مغامرته اليائسة باهظاً . حين يتلوث بالوحل ، يكون على المالكين أن يولوا الأدبار" ، قال ضاحكاً بعض الشيء . ولكن إرلند لم يكن قادراً دون شك على قول الكثير مع وجود رجل ثابت يصيخ السمع .

تعجب سايمون من أن هذا اللقاء مع عديله قد أثّر فيه إلى هذا الحد . ولكن الحجرة البرجية الصغيرة حيث رجاه إرلند أن يجلس على السرير... كان السرير يمتد من جدار إلى الآخر ويملأ نصف الغرفة... فإن شكل إرلند المستقيم الرشيق وهو واقف هناك قرب شق الجدار الصغير من حيث كان النور يصلهم... كان إرلند غير خائف ، صافي العينين ، هادئاً ، إما بسبب الخوف أو الأمل... كان شخصاً نضراً بارداً رجولياً ، بعد أن أزيلت عنه كل شباك العنكبوت المعوقة ، شباك العبث مع النساء والحماقة . صحيح أن ما أوصله إلى هنا كان النساء والحب غير الشرعي ، مع كل خططه الجريئة التي انتهت قبل أن تبصر النور . ولكن لم يبد أن إرلند كان يفكر في ذلك . لقد

وقف هناك كرجل تجرأ على رمية يائسة ، وخسرها ، وهو يعرف كيف يتحمل الهزيمة جيداً وبرجولة .

كما أن تأمّله المتسائل والمرح حين رأى عديله كان ملائماً له . قال سايمون حين رآه :

"أتتذكر يا قريبي تلك الليلة حين سهرنا معاً على حمينا المحتضر ؟ لقد تصافحنا ، ووضع لافرانس يده فوق يدينا... وقد وعدناه ووعد أحدنا الآخر أننا سنقف معاً مثل الأخوة طوال عمرنا ."

"أجل" ، وأضاءت ابتسامة وجه إرلند . "أجل ، وأعتقد أن لافرانس لم يكن يفكر قط في أنك ستحتاج يوماً إلى المساعدة مني ."

قال سايمون دون تأثر : "كلا ، ربما كان من الأرجح أنه اعتبرك ، في المنصب الذي تبوأته ، قادراً على تقديم العون إليّ وليس أنه من المحتمل أن تحتاج أنت إلى أن أقدم لك العون ."

ابتسم إرلند مجدداً .

"كان لافرانس رجلاً حكيماً يا سايمون . ورغم أن الأمر قد يبدو غريباً... إلا أني أعرف أنه أحبّني جيداً ."

فكر سايمون ، أجل ، كان أمراً غريباً ، والرب يعرف ذلك... ومع ذلك حتى هو نفسه -رغم كل ما كان يعرفه عن إرلند ، وكل ما فعله له- حتى هو لم يستطع مغالبة الشعور بحنان أخوي نوعاً ما تجاه زوج كريستين . ثم سأل إرلند عنها .

حكى له سايمون كيف وجدها مريضة ومترعة بالخوف على زوجها . لقد وعد أولاف هومانسون بأن يبذل قصارى جهده ليسمح لها برؤيته ما أن يعود السير بارد إلى الوطن .

"ليس قبل أن تعود إليها صحتها!" قال إرلند بسرعة . وتضرّج وجهه الأسمر غير الحليق ، كما يتضرج وجه فتاة صغيرة . "الشيء الوحيد الذي أخشاه يا سايمون... ألا تكون لديّ القدرة الآن على تحمل الأمر جيداً حين أراها ."

و لكنه قال بعد قليل بهدوئه السابق :

"أعرف أنك ستقف إلى جانبها بإخلاص ، لو ترمّلتْ هذا العام . لن يكونوا مفلسين ، هي والأطفال ، وهي التي ورثت كل ذلك الإرث من لافرانس . وأنت ستكون إلى جانبها إذا ما سكنت في يوروندغارد .

•

"في اليوم التالي على "مولد مريم" (٨ أيلول / سبتمبر) ، وصل الوصي السامي ، سير إيفار أوغمندسون إلى نيداروس . كان اثنا عشر من أتباع الملك المحلّفين من شمال دوفر قد عُينوا الآن كهيئة محكمة للنظر في قضية إرلند نيكولاوسون . وقد اختير السير فين أوغموندسون ، شقيق الوصي السامي ، ليتقدم بالاتهام ضده .

قبل هذا ببعض الوقت في الصيف ، كان هافتور أولافسون من غودوي قد انتحر بذبح نفسه بسكين صغيرة سمح لكل سجين بالاحتفاظ بها ليقطع بها طعامه . قال الناس إن السجن قد أثر على هافتور إلى حد أنه لم يكن في كامل قدراته العقلية . قال إرلند لسايمون حين سمع بذلك إنه لم يعد في خوف من لسان هافتور . ومع ذلك فقد تأثر كثيراً .

مع مرور الوقت ، كان يحدث أحياناً أن الحرس كانوا يذهبون في مهمة

خارجاً حين يكون سايمون أو كريستين مع إرلند . وقد رأى هذان كلاهما -و قد تحدثا عن ذلك الواحد إلى الآخر- أن الفكرة الأولى والأخيرة في ذهن إرلند هي أن يخرج من هذه القضية دون أن يفشي بأسماء من كانوا معه في هذه المؤامرة . وقد قال ذلك ذات مرة لسايمون صراحة . لقد وعد كل من انضم إليه أنه سيتصرف بشكل يجعله يتحمل العبء وحده لو وصلت الأمور إلى النتيجة الأسوأ .

كما لم يكن عملاء الملك قادرين حتى الآن على تقصّي اسم أي شخص آخر ساهم في مؤامرة إرلند ، باستثناء الأخوين غرايب وتورفارد تورسون من "موره" . وهذان ما كانا ليعترفا بأنهما كانا يعرفان أن النية من خطة إرلند كانت لا شيء سوى أنه مع رجال آخرين قد أقنعوا الدوقة بالسماح للأمير هاكون كنوتسون أن يتربى في النرويج . ولاحقاً كان الغرض هو أن الزعماء سيتوسلون إلى الملك ماغنوس قائلين إنه كان في صالح مملكتيه كلتيهما أن يمنح أخاه غير الشقيق اسم "الملك" في "النرويج" .

كان بورغار وغوتورم تروندسون محظوظين بما فيه الكفاية للهرب من القصر في "فيوي"... ولم يعرف أحد كيف تم الأمر ، ولكن الناس خمنت أن بورغار حصل على المساعدة من امرأة ما -كان شاباً وسيماً خفيف الظل . وكان إيفار لا يزال في السجن في قلعة ميوس ، أما هافارد الشاب فقد كتم عنه أخوته الأمر .

و بينما كان اجتماع رجال الملك منعقداً في القلعة ، عقد الأسقف اجتماعاً في قصره . كان سايمون رجلاً ذا أصدقاء ومعارف كثر . وهكذا كان قادراً على أن يخبر كريستين بما كان يحدث . لقد اعتبر الجميع أنه من المحتمل أن يعتبر إرلند خارجاً على القانون وينفى وتصادر أراضيه وأمواله

لصالح الملك . وقال إرلند أيضاً إنه من المحتمل أن يكون الأمر كذلك . كان في حالة معنوية عالية... كان ينوي اللجوء إلى الدانمرك . وكما كانت الحال عليه في تلك البلاد ، فإن طريق التقدم كانت دائماً مفتوحة أمام رجل ذي همة وبارع في السلاح ، وكانت الليدي انجبيورغ سترحب طبعاً بزوجته كقريبة لها وتعاملها بكل الاحترام المطلوب . سيكون على سايمون أن يأخذ الأطفال ، باستثناء الاثنين الأكبر سناً بينهم اللذين كان إرلند ينوي اصطحابهما إلى الدانمرك .

لم تكن كريستين خارج المدينة ليوم واحد طوال هذه الفترة ، ولم تكن قد رأت أولادها عدا ناكفه وبيورغولف . لقد وصلا على حصانيهما ودخلا إلى الباحة في إحدى الأمسيات لوحدهما . أبقتهما أمهما عندها لبضعة أيام . ولكنها أرسلتهما إلى راسفولد لاحقاً ، حيث كانت الليدي غونا قد اصطحبت الصغار ليكونوا معها .

تمنى إرلند أن تجري الأمور على هذا المنوال . وكانت كريستين تخشى من الأفكار التي قد تنتابها إن كانت سترى أولادها من حولها ، وتصغي إلى أسئلتهم ، وتحاول أن توضح الأمور لهم . بذلت قصارى جهدها لترمي بعيداً عنها كل الأفكار عن سنوات زواجها في هوسابي . كانت تلك السنوات شديدة الغنى حتى بدت لها الآن على أنها كانت سكوناً كبيراً واحداً... حتى لو أنه بدا سكوناً على بحر متلاطم حين يقف المرء في مكان عال بما فيه الكفاية من فوقه على صخرة كبيرة . تبدو الأمواج التي تطارد بعضها البعض أبدية لا تتغير... هكذا كانت الحياة تتلاطم عبر روحها في تلك السنوات الغنية .

و الآن عادت الأمور كما كانت وهي شابة ، حين راحت تناضل لتكسب

إرلند ضد كل الأمور وكل الناس . والآن مجدداً كانت حياتها انتظاراً من ساعة إلى ساعة ، بين الساعات التي كانت ترى فيها زوجها ، تجلس إلى القرب منه على السرير في الحجرة البرجية من القلعة ، تحادثه بهدوء وببساطة... حتى يتركان لوحدهما صدفة برهة ، وعندها كانا يتعانقان ، ويتبادلان قبلات محمومة وعناقاً مجنوناً .

في مرات أخرى كانت تجلس في كنيسة يسوع لساعات بحالها كل مرة . كانت تجثو على ركبتيها وتحدق إلى محراب القديس أولاف الذهبي خلف شبك مكان جلوس الجوقة . أيها الرب ، أنا زوجته . أيها الرب ، كنت مخلصة له حين امتلكني إثماً وبهتاناً . وبرحمة من الله تزوجنا شرعاً . كنا مثقلين بوزر الخطيئة ومسفوعين بنارها ، حين دخلنا معاً عبر عتبة بيت الرب ، ومعاً تلقينا جسد مخلّصنا من يدي الكاهن . هل أشكو الآن إن كان الرب سيضع إخلاصي مع موضع البرهان ؟ هل عليّ أن أفكر في أي شيء آخر عدا أني زوجته وأنه زوجي طالما كنا كلانا على قيد الحياة... ؟

•

في يوم الخميس السابق على "قداس ميكائيل" ، جرى اجتماع لمحكمة رجال الملك وصدر الحكم على إرلند نيكولاوسون أوف هوسابي . وقد تبين للمحكمة أنه مذنب بالتآمر لسلب الملك أراضيه وأتباعه بالخيانة ، وكذلك لإثارة تمرد ضد الملك داخل البلاد وإدخال قوات أجنبية مأجورة إلى النرويج . وبعد أن تم النظر في كل الحالات المشابهة في الأزمان الماضية ، فإن القضاة قرروا أن تصادر حياة وكل أملاك إرلند نيكولاوسون لتوضع تحت تصرف الملك ماغنوس .

وصل آرن غيافالدسون إلى سايمون دار وكريستين في منزل نيكولاوس في البلدة . كان قد حضر الاجتماع .

لم يحاول إرلند إنكار ما فعله . من الواضح والثابت أنه اعترف بهدفه ، أن يجبر الملك ماغنوس على منح أخيه غير الشقيق ، الأمير "هاكون كنوتسون بورس" تاج النرويج . وقد اعتبر آرن أن إرلند تحدث على نحو جيد جداً . لقد أشار إلى الصعاب والمشاكل الكبيرة التي أضحى يعاني منها الشعب ، لأن الملك في هذه السنوات الأخيرة لم تطأ قدماه إلا بالكاد التراب النرويجي ، وكان يبدي باستمرار عدم رغبته في تعيين نواب للملك يطبقون العدل ويستخدمون السلطة الملكية . وبسبب التزامات الملك في "سكان" ، والتبذير وسوء التدبير في المسائل المالية من قبل الأشخاص الذين يثق بهم الملك أشد الوثوق ، عانى الشعب من الكبح والإفقار ، ولم يعد يستطيع الشعور بالأمان بسبب المطالب الجديدة بتقديم العون والضرائب الجديدة . وبما أن الفرسان والمرشحين لرتبة فارس من النرويجيين الحاملين للسلاح يتمتعون بحقوق وحريات أقل بكثير من الفرسان السويديين ، فقد كان صعباً عليهم المنافسة مع السويديين ضمن شروط متعادلة ، لذلك كان من المنطقي والطبيعي أن شخصاً كالسير ماغنوس آيريكسون ، وهو شاب وتنقصه المهارة في الأمور ، سيصغي أكثر إلى لورداته السويديين ويحبهم أكثر ، حيث أنهم يملكون ثروات أكبر وبالتالي القدرة الأكبر على دعمه بمحاربين مسلحين ومدربين جيداً .

لقد اعتبر هو وأصدقاؤه المتحالفون معه أن لديهم معرفة أكيدة بما تفكر به الأغلبية الغالبة للشعب ، نبلاء وفلاحين وسكان مدن ، في شمال وغرب النرويج ، حتى أنهم لم يشكّوا أبداً في أنهم سيجدون مناصرة كاملة

لهم هناك لو استطاعوا أن يقدموا لهم أميراً قريباً من ملكهم المحبوب ، الملك هاكون طيب الذكر ، بقدر قرابة ملكهم الحالي . وقد توقع أن الشعب سيوافق بأجمعه بأن علينا أن نضغط على الملك ماغنوس ليجعل أخاه يعتلي العرش هنا . وبينما يقسم الأمير هاكون على المحافظة على السلام والأخوة مع الملك ماغنوس ، والحفاظ على سلامة مملكة النرويج حسب الحدود القديمة ، والدفاع عن حقوق كنيسة الرب وقوانين وعادات البلاد كما ورثناها منذ القديم ، وكذلك حقوق وحريات سكان الريف والمدن ، وكذلك وضع حد لاقتحام الأجانب المملكة . كانت نيته هو وأصدقاؤه أن يعرضوا هذه الخطة على الملك ماغنوس ودياً . ومع ذلك كان المزارعون والزعماء النرويجيون يتمتعون منذ القديم بحق تنحية الملك الذي يحاول الحكم على نحو مخالف للقانون .

أما عن أفعال أولف ساكسسون في إنكلترا وسكوتلاندا ، فقد قال إن نية أولف كانت مجرد كسب التأييد هناك للأمير هاكون ، إذا ما شاء الرب أن يصبح ملكنا . لم يكن معه في هذه الخطة أي نرويجيين عدا هافتور أولافسون من غودوي (يرحمه الله) وأقرباؤه أولاد تروند غييسلنغ الثلاثة من سوندبو وغرايب وتورفارد توريسون من آل هاتبرغ .

أثرت عبارات إرلند في سامعيه بقوة ، كما قال آرن غيافالدسون . ولكن في النهاية حين تكلم عن الدعم الذي كانوا يتطلعون إليه من رجال الكنيسة ، فقد استذكر تلك الإشاعات القديمة منذ تلك الأيام التي كان فيها الملك ماغنوس طفلاً بعد ، والتي كانت تتصف بعدم الحكمة . كان ممثل الأسقف قد وبّخه بحدة... كان الأسقف بال باردسون ، كما كانوا يعرفون ، خلال عمله كمستشار ومنذ ذلك الحين ، يكنّ حباً كبيراً للملك ماغنوس بسبب

ورع الملك . والشعب الآن يود أن ينسى أن مثل هذه الشائعات قد سبق لها وانتشرت فيما يخص سمعة ملكهم . وعلاوة على ذلك ، فقد كان الآن على وشك الزواج من سيدة ، هي ابنة كونت نامور ، وإن كان هذا صحيحاً ، فلا بد أن يُعتبر أن ماغنوس آيريكسون قد جعله يبتعد عن كل هذه الأمور .

...لقد أظهر آرن غيافالدسون أعظم آيات الصداقة لسايمون أندرسون خلال وجود سايمون في نيداروس . وكان آرن أيضاً هو من ذكّر سايمون أنه يحق لإرلند أن يستأنف هذا الحكم ، حيث أنه تم التوصل إليه على نحو لا قانوني . فحسب نص القانون فإن التهمة الموجهة إلى إرلند كان يتوجب توجيهها من قبل شخص من أنداده ، إلاّ أن السير فين أوف هستبو كان فارساً ، وإرلند مجرد مرشح لرتبة فارس . إلاّ أن علينا أن نأخذ في الاعتبار أيضاً ، كما يفكر آرن ، في أن المحكمة الجديدة قد تجد أن عقوبة أقسى من الخروج على القانون لا يمكن فرضها على إرلند .

أما فيما يخص ما ذكره إرلند حول نوع الحكم الملكي الذي يعتبره الأفضل للبلاد ، فقد بدا كلامه عادلاً وجيداً حقاً . وكانت الناس كلها تعرف أين يمكن إيجاد الرجل الذي سيكون سعيداً بما فيه الكفاية لتسلُّم القيادة والسير في هذا الاتجاه خلال فترة الوصاية على الملك الجديد قبل بلوغه السن القانونية... وقد حكّ آرن لحيته الرمادية ونظر إلى سايمون .

"ألم يسمع أحد منه أو عنه شيئاً في هذا الصيف ؟"سأل سايمون بصوت خفيض .

"لا . يقال كما سمعت إنه لا ينال رضى الملك ويقف خارج هذه الأمور . لقد مرّ زمن طويل منذ أن كان في الوطن مصغياً لكلام الليدي إلين . أما بناته فهن جميلات وغبيات كأمهن ، كما تقول الناس ."

كان إرلند قد سمع قرار المحكمة بهدوء يدل على رباطة الجأش ، وقد حيّا أعضاء المحكمة على النحو الملائم وبحرية ولباقة حين اقتيد خارجاً كما فعل حين دخل . كان هادئاً ومرحاً حين منحت كريستين وسايمون الإذن ليكلماه في اليوم التالي . كان آرن غيافالدسون معهما ، وقال إرلند إنه سيتبع نصيحة آرن .

"لم أستطع قط أن أقنع كريستين بالقدوم معي إلى الدانمرك فيما سبق" ، قال وهو يحيط خصر زوجته بذراعه . "و كنت أنوي دائماً الدخول إلى العالم معها ."

ارتجف وجهه ، وفجأة قبل خدها الشاحب بقوة غير آبه بوجود الشخصين الآخرين .

•

ركب سايمون أندرسون إلى هوسابي ليقوم بنقل حوائج كريستين إلى يورروندغارد . وقد نصحها بإرسال الأولاد أيضاً إلى غودبراندسدال في الوقت نفسه . قالت كريستين :

"لن يرحل أولادي بعيداً عن منزل أبيهم حتى يطردوا منه ."

قال سايمون : "ما كنت لأنتظر ذلك ، لو كنت في مكانك . إنهم صغار جداً ، ولن يستطيعوا أن يفهموا على النحو الصحيح هذه المسألة . الأفضل أن تجعليهم يغادرون هوسابي وهم على قناعة بأنهم سيغادرون هوسابي للقيام بزيارة لخالتهم فحسب ، وليروا ميراث أمهم في ديل ."

أيّد إرلند سايمون في هذا . ولكن النتيجة كانت أن إيفار وسكوله هما

الوحيدان اللذان ذهبا جنوباً مع زوج خالتهم . لم تستطع كريستين إبعاد الصغيرين عنها . وحين جلب إليها لافرانس ومونان إلى منزل المدينة ، ولاحظت أن أصغر أبنائها لم يعد يعرفها ، فقد انهارت تماماً . لم يرها سايمون تذرف دمعة واحدة منذ تلك الليلة الأولى حين وصل إلى نيداروس ، ولكنها راحت تبكي الآن وتبكي على مونان وهو يبسط ذراعيه وساقيه ويقاوم ، وقد ضمته أمه بقوة إلى ذراعيها ، بينما كان هو يحاول أن يصل إلى ذراعي مربيته . كما بكت بسبب لافرانس الصغير الذي زحف إلى حضنها وضمها من عنقها ، وبكى لأنها بكت . وهكذا أبقت هذين الاثنين معها ، وغاوته أيضاً... كان غير راغب في الذهاب مع سايمون ، وقد بدا لها أنه أمر غير حكيم أن تدع هذا الطفل ، الذي يحمل على كاهله عبئاً أكبر من أن تتحمله سنوات عمره القليلة ، بعيداً عن عينيها .

كان سيرا آيليف قد جلب الأولاد إلى المدينة . لقد توسل إلى الأسقف ليسمح له بترك الكنيسة لفترة قصيرة ليزور أخاه في "تاوترا" . وقد منح هذا فوراً لكاهن منزل إرلند نيكولاوسون . وحين بدا له أن كريستين ما كانت قادرة إلا بالكاد على العناية بهذا العدد الكبير من الأطفال وهي وحيدة في المدينة ، فقد عرض اصطحاب ناكفه وبيورغولف إلى الدير معه .

في الليلة الأخيرة قبل أن ينطلق الكاهن والولدان في رحلتهما –كان سايمون قد سبق له وغادر مع التوأمين– اعترفت كريستين أمام الرجل الورع ذي القلب الطاهر الذي كان أباها الروحي طوال هذه السنوات . وقد جلسا معاً ساعات عديدة ، وقد طلب إليها سيرا آيليف أن تكون مطيعة ومتواضعة أمام الرب وصبورة ومخلصة ومحبة لزوجها . ركعت عند المقعد حيث كان يجلس . ثم نهض سيرا آيليف وركع إلى جانبها ، وهو لا يزال يحمل

البطرشيل الأحمر ، رمز نير محبة المسيح ، وصليا لفترة طويلة بحرارة ودون كلمات . ولكنها كانت تعرف أنه كان يصلي للأب والأم ، والأطفال وكل سكان المنزل ، الذين ناضل هو بإخلاص لحماية صحة أرواحهم .

في اليوم التالي ، وقفت على الشاطئ في براتورن وراقبت الرهبان من تاوترا وهم يبحرون على الزورق الذي كان سيحمل الكاهن وابنيها الأكبر . في طريق العودة إلى البيت دخلت إلى كنيسة المينوريت وتلبثت هناك حتى وجدت في نفسها القوة الكافية للعودة إلى منزلها . وفي المساء ، حين نام الصغيران ، جلست تغزل وتحكي لغاوته الحكايات حتى حان وقت نومه هو أيضاً .

٦

كان إرلند سجيناً في القلعة حتى قداس كلمنت (٢٣ تشرين الثاني / نوفمبر) . ثم وصل أمر ورسائل بأنه يتوجب نقله جنوباً تحت حراسة مشددة[١٦] ، ليمثل أمام الملك ماغنوس . كان الملك ينوي إقامة الاحتفال بأعياد الميلاد في باغهاوس[١٧] في ذلك العام .

أصيبت كريستين بهلع شديد . لقد عودت نفسها على الهدوء بعد نزاعات تصعب على الوصف ، وإرلند سجين مهدد بالإعدام . والآن سيؤخذ بعيداً إلى مصير مشكوك فيه . وكانت الناس تقول إنه إذا نظرنا إلى الجو المحيط بالملك وتلك الحفنة من الرجال من حوله فإن إرلند ليس له أصدقاء . لقد تكلم إيفار أوغمندسون حاكم القلعة الآن في باغهاوس عن خيانة إرلند بأقسى الكلمات . وكان يُقال إنه كاره لإرلند لأنه نُمي إليه أن إرلند ذكره بالسوء في الأيام الخالية .

و لكن إرلند كان مسروراً بالأنباء ، كما لاحظت كريستين فعلاً ، حتى أنه استخف بالفراق الحالي . ولكن هذا السجن الطويل قد بدأ ينهكه حتى أنه شهق بحماسة عند سماع فكرة الرحلة الطويلة بحراً ، وبدا أنه لا يهتم بأي شيء آخر .

خلال ثلاثة أيام كان كل شيء جاهزاً ، وأبحر إرلند في سفينة السير "فين"... كان سايمون قد وعد بالعودة إلى نيداروس قبل أيام الأحد الأربعة السابقة على عيد الميلاد ، بعد أن يكون قد رتب أموره وشؤونه في البيت ، ولكن لو وصلت أي أنباء جديدة قبل ذلك الموعد ، فإنه يتوسل إلى كريستين أن تبلغه وسوف يحضر حالاً . وقد خطر لها الآن أن تسافر جنوباً إليه ، ومن هناك ستذهب إلى حيث كان الملك ، وسوف ترمي بنفسها عند قدميه وتتوسل الرحمة لزوجها... وسيسعدها أن تعرض كل أملاكها لقاء حياته .

كان إرلند قد باع أو رهن دارته في نيداروس إلى أناس متنوعين . كان دير نيدارهولم يمتلك مبنى القاعة الآن ، ولكن رئيس الدير أولاف قد كتب رسالة مودة إلى كريستين ، يرجوها فيها أن تستخدمه طالما كانت في حاجة إليه . كانت هناك لوحدها مع خادمة واحدة ، ومع أولف هالدرسون (الذي أطلق سراحه لعدم كفاية الأدلة) ، وابن أخيه هالدور ، خادم كريستين .

تشاورت مع أولف ، وقد أبدى هو بعض الشك أولاً : لقد اعتبر أن الرحلة ستكون قاسية جداً عليها عبر دوفرفييلد . فقد سبق أن هطل الكثير من الثلج في الجبال . ولكن حين رأى ألم المرأة الروحي ، فقد نصحها بالذهاب . أخذت الليدي غونا الطفلين الصغيرين إلى راسفولد . ولكن غاوته رفض أن يفارق أمه ، وأحست هي أيضاً أنها لا تجرؤ على ترك الصبي يبقى شمال دوفر وبعيداً عن عينيها .

حين اتجهوا جنوباً نحو الجبال العالية كان الطقس قاسياً جداً ، حتى أنهم استعاروا بناء على نصيحة أولف أدوات تزلج عند دريفستوين وتركوا جيادهم هناك ، حتى لا يضطروا إلى تمضية الليلة التالي في العراء . لم تكن

كريستين قد لبست حذاء تزلج منذ أن كانت بنتاً صغيرة ، وكان صعباً عليها أن تشق طريقها ، رغم أن الرجال أسندوها وساعدوها إلى أقصى حد ممكن . لم يستطيعوا أن يتابعوا المسير ذلك اليوم إلى أكثر من منتصف الطريق في الهضاب بين درايفستوين وهييردكين . وحين حلّ الظلام ، كان عليهم أن يلجأوا إلى غابة من أشجار البتولا وأن يحفروا مأوى لهم في الثلج . في توفتار استطاعوا أن يستأجروا جياداً مرة أخرى ، وهنا وجدوا أنفسهم ضمن الضباب ، وحين وصلوا إلى "ديل" ، كان الطقس ماطراً هناك . وحين تابعوا طريقهم بعد ساعات من حلول الظلام ، نحو باحة فورمو ، كانت الريح تعوي من حول زوايا المنزل ، والنهر يزمجر ويأتي صوت مندفع هادر من غابات الجبل . كانت الباحة أشبه بمستنقع وقد خمدت أصوات حوافر الجياد... كان الوقت مساء السبت وهو مساء عطلة عن العمل ولم تكن هناك إشارة تدل على الحياة في الدارة الكبيرة ، ولم يبد أن الناس أو الكلاب أحسوا بقدومهم .

قرع أولف باب مبنى القاعة برمحه . فتح خادم الباب... بعد لحظة كان سايمون نفسه يقف في باب الغرفة الخارجية ، عريضاً ومعتماً أمام النور الذي كان خلفه وهو يحمل طفلاً بين ذراعيه . كان يقود الكلبين النابحين من خلفه . وقد صرخ حين رأى أخت زوجته ، فوضع الطفل على الأرض وجذبها هي وغاوته إلى الداخل ، وخلع عنهما ملابسهما الخارجية المبتلة بنفسه .

كان الجو مريحاً ودافئاً في القاعة ، ولكن الهواء ثقيل جداً ، فقد كانت غرفة بمدفأة ذات سطح مستوٍ تحت القاعة العليا . وكانت مليئة بالناس ، وبدا الأطفال والكلاب يحتشدون في كل زاوية . ثم ميزت كريستين وجهي طفليها الصغيرين الأحمرين الدافئين والمرحين خلف المائدة حيث كانت

هناك شمعة موقدة . تقدما الآن وحيّيا أمهما وأخاهما ببعض الخجل . رأت كريستين أنها قد دخلت إلى هنا وسط راحة هؤلاء الناس الطيبين ومرحهم . أما البقية ، فكانت الغرفة مغطاة كلها بالفضلات ، وعند كل خطوة كانت تدوس على قشور جوز تتهشم تحت قدمها : كانت متناثرة فوق الأرضية .

أرسل سايمون الخدم والخادمات خارجاً في مهمات متنوعة وتبعهم جزء كبير من الأطفال والكلاب... كان هؤلاء جيران مع أتباعهم... وبينما راح يستفسر منها ويصغي إليها ، أحكم إغلاق قميصه وسترته ، بعد أن كانا مفتوحين ، يكشفان عن صدره العاري المشعر . كان الأطفال قد أوصلوه إلى هذه الحال كما قال معتذراً . كان بالفعل في حالة من الفوضى المحزنة : كان حزامه ملتوياً وقد اتسخت يداه وملابسه وأصبح وجهه مسخماً وشعره مليئاً بالغبار والقش .

و سرعان ما وصلت خادمتان وقادتا كريستين وغاوته إلى قاعة السيدات الخاصة برامبورغ . كانت النار موقدة هناك وراحت الخادمات المشغولات يوقدن الشموع ويرتبن السرير ويساعدنها والصبي على ارتداء ملابس جافة عوضاً عن ملابسهما ، بينما راحت أخريات يجلبن اللحم والشراب . جلبت فتاة صغيرة شعرها مضفور بالحرير كوب جعة عليه رغوة . كانت الفتاة هي كبرى بنات سايمون المسماة أرنغييرد .

ثم دخل هو نفسه وقد رتب نفسه الآن وكان أكثر شبهاً بسايمون الذي عهدته... في ملابس جيدة وثمينة . كان يقود ابنته الصغيرة من يدها وجاء معه إيفار وسكوله .

سألت كريستين عن أختها ، وقال سايمون إنها ذهبت مع سيدات من سوندبو إلى رينغهايم . لقد وصل "جوستاين" ليأخذ ابنته "هيلغا" ، وكان

يتمنى أن يأخذ "داغني" ورامبورغ معه أيضاً . إنه شخص مرح وعجوز ، وقد وعد أن يبذل قصارى جهده في رعاية الزوجات الصغيرات الثلاث . لذلك قد تبقى رامبورغ هناك خلال الشتاء كله . كانت تتوقع أن تلد طفلاً آخر في قداس القديس ماثيو أو نحو ذلك... ثم فكر سايمون في أنه قد يضطر للغياب عن المنزل هذا الشتاء . لذلك ستكون في حال أفضل مع قريبتها الشابة . أوه ، كلا... فيما يخص إدارة المنزل هنا في فورمو ، فلم يكن أمراً ذا بال سواء كانت في البيت أم لم تكن ، ضحك سايمون... فهو لا يطالب فتاة صغيرة شأن رامبورغ بأن تنهك نفسها بالكدح في منزل كبير .

لدى سماعه بخطط كريستين ، قال سايمون على الفور إنه سيصطحبها إلى الجنوب ، كان لديه أقارب عديدون هناك والكثير من أصدقاء أبيه وأصدقائه القدامى ، حتى أنه كان يأمل في تقديم المزيد من الخدمات إليها هناك بالمقارنة مع تروندهايم . وسواء كان أمراً حكيماً أم لا أن تقابل الملك بمفردها ، فإنه سيحكم على ذلك على نحو أفضل حين يصلان إلى هناك . وسيكون مستعداً للسفر خلال ثلاثة أو أربعة أيام .

ذهبا معاً إلى القداس في اليوم التالي ، إذ كان يوم أحد ، ولاحقاً ، ثم مضيا لاحقاً ليريا سيرا آيريك في رومونغارد . كان الكاهن قد أضحى عجوزاً الآن . رحب بكريستين بمودة ، وبدا آسفاً جداً على مصابها . ثم تجولا في يوروندغارد .

كانت المباني لا تزال كما هي ، وفي الغرف كانت الأسرة والمقاعد والموائد نفسها . كانت هذه الآن هي ضيعتها الخاصة ، وقد بدا أمراً شديد الاحتمال أن أولادها سيترعرعون هنا ، وأنها ستضطجع في يوم من الأيام هنا لتغلق عينيها إلى الأبد . ولكنها لم تشعر قط بكل هذا الوضوح كما في هذه

الساعة أن الحياة في هذا البيت كانت تعتمد على أبيها وأمها كلياً . ومهما كانت المشاكل المخفية بينهما والتي كانا ينافحانها ، إلا أن الدفء والعون والأمان كانت تتدفق منهما تجاه كل من كان يعيش من حولهما .

كانت قلقة مثقلة القلب ، وكان يتعبها قليلاً سايمون حين يتحدث عن شؤونه الخاصة وأملاكه وأطفاله . لقد لاحظت هي بنفسها أنه لم يكن هناك منطق في الأمر ، فقد كان جاهزاً لمساعدتها بكل ما يستطيع من مقدرة ، ورأت أنه كان أمراً طيباً من جانبه أن يكون راغباً في مغادرة منزله في فترة أعياد الميلاد وأن يفترق عن زوجته في وقت كهذا... كان لا شك يفكر كثيراً في إنجاب صبي الآن... فهو لم يرزق سوى بطفلة واحدة من رامبورغ حتى الآن ، رغم زواجهما منذ ست سنوات . لم تستطع أن تحتمل اهتمامه بمصيبتها هي وإرلند إلى حد أن ينسى كل الفرح في حياته السعيدة . ولكن كان أمراً غريباً أن تتجول معه هنا وأن تكون مرحة ودافئة وآمنة في بيته .

و بدون قصد فكرت هي أن أولفهيلد سايمونسداتر ستكون أشبه بأختها الصغيرة التي سميت باسمها... ستكون شقراء ونحيلة ذات بشرة فاتحة . ولكن ابنة سايمون الصغيرة كانت ممتلئة الجسم وبدينة ، ولها وجنتان مثل تفاحتين وفم أشبه بتوتة حمراء . وكان لها عينان رماديتان سريعتان كعيني أبيها في شبابه ، وشعر بني مجعد جميل . كان سايمون يحب ابنته الحيوية الممتلئة صحة كثيراً وكان فخوراً بثرثرتها سريعة البديهة .

"رغم أن هذه الفتاة الصغيرة قبيحة وكريهة وبغيضة جداً" ، قال وهو يضع يديه على كل جانب من جانبي صدرها وراح يدورها وهو يرفعها في الهواء ، "إلا أنني أعتبرها طفلة مستبدَلة جلبتها الجنيات من الجبل الذي هنا إلى أمها

ووضعنها في المهد لأمها ولي ، هذه الفتاة النكدة الشرسة" . ثم وضعها فجأة على الأرض ورسم بسرعة إشارة الصليب ثلاث مرات فوقها وكأنه خاف من كلماته المتهورة .

كانت ابنته غير الشرعية آرنغييرد غير جميلة ، إلا أنها كانت تبدو طيبة ومتفهمة ، وكان أبوها يصطحبها معه في أغلب الأوقات التي يستطيعها . كان يمتدح كثيراً براعتها... نظرت كريستين إلى خزانة آرنغييرد لتشاهد كل الأشياء التي غزلتها وحاكتها وخاطتها لأجل بائنتها .

"في اليوم الذي أضع فيه يد ابنتي هذه في يد عريس مخلص وطيب" ، قال سايمون وهو ينظر إلى الفتاة مطولاً ، "سيكون واحداً من أسعد أيام حياتي التي عرفتها ."

و لتوفير النفقات وإيجاز الرحلة ، لن تصطحب كريستين أي خادمة معها ولا أي خادم عدا أولف هالدورسون . قبل عيد الميلاد بأربعة عشر يوماً ستنطلق هي وهو من فورمو بصحبة سايمون وخادميه الشابين القويين .

حين وصلا إلى أوسلو ، سرعان ما علم سايمون أن الملك لن يأتي إلى النرويج... فسيقيم احتفال عيد الميلاد في ستوكهولم على ما يبدو . كان إرلند في القلعة في أكرسنس ، وكان حاكم القلعة مسافراً ، لذلك لم يكن ممكناً لهما أن يريا السجين . ولكن نائب أمين الخزانة ، أولاف كيرمينغ وعد بأن يبلغ إرلند بوجودهما في المدينة . أبدى أولاف كثيراً من الود تجاه سايمون وكريستين ، فقد كان أخوه متزوجاً من رامبورغ أسمموندسداتر أوف سكوغ ، لذلك كان يعتبر نفسه من الأقرباء البعيدين لبنات لافرانس .

و قد وصل كتيل من سكوغ ودعاهما للذهاب إلى سكوغ لتناول شراب عيد الميلاد معه ، ولكن كريستين ما كانت راغبة في الاحتفال بالأيام

المقدسة بالولائم بينما كان إرلند في تلك الحال . أما سايمون فرفض الذهاب وحده ، رغم أنها توسلت إليه كثيراً . كان سايمون وكتيل يعرفان الواحد الآخر ، ولكن كريستين لم تكن قد رأت ابن خالها سوى مرة واحدة منذ أن دخل طور الرجولة .

نزلت كريستين وسايمون في الدارة نفسها حيث حلّت ذات مرة ضيفة على أبوي سايمون وهما مخطوبان . ولكنهما نزلا في مبنى آخر . كان هناك سريران في الغرفة ، فنامت هي في واحد ونام سايمون وأولف في الآخر . ونام الخدم في الإسطبل .

في مساء عيد الميلاد ، رغبت كريستين في الذهاب إلى قداس منتصف الليل في كنيسة نونستر... قالت إنه بسبب أن الأخوات كن ينشدن على نحو عذب جداً هناك . وهكذا مضى خمستهم إلى هناك . كان الليل صافياً والنجوم نيّرة ، كان ليلاً لطيفاً وجميلاً ، وكان الثلج قد هطل قليلاً في المساء ، لذلك كان خفيفاً نوعاً ما . حين قرعت الأجراس من الكنائس اندفع الناس خارجين من كل المنازل وكان على سايمون أن يقود كريستين من يدها . بين الحين والآخر كان يختلس نظرة منها . كانت قد هزلت إلى حد كبير في هذا الخريف الأخير ، ولكن بدا وكأن قوامها الطويل المستقيم قد تراجع إلى حد ما عن قوام الفتاة الشابة اللدن والهادئ . فوق وجهها الشاحب عادت مجدداً النظرة التي كانت لديها في أيام يفاعتها ، نظرة الهدوء واللباقة التي تغطي توقعاً عميقاً ومخفياً ومصغياً . لقد أصبحت تحمل شبهاً شبحياً غريباً بكريستين الشابة في عيد الميلاد ذاك قبل زمن طويل... ضغط سايمون على يدها ، ولم يعرف أنه كان فعل ذلك حتى أحس بضغطة جوابية . رفع بصره... ابتسمت وأومأت برأسها ، وفهم أنها اعتبرت إمساكه

بيدها كتخدير لها حتى تكون شجاعة... والآن كانت تكافح لتريه أنها كانت شجاعة بالفعل .

مع اقتراب نهاية الأعياد ، وصل السير مونان لزيارتها... كان قد سمع للتو أنها في المدينة كما قال . حيّاها من كل قلبه وكذلك سايمون أندرسون وأولف ، الذي خاطبه عند كل ثاني كلمة بـ"قريبي" و"صديقي العزيز" . قد يكون صعباً عليهم مشاهدة إرلند ، كما قال ، فقد كان تحت حراسة مشددة... وهو لم يستطع أن يتسلل لمشاهدة ابن خالته . ولكن أولف قال ، ضاحكاً ، بعد أن غادر الفارس ، أنه لم يبد أن مونان قد مارس الضغوط بما فيه الكفاية ليستطيع الدخول... لقد كان في خوف مميت من أن يصبح متورطاً في المسألة حتى أنه ما كان ليحتمل إلا بالكاد أن يسمع بها تذكر أمامه . كان مونان قد أصبح عجوزاً جداً ، وأصلع جداً ، وهزيلاً جداً . كان جلده يبدو معلقاً على بدنه الضخم . كان يقطن في سكوغهايم ومعه واحدة من بناته اللاشرعيات التي ترملت . كان الأب يتمنى التخلص منها مع الامتنان ، فقد كان جميع أولاده الآخرين ، الشرعيون منهم واللاشرعيين ، يرفضون الاقتراب منه طالما كانت أختهم غير الشقيقة هذه تحكم بيته ؛ فقد كانت امرأة مستبدة وطماعة وسليطة . ولكن مونان ما كان يجرؤ على طردها .

و أخيراً ، وفي وقت ما من العام الجديد ، حصل أولف كيرنينغ على الإذن لزوجة إرلند وسايمون بمشاهدته . ومن جديد كان من نصيب سايمون أن يرافق الزوجة الحزينة في هذه اللقاءات التي تحطم القلب . كانت المراقبة هناك أكثر صرامة ممّا كان عليه الحال في نيداروس حتى يتم التأكد من أن إرلند ما كانت تتاح له الفرصة ليتحدث إلى أحد إلاّ بحضور تابعي الحاكم .

كان إرلند هادئاً كما مضى ، ولكن سايمون لاحظ أن هذا الانتظار كان قد بدأ يمضّه . لم يشكُ قط ، وقال إنه لم يكن يعاني من سوء المعاملة وأن كل ما يمكن أن يقدم له يجري تقديمه . ولكنه قال إنه يعاني كثيراً من البرد... لم تكن هناك مدفأة في الزنزانة . ولم يكن قادراً على ممارسة النظافة الشديدة... رغم أنه لولا اضطراره لمكافحة القمل ، لكان الزمن سيبدو أطول بالنسبة إليه .

كانت كريستين هادئة أيضاً... هادئة إلى حد أن سايمون انتظر خائفاً لاهثاً لليوم الذي ستنهار فيه تماماً .

كان الملك ماغنوس يقوم بمسيرته الملكية في السويد ، ولم يبد أن هناك احتمالاً بأنه سيعبر الحدود قريباً ، أو أن أي تغيير في حالة إرلند كان وشيكاً .

في يوم قداس غريغوري (١٣ شباط / فبراير) ، كانت كريستين وأولف هالدورسون في الكنيسة في نونستر . وبينما هما عائدان ، عبرا الجسر فوق نهر"نونبك" ، فلم تسلك هي الطريق نحو مكان سكنها ، الذي كان قريباً من قصر الأسقف ، بل التفّت شرقاً نحو المكان المفتوح قرب كنيسة كلمنت ، ثم نحو الحارات الضيقة بين الكنيسة والنهر .

كان النهار رمادياً وكثيف الضباب... والطقس لطيفاً لبعض الوقت... ولكن أحذيتهما والجزء الأسفل من عباءتيهما قد تبللت بسرعة وأضحت ثقيلة من الطين الأصفر لشاطئ النهر . خرجا إلى الأرض الخالية من الزرع باتجاه الضفة المرتفعة للنهر . ومن جديد تقابلت أعينهما . ضحك أولف دون ضجة ، والتوى فمه في نوع من التكشيرة ، ولكن عينيه كانتا حزينتين . ابتسمت كريستين ابتسامة غريبة مريضة...

و سرعان ما كانا يقفان على حافة الأرض العالية . كان هناك انزلاق أرضي ذات مرة في الضفة الطينية هنا ، كان منزل فلوغا إلى اليمين تحتها ، قريباً جداً من المنحدر الطيني الأصفر ، حيث كانت أعشاب سوداء قزمة قليلة تنمو ، ولكن نتانة حظيرة الخنازير التي كانا ينظران إليها وصلت إليها بقوة... كان خنزيران بدينان يتشممان الأرض في الطين الأسود . كانت ضفة النهر مجرد شريط ضيق هنا . أما تيار النهر الموحل الرمادي وفوقه رقاقات الثلج المتراقصة ، فكان يصل إلى المنازل المتداعية ذات الأسقف الخشبية الرمادية المبيضة .

و بينما كانا واقفين هناك ، وصل رجل وامرأة إلى حاجز الحظيرة ونظرا إلى الخنازير... اتكأ الرجل وبدأ يحك أحد الخنازير بنهاية مقبض الفأس الخفيفة الملبّسة بالفضة التي كان يستخدمها كعصا . كان ذاك هو مونان باردسون نفسه ، أما المرأة فكانت برينهيلد . رفع بصره وأحس بهما... وقف مشدوهاً وهو يحدق إليها ، وحيته كريستين بمرح .

بدأ السير مونان يضحك بصوت مرتفع . قال : "انزلا واشربا كوباً من الجعة الدافئة لصدّ هذا الطقس الرديء" .

و بينما كانا يهبطان إلى البوابة ، حكى أولف لكريستين أن برينهيلد يونسداتر لم تعد تحتفظ بالنزل ولا بحانة الجعة . لقد مرت بمشاكل عديدة وأخيراً هددوها بالجلد ولكن مونان أخرجها وكفلها على أنها لن تعود إلى التجارة بالأمور غير القانونية . أما أبناؤها فكانوا في وضع جيد الآن حتى أن أمهم اضطرت لأجلهم إلى التفكير في تحسين سمعتها الرديئة . وبعد وفاة زوجته ، فقد عاد مونان باردسون إلى معاشرتها ، وغالباً ما كان يتواجد في منزلها .

قابلهما عند الباب .

قال ضاحكاً : "هانحن أيها الأقرباء ، أربعتنا كلنا ، على نحو ما"... كان قد تناول بعض الشراب ولكن ليس الكثير منه . "أنت امرأة طيبة يا كريستين لافرانسداتر ، ورعة إنما لست متغطرسة... برينهيلد الآن امرأة شريفة وورعة أيضاً... وأنا لم أكن متزوجاً حين أنجبت لي ابنين... وهما الأفضل بين كل أولادي... لقد قلت لك ذلك دائماً يا برينهيلد . إن إنجه وغودلايك هما الأعز عليّ بين كل أولادي .

كانت برينهيلد لا تزال جميلة ، ولكن بشرتها كانت شاحبة ومصفرة ، وبدت ذات ملمس ندي ، كما فكرت كريستين ، كما يحدث حين تكون المرأة قد وقفت طوال النهار فوق قدور الدهن . ولكن منزلها كان جيد الترتيب ، والطعام والشراب اللذان وضعتهما على المائدة كانا من أفضل الأنواع ، أما أدوات المائدة فكانت جيدة ونظيفة .

قال مونان : "أجل ، أزور هذا المكان حين تكون لدي مهمة في أوسلو . أنت تعرفين أن الأم تحب سماع أخبار أولادها . يكاتبني إنجه بين الحين والآخر ، فهو رجل متعلم ، فإن على مندوب الأسقف أن يكون كذلك ، كما تعرفين ، وقد دبرت له زواجاً جيداً أيضاً من تورا بيارنسداتر من غرويته . أتظنين أن رجالاً كثيرين قادرين على الحصول على مثل هذه الزوجة لأولادهم غير الشرعيين ؟ إذن نحن نجلس هنا ونتحدث عن هذا الموضوع ، وتحمل برينهيلد اللحم والجعة لي ، كما اعتادت أن تفعل في الأيام الغابرة ، حين كانت تحمل مفاتيح منزلي في سكوغهايم . إنه لعمل مضن أن أجلس هناك الآن وأفكر بزوجتي الراحلة... لذلك أركب جوادي وأحضر إلى هنا لأجد بعض السلوان... وذلك حين يصدف أن تكون برينهيلد في مزاج لا تنكر معه أن توفر لي بعض المودة والراحة ."

جلس أولف هالدورسون وقد أسند ذقنه إلى يده ، وراح ينظر إلى سيدة هوسابي . جلست كريستين وأصغت وأجابت بهدوء ورقة ولباقة... وكانت هادئة وودودة وكأنها في واحدة من ضيع كبار القوم في تروندهايم .

"أجل ، أنت يا كريستين لافرانسداتر قد كسبت لقب الزوجة وشرفك" ، قالت برينهيلد فلوغا ، "رغم أنك جئت بكل إرادتك لتقابلي إرلند في عليّتي . لقد دُعيتُ بالمومس والمرأة الساقطة طوال حياتي... فقد باعتني زوج أبي إليه هناك... وقد عضضت وخرمشت وتركت آثار كل ظفر من أظفاري على وجهه قبل أن ينال وطره مني..."

تذمر مونان : "هل عليك أن تتحدثي دائماً عن هذا ؟ كوني على ثقة ـ وقد قلت لك هذا غالباً- كنت سأسمح لك أن تذهبي في سلام لو تصرفت كبشر وجعلتني أتركك في سلام... ولكنك هاجمتني كالقطة البرية قبل أن أدخل من الباب..."

ضحك أولف هالدورسون برقة .

قال مونان : "و قد عاملتك جيداً منذ ذلك الحين وحتى الآن . كان عليك أن تشيري إلى أي شيء وكنت أعطيك إياه... وولدانا... أجل إنهما أفضل بكثير وأكثر أماناً من أولادَ كريستين المساكين... فليحفظ الرب الصبيان الصغار المساكين كما أراد إرلند توجيه الأمور لصالح أولاده! أعتقد أن هذا يرضي قلب الأم أكثر من لقب الزوجة... وأنت تعرفين أني غالباً ما كنت أتمنى لو كنت من محتد يسمح لي بالزواج منك على نحو شرعي... فأنا لم أحبب امرأة أخرى كما أحببتك... رغم أنك نادراً ما كنت طيبة أو كريمة معي... أما الزوجة التي نلتها فعسى الرب يجازيها...! لقد أنشأت مذبحاً لكاترين ولنفسي في الكنيسة التي في ضيعتي ، يا كريستين... لقد حمدت

الرب وسيدتنا كل يوم على حياتي الزوجية... لم يعرف أي رجل حياة أفضل..."
أنّ ثم نشق .

قال أولف هالدورسون بعد قليل إن عليهما الرحيل . لم يتبادل هو وكريستين أي كلمة في طريق العودة . ولكن خارج الباب مدت يدها إلى الرجل :

" أولف ... قريبي وصديقي ."

قال بصوت خفيض : "لو كان في الأمر مجال لذهبت بسعادة إلى المشنقة بدلاً عن إرلند... لأجله ولأجلك!"

في ذلك المساء ، قبل النوم بقليل ، جلست كريستين وحدها في القاعة مع سايمون . وفجأة بدأت تحكي له أين كانت طوال النهار . وحكت عن الاجتماع في بيت برينهيلد فلوغا .

كان سايمون جالساً على كرسي منخفض ليس بعيداً عنها . انحنى إلى الأمام قليلاً ، وذراعاه على فخذيه ، ويداه مدلاتان ، وراح يرفع بصره إليها بنظرة غريبة فاحصة في عينيه الصغيرتين الحادتين . لم ينطق بكلمة واحدة ، ولم تتحرك عضلة واحدة في وجهه الكبير السمين .

و لكنها لم تخبره أنها أخبرت أباها بكل شيء ، وما الذي كان قد قاله لها .

بقي سايمون جالساً كما من قبل ، دون حراك . ولكن خلال برهة قال بهدوء :

"كان هذا الشيء الوحيد الذي كنت أرجوه منك ، في كل السنوات التي عرفنا بها واحدنا الآخر -إن كنت أتذكر على النحو الصحيح- أنك لن... لو أنك تبقين صامتة حتى توفري الأسى على لافرانس ، لماذا..."

ارتجف جسد كريستين كله :

"أجل! ولكن أوه......إرلند ، إرلند ، إرلند..."

عند الصرخة المجنونة قفز الرجل واقفاً... كانت كريستين قد رمت بنفسها نحو الأمام ورأسها بين ذراعيها ، وكان تهزّ جسدها من جانب إلى آخر ، ولا تزال تنادي اسم إرلند بين النحيب المرتعش والأنين الذي بدا وكأنه يمزق جسدها .

"كريستين... باسم المسيح!"

حين أمسك بأعلى ذراعها وحاول أن يوقفها عن النحيب ، رمت بنفسها عليه بكل ثقل جسدها ، وطوّقت عنقه ، بينما تابعت وهي تبكي تنادي باسم زوجها .

"كريستين... اهدئي..." أمسك بها بشدة بين ذراعيه ورأى أنها لم تلاحظ ذلك... كانت تنتحب إلى حد أنها لم تكن قادرة على الوقوف منتصبة . ثم رفعت نفسها بين ذراعيه... ضمها إليه بقوة لحظة ، ثم حملها ووضعها على السرير .

"اهدئي" ، توسل إليها مجدداً بصوت مختنق ويكاد يكون مهدّداً... وضع يديه فوق وجهها ، وأمسكت برسغيه وذراعيه والتصقت به .

"سايمون... سايمون... أوه! يجب أن ننقذه..."

"أقوم بما أقدر عليه يا كريستين... والآن عليك أن تهدئي . " التفت بحدة وسار إلى الباب وخرج إلى الباحة . صرخ حتى تردّد الصدى من الجدران والمنازل ، منادياً على الخادمة التي استأجرتها كريستين في أوسلو . وصلت الفتاة وهي تعدو ، وأمرها سايمون أن تذهب إلى سيدتها .

وخلال لحظة خرجت مجدداً... فسيدتها تود البقاء وحيدة ، هذا ما قالته خائفة لسايمون الذي كان لا يزال واقفاً في البقعة نفسها .

أومأ برأسه وسار إلى الإسطبلات ، وبقي هناك حتى وصل غونار وخادمه وأولف هالدورسون ليعلفا الجياد . سار سايمون معهما قليلاً ثم ذهب مع أولف عائدين إلى القاعة .

•

لم تَرَ كريستين زوج أختها في اليوم التالي . ولكن بعد صلاة العصر كانت جالسة تخيط ثوباً كانت تنوي أن تأخذه إلى زوجها ، فجاءها مسرعاً ولم يقل شيئاً ولم ينظر إليها ، إنما فتح صندوق السفر خاصته ، وملأ طاسه الفضي بالنبيذ وخرج مسرعاً كما جاء . نهضت كريستين ولحقت به . أمام الباب كان يقف رجل غريب وهو لا يزال ممسكاً بحصانه... سحب سايمون خاتماً ذهبياً من أصبعه ورماه في الطاس وشرب نخب القادم الجديد .

خمنت كريستين ما يعنيه هذا وصاحت بفرح :

"لقد رزقت بابن ذكر يا سايمون!"

"أجل" . ربت على كتف الرجل الغريب بينما كان الرجل يشكره وقد وضع الطاس والخاتم في حزامه . ثم أمسك سايمون بأخت زوجته من خصرها ودوّرها في المكان . بدا سعيداً جداً حتى أن كريستين لم تستطع سوى أن تضع يديها حول كتفيه... ثم قبلها على فمها وضحك عالياً .

"إذن فإن نسل آل دار هو الذي سيرث ضيعة فورمو حين ترحل عن هذه الدنيا يا سايمون" ، قالت بمرح .

"أجل سيكون الأمر هكذا -إن شاء الله- لا ، الليلة سأذهب لوحدي" ، قال حين سألته كريستين إن كانا سيذهبان معاً إلى صلاة المساء .

في تلك الليلة قال لكريستين إنه سمع أن السير إرلينغ فيدكونسون كان الآن في ضيعته في آكر قرب تونسبرغ .و في ذلك الصباح كان قد استأجر مكاناً في سفينة متجهة إلى الزقاق البحري... كان ينوي أن يكلم السير إرلينغ في موضوع إرلند .

لم تقل كريستين كثيراً رداً عليه . ولم يكونا قد تحدثا إلا بالكاد عن هذا الموضوع من قبل... وكانا يبتعدان عن الخوض فيه... أي إن كان السير إرلينغ على اطلاع بخطط إرلند أم لا . قال سايمون إنه سيكون أمراً جيداً أن يطلب نصيحة إرلينغ فيدكونسون فيما يخص خطة كريستين بأن يذهب سايمون معها إلى أقرباء لافرانس ذوي النفوذ في السويد للمطالبة بحقوق القرابة وطلب المساعدة .

ثم نطقت كريستين بأفكارها :

"و لكن ، مع وصول هذه الأنباء العظيمة يا زوج أختي ، فأعتقد أنها السبب في أن عليك أن تؤجل هذه الرحلة إلى آكر... وأن تذهب أولاً إلى رينغهايم لترى رامبورغ وابنك ."

كان مضطراً إلى الالتفات فقد كان شديد الإحراج . لقد انتظر طويلاً... أن تقوم كريستين بأي إشارة بأنها تفهم كم كان تواقاً لمشاهدة ابنه . ولكن بعد أن تحكم بنفسه نوعاً ما ، قال ببعض الخجل في صوته :

"لقد كنت أفكر يا كريستين... بأن الرب قد يضمن أن يعيش الصبي وينمو بقوة لو استطعت أن أكون صبوراً وسيطرت على توقي لرؤيته حتى أكون قد استطعت مساعدتك وإرلند قليلاً في هذه القضية .

في اليوم التالي خرج وجلب هدايا ثمينة وفاخرة لأجل زوجته وابنه... ولكل النساء أيضاً اللواتي كن مع رامبورغ لدى ولادتها للصبي . أخرجت كريستين ملعقة فضية جميلة كانت ورثتها عن أمها... وهي هدية لأندرس سايمونسون... إلا أنها أرسلت إلى أختها السلسلة الفضية الثقيلة التي أعطاها إياها لافرانس في طفولتها مع الصليب المذخر . وربطت الصليب الآن بالسلسلة التي كان إرلند قد أعطاها إياها كهدية خطوبة . وفي اليوم التالي أبحر سايمون في منتصف النهار .

في المساء رست السفينة عند جزيرة في الزقاق البحري . بقي سايمون على المتن . كان يضطجع في كيس نوم من الجلد وفوقه كانت بعض قطع من القماش الصوفي الخشن ، وهو ينظر إلى السماء المليئة بالنجوم ، حيث بدت المجموعات النجمية تصعد لتغطس ثانية مع تحرك السفينة على الأمواج . كان الماء يتناثر ورقاقات الجليد تحتك بجوانب السفينة وتضربها برقة . كان أمراً مريحاً أن يشعر بالبرد يزحف نحو جسده . كان ذاك يخدّر...

لكنه كان واثقاً الآن : لقد جرت الأمور على نحو رديء معه حتى أنها لن تصل إلى الدرجة من السوء مجدداً . والآن هاهو قد رزق بابن . لم يكن الأمر وما فيه أنه يفكر في أن يصبح أكثر حباً للصبي من ابنتيه ، بل كان ذاك أمراً آخر . فلقاء كل السعادة القلبية التي تمنحها إياه ابنتاه ، حين كانتا تلعبان معه وتضحكان وتثرثران –و مهما كان أمراً عذباً أن يضعهما في حضنه ويتحسس شعرهما الناعم على ذقنه ـ ومع ذلك فإن الرجل لا يستطيع أن يتخذ مكانه في تسلسل رجال عائلته ، إن كانت أراضيه وأمواله وذكرى أفعاله في الدنيا ستذهب إلى أيدي ابنته ومنها إلى أسرة غريبة . ولكن الآن ، وإن استطاع أن يأمل في ذلك ، ولو أن الله سيمنح ذلك الصبي الصغير

الفرصة لينمو ويصبح رجلاً ، وأن يأتي ابن لفورمو بعد الأب... أندرس غودموندسون ، سايمون أندرسون ، أندرس سايمونسون... الآن لا شك أن الأمر سيستتبع أنه سيقف من أندرس الموقف الذي وقفه أبوه منه ، رجلاً شريفاً في أفكاره السرية كما في أفعاله المكشوفة .

... أحياناً جرت الأمور على نحو لم يفهم معه كيف استطاع أن يتحمل الأمر بعد الآن . لو أنه شاهد فحسب ولو علامة واحدة على أنها فهمت أي شيء! ولكنها كانت بالنسبة إليه كالأخ والأخت من أم وأب... حريصة على مصلحته ولطيفة ومحبة ورقيقة... ولم يكن يعرف كم سيدوم هذا... كم سيعيشان معاً على هذا النحو في منزل واحد . ألم يخطر في بالها قط أنه لم يستطع أن ينسى... أنه حتى لو كان متزوجاً من أختها ، إلاّ أنه لن يستطيع قط أن ينسى أنهما كانا سيتزوجان ذات يوم ؟

و لكن لديه ابن الآن . كان دائماً خجولاً فلا يضيف إلى كلماته تمنياته أو شكره حين يصلّي . ولكن يبدو أن المسيح ومريم العذراء كانا يعرفان جيداً أنه كان يكرر مرتين "أبانا الذي" و"السلام عليك يا مريم" في هذه الأيام الأخيرة . وكان سيحافظ على هذا طالما كان بعيداً عن البيت . ومن ناحية أخرى سيظهر امتنانه بأسلوب ملائم وكريم . وهكذا ربما سيكسب المساعدة في رحلته الحالية أيضاً .

على أي حال فقد كان يظن هو أيضاً أنه لن ينجم الكثير عن هذه الزيارة . فقد كان السير إرلينغ شديد الغربة عن الملك الآن . ومهما كان الوصي السابق على العرش قوي النفوذ وآمناً ، ومهما تكن حاجته إلى الخوف قليلة من الملك الشاب ، فمن كان ذا مركز حساس مثله -أغنى وأكرم رجل في النرويج من حيث المحتد- ولكن لا أمل في أن يكون راغباً في إغضاب

الملك ماغنوس وجعل الشك ينصب على نفسه لأنه كان على اطلاع بخيانة إرلند . وحتى لو كان له دور في ذلك... أجل حتى لو كان في أسفل الخطة كلها ، وجاهزاً للدخول ووضع نفسه على رأس الأمور في لحظة وجود ملك قاصر مرة أخرى على العرش... لن يشعر قط أنه مضطر إلى المخاطرة إطلاقاً إلى مساعدة رجل خرّب الخطة كلها لأجل مغامرة غرامية مخزية . لكأن سايمون قد نسي ذلك حين كان مع إرلند وكريستين... فقد بدا أنهما لا يتذكرانها بعد الآن . ولكن حدث أن إرلند قد جلب سوء الحظ بيده -كان فشل الخطة كلها وانتهاؤها إلى الدمار الذي حلّ بإرلند من عمل إرلند نفسه - كما جلب سوء الحظ أيضاً للرجال الطيبين الذين خانهم هو بدناءته وحماقته .

و لكن عليه أن يطرق كل الأبواب ليساعدها هي وزوجها . والآن بدأ يأمل . ربما سيقدم الرب ومريم العذراء أو بعض القديسين الذين اعتاد هو على تقديم النذور لهم والحسنات باسمهم مساعدتهم في هذا أيضاً .

•

وصل إلى آكر في وقت متأخر من مساء اليوم التالي . قابله وصيف وأرسل الرجال ، بعضهم مع الجياد والبعض مع تابع سايمون إلى مبنى الخدم . بينما مضى سايمون بنفسه إلى العلية حيث كان الفارس جالساً يشرب . خرج سير إرلينغ نفسه إلى الشرفة على الفور ووقف هناك بينما كان سايمون يصعد الدرج . ثم حيّا ضيفه بما يكفي من اللياقة ، وقاده نحو القاعة حيث كان ستيغ هاكونسون من ماندفيك مع ابن إرلينغ الوحيد ، بيارن إرلينغسون ، وهو شاب يافع تماماً .

تم الترحيب به على نحو جميل -أخذ الخدم منه ملابسه الخارجية وأدخلوا اللحم والشراب . ولكنه حزر أن الرجال خمّنوا -على الأقل السير إرلينغ وستيغ- سبب قدومه ، وأحسّ أنهم كانوا يتراجعون . لذلك حين بدأ ستيغ يقول كم من النادر مشاهدته في هذا الجزء من البلاد وكم من النادر أن يطرق أبواب أنسبائه السابقين- وسأله إن كان قد سافر ذات مرة إلى ما دون دايفرين منذ أن ماتت هالفريد... فأجاب سايمون : لا ، ليس قبل هذا الشتاء . ولكنه كان في أوسلو منذ بضعة شهور مع أخت زوجته كريستين لافرانسداتر زوجة إرلند نيكولاوسون .

عند هذا ساد صمت قصير . ثم سأل سير إرلينغ بلباقة عن حال كريستين وعن زوجة سايمون وعن أخوته وأخواته . سأل سايمون عن حال الليدي إلين وبنات إرلينغ ، وكيف هي أمور ستيغ ، وجيرانه القدامى في ماندفيك وعن الأنباء القادمة من هناك .

كان ستيغ هاكونسون بديناً ، داكن الشعر ، ويكبر سايمون ببضع سنوات ، وهو ابن أخ هالفريد إرلينغسداتر غير الشقيق ، أي ابن السير هاكون توريسون ، وابن أخ زوجة إرلينغ فيدكونسون ، الليدي إلين توريسداتر . لقد خسر حاكمية سكيدو وحاكمية قلاع تونسبرغ قبل شتائين ، حين سقط مع الملك . ولكنه كان لا يزال في حال جيدة مع أملاكه في ماندفيك . إلاّ أنه كان أرمل ودون أولاد . كان سايمون يعرفه جيداً وكانا صديقين جيدين كما كان مع كل أقرباء زوجته الأولى -حتى لو لم تكن تلك الصداقة شديدة الدفء . كان يعرف جيداً كيف كانوا ينظرون إلى زواج هالفريد الثاني -فقد كان الابن الثاني للسير أندرس غودموندسون رجلاً غنياً من محتد كريم ، ولكنه لم يكن نداً لهالفريد إرلينغسداتر ، كما كان

يصغرها بعشر سنين . لم يفهموا السبب في وقوعها في حب هذا الشاب... ولكنهم تركوها تفعل ما تريد حيث أنها كانت في بؤس لا يحتمل مع زوجها الأول .

لم يكن سايمون قد قابل إرلينغ فيدكونسون سوى مرات قليلة من قبل . وكان ذلك دائماً في صحبة الليدي إلين . في مثل تلك المناسبات لم يكن ينطق بالكثير... فما كان أحد في حاجة إلى أن يقول أكثر من أجل وكلا حين تكون هي حاضرة . كان السير إرلينغ قد شاخ كثيراً منذ آخر مرة... ولقد أضحى أبدن ، ولكن شكله كان لا يزال وسيماً ونبيلاً ، فقد كان يتحرك على نحو رشيق ، وكان يلائمه أن شعره الأصفر المحمرّ الفاتح قد تحول الآن إلى اللون الرمادي الفضي اللامع .

لم يكن سايمون قد شاهد بيارن إرلينغسون من قبل . كان قد ربّي قرب بيورغفين في منزل أحد الكهنة ، وهو صديق لإرلنغ - ولكن كان يقال في أوساط الأقرباء إن السبب في هذا كان أن أباه لا يريده أن يعيش في "غيسكه" في وسط مجموعة من النساء الحمقاوات . لم يكن إرلينغ نفسه يتواجد هناك أكثر من الحالات الضرورية ، ولم يجرؤ على اصطحاب الصبي معه في رحلاته الدائمة ، فقد كان بيارن ضعيف البنية ومريضاً في يفاعته ، وكان أبوه قد فقد ابنين آخرين في طفولتهما .

بدا الشاب وسيماً جداً وهو جالس والضوء من خلفه ، وقد ظهر جانب من وجهه . كان شعره الأسود المجعد الكثيف قد تهدل فوق جبينه ، أما عيناه الواسعتان فبدتا سوداوين ، أما أنفه فكان كبيراً وذا انحناءة قوية ، والفم ممتلئاً وقاسياً وجميلاً والذقن جيد التشكيل . كما كان طويلاً رشيقاً عريض المنكبين . ولكن حين اضطر سايمون إلى الجلوس إلى المائدة

لتناول الطعام ، فإن الخادم حرك الشمعة ، فرأى سايمون أن جلد عنق بيارن كان متآكلاً من ندوب سل الغدد اللمفاوية... كانت تمتد على كلا الجانبين تحت الأذنين وتحت الذقن ، بقع بيضاء ميتة وخطوط حمراء زرقاء وعقد متورمة . كما كان من عادة بيارن أن يجذب المرة تلو الأخرى قلنسوة عباءته المخملية ذات الحاشية الفرو التي كان يرتديها حتى هنا في الغرفة - وكان يجذبها نحو الأعلى فوق رأسه . وحين أصبح الجو شديد الحرارة عليه ، راح يقلبها نحو الأسفل ، ثم يرفعها إلى الأعلى ثانية... لم يبد عليه أنه كان واعياً لما يفعله . أحس سايمون بيديه تضطربان أخيراً من النظر إلى هذا... رغم أنه حاول منع نفسه من النظر .

لم يكن السير إرلينغ يرفع نظره إلاّ بالكاد عن ابنه... ولكنه لم يبد عليه هو أيضاً أنه يعرف أنه كان يحدق بكل تصميم إلى الشاب . كان وجه إرلينغ فيدكونسون ثابتاً لا يتغير وكانت عيناه الزرقاوان الفاتحتان لا تكشفان إلا القليل من مشاعره... ولكن تحت ذلك كانت النظرة الغامضة الندية بدا كامناً هناك القلق والأفكار وحب السنوات التي لا نهاية لها .

و هكذا تبادل الرجال الثلاثة الكبار حديثاً لبقاً بطيناً بينما راح سايمون يأكل ، وجلس الشاب يعبث بقلنسوته . لاحقاً جلس الأربعة يشربون لبعض الوقت ، ثم سأل السير إرلينغ إن لم يكن سايمون مرهقاً من رحلته ، وسأل ستيغ إن كان يود النوم معه . كان سايمون سعيداً لأنه تمكن من تأجيل التحدث في مهمته . لقد تركته الليلة الأولى في آكر حزيناً جداً .

في اليوم التالي حين تطرق إلى القضية ، كان جواب السير إرلينغ قريباً جداً مما توقعه سايمون . قال إن الملك ماغنوس لم يصغ إليه قط عن طيب خاطر ، وقد لاحظ أنه منذ أن أصبح ماغنوس إيريكسون في سن تؤهله

لتكون له إرادته الخاصة فإن رغبته كانت هي أن يبقى إرلينغ فيدكونسون بعيداً عن التدخل في شؤونه ما أن يبلغ سن الرشد . ومنذ النزاع بينه وبين أصدقائه من ناحية والملك من الناحية الأخرى لم يسمع من الملك وأصدقاء الملك أي شيء ، ولا هو حاول أن يسمع . ولو أنه تدخل لصالح إرلند لدى الملك ماغنوس ، لن تكون هناك فائدة تذكر لإرلند في ذلك . لقد كان يعرف جيداً أن كثيرين في هذه البلاد يعتقدون أنه وراء خطة إرلند . ولكن سواء صدقه سايمون أم لم يصدقه ، فلم يكن هو أو أي من أصدقائه على علم بما كان يخطط له . ولو أن هذه القضية تكشفت بأسلوب آخر ، أو لو أن هؤلاء الشبان المتهورين المغامرين قاموا بمغامرتهم وفشلوا ، عندها كان سيتدخل ويحاول أن يقيم الصلح . ولكن بما أن ما جرى قد جرى ، فهو لا يعتقد أن أي شخص قادر على أن يطالبه على نحو عادل بالتقدم وبالتالي أن يدعم شكوك كل الناس بأنه قد مارس دوراً مزدوجاً .

و لكنه نصح سايمون باللجوء إلى أولاد هافتور . كانوا أولاد عم الملك ، وحين لا يكونون في حالة نزاع معه ، فهم أصدقاؤه نوعاً ما . وضمن ما فهمه إرلينغ من القضية ، فإن الرجال الذين كان إرلند يحميهم قد يكونون على الأغلب بين أعضاء حزب آل هافتورسون ، وبين أصغر النبلاء سناً .

كان سايمون يعرف الآن أن الملك سيقيم حفل زفافه في النرويج هذا الصيف . وقد تكون هذه فرصة ملائمة لماغنوس ليبدي رقة وتسامحاً مع أعدائه . كانت أم الملك والليدي إيزابيل ستحضران دون شك حفل الزفاف . وبما أن أم سايمون كانت وصيفة شرف للملكة إيزابيل في شبابها ، فقد يلجأ سايمون إلى الليدي إيزابيل ، أو قد ترمي زوجة إرلند بنفسها أمام عروس الملك والليدي انجبيورغ هاكونسداتر وتتوسل إليهما أن تتدخلا

لأجل العفو عن زوجها .

فكر سايمون في أن آخر فرصة أمامه هو أن يطلب من كريستين الركوع أمام الليدي انجبيورغ . لو كانت الدوقة تعرف ما هو الشرف حقاً ، لكان عليها أن تتقدم منذ زمن طويل وتنقذ إرلند من محنته . ولكنه حين ذكر هذا مرة أمام إرلند ، ضحك هذا وقال إن الليدي لديها دائماً مسائل حساسة تخصّها وترعاها ، ولاشك أنها كانت غاضبة ، حيث أنه كان يبدو الآن أن أعز أطفالها إليها لن يحمل لقب الملك إطلاقاً .

٧

كان الربيع قد حلّ حين سافر سايمون أندرسون شمالاً إلى "توتن" ليحضر زوجته وابنه الصغير ويصطحبهما إلى بيته في فورمو . ثم بقي هناك فترة ليرعى شؤونه الخاصة .

ما كانت كريستين لترضى الانتقال من أوسلو . لم تكن تجرؤ على الاستسلام أمام شوقها الحارق التوّاق إلى أولادها الذين كانوا في "ديل" . أما أن تبقى صامدة وتتحمل الحياة التي كانت تحياها الآن من يوم لآخر ، فعليها بالتالي ألاّ تفكر في أطفالها . لقد صمدت ، وبدت هادئة وشجاعة . كلمت الغرباء وأصغت إليهم ، كما استمعت إلى نصائحهم وتشجيعاتهم . ولكن حتى تقوم بذلك عليها أن تتشبث بالتفكير بإرلند ، وإرلند وحده! في اللحظات الشاردة حين كانت غير قادرة على جعل إرادتها تتحكم بأفكارها ، كانت الصور والأفكار تمر مسرعة عبر ذهنها : كان إيفار واقفاً في الكوخ الخشبي في فورمو مع سايمون ، يراقب زوج خالته باهتمام بينما راح هذا يبحث عن قضيب خشبي لأجل أن يصنع منه مقبضاً لبلطة الصبي ، فراح يلوي القضبان ويختبرها بيديه . كان وجه غاوته الصبياني الوسيم رجولي الملامح وهو ينحني إلى الأمام مقاوماً العاصفة الثلجية في ذلك اليوم الشتائي الرمادي

في الجبال... لقد انزلقت زحافة الجليد خاصته فغرق في الثلج على المنحدر ، وهبط عميقاً في الثلج المكدس... كان سيماؤه الرجولي قد تلاشى كله لبرهة ، فأصبح طفلاً شديد القلق عاجزاً . وتلتفت أفكارها إلى الصغيرين . كان مونان قادراً على الكلام والمشي قليلاً الآن... هل كان جميلاً مثلما كان الآخرون وهم في سنه ؟ لا شك أن لافرانس قد نسيها الآن . كما أن الاثنين الأكبر سناً في الدير الآن في "تاوترا"... ناكفه ، ناكفه ، بكرها... إلى أي حد كان هذان الأكبر سناً يفهمان وما هي أفكارهما ؟ كيف استطاع ناكفه ، وهو طفل لا يزال ، أن يتحمل فكرة أنه لا شيء في الحياة سيكون بالنسبة إليه الآن كما كانت تظن هي ويظن هو وكل الناس الآخرين أنها ستكون ؟

كان سيرا آيليف قد أرسل إليها رسالة ، وقد حكت لإرلند ما كان فيها من أخبار عن أبنائهما . ولم يتحدثا عن أولادهما إلآ عبر هذه الرسالة . ما عادا يتكلمان عن الماضي أو المستقبل . كانت كريستين تجلب له قطعة ملابس أو طبقاً من الطعام . كان يسألها عن أموالها منذ أن رآها آخر مرة . كانا يجلسان يداً بيد على سريره . ثم قد يحدث أحياناً أن يتركا لوحدهما برهة في الغرفة الصغيرة الباردة المنتنة... وكانا يتلاصقان في عناقات خرساء حارقة ، ويسمعان دون أن يلاحظا ذلك خادمة كريستين وهي تضاحك الحارس في الخارج على الدرج .

لديها ما يكفي من الوقت ، ريثما يتبين لها إن كان سيؤخذ منها أو يُردّ إليها ، حتى تواجه التفكير في فصيلة الأولاد التي لديها والتغيير الذي سيحصل في مصيرهم... التفكير في كل شيء آخر في حياتها وهذا الرجل ليس إلى القرب منها . لم تكن قادرة على تحمل خسارة ساعة واحدة من الزمن الذي كان قد تُرك لهما ليقضياه معاً ، ولم تكن تجرؤ على التفكير في

الاجتماع مجدداً بالأولاد الأربعة الذين خلفتهم في الشمال... لذلك كانت مستعدة للموافقة حين عرض عليها سايمون أندرسون أن تذهب وحدها إلى تروندهايم ، وأن ترعى ، مع آرن غيافالدسون ، مصالحها في تسوية الأملاك المصادرة . لن يكون الملك ماغنوس أغنى مع حصوله على أملاك إرلند... كان الرجل مديوناً أكثر مما كان يدري هو نفسه ، وقد جمع أموالاً أرسلت إلى الدانمارك وسكوتلاندا وانكلترا . هزّ إرلند كتفيه وقال بنصف ابتسامة إنه لم يكن يتطلع الآن إلى أن يحصد أي مردود منها .

هكذا كانت حال إرلند حين عاد سايمون إلى أوسلو حوالي عيد الصليب في الخريف (١٤ أيلول / سبتمبر) . ولكنه جزع حين رأى كم كانا يبدوان مرهقين ، كريستين وعديله ، وأحس بغثيان غريب مزعج في قلبه حين لم يعد لديهما من السيطرة على النفس ما يكفي ليوجها إليه الشكر لقدومه إلى هناك في ذلك الوقت من العام ، حين يكون من الصعب عليه الابتعاد عن أملاكه . ولكن كانت وجوه الناس كلها متجهة الآن نحو تونسبرغ حيث كان الملك ماغنوس قد وصل منتظراً عروسه .

في فترة لاحقة من الشهر نفسه ، استطاع سايمون أن يستأجر مكاناً في سفينة متجهة إلى هناك مع بعض التجار الذين كانوا سيبحرون لمدة ثمانية أيام . وفي صباح أحد الأيام قدم خادم غريب ليرجو سايمون أندرسون أن يتفضل بالقدوم فوراً إلى كنيسة القديس هالفارد... فقد كان أولاف كيرنينغ بانتظاره هناك .

كان نائب أمين الخزينة شديد الانفعال . كان مسؤولاً عن القلعة خلال وجود أمين الخزينة في تونسبرغ . وفي المساء السابق وصلت مجموعة من السادة قدموا له خطاباً مختوماً بخاتم الملك ماغنوس ، ويفيد الخطاب بأن

عليهم النظر في قضية إرلند نيكولاوسون . وقد أحضر السجين إليهم . كان ثلاثة منهم من الأجانب ، فرنسيين لاشك... لم يفهم أولاف لغتهم ، ولكن القس كلمهم باللاتينية هذا الصباح ويقال إنهم أقرباء الليدي التي ستصبح ملكتنا... بداية رائعة!" لقد استجوبوا إرلند تحت التعذيب... كان معهم نوع من السلم وقد اعتاد بعض الناس استخدام مثل هذه الأمور . واليوم رفض إخراج إرلند من زنزانته ، ووضع عليه حراسة مشددة... فقد كان مستعداً لتحمل المسؤولية عن ذلك ، فقد كان ما يفعلونه غير قانوني ، ولم يسبق أن ارتكب مثله في النرويج من قبل!

اقترض سايمون حصاناً من أحد كهنة الكنيسة وانطلق مع أولاف فوراً إلى أكرسنس .

نظر أولاف كيرنينغ بخوف بعض الشيء إلى وجه الرجل الآخر المكفهرّ ، والذي كانت تهب على وجهه أمواج حمراء عاصفة . تكراراً كان سايمون يقوم بحركة عنيفة طائشة ، وكأنه لا يعرف ما يفعله... وراح الحصان الغريب يثب جانباً ، يشب على قائمتيه الخلفيتين ويتوقف فجأة تحت راكبه .

قال أولاف كيرنينغ : "يستطيع المرء أن يرى أنك غاضب ."

لم يكن سايمون نفسه يعرف ما كان الأمر الرئيسي في ذهنه . كان شديد الانفعال حتى الأعماق حتى أنه شعر أحياناً بنوبات من الغثيان . كان الشعور الأعمى المجنون الذي راح يصطرع في أعماقه ويصل به إلى الغضب الأقصى نوعاً من العار... رجل عاجز ، دون سلاح أو دفاع ، يضطر إلى تحمل قبضات رجال غرباء تقتحم ملابسه ، غرباء يخاشنون جسده... كان ذاك يشبه اغتصاب النساء . أحس بالدوار من التعطش إلى الانتقام ، والتوق إلى

رؤية الدماء تراق لأجل ذلك . لا... لم تكن مثل هذه الأمور من عادات وتقاليد هذه البلاد... هل سيجعلون النبلاء النرويجيين يعانون من مثل هذه الأمور... ؟ لا يجب أن يحصل هذا قط!

كان يشعر بالغثيان لشدة الرعب مما كان سيراه... سيطر عليه الخوف من العار الذي سيجلبه على شخص آخر لرؤيته في مثل هذه الحالة ممّا ألغى كل المشاعر الأخرى ، وذلك حين فتح له أولاف كيرنينغ باب زنزانة إرلند .

كان إرلند ممدداً على الأرض منحرفاً من إحدى زوايا الغرفة إلى الأخرى . كان طويلاً جداً إلى حد أنه لم يكن يجد مجالاً كافياً له ليتمدد بكامل طوله . كان بعض القش والملابس قد فرشت تحته فوق الطبقة السميكة من القذارة التي تغطي الأرضية ، وكان جسده مغطى كله بعباءة زرقاء داكنة مبطنة بالفرو حتى ذقنه ، حتى أن الفرو الرمادي البني لحيوان الدلق كان يختلط باللحية السوداء المجعّدة التي نمت لإرلند خلال وجوده في السجن .

كان فمه يبدو أبيض اللون من خلال اللحية . أما وجهه فكان أبيض كالثلج . كان المثلث المستقيم الكبير للأنف يبرز على نحو ضخم فوق الخدين الغائرين ، والشعر الذي وخطه الشيب قد تكتل نحو الوراء فوق الجبين الضيق العالي في خصل دبقة منفصلة... وعلى كل واحد من الصدغين الغائرين كانت علامة زرقاء حمراء كبيرة ، كأن شيئاً ما كان قد ضغط عليهما أو أمسك بهما في تلك البقعة .

ببطء ، وبجهد ، فتح عينيه الزرقاوين الكبيرتين بلون البحر وحاول أن يرسم نوعاً من الابتسامة حين ميّز الرجل . بدا صوته كأنما هو من خلف ستار وغريباً .

"اجلس يا عديلي..." حرك رأسه قليلاً نحو السرير الفارغ . "أجل... لقد تعلمت الآن شيئاً جديداً نوعاً ما... منذ أن تقابلنا لآخر مرة..."

انحنى أولاف كيرنينغ فوق إرلند وسأل إن كان هناك أي شيء يريده . لم يكن هناك جواب... لاشك أن إرلند لم يكن قادراً على الكلام... وقد رفع العباءة عنه . كان إرلند يرتدي مجرد سروال داخلي من الكتان وبقايا قميص... وقد هزّ منظر الأعضاء المتورمة التي فقدت لونها سايمون وأثار جنونه كشيء مثير للرعب وكريه . وقد تساءل إن كان لدى إرلند شعور مشابه... هبط ظل أحمر فوق وجهه بينما راح أولاف يمرّر قماشة مبلّلة ، كان يغمسها في دلو من الماء ، فوق ذراعيه وأعضائه . وحين أعاد وضع العباءة ثانية ، دفعها إرلند إلى مكانها ببعض الحركات الصغيرة من أعضائه بأن جرّ القلنسوة إلى الأعلى بذقنه حتى أصبح مغطى تماماً .

قال إرلند : "أجل" . كان صوته قد أصبح أقرب إلى صوته المألوف الآن ، والابتسامة على فمه كانت أوضح قليلاً . "في المرة التالية... سيكون الأمر أسوأ! ولكنني لست خائفاً... لا حاجة إلى أحد أن يكون خائفاً... لن ينتزعوا مني شيئاً بهذه الطريقة..."

أحس سايمون في داخله أن الرجل كان ينطق بالحقيقة . لن ينتزع التعذيب كلمة واحدة من إرلند نيكولاوسون . لم يكن هناك أي شيء لا يمكنه فعله ، ولا شيء لا يمكن أن يكشفه في حالة غضب أو تهور... ولكنه لن يتزحزح قيد شعرة بالقوة . وأحس سايمون أن العار والإهانة اللتين عانى منهما هو نيابة عن رجل آخر لم يكن هذا يشعر بهما إطلاقاً... كان ممتلئاً بمتعة عنيدة في تحدي المعذّبين وبثقة ، بمدى صلابته ، نابعة من رضى ذاتي . هو الذي كان ينهار على نحو مثير للشفقة لدى مواجهته لإرادة قوية ،

والذي كان هو نفسه قاسياً في لحظة خوف ، هاهو يبزّ نفسه الآن حين أحس أن في هذه الوحشية معارضاً أضعف من نفسه .

و لكن جواب سايمون خرج يزأر عبر أسنانه :

"المرة التالية... لا أعتقد أنه ستكون هناك مرة ثانية! ما رأيك يا أولاف ؟"

هزّ أولاف رأسه ، ولكن إرلند قال بنوع من القحة المتهورة المألوفة في صوته :

"أجل ، لو كنت قادراً فحسب -على تصديق ذلك- بقدر ما تصدقه أنت! ولكن هؤلاء السادة لن يكتفوا بهذا فحسب..." أصبح واعياً بملامح سايمون الثقيلة العصبية : "كلا يا سايمون... يا نسيبي!"... كان إرلند يريد أن يرفع نفسه على مرفقه . ولكن الألم أخرج منه بالقوة أنيناً غريباً مكتوماً ، وعاد ليغرق في إغماءة .

اهتم به أولاف وسايمون باضطراب . حين عاد إلى وعيه ، كان إرلند متمدداً بعينين مفتوحتين . وعندها تحدث على نحو أكثر جدية :

"ألا ترى... أن الأمر يعني كثيراً لماغنوس... أن يتقفى آثار الرجال الذين عليه ألاّ يثق بهم...إلى أبعد مما يستطيع أن يراهم ؟ رغم الكثير من القلاقل ومن السخط..."

"أجل... إن كان يعتبر هذا سيقمع السخط..." ، قال أولاف كيرنينغ مهدداً . ثم قال إرلند بصوت خفيض وواضح :

"لقد تعاملت في هذا الأمر بحيث أن قلة من الناس ستعتبر... أنه أمر مهم كيف سينتهي الأمر بي... أعرف ذلك بنفسي..."

احمر وجها الرجلين الآخرين . كان سايمون يظن أن إرلند لم يكن يرى هذا بنفسه... ولم تكن الليدي سونيفا قد أشارت ولو مجرد إشارة من قبل إلى وجود شيء بينهما . والآن قال سايمون يائساً :

"كيف أمكنك أن تتصرف بكل هذا الطيش... هذا الجنون ؟"

"كلا ، لا أفهم ذلك أيضاً... حتى الآن" ، قال إرلند ببساطة . "و لكن... باسم الجحيم!... كيف أمكنني أن أفكر في أنها قادرة على قراءة الخط ؟ لقد بدت... جاهلة تماماً..."

تراخى جفناه وانغلقا وكان على وشك الإغماء مرة أخرى . همهم أولاف كيرنينغ حول إحضار شيء ما ، ثم خرج . انحنى سايمون فوق إرلند ، الذي كان متمدداً الآن بعينين نصف مفتوحتين .

"يا عديلي... هل كان إرلينغ فيدكونسون معكم في هذا ؟"

هز إرلند رأسه قليلاً ثم قال بابتسامة بطيئة :

"و حق المسيح كلا! لقد فكرنا... أنه إما لن يكون جريئاً بما فيه الكفاية للانضمام إلينا... أو أنه سيضع الأمور كلها بين يديه . ولكن لا تسأل يا سايمون... لن أقول شيئاً... إلى أي شخص... حتى أتأكد من ألاّ أدع أي شيء يفلت من لساني..."

و فجأة همس إرلند باسم زوجته . انحنى سايمون من فوقه ثانية... أمل في ألاّ يطلب منه الآخر أن يحضر كريستين إليه الآن . ولكنه قال بسرعة كأنما في رعشة حمى :

"عليها ألاّ تعرف بهذا يا سايمون . قل لها إن أمراً قد وصل من الملك بعدم السماح لأحد بزيارتي . خذها إلى مونان... إلى سكوغهايم...

أتسمع ؟..هؤلاء الفرنسيون... أو المغاربة... الأصدقاء الجدد... لملكنا... لن يتخلوا عن الموضوع بعد! أخرجها من المدينة قبل أن ينتشر الخبر! سايمون ؟"

"أجل ." كيف سيبلغها ذلك ، إنه لا يعرف .

بقي إرلند بعينين مغمضتين لفترة قصيرة . ثم قال بنوع من الابتسامة :

"فكرت الليلة الماضية... في تلك المرة ولدت فيها ابننا البكر... لم تكن في حال أفضل من حالي... إن كان المرء قادراً على الحكم من خلال صراخها . ولو كانت قادرة على تحمل ذلك... سبع مرات... لأجل متعتنا... أعتقد أني أستطيع..."

صمت سايمون . أحس بانكماش مخيف... من النظر إلى أعمق أسرار الحياة المتعلقة بالعذاب والمتعة... بدا إرلند وكأنه لم يختبرها بعد . لقد عبث بأسوأ وأجمل الأشياء ببساطة صبي لا يشعر بالذنب ، صبي جلبه أصدقاؤه معهم إلى ماخور وهو سكران وفضولي...

هزّ إرلند رأسه فاقد الصبر :

"هذا الذباب... هو أسوأ الكل... أعتقد أنه الشيطان القذر نفسه..."

خلع سايمون قبعته وراح يضرب عالياً ونازلاً التجمعات السميكة من الذباب الأزرق الأسود ، حتى طارت في الهواء في غيمة طنانة... ثم راح يدوس بجنون على الطين الذي على الأرض فوق الذبابات الدائخة . لم يكن هناك فائدة كبيرة من ذلك إذ كان ثقب الشباك في الجدار مفتوحاً... في الشتاء السابق ، كان مغلقاً بمصراع خشبي له ثقب مغطى بكيس ، ولكن ذاك جعل الغرفة شديدة العتمة .

و لكنه كان لا يزال يطارد الذباب حين عاد أولاف كيرنينغ مع كاهن يحمل كأس شراب . رفع الكاهن رأس إرلند ، وسقاه من الكأس وهو يسند له رأسه . كان مقدار كبير من السائل ينزل إلى لحيته ثم إلى عنقه ، ثم تمدّد بهدوء وسكون كأنه طفل بينما راح الكاهن لاحقاً يمسح الشراب المهدور بقماشة .

أحس سايمون بكيانه كله يغلي . راح الدم يقرع ويقرع في عنقه تحت الأذنين ، وبدأ قلبه يدق على نحو غريب مضطرب . نهض للحظة وراح يحدق من الباب إلى الجسد الطويل الممدد تحت العباءة . راحت سورة الحمى تأتي وتذهب في موجات فوق وجه إرلند . كان هناك بعينين لامعتين نصف مفتوحتين ، إلاّ أنه ابتسم لعديله ، إنها ظل ابتسامته الصبيانية الغريبة .

•

في اليوم التالي ، وبينما كان ستيغ هاكونسون من ماندفيك جالساً إلى مائدة الإفطار مع ضيفيه ، سير إرلينغ فيدكونسون وابنه بيارن ، سُمع وقع حوافر جواد وحيد في الباحة . وفي اللحظة التالية فتح باب القاعة بقوة ، ودخل سايمون أندرسون بسرعة نحوهم . مسح وجهه بكمه وهو داخل... كان مغطى حتى العنق بالطين المتناثر خلال رحلته على ظهر الحصان .

نهض الرجال الثلاثة لاستقبال القادم ، مع صرخات صغيرة نصفها للترحيب ونصفها تعبيراً عن الدهشة . لم يرد سايمون على تحياتهم... وقف متكئاً على سيفه ، وكلتا يديه على مقبض السيف وقال :

"هل تريدون سماع نبأ غريب ؟ لقد أخذوا إرلند نيكولاوسون ومدّدوه على مخلعة... إنهم بعض الأجانب الذين أرسلهم الملك ليستجوبوه..."

صرخ الرجال وهم يلتفون من حول سايمون أندرسون . ضرب ستيغ يداً بأخرى :

"ما الذي قاله... ؟"

في اللحظة نفسها التفت هو وبيارن إرلينغسون ، كأنما دون وعي ، نحو السير إرلينغ . انفجر سايمون ضاحكاً... ضحك وضحك .

جلس في الكرسي الذي سحبه لأجله بيارن إرلينغسون ، وتناول كوب الجعة الذي عرضه عليه الشاب وشرب بشراهة .

سأل السير إرلينغ بصرامة : "لم تضحك ؟"

"ضحكت على ستيغ ." جلس قليلاً إلى الأمام ويداه تستريحان فوق فخذيه الموحلتين... ومع ذلك فقد اندفع يضحك مرة أخرى أو مرتين ضحكات صغيرة . "كنت أظن... أننا نحن أبناء النبلاء ، جميعنا هنا... كنت آمل أنكم ستغضبون لأن واحداً منا تعرض لمثل هذه المعاملة ، أنكم ستسألون أولاً كيف يمكن السماح بمثل هذه الأشياء...

"لا أستطيع أن أقول إني أعرف بدقة ما ينص عليه القانون في مثل هذه المسائل . منذ أن مات سيدنا الملك هاكون ، فقد كان كافياً بالنسبة لي أن أقدم خدماتي إلى من يأتي إلى عرشه حين ينادي بذلك ، في الحرب والسلام ، وخلاف ذلك أمكث بهدوء في أرضي . ولكني لا أستطيع أن أرى في هذه القضية ضد إرلند نيكولاوسون سوى التصرفات غير القانونية . لقد حققت جماعته في القضية وأصدرت حكماً فيها... لا أعرف كم كانوا محقين في إصدار حكم الإعدام عليه... ثم عرض عليه إرجاء تنفيذ حكم الإعدام ثم نقله على نحو آمن ليقابل الملك ، قريبه... وذلك حتى يكون متاحاً منح إرلند

العفو والمصالحة معه... ومنذ ذلك الحين والرجل قابع في برج قلعة أكرس وقد مرّ عليه قرابة العام ، والملك كان خارج البلاد طوال هذه الفترة... وقد تم تبادل بعض الخطابات ولم يتم الوصول إلى نتيجة . ثم يرسل بعض الأوغاد -أشخاص ليسوا بالنرويجيين ولا هم من حرس الملك- وهؤلاء يتجرأون على استجواب إرلند على ذلك النحو الذي لم أسمع أن نرويجياً من قبل يتمتع بحقوق رجال الحرس قد عومل بمثله... هذا بينما السلام مخيم على البلاد وأصدقاء إرلند وأقرباؤه مجتمعون في تونسبرغ لحضور زفاف الملك...

"ما رأيك بهذا يا سير إرلينغ ؟"

"أعتقد..." جلس إرلينغ على المقعد مقابله . "أعتقد أنك قد عرضت المسألة بوضوح وبساطة يا سايمون دار . لا أرى أن الملك يستطيع أن يفعل سوى واحد من ثلاثة : إما أن يدع إرلند يدفع العقوبة حسب الحكم الصادر في نيداروس... أو عليه أن يختار محكمة جديدة من رجال الحرس على أن يدعي على إرلند رجل لا يحمل لقب فارس ، وهؤلاء سيحكمون على إرلند على أنه خارج على القانون مع منحه الإرجاء حسب ما يسمح به القانون لفترة يستطيع معها أن يبعد نفسه عن الملك ماغنوس... أو عليه أن يمنح إرلند العفو للمصالحة معه . وهذا سيكون أكثر القرارات التي يستطيع أن يصدرها حكمة .

"تبدو لي هذه القضية الآن شديدة الوضوح حتى أن أي شخص ستعرضها عليه في تونسبرغ سيشاركك الرأي ويقف إلى جانبك . يون هافتورسون وأخوه هناك . إرلند قريبهما بالدرجة نفسها كما هو قريب الملك . كما أن على الأخوة أوغموندسون أن يروا أن هذا التصرف ظالم وأحمق . كان الأجدر بك أن تذهب أولاً إلى رئيس التشريفات وتطلب إليه هو والسير بال

إريكسون أن يدعوا إلى اجتماع لرجال الملك المحلفين الموجودين في البلدة وأن يأخذوا المسألة بين أيديهم وهذا أنسب الحلول..."

"ألن تذهب معي أنت وأقرباؤك يا سيدي ؟"

"لا نرغب بالذهاب إلى احتفال الزفاف" ، قال إرلينغ باختصار .

"أولاد هافتور صغار السن... والسير بال عجوز ومريض... والآخرون... أنت تعرف بنفسك يا سيدي... لا شك أن لديهم بعض النفوذ ، عبر رضى الملك وما شابه ، ولكن... يا إرلينغ فيدكونسون ، من هم بالمقارنة معك ؟ أنت يا سيدي لك من النفوذ في هذه البلاد ما ليس لأي زعيم آخر منذ... منذ زمن لا أعرف مقداره . من خلفك يا سيدي تقف الأسر العتيقة التي عرفها الناس في هذه البلاد رجلاً رجلاً ، إلى أن نعود إلى الوراء مع ما يحفظه السجل من الأزمان الرديئة والأزمان الجيدة في أريافنا هنا . من ناحية الأب... فما هو مولد ماغنوس آيريكسون أو أولاد هافتور أو سوردهايم بالمقارنة مع مولدك... هل ثرواتهم تستحق الذكر بالمقارنة مع ثرواتك ؟ هذه النصائح التي تسديها إليّ... كلها تستغرق وقتاً ، وهؤلاء الفرنسيون في أوسلو ، ويمكنك أن تراهن بروحك على أنهم لن يستسلموا بسهولة... لقد بعث أولاف كيرنينغ بخطابات إلى كل السادة الذين استطاع أن يجدهم لينضموا إليه ، وقد وعد الأسقف بأنه سيكتب خطابات... ولكن هذا الاضطراب والنزاع ، يا إرلينغ فيدكونسون ، تستطيع أنت وضع حد له ، في الساعة نفسها التي تقابل فيها الملك ماغنوس . أنت تقف على رأس ورثة أولئك الذين حكموا هذه الأرض في غابر الزمان... والملك يعرف أنك تريدنا جميعاً من خلفك" .

"لا أستطيع القول إلا بالكاد إني لاحظت كل هذا منذ بعض الوقت" ،

قال إرلينغ بمرارة . أنت تتحدث بدفء دفاعاً عن عديلك يا سايمون –و لكن ألا تستطيع أن تفهم ؟ الآن لا أستطيع حراكاً . سيقال : في اللحظة نفسها التي مورس فيها الضغط الشديد على إرلند حتى ليخشى المرء ألاّ يكون قادراً على إبقاء لسانه بين أسنانه... في تلك اللحظة تدخلت أنا!"

ساد الصمت برهة . ثم سأل ستيغ ثانية :

"هل تكلم إرلند ؟"

أجاب سايمون نافذ الصبر : "لا . لقد أمسك عليه لسانه . وأعتقد أنه سيتابع ذلك يا إرلينغ فيدكونسون" ، قال بتوسل ." إنه قريبك... وكنتما صديقين..."

تنفس إرلينغ بأنفاس قصيرة ثقيلة مرة أو مرتين .

"أجل يا سايمون أندرسون . هل فهمت تماماً ما كان إرلند نيكولاوسون يخطط له ؟ أن يضع نهاية لهذه المشاركة للملك مع السويديين –هذا النوع من الحكم الذي لم يسبق أن جُرّب من قبل– وهي المشاركة التي تبدو وكأنها تجلب المزيد ثم المزيد من الصعوبات والمشاكل للبلاد مع كل سنة تمرّ ؛ وأن يعيدنا إلى الملكية التي عرفناها سابقاً والتي نعرف أنها تجلب الحرب والحظ الجيد . ألا ترى أن هذه نصيحة حكيمة وجريئة... وأن هذه النصيحة لا يمكن أن يتابعها أحد بعده ؟ لقد خرّب قضية أولاد كنوت بورس... ولا يوجد رجال آخرون من البيت الملكي يستطيع الناس التحلق من حولهم . قد تقول إنه لو نفذ إرلند نيته وجلب الأمير هاكون إلى النرويج ، لكان سيصبح تحت سيطرتي . ما كان هؤلاء الشبان الصغار بقادرين على القيام بما هو أكثر من جعل الصبي (الأمير) يهبط في النرويج... ما كانوا قادرين على الاستمرار بخططهم دون الرجال الحكماء

الذين كان عليهم التقدم وإنجاز ما تبقى عمله . هكذا هو الأمر... أتجرأ على الاعتراف بذلك . ومع ذلك فالرب يعرف أني لم أكسب شيئاً... أفضل بالأحرى أن أهتم بشؤوني الخاصة... في تلك السنوات العشر حين كنت أعيش في قلق وجهد وكفاح ومشاكل لا نهاية لها... لم يفهم سوى القليل من الرجال هذا ، وعليّ أن أقنع حتى بذلك ." ضرب بيده بقوة على المائدة . "ألا ترى يا سايمون أن الرجل الذي حمل على كاهله مثل هذه الخطط الهائلة التي لا يعرف أحد إن كانت مصلحتنا جميعاً في هذه البلاد ومصلحة أولادنا لأجيال قادمة تتوقف عليها... رمى بذلك كله عنه مع بنطاله على سرير عاهرة!... أقسم بدم الرب... ألن يكون جزاؤه عادلاً لو تلقى العقوبة التي نالها أودون هستاكورن ؟"

ثم تابع على نحو أكثر هدوءاً :

"و مع ذلك يسعدني إنقاذ إرلند . وإياك أن تصدق أني لم أغضب حين سمعت بالنبأ الذي أبلغتنا به . وأعتقد أنك لو اتبعت نصيحتي ، ستجد رجالاً بعدد كاف ينضمون إليك في هذه القضية . ولكني لا أعتقد أن رفقتي ستقدم المساعدة لك إلى حد أنه من أجلها سيكون عليّ أن أمثل أمام الملك دون دعوة منه ."

نهض سايمون ، متيبساً وثقيلاً . كان وجهه مضطرباً رمادي اللون من القلق . مضى ستيغ هاكونسون وأخذه من كتفيه... سيجلب بعض الطعام الآن . لقد انتظر حتى انتهى الحديث قبل السماح للخدم بالدخول . ولكن على سايمون الآن أن يقوي نفسه باللحم والشراب وينام ناسياً الموضوع . شكره سايمون... عليه أن يتابع سيره إن كان ستيغ قادراً على تزويده بحصان مرتاح . وهل له أن يمنح المأوى لخادمه "يون دالك" لهذه الليلة ؟... كان على

سايمون أن يترك الرجل خلفه على الطريق ، إذ لم يستطع حصانه مجاراة "ديغربايْن" (السيقان الكبيرة) في العدو . أي ، لقد ركب معظم الليل -كان يظن أنه يعرف الطريق هناك جيداً- ومع ذلك فقد ضلّ مرة واحدة .

رجاه ستيغ البقاء حتى الغد ، وكان سيصطحبه -على الأقل لجزء من الطريق- أجل ، وقد يتابع معه حتى تونسبرغ أيضاً...

قال سايمون :

"لم يعد لديّ سبب يدعوني للبقاء ، سأذهب إلى الكنيسة... وحيث أني وصلت إلى هنا مرة أخرى ، فإني أودّ أن أصلي حيث يرقد جثمان هالفريد..."

اندفع الدم ورنّ في جسمه المتعب . راح قلبه يدق بعنف . كان الأمر أشبه بمن عليه أن يسقط ورأسه في المقدمة . كان كمن هو نصف مستيقظ . ولكنه سمع صوته يقول بهدوء وتوازن :

"ألن ترافقني يا سير إرلينغ ؟ أعرف أنها تعتبرك الأعز عليها بين كل أقربائها ."

لم ينظر إلى الرجل الآخر ، ولكنه أحس به يتصلب . وخلال وقت قصير سمع ، عبر اندفاع دمائه وغنائها ، صوت إرلينغ فيدكونسون الواضح والدمث :

"سأفعل ذلك عن طيب خاطر يا سايمون دار... الطقس عاصف" ، قال وهو يتزنر بسيفه ويرمي بعباءة ثقيلة من حول كتفيه . وقف سايمون ساكناً كصخرة حتى استعد الآخر . ثم خرجا .

في الخارج كان مطر الخريف يهطل بقوة ، وكان الضباب يندفع من

البحر إلى حد كثيف جداً حتى أنهما ما كانا قادرين إلاّ بالكاد أن يريا أكثر من أمتار قليلة عبر الحقول وأجمات الأشجار الصفراء المحيطة بالممر من كل جانب . لم يكن الطريق طويلاً إلى الكنيسة . أحضر سايمون المفتاح من منزل القس المجاور... كان سعيداً لأنه لاحظ أنهما شخصان جديدان ولذا سيوفران عليه كثيراً من الكلام .

كانت كنيسة حجرية صغيرة ذات مذبح واحد . ودون اهتمام شاهد سايمون مجدداً الصور والزينة نفسها التي رآها مئات المرات ، بينما كان راكعاً قرب الضريح الرخامي الأبيض بعيداً عن إرلينغ فيدكونسون بمسافة قصيرة ، وهو يتلو صلواته ، ويرسم إشارة الصليب على نفسه حيث كان ملائماً... دون أن يعرف ما كان يفعله .

لم يفهم هو نفسه أنه كان قادراً على محاولة هذا . ولكنه كان الآن في وسط المسألة . لم يكن يعرف ما يحكيه... ولكن لشدة مرضه من الرعب والعار ، كان يعرف أنه سيقوم بالمحاولة مهما كان الثمن .

تذكر وجه المرأة الأبيض المتألم الشائخ الغارق في عتمة السرير ، وصوتها الجميل الرقيق... في عصر ذلك اليوم حين جلس على حافة سريرها وحكت له . كان ذلك قبل شهر من ميلاد الطفل... وتوقّعت هي أن يكلفها حياتها... وكانت راغبة وسعيدة في أن تشتري ابنهما بذلك الثمن الغالي جداً . كانت المرأة المسكينة ترقد هنا تحت الصخرة الكبيرة في تابوت صغير إلى جوار أمها... لا ، لا يمكن لأي رجل أن يفعل ما كان ينوي هو فعله...

و لكن وجه كريستين الأبيض . كانت تعرف ما قد جرى حين عاد إلى البيت من أكرسنس في ذلك اليوم . كانت شاحبة وهادئة حين تحدثت عن

الأمر واستجوبته... ولكنه شاهد عينيها في لمحة قصيرة ، ولم يتجرأ على مواجهتها بعد ذلك . لم يكن يعرف أين كانت الآن أو ما قد فعلته... هل بقيت يا ترى في مكان سكنها أو هي مع زوجها ، أو هل استطاعوا إقناعها بالذهاب إلى سكوغهايم... لقد ترك الأمر بين يدي أولاف كيرنينغ وسيرا إنغولف... لم يعد قادراً على فعل المزيد ، وكان يعتقد أنه ليس عليه أن يخسر أي وقت...

لم يكن سايمون يعرف أنه أخفي وجهه بين يديه . هالفريد... لا عار ولا خطيئة في ذلك يا هالفريد العزيزة... ومع ذلك فما الذي قالته له هو زوجها... حكت عن أساها وحبها اللذين جعلاها تبقى تحت سقف الشيطان العجوز . لقد سبق له وقتل طفله تحت قلب أمه... وقد بقيت معه لأنها لن تغوي أعزّ أحبائها...

ركع إرلينغ فيدكونسون ووجهه عديم اللون واضح الملامح لا يبدي أي أمارة . رفع يديه إلى صدره وكفاه مضغوطتان معاً . بين الحين والآخر كان يرسم إشارة الصليب على نفسه بإشارة هادئة مرنة لبقة ، ثم يرفع بنانه معاً من جديد .

كلا ، فكر سايمون . كان هذا أمراً كريهاً لا يمكن لأي إنسان أن يفعله . ولا حتى لأجل كريستين يستطيع هو فعله... نهضا معاً ، وقدّما احترامهما للمذبح ، ثم هبطا نحو صحن الكنيسة . رنّ مهماز سايمون قليلاً عند كل خطوة كان يمشيها فوق الحجارة المرصوفة . وبما أنهما لم يتبادلا كلمة واحدة معاً منذ أن غادرا الضيعة ، لم يعرف سايمون إطلاقاً ما سيجري الآن .

أقفل باب الكنيسة . سار إرلينغ فيدكونسون عبر المقبرة . توقف تحت السقف الصغير للمدخل المسقوف . صعد سايمون ووقفا قليلاً تحت هذا الملجأ قبل أن يخرجا إلى المطر المنهمر .

تحدث إرلينغ فيدكونسون بهدوء وثبات ، ولكن سايمون أحس بالغضب الفاتر غير المحدود في داخل الرجل الآخر... لم يجرؤ على رفع نظره .

"باسم الشيطان يا سايمون أندرسون ، ما الذي قصدته من تدبيرك هذا ؟"

لم يستطع سايمون أن يجيب بكلمة واحدة .

"أتظن أنك تستطيع تهديدي... أن تجبرني على تنفيذ إرادتك... لأنك سمعت على الأرجح إشاعات كاذبة حول أمور حدثت حين لم تكن أنت قد فطمت عن ثدي أمك... ؟" صعد غضبه إلى السطح الآن .

هزّ سايمون رأسه :

"ظننت يا سيدي حين ذكرتها هي تلك الأفضل من الذهب الخالص... أنك قد تشفق ربما على زوجة إرلند وأولاده ."

نظر إليه سير إرلينغ... لم يجب ، بل بدأ يزيل الأشنات والطحالب عن حجارة جدار ساحة الكنيسة . ابتلع سايمون ريقه وبلّل شفتيه بلسانه :

"لا أعرف بالكاد ما كنت أفكر به يا إرلينغ فيدكونسون... ربما حين تذكرتها تلك التي عانت من كل تلك السنوات الشريرة... دون أي سلوان أو عون سوى من الرب وحده... عندها فحسب فإنك ستساعد هؤلاء المساكين... فأنت تستطيع ذلك!... بما أنك لم تستطع أن تساعدها هي . لو كنت قد ندمت في أي حين أنك ركبت مبتعداً عن ماندفيك في ذلك اليوم وتركت هالفريد تبقى وراءك تحت سيطرة السير فين..."

"و لكني لم أفعل ذلك!" كان صوت إرلينغ ثاقباً الآن . "لأني أعرف أنها

لم تفعل قط... ولكن أعتقد أنك لا تفهم ذلك . فلو أنك فهمت لساعة واحدة كم كانت فخورة بنفسها تلك السيدة التي تزوجتها" -ضحك في غضبه- "عندها لما كنتَ فعلتَ هذا . لا أعرف كم تعرف ، ولكن يمكنك أن تعرف هذا . لقد أرسلوني -إذ كان هاكون مريضاً في الفراش حينها- لإحضارها إلى بيت ذويها . كانت إلين وهي قد ترعرعتا معاً كأختين... كانا متقاربتين في السن رغم أن إلين كانت عمتها... وقد جرت الأمور على نحو جعلتنا نتقابل كل يوم وكل ساعة . كنا نجلس ونتحادث ، عبر الليل كله ، على شرفة "بيت التنين" وكل كلمة كنا نقولها هي وأنا أستطيع أن أتحمل مسؤوليتها أمام الرب يوم القيامة . ثم فليكن الرب من يجيب عنا ولماذا فعلنا ما فعلناه ..."

"رغم أن الرب كافأها على ورعها في النهاية . لقد منحها زوجاً جيداً ليواسيها بدلاً عن الزوج السابق -صبي حقير مثلك- كان يعاشر خادماتها في بيتها- وكان عليها أن تربي أنغالك..." رمى بعيداً بكرة الطحالب التي جمعها معاً .

وقف سايمون دون حراك أو كلام . قشر إرلينغ رقاقة من الطحالب مجدداً ورمى بها بعيداً :

"لقد فعلت ما أمرتني به هي . هل سمعت ما فيه الكفاية ؟ لم تكن هناك وسيلة أخرى . أين كان يمكن لنا أن نتقابل في هذا العالم... لقد مارسنا... (الزنا) ليست بالكلمة العادلة... (غشيان المحارم) كلمة أبشع منها حتى..."

حرك سايمون رأسه بإيماءة صغيرة متصلبة .

لقد أحس بذلك هو نفسه... كان أمراً مثيراً للضحك أن يقول ما كان يفكر فيه . كان إرلينغ فيدكونسون رجلاً في العشرينات ، دمثاً وشهماً .

وقد أحبته هالفريد كثيراً حتى أنها كانت تسعد بتقبيل آثار قدميه على العشب الرطب في الساحة في صباح ذلك اليوم الربيعي . كان هو مزارعاً كهلاً وضخماً وقبيحاً... وكريستين ؟ ما كانت لتفكر قط بأنه سيكون هناك خطر على روح أي منهما ، لو عاشا تحت سقف واحد مدة عشرين سنة . لا شك أنه قد تعلم كيف يفهم ذلك جيداً...

لذلك قال بصوت خفيض ، وبتواضع تقريباً :

"لم تكن لديها المقدرة على جعل الطفلة البريئة تعاني ، رغم أنها كانت طفلة خادمتها التي أنجبتها بالذات ، من الظلم في هذه الدنيا . هي التي رجتني أن أفعل الصواب والعدل بقدر ما أستطيع . أوه يا إرلينغ فيدكونسون... لأجل زوجة إرلند المسكينة البريئة... ستحزن حتى الموت . أعتقد أني لا أستطيع أن أترك حجراً واحداً دون أن أقلبه بحثاً عن المساعدة لها وكل أطفالها...

وقف إرلينغ فيدكونسون متكئاً على عمود الباب . كان وجهه هادئاً كعادته ، وصوته بارداً ودمثاً ، حين تكلم مجدداً :

"لقد أحببتها جيداً ، كريستين لافرانسداتر ، رغم قلة مشاهدتي لها -إنها امرأة جميلة وجليلة- وقد سبق أن قلت لك يا سايمون أندرسون إني أعتقد جازماً أنك ستجد العون لو اتبعت نصيحتي . ولكني لا أفهم تماماً ما تعنيه بهذه الحيلة الغريبة . لا يمكنك بكل تأكيد أن تظن أنه بسبب اضطراري إلى جعل عمي يحكم في مسألة زواجي ، حيث كنت لا أزال دون سن الرشد ، ولأن الفتاة التي أحببتُ أكثر من الجميع كانت مخطوبة لشاب آخر حين تقابلنا لأول مرة... ولا أعتقد أن زوجة إرلند بريئة جداً كما تقول . أجل ، أنت متزوج من أختها ، أعرف ذلك . ولكن كنت أنت وليس أنا من

تسبب في هذا الحوار الغريب... ولذلك عليك أن تتحمل ذكري للأمور بأسمائها . أتذكر أنه كان هناك الكثير من اللغو حول الأمر ، حين تزوجها إرلند... لقد تمت الصفقة رغماً عن رأي لافرانس بيورغولفسون وإرادته . ولكن الفتاة فكرت في تنفيذ مشيئتها أكثر مما فكرت في إطاعة والدها أو حماية شرفها . أجل ، قد تكون زوجة صالحة على أي حال... ولكنها حصلت على إرلند أخيراً ، وقد عرفا دون شك الكثير من الفرح والمرح . أعتقد أن لافرانس لم يكن شديد السعادة بذلك الصهر... إذ كان قد اختار رجلاً آخر لابنته قبل أن تتعرف على إرلند... كانت مخطوبة كما أعرف..." . توقف عن الكلام ونظر إلى سايمون برهة ، والتفت برأسه جانباً في بعض الاضطراب .

احمر وجه سايمون من العار ، فأحنى رأسه على صدره ، ولكنه تكلم على أي حال بصوت خفيض إنما ثابت :

"أجل كانت مخطوبة لي ."

وقفا لبرهة دون أن يجرؤا على تبادل النظرات . ثم رمى إرلينغ فيدكونسون بآخر كرة من الطحالب جمّعها ، والتفت وخرج إلى المطر الهاطل . تُرك سايمون واقفاً لوحده... ولكن حين كان الرجل الآخر قد ابتعد ضمن الضباب ، توقف وأشار إليه نافذ الصبر .

ثم عادا معاً ، بصمت كما جاءا . وحين كادا يصلان إلى المنزل ، قال السير إرلينغ :

"سأفعلها يا سايمون أندرسون . عليك الانتظار حتى الغد ، ثم سنركب معاً ، نحن الأربعة جميعاً ."

رفع سايمون نظره إلى الآخر... بوجه متغيّر من الألم والعار . كان سيشكره ولكنه لم يستطع . كان عليه أن يعض على شفته بقوة ، وكان فكه السفلي يرتجف بعنف شديد .

و بينما راحا يعبران باب القاعة ، لمس إرلينغ فيدكونسون كتف سايمون ، كأنما صدفة . ولكن كان كل منهما يعرف أنه ليس قادراً على النظر في عيني الآخر .

في اليوم التالي ، حين كانا يستعدان للرحلة ، ضغط ستيغ هاكونسون على سايمون ليسمح له بإعارته بعض الملابس... لم يكن سايمون قد جلب أي غيار معه . نظر سايمون إلى نفسه... كان خادمه قد مسح ونظف ملابسه ، ولكنها كانت في حال سيئة من رحلة الركوب الطويلة عبر الطقس الرديء . ولكنه ضرب على فخذيه وقال :

"أنا سمين جداً يا ستيغ... ولن أذهب إلى هناك كضيف في الاحتفال ."

وقف إرلينغ فيدكونسون بقدم واحدة فوق المقعد ، بينما راح ابنه يثبت له مهمازه المطلي بالذهب... بدا كأن السير إرلينغ كان يحاول إبقاء خدمه بعيدين اليوم قدر الإمكان . ضحك الفارس بأسلوب يدل على الغضب العجيب :

"لن يكون هناك ضرر كما أعتقد لو بدا على سايمون دار أنه لم يدخر جهداً في خدمة نسيبه ، ولكنه انفجر لدى وصوله من الطرقات العامة بخطابه الجريء والدقيق . ليس هو بالشخص الأخرق معقود اللسان هذا الذي كان نسيباً لنا في يوم من الأيام يا ستيغ . هناك أمر واحد أخشاه... ألاّ يعرف متى يكون عليه أن يتوقف..."

وقف سايمون هناك وقد تضرج وجهه بحمرة قانية . لقد لاحظ في كل ما قاله له إرلينغ فيدكونسون منذ اليوم السابق وجود سخرية حاقدة وشفقة غريبة غير مقصودة... وإرادة مصممة على حل هذه المشكلة... بعد أن قرر الخوض فيها نهائيا .

و هكذا انطلقوا معاً شمالاً من ماندفيك ، سير إرلينغ وابنه وستيغ ، مع عشرة من الأتباع المسلحين في ملابس جميلة . فكر سايمون مع تابعه الوحيد أنه كان عليه أن يختار القدوم إلى الاجتماع بخدم أكثر وبتجهيزات كافية... لم يكن سايمون دار أوف فورمو مضطراً للركوب مع أنسبائه السابقين في زي مالك أرض صغير راح يطلب نجدتهم وهو في حال من اليأس . ولكنه لم يأبه كثيراً بكل ذلك . كان مرهقاً ومحطماً جداً بسبب ما مرّ به في اليوم السابق ، حتى بدا له تقريباً الآن أنه لم يعد يهتم بنتيجة الرحلة مهما كانت .

•

كان سايمون يؤكد دائماً أنه لا يثق في الإشاعات القبيحة حول الملك ماغنوس . لم يكن قديساً إلى ذلك الحد حتى يسمح لدعابة كبيرة بين الرجال الراشدين أن تنطلي عليه . ولكن حين كان الناس يتهامسون ويتذمرون وهم يرتعدون من الخطايا السوداء والسرية ، كان يشعر بالقلق والاضطراب . وقد بدا له أمراً غير لائق أن يصدق أو يصغي إلى أي من هذه الأشياء التي تقال عن الملك الذي يعتبر هو واحداً من رجاله المحلّفين .

و مع ذلك فقد امتلأ بالعجب حين وقف أمام الملك الشاب . لم يكن قد شاهد ماغنوس آيريكسون منذ أن كان هذا الملك طفلاً ، ورغم عدم تصديقه ، فقد تطلع إلى أن يجد شيئاً أنثوياً ، شيئاً ما فاسداً فيه... ولكن هاهو أمامه واحد لم تر عيناه مثيلاً له من قبل في الوسامة والتمايز... لقد بدا رجولياً وملكياً أيضاً ، رغم شبابه ورهافته الرقيقة .

كان يرتدي ثوباً طويلاً ذا لون أزرق فاتح منقطاً باللون الأخضر ،

ينسدل حتى قدميه ، وقد طوق خصره النحيل بحزام مذهب ، كما كان يتحرك برشاقة مفرطة محركاً جسده الطويل النحيل في ثوبه الثقيل . كان للملك ماغنوس شعر فاتح ينسدل بنعومة على رأسه الوسيم ، إلا أنه كان مجعداً على نحو جميل عند النهايات ، حتى لبدا أنه يخفق ويتماوج من حول عنقه العريض المستقيم . كانت ملامحه دقيقة جريئة التقاطيع ، ولون بشرته نضراً ؛ له خدان أحمران وقد لفحته الشمس . كانت عيناه صافيتين ونظرته صريحة . كان يتحرك بحرية وبلطف يكسب القلوب وهو يحيّي رجاله المخلصين . ثم وضع يده بعد فترة على كم إرلينغ فيدكونسون وجره بضع خطوات بعيداً عن الآخرين ، بينما راح يشكره على قدومه .

تحادثا معاً بعض الوقت ، وأبلغه السير إرلينغ أن هناك مسألة خاصة يطمع فيها برحمة الملك وكرمه . ثم وضع الحجاب الملكيون كرسياً للفارس أمام عرش الملك ، وقادوا الرجال الثلاثة الآخرين إلى أماكن أبعد قليلاً ضمن القاعة ثم خرجوا .

و بدون جهد بدا سايمون وكأنه وجد مجدداً السلوك اللائق والدمث الذي تعلمه في شبابه ، وبما أنه كان قد خضع للضغط واستعار من ستيغ رداء بنياً طويلاً فخماً ، فقد بدا من حيث المظهر الخارجي غير مختلف عن أي من الرجال الآخرين . ولكنه حين جلس هناك أحس وكأنه كان وسط حلم... كان ولم يكن سايمون دار نفسه ، الابن سريع البديهة والدمث لفارس نبيل ، حمل المنديل والشمعة أمام الملك هاكون في قصر أوسلو في حكاية دون نهاية قبل سنين مضت... كان ولم يكن سايمون ، المرشح لرتبة فارس فورمو ، والذي عاش حياة الحرية والمرح بعيداً في الشمال في "ديل" خلال هذه السنوات كلها... متحرراً من القلق نوعاً ما ، رغم أنه عرف طوال حياته

أنه تقبع في داخله جمرة متوقدة... ولكنه التفت بأفكاره بعيداً عن ذلك . كانت نكتة مملة وخطرة عن التمرد قد برزت في الرجل... كانت خطيئة أو خطأ مرغوباً فيه من قبله وكان يعرفه ، ولكن القدر هو الذي نفخ على الجمرات حتى اشتعلت ، ولذلك عليه أن يناضل وألا يقوم بأي إشارة خلال الشّي فوق نار بطيئة .

نهض حين فعل الآخرون جميعاً ذلك... فقد كان الملك ماغنوس نهض :

وصل صوته الشاب النضر : "أقربائي الأعزاء ، أعتقد أن المسألة وما فيها هي أن «الأمير» هو أخي ، ولكننا لم نحاول قط أن نحمي البلاط معاً بحرس مشترك... والرجال لا يستطيعون هم أنفسهم خدمتنا معاً نحن الاثنين . ولا يبدو أن إرلند قد قصد أن تستمر الأمور على هذا النحو... حتى أنه بقي في منصب حاكم لمدة من الزمن في خدمتي ، بينما كان في الوقت نفسه قد أقسم يمين الإخلاص لهاكون . ولكن من يرغب من رجالي باتباع أخي هاكون يحق له أن يحصل على الإذن للانصراف عن خدمتي وله مطلق الحرية في الالتحاق به في بيته . ومن هم هؤلاء... هذا ما أريد أن أعرفه من فم إرلند ."

"إذاً عليك يا سيدي الملك أن تحاول الوصول إلى اتفاق مع إرلند نيكولاوسون فيما يخص هذه المسألة . عليك أن تحافظ على عهدك بأن تؤمن له سلامة الوصول وأن تمنح قريبك فرصة للقائك..."

"أجل ، هو قريبي وقريبك ، وقد طلب مني السير إيفار أن أمنحه عهداً بسلامة الوصول... ولكنه لم يحافظ على قسمه الذي أقسمه لي ، ولم يتذكر القرابة التي بيننا" . ضحك الملك ماغنوس قليلاً ثم وضع يده مجدداً على ذراع إرلينغ . "يبدو أقربائي مخلصين للقول المأثور السائد لدينا في هذه

البلاد : «لا أظلم من القريب» . والآن أريد بملء إرادتي أن أعبر عن كرمي لقريبي إرلند أوف هوسابي لأجل خاطر الرب ومريم العذراء ، ولأجل خاطر سيدتي . سأمنحه حياته وأملاكه والإذن بالإقامة هنا إن كان سيصالحني... والإذن الشرعي لنزوحه عن أراضيّ ، إن كان يريد الالتحاق بسيده الجديد الأمير هاكون . وهذا السماح نفسه سأمنحه لكل رجل يريد الإخلاص له... ولكني أريد أن أعرف من هم هؤلاء الرجال وأي من رجالي الذين يقطنون في هذه البلاد ولا يخدمون سيدهم بإخلاص . ما رأيك يا سايمون أندرسون ؟... أعرف أن أباك كان التابع الأمين لجدي وأنك خدمت الملك هاكون بشرف... ألا تعتقد أن لي الحق في تقصّي هذه المسألة ؟"

"أعتقد يا سيدي الملك"... تقدم سايمون نحو الأمام وقدم فروض الطاعة مجدداً... "أنه طالما كان سموكم هو الحاكم حسب قانون وعادات هذه البلاد وبرحمة ، فلن تعلموا قط من هم الرجال الذين خططوا للجوء إلى تصرفات غير قانونية وللخيانة . فحالما يرى شعب هذه البلاد أن سموك سيتشبث بالحق والعدل اللذين وضع لهما الأسس آباؤك وأجدادك ، فلا شك أنه ما من رجل في هذه المملكة سيفكر في تعكير صفو السلام . وأولئك سيبقون صامتين وسيفكرون مجدداً ، بعد أن استصعبوا قيامكم بحكم مملكتين كبيرتين رغم شبابكم يا سيدي وذلك بكل حكمة وقوة ."

تدخّل إرلينغ فيدكونسون : "الأمر هكذا يا سيدي الملك . ليس في هذه البلاد من فكر في إنكار حق الطاعة عليك في أي شيء تحكم به بالحق..."

"أ لم يفعلوا ؟ إذاً أ تظن ربما أن إرلند ليس مذنباً بجرم العصيان والخيانة... إذا ما تمحصنا في الأمر على نحو أوثق ؟"

بدا السير إرلينغ مضطرباً لبرهة وهو يبحث عن جواب فاستلم سايمون الكلام :

"أنت يا سيدي مولانا... ويتطلع إليك كل شخص لتعاقب من يخرق القانون حسب القانون . ولكنك لو اتبعت مسار إرلند نيكولاوسون ، فإنه على الرجال الذين تريد أسماءهم بكل هذه الحدة أن يتقدموا هم ويعلنوا أسماءهم عالياً ، أو أن أشخاصاً آخرين قد يبدؤون بالتأمل حول حقوق وأخطاء هذه القضية... فالكثير من الكلام سيجري لو أن سموكم تصرفتم في هذه المسألة - على النحو الذي تهددون به - مع رجل مشهور جداً ونبيل المحتد شأن إرلند نيكولاوسون ."

"ما الذي تعنيه يا سايمون أندرسون ؟" قال الملك بحدة... تضرج وجهه وهو يتكلم .

تدخّل بيارن إرلينغسون قائلاً : "سايمون يعني أن يقول إنه سيضر بسموكم لو أن الناس ستبدأ بالتساؤل حول السبب في أن يعاني إرلند من مثل هذا التشويه لسمعته مع أن القانون يضمن للجميع حماية من ذلك ، باستثناء اللصوص والجبناء[١٨] . وقد يحدث عند ذاك أن يفكروا في أحفاد الملك هاكون الآخرين..."

التفت إرلينغ فيدكونسون بحدة نحو ابنه -بدا غاضباً- ولكن الملك سأل بلهجة جافة فحسب :

"ألا تعتبر الخونة والمتمردين جبناء ؟"

أجاب بيارن : "لا أحد يدعوهم على هذا النحو يا سيدي إن كانت خططهم تلاقي النجاح ."

وقف الجميع صامتين برهة . ثم تكلم إرلينغ فيدكونسون :

"مهما لقبنا إرلند يا سيدي ، إلا أنه لا ينبغي لكم أن تتجاوزوا القانون لتنالوا منه..."

"إذاً فليُعدَّل القانون في هذا الخصوص" ، قال الملك بقوة . "إن كانت الحال على ما هي عليه ولا أتمتع بالسلطة التي تخولني معرفة كيف يريد الناس أن يبقوا على ولائهم لي..."

قال السير إرلينغ بعناد : "و لكنكم لا تستطيعون العمل بقانون معدَّل قبل تعديله ، وذلك دون اضطهاد شعب البلاد... والشعب يجد دائماً صعوبة في التعود على ظلم الملوك ."

"لدي فرساني ورجالي المحلفون ليدعموني" ، أجاب ماغنوس آيريكسون بضحكة صبيانية . "ما رأيك يا سايمون ؟"

" أقول يا سيدي... قد يبرهن هذا جيداً على أن ذلك ليس بالدعم المضمون... وذلك إذا كنا سنحكم وفقاً للمقياس الذي عامل به فرسان ونبلاء الدانمارك والسويد ملوكهم حين كان العامة دون قدرة على دعم السلطة الملكية ضدهم . ولو أن سموك مصمم على هذه الآراء ، إذاً سأطلب منك أن تحلّني من واجب خدمتك... لأني عندها سأكون مع العامة ."

كان سايمون قد تحدث بهدوء وجدية حتى بدا وكأن الملك لم يفهم ما عناه أولاً . ثم ضحك .

"أهذا تهديد يا سايمون أندرسون ؟... هل تريد أن ترمي قفازك في وجهي ؟"

"سيكون هكذا حسب ما تريد يا سيدي" ، قال سايمون ببساطة كما من قبل ، ولكنه أخرج قفازيه من حزامه وحملهما بيده . ثم انحنى بيارن الشاب إلى الأمام وتناولهما :

"ليست هذه قفازات زفاف ملائمة تشتريها سموك!" رفع بالقفازين

السميكين المهترئين الخاصين بالركوب في الهواء وضحك . "إذا ما تبين يا سيدي أنك تريد مثل هذه القفازات ، لكنت ستحصل على عروض كثيرة منها... وكلها رخيصة ."

ندت صرخة عن إرلينغ فيدكونسون . وبحركة حادة بدا أنه يريد أن يزيح الملك الشاب إلى جانب ، والرجال الثلاثة إلى الآخر . ثم قاد الرجال نحو باب القاعة :

"عليّ أن أكلم الملك على انفراد" .

"لا ، لا! سأكلم بيارن!" صاح الملك وهو يلحق بهم . ولكن السير إرلينغ دفع بابنه خارجاً مع الآخرين .

تسكعوا في ساحة القلعة بعض الوقت ثم نحو التلة التي في الخارج... لم ينطق أحد منهم بكلمة... بدا ستيغ هاكونسون في حالة شك ، ولكنه أمسك لسانه كما فعل حتى الآن . راح بيارن إرلينغسون يتجول طوال الوقت بابتسامة صغيرة مخفية . بعد فترة من الوقت خرج حامل سلاح السير إرلينغ وطلب إليهم بناء على أوامر سيده أن ينتظروه في مكان إقامتهم... كانت جيادهم في ساحة القلعة .

جلسوا لاحقاً في النزل . كانوا يخجلون من الكلام عما حدث للتو... وأخيراً بدأوا يتحدثون عن الجياد وكلاب الصيد والصقور . وفي النهاية سهر ستيغ وسايمون إلى وقت متأخر من الليل يرويان حكايات عن النساء . كان لدى ستيغ هاكونسون على الدوام ذخيرة غنية من مثل هذه الحكايات ، ولكن بالنسبة إلى سايمون كان أسوأ ما في الأمر أن معظم هذه الحكايات التي تذكرها بدأ ستيغ مباشرة بسردها وكانت دائماً تدور عن حدث جرى له أو جرى مؤخراً في مكان ما قرب ماندفيك... حتى لو تذكر سايمون أنه سمع الحكاية في صباه من خدم المنزل في بيته في دايفرين .

و لكنه ضحك من كل قلبه كما فعل ستيغ . بين الحين والآخر كان الأمر أشبه بأن المقعد قد اهتز تحته وهو جالس هناك... كان يخشى من شيء ما ، ولكنه لم يتجرأ على التفكير فيما كان ذلك . ضحك بيارن إرلينغسون بهدوء ، وشرب النبيذ وقضم التفاح وعبث بقلنسوة عباءته ، وراح يحكي بين الحين والآخر نتفاً من حكاية... كانت هذه أسوأها كافة ، ولكنها كانت مخفية على نحو ماكر حتى أن ستيغ لم يفهمها . كان بيارن قد سمعها من كاهن في بيورغفين ، كما قال .

و أخيراً وصل إرلينغ . ذهب ابنه ليقابله ويأخذ منه ملابسه الخارجية . التفت إرلينغ بغضب إلى الشاب .

"أنت!" رمى بعباءته إلى يدي الشاب... ثم ارتسم على وجهه بسرعة ، كأنما دون إرادته ، ظل ابتسامة . التفت إلى سايمون :

"أجل... الآن عليك أن تكون سعيداً يا سايمون أندرسون! لا أشك أبداً في أنك تستطيع الآن أن تجلس في سلام وراحة مع ضيعك المجاورة -أنت وإرلند- وزوجته وكل أبنائه ."

كان سايمون قد شحب قليلاً حين نهض وشكر السير إرلينغ... لقد عرف الآن ما هو الخوف حتي أنه لم يجرؤ على النظر في وجهه . ولكن لم يكن هناك الآن مخرج آخر .

•

بعد أربعة عشر يوماً من ذلك ، أطلق سراح إرلند نيكولاوسون . ركب سايمون واثنان من رجاله وأولف هالدورسون إلى أكرسنس وأحضروه .

كانت الأشجار عارية تقريباً الآن ، فقد كانت الريح عصفت بقوة في الأسبوع الذي انقضى . كان جليد أسود قد حل الآن... والأرض ترن قاسية تحت حوافر الجياد ، والحقول شاحبة من الجليد ، وهم على جيادهم في طريقهم إلى البلدة . بدا وكأن الثلج كان قادماً... فالسماء كانت مليئة بالغيوم ونور النهار كان كئيباً ورمادياً قارساً .

لاحظ سايمون أن إرلند كان يجرّ إحدى قدميه قليلاً ، وهو يخرج إلى ساحة القلعة ، وبدا وكأنه متصلب الجسم ويجد صعوبة في امتطاء الحصان . كان شديد الشحوب أيضاً, أما لحيته فكانت قد حلقت وقص شعره وجعل مرتباً... أما القسم العلوي من وجهه فكان أصفر اللون باهتاً ، وإلى الأسفل فإن ازرقاق اللحية المحلوقة كان بارزاً بالمقارنة مع الوجنتين البيضاوين والذقن الأبيض . كانت هناك تجاويف تحت عينيه . ولكن شكله كان جليلاً في ثوبه الطويل الأزرق الداكن وعباءته ، وحين ودع أولاف كيرنينغ ووزع النقود على الرجال الذين كانوا يحرسونه ويجلبون له الطعام في السجن ، فقد تصرف كزعيم يودع جماعة بيته في احتفال زفاف .

في البداية ، وبينما كانوا في طريقهم ، بدا عليه أنه يشعر بالبرد . لقد ارتجف أكثر من مرة . ثم برز بعض اللون في وجنتيه... أضاء وجهه... كأنما كان النسغ والحياة ينبعان فيه . فكر سايمون : ليس سهلاً كسر إرادة إرلند كما هو ليس بالسهل كسر غصن السنديان .

وصلوا إلى النزل وكانت كريستين قد خرجت للقاء زوجها في الباحة . حاول سايمون ألا ينظر إليهما ، ولكنه لم يستطع .

أمسك كل منهما بيدي الآخر وتبادلا بعض الكلمات بلهجة هادئة واضحة . لقد استطاعا أن ينجزا هذا اللقاء تحت أبصار كل الناس في المنزل

على نحو جميل ولائق . ولكن كلاهما تضرج وجهه ، ونظر إلى الآخر برهة ، ثم أسدل كلاهما عينيه . ثم عرض إرلند يده مجدداً على زوجته وذهبا معاً نحو غرفة العلية حيث كانا سينزلان بينما هما في المدينة .

التفت سايمون نحو الغرفة التي كان هو وكريستين ينزلان فيها حتى الآن . ثم التفتت كريستين عند الدرجة السفلى من السلم ونادته بصوت رنان رائع :

"ألن تأتي يا زوج أختي ؟..اجلب بعض الطعام أولاً... وأنت يا أولف!"

بدت شابة ولدنة جداً وهي واقفة هناك ، والتفتت قليلاً من عند وركيها ونظرت من فوق كتفها . ما أن وصلت إلى أوسلو حتى بدأت تربط غطاء رأسها بأسلوب آخر . هنا في الجنوب كانت زوجات المزارعين الصغار هن فحسب اللواتي يرتدين غطاء الرأس الكتاني بأسلوب الأيام الغابرة الذي اعتادت عليه منذ أن تزوجت . كان يُشد من حول الوجه كما تفعل الراهبة ، والأطراف تعقد فوق الكتفين حتى لا يكون العنق ظاهراً ، مع كثير من الطيات على الجوانب وفوق عقدة الشعر عند مؤخر الرأس . في تروندهايم كان يعتبر رمزاً للورع أن يوضع غطاء الرأس على هذا النحو ، والذي كان الأسقف آيليف يمتدحه باستمرار على أنه الأسلوب الأكثر ملاءمة وتواضعاً للنساء المتزوجات . ولكن حتى لا يكون ملحوظاً جداً ، فقد راحت الآن تستخدم الأسلوب الشائع في المناطق الجنوبية : فالقماش الكتاني كان يوضع فوق قمة الرأس ثم يترك لينسدل إلى الخلف ، حتى يكون الشعر الأمامي ظاهراً للعيان ، والعنق والكتفان غير مستورين... ثم كان الأمر الصحيح هو ترك الضفائر معقودة حتى لا تظهر تحت حافة غطاء الرأس ، بينما كان القماش الكتاني ملتزاً من الأعلى مما يبدي شكل الرأس . صحيح أن سايمون كان

قد شاهد هذا سابقاً واعتبره ملائماً لها... ولكنه لم يكن قد رأى من قبل كم كانت تبدو شابة على ذلك النحو . وكانت عيناها تتلألآن الآن كنجمتين .

•

في وقت لاحق من النهار وصل الكثير من الناس لتحية إرلند... كيتيل من سكوغ وماركوس تورغايرسون ، ولاحقاً في المساء أولاف كيرنينغ نفسه ، وكذلك سيرا انغولف والكاهن غوتورم ، وهو كاهن من كنيسة القديس هالفارد . حين وصل الكاهنان ، كان الثلج قد بدأ بالهطول -رذاذاً خفيفاً ذا حبيبات صغيرة جافة- وقد أخطأا الممر ودخلا بين نباتات شوك الأرقطيون... كانت ملابسهما مليئة بالأشواك . وبدأ الجميع بالعمل على نزع الأشواك عن الكاهنين وأتباعهما -قام إرلند وكريستين بنزع الأشواك عن الكاهن غوتورم- بين الحين والآخر كان وجهاهما يتضرجان ، ويبدو صوتاهما مضطربين على نحو غريب وهما يمازحان الكاهن ويضحكان .

شرب سايمون كثيراً في الجزء الأول من السهرة . ولكنه لم يصب بالدوار من الشراب... بل أصبح يشعر بثقل في جسده . سمع كل كلمة كانت تقال بحدة غير طبيعية . وسرعان ما أصبح الآخرون ينطقون بحرية... لم يكن أي منهم صديقاً للملك .

كان يحس بالانزعاج من الموضوع كله الآن بعد أن انتهى . كانوا يهذرون بحماقة وهم جالسون هناك... بأصوات مرتفعة وحماسية . كان كتيل اسموندسون شخصاً بسيط العقل نوعاً ما ، كما لم يكن زوج أخته ماركوس بالحكيم إلى ذلك الحد . أما أولاف كيرنينغ فكان شخصاً عاقلاً قويم الرأي... كما لم يبد الكاهنان لسايمون صاحبي ذهن صاف . لقد جلسوا هناك جميعاً

وراحوا يصغون لإرلند ويؤيدون كلامه ، وكان يعود أكثر فأكثر إلى نفسه ، عنيفاً وطائشاً . لقد أخذ يد كريستين الآن ووضعها فوق ركبته ، وجلس وهو يلعب بأصابعها... كانا يجلسان وكتفاهما متلاصقان . والآن كان تضرج الدم العميق يظهر واضحاً على بشرتها ؛ ما كانت قادرة على رفع عينيها عنه... وحين كان يضع ذراعيه من حول خصرها ، كان فمها يرتجف ، حتى أنها كانت تبذل جهداً كبيراً لتبقي شفتيها مغلقتين...

ثم فتح الباب ودخل مونان باردسون .

"أخيراً وصل الدب الكبير بنفسه!" صرخ إرلند ضاحكاً وقفز ليحيّيه .

"فليكن الرب ومريم العذراء في عوننا... أعتقد أنك لا تهتم البتة يا إرلند" ، قال مونان غاضباً .

"أجل ، أ تظن إذن أن التذمر والأسى لا يفيد يا قريبي ؟"

"لم أر شبيهاً لك... لقد رميت بعيداً بكل مصالحك..."

"أجل... فأنا لم أكن ذلك النوع الذي يذهب إلى الجحيم دون بنطال حتى أنقذ بنطالي من الاحتراق" ، قال إرلند وضحكت كريستين برقة وتشوش .

تمدد سايمون فوق المائدة ورأسه بين ذراعيه . لو أنهم يحسبونه ثملاً جداً حتى أنه نام!... كان راغباً في أن يُترك في سلام .

لم يكن هناك ما هو مخالف لتوقعاته... أو ما كان يجب أن يبدو مخالفاً لتوقعاته على الأقل . لا شيء... ولا حتى هي . هاهي تجلس هنا ، المرأة الوحيدة بين كل هؤلاء الرجال... رقيقة وخجولة ومطمئنة وآمنة كما كانت دائماً . حتى لو كانت في زمن آخر -حين خانته- عديمة الخجل أو بريئة ، لم يعرف أيهما . أوه ، كلا ، لم يكن الأمر هكذا أيضاً . لم تكن شديدة

الإحساس بالأمان ، لم تكن عديمة الخجل -خلف هدوء مظهرها لم تكن هادئة... ولكن ذلك الرجل قد سحرها- لأجل إرلند فإنها مستعدة أن تطأ الجمر بسعادة- وقد وطأت فوقه وكأنها لا تعرف إلا أنه مجرد حجر بارد .

أوه ، كل هذا كان حماقة... كان ذهنها مصمماً على تنفيذ ما تريده ، ولم يكن يهمها أي شيء آخر . فليتمتعوا بفرحهم ، فهو لا يهتم قط . وما الذي يهمه لو رزقا بسبعة أبناء آخرين ، حتى يكون هناك أربعة عشر ولداً يتوازعون نصف إرث لافرانس بيورغولفسون ؟ لم يبد كأنه سيحتاج إلى أن يكون حريصاً وقلقاً على أولاده... لم تكن رامبورغ سريعة الإنجاب مثل أختها... ولكنه سيترك لأولاده وأولادهم في الوقت الملائم الثروات والسلطة ، ولكن كان الأمر بالنسبة إليه سيان هذه الليلة . كان يتمنى لو شرب أكثر... ولكنه كان يعرف أن هدايا الرب الليلة لن تفرحه... وثم سيكون قد رفع رأسه وربما سيشارك في الحوار .

"أجل ، أتظن أنك الرجل الذي سيصبح الوصي على عرش المملكة" ، قال مونان باحتقار .

"كلا ، لا بد أنك تعرف أننا كنا نريدك لهذا المنصب" ، قال إرلند ضاحكاً .

اقترب إرلند ولمس كتف سايمون :

"هل أنت نائم يا عديلي ؟" رفع سايمون عينيه . وقف الآخر أمامه وفي يده كأس . "تعال ، اشرب معي يا سايمون . أنت من عليّ أن أشكره أكثر من الجميع لأني نجوت بحياتي... وبما أن الأمر على ما هو عليه ، فهو عزيز عليّ يا فتى! لقد وقفت إلى جانبي كأخ... ولو لم تكن عديلي فإني أعتقد أني كنت سأخسر رأسي دون شك . ثم هل كنت ستتزوج من أرملتي..."

قفز سايمون . وقف الاثنان برهة ينظر أحدهما إلى الآخر... شحب إرلند وصحا ، وانفرجت شفتاه مشدوهاً... ضرب سايمون بقبضته الكأس من يد الآخر... تناثر الميد على الأرض . ثم التفت وخرج من الغرفة .

وقف إرلند هناك وحيداً . ودون أن يعرف ما فعله ، جفف يده ورسغه بالجزء الأسفل من سترته ، ثم نظر إلى الخلف . لم يكن الآخرون قد لاحظوا شيئاً . وبقدمه ضرب الكأس إلى ما تحت المقعد -وقف ساكناً برهة- ثم خرج بهدوء وراء عديله .

وقف سايمون دار عند أسفل الدرج... كان "يون دالك" يقود جياده خارج الإسطبل . لم يقم بأي حركة حين نزل إرلند إليه :

"سايمون! سايمون... لم أعرف... لم أعرف ما قلت!"

"أنت تعرفه الآن ."

كان صوت سايمون دون نبرة . وقف هادئاً تماماً ، دون أن ينظر إلى الرجل الآخر .

نظر إرلند فيما حوله ، وكأنه قد جن جنونه . كان القمر يبدو على نحو شاحب ، مجرد بقعة باهتة ، عبر ستار الغيوم . كانت حبات قاسية صغيرة من الثلج تهطل عليهما . قام إرلند بحركة مرتجفة .

"أين... أين ستذهب ؟" سأل بصوت فاتر ، وهو ينظر إلى الرجل والجياد .

قال سايمون باختصار : "لا أجد مكاناً آخر أنام فيه . ربما تستطيع أن تفهم أني لا أهتم بالبقاء هنا ."

"سايمون!" انفجر إرلند . "أوه ، لا أعرف ما هو الشيء الذي أنا مستعد لإعطائه لك لو كنت تذكره فحسب!"

"و لا أنا أيضاً" ، أجاب الآخر كما من قبل .

فتح باب الغرفة العليا . خرجت كريستين إلى الشرفة وفي يدها قنديل . انحنت فوق الدرابزون وألقت بالنور عليهما من علٍ .

سألت بصوت واضح : "لم تقفان هنا ؟ ما الذي تريدانه خارج المنزل ؟"

"أحسست أن عليّ الخروج لأرى جيادي... حسب الأسلوب المحتشم" ، أجاب سايمون وهو يضحك لها .

"و لكن... لقد أخرجت الجياد" ، قالت في عجب ضاحك .

"أجل... يمكن للرجل أن يفعل أموراً غريبة وهو ثمل" ، قال سايمون باللهجة نفسها .

"حسناً ، عد الآن إذن" ، قالت بلهجة مرحة وسعيدة .

"أجل ، خلال لحظة ." دخلت ونادى سايمون على يون أن يعيد الجياد . التفت إلى إرلند... كان الرجل واقفاً هناك ، بلا حول ولا قوة من حيث المظهر والوقفة . "سأدخل بعد قليل . علينا... أن نحاول أن نتصرف وكأن ما قلته لم يُقل يا إرلند... لأجل خاطر زوجتينا . ولكن عليك ربما أن تفهم أيضاً... أنت آخر رجل على الأرض كنت أود... كنت أود معرفته... ولا تنس أني لست بالشخص الذي ينسى كثيراً شأنك في ذلك!"

فتح الباب العلوي مجدداً . خرج الضيوف في مجموعة . كانت كريستين معهم وخادمتها تحمل القنديل .

"أجل" ، ضحك مونان باردسون . "الليل قد سبق له وانقضى... وهذان الشخصان الطيبان يريدان الذهاب إلى الفراش على ما أعتقد..."

•

"إرلند... إرلند... إرلند!" رمت كريستين بنفسها بين ذراعيه في اللحظة التي وقفا فيها لوحدهما داخل باب غرفة العلية . التصقت به وضمته بشدة . "إرلند... تبدو شديد الأسى..." همست في خوف وشفتاها نصف المفتوحتين قريبتان من فمه . "إرلند..." ضغطت كفي يديها على صدغيه .

وقف قليلاً وذراعاه مدلاتان من حولها . ثم وبأنين رقيق من حنجرته ، ضمها إليه بقوة .

•

خرج سايمون إلى الإسطبل... كان سيقول شيئاً ما ليون ، ولكنه نسيه على الطريق . وقف برهة عند باب الإسطبل ، وهو يرفع بصره إلى ضوء القمر الشاحب والثلج المتساقط... لقد بدأ يهطل الآن في رقاقات كبيرة . خرج يون وأولف وأغلقا الباب خلفهما ، وانطلق الرجال الثلاثة معاً إلى المنزل الذي سينامون فيه .

(انتهى الجزء الثاني من الثلاثية)



الحواشي

١-هوسابي (انظر الخريطة)

تقع ضيعة هوسابي العتيقة التي تتألف من حوالي (٣٠) مزرعة كبيرة وصغيرة ومنازل من حولها أراض للزراعة ، على بعد حوالي (٢٠) ميلاً إنكليزياً إلى جنوب شرق تروندهييم (نيداروس) تقع الأبنية الرئيسية على منحدر جبلي عريض يعلو بحيرة صغيرة ، تبعد حوالي عشرة أميال إنكليزية عن أقرب نقطة من تروندهييم فيورد (بيرغسي) ، وبين الوديان الكبيرة في غولدال وأوركيدال ، وتمتد جنوباً حتى دوفرفييلد . والرحلة من هوسابي إلى نيداروس تتم عادة على الحصان إلى بيرغسي ثم بالزورق . إن خط السير الذي اتبعته كريستين في حجتها يمر عبر الجبال إلى مصب نهر غولا ، ومنه عبر باينز ، القنة الجبلية العالية التي تخترق الزقاق البحري بين مصبي غولا ونيد .

٢-القاعة في هوسابي (انظر المخطط)

كانت القاعة في هوسابي بناءً حجرياً قديماً وكبيراً بأسلوب زمن الحكايات البطولية ، حين كان الزعيم وأتباعه يقيمون وينامون تحت سقف واحد : وكانت الخادمات ينمن في منزل مستقل خاص بالنساء (القاعة الصغيرة في هذا الكتاب) .

هناك صفان من الأعمدة الخشبية يدعمان السقف . بين خط الأعمدة والجدار على كل جانب كانت الأسرّة ذات الأبواب في نهاية القاعة وكذلك مقعدان عريضان يمتدان على بقية طول القاعة . هذان المقعدان مقسمان إلى أمكنة لنوم المحاربين (يسميان في الأصل "غرفاً") وكانا واسعين إلى حد يسمح للرجل أن يضع أمتعته إلى القرب منه ، بينما كانت أسلحته تعلق على الجدار فوقه . وكما في "مبنى الموقد" الخاص بالضيعة القروسطية المتأخرة ، فإن الغرفة كانت تدفأ من موقد في وسط الأرضية ، والنور الوحيد كان يدخل من فتحة الدخان فوق هذا الموقد أو من الباب . ولكن الموقد كان أطول بكثير ، وكانت نيران عدة توقد عادة فيه ، حين تكون التدفئة مطلوبة . وفي الاحتفالات كانت موائد طويلة تنصب... في الحالات الأخرى كان كل رجل يتناول وجباته جالساً في "غرفته" مع وعاء العصيدة أو اللحم في حضنه ، أو يشرب جعته وهو جالس على الأرض قرب الموقد .

في أوقات لاحقة ، حين كان بناء مستقل يخصص للرجال من الخدم ، كانت "الغرف" في القاعة تترك فارغة لتستخدم عند الضرورة كأمكنة لنوم أعضاء الأسرة أو الضيوف . كان المقعد الأيمن يحرك إلى النهاية الشرقية للقاعة والموائد المؤقتة كانت تنصب يومياً لوجبة اليوم الرئيسية (العشاء) .

و فيما بعد ، حدثت تغييرات أخرى . وهكذا نرى في المخطط القاعة كما كانت مرتبة للوليمة الموصوفة في القسم الأول ، الفصل (٣) . في هذا الوقت ، سنرى أن مائدة أصغر كانت تنصب عبر القاعة ، أمام المقعد العالي ، مع مقعد خارجي للخدم .

فوق "الغرفة الخارجية" و"الحجرة" عند النهاية السفلى للقاعة كان هناك في هوسابي علية (سرير مارغريت) يتم الوصول إليها عبر سلم يبدأ من القاعة .

٣-أغنية غونولف

لا بد أن الماستر غونولف قد وقع على نسخة أقدم من الأغنية الإنكليزية القديمة "الصقر" وقد طورها كما شاء مع ميل إلى تهذيبها .

٤-القابلات من رتبة ليدي

كانت القوانين الكنسية وكذلك الأعراف في نرويج القرون الوسطى (والدانمارك) تجعل من واجب كل النساء المتزوجات العمل كقابلات للنساء القاطنات في الجوار . والقابلات اللواتي يعشن في الجوار كن مضطرات للقدوم وترافق كل واحدة منهن خادمة . أما القابلات المحترفات فلم يكن معروفات ، ولكن أي امرأة كانت تكتسب الشهرة في القبالة كانت مضطرة للذهاب كلما أرسل في طلبها حتى مسافة رحلة نصف يوم على ظهر الحصان . وما كان ممكناً المطالبة بدفع أجور على هذه المساعدة ، إلا أن العرف كان أن يرسل الأب مع السيدات والنساء هدايا عند مغادرتهن المنزل . وقيمة الهدايا كانت تتناسب مع أهمية الحدث... في حال كان الابن بكراً يتوقع من الأب أن يبدي كرماً خاصاً .

و حين يكون متوقعاً ولادة وريث ، يكون على الأب أن يطلب من كل قابلة مجاورة ذات مركز اجتماعي – قبل شهور عدة مقدماً – أن تأتي لمساعدة زوجته . وكانت هذه مسألة ذات أهمية عملية ، حيث يكون الدليل الذي توفره السيدات مطلوباً لتسوية قضايا الإرث . مثلاً ، إن ماتت الأم والجنين كلاهما ، ستشهد النساء فيما يخص موضوع ولادة الطفل : هل كان حياً وتم تعميده ؟ أم مات قبل أو بعد أمه . في الحالة الأولى فإن أسرة الزوجة كانت ترث حصتها من الملكية المشتركة . وفي الحالة الثانية كان الزوج يرث من الطفل . إن اجتماعاً للنساء الحكيمات يكون دائماً ضماناً لتحديد شخصية الوريث إن كانت الشكوك تحوم حول ذلك .

و هكذا فإن تقصير إرلند في دعوة سيدات الريف إلى مخاض زوجته كان خطأ فضائحياً يدل على التهور .

٥-كاتدرائية تروندهييم

في الضفة الرملية المنحدرة لنهر نيد حيث كان جثمان الملك أولاف قد دفن

في أول شتاء بعد وفاته في معركة ستيكلستاد (حوالي عام ١٠٣٠ بعد الميلاد) ، فإن نبعاً قد تفجر ، وقد اعتبر أن لمياهه قوة على الشفاء . في هذا الموقع ، بني أولاً معبد صغير ، ثم كنيسة الأسقف التي اكتملت في عام (١٠٧٥) إذ بنيت على شرف المسيح والقديس أولاف ، والضريح الذي يحوي رفات القديس الذي نقل إليها من الكنيسة الخشبية التي كان خلفاؤه قد وضعوه فيها .

في عام (١١٥٢) أصبحت النرويج مقاطعة كنسية مستقلة ، وتأسست أسقفية نيداروس من قبل الكاردينال نيكولاس بريكسبير الذي أضحى لاحقاً البابا هادريان الرابع . بعد ذلك بفترة قصيرة بدأ بناء الكاتدرائية الكبرى في موقع كنيسة الأسقف . كان الشخص ذو النفوذ الواسع في العمل كما يقول البروفسور نورد كاهن هو "ايشتاين إرلندسون ، الأسقف الثالث المستبد الموهوب (١١٦١-١١٨٨)" وقد بدأ العمل بالأسلوب النورماني ، ولكن لدى العودة من منفاه الذي دام ثلاث سنوات في إنكلترا (١١٨٠-١١٨٣) الذي حدث بسبب نزاع مع الملك سفير الذي لم يكن أقل استبداداً وطغياناً منه... جلب آيشتاين معه أفكاراً جديدة حول العمارة كانت قد وصلت إلى إنكلترا وتوضع موضع التطبيق في بناء مكان الجوقة في كاتدرائية كانتربري . في وقت لاحق بقي العمل متأثراً بالتطورات المعاصرة في الأسلوب القوطي في إنكلترا (حوالي الفترة التي تتحدث عنها هذه الرواية) ، فأضحت الكاتدرائية أعجوبة الشمال ، وكان آلاف الحجاج يحجون إليها لزيارة ضريح القديس والبئر العجائبية . وكان الضغط على أشده في فترة الاحتفال بعيد أولاف الكبير (٢٩ تموز/يوليو) . إن فيغنسبريكه (جبل السرور) هو الجبل الذي يقع على طريق الحج ، ومن قمته كانت تشاهد لأول مرة المدينة والكاتدرائية .

كان أول حريق عانت منه الكاتدرائية بين حرائق عديدة لاحقة هو حريق عام (١١٣٨) ، المذكور في هذه الرواية . كما اجتاحتها النيران مجدداً عامي (١٤٢٣) و(١٥٣١) ، وحتى مع بقائها نصف مدمرة في عام (١٥٦٧) ، فإن كاتباً نرويجياً من تلك الفترة يصفها بـ"تاج وزهوة وزينة المملكة" . كما حدثت حرائق أخرى في

عامي (١٧٠٨) و(١٧١٩) ، حتى أن عظمتها الأصلية قد اختفت مع حلول القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وقد وضعت مخططات دقيقة جداً لترميمها حوالي نهاية القرن التاسع عشر ، وقد تم تنفيذها كلها تقريباً ، رغم أن تجديد الواجهة الغربية لم يكتمل بعد .

٦-محكمة الستة

عملياً كل النبلاء والجزء الأكبر من ملاك الأراضي في النرويج كانوا "حراساً" أو "رجال الملك" أي أنهم قد خدموا ذات مرة أو أكثر في قصر الملك . وكانت الدعاوى القانونية بين مثل هؤلاء الحراس لا تحال إلى المحاكم العادية بل إلى محكمة الستة الخاصة المؤلفة من ستة من الزملاء من حراس الملك .

٧- النرويج ١٣١٩-١٣٣٥

كان ماغنوس السابع (ملك النرويج بين عامي ١٣١٩-١٣٤٣) حفيد هاكون الخامس ، وهو ابن ابنة الملك هاكون المسماة انجبيورغ والدوق آيريك السويدي . في عام (١٣١٨) اغتيل الدوق آيريك على يد أخيه الملك بيرغر . وقد انتفض حزب الدوق المغدور وطرد الملك ، مما جعل الأمير الطفل ماغنوس ملكاً على السويد بدلاً عنه . كان قائد الجيش هو الفارس الدانمركي الشهم الوسيم كنوت بورس الذي كان من أتباع الدوق المخلصين .

و بما أن ماغنوس كان وريثاً لعرش النرويج أيضاً ، فإن الملك هاكون على فراش الموت تنبأ باتحاد التاجين . وقد عين ثمانية لوردات نرويجيين كمجلس وصاية على الملك القاصر ، وجعلهم يقسمون يمين الولاء بأن يحكموا حسب قوانين البلاد وأن يبعدوا الأجانب عن كل المناصب ذات النفوذ ، وخاصة عن قلاع التاج . وحين مات الملك هاكون في عام (١٣١٩) ، أصبح ماغنوس ملكاً على البلدين ، وأبرمت اتفاقية بين مجلس وصاية المملكتين على إقامة علاقات مستقلة

وواجبات تخص كل جهة وقد منحت أم الملك منصباً كبير النفوذ في كلا البلدين .

و لكنها سرعان ما بدأت تسيء استغلال سلطتها لصالح كنوت بورس ، وأصبح تعلق الأرملة الشابة ببطلها موضوعاً للغو بين الناس . كانت خطة كنوت بورس هي وضع المقاطعة الدانمركية المسماة (سكانيا في جنوب السويد) بالغزو تحت سيطرة التاج السويدي ، وأن يكسب لنفسه دوقية ، حتى يصبح في منصب يؤهله للزواج من الليدي انجبيورغ . وحين حدث في عام (١٣٢١) أن خطبت أخت الملك ماغنوس الصغيرة "يوفينيا" إلى ابن "الدوق هنري أسد مكلنبرغ" في حضور أعضاء الحكومتين السويدية والنرويجية معاً ، فقد تعاهد الدوق والسير كنوت سراً على أن يقوم الدوق بتقديم الجنود دعماً لمشروع سكانيا . وقد وضع بعض النبلاء النرويجيين ، ومن بينهم السير مونان باردسون الذي كان صديقاً حميماً للسير كنوت بورس والليدي انجبيورغ أختامهم على هذا العهد . وقد حاولت الليدي انجبيورغ التي كانت تحمل على نحو لا قانوني الخاتم الكبير للنرويج أن تجمع الأموال لهذه الحرب بكل الوسائل .

و لكن في صيف عام (١٣٢٢) تقابل اللوردات السويديون في البرلمان في سكارا ، وبانقلاب حرموا الليدي من كل سلطاتها . وفي شباط (١٣٢٣) ، تجمع النبلاء النرويجيون تحت قيادة الأسقف آيليف في أوسلو وفعلوا ما فعله السويديون . وقد تم تعيين لورد كبير يعود نسبه إلى أسمى عائلات البلاد وأغناها ، هو السير إرلينغ فيدكونسون ، وصياً على عرش النرويج ، (الوصي العالي) مع مجلس من النبلاء لمساعدته .

و نتيجة للاتحاد بين التاجين ، جرّت النرويج إلى حروب بين السويد وروسيا ، وقد قام الروس خلال عام (١٣٢٣) والأعوام التي تلته بشن سلسلة هجمات تدميرية على شواطئ النرويج الشمالية حتى وصلوا إلى هالوغلاند جنوباً . وقد اتخذ السير إرلينغ عدة إجراءات للدفاع عن البلد وحقق بعض النجاح ، ولكنه كان في حاجة إلى الأموال على نحو ملحّ ، فقد تركت له الليدي انجبيورغ خزينة

فارغة . وقد طلب المساعدة من الأساقفة حيث أن الروس كانوا يعتبرون هراطقة بل وأسوأ من ذلك . وقد وقف الأساقفة إلى جانبه ، إلا أن الأسقف أودفين أوف بركن رفض تقديم يد العون . وفي السنوات التي تلت تشاجر إرلينغ عدة مرات مع هذا الأسقف الذي كان من المؤيدين المخلصين لليدي انجبيورغ . وقد دافع الأسقف دفاعاً مريراً عن حقوق الليدي في بعض الأراضي الواقعة في أسقفيته حين قامت في عام (١٣٢٦) بإثارة غضب بلدها الأصلي بالزواج من كنوت بورس الذي أصبح الآن بسبب تقلبات في النزاع بين الملك الدانمركي كريستوفر الثاني ونبلائه دوقاً دانمركياً . وعلى أي حال فقد توفي كنوت بورس في عام (١٣٣٠) مخلفاً وراءه أرملته مع ابنين هما هاكون وكنوت .

في عام (١٣٢٦) حل السلام بين النرويج وروسيا على شروط مشرفة للنرويج .

في عام (١٣٣٠) أعلن أن الملك ماغنوس الذي أصبح في السادسة عشرة من عمره ، قد وصل إلى السن الملائمة ، واستقال إرلينغ فيدكونسون . وقد تابع الملك ماغنوس خطة زوج أمه المتعلقة بضم سكانيا ، وبقي في السويد ، وجعل شخصاً معادياً منذ القديم للسير إرلينغ هو بال باردسون مستشاراً له في النرويج وحاملاً للخاتم الكبير . ولكن حين اختير "بال" أسقفاً خلفاً للأسقف آيليف ، لم يستطع ماغنوس تعيين مستشار جديد ، وبما أن الملك كان لا يزال في السويد ، وكان يعاني دائماً من نقص في الأموال ويطالب بتزويده بها ، وكان قد ترك النرويج دون حكومة شرعية ، فإن مجموعة من النبلاء النرويجيين يرأسهم إرلينغ فيدكونسون والابنان الشابان لعم الملك يون وسيغورد هافتورسون ، قد ثاروا ضده . ولكن القضية تمت تسويتها على أي حال في العام نفسه دون سفك للدماء . تم منح العفو عن قادة التمرد وحافظوا على مناصبهم وألقابهم ، وعين الملك ماغنوس السير إيفار أوغموندسون مستشاراً للنرويج ، وتم تدعيم سلطات المجلس ، وعادت النرويج تتمتع مجدداً بحكومة فعالة . ويبدو أن هذا ما كان

يهدف إليه السير إرلينغ فيدكونسون الذي يقدمه التاريخ كشخص مستقيم وشريف وشجاع وعاقل ، رغم أنه كان يفتقر نوعاً ما إلى الحيوية لتنفيذ الأمور الكبيرة .

أما محاولة إرلند نيكولاوسون اللاحقة لفصل تاجي النرويج والسويد بتنصيب ابن الليدي انجبيورغ هاكون على العرش النرويجي فلم تذكر في التاريخ ، الذي يذكر على أي حال زفاف الملك ماغنوس في تونسبرغ في عام (١٣٣٥) من الكونتيسة بلانش أوف نامور .

٨- مكوس الحرب

كان على كل أصحاب الأراضي أن يدفعوا إلى التاج مساهمة سنوية للدفاع عن البلاد . وكان هذا مفروضاً في أوقات السلم كما في أوقات الحرب ، ولكن قد يتم طلب المزيد من المساعدة الطوعية في حالات الطوارئ .

إن التقصير في دفع الضريبة يجعل المقصر عرضة لدفع الغرامة . وقد التزم لافرانس بدفع أي غرامات قد تفرض على مزارعيه المستأجرين بسبب رفضهم الالتزام بالمطالبات غير الشرعية التي فرضت عليهم على أساس أن يتم دفع المساهمات بالقوة .

٩-المجالس

في فترة هذه الرواية كانت هناك ثلاث فئات من المجالس الشعبية :

١- مجلس الأبرشية : يعقد عادة في فترات منتظمة ، ولكن يمكن استدعاؤه خصيصاً لأجل إجراء كل أنواع الصفقات التجارية المحلية . استئناف قراراته يمكن رفعه إلى :

٢- مجلس المقاطعة : الذي كان ينعقد مرتين في السنة : في منتصف موسم الصوم الكبير وبعد ثلاثة أسابيع من عودة ممثلي المقاطعة من مجلس المحافظة (انظر أدناه) . إن مجالس المقاطعة هذه كانت تعقد من قبل حاكم المقاطعة (انظر

الهامش رقم /١٢/ الحكام) . أما الدعاوى القضائية التي ترفع أمام مجلس المقاطعة فيجب أن يعلن عنها في مجالس المقاطعة . أما قراراته وأحكامه (التي يتم الوصول إليها من قبل هيئة المحلفين وليس من قبل الحاكم ، الذي ليست له وظائف قضائية) فهي قابلة للاستئناف لدى مجلس المحافظة .

٣- مجلس المحافظة : كانت النرويج تقسم إلى أربع محافظات ولكل واحدة مجلسها السنوي . خلال فترة هذه الرواية كانت كل هذه المجالس تجتمع في اليوم نفسه ، يوم القديس بوتولف (١٧ حزيران/يونيو) . كان مجلس محافظة الشمال يجتمع في نيداروس .

و كل واحد من المجالس الأربعة كان كينونة تشريعية وقضائية . وكان المجلس يتألف من ممثلين يختارهم الحاكم من بين أعضاء مجالس المقاطعات ، ويحضره كل الحكام في المحافظة ، وكان واجبه متابعة القضايا من مختلف المقاطعات وتقديم القرارات وأي تشريع جديد إلى مجلس المقاطعة الذي يستدعى للاجتماع بعد ثلاثة أسابيع من عودة الأعضاء من مجلس المحافظة .

رئيس مجلس المحافظة يعرف بـ"لاغماند" . وكانت وظيفته تشبه وظيفة رئيس مجلس البرلمان في مجلس العموم في إنكلترا في بداياته .

١٠-روما القرن الرابع عشر

كان الماستر غونولف قد زار طبعاً روما خلال فترة ما يعرف بـ"المنفى البابلي" لبابوات أفينيون " الذي بدأ في عام (١٣٠٥) .

١١-قياسات الأراضي

الكلمات المترجمة بـ"نصف هيد" تعني حرفياً "منطقة لحم تكفي شهرين" أي الأرض التي مساحتها تكفي لتغذية شخص واحد لشهر واحد .

١٢-الحكام

كان الحاكم موظفاً رفيعاً مسؤولاً عما يشبه المقاطعة في إنكلترا ، وواجباته هي واجبات مدير الإدارة الرئيسي والقائد العسكري ورئيس الشرطة . وكان تعيينه يتم من قبل التاج بين الأشخاص المتميزين . وفي فترة الرواية فإن الحاكم يكون من الفرسان عادة . كان عليه أن يبقي تحت إمرته عدداً من الرجال المسلحين والموظفين . كان يتلقى راتبه إما من التاج أو من حصة ينالها من الغرامات والإقطاعات .

بين الواجبات الأخرى كان على الحاكم أن يعقد كل سنة خلال الصوم الكبير المجلس المسمى "فابينثينغ" وفيه تتم مراجعة الأسلحة التي يملكها الرجال في مقاطعة الحاكم ليتأكد من أن كل رجل لديه الأسلحة التي يتوجب عليه امتلاكها حسب القانون ، حسب منصبه . وكان عليه أن يختار المبعوثين من منطقته إلى مجلس المحافظة السنوي في محافظته (انظر الهامش رقم /٩/ المجالس) وأن يحضر المجلس لمتابعة كل القضايا المتعلقة بمنطقته . وخلال ثلاثة أسابيع من عودته إلى مقره كان عليه أن يدعو المجالس وأن يبلغ الناس القرارات والأحكام التي أصدرها مجلس المحافظة والتي لها علاقة بمنطقته ، وكل القوانين الجديدة التي تم إصدارها...إلخ . وكان عليه أن يجمع الغرامات والضرائب الأخرى للتاج ويقدمها إلى أمين الخزينة في المحافظة (انظر الهامش /١٥/ أمناء الخزينة) .

١٣-فيوي

جزيرة صغيرة قرب "مولده" حيث كان فيها في العصور الوسطى بلدة سوق صغيرة وكنيستان ودارة ملكية .

١٤-العفو عن المجرم

حين يرتكب رجل ما جريمة يعاقب عليها القانون باعتباره خارجاً عن القانون (مثل قتل رجل آخر أو اختطاف امرأة) يجوز أن يمنح العفو إذا دفع مبلغاً محدداً إلى التاج ، وعندها سيسمح له بالبقاء في منزله تحت حماية القانون حتى يتم الحكم في قضيته .

١٥-أمناء الخزينة

لأغراض الإدارة المالية جرى تقسيم النرويج إلى أربع محافظات مالية ، وكل واحدة تتبع أمين خزينة . إن مركز أمين خزينة المنطقة في بلدة تونسبرغ كان يعادل منصب وزير المالية الذي يشرف على الجميع .

١٦-الوصول الآمن

بما أن إرلند هو من حراس الملك (انظر الهامش رقم /٦/) ، فقد كان يحق له أن يحاكم من قبل محكمة فيها قضاة من أنداده ضمن حدود المحافظة (انظر الهامش رقم /٩/) حيث يقطن . ولأنه قدم استئنافاً ضد قرار المحكمة وحكمها على أساس لا قانونية تشكيلها ، وطالب بمحاكمة جديدة ، فقد منح حق الوصول الآمن حتى يخرج خارج حدود المحافظة ليمثل أمام الملك . إن نتيجة هذا لو فشل في المصالحة مع الملك كان أنه يحق له أن يصل بسلام إلى محافظته ، وهناك يحاكم مجدداً أو ينفذ حكم المحكمة الأصلية حسب قبول استئنافه أو رفضه .

١٧- باغاهوس

الآن تسمى "باهوس" في السويد قرب غوتنبرغ . الحدود بين النرويج

والسويد في تلك الفترة كانت تتمثل بنهر غوتا وكانت باغاهوس هي البلدة الحدودية النرويجية .

١٨-حصانات الرجال الأحرار

حسب القوانين القديمة فإن الرجل الحر في النرويج كان يمنح الحصانة من الأذى الجسدي والانتهاكات ضد شخصه وشرفه . وكان هذا يتضمن في زمن الحكايات البطولية حق الانتقام لنفسه وأقربائه .

سيغريد أوندست

نوبل ١٩٢٨

• ولدت سيغريد أوندست (١٨٨٢ ـ ١٩٤٩) في كالدوندبورغ . وحين بلغت السنتين من عمرها انتقلت أسرتها إلى النرويج واستقرت في كريستيانيا (المعروفة الآن باسم أوسلو) . وبعد وفاة والدها في عام (١٨٩٣) ، تخلّت عن طموحها في أن تصبح رسامة ، وحين أصبحت في السادسة عشرة بدأت بالعمل في أحد المكاتب .

• أعاد الناشر لها أولى مخطوطاتها ، رواية تاريخية ، حوالي عام (١٩٠٥) مع العبارات التالية : «لا تحاولي أبداً كتابة رواية تاريخية مرة أخرى . لست قادرة على هذا النوع من الكتابة . قد تحاولين كتابة شيء معاصر . ولا يمكن لكِ أن تعرفي ما قد يحدث» . في عام (١٩٠٧) كان أول ظهور لها مع رواية «السيدة مارتا أولي» ، ولكن الفتح الحقيقي لها جاء مع رواية «جني»(١٩١١) .

• إنتاج سيغريد أوندست غني ومتنوع ، ويمتد من الروايات المعاصرة إلى الروايات القروسطية العظيمة والقصص القصيرة والمقالات وحكايات السفر .

• «كريستين لافرانسداتر» هي قمة عطائها وهذه الثلاثية هي التي كانت السبب في منحها جائزة نوبل للآداب في عام (١٩٢٨) .

علي مولا

ISBN => 2-84305-181-9
EAN => 9782843051814

١٩٢٨

مكتبة نوبل

سيغريد أوندست

كريستين لافرانسداتر

الصليب



علي مولا

ترجمة: توفيق الأسدي



مكتبة نوبل

اسم المؤلف : سيغريد أوندست
عنوان الكتاب : ٣/ الصليب
من ثلاثية كريستين لافرانسداتر
ترجمة : توفيق الأسدي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : عام ٢٠٠٠

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع مؤسسة نورلا النرويجية .

Author : Sigrid Undset
Title : 3/The Cross
Kristin Lavransdatter
Translator: Tawfik Al-Assadi
Al- Mada : Publishing Company
First Edition 2000

This title was published in collaboration with Norla (Norwegian literature abroad)

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E - mail : al - madahouse @ net.sy : البريد الالكتروني

٢٨ ١٩٢٨

مكتبة نوبل

سيغريد أوندست

كريستين لافرانسداتر

الجزء الثالث



ترجمة

توفيق الأسدي



القسم الأول

واجبات الملكية

-١-

في السنة الثانية التي أقام فيها إرلند نيكولاوسون وكريستين لافرانسداتر في يورونداغارد رغبت السيدة في أن تذهب وتقضي الصيف في السايتر .

كانت قد فكرت في هذا الأمر منذ الشتاء في "سكيين"فقد كان من الأعراف السائدة منذ القديم أن تقضّي الزوجة الصيف في المزرعة الخارجية إذا ما حدث ذات مرة أن ابنة ذلك المنزل قد تزوجت من أحد رجال الجبال . ولاحقاً سيكون على الأم أن تخرج إلى الجبل كل صيف. كان للناس في "سكيين" أمورهم الكثيرة الخاصة بهم ، وكان سكان الأبرشية معتادين على ذلك ويعتقدون أنه أمر بديهي .

ولكن في أماكن أخرى في "ديل" لم يكن من المتعارف عليه أن تقوم نساء السيد من الضياع الكبيرة بالسكن في السايترات . كانت كريستين على علم بأنها لو فعلت هذا فسيكون هناك كلام وتساؤل بين الناس .

باسم الرب إذن ، فإنهم سيتكلمون على أي حال . لا شك أنهم يتداولون الإشاعات من حولها سواء جرى ذلك أم لا ،

لم يكن أودون توربرغسون يمتلك أكثر من أسلحته وملابسه التي يرتديها

حين تزوج من انجبيورغ نيكولاوسداتر أوف لوبتسغارد . كان من أتباع أسقف هامار . وبينما كان الأسقف في الشمال هناك ذات مرة ليقدس الكنيسة الجديدة حدث أن تعرضت إنجيبورغ لمصيبة . في البداية غضب نيكولاوس سيغوردسون وأقسم اليمين أمام الرب والناس جميعاً أنه لن يزوج ابنته من فارس . ولكن انجيبورغ أنجبت توأمين . وقالت للناس ضاحكة إن نيكولاوس قد اعتبر أن القيام بتربيتهما أمر أصعب من أن يؤديه لوحده . وعلى أي حال فقد زّوج ابنته من أودون .

حدث هذا بعد عامين من زفاف كريستين . لم يكن الأمر قد نُسي ، فالناس لا زالت تتذكر أن أودون شخص غريب عن الأبرشية . . .فقد كان من هالاند ، ومن عائلة جيدة إلا أنها أضحت فقيرة جداً . ولم يكن الرجل نفسه محبوباً جداً في "سيل" ، فقد كان متغطرساً ولا ينسى بسهولة لا الصالح ولا الطالح . ومع ذلك فقد كان مزارعاً مرموقاً وله معرفة جيدة بالقوانين . . . لذلك كان أودون توربرغسون نوعاً ما رجلاً ذا مقام في الأبرشية الآن ، ورجلاً لا يرغب الناس في أن يكونوا على خصام معه .

فكرت كريستين في وجه المزارع أودون العريض الأسمر المحاط بلحيته وشعره الأحمرين ، وفي عينيه الزرقاوين الصغيرتين الحادتين . كان أشبه بالرجال الآخرين . . . فقد كانت قد رأت مثل هذه الوجوه بين خدم هوسابي . . . خدم إرلند في المنزل ورجال سفينته .

تنهدت السيدة . كان أسهل على مثل هذا الرجل أن يحتفظ بمركزه حتى لو كان يعيش على أراضي زوجته ، فهو لم يكن قد سبق له وكان سيداً على أي شيء من قبل . . .

•

خلال الشتاء والربيع كانت كريستين تحادث فريدا ستيركارسداتر التي صحبتهم من تروندهايم وكانت رئيسة خادماتها . كانت تقول المرة إثر المرة للفتاة إن الأمور ستكون على هذه الحال أو تلك في "ديل" هنا في الصيف ، وإن جماعة الحصاد قد اعتادوا على فعل هذا أو ذاك وما الذي سيفعلونه في الحقول في الخريف . . .على فريدا أن تتذكر ما فعلته كريستين في العام الماضي ، فقد كانت إرادتها أن تجري كل الأمور في المزرعة هنا كما كانت تجري أيام راغنفريد إيفارسداتر . . .

ولكن أن نقول مباشرة إنها لن تكون هناك بنفسها في المزرعة ذلك الصيف . . . فهذا أمر تجده هي صعباً ، فقد عاشت في يورondغارد شتاءين وصيفاً واحداً كسيدة لها ، وكانت تعرف جيداً أنها لو ذهبت إلى السايتر وسكنت هناك في هذا العام ، لبدا الأمر إلى حد كبير وكأنها قد هربت .

لقد رأت جيداً أن مصير إرلند لم يكن سهلاً ، فمنذ أن كان يجلس على ركبة أمه بالتربية لم يكن يعرف شيئاً سوى أنه وُلد ليأمر ويسود على كل شيء وأي شيء من حوله . ولو أنه كان قد سمح بأن يسوده الآخرون ويأمرونه ، فإنه لم يكن هو نفسه يعرف ذلك .

من المستحيل أن يكون من الداخل كما يبدو عليه من الخارج . لا شك أنه غير سعيد هنا . كانت هي نفسها . . . كانت ضيعة أبيها على أرض الوادي الهادئ المغلق وكانت الحقول المسطحة المحاطة بمنحنيات النهر تلتمع عبر غابات جار الماء والمزارع القابعة على الأراضي الواطئة المحروسة عند سطح الهضاب ، وفوقها الجبال شديدة الانحدار ذات القمم الرمادية التي تصعد أمام السماء ، وتحتها الجروف ذات الألوان الفاتحة وغابات الصنوبر وغابات الأشجار الورقية التي تزحف صاعدة المنحدرات من قعر الوادي . . . لا ، لم يعد هذا يبدو لها على أنه أجمل البيوت وأكثرها أماناً في العالم . كان مطوقاً إلى حد كبير . لا بد أنه يبدو

في عيني إرلند قبيحاً وضيقاً وغير مضياف .

ولكن لم يلاحظ عليه أحد أي أمارة عدا أنه كان سعيداً جداً . . .

•

أخيراً في يوم إطلاقهم للقطعان في يوروندغارد ، قالت ما تريد قوله . . . في المساء وهم جالسون لتناول العشاء . وبينما كانت تتكلم كان إرلند يعبث في طبق السمك بحثاً عن لقمة شهية ، كان يجلس هادئاً في حال من التعجب ، وأصابعه لا تزال في الطبق محدقاً إلى زوجته . ثم قالت كريستين بسرعة إن الأمر يعود في معظمه إلى مرض الحلق الذي كان يصيب الأطفال على الدوام في "ديل" ، كان مونان شديد الضعف . ستصطحبه ولافرانس إلى الجبال .

قال إرلند أجل . ثم سيكون من الأفضل على الأرجح أن يصطحبها إيفار وسكوله أيضاً .

قفز التوأمان من الفرح على مقعدهما . خلال بقية الوجبة حاول كل منهما أن يبزّ الآخر بالثرثرة . سيذهبان مع إرلينغ ، كما قالا ، الذي كان سيمكث بعيداً في الشمال بين جبال "غراهو" مع الغنم . قبل ثلاث سنوات كان بعض الرعاة من "سيل" قد طاردوا لص أغنام وقتلوه قرب كوخه بين جبال "الخنزير البري" . . . كان خارجاً عن القانون من "أوستردال" . وما أن نهض أهل البيت عن المائدة حتى حمل إيفار وسكوله إلى القاعة كل الأسلحة التي كانا يمتلكانها وبدءا يعملان عليها .

في وقت لاحق من المساء مضت كريستين جنوباً مع ابنتي سايمون أندرسون وابنه كذلك مع ابنيها غاوته ولافرانس . كانت أرنغيبرد سايمونسداتر في يوروندغارد معظم هذا الشتاء ، وكانت قد بلغت الخامسة عشرة من عمرها الآن . وفي أحدا لأيام خلال موسم عيد الميلاد ، في فورمو ، كان سايمون قد قال إن الوقت قد حان لتتعلم آرنغيبرد شيئاً آخر غير ما تستطيع تعلمه في بيتها . كان قد

سبق لها وأضحت تعرف ما تعرفه الخادمات . وعند ذاك عرضت كريستين أن تصطحب الفتاة معها إلى بيتها لتعلمها بقدر ما تستطيع ، فقد كانت تعلم أن سايمون يحب ابنته كثيراً ويفكر كثيراً في مستقبلها . وكانت الطفلة في حاجة إلى أن تتعلم أساليب أخرى غير تلك التي كانت تراها في فورمو . وبما أن حماه وحماته قد أصبحا في عداد الأموات الآن ، فقد أضحى سايمون أندرسون واحداً من أغنى الرجال في الريف . كان يدير أملاكه جيداً وباحتراس إذ كان مزارعاً نشيطاً وماهراً في زراعة أراضيه في فورمو ولكن داخل المنزل ما كانت الأمور تجري على أفضل نحو ممكن . . . فقد كانت الخادمات هن من يحكمن ويدرن كل الأمور ، وحين يلاحظ سايمون أن الفوضى والخراب قد تجاوزا كل الحدود ، كان يجلب خادمة أو خادمتين جديدتين ، ولكنه لم يكن يذكر هذه الأمور أمام زوجته ، وبدا عليه أنه لا يرى ولا يرغب في أن تقوم هي بالاهتمام على نحو أكثر بعملها كربة للمنزل . كأنما لم يكن هو ليعتبرها كاملة النضوج - تقريباً - بل كان شديد اللطف والتساهل مع رامبورغ ، وكان يغمرها مع الأطفال بالهدايا سواء في المناسبات أو خارجها .

أصبحت كريستين مولعة بأرنغييرد بعد أن عرفتها عن كثب ، لم تكن فتاة جميلة ، ولكنها كانت فتاة ذكية ولطيفة وطيبة القلب ، سريعة في استخدام يديها وماهرة . وبينما راحت الفتاة الشابة ترافقها في المنزل ، أو تجلس إلى القرب منها في مبنى الحياكة في المساء ، غالباً ما كانت كريستين تفكر في أنها تستطيع أن تتمنى لوكان أحد أبنائها بنتاً . لابد أن البنت تكون مع أمها أكثر . . .

كانت تفكر على هذا النحو في إحدى الأمسيات هي تتمشى ، وقد أمسكت بلافرنس من يده وراحت تنظر إلى غاوته وأرنغييرد اللذين كانا قد سبقاها على الممر أمامها . كانت أولفهيلد سايمونسداتر تتراكض في المكان وتدوس مهشمة جليد المساء الهش فوق البرك . . . متظاهرة بأنها وحش ما ، وقد ارتدت عباءتها بالمقلوب حتى أن جلد الأرنب البري الأبيض كان إلى الخارج .

في الوادي إلى الأسفل كانت الظلال تتكثف متحولة إلى غسق فوق الحقول الجرداء بنية اللون . ولكن هواء مساء الربيع بدا وكأنه مشبع بالنور . التمعت أولى النجوم رطبة وبيضاء في السماء ، عالية حيث كان اللون الأخضر المائي الصافي يتحول إلى ليل أسود داكن . ولكن فوق الحافة السوداء للجبال على الجانب البعيد من الوادي كانت تتلبث ما تزال حزمة من النور الأصفر وكان بريقها يضيء الجبل الذي كان يقبع فوق الحافة المتحدرة من فوقها . أما أعلى الجميع ، حيث كانت أكوام الجليد تبرز فوق قمم الجبال فقد كان هناك شعاع الثلج والجليد المعلقين تحتها وهما اللذان يغذيان الجداول المزبدة التي تندفع نحو الأسفل في كل مكان بين الصخور الكبيرة . فوق الوادي كان الجو مليئاً بصخب المياه ومن الأسفل كانت تصعد زمجرة النهر المبحوحة . وكان هناك غناء الطيور من كل البساتين والأدغال ، ومن الغابة التي كانت تحيط بكل شيء .

توقفت أولفهيلد في إحدى المرات والتقطت حجراً ورمته حيث كانت الطيور تشدو . ولكن أختها الكبيرة أمسكت بها من ذراعها . ثم مضت هادئة فترة من الوقت إلاّ أنها سرعان ما أفلتت منها وعدت هابطة المنحدر . . .حتى ناداها غاوته طالباً منها العودة .

كانوا قد اقتربوا من حيث يؤدي الدرب إلى غابات التنوب ؛ من بين الأشجار التي كانت أمامهم وصل رنين قوس . كان الثلج لا يزال في الغابات ، وكانت رائحة الجو تعبق بالبرد والنضارة . على مسافة قصيرة إلى الأمام ، وفي فرجة صغيرة ، كان إرلند واقفاً مع إيفار وسكوله .

كان إيفار قد أطلق سهماً على سنجاب ، وكان السهم قد علق في فرع عال من شجرة الصنوبر وكان يريد الآن أن ينزله . راح يرمي الحجر في إثر الحجر . وكانت الشجرة الثخينة المستقيمة ترنّ مجدداً حين يصبب ساقها .

قال أبوه : "اهدأ قليلاً ، دعني أجرب أن أنزله بسهم لأجلك" . هزّ عباءته

نحو الخلف فوق كتفيه ووضع سهماً في قوسه ثم سدد دون اهتمام في النور الخادع بين الأشجار . رنّ القوس وغنى السهم عبر الهواء ودفن نفسه في فرع الصنوبر إلى جوار سهم الصبي . أخذ إرلند سهماً آخر ورمى مجدداً . . . انزلق أحد السهمين اللذين كانا قد انغرسا في الشجرة وراح يصلصل من فرع إلى آخر . أما السهم الآخر فقد تشظت قصبته أما رأسه فبقي منغرساً بشدة في الشجرة .

ركض سكوله في الثلج ليلتقط السهمين وقف إيفار محدقاً إلى أعلى الشجرة ."إنه لي يا أبي ذاك الذي بقي منغرساً بقوة ! إنه هناك منغرس حتى المَغْرز . . .لقد رميته بقوة يا أبي!" . . .ثم راح يحكي لغاوته عن السبب في أنه لم يصب السنجاب . . ضحك إرلند بصوت منخفض ورمى بعباءته من حوله مجدداً ."هل ستعودين الآن يا كريستين ؟ عليّ أن أعود إلى البيت . . . سننطلق لصيد الطيهوج عند الفجر ناكفه وأنا . . ."أجابت كريستين بالنفي بسرعة فهي ستتابع السير مع الخادمات إلى الضيعة . . .كان عليها أن تتحادث مع أختها عن موضوع ما في هذا المساء . . .قال غاوته : "ثم يستطيع إيفار وسكوله الذهاب مع أمهما ويبقيان معها في البيت . . .لو كنت سأذهب معك يا أبي أليس كذلك ؟" رفع إرلند أولفهيلد سايمونسداتر بين ذراعيه ليودعها ، كانت ممتلئة صحة ونضارة وذات لون وردي بينما كانت خصل شعرها المجعدة بنية اللون مخبأة في قبعتها البيضاء الفرو . قبّلها ثم أنزلها أرضاً والتفت ومضى نحو البيت مع غاوته .

بما أن إرلند كان دون عمل يشغله الآن فقد كان دائماً مع بعض أبنائه . أخذت أولفهيلد يد خالتها ومشت قليلاً . . .ثم ركضت مجدداً وهي تلعب بين إيفار وسكوله . أجل كانت طفلة جميلة . . .ولكنها كانت طائشة وجامحة . لو كانت لديهما ابنة فلا شك أن إرلند كان سيبقيها معه دائماً كدمية .

●

في فورمو كان سايمون في القاعة وحيداً مع أبنه الصغير حين دخلوا عليه . كان يجلس في الكرسي العالي في وسط المائدة الطويلة ويراقب "أندرس" الذي كان يركع على المقعد الخارجي ويلعب بأوتاد قديمة محاولاً جعلها تقف على رؤوسها فوق المائدة المسطحة . ما أن رأت أولفهيلد هذا ، حتى اندفعت وقد نسيت أن تحيي أباها ، نحو المقعد إلى جوار أخيها وأمسكت به من مؤخر عنقه وراح تضرب له وجهه فوق سطح المائدة ، وهي تصرخ بأن هذه كانت أوتادها هي فقد أعطاها إياها أبوها بنفسه .

نهض سايمون ليفرق بين الطفلين ، وخلال نهوضه حدث أن أسقط طبقاً صغيراً من الخزف إلى القرب من مرفقه فسقط أرضاً وتحطم إلى قطع صغيرة .

زحفت آرنغييرد تحت المائدة ولمّت القطع . أخذها سايمون منها ونظر إليهم بتعاسة : "أخشى أن أمكم ستغضب من هذا !" كان ذاك طبقاً صغيراً من الخزف الأبيض وقد رسمت عليه نقوش جميلة مّما كان السير أندرس دار قد جلبه معه من فرنسا ومنحه لهلغا ، ولكنها قدمته إلى رامبورغ كما قال سايمون ، وكانت النساء تعتبره غالي الثمن . في تلك اللحظة سمع صوت زوجته في الغرفة الخارجية ، فأخفى يديه وفيها الشظايا خلف ظهره .

دخلت رامبورغ وحيّت أختها وأبناء أختها . أمسكت بعباءة أولفهيلد فركضت الفتاة الصغيرة إلى أبيها وتشبثت به .

"هل نحن في وضع جيد اليوم يا أولفهيلد؟ . . .أنت تلبسين حزامك الفضي في يوم عمل كما أرى حقاً . . ."ولكنه لم يستطع أن يمسك بالطفلة ويداه مليئتان كما كانتا .

صرخت أولفهيلد أنها كانت عند الخالة كريستين في يوروندغارد اليوم ، ولهذا ألبستها أمها أفضل الملابس في هذا الصباح . . .

" :أجل ، أمك ترعى أمورك لتكوني جميلة ومرحة . . . فقد يضعونك في المذبح شمالاً في الكنيسة ، كما أنت الآن" ، قال سايمون مبتسماً . كان العمل الوحيد الذي تشغل رامبورغ نفسها به هو خياطة الملابس لابنتها حتى كانت أولفهيلد في أجمل مظهر .

"لم تقف هكذا؟" سألت رامبورغ زوجها .

أراها سايمون الشظايا . "لا أعرف ما ستقولين عن هذا . . ." تناولتها رامبورغ منه :

"لا حاجة للوقوف هناك والظهور بمظهر الحمقى ."

انزعجت كريستين وهي جالسة هناك . كان أمراً صحيحاً أن سايمون بدا كالأحمق وهو واقف وقد أخفى الشظايا خلفه ، ومداعباً الطفلة في آن معاً ولكن لم تكن هناك حاجة إلى رامبورغ لتقول ذلك .قال الرجل : " ظننت أنه سيغضبك أن تجدي طبقك وقد انكسر ."

"أجل تبدو طوال الوقت وأنت تخشى أن تغضبني . . . في أمور صغيرة كهذه" ، أجابت رامبورغ . . . والآن لاحظ الآخران أنها كانت على وشك البكاء .

قال سايمون : "تعرفين جيداً يا رامبورغ أنها ليست مسألة أني أبدو ، وأعتقد أن الأمر لا يتعلق فقط بأمور صغيرة كهذه . . ."

أجابت رامبورغ كما من قبل : " لا أعرف . ليست هذه عادتك يا سايمون أن تكلمني في الأمور الكبيرة . . ."

التفتت بحدة وعادت إلى الغرفة الخارجية . وقف سايمون قليلاً وهو يتابعها بنظره . وحين جلس فإن الصبي أندرس اقترب وحاول أن يصعد إلى ركبة أبيه . رفعه سايمون وجلس وهو يدير ذقنه أعلى رأس الطفل ، ولكن لم يبد عليه أنه سمع ما هذر به الطفل .

بعد قليل قالت كريستين بلهجة متعثرة :

"لم تعد رامبورغ صغيرة يا سايمون . . . فابنتها في السابعة الآن . . ."

سألها سايمون على نحو أكثر حدة من اللازم كما فكرت : "ما الذي تعنينه؟"

"أعني أن أختي قد تظن إلى الأرجح أنك لا تعتمد عليها إلا قليلاً . . . ألا تستطيع أن تحاول فتضع بين يديها المزيد من المسؤولية في المزرعة هنا . . .معك؟"

أجاب سايمون بانفعال : " تضع زوجتي يديها على كل ما تريد ولا أطلب منها أن تفعل ما يزيد عما تريده ولكني لم أنكر على رامبورغ قط أن تتحكم في أي شيء هنا في فورمو . إن كنت تعتقدين أن الأمر خلاف ذلك فالسبب هو أنك لا تعرفين . . ."

قالت كريستين :"كلا ، كلا !ولكن في المرة إثر الأخرى يا زوج أختي ، كان يبدو لنا أنك لا تتذكر أن رامبورغ أضحت أكثر نضجاً الآن عما كانت عليه حين تزوجتما . عليك أن تتذكر يا سايمون . . ."

"تذكري أنت" . . .وضع الطفل أرضاً وقفز في مكانه . . ."أن رامبورغ وأنا قد اتفقنا معاً . . .بينما لم نتفق أنت وأنا . . ."

في هذه اللحظة بالذات دخلت سيدة المنزل ، وهي تحمل كأس الجعة للضيوف . مضى سايمون بسرعة نحو زوجته ووضع يده فوق كتفها :"هل سبق لك وسمعت يا رامبورغ كلاماً مشابهاً . . . تعتقد أختك أنك لست راضية عن أوضاعك هنا . . ."ثم ضحك .

رفعت رامبورغ نظرها . كانت هناك التماعة غريبة في عينيها الواسعتين الداكنتين :

"وكيف ذلك؟لقد حصلت على ما أردت ، وأنت كذلك يا كريستين . . .ولا أعرف إن لم نكن نحن الأختين سعيدتين جداً . . ." ثم ضحكت هي أيضاً .

وقفت كريستين هناك بوجه متضرج غاضب . لم تمسك كأس الجعة بين يديها .

"كلا ، لقد سبق للوقت وأصبح متأخراً . . .حان وقت العودة إلى البيت . . . " ونظرت إلى أبنائها .

"لا ، لا يا كريستين ." أخذ سايمون الكأس من يدي زوجته وشرب نخب الأخت الأخرى ." لا تغضبي الآن . ليس أمراً جيداً أن تأخذا على هذا النحو اللطيف كل كلمة يتبادلها الأقرباء المقربون . . .اجلسي قليلاً وأريحي قدميك . كوني سعيدة من جديد وانسي الأمر لو كنت أجبتك على نحو مختلف عما كان يجب عليّ . . ."

ثم استأنف قائلاً وهو يتثاءب قليلاً :"أنا منهك" . ثم سأل عن مدى تقدم العمل الربيعي في يوروندغارد . . .فهنـــا أنجـــزوا حرث كل الحقـــول شمال طريق الضيعة .

في الخارج كان الليل قد ادلهم مع نجوم لامعة صافية . راح نسيم دافئ ربيعي حاملاً رائحة الحقول المحروثة حديثاً يهب عبر الهواء الليلي القارس . كان خرير الماء يسمع من كل مكان من حولهم .

اتجه سايمون وكريستين شمالاً والأولاد الثلاثة يركضون أمامهم . أحست أن الرجل الذي يمشي إلى القرب منها كان يود أن يقول شيئاً ، ولكنها لم تكن راغبة في مساعدته على الكلام فقد كانت لا تزال غاضبة منه إلى حد كبير . صحيح أنها كانت تودّ زوج أختها . . .ولكن يجب أن تكون هناك حدود لما يعتبره هو ممكناً القول ثم الانسحاب منه . . .مع عبارة "ولكن هذا أمر بين الأقرباء " . عليه بكل تأكيد أن يفهم . . .أنه قد وقف معهم وقفة شديدة الإخلاص خلال محنتهم ممّا سهل عليها تحمل الأمور . فكرت في فصل الشتاء الأول ، حين كانوا قد وصلوا إلى الأبرشية منذ زمن قصير : كانت رامبورغ قد أرسلت في طلبها ، فقد كان

سايمون طريح الفراش من بثور في الرقبة ومريضاً إلى حد كبير . كان شديد المعاناة من هذا المرض . ولكن حين وصلت إلى فورمو وذهبت لتعود هذا الرجل ، فإنه رفض أن تلمسه أو حتى أن تنظر إليه . كان شديد العناد إلى حد أن رامبورغ توسلت لأختها بشدة أن تغفر لها لأنها جلبتها إلى ذلك المكان . لم يكن سايمون أفضل في معاملته لها ، كما قالت ، حين أرادت أن ترعاه لأول مرة مرض فيها بعد زواجهما . حين أصابته بثور الحنجرة تلك . خبأ نفسه في المبنى القديم الذي يسمونه "قاعة سايموندز" ورفض أن يقترب منه أي شخص عدا خادم عجوز قبيح قذر مقمّل اسمه غونستاين كان يعمل في خدمتهم في دايفرين من قبل أن يولد سايمون . . .صحيح أن سايمون زار أخت زوجته لاحقاً وصالحها . قال إنه لا يحب أن يراه أحد مصاباً بمثل هذا المرض . كان هذا المرض يبدو له مثيراً للشفقة حين يصيب رجلاً ناضجاً . وكانت كريستين قد أجابته بإيجاز أنها لا تفهمه . فلم يكن في مسألة أن يصاب المرء بحنجرة متورمة ما هو خطيئة أو عار .

وصل معها الآن حتى الجسر ، وكانا طوال الوقت يتكلمان عن الطقس والعمل في المزرعة ويكرران مجدداً كل الأشياء التي قالاها من قبل في القاعة . تمنى لها سايمون ليلة طيبة ، ثم سألها فجأة :

"أتعرفين يا كريستين ما الذي فعلته لغاوته حتى أصبح الصبي غاضبا إلى هذا الحد مني؟"

"غاوته؟" سألته باستغراب .

"أجل ألم تلاحظي ذلك ؟ إنه يتجنبني . . .ولو استطاع حين يقابلني فهو لا يفتح فمه إلا بالكاد حين أخاطبه . . ."

هزت كريستين رأسها ، لم تلاحظ شيئاً من ذلك . . ."ولكن ربما قلت له كلاماً وأنت تمازحه فأغضبه ذلك كونه لا يزال طفلاً . . ."

عرف من صوتها أنها كانت تبتسم . ضحك قليلاً :" ولكني لا أستطيع أن أتذكر شيئاً من هذا الأمر . . ."

وبهذا تمنى لها ليلة طيبة مجدداً وغادرها .

في يوروندغارد كانت الأمور هادئة كلها . كان الظلام مخيماً على القاعة والرماد مسعَراً في الموقد . كان بيورغولف قد استلقى مستيقظاً . قال إن أباه وأخوته قد خرجوا منذ بعض الوقت .

في السرير الكبير كان مونان نائماً لوحده . . .ضمته أمه بين ذراعيها حين استلقت في السرير .

كان من الصعب أن تفتح الموضوع مع إرلند إن لم يكن قد فهم الأمر بنفسه . . .أن عليه ألا يأخذ أولاده الكبار ويذهب للتجول في الغابات معهم حين يكون هناك الكثير من العمل يتوجب إنجازه في المزرعة . . .

لا شك أنها لم تتطلع قط إلى أن إرلند سيقف يوماً وراء المحراث . فيما يخص تلك المسألة ، لم يكن هو من ذلك النوع من الرجال الذي يحب الانغماس في العمل . كما كان أولف ينزعج لو تدخل إرلند في مسائل الزراعة . ولكنها لم تكن تريد لأبنائها ان يصلوا إلى سن الرجولة كما فعل أبوهم . . .دون ان يتعلموا سوى حمل السلاح وصيد الحيوانات المتوحشة واللهو مع الجياد أو الجلوس أمام لوح الدامة مع كاهن مهمته إدخال بعض المعرفة باللغة اللاتينية في رأس ابن الفارس ، وكذلك الكتابة والغناء والعزف على الأوتار . لذلك كانت لا تحتفظ بالكثير من العمال في الضيعة حتى لايكون هناك نقص في اليد العاملة . . . فعلى أبنائها أن يتعلموا منذ الطفولة أن عليهم أن يعتادوا على أعمال المزرعة . كان هناك الآن أمل صغير الآن في أن يكون لأبناء إرلند مستقبل في سلك الفروسية .

ولكن غاوته كان بين الشبان كلهم الوحيد الذي لديه ميل للزراعة . كان غاوته محباً للعمل . . . . وهو لم يتجاوز سن الثالثة عشرة . لم يكن هناك ما

يتطلع إليه حتى يكون راغباً في الذهاب مع إرلند حين يطلب منه أبوه مرافقته . . .

ولكن كان من الصعب مفاتحة إرلند في هذا الخصوص . فقد كانت ملتزمة بهذا المبدأ . . . لن يسمع زوجها منها أبداً كلمة واحدة قد يفهمها على أنها لوم له على أفعاله أو تفجّع على المصير الذي أوصل نفسه وأبناءه إليه . وكان أمراً أصعب عليها أن تقول للأب إن أبناءه يجب أن يتعودوا على العمل بأيديهم في مزرعتهم . لو كان لأولف أن يطرح هذا الموضوع ، كما فكرت . . .

●

حين انتقل الخدم مع القطعان من السايترات الأدنى صعوداً إلى هوفرينغن ، مضت كريستين معهم إلى الجبال . لم تصطحب التوأمين معها . كانا في سن الحادية عشرة الآن والأكثر رعونة وعناداً بين كل أولادها . وكان أمراً صعباً عليها توجيههما لأنهما اثنان معاً . ولو حدث أن كان إيفار وحيداً فإنه يكون طيباً وطيعاً إلى حد كاف ، ولكن سكوله كان ناريّ المزاج وعنيداً . . . حين يكون الأخوان معاً ، كان إيفار يقول ويفعل ما يقوله ويفعله الآخر .

-٢-

في أحد أيام مطلع الخريف خرجت كريستين حوالي وقت صلاة العصر . كان الراعي قد قال إنها إن اتبعت مجرى النهر ، فستجد في أسفل الجبل فسحة بين الغابات حيث ينمو الكثير من "هراوات هارون" .

وجدت كريستين البقعة : منحدر جبلي حاد تضربه الشمس على نحو مباشر . . . وكان الآن أفضل وقت ملائم لقطف الأزهار التي كانت تنمو بكميات كبيرة فوق كل أكوام الحجارة وحول جذول الأشجار الرمادية : سيقان طويلة صفراء لامعة تتكدس فوقها نجيمات صغيرة متفتحة . طلبت كريستين من مونان أن يقطف ثمار التوت بين هذه الشجيرات التي لم يكن يستطيع تجاوزها دون مساعدتها ثم أمرت الكلب أن يبقى ليحرسه . ثم أخرجت سكيناً وراحت تقطع بها الأزهار ، بينما أبقت عينيها باستمرار على الطفل الصغير . . . وبقي لافرانس إلى جوارها وراح يساعدها بانهماك .

كانت دائمة الخوف على ابنيها الصغيرين هنا . وخلاف ذلك لم تكن تحمل خوفاً كبيراً من الأشخاص الذين كانوا هناك . فقد سبق أن راح اللبّانون ينزلون من السايترات إلى بيوتهم ولكنها كانت مصممة على البقاء خلال قداس ماريا الثاني (الثامن من أيلول/ سبتمبر) . صحيح أن الليالي أضحت شديدة العتمة الآن

وموحشة حين تهب الريح بقوة . . . موحشة حين يكون عليهم الخروج في وقت متأخر . ولكن في معظم الوقت كان الطقس جميلاً جداً هناك في الأعلى . . . وفي الأسفل في الوادي كان العام عام قحط والطعام نادراً . كان على الرجال البقاء هنا في أوائل الخريف - وكان أبوها قد قال إنه لم يلاحظ قط وجود أي من السكان في سايترهم الخاص بالشتاء .

وقفت كريستين تحت شجرة صنوبر منعزلة في منتصف منحدر الجبل ، ويداها متشبثتان بباقة ثقيلة من سيقان الزهور الموضوعة على كتفها . من هنا كان المرء قادراً على أن يرى الطريق حتى دوفر شمالاً . كان القمح مكدساً في كثير من الأماكن على أراضي المزارع . . . .

كان المرج أصفر ومسفوعاً هنا أيضاً . ولكنه لا يكون أخضر حقيقياً في "ديل" هنا كما بدا لها الآن . . . ليس أخضر كما هو في تروندهايم .

أجل . . . عاد ذهنها توقاً إلى البيت الذي كان لهما هناك . . . الضيعة التي كانت تقع في مكان مرتفع جداً وبارز على منحدر الجبل واسع الصدر ، والحقول والمروج الرحبة نزولاً إلى غابات الأشجار المورقة في الوادي الصغير المنعزل الذي كان يهبط إلى البحيرة في قعر الوادي الكبير . كان المطل البعيد فوق منحدرات حراجية منخفضة تلتف موجة إثر أخرى ، جنوباً نحو دوفرفييلد . أما الأراضي المعشوشبة فشديدة الوفرة والعمق في الصيف ، حمراء من الزهور الوردية تحت احمرار سماء المساء . . . والنتيجة مروج خضراء ريانة في الخريف . . .

أجل ، مرت أوقات طغى عليها فيها الحنين حتى إلى الزقاق البحري . . . الأنهر في بيرغسي ، أرصفة التحميل مع الزوارق والقوارب والسفن ، حظائر السفن ، رائحة القطران وعدة صيد السمك ، والبحر . . . كل تلك الأمور ما كانت تحبها إلا قليلاً حين وصلت لأول مرة إلى الشمال . . .

إرلند . . . لابدّ أنه يتوق حقاً إلى تلك الرائحة وإلى البحر والرياح البحرية . . .

كانت تفتقد الآن كل ما كانت تعتبره منهكاً لها . . . البيت الكبير ، أفواج الخدم ، والجلبة حين يدخل رجال إرلند الساحة على خيولهم بأسلحة مقعقعة وعدد مجلجلة . . . غرباء قادمون وذاهبون ، يحملون أنباء هامة من البعيد وكذلك إشاعات الناس في الريف والمدينة . . . أحست الآن كم أصبحت حياتها هادئة حين خرس هذا كله . . .

بلدة السوق بكنائسها وأديرتها وأعيادها في منازل كبار القوم . . .كانت تتوق إلى السير عبر الشوارع وخلفها وصيفها وخادمتها وأن تصعد الدرج إلى مخازن التجار وتختار غرضاً ما أو ترميه جانباً ، أن تكون على متن قوارب التجارة على النهر وأن تساوم على الأسعار : غطاء رأس من الكتان الإنكليزي ، أوشحة مرهفة ، أحصنة خشبية فوقها فرسان يستطيعون أن يطعنوا برماحهم حين تشدّ خيطاً . فكرت في المروج خارج البلدة قرب نيدارايد حيث كانت تذهب مع أطفالها لمشاهدة كلاب ودببة رجال الاستعراض وشراء خبز العسل والجوز . . . وفي بعض الأحيان كانت تتمنى كثيراً لو تزين نفسها مرة أخرى . . . شلحات حريرية وغطاء رأس كتاني رقيق ناعم . والمعطف دون أكمام المصنوع من المخمل الأزرق الفاتح الذي اشتراه لها إرلند في الشتاء الذي سبق المصيبة التي حلت بهم . كانت له حواف من جلد القاقوم من حول الصدر ذي الفتحة العميقة وحول شقي الذراعين الطويلين ، وكان يصل إلى الوركين ويكشف عن الحزام الذي تحته .

بين الحين والآخر كانت تتوق . . .أوه كلا . . .كان أمراً لا يدل على الذكاء ألاّ تشعر بالسعادة لأجل ذلك ، سعيدة طالما كانت قد تخلصت من حمل المزيد من الأطفال . حين مرضت في الخريف ، بعد عملية النحر الكبير . . .كانت أفضل

الأمور قد حصلت . ولكنها بكت قليلاً بسبب ذلك ، في الليالي الأولى التي تلت . . .فقد بدا لها أن زمناً طويلاً طويلاً قد مضى منذ أن حملت طفلاً صغيراً . كان مونان الآن في شتائه الرابع فحسب . . .ولكنها كانت قد وضعته في أيدي الغرباء قبل أن يبلغ سنة واحدة من عمره . وحين استعادته كان قادراً على المشي والكلام ولم يميزها . . .

إرلند! أوه إرلند! كانت تعرف جيداً من أعمق أعماق قلبها أنه ليس لا مبالياً إلى ذلك الحد الذي يبدو عليه . كان دائم القلق . . .كأنما كان الآن هادئاً على الدوام : كجدول ماء يضرب في النهاية جداراً من الصخر ، ويترك نفسه يُحوَل جانباً وينزّ عبر الخثّ ليصنع بركة هادئة يحيط بها مستنقع من كل جانب . كان يقضي وقته في يورروندغارد لا يفعل شيئاً ، ويصطحب بين الحين والآخر أحد أبنائه ليرافقه في التسكع . أو كان يذهب للصيد معهم . كان من شأن مزاجه أن يجعله يعمل ، فيطلي بالقار ويرقع أحد الزوارق التي كانت تحفظ في البرك لأجل صيد السمك أو كان يبدأ بترويض أحد المهور . ولكنه لم ينجح في هذا العمل ، فقد كان شديد الاستعجال .

كان يبقى منفرداً ويتظاهر بأنه لا يوجد من يحب صحبته . كان الأبناء يفعلون ما يفعله أبوهم . لم يكن هؤلاء الأغراب الذين دفعهم سوء الحظ إلى "ديل" محبوبين ، فقد كانوا يتصرفون بأسلوبهم الخاص ، وكانوا فخورين بأنفسهم وغريبين جداً ، لا يحاولون تعلم شيء من الأمور الخاصة بالأبرشية وسكانها . أما بالنسبة إلى أولف هالدورسون فقد كان الأمر حقداً محضاً . . .كان يحتقر أهل "الديل" على المكشوف ، ويسميهم بالأغبياء عتيقي الطراز . إن من لم يترعرع قريباً من شاطئ البحر ليس بشراً . . .

أما هي فقد عرفت أنه لم يكن لديها الكثير من الأصدقاء أيضاً هنا في موطنها . ليس بعد الآن . . .

سوت كريستين قامتها في ثوبها الصوفي ذي اللون البني الطحلبي ، وظللت عينيها بيديها من الدفق الذهبي لشمس العصر . . .

في جهة الشمال تحت "الديل" على امتداد شريط النهر الأبيض الأخضر ، ثم حشداً من هياكل الجبال ، الواحد خلف الآخر ، ذات اللون الأصفر الرمادي مع المنحدرات والمستنقعات ، إلى حقول الثلج البعيدة التي ترى عبر الجروف والتلال والغيوم . أمامها كانت روستكامبن تثني ركبة إلى الأمام وتشكل حاشية للديل ، مبعدة اللاغن جانباً في انثناءه كبيرة . وصل صوت رعد بعيد من النهر حيث كان يشق طريقه عميقاً في صخور الأردواز في الأسفل ثم يهبط وهو يفور ويزبد من رف إلى رف . على التلال السبخية فوق قبة روستكامبن برز الظهران المستديران لجبلي بلاهوير الكبيرين ، واللذين كان أبوها يشبههما بثديي امرأة . . .

لا بدّ أن إرلند يشعر أن المكان هنا ضيّق وبشع . . .يصعب على المرء التنفس فيه . . .

إلى الجنوب قليلاً على هذا الجانب نفسه من التل ، هناك تحت المنحدرات قرب السايتر ، كان المكان الذي رأت فيه الجنية حين كانت طفلة صغيرة . . .

طفلة رقيقة ناعمة شقراء رشيقة ذات شعر حريري كثيف من حول وجنتين مستديرتين حمراوين وبيضاوين . . .أغمضت كريستين عينيها والتفتت بوجهها الذي سفعته الشمس نحو دفق النور . أم شابة بثديين منتفخين بالحليب وقلب خائف ومثمر من حمل الطفل كحقل محروث حديثاً . . .أجل . ولكنها لم تكن خائفة في حالتها الحاضرة . ما كانوا سيحاولون حتى أن يمسكوا بها . لن يعتبرها ملك الجبل وهي المرأة المنهكة والنحيلة إلى هذا الحد على أنها تستحق ذهب

العروس . لن تقبل الزوجة الجنية أن تضع طفلها ليرضع من ثديين ناشفين إلى هذا الحد . أحست أنها أضحت قاسية وجافة مثل جذر شجرة الصنوبر تحت قدمها والذي كان قد ثنى نفسه فوق الأحجار وثبت نفسه بقوة . ضربته بكعبها بقوة وهي تفكر .

"لم فعلت ذلك يا أمي؟"

جلست كريستين ووضعت زهرات هراوة هارون في حضنها وبدأت تقطف الزهور المتفتحة لتضعها في سلتها .

أجابت بعد فترة طويلة جداً حتى أن الصبيين لم ينتبها إلى أنهما كانا قد سألا السؤال : "كان حذائي يقرصني عند الأصابع ." إلاّ أنهما لم يكترث كثيراً بهذا . . . كانا معتادين جداً على أن تبدو أمهما لا تسمع حين يحدثانها ، أو أنها تستيقظ وتجيب حين يكونان قد نسيا سبب طرح السؤال .

ساعدها لافرانس في قطف الزهور . كان من شأن مونان أن يقدم يد المساعدة أيضاً ، ولكنه مزّق الشرابات إلى نتف صغيرة . وهكذا أخذت أمه الأزهار منه دون كلمة واحدة ودون غضب ، فقد كانت أفكارها قد قادتها بعيداً . وسرعان ما بدأ الصبيان يلعبان ويتقاتلان بسيقان النبات المعرّاة التي كانت ترميها بعيداً .

استمرت اللعبة بصخب أمام ركبتي الأم . نظرت كريستين إلى رأسي الطفلين الصغيرين المستديرين بشعرهما البني . كانا لا يزالان متشابهين : كان لهما لون الشعر البني الفاتح نفسه ولكن بواسطة كل أنواع العلامات والإشارات الصغيرة التي لا تُرى إلا بالكاد استطاعت أمهما أن ترى أنهما لن يكونا متشابهين جداً بعد أن يكبرا . سيشبه مونان أباه : فله عيناه الزرقاوان زرقة البحر ، والشعر الحرير الذي يلتصق بطراوة في خصل مجعدة وأمواج صغيرة من حول الرأس الضيق . سيسودّ بالتدريج حتى يصبح بلون السخام مع مرور الوقت . ذلك الوجه الصغير الذي لا يزال مستديراً تحت الذقن على الخدين حتى ليستمتع المرء بلمس

نضارته ، سيصبح ضيقاً ويستطيل ، ما أن يصبح أكبر بقليل . وهو أيضاً سيكون له ذلك الجبين العالي الضيق الذي يغور عند الصدغين والمثلث المستقيم البارز للأنف الحاد والضيق عند الجسر ، مع منخرين رقيقين قلقين سبق لناكفه أن امتلك مثلهما أيضاً .

كانت للافرانس خصل تبنية اللون ناعمة كالحرير حين كان صغيراً . والآن بدأ شعره يكتسب لون الكستناء ، إلا أنه يعكس شعاعاً ذهبياً تحت نور الشمس . كان ناعماً وأملس بما فيه الكفاية ولكنه أخشن وأكثف . كان عبارة عن كتل تستطيع أن تدفن أصابعك فيها . كان لافرانس يشبهها هي . كانت له عينان رماديتان ووجه مستدير ، ويبدو أنه كان سيحتفظ بلون وجنتيه الأحمر والأبيض حتى بعد أن يبلغ مبلغ الرجال .

كانت لغاوته بشرة نضرة لامعة أيضاً فهو يشبه والدها كثيراً بوجهه البيضاوي وعينيه الرماديتين بلون الحديد والشعر الأصفر الفاتح الخفيف .

أما بيورغولف لوحده فلم تكن تعرف بمن تشبهه . أطول أبنائها ، عريض المنكبين ، ثقيل الأطراف قويها . وكان له شعر أسود كالفحم مجعّد ومتمرد وهو ينزل على جبينه العريض الأبيض . كانت عيناه سوداوين مع زرقة ، إلا أنهما خاليتان من اللمعة إلى حد غريب ، وكان يرمش على نحو مؤلم حين يرفعهما نحو النور . لم تكن تعرف متى بدأ ذلك بالضبط ، فقد حدث أن كان هذا الطفل هو أقل أبنائها تلقياً لرعايتها . لقد أُخذ منها وأُعطي إلى مربية ما أن ولدته . وبعد أحد عشر شهراً ولدت غاوته الذي كان مريضاً في أول أربع سنوات من عمره . وبعد مولد التوأمين عادت لتقف على قدميها ، وهي لا تزال مريضة ، مع ألم في الظهر ، ومع ذلك فقد كانت تحمل الصبي الكبير وتتجول به وترعاه ، حتى أنها نادراً ما كان يتاح لها من الوقت ما يكفي لترعى الأولاد الجدد إلا حين جلبت "فريدا" إليها إيفار عطشان صارخاً . . . وكان غاوته مضطجعاً يزعق بينما جلست

هي وألقمت ثديها للصغير ، لم تكن قادرة - أيتها الأم المقدسة يا مريم ، أنت تعرفين أنني لم أستطع أن أبذل من الاهتمام إلى بيورغولف أكثر مما استطعت - ومن البداية كان هو من النوع الذي يحب العزلة . كان غريباً وصامتاً على الدوام ، ويبدو عليه أنه يحب أن تداعبه . كانت تعتبره دائماً الأقوى بين أولادها . كان داكن البشرة ، عنيداً كعجل صغير . . . هكذا كان يبدو لها على الدوام . . .

وشيئاً فشيئاً تبين لها أن هناك خطأ ما في بصره . لقد حاول الرهبان أن يعالجوا عينيه حين كان مع ناكفه في " تاوترا" ، ولكن دون طائل . كان لا يزال منغلقاً على نفسه وصامتاً مثلما كان على الدوام . لم تكن تفلح في جعل بيورغولف ينجذب إليها حين تحاول ذلك . ولم يكن أبوه انجح منه في ذلك ، كما لاحظت . . . كان بيورغولف الوحيد بين أبنائهما الذي لم يكن يهتم لرعاية أبيه له . فقط مع ناكفه كان بيورغولف مختلفاً . . . ولكنها حين كانت تحادث ناكفه عن أخيه ، كان يتهرب من الموضوع . لم تكن تعرف إن كان إرلند انجح منها في هذا . . . رغم أنه لم يكن هناك من يحب أباه أكثر من ناكفه . . .!

. . . أوه ، كلا ، حين يرى المرء أولاد إرلند لا يمكنه أن يخطأ في معرفة من هو أبوهم . . . حين كانت في نيداروس لآخر مرة ، رأت ذلك الطفل من لانسفيك . قابلت السير تورولف في باحة كنيسة المسيح . خرج مع طابور من الرجال والنساء والخدم ، وكانت هناك خادمة تحمل طفلاً رضيعاً في قماط . حياها ثورلوف آسلفسون بانحناءة هادئة ومهذبة وهو يمرّ بها . لم تكن زوجته في صحبته . . .

رأت وجه الطفل في لمحة واحدة ، ولكن كان ذلك كافياً . كان يشبه وجوه أطفالها حين كانوا يرضعون من ثديها . . .

كان معها آرن غيافالدسون ولم تستطع أن تمنعه من عن الكلام . . . كما كان دأبه دائماً . كان أقارب السير ثورولف وورثته منزعجين حين رأى الطفل النور

في الشتاء الماضي . ولكن ثورولف عمّده باسم آسولوف . لم يكن بين إرلند نيكولاوسون والليدي سونيفا أكثر من الصداقة التي كان الناس يعرفون عنها . . . وقد تظاهر بأنه لم يشك بهذا قط . وبما أن الرجل كان فالت اللسان ومتهوراً ، فقد تكلم دون حذر ودون شك وهو يمازحها . . . ولم يكن من واجب الليدي سوى أن تحذّر مستشاري الملك حين شكت بوجود نزوع إلى الأذى . ولكن لو كانوا أصدقاء شديدي الطيبة ، لكانت سونيفا على علم أكيد بأن أخاها يعرف بخطة إرلند . وحين ضحى هافتور غراوت بحياته ولأجل خلاص روحه في السجن ، جن جنونها ، فلم يكن هناك من يأبه بما كانت قد وضعته تحت عهدتها . كان السير ثورولف قد وضع يده على مقبض سيفه وجال بعينيه بين أفراد المجموعة وهو يتحدث عن هذا ، كما قال آرن . . .

كان آرن قد اتهم إرلند بهذه القضية أيضاً . في إحدى المرات حين كانت في العلية ، وقف الرجلان في الأسفل تحت الشرفة ، دون أن يعرفا أنها كانت قادرة على سماع كلامهما . كان فارس لنسفيك شديد الفرح لأن زوجته ولدت له ابنا حملته في الشتاء الماضي . . .كان واضحاً أنه لم يكن يشك قط في أنه والد الطفل . "أجل ، لابد أن ثورولف نفسه يعرف أفضل من الجميع" ، قال إرلند وهو يرد عليه ، لم يسبق لها أن سمعت بمثل هذه اللهجة في صوته . كان يقف الآن بعينين مسبلتين والابتسامة الصغيرة على زاويتي فمه .

كان السير تورولف يكره بشدة أقرباءه أولئك الذين كانوا سيرثونه لو مات دون نسل . ولكن الناس كانت تتكلم وتقول إن الأمر لم يكن كما يجب أن يكون . . ."أوه ، على الرجل أن يكون عارفاً بكل تأكيد حقيقة الأمر" ، قال إرلند كما في السابق .

"أجل ، أجل ، يا إرلند! هذا الصبي الوحيد هو وريث لما هو أكثر مما سيرثه أولادك السبعة الذين رزقت بهم من زوجتك . . ."

"فيما يخص أولادي السبعة سأهتم بأمرهم بنفسي يا آرن . . ."ولكنها مع سماعها لهذا الكلام نزلت فلم تكن قادرة على تحمل سماع المزيد بعد ذلك . بدا إرلند مرتبكاً قليلاً حين رآها . ثم اقترب وأمسك بيدها ، وهو واقف من خلفها بحيث يلمس كتفها جسده . أحست أنه وهو واقف هناك ينظر إليها أنه كان يكرر مجدداً دون كلام الوعد الذي قدمه للتو . . .أحست كأن ذلك سيمنحها التشجيع . . .

. . .أدركت كريستين الآن أن مونان كان ينظر إلى وجهها . . .وهو خائف نوعاً ما . لا بدّ أنها ابتسمت ابتسامة غير لطيفة . ولكن حين نظرت أمه إليه ، ابتسم لها مباشرة بشك واختبار .

ضمته بقوة في حضنها . كان لا يزال صغيراً صغيراً صغيراً بعد ، أصغر أبنائها . . .ليس كبيراً بعد على القبل والمداعبة من قبل أمه . غمزته بعين واحدة . بذل جهده ليغمز لها ، ولكنه مهما حاول كانت عيناه تنغلقان معاً . . .فكانت أمه تضحك بصوت مرتفع . وقد انطلق مونان أيضاً ضاحكاً بينما راحت أمه تحتضنه وتضمه بين ذراعيها .

كان لافرانس جالساً والكلب في حضنه . وقد التفتا كلاهما وراحا يصغيان إلى شيء في الغابات التي في الأسفل .

"إنه أبي!" قفز الكلب أولاً ثم لحق به الصبي هابطين جانب التل المنحدر .

جلست كريستين هادئة لبعض الوقت . ثم نهضت وخرجت إلى نقطة ناتئة . كانوا يصعدون التل الآن عبر الممر الصاعد من الأسفل : إرلند وناكفه وإيفار وسكوله . كانوا في حالة من الفرح الجنوني وهم يحيونها من بعيد .

حيّتهم كريستين مجدداً . هل سيصعدون لإحضار الجياد؟ كلا ، أجاب

إرلند : أولف سيرسل إليهم سفاينبيورن الليلة . كان هو وناكفه ذاهبين لمطاردة الأيائل ، وكان التوأمان راغبين في القدوم معهما لمشاهدة أمهما . . .

لم تجب . كانت تعرف الأمر قبل أن تسأل . كان مع ناكفه كلاب صيد مربوطة إلى سير جلدي . كان هو ووالده يرتدي كل منهما سترة طويلة رمادية وسوداء دون أكمام مصنوعة من نسيج صوفي خشن بحيث لا يظهران مختلفين من حيث اللون عن أكوام الحجارة . كان مع أربعتهم أقواس صيد .

سألت كريستين عن الأخبار في الضيعة ، وتحدث إرلند وهم صاعدون إلى فوق . كان أولف منهمكاً بأعمال الحصاد وكان راضياً ؛ ولكن التبن كان قليلاً ، فالقمح قد نضج بسرعة كبيرة على الحقول الأعلى ، وكان الحبّ يتساقط من السنابل . كما كان الشوفان جاهزاً للحصاد . . .عليهم أن يبذلوا جهدهم ، كما قال أولف . . .

أومأت كريستين برأسها وهي تمشي ، ولكنها لم تقل شيئاً

●

مضت إلى الحظيرة بنفسها لتساعد في حلب الأبقار . كان أمراً يسرها دائماً أن تجلس في هذه الساعة في العتمة قريبة من ثدي البقرة المليء ، أن تحس بأنفاس الحليب الدافئة على منخريها . كان الجواب يأتيها هسيساً من العتمة الداخلية حيث الحلب والأبقار التي يجري حلبها . كان كل شيء يبعث على الاطمئنان ، الرائحة القوية الدافئة في الحظيرة ، صرير غصن الصفصاف وقرون تضرب الخشب وبقرة تحرك قدميها فوق أرض الحظيرة الموحلة ، أو تحرك ذيلها لتطرد الذباب . . .كانت طيور الذعرة التي عششت هنا في الصيف قد رحلت الآن . . .

كانت البقرات قلقة هذه الليلة . وضعت "زرقاء الضلوع" قدمها في دلو الحليب . . . صفعتها كريستين وقرّعتها . أما البقرة التالية فأضحت متململة

وقبيحة ما أن جلست كريستين إلى القرب منها . كانت تعاني من قروح في حلماتها . خلعت كريستين خاتم الزواج وحلبت الدفعة الأولى عبره .

سمعت إيفار وسكوله قرب البوابة . . .كانا يصرخان ويرميان بالأحجار باتجاه ثور غريب كان يلحق بقطيعهم كل مساء وهم عائدون إلى البيت . كانا قد عرضا مساعدة "فين" على حلب العنزات في الحظيرة الصغيرة ، ولكن لا بدّ أنهما تعبا من ذلك . . .

حين مرت بعد فترة قصيرة ، كانا منهمكين بتعذيب العجل الأبيض الذي أعطته للافرانس . . .كان الصبي الصغير واقفاً هناك يتذمر . وضعت أمه الدلاء أرضاً وأمسكت بالصبيين من كتفيهما ، ودفعتهما جانباً . . .عليهما أن يتركا عجل أخيهما في حاله حين يأمرهما بذلك . . .

كان إرلند وناكفه جالسين على عتبة الباب ، يتناولان جبناً طازجاً . كانا يأكلان بشهية ويطعمان مونان الذي كان واقفاً بين ركبتي ناكفه . كان ناكفه قد وضع مشدّ أمه فوق رأس الصغير وهو يقول إنه لم يعد ممكناً لأحد أن يرى مونان الآن . . .فهذا لم يكن مشداً بل قبعة سحرية . كانوا يضحكون ثلاثتهم . . . ولكن ما أن رأى ناكفه أمه حتى سلمها المشدّ ، ونهض وأخذ الدلاء منها . تمهّلت كريستين في الملبنة . كان النصف العلوي من الباب إلى الغرفة الخارجية مفتوحاً . . .ورأت أنهم قد كوموا الحطب في الموقد . من حول النار في الوهج الدافئ المرفرف كانوا يجلسون ويأكلون ، إرلند والأطفال والخادمة والرعاة الثلاثة .

حين دخلت كانوا قد أنهوا وجبتهم . رأت أن الصغيرين كانا قد ناما على المقعد الجداري . بدا أنهما قد سبق لهما وأغفيا . كان إرلند قد تمدّد في السرير منكمشاً على نفسه . تعثرت بسترته وجزمته ، وحين مضت إلى القرب منه فقد التقطتهما وخرجت .

كانت السماء لامعة لا تزال مع شريط أحمر فوق الجبال في الغرب وبضع غيمات داكنات في السماء الصافية .

بدا لها الطقس جيداً للغد ، فقد كان هادئاً وبارداً مع هبوط الليل الآن . . .لا ريح ، بل مجرد نسمة مثلجة من الشمال الغربي وهي ريح ثابتة من الجبال العارية الرمادية . فوق التلال المنخفضة إلى الجنوب الشرقي كان القمر عائما ، بدراً تقريباً ، كبيراً أحمر اللون لا يزال في السديم الرقيق الذي كان معلقاً على الدوام فوق المستنقعات هناك .

كان الثور الغريب يخور بحزن في مكانه بعيد فوق النجود ، وسوى ذلك كان يسود الهدوء . . . فلا شيء سوى خرير النهر تحت مكان حلب البقر ، والجدول الصغير الذي يهبط الأرض المعشوشبة مصلصلاً كالجرس ، وأنين ناعس في الغابات . . .وقلق بين أشجار الصنوبر كان يتحرك ويستقر ثم يتحرك مجدداً . . . أشغلت نفسها ببعض أوعية الحليب التي كانت موجودة قرب سور السايتر . خرج ناكفه والتوأمان . . أين كانوا ذاهبين ؟ سألت أمهم .

كانوا سيذهبون للنوم في مخزن القمح فقد كانت هناك . . . رائحة فاسدة في الملبنة من كل الجبن والزبد هناك . . . ومن البقر النائم هناك .

لم يذهب ناكفه فوراً إلى مخزن القمح فقد كانت أُمّه لا تزال ترى شكله الرمادي الفاتح على العتمة الخضراء لحقول القش التي تحيط بالغابات . بعد فترة قصيرة وصلت إحدى الخادمات إلى الباب . . . وقد أجفلت حين شاهدت سيدة المنزل واقفة قربَ السور .

" ألم تذهبي إلى الفراش بعد يا آستريد . . . الوقت متأخر الآن . . . "

همهمت الفتاة . . . كانت ستذهب إلى ما وراء الحظيرة . انتظرت كريستين حتى رأتها تدخل مجدداً . كان ناكفه في السادسة عشرة الآن . وقد حان الوقت

الذي أصبح فيه على أمه أن تراقب جيداً خادمات الضيعة حين يمرحن مع الشاب الوسيم الحيوي .

هبطت كريستين إلى النهر وركعت على اللوح الحجري فوق الماء . كان النهر يجري أمامها أسود تقريباً في بركة واسعة . لم تكن هناك سوى حلقات صغيرة تكشف التيار ، ولكن فوق ذلك بقليل كان هناك زبد أبيض في العتمة ، مع ضجة تذكّر بقرع الطبول ونفحات هواء باردة . كان القمر قد ارتفع كثيراً الآن حتى أضحى نوره قوياً . . .هنا وهناك كان يومض على ورقة ندية . ثم ظهرت شرارة على موجة في الجدول . . .

نطق إرلند باسمها من خلفها مباشرة . . .لم تكن قد سمعته نازلاً عبر المرج . غمست يدها في الماء المثلج والتقطت وعاءين من أوعية الحليب كانا في القعر وفوقهما بعض الأحجار ، حتى ينظفا في النهر . نهضت ولحقت بزوجها ويداها مليئتان . لم يتحدثا وهما يصعدان المنحدر .

ما أن أصبحا في الكوخ ، خلع إرلند كامل ملابسه وصعد إلى السرير .

"ألن تأتي لترتاحي عاجلاً يا كريستين؟"

"عليّ أن أتناول بعض الطعام أولاً . . ."جلست فوق كرسيها الواطئ ذي الأرجل الثلاثة إلى القرب من الموقد ، مع بعض الخبز وقطعة من الجبن في حضنها وراحت تأكل ببطء وتحدق إلى كومة الحجر التي كانت تنطفئ تدريجا في الحفرة المبطنة بالحجارة في أرض الكوخ :

"هل أنت نائم يا إرلند ؟"همست وهي تنهض وتنفض تنورتها .

"لا . . ."مضت كريستين لتشرب ملء مجرفة من الحليب من الوعاء الذي في الزاوية . ثم عادت إلى الموقد ورفعت لوحاً حجرياً ووضعته في الأعلى ونشرت فوقه زهور هراوة هارون لتجف .

ولكن لم يعد هناك الآن المزيد لتفكر فيه : خلعت ملابسها في العتمة وتمددت في السرير قرب إرلند .

حين أحاطها بذراعيه ، أحست بتعبها وكأنه موجة من البرد أجتاح جسدها كله . أضحى رأسها فارغاً وثقيلاً ، كأنما قد استقر في الداخل وصنع كومةً من الألم الممضّ حيث يتصل الرأس بالرقبة . ولكن حين همس لها ، وضعت ذراعيها من حول عنقه بكل طاعة للواجب .

•

استيقظت في الليل دون أن تعرف الساعة . ولكن عبر الزجاج فوق فتحة الدخان استطاعت أن ترى أن القمر كان عالياً لابدّ .

كان السرير ضيقاً وقصيراً ، لذلك كانا مضطرين إلى الاستلقاء قريبين أحدهما من الآخر . كان إرلند نائماً يتنفس بهدوء وانتظام ، وكان صدره يعلو ويهبط بلطف في نومه . كانت ترغب في أن تلتصق بجسده الدافئ القوي حين تستيقظ عادةً في الليل وتشعر بالخوف لأنه يتنفس مصدراً الشخير . . . ثم تغمرها فرحة عذبة حين تتحسس صدره وهو يعلو ويهبط في النوم إلى القرب منها .

بعد مرور بعض الوقت تسللت من السرير وارتدت ملابسها في العتمة وانسلت نحو الباب .

كان القمر يبحر عالياً فوق العالم كله . هنا وهناك كان شعاع من الماء يلتمع على الأشنات أو على الجروف التي كان الماء ينساب في النهار عليها ويتجمد الآن متحولاً إلى جليد . شعّ القمر فوق غابات الأشجار الورقية وغابات الصنوبر . فوق الضفاف العشبية كان البخار المتجمد يلتمع أيضاً . البرد شديد قارس . . . أحاطت صدرها بذراعيها ووقفت لبرهة .

ثم مشت صاعدة مع الجدول . كان يرن ويقرقع مع أصوات صغيرة من أبر الجليد تتحطم قطعاً صغيرة . . .

في النهاية العلوية للحقل المسوّر كانت صخرة عظيمة ذات حوض عميق. لم يكن هناك من يقترب منها إلا مضطراً، وحين يفعل كان يرسم إشارة الصليب على نفسه. كانوا يسكبون القشدة تحتها حين يأتون في الّصيف، وحين يغادرون مجدداً. صحيحٌ أنها لم تعرف بوجود أي شخص رأى أو سمع أي شيء هناك، ولكن هكذا جرت العادة في السايتر منذ قديم الزمان...

لم تكن تعرف ما الذي أخذها إِلى هناك، أن تغادر المنزل على هذا النحو، في جوف الليل البهيم. وصلت إلى موضع معين في الصخرة ووضعت قدمها في نقرة فيها. تقلص بطنها واقشعر جسدها وأصابها الخدر من الخوف... ولكنها لم ترسم إشارة الصليب على نفسها.

من هنا كان المرء قادراً على أن يطلّ على مشهد واسع وإلى البعيد... إلى ما وراء الجبال الصخرية الرمادية تحت نور القمر. كانت الحدبة الكبيرة فوق دوفر تبرز هائلة وشاحبة أمام السماء الشاحبة والحقول الثلجية تلتمع بيضاء في الندبة فوق "غراهو"، كما كانت "تلال الخنزير البري" تشع بصدوع زرقاء وثلج جديد الهطول. تحت نور القمر كانت الجبال أقبح ما سبق لها أن تصورتها... لم يكن هناك سوى نجم أو اثنين يشعان هنا وهناك في السماوات الباردة المثلجة التي لا نهاية لها. أحست بالبرد يتغلغل إلى عظامها ونقيّها... وراح الرعب والبرد يضغطان عليها من كل جانب. لكنها بقيت جالسة في نوع من التحدّي.

رفضت الهبوط والنوم في العتمة إلى القرب من جسد زوجها الدافئ النائم. كان النوم يجافيها في هذه الليلة، وقد عرفت ذلك.

ولأنها واثقة جداً من كونها ابنة أبيها، فلا يجب أن يسمعها زوجها وهي تلومه على أفعاله فقد تذكرت قسمها حين ناشدت الرب كليّ القدرة وكل القديسين في السماء حتى ينقذوا حياة إرلند...

وهكذا حدث أن كان عليها أن تخرج في هذه الليلة الشبحية للتنفس حين أحست أنها على وشك الهلاك . . .

•

جلست وتركت أفكار البرد القارس تأتيها كرفيق قديم . وقد قابلتها أفكار قديمة ومعروفة جيداً . . .في اعتذار مختلق لإرلند . . .

صحيح أنه لم يطلب هذا منها فهو لم يحملها شيئاً من العبء الذي حملته على كاهلها . كان قد رزق منها بسبعة أبناء فقط . "أما أبنائي السبعة فسوف أهتم بهم يا آرن . . ." الرب وحده قد يعرف ما الذي عناه الرجل بتلك الكلمات . قد لا يكون عنى أي شيء . . .ولكنه قالها فحسب . . .

لم يكن إرلند قد رجاها أن تجعل هوسابي وأملاكه تعود للازدهار مجدداً . لم يكن قد رجاها أن تقاتل حتى الموت لإنقاذه . لقد عانى كزعيم . . .أُهدرت أمواله وكانت حياته في موضع الخطر ، وفقد كل ما يملك . وها هو قد جُرِّد من كل شيء يقف وسط البلية سامياً دون انحناء وهادئاً ، هادئاً بسمو . ودون انحناء هاهو يقطن في ضيعة أبيها كضيف غريب .

ولكن كل ما كان ملكاً لها كان ملكاً لأبنائها بحق . كانوا يستحقون بحق عرقها ودمها وكل قوتها . ولكن لو أن الأمر هكذا فإن الضيعة وهي نفسها كان لهما الحق في مطالبة هؤلاء الأبناء بأن يكونوا ملكاً لهما أيضاً .

لم تكن هناك حاجة بها للذهاب إلى السايتر مثل زوجة أي فلاح عادي . ولكن في البيت ، وكما هي الحال عليه الآن ، فقد أحست أنها محطمة ومحاصرة من كل جانب . . .حتى بدا لها أنها لم تعد تستطيع التنفس . وعلاوة على ذلك فقد كان مطلوباً منها أن تبرهن على أنها قادرة على القيام بعمل امرأة فلاحة . صحيح أنها عرفت الكدح والنضال منذ أول ساعة انطلقت بها على حصانها كعروس لتدخل ضيعة إرلند نيكولاوسون . . . وقد رأت أن عليها هناك أن تقاتل

لتنقذ إرث من كانت تحمله تحت قلبها . ولكن عليها الآن أن تؤكد لنفسها أنه لو دعت الحاجة فلن يكون هناك أي نوع العمل كانت تطلب من وصيفاتها وخادماتها القيام به فيما سبق ولا تستطيع هي أن تنجزه بيديها . هنا في السايتر يكون اليوم يوماً طيباً حين تلاحظ أنها لم تكن تشعر بالألم عبر خاصرتيها بعد أن تقف فترة طويلة وهي تمخض اللبن . كان أمراً جيداً في الصباحات أن تكون لوحدها وتساعد على إخراج القطيع إلى المرعى . . .لقد أضحت البقرات سمينات وجميلات في هذا الصيف . . .وقد خف العبء الكامن فوق قلبها حين راحت تقف عند الغروب وهي تبكي البقرات العائدات إلى البيت . كانت تحب مشاهدة الغذاء وهو ينمو بين يديها . . .لكأنها كانت تمدّ يدّها لتتأكد من ثبات الأرض التي كانت مصائر أبنائها ستبنى عليها مجدداً .

كانت يوروندغارد ضيعة جيدة ، ولكنها لم تكن بالجودة التي كانت تظنها . وكان أولف غريباً هنا في الوادي . . .فقد أصبح يرتكب الأخطاء ويفقد الصبر . وكما يعتقد الناس في هذا الريف فقد كان محصول التبن جيدً على الدوام في يوروندغارد . . .كانت لديهم مروج مائية على امتداد النهر وخارجاً فوق الأراضي المنخفضة . . .ولكنه لم يكن أفضل أنواع التبن ، ولا هو ذاك الذي اعتاد عليه أولف في منطقة تروندهايم . لم يكن معتاداً على تكديس هذا الكم الكبير من الطحالب والعلف الورقي وهذا الخلنج والأغصان الكثيرة كما كانت تدعو الحاجة إليه هنا .

كان أبوها يعرف كل شبر من هذه الأرض ، وكان مطلعاً على معارف المزارعين :على تقلبات الفصول ، على الطريقة التي كانت فيها الحقول المتعددة تتلقى فيها السنوات الماطرة أو الجافة ، وفصول الصيف ذات الرياح الشديدة أو الحرارة الشديدة ، على أنواع البقر التي كان يشرف على تناسلها ، جيلاً بعد جيل ، وعلى تغذيتها وتربيتها وبيعها . . . كل المعارف التي كانت مطلوبة لهذا

المكان بالذات . لم تكن تعرف ضيعتها عن ظهر قلب إلى هذا الحد . ولكنها ستعرفها يوماً . . .وكذلك أولادها . . .

ولكن لم يكن إرلند قد طلب منها ما هومشابه ، لم يكن قد تزوجها ليجعلها تنخرط في الكدح والجهد . كان قد تزوجها حتى تنام بين ذراعيه فحسب . . . وهكذا ، حين جاءها المخاض ، أصبح هناك طفل سينام إلى جانبها مطالباً بمكانه على صدرها وذراعها وصدرها وتحت رعايتها . . .

أنّت كريستين من خلال أسنانها المطبقة . بقيت جالسة وهي ترتجف من البرد والغضب .

"حافظ على عهدك!" قالتها باللاتينية ثم نطقتها بالنرويجية .

في ذلك الوقت كان آرن غيافالدسون والأخ لايف أوف هولم قد وصلا إلى هوسابي واستوليا على ممتلكاتها وممتلكات أبنائها وأخذاها إلى نيداروس . وقد ترك لها إرلند هذا الأمر لتتولاّه هي أيضاً . . .فقد كان اتخذ له سكناً في دير "هولم" . كانت تجلس في الدارة . . .وكان الرهبان يملكونها الآن . . .وكان آرن غيافالدسون معها ، يساعدها بالتخطيط والفعل . كان سايمون قد أرسل الرسائل له ليقدم المساعدة .

ما كان لآرن أن يكون أكثر حماسة لو كانت سلعه وحوائجه هي التي عليه أن ينقذها . في ذلك المساء بالذات الذي جلبها به إلى البلدة ، كان عليه أن يجعلها هي والليدي غونا أوف راسفولد التي وصلت مع الصغيرين تخرج إلى الإسطبلات . كان فيها سبعة جياد مختارة . . .كان الناس مصممين على التعامل بلطف مع إرلند نيكولاوسون ومنحه الموافقة حين أكّد آرن أن كل واحد من الأبناء الخمسة الكبار كان يملك حصاناً للركوب وكذلك سيدة المنزل وخادمها . أما فيما يخص الحصان القشتالي ، فحل إرلند الإسباني ، فقد جلب شهوداً أكدوا أن إرلند قدمه هدية لأبنه نيكولاوس رغم أن هذا قيل بنوع من المزاح أكثر من الجد .

لم يكن آرن قد أعجب بالحصان طويل القوائم ، ولكنه كان يعرف أن إرلند مولع بهذا الحصان كثيراً . . .كان أمراً رديئاً ، كما قال آرن ، أنه اضطر إلى أن يترك درع الدولة يذهب مع الخوذة العظيمة والسيف المطعّم بالذهب . . .صحيح أن كل هذه الأشياء لم تكن ملائمة لأي شيء عدا مباريات الفرسان . ومع ذلك فقد كان يساوي مبلغاً كبيراً من المال . ولكنه استطاع الاحتفاظ بقميص إرلند من الحرير الأسود المزخرف عليه أسد أحمر . كما أنه طالب بلجام المعركة الإنكليزي خاصة نيكولاوس . وقد كان هذا رائع الصنع إلى حد أن آرن اعتبر أن لا شبيه له في أراضي النرويج . . .بالنسبة لأولئك القادرين على الرؤية . ولكنه كان شديد الاهتراء . . .أجل بالفعل ، فقد كان إرلند قد استخدم أسلحته أكثر من كل أبناء النبلاء الآخرين في هذا الزمن . . .راح آرن يقلّب كل قطعة . . .الخوذة ، درع العنق ، درع الذراع ، درع الساق ، القفازات المصنوعة من أدق الصفائح الفولاذية ، الدرع ودرع العنق المصنوعان من الزرد وهما خفيفان وملائمان ولكنهما مع ذلك متينان جداً . ثم السيف . . .كان له مقبض من الفولاذ العادي ، أما الجلد الذي على المقبض فهو بالٍ . . .ولكن ما كان المرء ليرى مثل حدّه مرة في السنة . . .

جلست كريستين وأمسكت بالسيف عبر حضنها . كانت تعرف أن إرلند كان سيضمه كعروس محبوبة جداً . . .لم يكن قد استخدم أياً من السيوف الأخرى التي كانت في حوزته . كان السيف قد منح له حين كان مجرد شاب صغير من قبل سيغموند تورولفسون الذي كان زميله في السرير حين انضم إلى حرس الملك الشخصي لأول مرة . لم يكن قد ذكر لها هذا الصديق سوى مرة واحدة من قبل :"لو لم يكن الرب مستعجلاً إلى ذلك الحد في أخذ سيغموند من هذا العالم ،لكانت أمور كثيرة قد تغيرت فيما يخصني . بعد موته كنت في حالة اضطراب في البلاط ؛ وهكذا وبكثير من الرجاء حصلت على أذن الملك هاكون للذهاب شمالاً مع غيسور غاله في تلك المرة . . .ولولا ذلك أعتقد أني ما

كنت سأظفر بك يا حلوتي . . .لأنه كان من شأني أن أكون قد تزوجت قبل فترة طويلة من بلوغك سن الشباب . . ."

كانت قد سمعت من مونان باردسون أن إرلند رعى رفيقه ليلاً نهاراً كما ترعى الأم طفلها ، فما عاد ينام سوى لإغفاءة قصيرة بين الحين والآخر قرب سرير الرجل المريض . . .في ذلك الشتاء الأخير حين كان سيغموند تورولفسون يبصق رئتيه قطعة قطعة وكذلك دم قلبه . وحين دفن سيغموند في كنيسة هالفارد ، كان إرلند يزور قبره صباحاً ومساءً وينبطح فوق حجر القبر نادباً . ولكنه لم يكن قد ذكره أمامها سوى مرة واحدة .

وفي كنيسة هالفارد أيضاً كان هو وهي يتواعدان أحياناً ، في ذلك الشتاء المليء بالخطايا في أوسلو ولكنه لم يذكر قط أن أعز أصدقائه في أيام يفاعته كان مدفوناً هناك . كما كان قد حزن على أمه بالطريقة نفسها كما نُمي إليها . وحين مات أورم كان يأسه مجنوناً وصعباً على الانضباط . ولكنهِ لم يكن يذكرهما هما أيضاً . كما عرفت أنه كان في المدينة ليزور مارغريت . . .ولكنه لم يكن يذكر ابنته قط .

. . .تحت المقبض مباشرة شاهدت كتابة محفورة في حد السيف . كانت في معظمها كتابة رونية[1] لم تستطع قراءتها ، ولا آرن أيضاً ولكن الراهب أمسك بالسيف ونظر إليه وهلة ثم قال أخيراً : "باكتوم سيرفا أو حافظ على عهدك" .

وتحدث آرن والأخ لايف أيضاً عن أن جزءاً كبيراً من أراضيها هنا شمال دوفر والتي كانت هدية إرلند لها في صباحيتها قد رهن وفُقد . أليس من حيلة لإنقاذ بعضاً من هذه الأراضي ؟ ولكن كريستين رفضت . . .كان على المرء أن ينقذ شرفه

---

(١) - (رونية :كتابة تيوتونية قديمة .المترجم)

أولاً . لم تكن تريد إثارة قضية مدى قانونية معاملات زوجها . وعلاوة على ذلك فقد كانت منزعجة جداً من حديث آرن ، رغم نيته الطيبة ، في تلك الليلة . وحين تمنى لها هو والراهب ليلة طيبة وذهبا ليناما ، فقد رمت بنفسها على ركبتيها أمام الليدي غونا وخبأت وجهها في حضنها .

بعد برهة رفعت المرأة العجوز رأس المرأة الشابة . رفعت كريستين عينيها إلى الأخرى . . .كان وجه الليدي غونا حزيناً وأصفر وممتلئاً مع ثلاث طيات سميكة كأنه مقولب من الشمع فوق جبينها المغطى بالنمش الخفيف مع عينين زرقاوين لطيفتين وحادتين وفم أدرد تظلله شعيرات رمادية طويلة فوق الشفة . كانت كريستين قد رأت هذا الوجه ينظر إليها من عل خلال ساعات عذاب كثيرة . . .فقد كانت الليدي غونا معها في كل مرة وضعت فيها طفلاً باستثناء لافرانس فقد ولدته وهي إلى جوار فراش أبيها المحتضر .

قالت السيدة وهي تضغط بيدها على جبينها : "أجل ، أجل يا ابنتي . لقد رعيتك خلال ولادتك مرات عديدة حتى الآن ، حين كنت تركعين على ركبتيك . . .أجل . ولكن في هذه المحنة يا كريستين عليك أن تستسلمي أمام أم الرب مريم العذراء نفسها وأن تتوسلي إليها لمساعدتك على تجاوزها . . ."

آه ، وقد فعلت ذلك أيضاً ، كما فكرت كريستين . لقد تلت صلواتها وشيئاً من المزامير كل مساء يوم أحد ، كما كانت تمارس الصوم في الأيام التي فرضها عليها الأسقف آيليف حين منحها الصفح عن خطاياها : كما كانت تقدم الصدقات وترعى بنفسها كل عابر سبيل يطلب مبيت ليلة ، سواء بدا جيداً أو سيئاً ، ولكنها لم تعد تشعر الآن أن النور يومض في داخلها حين تقوم بهذه الأشياء . كانت تعرف بوجود نور في الخارج ، ولكن بدا وكأن هناك سديماً تختفي روحها وراءه . لا شك أن هذا ما تكلم غونولف عنه . . .جفاف الروح . ليس على أي شخص أن يفقد شجاعته بسبب ذلك ، كما قال سيرا آيليف . كن مواظباً

على صلواتك وأفعالك الطيبة ، وحين يحرث الفلاح ويسمّد بالروث ويبذر . . .يرسل الله له الغيث السريع في الوقت الرباني الملائم . . .ولكن سيرا آيليف لم يكن مزارعاً قط . . .

لم تكن قد رأت غونولف هذه المرة . كان يقضي فترة في الشمال في هلجلاند وهو يمارس الوعظ وجمع الهدايا لديره . أجل ، هذا هو أحد نجلي فارس هوسابي . . .وذاك هو الآخر . . .

ولكن مارغريت إرلندسداتر كانت تزورها أحياناً في دارة المدينة . كان هناك خادمان يتبعان زوجة التاجر . كانت ترتدي ملابس جميلة وحلى براقة . . . فقد كان حموها صائغاً ، لذا كانت هذه الأشياء متوفرة في المنزل . بدت سعيدة وراضية . . . رغم أنه لم يكن لديها أطفال . كانت قد حصلت على بائنتها من أبيها في الوقت الملائم . والرب وحده يعرف إن كانت تفكر أبداً في ذلك المقعد المسكين هاكون ؛ هناك في غيمسار . . . كان كل ما يستطيعه هو أن يجر نفسه من حول الباحة على عكازين ، كما سمعت كريستين . . .

ولكنها حتى في ذلك الحين لم تفكر بإرلند بمرارة ، كما بدا لها . لابدّ أنها أحسّت بما كان ينتظر إرلند . لذلك راح يخبئ نفسه لدى القس أولاف ، ويأخذ أمراً بالانتقال من مسكن إلى آخر وآخر وأن يظهر نفسه في المدينة . . . ربما كان الأمر أكثر مما يحتمله حتى إرلند نيكولاوسون . . .

كما كان هناك في ذلك اليوم الذي أبحروا فيه عبر زقاق تروندهايم البحري . . . على متن سفينة لاورنتيوس الشراعية الحربية ، السفينة نفسها التي شحن بها إرلند جهاز زفافها إلى الشمال حين حصلا في البداية على الإذن بالزواج . . .

يوم هادئ من أيام الخريف . . . وميض شاحب رصاصي فوق الزقاق البحري ، والعالم من حولها باردٌ أبيض ومضطرب . . . لقد انجرفت الثلجة الأولى

إلى المرتفعات عبر الأراضي المتجمدة ، وأضحت الجبال ذات اللون الأزرق البارد مقلمة بخطوط الثلج . أما أعلى الغيوم أيضاً ، حيث السماء زرقاء ، فبدت دقيقة الانتشار كالدقيق بسبب الريح التي تعصف عالياً في قبة السماء . كانت السفينة تنجرف ببطء وكآبة قريبة من البر . . . من رأس المدينة الدّاخل في البحر . وقفت كريستين تنظر إلى الموجة البيضاء التي راحت تضرب الجروف . . . متسائلة إن كان عليها أن تشعر بدوار البحر حين سيخرجون إلى الزقاق البحري .

وقف إرلند عند حاجز السفينة ، قريباً من مقدمها ومعه أبناه الأكبر سناً . كانت الريح تهب على شعورهم وعباءاتهم .

كانوا ينظرون الآن إلى زقاق "كورس" البحري باتجاه "غاولاروس" والمهبط عند بيرغسي . كان وميض من شعاع الشمس يضيء حافة الجبل البنية والبيضاء فوق الشاطئ هناك . . .

قال إرلند شيئاً ما للصبيين . عند ذاك التفت بيورغولف بحدة وغادر جانب السفينة العلوي ومضى نحو مؤخر السفينة . وبالرمح الذي كان يحمله دائماً ويستخدمه كعصا فقد شق طريقه بين مقاعد التجديف الفارغة . مرَّ بأمه . . .ورأسه ذو الشعر الأسود المجعد فوق صدره وعيناه ترمشان وتكادان تكونان مغمضتين ، وشفتاه مزمومتان . مضى نحو مؤخر السفينة . . .

نظرت الأم نحو الأمام ، إلى الآخرين ، إرلند وابنه البكر . ثم رأت نيكولاوس يركع على ركبة واحدة كما يفعل الخادم أمام سيده ، ويتناول يد أبيه ويقبلها .

أبعد إرلند يده بقوة . . . لمحت كريستين وجهه برهة وكان شاحباً شحوب الأموات ، مرتجفاً ، وهو يلتفت مبتعداً عن الصبي ويذهب إلى ما خلف الشراع بعيداً عن الأبصار . . .

رسوا في مرفأ صغير قرب شاطئ "موره " في تلك الليلة . كان بحر "موره"

غير متجمد الآن . . .وراحت السفينة تشد سلاسل مرساتها وهي تعلو وتدور .
كانت كريستين قد نزلت إلى قمرتها في الأسفل ، حيث كانت ستنام مع إرلند والطفلين الصغيرين . أحست بالغثيان والدوار ولم تستطع أن تبقى واقفة على الألواح الخشبية التي بدت وكأنها ترتفع وتهبط تحت قدميها . تأرجح القنديل فوق رأسها وارتعشت الشمعة الصغيرة . . . وقفت وهي تكافح لتحاول أن تجعل مونان يبول بين الألواح . حين يستيقظ وقد خدّره النوم سيصاب بالغثيان أو يكون في حال أسوأ في سريرهما . وقد ثار وزعق ورفض أن تضع امرأة غريبة هي أمه يديها عليه لتساعده وتمسكه وهو يتدلى من فوق جانب السرير ثم هبط إرلند .

لم تستطع مشاهدة وجهه وهو يسأل بصوت خفيض جداً : "هل رأيت ناكفه؟ . . . عيناه تشبهان عينيك كثيراً يا كريستين . " تنفس إرلند بصعوبة . "هكذا بدت عيناك في ذلك الصباح قرب سور حديقة الراهبات . . . حين سمعت أسوأ الأمور عني وقد جعلتني أعطيك عهداً بالإخلاص . . ."

عندها بالضبط أحست بأول قطرة من المرارة تصْعد إلى قلبها . فليحم الرب ذلك الصبي . . . عسى ألا يجعله الرب يرى ذلك اليوم الذي يكون عليه فيه أن يوثق عهداً مع يد تترك كل شيء ينزلق من أصابعها كما الماء البارد والرمل الجاف . . .

•

قبل ذلك بفترة قصيرة كانت قد ظنت أنها سمعت صوت حوافر من مكان ما بعيد في الجنوب في البراري الجبلية . والآن وصل هذا الصوت مجدداً من مكان أقرب . لم يكن صوت جياد شاردة ، بل كان فارساً ما ، وكان يقود حصانه بحدة فوق الصخور تحت الأكمة في الأسفل هناك .

طغى الخوف عليها فشعرت بالقشعريرة . من ذا الذي يركب حصانه في هذا الوقت المتأخر؟ يركب رجال ميّتون شمالاً تحت القمر في المحاق . . . ألم تسمع

فرساناً يتبعون الفارس الأول من بعيد . . .؟ ومع ذلك تابعت الجلوس ، لم تكن تعرف هي نفسها إن كانت هي المشلولة أو أن قلبها كان قد أصبح الليلة شديد القسوة . . .

كان الفارس قادماً إلى هنا . . .هاهو يعبر الجدول تحت مرعى البيت . شاهدت وميض رأس الرمح فوق شجيرات الصفصاف . ثم وجدت في نفسها القوة على الهبوط من فوق الصخرة وكانت ستعدو عائدة إلى الكوخ . . . ولكن الفارس قفز الآن من على حصانه وربطه إلى عمود الباب ، ورمى بعباءته فوقه كغطاء . صعد نحو المرجة الصغيرة . كان رجلاً ضخماً بديناً - لقد ميزّته - كان سايمون .

حين رآها قادمة نحوه تحت نور القمر ، بدا خائفاً كما كان في السابق .

"يا يسوع ، كريستين ، أليس هذا أنت . . .؟ كيف حدث أنك في الخارج في هزيع الليل؟ هل كنت تتوقعين قدومي؟" سألها بسرعة وكأنه في خوف كبير : "هل وصلك خبر مسبق بقدومي؟"

هزت كريستين رأسها .

"لم أستطع النوم يا زوج أختي ، ما الذي يقلقلك؟"

"أندرس مريض جداً يا كريستين . . . ونحن نخشى على حياته . لذلك فكرنا . . . نعرف أنك أمهر النساء في مثل هذه الأمور . . . تذكري أنه ابن أختك . هل لك أن تقومي بفعل خير وترافقيني إلى البيت؟ . . . تعرفين جيداً أني ما كنت لأحضر إليك على هذا النحو ، لولا أني أعرف بالتأكيد أن حياة الطفل في خطر" ، قال متوسلاً .

في داخل الكوخ قال الشيء نفسه لإرلند الذي كان جالساً في السرير ، لا يزال نصف نائم ، وفي حال من العجب الصامت . ثم حاول إرلند أن يبعث السلوان في عديله ، فتحدث كشخص عارف : مثل هؤلاء الأطفال الصغار ترتفع

حرارتهم بسهولة ويهذرون في حديثهم ، حتى لو أصابتهم بعض القشعريرة . ربما ليس هناك خطر كبير كما يبدو لكم . " قد تعرف جيداً يا إرلند أني ما كنت لأحضر قط لأصطحب كريستين في مثل هذه الساعة من الليل لولا أني لاحظت جيداً أن الطفل يصارع الموت . . ."

كانت كريستين قد نفخت على الجمر ووضعت الحطب في الموقد . جلس سايمون محدقاً إلى النار وهو يشرب بتوق الحليب الذي قدمته له كريستين ، ولكنه رفض تناول أي طعام . كان يريد هبوط التل ما أن يصل الآخرون . . ." إن أردت يا كريستين . . . ؟" كان واحد من خدمه سيحضر معه أرملة تعمل خادماً في فورمو ، وهي امرأة قادرة تستطيع أن تستلم الأمور هنا لفترة من الزمن . . . كان اسمها آسبيورغ وهي امرأة شديدة البراعة كما قال ثانية .

حين رفع سايمون كريستين إلى السرج ، قال :

"أعتقد أن علينا أن نسلك الطريق المختصر جنوباً . . . إن لم يكن لديك اعتراض؟ "

لم يسبق لكريستين أن كانت على ذلك الجانب من الجبل ، ولكنها كانت تعرف بوجود ممر هناك يهبط إلى الوادي عبر جانب الجبل فوق فورمو . أجابت أجل . . . ولكن كان على خادمه أن يسلك الطريق الأخرى ، من حول يوروندغارد ، وذلك ليوصل صندوقها وأكياس الجذور والأعشاب . وعليه أن يوقظ غاوته ، فقد كان هذا الصبي يعرف عن هذه الأعشاب أكثر من الجميع .

عند حافة مستنقع واسع كانا قادرين على السير جنباً إلى جنب ، وجعلت كريستين سايمون يحكي لها مجدداً عن مرض الصبي . لقد أصيب الأطفال في فورمو بمرض الحنجرة في عيد قداس أولاف ، ولكنهم تغلبوا على ذلك قليلاً . هذا المرض الجديد كان قد تحكم بأندرس فجأة ، حين بدا في أوج صحته . . . في

وسط النهار قبل ثلاثة أيام . لقد اصطحبه خارجاً . كان عليه أن يمضي على مزلجة القمح إلى الحقل ، ولكن الصبي بدأ يشكو من البرد وحين نظر سايمون إليه كانت قد أصابته نوبة ارتعاش ، وراحت أسنانه تصطك . ثم جاءته نوبة من الحرارة والسعال . ثم بصق مادة هلامية بنية اللون ذات منظر كريه ، وأصيب بألم شديد في الصدر . . . ولكنه لم يستطع أن يخبرهم بالكثير عن المكان الذي يأتي منه الألم الأسوأ ، ذلك الصبي الصغير المسكين . . .

تحدثت كريستين إلى سايمون بأكثر اللهجات التي استطاعتها مرحاً ، وكان عليها أن تمشي على مسافة خلفه ثم التفت وسألها إن كانت تشعر بالبرد حتى يعطيها عباءته لتضعها فوق معطفها .

عاد ليتحدث مجدداً عن ابنه . كان صحيحاً ، وقد لاحظ هو ذلك ، أن الصبي لم يكن قوي البنية . ولكن أندرس كان قد أصبح أكثر عافية في فصلي الصيف والخريف الأخيرين هذين . . . كما أن مربيته ترى ذلك أيضاً . أجل ، في الأيام الأخيرة قبل وقوعه فريسة المرض كان غريب الأطوار قليلاً . وحساساً . . . "خائفا" ، قال حين قفزت الكلاب عليه لتداعبه . وفي يوم أصيب بالحمى كان سايمون قد وصل إلى البيت فجراً حاملاً بضع بطات بريات . في الأيام الأخرى كان الصبي يتوسل إلى أبيه أن يعطيه الطيور التي يجلبها إلى البيت ليلعب بها قليلاً ولكن أندرس صرخ عالياً حين تظاهر أبوه بأنه سيرمي إليه بالسير الذي يضم الطيور . كان قد تسلل إلى الأمام لاحقاً وقدم إليه البطات ، ولكنه كان ملطخاً ببعض الدم ، وعند ذاك هاج الصبي من الرعب . وفي هذه الليلة ، وبينما كان مستلقياً وهو يئن من الألم ، دون أن يعرف النوم أو الراحة . . . لقد بكى شاكياً من صقر كان يطارده . . .

" . . . أتذكرين ذلك اليوم حين وصلت الأنباء إليّ وأنا في أوسلو ، وقلت أنت : ستبقى فورمو ملكاً لآل دار حين ترحل أنت . . .؟"

"لا تتكلم هكذا يا سايمون . . . وكأنك تظن أنك ستموت دون ابن . إن الرب وأمه الحنون يستطيعان المساعدة دون شك . . . ليس هذا دأبك يا زوج أختي أن تكون ضعيف القلب إلى هذا الحد ."

"قالت لي هالفريد زوجتي الأولى الكلام نفسه الذي قلته أنت في أوسلو . اتعرفين يا كريستين أني رزقت بابن منها؟"

"أجل . . . ولكن أندرس في الثالثة من عمره الآن . إن السنتين الأوليين هما الأصعب على الأطفال . . ." ولكن بدت كلماتها حتى لها وكأنها لا تفيد شيئاً . وتابعا السير . نكس الحصانان رأسيهما وهما يصعدان تبة أمامهما ثم هزا رأسيهما حتى جلجلت شكيمتاهما . لم يكن هناك صوت واحد في الليل الجليدي إلا ما يصدر عن سير الحصانين وأحياناً كانا يسمعان صوت الماء وهما يعبران جدولاً ما . كان القمر يشع في الأعلى والأسفل . وشع الجبل والصخور الرمادية بلون شاحب كالموت ، حيث كانا يسيران تحت حافة الجبل .

وأخيراً وصلا إلى حيث يستطيعان أن يطلاّ على الأبرشية . كان نور القمر يملأ الوادي . شع النهر والمستنقعات والبحيرة إلى الجنوب كالفضة . . . أما الحقول والمروج فكانت شاحبة .

قال سايمون :" أجل ، الليلة هناك جليد في الوهاد أيضاً" .

نزل عن حصانه وقاد حصانها وهما ينزلان المنحدر . كان الممر شديد الانحدار في أماكن كثيرة ، حتى شعرت كريستين أنها لا تجرؤ إلا بالكاد على النظر نحو الأمام . أسندها سايمون بظهره إلى ركبتها ، وقد تمسكت بيد واحدة خلف السرج . بين الحين والآخر كان حجر يتدحرج من تحت حوافر الجوادين ، ويندفع نحو الأسفل ، يتوقف قليلاً ثم يتحرج مرة أخرى فيجعل أحجاراً أخرى تتخلخل في مواضعها فيحملها معه . . .

وأخيراً وصلا إلى الأسفل . سارا عبر حقول الشعير شمال الضيعة بين عيدان القمح المغطاة بالجليد . كانت أشجار الحور الرجراج تطقطق وتدمدم من فوق رأسيهما في الليل اللامع الهادئ .

سألها سايمون وهو يمسح وجهه بكمّه :" أقلت إنه حدث لديك تكهن دون أن يصلك أي خبر . . . ؟"

أجابت كريستين بأن هذا صحيح . ثم قال هو :

"لقد سمعت أنه يحدث في بعض الأحيان أن ينطلق إخطار نحو الطرف الآخر حين يتوق شخص ما للشخص الآخر كثيراً . . . لقد تبادلنا الحديث رامبورغ وأنا أكثر من مرة وقلنا إنك لو كنت في البيت ستعرفين طريقة . . ."

قالت كريستين : " لم يكن أي منكم في فكري كل هذه الأيام . عليك أن تصدقني يا سايمون" . ولكنها لم تستطع أن ترى أن هذا قد واساه .

في الباحة قفز زوج من خدم المنزل فوراً وأخذا الحصانين ." أجل ، إن الوضع كما كان حين غادرت يا سايمون . إنه ليس أسوأ " ، قال أحد الخادمين بسرعة وقد رفع نظره إلى سيده . أومأ سايمون برأسه ، ثم دخل قبل كريستين إلى مبنى النساء .

•

رأت كريستين بوضوح أن هناك خطراً جلياً على حياة الصبي الذي كان مستلقياً وحده في السرير الكبير الفخم وهو يئن ويشهق ويهز رأسه دون توقف إلى الأمام والخلف على الوسائد . كانت حرارته مرتفعة ووجهه أحمر قانيا وقد استلقى بفم نصف مفتوح ، وعينين لامعتين يحاول جاهداً أن يتنفس . وقف سايمون وهو يمسك بيد رامبورغ ، وقامت كل نساء الضيعة بالتزاحم من حول كريستين وهي تتفحص الصبي .

ولكنها تكلمت بهدوء جهد استطاعتها وهدّأت من روع الوالدين كأفضل ما كان في مقدورها . لاشك أنها ذات الرئة ولكن هاهي هذه الليلة في نهايتها دون أن يطغى الجانب الأسوأ منها على الوضع . . . إن من عادة هذا المرض أن ينقلب في الليلة الثالثة أو السابعة أو التاسعة قبل صياح الديك . توسلت إلى رامبورغ أن ترسل كل النساء إلى فراشهن باستثناء اثنتين فقط حتى يكون لديها دائماً نساء مستريحات وجاهزات لمساعدتها . وحين وصل الخادم من يورونندغارد مع عدة كريستين الخاصة بالحكمة ، فقد غلت شراباً معرّقاً للصبي وفتحت وريداً في قدمه لفصد الأخلاط بعيداً عن صدره .

شحب وجه رامبورغ لرؤية دم ابنها . وضع سايمون ذراعه من حولها ولكنها دفعت بالرجل جانباً وجلست على كرسي قرب أسفل السرير ، تحدق إلى كريستين بعينين سوداوين بينما انهمكت أختها بالطفل .

●

خلال ذلك النهار ، بدا الطفل في وضع صحي أفضل ، فتحدثت كريستين مع رامبورغ طالبة منها أن تستلقي على المقعد ثم كومت الوسائد والأغطية من حول الزوجة الشابة ، وجلست قرب رأسها ، وراحت تمسّد جبينها برقة . تناولت رامبورغ يد كريستين :

"لا شك أنك لاتتمنّين لنا الآن سوى الخير؟" هذا ما قالته وهي تئنّ .

""أيمكن أن أتمنى لك أي شي سوى الخير يا أختي . . . ونحن يا أختي كل ما تبقى من سلالتنا في هذا البلد . . .؟

بدأت رامبورغ تنتحب . . . نصف مختنقة عبر شفتين مزمومتين بشدة . كانت كريستين قد شاهدت أختها تبكي مرة واحدة فقط من قبل . . . حين وقفتا عند سرير أبيهما الميت . والآن كانت دموع قليلة صغيرة متسرعة تنبع من عينيها

وتسيل على خديها . رفعت كريستين يدها ونظرت إليها . كانت طويلة ورشيقة ولكنها حمراء بنية الآن وخشنة . . .

قالت :" حتى الآن ما زالتا أجمل من يدي . كانت يدا رامبورغ صغيرتين وبيضاوين ولكن أصابعها كانت قصيرة وأظافرها مربعة .

قالت :"أجل" بغضب تقريباً ، بينما هزت كريستين رأسها مبتسمة ."وأنت حتى أجمل مني كما كنت دائماً . كان أبونا وأمنا يحبانك أكثر مني . . . طوال حياتنا . لقد جلبت لهما الأسى والعار ، وكنت أنا مطيعة وبارة وقبلت بالرجل الذي كانا يريدان مني الزواج منه . . . ولكن في داخلهما كانا يحبانك أكثر بكثير . . ."

"كلا يا أختاه . كوني على ثقة من أنهما أحباك بقدر ما أحباني . هيا كوني سعيدة يا رامبورغ لأنك تفكرين في أنك لم تسببي لهما سوى الفرح . . . أنت تعرفين كم هو ثقيل العبء الذي أحمله أنا . ولكنك كنت صغيرة في ذلك الحين الذي كنت فيه أنا شابة ، ولذلك كانا يتحدثان إليّ أكثر ."

"أجل ، اعتقد أن الكل كان أصغر في ذلك الحين الذي كنت فيه شابة" ، قالت رامبورغ وهي تتنهد كما من قبل .

وسرعان ما نامت . جلست كريستين وحدقت إليها . كانت لا تعرف أختها إلا قليلاً . كانت رامبورغ مجرد طفلة حين تزوجت هي وقد بدا الآن لها أن الأخرى ما زالت طفلة نوعاً ما . لقد بدت كطفلة وهما جالستان قرب ابنها المريض . . .طفلة شاحبة خائفة تبذل جهدها للصمود في وجه الرعب والتعاسة .

كان يحدث أحياناً أن تتوقف الحيوانات عن النمو لو حملت ذرية في فترة مبكرة جداً من حياتها . لم تكن رامبورغ قد أتمت السادسة عشرة من عمرها حين حملت بابنتها ، ومنذ ذلك الحين بدا عليها وكأنها توقفت عن النمو . لقد بقيت هشة وصغيرة الحجم دون أن تزهر أو تثمر . ومنذ ذلك الحين أنجبت هذا الصبي

الوحيد . وكان عليلاً إلى حد غريب . . .جميل الوجه والملامح فاتح البشرة ، إنما صغير الحجم وسقيم إلى حد مثير للشفقة . . .لقد تأخر في المشي ولا زال يتعثر في النطق ، إلى درجة أن أولئك الذين كانوا من حوله يومياً هم الوحيدون القادرون على فهم شيء من ثرثرته الطفولية . كان شديد الخوف والجبن من الغرباء أيضاً إلى حد أنه لم يكن يدع خالته تلمسه إلاّ بالكاد . هل سيمنحها الرب والقديس أولاف البركة لتنقذ هذا الطفل المسكين . . .؟ أوه! ستكون ممتنة طوال حياتها . هذا الطفل مع أم كهذه ، لا شك أنها لن تتحمل فقدانه . وأحست أنه سيكون أمراً شديد المرارة أن يتحمل سايمون دار الضربة ، لو كان سيفقد هذا الابن الوحيد . . .

لقد لاحظت جيداً أنها أضحت تحب زوج أختها جيداً ، بعد أن علمت كم عانى من الأسى والرعب . لقد استطاعت أن تفهم الآن حب أبيها الكبير لسايمون أندرسون . ومع ذلك تساءلت إن لم يكن أبوها قد أساء لرامبورغ في استعجاله زواجها من سايمون . لأنها حين راحت تنظر إلى هذه الأخت الصغيرة إلى جوارها ، فقد خطر لها بعد كل ما قيل أن سايمون أكبر سناً وأكثر جدية وضخامة من أن يكون زوجاً لهذه الطفلة .



-٣-

مرت الأيام وبقي أندرس مريضاً . لم يكن هناك تغير ملحوظ نحو الأسوأ ولا نحو الأفضل . كان أسوأ ما يحدث هو ألاّ ينام . كان الصبي مستلقياً هناك بعينين نصف مفتوحتين دون أن يعرف شيئاً . كان السعال واللهاث يمزّقان جسده الصغير المهدود ، وكانت الحمى المتذبذبة ترتفع وتهبط . في إحدى الأمسيات كانت كريستين قد أعطته شراباً منوماً . . .بعدها غرق في نوم مريح . ولكنها لاحظت بعد فترة أن الطفل قد أضحى لونه أبيض مزرقاً ، كما أضحت بشرته باردة وندّية .

وبأقصى سرعة حصلت على جرعة من الحليب الساخن وتم تجريعه إياها كما وضعت أحجاراً ساخنة على أخمص قدميه . وبعد هذا لم تعد تجرؤ على إعطائه عقاراً منوماً . . .

لقد عرفت أنه أصغر بكثير من أن يستطيع احتماله .

وصل سيرا سولموند وجلب له "العناصر المقدسة " من الكنيسة . تعهد سايمون ورامبورغ بتأدية الصلوات والصيام والحسنات بشكل دائم إن كان الرب سيصغي إليهما ويمنح الحياة لابنهما .

وصل إرلند إلى هناك في أحد الأيام . رفض الترجل عن حصانه والدخول

إلى الدار ، ولكن كريستين وسايمون خرجا إلى الباحة وتكلما إليه ، نظر إليهما بأسى كبير . كان أمراً غريباً أن نظرته هذه كانت تثير في كريستين غضباً كليلاً غامضاً . كان أمراً أكيداً أنه كان يشعر بالألم حين يرى أي شخص مريضاً أو حزيناً ، ولكنه كان يبدو أولاً وقبل كل شيء مذهولاً وخجولاً . . .كان يبدو دائماً عاجزاً حين يكون حزيناً لأجل الناس .

بعد ذلك كان ناكفه أو التوأمان يحضران يومياً إلى فورمو ليسألا عن حال أندرس .

●

لم تجلب الليلة السابعة أي تغيير هام على حالة المرض ، ولكن مع تقدّم النهار بدا الصبي في حال أفضل . . . ودون حرارة مرتفعة جداً . كان سايمون وكريستين جالسين لوحدهما إلى القرب منه قرب منتصف النهار .

أخرج الأب تميمة صغيرة مذهبة كان يلبسها وقد سلكت على خيط من حول عنقه تحت ملابسه . انحنى فوق الصبي ، ودلىّ التميمة أمام عينيه ثم دفعها في يد الصبي وضغط الأصابع الصغيرة من حولها . . . ولكن لم يبد على أندرس أنه مهتم .

كان سايمون قد أعطي هذه التميمة وهو طفل بعد وقد ارتداها منذ ذلك الحين . . .كان أبوه قد جلبها معه من فرنسا . كانت قد بوركت في دير يسمى دير جبل ميكائيل وكان رسم عليها شبه القديس ميكائيل مع جناحين كبيرين . وكان أندرس يحب أن يتفرج عليها ، كما حكى لها سايمون بصوت خفيض جداً . ولكن الصبي الصغير ظنها ديكاً ، كان يسمي رئيس كل الملائكة "ديكاً" . . . وأخيراً علّم الطفل أن يقول كلمة "الملاك" . ولكن في أحد الأيام كانا يقفان في الباحة ورأى أندرس ديكاً ينقر إحدى دجاجاته ، فقال :" الملاك غاضب الآن يا أبي" .

رفعت كريستين عينيها إلى الرجل متوسلة . . . لقد آلمها كثيراً الإصغاء إليه ، رغم أن سايمون كان يتكلم ببساطة وهدوء شديدين . كانت منهكة جداً من كل هذه الليالي التي قضتها وهي تسهر على المريض . أحست أنها ستنهار لو بدأت بالبكاء الآن . . .

أعاد سايمون التعويذة إلى مكانها في صدر قميصه .

" أجل ، سأمنح ثوراً عمره ثلاث سنوات إلى الكنيسة في يوم عيد القديس ميكائيل . في خريف كل عام طالما حييت ، إن كان سيتلكأ ولو قليلاً قبل أن يحضر لأخذ روحه . فأندرس ضئيل الحجم جداً . . ." ولكنه حين حاول أن يضحك ، تحشرج صوته قليلاً . "سايمون ، سايمون! " توسلت المرأة إليه ." أجل ، سيجري القدر كما هو مرسوم له يا كريستين . والرب نفسه هو الذي يرسمه ، ولا شك أنه يعرف أفضل من الجميع . . ." توقف الأب عن الكلام ، إلاّ أنه وقف وراح ينظر إلى ابنه .

•

في الليلة الثامنة سهر سايمون وإحدى الخادمات على المريض بينما هجعت كريستين قليلاً على المقعد البعيد . وحين استيقظت ، كانت الفتاة نائمة ، بينما كان سايمون جالساً كما في معظم الليالي على المقعد عند رأس السرير ورأسه مدلى فوق السرير والطفل .

همست كريستين وهي تذهب إليه : "أهو نائم؟"

رفع سايمون رأسه . مسح وجهه بيده فلاحظت أن وجنتيه كانتا رطبتين ، إلا أنه أجاب بصوت خفيض وهادئ :

" لا أعتقد يا كريستين أن أندرس سينام مجدداً حتى يضطجع تحت الخثّ في أرض مباركة " .

وقفت كريستين . . .أحست كأنها أصيبت بالتيبس والتصلّب . وقد شحبت ببطء بشرتها التي لفحتها الشمس فابيضّ حتى لون شفتيها .

ثم مضت نحو الزاوية وتناولت عباءتها التي تخرج بها .

تكلمت وكأنما أصاب الجفاف حلقها وفمها : " عليك أن ترتب الأمر على نحو تكون أنت فيه لوحدك هنا حين أعود . ابق معه . . .وحين تراني أدخل ، لا تنبس ببنت شفة ، ولا تذكر هذا قط لاحقاً أمام أحد ، لا أمامي ولا أمام أي شخص آخر . ولا حتى كاهنك . . ."

نهض سايمون . . . واقترب منها ببطء . كان قد شحب لونه هو أيضاً .

"كلا يا كريستين !" كان صوته بالكاد مسموعاً . "لا أجرؤ . . .على جعلك تمشين في تلك الطريق ."

لفّت عباءتها من حولها ، وأخذت قطعة من قماش كتاني من الخزانة في الزاوية وطوتها ثم خبأتها في صدرها . "ولكني أجرؤ . عليك أن تضمن ألا يقترب شخص منّا لاحقاً ، وذلك قبل أن أنادي عليك . . .لا يجب أن يقترب أي شخص منا بعد ذلك ولا أن يحدثنا ، قبل أن يستيقظ ويتكلم هو نفسه . . ."

"وما هو رأي أبيك بهذا حسب رأيك ؟"همس لها بصوت واهن كما من قبل . " كريستين ، لا تفعليها . . ."

"لقد فعلت سابقاً ما اعتقد أبي أنه خطأ . . . وعندها كنت أفعل أمراً يتعلق بإرضاء شهواتي . . . أندرس هو لحمه ودمه ايضاً . . .وهو لحمي أنا يا سايمون . . . إنه ابن أختي الوحيدة . . ."

تنفس يا سايمون بصعوبة وهو يرتجف ، وقف وراح ينظر إلى الأرض .

"ولكن إن كنت لا تريد مني أن أقوم بمحاولة هذه الوسيلة الأخيرة . . ." وقف كما من قبل وقد طأطأ رأسه . كررت ما قالته مجدداً . . . ولم تعرف أن نصف ابتسامة غريبة مليئة بالاحتقار قد غلبت على شفتيها الشاحبتين :

"أتريد مني ألاّ أذهب؟"

التفت برأسه جانباً ، ومرت به وهي خارجة ، عبرت الباب دون ضجيج وأغلقته خلفها بهدوء .

•

في الخارج كان الظلام كثيفاً مع نفحات صغيرة من الريح الجنوبية ، حتى أن كل النجوم كانت تتراقص وتومض دون ثبات . لم تكن قد ابتعدت أكثر من الطريق بين الأسيجة ، ومع ذلك بدا لها وكأنها عبرت نحو الأبدية نفسها . كان خلفها وأمامها طريق لانهاية لها . لكأنها ما كانت ستتراجع عما تنوي أن تفعله حين خطت خارجاً هذه الليلة . . .

بدت العتمة نفسها كأنها قوة تقاومها وهي تشق طريقها فيها . كانت تمشي في وحل عميق . . . فقد حرثت عربات السماد الدرب الذي راح جليده يذوب بفعل الريح الجنوبية . عند كل خطوة كان عليها أن تحرر قدميها من العتمة والبرد القارس اللذين كانا يلتصقان بقدميها ثم يصعدان ويسدان حواشي تنورتها . بين وقت وآخر كانت ورقة متساقطة تحتك بها . . . وكأنها شيء حيّ لمسها في العتمة ، برقّة ، ولكنه واثق من قوته : عودي أدراجك ، عودي أدراجك! . . .

حين خرجت إلى الطريق العام أضحى المشي أسهل : كان العشب نامياً عليه . لم تعد قدماها تعلقان في الطين . أحست بوجهها وقد تحجّر كالصخر ، وكان جسدها متوتراً مشدوداً . . . كانت كل خطوة تجرها دون رحمة نحو الغابة التي عليها عبورها . بدا وكأن شللاً داخلياً راح يتصاعد في داخلها . . . كان من المستحيل أن تتجرأ فتعبر ذلك الممر المعتم . . .ولكن لم تكن لديها أي أفكار تتعلق بالعودة من حيث أتت . كان الرعب قد أصاب جسدها بالخدر ومع ذلك تابعت المشي بخطوات واسعة وكأنها نائمة ، وتخطو بثقة فوق الحجارة والجذور والبرك

الصغيرة ، دون أن تعي . . .وهي تحرص على ألا تتعثر ، وألا تتخلى عن مشيتها المتوازنة وتجعل الرعب يسيطر عليها .

كانت أشجار التنوب تتنهد الآن أقرب فأقرب في الليل . مرت إلى القرب منها ، وهي لا تزال هادئة ، وكأنها تمشي في نومها . كانت واعية لكل صوت ولم تكن تجرؤ إلا بالكاد على تحريك جفن واحد بسبب العتمة . هدير النهر والتنهد العميق للأشجار وخرير جدول اقتربت منه وعبرت به وخلفته وراءها . وفي إحدى المرات عالياً في الجبل تدحرجت صخرة ، كأنما حركتها روح حية هناك في الأعالي . . . نزّ العرق من كل جسدها ، ولكنها لم تجرؤ على الإبطاء ولا الاستعجال في مشيتها .

كانت عينا كريستين قد أصبحتا شديدتي الاعتياد على العتمة حتى أنها حين خرجت من الغابة استطاعت أن ترى قليلاً . . . كان هناك وميض ضعيف فوق النهر ، فوق مياه المستنقعات . كانت أراضي المزرعة مرئية لها الآن رغم الظلام . كانت تجمعات البيوت تبدوا كقلوب ذات ظلمة أشد فوقها . وكانت السماء أيضاً ذات لون أفتح فوقها وهي تمضي . . . أحست بها ، ولكنها لم تجرؤ على رفع عينيها نحو الجبل الأسود الذي كان يرتفع نحو السماء . لكنها علمت أن الوقت قد حان لبزوغ القمر . . .

حاولت أن تذكر نفسها . . . خلال أربع ساعات سيبدأ النهار : سيكون الناس قد انطلقوا إلى أعمال النهار في كل المزارع . . . سيكون الجو رمادياً مع الفجر . ثم سيعم النور أعلى الجبال . لن تكون الطريق طويلة عندئذ . . . في النور ليست الطريق طويلة من فورمو إلى الكنيسة . وقبل ذلك بفترة طويلة ستكون هي نفسها قد وصلت إلى البيت وأصبحت في داخله . ولكن شيئاً ما قال لها إنها ستكون في حاجة إلى أن تكون شخصاً آخر عندئذ مختلفاً عن ذاك الذي كانته حين انطلقت في طريقها . . .

كانت تدري . . .لو كان الأمر يتعلق بحياة واحد من أطفالها ، ما كانت لتجرؤ على محاولة القيام بهذه الوسيلة الأخيرة إطلاقاً . هل تنحّي يد الرب جانباً بعد أن مدّها ليأخذ روحاً حية؟! حين كنت تسهر على أطفالها الصغار المرضى وكانت شابة وقلبها ينزف حناناً ، فقد حاولت أن تقول لدى استعدادها للغرق في الرعب والألم : أيها الرب أنت تحبّهم أكثر مني . . .إرادتك ستتم . . .

ولكنها ستذهب الليلة متحدية رعبها . . . هذا الطفل الذي ليس ابنها . . . هذا الطفل ستنقذه مهما يكن الأمر الذي ستنقذه لأجله . . .

. . . لأجلك أنت أيضاً يا سايمون دار ، حين يكون أعزّ شيء عليك فوق هذه الأرض في موضع الخطر ، فإني سوف أبذل جهدي أكثر ممّا يبذله أي رجل دون أن يوهن من شرفه . . .

"أتريد مني ألاّ أذهب . . .؟" ولم يكن رجلاً بما فيه الكفاية ليجيب . في أعماق قلبها كانت تعرف . . . لو كان الطفل سيموت فإن سايمون سيحاول هذه الوسيلة . ولكنها كانت قد انقضت على تلك الساعة بالذات حين وجدته عند نقطة الانهيار . . . وقد اغتنمت الفرصة في اللحظة الملائمة وانطلقت في طريقها . هذا السر ستشاركه فيه الآن . . .فهو قد عرف أنها قد رأته أيضاً في تلك الساعة حين لم يكن واقفاً باتزان على قدميه .

لقد أصبح يعرفها عن كثب إلى حد كبير . لقد تلقت المساعدة من يدي الرجل الذي رفضته في كل مرة احتاجت فيها إلي ، وذلك لتنقذ الرجل الذي اختارته بنفسها . العاشق الذي نبذته كان الرجل الذي لجأت إليه في كل مرة كانت تحتاج فيها إلى حماية حبيبها . ولم تكن تنشد عون سايمون عبثاً ، ففي كل مرة كان يتقدم ليحميها بشهامته وقوته .

لذلك كانت تسلك هذا الدرب عبر الليل لتخفف قليلاً من عبء دينها الذي لم تكن شعرت بالضبط حتى تلك الساعة بمدى ثقله الضاغط .

كان سايمون قد أجبرها على أن تفهم أخيراً أنه كان الأقوى . . .أقوى منها ومن الرجل الذي اختارت أن تلمسه نفسها . لابدّ أنها شعرت بالفعل بذلك من اللحظة التي التقى فيها ثلاثتهم في ذلك الوكر المعيب في أوسلو - رغم أنها لم تلاحظ ذلك في حينه - بأن هذا الشاب البدين مستدير الوجنتين المتكلم كان أقوى من . . .

لذلك ذهبت ولم تجرؤ على مناداة اسم شخص صالح وورع وتحملت وزر هذه الخطيئة ، حتى تتمكن من الفوز . . .لا تعرف ما الأمر . . .هل هو انتقام؟ . . . انتقام لأنها اضطرت إلى أن ترى أنه كان أفضل منهما هما الاثنين كليهما . . .؟

ولكنك تعرف الآن أيضاً يا سايمون . . .حين تكون حياة الشخص الذي يحبه المرء أغلى من حياته نفسها . . .روح بشرية ضعيفة لن تفهم شيئاً . . .على الإطلاق . . .

كان القمر قد برز فوق حافة الجبل وهي تصعد المنحدر نحو الكنيسة . ومن جديد فكرت أن عليها أن تمر بموجة جديدة من الرعب . . .كان نور القمر أشبه بنسيج عنكبوت فوق الكتلة المطلية بالقار . كانت الكنيسة تنتصب تحت سديم رقيق ، سوداء على نحو رهيب ومهدّد بالويل والثبور . ولأول مرة رأت الصليب الكبير فوق المرج في الخارج ولم تجرؤ على الاقتراب من هناك لتنحني أمام الشجرة المقدسة . زحفت إلى حيث عرفت أن جدار ساحة الكنيسة المصنوع من الطين والحجر كان في أفضل مستوى له وأسهل على التسلق . . .

كانت شواهد القبور تلتمع هنا وهناك كالماء في العشب الرطب الطويل . عبرت كريستين مباشرة ساحة الكنيسة وهبطت باتجاه قبور الفقراء بعيداً قرب الجدار الجنوبي .

مضت نحو مكان دفن فيه فقير كان من الواصلين الجدد إلى الأبرشية . لقد تجمد الرجل حتى الموت وهو في الجبال في إحدى فصول الشتاء وتنقلت ابنتاه

يتيمتا الأم أيضاً من منزل إلى آخر حتى عرض لافرانس بيورغولفسون أن يرعاهما لأجل خاطر المسيح ، وأن يمنحهما الغذاء . وقد ترعرعتا حتى كبرتا وبحث لهما أبوها عن عريسين شريفين كادحين ، وزوجّهما مانحاً كل واحدة منهما بقرة وعجلة وغنمة ، بينما أعطتهما راغنفريد أسرة وفراشاً وأوعية حديدية . . .والآن أصبحتا ربّتي منزل ناجحتين وغنيتين نسبياً . كانت إحداهما تعمل خادمة لدى رامبورغ وقد حملت رامبورغ أطفالها لها يوم عمادهم . . .

إذن عليك الآن أن تعطيني قطعة خث من التراب الذي يغطيك يا "بيارن" لأجل ابن رامبورغ . ركعت وأخرجت خنجرها .

تفجّر العرق في حبات باردة فوق جبينها وشفتها العليا وهي تدسّ أصابعها تحت الخث المبلّل بالندى . كان هناك شيء ما يمسك بها من الأسفل -كانت تلك جذوراً- وقد قطعتها بخنجرها .

كمكافأة يجب أن تكون الحلية المعدنية من ذهب أو فضة متوارث منذ ثلاثة أجيال . خلعت خاتمها الذهبي الصغير المطعم بالياقوت الذي كان خاتم خطبة جدتها . . .الطفل من عائلة أبي . دست الخاتم في التراب إلى أعمق حد استطاعته ، لفت الخث بالقماشة الكتانية وغطت البقعة التي أخذته منها بالطحالب وأوراق الشجر .

. . .حين نهضت ارتجفت ساقاها من تحتها . . .كان عليها أن تقف قليلاً قبل أن تلتفت إلى الوراء . لو نظرت تحت مرفقها الآن لكانت ستراهم . . .

وكان هناك جذب مخيف في داخلها ، وكأنهم سيجبرونها على ذلك . . .كل الموتى الذين عرفوها في الأيام الغابرة . إنها أنت يا كريستين لافرانسداتر . . .هل أتيت إلى هنا على هذا النحو؟ "آرن" ، حسناً قد تتساءل . . .لم أكن كذلك حين كنا صديقين أنت وأنا . . .

ثم تسلقت السور مجدداً وانطلقت في طريقها نزولاً .

راح القمر يشع الآن فوق الريف كله . هاهي يورروندغارد هناك على السهل المشرف على النهر . . .كان الندى يلتمع على كل الأسقف . نظرت إلى الأسفل . . .دون أن تتأثر تقريباً . كأنما هي نفسها ميتة بالنسبة إلى ذلك البيت وكل ما هناك . . . كان الباب موصداً إلى الأبد أمامها هي التي سارت في تلك الليلة على الطريق العالي . . .

كان معظم طريق العودة مظللاً بالجبال . كانت الريح تهب على نحو أقوى الآن . . .كانت الهبة إثر الأخرى تضغط عليها . . .راحت أوراق ذابلة تهب عليها وكانت ستجعلها تعود من حيث أتت . . .

كما لم يكن يبدو لها أنها تمشي لوحدها . فجأة كان يأتي صوت يشبه صوت وقع خطوات مختلسة خلفها . أهذا أنت يا "آرن"؟ انظري خلفك يا كريستين ، انظري من تحت مرفقك ، هذا ما همس به . . .

ومع ذلك كان معها حق في أن تخاف . كانت بردانة وحذرة ، وتشعر بالغثيان والتوق إلى الاستسلام والانهيار أرضاً . بعد هذه الليلة لا شك أنها لن تعرف الخوف قط في هذه الدنيا . . .

•

كان سايمون جالساً في مكانه المعتاد عند رأس السرير ، منحنيا فوق الطفل ، وذلك حين فتحت الباب ودخلت . رفع نظره إليها لحظة قصيرة واحدة . . .تساءلت كريستين إن كانت أصبحت خلال هذه الفترة التي انقضت منهكة ومشوهة وعجوزاً . ثم طأطأ سايمون برأسه وخبأه بين ذراعيه .

تطوح قليلاً وهو ينهض . والتفت برأسه بعيداً عنها وهو يتجه نحو الباب وقد أحنى عنقه وكتفيه .

أشعلت كريستين شمعتين ووضعتهما على المائدة . فتح الصبي عينيه

قليلاً ، ونظر إلى الأعلى دون أن يرى شيئاً ، قطب جبينه قليلاً ، وحاول أن يبعد رأسه عن النور . وحين وضعت كريستين الجسم الصغير على نحومستقيم ، كما يفعل المرء بجثة ، لم يحاول أن يغير وضعيته . . .بدا أضعف من القدرة على التحرك .

ثم غطت وجهه وصدره بالقماشة الكتانية ووضعت قطعة الخث فوقها .

وبهذا اندفع الرعب ليغشاها مجدداً ، كبحر طاغ .

عليها أن تجلس قرب السرير . كانت النافذة فوق المقعد القصير مباشرة . لم تجرؤ على الجلوس وظهرها إليها . . .الأفضل أن ينظر المرء إليهم في العينين ، إن وقف أي منهم دون أن ينظر إلى الداخل . سحبت الكرسي ذا الظهر العالي نحو السرير وجلست تواجه زجاج النافذة . . .راح الليل يضغط عليه ، مظلماً ظلاماً دامساً . كان لهب أحد الشمعتين ينعكس على الزجاج . حدقت كريستين بقوة إليه ، وهي تمسك بيديها ذراعي الكرسي ، حتى أصبحت براجمها بيضاء وارتجف ذراعاها . لم تعد تشعر بساقيها ، فقد كانتا باردتين ورطبتين جداً . . .جلست وأسنانها تصطك من الخوف والبرد والعرق البارد يتصبب فوق وجهها وظهرها . جلست دون حراك . . .راحت ترمي بين الحين والآخر نظرة سريعة على القماشة الكتانية التي راحت ترتفع وتهبط قليلاً جداً مع تنفس الطفل .

وأخيراً فإن لون زجاج النافذة بدأ يتحول إلى الرماديّ . صاحت الديكة بحدة . ثم سمعت رجالاً في الباحة . . .كانوا متجهين نحو الإسطبلات .

بخفة عادت لتستند على ظهر الكرسي ، وهي ترتجف كأنها في نوبة ، وحاولت أن تجلس بحيث تهدئ من ارتجاف واهتزازات أعضائها .

ثم تحرك شيء ما تحت القماشة الكتانية . . .جذب أندرس القماشة بعيداً عن وجهه وهو يتذمر متأففاً . . .بدا وكأن وعيه عاد إليه نوعاً ما ، فقد كان يئن بنزق نحوها حين أجفلت وانحنت فوقه . . .

اختطفت القماشة والخث ، وركضت نحو الموقد . دست بعض العيدان والحطب ورمت بلباس الشيطان نحو النار الجديدة المهسهسة التي أشعلت للتو . ولكنها كانت راغبة في الوقوف قليلاً ، فاتكأت على الجدار والدموع تنحدر فوق وجهها .

أخذت بعض الحليب بمغرفة من القدر الصغير الذي كان قرب الموقد وأخذته إلى الطفل . . . كان أندرس قد نام مجدداً ، إلا أنه ينام نوم العافية الآن .

شربت الحليب بنفسها . كان لذيذاً إلى حد أنها شربت ملء مغرفتين أو ثلاث من الشراب الدافئ بكل سعادة .

لم تجرؤ على الكلام بعد . . . لم يكن الطفل قد نطق بكلمة واحدة يمكن فهمها . ولكنها ركعت على ركبتيها قرب أسفل السرير وقالت في نفسها همساً (باللاتينية) :

"إرجع يا رب ، حتى متى؟ وترأف على عبيدك . لا تسخط كل السخط يا رب ، ولا تذكر الإثم إلى الأبد . . ها أنظر شعبك كلنا ."

. . . أجل ، أجل ، أجل ، كان أمراً مخيفاً ذاك الذي ارتكبته . . .

ولكنه كان ابنهما الوحيد . أما هي فكانت لها سبعة أبناء! ألا يجب عليها أن تخاطر بكل شيء لتنقذ ابن أختها الوحيد . . .؟

طول الليل كانت تفكر في هذا كله . . . كان مجرد وهم من أوهام الليل . لاشك أنها فعلت ذلك لا لشيء إلا أنها لم تكن قادرة على رؤية الصبي يموت بين يديها . . .

سايمون . . . هو الذي لم يخذلها قط .

هو الذي كان مخلصاً ولطيفاً مع كل طفل تعرفه . . . وخاصةً مع أولادها .

وهذا الابن الذي كان يحبه أكثر من بؤبؤي عينيه . . .ألا يجب أن تحاول كل شيء لتنقذ حياته . . . حتى لو كان في ذلك أثم وخطيئة . . .

أجل كان هناك إثم في ذلك . ولكن سامحني أيها الرب . هذا الطفل الجميل البريء ابن سايمون ورامبورغ . . . لا يمكن للرب أن يدع غضبه ينزل على أندرس .

عبرت الغرفة وانحنت على السرير . . . ثم نفخت على واحدة من اليدين الصغيرتين البيضاوين كالشمع . لم تجرؤ على تقبيلها . . . لا يجب أن يوقظ .

نقية ودون خطيئة . . . كان ذلك في ليالي الرعب تلك حين كانتا تجلسان معاً لوحدهما في هاوغن ، حين حكت لها الليدي آشيلد عن هذا الأمر . . . حكت لها عن ذهابها إلى المقبرة في كونونغاهله . "هذه هي يا كريستين دون شك أثقل مهمة سبق لي أن قمت بها" . . . ولكن بيورن غونارسون لم يكن طفلاً بريئاً حين كان يقبع على باب الموت ، حيث أن أبناء أخت آشيلد غاوتسداتر كادوا يخترقون قلبه بسيوفهم . وكان قد قتل أحدهم قبل أن يسقط ، ولم يعد الآخر رجلاً في كامل عافيته منذ تبادل ضربات السيوف مع السير بيورن . . .

وقفت كريستين قرب النافذة ونظرت خارجاً إلى الباحة . كان الناس يذهبون ويجيئون بين المباني وهم يؤدون واجباتهم اليومية . كانت بعض العجلات الصغيرات تتجول في أنحاء الباحة . . . كنّ جميلات جداً . . .

برزت كل أنواع الأفكار في العتمة . . . كذلك النباتات الغشائية التي تنمو في البحر وتتموج وتهزّ نفسها على نحو غريب ، جميلة على نحو غير اعتيادي . . .رهيبة ومثيرة تجذبنا هذه النباتات بجاذب معتم غريب بينما تنمو ضمن غسقها الحي المتذبذب . ولكن حين يقطفها الأطفال وتوضع في الزورق ، فهي لا شيء سوى علقة بنية موحلة . في الليل تبرز أفكار كثيرة وغريبة مثيرة الوهم والخوف . لاشك أن الأخ إدفين هو الذي قال ذات مرة إن الملعونين في جهنم لن يفارقوا عذابهم . . . فالكره والحزن هما متعتاهما . . . لذلك لا يستطيع

المسيح إنقاذهم . بدا لها هذا على أنه كلام هذر آنئذ . . . سرت رعدة باردة في جسدها . . . الآن بدأت تفهم ما كان يعنيه الراهب . . .

انحنت فوق السرير مجدداً . . . وهي تعبّ الهواء الذي كان الطفل الصغير يتنفسه . لا يجب أن يخسره سايمون ورامبورغ . حتى لو كان صحيحاً أنها قد فعلت هذا حقاً بسبب حاجتها إلى أن ترى نفسها على النحو الصحيح في عيني سايمون . . . أن تريه أنها راغبة هي أيضاً في فعل أكثر من أخذ الهدايا من يديه ؛ إنها حاجة إلى أن تحاول كل شيء لتكافئه . . .

ومن جديد ركعت وراحت تتلو مرة إثر أخرى ما تحفظه من سفر المزامير .

●

في ذلك الصباح خرج سايمون وبذر بذور الجودار الشتوي في الحقل المحروث حديثاً ، إلى الجنوب في الغابة . كان في ذهنه أن يتظاهر بأنه يبدو له ملائماً أن العمل في المزرعة يجب أن يستمر كالمعتاد . كانت الخادمات في حال استغراب كبير حين وصل إليهن في الليل وقال إن كريستين ستبقى لوحدها مع الصبي حتى ترسل في طلبهن ، كما قال ذلك لرامبورغ أيضاً حين أفاقت من النوم . . . كانت كريستين قد رجته ألا يقترب أحد من منزل النساء اليوم .

قالت بسرعة : "ولا أنت أيضاً ؟" وأجاب سايمون بالإيجاب . عندها خرج وأحضر صندوق البذور .

ولكن بعد وجبة منتصف النهار بقي في الضيعة . . . لم تكن لديه الشجاعة ليبتعد عن الأبنية . ولم يكن يحب النظرة في عيني رامبورغ . وقد حصل ما حصل بعد استراحة منتصف النهار . كان يقف قرب حظيرة القمح ، ورأى زوجته تندفع عبر الباحة . قفز ليلحق بها . . . رمت رامبورغ بنفسها على باب مبنى النساء وراحت تدق عليه بقبضتيها ، وهي تصرخ بجنون على كريستين لتفتح الباب .

وضع سايمون ذراعيه من خولها محاولاً أن يهدئ من روعها . عند ذلك انحنت بسرعة البرق وعضته في يده . بدت كوحش هائج في غضبها .

"إنه طفلي !ما الذي فعلته بابني؟"

" تعرفين أن أختك لا تفعل سوى الخير لأندرس" . . .وحين أمسك بها مجدداً ، صرخت وقاومته :

"هيا الآن" ، قال الرجل بصوت فيه تظاهر بالقسوة :

"رامبورغ . . .ألست خجلة من هذا التصرف أمام خدم منزلنا . . .؟"

ولكنها تابعت الصراخ :

"إنه ابني ، ابني ، هذا ما أقوله لك . . .لم تكن معنا حين ولدته يا سايمون . عندها لم نكن أعزّاء كثيراً عليك . . ."

"تعرفين جيداً ما الذي كنت منهمكاً به في تلك الأيام " ، أجاب الرجل منهكاً . جذبها بعيداً نحو القاعة بالقوة .

بعد ذلك لم يجرؤ على تركها . وخلال فترة هدأت رامبورغ ، وحين حلّ المساء استسلمت له وتركت النساء يخلعن عنها ملابسها .

سهر سايمون إلى جانبها . كانت ابنتاه نائمتين في سريريهما ، أما الخادمات فطلب إليهن الخروج . في إحدى المرات حين نهض وعبر الغرفة ، سألته رامبورغ – كانت مستيقظة تماماً كما بدا من صوتها- إن كان سيخرج .

أجاب بعد لحظة :"كنت أفكر في الاستلقاء إلى جانبك " . خلع معطفه الخارجي وحذاءه ، وزحف ما بين قطع الفرو وغطاء السرير الصوفي . ثم وضع ذراعه تحت عنق زوجته :"أعرف جيداً يا رامبورغ أن هذا كان يوماً طويلاً وثقيلاً عليك . . ."

"قلبك يدق بقوة يا سايمون" ، قالت بعد ذلك بفترة قصيرة .

"أجل يمكنك أن تصدقي أني خائف على الصبي أنا أيضاً . ولكن علينا الانتظار حتى تبعث كريستين في طلبنا . . ."

أجفل في السرير-كان مضطجعاً وهو مستند على مرفقه-ونظر بجنون إلى وجه كريستين الأبيض . . .كان وجهها قريباً من وجهه ، وكان يلتمع من الدموع تحت شعاع من نور ، وكانت يدها فوق صدره . فكر لحظة في أن هذا لم يكن حلماً فحسب . . .ارتمى سايمون على ظهره وهو يئن أنيناً مكتوماً وأخفى وجهه بذراعه . أحس بالغثيان وكان قلبه يدق بجنون وقوة . . .

"سايمون ، استيقظ !" هزته كريستين مرة أخرى . . .أندرس ينادي على أبيه ، ألا تسمعني؟ كانت تلك أول كلمة نطق بها" . كان وجهها يشع بالابتسامات بينما تنهمر الدموع منه دون توقف .

جلس سايمون في السرير ومرَّر يده مرتين فوق وجهه . لم يقل شيئاً وهي توقظه فقد كان النوم لا يزال يؤثر فيه . . .رفع بصره إلى كريستين . . .كانت تقف إلى جانب السرير وفي يدها قنديل .

زحف خارجاً معها بهدوء لئلا يوقظ رامبورغ . كان الغثيان لا يزال يثقل على صدره . أحس كأن شيئاً سينكسر في داخله . . .لماذا يسكنه دائما هذا الحلم الكريه ؟ هو الذي كان في يقظته يكافح دائماً لدفع هذه الأفكار بعيداً عنه . ثم ، حين كان يستلقي لينام ، دون إرادة وعاجزاً ، كان يحلم دائماً هذا الحلم الذي يبعث به الشيطان نفسه . . .وحتى الآن ، وبينما كانت تجلس لتسهر على ابنه الذي كان مريضاً حتى الموت ، كان هو يحلم حلم أي شخص بائس متوحش . . .

كان المطر يهطل ، ولم تستطع كريستين أن تعرف كم كانت الساعة في ذلك الليل البهيم . كان الصبي نصف مستيقظ في النهار ، ولكنه لم يكن قد تكلم . ولم يبد عليه أنه نام جيداً وبعمق إلا في وقت متأخر من الليل . . .ولم تجرؤ هي

على الاضطجاع ولو قليلاً للراحة . . .وأندرس كان بين ذراعيها ، حتى تشعر به لو تحرك . ثم نامت . . .

بدا الصبي ضئيلاً جداً وهو مستلق لوحده في السرير . كان شاحباً إلى حد مؤسف ، ولكن عينيه كانتا صافيتين ووجهه مشرق بالابتسامات حين رأى أباه . ركع سايمون على ركبتيه قرب السرير ، ولكن حين أراد أن يضم الصبي إلى صدره ، أمسكت كريستين بذراعه :

"كلا ، كلا يا سايمون ، إنه لا يزال عرقان والجو بارد هنا . . ." جذبت أغطية السرير من حول أندرس . "الأفضل أن تستلقي إلى جواره . . .ثم سنرسل امرأة إلى هنا لتراقبه . سأذهب الآن إلى القاعة لأنام إلى جوار رامبورغ . . ."

زحف سايمون من تحت الأغطية . كان هناك تجويف دافئ حيث كانت هي قد اضطجعت ، ورائحة شعرها الحلوة على الوسادة . أنّ سايمون برقة شديدة مرة واحدة . . .ثم ضم ابنه الصغير إليه وضغط برأسه على رأس الطفل الناعم الرطب . كان نحيلاً جداً الآن ، لا شيء هناك يضمه بين ذراعيه ، هكذا كان أندرس ، ولكنه تمدد هناك بسعادة كافية ، وهو يقول كلمة صغيرة بين الحين والآخر .

ثم راح يداعب أباه ويعبث في فتحة قميصه ، ثم دس يده الندية الصغيرة في صدر الرجل وجذب التميمة :

قال بسعادة "الديك ، هاهو . . . "

●

في اليوم الذي استعدت فيه كريستين للذهاب إلى بيتها ، وصل سايمون إليها وهي في مبنى النساء وسلّمها صندوقاً خشبياً صغيراً :

"ظننت أنك كنت تريدين الحصول على هذا . . ."

وعرفت كريستين من الخشب المنحوت أنه كان من صنع أبيها . في داخله كان مشبك صغير ذهبي مرصع بخمس زمردات وملفوف بجلد قفازات . ميزته

على الفور . . . كان من عادة لافرانس أن يضعه في عصابة معصمه في المناسبات الخاصة حين يرتدي أفضل ملابسه .

شكرت سايمون ، ولكن وجهها تضرج خجلاً وقد خطر لها فجأة أنها لم تر أباها قط يرتدي هذه الحلية بعد أن رجعت إلى البيت من الدير في أوسلو .

سألت : " متى أعطاك أبي هذه ؟" ثم ندمت على السؤال ما أن طرحته .

"حصلت عليه كهدية وداع وأنا عائد من الضيعة . . ."

"تبدو هذه لي على أنها هدية عظيمة جداً " ، قالت بصوت خفيض وعيناها تنظران أرضاً .

ضحك سايمون قليلاً وهو يجيب :

"ستكونين في حاجة إلى الكثير منها يا كريستين ، حين يأتي الأوان وتهدين أولادك هدايا الزفاف . . ."

نظرت كريستين إليه وقالت :

"تعرف جيداً يا سايمون . . .كيف أعتبر الأشياء التي آلت إليك منه . . .تعرف أني أعزّك وكأنك ابنه الحقيقي . . ."

"حقاً ؟" لمس خدها بخفة بظاهر يده ثم مررها على خدها باتجاه الأسفل ثم ابتسم ابتسامة صغيرة وهو يتكلم كطفل :

"أجل ، أجل يا كريستين ، لقد لاحظت ذلك . . ."

-٤-

في وقت لاحق من الخريف كانت لدى سايمون أندرسون مهمة أخذته إلى منزل أخيه في "دايفرين" . وبينما كان هناك جاءه خاطب يطلب يد ابنته آرنغييرد .

لم يتم الوصول إلى قرار نهائي ، وكان سايمون قلقاً وذا ذهن مشوش وهو في طريقه شمالاً . ربما كان عليه أن يبرم الصفقة ، فعندها تكون الفتاة قد استقرت جيداً وتخلص هو نفسه من كل الخوف على مستقبلها . ربما كان "غيرد" و"هيلغا" على حق . . .

فقد كان أمراً غير حكيم من قبله عدم اغتنام الفرصة وذلك حين حصل على عرض كذاك لأجل أبنته . . .

فقد كانت "آيكن" ضيعة أعظم من" فورمو" ، وكان "آسموند" يمتلك أكثر من ثلثها . وهو لم يفكر قط في أن يخطب لابنه فتاة من منزلة آرنغييرد ، فهي ذات ميلاد غير شرعي وليس لها أقارب من جانب أمها ، لولا أن سايمون خصص لها كبائنة ثلاثة "هيدات"من الأرض . كان عليهم أن يقترضوا الأموال من راهبات أوسلو ومن دايفرين ، حين كان على غروندە آسموندسون أن يدفع ديّة

لقاء القتل للمرة الثانية . كان غرونده شخصاً عنيفاً لا يمكن السيطرة عليه حين يكون ثملاً . . .ومع ذلك فقد كان من كل النواحي الأخرى شخصاً صالحاً ذا طبع جيد ، كما قال"غيرد" ، وكان أمراً مؤكداً أنه سيكون قابلاً لأن يدع زوجة طيبة وذكية ان توجّهه نحو طريق الصواب .

ولكن الأمر وما فيه كان هو أن غرونده لم يكن أصغر سناً من سايمون نفسه إلا بسنوات قليلة . وأن آرنغييرد كانت صغيرة السن . وما كان هناك ما يرضي أهل "آيكن" سوى إقامة حفل الزفاف في الربيع القادم . . .

كانت هناك ذكرى مؤلمة تتشبث بذهن سايمون . . .ولكنه لم يفكر فيها حين كان يستطيع ذلك . والآن ، بما أن قضية زواج آرنغييرد قد أثيرت ، فقد أطلت هذه الذكرى برأسها . لقد كان رجلاً تعيساً في ذلك الصباح حين استيقظ إلى جانب رامبورغ . لم يكن أكثر تهيجاً وشهوانية -دون شك- حين ذهب إلى فراش الزوجية من الحال التي يكون عليها العريس ليلة عرسه . . .رغم أن مشاهدته لكريستين بين رفيقات العروس قد جعلته في مزاج غريب وهائج . . .وكذلك مشاهدته لإرلند ، عديله الجديد ، بين الرجال الذين رافقوه إلى العلية . ومع ذلك فإنه حين استيقظ في صباح اليوم التالي وكان مستلقياً ينظر إلى العروس التي كانت لا تزال نائمة إلى القرب منه ، فقد أحس بخجل مؤلم يمرّ في أعماق قلبه . . .كأنما هو قد أساء إلى طفلة صغيرة . . .

. . .رغم انه كان يعرف طوال الوقت انه كان قادراً على أن يوفر على نفسه كل هذا الأسى .

لقد ضحكت حين فتحت عينيها الواسعتين . "أنت ملكي الآن يا سايمون" . . .ضغطت بيديها على صدره ." أبي أبوك وأختي أختك" . . .وقد عرق من شدة الخوف ، فقد فكر كما يلي :ماذا لو أحست بقلبه في صدره وهو يجفل من كلماتها؟

وعدا ذلك كان هو سعيداً في زواجه . . .وكان متشبثاً به بقوة فقد كانت زوجته غنية ومن أسرة عريقة ، شابة ونضرة ، جميلة ولطيفة المعشر . ولقد ولدت له ابنة وابناً ، والرجل يقدر هذا تقديراً عالياً ، حين يعرف معنى أن يكون المرء غنياً إنما دون أطفال يحافظون على إرثه بعد أن يرحل الأبوان . طفلان . . .بمستقبل مضمون . . .وكان هو غنياً بما فيه الكفاية ليجد زوجاً ملائماً لأرنغييرد .

كان سيسعد لو رزق بابن ثان . . . أجل ما كان ليحزن لو أنه رزق بطفل آخر أو اثنين . ولكنه لاحظ أن رامبورغ كان سيسرها أن توفر هذه المشقة على نفسها . لذلك كان هذا من حسن الحظ أيضاً . وهو لم يكن قادراً على إنكار الأمر : فالمنزل سيكون في حال أفضل بكثير حين تكون رامبورغ في مزاج جيد . كان يتمنى لها بالفعل مزاجاً أفضل . لم يكن يعرف دائماً كيف هي الحال مع زوجته . ولم يكن من الخطأ أن تكون الأمور منظمة ضمن منزله ولكن لا يوجد رجل يستطيع أن يأمل بأن يكون كل شيء على ما يرام طوال الوقت . . . قال سايمون هذا لنفسه وكرره مراراً ، وهو في طريقه إلى بيته .

والآن كانت رامبورغ ستذهب إلى "كروكه" في الأسبوع السابق على قداس كلمنت (٢٣تشرين الثاني/نوفمبر) ، فقد كانت تنتعش دائماً حين تبتعد عن البيت بعض الوقت . . .

ولكن الرب كان يعرف كيف كانت الأمور ستجري هناك . . .في هذه المرة . كانت سيغريد تحمل طفلها الثامن الآن . . .وقد أصيب بالخوف حين زار أخته قبل فترة قصيرة وهو في طريقه إلى هنا . . .لم يبد عليها أنها تتمتع بالقوة على الاستمرار . . .

لقد منح أربع شموع سميكة لتوضع أمام صورة مريم العذراء العتيقة في "إيابو" . . .وكانت لها ميزة صنع العجائب النادرة كما يقول الناس . . .وقد تعهد بتقديم هدايا قيّمة لو خرجت سيغريد حية معافاة بعد هذه الولادة . فماذا سيحل بكل الأطفال لو توفيت أمهم وتركتهم . . .كلا . . . كان هذا أمراً يصعب قوله . . .

وكانا يعيشان في وئام سيغريد وغايرموند . لم يسبق لها أن سمعت كلمة غير لطيفة من زوجها ، كما قالت ، كما لم يسبق له أن تخلى عن شيء يمكنه أن يسبب لها السرور . وحين لاحظ أن سيغريد كانت تتأسى على الطفل الذي ولدته من غيافالد آرنسون ، فقد قام سايمون بإحضار الصبي حتى تراه أمه ويبقى إلى جوارها لبعض الوقت . ولكن الأسى والأمل المخدوع هو كل ما حصدته سيغريد من لقائها مع الفتى الصغير المدلل . وبعد ذلك تعلقت سيغريد أندرسداتر بزوجها والأطفال الذين ولدتهم له ، كما يتعلق خاطئ مريض مسكين بالكاهن والقربان المقدس .

لقد بدت سعيدة تماماً الآن نوعاً ما ، واستطاع سايمون فهم ذلك . . .فقد كان غايرموند نادراً بين الرجال في طيبته . وكان كلامه منغماً إلى حدّ أنه لو تكلم فحسب عن الحصان المصاب بمرض الحوافر والذي حاولوا غشه به ، لكان ذلك أقرب إلى الإصغاء إلى عزف القيثارة .

كان غايرموند قبيحاً عجيب الوجه ، ولكنه كان على الأقل ذا جسم وأطراف قوية وجميلة . وكان ماهراً في رمي السهام وصياداً نادر المثال ، ويتفوق على الجميع في كل أنواع الرياضة . ولكنه كان في الأعوام الثلاثة الماضية مقعداً ، منذ ذلك اليوم الذي وصل فيه زاحفاً عبر الوادي من رحلة صيد ، على يديه وركبة واحدة ، وهو يجر الساق الأخرى المحطمة من خلفه . والآن لا يستطيع عبور أرض الحجرة إلا بعكاز ، ولا يستطيع ركوب حصان ولا الزحف ولا تقديم يد المساعدة في أرجاء حقوله الجبلية شديدة الانحدار . كان سوء الطالع يلاحقه دائماً . وكان لهذا الرجل أساليبه الغريبة ، ولم يكن الرجل المناسب للعناية بمزرعته أو إدارة شؤون حياته . كان سهلاً على أي شخص أن يخدعه في معاملاته لو شاء ذلك . ولكنه كان ماهراً في استخدام يديه وعاملاً ماهراً في الخشب والحديد ، كما كان حكيماً ولطيفاً في الكلام . وحين كان هذا الرجل يضع القيثارة على ركبته ، كان قادراً على جعل الناس يضحكون أو يبكون كما يشاء وذلك بغنائه وعزفه . أجل ، كان ذلك أشبه بالإصغاء إلى الفارس الذي كان غايرموند يغني عنه ، والذي كان

بعزفه يجعل الأوراق تسقط عن أشجار الزيزفون والقرون عن رؤوس الحيوانات الحية .

ثم كان الأطفال يشاركون الأب غناءه ، الأطفال الأكبر سناً . . . وكان الإصغاء إليهم أجمل من سماع كل الأجراس تقرع في كنيسة هامار . كانت أصغر الأطفال سناً إلا واحداً واسمها "إنغا" قد تعلمت للتو المشي مستعينة بالمقعد ، ولم تكن تتكلم بعد ، ومع ذلك فهي تهمهم وتغني طوال النهار ، كان صوتها الصغير جميلاً وصافياً كجرس فضّي صغير . . .

كانوا يسكنون محتشدين معاً في منزل قديم صغير له غرفة موقد ، الزوج والزوجة والأطفال والخدم . أما العلية التي كان غايرموند يتكلم دائماً عن بنائها كل هذه السنوات فما كان يبدو عليه أنه سيشرع ببنائها . . . حتى أنه لم يبذل جهده لبناء حظيرة جديدة بدلاً من تلك التي احترقت قبل سنتين . إلا أن الوالدين ما كان قادرين على مفارقة أي من أولادهما العديدين . لقد عرض عليهما سايمون في كل مرة زارهما فيها في "كروكه" أن يأخذ بعض أولادهما ليطعمهم ، ولكن غايرموند وسيغريد شكراه ورفضا . . .

وعلى أي حال فربما كانت سيغريد هي الأفضل حالاً بين كل أخوته وأخواته ، كما كان سايمون يفكر أحياناً . صحيح أن غيرد قال إن أستريد كانت سعيدة تماماً مع زوجها الجديد ، حيث كانا يعيشان بعيداً في الجنوب في "رافيلكه" ، ولم يكن سايمون قد رآهما منذ زفافهما . ولكن أبناء تورغريم كانوا يتشاحنون كثيراً مع زوج أمهم ، كما قال غيرد . وكان غودموند سعيداً وراضياً تماماً . . .ولكن لو كانت هذه هي السعادة بالنسبة إلى رجل ، لاعتبر سايمون أنه ليس أمراً آثماً أن يشكر ربه لأن أباه لم يعش ليراها . . .فما أن توفي أندرس دار ، وحين بدا أن الوقت ملائم ، شرب غودموند نخب الزفاف مع الأرملة التي كان أبوه يرفض رفضاً باتاً زواجه منها . لقد اعتبر فارس "دايفرين" أنه إن لم تكن هناك

ثروة كبيرة وصلت إلى غيرد وإلى سايمون من زواجهما من فتاتين غنيتين وجميلتين ولهما محتد نبيل وسمعة نظيفة وهو الذي سعى إلى تدبير هذين الزواجين ، فإنه لن ينتظر غودموند سوى البؤس الكامل لو تركه أبوه يتزوج ذلك الزواج الخالي من الحكمة . كانت تورديس بيرغسداتر أكبر سناً بكثير من غودموند . كانت غنية لا مبالية ودون أولاد من زوجها الأول . ولكنها ولدت ابنة بعد ذلك حملت بها من أحد الكهنة في كنيسة في أوسلو ، ويقول الناس علاوة على ذلك إنها كانت تصادق رجالاً آخرين - وبينهم غودموند دار-حين تعرَّف إليها غودموند لأول مرة . كانت قبيحة كمخلوق خرافي ، قذرة الفم وخشنة الكلام ، كما لاحظ سايمون ، إلا أنها كانت سريعة البديهة وذكية وذات فهم جيد وفكاهة . . .كان من شأنه أن يحب تورديس جيداً ، كما عرف ذلك . . .لولا أنها تزوجت من أخيه . ولكن غودموند كان يبدو سعيداً حتى أنه أصبح بديناً وثقيلاً شأن سايمون نفسه . . .ولم تكن تلك طبيعة عودموند . ففي شبابه كان رشيقاً ووسيماً . لقد أضحى كسولاً وبليداً إلى حد كبير حتى أن سايمون كان يشعر بالرغبة في ضربه في كل مرة يراه فيها . لقد أضحى غودموند عجلاً ذاهلاً إن أردنا الحقيقة . . .وقد كان من حسن الحظ أن أولاده ورثوا العقل من أمهم والمظهر من أبيهم . . .ولكن غودموند كان يكسب وزناً زائداً كل يوم . . .

لذلك لم يكن هناك من داع له أن يزعج نفسه بسبب أخيه هذا ولم تكن هناك حاجة أيضاً إلى أن يحزن على غيرد . . .ولكنه كان في كل مرة يذهب فيها إلى ضيعة أبيه ويرى حال الأمور هناك ، كان يتضايق كثيراً إلى حد أنه كان يغادرها بقلب مثقل بالألم . . .

كانت أحوالهم مزدهرة جداً . . .ألم يكن أخو زوجة أخيه ، أولف ساكسسون مقرباً من الملك الآن؟ . . .وقد جرّ غيرد أندرسون معه إلى حلقة الرجال الذين يمسكون بأيديهم معظم السلطة والأرباح في البلاد . ولكن سايمون كان يكره هذا

الرجل . . .وأحس أن غيرد لم يكن يحبه أيضاً . كان غيرد أوف دايفرين دون إرادة ودون إحساس بالسعادة يسير في الطريق الذي ترسمه له زوجته وأخوها . . .وذلك ليكسب بعض الهدوء والسلام في البيت .

كانت هلغا ساكسسداتر مخلوقاً خرافياً . . .ولكن الاحتمال الأكبر أن ابني غيرد هما اللذان يجعلانه يبدو منهكاً من الحزن في هذه الأيام . كان ساكسه ، الأكبر في السادسة عشرة من عمره الآن . . .وفي كل ليلة كان على خادم هذا الجرو أن يجره إلى الفراش جراًّ وقد تعتعه السكر . لقد سبق واستنزف عقله وصحته بالشراب . . .وربما سيسكر حتى الموت قبل أن يصبح رجلاً . ولن تكون خسارة كبيرة . . .فلقد اكتسب ساكسه لنفسه سمعة سيئة في الريف ، رغم يفاعته ، على أنه شخص فظّ متعجرف ، وكان هذا هو المدلّل لدى أمه . كان غيرد يحب الابن الأصغر "يون" ، أكثر من الجميع : صحيح أنه يتمتع بذهن كان من شأنه أن يجعله رجلاً مشرفاً لأسرته ،لولا أنه كان . . .أجل ، كان سيئ الحظ نوعاً ما ، فقد كان كتفاه مرتفعين وظهره معوج . كما كان يعاني من مرض في المعدة . . .فهو لم يكن قادراً على هضم سوى عصيدة الحليب وكعك الشعير .

•

من خلال حبه لأقربائه كان سايمون أندرسون يجد دائماً نوعاً من الملجأ السري حين تبدو حياته له . . .خالية من الانسجام ، أو أياً تكن العبارة التي تطلق على ذلك . وإذا لم يحدث ما يدعو للإخفاق فقد كان الأمر أقل تأثيراً عليه لو استطاع أن يستذكر حظوظ أخوته وأخواته ورفاههم . ولو كانت الأمور في دايفرين كما هي في أيام أبيه - حين كان يخيم السلام والرضا والرفاه على الضيعة - لكان من شأن ذلك أن يعني الكثير ، كما فكر سايمون ليخفف من قلقه الخفي . كأنما كانت جذور حياته متشابكة مع جذور حياة أقربائه ، وذلك في مكان عميق في الأرض المعتمة . كل ضربة تصيب واحداً منهم وكل مرض يمصّ نقي عظام

أي منهم ، كان يحس به الجميع .

كان الأمر على هذا النحو بكل تأكيد بينه وبين غيرد . لم يعرف إن كان غيرد يشعر بذلك أيضاً . . .

هذا الأخ الأكبر-وسيغريد- كانا الأعز عليه من الجميع . . .تذكر نفسه وهو في سن اليفاعة :كان يجلس ويحدق إلى أخته الصغرى فيشعر بالسعادة إلى حد أنه يحس بوجوب أن يفعل شيئاً للتعبير عن ذلك . لذلك كان يبدأ بإزعاجها ومضايقتها ويشّد لهل ضفائرها ، ويقرصها من ذراعها ، فلم يكن يعرف أسلوباً آخر يعبّر فيه عن حبه دون أن يشعر بالخجل . كان لا بد من هذه المشاحنات بينهما ، وإلاّ لكان خجلاً إلى حد لا يستطيع معه أن يعطيها كل الطيبات التي كان يخبئها ، أو أن يجعل الفتاة الصغيرة تشاركه في ألعابه ، وذلك حين كان يبني الطواحين في الجدول والبيوت لها ، أو يصنع صفارات من خشب الصفصاف للفتيات في فصل الربيع . . .

كانت ذكرى اليوم الذي عرف فيه لأول مرة كل الحقيقة حول بلواها محفورة في ذاكرته كالوشم . وقد راح يراقب طوال الشتاء التالي سيغريد وهي تتأسى حتى الموت على خطيبها المتوفي . . .ولكنه لم يعد يرى المزيد . ثم جاء يوم من أيام الآحاد قبيل الربيع . . .وقف على الشرفة في ماندفيك ، وكان غاضباً لأن النساء تأخرن في القدوم . . .وهناك في الساحة كانت جياد مجهزة ومسرجة للكنيسة ، وكان الرجال قد انتظروا فترة طويلة . وأخيراً ثارت ثائرته ودخل إلى منزل النساء . كانت سيغريد لا تزال في الفراش . . .فسألها إن كانت مريضة . كانت زوجته جالسة على حافة السرير . . .مرّت رعشة على وجهها اللطيف الذاوي حين رفعت بصرها إليه :"إنها مريضة حقاً ، الطفلة المسكينة . . .ولكنها خائفة منك ومن كل أقربائها بالأحرى متسائلة كيف ستنظرون إلى الأمر . . ."

زعقت أخته عالياً ، ثم رمت بنفسها على حضن هالفريد ، وتشبثت بها ،

وشبكت ذراعيها النحيلين العاريين من حول زوجة أخيها . . . أثرت صيحتها في سايمون إلى حد كبير ، حتى أنه أحس بقلبه ينفطر . لقد تأثر كثيراً بحزنها وعارها إلى حد أنه لم يعد يحس بأي مشاعر . . . ثم جاء الخوف والتعرق . أبوهما . . . ما الذي سيفعله بسيغريد الآن . . .

كان خوفه كبيراً إلى حد أنه اندفع نحو بيته في "روماريكه" على طرقات غارقة في الوحل ، وقد بدأ الخادم الذي كان يرافقه ، دون أن يعرف شيئاً من المسألة ، بالتنكيت على اضطراره إلى الترجل مرات عدة . فرغم أنه كان رجلاً ناضجاً ومتزوجاً ، إلا أن الخوف كان قد تملكه بشدة بسبب لقائه المرتقب مع أبيه حتى أنه أصيب بالإسهال . . .

ولم يكن أبوه قد نطق بكلمة إلا بالكاد ... ولكنه كان منكمشاً على نفسه . . . وكأنما ضربته صاعقة . وكان يحدث أحياناً أن سايمون ، حين كان ينام ، كان يرى كل ما جرى مجدداً فيعود ليستيقظ . كان والده جالساً يتأرجح ، يتأرجح ، ورأسه متكئ على صدره . كان غيرد واقفاً إلى القرب منه ويده على ذراع الكرسي العالي ، ويبدو أكثر شحوباً من عادته وعيناه مسبلتان . . .

"الحمد لله أنها لم تكن هنا حين اتضح الأمر . . . على الأقل إنه أمر جيد أنها معك ومع هالفريد . . ." قال غيرد حين تركا لوحدهما .

كانت تلك أول مرة يسمع فيها سايمون غيرد يقول مثل هذا الكلام الذي يفهم منه أنه لم يكن يضع زوجته في مصاف يعلو على كل النساء الأخريات . . .

ولكنه رأى . . . كيف بدا غيرد وهو يذوي ويهزل منذ اليوم الذي تزوج فيه هلغا ساكسسداتر .

منذ أن عقدت خطوبتهما . . . أضحت كلمات غيرد قليلة . . . ولكنه كلما رأى عروسه ، كان يشع فرحاً إلى حد أن سايمون تأثر إلى حد غريب عند رؤيته . وكان قد شاهد هيلغا منذ زمن طويل كما حكى غيرد لسايمون – ولكنه لم يكن قد

تبادل معها الكلام- ولم يكن يعتقد أن أهلها سيمنحونه عروساً بهذا الغنى والجمال . . .

كان سايمون قد أحس أن وسامة غيرد دار في شبابه شرف له . كان أشقر الشعر مع فتنة تخصه لوحده . . . كأنما كان على الجميع أن يرى الطيبة والذكاء والقلب الشجاع والنبيل كامنة في هذا الشاب الوسيم الهادئ . ثم تزوج غيرد من هلغا ساكسسداتر . . . وبدا أن تلك كانت نهايته . . .

كان دائم الصمت . ولكن الأخوين كانا معاً باستمرار ، وكان سايمون قادراً على التكلم عن كليهما . كان سايمون ذرب اللسان ويعد شاباً موهوباً يتقن كل الأمور . . . يتقن الشراب والقصف ، والصيد والسباق ، وكل أنواع رياضة الشباب . كان لسايمون العديد من الأصدقاء ، وكلهم عزيز عليه وقريب منه . كان أخوه الأكبر يصاحبه . . . كان يقول القليل ولكنه يبدو ذا قيمة على أي حال . . .

أما غيرد أندرسن فكان صامتاً كصندوق مقفل . . .

في الصيف الذي وصل فيه سايمون إلى البيت وحكى لأبيه أن كريستين لافرانسداتر وهو قد اتفقا على أن إلغاء الصفقة التي بينهما أمر ضروري . . . كان سايمون يعرف آنذاك أن غيرد قد خمّن معظم ما هو كامن وراء المسألة : أن سايمون يحب خطيبته ، وأن سبباً قوياً قد جعله يتخلى عن حقه فيها . . . وأن السبب كان من النوع الذي جعل سايمون مثقل القلب بالحزن والغضب . وبهدوء شديد أشار غيرد على أبيه أن يتخلى عن الأمر . ولكنه لم ينبس ببنت شفة أمام سايمون بما عرفه . وقد أحس سايمون أنه لو كان قد أحب أخاه أكثر من أي وقت مضى فذلك قد جرى الآن بسبب صمته .

•

سيكون سايمون سعيداً جيد المزاج وهو في طريقه شمالاً نحو بيته . في الطريق قام بمهمة زيارة بيوت أصدقائه على الطريق الممتدة على امتداد "ديل" ،

وذلك ليحمل إليهم تحياته وليتناول بعض الشراب . . . وكان أصدقائه يسرجون أحصنتهم ويرافقونه إلى الضيعة التالية حيث يسكن أصدقاؤهم . وكانت الرحلة جيدة وسهلة في هذا الطقس الصافي والجليدي . . .

أما المسافة الأخيرة فقد قطعها في الغسق . كان مزاجه الجيد الناجم عن شرب الجعة قد زال كما كان رجاله شهوانيين وأصواتهم عالية . . . ولكن السيد بدا وكأنه استنفد الضحك والمزاح . . . لابدّ أنه متعب .

وهاهو قد وصل إلى بيته . راح أندرس يدرج خلف أبيه أنى وقف أو تحرك . أما أولفهيلد فتشبثت بحقائب السرج . . . هل جلب لها أي هدايا؟ حملت آرنغييرد إليه الجعة والطعام . جلست زوجته إلى جانبه وهو يأكل ، وثرثرت وسألته عن الأخبار . وحين ذهب الأطفال إلى الفراش ، وضع سايمون رامبورغ على ركبته ، وبينما كان يمسّد لها جسدها راح يحكي لها أخبار الأقرباء والأصدقاء .

كان أمراً مخجلاً يخلو من الرجولة لو أنه لم يشعر بالسعادة وهو الناجح في كل الأمور . . .

•

في اليوم التالي كان سايمون جالساً في قاعة سايموند حين دخلت آرنغييرد إليه وهي تحمل اللحم . ظن أنه لا بأس في أن يكلمها عن خطيبها وهما على انفراد ، وهكذا حكى لابنته عن حديثه مع جماعة "آيكن" .

أوه كلا ، ليست جميلة جداً ، هكذا فكر أبوها . . . رفع بصره إلى الفتاة الشابة وهي واقفه أمامه . كانت قصيرة وبدينة ولها وجه شاحب قصير خشن البشرة . أما شعرها الأصفر الرمادي فكان كثيفاً . وكان يتدلى على ظهرها في ضفيرتين كبيرتين ، ولكنه كان متناثراً فوق جبينها وفوق عينيها ، وكانت تدفعه إلى الخلف بيديها كإحدى عاداتها في كل لحظة .

قالت بهدوء بعد أن انتهت من الكلام : "فليكن الأمر كما تشاء يا أبي . "

"أجل ، أنت فتاة صالحة ، كما أعرف ، ولكن ما رأيك بذلك شخصياً ؟"
" كلا ، أنا لا رأي لي . عليك أن تحكم بدلا عني يا أبي العزيز . "
"الأمر وما فيه يا آرنغييرد أنه سيسرني كثيراً أن تبقي حرة بضع سنوات أخرى . . . حرة من حمل الأطفال ومشاغل المنزل وآلامه . . . أي كل ما يحدث للنساء حين يتزوجن في البداية . ولكني فكرت أنك قد تريدين منزلك الخاص بك وأن تكوني سيدة نفسك . . . ؟"
قالت الفتاة وهي تبتسم قليلاً : " لست في عجلة من أمري" .
"تعرفين أنك لو تزوجت في آيكن لكان أقرباؤك كلهم قريبين منك . . . يكون المرء دون سند لو كان دون أخ يقف من خلفه . . ." رأى شعاعاً صغيراً في عيني آرنغييرد وابتسامتها المختلسة . "أعني غيرد عمك" قال بسرعة وببعض الارتباك .
"أجل ، لقد عرفت جيداً أنك لم تكن تعني نسيبتي هيلغا . . ." وضحكا كلاهما .
شعر سايمون بالدفء يغمر قلبه . . . في شكره للرب ومريم العذراء ، وهالفريد التي سمحت له أن يحتفظ بابنته هذه ، وحين كان يصدف أن يضحكا معاً على هذا النحو ، هو وآرنغييرد ، لم يكن في حاجة إلى أي برهان آخر على أنها ابنته حقاً .
نهض ونفض بعض الدقيق الذي كان على كمه وسألها : "وماذا عن خاطب ودك . . . ما رأيك بالرجل ؟"
"أوه ، أودّه رغم القليل الذي رأيته منه . . . والأفضل ألاّ يصغي المرء إلى كل ما يقال ولكن عليك أن تحكم بدلاً عني في هذا الأمر يا أبي . . ."
"إذاً فليكن الأمر كما قلت . يستطيع آسموند وغرونده الانتظار قليلاً . . . فلنر إن كانا لا يزالان يحملان الرأي نفسه حين تصبحين أكبر سناً نوعاً ما . . . أما

فيما يخص البقية ، فأنت تعرفين يا ابنتي أنك تملكين حرية الاختيار بنفسك فيما يخص الرجل الذي ستتزوجينه ، طالما كان لديك الذكاء الكافي لتعرفي صالحك . ولا ينقصك الذكاء يا آرنغييرد ."

وضع ذراعيه من حولها . احمرّ وجهها حين قبّلها أبوها . . . وفكر سايمون أنه لم يقبلها منذ زمن بعيد . لم يكن هو على الأغلب رجلاً يخشى من مداعبة زوجته في نور النهار أو العبث مع أطفاله . ولكن كان الأمر دائماً أشبه باللعب . . . وآرنغييرد . . . لقد طرأ على فكره فجأة أن هذه الابنة الشابة هنا في فورمو كانت الشخص الوحيد الذي يكلمه جدياً بين الحين والآخر . . .

●

مضى وجذب السدادة من الشق في السور الجنوبي . عبر الثقب الصغير حدق عبر "الديل" .كانت هناك ريح جنوبية في الجو ، وإلى الأسفل ، حيث تتقابل الجبال كانت غيوم رمادية كبيرة تتدحرج . وحين اخترق شعاع من نور الشمس عبرها ، التمعت كل الألوان بغنى ووضوح . كان الطقس اللطيف قد أذاب الجليد الرمادي الشاحب . . . الأراضي المفلوحة بنية اللون وغابات التنوب سوداء زرقاء . . . وإلى الأعلى وبعيداً على امتداد جباه الجبال الخالية من الأشجار ، بدا اللون ذهبياً أصفر بعد أن كسته الطحالب والأشنات .

أحس سايمون وكأن هناك ميزة رائعة يكمن استمدادها من الريح الخريفية هناك والوميض المتقطع فوق الريف . لو كان المطر سيهطل بقوة في عيد جميع القديسين فإن الجداول قد يكون فيها ماء كاف للطواحين ، على الأقل في عيد الميلاد : وسيكون أمراً يستحق إرسال الرجال إلى الجبال لجمع الطحالب . ولكن الخريف كان حتى الآن جافاً جداً . . . ونهر "لاغن" يجري منكمشاً وصغيراً بين تعرجات من الحصى الأصفر والحجارة البيضاء .

هنا ، شمال الأبرشية ، كانت الطواحين موجودة فقط في يورونغارد ومزرعة

الكاهن . كان يكره أن يطلب الإذن بالطحن في يورونداغارد لولا أن كل الأبرشية كانت تذهب إلى هناك بقمحها . أما سيرا آيريك فكان من يقبض أجرة الطحن . وقد ظن الناس علاوة على ذلك أنه يعرف جيداً القمح الذي في حوزتهم . . . كان شديد الطمع في أعشارهم . ولكن لافرانس كان يدع الناس دائماً يطحنون قمحهم مجاناً وكريستين ستفعل كما كان يفعل . . .

إن أقل تفكير فيها يجعله يشعر برجفة وغثيان في قلبه . . .

وقد كان من عادته في اليوم السابق على "عيد قداس سايمون وجود" أن يذهب إلى الاعتراف . كان يريد أن يحادث نفسه وأن يصوم ويصلي ، لذلك جلس هناك في قاعة سايموند اليوم بينما كان خدم المنزل يدرسون القمح في مخزن القمح .

لم يستغرق تذكره لخطاياه الكثير من الوقت . . . لقد مارس الشتم ، وحكى حكايات لا تصدق لأشخاص سألوا عن أمور لاتهمهم ، وكان هناك حيوان الرنة الذي اصطاده بعد فترة من رؤيته لشمس اليوم المقدس ، كما مارس الصيد صباح الأحد بينما كان الناس في الأبرشية يحضرون القداس . . .

أما ما حدث مؤخراً خلال مرض الصبي فلم يكن ليذكره أو يجرؤ على ذكره . ولكنها كانت المرة الأولى في حياته التي أبقى فيها خطيئة طيّ الكتمان عن كاهن أبرشيته . لقد فكر ملياً في الأمر ، وكان هذا يثقل على قلبه . لابد أنها خطيئة قاتلة . . . سواء مارس هو السحر أو أغوى غيره على ممارسته . . .

كما أنه لم يجد في قلبه دافعاً يدفعه إلى الندم . . . فلولا ذلك لكان ابنه الآن تحت التراب . ولكنه كان طوال الوقت حزيناً وخائفاً . . . ويختلس النظر إلى الصبي ليرى إن طرأت عليه أي تغيرات منذ تلك الليلة . ولم يعتبر أنه استطاع أن يرى أي شيء . . .

كان يعرف أن ذلك يحدث للكثير من الطيور والحيوانات البرية . . . لو لمست

يد إنسان بيوضها أوصغارها ، فإن الأبوين لا يعودان يهتمان بها ، بل يبتعدان عن صغارهما . فالإنسان الذي أسبغ الله عليه نور العقل لا يستطيع أن يفعل الشيء نفسه . . . فقد أصبح الآن غير قادر حين يمسك بالطفل بين ذراعيه أن يدعه يفلت منه لأنه أصبح شديد الخوف على أندرس . ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يفهم كيف أن الأشخاص القساة الهمجيين الذين لا يعملون تفكيرهم يكرهون أولادهم ما أن "يُلمسوا" . وقد شعر هو أيضاً وكأن طفله كان قد تلوث نوعاً ما . . .

ومع ذلك فهو غير نادم . . . وهو لم يكن يتمنى لو أن ذاك الشيء لم يحدث . ولكنه تمنى لو كان من فعل ذلك امرأة أخرى غير كريستين . . . كان أمراً صعباً عليه من كل النواحي أن يكون هؤلاء الناس يعيشون في الأبرشية . . .

. . . دخلت آرنغييرد لتسأله عن أحد المفاتيح . لا تعتقد رامبورغ أنها استردته منذ أن استخدمه زوجها .

كانت إدارة المنزل في ضيعته تتراجع كل يوم . . . تذكر سايمون أنه أعاد المفتاح إلى زوجته ، وكان ذلك قبل أن ينطلق جنوباً أيضاً . . . "أجل ، إذاً سأجده حتماً" قالت آرنغييرد .

كانت لها ابتسامة جميلة - وعينان حكيمتان -ولم تكن قبيحة إطلاقاً كما فكر . كان شعرها جميلاً ، وحين كانت تتركه مسدلاً في الأيام المقدسة والأعياد فهو كثيف ولامع .

كانت ابنة إرلند غير الشرعية جميلة بما فيه الكفاية . . . ولم تكن نتيجة ذلك سوى الحظ العاثر . . .

ولكن إرلند رزق بتلك الفتاة من معاشرة امرأة جميلة من عائلة جيدة . لكأن إرلند لم يكن من النوع الذي قد يهتم بفتاة شأن أم آرنغييرد . كان يتصرف بعنجهية في هذه الدنيا كلها . . . وحيث يمضي كانت النساء والعذارى الفخورات الجميلات يقفن في الصف ليعرضن عليه الحب والمغامرة . . .

كانت هذه خطيئته الوحيدة من ذلك النوع - أعماله العبثية الصبيانية وهو في قصر الملك غير محسوبة - فالمزيد من اللطف فيما يتعلق بتلك الخطيئة لم يكن أمراً في غير مكانه ، لو كان عليه فعلاً أن يخطىء في حق زوجه الطيبة النبيلة . لكأنه لم ينظر كثيراً إلى المرأة المسماة "يورون" . . . وهو لم يكن قادراً على أن يتذكر كيف أنه كان أول من عاملها بحرية . كان في الخارج في ذلك الشتاء ويمارس اللهو مع الأصدقاء والمعارف ، وحين عاد إلى ضيعة زوجته ، كانت الفتاة تلك تجلس هناك لتضمن أن يذهب معها إلى الفراش دون إحراق المكان .

لم تكن تلك المغامرة أروع من ذلك .

إنه لم يستحق أن تكون الطفلة واعدة إلى هذا الحد وأن تجلب له كل هذه السعادة . . . ولكن ليس عليه أن يفكر في مثل هذه الأفكار الآن . . . عليه أن يفكر في اعترافه . . .

•

حين اتخذ سايمون طريقه نحو البيت من رومونداغارد في الغسق ، كان مطر ناعم قد أخذ بالهطول . سار على نحو مائل عبر الحقول . في آخر ومضات باهتة لنور النهار كانت الخزامى تلتمع شاحبة ورطبة . عند جدار الحمام القديم كان شيء صغير وأبيض يلتمع على المنحدر . مضى سايمون إلى هناك وألقى نظرة . كانت تلك شظايا الوعاء الفرنسي الذي انكسر في ذلك اليوم من أيام الربيع . . . كان الأطفال قد نصبوا المائدة على لوح موضوع على حجرين . مدّ سايمون فأسه وجعل كل شيء يهوي إلى الضفة . كان غاضباً من نفسه في اللحظة التالية . ولكنه لم يكترث حين تذكر تلك الأمسية .

وحتى يعوض عن عدم الاعتراف بخطيئته ، فقد ذكر هذه الأحلام لسيرا آيريك . أجل ، ولأنه شعر بالحاجة لأن يفرّج عن قلبه . وقف مستعداً للذهاب حين خطر له فجأة أن عليه أن يتحدث عن هذا الأمر . وكان هذا الكاهن العجوز

نصف الأعمى أباه الروحي هذه السنوات الاثنتي عشرة ونيّف . . .

لذلك عاد وركع مجدداً عند ركبتي سيرا آيريك .

جلس الكاهن دون حراك حتى قال سايمون ما يريد قوله ثم تكلم - جاء صوته القوي عجوزاً ومحجوباً الآن عن الغسق الأبدي . . . لم تكن تلك خطيئة . على كل عضو قديم في الكنيسة أن يختبر نفسه في المعركة مع العدو . لذلك فإن الرب سمح للشيطان أن يزعج رجلاً ذا إغواءات عديدة طالما لم يلق الرجل بأسلحته - طالما أنه لم يتخل عن راية ربه ، ولا استسلم وهو مفتوح العينين وليس في السر إلى العدو ، إلى رؤى تحاول روح نجسة أن تخدعه بها . . . طالما لم تكن هذه التحريضات خطيئة . . .

"كلا !" كان سايمون خجلاً من صوته .

.لم يستسلم قط . كانت تعذبه وتعذبه وتعذبه . حين استيقظ ، وبعد أن حلم كل هذه الأحلام المترعة بالخطيئة أحس بنفسه وكأنه أوذي وهو نائم .

●

كان حصانان غريبان مربوطين إلى الحاجز حين دخل إلى الباحة :"سوتن" حصان إرلند نيكولاوسون وحصان ركوب كريستين . صرخ على السائس سائلاً عن السبب في عدم إدخالهما إلى الاصطبل؟ لقد قال الغريبان إنه ليس ضرورياً كما أجب السائس بتجهم .كان هذا الشاب قد دخل مؤخرا في خدمة سايمون بعد عودة هذا إلى بيته ، وكان قد خدم في دايفرين سابقاً . هناك كان على كل الأمور أن تسير بأسلوب الفرسان . وكان لهلغا يد في ذلك . ولكن لو اعتبر سيغورد الفظ ذاك - أنه بسبب كون سايمون من النوع الذي يحادث خدمه بمرح ويمازحهم ، ويتحمل أحياناً جواباً وقحاً من أحدهم- فهنا في فورمو يمكن لأي شخص أن يرد على سيد المنزل كما يشاء ، ولا بد أن الشيطان كامن وراء ذلك . كان سايمون قد بدأ يقرّع الرجل بشدة ، إلا أنه توقف عن ذلك . أولم يحضر الآن لتوه من الاعتراف؟ سيكون على "يون دالك" أن يتعامل مع هذا القادم الجديد ويعلمه أن

التربية الريفية الجيدة ليست أقل قدراً من الأساليب الراقية المتبعة في دايفرين . . .

لذلك فإنه سأل فحسب وبرقة إن كان سيغورد قد خرج من الجبل هذا العام ، ثم أمره أن يضع الحصانين في الإسطبل . ولكنه كان غاضباً .

•

كان أول ما رأته عيناه وهو يدخل القاعة وجه إرلند الضاحك . . .النور من الشمعة الموضوعة على المائدة كان يسقط مباشرة عليه ، حيث كان جالساً على المقعد الطويل وهو يبعد عنه أولفهيلد التي كانت تركع إلى القرب منه محاولة أن تخرمشه أو شيئاً من هذا القبيل . . .كانت قد وجهت أظافرها نحو وجه الرجل وهي تضحك حتى أصيبت بالفواق . . .قفز إرلند وكان يريد إبعاد الطفلة عنه ، ولكنها تشبثت بكم معطفه وتعلقت بذراعه وهو يسير مستقيماً خفيف القدمين نحو عديله ليحّييه . كانت ما تزال مستثارة من شيء ما : لم يستطع إرلند وسايمون الكلام إلا بصعوبة .

أمرها أبوه بالصمت بقسوة نوعاً ما ، وأن ترافق الخادمات إلى المطبخ . . .كن قد انتهين للتو من ترتيب المائدة . وحين ردت عليه الفتاة الصغيرة ، فقد أمسك بها من ذراعها وجذبها بعيداً عن إرلند .

" هيا إذاً . . . " أخذ إرلند كتلة من الزبيب من فمه وحشاها في فم الطفلة ." خذيها يا أولفهيلد ، يا ذات الوجنتين الزهريتين . ابنتك تلك يا عديلي " ، قال وهو يضحك ويتابع الطفلة بنظره " لن تكون مطيعة كأرنغييرد ."

لم يكن سايمون قادراً على منع نفسه من أن يحكي لزوجته عن قبول أرنغييرد لعرض الزواج . ولكن لم يكن في نيته أن يذكر الأمر أمام جماعة يوروندغارد . لم يكن ذلك دأب رامبورغ أيضاً . . .كان يعرف أنها لا تحب إرلند

كثيراً . لم يعجبه الأمر . . . لم يعجبه أن تتحدث رامبورغ عن هذه القضية ، ولم يعجبه أن تكون هي شديدة القلق ولا أن تكون أولفهيلد رغم كونها طفلة صغيرة ، شديدة التعلق بإرلند . . .شأن معظم النساء . . .

اتجه نحو كريستين وحيّاها . كانت تجلس في الزاوية قرب الموقد ، وأندرس في حضنها . كان الصبي قد أصبح متعلقاً بخالته منذ أن مرّضته في الخريف في فترة نقاهته بعد مرضه .

عرف سايمون أن لدى الزوجين مهمة له دون شك حتى يصل إرلند على هذا النحو . لم تكن من عادته القدوم إلى فورمو . لم يكن سايمون قادرا سوى على التفكير في أن إرلند قد ورط نفسه في مشكلة ليست بالسهلة . . .والحال على ما هي عليه بين العديلين . كان إرلند يبعد نفسه عن عديله بقدر ما يستطيع ، إلا أنهما كانا يتقابلان بقدر ما كان مطلوباً ، حتى لا يسري حديث عن انعدام الود بين القريبين في الريف . وحين كانا يتقابلان كانا أفضل صديقين . كان إرلند هادئاً ، وكان إرلند متحفظاً حين يكونان معاً ، ومع ذلك كان تصرفه حراً غير خجول .

بعد رفع الطعام عن المائدة ووضع الجعة ، تكلم إرلند :

"أعتقد أنك تتساءل عن سبب قدومنا يا سايمون . . .نحن هنا لندعوك أنت ورامبورغ إلى وليمة شرب جعة الزفاف معنا . . ."

"لاشك أنك تمزح ؟لا أعرف في ضيعتكم أحداً بلغ سنّ الزواج؟"

"إن الأمر يتعلق برجل يا عديلي . إنه أولف هالدورسون . . ."

ضرب سايمون على فخذه بقوة :

"كلا ، والآن سأسمع تالياً أن ثوري الفلاحة اللذين أملكهما سيلدان عجولاً في عيد الميلاد" .

" إياك أن تسمي أولف ثور فلاحة" ، قال إرلند ضاحكاً . يبدو أن الشر كامن في أن الرجل كان دائماً تواقاً إلى ذلك . . ."

صفّر سايمون بينما ضحك إرلند مجدداً وقال : " أجل ، يمكنك أن تصدق أني لم أثق بأذنيّ حين وصل اليوم أولاد هربراند من ميدالهايم ، وطالبوا بأن يتزوج أولف من أختهم ."

"هربراند رمبا . . .؟ ولكنهم مجرد فتيان . . .لا يمكن أن تكون أختهم في عمر أولف؟"

" عمرها عشرون عاماً . وأولف أقرب إلى الخمسين . أجل ." أصبح إرلند جدياً . " أنت تفهم يا سايمون . . . لا بد أنهم يعرفون أن يارترود ليست كبيرة الحظ في الزواج . ولكن الزواج منه يعتبر الاختيار الأفضل بين خيارين سيئين . رغم أن أولف ابن فارس وغني . . . فليس عليه أن يبحث عن لقمة عيشه في منزل رجل آخر . ولكنه جاء معنا إذ يفضل السكن معنا نحن أقرباءه ، على أن يسكن في مزرعته في سكاون . . .بعد كل ما حدث . . ."

صمت إرلند قليلاً . بدا وجهه رقيقاً وجذاباً . ثم تكلم مجدداً :

" كريستين وأنا مصممان على إقامة هذا الزفاف وكأنه لأخينا . وسأذهب مع أولف جنوباً إلى ميدالهايم ، كما تعرف . والآن أفكر في الحصول على معروف منك يا عديلي . . . أعرف أني مدين لك بالكثير على نحو مسبق يا سايمون . ولكن أولف ليس محبوباً في هذا الريف . وأنت ذو مقام سام لدى الناس هنا حتى أن أندادك نادرون . . . بينما أنا . . ." هزّ كتفيه وضحك قليلاً . " هل لك أن تؤدي لنا هذه المعروف يا سايمون : أن تركب معنا وتكون ناطقاً باسم أولف . . . فهو وأنا صديقين منذ أن كنا صبيين صغيرين ،" قال إرلند بتوسل .

" سأفعل ذلك يا أخي !" كان وجه سايمون قد تضرج من كلام إرلند الصريح فأحس بالخجل والشفقة . " كل ما أستطيع فعله لأجل أولف هالدرسون سأفعله عن طيبة خاطر ."

كانت كريستين لا تزال جالسة في الزاوية مع أندرس . . .وكان الصبي يريد من خالته أن تخلع عنه ثيابه . وهاهي قد اقتربت من النور والطفل نصف عار على ذراعها وقد تشبث بها من عنقها .

"هذا لطف منك يا سايمون!" قالت كريستين بصوت خفيض وهي تمد يدها ."ونشكرك على ذلك كلنا . . ."

أمسك سايمون يدها بلين برهة قصيرة :

" كلا يا كريستين ، لطالما أحببت أولف . . . تأكدي أني أفعل هذا بسعادة . . ." مد يديه ليتناول ابنه ، ولكن أندرس تظاهر بالخجل ، ورفس أباه بقدمه الصغيرة العارية ، ضاحكاً ومتشبثاً بالمرأة .

أصغى سايمون إلى الاثنين وهو جالس يحادث إرلند عن شؤون أولف المالية . كانت قد اعترت الصبي نوبة من الضحك طوال الوقت . . .كانت تعرف الكثير من الأغاني الصغيرة وترانيم المهد ، وكانت تضحك معه وتهدل له برقة . ومرة ، حين نظر باتجاههما ، كانت قد ثنت أصابعها على شكل سلم ملتف ، وكانت أصابع أندرس أشخاص يتسلقانه . وأخيراً وضعته في مهده وجلست إلى القرب من رامبورغ . ثرثرت الأختان معاً وراحتا تتهامسان . . .

●

كان الأمر صحيحاً حقاً ، كما فكر حين اضطجع ذلك المساء . . .لقد أحب أولف هالدورسون على الدوام . منذ ذلك الشتاء في أوسلو حين كافحا معاً ليساعدا كريستين ، فقد شعر نوعاً ما أنه مرتبط مع ذلك الرجل بعرى الصداقة . لم يخطر في باله قط سوى أن أولف كان نداً له . . .ابن رجل عظيم . وأنه لم يكن يتمتع بوضع شرعي بين أسرة أبيه لأنه ولد من علاقة زنا وهذا ما كان يجعل سايمون أكثر انتباهاً في معاملته لأولف . . .ففي مكان ما عميق في قلبه كانت هناك صلاة لأجل صالح آرنغييرد ورفاهها . وإلا لما كانت له مصلحة في أن يتورط

في هذه المسألة ، فهذا رجل كهل سيتزوج من فتاة شابة . أجل ، حسناً ، لو كانت يارترود هربانسداتر قد أخطأت حين كانت في الاجتماع في الصيف الماضي ، فهذا لا يهمه . . .لم يكن من أقرباء هؤلاء الناس وأولف كان قريباً لحّاً لعديله .

ودون أن يطلب منها عرضت رامبورغ أن تساعد كريستين وأن تساهم في وليمة الزفاف . وقد اعتبر هذا التصرف كريماً منها . كان من دأب رامبورغ أن تظهر حسن التصرف الذي يليق بمنشئها . أجل ، حقاً! كانت رامبورغ لطيفة وكريمة . . .

- ٥ -

في اليوم اللاحق على عيد قداس كاترين أقام إرلند حفل زفاف قريبه بكل فخامة واعتزاز . اجتمع كثير من كبار القوم . . . وقد اهتم سايمون دار بذلك . كان له ولزوجته أصدقاء كثيرون في الأبرشيات المجاورة . وقد حضر كلا كاهني كنيسة أولاف ، كما بارك سيرا آيريك المنزل والسرير . . .وقد اعتبر هذا شرفاً لأن سيرا آيريك كان لا يتلو القداس الآن إلا في الأعياد المقدسة ، ويقدم الخدمات الروحية فقط لأولئك الذين كانوا يعترفون له منذ سنوات كثيرة . قرأ سايمون الصك المتعلق بهدية أولف الإضافية وهدية الصباحية للعروس . وتكلم إرلند بودّ مع قريبه عبر المائدة . وقامت رامبورغ لافرانسداتر مع أختها بدور المضيفة في الوليمة وساعدت العروس على خلع ملابسها في العلية .

ولكنه لم يكن حفل زفاف بهيجاً . فقد كانت العروس تنتمي إلى سلالة عريقة من مرشحي الفرسان في" ديل" ، ولم تعتبر أسرتها ولا جيرانها أنها قد تزوجت من الشخص المناسب لأن العريس غريب عن هذا الريف ، وكان يعمل في خدمة رجل آخر وإن يكن قريباً له . كما لم يكن في مولد أولف- وهو ابن لرجل غني وفارس ولكن أمه خادمة - ولا في قرابته لإرلند نيكولاوسون ما يعتبره آل هربراندسون شرفاً عظيماً لهم . . .

كما لم يبد أن العروس كانت مسرورة جداً بما أوصلته إليها المقادير . وقد بدا على كريستين الإحباط الشديد حين فاتحت سايمون بالأمر . . .فقد كان في مهمة إلى يوروندغارد بعد أسابيع قليلة من الزفاف . كانت يارترود تلح على زوجها بأن ينتقلا إلى ضيعته في سكاون . . . وقد قالت تحت سمع كريستين وهي تبكي بحرارة إنها ستعتبر أن أسوأ ما يمكن أن يحلّ بها هو أن يشار إلى ولدها مستقبلاً بأنه ابن خادم . لم يرد أولف على ذلك بشيء . كان العروسان يقطنان في المبنى المسمى منزل الوكيل منذ أن سكن فيه يون آينارسون قبل أن يشتري لافرانس كل أرض لاوغاربرو ويجعله ينتقل إليه . ولكن هذا الاسم لم يرق ليارترود . . .وكانت غاضبة لأن عليها أن تحتفظ ببقراتها في حظيرة كريستين . . .فكانت تخشى على ما يبدو أن الناس قد يحسبونها خادمة كريستين . وقد اعتبرت السيدة هذه المسألة معقولة . . .لا بدّ من بناء حظيرة لمنزل الوكيل إن كان من شأن ذلك ألاّ يجعل أولف يرحل إلى سكاون مع زوجته . وربما كان ذلك هو الحل الأفضل . . .لم يعد شاباً ، لذلك سيجد من الصعب عليه تغيير طريقة حياته . وربما سيكون الأمر أسهل عليه في مكان جديد . . .

وقد رأى سايمون أنها على حق في هذا . فقد كان أولف غير محبوب في الريف ، ولم يكن هو يخفي احتقاره لـ "ديل" وكل أساليبها . لقد كان مزارعاً جيداً دؤوباً ، إلا أن هناك أموراً كثيرة في هذا الجزء من البلاد لم يكن هو ماهراً فيها : فقد كان يربي من القطعان في الخريف أكثر مما يستطيع إطعامه خلال الشتاء . . .وحين كانت الحيوانات تسقط ميتة ، أوحين كان يضطر في الربيع إلى قتل ما تبقى من الحيوانات نصف الميتة من الجوع ، فقد كان يغضب ، وكان يضع اللوم على عدم خبرته في أساليب الزراعة في هذا الريف حيث على الناس أن يبدؤوا منذ عيد قداس بولص (٥١ كانون الثاني/يناير) بتقشير لحاء الشجر لإطعام حيواناتهم .

وكان هناك أمر آخر : في تروندهايم كانت العادة الجارية بين الإقطاعي والمزارع المستأجر هو أن يأخذ الإقطاعي مقابل الإيجار البضائع التي هو بحاجة إليها كالتبن والجلود والجريش والزبدة أو الصوف حتى لو كان اتفق معه عند إبرام عقد الإيجار على سلعة خاصة أو مبلغ من المال . وعلاوة على ذلك ، فقد كان الإقطاعي أو وكلاؤه هم من يحدد قيمة البضاعة التي تدفع مقابل الإيجار ، وذلك حسب ما يرونه مناسباً لهم . ولكن حين وصل أولف ليعامل مستأجري كريستين بهذه الطريقة ، سمى الناس هذه الطريقة بالاعتباطية وغير القانونية إلى حد كبير -وقد كانت كذلك حقاً-وقد تشكى المزارعون المستأجرون للسيدة . وقد طلبت كريستين من أولف أن يتصرف على النحو الصحيح ما أن سمعت بالقصة ، ولكن سايمون كان يعرف جيداً أن الناس كانوا لا يلومون أولف وحده ، بل يلومون أيضاً كريستين لافرانسداتر . كان قد كافح لتوضيح الأمر كلما أُثيرت القضية ، قائلاً إن السيدة لم تكن تعرف شيئاً عن مطالبات أولف ، وأنه في المنطقة التي جاء منها ذلك الرجل كانت هذه الأمور متعارفاً عليها . ولكن سايمون كان يخشى ألاّ يفيد هذا كثيراً . . . رغم أنه لم يناقضه أحد وجهاً لوجه .

لذلك فإنه لم يكن يعرف إلا بالكاد إن كان عليه أن يتمنى أن يبقى أولف أو يرحل . كيف ستجري أمورها دون هذا المساعد القوي والمخلص : أمر لم يستطع أن يفكر فيه . كان إرلند غير جدير بتوجيه أمور المزرعة ، وكان أبناؤهما صغاراً بعد . ولكن أولف كان قد أثار حفيظة وسكان الأبرشية . . .والآن فوق هذا كله فقد أساء إلى عذراء شابة ذات منشأ محترم وغني هنا في "ديل" . ومع ذلك ، فالله يعرف أن على كريستين أن تعمل بكد حتى والحال على ما هي عليه الآن . . .

ومن ناحية أخرى كان سكان يوروندغارد غير مرتاحين هنا . فلم يكن إرلند محبوباً أكثر من أولف في هذا المكان . فقد أثار مساعد إرلند وقريبه حفيظة الناس بأساليبه المتعجرفة ، كما كان من شأن تساهل

السيد وكسله أن يكونا أكثر مدعاة للغضب . لا شك أنه لم يكن قد خطر لإرلند نيكولاوسون أنه كان يثير الناس ضده . . . لم يكن يبدو عليه أنه يفكر سوى أنه كان -سواء غنياً أو فقيراً- ما كان عليه فحسب ، ولم يكن يحلم أنه لأجل ذلك يمكن أن يدعوه شخص بالمتعجرف . لقد خطط لإثارة تمرد ضد الملك - وهو شخصياً من أقارب وتابعي الملك ماغنوس وكان قد أقسم يمين الولاء له- وهذه الخطط لم تصل إلى نتيجة بسبب حماقته وطيشه . . .ومع ذلك لم يبد أنه قد فكر قط أنه من وجهة نظر أي شخص ، وبسبب هذه الأمور ، فقد يطلق عليه لقب "شرير" ، هذا ولم يلاحظ سايمون أن إرلند فكر في ذلك إطلاقاً . . .

لم يكن من السهل فهمه :حين يجلس المرء ليحادثه ، فقد كان بعيداً عن أن يكون خالياً من الحكمة ، هكذا فكر سايمون . ولكن كأنما لم يكن يخطر في باله أن يأخذ جدياً بالأمور الحكيمة والقيّمة التي كان يتلفظ بها غالباً . كما لم يكن ممكناً أن نتذكر أن هذا الرجل سيكون عجوزاً عما قريب . . .وكان من شأنه أن يكون له أحفاد كبار الآن . وحين يلاحظه المرء عن كثب ، فقد كان واضحاً أن وجهه قد حفرته التجاعيد كما كان شعره قد وخطه الشيب . . .ومع ذلك فقد كان هو ونيكولاوس أقرب إلى أن يكونا أخوين من أن يكونا أباً وأبناً . كان مستقيم القد ورشيقاً كما كان حين شاهده سايمون لأول مرة ، كما كان صوته شاباً ومتناغماً . كان يتصرف بين الناس بحرية وثقة بالنفس كما كان شأنه دائماً ، مع تلك اللفتة الكسولة في حركاته . مع الغرباء كان يحافظ على الهدوء والاستكانة . . .كان يترك الآخرين يأتون إليه ولا ينشد صحبة الآخرين ، سواء كان ذلك في السراء أو في الضراء . ولكن لم يكن إرلند يلاحظ أنه لم يعد هناك من ينشد رفقته . كما أن عصبة المرشحين لرتبة فارس وملاك الأراضي الكبار في كل أرجاء "ديل" ، والتي كانت متحالفة على نحو وثيق بالزواج وبالصداقة ، كانت غاضبة من هذا

الزعيم القادم من تروندهايم والذي رماه سوء الحظ بينهم ، وكان لا يزال يعتبر نفسه أرقى مرتبة منهم من حيث نسبه وسلوكه بحيث أنه لن يسعى إلى أن ينشد صحبتهم .

ولكن الحقيقة أن ما أساء إلى سمعة إرلند نيكولاوسون كان أنه جرّ معه رجال "سوندبو" إلى سوء الحظ ، فقد كان غوتورم وبورغار تروندسون مدانين بالخروج عن القانون في النرويج وكانت حصصهما في ضياع غييسلينغ العظيمة وكذلك حصتهما البالغة نصف الأملاك قد صودرت من قبل التاج . كان على إيفار أوف سوندبو أن يشتري العفو من الملك ماغنوس . وحين أعطى الملك الآن الضيع المصادرة-ليس دون ثمن كما يقول الناس- إلى السير سيغورد إرلندسون إلدريان ، فإن إيفار وهافارد ، أصغر أبناء ترونـد اللذين لم يكونا يعرفان بخيانة أخيه ، قد باعا حصصهما في ضيع "فاغه" إلى السير سيغورد الذي كان قريبهما وقريب بنتي لافرانس : فقد كانت أمه غودرون إيفارسداتر أختاً لتروند غييسلنغ وراغنفريد أوف يوروندغارد . وقد انتقل إيفار غييسلنغ إلى رنغهايم في توتن ، وهي ضيعة امتلكها مع زوجته . وكان من المحتمل أن يجد أولاده بيتاً لهم هناك حيث أقارب أمهم وأراضيها الإرثية . كان هافارد لازال يملك الكثير من الأراضي ، ولكن كان معظمها في فالدرس ، والآن وبسبب الزواج كانت ضيع عظيمة في بورغسيسل قد أصبحت ملكه . أما بالنسبة لرجال فاغه ورجال "الديل" الشمالي ، فقد بدا أنها محنة كبرى بأن يفترق نسل البارونات الكبار عن سوندبو ، حيث عاش آباؤهم وحكموا الريف منذ غابر الأيام .

لفترة قصيرة بقيت سوندبو بين يدي بارون الملك هاكون هاكونسون المخلص المسمى إرلند الديارن أوف غودالاند في أغدر . . لم يكن آل غييسلينغ قط أصدقاء حميمين للملك" سفير" ونسله ، وكانوا قد انضووا تحت لواء الدوق سكوله حين تمرد على الملك هاكون ، ولكن إيفار الشاب استعاد سوندبو بمقايضة

أراض مع إرلند إلديارن وتزويج كبرى بناته السماة غودورن له . إلا أنّ ابن إيفار المسمى تروند لم يشرّف أسرته قط وبأي حال من الأحوال ، إلاّ أن أبناءه الأربعة كانوا وسيمين ومحبوبين وشجعان وقد حزن الناس حين فقد هؤلاء بيتهم .

وقبل أن يغادر إيفار "ديل" حلت مصيبة أثارت المزيد من الحزن والغضب بين الناس على مصير آل غييسلنغ البائس . كان غوتورم أعزب ، ولكن حين هرب بورغار ، فإن زوجته الشابة بقيت في سونبو . وكانت داغني بيارنسداتر هذه ضعيفة المدارك نوعاً ما ، وكانت قد أظهرت أن حبها لزوجها يفوق كل التصورات . كان بورغار تروندسون شاباً وسيماً ، وإن يكن يحيا حياة متحررة . وفي الشتاء اللاحق لهربه من البلاد ، سقطت داغني في حفرة ضمن الجليد على بحيرة "فاغه" . قال الناس إنه سوء الحظ ، لكنهم كانوا يعرفون جيداً أن الحزن والشوق قد جردا داغني من تلك البقية الباقية من العقل التي كان لديها ، وأشفق الرجال من كل قلوبهم على هذه المرأة الشابة البسيطة العذبة التي ماتت هذه الميتة البشعة . وبعد ذلك ثار المزيد من غضب الناس على إرلند نيكولاوسون الذي جلب كل هذه المآسي على أفضل الناس في الأبرشية . وكانت الناس تحكي الآن عن كيفية تصرفه في تلك الأيام حين كان سيتزوج ابنة لافرانس لاغماندسون . . .أجل وقد كانت هي أيضاً من آل غييسلنغ من جهة أمها . . .

لم يكن سيد" سوندبو" الجديد محبوباً ، رغم أنه لم يكن هناك ما يقال ضد سيغورد نفسه . إلاّ أنه كان غريباً قادماً من "إيدج" وكان أبوه إلديارن قد أوجد لنفسه أعداء بين كل سكان الريف الذين تعاملوا معه . لم يكن قد سبق لكريستين ورامبورغ أن قابلتا ابن خالهما ذاك . كان سايمون يعرف السير سيغورد في راوماريكه . . . فقد كان قريباً لعائلة هافتورسون وكانوا من أقرباء زوجة"غيرد دار" . ولكن رغم تشابك كل هذه الأمور الآن ، كان آل تروندسون أصدقاءه الأعزاء . كما كان من عادة رامبورغ وزوجتي إيفار وبورغار الذهاب كل عام لتبادل

الزيارات . كما كان السير سيغورد إرلندسون أيضاً أكبر سناً بكثير من سايمون أندرسون . . . إذ كان قد أصبح في الستين من عمره .

•

لذلك بدا الأمر لسايمون دار وكأن الأمور قد تشابكت كثيراً مع قدوم إرلند وكريستين للسكن في يورونداغارد ، حتى رغم أن زواج وكيل مزرعتهم لم يكن ممكناً اعتباره مسألة هامة ، إلا أنه كان كافياً لجعل الأمور تتدهور نحو الأسوأ . ولم يكن من عادته في الأحايين الأخرى أن يزعج زوجته الشابة بأي مسألة إلا إذا كانت قد أقلقته كثيراً أو أغضبته . ولكنه لم يستطع الآن أن يمنع نفسه من أن يحادث رامبورغ عن هذه الأمور . وقد كان في ذلك مدعاة للتفاؤل والفرح أن يرى كيف أنها تكلمت عن المسألة بتفهم ، وكيف أنها حاولت بإرادة طيبة أن تفعل ما بوسعها لتقديم يد العون .

كانت قد أصبحت تزور أختها في يورونداغارد مرات أكثر بكثير من عادتها ، وكانت قد خلعت عنها ذلك الوجه الكئيب الذي كانت تعطيه لإرلند . في يوم عيد الميلاد حين التقوا على مرج الكنيسة بعد القداس ، لم تقبل رامبورغ كريستين فحسب بل وزوجها أيضاً . وكان من عادتها أن تتهكم بشدة على عاداته الأجنبية هذه . . .لأنه اعتاد تقبيل حماته كلما كان يحييها وما شابه .

وقد خطر لسايمون حين شاهد رامبورغ تضع يديها من حول عنق إرلند أن يقوم بالشيء نفسه مع أخت زوجته . ولكنه شعر أنه لن يستطيع ذلك . وعلاوة على ذلك ، لم يكن قد سبق له ومارس عادة تقبيل قريباته . . .وكانت أمه وأخواته يضحكن منه كثيراً لو عرض أن يحاول ذلك معهن كلما عاد إلى البيت حين كان يعمل وصيفاً في الحرس الملكي الخاص .

في وليمة عيد الميلاد وضعت رامبورغ زوجة أولف هالدورسون الشابة في كرسي عال ومشرف ، وأبدت لها وله كل التشريفات التي تليق بعروس وعريس .

وقد ذهبت إلى يورودغارد وكانت مع يارترود حين ولدت طفلها .

وقد جرى هذا بعد شهر من عيد الميلاد -وقبل شهرين من الموعد المرتقب- ولكن الصبي ولد ميتاً . حزنت يارترود بمرارة : لو عرفت أن الأمور ستجري على هذا النحو لما كانت تزوجت من أولف . ولكن ما جرى قد جرى وسبق السيف العذل .

ولم يكن هناك من يعرف كيف فكر أولف هالدورسون بالمسألة . . .فهو لم يقل شيئاً .

وفي الأسبوع السابق على منتصف فترة الصوم ركب إرلند نيكولاوسون وسايمون أندرسون معاً باتجاه الجنوب إلى "كفام" . فقبل أن يموت ببضع سنوات اشترى لافرانس ، مع مزارعين آخرين ، مزرعة صغيرة في تلك الأيرشية . وكان الملاّك الأحرار راغبين في شرائها مجدداً ، ولكن لم يكن واضحاً رأي القانون في تلك المسألة في ذلك الريف ، ولا إلى أي حد طالب فيه البائعون بحقوقهم قانونياً . بعد وفاة لافرانس وحين وزعت أملاكه بين ورثته ، فإن هذه المزرعة وممتلكات صغيرة أخرى ، وهذه كان حق ملكيتها خاضعاً لقضايا في المحاكم ، قد تركت دون توزيع على الورثة ، وكانت الأختان تتقاسمان فيما بينهما العائدات . لذلك ذهب كلا صهري لافرانس إلى الاجتماع نيابة عن زوجتيهما .

اجتمع عدد كبير من الناس ، وبما أن زوجة المستأجر وأطفاله كانوا طريحي الفراش في المنزل من المرض ، فقد عقد الرجال اجتماعهم في كوخ قديم في المزرعة . كان متصدعاً يرشح منه ماء المطر لذلك أبقى الرجال معاطفهم الفرو عليهم . كان كل رجل يحتفظ بأسلحته قريباً منه ، وسيفه في حزامه . . . لم يكن أحد ينوي البقاء هنا أكثر ممّا تدعو إليه الحاجة . ولكن كان عليهم أن يتناولوا لقمة من اللحم قبل الفراق ، لذلك عند العصر ، وحين انتهى العمل ، مدّ كل رجل يده

إلى جرابه وجلس وراح يأكل وقد وضع الجراب على المقعد أو أمامه على الأرض . . . لم تكن هناك مائدة في الكوخ .

ونيابة عن كاهن أبرشية كفام حضر ابنه هولمغير مويزيسون الاجتماع . كان شاباً منفلت اللسان لا يمكن الوثوق فيه ، ولم يكن محبوباً . ولكن أباه كان محبوباً جداً كما كانت أمه من أسرة طيبة . وعلاوة على ذلك كان هولمغير رجلاً ضخماً قوياً ناريّ المزاج وسريعاً في مهاجمة الناس . لذلك لم يكن هناك من يرغب بالتشاجر مع ابن الكاهن هذا ، كما كان الكثيرون يعتبرونه لاذع اللسان ذكي الكلام .

كانت معرفة سايمون به قليلة ، كما كان يكره مظهره . . .فقد كان له وجه طويل وضيق مغطى بنمش فاتح اللون ، مع شفة عليا قصيرة حتى أن الأسنان الكبيرة الصفراء كانت تبرز إلى الأمام كأسنان جرذ . ولكن سيرا مويزيس كان صديقاً جيداً للافرانس ، وكان الابن-حتى استطاع أبوه أن يجعله ابناً شرعياً له- قد ترعرع في يورونداغارد لفترة من الزمن ، وذلك كخادم وابن بالتربية . لذلك كان من عادة سايمون أن يقابل هولمغير مويزيسون بأسلوب ودّي .

كان قد دحرج قطعة حطب كبيرة نحو الموقد وجلس وهو يشك بخنجره قطعاً من لحم طائر السمان المشوي وشرائح لحم الخنزير المقدّد ويسخنها على النار . لقد كان مريضاً واضطر إلى الاستراحة أربعة عشر يوما كما قال للآخرين ، الذين جلسوا وهم يأكلون الخبز والسمك المجمد القاسي ، بينما راحت الرائحة اللذيذة لطعام هولمغير تتسلل إلى أنوفهم .

كان سايمون منحرف المزاج . . .ليس في مزاج سيئ تماماً إنما فاتر الهمة متبلد الإحساس . لم يكن من السهل فهم القضية ، والرسائل التي تركها حموه لم تكن واضحة . ومع ذلك حين غادر بيته كان يظن على أي حال أنه وصل إلى فهم صحيح لها إذ قارنها مع رسائل أخرى . ولكن حين حدث هنا في الاجتماع أن سمع شهادة الشهود ورأى الرسائل التي قدمها الآخرون ، فقد شعر أن وجهة نظره

في المسألة لم تكن قابلة للدفاع عنها . ولكن لم يكن أحد من الآخرين أكثر مقدرة على وضع الأمور في نصابها . . .وحتى مأمور الوصي على العرش ، الذي تواجد هناك أيضاً ، كان في حالة ذهول . كان البعض قد بدأوا يقولون إنه يبدو أن من الأفضل إحالة القضية على" المجلس " . . .ولكن إرلند تكلم فجأة وطالب بمشاهدة الرسائل .

حتى ذلك الحين كان قد جلس وراح يصغي ، وكأنه لا دور له في المسألة . وبدا الأمر الآن وكأنه قد استيقظ فجأة . قرأ بعناية كل الأوراق ، والبعض منها قرأها أكثر من مرة . ثم قام بتلخيص القضية باختصار ووضوح : كتب القانون تقول كذا وكذا ، وهكذا فهي مفهومة من قبل الجميع . وإن صياغة هذه الرسائل على هذا النحو الغامض المرتبك لا بدّ أن تعني إما هذا الأمر أو ذاك . ولو كانت القضية ستحال على المجلس فسيكون الحق لصالح هذه الجهة أو تلك . ثم اقترح تسوية قد ترضي الملاّك الأحرار ومع ذلك فهي ليست بالمرفوضة من قبل المالكين الحاليين .

كان واقفاً وهو يتكلم وقد أراح يده اليسرى بخفة على مقبض سيفه وأمسك برزمة الرسائل بإهمال في يده اليمنى . لقد تصرف كأنه هو من يمسك بزمام الأمور في هذا الاجتماع . . .ولكن سايمون رأى أنه لم يفكر في هذا هو نفسه . كان من دأبه أن يقف ويتكلم على هذا النحو حين كان يحضر مجلس الوصي على العرش في مقاطعته . . . وحين كان يلتفت إلى واحد من الآخرين ويسأل إن لم يكن الأمر كذلك أو هل فهموا الأمر الذي طرحه ، وكان يتكلم كمن يستجوب الشهود . . . ليس بفظاظة ولكن كأنما كان دوره طرح الأسئلة ودور الآخرين أن يجيبوا عليها . حين أنهى كلامه ، سلم الرسائل إلى المأمور وكأن الرجل كان خادمه ، وجلس مجدداً . وبينما راح الآخرون يتبادلون الكلام ، وكان لدى سايمون أيضاً ما يقوله لرفيقه ، أصغى إرلند إليه حقاً ، ولكن كأنما لم يكن له هو شخصياً علاقة بالقضية . كان يعطي أجوبة قصيرة واضحة منوّرة حين يخاطبه أي شخص . . .

وكان منهمكاً طوال الوقت في حك بقع الدهن من على صدر معطفه بأظافره أو بتسوية حزامه أو بارتداء قفازيه ، وقد بدا عليه أنه ينتظر نهاية النقاش نافد الصبر تقريباً .

وافق الآخرون على التسوية التي وضعها إرلند أمامهم وهي تسْوية لم يشعر سايمون بعدم الرضا تجاهها ، فهو لم يكن سيكسب أكثر من ذلك لو أحيلت القضية إلى القضاء .

ولكنه أحس بالغضب . لقد اعتبر أنه أمر طفولي إلى أبعد حد أنه يكون قد انزعج لأن عديله قد فهم القضية وهو لم يستطع ذلك . ولكن كان أمراً منطقياً أن يكون إرلند أمهر في فهم القانون وتوضيح معاني الرسائل الغامضة ، بما أنه كان يحتل منصباً يتضمن القيام بالتحقيقات وتوجيه الناس إلى الطريق الصحيح في القضايا المتنازع عليها . ولكن حلّ الأمر على سايمون دون أن يتوقعه : ففي المساء السابق في يورondغارد حين تحدث معه ومع كريستين عن هذا الاجتماع ، لم يذكر إرلند شيئاً مّما كان يفكر فيه . . .لكأنه كان يصغي نصف إصغاء فحسب . أجل ، كان واضحاً أن إرلند كان أفضل اطلاعاً على القانون من المزارعين البسطاء . . .ولكن كان يبدو أن القانون لم يكن يمسّه هو ، وهو جالس هناك يوجه الآخرين بودّ يتميز عدم الاهتمام . . .فقد خطر لسايمون إحساس غامض بأن إرلند لم يكن يهتم قط بالقانون كأحكام تتعلق بحياته هو . . .

كما كان أمراً غريباً جداً أنه استطاع أن يقف على هذا النحو دون خجل على الإطلاق . لا بدّ أنه يعرف أن هذا يدير عقول كل من يفكر في مسألة من وما كان عليه إرلند نيكولاوسون ، وما هو وضعه الآن . أحس سايمون أن الآخرون كانوا يجلسون ويفكرون بالموضوع . . .أحس البعض بالغضب دون شك من هذا الرجل الذي ما كان يكترث برأي هؤلاء الناس فيه . ولكن لم يقل أحد شيئاً . وحين جلس الكاتب الذي أزرقّ من البرد والذي كان يرافق مأمور الوصيّ على العرش

ووضع لوح الكتابة على ركبتيه ، فقد بقي طوال الوقت يسأل إرلند وإرلند يتهجأ له ليكتب ، وخلال تلك الأثناء كان يلعب بأعواد من القش كان قد التقطها من على الأرض وراح يجدلها من حول أصابعه الطويلة السمراء ويضفرها على شكل خاتم . وحين انتهى الكاتب من عمله مدّ الورقة إلى إرلند . رمى إرلند خاتم القش إلى النار وأخذ الصك وقرأه بصوت نصف عال :

" إلى كل من يطلع على أو يسمع بهذا الصك ، فإن سايمون أندرسون أوف فورمو وإرلند نيكولاوسون أوف يوروندغارد وفيدار ستاينسون أوف كلاوفاستاد وأنجموند وتورالد بيورنسون أوف لوندار وآلف آينارسون وهولمغير مويزيسون يرسلون تحيات الرب وتحياتهم . . ."هل الشمع جاهز . . .سأل الكاتب الذي وقف ينفخ على أصابعه المتجمدة . " فليكن معروفاً لكم أنه في سنة ألف وثلاثمائة وثمانية وثلاثين من ميلاد سيدنا ، وفي يوم الجمعة السابق على يوم أحد منتصف الصوم الكبير ، فإننا نحن المذكورين أعلاه قد اجتمعنا في غرانهايم في أبرشية كنيسة كفام . . .

" . . .نستطيع أن نأخذ الصندوق يا آلف ، ذاك الذي يقف هناك في المنزل الخارجي وسوف نستخدمه كمائدة" ثم التفت نحو المأمور وهو يعيد الصك إلى الكاتب .

تذكر سايمون كيف كان إرلند خلال عيشه وانتقاله بين أقرانه في الشمال . كان واثقاً من نفسه وجريئاً إلى حد كاف ، كما كان مجازفاً سليط اللسان . . .ولكن في أسلوبه شيء من المحاباة ومن النوع الذي يخصه هو . لم يكن قط متهوّراً فيما يخص رأي أولئك الذين يعتبر أنهم أقرانه وأقرباءه . كلا ، فقد كان يعتمد كثيراً على أن يتمتع بسمعة طيبة بينهم .

وبمرارة قوية إلى حد غريب أحس سايمون فجأة أنه واحد من مزارعي "ديل" أولئك الذين كان إرلند ينظر إليهم دون احترام كبير حتى أنه لم يكن ليتساءل عن

رأيهم فيه . لقد أصبح واحداً منهم لأجل خاطر إرلند . . .ومن أجله كان قد ودّع صحبة الأغنياء والنبلاء . كان أمراً جيداً بما فيه الكفاية أن يكون المزارع الغني في فورمو . . .أجل ولكنه لم يستطع أن ينسى أنه قد أدار ظهره لأقرانه واقربائه وأصدقاء شبابه ، وذلك لأنه كان قد تجول فيما بينهم في مهمة أشبه بمهمة الشحاذ حتى أنه ما عاد قادراً على تحمل الالتقاء بهم مجدداً . . .وهو لم يعد يستطيع إلا بالكاد أن يتحمل التفكير في ذلك . إلاّ أن عديله هذا قد تحدّى ملكه وخرج عن صفوف حرسه . كان يعرّي نفسه أمام إرلند على نحو كان التفكير فيه أشد مرارة له من الموت . وكان إرلند يتصرف معه وكأنه لم يكن يفهم أو يتذكر شيئاً . لم يكن هذا الشخص يشعر بالقلق نفسه كثيراَ لأنه شوّه حياة رجل آخر . . .

عند ذاك خاطبه إرلند :

"علينا أن نتمكن من الرؤية وأن نكون قد شققنا طريقنا يا سايمون إن كنّا سنصل البيت الليلة . . .سأذهب الآن لأجهز الجياد . . ." رفع سايمون نظره وقد انتابه كره غريب مثير للغثيان إلى الشكل الطويل الوسيم للرجل الآخر . تحت قبعة عباءته كان إرلند يرتدي طاقية صغيرة من الحرير الأسود تحيط برأسه وقد ربطت تحت ذقنه . . .كان الوجه الضيق الأسمر ذو العينين الكبيرتين الزرقاوين الفاتحتين الغائرتين تحت ظل حاجبيه ، يبدو أكثر شباباً ووسامة . ثم قال من الباب وهو يخرج : "واحزم لي حقيبتي في هذه الأثناء" .

كان الرجل الآخر قد استمر يتحدث عن القضية . كان أمراً غريباً بالفعل على أي حال ، كما قال البعض ، بأن لافرانس كان قد رتب هذه المسألة دون شك بقليل جداً من التفكير ، مع أن ذلك الرجل كان معتاداً خلاف ذلك أن يعرف ما كان يفعله . . .كان أكثر مهارة من أي شخص آخر في "ديل" بكل ما يتعلق بشراء وبيع الأراضي .

قال هولمغير برستسون :"من المحتمل أن أبي هو الملوم على هذا . لقد قال لي هذا الصباح إنه لو أصغى إلى لافرانس في تلك المرة لكانت كل الأمور صحيحة وواضحة . ولكنكم تعرفون كيف كان لافرانس . . .كان دائماً مطيعاً وخجولاً أمام الكهان كأنه الحمل . . ."

وقال أحدهم إن لافرانس أوف يوروندغارد كان معتاداً على معرفة صالحه .

"أجل ، ربما فكر في أنه فعل ذلك حين أصغى إلى استشارة الكهان" قال هولمغير ضاحكاً . "إنه دور الحكمة أحياناً وحتى في الأمور الدنيوية . . .طالما كان المرء لا يضع عينه على القطعة نفسها التي وضعت الكنيسة عينها عليها" . . .

لا شك أن لافرانس كان ورعاً بشكل رائع كما اعتبر "فيدار" . . .فهو لم يكن يبخل لا بالبضاعة ولا بالبقر حين يتعلق الأمر بالكنيسة أو الفقراء .

قال هولمغير متأملاً :"كلا . أجل ، لو كنت رجلاً غنياً جداً ، لكان من شأني أن أنفق لأجل سلام روحي . ولكنني لن أكون ميالاً إلى تبذير أموالي بيدي الاثنتين ، كما فعل هو ، ثم أتجول علاوة على ذلك بعينين حمراوين ووجنتين بيضاوين في كل مرة أذهب فيها إلى الكاهن وأعترف فيها بذنوبي . . .وكان لافرانس يذهب للاعتراف كل شهر ، حقاً . . ."

قال إنجموند بيورنسون العجوز :" دموع التوبة هي عطايا الروح القدس الكريمة ، عطايا السماح الإلهي يا هولمغير . فليتبارك ذاك الذي يستطيع أن يبكي خطاياه في هذه الدار الفانية ، وذلك ليسهل عليه دخول دار البقاء . . ."

"أجل ، لا بد أن يكون لافرانس قد دخل الجنة منذ زمن طويل إذن" ، قال الآخر . " وهكذا بينما كان يصوم ويكبح شهواته . . .فإنه كان يقفل الباب على نفسه في يوم الجمعة الحزينة في علية المستودع ويجلد نفسه بالسوط كما سمعت . . ."

قال سايمون أندرسون وهو يرتجف غضباً : "أمسك عليك لسانك" . كان

وجهه قد تضرج بالدم . لم يكن يعرف إن كان ما قاله هولمغير صحيحاً أم لا ، ولكنه حين رتب خزائن حميه ، فقد وجد في قعر خزانة الكتب صندوقاً خشبياً صغيراً ضيقاً وطويلاً وكان فيه سوط يشبه ما يوجد في الأديرة ويسمى "التأديب" . كانت الجدائل الجلدية المضفورة مبقعة بلون داكن ، وربما من الدم . كان سايمون قد أحرقه . . .وذلك بنوع من الرعب المترع بالأسى : لقد أحس أنه اكتشف شيئاً في حياة الآخر لم يكن لافرانس يريد لأي شخص أن يعرف به .

" . . .مهما يكن الأمر فإنه لم يذكره أمام خدمه" ، قال سايمون حين عادت إليه الثقة بنفسه إلى حد القدرة على الكلام .

"كلا ، ربما تكون مجرد حكاية اختلقها الناس" ، أجاب هولمغير برقة .

" أعتقد جيداً أنه لم تكن لديه خطايا يكفر عنها . . ." تكلف الرجل الابتسام قليلاً . . ." لو عشت حياة كلها فضيلة وورع شأن لافرانس بيورغولفسون . . .وكنت متزوجاً من امرأة تعيسة شأن راغنفريد إيفارسداتر . . .لكنت سأبكي على الخطايا التي لم أرتكبها . . ."

قفز سايمون وضرب هولمغير بقوة على الفم ، حتى أن الرجل تراجع نحو الخلف باتجاه الموقد . سقط الخنجر من يده . . .وفي اللحظة التالية أمسك بالخنجر واندفع نحو الآخر . تجنبه سايمون بالذراع التي كان ألقى عليها عباءته وأمسك بهولمغير من الرسغ وحاول أن يخلص السكين من يده . . .بينما راح ابن الكاهن يضربه المرة إثر الأخرى على وجهه . ولكن سايمون كان الآن قد أمسك بكلتا ذراعي الآخر ، إلا أن الشاب عضّ الرجل من يده .

"أتعضّ أيها الكلب . . .؟" أفلته سايمون وقفز إلى الخلف بضع خطوات ثم استل سيفه بعنف من غمده ، وطعن هولمغير . . . انحنى جسد الشاب نحو الخلف وقد اخترق الفولاذ صدره بطول بوصتين . ثم سقط جسد هولمغير بعيداً عن رأس السيف وهوى بثقل على الموقد .

رمى سايمون بسيفه وانحنى ليرفع هولمغير عن النار ، ثم لمح فأس فيدار فوق رأسه وقد ارتفعت لتضربه . تفاداها نحو الجانب وأمسك بالسيف مجدداً واستطاع في الوقت الملائم أن يتجنب بسيفه سيف آلف آينارسون المأمور . . . ثم دار حول نفسه ليتفادى فأس فيدار . . .ولكنه رأى بزاوية عينه أن أولاد بيورن وبيورن أوف لونده كانوا يندفعون نحوه برماحهم من الجانب الآخر من الموقد . عند هذا ، دفع بآلف أمامه نحو الجدار البعيد ولكنه لاحظ الآن أن فيدار كان يتقدم نحوه من الخلف (كان فيدار قد أبعد هولمغير عن النار ، فقد كانا ابني عم) وكانت جماعة لونده تتقدم نحوه لتطبق عليه من حول الموقد . كان محاصراً وغير مغطى من أي جانب وبين ذلك كله تساءل -رغم أن انتباهه كان يجب أن يتركز على إنقاذ حياته- بتعجب غامض بائس عن السبب في أن كل الرجال كانوا ضده . . .

في اللحظة التالية كان سيف إرلند يلتمع بينه وبين رجال لونده . ترنح تورالد جانباً وبعيداً وانهار على الجدار . وبسرعة البرق نقل إرلند سيفه إلى يده اليسرى وضرب سلاح آلف فسقط من يده وهوى يجلجل على الأرض ، بينما أمسك بيده اليمنى في الوقت نفسه قناة رمح بيورن ولواها إلى الأسفل . . .

قال لسايمون لاهثاً وهو يحرس عديله من فيدار "هيا اخرج" . صرّ سايمون بأسنانه واندفع نحو الداخل ليقابل بيورن وانجموند . كان إرلند إلى جانبه وهو يصرخ عبر أصوات الوطء وقعقعة السلاح : "أخرج ، ألا تسمعني أيها الأحمق ؟ اتجه نحو الباب . . . علينا أن نولي الأدبار!".

حين رأى أن إرلند كان يعني أن يخرجا كلاهما ، فقد تراجع وهو يبارز نحو الباب . وقد ركضا عبر الغرفة الخارجية ووقفا في الباحة . . .على مسافة خطوة أو اثنين بعيداً عن المبنى ، وإرلند أمام الباب مباشرة ، وسيفه نصف مرفوع ، مواجهاً الرجال الذين اندفعوا يلاحقونهما .

كان سايمون مبهور النظر للحظة . . .فقد كان اليوم الشتائي شديد السطوع في الخارج . . .فتحت السماء الزرقاء كانت القبة البيضاء لقمة الجبل تلتمع ذهبية تحت آخر نور للشمس . أما الغابات فكانت مغطاة بالثلج والجليد . وعبر الحقول كلها كان التماع باهر مشع كأنما هو صادر عن جواهر . . .

سمع إرلند يقول :

"لن يكون حال هذه الحادثة المؤسفة أفضل لو قُتل المزيد من الرجال . فلنعد إلى عقولنا أيها الرجال الطيبون ، ونتوقف عن سفك الداء . . . يكفي عديلي سوءاً أنه قتل أحد الرجال . . ."

تقدم سايمون ووقف إلى جانب إرلند .

" لقد قتلت ابن عمي دون طائل يا سايمون أندرسون " ، قال فيدار أوف كلاوفاستاد . . .كان يقف في المقدمة عند الباب .

"أعتقد أنه لم يسقط دون طائل . ولكنك تعرف جيداً يا فيدار أني لن أتهرب من المسؤولية . . .وسوف أعوض عن السوء الذي ارتكبته في حقكم . وكلكم تعرفون أين تجدونني في بيتي . . ."

تلفظ إرلند ببعض الكلمات مخاطباً المزارعين :

" آلف ما رأيك بي ؟"ودخل مع الرجال .

ترك سايمون خارجاً وقد أصبح غير قادر على النطق . خرج إرلند بعد فترة وقال :" فلنركب حصانينا الآن " ، ثم اتجه نحو الإسطبل .

سأل سايمون :" هل مات ؟ "

"أجل ، وآلف وتورالد وفيدار مصابون بجروح جميعاً . . .ولكن دون إصابات خطيرة على ما أعتقد . لقد أحرق هولمغير شعره من الخلف " . تكلم إرلند بكل هدوء . . . ثم حدث فجأة أن انفجر ضاحكاً : " هناك الآن رائحة نتنة نادرة ، رائحة السمّان المحترق في ذلك المكان وثق بي ! يا للشيطان . . .كيف حدث

أن تورطت حتى أذنيك خلال فترة قصيرة جداً من الزمن ؟ " سأله في دهشة كبيرة .

وقف صبي يافع ممسكاً بجواديهما . . .لم يكن أي من العديلين قد جلب أحداً من خدمه معه في هذه الرحلة .

كانا لا يزالان يحملان سيفيهما . تناول إرلند حزمة من العشب ومسح الدم عن سيفه ، كذلك فعل سايمون . وحين تخلص من معظمه ، أعاد السيف إلى غمده . نظف إرلند سيفه بعناية كبيرة وفي النهاية مسحه بطرف عباءته ، ثم طعن به الهواء مرات عديدة وهو يبتسم ابتسامة كأنما تذكر شيئاً ما . . .ورمى السيف عالياً في الهواء ، وأمسك به مجدداً من مقبضه وأغمده .

"جراحك . . .علينا أن ندخل إلى المبنى وسوف أضمّدها لك . . ." ، ولكن سايمون قال إنها لا شيء . . .

"وأنت تنزف أيضاً يا إرلند!"

"لا خوف عليّ . لحمي يشفى جيداً . أما الأشخاص البدينون فشفائهم أبطأ ، كما لاحظت . ولكن الآن في هذا البرد . . .وأمامنا طريق طويل نقطعه . . ."

حصل إرلند على شحم وقماش من الفلاح المستأجر للمزرعة ، وضمد جراح سايمون بعناية . . .كان هناك جرحان في اللحم قريبان الواحد إلى الآخر في ثديه الأيسر . لقد نزفا كثيراً في البداية ، ولكنهما لم يكونا خطيرين . كان إرلند قد تلقى خدشاً من رأس رمح بيورن على فخذه . . . ولا بدّ أنه كان أمراً متعباً الركوب مع ذلك الجرح ، كما قال سايمون ، ولكن عديله ضحك : إنه لم يخترق إلا بالكاد بنطاله الجلدي . وضع القليل من الشحم فوقه وربطه جيداً حتى يصمد أمام الصقيع .

•

كان البرد قارساً . وقبل أن يهبطا من التل حيث كانت المزرعة ، بدأ الجليد يتجمع فوق الحصانين كما أضحت حواشي الفراء على قبعتيهما بيضاء .

ارتجف إرلند :"هو ، هو! لكم أتمنى لو أننا في البيت !علينا أن ندخل المزرعة في الأسفل هنا حتى تعلن عن نفسك بأنك القاتل ."

"هل هذا ضروري ؟" سأل سايمون :"لقد تكلمت كما تعرف مع فيدار والـ . . ."

قال إرلند :" الأفضل أن تفعل ذلك ، أن تروي ما حدث بنفسك . لا تترك لهم الفرصة ليقولوا أي شيء ضدك ."

كانت الشمس خلف الجبال الآن والمساء بلون أزرق رمادي شاحب ، إلا أن النور لا يزال موجوداً . سارا على امتداد جدول تحت أشجار البتولا الأكثر خشونة الآن بسبب الجليد من الغابات المحيطة : كانت هناك رائحة الضباب الجليدي في الهواء هنا ، الجديرة بخنق الأنفاس في حلق الإنسان . غمغم إرلند نافذ الصبر من طول فترة التعرض للبرد وعلى الرحلة الباردة التي لازال عليهما أن يقطعاها .

"لم يصب وجهك بقضمة الصقيع ، ألا تعتقد ذلك يا عديلي . . .؟ " حدق بقلق تحت قبعة سايمون . فرك سايمون وجهه . . .لم يكن قد قضمه الصقيع ، ولكنه كان شاحباً نوعاً ما وهو منطلق على جواده . لقد أمرضه ذلك ، فقد كان وجهه الكبير البدين مسفوعاً من الطقس ومنقطاً بلون أحمر ، وكان الشحوب منتشراً فوقه في بقع رمادية ممّا يجعل لونه يبدو وكأنه غير نظيف .

" هل سبق لك وشاهدت رجلاً ينكش الروث بسيفه؟" قال إرلند . . .ثم انفجر ضاحكاً على هذه الفكرة ، وانحنى نحو الأمام في سرجه وقلّد الحركات على نحو ساخر . . ."مثل آلف هناك . . .شخص نادر في منصب المأمور! كان عليك أن ترى أولف وهو يلعب بالسيف ، يا سايمون ، يا للمسيح ومريم!"

يلعب . . .أجل ، الآن ، بالفعل ، لقد رأى إرلند نيكولاوسون في ذلك اللعب . ومن جديد رأى نفسه وأولئك الرجال في تلك المعركة هناك عند الموقد ،

مثل الفلاحين الذين يقطعون الخشب أو يرفعون القش . . .وكذلك شكل إرلند الرشيق المومض بينهم ، لمحاته السريعة كالبرق ورسغه الواثق وهو يلعب معهم بتفكير سريع ومهارة في المناجزة . . .

لقد مرّت عشرون عاماً أو تزيد منذ ذلك الحين الذي كان هو محسوباً بين الأوائل في مهارات السلاح بين شبان الحرس الشخصي للملك . . .حين كانوا يتمرنون على السلاح فوق المروج . ومنذ ذلك الحين لم يستخدم إلاّ قليلاً من مهارات المبارزة بالسيف الخاصة بمرشح لرتبة الفارس .

وهاهو يركب الآن ، حزيناً من القلب لأنه قتل رجلاً . . .رأى جثة هولمغير وهي تسقط بعيداً عن سيفه نحو النار ، كان يسمع صرخة موته القصيرة المبحوحة في أذنيه ويرى ثانية وثانية لمحات من العراك القصير الضاري الذي تبع ذلك . كان حزين القلب ويائساً وحائراً : لقد انقضوا عليه في لحظة واحدة ليقتلوه ، كل أولئك الرجال الذي كان يجالسهم ، وهو الذي يشعر أنه ينتمي إليهم . . .وقد جاء إرلند لنجدته . . .

لم يكن يعتبر نفسه جباناً قط . لقد اصطاد ستة دببة في السنوات التي قضاها في فورمو . . .كما جازف بحياته مرتين بكل التهور الممكن . كان بينه وبين الدبة المجنونة الجريحة مجرد جذع شجرة تنوب رقيق وكان دون سلاح عدا رأس رمحه وقطعة من قناة الرمح لا يتجاوز طولها اليد . . .لم يؤثر خطر اللعبة على ثقته بنفسه وفعله وحسّه . والآن هناك في الكوخ . . .لم يكن يعرف إن كان شعر بالخوف ، ولكنه كان مذهولاً . . .لقد خانته فطنته . . .

وحين جلس في البيت بعد صيد الدببة ، وملابسه مكومة فوقه وذراعه في أرجوحة والحمى تشتعل فيه ، وكتفه متيبس وممزق ، فإنه لم يشعر بأي شيء عدا الفرحة الغالبة . . . إذ كان من شأن الأمور أن تكون أسوأ . . .كيف لم يفكر إلى ذلك الحد . ولكن عليه الآن أن يفكر ويفكر ، إلى ما لا نهاية ، كيف كان كل

شيء سينتهي لولا أن إرلند وصل في الوقت الملائم جداً لنجدته . لم يكن خائفاً بالتأكيد ، ولكنه كان محبطاً إلى حد غريب . كان النظر في وجوه الرجال الآخرين . . .وجثة هولمغير المحتضر .

لم يسبق له أن كان قاتل بشر .

. . .ذلك الجندي السويدي الذي كان قد قتله بالسيف . . .كان ذلك في السنة التي حمل فيها الملك هاكون الحرب إلى السويد للانتقام من مقتل الدوقين . لقد أرسل للاستكشاف . . .وكان معه ثلاثة رجال ، وهو قائدهم ، وكان شديد المرح والاعتزاز بالنفس . تذكر سايمون أن سيفه علق بسرعة في خوذة الجندي الفولاذية ، لذلك كان عليه أن يثني سيفه وينتزعه انتزاعاً . وجد حدّه مثلّماً حين نظر إليه في الصباح . لم يكن قد فكر بذلك إلا برضا . . .وكان هناك ثمانية من السويديين أيضاً . . .ولقد ذاق طعم الحرب على الأقل ، ولم يكن هذا قدر كل الرجال الذين ساروا مع الحرس في ذلك العام . . .وحين حلّ الفجر رأى أن هنالك دماً وبقايا دماغ قد تناثرت فوق درعه كله . . .وقد حاول أن يبدو متواضعاً وليس متفاخراً وهو يغسلها . . .

ولكنه لم يجد عوناً في التفكير في ذاك الجندي المسكين الآن . كلا ، في ذلك الحين لم يكن الأمر ما كان عليه الآن . لم يستطع أن يمنع نفسه من الحزن على هولمغير مويزيسون .

وهناك أيضاً الآن عبء أنه أصبح مديناً بحياته لإرلند . لم يكن يعرف كم سيكون ثمن ذلك . ولكنه أحس وكأن كل الأمور قد تغيرت الآن بعد أن أصبحا متعادلين هو وإرلند . . .

فيما يخص تلك المسألة فقد أصبحا متعادلين ، أجل . . .

تابع العديلان طريقهما دون كلمة واحدة تقريباً . ولكن إرلند قال مرة :

" أجل ، كان ذاك فعلاً أحمق منك يا سايمون ، ألم تفكر بالاتجاه نحو الباب منذ البداية . . ."

سأله سايمون باختصار :" وكيف ذلك ؟ لأنك كنت في الخارج ؟ "

"كلا . . ." كانت هناك ضحكة صغيرة في صوت إرلند ." أجل ، ذلك أيضاً . . .رغم لأني لم أفكر في ذلك . ولكن خارج ذلك الباب الضيق ، ما كان ممكناً لهم أن يخرجوا إليك إلا واحداً في إثر الآخر . . .وعلاوة على ذلك فإن الأمر العجيب أن نرى غالباً كم يعود الناس إلى رشدهم ما أن يخرجوا تحت السماء المفتوحة . إني لاستعجب جداً الآن أنه لم يقتل سوى رجل واحد ."

وقد سأل سايمون عن جروحه المرة إثر الأخرى . قال الآخر إنه لم يكن يشعر بها كثيراً . . .رغم أنها كانت تؤلمه بشدة في الواقع .

●

وصلا إلى فورمو في وقت متأخر من الليل ، وبات إرلند تلك الليلة مع عديله . كان قد تشاور معه حول أن يكتب كتاباً إلى الوصي على العرش ، ربما في الصباح ، لشرح ما جرى ، وذلك حتى يتم تحضير "صك السماح " (١) ، بأسرع وقت ممكن . يمكن لإرلند أن يعدّ الكتاب لسايمون في الليلة نفسها . . .لاشك أن الجروح التي في صدره ستعيقه عن الكتابة :"وغداً ستكون مرتاحاً في فراشك على ما أعتقد ، لأنه من المحتمل أن تصيبك حمى الجراح . . ."

كانت رامبورغ وآرنغييرد ساهرتين تنتظران . وبسبب البرد كانتا قد زحفتا إلى المقعد أمام جدار الموقد الدافئ ، وقد جعلتا أقدامهما من تحتهما . . .كان بينهما لوح الداما . . .بدتا كطفلتين .

ما أن تلفظ سايمون ببضع كلمات حول ما حدث حتى كانت زوجته الشابة قد قفزت نحوه وطوقت عنقه بذراعيها . جذبت وجهه إلى وجهها وضغطت بخدها على خده . . .كما أمسكت بيدي إرلند بشدة إلى حد أنه قال إنه لم يكن يظن أن رامبورغ قوية الأصابع إلى ذلك الحد . . .

لا شيء أفضل من أن ينام هناك في تلك الليلة وأن تسهر هي إلى جانبه . وقد توسلت أن تقوم بهذا وهي تبكي تقريباً ، ولكن إرلند عرض أن يبقى هناك وأن ينام إلى القرب من سايمون إن كانت سترسل رجلاً شمالاً إلى يورونذغارد حاملاً رسالة . . .وعلى أي حال كان الوقت متأخرا على متابعة طريقه إلى البيت :"ومن المؤسف ان تسهر كريستين حتى وقت متأخر كهذا في هذا البرد . . .فهي أيضاً تنتظرني دائماً بنفسها ، وأنتما زوجتان طيبتان يا بنتي لافرانس" . . .

وبينما كان الرجلان يأكلان ويشربان ، كانت رامبورغ جالسة وقد التصقت بزوجها . كان سايمون يربت على ذراعها بين الحين والآخر . . .كان كثير التأثر ، ولكنه كان منزعجاً قليلاً أيضاً لإظهارها كل هذا الحب له والخوف عليه . وبما أنهم كانوا في الصوم الكبير الآن ، فقد كان سايمون ينام لوحده في قاعة سايموندز ، وحين مضى الرجلان إلى هناك ، ذهبت رامبورغ معهما ووضعت وعاء كبيراً من جعة العسل قرب حافة الموقد الحجري لتدفأ .

كانت قاعة سايموندز مبنىً قديماً مؤلفاً من غرفة واحدة بموقد وكانت دافئة عصية على الريح . . . كانت الجذوع ضخمة جداً بحيث كان الجدار الواحد مؤلفاً من أربعة زنود خشبية فحسب . كان الجو بارداً هناك الآن ، ولكن سايمون ألقى كومة من جذور الصنوبر في النار وطارد كلبه حتى السرير . . .كان يمكنه الاستلقاء هناك وتدفئته لهما . جرّا الكرسي الضخم والمقعد الخشبي إلى قرب الموقد وجلسا ليتدفأا فقد كان البرد قد نخر عظامهما من رحلتهما الطويلة ولم تكن الوجبة التي تناولاها في القاعة الكبيرة قد بعثت فيهما الدفء بالكامل .

كتب إرلند الرسالة لأجل سايمون . ثم راحا يخلعان ملابسهما . . . وبما أن جروح سايمون قد بدأت تنزف مجدداً حين راح يحرك ذراعيه كثيراً فقد ساعده عديله على خلع ملابسه من فوق رأسه وخلع جزمته من قدميه . كان إرلند نفسه يعرج على ساقه الجريحة قليلاً . . .كانت قد تيبست وتخدرت من ركوب

الحصان لفترة طويلة ، كما قال ، ولكنها لا شيء . وحين استقرا قرب النار مجدداً وقد خلعا نصف ملابسهما . . .فقد شعرا بأن الجو كان جيداً ودافئاً هناك الآن ، وكان الوعاء لا يزال يحوي الكثير من الجعة بعد .

"إنك تحمّل هذا الأمر أكثر مّما يستحق يا عديلي ، وأنا أرى ذلك جيداً" قال إرلند . كانا جالسين وهما يغالبان النعاس ويحدقان إلى النار . "لم يكن خسارة كبيرة جداً ، هولمغير هذا . . ."

قال سايمون بصوت خفيض :"لن يبدو الأمر كذلك لسيرا مويزيس . إنه رجل عجوز وكاهن جيد . . ."

"إنه لأمر محزن أن تخلق عدواً لنفسك من رجل كهذا . وأنت تعرف جيداً أني غالباً ما أذهب في مهمات إلى تلك الأبرشية . . ."

"أوه! . . .ولكن حين يقال كل شيء ، فقد يحدث شيء كهذا لأي واحد منا . لا شك أنهم سيطلبون منك دفع عشرة أو اثني عشر ماركاً ذهبياً كديّة . أجل ، وأنت تعرف أيضاً أن الأسقف هالفارد سيد صارم ، حين يكون عليه أن يغفر لشخص عن فعل دموي . . .كما أن والد الشاب واحد من كهنته . ولكنك لن تخرج في حال أسوأ بكثير من كلا الاحتمالين . . ."

لم يقل سايمون شيئاً . تابع إرلند كلامه :

" سيكون عليّ أن أقدم تعويضاً عن الجروح على ما أعتقد . . ." ابتسم لنفسه . . . "ولم يعد لديّ أملاك في الأراضي النرويجية سوى تلك المزرعة في دوفر . . ."

سأل سايمون : "كم حجم مزرعة هاوغن؟"

"لا أعرف على وجه الدقة . . .وهذا مكتوب في الصك . ولكن الناس الذين يزرعون الأرض لا يدفعون مقابل الإيجار سوى بعض التبن . لا يسكن فيها أحد . . . فالأبنية تكاد تكون خرائب كما يقال لي . . .وأنت تعرف أن الناس

يقولون إن آشيلد والسير بيورن لازالا يسكنان في المكان حتى بعد الموت . . ."

"ولكن على الأقل أعرف جيداً أنه لأجل عمل هذا اليوم أدين بالشكر لزوجتي . زوجتي تحبك يا سايمون وكأنك أخوها ."

ما كان ممكناً ملاحظة ابتسامة سايمون إلا بالكاد وهو جالس في الظل هناك . لقد أعاد الكرسي الضخم إلى الخلف قليلاً وغطى عينيه بيده من حرارة اللهب . ولكن إرلند كان يستمتع بالنار كقطة . . لقد جلس قريباً جداً من الموقد وهو يتكيء على زاوية المقعد وذراعه على ظهر المقعد وساقه الجريحة ممدودة فوق المسند الآخر .

"أجل ، لقد تحدثت عن ذلك هنا في أحد أيام الخريف" قال سايمون بعد برهة ، وكان لصوته نبرة ساخرة تقريباً . :"لقد أظهرت هنا في الخريف الماضي حين مرض ابننا أنها أخت مخلصة ." كان يتكلم بجدية الآن . . ولكن كان في صوته شيء من السخرية مجدداً ." والآن يا إرلند ، لقد حافظنا على وعودنا الواحد للآخر ، وذلك حين أقسمنا على ذلك حين وضعنا أيدينا بين يدي لافرانس وتعهدنا بأن يساند واحدنا الآخر كأخوين . . ."

قال إرلند ببساطة : " أجل ، أنا سعيد بعمل هذا اليوم أيضاً يا سايمون" . جلسا صامتين وهلة من الزمن . ثم مدّ إرلند كأنما ليبرهن على ذلك يده نحو الآخر . أخذها سايمون وقام كل واحد بسحق أصابع الآخر بقوة ثم أفلت كل واحد يد الآخر وتراجعا خجلين ، كل واحد إلى مكانه .

وأخيراً حطم إرلند الصمت . كان قد جلس طويلاً وذقنه في يديه وهو يحدق إلى النار ، حيث لم يكن هناك الآن سوى لهب صغير وآخر قد أومض قليلاً ولعب على امتداد القضبان المحروقة التي راحت تطقطق وتتساقط قطعاً بتنهدات قصيرة موجزة . وسرعان ما أصبحت الحرارة غير ملموسة إلاّ ما يصدر منها عن الفحم والحجر .

قال إرلند بصوت خفيض جداً :

" لقد عاملتني بكل طيبة قلب يا سايمون دار حتى أني أعتقد أن أندادك بين الرجال قلة قليلة . . لم أنس بعد . . ."

"اصمت! . . . . . .أنت لا تعرف يا إرلند . . .الرب في السماء وحده يعرف" همس في خوف وبؤس . . ."كل ما يرد في ذهن المرء . . ."

قال إرلند بصوت خفيض وبتوق :" الأمر كذلك . نحتاج جميعاً إلى أن يحكم علينا الرب برحمته . . ."

" . . .ولكن على الرجل أن يحكم على الرجل بأفعاله . وأنا . . .أنا . . .فليجزك الله خيراً يا عديلي!"

وبعد هذا جلسا في صمت مطبق . . .لم يتجرأا على الحركة حتى لا يشعرا بالخجل .

وأخيراً حدث فجأة أن ترك إرلند يده تسقط على ركبته . . .التمع شعاع أزرق ناري من حجر الخاتم الذي على سبابته اليمنى . عرف سايمون أنه أخذه من كريستين حين خرج من سجنه .

قال برقة :"ولكن عليك أن تتذكر يا سايمون المثل القديم : قد يربح كثير من الناس ما كان سيؤول إلى آخرين ، ولكن لا يربح أحد قدر شخص آخر ."

رفع سايمون رأسه وقد أجفل فجأة . وببطء تضرج وجهه . . .كانت العروق في صدغيه قد برزت كحبال سوداء ملتوية .

نظر إرلند إلى الآخر . . .ثم سحب عينيه بسرعة . ثم تضرج وجهه هو أيضاً . . .وكان ذلك تضرجاً غريباً وأشبه بخجل البنات وقد راح ينتشر تحت بشرته السمراء . جلس صامتاً وخجولاً وحيياً وفمه فاغر قليلاً كطفل . نهض سايمون بقوة ومضى نحو السرير .

"الأفضل لك أن تنام في الطرف الخارجي ، على ما أعتقد " . حاول أن

يتكلم بهدوء وبصوت عادي ولكن صوته كان يرتجف .

"كلا . . .ليكن الأمر كما تريد " ، قال إرلند بتردد . نهض على قدميه كأنه في حالة من الذهول . سأل : "النار؟ هل أحرسها . . .؟ بدأ يحرك الرماد .

"يكفي الآن . . .تعال واضطجع" ، قال سايمون كما من قبل . كان قلبه يدق بقوة حتى أنه لم يكن يستطيع الكلام إلا بالكاد .

في العتمة زحف إرلند صامتاً كأنه ظل ، وذلك ليندس بين الجلود عند الحافة الخارجية للسرير ، واستلقى هادئاً كأنه وحش من وحوش الغابة . بدا لسايمون أن وجود الآخر إلى القرب منه في سريره لا بدّ سيخنقه .



-٦-

في كل عام و في أسبوع عيد الفصح ، كان سايمون أندرسون يقيم وليمة الفصح و يدعو إليها الناس من كل الأبرشية . كانوا يأتون إلى فورمو في اليوم الثالث بعد القداس و يمكثون فيها حتى يوم الخميس .

لم تكن كريستين تستمتع كثيراً بهذه الولائم و حين يكون اللهو و المرح قائمين على قدم وساق ، كان سايمون ورامبورغ يبدوان وكأنهما كلما زادت الجلبة والصخب في الوليمة كلما وجداها أفضل . وكان سايمون يرجو دائماً من ضيوفه أن يجلبوا أطفالهم معهم وكذلك خدمهم مع أطفالهم و ذلك بأكبر عدد يمكن الاستغناء عن وجوده في المنزل . في اليوم الأول مرت الأمور بهدوء و سلام ، وكان كبار القوم وأكبرهم سناً يقودون الحوار بينما يصغي الشباب ويأكلون ويشربون ، أما الأطفال الصغار فيكونون على الأغلب في مبنى آخر . ولكن في اليوم الثاني تحوّل المضيف منذ الصباح الباكر وحثّ الشباب والأشخاص غير الوقورين والأطفال على الشرب والمرح ، ولم يمر وقت طويل ، حتى كان المرح قد أصبح عنيفاً و شهوانياً إلى حد أن الزوجات والفتيات قد انكمشن في الزوايا ووقفن هناك في مجموعات وهن يضحكن ضحكات نصف مكبوتة وقد جهزن أنفسهن للفرار ؛

بينما تجمعت أكثر ربات البيوت ورعاً في مبنى السيدات الخاص برامبورغ ، حيث كانت الأمهات قد حملن أولادهن الصغار إلى هناك مسبقاً بعيداً عن الصخب في القاعة الكبرى .

ولكن في هذا العام جلب عيد الفصح طقساً ربيعيّاً جميلاً رائعاً . و في يوم الأربعاء ، ومنذ الصباح الباكر ، كان الجو دافئاً . مشمساً حتى أنه ما أن انتهت وجبة الصباح حتى اندفع الجميع خارجين إلى الباحة . وبدلاً عن الصخب القصف ، سرعان ما راح الشبان يلعبون الكرة أو يتبارون على إصابة الهدف ، أو يشدون الحبال . ثم بدأت لعبة الأيل والرقص على جذع الشجرة ، وبعد ذلك جعلوا غيرموند أوف كروكه يعزف على قيثارته ويغني . . . وبعد ذلك كله ، فإن الكبار و الصغار سرعان ما انخرطوا في الرقص . كان الثلج ما يزال قليلاً في الحقول ، ولكن غابات جار الماء كانت بنية اللون من البراعم و الشمس تشع دافئة وجميلة فوق كل حافة جبل عارية . وحين خرج الناس بعد العشاء كان هناك غناء للطيور في كل مكان . . . و قد تم إشعال مشعلة في الحقل الذي وراء ورشة الحدادة وراح الناس يغنون ويرقصون حتى وقت متأخر من الليل . في صباح اليوم التالي تأخر الضيوف في أسرتهم ، وهكذا فقد تفرقوا ثم طلبوا الإذن بالرحيل في وقت متأخر عما اعتادوا عليه . كان من عادة جماعة يورونداغارد أن تكون آخر الراحلين . . .وهكذا طلب سايمون من إرلند وكريستين أن يبقيا حتى اليوم التالي . . .فقد كانت جماعة كروكه ستبقى حتى نهاية الأسبوع في فورمو .

كان سايمون قد مضى نحو الطريق العام مع أخر دفعة من الضيوف . كانت شمس المساء تشع على نحو رائع فوق أراضيه المنتشرة فوق منحدرات الجبال . كان سايمون يشعر بالدفء والمرح بعد الشراب والوليمة ، وحين نزل بين الأسيجة متجهاً إلى البيت حيث الصداقة الهادئة السهلة التي يشعر بها الناس بعد وليمة كبيرة ، وتترك حلقة صغيرة من الأقارب معاً ، فقد أحس هو بنفسه أسعد وأخف قلباً مّما كان عليه منذ وقت طويل .

في الحقول قرب ورشة الحدادة كانوا قد أشعلوا المشعلة مجدداً . . .أولاد إرلند وأكبر أولاد سيغريد وأبناء يون دالك وبنتاه الاثنتان . تلبث سايمون قليلاً عند السياج وهو يراقبهم . كان ثوب العيد الذي ارتدته أولفهيلد يشع بلون قرمزي في الشمس . . .راحت تتراكض في المكان وهي تجر فروع الشجر وترميها إلى النار . . . وهاهي تستلقي بطولها على الأرض ! صرخ أبوها عليهم ضاحكاً ، ولكنهم لم يسمعوه . . .

في الباحة جلست امرأتان كانتا تهتمان بالأطفال الصغار . . .كانوا جالسين جميعاً إلى القرب من جدار المنزل الصيفي وهم يتشمسون . فوق رؤوسهم كان نور المساء يشتعل مثل الذهب المنصهر فوق زجاج النافذة الصغيرة . . .أخذ سايمون إنغا غيرموندسداتر الصغيرة ورماها عالياً في الهواء ثم وضعها على ذراعه : "هل تستطيعين الغناء اليوم لعمك ، يا إنغا الفاتنة . . .؟" وعند هذا راح أخوها وأندرس يلحان عليه أن يرميهما عالياً هما أيضاً . . .

صعد الدرج وهو يصفّر نحو القاعة العليا . كانت الشمس تشع بقوة . . .وكان الباب مفتوحاً على وسعه . كان الجالسون في الداخل هادئين تماماً . في نهاية المائدة كان إرلند وغيرموند منحنين فوق القيثارة وهما يركبان لها أوتاراً جديدةً . كان قرن شراب الميد إلى جوارهما على المائدة وكانت سيغريد مستلقية على السرير وقد ألقمت أصغر أولادها ثديها . جلست كريستين و رامبورغ إلى القرب منها . كان إبريق فضي موضوع على لوح السرير الخلفي بين الأختين . ملأ سايمون كأسه المذهب بالنبيذ ومضى نحو السرير وشرب نخب سيغريد .

"كل الناس هنا لديهم ما يكفي لإطفاء ظمئهم ، على ما أرى ، إلا أنت يا أختي !"

رفعت نفسها على مرفقها ضاحكة وأخذت الكأس . انفجر الطفل الصغير الذي قوطعت وجبته يزعق غاضباً .

جلس سايمون على المقعد ، وهو لا يزال يصفّر برقة ويصغي إلى الآخرين نصف إصغاء . كانت سيغريد و كريستين تثرثران حول أطفالهما . جلست رامبورغ تعبث بطاحونة صغيرة تخص أندرس . راح الرجال الجالسون حول المائدة يعزفون على أوتار القيثارة ليجربوها . . .غنى إرلند مقطعاً شعرياً برقة شديدة . رافق غايرموند اللحن على القيثارة وغنى المقطع الشعري وراءه . . . كان لهما كلاهما صوت متناغم . . .

بعد قليل خرج سايمون إلى الشرفة ، ووقف مستنداً على العامود المنحوت وراح يحدق فيما حوله . ومن زريبة الأبقار جاء الخوار الجائع الأبدي . ! إذا استمر هذا الطقس لفترة أخرى ربما لن تستمر مجاعة الربيع طويلاً في هذا العام .

وصلت كريستين . لم يكن في حاجة إلى الالتفات . . .كان يعرف خطواتها الخفيفة . خرجت ووقفت إلى جانبه في نور الشمس المسائي .

كانت جميلة ونقية جداً ، لم تبد له من قبل جميلة إلى هذا الحد . وفوراً أحس وكأنه أرتفع عالياً نوعاً ما ، وكأنه يعوم في نور الشمس . . .سحب نفساً طويلاً : وفجأة خطرت له الفكرة . . .كان أمراً جيداً ، من الجيد أن نكون أحياء . غمرت سعادة غنية وذهبية كل كيانه . . .

كانت هي حبّه العذب . . .وكانت كل الأفكار الثقيلة المرّة التي كان قد فكر فيها مجرد حماقات نصف منسية . يا لحبيبتي المسكينة . . . ألا يمكن أن أفعل أي شيء جيد لك . . . لو كنت ستصبحين سعيدة مرة أخرى . . . فسوف يسعدني أن أضع حياتي في خدمتك إن كان من شأن ذلك أن يساعدك . . .

أوه ، أجل ! فقد رأى وجهها المحبوب وقد اعتراه الإنهاك والتقدم في العمر . كانت تجاعيد دقيقة صغيرة قد تجمعت تحت عينيها ، وفقدت بشرتها لمعتها النقية . . .لقد أصبحت أخشن وسفعتها الشمس ، كما كانت شاحبة تحت هذا اللون الأسمر . ولكن بالنسبة إليه ستبقى أبداً جميلة على حد سواء . فقد كانت

عـيناها الرمـاديتـان الواسـعـتـان وفـمـهـا الجـمـيـل الهـادئ وذقنهـا الصـغـيـر المستدير . . .ووقفتها المرتاحة المتزنة أجمل الأشياء على الأرض .

وكـان أمراً جيـداً أيضـاً . . .أن يراها مـرة أخـرى ترتدي مـلابس تليق بسيـدة رفيعة المقام . . .المنديل الحريري الصغير الرقيق يخبئ بعضاً من شعرها الأصفر الخروبي . . .والضفائر مرفوعة ، حتى أنها كانت تطل من فوق أذنيها . . .كانت هناك خطوط رمادية في شعرها الآن ، ولكن لا يهم . كما كانت ترتدي ثوباً فخماً أزرق اللون من المخمل ، وقد زين بفرو القاقوم . . . كانت قصته عميقة عند الصدر ، وكـانت شـقـوق الذراعين طويلة ، حـتى أنه لم يكن يظهـر فـوق الصـدر والكتفين أكثر مما يظهر من شرائط اللجام فوق صدر حصان . . .كان أمراً رائعاً النظر إليه . من تحته كان هناك ثوب داخلي أصفر اللون كالرمل يلتصق بالجسد ، ويرتفع عالياً حتى حنجرتها ثم ينزل نحو الرسغين . كان مزرراً بأزرار صغيرة كثيرة مذهبة ، وقد أثر فيه ذلك كله حتى القلب . . .فليسامحه الله ، كل هذه الأزرار الصغيرة المذهبة أسعدته مثل مشهد فرقة من الملائكة .

وقف وهو يحسّ بدقـات قلبـه القـوية الهـادئة . كـان شيء مـا قـد أنزلق منه . . .أجل ، مثل الأصفاد . أحلام شريرة كريهة . . .كانت مجرد ظلال ليلية ، والآن رأى حبيبته تحت نور النهار ، تحت شعاع الشمس .

"إنك لتنظر إليّ على نحو غريب جداً يا سايمون . . .لم تبتسم على هذا النحو؟ . . ."

"ضحك الرجل بصوت خفيض مرح ، ولكنه لم يجب . كان يمتد أمامهم "الديل" ممتلئاً بوهج شمس المساء . كانت أسراب العصافير تزقزق وتشدو على حدود الغابة . . .ثم وصل من مكان عميق في الغابة غناء السمّن الواضح المليء . و هاهي تقف هناك تدفئها الشمس وتلتمع في ملابس العيد . . .بعد أن هربت من المنزل البارد المعتم والملابس الخشنة الثقيلة العابقة برائحة العرق والعمل الشاق . . .يا كريستيني . . .إنه لأمر جيد أن أراك هكذا مجدداً . . .

أخذ يدها التي كانت مسندة أمامه على الدرابزين . . .ورفعها نحو وجهه :"هذا الخاتم الذي تلبسينه بإصبعك جميل!" دوّر الخاتم قليلاً ثم ترك يدها مجدداً . كانت اليد مقرحة ومحمرّة الآن ، ولم يعرف كيف يستطيع أن يقوم بما فيه الكفاية ليعوض عنها . . .لقد كانت جميلة جداً يدها الطويلة والرشيقة . . .

قالت كريستين :"إنهما آرنغييرد وغاوته يتشاجران مجدداً . "

من تحت شرفة العلية وصلت الأصوات عالية وغاضبة . والآن صرخت الفتاة غاضبة .

" . . .أجل فلتذكرني بذلك أنت! . . .يبدو لي أنه لشرف أكبر أن أدعى بالابنة غير الشرعية لأبي على أن أكون الابن الشرعي لأبيك!"

التفتت كريستين بحدة ونزلت الدرج . لحق بها سايمون وسمع صوت صفعتين أو ثلاث على الخد . ورآها تقف تحت الشرفة وهي تمسك بابنها من كتفه .

وقف الطفلان ينظران أرضاً وقد احمر وجهاهما وكانا صامتين وكئيبين .

"أرى جيداً أنك تعرف كيف تتصرف مع مضيفيك . . .أنت تشرفنا في الواقع ، أبوك وأنا . . ."

نظر غاوته إلى الأرض . أجاب أمه بصوت خفيض وغاضب :"لقد قالت شيئاً ما . . .لن أكرره ثانية . . ."

أمسك سايمون بابنته من ذقنها وأجبرها على أن ترفع بصرها إليه . ازداد تضرج وجه آرنغييرد ثم أغمضت عينيها تحت نظرات أبيها .

أفلتت منه . "أجل . . .لقد ذكّرت غاوته بأن أباه قد حكم عليه بأنه جبان وخائن للملكه . . .ولكنه سمّاك أولاً يا أبي . . .لقد قال إنك أنت الخائن وإنك مدين لإرلند كونك تجلس هنا موسراً وسليماً في ضيعتك . . ."

"ظننتك أصبحت فتاة ناضجة الآن . . .فهل يثور غضبك من ثرثرة طفل حتى تنسي حسن السلوك وواجبات القرابة؟ . . ." دفع ابنته بعيداً عنه بغضب ، والتفت إلى غاوته و سأله بكل جدية :

"ما الذي تعنيه يا صديقي غاوته بأني خنت أباك؟ لقد أحسست سابقاً أنك غاضب مني . . .والآن عليك أن تقول السبب . "

"أنت تعرفه جيداً !"

هزّ سايمون رأسه . ثم صاح الصبي وهو يتقد حنقاً :

"الرسالة التي عذّبوا أبي على الخلعة لأجلها ، ليجعلوه يفشي بأسماء من وضعوا أختامهم عليها . . .لقد رأيتها . كنت أنا من هرب بها وأحرقها . . ."

"اصمت !" انفجر إرلند بينهم . كان وجهه قد شحب حتى أن لون شفتيه قد ابيضّ واتقدت عيناه .

"كلا يا إرلند . . .الأفضل أن نصل الآن إلى حقيقة هذا الأمر . أكان أسمي في تلك الرسالة إذن؟"

"صه !"وبغضب مجنون أمسك إرلند بابنه غاوته من صدره وكتفه . "لقد وثقت بك . . .أنت ابني ! لو قتلتك لكان ذلك من حقي . . ."

قفزت كريستين إلى الأمام وكذلك سايمون . تخلص الصبي من قبضة أبيه وتعلق بأمه . وبما أنه كان شديد الانفعال إلى حد الجنون ، فقد صرخ بشدة وهو يخبئ نفسه خلف ذراع أمه :

"لقد نظرت إلى الأختام قبل أن أحرقها . . .يا أبي ! لقد ظننت أنه سيأتي يوم أستطيع فيه أن أقدم لك خدمة بذلك . . ."

"لعنة الله عليك !" ثم صدر عن إرلند بكاء قصير جاف . كان سايمون قد شحب ثم تضرج لونه من خجله من الآخر . لم يجرؤ على النظر إلى حيث كان يقف إرلند . . .كان منظر إذلال الرجل يبدو وكأنه يخنقه .

وقفت كريستين كالمصعوقة . . .وهي لا تزال تحيط ابنها بذراعيها كأنما لتحميه . ولكن ضمن عقلها كانت الأفكار تتصارع بسرعة البرق .

كان إرلند يحتفظ بخاتم سايمون الصغير فترة قصيرة في ذلك الربيع . . .فقد كان العديلان يبيعان مستودع لافرانس في "فيوي" إلى رهبان دير "هولم" . كان إرلند قد قال إن هذا قد يكون غير قانوني ، ولكن لا يبدو أنه كان هناك من سيحقق في الأمر . لقد أراها الخاتم وقال إن سايمون قد يكون حصل على واحد أفضل نحتاً . . .فقد كان الأخوة الثلاثة كلهم قد حفروا على أختامهم شعار أبيهم ، أما الكتابات التفسيرية فكانت مختلفة . ولكن خاتم غيرد كان أفضل نحتاً كما قال إرلند . . .

. . ."غيرد دار" . . .كان إرلند قد جلب لها تحيات منه ، في آخر مرتين جاء فيها من الجنوب . . .تذكرت أنها تعجبت من زيارة إرلند لغيرد في دايفرين . . .كانا قد التقيا مرة واحدة فحسب ، في زفاف رامبورغ . . .كان أولف ساكسسون هو عديل غيرد دار . إذن كان أولف ضمن المؤامرة . . .

قال سايمون بصوت خفيض وثابت : "لم تر على النحو الصحيح " .

"سايمون!" أمسكت كريستين على نحو أعمى بيد زوجها . "تذكر . . .كان هناك رجال آخرون غيرك يحملون الشعار نفسه على أختامهم . . ."

"اصمتي !أنت أيضاً . . .! " انتزع إرلند نفسه من قبضة زوجته بصرخة معذبة واندفع عبر الباحة نحو الإسطبل . قفز سايمون من خلفه .

"إرلند . . .هل كان أخي . . .؟"

"أرسلي وراء الأولاد و الحقي بي" صرخ إرلند مخاطباً زوجته .

لحق به سايمون ثانية عند باب الإسطبل ، وأمسك به من ذراعه :

"إرلند . . .هل كان غيرد؟"

لم يجب إرلند . . .حاول أن يخلص نفسه من قبضته . كان وجهه جامداً و مجعداً وشاحباً كالموت .

"إرلند . . .أجبني . . .هل كان أخي معك في المؤامرة ؟"

"ربما كنت تريد اختبار مهارتي بالسيف أيضاً . . ." زمجر إرلند بهذه الكلمات وأحس سايمون وهما يتصارعان بأن جسد الآخر كله كان يرتجف .

"أنت تعرف أني لن أفعل . "حرّر سايمون إرلند من قبضته وترنّح نحو الخلف على عضادة الباب . "إرلند . . .من أجل حب الرب الذي مات لأجلنا . . .قل الأمر إن كان هو كذلك حقاً !"

قاد إرلند سايمون إلى الخارج مبعداً إياه بالقوة عن الباب . جلب أحد الخدم السرج واللجام . أخذهما سايمون وأرسل الرجل بعيداً . أخذهما إرلند من سايمون .

"إرلند . . .لا شك أن تستطيع أن تحكي الأمر الآن! . . .لي أنا!" لم يعرف هو نفسه لم كان يرجوه على هذا النحو ، و كأنه يرجو أن ينجو بحياته .

"إرلند . . .أجبني . . .استحلفك بندبات جروح المسيح . . .قل لي يا رجل! "

" يمكنك أن تستمر في التفكير بما فكرت به " قال إرلند بصوت خفيض ساخر .

"إرلند . . .لقد فكرت . . .لا شيء . . ."

"أعرف ما فكرت فيه " صعد إرلند إلى السرج . أمسك سايمون بالحصان من عذاره . انتصب الحصان على قائمتيه الخلفيتين وراح يتحرك بجنون .

"دعه أو أدهسك به" قال إرلند .

"إذن سأسأل غيرد . . .في الغد سأركب جنوباً . . .أستحلفك بالله يا إرلند أن تقول لي . . ."

" أجل ، ستحصل على جواب منه ، لا أشك في هذا" ، قال إرلند باحتقار . . .وقد حثّ الحصان وكان على سايمون أن يقفز جانباً . وانطلق الآخر مسرعاً وهو يخرج من الضيعة .

عند منتصف الطريق عبر الباحة قابل سايمون كريستين . كانت ترتدي عباءتها . كان غاوته يسير إلى القرب منها ، وهو يحمل الحقيبة التي تحوي ملابسهم . كانت رامبورغ ترافق أختها .

رفع الصبي نظره لحظة وهو خائف وضائع . ثم نظر بعيداً . ولكن كريستين ثبتت عينيها الواسعتين عليه . . .كانتا داكنتين من الحزن والغضب :

" هل تستطيع أن تصدق هذا عن إرلند . . .أنه يمكن أن يخونك على هذا النحو ؟"

قال سايمون بحرارة : " لم أصدق ذلك . لقد اعتقدت أنه مجرد هذر أحمق من ذلك الشيطان الصغير . . ."

" كلا يا سايمون . . .لن أدعك تذهب معي " ، قالت كريستنين بصوت خفيض .

لاحظ أنها كانت تشعر بالإهانة والحزن إلى لا يمكن التعبير عنه .

●

في المساء ، حين بقي لوحده مع زوجته في القاعة الكبرى . . .وكانا يخلعان ملابسهما ، وكان قد سبق للبنتين أن نامتا مسبقاً في السرير الآخر . . .سألته رامبورغ على الفور :

" أما كنت تعرف شيئاً عن هذا يا سايمون؟"

"كلا . . .وأنت ألم تعرفي أي شيء ؟" سألها بقلق .

اقتربت منه رامبورغ ووقفت ضمن نور الشمعة الموضوعة على المائدة . كانت قد خلعت نصف ملابسها . . .لقد بقيت في الشلحة وفي صدار مطرز ، وشعرها كان حراً في غدائر من حول وجهها .

" هل عرفتُ ؟ . . .كانت لديّ أفكاري . كانت هيلغا شديدة الغرابة" . . .التوى وجهها في نوع من ابتسامة بدت وكأنها باردة . " لقد تحدثت عن أنه ستأتي على النرويج أزمان أخرى . والنبلاء الكبار . . ." ابتسمت رامبورغ ابتسامة ملتوية خفيفة . . ." سيصلون إلى حقوقهم هنا كما في البلاد الأخرى . والفرسان والبارونات . . .سيدعون مرة أخرى . . .

" . . .لاحقاً ، حين رأيتك تدافع عن قضيتهم بكل تلك الحماسة . . . كنت بعيداً عن البيت طوال العام تقريباً . . .لم تكن تجد الوقت لتتجه شمالاً إليّ في رينغهايم حين كنت سألد طفلك في منزل رجل غريب . . .وبعد ذلك ظننت أنك كنت تعرف ربما . . .بوجود قضية أشخاص آخرين متورطين غير إرلند . . ."

"هوه ! فرسان و بارونات !" ضحك سايمون ضحكة قصيرة وغاضبة .

"ألم تفعل ذلك لأجل كريستين فحسب ؟ "

رأى وجهها شاحباً وكأنه قد أصابه الصقيع . كان من المستحيل التظاهر بأنه لم يفهم المغزى الذي أرادته . فانفجر يائساً و متحدياً وهو يقول :

" أخ !"

ثم فكر في الأمر . . .عجباً إنها مجنونة . . .وهو نفسه كان مجنوناً . إرلند كان مجنوناً . . .العالم كله فقد عقله في ذلك اليوم . ولكن لا بد من وجود نهاية للأمر كله الآن .

قال بهدوء : " فعلت ما فعلت لأجل خاطر أختك ، ولأجل الأطفال الذين لم يكن هناك رجل أقرب إليهم مني ليساندهم . ولأجل إرلند ، بما أننا عديلان . . . والآن لا تبدئي بالكلام المجنون . . .فقد رأيت منه ما يكفي وزيادة في هذا البيت اليوم . . ." ثم انفجر ورمى بالحذاء الذي خلعه على الجدار .

ذهبت رامبورغ والتقطته ونظرت إلى جذع الخشب الذي أصابه الحذاء :

"من العار ألا تفكر توربيورغ بذلك هي أيضاً . . .أن تغسل السخام هنا لأجل المأدبة . . .لقد نسيت أن أذكر لها ذلك " . مسحت الحذاء . . .كان أفضل زوج لدى سايمون وله مقدمه طويلة وكعب أحمر . . .ثم أخذت فردة الحذاء الأخرى ووضعتهما في خزانة ملابسه . ولكنه لاحظ أن يديها كانت ترتجفان بشدة وهي تفعل ذلك .

عند ذلك ذهب وضمها بين ذراعيه . لفت زوجها بأطرافها النحيلة ، بينما راحت ترتجف ببكاء مخنوق وتهمس على صدره أنها كانت مرهقة جداً . . .

•

في اليوم السابع الذي تلى ذلك اليوم كان سايمون وخدمه يسيرون شمالاً من دايفرين عبر كفام . كانوا يناضلون ضد عاصفة من الثلج الذي راح يتساقط بندف كبيرة لاصقة . وعندما اقترب الظهر وصلوا إلى مزرعة صغيرة قرب الطريق العام حيث كانت توجد حانة .

خرجت المرأة ورجت سايمون أن يدخل إلى منزلهم . . .أما الخدم فأرسلوا إلى بيت الراحة . نفضت له ملابسه الخارجية المبللة وعلقتها لتجف على العارضة فوق الموقد وهي تتكلم : يا له من طقس قذر . . .أمر مؤسف للجياد . . .لا بد أن عليه أن يقطع الطريق كله . . .ربما لا مجال للمرور بـ "ميوس" الآن؟

"أوه أجل ، إذا كان المرء متعباً من حياته بما فيه الكفاية . . ."

ضحكت المرأة والأطفال الواقفون إلى جوارها من كل قلوبهم . الكبار منهم راحوا يقومون بمهمات في الغرفة مثل إحضار الحطب والجعة . أما الصغار فتجمعوا معاً عند الباب . غالباً ما كانوا ينالون قروشاً من الماستر سايمون أوف فورمو حين كان يتوقف هناك ، ولو كان معه شيء جيد لأولاده من سوق هامار كانوا يحصلون على شيء منه . ولكن يبدو اليوم أنه لا يرغب في النظر إليهم .

جلس على المقعد وانحنى نحو الأمام ويداه فوق ركبتيه وهو يحدق إلى نار المدفأة ويجيب بكلمة هنا أو هناك على ثرثرة المرأة . ثم قالت إن إرلند نيكولاوسون كان في غرانهايم هذا اليوم . . .كان اليوم هو موعد تسديد رجال الإقطاع لأول دفعة من أموال التعويض إلى المالكين السابقين . هل عليها أن ترسل أحد الأطفال إلى عديله حتى يذهبا إلى البيت معاً ؟

قال سايمون لا . ربما تقدم له بعض الطعام وبعد ذلك سينام قليلاً .

أما إرلند فهو سيقابله قريباً جداً . ما كان يريد قوله فهو يريد من غاوته أن يسمعه . ولكنه كان يفضل أن يتحدث عن الأمر أكثر من مرة واحدة .

كان خادمه سيغورد قد استقر في المطبخ بينما راحت المرأة تطهو الطعام . أجل ، إنها رحلة متعبة . . .وعلاوة على ذلك ، فإن السيد كان يبدو كثور غاضب طوال الطريق تقريباً . كان من عادة سايمون أندرسون الإصغاء بسعادة إلى كل أنباء أبرشية مسقط رأسه التي كان بمقدور رجاله التقاطها وهم في دايفرين . كان غالباً ما يدعو شخصاً أو أكثر من "راومريكه" إلى الطعام : كان الناس يحضرون ويطلبون منه معروفاً حين يكون في دايفرين ، فقد كان معروفاً بكرمه وطيبته ومرحه ولم يكن من عادته أن يكون متعالياً أو شديداً مع خدمه . ولكن "أمسك عليك لسانك" كانت ألطف عبارة سمعها سيغورد من سيده في هذه الرحلة .

وزد على ذلك فقد بدا أنه ليس على وفاق مع أخوته . . .فهو لم ينم حتى ليلة واحدة في دايفرين ، إذ ناموا في مزرعة مستأجرة قريبة في الأبرشية . السير غيرد . . .أجل ، لا بد أنه يعرف أن الملك قد رسم شقيق السيد فارساً في فترة عيد الميلاد . . .لقد خرج السير غيرد إلى الباحة وطلب من سايمون بكل لطف أن يبقى . . .ولم يرد سايمون إلاّ بالكاد على شقيقه . وقد صاحوا وصرخوا وأرعدوا ، أولئك السادة في القاعة التي في العلية . . .كان السير أولف ساكسون وغودموند أندرسون في الضيعة . . .بما يكفي لإخافة الناس . الرب وحده يعرف ما الذي كانوا متورطين فيه . . .

مرّ سايمون بباب المطبخ وتوقف لحظة وحدق إلى الداخل . قال سيغورد إنه كان سيحضر مثقباً وإبزيماً لإصلاح السرج الذي تخرب هذا الصباح .

"وهل لديهم مثل هذه الأشياء في المطبخ في هذه المزرعة . . .؟"رد عليه سايمون بغضب ومضى في طريقه . هز سيغورد رأسه وأومأ إلى المرأة حين أصبح سايمون بعيداً عن الأنظار .

•

أبعد سايمون الطبق عنه وجلس إلى المائدة . كان مرهقاً جداً إلى حد أنه لم يستطع النهوض . ولكنه مضى بعد فترة ورمى بنفسه على السرير بجزمته ومهمازيه . . .ولكنه فكر آنذاك إنه ليشفق حتى على السرير فقد كان نظيفاً وجيداً بالمقارنة مع هذا المنزل المتواضع . جلس في السرير وخلع جزمته . كان متيبساً ومنهكاً ، لا شك أنه سينام الآن . . . وكان مبللاً ومرتجفاً من البرد ، رغم أن وجهه كان يحرقه بعد هذه الرحلة الطويلة في العاصفة .

زحف تحت غطاء السرير وتقلّب على الوسائد . . .كانت لها - ويا للغرابة - رائحة السمك . ثم هدأ وقد اتكأ على مرفقه .

بدأت أفكاره تدور من جديد في حلقة . كان قد فكر وفكر في هذه الأيام كما يدور حيوان حول نفسه وقد شد بحبل إلى وتد .

. . . حتى لو كان إرلينغ فيدكونسون يعرف مسبقاً أنها قد تكلف غيرد وغودموند دار حياتهما وأموالهما لو دفع إرلند نيكولاوسون إلى الكلام . . .أجل ، ولكن ذلك لم يجعل الأمر أسوأ لأنه بذل قصارى جهده ليكسب مساعدة فارس بياركو . العكس هو الصحيح بالأحرى . . .لا شك أن المرء يدين لأخوته بالوقوف إلى جانبهم وحتى الموت عند الحاجة . ولكن لو أنه كان يعرف بالفعل إن كان إرلينغ يعرف مسبقاً بالأمر . وازن سايمون بذهنه بين الأسباب المؤيدة والأسباب غير المؤيدة . ما كان يمكن له أن يكون غير مطلع على التمرد الذي كان يجري تحضيره . ولكن ما الذي كان إرلينغ يعرفه ؟ لم يكن غيرد وأولف على الأقل يبدوان بأنهما يعرفان إن كان الرجل عارفاً بأنهما متورطان في التمرد . ولكن سايمون تذكر أن إرلينغ سمى آل هافتورسون وقد شاوره في طلب المساعدة منهم ، فقد كان أصدقاؤهما هم من في حاجة إلى أن يكونوا خائفين . . .كان آل هافتورسون أولاد عم أولف ساكسسون وهلغا . الأنف قريب من العينين . . .!

ولكن حتى لو كان إرلينغ فيدكونسون قد اعتقد أن سايمون كان يفكر بأخويه أيضاً ، إلا أن ما فعله كان لأجل ذلك بكل تأكيد . وإن إرلينغ قد رأى جيداً أيضاً أنه لم يكن يعرف شيئاً عن الخطر المحدق بأخويه . وعلاوة على ذلك فهو لم يقل ذلك بنفسه . . . لقد تذكر أنه قال ذلك لستيغ . . .وهو لم يعتقد أنهم كانوا قادرين على انتزاع الكلام من إرلند .

وعلى أي حال ، فقد كانوا في حاجة إلى الخوف من لسان إرلند . وبعد أن بقي صامتاً رغم الأغلال والعذاب ، فقد كان شخصاً يمكنه أن يخون نفسه بسبب زلة في اللسان . سيكون ذلك هو دأبه . . .ومع ذلك . . .كان هذا هو الشيء نفسه الذي يمكنه من أن يكون واثقاً من أن إرلند لن يفعل ذلك . كان صامتاً كالحجر في كل مرة دار فيها الحديث في ذلك الاتجاه ، خشية أن يزل فيقول أكثر من المطلوب . لقد رأى سايمون خوف إرلند المحموم الطفولي تقريباً من الحنث بقسمه . . .ربما كان طفولياً ، لأنه هو نفسه قد خان المشروع الجريء عندما ترك عشيقته تعلم به ، إلاّ أن إرلند كما هو واضح لم يكن يعتبر ذلك لطخة على شرفه . مثل هذا الأمر ، كما بدا أنه كان يعتقد ، قد يحدث لأفضل الناس وطالما كان يحفظ لسانه فقد كان يعتبر أن شرفه غير ملطخ وقسمه لم يحنث . . .وقد رأى سايمون جيداً أن إرلند كان حساساً لشرفه ، طالما كان يفهم ما تعنيه السمعة الجيدة والشرف . أو لم يجعله اليأس والغضب يخرج عن طوره من مجرد فكرة أن أياً من زملائه في المؤامرة قد يفشي سره . . .(والآن بعد فترة طويلة من ذلك فلا يمكن ألاّ يكون الأمر دون معنى للرجال الذين حماهم بحياته وشرفه وثروته) . . . وذلك بواسطة كلمات ابنه التي قيلت له (لسايمون) وهو أقرب الأقرباء إلى هؤلاء الرجال أنفسهم . . .؟

. . .سيرتب الأمر بحيث أنه لو سارت الأمور على النحو غير الصحيح ،

فسوف يدفع الثمن عنهم جميعاً . . .وكان إرلند قد أقسم على الصليب أمام كل من انضم إليه في مشروعه الجريء . ولكن أن يقوم رجال راشدون في كامل قواهم العقلية بوضع ثقتهم في مثل هذا القسم! . . .فقد كان واضحاً أن القضية لم تكن في يد إرلند . والآن بعد أن عرف كل شيء عن المؤامرة اعتبر سايمون أنها كانت أكبر حماقة مجنونة سمع بها في حياته . كان إرلند مستعداً أن يُمزَق شلواً شلواً قبل أن يحنث بقسمه . وطوال هذا الوقت فإن السر بقي بين يدي طفل في العاشرة من عمره . . .كان إرلند قد وضعه هناك . ولا يبدو أن الخطأ كان خطأه أيضاً أن سونيفا أولافسداتر لم تكن تعرف أكثر مما عرفته . . .هل يمكن لأي شخص أن يفهم هذا الرجل؟ . . .

إذن ، لو فكر لحظة . . .أجل ، ما اعتبر إرلند وزوجته أنه قد فكر به . . .الله يعرف بأن الفكرة كانت قريبة جداً من يده حين خرج غاوته بحكاية عن أنه رأى الختم في أسفل الرسالة الخيانية . وكأنهما كلاهما قد تذكرا ربما أنه كان يعرف شيئاً ما أو آخر عن إرلند نيكولاوسون يعطيه مجالاً أقل من كل الرجال حتى يحمل طوال الوقت أفضل الأفكار عن هذا الشخص الشهم . ولكن ربما كانا قد نسيا منذ فترة طويلة كيف أنه داهمهما ذات مرة ورأى أعماق عارهما . . .

لذلك تمدد هناك وهو خجول ككلب مضروب لأنه أساء إلى إرلند في أفكاره . الله يعلم . . .لم يكن هو سعيداً في النظر نظرة سوء إلى عديله . . .لم يشعر سوى بالتعاسة بسبب هذه الفكرة . ولكنه كان يعرف أنها كانت فكرة خاطئة حمقاء مجنونة . . .كان سيرى مباشرة ، حتى دون كلمات كريستين ، أن الأمر ما كان ممكناً أن يكون على ذلك النحو . ما أن خطر له الخاطر -أن إرلند قد يكون أساء استخدام ختمه-حتى شعر بذلك : كلا ، ما كان يمكن لإرلند أن يفعل أمراً مشابهاً . لم يسبق لإرلند طوال حياته أن ارتكب فعلاً غير شريف عن سابق تصميم . . .أو تفكير . . .

تقلب سايمون في السرير وراح يئن . لقد دفعوه إلى الجنون هو نفسه بكل هذه الحماقة . كان يؤلمه كثيراً كثيراً أن يفكر في أن غاوته قد راح لسنوات يفكر فيه على هذا النحو . . . ولكن كان أمراً مضاداً للمنطق أن يأخذ الأمر على هذا النحو السيئ . ورغم انه كان يحب ذلك الصبي ، وكل أولاد كريستين . . .إلا أنهم يبقون مجرد أطفال على أي حال . هل كان عليه أن يهتم كثيراً برأيهم به ؟

ولماذا كان على هذا الغضب أن ينتابه حين فكر في الرجال الذين وضعوا أيديهم على مقبض سيف إرلند واقسموا على طاعة زعيمهم ؟ لو كانوا حقاً غنماً إلى هذا الحد بحيث يتركون أنفسهم يخدعون بلسان إرلند الزلق وجرأته ، وأن يعتبروا ذلك الرجل قادراً على أن يصبح زعيماً . . .إذن فليس أمراً غير متوقع أن يتصرفوا كالغنم المذعورة بعد فشل المحاولة . كان لا يزال يشعر بالدوخة حين فكر فيما سمعه في دايفرين قبل قليل . . .كثير من الرجال كانوا راغبين في تسليم أمن البلاد ومصالحهم إلى يدي إرلند . . .هافتور أولافسون وبورغار تروندسون . . .! ولم يكن لدى أي منهم ما يكفي من الرجولة ليتقدم ويطلب من الملك أن يمنح إرلند عفواً مشرفاً وأماناً لأراضيه الإرثية .

كانوا كثيرين إلى حد أنه لو وقفوا صفاً واحداً فحسب ، لما كان أمراً صعباً فرض إرادتهم . لقد بدا أنه بين نبلاء النرويج كان هناك نقص في الذكاء والرجولة بالمقارنة مع ما كان يحسبه . . .

وكان غاضباً أيضاً لأنه قد تُرك بعيداً عن تلك المشاورات . لا يعني ذلك أنهم كانوا سيجعلونه ينضم إليهم في مثل تلك المؤامرة الخالية من العقل . ولكن لأن إرلند وغيرد قد تصرفا دون معرفته وأبقياه في العتمة . . .ألم يكن هو نبيلاً بقدر البقية ؟ أولم يكن ذا شأن كبير في الريف حيث يعرفه الناس . . .؟

بأسلوب ما كان يعتبر غيرد على حق . إذن فقد أوصل إرلند سفينة زعامته إلى الدمار ، فلم يكن الرجل قادراً على أن يطلب على نحو معقول أن يتقدم رفاقه

في المؤامرة ويعترفوا بأنهم مرتبطون معه . كان سايمون يعرف أنه لو وجد غيرد لوحده لما كان سيفارق إخوته على هذا النحو . ولكن كان هناك السير أولف بساقيه الطويلتين ممدودتين أمامه وهو يحاور حول قلة الحكمة لدى إرلند . . .والآن بعد الشجار ! ثم دخل غودموند إلى المشهد . لا غيرد ولا هو نفسه سبق لهما وعرفاه يخالفهما في أي شيء . ولكن بما أنه تزوج من عشيقة الكاهن- التي أصبحت عشيقته لاحقاً - فإن الصبي قد أصبح متضخم الذات وممجداً لذاته - وبينما كان سايمون جالساً هناك فإنه سرعان ما جن جنونه من منظره بالذات . . . لقد ثرثر بحيوية . . . وبدا وجهه المستدير الأحمر مثل قفا طفل صغير حتى أن يدي سايمون راحتا تحكانه من شدة رغبته في صفعه . . . وفي النهاية لم يعرف هو نفسه ما قاله للرجال الثلاثة .

لذلك حصل شقاق بينه وبين أخوته . أحسّ وكأن عليه أن ينزف حتى الموت حين فكر في ذلك . . . وكأن روابط اللحم والدم قد تمزقت إرباً . لقد جعلته فقيراً . والظهر بدون أخوة ظهر عارٍ لا حماية له . . .

ولكن سواء كان الأمر على هذا النحو أو خلافه ، ففي وسط شجارهم الغاضب كان قد فهم فجأة -هو نفسه لم يعرف كيف -أن طريقة تصرف غيرد اللامبالية الفاترة لم يكن مصدرها حاجته الملحة لبعض السلام في بيته فحسب . لقد رأى في لمحة أن غيرد كان لا يزال يحب هيلغا ، وكان هذا ما جعل أخاه يبدو كثير القيود ودون حول أو قوة . ويا للغرابة فهو لم يفهم كيف أثاره هذا حتى الغضب ضد . . . أجل ضد الحياة كلها .

خبأ سايمون وجهه في يديه . أجل ، كان هذا هو ما يعنيه أن يكون لك أبناء صالحون بارّون . لقد كان سهلاً على غيرد وعليه هو نفسه أن يشعر بالحب تجاه العروسين اللتين جاء أبوهما ليقول إنه قد اختارهما لهما . لقد تكلم إليها الرجل في إحدى الأمسيات بكلمات طيبة عبّر فيها عن رأيه . . .وهكذا جلسا هنا أخيراً

خجلين ، كليهما . . .من الزواج والصداقة والإخلاص بين الأزواج الشرفاء الذين يحيون حياة نظيفة . أجل وأخيراً فإن أباهما تكلم عن الصلاة والشفاعة والقداسات . كان أمراً مثيراً للأسى أن أباهما لم يجعلهما يتعهدان بالنسيان أيضاً . . .حين تكون الصداقة محطمة والشرف ميتاً والإخلاص خطيئة وسراً وعذاباً مخجلاً لا يترك القيد سوى ألم نازف لا يمكن شفاؤه . . .

بعد تحرير إرلند من السجن ، حلّ نوع من السلام عليه . . .ولو كان ذلك فحسب لأن الرجل لا يستطيع الاستمرار في المعاناة من مثل هذا الألم كما عانى هو في ذلك الحين في أوسلو . إما أن يحدث شيء ما . . .أو سيصبح الأمر أفضل من تلقاء ذاته .

لم يكن سعيداً حين انتقلت هي إلى يوروندغارد مع زوجها وكل أطفالهما ، وكان عليه مقابلتهم وأن يبقى على علاقة ودية معهم مع الحفاظ على واجبات القرابة . ولكنه سرى عن نفسه : كان الأمر أسوأ بكثير حين كان عليه أن يسكن معها لأن الرجل لا يستطيع احتمال العيش مع امرأة يحبها ، إن لم تكن زوجته ولا قريبته . وما جرى بين إرلند وبينه في تلك الليلة التي احتفلوا فيها بخلاص إرلند من السجن . . .وقد استخف بذلك : إرلند -على الأرجح-ما كان قد فهم أكثر من نصف المسألة ويبدو أنه لم يفكر إلا قليلاً فيها . كان إرلند يتمتع بموهبة نادرة في النسيان . وهو نفسه كانت لديه ضيعته وزوجته التي كانت عزيزة عليه وكذلك أولاده .

لقد وجد السلام على نحو ما . لم تكن غلطته أنه كان يحب أخت زوجته . لقد كانت خطيبته ذات مرة . . .لم يكن هو الذي فسخ الخطوبة . حين أحب كريستين لافرانسداتر لأول مرة ، كان ذاك مجرد واجب مفروض عليه ، لأنه اعتبر آنذاك أنها ستصبح زوجته . ولكن حصوله على أختها كان أمراً من فعل رامبورغ وأبيها لافرانس ، رغم أنه كان رجلاً حكيماً ولم يخطر له أن يسأل إن كان

سايمون قد نسي . وحتى لو عرف ، فما كان من شأن لافرانس أن يسأل مثل هذا السؤال .

لم يكن جيداً في النسيان . لم يكن الخطأ خطأه . وهو لم يتلفظ بكلمة واحدة كان يجب أن تبقى غير ملفوظة . لم يكن قادراً على مغالبة الأمر لو أن الشيطان أغواه بأحلام وإغواءات تسيء إلى رابطة الدم . . .وهو لم يستسلم أبداً أمام أفكار الحب المترعة بالخطيئة . وفي الأفعال كان هو أخاها الموثوق . كان يعرف هذا بنفسه .

وأخيراً توصل إلى ألاّ يكون غير راض عن مصيره .

طالما كان يعرف أنه هو الذي خدم هذين الشخصين هناك -كريستين والرجل الذي تخلت عن سايمون لأجله - فقد كانا مضطرين دائماً إلى طلب النجدة منه .

لم يعد الأمر كذلك الآن . لقد خاطرت كريستين بحياتها وشفاء روحها لإنقاذ حياة ابنه . لكأنما تفتحت كل الجروح القديمة منذ أن ترك هذا الأمر يحدث .

ومنذ ذلك الحين فقد أصبح يعتبر أنه مدين لإرلند بحياته .

. . .وثم فإنه قد أخطأ في حقه بدوره . . .ليس بإرادته - في أفكاره فحسب-ومع ذلك . . .!

. . ." إت ديميتا نوبيسديبيتا نوسترا ، سيكوت إت نوس ديميتموس ديبيتوريبوس نوستريس . . .غريب أن لا يكون الرب علمنا أيضاً أن نصلي :" سيكوت إت نوس ديميتيموس كريديتوريبوس نوستريس"

. . . كان لا يعرف إن كان ذلك صحيحاً باللاتينية . . .لم يكن قوياً بتلك اللغة . ولكنه كان يعرف أنه لم يكن قادراً على جعل نفسه يسامح دائنيه إلى حد كاف . بدا له أصعب بكثير أن يسامح شخصاً وضع عبئاً من الدين على كتفيه . . .

والآن حين أصبحا قادرين على القول إنهم أصبحوا متعادلين . . .هو وهما . . .فقد شعر بكل حقد قديم داسه تحت قدميه في هذه السنوات الكثيرة وكأنه قد نبت ونما . . .

لم يعد قادراً على إزاحة إرلند جانباً في أفكاره . . .على أنه ثرثار أحمق لا يستطيع أن يرى أو يتعلم أو يفكر ولا أن يحمل شيئاً في ذهنه . لقد أصبح الآخر يثقل على روحه الآن ، وذلك لأنه لا أحد يستطيع أن يعرف ما رآه إرلند وفكر به وتذكره . . .لم يكن هناك من يحاسبه .

"قد يكسب رجال كثيرون ما كان من نصيب الآخرين ولكن لا يكسب أحد قدر شخص آخر . "

كان قولاً صحيحاً صادقاً .

لقد أحب عروسه الشابة . لو حصل عليها لكان رجلاً راضياً جداً . وربما كانا - على الأرجح - سيعيشان سعيدين معاً . وكانت ستبقى كما كانت حين تقابلا لأول مرة : لطيفة ونقية وحكيمة حتى يمكن للمرء أن يشاورها في عظائم الأمور . في المسائل الصغيرة هي عنيدة نوعاً ما ، ولكنها طيّعة في الأغلب ، إذ كانت معتادة حين كانت تحت رعاية أبيها على أن تترك نفسها تُقاد وتُساعد وتُحمى . . .ثم جاء هذا الرجل وتمكن منها . . .وهو شخص غير قادر على أن يوجه نفسه ، ولم يسبق له أن حمى أحداً . لقد انتهك عذريتها وحطم هدوءها الأبيّ ومزّق روح المرأة فيها ، وأجبرها على أن تمدّ قوتها إلى آخر حد ممكن . كان عليها أن تقف مع عشيقها كما يحرس طائر صغير عشه ، بجسد نابض وصرخات حادة ، حين يقترب من بيته أي شيء . كان جسدها العذب الرشيق قد بدا له وكأنه يُرفع عالياً بين ذراعي رجل ويُحمى بحب . . .لقد رآه متوتراً بالعناد المجنون بينما قلبها يدق في جوفها من الخوف والشجاعة وشهوة القتال ؛ وقد قاتلت لأجل زوجها وأطفالها كما قد تصبح حتى الحمامة عنيفة شرسة جريئة حين يكون لديها صغار .

لو كان هو زوجها . . .لو عاشت خمسة عشر شتاء في حمى إرادته الطيبة الصادقة . . .كان يعرف جيداً أنها كانت ستقف دفاعاً عنه لو حلّت به أي مصيبة . وبالحكمة وبالإرادة المصممة كانت ستقف إلى جانبه . ولكنه ما كان سيرى الوجه الحجري الذي قابلته به تلك الليلة في أوسلو ، وهي تحكي له أنها ذهبت إلى ذلك المنزل وتجولت فيه . ما كان سيسمعها قط تصرخ باسمه بصوت اليأس والحزن المجنونين . ولم يكن ذلك هو الحب النقي والشريف لشبابه الذي أصيب في قلبه . كان التوق المجنون الذي برز وصرخ جواباً على غضبها المجنون . . .لم يسبق له أن تعلم أنه ما كان هناك شيء يمكنه أن يسكن في روحه على هذا النحو لو سارت الخطة التي رسمها لهما أبواهما كما كان متوجباً . . .

يا لوجهها وهي تمر به ليلاً لتنشد العون لطفله . . .لم تكن لتجرؤ قط على السير في ذلك الدرب لو لم تكن زوجة لإرلند وقد اعتادت منذ زمن طويل على الانطلاق دون وجل ، حتى لو كان قلبها يرتجف من الخوف . ويا للابتسامة على وجهها الدامع حين أيقظته وقالت إن الصبي كان ينادي أباه . . .لا يمكن لأحد أن يبتسم ابتسامة بتلك العذوبة الخارقة إلا العارف بمعنى أن تخسر معركة ومعنى أن تكسبها . . .

كانت زوجة إرلند هي من يحب . . .وهو لا يزال يحبها . ولكن حبه خطيئة ولا أمل فيه . . .عليه أن يكون تعيساً . . .لقد كان تعيساً إلى حد أنه ما كان يشعر أحياناً إلا باستغراب كبير كونه هو الذي وصل إلى هذا الدرب وهو الذي ما كان قادراً على تلمس الطريق الذي يخلصه من تعاسته .

. . . حين داس على شرفه وكل تربيته الراقية وذكّر إرلينغ فيدكونسون بأشياء ما كان لرجل شريف أن يهمس بها حسب علمه . . . وقد فعل ذلك ، ليس من أجل إخوته وأقربائه ، ولكن من أجلها هي فحسب . لأجلها هي فحسب جعل نفسه يتسول من الرجل الآخر كما يتسول المجذومون عند أبواب

الكنيسة في المدن الكبرى وهم يعرضون على العيان قروحهم الكريهة . . . . . .

لقد فكر . . . لابدّ أنها ستعرف بالأمر ذات يوم . ليس كل شيء ، ليس إلى أي درك أوصل نفسه . ولكن حين سيشيخان كلاهما في يوم من الأيام ، فإنه قد فكر في أنه سيقول لكريستين ما يلي : لقد ساعدتك بقدر ما استطعت لأني تذكرت كم كنت أحبك حينما كنت خطيبتي .

كان هناك أمر واحد لا يجرؤ على التفكير فيه . ألم يقل إرلند أي شيء لكريستين؟ . . .أجل لقد فكر في أنها يوماً ما ستسمع الأمر من فمه هو : . . لم أنس قط أني أحببتك حين كنا شابين صغيرين . ولكن لو حدث أنها تعرف ، وأنها عرفت ذلك من زوجها . . . كلا ، عندها لن يعود قادراً على التحمل أكثر من ذلك . . .

كان ينوي أن يقول لها لوحدها . . . يوماً ما ، بعد زمن طويل . حين كان يفكر في تلك الساعة التي سيفشي بها هو نفسه بسره . . . عن تعثر إرلند بذلك الشيء الذي ظنه هو مخبأ في أعمق أعماق قلبه! وكانت رامبورغ تعرفه . . . رغم أنه لم يستطع أن يفهم كيف رأته . . .

زوجته هو . . . وزوجها هي . . . كانا على علم بذلك . . .

صرخ سايمون صرخة مجنونة خانقة ، وهو يرمي بنفسه فجأة على الجانب الآخر من السرير . . .

فليساعده الرب ! كان دوره الآن في الاستلقاء عارياً تماماً وغاضباً ونازفاً من جراح التعذيب ومرتجفاً من العار . . .

•

فتحت المرأة الباب . من السرير قابلت عينيها عينا سايمون الحمراوان الجافتان اللامعتان :"ألم تنم؟ . . .لقد مرّ إرلند نيكولاوسون للتو مع شخصين آخرين

. . .على الأرجح هما ابناه اللذان كانا معه" . همهم سايمون كجواب بشيء غاضب لا معنى له .

•

سيتركهم يسبقونه . ولكن سرعان ما سيكون قد آن الأوان ليفكر هو في الاتجاه نحو بيته . . .

. . .ما أن يهبط إلى القاعة ويخلع ملابسه الخارجية حتى يكون أندرس قد أمسك بقبعته الفرو ووضعها على رأسه . وبينما يجلس الصبي على المقعد كأنه حصان ليذهب إلى عمه في دايفرين ، ستنزلق القبعة الكبيرة فوق الأنف الصغير ثم تعود إلى الخصل الجميلة اللامعة . . .ولكن ما كان يفيده قط التفكير في مثل هذه الأمور . . .الرب يعرف متى ، سيذهب الصبي لزيارة عمه في دايفرين . . .وبدلاً عن ذلك جاءته ذكرى ابن آخر له . . .طفل هالفريد . إرلينغ . . .لم يكن يفكر فيه غالباً . جسد طفل أزرق رمادي . . .ما كان قد رآه إلا نادراً خلال الأيام التي عاشها . . .كان عليه أن يسهر قرب سرير أم الطفل المحتضرة . لو بقي ذلك الطفل حياً . أو لو عاش فترة أطول من أمه . . .لكانت "ماندفيك " ستصبح ملكاً له . وعندها كان على الأرجح سيبحث عن زوجة جديدة هناك في الجنوب . ما كان سيزور ضيعته هنا إلا لماماً ، شمالاً في "الديل" . وربما على الأرجح كان لن ينسى كريستين – فقد راقصته رقصة رائعة إلى حد ما كان معها سينساها . . .يا للشيطان . . .يمكن للرجل دون شك أن يتذكر ، كمغامرة ، أنه كان مضطراً إلى جلب خطيبته ، عذراء رفيعة المولد ، تربت بأسلوب طاهر مسيحي ، إلى بيتها من ماخور ومن سرير رجل آخر . ولكنه ربما لن يستمر في تذكرها هي التي عذبته وسلبته كل سعادة كان يمكن للحياة الطيبة أن تمنحه إياها . . .

لو عاش إرلينغ لكان في الرابعة عشرة من عمره الآن . . .حين سيبلغ أندرس مبلغ الرشد سيكون هو عجوزاً منزوياً . . .

أوه أجل يا هالفريد . . .لم تكوني سعيدة معي . ربما أستحق أن تكون الأمور قد سارت معي كما سارت حتى الآن . . .

وثم لا شك أن إرلند نيكولاوسون كان سيضطر إلى دفع ثمن حماقته وكانت كريستين جالسة الآن في يوروندغارد كأرملة . . .

وكان هو نفسه سيتجول على الأرجح في أرجاء المكان وهو يتوجع لأنه رجل متزوج! ما كان هناك أمر تنقصه الحكمة مثل أن يصدق هو ذلك بنفسه الآن . . .

•

كانت الريح قد هدأت الآن ولكن رقاقات كبيرة رطبة من ثلج الربيع كانت لا تزال تهطل حين انطلق سايمون من باحة النزل ، والآن مع اقتراب المساء ، كانت الطيور تغني وتغرد في الأجمات رغم الثلج الهاطل .

كما ينكأ جرح مع حركة سريعة فإن الذكرى العابرة تسبب الألم . . .فقبل مدة قصيرة في وليمة عيد الفصح التي أقامها -جلست مجموعة كاملة منهم في الخارج يتشمسون تحت شمس منتصف النهار . فوقهم عالياً في شجرة بتولا كان يجلس طائر أبو الحناء وهو يغني في الهواء الأزرق الدافئ . وصل غيرموند بعد أن التف من حول المنزل وهو يعرج ويجر نفسه على عصاه وإحدى يديه على كتف أبنه الأكبر . رفع بصره وتوقف وقلّد الطائر . كما بوّز الغلام فمه وصفّر . كانوا قادرين على تقليد كل لحن من ألحان الطيور تقريباً . وقفت كريستين بعيداً وسط بعض النسوة الأخريات . كانت ابتسامتها جميلة جداً وهي تصغي . . .

مع اقتراب الغروب أصبح الغيم رقيقاً في الغرب . . .ثم تدفقت غيوم ذهبية على امتداد جوانب الجبال وملأت الوديان والوهاد الصغيرة بسديم رمادي سميك . كان للنهر وميض كليل ، كأنما هو وميض نحاسي . . . كان يندفع ويتموج عريضاً ومعتماً من حول الصخور في مجراه وعلى كل حجر كانت وسادة بيضاء صغيرة من الثلج المتساقط حديثاً .

تقدمت الجياد المنهكة ببطء فوق الطرقات الثقيلة . كانت ليلة بيضاء كالحليب مع بدر يطلّ عبر الغيوم والسديم ، وذلك بينما كان سايمون يهبط الضفاف المنحدرة لنهر "أولا" . وبعد أن عبر الجسر ثم انطلق عبر أشجار التنوب حيث يمر الطريق خلال الشتاء ، أسرعت الجياد . . .كانت تعرف أنها تقترب من إسطبلاتها . ربت سايمون على عنق ديغربايين المبلّل . كان سعيداً على أي حال أن رحلته قد اقتربت من نهايتها . على الأرجح ستكون رامبورغ قد نامت قبل فترة طويلة من الآن .

وحيث يلتف الطريق بحدة مغادراً الغابات كان هناك منزل صغير . كان قد وصله بالضبط حين أحس بأن بعض الرجال على جيادهم قد توقفوا أمام الباب . سمع صوت إرلند وهو يصيح :

"إذن إنه لأمر أكيد أن تأتي في اليوم الأول بعد العيد . . .هل سأقول ذلك لزوجتي . . .؟"

صرخ سايمون محيّياً . سيكون أمراً خالياً من التهذيب عدم مرافقتهم في طريقهم ، ولكنه طلب من سيغورد الاستمرار . ثم اقترب من الآخرين . كانا ناكفه وغاوته . تقدم إرلند من باب المنزل في اللحظة نفسها .

حياهم مجدداً . . .ورد عليه الثلاثة التحية ببعض الحرج نوعاً ما . استطاع أن يرى وجوههم بصعوبة في النور الومض . . .بدا لسايمون أنهم ينظرون إليه بريبة . . .وقد بدا عليه الفضول والامتعاض فوراً . لذلك قال مباشرة :

"وصلت من دايفرين لتوي يا عديلي" .

"أجل ، سمعت أنك اتجهت جنوباً . كان إرلند واقفاً ويده على قوس السرج وهو ينظر إلى الأسفل . "لقد قطعت الطريق بسرعة كما يبدو" ، أضاف وكأنه يريد تحطيم صمت مزعج .

قال سايمون للشابين وهما ينويان الاستمرار في سيرهما :"كلا توقفا قليلاً ،

وأنت أيضاً عليك أن تسمع ما أريد قوله : كان ختم أخي ما رأيته على تلك الرسالة ، يا غاوته . وأعتقد أن الأمر يبدو لك وكأن الفرسان الآخرين الذين وضعوا أختامهم على رسالة الأمير هاكون التي كان أبوك سيحملها إلى الدنمارك قد خانوا أباك . . ."

نظر الشابان إلى الأرض في صمت . قال إرلند :

"هناك شيء واحد أعتقد أنك لم تفكر فيه يا سايمون حين ذهبت للتشاور مع أخيك . لقد اشتريت السلامة لغيرد والآخرين بثمن غال . . .بكل ما ملكت عدا سمعة الرجل الثقة الذي يتمسّك بكلمته . والآن يعتقد غيرد دار حقاً أنه لم تتبقَ لي حتى تلك السمعة . . ."

أحنى سايمون رأسه خجلاً . لم يكن قد فكر في ذلك .

"لِمَ لَمْ تقل هذا لي يا إرلند حين قلت لك إني سأذهب إلى دايفرين . . .؟"

" لا شك أنك رأيت بنفسك أني كنت غاضباً جداً حين غادرت ضيعتك ، فلم أكن قادراً على التفكير أو التشاور . . ."

"لم أكن في كامل عقلي أنا أيضاً يا إرلند . . ."

"كلا ، ولكن بدا لي أنه قد يكون لديك وقت للتفكير خلال هذا الطريق الطويل . كما أني لم أكن قادراً على جعلك تتخلى عن نيتك في استجواب أخيك ، دون الإفشاء بالأمور التي أقسمت بأن أبقيها طي الكتمان . . ."

لم يقل سايمون شيئاً لبعض الوقت . . .في البداية بدا له أن الآخر كان على حق . ثم خطر له . . .كلا ، الآن كان إرلند عنيداً جداً . هل سيبقى صامتاً ويجعل كريستين والأبناء يظنون به الظنون؟ سأل هذا على نحو حاد نوعاً ما .

"لم أذكر كلمة من هذا يا قريبي لأمي أو لأخوتي " ، قال غاوته وهو يلتفت بوجهه الوسيم اللامع إلى سايمون .

"أجل ، ولكنه عرفوا به في النهاية على أي حال " ، أجاب بعناد . "أعتقد

أنه بعد كل ما جرى في بيتي في ذلك اليوم أصبحت الحاجة تدعو الآن إلى جلاء الأمور . ولا أرى كيف خطر ذلك لأبيك على حين غرة . . .وأنت لست أكثر من طفل الآن يا غاوته وكنت صغيراً تماماً حين جعلك شريكاً في هذه الأمور السرية" .

صاح إرلند بغضب :" لقد عرفت أني كنت أستطيع الثقة بابني . ولم يكن أمامي خيار حين كان عليّ أن أنقذ الرسالة . كان عليّ إما أن أعطيها لغاوته أو أترك الوصي على العرش يجدها . . ."

بدا لسايمون أنه لا طائل من المزيد من الكلام حول هذه القضية . ولكنه لم يستطع منع نفسه من القول :

" لم يعجبني الأمر حين علمت أن الصبي كان لمدة سنوات أربع يظن بي الظنون . لقد تحملت منك الكثير يا غاوته . "

حث الصبي حصانه إلى الأمام لبضع خطوات . ثم مدّ يده ورأى سايمون وجهه يعتم وكأنه قد تضرج .

" عليك أن تسامحني يا سايمون !"

أمسك سايمون بيد الصبي . كان وجه غاوته أحياناً يبدو شبيهاً جداً بوجه جده لأمه وكان ذلك يؤثر كثيراً في سايمون . كانت له ساقان محنيتان قليلاً ويبدو قصير القامة وهو مترجل ، ولكنه كان فارساً من الطراز النادر ، وعلى متن الحصان كان يبدو كفتى يتحلى برجولة مبكرة مّا يثلج صدر أبيه .

والآن هاهم يتجهون شمالاً ، أربعتهم ، والشابان الصغيران في المقدمة . وحين أصبحا خارج مسمع الصوت قال سايمون :

"فلتفهم يا إرلند . . .أعتقد أنك لا تستطيع أن تلومني لأني ذهبت إلى أخي وطلبت منه أن يقول لي الحقيقة حول المسألة . ولكني أعتقد أنك كنت محقاً إذ غضبت مني ، أنت وكذلك كريستين . لأنه ما أن . . ." وهنا بدأ يتلمس

باحثاً عن الكلمات . . ." ما أن خرجت هذه الكلمات إلى العلن . . .أي ما قاله غاوته عن الختم . . .لم أعد أستطيع إنكار الفكرة . . .فهمت أنك تعتقد أني فكرت فيما هو غير قابل للتفكير فيه . لذلك أقول إنه كان لديك من الأسباب ما يجعلك غاضباً . . ."

نثرت الجياد الطين الثلجي وهي تتقدم . لم يجب إرلند إلا بعد فترة وقد بدا صوته خجولاً ورقيقاً :

"لا أعرف على أي حال ما كنت ستفكر فيه . كان ذلك أسهل الأمور على التفكير . . ."

" آه كلا ، كان عليّ أن أعرف جيداً أن ذلك كان مستحيلاً " ، قاطع سايمون متألماً . ثم سأل بعد وهلة :

"هل ظننت أني كنت أعرف بالأمر . . .أمر أخي ؟ وأنه لأجله حاولت مساعدتك ؟"

قال إرلند متعجباً : "كلا ، كنت أعرف عن ثقة أنك ما كنت لتعرف . وأنا لم أقل شيئاً وهذا ما عرفته . وأن أخاك لم يزلّ لسانه فهو أمر كنت قادراً على الوثوق منه . "ضحك قليلاً . ثم أصبح جدياً . "أعرف أنك فعلت ذلك لأجل حمينا . . .ولأنك طيب . . ." قال إرلند برقة .

تابع سايمون السير فترة من الزمن دون أن يقول شيئاً .

سأل بعد قليل :

"أكنت غاضباً بمرارة يا ترى ؟"

" أوه ! . . .حين أتيح لي الوقت لأفكر . . .لا أرى وجود أي معنى آخر تستطيع إضفاءه على المسألة . . ."

" وماذا عن كريستين " ، سأل سايمون بصوت أخفض .

"أجل ، هي . . .!" ضحك إرلند كما من قبل . " تعرف جيداً أنها لا تطيق

أن يشير إليّ أي شخص بالبنان . . .إلا هي نفسها . إنها تعتبر أنها تستطيع أن تعتني بالأمر جيداً بنفسها . وهذا ينطبق على أولادنا . فليرحمني الرب لو أني وجّهت لهم كلمة لوم واحدة ! ولكن ثق بي ، لقد جعلتها تعرف ما هو الصحيح . . ."

"هل فعلت ذلك . . .؟"

"أجل . . .حين يكون الوقت والجو ملائمين سأجعلها تفهم دون شك . أنت تعرف جيداً أن كريستين هي من النوع الذي ما أن يتأمل في الأمر ، فإنه سيتذكر أنك قد أبديت لنا صداقة مخلصة . . ."

أحس سايمون بقلبه يرتجف من الغضب اللاذع . أحسّ أن الأمر كان أكثر من أن يستطيع احتماله . . .بدا الآخر وكأنه يفكر أنهم يبعدون هذه الفكرة عن أذهانهم نهائياً . كان وجهه تحت نور القمر الشاحب يبدو في سلام تام . ارتجف صوت سايمون لتغيّر مزاجه وهو يتكلم مجدداً :

" سامحني يا إرلند ، لا أفهم كيف أستطيع أن أصدق . . ."

قاطعه الآخر نافذ الصبر :" أنت تعرف أني أفهم . أعتقد أنه كان صعباً عليك أن تصدق خلاف ذلك . . ."

" لكم أتمنى على الرب لو أن هذين الشابين الأحمقين لم ينطقا قط" ، قال سايمون بقوة .

"أجل . . .لم يسبق لغاوته أن تلقى عقوبة مثل تلك في حياته من قبل . . .وأن تفكر في أن ذلك كله حصل بسبب التشاحن حول أجدادهم الأبعدين . . .رايدار بيركباين والملك سكوله والأسقف نيكولاوس . " هز إرلند رأسه . "ولكن هيا يا عديلي ، لا تفكر في الأمر أكثر من ذلك . . . الأفضل أن ننسى كل هذا بأسرع ما نستطيع . . ."

" لا أستطيع !"

"كلا يا سايمون !" وقد حصل هذا كنوع من الاحتجاج ولكن بلطف وتساؤل . " لا يستحق الأمر أن نأخذه بهذه الجدية . . .!"

"لا أستطيع ، أتسمعني ! لست رجلاً صالحاً بالدرجة نفسها التي أنت عليها!"

نظر إليه إرلند مذهولاً :

" لا أعرف ما تعنيه الآن " .

" أنا لست بالرجل الصالح بالدرجة نفسها التي أنت عليها! لا أستطيع أن أغفر بكل هذه السهولة لأولئك الذين أخطأت في حقهم . "

" لا أعرف ما تعنيه " ، قال الآخر كما من قبل .

" أعني . . ." أصبح وجه سايمون مجعداً ومشوهاً بالألم والانفعال ، تحدث بصوت خفيض وكأنه يكبح توقاً إلى الصراخ عالياً . " أعني . . . لقد سمعتك تقول كلمات طيبة عن سيغورد ، ذلك اللاغماند في ستايغن ، ذلك الرجل العجوز الذي سرقت منه زوجته . لقد رأيت وعرفت أنك أحببت لافرانس بكل حب قد يكنّه الابن لأبيه . ولم ألاحظ قط أنك تحمل أي ضغينة ضدي لأنك -أغويت خطيبتي وأخذتها مني . لستُ سامي المبادئ كما تظن يا إرلند - لست سامي المبادئ مثلك . . .أنا . . .أنا أحقد على الرجل الذي أخطأت في حقه . . ."

كانت وجنتاه قد تضرجتا من الانفعال ، فحدق إلى عيني الآخر . كان إرلند قد أصغى إليه بفم نصف مفتوح .

" هذا ما لم أحلم به حتى هذه الساعة ! هل تكرهني يا سايمون ؟ " همس مصعوقاً .

"ألا يبدو لك أن لديّ سبباً لذلك . . .؟"

ودون أن يعرف الرجلان ذلك فقد أوقفا جواديهما كلاهما . جلسا يحدقان

كلٌ إلى وجه الآخر : كانت عينا سايمون الصغيرتان تلتمعان مثل الفولاذ . في النور الأبيض السديمي لليل رأى أن ملامح إرلند الدقيقة كانت ترتجف ، وكأن شيئاً ما كان يتحرك فيه . . .استيقاظ ما . . .رفع نظره من تحت جفنيه نصف المغلقين ، وعضّ على شفته السفلى المرتجفة .

" لا أستطيع احتمال لقائك مرة أخرى ! "

"يا رجل ! . . . لقد حدث ما حدث قبل عشرين عاماً " ، انفجر إرلند مذهولاً .

" أجل . ألا تظنّ أنها تستحق التذكّر مدة عشرين عاماً ؟ "

انتصب إرلند في سرجه . . .وقابل تحديقة سايمون بثبات . راح نور القمر يعطي شرارة خضراء زرقاء في عينيه الفاتحتين الواسعتين .

" أجل . فليباركها الرب !"

وهكذا جلس للحظة . ثم همز جواده واندفع إلى الأمام على امتداد الطريق الموحل ، ناثراً الماء عالياً خلفه . كبح سايمون ديغربابن . . .كاد يقع أرضاً ، فقد كبح الجواد على نحو فجائي جداً . تأخر هناك على حافة الغابة محاولاً كبح الحيوان نافد الصبر ، طالما كان قادراً على سماع وقع الحوافر في الطين .

كان الندم قد غلبه في اللحظة التي قال فيها ما قاله . الندم والعار . . .لكأنه قد ضرب أكثر المخلوقات عجزاً . . .طفلاً . . . أو حيواناً جميلاً ولطيفاً دون عقل . . . في غضب لا معنى له . بدا له حقده كرمح مرتجف . . .بدا هو نفسه وقد انكمش بسبب بساطة هذا الرجل الخالية من الحكمة . . .طائر الشؤم هذا ، إرلند نيكولاوسون ، لا يتمتع إلا بالقليل جداً من الفهم ، لكأنما كان يجب أن نعتبره عاجزاً وبريئاً في آن معاً . . .

لعن وشتم في صمت وهو على حصانه . بريء . . .تجاوز الرجل الأربعين من عمره منذ زمن طويل . . .لقد آن الأوان كي يتعلم أن يتحمل أن يُخاطبه رجلاً

لرجل . إن كان سايمون قد جرح نفسه . . . أجل ، فليأخذه الشيطان إن لم يكن ذاك ثمناً بخساً يدفعه إن كان قد وجّه ضربة إلى إرلند ولو لمرة واحدة .

هاهو ينطلق الآن نحو البيت إليها . . ." ليباركها الرب " ، قال وهو يقلّده بسخرية . ثم ستكون هناك نهاية لكل هذا النضال لأجل الحب الأخوي . . .بين هذين الاثنين هناك ، بينه هو وبين ذاك . لم يعد في حاجة بعد الآن إلى مقابلة كريستين لافرانسداتر . . .

. . .جعلته الفكرة مبهور الأنفاس . . .ومع ذلك فليأخذ الشيطان كل ذلك ! ولم لا . . .؟ " إن آلمتك عينك فاقلعها " قالت الكهنة . ولأجل هذا السبب ، كما قال لنفسه ، قام بهذا الأمر . . .ليهرب من الإدعاء بوجود حب أخوي بينه وبين كريستين . . .لم يعد يحتمل الأمر . . .

كانت لديه أمنية واحدة الآن . . . ألا تستيقظ رامبورغ حين يعود إلى البيت .

ولكن ما أن سار بين الأسيجة حتى رأى شكلاً معتماً في عباءة يقف تحت شجر الحور الرجراج . كان كتان غطاء رأسها أبيض ظاهراً .

●

كانت تنتظر هنا كما قالت منذ أن وصل سيغورد إلى البيت . كانت الخادمات نائمات وكانت رامبورغ تحرك العصيدة بنفسها بعد أن صبتها من القدر لتبقى دافئة ووضعت لحم الخنزير المقدد والخبز على المائدة وجلبت جعة طازجة .

سألها الرجل وهو يأكل :" ألا تريدين أن تأوي إلى فراشك يا رامبورغ ؟"

لم تجب رامبورغ . ذهبت إلى نولها وبدأت تدخل وتخرج الكرات ذات الألوان المتعدّدة من السداة . كانت قد بدأت تصنع نسيجاً مطرزاً قبل عيد الميلاد ، ولكنها لم تكن أنجزت جزءاً كبيراً منه .

قالت وهي تقف وظهرها باتجاهه :" لقد انطلق إرلند شمالاً قبل فترة وجيزة . لقد ظننت مما قاله سيغورد أنك كنت قادماً معه ؟"

" كلا . . . لم يحدث ذلك . . ."

"أكان إرلند أكثر توقاً للبيت والفراش منك؟" ضحكت قليلاً . وحين لم تحصل على جواب قالت مجدداً : " إنه يتوق دائماً للعودة إلى البيت إلى كريستين حين تكون لديه مهمة تبعده عن البيت . . ."

بقي سايمون صامتاً فترة طويلة قبل أن يجيب : "لم نفترق إرلند وأنا كصديقين . "التفتت رامبورغ بحدّة . . .ثم قال لها ما سمعه في دايفرين ، وعن الجزء الأول من حواره مع إرلند وولديه .

" أعتقد أنه ليس أمراً منطقياً الاختلاف حول هذا . . .بعد أن استطعتما البقاء صديقين حتى الآن . "

"ربما . . .ولكن هذا ما جرى . ولكن كان صعباً سرد الحكاية كلها الليلة . "

•

التفتت رامبورغ إلى نولها وأشغلت نفسها بالعمل مجدداً .

سألته فجأة :" سايمون ، أتذكر الحكاية التي كان سيرا آيريك يقرأها لنا في بعض المرات-من الكتاب المقدس-عن فتاة شابة تسمى أبيشاع الشوناميتية؟"(*)

" كلا " .

" حين أصبح الملك داود شيخاً وبدأت قوته ورجولته تخونانه " ، بدأت زوجته بالكلام ولكن سايمون قاطعها :

"يا رامبورغ ، لقد مضى الشطر الأكبر من الليل . ليس الوقت ملائماً لسرد حكاية الآن . . .وأذكر أيضاً الآن كيف أطلق اسمها عليها . . ."

ضربت رامبورغ اللحمة بالقصبة . صمتت قليلاً ، ثم قالت مجدداً :

" أتذكر تلك الحكاية التي كان أبي يحكيها . . .عن تريستان(* *) الوسيم و إزولده الشقراء و إزولده السوداء؟"

" أجل ، أذكر تلك الحكاية " . دفع سايمون بالطبق بعيداً عنه ومسح فمه بقفا يده ونهض . اقترب من المدفأة . وضع قدماً على الحافة ومرفقه على ركبته وذقنه في يده ، ووقف ينظر إلى النار التي كانت تحرق نفسها في المدفأة الحجرية .

ومن الزاوية قرب النول جاء صوت رامبورغ المرتجف الذي يكاد ينهار :

" كنت أظن دائماً حين كنت أسمع تلك الحكايات بأن أولئك الرجال شأن الملك داوود والسير تريستان . . . لقد بدا ذاك أمراً أحمق وقاسياً ألا يحبوا زوجاتهم الشابات اللواتي كن يقدمن لهم عذريتهن وحب قلوبهن بكل لطف ونقاء ، أكثر من نساء شأن ليدي بيث-شيبا (* * *) أو إيزولده الشقراء اللتين ضيعتا نفسيهما بين ذراعي رجال آخرين . أعتقد أني لو كنت رجلاً لما كنت رجلاً شديد الافتقار إلى الاعتزاز بالنفس أو قسوة القلب" . . .توقفت منهكة . . ."أعتقد أنه أسوأ مصير ذاك الذي جرى لأبيشاع وإزولده أوف بريتلاند تلك . . ." التفتت بقوة وعبرت الغرفة ووقفت أمام زوجها . " ما الذي يقلقك يا رامبورغ ؟" تكلم سايمون بصوت خفيض دون تسامح . "لا أعرف ما تعنينه بهذا . . ."

قالت بقوة :"أجل بل تعرف . أنت تشبه تريستان ذاك . . ."

حاول أن يضحك . " هذا ما لا أعرفه إلا بالكاد ، أني أشبه . . .تريستان الأشقر . . .أما المرأتان اللتان ذكرت اسميهما . . .لو تذكرت على النحو الصحيح ، فقد عاشتا وماتتا عذراوين دون أن يلمسهما زوجاهما . . ." نظر إلى زوجته : كان وجهه الصغير ذو الزوايا الثلاثة شاحباً ، وعضت على شفتيها .

وضع سايمون قدمه على الأرض ووقف منتصباً ثم وضع يديه كلتيهما على كتفيها :

" رامبورغ ، ألم نرزق بولدين أنت وأنا ؟ " قال برقة . لم تجب .

" لقد حاولت أن أظهر لك أني كنت ممتناً لك لأجل تلك الهدية . لقد اعتبرت نفسي . . .لقد حاولت أن أكون زوجاً جيداً . . ."

لم تقل شيئاً بعد ، ترك يديه تسقطان . ذهب وجلس على المقعد . لحقت به رامبورغ ووقفت أمامه وهي تنظر إلى زوجها : الفخذان العريضان في بنطال مبلل موحل والجسم الضخم والوجه الثقيل الأحمر البني . بّوزت شفتيها في اشمئزاز .

" لقد أصبحت قبيحاً أيضاً مع السنين يا سايمون "

" أجل فأنا لم أعتبر نفسي قط رجلاً وسيماً " ، قال بجد .

"وأنا لست شابة وجميلة . . ." جلست على حضنه ، والدموع بدأت تنهمر من عينيها وهي تمسك برأسه بكلتا يديها : " سايمون - انظر إليّ - لماذا لا تستطيع أن تجازيني من هذا؟ . . .لم أرغب قط بأي رجل سواك . . .اعتقدت ، حتى منذ أن كنت فتاة صغيرة ، أن زوجي يجب أن يكون رجلاً مثلك . . .أتذكر كيف قدتنا كلتينا ، أولفهيلد وأنا من يدينا ؟ . . .كنت ستذهب مع أبي إلى الحظيرة لترى طيوره . . .حملتها فوق الجدول ، وكان أبي يريد حملي ولكني صرخت بأن عليك أنت أن تحملني أنا أيضاً ، أتذكر ؟ "

أومأ سايمون برأسه . تذكر جيداً أنه كان مغرماً جداً بأولفهيلد الطفلة الجميلة المعاقة التي بدت له مثيرة جداً للشفقة . . أما عن الصغرى فلم تكن لديه ذكرى سوى أنه كانت هناك واحدة أصغر من أولفهيلد .

" كان لك أجمل شعر . . ." تخللت أصابعها غرّته الكثيفة المموجة البنية الفاتحة اللون التي كانت تتدلى فوق جبينه . "ولا شعرة رمادية واحدة قد ظهرت في رأسك بعد . . .سرعان ما سيصبح شعر إرلند نصفه رمادياً ونصفه أسود . . .كما كنت أحب كثيراً غمازتيك في وجنتيك حين كنت تبتسم . . .وأنك كنت مرح الكلام جداً . . ."

" أجل ، ربما كنت أوسم آنذاك ممّا أنا عليه الآن . . ."

" كلا" ، همست بقوة . . ." ليس حين تنظر بلطف إليّ . . .أتذكر أول مرة نمت فيها بين ذراعيك ؟ .

" . . .نمت في السرير وأنا أبكي من ألم في ضرسي . . .كان أبي وأمي قد ناما . وكانت العلية مظلمة ، ولكنك اقتربت من المكان الذي كنا ننام فيه ، أولفهيلد وأنا ، وسألتني عن سبب بكائي . طلبت مني أن أهدأ وألا أوقظ الآخرين ، ثم حملتني بين ذراعيك وأشعلت الشمعة ثم قلّمت شريحة صغيرة من الخشب وفركت بها الضرس الفاسد حتى خرج الدم منه . ثم تلوت شيئاً مباركاً على الضرس وسرعان ما أصبحت في حالة جيدة ، وطلبت الإذن لأنام في سريرك وقد ضممتني بذراعيك . . ."

وضع سايمون يده على رأسها وضمه إلى كتفه . لقد تحدثت الآن عن الأمر وتذكره : جرى ذلك في تلك المرة التي كان فيها في يوروندغارد ليطلب من لافرانس أن يفك خطبته من كريستين . لم يكن قد نام سوى قليلاً في تلك الليلة ، وتذكر الآن أنه نهض مرة من فراشه وفعل شيئاً ما ليساعد رامبورغ الصغيرة التي كانت تستلقي وهي تتذمر من ألم في ضرسها . . .

" هل فعلت شيئاً يا رامبورغ في أي وقت من الأوقات يجعلك تعتبرين أن لك الحق في أن تقولي إني لا أحبك ؟ . . ."

" سايمون . . .ألا يبدو لك أني أستحق منك أن تحبني أكثر من كريستين؟ لقد كانت شريرة وغير وفية معك . . .أما أنا فقد تبعتك مثل كلب حضن صغير طوال هذه السنين . . ."

رفعها سايمون بلطف من حضنه ونهض وأمسك بيديها بين يديه!

" لا تذكري أختك بعد الآن يا رامبورغ . . .على ذلك النحو . أتساءل إن كنت تفهمين ما تقولينه . ألا تعتقدين أني أخشى الرب -هل تعتقدين أني أستطيع أن أكون دون خشية من العار وأسوأ الخطايا أو أني لن أتذكر أولادي وكل

أقربائي ؟ أنا زوجك يا رامبورغ . . .لا تنسي ذلك ولا تكلميني على هذا النحو . . ."

"أعرف أنك لم تنتهك قوانين الرب أو أنك تخليت عن إيمانك وشرفك . . ."

" لم يسبق أن تلفظت بكلمة واحدة لأختك أو لمستها بيدي على أي نحو لا أستطيع تحمل مسؤوليته يوم الحساب . . .والله والقديس سايمون الرسول شاهدان على ذلك . . ."

أومأت رامبورغ بصمت .

"أتظنين أن أختك كانت ستقابلني كما فعلت طوال هذه السنين لو فكرت كما تفكرين ، أي أني أحبها بشهوة آثمة ؟ كلا ، إذن فأنت لا تعرفين كريستين" .

" أوه ، إنها لم تفكر حتى في أن أي رجل آخر يحبها سوى إرلند . إنها لا تفكر بنا نحن الآخرين على أننا لحم ودم . . ."

" أجل ، لقد نطقت عين الصواب يا رامبورغ " ، قال سايمون بهدوء ." ولكنك تستطيعين أن تفهمي بنفسك كم كنت حمقاء حين رحت تزعجينني بمسألة الغيرة . "

سحبت رامبورغ يديها بعيداً .

" لم أقصد ذلك يا سايمون " . ولكنك لم تهتم بي قط كما تهتم بها . إنها دائماً في فكرك حتى الآن . . .ولكنك لا تفكر بي إلا نادراً حين لا تراني . "

" هذا ليس خطئي يا رامبورغ ، فقد جبل قلب الرجل على أن ما يكتب فيه في سن الشباب والنضارة يبقى محفوراً على نحو أعمق من كل الحروف التي ستكتب فيه لاحقاً . . ."

" ألم تسمع المثل الذي يقول : قلب الرجل هو أول شيء يتحرك في رحم

أمه ، وآخر شيء يموت فيه؟" قالت رامبورغ برقة .

" كلا . . . هل هناك مثل كهذا ؟ أجل وقد يكون صحيحاً أيضاً . ربت على خدها بخفة . "ولكن لو كنا سننام هذه الليلة ، فعلينا الذهاب إلى السرير الآن" ، قال لها متعباً .

نامت رامبورغ بعد فترة قصيرة ، بينما سحب سايمون ذراعه خلسة من تحت عنقها ، وتحرك بلطف نحو حافة السرير الخارجية وسحب الغطاء الفرو إلى تحت ذقنه ، كان قميصه عند الكتف مبلّلاً من دموعها . كان يتألم بمرارة لأجل زوجته . . .وقد فهم أيضاً ، بيأس جديد ، أنه لم يعد قادراً بعد الآن أن يعيش معها وهو يحسبها طفلة عمياء غريرة . عليه الآن أن يحسب حساب أن رامبورغ قد أضحت امرأة ناضجة .

كان زجاج النافذة رمادياً من الفجر . . .وقد أوشكت ليلة شهر أيار (مايو) هذه على النهاية . كان منهكاً حتى الموت . . .وغداً يوم قداس . لن يذهب إلى الكنيسة غداً . . .رغم أنه كان في حاجة ماسة للذهاب . لقد وعد لافرانس ذات مرة بل أنه لن يفوت أبداً قداساً دون سبب جيد . . .ولكنه فكر بمرارة أن حفاظه على عهده ذاك لم يساعده كثيراً خلال هذه السنوات كلها . غداً لن يذهب إلى القداس . . .

(*) أبيشاع : أمة داوود في شيخوخته . أراد أدونياه الزواج منها بعد موت داوود مما أثار حفيظة سليمان .(المترجم)

(**) تريستان وأزولده : حكاية رومانسية أيرلندية الأصل من العصور الوسطى حول تريستان الذي أرسل ليحضر أزولده عروس الملك مارك ملك كورنوول ، ولكنهما يشربان ترياق الحب فلا يستطيعان السيطرة على عواطفهما مما يؤدي بالتالي إلى موتها كليهما .(المترجم)

(***) باث-شيبا زوجة يورياه الحثي . أرسله داوود إلى الموت حتى يتزوجها من بعده . ولدت له سليمان (المترجم)

القسم الثاني

الدائنون



-١-

عرفت كريستين(٢) إنما جزئياً ما جرى بين إرلند وسايمون . حكى لها زوجها وبيورغولف ما قاله سايمون عن رحلته إلى دايفرين ، وأنهما تبادلا بعد ذلك كلمات سامية وفي النهاية افترقا دون وئام . " لا أستطيع أن أحكي لك عن هذه المسألة . "

كان إرلند شاحباً بعض الشيء وكان وجهه مكفهراً وقاسياً . لقد رأته على هذه الحال بضع مرات من قبل ، خلال سنوات زواجهما . وعرفت أن ذلك علامة على أن هذه مسائل لن يذكر عنها المزيد بعد الآن .

لم تكن ترتاح حين يقابل إرلند أسئلتها بهذه النظرة . والرب يعرف أنها لم تحب أن تعامل على أنها مجرد امرأة بسيطة . كانت ترغب في عدم تحمل أي مسؤولية سوى أطفالها ومنزلها . ولكنها دفعت إلى التدخل في كثير من الأمور بدا لها أن الرجل أقوى على التعامل معها . . .واتضح أن إرلند قد رأى أنه أمر ملائم ترك مثل هذه الأمور التي تثقل على كاهلها . وهكذا لم يبد له أنه أمر ملائم أن يأخذ هذه الأمور على محمل الجد وأن يجيب بلطف حين حاولت أن تعرف حقيقة أفعاله التي تؤثر على مصلحتهم جميعاً .

كانت تنظر إلى هذه الصداقة بين إرلند وسايمون دار بجدية . فقد كانت رامبورغ أختها الوحيدة . وحين فكرت بالأمر ، في أن سايمون لن يكون بينهم بعد الآن ، فهمت تماماً ، للمرة الأولى ، كم أصبحت تحب هذا الرجل وكم تدين له بالشكر . . .فضمن قدرها المحفوف بالأخطار كانت قد وضعت ثقتها في صداقته المخلصة .

وقد أضحت تعرف أنه في الريف كله الآن ستكون لدى النساء مادة جديدة للإشاعات . . .أن سكان يوروندغارد هناك قد تخاصموا مع سايمون أوف فورمو أيضاً . كان سايمون ورامبورغ محبوبين ومحترمين من قبل الجميع . أما هي وزوجها وأولادها فكان ينظر إليهم ـ على الأغلب ـ بريبة وكره . . .وكانت تعرف هذا منذ زمن طويل . و هاهم الآن قد بقوا دون أصدقاء . . .

شعرت كريستين وكأن عليها أن تنهار أرضاً من الحزن والعار في أول يوم أحد حين وصلت إلى مرج الكنيسة ورأت سايمون يقف هناك ، بعيداً بعض الشيء ، ضمن مجموعة من المرشحين لرتبة فارس . أومأ برأسه محيياً إياها ثم رداً على تحيتها ، ولكنها كانت المرة الأولى التي لا يتقدم فيها نحوها ليصافحها .

ولكن رامبورغ مضت نحو أختها وأخذت يدها :

" إنه لأمر سيئ يا أختي أن يتخاصم زوجانا . . .ولكني لا أرى داعياً للتخاصم فيما بيننا . . ."

ثم وقفت على أصابع قدميها وقبلت كريستين حتى يرى ذلك الناس المتواجدون في باحة الكنيسة . ولكن كريستين لم تعرف الأمر على حقيقته : بدا أنها تشعر في داخلها أن رامبورغ على أي حال لم تكن حزينة جداً . فهي لم يسبق لها أن أحبت إرلند قط . . .والله أعلم إن لم تكن حفزت زوجها ضدهم بمعرفة أو دون معرفة منها . . .

ومع ذلك كانت رامبورغ تتقدم دائماً بعد ذلك لتحييّ أختها حين تتقابلان

في الكنيسة . وقد صاحت أولفهيلد بصوت مرتفع متسائلة عن السبب في أن خالتها لم تعد تحضر لزيارتهم . ثم عدت نحو إرلند وتشبثت به وبأولاده الكبار . أما آرنغييرد التي كانت تقف هادئة قرب زوجة أبيها ، فقد أمسكت بيد كريستين وبدت مضطربة . هذا وقد حرص سايمون وإرلند وأبناؤه على الابتعاد عن بعضهم البعض ما وسعهم ذلك .

كانت كريستين تفتقد أولاد أختها بشدة . كانت تحب البنتين كثيراً . وفي أحد الأيام حين أحضرت رامبورغ ابنها إلى القداس ، وكانت كريستين تقبّل أندرس بعد انتهاء الطقوس ، فقد راحت تبكي . فهذا الصبي ضعيف البنية رقيق الصحة قد أصبح عزيزاً جداً عليها . . .ولم تستطع مغالبة الشعور بأنه لم يعد لديها أطفال صغار وأنه كان أمراً يبعث على السلوان حقاً أن تهتم بابن أختها الصغير هذا في فورمو و تدلله ، وذلك حين كان والداه يحضرانه معهما إلى يوروندغارد .

•

ومن غاوته سمعت المزيد عن الأمر ، فقد حكى لها الكلمات التي تبودلت بين إرلند وسايمون في الليلة التي تقابلا فيها كوخ سكيندفيلد غودرون . كانت كلما تأملت في هذه الأمور كلما بدا لها أن إرلند كان المخطئ . كانت غاضبة من سايمون فلا شك أنه يعرف إرلند جيداً إلى حد أنه يعلم أن إرلند ما كان قادراً على خداع عديله على ذلك النحو . . . فما أغرب الأشياء التي قد يقوم بها دون تفكير أو بسبب مزاجه الناري . . .وحين يلاحظ ما جرى كان غالباً ما كان يتصرف كجواد خجول أفلت من صاحبه وانقض من الخوف بجنون على ما كان يجرّه خلفه .

ولكن إرلند لم يستطع أن يفهم أن بعض الناس كان أحياناً مضطراً إلى مخاصمته لتجنب الأذى الذي كان يتحلى بموهبة نادرة في إلحاقه بالآخرين! ولم

يكن يهتم آنئذ بما يقوله أو بكيفية تصرفه ! تذكرت تلك الأيام حين كانت هي نفسها شابة ورقيقة . . .فقد شعرت المرة تلو الأخرى وكأنه كان يدوس على قلبها بأفعاله المتهورة . حتى أخوه غونولف كان قد قاطعه . وحتى قبل لجوئه إلى الدير ، كان أخوه هذا قد ابتعد عنهم ، وعرفت أن إرلند هو الملوم في ذلك . . .فغالباً ما كان يسيئ إلى هذا الأخ الورع النبيل ، رغم أن غونولف لم يسبق له قط أن أساء إلى إرلند بحسب ما تعرف . وهاهو الآن قد أبعد سايمون عنه ، وحين أرادت أن تعرف السبب وراء الخصام بينه وبين صديقهم الوحيد ، كان يتخذ وضعية مترعة بالتكبر ويقول إنه لن يخبرها . . .

•

أما لناكفه فقد حكى تفاصيل أخرى كما لاحظت .

أضحت الأم أكثر تألماً وقلقاً حين لاحظت أن إرلند وابنها البكر كانا يصمتان أو يحولان حديثهما إلى قضية أخرى ما أن تقترب منهما . . .ولم يكن هذا يحدث نادراً .

كان غاوته ولافرانس ومونان أقرب إلى أمهما مّما كان نيكولاوس قط ، وقد كانت تحادثهم أكثر بكثير مما تحادثه . ومع ذلك فقد بدا لها دائماً أن بكرها بين كل الأبناء كان بطريقة من الطرق هو الأقرب إلى قلبها . وبما أنها عادت لتسكن في يورروندغارد مجدداً ، فإن ذكريات ذلك الزمن الذي كانت فيه حاملاً بهذا الابن تحت قلبها ، ومولده ، كانت ذكريات حية وقريبة إلى حد غريب . فقد أدركت بطرق كثيرة أنه هنا في"سيل" ، لم يكن الناس قد نسوا خطيئة شبابها . لكأنما كانوا يحملونها مسؤولية تلطيخ شرف الريف الذي شهد مولدها كله ، هي ، ابنة الرجل الذي كان الجميع هنا ينظرون إليه كزعيم لهم ، قد ضلت الطريق . لم يكونوا قد غفروا لها حتى الآن أنها وإرلند قد أضافا إلى عاره و أساه الإهانة حين

خدعاه إذ جعلاه يزف بنتاً خاطئة في أفخر طقوس زفافيّة جرت هنا في الديل الشمالي يستطيع أي شخص أن يتذكرها .

لم تستطع كريستين أن تعرف إن كان إرلند يعلم أن الناس كانوا الآن ينبشون الحكايات القديمة مجدداً . ولكنه حتى لو عرف فإنه لا يبدو كمن يهتم إطلاقاً في الأمر . لم يكن لسكان "الديل" أي قيمة لديه إلا باعتبارهم مزارعين يلبسون ثياباً من الصوف الخشن وعمال زراعة قرويين ، جميعاً . . .وقد علّم أولاده أن يفكروا على نحو مشابه . كان مؤلماً لروحها أن تعرف أن هؤلاء الرجال والنساء الذين كانوا يفكرون بها كثيراً ويتمنون لها الخير في تلك الأيام حين كانت ابنة لافرانس بيورغولفسون الفاتنة ، و"وزهرة الديل" ، أصبحوا الآن يحتقرون إرلند نيكولاوسون وزوجته و يحكمون عليهما بقسوة . لم تتوسل هؤلاء الناس و لم تبك لأنها أصبحت غريبة بينهم . ولكن ذلك آلمها بشدة . وقد بدا لها أنه حتى الجبال المحيطة بالديل والتي كانت تحمي وتحرس طفولتها راحت تنظر إليها وإلى بيتها على نحو آخر . . .بحقد أسود وإرادة قاسية رمادية حتى تضعف روحها .

لقد بكت بمرارة ذات مرة . . .وقد عرف إرلند بذلك ، ولم يكن صبوراً معها آنذاك . وحين علم أنها أمضت تلك الشهور الكثيرة لوحدها مع طفله ، حمل ثقيل تحت قلبها الحزين الخائف ، فإنه لم يضمها بين ذراعيه ويواسيها برقّته وكلماته المترعة بالحب . لقد غضب وأحس بالعار حين رأى أنه سيتكشف الآن كم كان غير جدير في معاملته للافرانس . . .ولكنه لم يفكر كم قد يكون الأمر أسوأ بالنسبة لها حين يكون عليها أن تقف مجللة بالعار أمام أبيها الفخور بنفسه والذي يحبها .

كما أن إرلند لم يستقبل ابنه بالكثير من الفرح حين ولدت له أخيراً هذا الطفل ليشاهد النور . في تلك الساعة ، حين ارتاحت من ألمها الروحي الذي لا نهاية له ، ومن الرعب والعذاب ، ورأت العبء البشع عديم الشكل لخطيئتها وهو

يمتلىء حياة تحت صلوات كاهنها القوية ويتحول ليصبح أجمل الأطفال ، سليماً معافى دون أي شائنة . . .في تلك اللحظة بدا لها وكأن قلبها ذاب من السعادة المتواضعة ، وأنه حتى دم جسدها الحار المتحدي تحول إلى حليب أبيض حلو بريء . أجل ، بعون الله قد يصبح بشرياً مع مرور الزمن كما قال إرلند ، وهي مستلقية هناك في الفراش وكانت تريد منه أن يفرح معها لهذا الكنز النفيس ، حتى أنها ما كانت تتحمل أن يؤخذ من يديها فترة كافية لتقوم النساء برعايته . ومع ذلك فقد أحب طفليه من إلين أورمسداتر . وقد رأت ذلك وعرفته . ولكنها حين حملت ناكفه إلى أبيه وأرادت أن تضعه بين ذراعيه ، عبس إرلند وسألها عما يستطيع فعله بهذا الطفل الذي كان يرشح من الأعلى ومن الأسفل . بقي إرلند ينظر شزراً مدة طويلة إلى ابنه البكر . . .ولم يستطع أن ينسى أنه قد جاء إلى هذه الدنيا في وقت غير ملائم . . .مع أن الصبي كان وسيماً وفاتناً ومحبوباً جداً حتى أن أي أب كان سيشع سعادة وهو يرى ابنه ينمو ليحلّ محله .

وقد أحب ناكفه أباه حتى أنه كان أمراً عجباً مشاهدة ذلك . . .وحتى منذ أن كان رضيعاً صغيراً . كان وجهه الصغير يشع كالشمس لو وضعه أبوه بين ركبتيه لحظة واحدة وقال له كلمتين فحسب ، أو لو تركه الرجل يمسك بيده وهو يعبر الباحة . كان ناكفه يبذل قصارى جهده ليكسب رضا والده في تلك الأيام حين كان إرلند يحب كل أطفاله الآخرين أكثر من هذا الطفل . كان بيورغولف ابن أبيه المفضل حين كان الآخرون صغاراً . ثم كان إرلند يأخذ أبناءه الصغار معه إلى مخزن سلاح الفرسان حين تكون لديه مهمة هناك . . .كل الدروع والأسلحة غير المستخدمة يومياً في هوسابي كانت محفوظة هناك . وبينما كان الأب يتكلم ويمزح مع بيورغولف ، كان ناكفه يجلس هادئاً كفأر على خزانة . . .كان يلهث من شدة فرحه لأنه أذن له بالجلوس هناك .

ولكن مع مرور الوقت وبسبب بصره الضعيف لم يكن بيورغولف يغادر مع أبيه ، شأن إخوته ، وحين أصبح الصبي أكثر عزلة وصمتاً حين يكون مع أبيه ، فقد تغير هذا كله . لكأنما أصبح إرلند خجلاً بعض الشيء من ابنه . كانت كريستين تتساءل أحياناً إن لم يكن بيورغولف يلوم أباه في قلبه لأنه ضيع كل ثروتهم وأطاح بحظوظ أولاده معه حين تعرض هو للسقوط . . .وإن لم يكن إرلند يعرف أو يخمن هذا . وعلى أي حال ، فقد بدا وكأن بيورغولف وحده ، بين كل أبناء إرلند ، لا ينظر إلى أبيه بعيون الحب الأعمى أو باعتزاز لا حدود له وهو يناديه بأبي .

في أحد الأيام لاحظ الاثنان الأصغر سناً بين الأبناء أن أباهما كان يقرأ المزامير في الصباح ويصوم على الخبز والماء . سألاه عن السبب في ذلك . . .فلم يكن ذلك اليوم يوم صيام . أجاب إرلند إن ذاك لأجل التكفير عن خطاياه . عرفت كريستين أن أيام الصوم هذه كانت جزءاً من الكفارة التي فرضت على إرلند لأجل الزنا الذي ارتكبه مع سونيفا أولافسداتر ، وأن أكبر الأبناء على الأقل كان يعرف بذلك . بدا ناكفه وغاوته وكأنهما لا يفكران في ذلك ، ولكن حدث أنها نظرت آنذاك إلى بيورغولف : كان الصبي يجلس هناك يرمش بعينيه الحسيرتين إلى طبق اللحم خاصته وهو يبتسم لنفسه . . .هكذا رأت كريستين غونولف يبتسم ذات مرة ثم مرة أخرى حين ركب إرلند الحصان العالي . لم تعجب الأم بالمشهد .

والآن كان ناكفه هو الذي يصاحب إرلند باستمرار . وقد عاش وكأن جذور كيانه كلها كانت محبوكة مع أبيه . خدم ناكفه أباه كما يخدم وصيف شاب سيده وزعيمه : كان لا يدع أحداً غيره يعتني بحصان أبيه ويرعى له عدة ركوبه وأسلحته . كان يثبت له مهمازه على قدمه ويحمل له قبعته وعباءته حين يغادر . كان يملأ كوب أبيه ويقطع له خبزه على المائدة حين يجلس إلى يمين إرلند .كان

إرلند يضحك قليلاً من تصرفات الشاب المهذبة ، ولكنه كان يحبها جيداً وشيئاً فشيئاً أصبح ناكفه ملكاً خاصاً لأبيه .

لاحظت كريستين أنه قد نسي الآن تماماً كم كافحت وصلّت لتكسب منه القليل من الحب الأبوي لهذا الطفل . كما كان ناكفه قد نسي ذلك الزمن حين كان صغيراً وكان يلجأ إلى أمه لينشد الراحة من كل الشرور ويشاورها في كل مشاكله . كان دائماً ابناً محباً لأمه ، وكان لا يزال على هذه الشاكلة ، ولكنها أحست أن الصبي كان كلما كبر كلما ابتعد عنها وعن كل همومها . لم يكن ناكفه يكترث بأي من مشاكلها الكثيرة . لم يكره تنفيذ أي شيء تطلبه منه ، ولكنه كان أخرق في استخدام يديه وغير ماهر في كل ما له علاقة بالأعمال الزراعية . . .وكان يؤديها دون حياة وبفتور ، ولم يكن بنهي أي عمل . كان كثير الشبه بأخيه غير الشقيق الراحل أورم إرلندسون وذلك من نواح كثيرة ، كما فكرت أمه . . .وكان يشبهه من حيث المظهر أيضاً . ولكن ناكفه كان قوياً سليم البنية ، محباً للرقص وكل أنواع الرياضة ، كما كان ماهراً برمي القوس وماهراً أيضاً في استخدام الأسلحة الأخرى وفارساً جيداً وراكب زلاّجة متميزاً . وقد تحدثت كريستين ذات يوم مع أولف هالدورسون حول هذا ، وكان هذا أباه بالتبني ، فقال أولف :

" لم يخسر أحد بسبب حماقة إرلند بقدر ما خسر هذا الشاب . لا يوجد من يبزّ ناكفه في النرويج في هذه الأيام ليكون فارساً ونبيلاً عظيماً . "

ولكن أمه رأت أن ناكفه لم يفكر قط فيما حرم منه بسبب غلطة أبيه .

•

في هذه الفترة حدثت أيضاً قلاقل كبيرة في النرويج وسرت إشاعات شمالاً عبر أبرشيات الديل ، وربما كان بعضها غير قابل للتصديق إطلاقاً . كان اللوردات الكبار جنوباً وغرباً في المملكة وعبر " الأراضي المرتفعة" يشعرون بالسخط

الشديد من حكم الملك ماغنوس . . .وكان يقال إنهم هددوا بصراحة باللجوء إلى السلاح ، وإثارة العامة وإحضار السير ماغنوس إريكسون ليحكمهم حسب إرادتهم و مشورتهم ، أو تنصيب ابن خالته يون هافتورسون أوف سودرهايم ملكاً بدلاً عنه . . .كانت أمه هي الليدي آغنس بنت الملك هاكون هالغ طيب الذكر . لم يكن يعرف عن يون نفسه سوى القليل ، ولكن كان يقال إن أخاه سيغورد كان زعيم ومحرك المشروع الجريء كله وكذلك كان بيارن بن إرلينغ فيدكونسون الشاب بين مستشاريهم . . .وحكى الناس كيف أن سيغورد قد أقسم أنه لو أصبح يون ملكاً فسوف يتزوج إحدى أخوات بيارن لينصبها ملكة له ، فقد كانت العذارى في غيسكه أيضاً من نسل الملوك النرويجيين القدامى . ويقال أن السير إيفار أوغموندسون ، وكان سابقاً من أكبر مؤيدي الملك ماغنوس ، قد انضم إلى فريق هؤلاء النبلاء الشبان وكثير من الرجال الآخرين الأغنى والأنبل في البلاد . . .كما كان يقال عن إرلينغ فيدكونسون وأسقف بيورغفين إنهما كانا يحرّضان الناس من بعيد .

أصغت كريستين قليلاً فحسب لهذه الإشاعات . فكرت بمرارة : إنهم مجرد أناس صغار من حيث المقام الآن ، ولم تكن قضايا المملكة تخصّهم . ومع ذلك ففي الخريف الماضي كانت قد تكلمت عن هذه الأمور مع سايمون أندرسون ، وكانت تعرف أنه تكلم عنها مع إرلند . ولكن رأت أن سايمون لم يكن راغباً في الحديث عن هذه القضايا . . .وذلك لأنه لم يكن يحب أن يتورط أخوته في هذه الأفعال الخطرة ، ولأن غيرد على الأقل كما كانت تعرف ، كان يقاد من أنفه من قبل أهل زوجته . ولكنه كان يخشى أيضاً أن الحديث عن مثل هذه الأمور يقلق إرلند ، حيث أنه كان مولوداً ليجلس بين الرجال الذين يتقابلون للتشاور حول مملكة النرويج ، ولكن سوء الحظ حرمه من زمالة أنداده .

ولكن كريستين كانت تعرف أن إرلند كان يكلم أولاده عن هذه الأمور . وفي أحد الأيام سمعت ناكفه يقول :

"ولكن لو استطاع هؤلاء اللوردات أن يثبتوا وجودهم أمام الملك ماغنوس ، فلا يمكنهم دون شك أن يكونوا وضيعين إلى حد لا يطالبون الملك معه أن يصحح الخطأ الذي ارتكبه بحقك . "

ضحك إرلند ، ولكن ابنه تابع يقول :

"لقد ارشدت هؤلاء اللوردات الى الطريق وذكّرت الناس بأنه ليس من عادة زعماء النرويج في القديم أن يجلسوا ساكنين ويتأملوا الاضطهاد الذي يمارسه ملوكهم . لقد كلفك ذلك أراضيك التي ورثتها وإقطاعاتك . . .أما الرجال الذين تحالفوا معك فلم يصابوا بأي أذى . . .لقد دفعت وحدك الثمن عنهم جميعاً . . ."

"أجل ، لذلك لديهم سبب أفضل لينسوني ، على ما أعتقد " ، قال إرلند ضاحكاً . " كما أصبحت هوسابي تحت عهدة الأسقفية . أعتقد أن لوردات المجلس لن يزعجوا قط الملك ماغنوس اليائس الفقير المفلس ليعيد إليّ ما فقدته . . ."

" الملك قريبك وكذلك سيغورد هافتورسون ومعظم هؤلاء الرجال " ، أجاب ناكفه بقوة . " كيف يمكنهم دون خجل أن يتخلوا عن ذلك الرجل بالذات بين كل نبلاء النرويج الذي حمل ترسه بشرف إلى المستنقعات الشمالية وطهّر فنلندا وشاطئ غاندفيك من أعداء الملك والرب . . .سيكونون جبناء خسيسين . . ."

صفّر إرلند .

" يا بنيّ . . .هناك شيء واحد أستطيع أن أقوله لك . لا أعرف كيف سينتهي إليه مشروع أولاد هافتور ، ولكني أراهن بعنقي أنهم لن يتجرؤوا على رفع سيف نرويجي مجرد على السير ماغنوس . أعتقد أنه ستكون هناك مقايضات

ونقاش ، ولكن لن يطلق سهم واحد . وهؤلاء السادة لن يتقدموا بأي قضية لأنهم يعرفونني ويعرفون جيداً أني لست أجبن أمام الفولاذ البارد شأن الآخرين . . .

"تقول إنهم أقربائي . . .أجل إنهم أولاد عمك من الدرجة الثالثة ، كل من ماغنوس وأولاد هافتور . أتذكرهم من أيام خدمتي في بلاط الملك هاكون . . .كان الأمر جيداً لقريبتك الليدي أغنس كونها ابنة الملك . . .وإلاّ لاضطرت ربما أن تعيش من العمل على المغزل وتنظيف السمك ، لولا أن سيدة كأمك قد استأجرتها لتساعدها في حظيرة البقر كنوع من الإحسان الناجم عن الورع . لقد جففت مرات كثيرة أنوف أولاد هافتور أولئك حين كانوا يحضرون أمام جدهم لأمهم وكانوا يدخلون إلى القاعة مهرولين وقد تلوثت أنوفهم كأنهم ولدوا للتو . . .ولو رأيتهم يتشاجرون كنت كابن عم لهم ألقنهم آداب السلوك . كانوا يصرخون كخنازير عالقة . لقد سمعت أن هؤلاء الحمقى من سودرهايم قد أصبحوا رجالاً أخيراً . ولكن أن تطلب مساعدة منهم كأقرباء . . .أشبه بغزل الثلج لتحصل على الصوف . . ."

لاحقاً قالت كريستين لإرلند :

" ناكفه لازال شاباً صغيراً يا زوجي العزيز . . .ألا تعتقد أنه من غير الحكمة التحدث معه بكل هذه الحرية حول مثل هذه القضايا؟"

" وأنت رقيقة الحديث جداً يا زوجتي العزيزة ، " ، قال مبتسماً " حتى أني أرى جيداً أنك ستعنفينني . . .حين كنت في سن ناكفه ، كنت قد سافرت شمالاً إلى فارغوي للمرة الأولى . لو كانت الليدي إنجيبورغ مخلصة وصادقة معي" ، وهنا أنفجر غاضباً ، " لكنت سأرسل لها ناكفه وغاوته للعمل بخدمتها . . .هناك في الدانمارك توجد فرصة أفضل للتقدم أمام شابين حيويين يحملان دماً دافئاً في شرايينهما ."

قالت كريستين بمرارة : " لم أفكر حين ولدت لك هؤلاء الأولاد أن أبناءنا سيبحثون عن خبزهم في بلاد أجنبية" .

قال إرلند :" تعرفين أني لم أفكر في ذلك أيضاً ولكن الإنسان يتمنى والرب يتصرف . . ."

•

وهكذا قالت كريستين في نفسها إنه لم يكن يؤلم قلبها وحدها أن تلاحظ أن إرلند وأبناءها ، وهم قد كبروا الآن ، كانوا يتصرفون وكأن شؤونهم كانت خارجة عن محيط اهتمام النساء . وكانت تخشى أيضاً من لسان إرلند المتهور . . .لم يكن يتذكر قط أن أبناءه لم يكونوا أكثر من مجرد أطفال .

ورغم أنهم كانوا لا يزالون يافعين وصغاراً : كان نيكولاوس في السابعة عشرة الآن وبيورغولف في السادسة عشرة وغاوته سيصبح في الخامسة عشرة في وقت الحصاد . . .فقد سبق لهؤلاء الثلاثة أن كانت لهم مع النساء أموراً جعلت أمهم تشعر بالقلق .

صحيح أنه لم يحدث شيء يمكنها أن تشير إليه حقاً . لم يكونوا يجرون وراء النساء ولم يكونوا من النوع الفظ في كلامه أو قذر اللسان ، ولم يكونوا راضين حين كان الخدم يعرضون أن يرموا أمامهم نكات بذيئة أو يقصوا حكايات شبقة أمام سكان الضيعة . ولكن إرلند أيضاً كان يتصرف دائماً على نحو لائق ومتواضع فيما يخص هذه المسائل . . .لقد لاحظت أنه كان يخجل من الحديث الذي كان يجعل أباها وسايمون يضحكان من كل قلبيهما . ولكن في تلك الأيام كانت تشعر على نحو غامض أن الآخرين كانوا يضحكون كما يضحك الفلاحون من حكايات تحكى عن غباء الشيطان . . .بينما العلماء الذين يعرفون أساليبه الشريرة لا يهتمون إلا قليلاً بمثل هذا المزاح .

وقد يدعي إرلند أيضاً أنه بريء من إثم الجري خلف النساء . . .فقط الناس الذين لم يعرفوا الرجل كانوا يظنونه متحرراً من حيث إغوائهن وتضليلهن عن طريق الصواب . لم تنكر لنفسها أن إرلند قد نفذ إرادته معها دون استخدام أشربة الحب السحرية ودون استخدام القوة أو الخداع . أما بالنسبة للمرأتين المتزوجتين اللتين مارس الخطيئة معهما ، فقد كانت متأكدة أن إرلند لم يكن هو الذي مارس الإغواء . ولكن حين تقابله نساء خفيفات في منتصف الطريق مع ضحكة مغوية وجريئة ، فقد لاحظت أنه يصبح فضولياً كطفل صغير . . .ويبدو وكأن دفقاً من الخفة السرية الجريئة يخرج من كامل جسد الرجل .

وبرعب ، فقد اعتبرت أنها رأت أولاد إرلند مشابهين لأبيهم في هذا الخصوص . . .كانوا ينسون أن يفكروا قبل القيام بأي عمل ، بحكم الناس الآخرين . . .رغم أنهم كانوا يتأثرون جداً لاحقاً بما كان يقال . وحين كانت النساء تقابلهن بابتسامات وترحاب ، لم يكونوا خجولين أو متعثرين أو كئيبين ، مثل معظم الشبان في أعمارهم . . .بل كانوا يبتسمون ويثرثرون ويتصرفون بسهولة وحرية كما لو كانوا قد ذهبوا إلى بلاط الملك وتعلموا أساليب البلاط . كانت كريستين خائفة من أن يتعرضوا للمشاكل من مجرد بساطتهم . . .لقد بدت لأمهم ربات البيوت الغنيات وبناتهن ، وكذلك النساء الخادمات الفقيرات أكثر جرأة في أسلوبهن تجاه هؤلاء الشبان الصغار الوسيمين . . .ولكنهم كانوا يحتدون من الغضب شأنهم شأن الشبان ، لو مازحهم أحد ما حول امرأة ما . لقد فعلت ذلك غالباً فريدا ستيركرسداتر على وجه الخصوص . . .كانت حمقاء المزاج ، عجوزاً ليس أصغر بسنوات كثيرة من سيدة المنزل نفسها ، وكان لها طفلان غير شرعيين . . .وبالنسبة إلى الطفل الأخير فقد صممت على أن تجد له أباً ، ولكن كريستين كانت تقدم الحماية للمخلوقة المسكينة ، فقد رعت بيورغولف وسكوله بعناية وحب ، إذ كانت تهذر مع الصبيان حول العذارى الشابات .

فكرت كريستين الآن أنه من الأفضل لها لو استطاعت تزويج أبنائها في سن مبكرة . ولكنها عرفت أن هذا لن يكون سهلاً . . .فالرجال الذين تلائم بناتهم ناكفه وبيورغولف من حيث المحتد والنسب ، سيعتبرون أن أبنائي ليسوا أغنياء بما فيه الكفاية . أما عداوة الملك والحكم الذي حلّ بأبيهم فسيقفان حجر عثرة في الطريق لو حاول أولادها تحسين مصيرهما في خدمة لوردات كبار . فكرت بمرارة بتلك الأزمنة حين كان إرلند وإرلينغ فيدكونسون يتحدثان عن الزواج بين ناكفه وإحدى بنات الوصي السامي على العرش .

كانت تعرف بالفعل فتاة يافعة أو أكثر بين الوديان يمكن أن تكون إحداهن ملائمة ، غنية ومن عائلة جيدة ، رغم أن أسلافهن قبل عدة أجيال لم يخدموا في البلاط ، وبقوا في مواطنهم . ولكنها لم تستطع مغالبة الأفكار في أنها وإرلند قد يحصلان على جواب بالرفض لو خطبا بنت أحد هؤلاء الملاّك الكبار للأراضي . وهنا كان يمكن لسايمون دار أن يكون أفضل ناطق باسمها . . .والآن حرمهم إرلند هذا المعاون .

لم يكن أي من أبنائها ذا ميل للانضمام إلى خدمة الكنيسة . . .ما لم يكن ذاك هو غاوته أو لافرانس . ولكن لافرانس كان لا يزال صغيراً . وبين كل أبنائها كان غاوته هو الوحيد الذي كانت مساعدته في المزرعة ذات فائدة لها .

كانت العاصفة والثلج قد دمرا الأسيجة في هذه السنة ، وكان سقوط الثلج في أيام الربيع في " قداس الصليب المقدس" (٣أيار/مايو) قد أعاق العمل ، حتى أن الناس كانوا مدفوعين للانتهاء في الوقت الملائم . لذلك أرسلت كريستين في أحد الأيام ناكفه وبيورغولف لإصلاح السياج من حول حقل كان قريباً من الطريق العام .

في فترة العصر مضت أمهما لترى كيف كان الشابان يؤديان هذا العمل غير المعتاد . كان بيورغولف يعمل على إصلاح سياج طريق المزرعة . . .توقفت قليلاً لتحادثه . ثم تابعت طريقها شمالاً . وسرعان ما شاهدت ناكفه منحنياً فوق السياج يحادث امرأة تركب حصاناً توقفت عند سياج الطريق قريباً من الوتد . كان يداعب الحصان ثم أمسك بالفتاة من كاحلها وسرعان ما حرك يده قليلاً نحو الأعلى كأنما بجرأة .

شاهدت الفتاة الشابة الأم أولاً . احمر وجهها وقالت شيئاً ما لناكفه . سحب يده بسرعة وبدا محبطاً نوعاً ما . كانت الفتاة ستتابع سيرها ، ولكن كريستين نادتها محيية ، ثم حادثتها قليلاً بعد ذلك وسألت عن قريبتها . . .كانت ابنة أخت سيدة أولفسفولدين ، وكانت في زيارة إلى هناك مؤخراً . تظاهرت كريستين بأنها لم تر شيئاً ، ثم حادثت ناكفه قليلاً عند السياج بعد رحيل الفتاة .

وقد صدف بعد هذا بفترة غير طويلة أن كانت كريستين في أولفسفولدين لمدة أسبوعين . فالمرأة هناك كانت في المخاض ، وقد عانت بعد ولادة الطفل من مرض خطير . بقيت كريستين هناك كجارة لها وكامرأة تعتبر الأكثر مهارة كحكيمة في الأبرشية كلها . خلال هذه الفترة كان ناكفه غالباً ما يأتي حاملاً الرسائل والمهمات لأمه ، وكانت هذه الفتاة ، إيفور هاكونسداتر ، غالباً ما تجد الوسيلة لمقابلته والتحدث إليه . لم ينل هذا رضى كريستين . . .فهي لم تجد ميلاً في نفسها لهذه الفتاة ولا استطاعت أن ترى أن إيفور كانت جميلة كما كان معظم الرجال يرونها حسب ما سمعت . كانت سعيدة في اليوم الذي سمعت فيه أن إيفور ستعود إلى بيتها مجدداً في راومسدال .

ومع ذلك فهي لم تعتبر أن ناكفه لم يكن مهتماً بإيفور ، خاصة حين سمعت فريدا تمازح ابنة المنزل في لوبتسغارد ، " آستا أودونسداتر " ، وتغيظ ناكفه حول هذا الموضوع .

كانت كريستين في أحد الأيام في غرفة الجعة تغلي منقوع العرعر ، وسمعت فريدا تثرثر مجدداً حول هذا الأمر . كان ناكفه وغاوته وأبوهما في الخارج في الباحة الخلفية ، يعملون على صنع زورق يريدون استخدامه لصيد السمك في البحيرة هناك عالياً بين الجبال . . .كان إرلند ماهراً في صنع الزوارق . وكان ناكفه يشمع الخشب ، ولكن غاوته انضم الآن إلى الإغاظة . . .كانت آستا عروساً مناسبة كما قال .

قال أخوه بغضب :" اطلبها لنفسك إذا كنت تعتبرها كذلك . "

أجاب غاوته : " كلا ، لا أريدها ، سمعت أن الشعر الأحمر وغابة التنوب يزدهران على الأرض القاحلة . . . ولكني أتمنى لو كان لديك ميل للشعر الأحمر . . ."

" أجل ، ولكن هذه الكلمة لا تنطبق على النساء أيضاً يا بني " ، قال إرلند ضاحكاً . " الزوجات حمراوات الشعر يكنَّ بيضاوات طريات اللحم . . . "

ضحكت فريدا عالياً ، ولكن كريستين أحست بالغضب . بدا لها هذا كلاماً غير ملائم أمام فتيين صغيرين . ثم تذكرت أيضاً أن سونيفا أولافسداتر كانت ذات شعر أحمر ، رغم أن صديقاتها يقلن إنه ذهبي . ثم قال غاوته :

" كن سعيداً لأني لم أذكر هذا من قبل فأنا لم أجرؤ خوفاً من الخطيئة . في ليلة الحراسة في وايتسنداي ، جلست أنت مع آستا في حظيرة العشر طوال الوقت الذي كنا نرقص فيه على مرج الكنيسة . . .فلا شك أنك تحبها . . ."

كان ناكفه سينقض على أخيه لولا أن كريستين خرجت في تلك اللحظة . وبعد أن ذهب غاوته سألت الأم الفتى الآخر :

" ما هذا الذي قاله غاوته عنك وعن آستا أودونسداتر ؟ "

" أعتقد يا أمي أن لا شيء قيل ولم تسمعيه " . هكذا أجاب الفتى . . .وقد تضرج وجهه وعبس غاضباً .

قالت كريستين مستثارة :

" إنه لأمر سيئ ألاّ تقوموا أنتم الشبان بالمحافظة على ليلة الحراسة بل بالرقص والعبث بين النوبات . لم يكن ذلك دأبنا حين كنت لا أزال شابة صغيرة . . . "

" لقد قلت يا أمي إنك حين كنت صغيرة كان جدي يغنّي غالباً للناس حين كانوا يرقصون على مرج الكنيسة . . . "

قالت الأم : " أجل ، ولكنها لم تكن أغاني كهذه ولم يكن الرقص مجنوناً كهذا . وكنا نحن معشر الشباب نبقى إلى القرب من آبائنا . . . لم نكن ننطلق زوجاً زوجاً للجلوس في الحظائر . . . "

بدا ناكفه مستعداً للرد بغضب ، حين حدث أن نظرت كريستين إلى إرلند . كان يبتسم خفية ، بينما ينظر بعين واحدة على امتداد لوح الخشب الذي كان يشذبه بفأسه . عادت إلى غرفة التخمير مجدداً وهي غاضبة وحزينة .

ولكنها لم تفكر إلا قليلاً فيما سمعته . لم تكن آستا أودونسداتر عروساً غير ملائمة . . . فقد كان هناك غنى في لوبتسغارد وثلاث بنات فحسب ، ولكن لا أبناء ، وكانت إنجيبورغ ، أم آستا ، تنتمي إلى أسرة مرموقة .

لم تكن قد فكرت قط في أنهم في يوروندغارد سيصبحون ذات يوم أقرباء لأودون توربيرغسون . ولكن كان قد أصيب بجلطة دماغية في الشتاء ولم يكن الناس يظنون أنه سيعيش طويلاً . . . وكانت الفتاة على درجة من التهذيب وجذابة وفذة في المنزل كما كانت كريستين قد سمعت عنها . ولو كان ناكفه يحب الفتاة فعلاً ، فلم يكن أمراً حكيماً الوقوف أمام فرصة الزواج . عليهم الانتظار عامين قبل الزفاف . . . فكلا العروسين آستا وناكفه لا يزالان صغيرين بعد . . . ولكنها سترحب بآستا كزوجة لابنها بكل سرور .

•

ولكن حدث في أحد الأيام الصافية في منتصف الصيف أن زارت أخت سيرا سولموند كريستين لتستعير شيئاً . كانت المرأتان واقفتين في الخارج أمام المستودعات تودعان الواحدة الأخرى حين قالت أخت الكاهن : كلا ، ولكن إيفور هاكونسداتر ! لقد طردها أبوها من المنزل لأنها حامل . . . لذلك عادت الآن إلى أولفسفولدين باحثة عن مأوى .

كان ناكفه ينفذ مهمة ما في علية المستودع . . . توقف عند آخر درجة . وحين لمحت أمه وجهه ، اعتراها الغثيان وأحست أن ساقيها لا تستطيعان حملها إلا بالكاد . كان الصبي قد تضرج لونه حتى جذور شعره وهو يمرّ عبرهما نحو المباني السكنية .

ولكنها سرعان ما لاحظت من ثرثرة المرأة الأخرى أن الأمور كانت ما هي عليه مع إيفور قبل أن تصل للمرة الأولى إلى الأبرشية في ذلك الربيع . يا لابني المسكين غير المؤذي ، هكذا فكرت كريستين مع تنهيدة راحة . . . إنه يشعر بالخجل الآن لأنه كان يظن بالفتاة أحسن الظنون .

بعد ليال قليلة كانت كريستين تستلقي في فراشها وحيدة فقد كان إرلند قد غادر المنزل لصيد السمك . كانت تعرف أن ناكفه وغاوته كانا في صحبته . ولكنها استيقظت على ناكفه وهو يلمسها ويهمس لها بأن عليه أن يكلمها . زحف وجلس على السرير قرب لوح السرير الخلفي :

" أمي . . . لقد ذهبت وتكلمت مع تلك المرأة المسكينة ، إيفور ، هذه الليلة . . . عرفت أنه كذبوا فيما يخصها . . . كنت متأكداً جداً ، وقد أمسكت حديداً حامياً بيدي لأثبت أنها كانت تكذب تلك المرأة الثرثارة من روموندغارد . . . "

بقيت أمه صامته انتظرت . حاول أن يتكلم بثبات ، ولكن صوته بقي مع ذلك يتأرجح صعوداً وهبوطاً مع سرعة معنوياته :

" كانت في طريقها إلى صلاة الصباح في اليوم التالي على عيد الميلاد . . . كانت لوحدها ، والطريق من مزرعتهم يمتد لمسافة طويلة عبر غابة . وهناك قابلت رجلين . . . كان الظلام لا يزال مخيماً ، فلم تعرف من هما . ربما كانا لصين خارجين عن القانون من الجبال . . . وأخيراً لم تستطع صدهما تلك الفتاة المسكينة الضعيفة . ولم تستطع أن تبوح لأحد بمصيبتها . . . وحين رأى أمها وأبوها بليتها ، جراها من شعرها وألقيا بها خارج المنزل مع الضرب واللعنات . لقد بكت بشدة يا أمي حين حكت لي كل هذا ، وكان من شأن بكائها أن يذيب الصخر في الجبال ." توقف ناكفه عن الكلام فجأة وتنفس بعمق .

قالت كريستين إن الأمر يبدو لها كسوء حظ فظيع أن يكون هذان الشريران قد هربا بفعلتهما . وقد تمنت أن تطالهما عدالة الرب وأن ينالا جزاءهما على شجرة المشنقة .

عندها بدأ ناكفه يحكي عن والد إيفور ، وكم كان غنياً ، وهو من أقرباء أكثر من عائلة عريقة . وإيفور سترسل الطفل إلى أبوين بالتبني في أبرشية أخرى . لقد حملت زوجة غودموند دار بطفل غير شرعي من كاهن . . . و هاهي سيغريد أندرسداتر تقبع في كروكه كامرأة صالحة ومشرفة . . . على المرء أن يكون قاسي القلب وظالماً حتى يعتبر إيفور منبوذة ، لأن ما حدث كان ضد إرادتها ، وكان قدرها أن تعاني من سوء حظ مترع بالعار . . . وقد تكون جديرة على أي حال بأن تكون زوجة رجل يعتز بشرفه . . .

رثت كريستين لحال الفتاة ولعنت من اعتدى عليها . . . وفي قلبها شكرت وحمدت الحظ أن ناكفه لن يبلغ سن الرشد قبل ثلاث سنوات أخرى . ثم رجته بلطف أن يتوخى الحذر ، وألاّ يزور إيفور في غرفة نومها في وقت متأخر من الليل ، كما فعل هذه الليلة ، ولا أن يراه أحد في أولفسفولدين إلاّ حين يذهب في مهمة إلى أهل المنزل ، وإلا فإن الناس ستنتشر إشاعة قبيحة عن الفتاة الشابة سيئة

الحظ . أجل ، إن أولئك الذين يشكون في كلام إيفور ولا يصدقون أنها غير ملومة في محنتها ، سيجدون مزيداً من الأسباب يلوكون بها سمعتها . . . وسيكون أمراً سيئاً على أي حال للفتاة المسكينة لو جرى المزيد من الكلام . . .

بعد ثلاثة أسابيع وصل والد إيفور واصطحب ابنته إلى البيت إلى خطبتها وزفافها . لقد كان الملوم هو ابن مزارع من أبرشيتها . كان الوالدان من كلا الجانبين ضد هذا الزواج في البداية لأنهم كانوا على خلاف حول أراضي إحدى المزارع . وفي الشتاء الأخير كان الرجلان قد تصالحا مجدداً ، وكان الشابان سيصبحان خطيبين ، ولكن إيفور رفضت فجأة ذلك . . . لقد أعجبت بشاب آخر . ولكنها فهمت لاحقاً أنها ستكون الخاسرة لو رمت بعيداً بعاشقها الأول . ومع ذلك ذهبت لتمكث مع خالتها في "سيل" ، على أساس أنها ستجد هناك العون على إخفاء محنتها ، فقد كانت مصممة آنئذ على أن تنال ذلك الرجل الجديد . ولكن حين رأت هيلبيورغ في أولفسفولدين حالة الفتاة ، فقد أعادتها إلى والديها . كان الأب قد جن غضباً وضرب ابنته مرة ثم أخرى لأنها هربت إلى هنا مرة أخرى ، كل هذا كان صحيحاً . ولكن كان قد وصل الآن إلى اتفاق مع الخاطب الأول . . . وعلى إيفور أن ترضى به ، ولو لم تحب الأمر كثيراً .

لاحظت كريستين أن ناكفه قد استصعب قبول هذا الأمر . وقد بقي أياماً عدة لا يكلم أحداً ، وقد أشفقت أمه عليه حتى أنها لم تكن تجرؤ على النظر باتجاهه . . . لأنه كان كلما قابلت عيناه عيني أمه ، كان وجهه يتضرج ويبدو خجلاً إلى حد كان يؤلم كريستين إلى حد كبير .

وحين راح الخدم في يوروندغارد يثرثرون حول هذه الأمور ، أمرتهم السيدة أن يمسكوا عليهم ألسنتهم . . . ما كانت ترضى أن تسمح بذكر هذه القضية القذرة أو اسم هذه المرأة البائسة في منزلها . وقد تعجبت فريدا إلى حد كبير : أولم تسمع مرات عديدة كريستين لافرانسداتر وهي تحكم برقة وتقدم لها يد المساعدة السخية

على فتاة وقعت في محنة مشابهة . . . لقد وجدت فريدا نفسها المأوى الآن تحت رحمة سيدتها . ولكن في القليل الذي ذكرته عن إيفور هاكونسداتر فقد تكلمت عنها بكل سوء كما قد تتكلم أي امرأة عن أخرى .

•

ضحك إرلند حين حكت له كم كان ناكفه حزيناً بعد الخدعة التي تعرض لها . . . حدث ذلك في إحدى الأمسيات حين جلست خارجاً على المرج وراحت تغزل ، ووصل زوجها واستلقى على العشب إلى جانبها .

قال الأب : " لم يصبه أذى كبير ، يبدو الأمر لي وكأن الفتى تعلم درساً يخص الرجال بثمن بخس : لا تضع ثقتك في امرأة . . . "

" أتقول هذا ؟" سألته زوجته وصوتها يرتجف من الغضب المكبوت .

ابتسم إرلند : " أجل . . .ألا ترين ، لقد صدقت في أول مرة قابلتك فيها أنك كنت لطيفة جداً إلى حد أنك لا تستطيعين العضّ على قطعة جبن . . .كنت مستسلمة كشريط من الحرير وطيّعة كحمامة . . .ولكنك خدعتني جيداً يا كريستين . . ."

سألته :" كيف تعتقد أن الأمور كانت ستسير بنا كلنا لو كنت طيعة ولطيفة إلى ذلك الحد؟"

"كلا . . ." أخذ إرلند يدها حتى اضطرت إلى وقف عملها . ابتسم لها وهو يشع سعادة . ثم وضع رأسه في حجرها . " كلا ، لم أكن أعرف يا حلوتي كم كنت محظوظاً حين قادك الرب إلى طريقي يا كريستين !"

•

ولكن لأن عليها أن تضبط نفسها دائماً وأن تخفي يأسها من تهور إرلند الأبدي ، فقد يحدث أحياناً أن يتحكم بها مزاجها حين يكون عليها أن تقوم اعوجاج أولادها : كانت تثقل عليهم بالضرب والكلام . وكان إيفار وسكوله هما من يتحمل الجزء الأكبر من هذا العبء .

كانا في أسوأ سن الآن ، في عامهما الثالث عشر ، وكانا شديدي الجموح والعناد حتى أن كريستين كادت تجنّ منهما ، وفكرت مرات عدة إن كانت هناك ياترى أم في النرويج تربي مثل هذين الوغدين شأنها هي . كانا وسيمين شأن كل أولادها ، بشعر أسود ناعم كالحرير ومجعد ، وعينين زرقاوين تحت حاجبين أسودين ضيقين ووجه دقيق الملامح . كانا أطول قامة من أندادهما بكثير ، إلا أن أكتافهما كانت لا تزال ضيقة ، مع أعضاء طويلة ونحيلة ، وكانت مفاصلهما ناتئة مثل عقد سنبلة القمح . كانا متشابهين إلى حد أنه ما كان هناك من شخص خارج منزلهما يستطيع تمييز الواحد عن الآخر ، وكان الناس في كل الأبرشية يسمونهما : " حاملا خناجر يوروندغارد " . . . ولم يكن هذا اللقب مقصوداً به إضفاء صفة التشريف عليهما . كان سايمون أول من أطلق عليها هذا اللقب مزاحاً ، فقد كان إرلند قد منح كلاً منهما خنجراً ، وهذان السيفان القصيران لا يفارقانهما إلاّ حين يدخلان الكنيسة . لم تكن كريستين راضية عن حصولهما على هذين الخنجرين ، أو عن تجوالهما الدائم وهما يحملان الفؤوس والرماح أو الأقواس . كانت تخشى أن يجلب هذان الصبيان المتهوران الأذى لنفسيهما بمثل هذه الأشياء . ولكن إرلند قال بلطف أنهما أصبحا كبيرين بما فيه الكفاية وقد حان وقت اعتيادهما على حمل السلاح .

كانت تعيش في رعب لا ينتهي فيما يخص هذين التوأمين . وحين كانت لا تعرف أين ذهبا ، كانت الأم تفرك يديها سراً وتتوسل إلى مريم العذراء والقديس أولاف ليعيداهما إلى المنزل مجدداً حيّين دون أذى . كانا يتسلقان الجبال عبر

الصدوع أو الجروف العامودية التي لم يسبق لأحد أن تسلقها . كانا يسرقان أعشاش النسور ويعودان إلى البيت حاملين أفراخاً قبيحة ذات عيون صفراء تهسهس في عبّ معطفيهما . كانا يزحفان بين الصخور الإردوازية على امتداد نهر "لاغن" ، شمالاً في الوادي ، حيث يندفع النهر من منحدر إلى آخر . وقد علق إيفار مرة في ركاب جواده فسحبه الجواد وراءه وكاد يُقتل . . . وكان يحاول أن يركب فحلاً صغيراً نصف مروّض وضع الصبيان سرجاً عليه ، والله وحده يعرف كيف حدث ذلك . وقد دخلوا ـ دون مهمة ولا لأجل شيء عدا التطفل إلى كوخ الفنلندي في غابات تولدستاد ـ كانا قد تعلّما من أبيهما بعض الكلمات من لغة اللابلانديين (*) وحين قاما بتحية الساحرة الفنلندية العجوز بهذه الكلمات ، فقد قدمت لهم بسخاء اللحم والشراب ، وقد أتخما نفسيهما حتى الانفجار وكان ذلك يوم صوم . وكانت كريستين قد التزمت بعادة مفادها أنه حين يصوم الكبار ، فإن على الأطفال أن يقنعوا بالقليل من الطعام وبأشياء لا يحبونها عادة . . . فقد عودها والداها على هذا حين كانت صغيرة . في هذه المرة ، ولمرةّ واحدة ، كان إرلند صارماً معهما ، فأخذ الحلوى التي قدمتها لهما الزوجة الفنلندية ليحضراها معهما وأحرقها ، بينما حظر عليهما الاقتراب حتى من حافة الغابة حيث كان الفنلنديون يقيمون . ولكن رغم ذلك ، فقد دغدغه سماع مغامرة الصبيين . ولاحقاً كان غالباً ما يروي لإيفار وسكوله حكايات أفعاله وسفراته في الشمال ، وما رآه هناك من أساليب عيش هؤلاء الناس ، وكان يحادثهم بلغة أهل تلك البلاد القبيحة الوثنية .

أما بالنسبة للبقية ، فقد كان إرلند نادراً ما يقرّع أولاده ، وكان يتحول إلى المزاح جانباً حين كانت كريستين تتفجّع على أفعال التوأمين . في الضيعة كانا

*سكان شمال فنلندا والسويد والنرويج .ينطقون بلغة خاصة بهم "المترجم"

يقومون بأعمال خبيثة على الدوام ، رغم أنهما كانا قادرين على أن يكونا مفيدين أيضاً عند اللزوم ـ لم يكونا غير بارعين مثل ناكفه . ولكن حين كانت أمهما تطلب منهما أداء عمل معين ثم تصل لترى كيف كانا ينجزانه ، كانت الأدوات مرمية هناك والصبيان واقفين هناك يراقبان أباهما وهو يريهما كيف يعقد البحارة العقد وما شابه ذلك . . .

كان من عادة لافرانس بيورغولفسون ، حين يرسم إشارة الصليب بالقار على باب الزريبة ، أو على أماكن أخرى مشابهة ، أن يرسم شيئاً بالفرشاة . . .مثل حلقة أو ضربة على كل ذراع من أذرع الصليب . في أحد الأيام فكر التوأمان في صنع هدف من أحد علامات الصليب هذه . جن جنون كريستين من اليأس والغضب من هذه الأفعال اليهودية ، ولكن إرلند وقف إلى جانب الصبيين : كانا صغيرين بعد ، ولا يتوقع منهما المرء أن يفكرا في قدسية الصليب في كل مرة يرونه مرسوماً بالقار على باب زريبة أو ظهر بقرة . دع الصبيين يذهبان إلى الصليب المنصوب على مرج الكنيسة ، ويركعان أمامه ويقبلانه ، ثم عليهما أن يتلوا خمس مرات " أبانا الذي " وخمس عشرة مرة " السلام عليك يا مريم " . . .ولا حاجة إلى جر سيرا سولموند إلى الضيعة لأجل هذا الأمر . ولكن في هذه المرة وقف بيورغولف وناكفه إلى جانب أمهما . وقد حضر الكاهن ورش ماء مقدساً على الجدار وأنّب الخاطئين الصغيرين بشدة .

كانا قد أعطيا ثيران وتيوس كريستين رؤوس الأفاعي لتأكلها حتى يجنّ جنونها وتروح تنطح بقرونها . كانا يغيظان مونان لأنه كان لا يزال يتشبث بتنورة أمه ، وغاوته أيضاً ـ فقد كانا على خلاف معه غالباً ـ وعلى الأكثر فإن أولاد إرلند كانوا مترابطين في أخوة ممتازة . ولكن بين الحين والآخر ، حين كان التوأمان يفرطان في أفعالهما إلى حد لا يحتمل ، كان غاوته يضربهما . فقد كان تأنيبهما بالكلمات أشبه بمخاطبة جدار . . .ولو غضبت أمهما منهما ، كانا يقفان

متخشبين بقبضات مشدودة ويقطبان وجهيهما بعيون لامعة من تحت جبينين متغضنّين متضرجين باللون الأحمر من شدة الغضب . فكرت كريستين فيما قاله لها غونولف عن إرلند . . .كان قد رمى أباه بخنجره ورفع يده عليه مرات كثيرة وهو بعد مجرد طفل . لذلك كانت تضربِ التوأمين بقسوة ، فقد كانت تفكر برعب فيما يمكنه أن يحدث لهذين الطفلين من أطفالها إذا لم يُروَّضا في الوقت الملائم .

كان سايمون دار هو الوحيد الذي كان قادراً على فعل شيء ما مع هذين المجنونين : كانا يحبان زوج خالتهما ويصبحان خنوعين وطيعين حين يتحدث إليهما بلطف وهدوء . ولكن بما أنهما لم يعودا يريانه الآن ، فإن أمهما لم تلاحظ أنهما كانا يفتقدانه . فكرت كريستين بحزن : قلب الطفل قلّب .

وكانت المرأة تعرف في سرها أنه رغم كل شيء ، فإنها كانت أشد فخراً بهذين الصبيين تقريباً . ولو استطاعت أن تحطم هذا التحدي المشؤوم وهذا الجموح ، لما كان أي من الأخوة واعداً برجولة أفضل من هذين . كانا معافيين وقويين وصحيحي الجسم ، وكانا جريئين وصادقين وكريمين وطيبين مع كل الفقراء ، وفي مرات كثيرة أظهرا استعداداً وسرعة في إبداء الرأي تجاوزا ، كما فكرت ، ما يمكن للمرء أن يتطلع إليه من هذين الفتيين .

في إحدى الأمسيات في موسم حصاد التبن كانت كريستين قد تأخرت في المطبخ حتى وصل مونان مندفعاً وهو يصرخ بأن حظيرة الماعز العتيقة كانت تحترق . لم يكن هناك رجال في المنزل أو قريباً منه . . .كان البعض في ورشة الحدادة يسنون مناجلهم ، والبعض قد اتجه شمالاً إلى الجسر ، حيث اعتاد الشبان التجمع في أمسيات الصيف . أمسكت السيدة بزوج من الدلاء وركضت وهي تنادي على خادماتها للحاق بها .

كانت حظيرة الماعز مجرد مبنى صغير عتيق له سقف يصل حتى الأرض ، ينتصب في الطريق الضيق بين الباحة وساحة المزرعة أمام وسط جدار الإسطبل المركزي ومع أبنية أخرى مبنية إلى القرب منه من كلا الجانبين . ركضت كريستين نحو علية غرفة الموقد وأمسكت بفأس وبخطاف حريق ، ولكنها حين التفّت من حول زاوية الإسطبل لم تر أي نيران ، ولكن مجرد غيمة كثيفة من الدخان تندفع من ثقب في سقف حظيرة الماعز . كان إيفار جالساً على حافة السقف وهو يضرب السقف بفأس ، وكان سكوله ولاقرانس ضمن المبنى وهما يفصلان الرقاقات المحترقة من السقيفة ويدوسان على النار . وهاهو إرلند قد وصل يعدو ومعه أولف والرجال الذين كانوا في ورشة الحدادة . كان مونان قد ركض إلى هناك وحذرهم . . .والآن سرعان ما كانت النار قد أطفئت . ولكن أسوأ بلية كان يمكن أن تحدث . . .كان المساء هادئاً ساكناً ، ولكن مع نفحة هواء من الريح من الجنوب كان من شأن الحريق بعد أن اشتعل في حظيرة الماعز أن يمتد إلى كل المباني من حولها إلى شمال الباحة والإسطبلات والمستودعات وبيوت السكن نفسها .

كان إيفار وسكوله فوق سطح الإسطبل . . .كانوا قد أوقعوا صقراً في الفخ وصعدا ليعلقاه من صليب الجملون . . .وذلك حين اشتما شيئاً يحترق ورأيا الدخان يصعد من السقف تحتهما . فقفزا مباشرة إلى سقف الحظيرة وبالفأسين الصغيرين اللذين كانا معهما بدأا بفصل الخث المحترق بينما أرسلا لافرانس ومونان اللذين كانا يلعبان في الجوار ، الأول ليحضر الخطافات والآخر إلى أمهما . ولحسن الحظ كانت الشرائح الخشبية وعوارض السقف متعفنة جداً بحيث لا تحترق بسرعة . ولكن كان جلياً في هذه المرة أن التوأمين أنقذا ضيعة أمهما وذلك إذ انطلقا إلى العمل فوراً ففصلا السقف المحترق ولم يضيعا وقتاً في طلب عون الكبار أولاً .

لم يكن سهلاً فهم كيف بدأت النار أولاً ، لولا أن غاوته كان قد مرّ قبل ساعة من ذلك الطريق حاملاً الجمر من ورشة الحدادة ، وقال إن وعاء النار لم يكن مغطى . . .لذلك على الأرجح أن شرارة قد طارت إلى سقف الخث الجاف .

ولكن ما قيل عن هذا كان أقل مما قيل عن جاهزية التوأمين ولافرانس . . .وذلك خلال الحراسة الخاصة بالحريق التي هيأها أولف ، وحيث كان على كل سكان المنزل أن يرافقوه إلى وقت متأخر من الليل ، بينما راحت كريستين تقدم الجعة الثقيلة والميد إليهم . كان الصبيان الثلاثة يعانون جميعاً من حروق في اليدين والقدمين . . .كانت أحذيتهم محترقة إلى حد أنها قد تفتّتت تماماً . كان لافرانس في التاسعة من عمره فحسب ، لذلك كان صعباً عليه أن يتحمل الألم بصبر لفترة طويلة ، ولكنه كان في البداية الأكثر اعتزازاً من الجميع وهو يتجول بيدين مضمومتين ويسمع كل أهل الضيعة يمتدحونه .

في تلك الليلة ، حين ذهبوا ليرتاحوا ، ضم إرلند زوجته إليه .

" يا كريستين ، يا كريستين . . .لا تكوني شديدة الحرص والاهتمام بأطفالك . . .ألا ترين من أي معدن صنعوا؟ تتصرفين مع هذين الصبين المفعمين نشاطاً وكأنك تتوقعين أن يكون طريقهما بين المشنقة والنطع . أعتقد الآن أن عليك أن تتمتعي بمكافأتك لقاء كل ما تحملته من الآم وأوجاع ومشاق ، في تلك السنوات التي كنت حاملاً فيها بطفل تحت حزامك وآخر على صدرك وثالث على ذراعك . . .وما كنت تتحدثين عن أي شيء آنئذ عدا الأطفال الصغار ، والآن ، حين كبروا ليصلوا إلى سن الحكمة والرجولة ، فأنت تتجولين فيما بينهم كأنك صماء وبكماء ، دون أن تنتبهي بما يكفي للإجابة لو حادثوك . فليساعدني الرب ، سيبدو الأمر وكأنك تحبينهم أقل الآن بعد أن ارتحت من مشاكل طفولتهم ، واصبح أبناؤنا الكبار متعة وبركة لك . . ."

لم تثق كريستين بنفسها لتجيب بكلمة واحدة .

ولكنها استلقت هناك ولم تستطع النوم . ومع اقتراب الصباح هبطت من فوق الرجل النائم بهدوء ومضت حافية القدمين نحو النافذة وفتحتها .

كانت السماء رمادية ومغطاة بالسحاب والهواء بارداً . . .إلى البعيد نحو الجنوب حيث كانت الجبال تقترب من بعضها البعض وتغلق "الديل " ، كان المطر يجتاح الأراضي العالية . وقفت السيدة برهة تنظر إلى الخارج . . .كان الجو حاراً وكثيفاً في علّية المستودع الجديد هنا ، حيث ينامون صيفاً . فوق رائحة الرطوبة التي كانت في الجو ، كانت رائحة التبن تصل إليها قوية وعذبة . كان طير هنا أو هناك في الليل الصيفي ، يزقزق قليلاً في نومه .

وجدت كريستين قداحتها الفولاذية وأشعلت شمعة . زحفت إلى حيث كان إيفار وسكوله نائمين في سريرهما المقعدي . . .وتركت النور يسقط عليهما وهي تتحسس وجناتهما بقفا يدها . . .لاشك أنهما يعانيان من بعض الحمى . تلت برقة " السلام عليك يا مريم " ورسمت إشارة الصليب فوقهما . المشنقة والنطع ـ كيف يستطيع إرلند أن يمزح بمثل هذه الأمورـ وهو الذي كان بنفسه قريباً جداً من . . .

أنّ لافرانس وهمهم في نومه . وقفت الأم قليلاً وانحنت فوق الاثنين الأصغر سناً اللذين كانا نائمين فوق سرير صغير خلف سرير والديهما . كان لافرانس ساخناً متضرج الوجه ويتقلب في نومه ، ولكنه لم يستيقظ حين لمسته .

كان غاوته مضطجعاً وذراعاه البيضاوان الحليبيتان خلف عنقه وقد اندسا في شعره الأصفر الطويل التبني . . .كانت أغطية السرير قد رميت بعيداً عنه . كان له دم حار بحيث كان ينام عارياً ، وكان يلتمع ببشرة بيضاء سفعتها الشمس فوق الوجه والعنق واليدين . غطته أمه إلى ما فوق الخصر .

كان صعباً عليها أن تشعر بالغضب من غاوته . . .كان يشبه أباها كثيراً . لم تكن قد قالت له سوى القليل عن المصيبة التي كاد ينزلها فيهم . كان صافي الذهن ومتأملاً ، واعتقدت أنه سيلوم نفسه بنفسه ولن ينسى ذلك أبداً .

كان لناكفه وبيورغولف ثاني السريرين الكبيرين في العلية . وقفت الأم فترة طويلة وهي تترك النور يسقط على الشابين النائمين . كان اللون الأسود وقد بدأ يظلّل الفم الأحمر الطري الطفولي . كانت قدم ناكفه قد برزت من تحت غطاء السرير . . . قدمه ضيقة ، ومشطها عال وذو قوس عميق في أخمصها . . .ليست نظيفة . ومع ذلك بدا للأم أنه لم يمر وقت طويل منذ أن كانت قدم هذا الشاب صغيرة جداً إلى حد أنها كانت تخفيها كلها في قبضة يدها ، وكانت تضغطها تحت صدرها وترفعها إلى فمها وتعض كل إصبع صغيرة مدورة ، فقد كانت أصابعه زهرية اللون وعذبة كتيجان الزهور فوق شجيرة عنب الدب .

ربما يكون الأمر وما فيه أنها لم تكن ممتنة بما فيه الكفاية لقدرها الذي أراده الله لها . كانت ذكرى الأيام السابقة على مولد ناكفه ، ورؤى الرعب التي كانت تتلوى تحتها . . .تندفع أحياناً كالنار عبر ذهنها : لقد وصلت إلى الخلاص ، كما يحدث حين يستيقظ المرء من أهوال المنام وعبء الكوابيس ليرى أمامه نور النهار المبارك . ولكن نساء أخريات استيقظن ليجدن بؤس النهار أسوأ من أسوأ أحلامهن . وحتى الآن حين كانت ترى شخصاً مقعداً أو مشوهاً ، كان قلب كريستين يضطرب من ذكرى خوفها على ولدها الذي لم يكن قد ولد بعد . عندها كانت ستذل نفسها بكل حماسة أمام الرب وأولاف المقدس . كانت ترمي نفسها في أعمال البرّ . كانت تكافح لتذرف دمع التوبة الصادقة من عينيها خلال صلاتها . ولكنها كانت تشعر في قلبها دائماً بهذا السخط الذي لا ينتهي وبأن الوهج الدافئ قد خبا ، ودموع التوبة قد غارت في روحها كما يغور الماء في الرمل . ثم راحت تواسي نفسها : لأنه لم تكن لديها موهبة الورع التي أملت ذات مرة أن ترثها من أبيها . كانت قاسية وخاطئة ، ولكن ربما لم تكن أسوأ من معظم الناس ، وشأن معظم الناس عليها أن تعاني في بيتها الثاني الحرائق المتقدة التي كانت ضرورية لإذابة قلبها وتطهيره .

وبعد ذلك ، بين الحين والآخر ، كانت تتوق إلى أن تكون امرأة أخرى . كانت تنظر إلى أبنائها السبعة الوسيمين الجالسين إلى مائدتها ، وحين كانت تمشي في صباحات يوم القداس نحو الكنيسة ، بينما الأجراس تقرع وتدعو على نحو عذب جداً الناس إلى السعادة وسلام الرب ، ترى ذلك القطيع من الشبان الصغار طوال القامة جيدي الهندام وهم يصعدون المنحدر أمامها . لم تكن هناك امرأة أخرى ولدت هذا العدد الكبير من الأطفال دون أن تعرف قط معنى خسارة أحدهم - وكانوا كلهم وسيمين مترعين بالعافية ، دون أي عيب في الجسم أو العقل - بيورغولف فحسب كان حسير البصر ، كانت تتوق إلى أن تكون قادرة على نسيان همومها كلها ، أن تصبح لطيفة وممتنّة ، أن تحب الرب وتخشاه ، كما فعل أبوها . . .تذكرت أن أباها قال أن من تذكر بقلب نادم خطاياه ، وانحنى أمام صليب الرب ، ليس في حاجة إلى أن يحني عنقه تحت سوء الطالع أو أخطاء الدنيا .

أطفأت كريستين الشمعة ثم وضعتها في مكانها تحت أعلى جذع في الجدار . مضت نحو النافذة مجدداً . . .كان نور النهار طاغياً في الخارج إلا أنه كان رمادياً وميتاً . . .نظرت من فوق أسقف المباني الأخفض فرأت العشب القليل الذي سفعته الشمس يهتز بلطف تحت الريح . كان صوت صفير هامس يسري عبر أوراق شجر البتولا التي ظهرت أمامها أعلى من سقف مبنى القاعة .

نظرت إلى يديها وهي تمسك بإطار النافذة . كانتا خشنتين مرهقتين من العمل ، وذراعاها حتى المرفقين كانا أسمرين والعضلات متورمة وقاسية كالخشب . حين كانت لا تزال شابة ، كان الأطفال يمتصون الدم والحليب منها حتى افتقدت كل استدارات الفتاة الناعمة النضرة من جسدها . والآن كان جهد كل يوم يسرق منها شيئاً مّما كان قد تبقى من جمالها الذي كان يميزها كابنة وزوجة وأم لأبناء من نسل نبيل . . .اليدان البيضاوان النحيلتان ، الذراعان

العبلاوان واللون الصافي الرقيق للوجه الذي كانت تقيه من الشمس بكل حذر بمنديل ، وتعتني به بغسول يتم تحضيره ببراعة . قبل الآن بفترة طويلة كانت قد أصبحت لا تهتم إن كانت أشعة الشمس تنصب مباشرة على وجهها المتعرق وتحرقه ليصبح أسمر شأن وجوه زوجات الفلاحين الفقراء .

كان شعرها هو كل ما تبقى لها من جمالها وهي عذراء . كان كثيفاً بني اللون كما كان دائماً ، رغم أنها ما عادت تجد إلا نادراً ما يكفي من الوقت لغسله والعناية به . كانت الجديلة الثقيلة المشبكة التي تتدلى على ظهرها قد بقيت دون حلّ منذ ثلاثة أيام .

قذفتها كريستين إلى الأمام من فوق كتفها ، حلت شعرها وهزته . . .كان لا يزال يلتف من حولها كعباءة ويصل إلى ما دون ركبتها . أخذت مشطاً من خزانتها وبينما راحت ترتجف قليلاً بين الحين والآخر ، وهي جالسة هناك في شلحتها ، تحت النافذة الصغيرة المفتوحة أمام نسيم الصباح البارد ، فقد مشطت الكتلة المتشابكة بعناية .

بعد أن سرحت شعرها وضفرته مجدداً غي حبل متين وثقيل ، كأنما شعرت بأنها أفضل . ثم رفعت مونان وهو مستغرق في النوم بعناية بين ذراعيها ووضعته قرب الجدار في السرير الكبير ، ثم انزلقت بينه وبين الرجل النائم . ضمت أصغر أبنائها بين ذراعيها ووضعت رأسها لترتاح على كتفها ثم نامت . . .

●

تأخرت في النوم في الصباح التالي . وحين استيقظت كان إرلند والأولاد قد نهضوا من فراشهم . " أعتقد حقاً أنك لا تزال ترضع من أمك حين لا يكون هناك شهود " ، قال إرلند حين رأى أن مونان كان ينام قرب أمه . غضب الصبي من هذا الكلام فخرج وزحف فوق رأس أحد الأعمدة التي تحمل الشرفة . . . كان

يريد البرهنة على رجولته . "اقفزا!" صاح ناكفه من الباحة في الأسفل . أمسك بأخيه الصغير بين ذراعيه ثم قلبه عاليه سافله ورماه إلى بيورغولف . . .وراح أخوته الكبار يلعبون به حتى ضحك وصرخ .

ولكن في اليوم التالي عندما وقف مونان يبكي لأن وتر القوس قد لسع أصابعه في ارتداده ، أخذه التوأمان ولفّاه في غطاء السرير وحملاه إلى سرير أمه ، ثم حشوا فمه بقطعة من الخبز كبيرة كاد الصبي يختنق معها .

-٢-

كان كاهن منزل إرلند في هوسابي قد علّم الأبناء الثلاثة الكبار كتبهم . لم يكونوا من الطلاب المجدين ، ولكنهم كانوا قابلين للتعلم ، ثلاثتهم ، وأمهم التي تربت على العلم ، كانت تراقبهم حتى يتعلموا جيداً .

وفي السنة التي قضاها بيورغولف ونيكولاوس في دير تاوترا مع سيرا آيليف ، فقد راحا يرضعان - كما قال الكاهن - من ثديي "السيدة معرفة" بحماسة متقدة . كان المعلم هناك راهباً مسناً كثير الأشغال كالنحلة ، وكان قد جمع المعرفة طوال حياته من كل الكتب التي استطاع أن يجدها ، سواء باللاتينية أو بالنرويجية . وكان السيرا آيليف نفسه عاشقاً للحكمة ، ولكن خلال السنوات في هوسابي لم تتح له سوى فرصة ضئيلة لمتابعة حبه للكتب . أما بالنسبة إليه فقد كانت زمالته مع "آسلاك" قارئ الكتاب المقدس أشبه بمرعى السايتر للقطيع الجائع حتى الموت . وكان الصبيان الصغيران اللذان كانا يتشبثان بكاهن دارهما ، بين كل الرهبان الآخرين ، يتابعان بفمين مشدوهين حديث الرجلين المثقف . وكان الأخ "آسلاك" والسيرا آيليف يجدان متعة في تغذية العقلين الشابين بألذ عسل من مكتبة الدير ، حيث كان الأخ "آسلاك" نفسه يضيف نسخاً ومقتطفات

كثيرة من أنفس الكتب . وسرعان ما أصبح الصبيان شديدي المهارة حتى أن الراهب ما عاد في حاجة إلى محادثتهما باللغة النرويجية . وحين وصل والداهما لإحضارهما ، كانا قادرين كلاهما على إجابة الكاهن باللاتينية بطلاقة ودون أخطاء كثيرة .

وقد حافظ الأخوان على هذه المعرفة منذ ذلك الحين . كان هناك الكثير من الكتب في يوروندغارد . . . إذ كان لدى لافرانس خمسة كتب ، منها اثنان ذهبا إلى رامبورغ عند وداعها للضيعة ، ولكنها لم تكن تفكر قط في تعلم القراءة ، ولم يكن سايمون شديد المهارة في الأحرف بحيث يقرأ ليستمتع ، رغم أنه كان قادراً على قراءة الرسالة وكتابتها جيداً إلى حد كاف . لذلك رجا كريستين أن تبقي الكتب حتى يكبر أولاده أكثر . كانت ثلاثة من الكتب التي تخص والدي إرلند قد منحهما هو إلى كريستين بعد فترة وجيزة من زواجهما ، وكانت قد نالت كتاباً آخر كهدية من غونولف نيكولاوسون . وقد كان هو قد طلب تجميع المادة ونسخها لأجل زوجة أخيه من الكتب حول القديس أولاف ومعجزاته ، وكذلك بعض حكايات القديسين ، والكتابات التي أرسلها الفرنسيسكان في أوسلو إلى "البابا" حول الأخ إدفين ريكاردسون ، يتوسلون فيها أن يطوّب . وأخيراً ، فإن ناكفه قد حصل على كتاب صلاة من سيرا أيليف حين افترقا . لذلك كان ناكفه يقرأ لأخيه كثيراً . . . كان يقرأ بسهولة وجيداً ، وبصوت غنائي نوعاً ما مثلما كان الأخ "آسلاك" قد علّمه . ولكنه كان يحب الكتب اللاتينية أكثر من غيرها . . . كتاب صلواته وكتاب آخر كان يخص لافرانس بيورغولفسون . ومع ذلك فإنه كان يثمّن عالياً كتاباً ضخماً منسوخاً بخط جميل جداً تم توارثه في الأسرة منذ الجد الشهير الأسقف نيكولاوس أرنسون نفسه .

كانت كريستين تتمنى لو يتلقّى أولادها الأصغر سنّاً المزيد من العلم أيضاً كما هو جدير برجال من محتد نبيل . ولكن لم يكن سهلاً حدوث ذلك : فقد

كان سيرا آيريك عجوزاً جداً ولم يكن السيرا سولموند قادراً سوى على القراءة من الكتب التي يستخدمها في القداس : والكثير من الأمور التي كان يقرأها لم يكن يفهمها جيداً هو نفسه . كان من شأن لافرانس أن يستمتع بين الحين والآخر في المساء بالجلوس إلى قرب ناكفه ويسمح لأخيه أن يعلّمه الأحرف على لوح الشمع . . . ولكن الثلاثة الآخرين لم يكونوا راغبين قط في اكتساب مثل هذه المعرفة . في أحد الأيام تناولت كريستين كتاباً نرويجياً وطلبت من غاوته أن يرى إن كان يتذكر أي شيء مما تعلمه صغيراً من سيرا آيليف . ولكن غاوته لم يستطع أن يتهجى ثلاث كلمات ، وحين وصل إلى أول إشارة تدل على أحرف عديدة ، أغلق الكتاب ضاحكاً وقال إنه لا يحب ممارسة هذه اللعبة .

والآن ، ولهذا السبب فإن سيرا سولموند وصل في إحدى أمسيات أواخر الصيف وطلب إلى نيكولاوس أن يأتي معه إلى بيته . كان هناك فارس أجنبي وصل من قداس وقد استعار بيتاً في روموندغارد ، ولكن لم يكن هو ولا أحد من تابعيه أو خدمه يتكلمون باللغة النرويجية . كان الدليل الذي أوصلهما إلى هناك لا يفهم سوى كلمة أو اثنين من حديثهما . كان سيرا آيريك مريضاً . . . ألم يكن ناكفه قادراً على القدوم والتكلم مع الفارس باللاتينية؟

لم يبد على ناكفه أنه غير سعيد بالذهاب للترجمة ، ولكنه تظاهر بأنه لا يهتم بالأمر وذهب مع الكاهن . وقد عاد إلى البيت بوقت متأخر جداً في الليل ، في حال من السكر بعد أن شرب الكثير من النبيذ . كان لدى الفارس الأجنبي الكثير من النبيذ ، وقد جعله يسيل أمام الكاهن والقندلفت وناكفه أيضاً وبكل كرم . كان اسمه شيئاً أشبه بالسير "آلان" أو "آلارت أوف بكلار" . كان من الفلاندرز وهو في رحلة حج إلى الأماكن المقدسة في الدول الشمالية . كان ودوداً جداً وقد انطلق الكلام بينهم بسيولة . . . ثم ذكر ناكفه رسالة الفارس . كان الفارس ذاهباً إلى أوسلو ثم إلى أمكنة أخرى للحج في الدنمارك وألمانيا ، وكان راغباً

في اصطحاب ناكفه معه ليكون ترجماناً له على الأقل خلال وجوده في النرويج . وعلاوة على ذلك فقد كان قد ألمح إلى أن الشاب الصغير لو كان سيصحبه دائماً فإن من شأنه أن يكسبه ثروة . . .لقد بدا وكأن البلاد التي جاء منها كان فيها مهاميز وسلاسل عنق ذهبية وأكياس نقود ثقيلة وأسلحة جيدة جاهزة تنتظر شاباً صغيراً شأن نيكولاوس إرلندسون ليحضر ويلتقطها من على الأرض . وقد أجاب ناكفه بأنه كان لا يزال دون سن الرشد ، وعليه أن يستأذن أباه . . . ولكن السير آلارت أجبره على تقبل هدية على أي حال . ولن تكون الهدية ملزمة كما قال بصراحة . . . كانت سترة قصيرة دون أكمام من الحرير ولها لون الخوخ مع أجراس فضية على الأكمام .

أصغى إرلند إليه صامتاً مع نظرة غريبة شديدة الانفعال . وحين انتهى ناكفه من الكلام ، أرسل غاوته ليحضر صندوق عدة الكتابة ، وانطلق يملي رسالة باللاتينية . . . وقد ساعده بيورغولف فلم يكن ناكفه قادراً على أن يكون ذا نفع في حالته تلك وأرسله أبوه إلى السرير . في الرسالة كتب أن إرلند يطلب من الفارس الحضور إلى بيته في اليوم التالي وذلك ليتبادلا الحديث حول عرض السير آلارت في جعل نيكولاوس إرلندسون يعمل في خدمته كتابع له . وقد رجا الفارس أن يغفر له إعادته للهدية مع الرجاء بأن يحتفظ بها السير آلارت حتى يكون نيكولاوس ، بعد أن يأخذ الإذن من أبيه ، قد أقسم يمين الولاء للعمل في خدمة الغريب ، حسب العادة السائدة بين فرسان كل البلاد .

أسقط إرلند بعض الشمع على أسفل الرسالة وضغط عليه بختمه الصغير ـ الذي على خاتم يده ـ بخفة . ثم أرسل خادماً إلى روموندغارد مع الرسالة والسترة الحريرية .

" يا زوجي . . . لا شك أنك لا تفكر في إرسال ابنك الشاب إلى بلاد أجنبية مع رجل غير معروف وأجنبي . . ." قالت كريستين وهي ترتجف .

" علينا أن نرى . . ." قال إرلند وهو يبتسم على نحو غريب جداً . " . . . ولكني لا أعتقد أن الأمر سيكون كذلك ." قال هذا حين رآها مضطربة ، ثم ابتسم على نحو أوسع وربت على خدها .

وبناء على طلب إرلند قامت كريستين بنثر العرعر والزهور على أرض القاعة العليا ونشرت أفضل الوسائد على المقاعد وغطت المائدة بقماش كتاني ووضعت اللحم في أطباق من الخشب النفيس والشراب في كؤوس نادرة مطعمة بالفضة ورثتها الضيعة من لافرانس . كان إرلند قد حلق لحيته بعناية وجعّد شعره وارتدى معطفاً أسود مطرزاً على نحو فاخر وطويل صُنع من قماش أجنبي . مضى نحو بوابة الضيعة ليقابل ضيفه ، وحين عبرا الباحة معاً ، لم تستطع كريستين سوى أن تعتبر أن زوجها كان يبدو أشبه بكثير بواحد من فرسان فالاند أولئك الذين تروى عنهم الحكايات من الغريب الأشقر الأجنبي المرتدي ملابس زاهية متعددة الألوان من الحرير الرقيق والمخمل . وقفت على شرفة القاعة العليا وقد ارتدت غطاء رأسها المطرز الحريري . قبّل الفلمنكي يدها حين حيته قائلة بالفرنسية : "أهلاً بك" ، ولم يتبادلا سوى هاتين الكلمتين طوال وجوده الذي دام ساعات معهم . لم تفهم شيئاً من كلام الرجل وكذلك سيرا سولموند الذي كان مع ضيفه . ولكن الكاهن قال للسيدة إنه واثق من أنه ضمن ثروة لنيكولاوس . ولم تجب هي لا سلباً ولا إيجاباً .

كان إرلند يتكلم القليل من الفرنسية وكذلك بعض الألمانية بشكل سطحي كالتي يعرفها الجنود المرتزقة ، وتم تبادل الحوار بينه وبين الفارس الغريب بسلاسة وتهذيب . ولكن كريستين لاحظت أن الفلمنكي بدا غير مسرور إلى حد كبير مع استمرار الحوار رغم أنه حاول إخفاء ذلك . وكان إرلند قد أمر أبناءه بالانتظار في علية المخزن الجديد حتى يرسل وراءهم . . . ولكنه لم يرسل وراءهم .

ذهب إرلند والسيدة مع الفارس والكاهن نحو البوابة . وحين كان الضيفان قد

اختفيا بين الحقول التفت إرلند إلى كريستين وقال بابتسامة لم تعجبها :

"مع ذاك الشخص لا يمكنني إرسال نيكولاوس حتى من هنا إلى برايدن . . ."

وصل إليهما أولف هالدورسون . كان قد تكلم هو وإرلند على نحو لا تسمعه كريستين ، ولكن أولف شتم بعنف ثم بصق . ضحك إرلند وربت على كتف الرجل :

" أجل ، لو كنت شخصاً من النوع الذي لا يغادر منزله أبداً مثل هؤلاء المزارعين هنا . . . ولكني رأيت الكثير حتى أني لأتعهد لك بأني لن أبيع صقوري الشابة الوسيمة لأسلمها بيديّ إلى الشيطان . . .لم يفهم سيرا سولموند شيئاً ، رأس العجل المقدس ذاك . . ."

وقفت كريستين بذراعين مدلاتين . كان وجهها يحمر ثم يشحب . وكان الاشمئزاز والعار قد سيطرا عليها ، حتى شعرت بالغثيان . بدت لها ساقاها وكأنهما تخونانها . لا شك أنها عرفت بوجود مثل هذه الأمور ـ على أنها أشياء بعيدة جداً ـ ولكن أن يقتحم علها هذا الشيء الذي لا اسم له عتبة منزلها . . . كأنما كانت تلك آخر موجة عليها أن تقلب زورقها الذي عصفت به العاصفة فزعزعته . يا مريم المقدسة . . . هل عليها أن تخاف من مثل هذه الأمور أيضاً على أبنائها؟ . . .

قال إرلند بالابتسامة البشعة نفسها :

" فكرت في نفسي البارحة مساء . . . لقد بدا السير آلارت لي على أنه شديد التهذيب حسب ما حكى ناكفه . ولكني أعرف جيداً أنه ليس من عادة الفرسان في أي مكان من العالم أن يحيّوا شاباً سيعمل في خدمتهم بقبلة على الفم ، ولا أن يهدوه هدايا ثمينة حتى قبل أن يثبت جدارته . . ."

قالت كربستين وهي ترتجف من رأسها إلى أخمص قدميها :

" ولماذا جعلتني أنثر الأرض بالزهور وأن أفرش مائدتي بالأغطية الكتانية لمثل ذاك الـ . . ." وهنا نطقت أسوأ الكلمات .

عقد إرلند حاجبيه . كان قد التقط حجراً . . . وراح يراقب قط مونان الأحمر الذي كان يتسلل خلسة على بطنه عبر العشب الطويل تحت جدار المنزل ، نحو الفراريج القريبة من باب الإسطبل . ثم أطلق الحجر وكان أن هرب القط في ومضة ، وتناثرت الدجاجات هنا وهناك . التفت إلى زوجته :

" . . . لقد فكرت أنه لا بأس من رؤية الرجل ، فلو كان شخصاً قيّماً . . . آنذاك . . . وحتى أراه عليّ أن أظهر له الكياسة . . .لست كاهن اعتراف السير آلارت . ولقد سمعت أيضاً أنه متجه إلى أوسلو ." ضحك إرلند مجدداً . "والآن فإن بعض أصدقائي الخلّص وأقربائي السابقين الأعزاء قد يسمعون أننا لا نجلس هنا في يورونداغارد فحسب ، لنزيل القمل عن خرقنا ونأكل سمك الرنة وكعكة دقيق الشوفان . . ."

•

كان بيورغولف يعاني من الصداع وقد لزم الفراش حين دخلت كريستين إلى العلية وقت العشاء ، كما قال ناكفه إنه لن يذهب إلى القاعة للعشاء .

" اعتقد أنك كئيب هذا المساء يا بني" ، قالت له أمه .

" كلا ، كيف يمكنك أن تفكري هكذا يا أمي؟" . . . ابتسم ناكفه بازدراء . "إني أبدو أكثر حماقة من الرجال الآخرين وأنه لأمر سهل ذر الرماد في عيوني ، ليست مسألة تستحق التفكير ، هذا أكيد . . ."

قال أبوه حين جلسوا إلى المائدة وكان ناكفه لا يزال أكثر صمتاً من عادته : "عليك أن تشعر بالراحة فأنت ستخرج إلى العالم لتجرب حظك . . ."

أجاب ناكفه بصوت خفيض وكأنه لا يريد سوى إرلند أن يسمعه : "هذا يعتمد يا أبي على ما إذا كان بيورغولف سيتحمل رفقتي" . ثم ضحك بهدوء .

"ولكن قل لإيفار وسكوله ما قلته لي . . . هذا توقهم الوحيد ، على ما أعتقد ، أن يكبرا ويبلغا سنّ الرشد لينطلقا . . ."

نهضت كريستين وارتدت عباءة ذات قبعة . كانت تفكر في الذهاب شمالاً إلى الشحاذ العجوز في كوخ انجيبورغ ، كما قالت لهم . عرض التوأمان مرافقتها وحمل الكيس عنها ، ولكنها قالت إنها تفضل الذهاب لوحدها .

●

كانت الأمسيات قد سبق لها وأصبحت داكنة العتمة ، وإلى شمال الكنيسة كان الطريق يمر بالغابات وتحت ظل جبل "هامار" . هنا كانت هبات باردة تأتي من الوادي ، وكان هدير النهر المزمجر يجلب معه أنفاساً رطبة . كانت أسراب من فراشات العث البيضاء الكبيرة تحلق وترتعش تحت الأشجار . . .كانت تتجه أحياناً إلى اليمين باتجاه المرأة . بدا لها في الغسق ، أن الغطاء الكتاني من حول رأسها وصدرها كان يجذب الفراشات . راحت تضربها بيدها وهي تسرع صاعدة ، وتنزلق على السجادة الناعمة من أبر الصنوبر وتتعثر فوق الجذور الملتوية التي كانت تلتف عبر الممر الذي كانت تسير فيه .

. . .كان هناك حلم سبق له وراح يقلق ليالي كريستين منذ سنوات كثيرة . في المرة الأولى التي حلمت فيها به كان الليلة التي سبقت مولد غاوته ، ولكن حتى الآن كان يحدث أن تستيقظ وهي متعرقة وقلبها يدق وكأنه سيتمزق في صدرها ، وكانت تعرف أنها قد رأت الحلم نفسه سابقاً . . .

كانت تشاهد مرجاً مغطى بالأزهار . . . منحدراً جبلياً شاهقاً مغطى بغابة من الصنوبر كانت محاطة بالمروج من ثلاثة جوانب ، مروج كثيفة ومعتمة . عند سفح المنحدر كانت بحيرة جبلية صغيرة تعكس الغابات الداكنة والفسحة الخضراء المتلألئة . كانت الشمس خلف الأشجار . . . من أعالي الجبال كان آخر نور ذهبي ينخل أشعة طويلة عبر أشجار التنوب ، وفي أعماق البركة كانت غيوم

غروب لامعة تسبح بين أوراق ليلك الماء .

في وسط المنحدر ، كانت ترى طفلها وهو واقف في ركام من المنثور البري والحوذان وغيوم مزبدة من حشيشة الملاك .لا بدّ أنه كان ناكفه في أول مرة رأت فيها هذا الحلم . . . وكان لديها اثنان فقط في ذلك الحين ، وكان بيورغولف لا يزال في المهد . وبعد ذلك لم تكن تعرف على وجه الثقة أياً من أطفالها كان من تراه في الحلم . . . كان الوجه الصغير المستدير الذي سفعته الشمس تحت الشعر الأصفر البني المقصوص على نحو دائري يبدو لها الآن مثل هذا الابن أو الآخر ، ولكن الطفل كان دائماً في عمر السنتين أو الثلاث سنوات ، ويرتدي معطفاً أصفر داكناً صغيراً كالذي اعتادت أن تخيطه لأولادها الصغار للاستعمال اليومي . . .من الصوف المغزول منزلياً والمصبوغ بصبغة عباد الشمس وله حاشية حمراء .

وهي نفسها ، كما كان يبدو لها أحياناً ، تكون على الجانب البعيد من البحيرة الجبلية . أو أنها لا تكون في المكان إطلاقاً ، ولكنها معه ذلك ترى كل ما يحدث . . .

كانت ترى ابنها الصغير يتحرك هنا وهناك ، ويلتفت بوجهه وهو يقطف الأزهار . كان خوف غير واضح يضغط بثقل على قلبها ، تنبؤ بأمر شرير على وشك الحدوث . ولكن في البداية كان يأتي مع الحلم عذوبة مؤلمة قوية ، وهي تحدق إلى الطفل الأشقر هناك في المرج .

ثم تبدأ تعي بأنه من ظلام حافة الغابة تخرج كتلة مشعثة حية . إنها تتحرك دون صوت . تومض عينان شريرتان . إلى المرج الأعلى يأتي الدب ، يقف ويؤرجح رأسه وكتفيه وهو يتشمم نحو الأسفل . ثم يقفز . لم يسبق لكريستين أن رأت دباً حياً ، ولكنه تعرف أن الدببة تقفز على هذا النحو . ولكن هذا ليس دباً . هذا يتحرك كقطة ـ لقد أصبح لونه رمادياً ـ يقفز مثل قطة ضخمة شعثاء رمادية بقفزات طويلة رشيقة هابطاً المنحدر العشبي . . .

تراقب الأم وقد حلّ بها ألم كألم الموت . . . ولا تستطيع أن تتقدم إلى حيث كان الطفل الصغير لتنقذه ، وهي لا تستطيع تحذيره بصوت واحد . ثم يعي الطفل أن "شيئاً ما" موجود هناك . يلتفت نصف التفاتة وينظر عبر كتفه . وبصرخة صغيرة خفيضة مليئة بالرعب يحاول أن يهبط المنحدر وهو يرفع ساقيه كما يفعل الأطفال الصغار ، عالياً في العشب الطويل ، وتسمع الأم بوضوح الأصوات الصغيرة للسيقان المليئة بالعصارة وهي تتكسر بينما الطفل يندفع في طريقه عبر الزهور المتشابكة . ثم يتعثر بشيء ما في العشب ويقع على وجهه ، وفي اللحظة التالية يكون الوحش قد انقض عليه بظهر مقوس ورأس مندفعة بين طرفيه الأماميين . ثم تستيقظ . . .

. . . وفي كل مرة كانت تبقى مستيقظة لساعات قبل أن تستطيع تهدئة نفسها . . . وذلك بالتفكير في أن هذا كان مجرد حلم! كانت تشد أصغر أطفالها الذي ينام بينها وبين الجدار إليها وكانت تفكر في أنه لو كان الأمر حقيقة لكانت قد فعلت هذا أو ذاك . . . كانت ستفزع الوحش بالصراخ أو بعصا . . . وكان في حزامها دوماً سكين حادة طويلة . . .

ما أن تهدئ بنفسها من روعها على هذا النحو ، كان ينتابها مجدداً الألم غير المحتمل ، كما في منامها ، وكانت تقف عاجزة وترى جهود صغيرها المسكين العبثية في محاولته الهروب من الوحش السريع والقوي والوحشي والمميت . أحست كأن الدم كان يغلي ويموج في جوفها ، وكأن جسدها كان يتورم وقلبها يكاد ينفجر ، حيث أنه ما كان قادراً على احتواء كل تلك الموجة من الدم . . .

كان الكوخ المسمى " كوخ الجيبورغ" يقع فوق جبل هامر ، تحت الطريق العام بقليل كوخاً مهجوراً منذ سنوات كثيرة ، والأرض مؤجرة إلى رجل حصل على الإذن بتنظيف المكان وللبناء في الجوار . كان شحاذاً عجوزاً تخلت عنه عصابة من الشحاذين ، قد حصل على الإذن باستعماله . وحين سمعت كريستين بذلك ،

فقد أرسلت اللحم والملابس والأعشاب الشافية ، ولكنها هي نفسها لم يتح لها الوقت حتى الآن للذهاب إلى هناك .

سرعان ما سينتهي أمر الرجل المسكين كما استطاعت أن ترى . أعطت حقيبتها إلى المرأة المتسولة التي بقيت معه ، وحين علمت أنها أرسلت تطلب الكاهن ، فقد غسلت له وجهه ويديه وقدميه حتى يكون نظيفاً ومستعداً لآخر مسح بالزيت عليه .

كان الجو كثيفاً في الداخل من الدخان في الكوخ الصغير ، وكانت هناك رائحة رهيبة مقززة وكريهة . وحين دخلت امرأتان من جماعة المستوطنين ، رجتهما كريستين أن ترسلا إلى يورونداغارد في طلب أي شيء تحتاجان إليه ، ثم ودعتهم ورحلت . انتابها خوف غريب ممرض من لقاء الكاهن الذي سيكون حاملاً لجسد الرب ، فانعطفت في أول ممر جانبي وصلت إليه .

سرعان ما لاحظت أنه كان مجرد ممرّ للأبقار . ووجدت نفسها في مكان لا تعرفه دون آثار تتقفاها . كانت هناك أشجار ساقطة مع كتل متشابكة من الجذور تخيف الناظر إليها . كان عليها أن تمر من فوقها ، ثم لم تعد تستطيع أن تجد طريقها . كانت رقاقات من الطحالب-تنزلق من تحت قدميها حين راحت تشق طريقها بين أحجار كبيرة . التصقت خيوط العناكب بوجهها وراحت الأغصان تضرب بها وتتمسك بملابسها . وحين كان عليها أن تمر فوق جدول صغير ، أو تصل إلى فسحة مستنقعية واطئة في الغابة ، كان أمراً مستحيلاً تقريباً أن تجد مكاناً تستطيع منه أن تتسلل عبر الشجيرات الورقية الرطبة . وكانت فراشات العث البيضاء الكريهة في كل مكان ، كثيفة تحت الأشجار في العتمة ، وتحتشد في سحابة كبيرة عند أجمات الخلنج حيث كانت تدوسها بقدميها .

ولكنها خرجت أخيراً إلى التلال المنخفضة نحو "لاغن" . هنا كانت غابة من أشجار التنوب غير كثيفة ومتباعدة ، فقد كان على الأشجار هنا أن ترسل

جذورها لتتغلغل بعيداً في الصخر العاري ، وكانت أرض الغابة مغطاة فقط بطحالب الرنة الرمادية البيضاء الجافة التي كانت تطقطق تحت قدميها . . . وبينها بعض شجيرات الخلنج المتناثرة السوداء . كانت رائحة أبر الصنوبر أكثر حرارة وجفافاً وحدّة منها في الأعالي . . . فهنا كانت الغابة دائماً ذات أبر مسفوعة وصفراء منذ بداية الربيع . وكانت فراشات العث البيضاء لا تزال تلاحقها . . .

كان هدير النهر يجذبها نحو الأسفل . مضت حتى الحافة ونظرت إلى الأسفل . في الأسفل هناك في الأعماق كان الماء يلتمع أبيض حيث كان يغلي ويهدر فوق الصخور الملساء من بركة إلى أخرى .

كان هدير الشلالات المتواصل يرتجف عبر جسدها وروحها المتشنجين . وقد ذكرها هذا مراراً بزمن بعيد مضى حين عرفت حتى آنذاك أنها لا تستطيع احتمال المصير الذي اختارته لنفسها . لقد عرت حياتها ، حياة الفتاة المحمية الرقيقة ، أمام سطوة الحب الجسدي المهلك . . . وقد عاشت منذ ذلك الحين في رعب ، في رعب ، في رعب ، وأضحت جارية منذ ساعة الأمومة الأولى . لقد سلمت نفسها للدنيا في شبابها ، وكلما كافحت وناضلت ضمن شرك الدنيا هذا كلما وجدت نفسها أكثر تورطاً وانحباساً فيه . لقد ناضلت لتحمي أبناءها بجناحين مرفرفين عبثاً وقد قيدتهما متاعب الدنيا . كانت تبذل جهدها لتخفي خوفها وضعفها اللذين لا يوصفان عن كل الناس ، وقد تقدمت بظهر منتصب ووجه هادئ ، وقد حافظت على صمتها وقاتلت لتحمي مصالح أولادها بكل ما تستطيعه من قوة . . .

ولكن كان ذلك الخوف الخفي اللاهث يصاحبها دائماً . . . لو أصيبوا بالمرض ، فهو أمر أكبر من أن أستطيع تحمله . . . وكانت أعماق قلبها تئنّ من ذكرى أبيها وأمها . حتى حين كانا يسيران مترعين بالخوف والحرص على أطفالهما ، يوماً بعد يوم ، نحو الموت ، فقد كانت لديهما القوة على حمل

عبثهما ، ولم يكن الأمر وما فيه أنهما كانا يحبان أولادهما أقل منها ، ولكنهما كانا يحبانهم حباً أفضل . . .

وهل كانت سترى الآن كفاحها ينتهي على هذا النحو؟ . . .ماذا لو أنها ربت فحسب صغار الصقور القلقة التي تقبع في عشها دون صبر ، منتظرة ساعة نمو أجنحتها لتحملها خارجاً عبر الجبال الزرقاء الأبعد . . .؟ وكان أبوهم يصفق بيديه ويضحك . . . طيري . . . طيري . . . يا طيوري الصغيرة . . .

كان من شأنهم أن يخلعوا أليافاً دموية من جذور قلبها وهم ينطلقون طائرين ، وهم لن يعرفوا شيئاً عن ذلك . وستُترك هي وحيدة ، وكانت كل خيوط القلب التي ربطتها ذات مرات ببيتها العتيق هذا قد مزقتها هي بيدها قبل زمن بعيد . . . لا شك أنها ستكون حياة لا هي بالحياة ولا هي بالموت .

●

التفتت وعدت نصف عدو بخطوات متعثرة ، عبر السجادة الشاحبة الذاوية من طحالب الرنّة ، وقد تجمعت عباءتها من حولها ، فقد كان أمراً صعباً أن تعلق بين الشجيرات . وأخيراً خرجت إلى حقول التبن الصغيرة شمال مبنى النقابة والكنيسة . وبينما راحت تمضي بخط منحرف عبر الحقل أحست بوجود شخص واقف على الطريق . نادى :" أهي أنت يا كريستين؟" . . . عرفت أن ذاك كان زوجها .

قال إرلند :"لقد أطلت الغياب . أوغل الليل يا كريستين وقد بدأت أشعر بالخوف ."

" أكنت خائفاً عليّ؟" خرج صوتها منها أقسى وأكثر تعالياً مّما أرادته أن يكون .

" ليس خائفاً جداً . ولكن خطر لي أن أخرج وألاقيك على الطريق ."

لم ينطقا بكلمة تقريباً وهما يتجهان جنوباً . كان كل شيء هادئاً حين دخلا

الباحة . كانت بعض الجياد التي لديهم في البيت تمشي متثاقلة تحت جدران المبنى وهي ترعى ، ولكن كان جميع من في البيت قد أووا إلى فراشهم .

مضى إرلند مباشرة إلى علية المخزن ، ولكن كريستين انعطفت نحو المطبخ .
" عليّ أن ألقي نظرة" ، أجابت على سؤال زوجها .

وقف على الشرفة منتظراً زوجته . . . ثم رآها تخرج من المطبخ حاملة مشعلاً مناراً من جذور الصنوبر بيدها ثم تتجه نحو مبنى الموقد . انتظر الرجل قليلاً . . . ثم هرع إلى الأسفل ولحق بها .

كانت قد أوقدت شمعة ووضعتها على المائدة . أحس إرلند بقشعريرة خوف غريبة تتخلله وهو يراها واقفة هناك قرب الشمعة الوحيدة في المبنى الخالي . . . لم يكن هناك شيء في الغرفة عدا الأثاث الثابت ، وفي نور الشمعة كان الخشب المهترىء يلتمع مجرداً أو عارياً . كان الموقد بارداً ونظيفاً ، باستثناء جذر الصنوبر الذي كان ملقى هناك حيث رمته وهو لا يزال متوهجاً . لم يكن من عادة إرلند وكريستين استخدام هذه الغرفة ، وربما لم تشعل نار فيها منذ نصف سنة . كان الهواء كثيفاً على نحو غريب . كانت الروائح الحية المختلطة التي يتركها سكن الإنسان ورواحه ومجيئه ، غير موجودة هنا ، كما لم تكن فتحت فتحة الدخان ولا الباب طوال هذه الفترة . . . لذا كانت رائحة المكان هي رائحة الصوف والجلود . كان بعض الفراء والجلود الملفوفة التي أخرجتها كريستين من المخزن قد كوّمت في السرير الفارغ الذي كان يخص لافرانس وراغنفريد .

فوق المائدة كانت شلل خيوط كثيرة . . . خيوط للخياطة والغزل التي تستعمل للرفء مع خيوط كتانية وصوفية وضعتها كريستين على نحو منفصل حين كانت تصبغ . وقد وقفت الآن وراحت تعبث بها بأصابعها وترتبها .

جلس إرلند في المقعد العالي عند نهاية المائدة . بدت الغرفة واسعة وفارغة إلى حد غريب من حول الرجل الرشيق ، وهي فاغرة فاها هناك مجردة من الوسائد

والستائر . كان المحاربان من أتباع القديس أولاف اللابسان لخوذتين وترسين عليهما علامة الصليب واللذان كان لافرانس قد نحتهما على أعمدة المقعد العالي يقطبان بكآبة ومزاجية من تحت يدي إرلند السمراوين النحيلتين . لم يكن هناك رجل قادر على نحت الزخرفة النباتية والحيوانات على نحو أجمل مما فعله لافرانس ، ولكنه لم يكن ناجحاً جداً في نحت الأشكال البشرية .

بقي الاثنان صامتين فترة طويلة حتى أنه لم يكن يسمع أي صوت إلاّ صوت وقع حوافر الجياد على المرج في الخارج حيث كانت هذه تتجول في ليل الصيف .

سألها أخيراً : " ألن تؤوي إلى الفراش قريباً يا كريستين؟"

" وماذا عنك أنت؟"

قال الرجل :" فكرت في انتظارك . . . "

" لا أفكر بالصعود إلى هناك بعد . . . لا أستطيع النوم . . . "

سألها بعد قليل : " وما هو هذا الأمر الذي يثقل على أفكارك يا كريستين حتى يجعلك تظنين أنك لن تنامي؟"

نهضت كريستين ووقفت وبيدها شلة من الصوف الأخضر بلون الخلنج راحت تشدها وتلويها بين أصابعها .

" ما الذي حدثت عنه ناكفه اليوم؟" بلعت ريقها مرة أو مرتين ، كان حلقها شديد الجفاف . "خطة ما . . . لم يبد عليه أنها تلائمه . . . ولكنك تحدثت عن كيف أن إيفار وسكوله . . . "

" أوه . . . ذلك الأمر" ، ابتسم إرلند قليلاً . لقد قلت للشاب فحسب أن لديّ صهراً أنا أيضاً كما تذكرت الآن . . . رغم أن غرلاك ، على ما أعتقد ، لن يكون مستعداً قط لتقبيل يديّ وأن يأخذ مني عباءتي وسيفي كما كان دأبه سابقاً . ولكن لديه سفن في البحر . . . وأقرباء موسرون في " بريمن" وفي "الين" . ولا

شك أن الرجل يجب أن يفهم أنه يليق به أن يساعد إخوة زوجته . . . وأنا لم أكن أبخل ببضاعتي وعدتي حين كنت رجلاً غنياً ومنحت يد ابنتي إلى غرلاك تيدكنسون ."

لم تقل كريستين شيئاً . وأخيراً قال إرلند على نحو أشد حرارة :

"يا للمسيح يا كريستين ، لا تقفي منتصبة هكذا وكأنك قددت من حجر . . ."

" لم أفكر قط حين تزوجنا أن أولادنا سيضطرون إلى التجول في هذا العالم وهم يتسولون الخبز في بيوت الأغراب . . . "

" كلا ، فليأخذني الشيطان لو كنت أعني أن عليهم أن يتسولوا! ولكن لو اضطروا جميعاً ، سبعتهم ، إلى اعتصار رزقهم من مزرعتك هنا ، فسيكون مصيرهم مصير الفلاحين يا كريستين . . . وأعتقد أن أبنائي ليسوا مهيئين لهذا . يبدو لي إيفار وسكوله على أنهما متنمّران . . . وهناك في العالم في الخارج خبز حنطة وكعك للرجل الذي يكسب اللحم بسيفه ."

" أتريد لأبنائك أن يكونوا مرتزقة وخدماً ؟"

" لقد عملت مرتزقاً في أيام شبابي والتحقت بخدمة الكونت ياكوب فليرحمه الله . . . لقد تعلمت آنذاك أن الرجل لا يكسب المعرفة في البيت في بلادنا هذه . . . هنا إما أن يجلس كالطاووس في مقعده العالي وحزام فضي يطوق بطنه ، يملأ نفسه حتى الثمالة بالجعة أو يمشي خلف المحراث يتشمّم كفلي حصانه . كانت حياة مرحة عشتها في خدمة الكونت . . . أقول هذا رغم أني تورطت في هذا وأنا بعد في سن ناكفه . . . ولكني على الأقل نلت بعض المتع في شبابي . . . "

"أصمت! " بدأت عينا كريستين تتحولان إلى اللون الأسود . " ألا تعتقد أنه سيكون أسوأ أنواع الأذى لو أن أبنائك تورطوا في مثل هذه الخطيئة

والبلية . . .؟

" أجل ، فليحمهم الرب من شيء كهذا . . . ولكن لم تكن هناك حاجة أيضاً إلى أن يقعوا في أخطاء أبيهم نفسها . يمكن للمرء طبعاً أن يخدم رجلاً نبيلاً يا كريستين دون أن تشوب صفحته شائبة . . . "

" من يقتل بالسيف بالسيف يُقتل ، هذا ما هو مكتوب يا إرلند؟ "

"أجل ، لقد سمعت به يا عزيزتي . ولكن معظم أجدادك وأجدادي ماتوا ميتة جيدة ومسيحية في فراشهم ، مع المسح الأخير بالزيت وكل الراحة الروحية . عليك أن تتذكري فحسب أباك . . . لقد أظهر في شبابه أنه رجل يستطيع استخدام السيف . . . "

" كان ذلك في أيام الحرب يا إرلند ، فبناء على أمر الملك ذهبوا ليحموا بيوتهم ومواقدهم ، وهذا هو السبب في أن أبي والآخرين حملوا السلاح . ومع ذلك قال أبي نفسه إنه لم تكن إرادة الرب أن نحمل السلاح . . . رجال مسيحيون معمّدون ـ يجرد الواحد سلاحه ضد الآخر . . . "

" كلا أعرف ذلك . ولكن العالم على ما هو عليه منذ أن أكل آدم وحواء من الشجرة . . . وكان ذلك قبل زماني . ليس الذنب ذنبي أننا ولدنا والخطيئة فينا . . . !"

" كلامك معيب . . .!"

قاطعها إرلند بقوة :

" كريستين . . . أنت تعرفين الأمر جيداً . . . لم أكن قط بطيئاً في التوبة والتكفير عن خطاياي كما هو ملائم . لست بالرجل الورع ، هذا صحيح . لقد رأيت الكثير حين كنت طفلاً ثم شاباً . . . كان أبي صديقاً عزيزاً للوردات الكبار من جماعة الكنيسة . . . كانوا يأتون إلى منزله ويذهبون كالخنازير الرمادية . اللورد آيليف حين كان كاهناً والسير سيغفات لانده وكل أتباعهما . وكان لا يأتي معهم

سوى التشاحن والصرير . . . كانوا قساة القلوب لا يعرفون الشفقة مع أسقفهم . . . وما كانوا ورعين ولا محبين للسلام مع أنهم كانوا يحملون كل يوم في أيديهم أقدس المقدسات ويرفعون الرب نفسه عالياً في الخبز والخمر . . . "

" لسنا من يحكم على الكهنة . . . كان أبي يقول إن واجبنا هو أن ننحني أمام كونهم كهنة وأن نطيعهم ، ولكنهم كأشخاص طبيعيين واقعون تحت حكم الرب كلي القدرة وحده . . . "

" أجل . تمهل إرلند وهو يتلفظ الكلمة . " لذا أعرف أنه قال وأنت قلت ذلك أيضاً قبل الآن . وأعرف أنك أكثر ورعاً في مثل هذه الأمور مني . . . ومع ذلك يا كريستين فإنه من الصعب عليّ أن أفهم كيف يمكن أن تكون القراءة الصحيحة لكلمة الرب هو الاستمرار ، حسب طريقتك ، في تخزين الغضب وعدم النسيان . كما كان لافرانس يتحلى بذاكرة طويلة . . . أوه كلا! لن أقول شيئاً عن أبيك سوى أنه كان ورعاً وطيباً على نحو نبيل ، وأنك أيضاً كذلك كما أعرف . . . ولكن غالباً عندما تتحدثين بكل رقة وعذوبة ، وحين يكون فمك مليئاً بالعسل ، أخشى أنك تفكرين بالأخطاء القديمة ، والرب سيحكم إذا كان قلبك ورعاً مثل فمك . . ."

وفجأة انهارت وتمددت فوق المائدة ووجهها مخفي فوق ذراعيها وراحت تبكي بصوت مرتفع . قفز إرلند . . . بقيت تبكي بصوت مبحوح راح يهز جسمها . وضع إرلند ذراعه على كتفيها .

" كريستين ، ما الأمر . . .؟ ما الأمر؟" كرر وهو جالس على المقعد إلى جوارها ويحاول أن يرفع رأسها . " كريستين . . . كلا ، لا تبكي . . . أعتقد أنك فقدت صوابك . . . "

" أنا خائفة!" انتصبت في جلستها ووضعت يديها في حضنها . " أنا خائفة جداً . يا مريم ، أيتها السيدة الكريمة ، ساعدينا جميعاً . . . أنا خائفة جداً . . . ما الذي سيحدث لكل أبنائي . . .؟"

" أجل يا كريستين يا عزيزتي . . . ولكن عليك أن تعتادي على الفكرة . . . لم يعد ممكناً بعد الآن أن تخبيئهم تحت تنورتك . . . سرعان ما سيصبحون رجالاً ناضجين ، كل أبنائنا . . . وأنت لا تزالين كالكلبة . . ." جلس ووضع ساقاً فوق أخرى ويداه مطويتان فوق ركبته وقد راح ينظر بقلق إلى زوجته . . . " تعضين كالعمياء كلاً من الأصدقاء والأعداء ، حين لا يكون هناك ما يهدّد أطفالك ."

نهضت بحدة ووقفت لحظة وهي صامتة تعصر يديها . ثم بدأت تذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً وبسرعة . لم تقل شيئاً وجلس إرلند صامتاً وهو ينظر إليها .

توقفت أمام الرجل وقالت : " سكوله . . . يا له من اسم تعيس الحظ اخترته لابنك . ولكنك أردته . . . لقد أردت أن يعيش الدوق مجدداً من خلال ذلك الطفل . . ."

" إنه اسم جيد بما فيه الكفاية . أما من حيث سوء الحظ فإن هناك سوء حظ من أنواع كثيرة . حسناً لقد تذكرت ، حين أسميت ابني باسم جد أبي لأمه ، وهو الذي خانه الحظ ، ولكنه كان ملكاً على أي حال ، مع حقوق أفضل من بذرة صانع الأمشاط (٣) . . ."

" كنت فخوراً بما فيه الكفاية أنت ومونان باردسون بأنكم كنتم من أقرباء الملك هاكون هاليغ . . ."

" أجل ، فأنت تعرفين أن عمة أبي ، مارغريت سكولسداتر قد جلبت دماً ملكياً إلى نسل آل سفير . . ."

ولفترة طويلة جداً وقف الزوج والزوجة وراحا يحدقان الواحد في عيني الآخر .

" أجل أعرف ما تفكرين به يا زوجتي الجميلة" . مضى إرلند وجلس مجدداً في المقعد العالي . وبيديه وهما تستريحان على رأسي المحاربين انحنى نحو الأمام قليلاً . ابتسم ابتسامة باردة مغيظة . " ولكنك تعرفين يا كريستين أني لم أتحطم ، أني أصبحت فقيراً ودون أصدقاء . إنه لأمر جيد أن تعرفي ذلك . . .

لست خائفاً من أن نسل أبي سيسقط معي من قمة القمة والشرف . لقد تمت خيانتي أنا أيضاً من قبل الحظ . . . ولكن لو نجحت خطتي لكنت أنا وأبنائي الآن جالسين في الكراسي التي على يمين الملك ، ونحن جديرون بها كأقرباء له . وبالنسبة إليّ انتهت اللعبة الآن ، ربما ، ولكني أستطيع أن أرى ذلك في أبنائي يا كريستين . . . فهم سيستعيدون المكانة التي تلائم محتدهم النبيل . ليس عليك أن تحزني إلى هذا الحد عليهم ، ولا تناضلي كل هذا النضال لتربطيهم هنا في هذا الوادي المنغلق خاصتك . . . دعيهم يبرهنوا على جدارتهم بحرية وسوف ترين على الأرجح ، قبل أن تموتي ، أنهم سيكسبون منزلة وطيدة مجدداً في إرث أبيهم الشرعي . . . "

" أوه ، تستطيع الكلام!" راحت دموع الغضب الحارة المرة تخز عيني المرأة ، ولكنها أعادتها وضحكت ، وقد التوى فمها :

" أعتقد أنك لا تزال أكثر طفولية من الشبان اليافعين يا إرلند! تستطيع أن تجلس وتتكلم على هذا النحو . . . وتتجرأ الحديث في هذا اليوم بالذات حين كان ناكفه على وشك أن يحظى بحظ لا يستطيع فم المسيحي أن يتلفظ به . . . لولا أن الرب حمانا . . . "

" أجل ، ولكن في هذه المرة كنت أنا المحظوظ إذ كنت أداة الرب في ذلك . . ." هزّ إرلند كتفيه . ثم قال بحماسة :

" مثل هذه الأمور . . . ليس عليك أن تخشيها يا كريستين . . . أليس هذا هو ما كاد يطيح بعقلك أيتها المسكينة؟ " نظر إلى الأسفل وقال بخجل تقريباً :
"عليك أن تتذكري يا كريستين . . . لقد صلّى أبوك طيب الذكر لأجل أولادنا ، كما صلّى من أجلنا جميعاً ، في البداية وفي النهاية . وأعتقد بكل ثقة وثبات أن ذلك يفيد للخلاص من أمور كثيرة . . . من أسوأ الأمور إطلاقاً . . . جيدة جداً شفاعة ذلك الرجل . . ." رأت الرجل يرسم إشارة الصليب على صدره بإبهامه وكأنما خلسة .

ولكنها كانت شديدة الغضب ، لقد آلمها ذلك أكثر .

" إذاً . . . أنت تواسي نفسك بهذه الفكرة يا إرلند ، وأنت تجلس هناك في مقعد أبي العالي ، بأن أبناءك سينقذون بفضل صلواته ، حتى وهم يطعمون من أراضيه . . . "

شحب وجه إرلند :

" أتعنين يا كريستين أني غير جدير بالجلوس في مقعد لافرانس بيورغولفسون العالي . . .؟ "

تحركت شفتا زوجته ، ولكنهما لم تخرجا أي صوت . نهض إرلند ووقف دون حراك :

" أتعنين هذا . . . إذاً أقول لك أنه بقدر ما هو أكيد أن الرب يعلونا كلينا . . . إني لن أجلس هنا ثانية قط ."

" أجيبي " ، قالها مجدداً وهي واقفة دون كلام . هزت رجفة طويلة جسم المرأة .

" كان سيداً أفضل ذاك الذي جلس هناك من قبلك . . ." كانت قادرة بالكاد على إخراج الكلمات من فمها على نحو مسموع .

" انتبهي للسانك الآن يا كريستين!" وبسرعة قطع إرلند خطوة أو اثنتين باتجاهها . وقفت منتصبة وهي مجفلة :

" أجل ، اضربني . . . لقد تحملت منك ذلك قبل الآن . أستطيع احتماله مجدداً ."

" أضربك . . . لم أفكر في ذلك ." وقف ويده مستندة إلى المائدة . ومن جديد راحا يحدقان كل في وجه الآخر ، ومن جديد كان يسود وجهه ذلك الهدوء البعيد الذي رأته فوقه في بعض اللحظات النادرة . والآن كان هذا يجعلها تشرد . كانت تعرف أنها هي من كانت على حق . . . كان كلام إرلند خالياً من

الحكمة ومتهوراً . ولكن وجهه ذاك جعلها تشعر وكأن الخطأ كان خطأها وحدها .

نظرت إليه ولشعورها بالغثيان من الخوف ممّا قالته فقد نطقت :

" أخشى ألاّ يكون أبنائي هم نسلك الذي سيزدهر مجدداً في ريف تروندهايم . . ."

تضرج وجه إرلند :

" لا تمتنعين عن تذكيري بسونيفا أولافسداتر ، كما أرى ."

" لم أكن أنا من ذكر اسمها ، بل أنت ."

تضرج وجه إرلند على نحو أشد .

" هل سبق لك وفكرت يا كريستين بأنك لم تكوني غير ملومة بالكامل في تلك . . . المصيبة . . . "

" أتذكرين تلك الليلة في نيداروس . . . وصلت ووقفت أمام سريرك . كنت متواضعاً جداً وآسفاً لأني أسأت إليك يا زوجتي . . . جئت لأتوسل إليك . . . حتى تسامحيني على خطئي . وكان جوابك أن أمرتني بالذهاب والنوم حيث كنت في الليلة الفائتة . . . "

" وكيف كنت سأعرف أنك كنت نائماً مع زوجة قريبك . . ."

توقف إرلند قليلاً . شحب وجهه ثم تضرج مجدداً . ثم التفت وخرج من الغرفة دون كلمة واحدة .

لم تتحرك الزوجة . . . بل وقفت دون حراك فترة طويلة ويداها تضغط على ما تحت ذقنها وهي تحدق إلى النور .

ثم رفعت رأسها وأخذت نفساً طويلاً . أحياناً عليه أن يتحمل سماعها . . .

•

ثم سمعت وقع حوافر جواد في الباحة . . . ومن مشيته عرفت أنه حصان يقوده خادم . انسلت نحو الباب ثم إلى المنزل الملحق ووقفت وراء عمود الباب وراحت تحدق .

كان قد سبق لليل وأضحى رمادياً من الفجر . في الباحة وقف إرلند وأولف هالدرسون . كان إرلند ممسكاً بحصانه ورأت أنه كان مسرجاً وأن الرجل كان يرتدي ملابس الركوب . تحدث الاثنان معاً فترة ، ولكنها لم تستطع أن تسمع كلمة واحدة . ثم قفز إرلند إلى السرج وبدأ يتجه شمالاً نحو بوابة الضيعة ،لم ينظر إلى الخلف ، ولكن بدا عليه أنه كان يحادث أولف الذي كان يمشي إلى جانب الحصان .

وحين ابتعدا عن النظر نحو الطريق ، خرجت من مكانها وأسرعت بصمت إلى البوابة ووقفت هناك وراحت تصغي . . . وقد سمعت إرلند الآن وقد راح يقود " ستوتن " خبباً على الطريق العام .

بعد قليل عاد أولف . توقف حين رأى المرأة هناك عند البوابة . وقفا برهة يحدق واحدهما إلى الآخر في نور الغسق الرمادي . كانت قدما أولف عاريتين في حذائه ولم يكن يرتدي سوى قميص كتاني تحت عباءته .

سألت السيدة بجنون : " ما هذا ؟ "

" لاشك أنك تعرفين . . . وأنا لا أعرف ."

سألت مجدداً : " إلى أين ذهب ؟"

" إلى هاوغن " . وقف أولف قليلاً . "لقد دخل إرلند وأيقظني . . . قال إنه يريد الذهاب إلى هناك هذه الليلة . . . لقد بدا على عجلة من أمره . كانت هناك بعض الأمور التي رجاني أن أقوم بها بعد رحيله ."

صمتت كريستين برهة .

" أكان غاضباً إذاً ؟"

" كان هادئاً " . ثم قال أولف بصوت خفيض : " أنا خائف يا كريستين . . . أتساءل إن لم تكوني قد قلت ما كان يجدر بك أن تدعيه مكتوماً . . . "

"لا شك أن إرلند قد يتحمل أن يخاطبه المرء ولو مرة واحدة على أنه رجل

ناضج" ، قالت الزوجة بقوة .

مضيا ببطء نحو الأسفل . أتجه أولف نحو منزله ، ولحقت هي به .

" أولف ، يا قريبي ، توسلت إليه بخوف . " في الأيام الخالية كنت أنت الذي قال لي إن عليّ عاجلاً أو آجلاً أن أخاطب إرلند لأجل مصلحة أبنائي " .

" أجل . . . لقد أصبحتُ أكثر حكمة مع مرور السنين يا كريستين أما أنت فلا" ، أجابها كما من قبل .

قالت بمرارة :" يا للسلوان الذي تمنحني إياه " .

وضع يده بثقل على كتف المرأة ، ولكنه لم يقل شيئاً في البداية . وقف هناك . . . كان الجو هادئاً جداً حتى أنهما سمعا كلاهما الهدير اللانهائي للنهر الذي لم يكن يصل إلى أذنيهما سابقاً . في المزارع من حولهما كانت الديكة تصيح ومن الإسطبل راح ديك كريستين يجيبها بصوت رنان .

" أجل . . . لقد كان عليّ أن أتعلم وأتعامل بحرص مع السلوان يا كريستين . . . لقد مرّ هذا الأمر بثقل طوال هذه السنين . . . علينا أن نرعاه بحرص الآن لأننا لا نعرف كم سيدوم الآن . . . "

تخلصت من يده وأسنانها تعض بشدة على شفتها السفلى ، والتفتت بوجهها جانباً . . . ثم هرعت نازلة إلى مبنى غرفة الموقد .

كان برد الصباح قارساً فلفت عباءتها من حولها وجذبت القبعة فوق رأسها . جلست بحذائها المبلل بالندى وقد وضعته تحت تنورتها وذراعاها تتصالبان فوق ركبتيها ، عند حافة الموقد القديم ، وهي تفكر . كان وجهها يرتجف بين الحين والآخر . . . ولكنها لم تبك .

لا بد أنها نامت . . . فقد أفاقت من ألم في الظهر وتيبس في الأطراف وتجمد حتى نقي العظام . كان الباب مفتوحاً . . . شاهدت أن الشمس كانت مشرقة في الباحة .

خرجت كريستين إلى المشرقة . . . كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء ، ومن مرعى المنزل سمعت الجرس على الحصان الذي أصبح أعرج . نظرت نحو المخزن الجديد . ثم أحست أن مونان الصغير كان يقف على الشرفة محدقاً عبر أقواس الدربزون .

أبناؤها . . . التمعت الفكرة في رأسها . ما الذي فكروا به حين استيقظوا ووجدوا سرير أبويهما لم يمس .

ركضت عبر الباحة وصعدت نحو الطفل . . . لم يكن مونان يرتدي سوى قميصه . ما أن دخلت أمه حتى دفع يده إلى يدها كأنه خائف .

في العلية لم يكن أي من الأولاد قد ارتدى كامل ملابسه . . . لم يكن قد أيقظهم أحد كما رأت . نظر الجميع بسرعة نحو أمهم ثم نحو الأسفل . أخذت بنطال مونان وأرادت مساعدته على ارتدائه .

سأل لافرانس متعجباً : " أين ذهب أبي؟ "

أجابت : " لقد ذهب أبوك شمالاً إلى هاوغن عند الفجر " . لاحظت أن الأولاد الكبار كانوا يصغون إليها ، فقالت : " تعرفون أنه قال منذ زمن إن عليه أن يذهب إلى هناك ذات مرة ليرعى أحوال مزرعته . "

نظر الولدان الأصغر إلى وجه أمهما بعيون مفتوحة متسائلة ، ولكن الخمسة الأكبر أخفوا نظراتهم عنها وهم خارجون من العلية .



-٣-

ومرت الأيام . في البداية لم تشعر كريستين بأي خوف . لم تكن تكترث بالتفكير فيما قد يعنيه إرلند بهذه الأفعال . . . أن يهرب من المنزل في غضب فجائي في جوف الليل البهيم . . . أو كم كان ينوي البقاء شمالاً هناك في مزرعته الجبلية ويعاقبها بغيابه . كانت غاضبة على نحو مرير من زوجها ، وغاضبة أكثر لأنها لم تنكر لنفسها أنها كانت على خطأ وأنها تلفظت بكلمات كانت تتمنى من كل قلبها لو أنها لم تنطق بها .

لا شك أنها أخطأت مرات عديدة وأنها غالباً وهي في حالة غضب قد قالت أشياء كريهة غير لائقة لزوجها . ولكن ما كان يؤلمها أشد الألم وهو أن إرلند لم يستطع قط أن ينسى وأن يسامح ، إلاّ إذا قامت هي بالتنازل وتوسلت له بضعة . لقد حدث كثيراً أيضاً أنها لم تكن هي المخطئة ـ كما فكرت ـ ألم يستطع أن يفهم أنها غالباً ما كانت قلقة ومرهقة من المخاوف التي ناضلت لتتحملها بصمت؟ . . . عندها كانت تفقد السيطرة على نفسها . لقد اعتبرت أن إرلند قد يكون تذكر ذلك ، إلى جانب كل القلق حول مستقبل أبنائهما الذي تحملته طوال تلك الأيام الكثيرة العديدة ، وقد مرّت خلال هذا الصيف بتجربتين مميتتين من الخوف على

ناكفه . لقد أصبحت عيناها مفتوحتين الآن لترى أنه بعد أن تنتهي الآم الأم الشابة ومشقتها ، فإن الأم المتقدمة في السن تعاني من مخاوف والآم من نوع جديد . . . إن حديثه الخالي من الهم عن كونه لا يخاف على مستقبل أبنائهما قد أغاظها حتى أضحت أشبه بالدبة الأم الثائرة . . . أو ككلبة ذات جراء . لم تعد تأبه لو أن إرلند شبّهها بالكلبة في كل ما يتعلق بأطفالها . من أجلهم ستبقى يقظة حريصة كالكلبة الأم ، طالما بقيت فيها حياة .

وحتى لو ، لأجل ذلك الأمر ، كان هو قادراً على نسيان أنها وقفت إلى جانبه في كل مرة كان في حاجة إليها ، وبكل قوتها ، وأنه رغم غضبها فقد كانت منصفة ومتسامحة وذلك حين ضربها وحين خانها مع تلك المرأة الكريهة الفاسدة من لنسفيك ، إذاً فإن عليه حتى أن ينسى . حتى الآن ، حين كانت تفكر في الأمر ، لم تكن قادرة على أن تشعر بالكثير من الغضب والمرارة ضد إرلند بسبب هذا ، وهو أسوأ إساءاته إليها . . . وذلك حين كانت تقرعه على ذلك ، فذلك لأنها كانت تعرف أنه كان يندم بنفسه ، وأنه كان يرى ويشعر في هذا أنه قد ارتكب شراً . ولكن لم يسبق لها أن كانت شديدة الغضب من إرلند . . . ولم تكن كذلك الآن . . . وأن ذكرى ضربه لها وذكرى خيانته مع كل ما سببته لم يكونا يزعجانها ، وخاصة لأجل خاطر الرجل نفسه . . . لقد شعرت دائماً أن في انفجاراته روحاً غير مسيطر عليها وأنه قد ارتكب الإثم ضد نفسه وضد صلاح روحه أكثر مما كان ذلك ضدها هي .

ما كان يثير ضغينة روحها هو كل تلك الجروح الصغيرة التي سببها لها بتهوره القاسي وقلة صبره الطفولية . . . وحتى بطريقته الطائشة والمتهورة في الحب ، حين كان يظهر أحياناً أنه يحبها رغم كل شيء . كان ذلك في كل تلك السنين حين كانت لا تزال شابة طرية الروح ، وكانت تشعر أن الصحة والشجاعة لن تلغياها . . . فقد كان تحمل عبء كل أولئك الأطفال الصغار العاجزين . . . إذ

لم يظهر الأب والزوج أن لديه القوة والعطف المترعين بالحب بحيث يحميها وأولادها الصغار القابعين في حضنها . كان عذاباً كبيراً لها أن تشعر بنفسها أنها ضعيفة في الجسد ، بسيطة دون خبرة في مسائل الذهن والعقل ، ولا تجرؤ على الثقة بزوجها على نحو يمنحها الأمان بقوته وحكمته . . . كأنما أصيبت بجراح قلبية آنذاك ولم تعد قابلة للاندمال . وحتى المتعة الحلوة المتأتية من حمل رضيعها ووضع فمه المحبوب على ثديها ، والشعور بجسده الدافئ الطري على ذراعها ، كانت قد أصبحت مُرةً من الخوف والقلق . . . أنت صغير جداً وعاجز جداً ، وغالباً ما ينسى أبوك أن يجعل همه الأول أن تكون في أمان .

والآن ، بعد أن نمت عظام أبنائها الصغار وتقسّت رؤوسهم ، إلا أنهم لا زالوا في حاجة نوعاً ما إلى حكمة رجل ناضج . . . ولكنه كان يغريهم بالابتعاد عنها . كانوا يبتعدون عنها تدريجياً ، القطيع كله ، الزوج والأولاد ، في تلك الخفة العقلية الغريبة الصبيانية التي فكرت في أنها لمحت شيئاً منها في كل الرجال الذين قابلتهم ، وحيث لا يمكن لامرأة حزينة حريصة أن تتبعهم .

لذلك من ناحيتها ، كانت تشعر بالحزن والغضب حين تفكر في إرلند . ولكنها تصبح خائفة حين تتساءل عما يفكر فيه أبناؤها الآن .

لقد ذهب أولف إلى دوفر مع حصاني حمولة ، وذلك ليحمل إلى إرلند الأشياء التي طلب أن ترسل وراءه : ثياب وأسلحة كثيرة : كل أقواسه الأربعة وأكياس ملأى برؤوس الأسهم وعزقات الأقواس وثلاثة من الكلاب . بكى مونان ولافرانس بمرارة حين أخذ أولف الكلبة الصغيرة ذات الشعر الناعم التي كان إرلند قد حصل عليها من القسيس في هولم . كان امتلاك أبيه لمثل هذا الكلب النادر يبدو أكثر من أي شيء آخر وكأنه يرفعه فوق كل الأشخاص الآخرين في عيون هذين الصغيرين . وكان والدهما قد وعدهما بأنه حين ستضع الكلبة جراء من جديد ، فسوف يختار كل واحد منهما جرواً بين مجموعة الجراء .

حين عاد أولف هالدورسون سألته كريستين إن كان إرلند قد قال متى يفكر في العودة إلى البيت .

قال أولف : " كلا . يبدو وكأنه يفكر في البقاء هناك "

ولم يقل أولف من تلقاء ذاته سوى القليل عن رحلته إلى هاوغن . وكرهت كريستين أن تسأله .

في الخريف حين انتقلوا من المستودع الجديد ، فإن أكبر الأبناء قالوا أنهم يحبون في هذا الشتاء أن يناموا في الطابق العلوي في غرفة القاعة العليا . سمحت لهم كريستين بذلك ، وهكذا تركت لتنام مع الابنين الأصغر في القاعة الكبرى في الأسفل . في المساء الأول قالت إن لافرانس أيضاً قد ينام في السرير معها.الآن .

استلقى الصبي مسروراً وراح يتدحرج على السرير . كان من عادة الأطفال أن يناموا على المقعد ، على أكياس جلدية ملأى بالقش ، وأن يلفوا في قطع من الفراء . ولكن في السرير كانت هناك حشايا زرقاء للنوم فوقها أغطية سرير ناعمة إلى جانب الفراء . . . وكان للوالدين أغطية من الكتان الأبيض الرقيق على وسادتيهما .

"هل سأنام هنا حتى يعود أبي إلى البيت؟ " سأل لافرانس ، ثم أردف قائلاً : "عندها على الأرجح سنعود إلى المقعد ثانية يا أمي ، أليس كذلك ؟"

"عندها يمكنك النوم في سرير ناكفه وبيورغولف " أجابت الأم . " لو غيّر الشبان رأيهم وهبطوا إلى هنا ثانية ، ما أن يصبح الجو بارداً . " في الطابق العلوي أيضاً كانت هناك مدفأة صغيرة من الحجر ، ولكنها كانت تعطي من الدخان أكثر مما تعطيه من الدفء وكان المرء يشعر بآثار الريح وعوامل الطقس أكثر بكثير في الطابق العلوي .

ومع نهاية الخريف اجتاح خوف غامض كريستين . كان يتعاظم من يوم إلى

آخر ، وكان التوتر يجعل الحياة صعبة الاحتمال . لم يبد أن هناك من سمع كلمة أو همسة من إرلند .

في ليالي الخريف الطويلة الداكنة كانت تستلقي مستيقظة ، وتسمع الصبيين الصغيرين يتنفسان ، وتصغي إلى صوت العاصفة من حول زوايا المنزل ، وتفكر في إرلند . لو لم يكن في تلك المزرعة . . .

كانت لا ترتاح حين كان ولدا الخالة يتحدثان عن "هاوغن" . . . مونان باردسون كان معهم في مسكنهما في آخر الأمسيات قبل أن ينطلقوا إلى أوسلو . في ذلك الحين كان مونان المالك الوحيد لهذه المزرعة الصغيرة . . . وقد ورثها عن أمه . كانا يمرحان هو وإرلند ، وكانا كلاهما ثملين تماماً ، وبينما جلست هي غاضبة لأنهما ذكرا ذلك المكان اللعين في كلامهما ، جرت الأمور على نحو جعلت مونان يمنح إرلند المزرعة . . . حتى لا يكون دون أرض في بلاد النرويج . تمت تسوية الأمر بين المزاح والضحك . . . حتى أنهم ضحكوا من تلك الشائعات عن أن الناس لا تستطيع أن تقطن في المزرعة لأنها مسكونة . إن الرعب الذي أصاب مونان باردسون حين وصلت أمه وزوجها إلى نهايتها البائسة هناك بدا في ذلك الحين وكأنه أنهك الفارس إلى حد ما .

ولا شك أنه تنازل عن هاوغن إلى إرلند بواسطة صك قانوني . لم تستطع كريستين أن تخفي كم كان الأمر كريهاً بالنسبة إليها أن يمتلك زوجها ذلك المكان العجيب . ولكن إرلند التفّ على الموضوع بمزحة :

" من غير المحتمل أن نطأ أنت أو أنا أرض تلك المباني هناك . . . إن كانت لا تزال منتصبة ولم تتحول إلى خرائب . . . وأعتقد أن الخالة آشيلد والسير بيورن لن يجلبا لنا بدل الإيجارات شخصياً . لذلك لا يهمنا لو كان ذلك صحيحاً ، كما يقول الناس ، أنهما لا يزالان يمشيان هناك . . . "

●

مع انقضاء السنة ، وأفكار كريستين تدور دائماً حول أمور إرلند في الشمال هناك في هاوغن ، فقد أصبحت قليلة الكلام إلى حد أنها كانت لا تنطق بكلمة واحدة مخاطبة أطفالها أو خدمها ، ما لم يكن جواباً على أسئلتهم . . . وكانوا قد بدأوا يكرهون التحدث إلى السيدة إلا عند اللزوم ، فقد كانت ترد بأجوبة قصيرة نافدة الصبر حين كانوا يقاطعون تأملها القلق المتوتر . وكانت هي نفسها غير واعية بذلك ، حتى لاحظت أخيراً أن أصغر ولديها قد توقفا عن طرح الأسئلة عن أبيهما أو ذكره أمامها ، فتنهدت وفكرت : ينسى الأطفال بسرعة . . . فهي لم تعرف كم مرة أخافتهما بأجوبتها نافدة الصبر وكم أمرتهما أن يصمتا ولا يزعجاها .

أما مع الأبناء الأكبر فلم تكن تحدثهم إطلاقاً إلا ما ندر .

●

مع دوام الجليد الجاف كانت لا تزال تجيب على الغرباء الذين كانوا يصلون إلى الضيعة ويطلبون السيد ، فتقول إنه في الجبال يجرب حظه في القنص . ثم هطل الثلج كثيفاً في الأبرشية وفي الجبال في أول الأسابيع السابقة على عيد الميلاد .

في وقت مبكر من صباح يوم " مساء القديسة لوسيا " (٣١كانون الأول/ديسمبر) وبينما كان الظلام مخيماً في الخارج والنجوم لامعة واضحة ، وصلت كريستين من الحظيرة . ثم رأت تحت نور مشعل الصنوبر المحشور في كومة من الثلج أن ثلاثة من أبنائها كانوا واقفين خارج باب الدار وأدوات التزلج بين أيديهم ، وهم يثبتونها على أقدامهم . . . وعلى مسافة قصيرة وقف حصان غاوته وقد ألبس حذاء ثلج في أقدامه ووضع سرج حمولة على ظهره . وقد خمنت مقصدهم ، ولم تجرؤ على قول أي شيء سوى أن تسأل حين رأت أن أحد الشبان كان بيورغولف والآخران ناكفه وغاوته :

"هل ستخرجون اليوم للتزلج يا بيورغولف؟ يبدو الطقس وكأنه سيصحو يا بنيّ" .

" كما ترين يا أمي" .

" ربما ستعودون إلى البيت قبل منتصف النهار إذاً ؟ " سألت وهي ضائعة نوعاً ما . كان بيورغولف غير ماهر في التزلج ، فالوهج الذي يعطيه الثلج يؤلم عينيه بسرعة ، وكان يبقي نفسه غالباً ضمن المنزل في فصل الشتاء . ولكن ناكفه أجاب بأنهم قد يغيبون لبضعة أيام .

تركت كريستين في البيت وقد انتابها القلق والخوف . كان التوأمان في حالة من الكآبة والغيظ . . . وقد لاحظت أنهما كانا راغبين في الذهاب ولكن إخوتهما الكبار رفضوا ذلك .

في وقت مبكر من اليوم الخامس ، في وقت الإفطار ، عاد الثلاثة . كانوا قد انطلقوا عند صياح الديك لأجل بيورغولف ، كما قال ناكفه . . . حتى يصلوا إلى البيت قبل أن تبزغ الشمس . وقد صعد هذان مباشرة إلى القاعة العليا . . . أما بيورغولف فبدا وكأنه سيقع أرضاً من الإنهاك . . . ولكن غاوته حمل الأجربة وسرج الحمولة إلى الغرفة . كان معه جروان جميلان لأجل لافرانس ومونان ، اللذين ما أن شاهدا الجروين حتى نسيا كل الأسئلة وكل المشاغل . بدا غاوته وكأنه منزعج ولكنه حاول إخفاء ذلك :

" . . . وهذا . . ." قال وهو يخرجه من الجراب ، " هذا طلب مني أبي أن أعطيك إياه ."

كانت فروات أربعة عشر قاقوماً من النوع الجميل . أخذتها أمه بنوع من عدم الرضا . . . ولم تستطع أن تجد كلمة واحدة تجيبه بها . كانت هناك أمور كثيرة ترغب بالسؤال عنها ، ولكنها خشيت أن تفقد سيطرتها على نفسها لو أنها أتاحت لقلبها أن يكشف عن مكنوناته . . . وكان غاوته صغيراً بعد . لذلك لم تذكر شيئاً

منها سوى أن قالت :

"سبق لها وأضحت بيضاء كما أرى . . . أجل نحن في منتصف الشتاء الآن . . ."

وحين نزل ناكفه ، وجلس هو وغاوته ليتناولا طبق العصيدة ، قالت كريستين بسرعة لفريدا إنها ستحمل بنفسها الطعام إلى بيورغولف في العلية . لقد خطر لها فوراً أنه بالنسبة للشاب الصامت الذي خمنت أنه كان أنضج عقلاً من أخوته ، فربما ستستطيع تناول الموضوع معه .

كان قد استلقى على السرير ، ووضع قطعة من القماش الكتاني فوق عينيه . علقت أمه إبريقاً من الماء على كلاّب القدر في الموقد ، وبينما اتكأ بيورغولف على مرفقه وراح يأكل فإنها راحت تغلي غسولاً من العشب المجفّف وبقلة الخطاطيف .

أخذت منه كريستين وعاء العصيدة الفارغ وغسلت له عينيه الحمراوين المتورمتين بالغسول ووضعت قماشاً كتانياً مبللاً فوقهما . ثم وجدت الشجاعة لتسأله أخيراً :

" ألم يقل أبوك شيئاً عن موعد عودته إلى البيت وإلينا ؟ "

" كلا " .

" أنت ضنين جداً بكلماتك يا بيورغولف " ، قالت أمه بعد قليل .

قال بعد برهة قصيرة : " هذا أمر متوارث يا أمي . لقد قابلنا سايمون ورجاله في مكان قريب من هنا ، شمال الوادي . . . كان على زلاجات محملة ويتجه شمالاً . "

سألت المرأة : " هل تبادلتم الكلام معهم ؟ "

" كلا . . . " ضحك كما من قبل . " يبدو أن هذا أشبه بمرض في سلالتنا . . . فالصداقة لا تزدهر بيننا . "

" هل تقصد أن تلومني على ذلك ؟ " ، اندفعت معه قائلة : " مرة تتذمر

من أننا نصمت كثيراً ثم تقول إننا لا نستطيع المحافظة على صداقاتنا . . . "

ضحك بيورغولف مجدداً . ثم اتكأ على مرفقه وكأنه يصغي إلى تنفس أمه :

"باسم الرب يا أمي لا تبدأي بالبكاء الآن . . . أنا محبط ومنهك . . . لست معتاداً قط على التزلج على الجليد . . . ولا تأبهي بما أقول : أعرف جيداً أنك لست امرأة قنوعة . "

سرعان ما غادرت كريستين العلية . فهي لا تجرؤ الآن قط على سؤال هذا الابن عما كان الأخوة الصغار يفكرون فيه فيما يخص هذه القضايا .

●

وهكذا استلقت ، ليلة في إثر أخرى ، بعد صعود الشبان إلى العلية . . . كانت مستيقظة ومصغية . هل كانوا يتبادلون الكلام حين يكونون لوحدهم في الأعلى؟ هكذا تساءلت . كان هناك صوت ارتطام الأحذية التي ترمى على الأرضية ، وقعقعة أحزمة الخناجر التي تسقط أرضاً . . . سمعت أصواتهم ولكنها لم تستطع فهم كلماتهم . . . كانت ألسنتهم تعمل كلها معاً . كانت أصواتهم تعلو . . . بدا الأمر وكأنه نصف شجار ونصف مزاح . صرخ أحد التوأمين عالياً . . . ثم جرى سحب شخص ما على الأرض ، حتى أن الغبار هطل من ألواح الخشب التي فوقها . . . فتح باب الشرفة بقوة . . . سقط شيء بثقل على أرض الشرفة ، وسمعت صوت إيفار وسكوله يهدران ويصيحان هناك ، وهما يقرعان على الباب . . . ثم سمعت صوت غاوته العالي والضاحك .كان يقف في الباب ، كما استطاعت أن تسمع . . . كان واضحاً أنه سقط هو والتوأمان ، وكانت النهاية أن رمى بهما غاوته خارجاً . وأخيراً سمعت صوت ناكفه الرجولي الناضج . . . كان يقيم الصلح بينهم . دخل الاثنان . واستمرّ الكلام والضحك فترة من الزمن ، ثم سمعت أصوات أويهم إلى الفراش . وحلّ الصمت أخيراً . . . وخلال فترة قصيرة

سمعت أزيزاً مطرداً ، مع هدوء شامل . . . إنه أزيز أشبه برعد بعيد هناك في الجبال .

ابتسمت الأم في العتمة . كان غاوته يشخر حين يكون منهكاً . وهكذا كان أبوهما . كان غريباً أمر هذا التشابه . . . فالأبناء الذين يشبهون إرلند في الشكل الخارجي كانوا يشبهونه أيضاً من حيث النوم الهادئ كنوم الطيور . وبينما كانت مستلقية هناك وهي تفكر في كل العلامات الصغيرة الخاصة بالقرابة التي يجدها المرء على نحو غريب جداً في حياة إثر حياة ، ضمن سلالة معينة ؛ ولم تستطع منع نفسها من الابتسام وهي مستلقية هناك . كان التوتر المعذّب في ذهن الأم قد ارتخى قليلاً ، وكان النعاس يأتي ويشبك كل خيوط تفكيرها ، بينما غرقت الآن أولاً في راحة مباركة ثم في النسيان .

. . . كانوا صغاراً ، كما راحت تواسي نفسها . . . كأنهم لم يكونوا يأخذون الأمر مأخذ الجد إلى ذلك الحد . . .

●

ولكن في أحد الأيام حين بدأ العام الجديد ، وصل سيرا سولموند ، الكاهن ، ليزور كريستين في يوروندغارد . كانت تلك أول مرة يصل فيها إلى هناك دون دعوة ، ورحبت به كريستين أجمل ترحيب ، رغم أن عقلها تنبأ بالشر على الفور . وقد صحّ حدسها . . . فقد رأى هذا أن من واجبه أن يكتشف ما إذا كانت هي وزوجها قد فصما عرى علاقتهما عن عمد وعلى نحو آثم ، وإن كان الأمر كذلك ، فأي من الشريكين هو الذي يتحمل الملامة على انتهاك قانون الرب .

أحست كريستين أن عينيها قد احولتا وأن لسانها قد أصبح ذرباً وأنها استخدمت كثيراً من الكلمات وهي تشرح للكاهن كيف أن إرلند قد وجد أنه من الضروري أن يعتني بأملاكه شمال دوفر والتي كانت مهملة تماماً لسنوات كثيرة . فالمباني كانت قد تخربت . . .وهو لديه الكثير من الأولاد ، وعليه أن يهتم

بمصالحهم . . . وما شابه . وقد عبرت عن الأمر بكلمات كثيرة حتى أن سيرا سولموند وهو رجل كليل البصر ، قد لاحظ دون شك أنها لم تكن واثقة من نفسها . . . وهاهي تتكلم وتتكلم الآن عن إرلند التواق إلى الصيد ، والكاهن كان يعرف ذلك . وقد أخرجت له فروات القاقوم التي أرسلها لها زوجها . . . وفي اضطرابها كانت قد قدمتها إلى الكاهن قبل أن تدرك هي بنفسها ذلك ، وحتى قبل أن تفكر في ذلك . . .

وقد راحت تشتكي بعد رحيل سيرا سولموند . . . لا بد أن إرلند كان يعرف أنه بالابتعاد عن بيته هذه الفترة الطويلة ، فإن الكاهن الذي لديهم الآن سيأتي لا بدّ ليتفحّص متطفلاً ليعرف إن كان هناك ما هو على غير ما يرام . . .

كان مظهر سيرا سولموند قميئاً . ولم يكن أمراً سهلاً التنبؤ بعمره الحقيقي ، ولكن الناس كانت تظنه في سن تقارب الأربعين شتاء الآن . لم يكن شديد الذكاء ولا ذا علم واسع ، إلا أنه كان كاهناً شريفاً وورعاً .

كانت له أخت غريبة الأطوار ، أرملة لم تنجب أطفالاً ، ولكنها ثرثارة ناشرة للفضائح تعتني بمنزله الصغير .

كان يود أن يظهر نفسه كخادم متحمس للكنيسة ، ولكنه ما كان يهتم إلا بالمسائل الصغيرة والناس الصغار . . . إذ كان ذا روح جبانة ويخجل من التصادم مع ملاك الأراضي الكبار أو معالجة المسائل الحساسة . ولكن لو فعل ذلك ذات مرة ، فقد كان من شأنه أن يصبح عنيداً ومشاكساً .

وبسبب هذا كله فقد كان محبوباً من قبل أبناء أبرشيته . من ناحية كانت الناس تقدره بسبب أسلوبه الهادئ الوقور في الحياة ومن ناحية أخرى لأنه لم يكن شديد الطمع بالمال أو شديد التعصب في أمور تتعلق بحقوق الكنيسة أو واجبات الناس كما كان سيرا آيريك . وربما كان هذا في الأصل من افتقاره لجرأة ذلك الكاهن العجوز .

ولكن سيرا آيريك كان محبوباً ومبجلاً من قبل كل رجل وطفل في الأبرشيات المجاورة . لقد استكبرت الناس غالباً فيما سبق من الأيام الأمر حين كان الكاهن يناضل بطمع غير لائق لإغناء وتأمين الأطفال الذين رزق بهم على نحو غير شرعي من خادمته . وحين وصل في البداية ليسكن في الأبرشية ، فإن سكان "سيل" انزعجوا من تصلّبه نحو جميع من كان ينتهك أقل حقوق الكنيسة . كان محارباً قبل أن يصبح كاهناً ، وكان من أتباع جوال البحار السير آلف أوتورنبرغ في شبابه . وكان من السهل ملاحظة ذلك في أساليبه .

ولكن رغم ذلك كان سكان الأبرشية فخورين بكاهنهم ، فقد كان أفضل من معظم كهنة الأبرشيات الريفية علماً وحكمة وقوة في الجسد ومهابة في المظهر ، وكان ذات صوت جميل نبيل . ومع تقدم السنين وتحت عبء المحن التي أنزلها الرب على خادمه بسبب نزوات شبابه الخالية من الورع ، فإن سيرا آيريك كارسون قد ازداد حكمة وورعاً وفضيلة حتى أضحى اسمه معروفاً ومبجلاً في كل أنحاء الأسقفية . حين كان يسافر إلى السنودس في بلدة هامار ، كان يكرم كأب من قبل كل الكهنة الآخرين ، ويقال إن الأسقف هالفارد كان يفضل تعيينه في كنيسة تحمل معها لقباً نبيلاً وكرسياً في المجلس الكاتدرائي . ولكن سيرا آيريك قد توسل أن يبقى حيث هو . . . وقد احتج بسنّه وبنظره الذي أصبح كليلاً في هذه السنوات الأخيرة .

في " سيل " قرب الطريق العام ، إلى الجنوب قليلاً من فورمو ، كان ينتصب صليب جميل من حجر القدور كان سيرا آيريك قد رفعه على نفقته ، حيث كان انزلاق جبلي من الجبل قد سلبه كلا ولديه الشابين الواعدين قبل أربعين سنة خلت . وحتى الآن فإن كهول الأبرشية ما كانوا يمرون به دون التوقف لتلاوة صلاة " أبانا الذي " و" السلام عليك يا مريم " لأجل روحي " آلف " و "كاره " .

كان الكاهن قد زوج ابنته بصداق كبير من الأمتعة والقطعان الى ابن مزارع وسيم من عائلة طيبة من " فيكن " . كان " يون فيس " في نظر الجميع شاباً طيباً . وبعد ست سنوات عادت إلى بيت أبيها مجوعة ومحطمة في ملابس رثة وقذرة مع طفل في كل يد وثالث تحت حزامها كان الناس القاطنون في "سيل " في تلك الأيام يعرفون جيداً ، رغم أنهم لم يذكروا ذلك قط : فقد كان والد الأطفال قد شنق كلص في أوسلو . وقد كبر أولاد "يون " ذاك ليكونوا شريرين . . . وكان ثلاثتهم في عداد الموتى الآن .

وحتى حين كان نسله لا يزال حياً ، فقد كان سيرا آيريك حريصاً على تزيين وتكريم كنيسته بالهدايا . والآن على الأرجح ستأخذ الكنيسة الجديدة " كنيسة القديس أولاف والقديس توماس " في " سيل " الجزء الأكبر من ثروته وكتبه النفيسة ، فهي أضخم وأفخم من الكنيسة القديمة التي احترقت ، وقد منحها سيرا آيريك الكثير من الزخارف والحلي الثمينة الفاخرة . كان يذهب كل يوم إلى الكنيسة للصلاة والتأمل ، ولكنه ما كان يتلو القداس أمام الناس إلا في الأعياد الكبيرة فقط .

كان سيرا سولموند أيضاً هو الذي يقوم بمعظم واجبات منصب الكاهن . ولكن حين كان الناس في حالة حزن كبير أو يعانون من مشاكل تثقل على كاهلهم أو من وخز للضمير كانوا يفضلون نشدان كاهن الأبرشية القديم ، وكان الجميع يعتبرون أنهم يعودون إلى بيوتهم مرتاحين بعد التناول مع سيرا آيريك .

وهكذا حدث أن مضت كريستين لافرانسداتر قبل حلول الربيع إلى روموندغارد وقرعت على باب منزل سيرا آيريك . ولكنها ما كانت تعرف هي نفسها كيف ستتطرق إلى المسألة التي تريد طرحها معه . لذلك وبعد أن قدمت قربانها ، جلست وراحت تتحدث عن هذا الأمر وذاك . وأخيراً قال الرجل العجوز شيئاً ما بلهجة تدل على نفاد الصبر :

" هل جئت لتحيتي فحسب يا كريستين ولتري كيف هي حالي؟ هذا لطف منك إن كان الأمر كذلك . . . ولكني أعتقد أن هناك شيئاً آخر في قلبك ، فلو صح ظني فهيا وتكلمي ، ولا تضيعي الوقت بالكلام الفارغ . . . "

وضعت كريستين يديها معاً في حضنها ونظرت إلى الأرض :

"إنه لأمر يزعجني كثيراً يا سيرا آيريك أن يقيم زوجي بعيداً هناك في هاوغن" .

قال الكاهن : " أعتقد أن الطريق ليست طويلة إلى ذلك الحد ، ولكنك تستطيعين الذهاب إلى هناك بسهولة والتحدث إليه للعودة إلى البيت عاجلاً . لا يمكن أن يكون هناك الكثير من المشاغل في تلك المزرعة الصغيرة حتى تبقيه هناك لفترة أطول . "

"أنا أشعر بالخوف وأنا أفكر فيه وهو يسكن هناك لوحده في ليالي الشتاء هذه " ، قالت الزوجة وهي ترتجف .

"إرلند نيكولاوسون رجل ناضج وشجاع بما فيه الكفاية ليعتني بنفسه" .

" سيرا آيريك . . . أنت تعرف كل ما جرى هناك ذات مرة " ، همست كريستين بصوت خفيض يكاد لا يسمع .

التفت الكاهن بعينيه العجوزين الكليلتين نحوها . . . كانتا سوداوين بلون الفحم ذات مرة ، لامعتين وحادتين . لم يقل شيئاً .

"لقد سمعت أيضاً على الأرجح ما يقوله الناس" ، قالت بصوت خفيض كما من قبل . "أن . . . الموتى يعيشون هناك" .

"هل تعنين أنك لا تجرئين على اللحاق به إلى هناك بسبب ذلك . . . أو هل أنت تخشين من أن الأشباح ستحطم رقبة زوجك؟ لو أنها لم تفعل ذلك بعد يا كريستين ، فإن المرجح أن تدعه في حاله بعد ذلك . . . "ضحك الكاهن بخشونة . "إنها حماقة ، لا شيء سوى ثرثرة وثنية خرافية ، معظم تلك الحكايات

التي ينشرها الناس حول الجنيات والموتى الذين يمشون . هناك حراس أبواب صارمون حيث يقبع السير بيورن والليدي آشيلد على ما أعتقد ."

همست مرتجفة :"سيرا آيريك ، أتظن أنه لن يكون هناك خلاص لهاتين الروحين المسكينتين . . .؟"

"لا سمح الله أن أكون جريئاً إلى ذلك الحد ، حتى أقرر حدود رحمته . ولكني لا أعتقد أن هذين قد أديا حسابهما بهذه السرعة . . . لم يتم عرض كل الألواح التي حفر عليها هذان شهادتيهما . . . أطفالها الذين تخلت عنهم . وأنتما اللذان كنتما متدربين في مدرسة تلك السيدة الحكيمة . لو اعتبرت أن الأمر قد يكون مفيداً ، وأن يتم تصحيح الخطأ الذي ارتكبته ، ولكن بما أن إرلند يتمهل هناك ، فيبدو أن الرب لا يظن أن الأمر سيفيد لو أن خالته ظهرت له وحذرته ، فنحن نعرف ، أنه برحمة الرب وشفقة سيدتنا العذراء وصلوات الكنيسة فقد يحدث أن روحاً مسكينة قد نالت الإذن للعودة إلى هذا البيت الأرضي من نيران "المطهر" ، إن كان خطؤها ممكناً إصلاحه بمساعدة البشر الأحياء وبذلك يتم تقصير فترة عذابها . . . كما حدث للروح التعيسة التي نقلت الحدود بين "هوف" و"ياربستاد" ، وكذلك المزارع في موسدال ذو الرسائل المزيفة المتعلقة بقناة الطاحون . ولكن لا يمكن لروح أن تخرج من نار "المطهر" إن لم تكن لديها تلك المهمة المشروعة . . . وكل شئ آخر هراء أي معظم ما يثرثر به الناس حول العفاريت و الأشباح . أو هي حيل الشيطان التي تتلاشى كالدخان حين تحمي نفسك واسم الرب . . ."

"ولكن ماذا عن المباركين الذين هم مع الرب يا سيرا آيريك؟" سألت مجدداً بصوت خفيض .

"القديسون الذين هم مع الرب تعرفين جيداً أنه يستطيع إرسالهم في مهمات مع هدايا طيبة ورسائل من الفردوس" .

"لقد قلت لك مرة إني رأيت الأخ إدفين ريكاردسون" ، قالت كما من قبل .

"أجل ، إما أن يكون حلماً . . . أوقد يكون الرب قد أرسله أو ملاكك الحارس . . . أو أن ذلك الراهب قديس ورع".

همست كريستين وهي ترتجف :

" ولكن ماذا عن أبي . . . يا سيرا آيريك ، لقد صليت كثيراً حتى أمنح فرصة مشاهدة وجهه ولو مرة واحدة . أتوق إلى مشاهدته إلى حد كبير يا سيرا آيريك . . . وربما قد أفهم من سحنته رغبته فيما يخص ما عليّ فعله . هل يمكنني أن أرى أبي ولو مرة واحدة . . . " كان عليها أن تعض على شفتيها وأن تمسح دموعها التي كانت تهم بالهطول . مع سقوط غطاء رأسها .

هزّ الكاهن رأسه :

"صليّ لأجل روحه يا كريستين . . . رغم أني أعتقد جيداً أن لافرانس وأمك في حالة من الراحة منذ وقت طويل ، في منزل أولئك الذين حاولا التخفيف عن أحزانهم وهما لا يزالان على الأرض هنا . ولا شك أن لافرانس يتشبث بك بقوة وذلك بواسطة حبه لك في ذلك المكان أيضاً . . . ولكن صلواتك وقداديسك لأجل سلام روحه سترتبطك وتربطنا جميعاً به . . . أجل ، وهذا أحد الأمور السرية الصعبة على الفهم . . . ولكن لا تشكّي في أن هذا الطريق أفضل من أن يُعكر عليه صفو سلامه فيحضر إلى هنا ويظهر نفسه لك . . ."

اضطرت كريستين إلى الجلوس قليلاً قبل أن تستطيع السيطرة على نفسها مجدداً بحيث تتجرأ على الكلام . ولكنها حكت الآن للكاهن كل ما جرى بينها وبين إرلند في تلك الليلة في غرفة الموقد ، وكررت له كل كلمة قيلت بقدر ما استطاعت .

جلس الكاهن صامتاً فترة من الزمن بعد أن انتهت من الكلام . ثم صفقت بيديها بقوة :

"سيرا آيريك! أتظن أن اللوم يقع في معظمه عليّ أنا؟ أتعتقد أن الكثير من

اللوم يقع عليّ أنا وأنه ليس إثماً من جانب إرلند أن يهرب مني ومن كل أبنائنا على هذا النحو؟ أتعتقد أنه من العدل أن يطلب أن أقوم أنا باللحاق به والركوع أمامه وأن أبتلع كلماتي التي نطقت بها خطأ؟ . . . وأنا أعرف أنه دون هذا لن يعود إلينا!"

"أتعتقدين أنك في حاجة إلى استدعاء لافرانس من بيته الآخر لتسأليه عن رأيه في هذه القضية؟" نهض الكاهن ووضع يده فوق كتف المرأة : "في أول مرة رأيتك فيها يا كريستين كنت فتاة صغيرة رقيقة . . . أخذك لافرانس بين ركبتيه ووضع يديه على نحو متصالب على صدرك ، وطلب منك تلاوة (أبانا الذي) أمامي . . . وقد تلوتها بوضوح وعذوبة ، رغم أنك لم تفهمي منها كلمة واحدة . . . وبعد ذلك تعلمت معنى كلمة صلاة بلغتنا . . . وربما نسيته الآن . . .؟

"هل نسيت أن أباك علمك وأكرمك وأحبك . . . وقد أكرم هذا الرجل الذي تخشين الآن من أن تتواضعي أمامه . . . أم هل نسيت كم كان الحفل الذي أقامه لكما رائعاً؟ وكيف غادرتما ضيعته كلصين . . . وسرقتما معكم ورع وشرف لافرانس بيورغولفسون؟"

أخفت كريستين وجهها بين يديها باكية .

"ألا تتذكرين يا كريستين . . . هل طلب إليك أن تسقطي على ركبتيك أمامه قبل أن يعتبر أنه قادر على رفعك ثانية إلى حبه الأبوي؟ أتظنين أنه أمر صعب جداً على اعتزازك بنفسك لو انحنيت الآن أمام رجل أسأت إليه ربما أقل مما أسأت إلى أبيك . . .؟"

"يا يسوع!" بكت كريستين على نحو أشد إثارة للشفقة . "يا يسوع . . . ارحمني . . ."

"لا زلت تذكرين اسمه كما أسمع" ، قال الكاهن . "اسم الذي ناضل أبوك

ليتبعه كتلميذ وأن يخدمه كفارس مخلص ." لمس الصليب الصغير الذي كان معلقاً فوقهما . "القد مات ابن الرب دون خطيئة على الصليب ليكفر عن خطايانا في حقه . . .

"اذهبي إلى بيتك الآن يا كريستين وفكري في هذا الذي قلته لك " ، قال سيرا آيريك حين خف نحيبها قليلاً .

•

ولكن حدث في تلك الأيام نفسها أن انطلقت العواصف والرياح الباردة والمطر المتجمد ووابل المطر . . . حتى أصبح صعباً على الناس أحياناً أن يعبروا باحات منازلهم دون خطر أن تعصف بهم الرياح إلى أعلى المنازل ، كما قد يفكر المرء . لم يكن أحد قادراً على السفر عبر طرقات الأبرشية . ثم جاءت سيول الربيع على نحو مفاجئ وعنيف جداً حتى هرب الناس من المزارع التي كان الخطر فيها وشيكاً . نقلت كريستين معظم أمتعتها إلى علية المخزن الجديد ، وحصلت على الإذن لتضع الحيوانات في حظيرة سيرا آيريك الربيعية . . . كانت حظيرة يوروندغارد الربيعية تقع على الجانب الأبعد من النهر . كان العمل مرهقاً جداً في الطقس العاصف . . . عبر الحقول الصغيرة كلها كان الثلج طرياً كالزبدة السائحة . . . وكانت الحيوانات ضعيفة وفي حالة مزرية . كان شتاء قاسياً . وقد كسر أفضل جوادين صغيرين ساقاً وهما يمشيان ، تحطمت الساقان كأنهما عودان هشان .

في اليوم الذي نقلوا فيه الحيوانات ، ظهر سايمون دار مع أربعة من خدمه المنزلي فجأة في منتصف الطريق . وقد راحوا يقدمون يد العون . وفي وسط الريح والمطر وكل الضغوط والجلبة ، مع الأبقار التي كان يتوجب الإمساك بها والخراف والحملان التي يجب أن تحمل ما كان ممكناً للمرء أن يسمعه أحد لو تكلم ، ولا مجال للأقارب أن يتبادلوا الحديث . ولكن حين دخلوا إلى يوروندغارد في المساء ،

وجعلت كريستين سايمون ورجاله يجلسون في القاعة ـ كل من كان يعمل في ذلك اليوم كان في حاجة ماسة إلى جرعة من الجعة الدافئة ـ استطاع سايمون أن يتبادل الحديث معها . توسل إليها أن تأتي إلى فورمو مع النساء والأطفال ، وكان هو واثنان من رجاله سيبقون هنا مع أولف والشبان . شكرته ولكنها قالت إنها ستبقى في ضيعتها . كان لافرانس ومونان في أولفسفولدين وقد لجأت يارترود إلى منزل سيرا سولموند . . . فهي قد أصبحت على صلة وثيقة بأخت الكاهن . قال سايمون :

"يعتبر الناس يا كريستين الأمر غريباً لأنكما كأختين لم تعودا تتقابلان . ستكون رامبورغ غاضبة لو عدت إلى البيت دونك ."

قالت المرأة :" أعرف أن الأمر يبدو غريباً ، ولكنه سيبدو أغرب على ما أعتقد لو ذهبت لزيارة أختي الآن ، بينما سيد هذا المنزل بعيد . . . والناس تعرف أنكما لستما على وئام ."

عند هذا توقف سايمون عن الكلام ، وسرعان ما استأذن هو ورجاله بالانصراف .

●

جاء أسبوع الابتهال قبل عيد الصعود بعاصفة مخيفة . ومع حلول يوم الثلاثاء انتشر النبأ بين المزارع في شمال الأبرشية بأن السيل قد اجتاح الجسر فوق الوادي الذي يعبر الناس عليه حين يتجهون نحو سايترات هوفرينغ . كانت هناك خشية على الجسر الكبير إلى الجنوب من الكنيسة . وهو قوي البنيان فقد بني من أقسى أنواع الخشب ، كما كان ذا قوس عال في الوسط ، ومدعماً في الأسفل بجذوع أشجار ضخمة أقحمت عميقاً في حوض النهر . ولكن الماء كان قد اجتاح الآن نهايتي الجسر حيث كانا يرتبطان بالضفتين ، وكان قوس الجسر متخماً بكل أنواع المواد التي جرفها النهر من الشمال . كان نهر "لاغن" قد فاض الآن على

الحقول المنخفضة على كلتا الضفتين ، وفي أحد الأماكن في أراضي يوروندغارد ، حيث كانت هناك فجوة في المروج ، تسرب الماء إلى الداخل كخليج ، ووصل حتى المنازل . . . كان سقف ورشة الحدادة وأسقف الأشجار تظهر من فوقه كجزر صغيرة . أما مخزن الحبوب الخارجي على الأرض المنخفضة قرب النهر فكان قد سبق له وانجرف مع السيل .

من المزارع على الجانب الشرقي من النهر لم يكن قد وصل إلى الكنيسة سوى عدد قليل من الرجال . وكانوا خائفين من أن ينهار الجسر خلال الصلاة في الكنيسة ويمنعهم من العودة إلى بيوتهم . ولكن هناك عالياً على الضفة الأخرى ، على جانب الجبل تحت مخزن حبوب لاوغاربرو ، حيث كان هناك ملجأ صغير من العاصفة ، كان يمكن أن يرى ، بين هطولات الثلج حشد أسود من الناس . لقد سرت الأنباء بأن سيرا آيريك قال إنه سيحمل الصليب فوق الجسر ويضعه على الضفة الشرقية ، حتى لو لم يتجرأ أحد على اللحاق به .

صفعت هبة ثلجية وجوه الرجال مع تقدم الموكب من الكنيسة . كان الثلج ينطلق عبر الهواء في خطوط مائلة ـ ما كان ممكناً مشاهدة سوى لمحات من الريف ـ وبين الحين والآخر كانت ترى أجزاء من البحيرة السوداء التي حلت محل المروج . كانت الغيوم تجتاح أعالي الجبال وألسنة الغابة على جوانب الجبال ؛ ولمحات من قمم شاهقة أمام غيوم مكومة في الأعالي . كان الهواء محملاً بزمجرة مختلطة . . . هدير النهر الصاعد والهابط ، والضجيج المندفع للغابات ، عواء الريح . . . ودائماً كان هناك صوت العاصفة بين الجبال ورعد انزلاقات الثلج الجديد .

كانت الشموع تنطفىء ما أن تحمل من خارج طريق رواق الكنيسة . في هذا اليوم ارتدى الشبان الناضجون أردية صبية الكورس البيضاء . . . راحت الريح تعصف بها . مشوا جميعاً وهم يرفعون الراية والأيدي تمسك بقماش الراية حتى لا

تمزقه الريح ، بينما شق الموكب طريقه بأجسام منحنية نحو الأمام ضد الريح عبر جانب الجبل . ولكن فوق هدير العاصفة كانت بعض ألفاظ سيرا آيريك ترتفع وهو يناضل شاقاً طريقه نحو الأمام منشداً باللاتينية :

"هلم نرجع إلى الرب لأنه هو افترس فُيشفينا . ضرب فيجبرنا . يحيينا بعد يومين . في اليوم الثالث يقيمنا فنحيا أمامه . لنعرف فنتتبع" (هوشع - الإصحاح السادس ١ - ٣) .

توقفت كريستين هي وكل النساء الأخريات ، حين وصل الموكب إلى المكان الذي فاضت فيه المياه على الطريق ، و لكن الشبان في الملابس البيضاء والقدالفة (جمع قندلفت) والكهنة فكانوا قد سبق لهم ووصلوا الجسر و تقريباً كان كل الرجال قد لحقوا بهم . . . وصل الماء إلى ركبهم .

اهتز الجسر وارتجف ، و قد أدركت النساء الآن أن منزلاً بكامله كان ينجرف مع مجرى النهر باتجاه الجسر . كان التيّار يدوّر المنزل الذي انقسم إلى شطرين و كانت جذوعه قد انشطرت و لكنها ما تزال ملتصقة بعضها البعض . كانت الزوجة من أولفسفولدين قد التصقت بكريستين لافرانسداتر وراحت تنتحب بصوت مرتفع . . . كان شقيقا زوجها الشابان بين جماعة الكورس . تضرعت كريستين بصمت إلى مريم العذراء و ركزت عينيها نحو الجمهرة الواقفة في وسط الجسر ، حيث استطاعت تتميز شكل ناكفه المرتدي للون الأبيض بين الرجال الحاملين للراية . عبر كل هذا الهرج والمرج ، فإن النساء كن لا يزلن قادرات على سماع إنشاد سيرا آيريك .

توقف عند قمة الجسر ورفع الصليب عالياً حين ضرب المنزل بالجسر . ترنّح الجسر وأنّ . . .   وبالنسبة للناس الواقفين على كلا الضفتين بدا وكأنه استقر جنوباً . ثم مضى الموكب واختفى عن الأبصار خلف ظهر الجسر المقوس . . . ثم بدا لهم مجدداً فوق الضفة الأخرى . كان المنزل المحطم قد علق في كومة المواد

المنجرفة الأخرى التي كانت عالقة بالجذوع السفلى للطريق .

ثم وعلى نحو فجائي و كإشارة سماوية سقط نور فضّي عبر كتل الغيوم التي تجرفها الريح . . . شعاع باهت ، كأنما من الرصاص المنصهر ، وانتشر فوق النهر المتورم ، على نحو واسع . تباعد الضباب والغيوم . . . اخترقتهما الشمس وحين وصل الركب ليعبر الجسر مجدداً ، التمعت أشعتها فوق الصليب . فوق ثوب الكاهن الكهنوتي الطويل كانت الخطوط المتصالبة للدثار تلتمع بلون أزرق أرجواني رائع . كان وادي "ديل" ذهبياً ولامعاً كما في قعر كهف من الظلمة الزرقاء ، لأن غيوم العاصفة التي ضربتها أشعة الشمس راحت تتجمع عالياً من حول جبهات الجبال وتلوّن الأراضي المرتفعة بلون أسود . . . بين المرتفعات كان الضباب يتلاشى ، وبرزت قبة الجبل الكبيرة فوق "فورمو" عالية في العتمة ، بيضاء من الثلج المتساقط حديثاً .

لقد رأت ناكفه وهو يمرّ بها . كانت الملابس المبتلة تلتصق بالشبان وهم ينشدون بقوة وعنف تحت نور الشمس باللاتينية :

" يا منقذ العالم ، نجنا جميعاً . أيها الرب ارحمنا . يا يسوع اسمعنا . "

مرّ الكهنة والصليب . لحقت بهم جمهرة المزارعين مثقلين بملابسهم المبتلة . ولكنهم راحوا ينظرون من حولهم بعيون متسائلة لامعة نحو العاصفة المغادرة ، وهم ينشدون مع الجميع : "كيري إيلايسون!"

ثم شاهدت . . . لم تصدق عينيها ، كانت هي الآن من يتشبث بجارتها حتى تجد منها الدعم . كان إرلند هناك ضمن الموكب . كان يرتدي معطفاً من جلد الرنة المبتل والقبعة فوق رأسه . . . ولكنه كان هو دون شك . . . وبفم نصف مفتوح كان يصرخ "كيري إيلايسون" كالآخرين . . . وهاهو ينظر إليها مباشرة وهو يمرّ بها . . . لم تستطع فهم النظرة التي كانت على وجهه بدقة . كان هناك شيء يشبه الابتسامة عليه . . .

ومع النساء الأخريات تبعت الموكب فوق مرج الكنيسة وهي تنشد عالياً مع الآخرين وفي انسجام مع الشبان الذين كانوا ينشدون الابتهال . لم تكن واعية بشيء عدا دقات قلبها المجنونة .

خلال القداس لمحته مرة واحدة فقط . لم تتجرأ على الوقوف في مكانها المعتاد . . . خبأت نفسها في عتمة الجناح الشمالي .

ما أن انتهى القداس حتى أسرعت في الخروج . هربت من خادماتها اللواتي كن في الكنيسة . في الخارج كان الوادي كله يتبخر تحت الشمس . هرعت كريستين إلى بيتها دون أن تكترث بوحل الطريق العميق .

فرشت مائدتها ووضعت قرن الميد الطافح أمام المقعد العالي الخاص بالسيد ، وذلك قبل أن تمنح نفسها الفرصة لتبدل ملابسها المبتلة وترتدي ملابس الأعياد . . . الثوب الأزرق الداكن المطرز والحزام الفضي والحذاء ذو الإبزيم وغطاء الرأس ذو الحواف الزرقاء . ثم سقطت على ركبتيها في المختلى . لم تستطع التفكير ، ولم تجد العبارات الملائمة كما تمنت . . . وكررت مرات عديدة : "السلام عليك يا مريم . . . أيتها السيدة المباركة ، أيها الرب العزيز ، ابن العذراء . . . أنت تعرف ما أريد قوله . . . "

مرّ الوقت بطيئاً . وقد سمعت من خادماتها أن الرجال قد ذهبوا ثانية إلى الجسر . . . كانوا يحملون الفؤوس والخطاطيف لتخليص الحطام الذي التصق به بشدة . . . في محاولة لإنقاذ الجسر . كان الكهنة قد ذهبوا معهم أيضاً بعد أن خلعوا ملابسهم الكهنوتية .

لم يصل الرجال إلا بعد انقضاء منتصف النهار بوقت طويل . عاد أبناؤها وأولف هالدورسون والخدم الثلاثة ورجل عجوز وصبيان من الأبرشية كانوا يعملون في الضيعة .

كان قد سبق لناكفه أن جلس في مكانه ، إلى يمين كرسي السيد العالي .

وفجأة نهض وغادر مكانه واتجه نحو الباب .

نادته كريستين بالاسم ، بصوت نصف مرتفع .

عندها عاد وجلس ثانية . تضرج وجه الشاب ثم شحب . أبقى عينيه أرضاً وهو يعض على شفته السفلى . لاحظت أمه أنه كان يجاهد ليسيطر على نفسه . . . ولكنه نجح في النهاية .

وأخيراً انتهت وجبة الطعام . نهض الأبناء الجالسون على المقعد الداخلي وداروا من حول نهاية المائدة حيث الكرسي العالي الفارغ وسووا من أحزمتهم قليلاً ، كالعادة ، بعد أن أعادوا سكاكينهم إلى أغمادها وخرجوا .

بعد أن رحل الجميع ، لحقت بهم كريستين . كانت الشمس تشع بنور دافئ و المياه تسيل من كل السطوح . لم يكن هناك من شخص في الباحة عدا أولف . . . كان يقف على اللوح الحجري خارج باب منزله .

اعترت وجهه نظرة عاجزة غريبة حين اقتربت السيدة منه . لم يقل شيئاً . . . سألته بصوت خفيض :

"هل كلمته ؟"

"لم نتبادل كلمات كثيرة . تحادث ناكفه معه كما رأيت . . ."

بعد وهلة قال :

"كان خائفاً نوعاً ما - عليكم جميعاً - حين هبط السيل . لذلك فكر في الاقتراب من البيت ليرى الأحوال . حكى له ناكفه كيف تدبرت الأمور . . .

"لا أعرف كيف سمع عن أنك أهديت الجلود التي أرسلها لك مع غاوته في الخريف إلى آخرين . كان غاضباً من ذلك . وكذلك حين عرف أنك تسللت فوراً نحو البيت بعد القداس . . . كان يظنّ أنك ستبقين وتحادثينه . . ."

لم تقل كريستين شيئاً . دارت على عقبيها ثم دخلت إلى منزلها .

●

في هذا الصيف كانت هناك خناقات وشجارات لانهاية لها بين أولف هالدورسون وزوجته . كان ابن الأخ غير الشقيق لأولف واسمه هالدور يونسون قد وصل لزيارة عمه في الربيع مصطحباً معه زوجته التي كان قد تزوجها في العام السابق . وكان من المتفق عليه الآن أن يستأجر هالدور المزرعة التي كان أولف يملكها في سكاون وأن يطير إلى هناك يوم الاستحقاق . ولكن يا روترود كانت غاضبة إذ اعتبرت أن أولف قد منح ابن أخيه شروطاً جيدة إلى حد مفرط ، ورأت أن الرجال كانوا يفكرون بطريقة أو بأخرى أن تنتقل ملكية الأرض إلى هالدور بالوراثة .

كان هالدور وصيفاً لكريستين في هوسابي ، وكانت تحب الشاب الصغير كثيراً . وكانت زوجته أيضاً شابة هادئة وفاتنة فأحبتها أيضاً . وبعد منتصف الصيف بفترة وجيزة رزق الشابان بابن وأعارتهما كريستين مبنى الحياكة حيث كان من عادة سيدات الضيعة أن يلدن حين يأتيهم المخاض . . . ولكن يارترود ساءها أن تعتني كريتسين بالمرأة التي في المخاض كرئيسة للقابلات . . . رغم أن يارترود نفسها كانت شابة وغير ماهرة في هذا الأمر ، ولم تكن قادرة على تقديم العون إلى امرأة في المخاض ولا العناية بطفل وليد .

أصبحت كريستين عرابة للطفل وأولم أولف بمناسبة العماد . ولكن يارترود اعتبرت أنه أنفق الكثير على الوليمة ، وأن الهدايا التي وضعها في المهد على سرير الأم كانت مفرطة . وحتى يخرسها قليلاً ، قدم أولف إلى زوجته ، تحت أنظار كل الناس ، عدة هدايا ثمينة من بين مقتنياته : صليب وسلسلة مذهبان ، عباءة مبطنة بالفرو مع مشبك فضي كبير ، خاتم ذهبي ودبوس زينة . ولكنها لاحظت أنه لم يمنحها ولا ربع أكر واحد من الأرض التي كان يمتلكها ، سوى الهدية الإضافية التي منحها إياها حين زفّت إليه . . . كانت أرضه كلها ستذهب إلى أخوته وأخواته غير الأشقاء ، إن لم يرزق هو بأولاد . والآن كانت يارترود تشكو من أن

طفلها قد ولد ميتاً وأنه يبدو وكأنها لن ترزق بأطفال آخرين . . . سرعان ما أصبحت موضوع تندّر الجيران لأنها كانت تحدث الجميع عن ذلك .

وبسبب هذه المشاحنات اضطر أولف إلى أن يرجو من كريستين أن تدع هالدور وأودهيلد يسكنان في مبنى غرفة الموقد بعد أن تدخل الزوجة الشابة الكنيسة . وافقت كريستين بسعادة . بقيت بعيدة عن هالدور لأنه كان يذكرها كثيراً بما هو مؤلم التفكير فيه حين كانت تحادثه ، حول ما حدث لها في تلك الأيام الماضية . ولكن الكثير من الكلام حدث بينها وبين الزوجة ، فقد كانت أودهيلد مصمّمة على مساعدة كريستين بكل طريقة ممكنة . وفي نهاية الصيف مرض الطفل مرضاً شديداً . و قد اعتنت به كريستين ورعته نيابة عن الأم الشابة غير المجربة .

وحين انطلق الزوجان الشابان شمالاً في الخريف افتقدتهما ، وخاصة الطفل الصغير . كانت تعرف مدى حماقة الفكرة ، ومع ذلك فإنها لم تكن قادرة في هذه السنوات الأخيرة على أن تخلص نفسها من نوع من الأسى لأنها بدت فجأة ومرة واحدة وكأنها أصبحت عاقراً . . . رغم أنها لم تكن امرأة هرمة ، فهي لم تصل سن الأربعين بعد .

لقد ساعدها أن تبقي ذهنها بعيداً عن الأفكار الحزينة وجود تلك الزوجة الشابة الطفولية والرضيع الصغير لتساعدها على العناية به . ورغم حزنها لمشاهدة أن أولف هالدورسون لم يكن محظوظاً في زواجه ، ومع ذلك فإن الأحداث في منزل الوكيل ساعدتها على أن تبقي أفكارها بعيدة عن أمور أخرى .

فبعد الأسلوب الذي تصرف به إرلند في يوم الابتهال ، لم تعد تجرؤ على التفكير فيما ستؤول إليه الأمور . أن يأتي إلى الأبرشية والكنيسة أمام أعين كل

الناس ، ثم ينطلق شمالاً مجدداً دون أن يحيّي زوجته ولو بكلمة واحدة ، فإن هذا بدا لها شديداً القسوة حتى أنها اعتبرت أنها لم تعد الآن تكترث بما قد يفعله . . .

●

لم تكن قد تبادلت كلمة واحدة مع سايمون أندرسون منذ أيام الفيضان في الربيع حين وصل ليمد لها يد المساعدة . في الكنيسة كانت تحيّيه وتتبادل غالباً كلمات قليلة مع أختها . ولم تكن تعرف رأيهما في أحوالها وفي لجوء إرلند إلى دوفر .

و لكن في يوم الأحد السابق على قداس بارتولوميو (٢٤ آب/أغسطس) ، وصل السير غيرد أوف دايفرين مع جماعة فورمو إلى الكنيسة . بدا سايمون شديد السعادة وهو يدخل إلى القداس إلى جانب أخيه . وبعد القداس ، ذهبت رامبورغ إلى كريستين وهمست في أذنها بتوق أنها حامل مجدداً وأنها ستلد في قداس ماريا في الربيع :

"كريستين يا أختي هل تستطيعين أن تحضري وتحتسي الشراب معنا اليوم؟"

هزت كريستين رأسها بحزن ، وربتت على الخد الشاحب للزوجة الشابة وتوسلت إلى الله أن يجعل من الطفل الجديد متعة وبركة للوالدين . ولكنها لا تستطيع الذهاب إلى فورمو كما قالت .

●

بعد القطيعة مع عديله أجبر سايمون نفسه على الاعتقاد بأن الأمر أفضل على هذا المنوال . كان في وضع جيد يجعله لا يحتاج إلى أن يتساءل كيف كان الناس يحكمون على تصرفاته في كل الأمور . لقد ساعد إرلند وكريستين حين كانا في أمس الحاجة إلى ذلك ، أما فيما يخص الدعم الذي يمكن أن يقدمه لهما هنا في الأبرشية ، فلم يكن الأمر يستحق أن يعقّد حياته من أجله إذا ما قدمه لهما .

ولكنه حين سمع أن إرلند قد رحل عن الأبرشية ، لم يعد ممكناً لسايمون لأن يتحمل الهدوء الثقيل العنيد الذي كافح ليشعر به . وقد قال لنفسه عبثاً إنه لم يكن هناك شخص يعرف على الوجه الصحيح ما هو كائن وراء مكوث إرلند الطويل بعيداً عن البيت . . . ثرثر الناس كثيراً ولم يكونوا عارفين إلا القليل . ومهما يكن الأمر فهو لم يكن قادراً على أن يتدخل في الأمر . ولكن فكره لم يكن مرتاحاً . أحياناً كان يتأمل فيما لو يذهب إلى إرلند في هاوغن ويتراجع عن الكلمات التي قالها له حين افترقا . . . وبعد ذلك سيرى إن لم تكن هناك طريقة ما لتصحيح الأمور بين عديله وأخت زوجته . ولكنه لم يتجاوز في هذا سوى مرحلة التفكير .

لم يصدق بالفعل أن أي شخص يستطيع أن يلاحظ عليه أنه قلق . لقد عاش حسب دأبه وراح يعمل في مزرعته ويهتم بأملاكه ، وكان مرحاً يحتسي الشراب برجولة مع رفاقه المرحين ، ويذهب إلى الجبال للصيد حين يتاح له الوقت ، ويدلل أطفاله حين يكون في البيت ، ولا يتبادل مع زوجته أي كلام غير لطيف . أما بالنسبة إلى الناس في الضيعة فالأمر يبدو وكأن الحب بينه وبين رامبورغ كان أعظم مّما سبق له أن كان في الماضي ، حيث اصبحت زوجته أكثر هدوءاً واستقامة في تصرفاتها ولم تعد تصاب بتلك النوبات من الغضب النزوي والطفولي بسبب مسائل تافهة . ولكن كان سايمون في السر يشعر بالخجل وعدم الثقة في تعامله معها . . . فهو لم يعد يستطيع أن يعاملها وكأنها لا تزال نصف طفلة ، فيقوم بمناكدتها وتدليلها . لم يكن يعرف الآن كيف عليه أن يتصرف معها .

وهكذا لم يكن يعرف أيضاً كيف يتقبل الأمر حين قالت له في إحدى الأمسيات إنها قد حملت مجدداً .

قال أخيراً وهو يربت على يدها :

"الست سعيدة جداً بذلك على الأرجح ."

"ولكنك سعيد على ما أعتقد أليس كذلك ؟" التصقت به رامبورغ نصف ضاحكة ونصف باكية ، وقد ضحك خجلاً وهو يضمها بين ذراعيه .

"هذه المرة سأكون طيبة وهادئة يا سايمون ولن أئنّ أو أنوح كما من قبل . ولكن عليك أن تبقى معي . . . أتسمع ذلك ؟ . . . حتى لو كان أصهارك وأخوتك في السجون وقد اقتيدوا في طابور واحد نحو المشنقة ، فعليك ألاّ تتخلى عني !"

ضحك سايمون بحزن :

"أين سأذهب يا رامبورغ . . . ؟ لن يقوم غيرموند ، المقعد المسكين بالتورط في أي مسألة هامة . . . وتعرفين أنه الشخص الوحيد من أقربائي أو أنسبائي الذي لست على خلاف معه . . ."

"أوه ! . . ." ضحكت رامبورغ أيضاً عبر دموعها . "تلك المشاحنات لن تدوم إلى أبعد من يوم يحتاجون فيه إلى عونك وتحسب أنت أنك قادر على إسدائه لهم . أعرفك جيداً الآن يا زوجي . . ."

●

بعد ذلك بأربعة عشر يوماً وصل غيرد أندرسون إلى الضيعة على نحو غير متوقع . كان فارس دايفرين قد حضر برفقة تابع واحد فقط .

تبادل الأخوان كلمات قليلة لدى لقاءهما . قال السير غيرد كيف أنه لم ير أخته وصهره في كروكه منذ سنوات كثيرة ، وكيف فكر في السفر إليه هنا ليقدم لهم التحية ؛ وبما أنه كان في "ديل" ، فقد فكرت سيغريد في أنه عليه أن يزور فورمو أيضاً . "وقد فكرت يا أخي أنك لست غاضباً جداً مني لدرجة ألا تقدم لي ولخادمي الطعام والمأوى حتى الغد ."

"وهل تعتقد ذلك" ، قال سايمون . . . كان واقفاً وهو ينظر إلى الأرض وقد تضرج وجهه . "كان لطفاً منك يا غيرد أن تزورني . "

سار الأخوان معاً في الخارج بعد الطعام . كان القمح قد بدأ يكتسب اللون الأصفر هنا على المنحدرات المشمسة الهابطة نحو النهر . كان الطقس لطيفاً ونهر "لاغن" يلتمع بلطف في وميض صغير بين غابات جار الماء . كانت غيوم بيضاء كبيرة تبحر عبر سماء الصيف . . . وملأت أشعة الشمس حوض وادي "ديل" ، أما الجبل المطل عليه فكان ذا لون أزرق وأخضر تحت سديم الحرارة والظلال المنجرفة للغيوم .

من داخل الحقل الصغير خلفهما وصل صوت وقع حوافر على الأرض الجافة . . . وصل القطيع عبر غابة جار الماء . اتكأ سايمون على الحاجز : "يا مهري . . . يا مهري . . . لقد أصبح برونسفاين حصاناً عجوزاً أليس كذلك ؟" قال بينما أطل حصان غيرد برأسه من فوق السياج ولمس بأنفه كتف سيده .

"عمره ثمانية عشر شتاء " . . . داعب غيرد حصانه . . .أعتقد يا قريبي أنه لأمر سيئ أن تدمر هذه المسألة الصداقة التي بيننا" ، قال ذلك ولم ينظر إلى أخيه .

أجاب سايمون بصوت خفيض : " لقد أحزنني ذلك كل يوم . وأشكرك على قدومك يا غيرد" .

تقدما على امتداد السياج : غيرد أولاً وسايمون يلحق به وأخيراً جلسا على حافة امتداد حجري صغير من المرج الأصفر المحترق . كانت هناك رائحة حلوة قوية من أكوام التبن هنا وهناك بين أكوام الحجارة ، حيث كانت المناجل قد حصدت تبناً صغيراً قصيراً مزهراً . حكى غيرد عن الحوار بين الملك ماغنوس وآل هافتورسون وأتباعهم . وبعد وهلة سأله سايمون : "ألا تعتقد أنه أمر يجري التفكير فيه أن يقوم أحد أقرباء إرلند نيكولاوسون بمحاولة كسب عفو كامل له وإعادته إلى رضا الملك ؟"

قال غيرد دار :" لا أستطيع أنا فعل الكثير . وهم لا يحبونه يا سايمون

أولئك الذين الذين يمسكون بالسلطة بين أيديهم . أجل ، لا أفكر في طرح المسألة الآن . . . أعتقد أنه بدا شخصاً جريئاً رابحاً ولكنه تصرف على نحو سيئ في مخططه ذاك كما يعتقد الناس الآخرون ولكنني لا أفضل طرح الموضوع الآن . . . أعرف جيداً أن عديلك هذا عزيز جداً عليك . . . "

جلس سايمون محدقاً إلى الوميض الفضي في قمم الأشجار على المنحدر في الأسفل ، وإلى التماعة النهر . فكر متسائلاً : أجل ، بطريقة ما كان ما قاله غيرد صحيحاً .

"على أي حال ، في هذه الأيام لسنا على وفاق مع إرلند" ، قال سايمون . "نحن لم نكلم واحدنا الآخر منذ مدة طويلة ."

" . . أعتقد أنك أصبحت محباً للخصام مع مرور السنين يا سايمون" ، قال غيرد ضاحكاً .

سأل بعد قليل : "ألم تفكر قط في مغادرة هذه الوديان؟ نحن الأقرباء قد نقدر على مساعدة واحدنا الآخر على نحو أفضل لو كنا نسكن على نحو أشد تجاوراً ."

" هل تستطيع التفكير في أمر كهذا . . .؟ فورمو إرثي المتوارث . . ."

"يملك أسموند أوف آيكن حصته من تلك الضيعة أيضاً بالوراثة . وأنا أعرف أنه راغب في مبادلة إرثه بآخر . . .لا زال يفكر في الحصول على ابنتك آرنغييرد مقابل إعطائك غرونده حسب الشروط التي يعرضها هو . . ."

هزّ سايمون رأسه :

" لقد اتخذت سلالة جدتنا لأبينا مقراً لها في ضيعة فورمو منذ أن كانت هذه البلاد وثنية بعد . وهنا أريد لأندرس أن يعيش من بعدي . أعتقد أنك فقدت حكمتك يا أخي . . . هل أستطيع مفارقة فورمو؟"

"كلا ، ما تقوله هو المنطق ." احمر وجه غيرد . "ظننت أنه ربما في راومريكه

ستكون بين أقربائك . . . وأصدقاء طفولتك . . . وأنك قد تكون أسعد حالاً هناك ."

"أنا سعيد هنا" . احمر وجه سايمون أيضاً . "هذا هو المكان الذي أستطيع فيه وضع الصبي في مقر آمن . " نظر إلى غيرد واتخذ وجه أخيه ذو الملامح الدقيقة مظهراً خجولاً . كان شعر غيرد أبيض تقريباً الآن ، ولكنه كان نحيلاً رشيق الجسم كما كان دائماً . تحرك على نحو قلق . . . فانزلقت بعض الأحجار من الكومة التي كان يتكئ عليها وتدحرجت هابطة المنحدر نحو القمح .

"هل ستجعل الكومة كلها تهبط على حقلي؟ "سأل سايمون ضاحكاً وبفظاظة مزعومة . قفز غيرد برشاقة وخفة ومد يده إلى أخيه الذي كان ذا وزن أثقل ليرفعه .

أبقى سايمون يد أخيه في يده لحظة بعد أن نهض على قدميه . ثم وضع يده على كتف أخيه . عندها فعل غيرد الشيء نفسه . وهكذا مضيا صاعدين التل نحو الضيعة وكل منهما يضع يده فوق كتف الآخر .

●

جلسا معاً في قاعة سايموند في المساء . . . كان سايمون سينام مع أخيه . انتهيا من تلاوة صلاة المساء ، ولكنهما شعرا أن عليهما إفراغ وعاء الجعة قبل النوم .

"فلتتباركي أنت في أنوثتك . . . أنوثتك . . . هل تذكر ؟" ضحك سايمون فوراً .

"لقد كلفني ذلك جلدات كثيرة على الظهر وإلا ما كان سيرا ماغنوس سيخرج عقيدة جدتي المزيفة من رأسي" . . . ابتسم غيرد للذكرى . "كان لذلك الشيطان يد قاسية . أتذكر يا أخي حين جلس مرة يحك ساقيه وكان قد رفع أسفل ثوبه . . . لقد همست لي أنه لو كانت لك ساقان معوجتان شأن ماغنوس كيتيلسون لأصبحت كاهناً مثله وارتديت دائماً مسوحاً طويلاً . . ."

ابتسم سايمون . . . بدا له أنه رأى فوراً وجه أخيه الطفولي ، وهو ينفجر

بالضحكة المخنوقة وبعينين مثيرتين للشفقة .كانا لا يزالان صغيرين بعد ، وكانت يد سيرا ماغنوس قاسية حين كانت تؤدبهما . . .

لم يكن غيرد لامعاً جداً حين كانا طفلين بعد. أجل ، ولم يكن يحب غيرد الآن لأنه كان رجلاً حكيماً قبل كل شيء . ولكنه أحس بالدفء ، امتناناً وحناناً نحو أخيه وهو جالس هناك . . . ولأجل كل يوم من الأخوّة التي قاربت الأربعين سنة من عمرها . . . فقد كان غيرد ـ حتى كما هو الآن ـ أكثر الرجال طهراً وصدقاً .

•

لقد بدا له أن عودة أخيه غيرد إليه تجعله يبدو وكأنه رسخ قدميه جيداً . وقد كانت حياته منذ أمد طويل شديدة الاختلاط والتعقيد على نحو مؤسف .

أحس بشعاع دافئ في كل مرة فكر فيها بغيرد ، الذي جاء إليه ليوصل ما قطعه هو بيده حين غادر ضيعة أخيه غاضباً وبكلمات غير لائقة . فاض قلبه بالامتنان . . . كان هناك آخرون عليه أن يشكرهم إلى جانب غيرد .

كيف كان من شأن رجل كلافرانس أن يتصرف في مثل هذا الوقت أمر يعرفه جيداً . كان سيسير على خطا حميه بقدر ما يستطيع . . . بدفع الصدقات وما شابه . هذه الأمور مثل القلب الكسير والنادم وعبادة جراح الرب كانت بعيدة المنال ، ما لم يحدق بعينيه إلى الصليب . . . ولم يكن هذا ما عاناه لافرانس . لم يستطع أن يبكي أكثر من مرتين أو ثلاث ربما منذ أن ودع الطفولة . . . وكان ذلك حين دعت الحاجة الماسة إلى البكاء . . . تلك المرات التي وقع فيها في خطايا كبيرة . . . مع أم أرنغييرد وهو رجل متزوج ، ثم قتله ذلك الرجل قبل عام . ومع ذلك فقد ندم كثيراً . . . لقد بدا له أنه قد ندم على خطاياه من كل قلبه في كل الأوقات ، واعترف بها بالكامل ودفع الكفارة حسب طلب الكاهن . كان يتلو صلواته بنشاط ويعطي العشر وصدقات كثيرة . . . وخاصة على شرف القديس سمعان الرسول والقديس أولاف والقديس ميكائيل ومريم العذراء . وخلاف ذلك كان مقتنعاً بما يقوله سيرا آيريك ، إن في الصليب وحده يكمن الخلاص ، أما

كيف يمكن لأي شخص أن يقابل العدو ويحاربه فهو أمر بيد الرب وليس بيده هو .

ولكنه أحس الآن بنفسه وقد أصبح مضطراً إلى إظهار امتنانه العميق بحماسة أكثر لكل القديسين . لقد ولد في يوم "مولد العذراء" ، هكذا قالت أمه . . . وقد خطر له أن يسدد دينه لأم الرب بصلاة لم يكن معتاداً على تلاوتها يومياً . لقد دوّن صلاة ورعة ، حين كان في بلاط الملك والآن راح يبحث عن اللفافة الصغيرة .

كان يخشى بالفعل ، وهو يفكر بالأمر الآن ، أنه كان قد حصل على مثل هذه اللفافات الصغيرة المدون عليها الصلوات وتعلمها عن ظهر قلب إرضاءً للملك هاكون وليس للرب ومريم العذراء ، وذلك حين كان بين حرس الملك . وقد فعل ذلك كل الشبان ، فقد كان من عادة الملك أن يسأل وصفاءه عما كانوا يعرفونه من تلك المعارف المفيدة ، وذلك حين كان يستلقي في سريره في تلك الليالي ولا يستطيع النوم .

أوه ، أجل . . . كان ذلك منذ زمن طويل مضى . كانت حجرة نوم الملك في القاعة الحجرية من القلعة الملكية في أوسلو . وعلى المائدة الصغيرة قرب السرير كانت تقف شمعة واحدة موقدة . . . كان نورها يسقط فوق الوجه دقيق الملامح الشاحب العجوز الذي كان مسنداً إلى الوسائد الحريرية الحمراء . وحين كان الكاهن ينهي تلاوته ويرحل ، كان الملك نفسه يحمل الكتاب غالباً ويقرأ بينما الجلد الثقيل مسند إلى ركبتيه المرفوعتين . كان الوصفاء يجلسون على كراس واطئة قرب المدفأة الحجرية الكبيرة . . . كان هو بنفسه يسهر الليل دائماً مع غونستاين إنغاسون . كان الجو لطيفاً في الحجرة . . .فقد كانت النار تشتعل نقية وحارة دون دخان ، فتبدو الغرفة شديدة الدفء والحميمية بسقفها المائل وجدرانها المغطاة دائماً بالنسيج المطرز . ولكنهما كانا يصابان بالنعاس وهما جالسان هناك على هذا النحو . . . أولاً يسمعان الكاهن يقرأ ثم ينتظران الملك لينام . لم يكن

الملك ينام قبل منتصف الليل . وحين كان ينام كان يؤذن لهما أن يتناوبا الرقابة ، وأن يستريحا فيما بين نوباتهما على المقعد بين المدفأة وباب قاعة المجلس . لذلك كانا يجلسان وينتظران منه أن ينام وهما يبتلعان تثاؤباتهما .

وقد يحدث أن يبدأ الملك بمحادثتهما - لم يكن ذلك يحدث غالباً - ولكنه حين كان يفعل ذلك فقد كان شديد اللطف والكياسة أو كان يقرأ بصوت مرتفع من كتاب قولاً مأثوراً أو بعض المقاطع الشعرية التي كان يظنها قد تفيد الشابين أو تنفعهما .

في إحدى الليالي أيقظه الملك هاكون وهو يناديه . . .كان الظلام دامساً ، فقد كانت الشمعة قد انطفأت . أحس بالخجل إلى حد البؤس ، وحاول أن ينفخ الجمر ليتوقد مجدداً ، ثم أشعل شمعة جديدة . كان الملك يستلقي وهو يبتسم بمكر :

"هل يشخر غونستاين هذا دائماً على هذا النحو المخيف ؟"

"أجل يا سيدي !"

"هل تشاركه السرير في المنزل أيضاً ؟" أعتقد أنه لأمر منطقي أن تطالب برفيق سرير أقل ضجيجاً في نومه ."

" أشكر سيدي الكريم . . .و لكنني لا أنزعج من الأمر يا سيدي الملك ."

" ولكن لابدّ أنك تستيقظ يا سايمون حين يقصف هذا الرعد في أذنك مباشرة . . . أليس كذلك ؟"

"أجل يا جلالة الملك ، ولكن كل ما عليّ فعله هو أن أدفعه ثم أقلبه إلى جانب آخر ."

ضحك الملك .

" أتساءل إن لم تكونوا أنتم الشبان قادرين على الفهم بأن هذه الشهية للنوم هبة عظيمة من الرب . حين ستصل إلى سني يا صديقي سايمون ، ربما ستتذكر على الأرجح كلماتي . . ."

كان ذلك أمراً قديماً جداً . . . ومع ذلك فقد كان واضحاً . لم يكن يبدو أن الرجل الجالس هنا هو ذلك الوصيف الشاب . . .

●

في أحد الأيام مع بداية أيام الأحد الأربعة السابقة على عيد الميلاد وكانت كريستين لوحدها تقريباً في الضيعة - فقد ذهب أبناؤها لإحضار الحطب والطحالب - تعجبت إذ رأت سايمون دار وهو يدخل باحة منزلها . كانت مهمته أن يدعوها هي وأبناؤها إلى وليمة في فورمو في عيد الميلاد .

"لاشك أنك تعرف يا سايمون أننا لا نستطيع أن نكون أصدقاء مثلما كنا دائماً ، في قلوبنا ، أنت ورامبورغ وأنا ، ولكنك تعرف جيداً أن الأمر ليس في يدنا دائماً أن نفعل ما نريد ."

"لا يمكنك أن تعني أنك ستغالين في هذا الأمر إلى حد عدم الحضور لمساعدة أختك هي في حالة المخاض ؟"

تمنت له كريستين أن تسير الأمور بخير وأن تنتهي نهاية سعيدة لها كليهما . "و لكني لا أستطيع أن أعدك وعداً قاطعاً بالقدوم ."

قال سايمون بقوة : " سيعتقد الناس جميعاً أن هذا الأمر غريب . فأنت مشهورة كونك أفضل القابلات . . . وهي أختك . . . وأنتما الاثنتان سيدتان لأكبر ضيعتين في هذا الريف الشمالي ."

"لم يولد أطفال كثيرون في الضياع الكبيرة هنا في هذه السنوات الأخيرة ، وحتى أنني لم أتوسل القدوم . لم يعد الأمر يا سايمون كما كان سابقاً ، أي ألاّ يعتبر أن الولادة تمت على النحو الملائم في غرفة المخاض إن لم تكن سيدة يورونداغارد موجودة هناك ." لاحظت أنه كان شديد الخيبة من كلماتها ، فتابعت قائلة : "بلغ تحياتي لرامبورغ وقل لها إني سأحضر لمساعدتها عندما يحين أوانها . . . ولكني لا أستطيع الحضور إلى وليمتكم الخاصة بعيد الميلاد ، يا سايمون" .

ولكنها قابلت في اليوم الثامن بعد عيد الميلاد سايمون قادماً إلى القداس دون

رامبورغ . كلا إنها في حال جيدة كما قال . ولكن الأفضل لها أن تستريح وتستجمع قوتها ، فغداً كان هو مسافراً إلى دايفرين جنوباً معها ومع الأولاد . . . فالطرقات جيدة جداً للسفر على الزلاجات . لقد توسل غيرد إليهم أن يحضروا ، ورامبورغ راغبة في الذهاب ، عجباً . . .

-٤-

بعد قداس بولص انطلق سايمون دار شمالاً عبر "ميوس" مع خادمين في رفقته . كان هناك جليد قاس ولكنه اعتبر أنه لن يكون قادراً على الابتعاد عن بيته لفترة أطول . وكانت الزلاجات وعليها النساء ستأتي لاحقاً ، ما أن تخف حدة الصقيع .

في "هامار" قابل صديقاً له اسمه فيغلايك بالسون أوف فاغابرغ ، وسافرا معاً . وحين وصلا إلى "هامار الصغيرة" استراحا مدة من الزمن في مزرعة حيث توجد حانة للجعة . وبينما هما جالسان يحتسيان الشراب تشاجر بائعا فراء متجولان ثملان وبدأا بتبادل الكلمات . وأخيراً نهض سايمون واندفع بينهما وفرقهما ، ولكنه خلال ذلك تلقى طعنة خنجر في زنده الأيمن . كان أكثر من مجرد خدش فلم يهتم به ، ولكن صاحبة الحانة ربطت له ذراعه بقطعة قماش .

سافر باتجاه بيته مع فيغلايك ، ونام تلك الليلة في منزله . وقد نام الرجلان في سرير واحد ، وعند الصباح استيقظ سايمون على الرجل الآخر وهو يصرخ في نومه . نادى فيغلايك باسمه مرات عديدة . لذلك أيقظه سايمون وسأله بالأمر .

لم يستطع فيغلايك تذكر حلمه جيداً . "ولكنه كان حلماً بشعاً ، وكنت

أنت فيه . هناك شيء واحد أتذكره . . . كان سايمون رايدرسون واقفاً هنا في الغرفة وطلب منك أن تذهب معه . . . وقد رأيته بوضوح شديد حتى أني ميّزت النمش على وجهه ."

"أتمنى لو تبيعني ذلك الحلم" ، قال سايمون بلهجة نصفها مزاح ونصفها جدّ . لقد كان سايمون ابن عمه وكانا صديقين حميمين في طفولتهما . وقد مات ابن العم هذا وهو في الثالثة عشرة من عمره أو نحوها .

في الصباح حين كان الرجال جالسين لتناول الفطور ، رأى فيغلايك أن سايمون قد ترك الكم الأيمن لسترته دون أن يزرره عند الرسغ . كان اللحم أحمر متورماً حتى قفا يده . وقد نبّهه إلى ذلك فضحك سايمون . وحين توسل إليه صديقه بعد وهلة أن يبقى في البيت بضعة أيام - وأن ينتظر زوجته هناك - لم يستطع فيغلايك أن ينسى حلمه - أجاب سايمون أندرسون بعناد : "لا شك أنك لم تحلم حلماً سيئاً عني يا فيغلايك فرأيتني أبقى في السرير بسبب لدغة بقة . . . ؟"

عند الغروب انطلق سايمون وخدمه إلى بحيرة لوسنا في طقس جميل . كانت الجبال العالية الزرقاء والبيضاء قد أصبحت ذهبية وقرنفلية تحت نور المساء ، ولكن الغابات المغطاة بالصقيع على امتداد النهر كانت تبدو رمادية مشعثة في الظل . كان مع الرجال جياد ممتازة وقد انطلقوا بسرعة عبر البحيرة الطويلة . . . وقد راحت قطع صغيرة من الجليد تتطاير وترنّ تحت حوافر الجياد . كانت ريح قارصة تهب عليهم . أحس سايمون ببرد شديد . . . ولكن سرعان ما أصبحت هبات غريبة مثيرة للغثيان من الحرارة تتخلل جسده ، رغم البرد . . . ثم راحت موجات باردة تتغلغل في نقي عموده الفقري . أحياناً كان يشعر بلسانه يتورم ويصبح سميكاً على نحو غريب في حلقه . وقبل أن يعبروا البحيرة كان عليه أن يتوقف ويطلب من أحد رجاله أن يثبت عباءته ليعلق منها ذراعه اليمنى .

كان الرجال قد سمعوا فيغلايك بالسون يتحدث عن ذلك الحلم . والآن طلبوا من سيدهم أن يريهم الجرح . ولكن سايمون قال إنه لا شيء ، ولكنه يؤلمه قليلاً : "أعتقد أني سأصبح أعسر بضعة أيام" .

ولكن مع تقدم المساء . . . كان القمر قد برز في السماء وكانوا يصعدون الحواف شمال البحيرة . . . أحس سايمون أن ذراعه ستكون مزعجة له على أي حال . كانت تؤلمه حتى الإبط . كانت الحركة فوق ظهر الحصان مؤلمة جداً . . . كان الدم ينبض وينبض في الذراع المصابة . كما كان رأسه يؤلمه من مؤخر العنق ونحو الأعلى . راح تنتابه نوبات من السخونة والبرودة .

كان الطريق الشتائي يصعد عالياً جانب الجبل هنا ، وأحياناً عبر غابات أو عبر أراض زراعية . شاهد سايمون ذلك كله . . . راح البدر يبحر فضياً لامعاً في السماء الزرقاء الشاحبة . لقد دفع بكل النجوم بعيداً عن طريقه . كانت نجمة واحدة أو اثنتان كبيرتان قد تجرأتا على الظهور في السماء . التمعت الحقول البيضاء وأومضت . كانت الظلال قصيرة وحادة فوق الثلج . . .داخل الغابات كان النور يشكل بقعاً وخطوطاً بين أشجار التنوب المحملة بالثلج . رأى سايمون هذا كله . . .

و لكنه في الوقت نفسه رأى بمنتهى الوضوح تحت نور الشمس في أوائل الربيع ، حقلاً من العشب المنعقد الرمادي البني . كانت بعض أشجار التنوب معوقة النمو قد اندفعت بارزة هنا وهناك في الجوانب ، وراحت تلتمع كالمخمل الأخضر تحت الشمس . لقد عرف ذلك مجدداً . كان حقل البيت في دايفرين . كانت جذوع أشجار جار الماء في الغابات خلف الحقل تنتصب رمادية لامعة كما في الربيع ، وكانت قممها بنية من البراعم . . . وخلفها كانت تقبع جبال راوماريكه لامعة زرقاء لا تزال مبقعة بالثلوج . كانوا في طريقهم نحو غابة جار الماء ، سايمون رايدارسون وهو . كان معهما عدة الصيد والرماح المدببة . . . كانا

متجهين نحو البحيرة ذات اللون الرمادي الداكن من الجليد المتعفن ليصطادا في الماء المكشوف عند نهاية البحيرة . . . كان ابن عمه الميت يمشي إلى جانبه : شاهد شعر رفيقه الأجعد وقد اندفع غزيراً من تحت قبعته ، أحمر اللون تحت نور شمس الربيع . كان قادراً على عدّ كل نمشة على وجه الصبي . مط سايمون الآخر شفته السفلى وصفّر حين اعتبر أن حديث سميّه كان حماقة . قفزا من فوق برك المياه ، ومن رابية صغيرة إلى أخرى عبر ماء الثلج المنساح في الأرض المعشبة . كانت هنا طحالب نمت في القاع وكانت تزبد وتعطي لوناً أخضر جميلاً تحت الماء .

رغم أن حواسه كانت متيقظة . . . ورغم أنه شاهد طوال الوقت الممر الخاص بالجياد صعوداً ونزولاً في الجبل ، عبر الغابة ، والمزارع البيضاء تحت نور الشمس المتوهج . . . رأى المنازل تحت أسقف غطاها الثلج وهي تعطي ظلالاً عبر الحقول ، رأى حزام الضباب فوق النهر في قعر الوادي . . . وعرف أن "يون" هو الذي كان خلفهم بالضبط وأنه أسرع بحصانه إلى جانبه حين خرجا إلى فسحة مفتوحة . . . ولكنه وجد نفسه أكثر من مرة ينادي الرجل بسايمون . كان يعرف أن ذلك خطأ ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من فعل ذلك ، رغم أنه رأى أن رجاله بدأوا يصابون بالخوف .

قال ما أن أصبح ذهنه أكثر صفاء : "علينا أن نصل حتى منزل الرهبان في روالدستاد في هذه الليلة أيها الرجال" .

توسل الرجلان إليه . . . عليهم بالأحرى أن يجدوا مأوى بأسرع وقت ممكن . وقد ذكروا أقرب منزل لكاهن . ولكن السيد أصرّ على رأيه .

"سيكون صعباً على الجياد يا سايمون . . ." نظر الخادمان أحدهما إلى الآخر .

ولكن سايمون ضحك قليلاً . عليهم أن يتحملوا ذلك ولو مرة واحدة . فكر

في الأميال المتعبة . راح الألم يتغلغل في كل جسده مع كل حركة في السرج . ولكن عليه أن يصل إلى البيت وسيفعل ذلك . فقد أدرك الآن أن مصيره كان محتوماً . . .

ورغم أنه تجمد حتى نقي العظام في الليل الشتوي ثم أحرقته الحمى بالتناوب ، ولكنه كان طوال الوقت يحس بشمس الربيع اللطيفة في المرعى في البيت ، وبالصبي الميت . وتابع السير نحو أجمة أشجار الماء . خلال لحظات قصيرة كانت الرؤيا تذوب مبتعدة ، وتصبح رأسه صافية . . . إلاّ أنها كانت تؤلمه بشدة . توسل إلى أحد الرجلين أن يقص له الكم فوق الذراع التي كانت تؤلمه وقد شحب وراح العرق يتصبب فوق وجهه بينما راح يون دالك يمزق بعناية السترة والقميص من الكم إلى الكتف ، هو يمسك باليد اليسرى الذراع المتورمة . خفف هذا من الألم قليلاً .

بعد ذلك بدأ الرجلان يتكلمان . . . عند روالدستاد يجب أن يرسلوا خبراً نحو الجنوب إلى دايفرين . ولكن سايمون رفض ذلك . فهو لن يقلق زوجته بمثل هذا الخبر حين تكون الرحلة - على الأرجح - فوق مزلجة في مثل هذا الطقس البارد ضارة بها . ربما حين يصلون إلى فورمو ، سيرى ما سيفعل . حاول أن يبتسم لسيغورد ليرفع معنويات الشاب . . . بدا عليه الخوف والبؤس .

"ولكن عليكما أن ترسلا خبراً إلى كريستين في يوروندغارد ما أن نصل إلى البيت . . . إنها حكيمة ماهرة" . أحس بلسانه سميكاً وقاسياً كالخشب وهو يقول ذلك .

قبليني يا كريستين يا خطيبتي ! أولاً ستظن أن كلامه هلوسة . لا يا كريستين . وعندها ستتعجب .

لقد رآها إرلند . لقد رأتها رامبورغ . أما كريستين فكانت جالسة هناك منهمكة بمشاغلها وغضبها . . . كانت شديدة الغضب والمرارة من ذلك الرجل

إرلند . . . فهي لم تكن مهتمة سوى به الآن . أنت لا تهتمين بي قط يا كريستين يا حبيبتي ، حتى أنك تعتبرين أنه أمر مزعج أن يكون خطيبك السابق صهرك الآن .

في الحقيقة لم يكن هو نفسه قد عرف ذلك ، في تلك المرة حين ودّعها خارج باب الدير في أوسلو . . . أنه سيستمر في التفكير بها على هذا النحو . وأنه سيبدو له في النهاية أنه لم يفعل شيئاً في هذه الحياة بما أنه لم يستطع التعويض بالكامل عما فقده آنذاك . مقابل الفتاة التي كانت مخطوبة لي في شبابي .

عليها أن تسمع ذلك قبل أن يموت . عليها أن تمنحه قبلة واحدة . . .

أنا الذي أحبك ولا يزال يحبك . . .

سمع هذه الكلمات ذات مرة ولم يكن قادراً قط على نسيانها . كانت من كتاب معجزات مريم العذراء وكانت حكاية عن راهبة هربت من ديرها مع فارس . وقد أنقذت مريم العذراء هذين الاثنين في النهاية وغفرت لهما خطيئتهما . لو كان إثماً أن يقول ذلك لأخت زوجته قبل أن يموت ، فإن أم الرب ستغفر له هذا أيضاً . . . لم يكن شديد الإلحاح عليها في الغالب . . .

لم أصدق ذلك بنفسي تلك المرة . . .بأني لن أكون ثانية سعيداً أو مرحاً عن حق . . .

"كلا يا سايمون ، كان الأمر صعباً جداً على سوكا أن تتحملنا كلينا . . . طالما كان عليها أن تسافر هذه الليلة" ، قال هذا للشخص الذي كان خلفه على حصانه ويسنده . "أجل . . .أرى أن هذا هو أنت يا سيغورد ولكني حسبتك شخصاً آخر . . ."

•

عند الصباح كانوا قد وصلوا إلى منزل الحجاج وأخذ الراهبان المكلفان بالعناية بالمكان الرجل المريض للعناية به ولكن خلال عنايتهما به تحسّن نوعاً ما

وخفت هلوساته المحمومة ، وأصر سايمون على أن يستعير مزلجة ليتابع الطريق شمالاً .

كان السفر جيداً وقد بدلوا الأحصنة على الطريق وسافروا طوال الليل ووصلوا إلى فورمو في صباح اليوم التالي عند الفجر . كان سايمون قد استلقى وأغفى تحت أغطية كثيرة مُدت فوقه . وقد أحس بها ثقيلة فوقه وكأن شيئاً كان يسحقه تحت ألواح حجرية ضخمة . . . كما كانت رأسه تؤلمه أيضاً . بين الحين والآخر كان يبدو له أنه يفقد نفسه . ثم بدأت الآلام تعصف به مجدداً . . . كأنما كان جسده يغلي ويغلي ويصبح هائل الحجم ، ويكاد يتفجر إلى قطع صغيرة . كانت ذراعه تنبض وتنبض . . .

حاول أن ينزل من المزلجة ويمشي على قدميه . . . وذراعه السليمة فوق كتف يون . جاء سيغورد من الخلف ليسنده . كان سايمون مدركاً أن وجهي الرجلين كانا رماديين ونحيلين من التعب . . . فقد كانا قد أمضيا ليلتين كاملتين على ظهور الجياد . كان سيقول شيئاً وسقط إلى الأمام نحو الغرفة . . . كان الألم فظيعا حيث أن ذراعه المتورمة عديمة الشكل قد ضربت بشيء ما . نزّ العرق منه بشدة وهو يحاول أن يخنق الأنّات التي صدرت عنه وهما يخلعان عنه ملابسه ويساعدانه على دخول السرير .

●

بعد ذلك بوقت ليس بالطويل رأى كريستين لافرانسداتر واقفة قرب الموقد وهي تدق شيئاً في وعاء خشبي بواسطة يد الهاون . كان الصوت يدق في رأسه ! صبت شيئاً ما من قدر صغيرة إلى كأس كبيرة ، ونقطت نقطاً فيه من دورق زجاجي أخرجته من حقيبتها . . . أفرغت المادة المسحوقة من الوعاء إلى القدر ووضعتها على النار . كم تبدو هادئة وماهرة في حركتها . . .!

والآن اقتربت من السرير حاملة الكأس الكبيرة بيدها . كانت تسير بخفة شديدة . كان قوامها مشدوداً وجميلاً كما كانت وهي بعد فتاة ، ربة البيت الرشيقة هذه ذات الوجه النحيل الجدي تحت غطاء الرأس الكتاني . كان يتألم ، فقد تورم مؤخر عنقه أيضاً ، حين مررت ذراعها تحت رأسه ورفعته قليلاً . أسندت رأسه على صدرها وهي تقرب الكأس من فمه بيدها اليسرى .

ابتسم سايمون قليلاً ، وحين أفلتت له رأسه بحذر أسنده مجدداً على الوسائد ، وأمسك يدها بيده السليمة . لم تكن طرية أو بيضاء بعد الآن ، يد المرأة النحيلة الجميلة تلك .

"أصابعك هذه لم تعد ملائمة لخياطة الحرير الآن على ما أعتقد" ، قال سايمون "ولكنها جيدة وخفيفة . . . باردة على نحو مبارك هي يدك يا كريستين !" وضعها على جبينه . وقفت كريستين على هذا النحو حتى أحست بكف يدها يدفأ ، ثم أبعدتها وضغطت بيدها الأخرى بلطف على جبينه الملتهب . . . تحت جذور الشعر .

قالت : " ذراعك قبيحة يا سايمون . ولكن بعون الله أعتقد أنها ستشفى" .

"أخشى يا كريستين أنك لن تستطيعي شفائي رغم أنك حكيمة ماهرة" ، قال سايمون . ولكنه بدا مرحاً تقريباً . كان الشراب قد بدأ يفعل فعله . أحس أن الآلام تخف . ولكن كان هناك إحساس غريب في عينه وكأن لا يستطيع توجيهها . . . بدا له أنه مستلق هناك وعيناه محولتان كل واحدة إلى جانب .

قال كما من قبل : "ستجري الأمور كما هو مقدر عليّ"

عادت كريستين إلى قدورها . . . دهنت عجينة على قطعة قماش كتاني ووضعت الضمادة الساخنة على ذراعه بدءاً من أنامله وحتى ظهره وصدره ، حيث كان الورم منتشراً من إبطه في خطوط حمراء . في البداية آلمه ذلك كثيراً ، ولكن سرعان ما أحس بالراحة . لفت كل هذا بالصوف ووضعت وسائد طرية

تحت ذراعه . سألها سايمون ما الذي وضعته على الضمادات .

"أوه ، إنها أشياء كثيرة معظمها من لحية التيس وبقلة الخطاطيف" ، قالت كريستين . لو كنا في الصيف لاستطعت أن اقطفها طازجة من حديقة أعشابي الطبية - ولكن لديّ الكثير والحمد لله - لم أكن في حاجة إليها هذا الشتاء حتى الآن ."

"ما الذي قلته ذات مرة عن بقلة الخطاطيف . . . لقد سمعتِ بذلك من رئيسة الدير حين كنتِ هناك في الدير . . . إنه أمر يخص اسمها . . ."

"هل تعني أن لها اسماً يعني "براعم السنونو" في كل اللغات . . . من بحر اليونان إلى هنا في بلاد الشمال ؟"

"أجل . . . لأنها تزهر في كل البلاد حين تستيقظ طيور السنونو من سباتها الشتوي ." اغلق سايمون شفتيه قليلاً . عندما سيحين ذلك الوقت (الربيع) سيكون هو قد دفن منذ زمن طويل تحت التراب .

قال : "أريد أن يكون مثواي عند الكنيسة هنا ، لو متّ الآن يا كريستين . الآن أنا غني إلى حد أن اندرس سيكون في موقع قوة هنا في المستقبل . أتساءل كثيراً إن كانت رامبورغ ستنجب ابناً في الربيع بعد رحيلي . . . كنت أتمنى أن أعيش حتى أرى لي ابنين في منزلي . . ."

قالت كريستين أنها أرسلت خبراً إلى الجنوب نحو دايفرين عن أنه مريض جداً . لقد.انطلق غاوته هذا الصباح إلى هناك .

"لم ترسلي ذلك الطفل على ذلك الطريق لوحده؟" سأل سايمون منزعجاً .

أجابت أنه لم يكن لديها شخص آخر قادر على مجاراة غاوته على متن "راودن" . قال سايمون إنها ستكون سفرة متعبة لرامبورغ . . . ليت أنها لا تسافر على نحو أسرع مما هو ملائم لها . "ولكنني أتمنى أن أرى أولادي مرة أخرى" . . .

بعد فترة بدأ يتكلم مجدداً عن أولاده . تحدث عن آرنغيبيرد . . . هل أخطأ يا

ترى إذ رفض العرض الذي قدمه له أولئك الأشخاص في "أيكن" . ولكن بدا له الرجل عجوزاً . . . وكان يخشى من سمعة "غرونده" على أنه سريع الانفعال حين يشرب . كان يتمنى لو جعل آرنغييرد في وضع من الأمان الكامل . سيكون على غيرد وغودموند أن يجدا لها زوجاً الآن . "قولي لشقيقيّ يا كريستين . . . إني أرسلت إليهما تحياتي وطلبت منهما التروّي قي هذا الأمر . "هل لك أن تستضيفيها (آرنغييرد) هنا في يورونDغارد فترة من الزمن ؟ سأكون ممتناً لك من حيث أرقد . ولو تزوجت رامبورغ ثانية قبل أن تتم العناية بأمر آرنغييرد ، سيكون عليك أن تحضريها لتعيش معك يا كريستين . كلا ، ليس عليك أن تظني بأي شيء سوى أن رامبورغ كانت طيبة معها طوال الوقت . . . ولكن لو حدث وأصبح لها زوجة أب وأصبح لزوجة الأب زوج غير والد الفتاة فإني أخشى ألا تعامل إلاّ كخادمة . . . كنت زوجاً لهالفريد حين أصبحت أباً لها . . ."

وضعت كريستين يدها بلطف على يد سايمون ، ووعدته بأنها ستفعل ما بوسعها للفتاة . تذكرت كل ما كانت قد رأته . . . كانت الأحوال صعبة على الأطفال الذين يكون أبوهم من مقام رفيع ولكنهم ولدوا خارج إطار الزواج . أورم ومارغريت ، وأولف هالدورسون . . . ربتت ثم ربتت على يد سايمون .

"ولكن ليس أكيداً أنك ستموت هذه المرة يا صهري" ، قالت وهي تبتسم قليلاً . حتى الآن ـ وفي بعض الأحيان ـ كان يمر كظلّ شبح ابتسامة العذراء العذبة اللطيفة فوق الوجه النحيل القاسي للمرأة . يا كريستين الحلوة الشابة . . . !

•

انخفضت حمى سايمون هذا المساء وخفّت آلامه كما قال . وحين غيّرت كريستين الضمادات على ذراعه ، لم تكن متورمة! . كان اللحم أكثر طراوة وقد بقيت علامات أصابعها عليه حين ضغطت على ذراعه بحذر .

أرسلت كريستين الخدم إلى فراشهم . أما يون دالك الذي لم يقبل سوى

بالبقاء للسهر على سيده ، فقد تركته يستلقي على المقعد . كانت قد جرّت المقعد الصندوقي ذا الظهر المنحوت إلى قرب السرير ، وقد جلست هناك . وهي تتكئ في إحدى الزوايا . غلب النعاس سايمون فنام . . . ومرة حين استيقظ رأى أنها كانت قد أحضرت مغزلاً . جلست باستقامة . كانت قد أقحمت العصا التي لف عليها الصوف تحت ذراعها اليسرى ، وراحت أصابعها تلوي الغزل ، والعصا تغرق وتغرق على امتداد حضنها الطويل الرشيق . . . ثم لفت الخيط ولوته ثانية ، فغرقت العصا وغرقت . . . وقد غلبه النعاس وهو يراقبها . . .

حين استيقظ مجدداً عند الصباح ، كانت لا تزال جالسة هناك وهي تغزل . كان النور من الشمعة التي وضعتها بحيث تظلله ستارة السرير يسقط مباشرة على وجهها الذي كان شاحباً وهادئاً جداً . كان الفم الممتلئ الطري قد أصبح رقيق الشفتين ومغلقاً بشدة . جلست بعينين مسدلتين وهي تغزل . لم تستطع أن ترى أنه استيقظ وراح يحدق إليها تحت خيمة السرير . بدت حزينة جداً حتى أحس سايمون أن قلبه ينزف في داخله وهو مستلق هناك محدقاً إليها .

نهضت ومضت نحو النّار وفحصتها دون أي ضجيج !حين عادت أطلت من وراء خيمة السرير . . . قابلت عينيه المفتوحتين . تنظران من العتمة .

"كيف حالك الآن يا سايمون ؟" سألته برقة .

"حالي حسنة الآن ."

ولكنه ظن أن هناك حساسية الآن تحت ذراعه اليسرى أيضاً وتحت ذقنه حين يحرك رأسه . أوه كلا إنه مجرد وهم على الأرجح . . .

. . .آه ، لاشك أنها لم تعتبر أنها خسرت شيئاً حين تخلت عن حبه . . . عليه أن يخبرها عن ذلك . كان من المستحيل أن يجعلها هذا أكثر حزناً . سيخبرها قبل أن يموت . . . مرة واحدة فحسب : لقد أحببتك كل هذه السنوات . . .

عادت الحمى مجدداً وكان هناك ألم في الذراع اليسرى .

"عليك أن تحاول النوم مجدداً يا سايمون . ربما ستشفى الآن بسرعة" قالت بصوت خفيض .

"لقد نمت كثيراً هذه الليلة" . بدأ يتحدث عن أولاده مجدداً . . . الثلاثة الذين لديه يحبهم كثيراً . . . وذاك الذي لم يولد بعد . ثم حل الصمت عليه . . .تناوشته الآلام مجدداً وبشدة . "نامي قليلاً يا كريستين فيون يستطيع أن يسهر لو كنت ترين ضرورة وجود من يبقى ساهراً للمراقبة ."

●

في الصباح حين رفعت الضمادات ، نظر سايمون بهدوء إلى وجهها البائس :
"آه ، كلا يا كريستين ، لقد سبق لتلك الذراع و حوت الكثير من القذارة والسموم . . . و كنت أتجمد من البرد أيضاً . . . قبل أن أصل إليك . الأمر كما قلت . . . لن تستطيعي شفائي . و لكن لا تكوني حزينة جداً لأجل ذلك يا كريستين ."

" لم يكن عليك أن تسافر كل تلك المسافة الطويلة" ، قالت بصوت ضعيف .

"لا أحد يعيش يوماً زيادة عن عمره المقدر له" ، أجاب سايمون كما من قبل .

"كنت مصمماً على العودة إلى البيت كما ترين . . . هناك بعض الأمور التي أريد التحدث عنها . . . كيفية ترتيب الأوضاع بعد رحيلي ."

ضحك قليلاً :

"كل النيران تنطفئ أخيراً" .

نظرت كريستين إليه بعينين لامعتين كالشاي . كان في فمه دائماً كلمة عابرة . نظرت إلى وجهه المبقع باللون الأحمر . كانت الوجنتان المليئتان والطيات

تحت الذقن تبدو وكأنها قد غارت . . . كأنما في طبقات عميقة . بدت عيناه باهتتين ولامعتين معاً . . . ثم صفتا مجدداً وعاد الفكر إليهما . نظر إليها نظرة ثابتة باحثة كانت غالباً في عينيه الصغيرتين الحادتين بلونهما الرمادي الفولاذي .

حين دخل نور النهار إلى الغرفة ، رأت كريستين أن وجه سايمون أصبح نحيلاً من حول الأنف . . . كان خط أبيض يجري على كل من جانبي زاويتي فمه .

ذهبت إلى النافذة الزجاجية الصغيرة ووقفت هناك و ابتلعت دموعها . كان الجليد السميك على النافذة يلتمع ويتلألأ بلون أخضر ذهبي .لا شك أن الطقس في الخارج كان طقساً شتائياً جميلاً كما كان طوال الأسبوع . . .

. . .كانت تلك علامة الموت كما كانت تعرف . . .

عادت ومرّرت يدها تحت غطاء السرير . . . كان متورماً من حول الكاحلين وحتى على امتداد الساقين .

قالت برقة : "هل تريد . . . هل تريد ان نرسل وراء سيرا آيريك الآن ؟"

أجاب سايمون : " أجل الليلة" .

عليه أن يقول ما عليه قوله "قبل" أن يعترف و يتناول القربان . بعدئذ عليه أن يحاول ويلتفت بأفكاره نحو أمر آخر .

قال سايمون : "أمر غريب أن تكوني أنت من سيكفّن جسدي . و لن أكون جثة جميلة على ما أخشى ."

خنقت كريستين بكاءها . مضت ثم جهزت شراباً ملطّفاً من جديد . ولكن سايمون قال :

"لا أحب هذه الشرابات خاصتك يا كريستين . . . تصبح أفكار المرء غير واضحة بعد أن يتناولها ."

ولكن بعد فترة توسل إليها أن تعطيه شيئاً منها . "ولكن لا تضعي الكثير من المادة المنومة فيها . عليّ أن أحدثك في أمر ما ."

شرب و بقي ينتظر أن تخف الآلام إلى حد يستطيع معه أن يحدثها بوضوح وهدوء .

"ألا تريد إحضار سيرا آيريك . . . حتى يحدثك بكلمات تجلب السلوان إليك ؟"

"أجل و بسرعة . ولكن هناك ما أريد أن أقوله لك أولاً" .

انتظر قليلاً ثم قال :

"قولي لإرلند نيكولاوسون إن الكلمات التي قلتها له حين افترقنا آخر مرة ، هذه الكلمات ندمت عليها كل يوم منذ ذلك الحين . لقد تصرفت على نحو خال من الرجولة والعقل مع عديلي في تلك الليلة . . . بلّغيه تحياتي وقولي له أن يغفر لي ."

جلست كريستين براس مطأطئة . . . رأت سايمون أن وجهها تضرج حتى الحاجبين .

سألها : "أستحملين هذه الرسالة لزوجك ؟"

أومأت برأسها قليلاً . ثم قال سايمون :

"إذا لم يحضر إرلند مأتمي فعليك أن تذهبي وراءه يا كريستين و تقولي له هذا ."

جلست كريستين صامتة ووجهها متضرج .

"لن تنكري هذا عليّ وأنا أتوسل إليك على سرير موتي ، أليس كذلك ؟" سألها سايمون أندرسون .

همست المرأة : " سأفعل ذلك" .

"ليس أمراً جيداً لأبنائك يا كريستين أن يكون هناك خصام بين أبيهم وأمهم" ، بدأ سايمون بالكلام مجدداً . "أتساءل إن كنت قد لاحظت كم يقلقهم

ذلك . من الصعب على الشبان الشجعان أن يعرفوا أن أبويهم قد أصبحا موضوعاً لإشاعات الأبرشية" .

أجابت كريستين بصوت خفيض قاس :

"لقد تخلّى إرلند عن أبنائنا . . . وليس أنا . أولاً فقد أولادنا نقطة ارتكازهم في الريف حيث ولدوا لأب ذي منصب وأراض متوارثة . ولو كانوا يعانون الآن لأن بيتهم في ديل ، بيتي ، قد أصبح موضوعاً لإشاعات الأبرشية . . . فلست أنا من فعل ذلك ."

صمت سايمون برهة ، ثم قال :

"لم أنس يا كريستين . . . الحق معك . . . فقد تصرف إرلند على نحو سيئ . ولكن عليك أن تتذكري أنه لو نجح مخططه ، فإن أبنائه كانوا الآن في وضع مريح وكان هو الآن بين أقوى فرسان هذه المملكة . من يفشل في مثل هذا المشروع يسمى بالخائن ولكنه لو كسب لتحدث الناس على نحو آخر . كانت نصف النرويج تفكر في إرلند في ذلك الحين . . . لقد كان أمراً سيئاً أن نشارك السويديين في ملك واحد وكنا سنجد في ابن كنوت بورس معدناً آخر غير هذا الملك الضعيف لو استطعنا أن نوصل الأمير هاكون إلى هنا في سنوات شبابه . كان كثيرون يؤيدون إرلند آنذاك و يشدون الحبل معه . . . ولكنهم أسقطوه وزحفوا ليختبئوا في ملاجئهم حين افتضح أمره . . . هكذا فعل أخواي و كثيرون ممن يسميهم الناس فرساناً صالحين ومرشحين صالحين لرتبة فارس . أما إرلند فقد سقط لوحده . . . وفي ذلك يا كريستين برهن زوجك على أنه شخص رجولي وجريء . . . بغض النظر عما فعله قبل ذلك ومنذ ذلك الحين . . ."

جلست كريستين هادئة وهي ترتجف .

"أعتقد يا كريستين أنه بسبب هذه المسألة فقد نطقت أنت بكلمات مريرة تجاه زوجك لذلك عليك أن تتراجعي عنها . تستطيعين أن تفعلي ذلك يا

كريستين . . . فقد وقفت إلى جانب إرلند بقوة . . . ولم تصغي إلى كلمة حق تقال عن معاملته لك ، حين كان يرتكب تصرّفات ما كنت أظن رجلاً شريفاً يفعلها ، ناهيك عن فارس نبيل المحتد وأحد رجال الحرس الملكي . . . أتذكرين حين داهمتكما في أوسلو ؟ و لكنك استطعت أن تغفري لإرلند آنئذ ومنذئذ . . ."

أجابت كريستين بصوت خفيض :

"لقد ربطت مصيري بهذا الرجل في ذلك الحين . . . ما كان سيحل بي لو أني افترقت عن إرلند في ذلك الحين ؟"

"انظري إلي يا كريستين ، وأجيبيني صراحة . لو أني ألححت على جعل أبيك يلتزم بعهده الذي منحه إلي . . . ولو اخترت أن أتزوجك حتى في الحالة التي كنت فيها . . . لو قلت لك إني لن أذكّرك أبداً بعارِكِ ، وإنما لن أتخلى عنك . . . ما كنت ستفعلينه آنئذ ؟"

"لا أعرف" .

ضحك سايمون ضحكة قاسية :

"لو أجبرتك على شرب جعة الزفاف معي . . . أعتقد أنك ما كنت ستأخذينني بين ذراعيك بملء إرادتك يا كريستين يا جميلتي . . ."

كان وجهها شاحباً الآن . جلست وهي تنظر إلى الأرض دون أن تجيب . ضحك كما من قبل :

"أعتقد أنك ما كنت سترحبين بلطف حين كنت سأصعد إلى سرير الزفاف إلى جانبك . . ."

"أعتقد أني كنت سآخذ خنجراً إلى السرير" ، قالت بهمسة نصف مخنوقة .

"سمعت أنك تعرفين القصيدة الغنائية لكنوت أوف بورغ" . . . ابتسم

سايمون بكآبة " إن حدوث مثل هذا الأمر بين أناس أحياء أمر لم أسمع به من قبل قط . ولكن الرب يعرف ما إذا كنت أنت ستفعلين ذلك !"

بعد برهة تكلم مجدداً :

"إنه لأمر غير وارد أيضاً بين المسيحيين أن يفترق الأزواج الشرعيون بملء إرادتهم ، كما فعلتِ . . . دون سبب شرعي وموافقة الأسقف . ألستما خجلين من ذلك - أنتما الاثنان ؟ لقد دست تحت قدمك وتخليت عن كل شيء حتى تتزوجيه . في ذلك الحين عندما كان إرلند مهدداً في حياته ، لم تفكري سوى بإنقاذه ، وهو كان يفكر فيك أكثر مما كان يفكر بأبنائه السبعة وسمعته وأملاكه . ولكن ما أن أتيح لكما أن تعودا الواحد إلى الآخر في سلام وأمان حتى رميتما بالاحتشام والسلام إلى الرياح . . وفي هوسابي أيضاً كنتما تتشاجران وتختلفان ، وقد رأيت ذلك بنفسي يا كريستين . . .

"أقول لك لأجل أبنائك ، إن عليك أن تصالحي زوجك . لو كنتِ على خطأ ، فإنه من الأسهل عليك أن تمدي يدك إلى إرلند" ، قال سايمون بلطف أشد .

ثم أردف :

"الأمر أسهل عليك مما هو على إرلند نيكولاوسون الجالس هناك في هاوغن في بؤس ."

همست : "ليس أمراً سهلاً عليّ . يبدو أني لا أستطيع فعل سوى القليل لأولادي . . . لقد كافحت وكافحت من أجلهم . . ."

قال سايمون : "الأمر على هذه الحال ." ثم سألها :"هل تذكرين ذلك اليوم الذي تقابلنا فيه على الطريق على الطريق قرب نيداروس ؟ كنت تجلسين على العشب وترضعين ناكفه . . ."

أومأت برأسها .

"هل كان بإمكانك أن تفعلي بالطفل الذي كان على صدرك ما فعلته أختي

بابنها . . . أن تتخلّي عنه إلى أشخاص أقدر على العناية به ؟"

هزت كريستين رأسها .

"ولكن أن تتوسلي إلى أبيه أن ينسى ما قلته له في لحظة غضب . . . ألا تعتقدين أنك قادرة على أن تفعلي هذا لأجله و لأجل ستة أبناء وسيمين علاوة على ذلك . . . أن تقولي لزوجك إنه من الضروري لأجل خاطر الشبان الصغار أن يعود إلى البيت ، إليهم وإلى ضيعته . . .؟"

قالت كريستين بصوت خفيض : "سوف أفعل ما تريد مني أن أفعله يا سايمون . الكلمات التي قلتها لي قاسية . و قبل الآن كنت قد قرّعتني أيضاً على نحو أقسى مما فعله أي شخص عادي . . ."

"أجل ، ولكني أستطيع أن أعدك الآن أنها المرة الأخيرة" . . .اتخذ صوته تلك الرنة المغيظة المرحة التي عرفتها فيه في الأيام السالفة . "كلا لا تبكي يا كريستين . . . ولكن تذكري يا أختي أنك وعدت شخصاً محتضراً ." و مرة أخرى فإن الشعاع القديم الخبيث مرّ بعينيه :

"تعرفين جيداً يا كريستين . . . أنه كان لديّ قبل الآن سبب يدعوني إلى عدم الثقة الكاملة فيك !"

"اهدئي الآن يا عزيزتي" ، توسّل إليها بعد وهلة . كان يسمعها تبكي بكاء مراً متقطعاً . كوني على ثقة أني أتذكر انك كنت لنا أختاً صالحة ومخلصة . نحن صديقان في النهاية رغم كل شيء يا كريستيني . . ."

مع اقتراب المساء توسل إليهم أن يحضروا الكاهن إليه . وصل سيرا آيريك و أحلّه من خطاياه وناوله الزيت الأخير وقربان الموت . وقد استأذن من خدمه وأولاد إرلند ، الخمسة المتواجدين منهم ، كانت كريستين قد أرسلت ناكفه إلى "كروكه" . . . فقد كان سايمون قد توسل مشاهدة أبناء كريستين ليودّعهم .

في تلك الليلة سهرت كريستين على الرجل المحتضر . ومع اقتراب الصباح

نامت برهة . وقد أيقظها صوت غريب . . . كان سايمون يئنّ قليلاً برقة . وقد هزّها هذا إلى حد مخيف حين سمعته . . . أن يئنّ لنفسه بهدوء ومرارة كطفل فقير منبوذ ، فهو يظن أن لا أحد يسمعه . انحنت فوقه وقبّلته مرات عديدة على وجهه . كانت هناك رائحة مغثية مترعة بالموت قد سبق لها وبدأت تخرج من أنفاسه وجسده . ولكن مع ازدياد نور الصباح شاهدت أن عينيه كانتا حيتين وصافيتين وثابتتين كما كانتا أبداً .

كان يعاني من آلام مبرحة كما رأت ، و ذلك حين رفعه يون وسيغورد في ملاءة بينما قامت هي بترتيب السرير وجعله طرياً ومريحاً ما أمكن . لم يكن قد تناول أي طعام منذ يوم كامل ، و لكنه كان شديد الظمأ .

بعد أن أعادته إلى السرير توسل إليها أن ترسم إشارة الصليب عليه : "لا أستطيع تحريك حتى ذراعي اليسرى الآن" .

. . . ولكن حين نرسم إشارة الصليب على أنفسنا أو على أي شيء نريد حمايته ، عندها يجب أن نتذكر السبب في أن الصليب أصبح مقدساً و ما الذي يعنيه و أن نتذكر أنه بآلام و موت الرب أصبحت إشارة الصليب مبجلة وقوية . . .

تذكر سايمون أن هذا هو ما سمعه مرة يتلى بصوت مرتفع . لاشك أنه كان لا يرغب بالتفكير كثيراً حين كان يرسم إشارة الصليب على صدره ، أو يضع علامة الصليب على بيوته وأملاكه . . . أحست أنه غير مستعد و غير مهيأ بعد ليرحل عن بيته الدنيوي . عليه أن يواسي نفسه بالتفكير في أنه قد أعد نفسه بالاعتراف الأخير كأحسن ما يكون حالياً ، و أنه قد مُنح آخر الطقوس الدنيوية . رامبورغ . . .إنها لا تزال شابة ويمكنها أن تعيش حياة أسعد مع رجل آخر ربما . أولاده ، سيرعاهم الرب برحمته . . . وسوف يعتني غيرد بمصالحهم بإخلاص وحكمة . أما بالنسبة إلى البقية فعليه أن يضع ثقته بالرب الذي يحكم على الإنسان ليس حسب قيمته بل برحمته . . .

في وقت لاحق من اليوم وصلت سيغريد أندرسداتر وغيرموند أوف كروكه . عند ذلك طلب سايمون من كريستين أن تخرج لترتاح ، فقد سهرت عليه ورعته فترة طويلة . "وسرعان ما سيكون أمراً مزعجاً الاقتراب مني" ، قال لها وهو يبتسم قليلاً . عند هذا انفجرت كريستين في نحيب صاخب لم يدم طويلاً . . . ثم انحنت وقبلت الجسد البائس الذي كان قد سبق له وبدأ يتفسّخ .

بعد ذلك رقد سايمون هادئاً . كانت الحمى والآلام أقل حدة الآن . كان يستلقي مفكراً ، فالأمر لن يطول قبل أن ينال حريته .

تعجب هو نفسه من أنه خاطب كريستين كما فعل . لم يكن هذا ما أراد أن يقوله لها ولكنه لم يكن قادراً على النطق بغير ذلك . أحياناً كان يشعر بالغضب من ذلك .

و لكن الآن لا بد أن السم قد شق طريقة إلى الداخل نحو قلبه . قلب المرء هو أول شيء يتحرك في قلب الأم وآخر شيء يموت في داخله . ولكن قلبه هو كان سيصل إلى الراحة قريباً .

•

في المساء راح يتأمل وهو مضطجع . و قد أنّ عالياً أكثر من مرة ، وكان أمراً مخيفاً سماعه . ولكن في مرات أخرى كان يضحك برقة ويتلفظ باسمه ، كما ظنت كريستين . . . ولكن سيغريد التي جلست منحنية فوقه ، همست لها ، أنها تظن أنه يتحدث عن شاب ، عن ابن عمهما ، الذي كان صديقاً له في الطفولة . مع اقتراب منتصف الليل أصبح هادئاً وبدا كأنه قد نام . ثم ألحّت سيغريد على كريستين أن تضطجع قليلاً على السرير الآخر في الغرفة .

وقد أيقظتها ضجة في الغرفة- كان الوقت قبل الفجر بقليل - ثم سمعت أن آلام الاحتضار قد بدأت . لم يعد سايمون قادراً على الكلام ، ولكنه كان لا يزال يميّزها . استطاعت أن تعرف ذلك من عينيه . ثم بدا لها و كأن نابضاً قد انكسر

فيهما . لقد انقلبتا نحو الأعلى عند الجفنين . ولكنه بقي مع ذلك حياً مع خرخرة في حلقه . وصل الكاهن وتلا الصلوات على المحتضر . جلست المرأتان قرب السرير . دخل كل أهل المنزل إلى الغرفة . وأخيراً ، قبل منتصف النهار لفظ آخر أنفاسه .

في اليوم التالي وصل غيرد دار على جواده إلى باحة فورمو . كان قد كسر قائمة حصان على طريقه . عند برايدين ، كان قد سمع بوفاة أخيه ، لذلك كان الآن هادئاً بما فيه الكفاية في البداية . ولكن حين رمت أخته بنفسها وهي تبكي بين ذراعيه ، شدها إليه وبكى كطفل صغير .

قال لهم إن رامبورغ لافرانسداتر كانت طريحة الفراش في دايفرين بعد أن ولدت صبياً . وحين وصل غاوته إرلندسون بالرسالة ، صرخت عالياً على الفور أنها عرفت إنه في ذاك سيكون فيه موت سايمون . ثم سقطت على الأرض مغمى عليها . كان الطفل قد ولد قبل ميعاده بستة أسابيع ، ولكنهم كانوا يأملون أن يبقى على قيد الحياة .

أقيمت وليمة فخمة على روح سايمون أندرسون ودفن قريباً من الكورس في كنيسة القديس أولاف . سُرّ سكان الأبرشية أنه اختار مكان دفنه هناك . فقد كانت سلالة فورمو القديمة ، التي انقرضت من الناحية الذكورية مع سايمون سايموندسون ، سلالة قوية وشهمة . كانت أستريد سايمونسداتر قد تزوجت من شخص غني وقد حمل أبناؤها لقب فارس وكانوا ضمن مجلس الملك ، ولكنهم نادراً ما كانوا يزورون أراضي أمهم الإرثية . وحين قطن حفيدها لاحقاً في الضيعة ، اعتبر الناس كأن السلالة القديمة قد عادت إلى مقرها ثانية . وسرعان ما نسوا اعتبار سايمون أندرسون شخصاً غريباً ، و قد حزنوا كثيراً لأنه مات شاباً ، فقد كان في الثانية والأربعين من عمره فحسب .



- ٥ -

مضى الأسبوع في إثر الأسبوع وكريستين مستعدة في قلبها لتحمل إلى إرلند رسالة الرجل المتوفي . هي ستفعل ذلك بكل تأكيد و لكنها اعتبرت الأمر صعباً . وفي هذه الأثناء كان لديها الكثير لتفعله في البيت والضيعة ومن يوم إلى آخر راحت تؤجل الأمر بأعذار جديدة . . .

في وايتساندتايد عادت رامبورغ لافرانسداتر إلى فورمو . كانت قد تركت الأطفال في دايفرين في حال جيدة كما أجابت حين سألت كريستين عنهم . بكت الفتاتان أباهما بحرارة و حزنتا عليه حزناً جماً . أما أصغر الأبناء سايمون سايمونسون فكان في تحسّن ، و هناك أمل كبير في أن يكبر ليصبح قوياً ضخم الجسم .

زارت رامبورغ مرة أو اثنتين الكنيسة وقبر زوجها . ولكنها لم تتحرك من بيتها عدا ذلك . إلاّ أن كريستين كانت تذهب مراراً لزيارتها كلما استطاعت ذلك . كانت تتمنى الآن من كل قلبها لو أنها عرفت أختها الشابة على نحو أفضل . بدت الأرملة طفولية تقريباً في ثوب الحداد . . . إذ ظهر جسمها هشاً غير كامل النمو في الثوب الثقيل الأزرق الداكن . كان الوجه الصغير ذو الزوايا الثلاث يبدو شاحباً و نحيلاً بين الأحزمة الكتانية تحت المنديل الأسود الصوفي الذي ينزل في

طيات سميكة من قمة رأسها إلى حاشية تنورتها تقريباً . و كانت هناك دوائر سوداء تحيط بعينيها الواسعتين حيث كان بؤبؤا عينيها يبرزان كبيرين و سوداوين كالفحم .

مع أوان حصاد التبن حلّ أسبوع لم تستطع فيه كريستين أن ترى أختها . ومن الناس العاملين في جمع التبن سمعت بوجود ضيف لدى رامبورغ في فورمو . . . يامالت هالفاردسون . تذكرت كريستين أن سايمون كان قد تحدث عن هذا الرجل الذي كان يملك ضيعة عظيمة ليست بعيدة عن دايفرين ، وقد كان هو وسايمون صديقين منذ الطفولة .

بعد أسبوع من بدء الحصاد شرع المطر بالهطول . وقد نزلت كريستين إلى "ديل" لتزور أختها . جلست كريستين تتحدث عن الطقس غير الملائم وعن التبن وسألت عن الأوضاع في فورمو . . . فقالت لها رامبورغ فجأة :

"سيكون على يون أن يرعى هذه الأمور كلها . . . أنا مسافرة جنوباً بضعة أيام يا كريستين" .

"أجل يا للمسكينة ، أنت مشتاقة لأولادك كما أعتقد" ، قالت كريستين .

نهضت رامبورغ ومشت جيئة وذهاباً في الغرفة .

"ستسمعين شيئاً سيجعلك تتعجبين" قالت المرأة الشابة بعد قليل . "سرعان ما سوف تدعين أنت وأولادك إلى حفل خطوبة في دايفرين . لقد منحت يامالت موافقتي قبل مغادرته هذا المكان ، وسوف يقيم غيرد حفل خطوبتي" .

جلست كريستين صامتة . وقفت أختها بعينين سوداوين ووجه شاحب محدقة بثبات إلى أختها . وأخيراً قالت الكبرى :

"أرى إذن أن سايمون لم يتركك أرملة لفترة طويلة . . . كنت أظنك ستحزنين عليه بقوة . . . ولكن صحيح أنك سيدة نفسك الآن . . . "

لم تجب رامبورغ . ثم سألت كريستين بعد قليل :

" أيعرف غيرد دار أنك تنوين الزواج بهذه السرعة؟"

"أجل" . سارت رامبورغ جيئة وذهاباً من جديد . " لقد أشارت عليّ هيلغا بذلك . . . فيامالت رجل غني" . ضحكت . "أما غيرد فرجل واضح البصيرة . أعتقد أنه رأى منذ فترة طويلة كم كانت حياتنا معاً بائسة ، سايمون وأنا ."

صاحت كريستين : "ما هذا الذي تقولينه؟ لم يعرف أحد آخر بكل تأكيد أنكما كنتما تعيشان بتعاسة معاً . لا أعتقد أن هناك من رأى بينكما سوى الود والإرادة الطيبة . لقد منحك سايمون حريتك في كل الأمور ، منحك كل ما رغبت به وأبقى في ذهنك أنك صغيرة السن وكان حريصاً على أن تستمتعي بشبابك ، وأن يوفر عليك الجهد والمشقة . لقد أحب أولاده وأظهر لك يوماً بيوم امتنانه لأنك أنجبت له ذينك الولدين . . . "

ابتسمت رامبورغ باحتقار .

أجابت كريستين بقوة :

"أجل ، إن كان الأمر وما فيه أنك لا تستطيعين أن تجدي سبباً يدعوك إلى القول إنك كنت تعيشين معه ببؤس ، إذن فليس سايمون هو الملوم . . . "

قالت رامبورغ : "كلا ، سأتحمل اللوم أنا . . . إن لم تتجرئي أنت على تحمله" .

جلست كريستين مذهولة .

"أعتقد أنك لا تعرفين ما تقولينه يا أختي" ، قالت أخيراً .

أجابت رامبورغ : "أجل في الحقيقة . ولكني أعتقد تماماً أنك لا تعرفين . أنت لم تفكري كثيراً في سايمون لذلك أعتقد أن هذا أمر جديد عليك . لقد اعتبرته سنداً جيداً تطلبين معونته عند حاجتك إلى من يساعدك وكان هو مستعداً لحمل المكواة الحامية من أجلك . . . ولكن لم يخطر لك أن تفكري كم

كلف ذلك سايمون أندرسون . . . لقد تركت لأعيش شبابي بمرح ، أجل . . . لقد حملني سايمون بسعادة ولطف إلى السرج وأرسلني بعيداً عنه لأقوم بالزيارات والرحلات . وكان يستقبلني بسعادة ولطف حين أعود إلى البيت . . . كان يربت عليّ كما يربت على كلبه وحصانه . . . لم يكن يفتقدني أنّى ذهبت . . . "

كانت كريستين قد نهضت . . . وقفت قرب المائدة دون حراك . فركت رامبورغ يديها حتى طقطقت مفاصلها وهي تسير جيئة وذهاباً عبر الغرفة :

"يامالت . . ." ، قالت على نحو أهدأ نوعاً ما : "لقد عرفت منذ زمن طويل رأيه بي . وقد رأيت ذلك حتى حين كانت زوجته لا تزال على قيد الحياة . لم يرتكب أي خيانة في حق سايمون سواء بالكلام أو بالفعل . . . وصدقيني! لقد حزن على سايمون كثيراً . . . وجاء ليزورني المرة تلو الأخرى ليواسيني . . . هذا صحيح! ولكن هيلغا هي التي قالت لنا كلينا إنها تعتبر أن الأمر ملائم لو أننا . . .

" . . . ولا أعرف ما عليّ أن أنتظره . لن أكون أكثر راحة أو أقل راحة ممّا أنا عليه الآن . . . وأفكر في الوقت الحاضر أن أجرب الحياة مع رجل بقي صامتاً وفكر بي هذه السنوات الطويلة الطويلة . أعرف جيداً كيف يكون العيش مع شخص يبقى صامتاً ويفكر في شخص آخر . . . "

وقفت كريستين كما من قبل . توقفت رامبورغ أمامها بعينين لامعتين :

"تعرفين أن ما قلته صحيح!"

خرجت كريستين من الغرفة برأس مطأطئة . وبينما وقفت تحت المطر في الباحة تنتظر خادمها ليقود لها حصانها ، اقتربت رامبورغ من باب القاعة . . . حدقت إلى أختها الكبرى بعينين سوداوين عدائيتين .

•

لم تتذكر كريستين حتى اليوم التالي ما وعدت به سايمون إذا تزوجت رامبورغ مجدداً . لذلك ركبت إلى فورمو مرة أخرى . لم يَبْدُ لها الأمر سهلاً . وكان أسوأ ما في الأمر أنها كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تقول أي شيء يمكنه أن يساعد أو يواسي أختها الشابة . بالنسبة إليها كان هذا الزواج من يامالت أوف آيلين سريعاً . . . ورامبورغ في تلك الحالة الذهنية التي هي عليها الآن . ولكن كريستين رأت أن ذلك لن يفيدها ذكره .

كانت رامبورغ كئيبة متذمرة ولم تجب على الأخرى إلا بالكاد . لم توافق إطلاقاً على أن تذهب ابنة زوجها إلى يوروندغارد . "ولا أعتقد أن الأمور شديدة الترتيب في ضيعتك إلى حد أنه سيكون من الممكن إرسال فتاة شابة إلى هناك ." أجابت كريستين برقة أن رامبورغ قد تكون على حق في ذاك . ولكنها وعدت سايمون بذلك . . .

"أجل ، وإن كان سايمون في هذيانه المحموم لم يفهم أن في طلبه هذا منك إهانة لي ، فأنت على الأقل يجب أن تعرفي أن في إبلاغي بذلك إهانة لي ." أجابت رامبورغ ، وكانت كريستين راغبة في العودة إلى منزلها بعد مهمتها غير المثمرة .

كان صباح اليوم التالي واعداً بطقس جميل . ولكن حين دخل أبناؤها لتناول وجبة الإفطار ، قالت كريستين إن عليهم أن يدخلوا التبن من دونها . فقد كانت ستنطلق في رحلة وربما ستغيب بضعة أيام . قالت : "أفكر في الذهاب شمالاً إلى دوفر إلى أبيكم" . أفكر في التوسل إليه أن ينسى المشاكل التي بيننا . . . ولأسأله متى سيعود إلى بيته وإلينا ."

تضرج وجه الأبناء . لم يتجرؤوا إلا بالكاد على رفع عيونهم ، ولكنها لاحظت جيداً كم كانوا سعداء . شدّت مونان إليها وقرّبت وجهها منه :

"أعتقد أنك لا تتذكر أباك إلا بالكاد يا صغيري؟"

أومأ الصبي برأسه صامتاً وبعينين لامعتين . ونظر الأبناء الواحد بعد الآخر إلى أمهم : كانت أكثر شباباً في الوجه وأجمل مما رأوها منذ سنوات كثيرة .

●

خرجت إلى الباحة بعد فترة قصيرة وقد ارتدت لأجل السفر ملابس الذهاب إلى الكنيسة : ثوب أسود صوفي مطرز بالأزرق والفضي من حول العنق والأكمام ، وعباءة سوداء بلا أكمام ولها قبعة ، فقد كان الوقت في عز الصيف . كان ناكفه وغاوته قد أسرجا جوادها لها وكذلك جواديهما . أرادا الذهاب مع أمهما ، ولم ترفض هي ذلك . ولكنها لم تحادث ابنيها وهم منطلقون شمالاً عبر الوادي وصعوداً إلى دوفر . في أغلب الأحيان كانت صامتة وفي حالة تأمل ، وإن تكلمت مع الشابين فكان ذلك عن أمور أخرى غير مهمتها .

حين وصلوا إلى مسافة يرون منها جانب الجبل وسقوف المنازل في هاوغن ، طلبت من الشابين العودة .

"تستطيعان أن تفهما جيداً أن أباكم وأنا لدينا الكثير لنقوله الواحد للآخر والأفضل أن نكون لوحدنا ."

أومأ الأخوان برأسيهما . ودّعا أمهما وعادا بجواديهما نحو البيت .

●

كانت الريح تهبّ من الجبال باردة ونقية على وجنتيها الحارتين وهي تصعد آخر تبة والشمس تشع بلون ذهبي على الأبنية الرمادية الصغيرة وترمي بظلال طويلة عبر الباحة . كان القمح هنا على وشك أن يُسَنْبِلُ . . . كان يظهر بشكل واضح في قطع الأرض الصغيرة ، وهو يومض ويتأرجح في الريح . فوق كل الأكوام الحجرية والتلال كانت أعشاب الخلاف قد أزهرت أزهاراً حمراء ، وفيما بينها كانت أكوام القش والتبن الصغيرة . ولكن في المزرعة لم يكن هناك شيء حي يمكن أن يُرى . . . ولا حتى كلب واحد تقدم ليعطي إنذاراً . أنزلت كريستين

السرج عن ظهر جوادها وقادته نحو جرن الماء . لم تكن راغبة في تركه حراً طليقاً هنا . . . لذلك قادته إلى الإسطبل . كانت الشمس تلتمع عبر ثقب كبير في السقف . . . وكانت عوارض السقف معلقة مهترئة من الأعمدة . لم تكن هناك علامة على أن أي حصان قد وقف هناك منذ زمن بعيد . اعتنت كريستين بحصانها ثم خرجت إلى الباحة ثانية .

نظرت إلى حظيرة البقر . كانت معتمة وفارغة . . . عرفت من رائحتها أنها مهجورة منذ زمن طويل .

كانت بعض جلود الحيوانات ممددة فوق جدار المنزل لتجف . . .وكان سرب من الذباب الأزرق يحوم فوقها ويطن وهي تقترب من الجدار . عند الجانب الشمالي من المنزل كانت التربة مكومة والخث منشور فوقها بحيث كانت الألواح الخشبية للمنزل مخفية تماماً . لقد فعل ذلك لأجل الدفء . . .

توقعت أن يكون المنزل مقفلاً ، ولكن الباب فتح حين وضعت يدها على المزلاج . لم يكن إرلند قد أوصد باب منزله حتى .

حين دخلت كان الهواء فاسداً إلى حد مزعج . . . كانت تلك رائحة الجلود المنتنة الفاسدة ورائحة إسطبل . كان أول شعور انتابها وهي واقفة هناك ضمن المنزل ندم وشفقة يحطمان القلب . بدا لها المسكن كأنه المأوى الشتوي لدبّ . . .

أوه أجل ، أجل ، أجل يا سايمون . . . كنت على حق!

كانت الغرفة صغيرة ، ولكنها كانت مزخرفة بعناية . وكانت ذات مرة جميلة . أما المدفأة فكانت لها مدخنة حجرية فوقها ، لذلك فهي لا تدخن ضمن الغرفة ، مثل المدفأة التي في مبنى القاعة في بيتها . ولكن حين حاول فتح الصمام لتهوية الغرفة من الهواء الفاسد ، شاهدت الأنبوب مسدوداً بألواح حجرية . كان اللوح الزجاجي للنافذة في الملحق مكسوراً ، وقد سدّ موضعه بقطع من القماش . كانت أرضية الغرفة من الخشب ولكنها مغطاة بطبقة سميكة من

القذارة حتى أن الألواح الخشبية ما كانت مرئية . فوق المقاعد لم تكن هناك وسادة واحدة إنما أسلحة وفراء وملابس قديمة مبعثرة في أرجاء المكان . كانت المائدة القذرة مغطاة ببقايا الطعام . كان الذباب يطن صاعداً نازلاً .

أجفلت ـ وقفت ترتجف ـ لاهثة الأنفاس بقلب يدق . ففي السرير البعيد . . . في السرير الذي كانت "هي" فيه حين كانت هنا لآخر مرة . . . كان هناك شيء ما مغطى بقماش صوفي خشن . لم تعرف هي نفسها ما فكرت فيه . . .

ثم صكت على أسنانها وأجبرت نفسها على الذهاب ورفع القماش . كان ذلك هو درع إرلند وخوذته وترسه . كانت مغطاة فوق ألواح السرير العارية .

نظرت نحو السرير الآخر . هناك وجدوا بيورن وآشيلد . وهناك كان إرلند ينام . . . وربما ستنام هي نفسها هناك هذه الليلة .

ولكن كيف يمكنه أن يسكن في هذا المنزل ، أن ينام فيه؟ ومن جديد فإن كل ما شعرت به غرق تحت الشفقة . ذهبت إلى السرير . . . لاحظت أنه لم يكن قد رتّب منذ أيام . كان القش تحت الشرشف الجلدي قاسياً كالحجارة من الاستخدام . لم يكن في السرير سوى جلود الغنم ، وزوج من الوسائد المغطاة بالقماش الصوفي الخشن ، وكانت قذرة إلى درجة النتانة . هطل الغبار والنفايات من السرير حين مدت يدها إليه . لم يكن مستراح إرلند أفضل من مستراح سائس خيل في إسطبل .

إرلند الذي لم تكن يعجبه العجب . إرلند الذي كان يرتدي تنورة حريرية ومخملاً وفراء فاخراً عند أقل مناسبة . . . الذي كان يغضب إذ رأى أولاده يرتدون ملابس من القماش الصوفي الخشن المغزول في البيت أيام العمل ، وما كان يرضى أن ترضعهم هي بنفسها أو تمدّ يد العون إلى الخادمات في الأعمال المنزلية . . . مثل زوجة فلاح ، كما كان يقول . . .

يا للمسيح . . . وكان هو نفسه الذي وصلت أحواله إلى هذا . . .

. . . كلا ، لن أقول كلمة واحدة . . . سأعود عن كل ما قلته . . . يا سايمون . لقد كنت على حق . . . لن يسكن والد أبنائي هنا . سأعرض عليه يدي وفمي وأتوسل إليه أن يغفر لي . . .

ليس هذا بالأمر السهل يا سايمون . ولكنك كنت على حق . . . تذكرت العينين الرماديتين الحادتين . . . نظراتهما الثابتة كما كانت دائماً ، حتى النهاية تقريباً . ومن الجسد البائس الذي كان قد بدأ يتهاوى ، كانت تلتمع عبر عينيه روحه النقية واللامعة ، حتى أُخذت روحه إلى بيتها كنصل سحب من المكان الذي غمد فيه . عرفت أن الأمر كان كما قالت رامبورغ . لقد أحبها طوال هذه السنوات كلها .

لم يمر يوم واحد طوال هذه الأشهر التي انقضت منذ وفاته وإلا فكرت فيه ، وقد بدا لها الآن أنها عرفت كل شيء قبل أن تنطق به رامبورغ . لقد دفعت في هذه المرة إلى أن تعود لتتذكر مجدداً كل ذكرى عن سايمون دار منذ أن عرفته . طوال هذه السنوات كانت تحمل عنه ذكريات مزيفة هو الذي كان أول خطيب لها . كانت تعبث بتلك الذكريات كما يعبث الحاكم الفاسد بالنقود ، فيمزج المعدن البخس بالفضة . حين حررها من التزام الخطوبة ورمى اللوم على نفسه في إنهاء الخطوبة . . . قالت في نفسها ، وصدقت ذلك ، إن سايمون أندرسون قد نأى بنفسه عنها في احتقار في لحظة أن عرف بعارها . لقد نسيت أنه حين حررها من الالتزام بالخطوبة ، في ذلك اليوم في حديقة الراهبات . . . فقد كان لا يفكر بها سوى على أنها طاهرة ونقية . ولكن حتى في ذلك الحين كان راغباً في أن يتحمل عار تقلّبها وتمردها . . . ولا يريد سوى أن يعرف أبوها أنه لم يكن هو من يريد فصم عرى العلاقة . . .

وقد عرفت هذا الآن أيضاً : حين عرف أسوأ ما كان في الأمر ، ووقف لينقذها أمام عيون العالم . . . ولو أنها لجأت إليه عند ذاك فإن سايمون كان

سيصطحبها إلى باب الكنيسة كزوجة له ، وكان سيسعى جاهداً إلى أن يعيش معها على نحو لا يجعلها تشعر بأنه يتذكر عارها .

ورغم ذلك فقد عرفت : ما كان ممكناً لها أن تحبه . ما كان ممكناً لها قط أن تحب سايمون أندرسون . . . ومع ذلك . . . فإن سايمون كان يتحلى بكل ما كان يفتقده إرلند وكانت هي تبحث عنه فيه . ولكن كان عليها إذن أن تكون امرأة مثيرة للشفقة حتى تتذمر من مصيرها . . .

لقد منحها سايمون بكرم لا حدود له . وقد اعتبرت هي أيضاً بكل تأكيد أنها فعلت الشيء نفسه . . .

ولكنها حين كانت تتلقى الهدايا من يديه دون تفكير أو امتنان ، كان هو يبتسم . ولقد فهمت الآن أنهما حين كانا يتواجدان معاً يكون هو حزين القلب . لقد عرفت الآن أنه وراء ذلك المظهر الثابت على نحو غريب كان هناك أسى مخفي . . . عندها كان يلقي بكلمات مازحة ويرمي بكل شيء جانباً ويقف مستعداً مرة أخرى ليحرس ويساعد ويمنح . . .

لقد كانت هي نفسها تغضب وتراكم وتتأمل في كل جرح . . . حين كانت تمدّ هداياها إلى إرلند وكان إرلند لا يراها . . .

هنا في هذه الغرفة وقفت وتلفظت بكلمات شجاعة . "لقد ضللت طريقي بإرادتي ، ولن ألوم إرلند قط على ذلك إذا ما قادنا الطريق إلى حافة الجرف" . لقد قالت ذلك للمرأة التي دفعتها إلى الموت حتى تفسح المجال أمام حبها .

أنّت كريستين عالياً ، وشبكت يديها أمام صدرها ، ووقفت وهي تهز جسدها . أجل . . . لقد قالت ذلك بعجز ، وكانت لن تلوم إرلند نيكولاوسون لو تعب منها وخانها أو حتى تخلى عنها . . .

أجل . . . ولو فعل إرلند ذلك . . . لقد بدا لها أنها كانت ستبقى على

عهدها . لو أنه خانها مرة وكان في ذلك نهاية للأمر كله ولكنه لم يخنها . . . بل أهملها ، أهملها وجعلها تعيش في خوف ولا استقرار . . . كلا ، لم يكذب عليها قط . ولكنه لم يكن يتحملها قط . . . ولم تكن هي لتجد نهاية لذلك : هاهي تقف الآن بعد أن جاءت لتتوسل إليه ليعود إليها ، ليملأ كأسها كل يوم حتى الثمالة بانعدام الثقة والقلق ، والتوقع العبثي والتوق والمخاوف والأمل الذي ينهار . . .

وبدا لها أنها متعبة منه الآن . لم تعد تتحلى بالشباب والشجاعة لتستطيع العيش معه بعد الآن . . . وربما لن تشيخ قط إلى حد أن إرلند لن يستطيع أن يلعب على حبها له . لم تعد شابة إلى حد تعيش معه بسعادة ولا مسنة إلى حدّ تحمله في صبر . لقد أصبحت امرأة صغيرة ضعيفة . . . وكان سايمون على حق . . .

سايمون . . . وأبوها . لقد كانا ثابتين في أمر واحد هو الحب المخلص لها ، وقد داست عليهما لأجل هذا الرجل الذي لم تعد تحتمله هي الآن . . .

أوه ، يا سايمون أعرف جيداً أنك لم تطلب الانتقام مني في أي وقت من الأوقات . ولكني أتساءل يا سايمون! إن كنت حيث ترقد لا تعرف أنك قد انتقمت جيداً الآن . . .

•

كلا ، عليها أن تشغل نفسها بشيء ما ، وإلا فإنها لن تتحمل الأمر . رتّبت السرير . بحثت عن ممسحة ومكنسة ولكن تبين أن مثل هذه الأشياء لم تكن موجودة في البيت . نظرت في الحجرة الصغيرة . . . والآن عرفت من أين كانت تأتي رائحة الإسطبل . كان سايمون قد جعل مربط حصانه هناك . ولكن الأرضية هنا كانت ممسوحة ونظيفة . السرج وعدة الركوب المعلقة على الجدار كانت في حال جيدة ومشحّمة . أما التمزقات فيها فكانت مصلّحة .

ومن جديد طردت الشفقة كل الأفكار بعيداً . هل جلب "سوتن" إلى هناك لأنه لم يكن يتحمل العيش وحيداً في المنزل . . .؟

●

سمعت كريستين خطوات في المشرقة . سارت نحو زجاج النافذة . . . كان الغبار سميكاً عليها وكذلك بيوت العناكب ، ولكنها فكرت في أنها ترى امرأة على نحو غير واضح . سحبت القماشة وحدقت . كانت هناك امرأة تضع أرضاً تنكة حليب وبعض الجبن . كانت هرمة وعرجاء وقبيحة في ملابس رثة . لم تدرك كريستين إلا بالكاد كيف تنفست الصعداء .

رتبت الغرفة على أفضل نحو تستطيعه . وجدت الكتابة التي نحتها بيورن غونارسون على جذع شجرة في الجدار الطويل . . . كانت باللاتينية ، ولم تستطع قراءتها كلها ، ولكنه ذكر نفسه على أنه (دومينوس إت ميليس) ، وقد ذكر اسم ضيعة أبيه في إلفيسيسل والتي خسرها لأجل آشيلد غاوتسداتر . بين المنحوتات الجميلة على الكرسي العالي كان ترسه الذي يحمل شعار وحيد القرن وأوراق الليلك .

●

بعد فترة فكرت كريستين أنها سمعت صوت حصان في مكان ما في الخارج . ذهبت إلى الغرفة الخارجية وأطلّت منها .

من المنحدر المغطى بغابة فوق المزرعة وصل حصان أسود طويل وقد ربطت إليه كومة من الحطب . كان إرلند يمشي إلى القرب منه ويقوده . كان هناك كلب يجلس فوق الحطب . أما الكلاب الأخرى فكانت تعدو من حول الزلاجة .

شدّ "سوتن" ، الجواد القشتالي ، طوقه وراح يشد زلاجة الحطب فوق مرج باحة المنزل . اندفع أحد الكلاب نازلاً المنحدر وهو ينبح . . . لاحظ إرلند الذي كان يفك طقم الجواد استثارة الكلاب فعرف أن شيئاً ما قد حدث . تناول فأس

الحطب من فوق الحمولة وسار نحو المنزل . . .

هربت كريستين إلى الداخل وأسقطت السقاطة خلفها . انكمشت عند جدار المدفأة ووقفت ترتجف وتنتظر .

دخل إرلند والفأس في يده والكلاب تتعثر عند العتبة أمامه وخلفه . وجدت الكلاب المتطفلة فوراً وحيّتها بعاصفة من النباح . . .

أول ما رأت كان موجة الدم الشاب الأحمر الذي اندفع إلى وجهه . . . والرجفة المتراقصة حول فمه الجميل الضعيف ، والعينين الواسعتين العميقتين في ظل الحاجبين . . .

بهرت رؤيته أنفاسها . لقد رأت بالفعل لحيته النامية وشعره الأشعث الرمادي . . . ولكن اللون في وجنتيه كان يأتي ويذهب في نبضات سريعة ، كما كان عليه الأمر حين كانا شابين . . . كان شاباً وسيماً جداً ، وكأن لا شيء يمكنه أن يقمعه . . .

كان يرتدي ملابس بائسة . . . قميصه الأزرق قذر ومهترئ . ومن فوقه كان يرتدي سترة جلدية مليئة بالندوب ومهترئة وممزقة عند ثقوب التخريمات ، ولكنها ضيقة ومتكيفة مع الحركات القوية والرشيقة لجسده . كان بنطاله الجلدي الضيق ممزقاً فوق إحدى الركبتين وكانت الدرزة خلف الساق الأخرى منفتقة . ومع ذلك فإنه لم يبد قط أكثر مما يبدو الآن ابناً لزعماء ونبلاء . كان يحرك جسده الرشيق الطويل بسهولة ولياقة ولكن الكتفين العريضين أصبحا محنيين قليلاً ، والأطراف الطويلة الرشيقة . . .وقف هناك وهو يرتاح قليلاً على قدم واحدة ، ويده على حزامه حول خصره الرشيق ، والأخرى الحاملة للفأس مدلاة إلى جانبه .

كان قد استدعى الكلاب ـ ووقف ينظر إليها ـ احمر وجهه ثم شحب ولم يقل ولو كلمة واحدة . وقفا كلاهما دون كلام فترة من الوقت . وأخيراً قال الرجل بصوت مرتجف قليلاً :

"هل أتيت إلى هنا يا كريستين؟"

أجابت : "كنت أود أن أرى كيف هي أحوالك ."

" حسناً ، لقد رأيتها إذن" . ألقى نظرة من حول الغرفة . "ترين أن الأمور جيدة معي هنا إلى حد معقول . . . جيد أنك حضرت في يوم كان فيه منزلي منسقاً ومرتباً . . . " أحس بظل ابتسامة على وجهها . " . . . أو ربما كنت أنت من رتبه" ، قال وهو يضحك ضحكة خفيفة .

وضع إرلند الفأس جانباً وجلس على المقعد الخارجي وظهره مسند إلى المائدة . وفجأة أصبح جدياً :

" أراك تقفين هناك على هذا النحو . . . هل هناك ما هو على غير ما يرام في المنزل . . . في يوروندغارد أعني . . . فيما يخص الشبان؟"

"كلا" . والآن كان دورها لتحكي له ما عليها أن تحكيه : "أبناؤنا بخير . ولكنهم يفتقدونك يا إرلند . هذه مهمتي . . . لقد جئت إلى هنا يا زوجي لأتوسل إليك أن تعود إلى البيت إلينا . كلنا نفتقدك . . . " أغضت من بصرها .

"تبدين في حال جيدة على أي حال يا كريستين . . . " نظر إرلند إليها بابتسامة صغيرة .

وقفت كريستين وقد تضرج وجهها كأنه صفعها :

"ليس لأجل ذلك . . ."

"كلا ، أعرف أنه ليس لأنك تعتبرين نفسك شابة ونضرة إلى حد لا تستطيعين معه أن تعيشي كأرملة" ، تابع إرلند . "أعتقد أنه لا فائدة كبيرة من عودتي إلى البيت يا كريستين" ، قال على نحو أكثر جدية . "بين يديك كل شيء يسير على ما يرام في يوروندغارد ، وأنا أعرف ذلك . . . لديك حظ فيما تفعلينه . وأنا راضٍ تماماً بالحياة التي أحياها هنا ."

"هذا ليس جيداً للأولاد . . . أن نكون على خلاف" ، أجابت بصوت خفيض .

"أوه . . ." تمهل إرلند عند هذه الكلمة . "إنهم لا زالوا صغاراً في السن ولا أستطيع أن أصدق أنهم سيصدمون إلى حد أنهم لن ينسوا الأمر بعد أن يخلفوا طفولتهم وراءهم . لا يهمني لو قلت لك إني أقابلهم بين الحين والآخر . . . " قال ذلك بابتسامة صغيرة .

كانت تعرف ذلك . . . ولكنها شعرت وكأن في الأمر إهانة لها ، وأحست أنه كان يقصد ذلك . . . لقد ظن أنها لا تعرف بالأمر . لم يكن الأبناء يعرفون أنها تعرف . ولكنها أجابت بجدية :

"إذن فأنت تعرف أيضاً أن هناك أموراً كثيرة في يوروندغارد ليست كما يجب أن تكون . . . "

"نحن لا نتحدث إطلاقاً عن مثل هذه الأمور" ، قال مبتسماً كما من قبل . "نذهب للصيد معاً . . . ولكن لا بد أنك جائعة وظمآنة" . . . قفز من مكانه . "وأنت واقفة أيضاً . . .كلا ، اجلسي في الكرسي العالي يا كريستين . أجل ، افعلي ذلك يا حبيبتي! سأخدمك لعندك . . ."

أحضر الحليب والجبن وأخرج الخبز والزبدة ، واللحم المقدد . كانت كريستين جائعة وإن تكن أشد ظمأ ، ولكنها قد وجدت من الصعب عليها ابتلاع الطعام . أما إرلند فأكل بسرعة ودون تهذيب كما كان دأبه حين لا يكون مع غرباء . . . سرعان ما انتهى من طعامه .

تحدث عن نفسه في تلك الأثناء . كان الناس في سفح الجبل يفلحون أرضه ويحضرون له الحليب والقليل من الطعام . . . وقد كان يقضي معظم أوقاته في الجبال وهو يصيد الحيوانات أو الأسماك . وعلى أي حال ، قال فجأة إن لديه بعض الأفكار حول السفر بعيداً ليعمل في خدمة زعيم أجنبي . . .

"أوه كلا يا إرلند!"

نظر إليها بسرعة .

ولكنها لم تقل شيئاً آخر . بدأ الظلام يحل بالغرفة . . . كان وجهها وغطاء رأسها الكتاني يلمعان بشحوب أمام الجدار المعتم . نهض إرلند وأشعل ناراً في المدفأة . ثم جلس منحرفاً فوق المقعد الخارجي ، والتفت إليها . كان الوهج الأحمر من النار يتراقص فوق وجهه .

ولكن كيف يستطيع حتى أن يفكر في مثل هذا الأمر! كان الآن في سن أبيها حين توفي ذاك . ومع ذلك فقد كان أمراً قابلاً للتصديق بما فيه الكفاية أنه سيفعلها في أحد الأيام . . . ويركض وراء نزوة كهذه بحثاً عن مغامرات جديدة . . . قالت الزوجة بقوة : "ألا تعتقد أن هذا كاف ؟ أليس كافياً أنك تخليت عن الأبرشية وأبنائك وعني أنا . . . هل ستهرب من البلاد ومنّا الآن ؟"

"لو كنت أعرف أفكارك عني يا كريستين" ، قال إرلند بجدية "لكنت غادرت ضيعتك منذ زمن طويل . ولكني أفهم الآن أنك اضطررت إلى تحمل الكثير مني . . ."

"تعرف جيداً يا إرلند . . . تقول إنها ضيعتي أنا ، ولكن لك حقك كزوجي في كل ما هو ملك لي ." لاحظت كم كان صوتها ضعيفاً

أجاب إرلند : "أجل ، ولكني أعرف أني كنت زوجاً سيئاً"صمت برهة ." ناكفه – أعني في الوقت الذي لم يكن قد ولد فيه بعد – قلت عنه إنك حملته تحت حزامك وهو الذي سيجلس في الكرسي العالي من بعدي . أرى الآن يا كريستين – أن الأمر كان صعباً عليك – فالأفضل ترك الأمور كما هي الآن . وأنا ناجح جيداً في حياتي هذه . . ."

نظرت كريستين فيما حولها في الغرفة التي بدأ الظلام يخيم عليها ، وارتجفت . . . ملأت الظلال كل زاوية الآن ، وراح النور القادم من المدفأة يتراقص . . .

قالت وهي تكاد تغرق في الحزن : "لا أفهم أنك تستطيع السكن في هذا

المنزل . ليس لديك ما تفعله هنا ولا أحد في صحبتك . . . على الأقل يمكنك استقدام خادم على ما أعتقد . . ."

"أتعنين أن عليّ أن أعمل في المزرعة بنفسي . . .؟" ضحك إرلند . "أوه كلا ، يا كريستين ، لا شك أن عليك أن تعرفي كم أنا غير ملائم للعب دور المزارع . لا أستطيع الجلوس بهدوء . . ."

"بهدوء . . . لاشك أنك تجلس بهدوء كاف الآن . . . طوال الشتاء . . ."

ابتسم إرلند لنفسه وعيناه بعيدتان وغريبتان :

"أجل ، حين يكون الأمر كذلك . . . حين لا أحتاج إلى التفكير في أي شيء سوى ما يجري في رأسي . . . أستطيع الذهاب والمجيء كما يحلو لي . . . وأنت تعرفين جيداً . . . كان الأمر هكذا على الدوام معي ، أنه حين لا يكون هناك شيء أستيقظ لأجله ، أستطيع أن أنام . . . أنام كدبّ في وجاره الشتوي حين لا يكون الطقس ملائماً في الجبال . . ."

همست كريستين : "ألست خائفاً من أن تكون وحيداً هنا ؟"

في البداية نظر إليها وكأنه لم يفهم . ثم ضحك :

"أتعنين بسبب أن الناس يقولون إنه مسكون بالأشباح ؟ لم ألاحظ شيئاً قط . أحياناً تمنيت لو يزورني قريبي بيورن ، أتذكرين أنه قال مرة إنه يعتبر أني لا أتحمل أن أحس بحد الخنجر على رقبتي . لو زارني لاستطعت أن أجيب ذلك الفارس الآن بأني لم اكن خائفاً جداً حين كان الحبل حول عنقي . . ."

مرت رعدة طويلة عبر جسد المرأة . جلست هناك صامتة .

نهض إرلند .

"أعتقد أن الوقت قد حان للراحة يا كريستين ."

راقبت إرلند وهي متيبسة وباردة وهو يرفع الغطاء الذي كان فوق الدرع ، وينشره فوق السرير ثم يقلبه فوق الوسائد القذرة . قال : "هذا أفضل ما لديّ" .

"إرلند !" شبكت بيديها تحت صدرها . راحت تبحث عن شيء ما تقوله له بعد . . . كانت خائفة جداً . ثم تذكرت المهمة التي عليها إنجازها .

"إرلند . . .لديّ رسالة أحملها إليك . لقد رجاني سايمون وهو يحتضر أن أبلغك تحياته وأنه ندم في كل يوم على الكلمات التي تلفظ بها تجاهك حين افترقتما آخر مرة . سمى تصرفه بأنه غير رجولي . . . وقد توسل أن تسامحه عليها ."

"سايمون" ، وقف إرلند ممسكاً بعمود السرير بيد واحدة وهو يحدق إلى الأرض . "إنه الرجل الوحيد الذي لا أحب أن يذكرني به أحد" .

قالت كريستين : "لا أعرف ما كان بينكما ." بدت لها كلمات إرلند قاسية إلى حد غريب ." ولكن من الغريب وغير المألوف من سايمون لو كان الأمر كما قال ، أنه تصرف على نحو يدل على صغر العقل في تعامله معك . إن كان الأمر كذلك . . . فاعتقد أن اللوم لا يقع كله عليه ."

هزّ إرلند رأسه : "لقد وقف إلى جانبي كأخ حين كنت في أمس الحاجة إلى العون" قال بصوت خفيض . "وقد نلت من يديه العون والصداقة ، ولم أعرف أنه كان طوال الوقت لا يتحملني إطلاقاً . . ."

" . . .أعتقد أنه كان من السهل العيش في الأزمان القديمة حين كان شخصان مثله ومثلي يتبارزان . . . يتقابلان على أرض منبسطة ويحتكمان إلى السلاح حول من سيفوز بيد الفتاة الشقراء . . ."

تناول عباءة قديمة من المقعد ولفها حول ذراعه :

"ربما تفضلين أن تكون الكلاب إلى جانبك الليلة ؟"

نهضت كريستين :

"إلى أين تمضي يا إرلند ؟"

"خارجاً إلى مخزن التبن لأنام هناك . . ."

"كلا . . .!" توقف إرلند . . . وقف هناك مستقيماً ورشيقاً وشاباً في النور الأحمر الضعيف القادم من الجمر الآخذ بالانطفاء . "لا أجرؤ على النوم وحدي في هذا المنزل . . . لا أجرؤ . . . "

".أتجرؤين على النوم بين ذراعي إذن ؟"

شاهدت ابتسامته عبر نور الغسق .

"ألا تخشين أن أسحقك حتى الموت يا كريستين . . .؟"

"أتمنى ذلك . . .!" وغرقت بين ذراعيه .

●

حين استيقظت ، عرفت من زجاج النافذة أن النهار قد حل . كان هناك شيء يضغط بثقل على صدرها . . . كان إرلند ينام ورأسه على كتفها . وكان يضع ذراعه فوقها ويده حول ذراعها اليسرى .

نظرت إلى الشعر الرمادي للرجل . شاهدت ثدييها الصغيرين المنكمشين . . . من فوقهما وتحتهما المنحنيات المقوسة العالية لأضلعها البارزة تحت غطاء رقيق من اللحم . وانتابها نوع من الفزع ، بينما راحت الذكرى تتبع الذكرى من الليلة الفائتة . في هذا المنزل ـ هما الاثنان ما عادا شابين ـ لقد انتابها العار والقلق حين رأت البقع المزرقة على ذراعيها ، ذراعي الأم اللتين أنهكهما العمل ، وصدرها المنكمش . وبجنون أمسكت بغطاء السرير وكانت تود أن تغطي نفسها . . .

استيقظ إرلند واتكأ على مرفقه ، وحدق إلى وجهها . . . كانت عيناه سوداوين كالفحم من النوم :

"ظننت . . ." رمى بنفسه إلى القرب منها مجدداً . سرى فيها رعب عميق مجنون من الابتهاج والخوف اللذين كانا في صوته . " . . .ظننت أني حلمت مجدداً . . . "

ضغطت بشفتيها الفاغرتين على فمه وطوقت بذراعيها عنقه . لم يكن الأمر يحمل كل هذه السعادة أبداً من قبل . . .

●

في وقت العصر حين كانت الشمس قد سبق لها واصفر لونها وأصبحت الظلال طويلة فوق الباحة الخضراء ، انطلقا إلى النهر لجلب الماء . حمل إرلند الدلوين الكبيرين . مشت كريستين إلى جانبه رشيقة ومستقيمة الظهر ولدنة . كان غطاء رأسها الكتاني قد انزلق وأصبح فوق كتفيها والتمع شعرها حاسراً وبنياً تحت نور الشمس . أحست بذلك هي نفسها هي أغمضت عينيها ورفعت وجهها أمام النور . . . لقد تورد خداها ورقت خطوط وجهها . وكلما نظرت إليه كانت نظرتها ترتد إليها مغلوبة . . . حين كانت ترى في وجه إرلند كم هي شابة .

فكر إرلند بالاستحمام . وبينما تقدم نزولاً مع مجرى النهر ، جلست كريستين على المرج الأخضر وقد أسندت ظهرها إلى صخرة . كان النهر الجبلي الصغير يخرخر ويقرقر فيجعلها الصوت تشعر بالنعاس . . . وبين الحين والآخر حين كان البعوض والذباب يلمس بشرتها ، كانت تفتح عينيها قليلاً وتبعده عنها . بين شجر الصفصاف من حول البركة تحت جسد إرلند الأبيض . . . كان واقفاً وقد وضع قدمه فوق صخرة وراح يفرك نفسه بخصل من الأعشاب . أغمضت عينيها من جديد ثم ابتسمت في تعب مترع بالسعادة . كانت من جديد بلا حول أو قوة أمامه كما كانت دائماً . . .

وصل الرجل ورمى بنفسه على العشب أمامها بشعر مبلّل وبرودة الماء فوق فمه الأحمر حين ضغط به على كف يدها . كان قد حلق لحيته ولبس قميصاً أفضل . . . ولكن هذا القميص لم يكن جيداً جداً . أمسك ضاحكاً بالقميص من تحت الإبط لأنه كان ممزقاً هناك :

"كان يمكنك أن تحضري لي قميصاً حين وصلت إلى الشمال هنا أخيراً ."

"سأخيط لك قميصاً ما أن تأتي إلى البيت يا إرلند" ، أجابت مبتسمة ومررت بيدها عبر جبينه . قال وهو يشهق :

"لن ترحلي من هنا مرة أخرى يا كريستين . . . "

ابتسمت ولم تجب بشيء . أبعد إرلند نفسه قليلاً ، وهو نائم فوق بطنه . تحت الشجيرات في الظل الرطب كانت تنمو زهور بيضاء صغيرة نجمية الشكل . كان أوراق الزهرة مجزّعة بالأزرق مثل صدر امرأة . في وسط كل برعم كان زر ذو لون أزرق بنّي . قطفها إرلند كلها :

"أنت العارفة بهذه الأمور يا كريستين . أتعرفين اسم هذه الزهور على ما أعتقد ؟"

"إنها عشبة الفريجيا (٤) . . . كلا يا إرلند . . . " احمر وجهها وأبعدت يده وهو يحاول إقحام البراعم في صدرها .

ضحك إرلند وعضّ بخفة البتلات البيضاء واحدة إثر أخرى . ثم وضع كل البراعم في يدها المفتوحة وأغلق أصابعها فوقها :

"أتذكرين يوم تمشينا في حديقة هوففين سبيتال . . . حين أعطيتني زهرة ؟"

هزت كريستين رأسها ببطء وهي تبتسم قليلاً :

"كلا . ولكنك أخذت زهرة من يدي ."

"وقد سمحت لي بأخذها . وكذلك سمحت لي بأخذك يا كريستين . . . ضعيفة ورقيقة كالزهرة . . . ولاحقاً وخزتني أحياناً حتى خرج الدم يا حلوتي ." رمى بنفسه على حضنها ووضع ذراعيه من حول خصرها . "في الليلة الماضية يا كريستين . . . لم يكن هناك من فائدة . . . لم تتهربي بالجلوس والانتظار بخنوع . . . "

أحنت كريستين رأسها وخبأت رأسها في كتفه .

●

في اليوم الرابع كانا قد لجأا إلى غابة البتولا بين الأكمات الصغيرة فوق المزرعة . ففي ذلك اليوم كان المزارع المستأجر سيحمل التبن . ودون التطرق إلى الموضوع كانت كريستين وإرلند متفقين على أنه لا حاجة لأحد بأن يعرف بأنها كانت معه . نزل إلى البيت مرة أو مرتين لإحضار الطعام والشراب ، ولكنها جلست ضمن نباتات الخلنج بين أشجار البتولا القصيرة . من حيث كان يجلسان استطاعا أن يريا الرجل والمرأة يشقان طريقهما إلى البيت وهما يحملان أكواماً من التبن على ظهريهما .

قال إرلند : "أتذكرين تلك المرة التي وعدتني بها أنه حين أنهي عملي كمزارع صغير بين الجبال عندها ستأتين وترعين شؤون منزلي! ستكون لك بقرتان وبعض الأغنام والماعز . . . ؟"

ضحكت كريستين بصوت خفيض وهي تداعب شعره :

"ما سيقوله أولادك يا إرلند لو أن أمهم هربت من الأبرشية وتخلت عنهم على هذا النحو . . . ؟"

"أعتقد أنهم سيكونون سعداء بما فيه الكفاية في يوروندغارد" ، قال إرلند ضاحكاً . "لقد كبروا بما فيه الكفاية . تعرفين جيداً أن غاوته مزارع جيد ، رغم صغر سنه . وناكفه رجل تقريباً ."

"أوه كلا" . ضحكت الأم بهدوء . "صحيح أنه يفكر بنفسه على أنه رجل . . . أجل ، خمستهم يظنون ذلك على ما أعتقد . . . ولكنه يفتقر إلى حكمة الرجال . . . "

"لو كان سيسير على هدى أبيه ربما لن يصل إلى الحكمة إلاّ متأخراً أو لن يصل إليها أبداً" ، أجاب إرلند . ابتسم بخبث : "أتعتقدين أنك ما زلت تستطيعين إخفاء أولادك خلف تنورتك يا كريستين . . . ناكفه أنجب ابناً هنا هذا الصيف . . . لا تعرفين ذلك على ما أعتقد ؟"

"كلا . . . !" جلست كريستين وقد تضرج وجهها وأصيبت بالذهول .

"أجل ، ولكنه ولد ميتاً . . . وأعتقد أن الشاب سيفكر مرتين قبل أن يحضر إلى هنا مرة أخرى . . .كانت تلك أرملة ابن بال ، هنا في هاوغسبركن . قالت إن الطفل طفله ، وهو على ما أعتقد لم يكن كذلك مهما كان الأمر . أجل ، لقد أصبحنا كهلين أنت وأنا الآن . . . "

"هل تستطيع التكلم على هذا النحو حين يكون ابنك قد جلب على نفسه المشاكل والعار ؟" لقد جرحها حتى الصميم أن الرجل يستطيع أن يتحدث بكل هذه الخفة . . . وأن الأمر بدا له كنكتة لم تعرف بها .

سألها إرلند كما من قبل : "أجل ما الذي تريد مني قوله؟ الشاب في الثامنة عشرة من عمره . أنت ترين بنفسك الآن أنه لن يفيدك كثيراً أن تواظبي على مراقبتك لأبنائك وكأنهم مجرد أطفال . طالما جئت إلى هنا إليّ ، علينا أن نجد له زوجة . . . "

"أتظن أنه أمر سهل أن تجد لناكفه عروساً ملائمة ؟ كلا يا زوجي ، بعد هذا عليك أن تحضر إلى البيت معي لتساعدني في توجيه الشبان ."

اتكأ إرلند بحدة على مرفقه :

"لن أفعل ذلك يا كريستين . أنا غريب في منطقتك وسأكون كذلك دائماً . . . لا يوجد رجل هناك لا يعتبرني خائناً للملك والبلد . ألم تفكري في كل تلك السنوات التي عشتها في يوروندغارد في أنني أعيش قلقاً مضطرباً . . . في بيتي في سكاون كنت معتاداً على الاعتماد على شيء ما بين الناس . وحتى في ذلك الحين - في شبابي - حين كانت حكاية حياتي الآثمة قد انتقلت إلى الخارج ، حين كنت محروماً من الكنيسة . . . ومع ذلك كنت إرلند نيكولاوسون أوف هوسابي ! ثم حان ذلك الوقت الذي أتيح لي فيه أن أظهر لأولئك الناس هناك ، شمال الجبال ، أني لم أكن غير جدير بحمل اسم أجدادي . . . كلا ، هنا

في هذه المزرعة الصغيرة أنا رجل حر . . . ليس هناك من يشده من أفعالي أو يغتابني . اسمعيني يا كريستين ، يا حبي الوحيد . . . أبقي معي! لن تندمي على ذلك . هنا السكن أفضل من هوسابي في أي يوم . لا أعرف السبب يا كريستين . . . إلا أنني لم أكن قط سعيداً أو مرحاً هناك ، ولا حتى حين كنت طفلاً ، ولا بعد ذلك . كان الوقت جحيماً حين كانت إلين معي ، ولم تكوني أنت أو أنا سعيدين معاً هناك . . . ولكن الرب كلي القدرة يعرف أني أحببتك في كل يوم وكل ساعة منذ عرفتك . لقد كانت تلك الضيعة مسحورة . . . لقد اختنقت أمي حتى الموت هناك ، وكان أبي رجلاً تعيساً على الدوام . هنا الوضع جيد يا كريستين . . . لو تكونين معي فحسب ، يا كريستين . . . وكما أنه حق أن الرب مات من أجلنا على الصليب ، فإني أعتبرك عزيزة علي اليوم كما كنت في تلك الليلة التي نمت فيها تحت عباءتي . . . الليلة التي تلت يوم قداس مارغريت . . . وقد جلست ورحت أنظر إليك ، زهرة نقية ونضرة وشابة لم يمسسها أحد ."

أجابت كريستين بصوت خفيض :

"أتذكر يا إرلند أيضاً أنك توسلت في تلك الليلة ألاّ أذرف دمعة واحدة من أجلك . . . "

"أجل . . . والرب وكل القديسين في السماء يعرفون أني قد عنيت ذلك ! صحيح أن ما حدث كان مخالفاً لذلك - ربما كان لا بدّ من ذلك - وربما يحدث ذلك ونحن نقطن في هذا المسكن الدنيوي . ولكني أحببتك حين سببت لك الأذى وحين فعلت ما هو صالح لك . ابقي هنا يا كريستين . . . "

سألت بلطف كما من قبل : "أولم تفكر بهذا ؟ أنه من شأنه أن يجعل مصير أبنائك صعباً لأن لديهم أباً يجري الحديث عنه ؟ لا يمكنهم الهرب جميعاً من حديث الأبرشية ، السبعة منهم . . . "

نظر إرلند إلى الأرض ثم قال :

"لا زالوا صغاراً في السن ووسيمين وشجعاناً . . . وسوف يشقون طريقهم . . . نحن يا كريستين ليست لدينا سنوات كثيرة أمامنا قبل أن نصبح عجوزين شائبين . . . هل تضيعين هذا الوقت بينما أنت لا تزالين جميلة ونضرة وقادرة على التمتع بالحياة ؟ يا كريستين . . . ؟"

أطرقت ببصرها أمام الشعاع المدوّخ في عينيه . وبعد برهة قالت :

"هل نسيت يا إرلند أن اثنين من أبنائنا لا زالا مجرد طفلين ؟ ما رأيك في قيمتي وقدري لو تخليت عن لافرانس ومونان . . . ؟"

"عليك أن تحضريهما إلى هنا إذن . . . إن لم يكن لافرانس يفضل البقاء مع أخواته . وهو ليس بالصبي الصغير أيضاً . . . هل لازال مونان جميلاً كما كان ؟" سأل الأب مبتسماً .

"أجل ، إنه طفل جميل ."

بعد ذلك جلسا صامتين طويلاً . وحين تكلما مجدداً فقد كان عن موضوع آخر .

•

استيقظت في غبش الفجر من صباح اليوم التالي كما كانت تستيقظ كل صباح هنا . . . وسمعت الجياد تضرب بحوافرها على جدار المنزل . كان رأس إرلند بين ذراعيها . في الصباحات الأخرى حين كانت تستيقظ في ساعة مبكرة كان ينتابها الخوف والعار اللذان انتاباها في أول صباح . . . وكانت تحاول خنقهما . أولم يكونا زوجين شرعيين في خصام وقد تصالحا الآن ؟ هل يمكن أن يحدث للأولاد ما هو أفضل من أن يتصالح أبوهما وأمهما مجدداً ؟

ولكن في هذا الصباح كانت تحاول جاهدة أن تتذكر أولادها . أحست كأن هناك سحراً حلّ عليها . . . وأن إرلند قد اصطحبها مباشرة من الغابة في

غيردارود ، حيث عانقها لأول مرة ، إلى هنا . كانا شابين جداً . . . ما كان صحيحاً أنها قد حملت وأنجبت لهذا الرجل سبعة أبناء ، وأنها أم لشبان طوال ناضجين . . . بدا وكأنها رقدت هنا بين ذراعيه وحلمت بالسنوات الطوال التي عاشاها معاً كزوجين في هوسابي . . . كل كلماته الطائشة أغوتها وراحت تتردد كالصدى في داخلها . . . كانت تشعر بالدوار من الخوف وأحست كأن إرلند قد أزاح عنها العبء السباعي لهمها . . . هكذا ستحس لابد المهرة الصغيرة حين تقف دون سرج على مرعى السايتر . . . بعد أن يكون الطقم والسرج والعدة قد أنزلت عنها . راحت تهب عليها رياح الأراضي المرتفعة . لقد تحررت لترعى عشب الجبال الطري ، وهي حرة في التجول كما تشاء فوق الأراضي المرتفعة .

وفي الوقت نفسه راحت تتوق بعذوبة وشوق إلى أن تحمل عبئاً جديداً . لقد سبق لها وتاقت بدوار رقيق صغير نحوه الذي سيسكن قرب قلبها فترة أشهر تسعة . لقد عرفت ذلك على نحو مسبق منذ أول صباح استيقظت فيه هنا بين ذراعي إرلند . ومع الحمى القوية الجافة الحارقة في ذهنها ، غادرها البوار . كانت تحمل طفل إرلند في رحمها ، وبصبر نافد رقيق إلى حد غريب امتدت روحها نحو المستقبل ، نحو الساعة التي ستلد فيها الطفل .

أبنائي العظام هؤلاء ليسوا في حاجة إليّ ، هكذا فكرت . أنا بالنسبة إليهم امرأة خرفة ومزعجة . سأقف في طريقهم فحسب الطفل الصغير وأنا . كلا ، لا أستطيع الابتعاد عن هنا . . . علينا أن نقيم هنا مع إرلند . لا أستطيع الرحيل . . .

ومع ذلك ، وحين كانا جالسين لتناول الفطور ، فقد قالت له إن عليها الذهاب الآن إلى البيت إلى أولادها .

كانت تفكر في لافرانس ومونان . كانا قد كبرا الآن إلى حد أنها شعرت بالخجل حين فكرت فيهما وهما يعيشان هنا مع إرلند ومعها ، وربما ينظران بعيون

متسائلة إلى أبيهما وأمهما وقد عادا شابين مجدداً . ولكن هذين ما كانا قادرين على تدبير نفسيهما بدونها .

جلس إرلند يحدق إليها وهي تتحدث عن رحلتها إلى البيت . وأخيراً قال بابتسامة صغيرة :

" أجل . . . إن كانت هذه إرادتك فعليك بالرحيل إذن!"

●

استعد ليرافقها في رحلتها . وقد ركب معها عبر الوادي إلى "سيل" ، حتى لمح سقف الكنيسة فوق قمم أشجار الصنوبر . ثم ودعها . في النهاية كان لا يزال مبتسماً ابتسامة آمنة إلى حد خبيث .

"أجل ، تعرفين جيداً يا كريستين . . . سواء جئت ليلاً أو نهاراً . . . سواء انتظرتك وقتاً قصيراً أو طويلاً . . . فسأرحب بك كأنك (ملكة السماء) وقد نزلت إلى مزرعتي من السماء . . . "

ضحكت :

"أجل ، في هذه المسائل الكبرى لا أتدخل . ولكني أعتقد أنك تعرف الآن يا حبيبي ، أن فرحتي ستكون كبيرة بك في بيتك في اليوم الذي يعود فيه السيد إلى منزله ."

هزّ رأسه ضاحكاً قليلاً . وقد ودع كل منهما الآخر بابتسامة . انحنى إرلند وهما جالسان على جواديهما الواحد إلى جانب الآخر وقبلها مرات كثيرة ، وبين القبل كان ينظر إليها بعينين ضاحكتين .

قال أخيراً : "سنرى إذن أي منا نحن الاثنين هو الأكثر عناداً ، يا كريستين الحلوة . سيكون هذا آخر لقاء لنا . . . أنت وأنا نعرف هذا جيداً !"

حين مرت بالكنيسة انتابها رعدة صغيرة . كأنما كانت تعود إلى البيت من "قاعة الملك الجبلية" ، وكأن إرلند كان "ملك الجبل" نفسه ، ولا يستطيع المرور

عبر الكنيسة والصليب الذي فوق المرج .

شدت اللجام . . . وكادت تعود لتلحق به .

ثم نظرت عبر المنحدرات الخضراء المعشبة إلى ضيعتها الجميلة ذات المروج والحقول المحروثة والنهر المنحدر في التفافات لامعة عبر "ديل" . كانت الجبال تبرز في سديم أزرق دافئ . . . والسماء مليئة بغيوم صيفية متموجة . كان جنوناً . هناك في البيت مع أبنائه كان مكانه . لم يكن فارساً من حكاية خرافية . . . بل رجلاً مسيحياً مترعاً بأمزجة جنونية ونزعات طائشة . زوجها الشرعي الذي تحملت منه الخير والشر . . . عزيز ، عزيز عليها كما عذبها بخيالاته المحلقة . عليها تحمله . وبما أنها لن تستطيع أن تعيش بدونه فعليها أن تناضل وتعاني من الخوف وانعدام الأمان على أفضل نحو تستطيعه ولن يطول به الأمر قبل أن يعود . . . بعد أن كانا معاً من جديد .

-٦-

قالت لأولادها إن على أبيهم أن يرتب أمراً أو أكثر في هاوغن قبل أن يعود إلى البيت . وعلى الأرجح فإنه سيعود في أوائل الخريف .

وقد راحت تتجول في الضيعة شابة بوجنتين ورديتين ووجه رقيق ولطيف ، وكانت أسرع في إنجاز أعمالها كلها . . . ولكنها لم تكن تحقق مثل هذه السرعة الجيدة كما كان عليه الأمر حين كانت تعمل بأسلوبها الهادئ والمرتب المعتاد . لم تعد تطلب من أبنائها العمل بحدة ، كما كان دأبها ، وذلك حين يخطئون أو حين يكون لديها سبب لعدم الرضا عنهم . والآن كان تحادثهم مازحة أو تغض الطرف دون أن تقول شيئاً .

كان لافرانس ينام الآن في العلية مع أخوته الكبار .

"أجل ، ربما علينا أن نحسبك واحداً من الشبان الكبار الآن يا بني" ، مررت أصابعها من خلال شعر الصبي الكثيف الأشقر ، ثم شدته إليها . . . كان طوله يصل الآن إلى منتصف صدرها . "وأنت يا مونان ، هل ستترك أمك تعتبرك طفلاً لفترة أخرى ولو قصيرة ؟" . . . وفي إحدى الأمسيات حين كان الصبي قد ذهب ليرتاح في القاعة ، فقد كان يحبّ أن تجلس أمه على جانب السرير وتداعبه

قليلاً . استلقى وقد وضع رأسه في حجرها وراح يثرثر بأسلوب أكثر طفولية مما اعتاد عليه في النهار ، حين يكون أخوته قادرين على سماعه . وقد تحدث الاثنان عن عودة الأب إلى البيت .

ثم تحرك نحو الجدار وغطته أمه بأغطية النوم . كانت كريستين توقد الشمعة وتأخذ بعض الملابس التي في حاجة إلى إصلاح وتبدأ بالخياطة .

فكت دبوس الزينة من فوق صدرها ، وتحسست بيدها ثدييها . كانا مستديرين وقاسين كما لو كانا لامرأة شابة . رفعت كمّها إلى الكتف ونظرت إلى ذراعها العاري تحت النور . كان قد أصبح أشد بياضاً وامتلاء . ثم نهضت ومشت . . . أحست كم كانت تسير برقة في الخف المنزلي الطري . . . مرّرت يدها فوق وركيها الرشيقين . ما عادا حادين وقاسيين كوركي رجل . كان الدم يسري في جسدها كما يتدفق النسغ في الأشجار في فصل الربيع . كان الشباب يبرعم فيها .

•

كانت منهمكة في العمل مع فريدا في مبنى صنع الجعة تصبّ الماء الدافئ فوق الحبوب لصنع "ملت" عيد الميلاد . كانت فريدا قد نسيت أن تفعل المطلوب في الوقت الملائم . كان يمكن أن يصبح قاسياً كالعظام وهو ينتفخ . ولكن كريستين لم تقرع المرأة . . . وبنصف ابتسامة أصغت إلى الأخرى وهي تجد الأعذار لنفسها . ولأول مرة حدث أن كريستين نسيت أن تنتبه له بنفسها .

مع حلول عيد الميلاد سيكون إرلند في البيت معها . لو أرسلت له النبأ الجديد لعاد إلى البيت دون شك . ما كان يمكن للرجل أن يكون مجنوناً إلى حد لا يستسلم معه الآن . . . فلا شك أنه سيعرف أنه من غير الممكن أن تصعد إلى هاوغن ، بعيداً عن الناس ، وهي تحمل حياة أخرى معها الآن . ولكنها ستنتظر فترة أخرى بعد قبل أن تبعث له الرسالة . . . رغم أنها كانت متأكدة تماماً

الآن . . . ربما متى شعرت بالجنين يتحرك . . . ففي الخريف الثاني بعد أن سكنوا في يوروندغارد اضطرت إلى الخروج عن الطريق كما يقول الناس . كانت قد ارتاحت بسرعة في ذلك الحين . لم تكن تخشى أن يحدث ذلك هذه المرة ، لا يمكن ذلك . ومع ذلك . . .

بدا وكان عليها أن تبذل كل جهدها لحماية هذه الحياة الصغيرة الرقيقة التي تحملها تحت قلبها ، كما يثني المرء يديه لحماية شعلة صغيرة من النار أوقدت للتو . . .

في أحد الأيام في أواخر الخريف حضر إيفار وسكوله وقالا إنهما سيذهبان لزيارة أبيهما . . . كان الجو لطيفاً في الجبال الآن . وسوف يطلبان منه الإذن ليذهبا إلى الصيد معه .

كان ناكفه وبيورغولف جالسين إلى رقعة الشطرنج ، فتوقفا عن اللعب وراحا يصغيان .

قالت كريستين : "لا أعرف ." لم تكن قد فكرت من قبل مع من سترسل النبأ . نظرت إلى ابنيها هذين اللذين لم يكتمل نضوجهما بعد . ما كانت تستطيع إبلاغهما بالنبأ رغم أن ذلك بدا لها كحماقة . ربما تقول لهما إن عليهما اصطحاب لافرانس معهما وستقول له أن يكلم أباه على انفراد . كان صغيراً إلى حد لا يتساءل كثيراً معه . ومع ذلك . . .

قالت : "تعرفان جيداً أن أباكما قادم إلى هنا قريباً . ربما ستعيقانه عن القدوم بسرعة . وسرعان ما ستكون لدي رسالة أبعثها إليه بنفسي . . . "

غمغم التوأمان . رفع ناكفه رأسه عن رقعة الشطرنج وقال بإيجاز : "افعلا ما تأمر به أمنا أيها الولدان ."

•

حين اقترب عيد الميلاد أرسلت ناكفه شمالاً إلى إرلند ." . . . عليك أن تقول له يا بنيّ إني بدأت أتوق إلى قدومه . . . وكذلك أنتم جميعاً !" لم تتحدث

عن السبب الجديد . . . فعلى الأرجح أن الشاب قد لاحظه بنفسه . وعليه أن يحكم بنفسه إن كان عليه أن يبلغ والده بالنبأ .

عاد ناكفه . . . لم يكن قد وجد أباه . كان إرلند قد ذهب إلى راومسدال . فقد تلقى رسالة على ما يبدو بأن ابنته وزوجها سيذهبان إلى بيورغفين ، وكانت مارغريت تريد أن ترى أباها في فيوي .

كان هذا سبباً معقولاً . . . استلقت كريستين مستيقظة في الليالي . . . كانت تربت على وجه مونان بين الحين والآخر وهو نائم إلى جوارها . لقد أحزنها أن إرلند لم يحضر في عيد الميلاد . ولكن كان ذلك سبباً معقولاً أنه يود مشاهدة ابنته حين أتيحت له الفرصة . راحت تمسح دموعها وهي تنهمر على خدها . كانت تبكي الآن بسهولة شديدة ، حتى كما كانت وهي بعد شابة صغيرة .

●

بعد موسم عيد الميلاد توفي سيرا آيريك . كانت كريستين قد عادته في روموندغارد أكثر من مرة خلال الخريف وهو طريح الفراش ، كما حضرت مأتمه . ولكنها لم تخالط الناس سوى في هذه المناسبة . لقد اعتبرت وفاة كاهن الأبرشية العجوز خسارة كبيرة .

في المأتم سمعت شخصاً يقول إنه قابل إرلند في "اليسيا" . لقد عاد إلى البيت إذن . سرعان ما سيأتي ، دون شك . . .

في الأيام التي تلت ، وبينما راحت تجلس على المقعد تحت النافذة الصغيرة ، وهي تحمل مرآتها اليدوية ، كانت تنفخ عليها وتمسحها وتتفحص وجهها فيها .

كانت مسفوعة بالشمس كزوجة فلاح في هذه السنوات الأخيرة ، ولكن كل أثر لهذا قد امّحى الآن . أضحت بشرتها بيضاء مع زهرتين حمراوين مستديرتين على خديها كصورة ملونة . لم يكن وجهها جميلاً إلى هذا الحد منذ أن كانت

فتاة . . . جلست كريستين وأمسكت أنفاسها بمتعة مترعة بالتعجب .

إذن سينالون أخيراً الابنة التي كان إرلند يشتهي كثيراً . . . لو حدث ما قالته النساء الحكيمات . ماغنهيلد . لا بد أن يحطموا العرف في هذه المرة ويعطوا الابنة الأولى اسم والدة أبيها . . .

وقد لاحت أمامها ذكرى عن حكاية خرافية سمعتها ذات مرة عن أبناء سبعة كانوا خارجين على القانون وملاحقين في الغابات من أجل أخت صغيرة لم تولد بعد . ثم ضحكت من نفسها . . . لم تعرف كيف بدأت تفكر في هذه الحكاية . . .

من كرسي الخياطة أخذت قميصاً من أفضل أنواع الكتان الأبيض الذي خاطته وهي وحيدة . أخرجت خيوطاً من الكتان وخاطت طيوراً وحيوانات على أرضيته معشبة . . . مرت أيام كثيرة منذ أن قامت بمثل هذا العمل الدقيق . . . أوه ، لو أن إرلند يأتي الآن . . . فهذا قد جعلها جميلة وشابة ومستقيمة الظهر ومتوردة ومزهرة .

بعد أن انقضى قداس غريغوري(٢١ آذار/مارس) فإن الطقس أصبح جميلاً كالربيع . كان الثلج آخذاً بالذوبان . . . كان يلتمع كالفضة ، وقد سبق وبرزت بقع بنية على المنحدرات التي كانت الشمس تشرق عليها . فوق الجبال كان سديم أزرق .

وقف غاوته في الباحة في أحد الأيام وهو يصلح زلاجة مكسورة . وقف ناكفه وهو يتكئ على جدار ورشة النجارة يراقب أخاه وهو يعمل ، وذلك حين خرجت كريستين من المطبخ حاملة في كلتا ذراعيها وعاء كبيراً يحوي خبزاً بنياً طازجاً .

رفع غاوته نظره إلى أمه . ثم وضع الفأس والمثقب فوق الزلاجة وعدا خلفها ،

ثم أخذ منها الوعاء . حمله حتى المستودع .

كانت كريستين قد توقفت ساكنة بوجنتين حمراوين . وحين عاد غاوته ، ذهبت لتحدث ابنيها :

"عليكما الذهاب إلى أبيكما في أحد هذه الأيام على ما أعتقد . . . قولا له إن هناك حاجة كبيرة له هنا في البيت ، والاهتمام بالأمور بدلاً عني . لا أستطيع أن أقوم بالكثير الآن . . . وسيكون عليّ أن أضع الطفل في خضم أعمال الربيع أيضاً ."

أصغى الشابان إليها . وقد تضرج وجهاهما هما أيضاً ، ولكنها لاحظت أنهما كانا سعيدين . قال ناكفه وهو يظهر عدم الاهتمام :

"الأفضل لو فعلنا اليوم – مع وقت العصر – ما رأيك يا أخي ؟"

ولكن لم تسمع كريستين حتى اليوم التالي ظهراً صوت الفارسين في الباحة . خرجت – كانا ناكفه وغاوته – وكان وحدهما . وقفا إلى قرب جواديهما وهما ينظران إلى الأرض ولم يقولا شيئاً .

سألت الأم : "ما كان جواب أبيكما ."

وقف غاوته مستنداً على رمحه . . . كان لا يزال ينظر إلى الأرض . عندها تحدث ناكفه :

"لقد طلب منا أبونا أن نقول لك إنه كان ينتظر يومياً طوال الشتاء أن تذهبي إليه . وقال إنه سيرحب بك الترحيب نفسه الذي لقيته في المرة الماضية ."

شحب وجه كريستين :

"ألم تقولا لأبيكما كيف هي حالي . . . وإني أنتظر طفلاً في القريب العاجل . . . ؟"

أجاب غاوته دون أن يرفع بصره :

"بدا وكأن أبي لا يعتبر هذا سبباً كافياً . . . وهو لا يعتقد أن هذا سيمنعك

من الانتقال إلى هاوغن" .

وقفت كريستين صامتة قليلاً :

"ما الذي قاله ؟" سألت بصوت خفيض قاس .

كان ناكفه على وشك الكلام . رفع غاوته يده قليلاً ونظر بسرعة وتوسل إلى أخيه . ولكن الابن الأكبر أوصل الرسالة :

"طلب منا أبونا أن نقول ما يلي : لقد عرفت حين حملت بالطفل كم كان هو رجلاً غنياً . وإن لم يكن قد ازداد غنى الآن ، فهو لم يصبح أفقر ."

التفتت كريستين بعيداً عن ابنيها ومضت ببطء نحو القاعة . وبثقل وتعب جلست فوق المقعد تحت النافذة الصغيرة التي كانت شمس الربيع قد أذابت الثلج والجليد عنها .

. . . هكذا كان الأمر إذن . كانت هي التي طلبت أن تنام بين ذراعيه . . . أولاً . ولكن لم يكن أمراً جيداً منه أن يذكرها بذلك الآن . لقد اعتبرت أن إرلند كان مخطئاً في إرسال هذا الجواب مع ابنيهما . . .

•

دام الطقس الربيعي . ثم هبت ريح جنوبية مدة أسبوع مع أمطار . . . ارتفع منسوب النهر ففاض وهدر . على جوانب الجبال اندفعت المياه هادرة من الوديان الجبلية . ثم عادت الشمس لتشرق مجدداً .

وقفت كريستين خارجاً خلف المنزل في المساء الرمادي الأزرق . كانت الأجمة أسفل الحقل مليئة بشدو الطيور . كان غاوته والتوأمان قد صعدا إلى السايتر . . . يطاردون ديكاً أسود . وحتى هناك في الضيعة كان صوت طيور الصيد يأتي من الجبال هذا الصباح .

ضغطت بقبضتيها على صدرها . لم يكن قد تبقى سوى وقت قصير . . . عليها تحمل ذلك بصبر حتى النهاية . غالباً كانت هي دون شك عنيدة

ومشاكسة ، وهي أيضاً كانت سيئة في حكمها وفي خوفها اللانهائي على الأطفال . . . وسيئة في توقيتها ، كما قال إرلند . لقد بدا لها على أي حال أنه كان قاسياً الآن . ولكن الوقت قد حان لقدومه إليها . . . وهو يعرف ذلك دون شك .

كانت الشمس الساطعة والأمطار تتلو بعضها بعضاً . في عصر أحد الأيام ناداها أولادها . كانوا واقفين سبعتهم في الباحة مع كل الخدم . عبر "ديل" كانت ثلاثة أقواس قزح . كان الأوسط بينها يضع قدماً على منازل فورمو ، ولم يكن متقطعاً وراحت الألوان تشع منه قوية ولامعة . أما الآخران فكانا بلون أبهت وقد تلاشيا من الأعلى . . .

وحتى وهم واقفون يحدقون إلى هذه العلامة الغريبة والجميلة أصبح الجو رمادياً وداكناً . ومن الشمال جاءت عاصفة ثلجية . وقد أثلجت حتى أصبح العالم أبيض خلال فترة قصيرة .

جلست كريستين في المساء وراح تقص على مونان حكاية ملك الثلج وابنته البيضاء الجميلة - التي كان اسمها "ميول" (الثلج المسحوق)- والملك "هارولد لوفا" (قبعة الثلج فوق الأشجار مثلاً) الذي رباه المارد "دوفر" . أحست بوخزة أسى حين تذكرت أنها سنوات بحالها قد مرت منذ أن جلست هكذا وقصت الحكايات على أولادها . . . كان من المؤسف أن لافرانس ومونان لم يعرفا سوى القليل من هذه المتعة . والآن سرعان ما سيصبحان صبيين ناضجين . حين كان الآخرون صغاراً ، في بيتهم في هوسابي ، كانت تجلس وتروي لهم حكايات خرافية خلال أمسية كاملة . . . وكان ذلك يحدث غالباً . . .

لاحظت أن أبناءها الكبار كانوا يصغون أيضاً . . . احمر وجهها وتوقفت عن الكلام . توسل إليها مونان أن تستمر . نهض ناكفه واقترب منها .

"أتذكرين يا أمي "تورستاين أوكسافوت" (قدم الثور) وجنيات غابة هويلاند . . . احكي لنا تلك الحكاية!"

وبينما راحت تروي الحكاية عاد ذهنها إلى الماضي . كانوا يرتاحون في بستان البتولا قرب النهر ، بعد أن تناولوا بعض الطعام ، أبوها وعمال الحصاد رجالاً ونساء . . . كان أبوها مستلقياً على بطنه وجلست هي فوق ظهره ، وراحت تركل خاصرتيه بكعبيها . . . كان يوماً حاراً ، وكانت قد حصلت على الإذن بالمشي حافية ، كما تفعل النساء . وقد حكى لها أبوها حكاية : قارب جنيات هويلاند : يرنسكيولد (ترس الحديد) كان لديه سكيولدفور وابنتاهما سكيولديس ، وسكيولدغييرد ، اللتان ذبحهما تورستاين أوكسافوت . تزوجت سكيولغييرد من سكيولدكيتيل وكان أولادهما هم سكيولدبيورن وسكيولدهدين وفالسكيولد الذي امتلك سكيولدسكسيسا . وقد رزقا بسكيولدولف وسكيولدورم . تزوج سكيولدولف بسكيولدكاتلاو وأنجب منها سكيولد وسكيولدكيتيل . . .

كلا ، لقد ذكر ذلك الاسم سابقاً ، صرخ كولبيورن ضاحكاً ، فقد كان لافرانس يفاخر بأنه يستطيع أن يعلمهم دزينتين من أسماء الجن ، ولكنه لم يكمل حتى الدزينة الأولى . ضحك لافرانس أيضاً : "أجل ، ولكن لاشك أنك تعرف أن الجن أيضاً يسمون أولادهم بأسماء آبائهم مّمن رحلوا !" ولكن العمال لم يدعوا الأمر يمرّ بسلام ، لذلك فرضوا عليه أن يدفع لهم ثمن مشروب الميد كغرامة . أجل ، ثم قال السيد إنهم سينالونه . . . الليلة . . . حين يعودون إلى البيت . ولكنهم أرادوه الآن ، فوراً . . . وأخيراً أرسلت تورديس لإحضار الميد .

وقفوا في حلقة وراح القرن الكبير يدور من واحد إلى آخر . ثم أخذوا مناجلهم ومذاريهم وذهبوا إلى المروج مجدداً . أرسلت كريستين إلى البيت مع القرن الفارغ . رفعته أمامها بكلتا يديها وهي تعدو حافية القدمين تحت نور الشمس فوق الممر الأخضر صعوداً نحو الضيعة . بين الحين والآخر كانت تتوقف حين تكون قطرة من الميد قد تجمعت في أسفل القرن . . . عندها كانت تميله إلى

وجهها الصغير وتلعق الحافة المذهبة من الداخل والخارج ثم تلتقط أصابعها الحلاوة .

جلست كريستين لافرانسداتر هادئة ، تحدق أمامها . أبي ! تذكرت رجفة مرت بوجهه وشحوباً حين أضحت الجبال المغطاة بالحراج بيضاء بعد أن هبت ريح فقلبت الأوراق فوق الأشجار . . . كانت هناك بثرة من الاحتقار البارد القاسي وشعاع في عينيه الرماديتين مثل ومضة سيف نصف مسلول . لحظة ثم تلاشت . . . في مزاح لطيف حين كان شاباً بعد . مع تقدمه في السن كان على الأغلب أكثر رقة وهدوءاً مع حزن . في روح أبيها كانت عذوبة عميقة ورقيقة . لقد عرفت مع السنين كيف تفهمها . . . كانت رقة أبيها الرائعة تأتي ليس من عدم رؤيته بوضوح لأخطاء وشرور البشرية ، ولكن لأنه كان يبحث دائماً في قلبه أمام الرب ويدميه بالتوبة على خطاياه .

كلا يا أبي . لن أكون عديمة الصبر . لقد أخطأت كثيراً ضد زوجي أنا أيضاً . . .

●

في مساء يوم قداس الصليب(٣ أيار/مايو) جلست كريستين إلى المائدة مع أهل المنزل ، ولم يبد عليها إلا ما هو مألوف منها . ولكن حين صعد أبناؤها ليرتاحوا في القاعة العليا ، نادت على أولف هالدورسون برقة . وقد طلبت منه أن ينزل إلى إسريد في المزرعة ويرجوها الصعود إلى السيدة في مبنى الحياكة القديم .

قال أولف : "عليك أن ترسلي وراء رانفايغ أوف أولفسفولدن وهالديس أخت الكاهن يا كريستين . . . والذي هو أفضل أن تحاولي إحضار آستريدو أنجبيورغ أوف لوبتسغارد حتى تشرف على الغرفة . . . "

قالت كريستين : "لم يعد هناك وقت كاف . لقد سبق وشعرت بالآلام الأولى قبل العصر . افعل كما أقول لك يا أولف . . . لن يكون معي سوى خادماتي وإسريد ."

قال أولف بجدية : "كريستين ، ألا ترين أن الناس ستلوك سيرتك كثيراً بألسنتها لو التجأت إلى مخبأ هذه الليلة . . . "

تركت كريستين ذراعيها يسقطان بثقل فوق المائدة . أغمضت عينيها .

"إذن فليفعلوا ما يشاؤون ! لا أستطيع احتمال مشاهدة هؤلاء النسوة الغريبات من حولي في هذه الليلة . . ."

في صباح اليوم التالي جلس أبناؤها الكبار صامتين . . . بعيون مسدلة ، بينما راح مونان يثرثر ويثرثر عن الأخ الصغير الذي رآه بين ذراعي أمه في مبنى الحياكة . وأخيراً قال بيورغولف له إن عليه التوقف عن الكلام حول هذا الأمر .

لم تفعل كريستين شيئاً عدا الاستلقاء والإصغاء . . . لقد بدا لها أنها لم تنم قط بكل هذا العمق حتى أنها لم تكن تصغي ، وتنتظر .

نهضت من سريرها في اليوم الثامن ، ولكن النساء من حولها كن يعرفن أنها لم تكن في حال جيدة . كانت تنتابها الرعشة وموجات من الحرارة . أحياناً كان الحليب يتدفق من ثدييها حتى يبلل ملابسها ، وفي اليوم التالي يجف ثدياها فلا يشبع الرضيع . ولكنها رفضت العودة إلى السرير . كما كانت ترفض أن تترك الطفل ينزل عن ذراعيها . . . لم تكن تضعه في المهد . في الليل كانت تأخذه معها إلى السرير . وفي النهار كانت تتجول وهي تحمله بين ذراعيها وتجلس معه قرب المدفأة ، أو فوق سريرها . كانت تصغي وتنتظر ، وتحدق إليه . ولكن في بعض الساعات كان يبدو عليها أنها لا تراه ولا تسمع بكاءه . ثم يبدو عليها أنها تستيقظ . . . كانت تحمل الصبي وتذرع الغرفة وهي تحمله وخدها على خده . كانت تهدهده بصوت خفيض رقيق . ثم تجلس وتضمه إلى صدرها وتحدق إليه

مجدداً ووجهها كأنما قدّ من حجر . . .

حين أصبح الصبي في أسبوعه السادس . . . ولم تكن أمه قد غادرت مبنى الحياكة بعد . . . دخل أولف هالدورسون وسكوله إليها ذات يوم . كانا قد ارتديا ملابس السفر .

قال أولف : "أجل ، سنسافر شمالاً إلى هاوغن يا كريستين . لا بد من نهاية لهذه الأمور الآن . . . "

جلست كريستين صامتة ومتيبسة ، والصبي على صدرها . في البداية بدا عليها أنها لم تفهم . ثم أجفلت فجأة وتضرج وجهها :

"افعلا ما تشاءان . إن كنتما تتوقان إلى العودة إلى سيدكما فلن أعيقكما . والأفضل أن تتلقيا راتبكما . . . عندها لن تحتاجا إلى العودة إلينا هنا ."

كاد أولف أن يشتم شتيمة قذرة . ثم نظر إلى المرأة وهي واقفة هناك والطفل الصغير مشدود إلى صدرها . ضغط بشفتيه وصمت .

ولكن سكوله تقدم خطوة نحو الأمام .

"أجل يا أمي . . . أنا ذاهب إلى أبي الآن . . . لو أنك نسيت أن أولف كان أبانا بالتربية نحن الأخوة جميعاً ، فعليك أن تتذكري على الأقل أنك لا تستطيعين أن تأمريني وتمنعيني وكأني خادمة أو طفلك الرضيع . . . "

"ألا أستطيع ؟" وصفعته أمه صفعة ترنح معها : "أعتقد أني سآمرك وستفعل كل ما آمرك به طالما كنت أغذيك وألبسك . . . اخرج !" صرخت وهي تضرب الأرض بقدمها .

غضب سكوله غضباً شديداً . ولكن أولف قال بصوت خفيض :

"الأمر أفضل على هذا النحو أيها الشاب . . . الأفضل أن تثور وتكون عنيدة من أن تراها جالسة وكأنها ستجنّ من الحزن . . . "

وصلت غونهيلد خادمة المنزل وهي تركض خلفهما . كان عليهما القدوم فوراً

إلى مبنى الحياكة إلى عند السيدة . . . كانت تريد مخاطبتهما وكذلك جميع أبنائها . وقد طلبت كريستين بكياسة وقسوة من أولف الذهاب إلى برايدين والتكلم إلى رجل استأجر بقرتين منها . أما التوأمان فعليه أن يصطحبهما معه ولا حاجة إلى عودتهما إلى البيت قبل الغد . أما ناكفه وغاوته فأرسلتهما إلى السايتر . . . طلبت منهما الذهاب إلى وادي "إلماند" ليتفحصا وضع الجياد هناك . . . وفي الطريق كان عليهما أن يمرا بحرّاق القار بيورن بن إيسريد ، وأن يطلبا إليه أن يأتي إلى الضيعة في ذلك المساء . لم تكن هناك فائدة من محاولة الاعتذار ، قائلين بأن الغد هو يوم قداس . . .

●

في صباح اليوم التالي حين بدأت الأجراس تقرع ، انطلقت السيدة من يوروندغارد يتبعها بيورن وإيسريد التي حملت الطفل . لقد أعطتهما ملابس جيدة ولائقة . . . ولكن كريستين نفسها زينت نفسها بالكثير من الذهب للذهاب إلى الكنيسة حتى يرى الجميع أنها كانت السيدة وأن الآخرين هما خادماها .

وباعتزاز وتحدّ ، فقد واجهت الاستغراب وسوؤ النية اللذين أحست بهما يواجهانها من عيون الناس فوق مرج الكنيسة . أوه ، أجل ، نوع آخر من الذهاب إلى الكنيسة عرفته سابقاً . . . مع سيدات نبيلات في موكبها . نظر إليها سيرا سولموند بعينين قاسيتين حين وقفت أمام باب الكنيسة والشمعة في يدها . . . ولكنه سمح لها بالدخول كالمعتاد .

كانت إيسريد مجرد مراهقة ولا تفهم إلا القليل . أما بيورن فكان رجلاً غريباً معقود اللسان ، لم يكن يزعج نفسه بشؤون الناس الآخرين . كان هذان هما العرّابة والعرّاب .

تلفظت إيسريد باسم الطفل للكاهن . أجفل وتلعثم للحظة . . . ثم تلفظ به بصوت عال رنّ في صحن الكنيسة أمام كل الناس :

"إرلند . . . باسم الأب والابن والروح القدس . . . "

بدا وكأن صدمة سرت بين حشد المصلين . وأحست كريستين بمتعة مجنونة ثأرية .

بدا الطفل قوياً بما فيه الكفاية حين ولد . ولكن حتى منذ الأسبوع الأول بدت كريستين وكأنها تعرف أن الطفل لن يكون في صحة جيدة . لقد شعرت هي نفسها في لحظة الولادة . . . وكأن قلبها تكسّر مثل جمرة محترقة . وحين أرتها إيسريد الطفل الوليد ، شكت بأن شرارة الحياة لم تكن متقدة جداً في الطفل . ولكنها دفعت بالفكرة بعيداً عنها . . . فمنذ زمن بعيد أحست بأن قلبها كان محطماً في داخلها . وكان الطفل كبيراً بما فيه الكفاية ولا يبدو ضعيفاً .

ولكن قلقها على الطفل كان يزداد من يوم إلى آخر . كان كثير النقّ ولا يحب الطعام كثيراً . . . كانت تجلس محاولة لفترة طويلة حتى يرضى أن يأخذ ثديها . وحين تستطيع في النهاية أن تجعله يرضع ، كان ينام على الفور تقريباً . . . لم تستطع أن تلاحظ أنه كان ينمو . . .

وبخوف وعذاب في القلب لا يصدقان ، بدا أنها لاحظت من يوم تعميده وحصوله على اسم أبيه ، أن إرلند الصغير كان يذوي ويذوي .

لم تحبب أي واحد ، كلا ، أي واحد من أطفالها كما أحبت هذا الطفل الصغير ، طفل الحزن . لم تحبل بأي منهم بتلك المتعة العذبة المجنونة ، ولم تحمل أي منهم في جوفها بمثل هذا الأمل السعيد . ذهبت أفكارها مجدداً إلى الأشهر التسعة الماضية . في النهاية لم يكن هناك شيء أمامها سوى أن تقاتل بكل قوتها لتتمسك بالأمل والإيمان . لا تستطيع أن تخسر هذا الطفل . . . ولا تستطيع إنقاذه . .

أيها الرب كلّي القدرة ، يا ملكة الرحمة ، أيها المقدس أولاف . . . أحست

بنفسها هذه المرة بأنه لم يكن من المفيد لها أن ترمي بنفسها على الأرض وتتوسل لأجل أن يبقى الطفل حياً .

اغفروا لنا خطايانا كما نغفر لمن يخطئون في حقنا .

كانت تذهب إلى الكنيسة في كل يوم قداس كما كان دأبها ، فتقبل عمود الباب وترش نفسها بالماء المقدس وتحني ركبتها أمام الصليب العتيق فوق قوس الجوقة . كان "المخلص" ينظر من عل بأسى ولطف وهو يعاني سكرات الموت . لقد مات المسيح لينقذ قاتليه . يقف القديس أولاف أمام وجهه ، في توسل أبدي للناس الذين دفعوه إلى الخروج على القانون وذبحوه . . .

كما نغفر لمن يخطئون في حقنا .

يا مريم المباركة . . . طفلي يحتضر ! ألا تعرفين يا كريستين ، لكنت أفضل أن أحمل صليبه وأتحمل موته من أن أقف تحت صليب ابني وأراه أموت . . . ولكن بما أني أعرف أن هذا أمر لا بد منه لإنقاذ الخاطئين ، فقد منحت موافقتي في قلبي . . . وافقت حين صلب ابني . يا أبت اغفر لهم فإنهم لا يعرفون ما يفعلون . . .

كما نغفر لمن يخطئون في حقنا . . .

صرخة قلبك ليست صلاة حتى تتلين "أبانا الذي" دون . . .

اغفر لنا خطايانا . . . أتذكرين كم غفرت لك خطاياك . . . انظري إلى أبنائك هناك بين الناس . انظري إليه هو الذي يقف في الطليعة ، زعيم هذه المجموعة الوسيمة من الشبان . ثمرة خطيئتك . . . منذ عشرين عاماً تقريباً وأنت ترين الرب يضيف إلى وسامته وفهمه ورجولته . انظري إلى رحمته . . . أين رحمتك تجاه أصغر أبنائك في البيت . . . ؟

تذكري أباك . تذكري سايمون دار .

. . . ولكن في أعماق قلبها لم تشعر أنها غفرت لإرلند . لم تستطع لأنها لا تريد . ظلت متمسكة بكوب حبها ، لا تريد إفلاته ، حتى حين لم يكن يحوي شيئاً عدا الحثالة المرة . في اللحظة التي تستطيع فيها أن تغفر لإرلند ، أن تفكر فيه دون مرارة ناهشة . . . عندها سيكون كل ما جرى بينهما قد انتهى .

هكذا وقفت تفكر خلال القداس كله ، وهي تعرف أن هذا لن يفيدها بشيء . حاولت أن تصلي : أيها القديس أولاف ، ساعدني ، اصنع معجزة في قلبي حتى أتلو صلاتي دون خداع أو مكر . . . حتى أفكر بإرلند بسلام . روحي مترعة بخشية الله . ولكنها كانت تعرف أنها لا تتمنى هي نفسها أن تستجاب هذه الصلاة . وهكذا أحست أنه لم يكن هناك طائل من الصلاة لأجل أن تمنح السماح ببقاء الطفل حياً . كان إرلند الصغير معاراً لها من الله على شرط أن تحافظ عليه ولكنها لن تفعل . وهكذا لا طائل من الكذب على القديس أولاف . . .

•

هكذا راحت تسهر على الصبي المريض . كانت دموعها تتدفق دون توقف . وهي تبكي بصمت ، دون أن تحرك عضلة واحدة في وجهها . كان وجهها كله رمادياً وقاسياً كالحجر . ولكن عينيها وجفنيها راحا يحمران تدريجياً حتى أصبحا بلون الدم . ولو دخل شخص عليها كانت تجفف وجهها على عجل وتجلس صامتة وقاسية .

. . . ومع ذلك كان القليل كافياً لإذابة جليدها . فلو دخل أي من أبنائها الكبار وألقى نظرة على الطفل الصغير ، وقال كلمة لطيفة مواسية له ، كانت الأم لا تستطيع كبح عويلها . لو استطاعت أن تحكي لأبنائها الكبار عن مخاوفها على الصغير ، لكان قلبها قد ذاب جليده . ولكنهم كانوا خجلين منها الآن . ومنذ اليوم

الذي عادوا فيه إلى البيت وسمعوا بالاسم الذي أطلقته على أخيهم الصغير، بدا الشبان وكأنهم أضحوا أكثر تقارباً، ونأوا عنها. ولكن في أحد الأيام وبينما وقف ناكفه ينظر إلى الطفل الصغير قال:

"اسمحي لي يا أمي بالذهاب إلى أبي لأقول له كيف هي حال هذا الصبي..."

أجابت الأم دون أمل: "لا شيء سيفيد بعد الآن."

لم يفهم مونان ذلك. جلب ألعابه إلى أخيه الصغير، وقد سرّ كثيراً حين سمح له بحمله وظن أنه جعل الطفل يبتسم. تحدث مونان عن عودة الأب إلى البيت وتساءل إن كان سيحب هذا الابن الجديد. جلست كريستين صامتة بوجه كالح، وتركت الصبي يثرثر ثرثرته التي قطعت قلبها.

كان الطفل نحيلاً الآن ومجعداً كرجل عجوز. كانت عيناه كبيرتين ولامعتين. ولكنه كان قد بدأ يبتسم لأمه... وكانت تئنّ برقة حين ترى ابتسامته. كانت كريستين تداعب الأعضاء الصغيرة النحيلة وتأخذ قدميه بيدها... لن يمسك هذا الطفل بهذه الأشياء الغريبة العذبة الوردية التي ترقص في الهواء فوقه والتي لم يكن يعرف أنها قدماه. لن تطأ هاتان القدمان الأرض.

●

بعد أن جلست خلال أيام الأسبوع المرهقة كلها وهي تراقب الطفل المحتضر، راحت تفكر وهي تلبس للذهاب إلى الكنيسة... كلا، هي الآن شديدة التواضع دون شك. لقد غفرت لإرلند... لم تعد تهتم به بعد الآن. لو أنها تستطيع فحسب أن تمنح الإذن بالاحتفاظ بأغلى وأعذب كنز لديها، فإنها ستسامح ذلك الرجل بسرور.

ولكن حين همست أمام الصليب بـ "أبانا الذي" ووصلت إلى العبارات

القائلة : " اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا" أحست أن قلبها يتقسى كأنه يد تنقبض لتوجه لكمة . لا !

كانت يائسة مريضة الروح فبكت ، فهي لن ترغب بذلك بإرادتها .

وهكذا مات إرلند إرلندسون في اليوم السابق على عيد مريم المجدلية(٢٢ تموز/يوليو) وكان عمره أقل من ثلاثة أشهر .

-٧-

في هذا الخريف وصل الأسقف هالفارد في زيارة إلى الشمال عبر "ديل" . وقد وصل إلى "سيل" في اليوم السابق على قداس ماتيو (١١ أيلول/سبتمبر) . كان قد مرّ أكثر من عامين منذ أن وصل الأسقف شمالاً إلى هذه المنطقة فقد كان هناك أطفال كثيرون لتثبيت العماد هذه المرة وكان بينهم مونان إرلندسون . كان في الثامنة من عمره الآن .

طلبت كريستين من أولف هالدورسون أن يصطحب الصبي إلى الطقوس الكنسية . . . لم يعد لديها صديق واحد في أبرشيتها تستطيع أن تطلب منه هذا . بدا أولف سعيداً حين كلمته عن هذا الأمر . وحين قرعت الأجراس للقداس ، ذهب ثلاثتهم كريستين وأولف والصبي إلى الكنيسة . كان الأبناء الآخرون قد حضروا قداساً مبكراً ما عدا لافرانس الذي كان طريح الفراش من الحمى . لم يكونوا راغبين في حضور هذا القداس فالحشد سيكون عظيماً في الكنيسة .

حين مروا بمنزل الوكيل ، لاحظت كريستين وجود كثير من الجياد الغريبة مربوطة خارج السياج . وحين قطعوا شوطاً من الطريق لحقت بهم يارترود في

موكب كبير ومرت بهم . تظاهر أولف وكأنه لم ير زوجته وأهلها .

كانت كريستين على معرفة أكيدة بأن أولف لم يدخل منزله منذ ما بعد بداية السنة الجديدة بقليل . وكان يقال في ذلك الحين إن الأمور كانت تسوء أكثر من عادتها بينه وبين زوجته . ومنذ ذلك الحين نقل خزانة ملابسه وأسلحته إلى القاعة العليا ، وسكن هناك مع الشبان . في إحدى المرات ، في بداية الربيع ، قالت كريستين له إنه لأمر سيئ أن يكون هو وزوجته على هذا الخلاف الشديد . . . وقد نظر إليها وضحك على نحو جعلها لا تقول المزيد .

كانت الشمس مشرقة والطقس بديعاً . بعيداً هناك فوق "ديل" كان الجو أزرق بين الجبال . أما الأوراق الصفراء للمنحدرات المغطاة بالبتولا فكانت قد بدأت بالتلاشي ، وفي الأبرشية كان معظم القمح قد حصد ، ولكن هناك وهناك قرب المزارع كان حقل شعير شاحب اللون ما زال يتماوج ، كما كانت الغلة الثانية تنتصب خضراء مبلّلة بالندى فوق المروج . كان هناك خلق كثير في الكنيسة ، كما كان هناك الكثير من الحمحمة والصهيل من الجياد ، فقد كانت إسطبلات الكنيسة ملأى ، واضطر كثيرون إلى ربط جيادهم في الخارج .

كان هناك نوع من الجو المكبوت المعادي يعم بين الحشد ، أنى جعلت كريستين رفاقها يتجهون . ضرب شاب على فخذه وضحك ، ولكن أسكته أهله بحدة . سارت كريستين بخطوات مقيسة ورأس مرفوعة عالياً ، فوق المرج نحو باحة الكنيسة . توقفت أولاً برهة قرب قبر الطفل ثم قرب قبر سايمون أندرسون الذي وضع فوقه لوح حجري رمادي مسطح . . . كما نحت فوقه ما يشبه شكل رجل في خوذة ذات طنف أمامي ودرع من الزرد ، وهو يضع يديه فوق ترسه الكبير ذي الزوايا الثلاث وله شعار . على حافة الحجر كان قد نحت ما يلي باللاتينية :

"في سلام . سايمون أرميجير . برولس دوم . ابن أندريا غودموندي . ميليتيس باتر نوستر ."

وقف أولف خارج الباب الجنوبي . كان قد وضع سيفه في الرواق .

ثم جاءت يارترود إلى باحة الكنيسة مع أربعة رجال في صحبتها : كان بينهم أخواها ومزارعان عجوزان ، أحدهما كولباني يونسون الذي كان حامل سلاح لافرانس بيورغولفسون لسنوات كثيرة . وقد اتجهوا نحو باب الكاهن ، إلى جنوب الجوقة .

قفز أولف هالدورسون ووضع نفسه في طريقهم . سمعت كريستين كلاماً حاراً وسريعاً من حيث كانوا يقفون . كان أولف يمنع زوجته ومن معها من التقدم . اقترب الناس الذين كانوا في باحة الكنيسة ، كما مضت كريستين إلى هناك . ثم قفز أولف فوق القاعدة الحجرية التي كانت تحمل أقواس الدير ، وانحنى وأمسك بالفأس الأولى التي استطاع الوصول إليها . وحين حاول أحد أخوي يارترود جذبه إلى الأسفل قفز أولف إلى الأمام ولوح بالفأس . أصابت الضربة أخا زوجته في كتفه فهرع الناس وأمسكوا بأولف . ناضل ليحرر نفسه . رأت كريستين وجهه وقد تضرج بالدم وتلوى يائساً .

ثم وصل سيرا سولموند وأحد كهنة الأسقف إلى باب الكاهن . تبادلا بعض الكلمات مع المزارعين . وفوراً هرع ثلاثة من الخدم كانوا يحملون ترس الأسقف الأبيض وأمسكوا بأولف واقتادوه بعيداً عن مقبرة الكنيسة . ولكن زوجته ومن معها دخلوا الكنيسة وراء الكاهنين .

خطت كريستين نحو الأمام إلى حشد المزارعين :

"ما الأمر" سألت بحدة . "أين يأخذون أولف ؟"

"لقد رأيت كما أعتقد أنه ضرب رجلاً في باحة الكنيسة" أجاب أحدهم بحدة . ابتعد الناس كلهم عنها ، فتركت واقفة لوحدها مع ابنها قرب باب الكنيسة .

ظنت كريستين أنها فهمت : إن زوجة أولف ستتقدم بشكوى ضده إلى الأسقف . وبنسيان نفسه والاعتداء على سلام باحة الكنيسة فقد أصبحت

القضية ضده . وحين وصل قندلفت غريب من القرّاء إلى الباب ونظر خارجاً ، تقدمت منه وذكرت له اسمها وطلبت إليه أن يحضرها أمام الأسقف .

في الكنيسة كانت كل كنوزها معروضة للعيان ، ولكن الشموع على المذبح لم تكن قد أشعلت بعد . كان قليل من نور الشمس يصل عبر النوافذ المستديرة الصغيرة العالية ، وتتسلل نزولاً بين الأعمدة البنية الداكنة . كان جزء من الحشد قد سبق له ودخل إلى الصحن ، وجلس على المقاعد التي على امتداد الجوار . في مكان الجوقة أمام عرش الأسقف كانت مجموعة من الناس ، يارترود باندسياتر وأخواها - كان غايرلوف قد ربط ذراعه - وكولبابن يونسون وسيغورد غايتونغ وتوره بوغيلدسون . إلى الخلف وحول الكرسي المنحوت وقف كاهنان شابان من هامار ، ورجال آخرون من أتباع الأسقف وسيرا سولموند .

حدق كل هؤلاء بشدة حين تقدمت سيدة يورروندغارد إلى الأمام وانحنت انحناءة عميقة أمام الأسقف .

كان السير هالفارد رجلاً طويلاً قوي البنية ذا مظهر شديد الوقار . تحت قبعته الحمراء الحريرية كان شعره يلمع أبيض كالثلج فوق الصدغين ، ووجهه المليء البيضاوي يشع كبيراً وأحمر . كان له أنف قوي ومعوج وذقن ثقيل . أما فمه فكان ضيقاً كأنه مجرد شق ، ويكاد يكون بلا شفاه فوق وجهه الحليق الأبيض الرمادي . . . ولكن الحاجبين الكثيفين فوق العينين السوداوين اللامعتين كانا لا يزالان داكنين .

"فليكن الله معك يا كريستين لافرانسداتر" ، قال سير هالفارد . نظر إلى المرأة متأملاً من تحت حاجبيه الكثيفين . كانت إحدى يدي الرجل العجوز الكبيرة البيضاء تمسك بالصليب الذهبي على صدره . في اليد الأخرى كان يمسك بلوح من الشمع .

"ما الذي يجعلك تطلبين مقابلتي هنا ؟ أيتها السيدة كريستين ؟" سأل الأسقف مجدداً . "ألا تظنين أنه كان الأجدر بك أن تؤجلي الأمر إلى ما بعد

الظهر ، وأن تأتي إليّ في رومونداغارد لتقولي لي ما الذي يثقل على قلبك ؟"

"لقد طلبت يارترود هربراندسداتر مقابلتك هنا ، أيها الأب المبجل" أجابت كريستين . "والآن فإن أولف هالدورسون كان في صحبة زوجي منذ خمس وثلاثين سنة . كان دائماً الصديق المخلص والمساعد والقريب الصادق . . . لذلك ظننت أني قد أستطيع مساعدته على نحو ما ."

أطلقت يارترود صرخة خفيفة تدل على الاحتقار أو الغضب . . . حدق كل الآخرين إلى كريستين ، سكان الأبرشية بنظرات مريرة وموكب الأسقف بحدّة وفضول . نظر السير هالفارد من حولهِ بصرامة . ثم قال لكريستين :

"أتريدين أن تدافعي عن أولف هالدورسون ؟ ربما تعرفين" ، قال بسرعة وهو يرفع يده حين أرادت أن تجيب ، "لا يحق لأحد أن يناديك لتتكلمي في هذه المسألة – باستثناء زوجك– إذا لم يدفعك ضميرك إلى ذلك . فكري أولاً . . . "

"لقد فكرت كثيراً بذلك يا سيدي الأسقف ، أن أولف ترك الغضب يخرجه عن طوره ووضع يده على سلاح على باب الكنيسة . . . قد أستطيع مساعدته بدفع الكفالة أو بأمر آخر ." وهنا قالت بألم : "أنا على ثقة تامة من أن زوجي سيفعل كل ما بوسعه في هذه القضية لمساعدة صديق وقريب . . . "

التفت الأسقف نافد الصبر إلى الواقفين الذي بدا عليهم جميعاً الغضب :

"لا حاجة للمرأة أن تتأخر هنا . يمكن للناطق باسمها أن ينتظر في الصحن . . . ارحلوا جميعاً بينما أحادث السيدة . . . وأرسلوا الناس إلى الخارج في هذه الأثناء . . . ومعهم يارترود هربراندسداتر ."

كان أحد الكهنة الشبان مشغولاً بترتيب ملابس الأسقف . والآن وبعناية شديدة وضع التاج الأسقفي بصليبه الذهبي على الطيات المنشورة للرداء ، ثم نزل وتكلم قليلاً مع الناس الذين في الصحن . تبعه الآخرون إلى هناك . غادر الحشد ومعهم يارترود وأغلق حافظ غرفة المقدسات الأبواب .

قال الأسقف وهو ينظر إليها كما من قبل : "تكلمت عن زوجك . هل صحيح أنك حاولت أن تصالحيه في الصيف الماضي ؟"

"أجل يا سيدي ."

"ولكنكما لم تتفقا ؟"

"سيدي - أغفر لي لو نطقت بذلك - ولكني لم أتقدم بشكوى ضد زوجي . لقد أردت أن أراك حتى أتكلم عن قضية أولف هالدورسون . . . "

"هل يعرف زوجك بهذا . . . أنك كنت حاملاً ؟" سألها السير هالفارد . بدا وكأنه غاضب من احتجاجها .

قالت بصوت خفيض جداً : "أجل يا سيدي ."

سألها الأسقف : "وكيف تصرف إرلند نيكولاوسون حيال ذلك النبأ ؟"

وقفت كريستين بعيون مسدلة وهي تلوي بين أصابعها طرف غطاء رأسها الكتاني .

"ألم يرغب بمصالحتك حين علم بالأمر ؟"

"يا سيدي سامحني . . . " تضرج وجه كريستين إلى حد كبير . "سواء كان سيدي إرلند يعاملني على هذا النحو أو ذاك . . . ولكن لو كان حضور إرلند إلى هنا يمكن أن يساعد أولف في قضيته ، فأعتقد أن إرلند سيسرع إلى هنا من أجله ."

قطب الأسقف حاجبيه وهو ينظر إليها :

"أتعنين أن إرلند الآن - بسبب صداقته لهذا الرجل أولف- أو لأن المسألة أصبحت تحت الأضواء الآن - سيعترف بالطفل الذي ولدته في الربيع الماضي ؟"

رفعت كريستين رأسها . . . حدقت إلى الأسقف بعينين مفتوحتين وشفاه نصف مغلقة . كأنما كان المعنى الآن ، معنى كلماته يصلها . نظر سير هالفارد إليها بجدية .

"صحيح أيتها المرأة أنه لا يحق سوى لزوجك أن يتهمك بهذا الإثم . ولكنك تفهمين أنك أنت وهو مذنبان بخطيئة كبرى لو أنه أخذ على عاتقه مسؤولية أبوة طفل رجل آخر ليحمي أولف . الأفضل لكم جميعاً إن كنت ارتكبت الإثم أن يتم الاعتراف بالإثم والتكفير عنه ."

شحب وجه كريستين ثم عاد اللون إليه :

"هل قال أحد إنه لم يكن زوجي . . . إن الطفل لم يكن ابنه . . . ؟"

سأل الأسقف ببطء :

"إذن عليّ أن أصدق يا كريستين أنك لا تعرفين حتى ما يقوله الناس عنك وعن وكيل مزرعتك . . . ؟"

"لا أعرف" ، شدت من قوامها ووقفت ورأسها إلى الوراء قليلاً ، ووجهها أبيض تحت غطاء رأسها الكتاني . "والآن أرجوك يا سيدي وأبي المبجل . . . إن كان هناك من شوه سمعتي من خلف ظهري ، بأن تطلب إليه أن يقوم بذلك في وجهي !"

أجاب الأسقف : "لم تذكر أي أسماء . هذا مخالف للقانون . ولكن يارترود هربراندسداتر طلبت تفريقها من زوجها وأن تذهب إلى بيت أهلها مع ذويها ، مدعية أنه يعاشر امرأة أخرى ، امرأة متزوجة ، وقد رزق منها بطفل ."

مرت برهة من الزمن صمت فيها كلاهما . ثم تكلمت كريستين مجدداً :

"سيدي . . . أتوسل إليك ، قدم لي هذه المنّة واطلب من هؤلاء الرجال أن يقولوا تحت سمعي إني هذه المرأة ."

نظر الأسقف هالفارد إلى السيدة بحدة وبتمعّن . ثم أشار بيده . . . استعد الرجال الذين في الصحن ووقفوا من حول كرسيه . نطق السير هالفارد :

"أنتم يا رجال سيل الطيبون قد جئتم إلي في وقت غير ملائم وقدمتم إلي شكوى كان يجب أن تحال أولاً إلى نائبي . لقد عرفت بالأمر الآن ، فأنا أعرف

أنكم لستم على اطلاع بالقانون . ولكن هاهي هذه المرأة ، السيدة كريستين لافرانسداتر أوف يورونداغارد ، تأتي إلي بطلب غريب . . . تطلب مني أن أسألكم إن كنتم تجرؤون على أن تقولوا لها وجهاً لوجه إنه سرت شائعة في الأبرشية أن زوجها إرلند نيكولاوسون لم يكن والد الطفل الذي ولدته في الربيع ؟"

أجاب سيرا سولموند :

"لقد قيل في كل ضيعة وكل كوخ في أبرشيتنا إن الطفل ولد بالزنا وبالعلاقة المحرمة بين السيدة ووكيلها . وبالنسبة إلينا لا يبدو ممكناً أن المرأة نفسها لا تعرف هذه الإشاعة ."

أراد الأسقف أن يتكلم ولكن كريستين قالت بصوت عال وثابت :

"إذن فليساعدني الرب كلي القدرة ومريم العذراء والقديس أولاف والقديس توماس الأسقف . . . أنني لم أعرف قط أن هذه الكذبة قد قيلت عنا ."

"إذن ليس من السهل أن نفهم كيف أنك أخفيت بكل تلك البراعة حملك عن الناس" سأل الكاهن . "لقد أخفيت نفسك عن كل الناس ولم تخرجي من بيتك إلا بالكاد طوال الشتاء ."

"منذ زمن طويل لم يعد لي أصدقاء في هذه الأبرشية . . . ولم يعد لدي سوى القليل من الرفيقات في هذه السنوات الأخيرة هنا . رغم أني لم أعرف حتى الآن أنهم كانوا كلهم أعدائي . ولكني كنت أحضر إلى الكنيسة في كل يوم قداس" ، قالت المرأة .

"أجل . . . وكنت تلفين نفسك في عباءات سميكة وترتدين ملابسك بحيث لا يرى أحد أن بطنك قد كبرت تحت حزامك . . . "

"وهذا ما تفعله كل امرأة . . . فهي تحب أن تبدو وسيمة حين تكون بين الناس" ، أجابت كريستين برقة .

تكلم الكاهن مجدداً :

"لو كان الطفل من زوجك كما تقولين ، فأعتقد أنك ما كنت سترعينه على ذلك النحو السيئ حتى مات من سوء رعايتك ."

تقدم أحد كهنة هامار الشبان ووضع ذراعه من حول كريستين بسرعة . بعد لحظة كانت تقف كما من قبل . . . شاحبة ومستقيمة . . . شكرت الكاهن بكل وقار .

تابع سيرا سولموند بقوة :

"قالت الخادمات في يورونَدغارد ذلك . . . أما أختي التي تزور الضيعة أحياناً فرأت ذلك أيضاً . . . لقد ذهبت المرأة إلى هناك وكان الحليب يتدفق من ثدييها حتى أن ملابسها كانت تبلل منه . . . ومع ذلك لاحظت كل امرأة أن جسم الصبي كان يحمل آثاراً تدل على أنه مات جوعاً . . . "

ضرب الأسقف هالفارد جانباً بيده :

"يكفي يا سيرا سولموند . علينا أن نعالج القضية التي بين أيدينا ، وهي إن لم يكن لدى يارترود هربراندسداتر ما تعتمد عليه حين تقدمت بشكواها ضد زوجها ، عدا ما سمعته من حكايات تقول السيدة هنا إنها أكاذيب . . . وإن كانت كريستين قادرة على البرهنة على أنها غير صحيحة . لا أحد يقول كما أعتقد أنها قتلت طفلها . . . "

ولكن كريستين وقفت شاحبة ولم تقل شيئاً .

التفت الأسقف نحو كاهن الأبرشية :

"ولكن أنت يا سيرا سولموند ، كان من واجبك الإلزامي أن تتحدث إلى هذه المرأة وتبلغها بما يقوله الناس عنها . هل فعلت ذلك ؟"

تضرج وجه الكاهن :

"لقد صليت من قلبي لأجل هذه المرأة ، حتى تبتعد من تلقاء ذاتها عن غرورها وتتوب وتكفّر عن ذنوبها . ولم يكن أبوها - صديقي - كذلك" ، قال

الكاهن بقوة . "لكن مع ذلك أعرف أيضاً أن لافرانس أوف يورونداغارد كان رجلاً ورعاً وقوي الإيمان . صحيح أنه كان يستحق نسلاً أفضل . . . ولكن ابنته هذه قد كومت العار فوق العار عليه . لم تكن قد كبرت كثيراً بعد حين سببت باستهتار بموت شابين صالحين من شبان الأبرشية هنا . ثم فسخت خطبتها من مرشح فارس جريء وشهم اختاره لها والدها ليكون زوجاً لها ، وتزوجت هذا الرجل الذي تعرف يا سيدي أنه أصبح خارجاً على القانون وخائناً . ولكنني ظننت في النهاية أن قلبها سيرقّ لابد ، حين رأت أنها كانت تقطن هنا مكروهة ومحتقرة وذات شهرة هي الأسوأ ، هي وكل أولادها في يورونداغارد . . . حيث عاش أبوها وراغنفريد إيفارسداتر بكل الحب والاحترام . . .

"ولكن كان الأمر أكثر من أن يحتمل حين جاءت هذه المرة مع ابنها لأجل تثبيت العماد . . . وكان على ذلك الرجل أن يقود الصبي أمامك وكل الأبرشية تعلم أنها عاشت معه في حالة زنا وغشيان محارم . . . "

أشار الأسقف إلى الآخر أن يصمت ثم سأل كريستين :

"ما هي صلة الدم بين زوجك وأولف هالدورسون ؟"

"والد أولف الحقيقي هو بارد بيترسون أوف هستنايس ، وهو شقيق غاوته إرلندسون أوف سكوغهايم جدّ إرلند نيكولاوسون لأمه ."

التفت سير هالفارد إلى سيرا سولموند نافد الصبر :

"هذا ليس غشيان محارم . . . إن حماتها وأولف أولاد عم . . . هذا انتهاك لصلة القرابة وهي خطيئة كبيرة ، إن كانت صحيحة . . . لا حاجة إلى جعلها أسوأ مّما هي عليه ."

"أولف هالدورسون عرّاب أكبر أبناء هذه المرأة" ، قال سيرا سولموند .

نظر الأسقف إليها فأجابت كريستين :

"أجل يا سيدي ."

جلس الأسقف برهة في صمت .

"فليكن الله في عونك يا كريستين لافرانسداتر" ، قال بحزن .

"عرفت أباك منذ زمن طويل . . . كنت ضيفه في يورondغارد في شبابي . أتذكرك جيداً حين كنت طفلة جميلة بريئة . ولو عاش لافرانس بيورغولفسون لما كان هذا سيحدث . فكري في أبيك يا كريستين . . . فلأجله عليك أن تتخلصي من هذه التهمة المخزية وتبرئة ساحتك لو استطعت ذلك . . . "

ومثل وميض البرق تذكرت كريستين . . . لقد ميّزت الأسقف مجدداً . يوم شتائي في ساعة الغروب . . . فحل أحمر صغير في الباحةِ ، وكاهن بحلقة سوداء من الشعر حول وجهه الأحمر الناري . هاهو معلق بحبل الرسن وقد تناثر الزبد فوقه ، محاولاً السيطرة على الحيوان الحرون والركوب فوقه دون سرج . كانت مجموعات من ضيوف عيد الميلاد الثملين الضاحكين تحوم في المكان ، وأبوها بينهم ، بوجه أحمر من الشراب والبرد ، وهو يصرخ بمرح . . .

التفتت نحو كولباين يونسون :

"كولباين ! أنت الذي عرفتني منذ كنت في المهد . . . أنت الذي عرفتني وأختّي في بيت أبينا وأمنا . . . أعرف أنك أحببت أبي كثيراً . . . كولباين . . . هل تصدق ما يقال عني ؟"

نظر إليها المزارع كولباين بوجه قاس وحزين :

"لقد أحببنا أباك كما تقولين . . . أجل ، نحن خدمه ، خدمه الفقراء وعامة الناس الذين أحبوا لافرانس أوف يوروندغارد واعتبروه شخصاً اختاره الله ليكون زعيماً . . .

"لا تسألينا يا كريستين لافرانسداتر نحن الذين رأينا كيف أحبك أباك وكيف كافأته على حبه . . . لا تسألينا عما نراه أمراً شريراً تفعلينه !"

طأطأت كريستين برأسها فوق صدرها . لم يعد الأسقف قادراً على أن يأخذ

منها أي كلمة أخرى . . . لم تعد تجيب على أسئلته .

ثم نهض سير هالفارد . إلى جوار المذبح العالي كان باب صغير يقود إلى طريق مغلق خلف الجزء الناتئ من الكنيسة . كان جزء من هذا يستعمل كموهف وقد غرزت فيه بعض الفتحات الصغيرة التي يمكن من خلالها للمصابين بالجذام أن يستقبلوا المضيف حين يقفون في الخارج هناك ويصغون إلى القداس بعيداً عن بقية المصلين . ولكن منذ سنوات عديدة لم يكن أحد مصاباً بالجذام في الأبرشية .

"ربما كان من الأفضل لك أن تنتظري هناك يا كريستين حتى يدخل الناس إلى الصلاة . سأكلمك لاحقاً . . . ولكن عليك الآن أن تذهبي إلى البيت" .

انحنت كريستين أمام الأسقف .

" أفضل الذهاب إلى البيت فوراً أيها السيد المبجّل إن منحتني الإذن ."

" كما تريدين يا كريستين لافرانسداتر . ليكن الرب حاميك أيتها السيدة . . . إن كنت بريئة فتأكدي من أن الرب نفسه وشاهدي دمه اللذين هما سيدا هذه الكنيسة ، القديس أولاف والقديس توماس اللذين ماتا في سبيل الفضيلة سيعملون على تبرئتك ."

انحنت كريستين ثانية أمام الأسقف . ثم مضت عبر باب الكاهن إلى باحة الكنيسة .

كان غلام مراهق ضئيل الحجم في ثوب أحمر جديد يقف هناك لوحده ، متيبساً ومنتصباً . التفت مونان بوجهه الطفولي الشاحب نحو أمه . كانت عيناه كبيرتين وخائفتين .

أبناؤها . . . لم تكن قد فكرت فيهم من قبل . وفي ومضة رأت مجموعة أبنائها . . . وهم واقفون على حاشية حياتها في هذا العام الأخير ، وهم يتجمعون معاً مثل قطيع من الجياد في عاصفة رعدية وقد أصابه الفزع . . . بعيداً عنها ،

بينما تناضل هي في النزاع الأخير من حبها . ما الذي رأوه وما الذي فكروا فيه ، ما الذي عانوه وهي تتقلّب وتتلوّى في جنونها . . . ؟ ما الذي سيحل بهم الآن . . . ؟

أمسكت بيد مونان الصغيرة الخشنة بيدها . كان الصبي يحدق مباشرة أمامه . . . ارتجف فمه قليلاً ، ولكنه تماسك .

مضت كريستين لافرانسداتر ويدها بيد ابنها عبر المقبرة ، ثم إلى مرج الكنيسة . فكرت في أبنائها ، وبدا لها وكأن عليها أن تنهار وترتمي أرضاً . كان حشد من الناس يقترب من أبواب الكنيسة بينما كانت الأجراس تدق كلها .

كانت قد سمعت حكاية ذات مرة عن رجل قتيل لم يستطع السقوط أرضاً لكثرة الرماح التي اخترقته . ولم تستطع وهي تمشي هناك أن تقع أرضاً لأن كل العيون كانت تخترقها .

●

صعدت الأم والطفل إلى القاعة العليا . وقف الأبناء من حول بيورغولف الذي كان يجلس إلى المائدة . كان رأس ناكفه يعلو جميع أخوته ، حيث يقف هناك بيد على كتف الصبي نصف الأعمى . رأت كريستين وجه بكرها الضيق الداكن ذا العينين الزرقاوين .

سألت بهدوء وهي تدخل نحو مجموعة الشبان :

"هل عرفتم بذلك ؟"

أجاب ناكفه عنهم جميعاً : "أجل . كانت غونهيلد في الكنيسة ."

وقفت كريستين قليلاً . كان الأخوة قد التفتوا مجدداً إلى أخيهم الأكبر ، حتى نطقت الأم :

"هل عرف أي منكم أن مثل هذه الأمور كان يهمس بها في الأبرشية . . . عن أولف وعني ؟"

التفت إليها إيفار إرلندسون فجأة :

"أتظنين يا أمي أننا لو علمنا أنك ما كنت ستسمعين شيئاً عن أفعالنا ؟ لست بالرجل الذي يجلس هادئاً ويترك أمه تسمى ظلماً بالزانية . . . حتى لو كنت أعرف أن ذلك صحيح وأنها زانية حقاً !"

قالت كريستين بحزن :

"أتعجب يا أبنائي ما هو رأيكم يا ترى بكل ما جرى في هذا العام الأخير ."

وقف الأبناء صامتين . ثم رفع بيورغولف وجهه ونظر إلى أمه بعينيه المريضتين :

"يا للمسيح يا أمي - ما الذي يمكن أن يكون رأينا - هذا العام - وكل الأعوام التي مضت من قبل ؟ أتعتقدين أنه سهل علينا أن نعرف كيف يكون رأينا؟"

قال ناكفه :

"أوه ، أجل يا أمي . . . ربما كان عليّ أن أكلمك ولكنك كنت تتصرفين على نحو لم أستطع معه فعل ذلك . وحين عمّدت أخانا الأصغر وكأنك اعتبرت أبانا رجلاً ميتاً . . . " توقف بإشارة عنيفة .

تحدث بيورغولف مجدداً :

"لم تفكري أنت وأبونا إلاّ بهذا النزاع بينكما . . . لم تفكرا في أننا ننمو لنصبح رجالاً في هذه الأثناء . لم تكترثا قط بمن سيصاب بأسلحتكما ويعاني من جروح نازفة . . . "

كان قد نهض واقفاً . وضع ناكفه يده على كتفه . رأت كريستين أن كلامه كان صحيحاً . . . كان هذان رجلين ناضجين . بدا لها وكأنها تقف عارية أمامهم ، وكأنها هي نفسها كانت قد خلعت ملابسها دون خجل أمام أولادها . . .

لقد رأوا هذا أكثر من شيء آخر خلال سنوات نموهم . . . أن أباهم وأمهم قد

أصبحا شخصين عجوزين . . . وأن نزوات الشباب لم تعد تلائمهما . . . ومع ذلك لم يكونا قد نضجا من حيث الشرف والوقار . . .

ثم قاطع الصمت صوت طفولي . راح مونان يندب قائلاً :

"أمي . . . هل سيأخذونك إلى السجن يا أمي ؟ هل سيأتون ليأخذوا أمنا منّا ؟"

رمى بذراعيه من حولها وضغط بوجهه تحت صدرها . ضمته كريستين إليها وانهارت على المقعد واحتوت الصبي الصغير الباكي بين ذراعيها . حاولت أن تواسيه .

"ابني الصغير ، ابني الصغير ، لا تبكي هكذا . . . "

ذهب غاوته ليضع يده على أخيه الصغير : "لن يأخذ أحد أمنا منا . لا تبك هكذا . . . لا يستطيعون إيذاءها . والآن علينا أن نكون هادئين يا مونان . . . عليك أن تعرف أيها الصبي أننا سنحرس أمنا !"

جلست كريستين مع الطفل وقد انحشر إلى جانبها . . . كأنما أنقذها الصغير بدموعه .

ثم قال لافرانس . . . نهض وحمرة الحمى في وجنتيه :

"أجل . . . ما الذي سنفعله أيها الأخوة ؟"

قال ناكفه : "حين ينتهي القداس ، سنذهب إلى بيت الكاهن ونعرض كفالة لأبينا بالتربية . هذا أول أمر سنفعله . . . ألا تعتقدون هذا أيها الشباب الطيبون ؟"

أجاب بيورغولف وغاوته وإيفار وسكوله بنعم . قالت كريستين :

"لقد حمل السلاح ضد رجل في باحة الكنيسة . وعليّ أن أفعل شيئاً ما لأحرره ونفسي من هذه الافتراءات . هذه قضايا خطرة جداً يا أبنائي وأعتقد أن عليكم أنتم أيها الشبان أن تشاوروا شخصاً ما حول كيفية التعامل معها ."

سأل ناكفه بلهجة احتقار : "ومن تعتقدين أننا سنستشير ؟"

"السير سيغورد أوف سوندبو هو ابن خالتي" أجابت أمه وهي تتلعثم قليلاً .

قال الشاب كما من قبل : "بما أنه لم يسبق له وفكر بذلك قبل الآن ، فأعتقد أننا أبناء إرلند لن نذهب لنتوسله بعد أن حلت بنا ضائقة . ما رأيكم يا أخوتي ؟ إن لم كنا بلغنا سن الرشد إلا أننا نستطيع حمل السلاح . . . خمستنا . . . "

قالت كريستين : " أيها الشباب ، في هذه القضية لن تسارعوا إلى السلاح ."

قال ناكفه برقة : "عليك أن تتركي الحكم لنا يا أمي . ولكن الآن يا أمي هيا نتناول بعض الطعام . واجلسي في مكانك المعتاد لأجل الخدم" ، قال هو كمن يعطي أمراً .

لم تستطع أن تأكل الكثير . جلست وهي تفكر . . . لم تجرؤ على السؤال إن كانوا سيرسلون في طلب أبيهم . وفكرت . . . كيف ستعالج هذه القضية ؟ إنها لا تعرف إلا القليل عن القانون في هذه الأمور . . . ربما عليها أن تبرئ نفسها من الافتراء بالقسم بشهود البراءة . وإن كان ذلك سيحدث ، فعلى الأغلب سيجري في الكنيسة الكبرى ، كنيسة أولينسين في فاغا . . . هناك لديها أقارب من جانب أمها في كل ضيعة كبرى تقريباً . وماذا لو سقط قسمها أرضاً . . . وكان عليها أن تقف أمامهم دون قدرة على تبرئة نفسها من التهمة ! ستجلب العار على أبيها . . . لقد كان غريباً عن "ديل" هنا . ولكنه استطاع أن تكون له مكانة وكان الجميع يحترمونه . في تلك الأيام حين كان لافرانس بيورغولفسون يعالج قضية ما في مجلس النبلاء أو مجلس شعبي ، كان لديه دائماً أتباع كثيرون . ولكنها عرفت أن عارها سيرتد عليه . رأت الآن على الفور كم كان أبوها وحيداً . . . رغم كل شيء كان وحيداً و غريباً بين الناس هنا ، حين راحت تحمله المرة تلو الأخرى

عبء العار والحزن والسمعة السيئة .

لم تكن قد فكرت أنها تستطيع أن تحس بهذا بعد الآن . . . ومن جديد بدا لها أن قلبها سيتحطم إلى قطع نازفة . . . والآن كان على وشك أن ينفجر .

خرج غاوته إلى الشرفة ونظر إلى الشمال .

قال : "الناس خارجون الآن من الكنيسة . هل ننتظر حتى يكونوا قد ابتعدوا أكثر في طريقهم ؟"

أجاب ناكفه : "لا . قد يفضلون أن يروا أن أولاد إرلند قد خرجوا . علينا أن نهيئ أنفسنا الآن أيها الشباب . من الجيد أنكم أحضرتم خوذكم معكم ."

كان ناكفه هو الوحيد الذي يملك العدة الصحيحة . كان قد ترك درعه ، إنما وضع خوذته على رأسه ، وأخذ ترساً وسيفاً ومطرداً . كان بيورغولف وغاوته يرتديان الخوذ الحديدية القديمة التي يرتديها الأولاد لدى التمرين على المبارزة بالسيوف ، ولكن إيفار وسكوله كانا يفضلان القبعات الفولاذية الصغيرة كالتي لا يزال المجندون من الأتباع يستخدمونها . نظرت أمهم إليهم وأحست بضيق غريب في الصدر :

"يبدو أنها ليست فكرة جيدة يا أبنائي أن نسلح أنفسنا ونحن ذاهبون إلى ضيعة الكاهن" قالت بصعوبة . "انتبهوا إلى عدم نسيان سلام اليوم المقدس رتوقير الأسقف ."

أجاب ناكفه :

"هناك ندرة في الشرف هنا في يوروندغارد الآن يا أمي . . . علينا أن نشتريه بأي سعر قد يتطلبه الأمر . . . "

توسلت الأم بخوف ، فالصبي ضعيف البصر قد حمل فأساً حربية كبيرة .

"تذكر يا بني أنت لا تستطيع أن ترى إلا قليلاً !"

"أستطيع أن أرى بمقدار ما تصل هذه الفأس" قال بيورغولف وهو يزن الفأس بيده .

ذهب غاوته نحو سرير لافرانس الصغير وتناول سيف جده الحربي الكبير الذي كان معلقاً فوق الجدار فوق السرير . استلّه من الغمد ونظر إليه :

"عليك أن تعيرني هذا السيف يا أخي . . . وأعتقد أن جدنا كان سيحب جيداً أن يصطحبنا هذا السيف في رحلتنا هذه ."

راحت كريستين تفرك يديها وهي جالسة . بدا وكأنها ستصرخ- ألماً ورعباً - تحثها قوة أكبر من الألم أو الرعب . . . كما صرخت حين ولدت هؤلاء الشبان . جراح وجراح لا حصر لها أصيبت بها خلال حياتها ، ولكنها كانت تعرف الآن أنها شفيت كلها . . . أما الندوب فكانت لا تزال تؤلمها . . . ولكنها لن تنزف حتى الموت . . . لم يسبق لها أن كانت حيّة أكثر من الآن . . .

كانت البراعم والأوراق قد تساقطت عنها إلا أن أغصانها لم تكن مقطوعة ، كما لم تكن قد اجتثت كشجرة . ولأول مرة منذ أن حملت طفل إرلند نيكولاوسون نسيت الأب تماماً ولم تعد ترى سوى أبنائه . . .

ولكن الأبناء لم يكونوا ينظرون إلى أمهم وهي جالسة شاحبة بعينين واسعتين مثبتتين . كان مونان لا يزال ممداً على حضنها . . . لم يكن قد تركها قط طوال الوقت . خرج الشبان الخمسة من العلية .

نهضت كريستين وخرجت إلى الشرفة . والآن تقدموا من خلف المستودعات وتوجهوا الواحد في إثر الآخر فوق الممر باتجاه روموندغارد بين حقول الشعير الشاحبة المتموجة . كانت الخوذ والقبعات الفولاذية تلتمع على نحو كليل ، ولكن نور الشمس كان يشع فوق رمح ناكفه ورأسي رمحي التوأمين . وقفت هناك تلاحق الشبان بنظرها . كانت أماً لهم كلهم .

في الغرفة انهارت أمام الخزانة التي كانت صورة مريم العذراء معلقة عليها . كان نحيبها وعويلها يكادان يمزقانها . لاذ مونان الباكي أيضاً بأمه . قفز لافرانس من سريره ورمى بنفسه على ركبتيه من الجانب الآخر . رمت بذراعيها من حول أصغر ابنيها . . .

منذ أن مات ابنها الصغير . . . كانت قد فكرت : ما الذي لديها لتصلّي لأجله ؟ كانت تحس بأنها تسقط نحو فكي جهنم الفاغرين قاسية وباردة وثقيلة كصخرة . ولكن الصلاة انفجرت الآن من شفتيها دون مقاومة . . . دون إرادة واعية منها راحت روحها تصب نفسها نحو مريم العذراء والأم ، ملكة السماء والأرض ، صرخات الفزع والمديح والشكر . . . مريم . . . مريم . . . أملك الكثير ، لا زال لديّ كنوز لا نهاية لها يمكن أن تؤخذ مني . . . أم الرحمة خذيهم تحت جناحك . . . !

●

كان هناك الكثير من الناس في الباحة في روموندغارد . وحين دخل أولاد إرلند سألهم أحد الأتباع عما يريدونه .

قال ناكفه بابتسامة مثيرة للحنق : "لا نريد منك شيئاً حتى الآن . لدينا مهمة لدى الأسقف اليوم يا ماغنوس . لاحقاً ، ربما قد يكون لدينا نحن الأخوة شيء نقوله لكم أيها الناس . ولكن لا حاجة إلى الخوف منا هذا اليوم ."

صدرت بعض الصرخات والاهتياجات . خرج سيرا سولموند وكان سيأمر الشبان بالرحيل من هناك . ولكن بعض المزارعين صرخوا : يتوجب أن يمنح الشبان الإذن كما قالوا ليقوموا باستفسار حول التهمة الموجهة ضد أمهم . خرج خدم الأسقف وقالوا لأولاد إرلند إن عليهم الذهاب فقد كان الناس يجلسون للطعام وليس لدى أحد الوقت للإصغاء إليهم الآن . ولكن المزارعين لم يعجبهم هذا .

سأل صوت عال : " ما هذا أيها الناس الطيبون؟" لم يلاحظ أحد أن السير هالفارد نفسه كان قد خرج إلى شرفة العلية .وقف هناك الآن في ثوبه البنفسجي والقبعة الحريرية الحمراء فوق شعره الأبيض ، بطوله وجسمه الضخم الأشبه بأجسام الزعماء . "من هؤلاء الشبان ؟"

أجيب بأن هؤلاء أبناء كريستين أوف يورروندغارد .

سأل الأسقف ناكفه : "أأنت كبيرهم ؟ إذن سأكلمك . وعلى الآخرين أن يبقوا خارجاً في الباحة في هذه الأثناء ."

صعد ناكفه الدرج إلى القاعة العليا ولحق بالأسقف إلى الغرفة . جلس السير هالفارد في الكرسي العالي ونظر إلى الشاب الذي وقف أمامه متكئاً على مطرده .

"ما اسمك ؟"

"نيكولاوس إرلندسون يا سيدي ."

"أتظن أن هناك حاجة إلى أن تكون مسلحاً بكل هذه الأسلحة يا نيكولاوس إرلندسون حين يكون عليك أن تخاطب الأسقف ؟" سأله الآخر مبتسماً قليلاً .

تضرج وجه نيكولاوس . ذهب إلى الزاوية ووضع سلاحه وخوذته ثم عاد . وقف أمام الأسقف وقد أحنى رأسه الساخر . كانت إحدى يديه تمسك بمعصم الأخرى وهو واقف وقفة مسترخية إنما ملائمة ومحترمة .

فكر السير هالفارد : لم يكن هذا الشاب يفتقر إلى المعرفة في آداب التهذيب والسلوك المؤدب . صحيح أنه لم يكن طفلاً صغيراً جداً حين خسر أبوه ثروته وأملاكه . . . إنه يتذكر دون شك ذلك الوقت الذي كان فيه وريثاً لهوسابي . كما كان شاباً وسيماً . . . من المؤسف له كما فكر الأسقف .

"هل كان أولئك الذين في رفقتك كلهم من أخوتك ؟ كم عددكم يا أولاد إرلند ؟"

"نحن سبعة يا سيدي من بقي حياً منا ."

. . . كثير من الحيوات الشابة منخرطة في هذا النزاع . تنهد الأسقف دون قصد .

"اجلس يا نيكولاوس . . . ستحدثني عن هذه الشائعات التي انتشرت حول أمك ووكيلها على الأرجح ، أليس كذلك ؟"

"شكراً يا سيدي المبجل ، يسرني أن أقف أمامك ."

حدق الأسقف بتأمل إلى الشاب . ثم قال ببطء :

"الأمور وما فيها يا نيكولاوس ، أعتقد أنه من الصعب أن نصدق أن ما يقال عن كريستين صحيح . ولا يحق لأحد اتهامها بالزنا سوى زوجها . ولكن هناك القرابة بين أبيك وبين أولف ، وهو أيضاً عرّابك علاوة على ذلك . . . ويارترود قدمت شكواها على نحو يفهم منه أنها تتهم أمك بانعدام الشرف . . . هل صحيح ما تقوله من أن زوجها كان يضربها غالباً وأنه لم يقرب سريرها منذ عام تقريباً ؟"

"لم يكن أولف ويارترود متفقين في حياتهما الزوجية . . . لم يكن أبونا بالتربية شاباً حين تزوجها ، ولا بد أنه كان قاسياً ومتسرعاً . أما نحونا نحن الأخوة ونحو أبينا وأمنا فقد كان هو دائماً الصديق والقريب المخلص . إن أول طلب أتوسل أن أضعه أمامك يا سيدي العزيز هو أن تطلق سراح أولف إن أمكن لقاء كفالة ."

"أنت لم تبلغ سن الرشد بعد ؟" سأل الأسقف .

"كلا يا سيدي . ولكن أمنا راغبة في عرض أي كفالة قد تطلبونها ."

هز الأسقف رأسه .

"سيكون لأبي الرأي نفسه وهذا أمر أعرفه بكل ثقة . وأنا أنوي الانطلاق من هنا مباشرة إليه لأعلمه بما حدث . هل لك أن تمنحه الإذن بالمثول أمامك في الغد ؟"

لمس الأسقف ذقنه بيده وجلس وهو يحك بإبهامه الشعرات القاسية بصوت له حفيف .

قال الأسقف : "اجلس يا نيكولاوس ، نستطيع التكلم على نحو أفضل هكذا ." انحنى ناكفه شاكراً وجلس . " . . . ولكن هل صحيح أن أولف قد أنكر أنه عاشر زوجته ؟" سأله وكأنه قد فكر مرة أخرى بذلك .

"أجل يا سيدي . حسب معرفتي . . . " عبرت ابتسامة وجه الأسقف ، وعندها ابتسم الشاب أيضاً . "لقد نام أولف في العلية معنا نحن الأخوة منذ عيد الميلاد الذي مضى ."

جلس الأسقف صامتاً لفترة أخرى : " وماذا عن طعامه . . . من أين كان يأكل ؟"

"كانت زوجته ترسل له الطعام إلى خارج منزلهما ، حين كان يذهب إلى الغابة أو ما شابه ." تلعثم ناكفه قليلاً . "كانت هناك مشكلة ما في الأمر . . . وظنت أمي أن من الأفضل له أن يتناول طعامه معنا مجدداً ، كما كان يحدث قبل زواجه . ولكن أولف رفض ذلك ، فقد قال إنه سيجري الكثير من الكلام لو عدّل الصفقة التي اتفق عليها مع أبي ، حول السلع التي يحصل عليها من الضيعة لقاء سكنه حين أسس منزله . . . وقد اعتبر أن الأمر ليس عادلاً لو أن أمي كانت ستقدم له الطعام مجدداً دون حسم من تلك السلع . ولكن أمي ألحت على رأيها - أن يتناول أولف الطعام معنا - والبقية ستتم تسويتها لاحقاً ."

"هم . . . ولكن المعروف عن أمك تقتيرها في أحوالها ، وأنها ربة منزل جيدة ومقتصدة . . . "

قال ناكفه بحماسة : "ليست مقتصدة بالطعام . وعلى هذا يمكن لكل شخص أن يشهد على ذلك ، كل خادم وكل خادمة كانت في ضيعتنا . . . أمي أكرم النساء بالطعام . وهي لم تغير عادتها الآن عما كانت عليه حين كنا أغنياء . . . وسعادتها لا تعادلها سعادة حين تستطيع أن تضع على مائدتها طبقاً شهياً وتبذل كل جهدها حتى ينال كل خادم وخادمة حتى راعي الخنازير ونزلاء منازل الفقراء حصة من الطعام الطيب ."

جلس الأسقف مفكراً : " هم . . . قلت إنك تنوي إحضار أبيك ؟"

"أجل يا سيدي . هل في هذا شيء مناف للمنطق ؟" لم يجب الأسقف ،

فتابع ناكفه : "تكلمنا مع أبي في الشتاء ، أخي غاوته وأنا . . . وقد أوصلنا له أيضاً الأنباء ، بأن أمنا حامل . ولكننا لم نسمع كلمة أو نر إشارة منه يُفهم منها أنه كان يشك في إخلاص أمنا له الذي هو كما الذهب الخالص ، أو أنه استغرب من النبأ . ولكن أبي لم يكن يشعر بالراحة في سيل . لقد كان مصمماً على السكن في مزرعته الخاصة في دوفر . وقد أنفقت أمي بعض الوقت هناك في الصيف . وقد غضب لأنها لم تبق معه هناك لترعى له شؤون بيته . . . كان يريد منها أن تتركنا غاوته وأنا للعناية بيوروندغارد ، وأن تنتقل هي للسكن في هاوغن . . . "

حك الأسقف هالفارد ذقنه مرات عديدة وهو يحدق إلى الشاب .

. . . مهما يكن إرلند نيكولاوسون . . . فإنه لن ينحط إلى درجة أن يتهم زوجته بالزنا أمام أبنائه الشبان .

رغم أن الأدلة كثيرة ضد كريستين لافرانسداتر . . . إلا أنه لم يصدق التهمة . لقد اعتبر أنه رأى أنها نطقت بالحقيقة حين أنكرت معرفة أنها كانت متهمة بالعلاقة مع أولف هالدورسون . ومع ذلك فقد تذكر أن هذه المرأة كانت ضعيفة من قبل فيما يتعلق بالشهوات الحسية . . . وقد استطاعا أن ينتزعا موافقة لافرانس بحيل بشعة ، هي وهذا الرجل الذي تعيش معه في حالة نزاع .

وحين أثيرت قضية موت الطفل ، رأى فوراً أن ضميرها كان يؤنبها . ولكن حتى لو كانت مهملة لطفلها ، لما أمكن سوقها أمام محكمة دنيوية لهذا السبب . لأجل ذلك عليها أن تكفّر أمام الرب حسب أوامر كاهن اعتراف أبيها . وقد يكون الطفل ابن زوجها على أي حال حتى لو أنها لم ترعه جيداً . ما كان يمكن لها أن تكون سعيدة إذ ترزق بطفل مجدداً في السنوات التي هجرها فيها زوجها ولديها مسبقاً سبعة أبناء عليها إطعامهم رغم قلة الوسائل بالمقارنة مع ما كان لديهم عندما ولدوا . سيكون أمراً مجافياً للمنطق أن تحب ذلك الطفل كثيراً .

لم يصدق أنها زوجة غير مخلصة . ورغم أن الرب وحده يعرف ما سمعه ورآه خلال عشرين سنة منذ أن رسم كاهناً وسمع الاعتراف . ولكنه صدقها . . .

ولكن تصرفات إرلند نيكولاوسون في هذه القضية ما كانت مفهومة له إلا بطريقة واحدة . لم يقترب من زوجته وهي حامل ولا حين ولد الطفل ولا حين مات . ربما كان يعتقد أنه ليس الأب . . .

والآن كان التفكير سينصبّ على كيفية تصرّف الرجل . هل سيقف ويحمي زوجته لأجل خاطر أبنائهما السبعة رغم كل شيء . . . هذا تصرف رجل شريف . أو هل سيقوم هو بعد انتشار هذه الحكايات بالتقدم بشكوى ضدها ؟ مما سمعه الأسقف عن إرلند أوف هوسابي فقد اعتبر أنه لن يكون متأكداً من أن الرجل لن يفعل ذلك .

"من أقرب الناس إلى أمك ؟" سأله مجدداً .

"إن يامالت هالفاردسون أوف آيلين متزوج من أختها ، أرملة سايمون دار أوف فورمو . ولها ابنا عم كيتيل آسموندسون أوف سكونج وأخته راغنا زوجة سيغورد كيرنينغ . أما إيفار غييسلنغ أوف رينغهايم وأخوه هافارد تروندسون فهما ابنا خالها . ولكنهم جميعاً يسكنون بعيداً عن هنا . . . "

"ولكن السير سيغورد ألديارن أوف سوندبو هو ابن خالة أمك . وقد يتقدم الفارس في مثل هذه القضية ويدافع عن ابنة خالته . نيكولاوس ! عليك أن تنطلق إليه الآن– اليوم – وتجلب خبراً منه يا صديقي !"

تردد ناكفه قليلاً ثم أجاب :

"سيدي المبجل . . . لم تكن بيننا معرفة كثيرة . ولا أعتقد يا سيدي أنه سيكون من مصلحة أمي لو تقدم هذا الرجل دفاعاً عنها . إن آل إرلند إلديارن ليسوا محبوبين جداً في هذا الريف . لم يخرب رأي الناس في أبي سوى هذا . . .

أن آل غيبسلينغ قد ارتبطوا به في تلك الخطة التي كلفتنا خسارة هوسابي وخسارتهم سوندبو ."

ضحك الأسقف قليلاً : "أجل ، إرلند إلديارن . أجل ، لديه نزعة التخاصم مع الناس – لقد تشاجر مع كل أصهاره هنا في الشمال . أما جدك لأمك الذي كان رجلاً صالحاً وغير خائف من الانحناء لو أن السلام والوفاق بين الأقرباء يمكن أن يُعززا . . . فلم ينجح أكثر من البقية ، وقد أصبحا هو وإرلند إلديارن ألدّ الأعداء ."

بدأ ناكفه يضحك قليلاً : "أجل ، ولم يكن النزاع حول أمور كبيرة أيضاً . . . شرشفان مطرزان مع منشفة ذات حواش زرقاء . وقد قدر ثمنها بماركين ، أي المسألة كلها بماركين . ولكن أم الأم (الجدة) كانت شديدة الإلحاح على أن يحصل زوجها على هذه الأشياء عند توزيع الميراث وذكرتها غودرون إيفارسداتر لزوجها أيضاً . وفي النهاية أخذها إرلند وخبأها في حقائب السفر ، ولكن لافرانس أخرجها . . . وأعتبر أن لديه كل الحق فيها ، فقد كانت راغنفريد هي التي طرزتها حين كانت شابة صغيرة في البيت في سوندبو . ولكن حين أصبح إرلند واعياً لهذه الأشياء ، فقد ضرب الجد في الوجه ثم أمسك به جدي ورماه أرضاً ثلاث مرات وهزّه مثل الجلد المدبوغ . وبعد ذلك لم يتبادلا كلمة واحدة . . . وكل ذلك من أجل تلك الخرق التافهة . . . إن أمي تحتفظ بها في البيت في خزانتها . . . "

ضحك الأسقف من كل قلبه . كان يعرف هذه الحكاية جيداً- كانت قد أثارت الكثير من المرح بين الناس في أيامها - وكيف أن أزواج بنات إيفار كانوا حريصين على إرضاء زوجاتهم . ولكنه وصل إلى غايته . . . كان وجه الشاب قد تحوّل إلى الابتسام . لقد رحلت النظرة الحذرة الخائفة برهة عن العينين الزرقاوين الجميلتين . ثم ضحك السير هالفارد بصوت أعلى أيضاً :

"أجل ، ولكنهما يا نيكولاوس تحادثا مرة أخرى ، وكنت أنا شاهداً على

ذلك . كان ذلك في أوسلو ، في احتفال عيد الميلاد في السنة السابقة على وفاة الملكة ، ليدي يوفيميا . ولقد تحدث ملكنا هاكون طيب الذكر مع لافرانس . . . لقد سافر جنوباً ليحيي سيده ويعرض عليه خدماته المخلصة . . . تحدث الملك عن مدى كون هذه العداوة مضادة للروح المسيحية وفظة ، العداوة بين عديلين . ذهب لافرانس إلى حيث كان إرلند واقفاً مع بعض رجال الحرس ، وطلب منه بود أن يسامحه على تسرعه وعرض أن يرسل الأغراض إلى الليدي غودرون مع تحيات المحبة من أخيها وأختها . أجاب إرلند : أنه سيصالح لو أن لافرانس وقف أمام الرجال هناك واعترف أنه تصرف كلص وسارق عند توزيع ميراث حميهما . التفت لافرانس وسار بعيداً . . . وكانت تلك على ما أعتقد آخر مرة تقابل فيها صهرا إيفار غييسلينغ على هذه الأرض" ، أنهى الأسقف كلامه ضاحكاً .

ثم قال وهو يطوي يديه معاً : "ولكن اسمع يا نيكولاوس إرلندسون . لا أعرف إن كان أمراً حكيماً أن تسرع في إحضار أبيك إلى هنا . . . أو أن تطلق سراح أولف هالدورسون . على أمك أن تبرئ نفسها حتماً ، على ما يبدو لي . . . طالما كان الكلام عن ارتكابها الخطيئة قد انتشر خبره كل هذا الانتشار . ولكن حسب ما هي الأمور عليه الآن ، هل تظن أنه سيكون أمراً سهلاً على كريستين أن تجد السيدات اللواتي سيقفن إلى جانبها عند حلف اليمين؟"

رفع نيكولاوس بصره إلى الأسقف . . . وقد بدا الشك والخوف في عينيه : "انتظر أياماً قليلة يا نيكولاوس ! أبوك وأولف شخصان من أبرشيات غريبة وليسا محبوبين كثيراً . . . كريستين ويارترود هما كلتاهما من الديل هنا . . . ولكن يارترود من الجنوب البعيد ، وأمك واحدة من هؤلاء الناس هنا . ولقد لاحظت جيداً أن لافرانس بيورغولفسون لم ينسه الناس بعد . ويبدو أنهم أرادوا معاقبتها لأنهم اعتبروا أنها ابنة شريرة . . . ولكني أستطيع أن أعرف سلفاً أن الكثيرين يظنون أنهم أساؤوا إلى الأب باتهام ابنته . . . إنهم غاضبون ونادمون ، وسرعان ما

سوف لا يتمنون شيئاً سوى أن تكون كريستين قادرة على تبرئة نفسها . وربما لن يكون عند يارترود سوى القليل حين سنرى ما لديها . ستكون هناك مسألة أخرى حين سيتجول زوجها وهو يثير حفيظة الناس ويجعلهم يقفون ضده . . . "

قال ناكفه وهو يرفع عينيه إلى الأسقف : "يا سيدي سامحني على ما سأقول ، ولكننا لا نستطيع ألا نفعل شيئاً لأبينا بالتربية ، وأن يكون علينا ألاّ نحضر أبينا ليقف إلى جانب أمنا في هذه الأيام . . . "

قال الأسقف هالفارد :

"ومع ذلك أطلب إليك يا بني أن تأخذ بنصيحتي . لا تستعجل كثيراً بإحضار إرلند نيكولاوسون إلى هنا . في هذه الأثناء سأرسل رسالة إلى السير سيغورد أوف سوندبو أطلب منه أن يحضر إلى هنا ليقابلني . . . ما هذا ؟" نهض وخرج إلى الشرفة .

كان غاوته وبيورغولف إرلندسون قد وقفا بظهريهما إلى جدار المخزن وراحا يصدان مجموعة من رجال الأسقف الذين كانوا يرفعون السلاح ضدهما . أسقط بيورغولف رجلاً إلى الأرض بضربة من فأسه في اللحظة التي خرج فيها الأسقف وناكفه إلى الخارج . كان غاوته يصدّ الضربات بسيفه . أما إيفار وسكوله فكانا قد اعتُقلا من قبل بعض المزارعين بينما راح آخرون يحملون رجلاً جريحاً . كان سيرا سولموند يقف بعيداً وقد راح فمه وأنفه ينزفان .

صرخ السير هالفارد : "توقفوا . أنزلوا أسلحتكم يا أولاد إرلند . . . " نزل إلى الباحة واتجه نحو الشبان الذين أطاعوه فوراً . ما هذا ؟"

تقدم سيرا سولموند وانحنى أمام الأسقف وقال :

"هكذا هي الحال أيها الأب المبجل . لقد انتهك غاوته إرلندسون سلام اليوم المقدس وضربني أنا كاهن أبرشيته كما ترى !"

في اللحظة نفسها كان أحد المزارعين الأكبر سناً قد تقدم إلى الأمام

وقدم فروض الطاعة للأسقف وتكلم :

"سيدي المبجل ، كان الصبي شديد الانفعال ، فالكاهن قد تكلم عن أمه على نحو ما كان يستطيع أحد معه أن يتوقع من غاوته أن يتحمل كلامه بوداعة ."

"أمسك عليك لسانك يا سيرا . . . لا أستطيع سماع أكثر من شخص واحد بينكم في المرة الواحدة" ، قال السير هالفارد نافد الصبر . "تكلم يا أولاف تروندسون ."

قال أولاف تروندسون :

"لقد أراد الكاهن أن يثير حفيظة أولاد إرلند ، ولكن بيورغولف وغاوته ردا عليه باتزان . وقال غاوته أيضاً ما نعرف أنه صحيح ، من أن كريستين عاشت مع زوجها في دوفر فترة خلال الصيف الماضي ، وعندها حملت منه . . . فالطفل الصغير المسكين (المدفون) هناك هو موضوع هذه الضجة كلها . ولكن الكاهن قال له بما أن الناس في يوروندغارد كانوا متعلمين جيداً ، فلا بدّ أنها تعرف حكاية الملك داود والسيدة باث - شيبا . . . ولكن إرلند نيكولاوسون كان لا بد يشعر بالوسن شأن الفارس يورياس ."

أحمر وجه الأسقف حتى أصبح بلون الأرجوان شأن ثوبه . التمعت عيناه السوداوان . نظر إلى سيرا سولموند مدة من الزمن . ولكنه لم يخاطبه :

قال : "أتعرف يا غاوته إرلندسون أنك بهذا التصرف قد جلبت على نفسك تحريم الكنيسة ؟ ثم أمر أن يحمل أولاد إرلند إلى يوروندغارد . قام اثنان من حراسه وأربعة مزارعين اختارهم الأسقف لمعرفته بقدرهم وحكمتهم ، بمرافقة الشبان .

قال لناكفه : "عليك بالذهاب معهم أنت أيضاً يا نيكولاوس وحافظ على هدوئك . لم يتصرف أخوتك على نحو مفيد لأمهم ، ولكني أرى جيداً أنهم كانوا قد استفزوا إلى حد كبير ."

في أعماقه ما كان أسقف هامار يعتبر أن أولاد كريستين قد أخبروا بقضية أمهم . لقد سبق له أن رأى أن هناك الكثير من الناس يحملون أفكاراً أخرى عن سيدة يوروندغارد خلافاً لأفكارهم صباحاً حين جعلت الكأس يطفح بقدومها إلى الكنيسة مع أولف هالدورسون ليكون كفيلاً لابنها . كان أحد هؤلاء هو كولباين يونسون . . . ولذلك وضعه السير هالفارد مشرفاً على الحرس .

•

دخل ناكفه إلى القاعة العليا أولاً حيث كانت كريستين جالسة فوق طرف سرير لافرانس ، ومونان على حضنها . حكى لها ما جرى ولكنه ركّز على أن الأسقف يعتبرها بريئة وأنه يظن أيضاً أن أخوته كانوا قد استفزوا بحدة قبل أن ينتهكوا سلام اليوم المقدس . وقد أشار على أمه ألا تحاول مخاطبة الأسقف بنفسها .

اقتيد الأخوة الأربعة الآن . حدقت أمهم إليهم . كانت شاحبة غريبة العينين في وسط يأسها العميق وخوفها . بدا قلبها وكأنه يكاد ينفجر . ومع ذلك كلمت غاوته بهدوء :

"سأحملك المسؤولية يا بنيّ على هذه المسألة . . . ولم يكن شرفاً كبيراً لسيف لافرانس بيورغولفسون أن تستله ضد مجموعة من الفلاحين السذج المولعين بالإشاعات . . . "

"لقد جردته أولاً ضد رجال الأسقف" ، قال غاوته بغضب . "ولكن صحيح أنه ليس شرفاً كبيراً لجدنا أن نضطر إلى حمل السلاح في مثل هذه القضية . . ."

نظرت كريستين إلى ابنها . ثم اضطرت إلى الالتفات برأسها بعيداً . ورغم أن كلماته آلمتها ، إلا أنها لم تستطع أن تغالب ابتسامة . . . كان ذلك أشبه بعضّ الرضيع لحلمة ثدي أمه بأسنانه اللبنية ، كما فكرت .

قال ناكفه : "أمي ، أعتقد أنه كان من الأفضل لك أن تذهبي الآن وتأخذي مونان معك . . . عليك ألا تتركيه لوحده حتى تكون أحواله أفضل ." قال بصوت خفيض . "حافظي عليه ضمن المنزل ، حتى لا يرى إخوته في الحبس ."

نهضت كريستين :

"يا أبنائي . . . إن كنتم تعتبرونني صالحة فأرجو أن تقبّلوني قبل أن أغادر هذا المكان ."

تقدم ناكفه وبيورغولف وإيفار وسكوله واحداً واحداً وقبلوها . حدق الخارج على القانون بحزن إلى أمه . . . وحين مدت يدها إليه أخذ طية من كمها وقبلها . كان هؤلاء الخمسة كلهم الآن ، عدا غاوته ، أطول منها ، كما لاحظت كريستين . تأخرت قليلاً وهي ترتب سرير لافرانس ، ثم خرجت مع مونان .

●

كانت هناك أربع عليّات في يورونْدغارد : القاعة الكبرى ، والمخزن الجديد ، الذي كان المسكن الصيفي في طفولة كريستين ، قبل أن يشيد لافرانس المنزل الكبير ، المخزن القديم ومخزن الملح . . . وكان له علية تنام فيها الخادمات في الصيف .

صعدت كريستين إلى علية المخزن الجديد مع مونان . كانا ينامان هناك منذ وفاة الطفل الصغير . وهناك راحت تذرع الغرفة جيئة وذهاباً حين دخلت فريدا وغونهيلد حاملتين عصيدة المساء . طلبت كريستين من فريدا أن تقدم للحراس الجعة واللحم . أجابت المرأة بأنه سبق لها وفعلت ذلك- بناء على طلب ناكفه - ولكن الرجال قالوا إنهم لن يتناولوا شيئاً من يدي السيدة طالما كانوا في الضيعة في مهمة كهذه المهمة . لقد جلبوا اللحم والشراب من مكان آخر .

"ومع ذلك ، احملي إليهم برميل جعة ."

كانت غونهيلد خادمة المنزل الشابة محمرة العينين من البكاء :

"لا يوجد بيننا نحن خدم المنزل من يصدق هذا عنك يا كريستين لافرانسداتر، ثقي بكلامي . . . لقد قلنا جميعاً إن هذه أكاذيب ."

قالت السيدة : "إذن سمعتم بما كان يقال . كان الأجدر بكم أن تخبروني بذلك ."

"لم نجرؤ خوفاً من أولف" قالت فريدا ، وتابعت غونهيلد باكية :

"لقد أجبرنا على الصمت بتهديداته . . . غالباً ما فكرت في أنه كان عليّ أن أبلغك وأتوسل إليك أن تكوني أشد حذراً . . . وذلك حين سهرت إلى وقت متأخر في الليل تحادثين أولف ."

"أولف . . . كان يعرف عن ذلك أيضاً ؟" سألتها كريستين بصوت خفيض .

"كانت يارترود ترمي أولف بذلك منذ زمن بعيد . . . وكان هو يضربها لأجل ذلك ، على ما أعتقد . وفي إحدى الليالي من عيد الميلاد الماضي وحين بدأ بطنك يتضخم . . . جلسنا نشرب في منزل الوكيل . . . سلوفايغ وأويفيند كانا هناك ، وبعض الناس من جنوب الأبرشية . . . قالت يارترود له عندئذ إن ذلك كان من فعله . ضربها أولف بحزامه حتى أدماها . ولكن يارترود بقيت تقول إن أولف لم يقل كلمة واحدة لينكر ذلك . . ."

سألت السيدة : "وبعد ذلك جرى حديث عن هذا في الأبرشية ؟"

"أجل . ولكن نحن خدم منزلك كنا نعارض ذلك دائماً" ، قالت غونهيلد دامعة العينين .

ولتهدئة مونان اضطرت كريستين إلى الاضطجاع مع الطفل وضمه بين ذراعيها . ولكنها لم تخلع ملابسها ، ولم تعرف النوم تلك الليلة .

•

في هذه الأثناء في القاعة العليا كان لافرانس الصغير قد نهض وارتدى ملابسه . ولاحقاً مع اقتراب المساء ، حين ذهب ناكفه ليساعد في شؤون القطيع ، مضى الصبي نحو الإسطبل . أسرج الحصان الأحمر المخصي الذي كان لغاوته . كان ذلك أفضل حصان موجود هناك بعد الفحل ، ولم يكن يجرؤ على ركوبه .

خرج بعض الرجال من الذين كانوا يحرسون في الضيعة وسألوا الصبي أين هو ذاهب .

أجاب لافرانس الصغير : "لا أعتقد أني سجين . ولكني لا أكترث إن أخبرتكم . . . لا تقدرون على منعي من الركوب إلى سوندبو لإحضار الفارس إلى هنا ليقف إلى جانب قريبته . . . "

قال كولباين يونسون : "سرعان ما سيحل الظلام يا صبي . لا يمكن لهذا الطفل أن يسافر عبر فاغه يا جورج في الليل . علينا أن نكلم أمه ."

قال لافرانس : "لا ، لا تفعلوا ذلك ." ارتجف فمه قليلاً . "أذهب في هذه المهمة لأني أضع ثقتي في الرب وفي مريم العذراء . . . وهما سيحرسان رحلتي لو كانت أمي بريئة . ولا شيء آخر يهم . . . " وهنا صمت لأن دموعه كادت تغلبه .

وقف الرجال صامتين قليلاً . حدق كولباين إلى الطفل الأشقر الوسيم :

"اذهب إذن وليكن الله معك يا لافرانس إرلندسون" ، قال وكان سيساعد الصبي على ركوب السرج .

ولكن لافرانس قاد الحصان نحو الأمام بحيث اضطر الرجال إلى الابتعاد عن طريقه . عند الصخرة الكبيرة قرب بوابة الضيعة صعد عليها ورمى بنفسه فوق متن "راودن" وأسرع غرباً على الطريق نحو "فاغه" .

-٨-

كان لافرانس قد قاد حصانه حتى تغطى بالعرق حين وصل إلى البقعة التي يعرف أن فيها ممر يصعد عبر الجبل وبين الجروف التي تبرز بحدة فوق الجانب الشمالي من وادي سيلسا . عليه الصعود إلى الأراضي العالية ، كما كان يعرف ، قبل أن يحل الظلام . لم يكن يعرف جيداً هذه الجبال بين فاغه سيل ودوفر . ولكن الحصان كان هنا للرعي في أحد فصول الصيف وقد حمل غاوته إلى هاوغن كثيراً من المرات ، رغم أن ذلك كان عبر ممرات أخرى . تمدد لافرانس الصغير فوق عنق الحصان وربت عليه :

"عليك أن تجد طريقك إلى هاوغن يا راود ، يا بنيّ . عليك أن تحملني إلى أبي هذه الليلة ، أجل أيها الفرس الطيب !"

ما أن وصل إلى أعلى الجبل واستطاع الجلوس في السرج مجدداً ، حتى كان الظلام قد خيم بسرعة . سار عبر واد صغير منعزل ضحل مستنقعي ، بين جروف منخفضة في خط لا منته أمام سماء راحت تعتم أكثر فأكثر . كانت هناك أجمات من شجر البتولا على جوانب الوادي ، وراحت سيقان الأشجار تلتمع بيضاء . في المرة تلو الأخرى كانت أوراق الشجر تحتك بصدر الحصان ووجه

الصبي. راحت الحجارة تتفتّت تحت حوافره وتتدحرج نحو النهر في قاع الوادي . . . ثم كانت حوافر الحصان تشق طريقها في الوحل. عرف "راودن" طريقه في الظلام صعوداً ونزولاً في المنحدرات، حتى أن خرير النهر راح يبدو أقرب وأعلى، وأحياناً كان يخفت حتى يتلاشى. ضبح أحد الوحوش ذات مرة بعيداً في الليل، ولكن لافرانس لم يعرف ما هو . . . وكان صوت الريح يرتفع ويهبط.

أمسك الطفل برمحه فوق رقبة الحصان حتى كان رأسه بين أذنيه. كان هذا الوادي مرتعاً للدببة. تساءل متى سينتهي. وبرقة شديدة بدأ يغني في العتمة: "كيري إيلايسون كريستسلايسون (يا رب ارحم يا مسيح) . . . كيري إيلايسون كريستسلايسون . . . "

شق راودن طريقه عبر مكان ضحل في جدول جبلي. بدأت السماء المنثورة بالنجوم تبدو أوسع له . . . كانت قمم الجبال تبدو أبعد أمام العتمة وتغني الريح بنغمة أخرى في الفضاءات المفتوحة. ترك الصبي الحصان يذهب كما يشاء، وراح يرتل كل ما استطاع تذكره من الترتيلة: "؟يا يسوع يا فادي الجميع- يا أيها الأب النيّر الرائع." كان يتجه جنوباً الآن تقريباً، كما لاحظ من النجوم. ولكنه لم يتجرأ على الثقة بالحصان ويتركه يذهب على هواه. وهاهما الآن يعبران ألواحاً صخرية حيث كانت طحالب الرنة تحته تظهر على نحو باهت فوق الصخور. وقف راودن قليلاً، وهو يلهث، وحدق إلى الليل. لاحظ لافرانس أن السماء في الشرق أصبحت أكثر إنارة، كانت الغيوم تتجه إلى هناك ولها حافة فضية من الأسفل. تحرك الحصان مجدداً نحو القمر البازغ. لا بد أن منتصف الليل سيحل بعد ساعة من الآن أو نحوه حسب تقدير الصبي.

وحين ابتعد القمر عن الجبال البعيدة وراح نوره يلتمع فوق الثلج الجديد على القمم والقبب، ويضيء حلقات الضباب المتجهة فوق قمم الجبال، عندها عرف

لافرانس أنه وصل إلى الجبال . كان فوق الأراضي المستنقعية تحت "بلاهوير" .

وسرعان ما وجد ممراً يؤدي إلى واد مرتفع . وبعد ثلاث ساعات كان راودن يدخل وهو يعرج إلى باحة المنزل في هاوغن التي ينيرها القمر .

حين فتح إرلند الباب ، ترنح الصبي ووقع فوق أرض المشرقة .

بعد مدة من الزمن ، استيقظ لافرانس في السرير تحت أغطية قذرة ذات رائحة حامضة . كان النور قادماً من جذر شجرة تنوب أقحم في شق في الجدار إلى القرب منه ، كان أبوه واقفاً وهو ينظر إليه ، ويرطب وجهه بشيء ما . كان أبوه نصف عار ، ولاحظ الصبي أن شعره كان أشيب بالكامل .

قال لافرانس الصغير وهو ينظر إلى الأعلى :

"أمي . . . "

التفت إرلند حتى لا يرى أبوه وجهه . "أجل" قال بعد قليل بصوت خفيض جداً حتى أنه ما كان مسموعاً إلا بالكاد : "هل أمك . . . هل هي . . . هل أمك . . . مريضة ؟"

"عليك القدوم إلى المنزل مباشرة يا أبي وإنقاذها . . . إنهم يتهمونها بأشنع التهم . . . لقد سجنوا أولف وسجنوها وأخوتي يا أبي !"

تحسس إرلند وجه الصبي الحار ويديه . كانت الحمى قد ارتفعت مجدداً . "ما الذي تقوله ؟" ولكن لافرانس جلس وحكى بوضوح كاف كل ما جرى في البيت في اليوم السابق . أصغى أبوه في صمت ، ولكن وبينما الصبي يروي الحكاية كان الأب ينهي ارتداء ملابسه . لبس حذاءه ومهمازه . ثم أحضر بعض الحليب والطعام للطفل .

"ولكنك لا تستطيع أن تبقى في البيت وحيداً هنا يا بني . . . عليّ أن أصطحبك إلى آسلاوغ في بريكن إلى القرب من هنا ، قبل أن أتجه نزولاً ."

"يا أبي . . . " أمسكه لافرانس من ذراعه . "كلا . . . عليّ أن أذهب معك إلى البيت . . ."

"ولكنك مريض يا صغيري" قال إرلند ، ولم يكن الطفل قد سمع خلال حياته مثل هذه اللهجة الرقيقة في صوت أبيه .

"كلا يا أبي . . . حقاً أود الذهاب إلى البيت معك وإلى أمي . . . أريد أن أذهب إلى أمي . . . " بكى الآن كطفل صغير .

"ولكن راودن أعرج أيها الصبي . . . " أخذ إرلند ابنه في حضنه ولكنه لم يستطع تحمل بكاء الطفل . "وأنت مرهق جداً . . . حسناً ، حسناً" قال أخيراً . "يستطيع سوتن حملنا نحن الاثنين . . . على الأرجح ."

قال : "عليك أن تحرص إن استطعت . . . " وبعد أن أخرج الحصان القشتالي خارجاً ووضع راودن مكانه ، واعتنى به . . . "أن ترسل شخصاً إلى هنا في الشمال ليعتني بحصانك . . . وبعدّتي . . . "

"هل ستبقى في البيت الآن يا أبي ؟" سأل لافرانس بفرح .

حدق إرلند أمامه .

"لا أعرف . . . ولكن في ذهني ألاّ أعود إلى هنا بعد الآن ."

سأل الصبي مجدداً : "أليس من الأفضل أن تتسلح أكثر ؟" فإلى جانب سيفه لم يأخذ إرلند سوى فأس خفيفة وكان سيغادر المنزل . "ألن تأخذ ترساً على الأقل ؟"

نظر إرلند إلى ترسه . كان جلد الثور شديد التشوه والتمزق حتى أن رسم الأسد الأحمر على الخلفية البيضاء كان قد أمحى . وضعه أرضاً وغطاه .

قال : "أنا مسلح جيداً لدفع قطيع من الفلاحين من ضيعتي ." خرج وأقفل باب المنزل وركب حصانه وساعد الصبي على الركوب خلفه .

بدأت الغيوم تتلبد في الجو بعد أن هبطا الجبل بقليل ، حيث الغابات كثيفة ، فسارا في الظلام لاحظ إرلند أن ابنه كان مرهقاً جداً إلى حد أنه ما كان

يستطيع أن يمنع نفسه من السقوط . وعند ذلك جعله يجلس أمامه ووضع ذراعه من حول الصبي . كان الرأس الأشقر الغلامي على صدره . . . كان لافرانس الأشبه بأمه بين كل الأولاد . قبّل إرلند قمة رأس الصبي وهو يلف القبعة من حوله .

"هل حزنت أمك كثيراً حين مات الطفل الصغير في الصيف ؟" سأله بصوت خفيض جداً .

أجاب لافرانس الصغير :

"لم تبك بعد أن مات . ولكنها كانت تذهب إلى المقبرة كل ليلة . . . اعتاد غاوته وناكفه أن يلحقا بها حين كانت تخرج ، ولكنهما لم يكونا ليجرؤا على التحدث إليها ، ولا على جعل أمي ترى أنهما يراقبانها . . . "

بعد قليل سأله إرلند :

"ألم تبك أمك ؟ . . . أتذكر حين كانت أمك شابة صغيرة وكانت تبكي بسهولة كما تسقط حبات الندى من أغصان الصفصاف عند النهر . كانت رقيقة وناعمة جداً كريستين ، حين كانت بين أولئك الذين يتمنون لها الخير . بعدئذ كان عليها أن تتعلم أن تكون أقسى . . . وغالباً على ما أعتقد كان ذلك من صنعي أنا ."

"تقول غونهيلد وفريدا إنه طوال الوقت الذي كان فيه أصغر أخوتي حياً كانت تبكي كل ساعة وكل لحظة ، حين كانت تظن أنه لا أحد كان يراها ."

قال إرلند برقة : "فليساعدني الرب . لقد كنت رجلاً خالياً من الحكمة ."

كانا يسيران الآن في قاع الوادي والريح الباردة تهب من النهر من خلف ظهريهما . لف إرلند عباءته من حول الصبي بإحكام قدر الإمكان . أما لافرانس فكان وسنان ويكاد يغفو ، ولاحظ أن جسد أبيه كان له رائحة رجل فقير . وتذكر على نحو باهت من طفولته المبكرة ، حين كانوا لا يزالون يسكنون في هوسابي ،

وذلك حين كان أبوه يأتي من الحمام في يوم السبت ، فقد كان من عادته الإمساك بكرات صغيرة في يده . وكانت لها رائحة جميلة جداً كانت تبقى عالقة في كفيه وملابسه طوال يوم العطلة المقدسة .

تابع إرلند طريقه مسرعاً . هنا في الأراضي السهلة كانت العتمة مسيطرة . ودون تفكير في ذلك ، فقد كان يعرف في كل لحظة أين كان . . . كان يعرف باللهجة المتغيرة لهدير النهر أين كان نهر لاغن يجري بسرعة وأين كان يسقط منحدراً بشدة . والآن كان الممر فوق صخور مسطحة ، حيث راح الشرر يتطاير من تحت حوافر الجواد . وقد عرف "سوتن" طريقه الآن بثقة وسهولة بين جذور التنوب الملتوية ، حيث يمر الطريق عبر غابة كثيفة . وصلتهما للتو أصوات امتصاص ونشيج والحصان يمرّ فوق منحدرات خضراء إسفنجية حيث كان غدير صغير ينحدر من الجبل . سيصل البيت مع الفجر . . . وسيكون ذلك ملائماً . . .

خلال هذه الفترة كلها كان يفكر في تلك الليلة البعيدة من الجليد ونور القمر الأزرق الشاحب حين قاد زلاجة عبر هذا الوادي . . . كان بيورن غونارسون يجلس في الخلف وهو يمسك بامرأة ميتة بين ذراعيه . ولكن الذكرى كانت باهتة وبعيدة ، وكان بعيداً وغير حقيقي كل ما رواه الطفل . . . هذا ما قالوا إنه يجري في الأبرشية ، والحكايات المجنونة حول كريستين . . . كأنما لم يستطع أن يدخل هذا كله في رأسه . حين يصل إلى البيت سيكون لديه ما يكفي من الوقت ، على الأرجح ، ليفكر فيما عليه أن يفعله . لم يكن ما هو حقيقي سوى الجهد والخوف . . . سرعان ما سيقابل كريستين .

كان قد انتظرها وترقبها طويلاً . ولم يكن يشك إلا في أنها ستأتي أخيراً . . . حتى سمع بالاسم الذي منحته للطفل . . .

•

في الفجر الرمادي كان الناس الذين راحوا يصغون إلى كهنة هامار وهم يتلون القداس الصباحي الباكر قد وصلوا إلى الكنيسة . أولئك الذين وصلوا أولاً شاهدوا إرلند نيكولاوسون راكباً حصانه نحو بيته ، وحكوا للآخرين . كان هناك بعض القلق والكثير من الكلام . تجمع الناس في حلقات حيث كانت الطريق إلى يوروندغارد تتفرع عن الطريق العام .

●

دخل إرلند الباحة بينما كان القمر المتلاشي يغرق بين حافة غيمة وجانب الجبل ، شاحباً في الفجر .

خارج منزل الوكيل كانت مجموعة من الناس . . . كان هؤلاء هم أقارب يارترود وأصدقاءها الذين كانوا معها في الليل . وعند سماع صوت حوافر الجواد في الباحة خرج الرجال الذين كانوا يحرسون في الغرفة التي تقع أسفل القاعة العليا .

لجم إرلند حصانه . نظر عبر رؤوس المزارعين وتكلم بصوت مرتفع مترع بالازدراء :

"هل هناك احتفال في ضيعتي - ولا أعرف به - وإلا فمن أين أتى كل هؤلاء الناس الطيبون ليتجمعوا هنا في الصباح الباكر ؟"

قابلته نظرات سوداء وغاضبة من كل جانب . جلس إرلند طويلاً ورشيقاً فوق الحصان طويل القوائم والأجنبي . كان لسوتن عرف مقصوص ، ولكنه كان أشعث غير مقلم . كان الحصان غير معتنى به جيداً ، وبدأت على رأسه شعرات رمادية ، ولكن هناك لمعة خطيرة في عيني الحصان ، وقد راح يضرب الأرض بحوافره ويتحرك بقلق . كان يرفع أذنيه نحو الخلف ويهز رأسه الصغير الجميل حتى كان الزبد يتناثر على صدره وكتفيه والراكب على ظهره . كانت عدة الركوب حمراء ذات مرة ، والسرج مطعماً بالذهب . والآن كان مهترئاً ومقطعاً ومبقعاً .

وكان الرجل يرتدي ملابس أشبه بملابس الشحاذين . وكان الشعر الذي ينزل من تحت القبعة الخشنة السوداء الصوفية شعراً رمادياً أبيض ، وكانت لحية رمادية خفيفة تنمو على الوجه الشاحب النحيل كبير الأنف . ولكنه كان يجلس منتصباً ويبتسم باعتزاز نحو جمهرة الفلاحين . بدا شاباً رغم كل شيء ، وأشبه بزعيم . . . وكان الكره يتصاعد حاراً ضد هذا الرجل الغريب المتوقف هناك ، وهو يرفع رأسه عالياً ودون خجل . . . بعد كل الأسف والعار والبؤس الذي سببه لهم من يعتبرهم هؤلاء الفلاحون زعماء لهم .

ومع ذلك فقد تكلم برصانة كافية ذلك المزارع الذي رد على إرلند أولاً :

"أرى أنك وجدت ابنك يا إرلند . . . لذلك تعرف أننا لم نجتمع هنا للاحتفال . . . ومن الغريب أن تمزح في مثل هذا الأمر ."

نظر إرلند إلى الطفل الذي كان لا يزال نائماً . . . وأصبح صوته أرق :

"الصبي مريض كما ترون . والأنباء التي أحضرها إليّ من الأبرشية بدت لي غير قابلة للتصديق ، وكدت أظن أنه يهذي من الحمى . . .

" . . . البعض مما قاله يبدو كلاماً فارغاً كما أرى . . . " نظر إرلند نحو باب الإسطبل بجبين متغضن . كان أولف هالدورسون واثنان من الرجال وأحد اخوة زوجته بينهم وهم يخرجون بعض الأحصنة .

ترك أولف حصانه وسار نحو سيده بسرعة :

"هل أتيت أخيراً يا إرلند ؟ . . . وهاهو الصبي . . . الحمد للمسيح ومريم العذراء ! لا تعرف أمه أنه قد رحل . كنا سننطلق للبحث عنه . . . لقد أطلق الأسقف سراحي بعد أن أقسمت أمامه ، وذلك حين سمع أن الطفل قد ركب لوحده ليذهب إلى فاغا . . . كيف هو لافرانس ؟" سأله خائفاً .

"أجل ، الحمد لله أنك وجدت الصبي" قالت يارترود باكية ، كانت قد خرجت إلى الباحة .

قال إرلند : "أهذه أنت يا يارترود ؟ إن أول أمر عليّ أن أفعله ، كما أعتقد ، هو أن أجعلك ترحلين عن ضيعتي ، أنت وقبيلتك . هذه الفتاة المفترية سنجعلها ترحل أولاً . . . وبعد ذلك هؤلاء الذين كذبوا في حق زوجتي سينالون ما يستحقون ، جميعهم . . . "

قال أولف هالدورسون : "هذا غير ممكن يا إرلند . يارترود زوجتي ، وأعتقد أننا متفقان على الفراق ، ولكنها لن تخرج من بيتي قبل أن أسلم إلى أخوتها كل ممتلكاتها وبائنتها وهديتها الإضافية وهدية الصباحية . . ."

سأل إرلند بغضب : "هل أنا السيد في هذه الضيعة ؟"

قال أولف : "عليك أن تسأل كريستين لافرانسداتر عن هذا . هاهي قد وصلت ."

كانت السيدة واقفة فوق شرفة المخزن الجديد . هبطت الدرج ببطء . أزاحت دون أن تشعر غطاء رأسها نحو الأمام فوق رأسها . . . كان قد انزاح نحو الخلف . . . وملّست ثوب الذهاب إلى الكنيسة الذي كانت قد ارتدته في اليوم السابق . ولكن وجهها كان قاسياً كالحجر .

تقدم إرلند بحصانه ليقابلها ، قدماً قدماً . . . وانحنى نحو الأمام قليلاً ليحدق بخوف ويأس ، إلى وجه زوجته الكالح الخالي من الحياة :

"كريستين" ، توسل إليها . "كريستين ، لقد عدت إليك ."

لم يبد عليها أنها تسمع أو ترى . ثم استيقظ لافرانس ، الذي كان جالساً بين ذراعي أبيه ، تدريجياً ، وانزلق نحو الأرض . وحين لمس المرج بقدميه ، وقع وتكوم على الأرض .

سرت رعشة في وجه الأم . انحنت ورفعت الصبي بين ذراعيها رغم كبر حجمه ، ووضعت رأسه على عنقها ، وكأنه طفل صغير . . . ولكن ساقيه الطويلتين كانتا معلقتين بضعف أمامها .

توسل إرلند بيأس : "كريستين ، يا حبي العزيز ، أوه كريستين ، أعرف أني وصلت متأخراً جداً إليك . . ."

ومن جديد سرت رعشة في وجه المرأة :

"لست متأخراً جداً" قالت بصوت خفيض قاس . حدقت إلى ابنها الغائب عن الوعي بين ذراعيها . "إن طفلنا الأخير قد سبق له ونام تحت التراب . . . والآن دور لافرانس . فرض الحرم الكنسي على غاوته- وأولادنا الآخرين - لا زال لدينا الكثير مما يمكن تخريبه يا إرلند !"

التفتت بعيداً عنه وبدأت تعبر الباحة مع الطفل . لحق بها إرلند على حصانه وهو يواكبها :

"كريستين . . . يا للمسيح ، ما الذي أستطيع أن أفعله لك ؟ . . . كريستين ألا تريدين مني أن أبقى معك هنا إذن ؟"

"ما عدت في حاجة إلى أن تفعل أي شيء لي" ، قالت الزوجة كما من قبل . "لن تستطيع تقديم يد العون إليّ ، سواء سكنت هنا أو نمت في لاغن . . . "

كان أولاد إرلند قد خرجوا إلى شرفة القاعة العليا ، هرع غاوته إلى الأسفل وقفز نحو أمه يريد أن يوقفها .

توسل إليها : "أمي" . ثم نظرت هي إليه ، فوقف هناك عاجزاً .

عند آخر درج القاعة وقف بعض الفلاحين .

قالت السيدة : "أفسحوا الطريق" ، وكانت ستمر مع حملها .

هزّ سوتن رأسه ورقص بقلق . التف به إرلند نصف التفافة ، فأمسك كولباين يونسون باللجام . لم تكن كريستين قد شاهدت ما يحدث . . . والآن التفتت وقالت من فوق كتفها .

"اترك الحصان وشأنه يا كولباين . . . إذا أراد الرحيل فليرحل . . . "

ولكن كولباين تمسك باللجام أكثر وقال :

"ألا تفهمين يا كريستين أنه قد حان الوقت لبقاء السيد في منزله في المزرعة؟ أنت تفهم ذلك على الأقل" ، وهنا خاطب إرلند .

ولكن إرلند ضرب الآخر على يده واندفع بالحصان مما جعل الرجل يترنح . قفز رجلان نحو الأمام . صرخ إرلند :

"هيا ابعدوا من هنا ! لا شأن لكم في أموري وأمور زوجتي . . . ولست سيداً لمزرعة . ولن أكون قط مرتبطاً بأي مزرعة كحصان في إسطبل . إن لم أكن أمتلك الضيعة هنا ، فهي لا تملكني أيضاً على الأقل . . . !"

التفتت كريستين التفاتة كاملة نحو الرجل وصرخت :

"أجل ، ارحل ! ارحل إلى الشيطان إلى حيث دفعتني لأذهب وارم بعيداً بعيداً بكل ما ملكته أو وضعت يديك فوقه . . . "

وما حدث الآن جرى بسرعة قصوى حتى أنه لم يره أحد أو حاول أن يمنعه . أمسك توره بورغيلدسون ورجل آخر بالمرأة من ذراعيها .

"كريستين ، لا تكلمي زوجك الآن على هذا النحو . . . "

انطلق إرلند نحوهم :

"هل تتجرأان على وضع أيديكما على زوجتي . . . ؟" لوح بفأسه وضرب بها توره بورغيلدسون . نزلت الضربة بين لوحي كتفيه ، فسقط الرجل أرضاً . رفع إرلند الفأس مجدداً ، ولكن في اللحظة التي ارتفع فيها في ركابه ، طعنه رجل برمح في جانبه . . . وقد اخترق الرمح أصل فخذه . كان ابن توره بورغيلدسون هو من فعل ذلك .

شب سوتن وضرب بقائمتيه الأماميتين . ضغط إرلند على جانبي الحصان وانحنى نحو الأمام ، بينما لفّ الرسن حول يده اليسرى ورفع الفأس مجدداً . ولكنه فقد على الفور أحد ركابيه وكان الدم يجري من فخذه الأيسر في جداول . أزت بعض الأسهم والرماح عبر الباحة . . . كان أولف وأبناء إرلند قد ركضوا نحو

الحشد وهم يرفعون الفؤوس والسيوف المجردة . . . ثم طعن رجل الحصان الذي تحت إرلند ، فسقط إلى الأمام على ركبتيه ، وهو يصهل بجنون وحدة ، حتى ردت عليه الجياد من مرابطها .

نهض إرلند وساقاه مفرشختان فوق الحصان . أمسك بكتف بيورغولف وخطا من فوق الحصان . وصل غاوته وأمسك بأبيه من تحت الذراع الأخرى .

قال : "اقتلوه" مشيراً إلى الحصان . كان هذا قد سقط على جنبه وتمدد بعنق استطالت وقد راح يزبد دماً من فمه ويرفس بحوافره القوية . وقد قام أولف هالدورسون بالمطلوب .

كان المزارعون قد انتحوا جانباً . حمل رجلان توره بورغيلدسون نحو منزل الوكيل ، وقاد أحد رجال الأسقف رفيقه الذي جرح .

كانت كريستين قد وضعت لافرانس الذي كان قد صحا الآن أرضاً ، ووقفاً وكل واحد يضم الآخر . لم يبد عليها أنها فهمت ما جرى . . . لقد حدث الأمر بسرعة فائقة .

كان الأبناء يريدون أن يقودوا أباهم نحو القاعة ، ولكن إرلند قال :

"لن أذهب إلى هناك . . . لن أموت هناك ، حيث مات لافرانس . . . "

ركضت كريستين ورمت بذراعيها من حول عنق زوجها . كان قناعها المتجمد قد تكسّر أمام نوبة فجائية من البكاء ، كما يتشظى الجليد تحت ثقل حجر : "إرلند ، إرلند !"

طأطأ إرلند رأسه حتى مسح خده بخدها . . . وقف هكذا لحظة .

قال : "ساعدوني لأذهب إلى المخزن القديم أيها الأولاد ، أفضل الاستلقاء هناك . . . "

وبسرعة جهز الأولاد والأم السرير في علية المخزن القديم ، وخلعوا ملابس إرلند . ضمدت له كريستين جروحه . كان الدم ينزف بغزارة من طعنة الرمح في

أصل فخذه ، كما كان سهم قد جرحه من جانب ثديه الأيسر ، ولكن ذاك لم يكن ينزف كثيراً .

مرّر إرلند يده فوق وجه زوجته :

"لن تستطيعي شفائي على ما أعتقد يا كريستيني . . . "

رفعت عينيها في يأس . . . سرت رعشة عميقة عبر جسدها كله . تذكرت أن سايمون أيضاً قد قال هذا الكلام . . . وبدا لها هذا نذيراً بالأسوأ ، بأن يقول إرلند هذه الكلمات نفسها الآن .

تمدد في السرير وقد رفع جسده بالوسائد والمساند ، ورجله اليسرى مثنية لوقف النزيف من الجرح في أصل الفخذ . جلست كريستين منحنية فوقه ، وتناول يدها :

"أتذكرين أول ليلة نمنا فيها في هذا السرير ، يا حلوتي . . . ؟ لم أكن أعرف أنه حتى في ذلك الحين كنت تحملين حزناً سرياً سببته لك . ولم يكن ذلك أول حزن أيضاً كان عليك تحمله من أجلي يا كريستين . . . "

أخذت يده في كلتا يديها . كانت بشرته متشققة و أظافره سوداء وكذلك تغضينات كل مفصل من الأصابع الطويلة . رفعت كريستين يده إلى صدرها وشفتيها . هطلت دموعها بغزارة فوق يده .

قال إرلند بصوت خفيض : "حارة كشفتيك ! لقد انتظرتك طويلاً . . . فكرت لفترة طويلة . . . وأخيراً فكرت في الاستسلام والنزول إليك هنا . . . ثم سمعت . . . ظننت حين سمعت أنه مات ، أن الأوان قد فات ، على عودتي إليك . . . "

أجابت كريستين باكية :

"كنت لا أزال أنتظرك يا إرلند . فكرت أنك ستأتي لابد إلى قبر الصبي ."

"ما كنت ستحبينني عندها كصديق لك على ما أعتقد" ، قال إرلند .

"والرب يعرف أنك لم يكن لديك سبب أيضاً . . . لقد كنت عذبة وجميلة جداً يا كريستين" ، همس وأغلق عينيه .

بكت بصوت خفيض ومثير للشفقة .

قال الرجل كما من قبل : "لم يعد هناك شيء الآن عدا أن نحاول أن يغفر واحدنا للآخر كزوجين مسيحيين . . . إن استطعت . . . "

"إرلند ، إرلند . . . " انحنت فوقه وقبلت وجهه الشاحب "عليك ألا تتكلم كثيراً يا إرلندي . . . "

"الأفضل أن أسرع وأقول ما عندي" أجاب الرجل . "أين ناكفه ؟" سأل بقلق .

أجابوا بأنه في مساء البارحة حين سمع ناكفه أن أخاه الصغير قد سار في طريق سوندبو ، فقد لحق به بأسرع ما يمكن . لابدّ وأنه قد فقد عقله الآن حين لا يكون قد وجد الطفل . تنهد إرلند وحرك يديه بقلق فوق غطاء السرير .

تقدم الأبناء الستة من سريره .

قال الأب : "أجل ، لم أعاملكم جيداً يا أبنائي ." سعل سعلة غريبة حذرة . . . خرج زبد مدمى من شفتيه . مسحته كريستين بغطاء رأسها . هدأ إرلند قليلاً :

"عليكم أن تغفروا لي الآن إن استطعتم . لا تنسوا أيها الشبان الصالحون أن أمكم قد ناضلت من أجلكم كل يوم من السنوات التي عشنا فيها معاً . . . ولم يكن هناك خلاف بيننا سوى ما سببته أنا إذ لم أفكر كثيراً في مصلحتكم ، إلاّ أنها أحبتكم أكثر من حياتها . . . "

أجاب غاوته باكياً : "لن ننسى أنك كنت تبدو لنا يا أبي في كل أيامنا أكثر الرجال رجولة وأكبر الزعماء . نحن فخورون بأن نسمى أبناءك ، سواء حين لم يحالفك الحظ أو حين كنت في أيام عزك ."

أجاب إرلند : "تقول هذا لأنك لا تعرف كل شيء ." ضحك ضحكة صغيرة متقطعة بالسعال . "ولا تجعلوا أمكم حزينة إذ تراكم تمشون على خطاي . . . يكفيها ما اضطرت إلى أن تعانيه منذ أن عرفتني . . . "

بكت كريستين : "إرلند ، إرلند" .

قبل الأبناء أباهم على يده وخده . ثم ابتعدوا باكين وجلسوا قرب الجدار . وضع غاوته ذراعه حول مونان وضم الطفل إليه . جلس التوأمان يداً بيد . وضع إرلند يده في يد كريستين مجدداً . كانت يده باردة وجذبت هي غطاء السرير فوقه حتى الذقن ، ولكنها جلست تمسك بيده تحت الأغطية .

قالت باكية : "إرلند ، فليرحمنا الرب . . . علينا أن نحضر لك كاهناً . . . "

قال إرلند بضعف : "أجل . على شخص ما أن يركب إلى دوفر ويحضر سيرا غوتورم ، كاهن أبرشيتي . . . "

قالت في رعب : "إرلند ، لن يصل في الوقت الملائم . . . "

قال إرلند بقوة : "أجل . إن كان الأمر هكذا فسيرحمني الرب . . . فأنا لن أتناول المناولة الأخيرة من كاهن نشر الأكاذيب عنك . . . "

"إرلند . . . لأجل المسيح . . . عليك ألا تتكلم هكذا . . . "

دخل أولف هالدورسون وانحنى فوق الرجل المحتضر .

"أنا سأذهب إلى دوفر يا إرلند . . . "

قال إرلند : "أتذكر يا أولف" . . . بدأ صوته يضعف الآن ويصبح غير واضح . . . " تلك المرة التي انطلقنا فيها أنت وأنا من هستنايس . . . " ضحك قليلاً . "أجل ، لقد وعدت آنذاك أن أقف إلى جانبك في كل الأوقات كقريب مخلص لك . . . فليسامحنا الله جميعاً ، يا صديقي أولف . . . غالباً ما كنت أنت وليس أنا . . . بيننا نحن الاثنين . . . هو الذي أظهر إخلاص القريب . . . علي أن أشكرك إذن يا قريبي ."

انحنى أولف وقبل شفتي الرجل الآخر الداميتين :

"شكراً لك أنت يا إرلند نيكولاسون . . . "

أشعل شمعة ووضعها قرب سرير الرجل المحتضر ، ومضى بعيداً .

كانت عينا إرلند قد أغمضتا الآن . جلست كريستين تحدق إلى وجهه الأبيض . . . مررت يدها فوق وجهه المرة تلو الأخرى . لقد ظنت أنها رأت أنه قد بدأ يغرق نحو الموت .

"إرلند" ، توسلت إليه برقة . "لأجل يسوع . . . دعنا نحضر سيرا سولموند لك . الرب هو الرب ، أيا كان الكاهن الذي يحمله إلينا . . . "

"كلا !" جلس الرجل في السرير حتى انزلقت الأغطية عن جسده العاري الأصفر . . . كانت الضمادات فوق صدره وبطنه مبقعة ببقع حمراء من الدم الذي راح ينزف . "أنا رجل آثم . . . وسوف يمنحني الرب برحمته الغفران الذي يريد . ولكنني أشعر . . . " انهار فوق الوسائد . . . همس بصوت يكاد لا يسمع : "لن أعيش طويلاً لأصبح عجوزاً ووضيعاً . . . فأعاني . . . وأجلس وحيداً في غرفة مع ذاك الذي كذب عنك . . . "

"إرلند ، إرلند ، فكر في روحك !"

هز الرجل رأسه فوق الوسادة . كانت أهدابه قد تهدلت مرة أخرى .

"إرلند !" شبكت يديها ، صرخت عالياً في يأس مطلق . "إرلند . . . ألا ترى ذلك ، كما تحملتني ، فإن هذا يجب أن يُقال !"

فتح إرلند عينيه الكبيرتين . كانت شفتيه قد أصبحتا رصاصيتين . . . ولكن ظل ابتسامة شابة أشرقت فوق الوجه الغائر .

همس : "قبليني يا كريستين" . كان هناك ظل من الضحك نوعاً ما في صوته . "لقد كان هناك الكثير بيننا أنت رأنا على ما أعتقد - إلى جانب المسيحية والزواج- حتى نسامح واحدنا الآخر بسهولة كزوج وزوجة مسيحيين . . ."

نادت ونادت باسمه ، ولكنه كان ممدداً بعينين مغمضتين ووجهه شاحب كخشب قطع حديثاً تحت شعره الرمادي . نزّ قليل من الدم من زاويتي فمه . مسحته ، وهي تهمس بكلمات توسل إليه . . . وحين تحركت أحست بملابسها باردة ورطبة من الدم الذي تلوثت به حين قادته إلى السرير ووضعته فيه . والآن كان هناك صوت غرغرة في صدر إرلند ، وبدا وكأنه يتنفس بألم . . . ولكنه ما عاد يسمع ، وربما ما عاد يحس شيئاً ، بينما راح يغرق بثبات نحو سبات الموت .

●

فتح باب القاعة فجأة . اندفع ناكفه داخلاً ورمى بنفسه أمام السرير وأمسك بيد أبيه ونادى باسمه .

من خلفه وصل رجل طويل بدين في عباءة سفر . انحنى أمام كريستين :

"لو أني عرفت يا قريبتي أنك كنت في حاجة إلى مساعدة قريبك . . . "

وقد صمت حين رأى أن الرجل كان يحتضر ، فرسم إشارة الصليب على نفسه وابتعد إلى آخر زاوية في الغرفة . وبصوت خفيض بدأ فارس سوندبو يتلو الصلوات للمحتضر . . . ولكن كريستين لم يبد عليها أنها لاحظت قدوم سير سيغورد .

كان ناكفه راكعاً على ركبتيه ومنحنياً فوق السرير :

"أبي ! أبي! ألا تعرفني يا أبي ؟" وضع وجهه على اليد التي كانت كريستين جالسة وهي تمسك بها . راحت دموع وقبلات الشاب تمطر يدي الأبوين كليهما .

دفعت كريستين برأس ابنها قليلاً إلى الجانب . . . وكأنها استيقظت نصف استيقاظة .

قالت نافدة الصبر : "أنت تزعجنا . ابتعد قليلاً عن هنا . . . "

نهض ناكفه على ركبتيه :

"اذهب . . . ؟ ولكن يا أمي ؟"

"أجل ، اجلس مع أخوتك هناك . . . "

رفع ناكفه وجهه الشاب . . . المبلل بالدموع والغائر من الحزن . . . ولكن عيني أمه لم تر شيئاً . ثم مضى إلى المقعد حيث كان أخوته الستة جالسين . لم تلاحظ كريستين ذلك . . . كانت تحدق فحسب بعينين مجنونتين إلى وجه إرلند الذي كان الآن أبيض كالثلج تحت نور الشمعة .

●

بعد قليل ، فتح الباب مجدداً . دخل قدالفة وكاهن مع الأسقف السير هالفارد إلى القاعة وهم يحملون الشموع ويدقون جرساً فضياً . دخل أولف هالدورسون أخيراً . نهض أولاد إرلند وسير سيغورد ، ثم سقطوا على ركبهم أمام جسد الرب . ولكن كريستين رفعت رأسها فحسب قليلاً ، التفتت برهة بعينيها اللتين أعماهما البكاء ، فما عادتا تريان شيئا ، نحو القادمين . ثم تمددت كما هي فوق جثمان إرلند .

القسم الثالث

"الصليب"



-١-

كل النيران تخبو في النهاية .

كانت كلمات سايمون دار هذه ترن في قلب كريستين في بعض الأحيان .

كان ذلك في صيف السنة الرابعة بعد وفاة إرلند نيكولاوسون ، ومن قطيع أبنائها لم يكن قد بقي مع الأم في يورونددغارد سوى غاوته ولافرانس .

قبل عامين ، احترقت ورشة الحدادة القديمة ، وكان غاوته قد بنى ورشة جديدة شمال الضيعة عند الطريق العام . كانت الورشة القديمة تقع جنوب المباني نحو النهر ، في فجوة بين يورونددسبارو وبعض الأكوام الكبيرة من الحجارة التي قالوا إنها قد أزيلت من الحقول في غابر الأيام . في كل عام تقريباً في فترة الفيضان ، كان الماء يصل حتى الورشة .

والآن لم يعد هناك ما يذكر بالبقعة سوى الألواح الحجرية الثقيلة التي شققتها النار والتي تظهر المكان الذي كان الباب يحتله والموقد الحجري . كان عشب ناعم أخضر شاحب اللون يبرز الآن من الأرض السوداء المغطاة بهباب الفحم .

كان لدى كريستين لافرانسداتر حقل من الكتان في هذا العام قريب من

أرض ورشة الحدادة القديمة . كان غاوته يزرع القمح الآن في الحقول الأقرب إلى الضيعة حيث كانت سيدات يورondغارد في الزمن الغابر قد اعتدن بذر الكتان وزرع البصل . وكان لكريستين غالباً مهمات تتطلب منها المرور بذلك الطريق علاوة على العناية بكتانها . في أماسي أيام الخميس كانت تحمل هدية من الجعة واللحم إلى "عجوز الرابية" . وفي أمسيات الصيف النيرّة كان الموقد الوحيد في المرج يتحول ليصبح أشبه بالمذبح الوثني القديم ، إذ يشع هناك بين الأعشاب بلون أبيض رمادي ومقلم بالسخام . في أيام الصيف الحارة اللافحة كانت تذهب بسلّتها إلى أكوام الحجارة عند الظهر لقطف توت الأرض أو جمع أوراق عشبة السنفية الجيدة جداً لتخمير المشروبات المبرِّدة المضادة للحمى .

تلاشت آخر دقات جرس الكنيسة التي تحيّي أم الرب في منتصف النهار في الهواء المضمخ بالنور بين الجبال . بدا الريف وكأنه قبع ليرتاح تحت نور الشمس الأبيض المتدفق . ومنذ الفجر المشبع بالندى كانت تأتي أغنية المناجل في المروج المزهرة ورنين أحجار الجلخ على الحديد ، وأصوات النداء ، وذلك من المزارع البعيدة والقريبة . والآن صمتت كل أصوات الشغل فقد طغت استراحة منتصف النهار على كل شيء . جلست كريستين فوق كومة الحجارة وراحت تصغي . ما كان ممكناً الآن سماع أي شيء عدا خرير النهر وحفيف الأوراق الخافت في البستان والطنين الضعيف للذباب والحشرات فوق المرج ، وكذلك صوت جرس بقرة وحيد في مكان ما بعيد . شق طائر طريقه سريعاً وصامتاً على امتداد حافة أجمة جار الماء . قام طائر من بين أكوام الأعشاب في المرج وطار وهو يزقزق زقزقة حادة وذلك ليحط على ساق نبتة من نباتات الشوك .

ولكن الظلال الزرقاء المنجرفة على امتداد جانب الجبل ، وغيوم الطقس الجميل التي تراكمت فوق حافة الجبال وذابت في السماء الزرقاء الصيفية ، والتماعة ماء نهر لاغن بين جذوع الأشجار ، والوميض الأبيض لنور الشمس على

كل الأشجار الورقية : هذه الأشياء كانت هي واعية بها كما وعت صوت الهدوء المسموع من قبل أذن داخلية وليس بالأحرى كما تراه العين . وبغطاء رأسها وقد جذب إلى ما فوق الحاجب للوقاية من الشمس ، جلست كريستين تصغي إلى عزف النور والظلال فوق "الديل" .

. . . كل النيران تخبو في النهاية . . .

●

في غابة جار الماء على امتداد ضفة النهر المستنقعية كانت برك الماء تلتمع في العتمة بين أشجار الصفصاف الكثيفة . هناك ينمو البردى وأجمات صغيرة من عشب القطن ، أما نبات البوطنطلة فكان يغطي الأرض بسماكة سجادة بأوراقه الخماسية ذات اللون الأخضر الرمادي وأزهاره البنية الحمراء . كانت كريستين قد قطفت باقة ثقيلة منه . وغالباً ما كانت تتساءل إن كان في هذا العشب بعض الفائدة . كانت قد جففته وغلته وأضافته إلى الجعة والميد . ولكنه بدا دون فائدة . ولكن كريستين لم تتحمل أن تخرج إلى المستنقع دون أن تبلل حذاءها لقطفه .

والآن عرّت كل السيقان من أوراقها وحبكت إكليلاً من رؤوس الأزهار داكنة اللون . كانت بلون أحمر نبيذي ولون الميد البني . وكانت مبللة كأنما بالعسل عند قاعدة العناقيد الحمراء من خيوط السداة . كانت كريستين تحبك أحياناً إكليلاً لصورة مريم العذراء في القاعة العليا . . . هكذا كان دأبهم في المناطق الجنوبية ، كما سمعت من الكهنة الذين كانوا هناك .

لم يكن لديها أمر آخر تصنع من أجله الأكاليل الآن . هنا في "الديل" لم يكن من عادة الشبان تزيين أنفسهم بأكاليل حين يتوجهون إلى الرقص فوق المروج . في مقاطعة تروندهايم ، كان الرجال العائدين من الخدمة في الحرس الخاص قد جلبوا معهم هذه العادة إلى بعض الأماكن . وقد رأت الأم أن هذا

الإكليل السميك الأحمر الداكن لاءم جيداً وجه غاوته فاتح اللون وشعره الكتاني الأصفر . . . أو شعر لافرانس البني كالجوز .

. . . لقد مرّ دهر طويل منذ ذلك الحين الذي اعتادت فيه أن تمشي مع كل أبنائها الصغار ومربياتهم في المرج فوق هوسابي ، أيام الصيف الطويلة الجميلة تلك . ثم كانت هي وفريدا غير قادرتين على صنع الأكاليل بالسرعة الكافية لكل الصغار نافدي الصبر . تذكرت حين كان لافرانس لا يزال يرضع من ثديها ، وإيفار وسكوله أرادا للرضيع أن يضع إكليلاً هو أيضاً . . . ولكن يجب أن يُحبك من زهور صغيرة تماماً كما قال الطفلان اللذان في سن الرابعة .

والآن لم يكن لديها سوى أولاد كبار .

كان لافرانس في الخامسة عشرة الآن . لا يمكن اعتباره على أنه قد نضج تماماً الآن على الأرجح . ولكن مع مضيّ الوقت ، فإن الأم أصبحت واعية بأن ابنها كان يقف بعيداً عنها أكثر من كل أطفالها الآخرين . لم يكن يبقى منعزلاً عنها عمداً كما فعل بيورغولف . لم يكن منطوياً على ذاته ، ولم يبد عليه أنه مغلق الفم مثل الصبي الأعمى . . . ولكن كأنما كان أكثر صمتاً منه بالطبيعة . . . ولكن لم يلاحظ أحد فحسب ذلك حين كان الأخوة كلهم في البيت : كان لامعاً ونضراً ، وبدا دائم السعادة وجيد المزاج ، وكان الجميع مغرمين بالطفل الفاتن ولم يفكروا قط بأن لافرانس كان دائماً وحده ولا يتكلم إلا قليلاً .

كان يعتبر أوسم أولاد كريستين أوف يورونداغارد الوسيمين . وكانت أمهم تعتبر دائماً الابن الذي تفكر فيه للتو هو الأوسم على الأرجح ، ولكنها كانت تشعر هي أيضاً كيف بدا لافرانس إرلندسون وكأنه يشع وميضاً . كان شعره البني الفاتح اللون ووجنتاه النضرتان كتفاحتين ، تبدوان كأنهما مذهبتان وممتلئتان بنور الشمس . أما عيناه الزرقاوان الواسعتان بلونهما الرمادي الداكن فبدتا وقد بذر فيهما شرار أصفر . . . كان أشبه بما كانت هي عليه في مطلع شبابها ، ببشرتها

اللامعة التي كانت مسفوعة بالشمس . وكان كبير الحجم قوياً بالنسبة إلى عمره ، متين البنيان وماهراً في كل الأعمال التي تطلب منه ، يطيع أوامر أمه وأخوته الأكبر منه ، مرحاً ولطيفاً وودوداً . ولكن في داخله كانت هناك عزلة غريبة .

في أمسيات الشتاء حين يتجمع أهل المنزل في مبنى الحياكة ويمضون الوقت بالمزاح والثرثرة ، بينما كل واحد منهم منهمك في عمله ، كان لافرانس يجلس كمن هو في حلم . في كثير من أمسيات الصيف حين يكون العمل اليومي في الضيعة قد انتهى ، فإن كريستين تخرج وتجلس قرب هذا الصبي حيث هو مستلق على المرج ، وهو يمضغ الزبيب أو يدوّر سويق حمّاض في فمه . كانت تراقب عينيه وهي تكلمه . . . كأنما كان يعيد أفكاره إلى بيتها من مكان بعيد جداً .

وكان يستحيل عليها أن تعرف ما يفكر به ذلك الصبي بكل ذلك العمق . كان جيداً بما فيه الكفاية في الرياضة والأسلحة . . . ولكنه كان أقل اهتماماً بهذه الأمور بكثير من أبنائها الآخرين ، ولم يكن يذهب قط للصيد وحيداً رغم سعادته حين يصطحبه غاوته معه . حتى الآن ، وعلى أي حال ، لم يبد عليه أنه لاحظ أن النساء كن يتطلعن إلى شبابه الوسيم بعيون ملؤها الحنان . لم يكن مهتماً أيضاً بقراءة الكتب ، كما لم يكن يكترث هذا الصبي بكلام أخوته الأكبر سناً عن اللجوء إلى دير للرهبان . لم تستطع كريستين أن تلاحظ أن الصبي ما كان مهتماً بأي أمر آخر سوى البقاء هنا في البيت في كل الأيام ، وأن يساعد غاوته بالزراعة كما يفعل الآن . . .

كانت كريستين تعتبر أحياناً أن هذه الأساليب الغريبة التي تدل على غياب الذهن تذكرها بأبيه . . . ولكن أساليب إرلند الناعمة الناعسة غالباً ما يحل محلها العبث الشديد . وكان لافرانس يفتقر إلى نوبات مزاج أبيه السريعة القوية . ولم يكن إرلند بعيداً جداً عما كان يجري من حوله . . .

•

كان لافرانس هو الأصغر بين أخوته الآن . لقد مر وقت طويل منذ أن نام مونان في المقبرة إلى جانب أبيه وأخيه الصغير . لقد مات في أوائل ربيع العام الذي تلا مقتل إرلند .

كانت الأرملة قد راحت تتصرف بعد وفاة زوجها وكأنها لا تسمع ولا ترى . فعلاوة على الألم والأسى ، كانت تحس بقشعريرة مخدّرة ووهن قليل في الجسم والروح ، وكأنها هي نفسها كانت لا تزال تنزف حتى الموت من جروحه القاتلة .

كانت حياتها كلها بين ذراعيه وذلك منذ ظهر ذلك اليوم العاصف في مخزن التبن الخارجي في سكوغ ، حين منحت نفسها لأول مرة إلى إرلند نيكولاوسون . في ذلك الحين كانت صغيرة دون حكمة ، ولم تكن تعرف ما تفعله ، حتى أنها جاهدت لتخفي أنها على وشك البكاء لأنه سبّب لها الألم ، بينما ابتسمت هي لأنها اعتبرت أنها منحت عاشقها أثمن هدية . وسواء كانت تلك الهدية جيدة أم لا . . . فقد منحت هي على الأقل نفسها ، بالكامل وإلى الأبد . أما عذريتها ، التي زيّنها الرب ورحمته بالوسامة والصحة ، حين جعلها تولد لمصير آمن ومشرّف ، والتي حماها والداها بصرامة مفعمة بالحب طوال السنوات التي كانت هي فيها تحت رعايتهما . . . فقد قدمتها بكلتا يديها إلى إرلند ، وبعد ذلك لم تعش إلا بين ذراعيه .

وكم عانت هي في السنوات التي تلت من عناقاته القاسية والباردة من الغضب ، واستسلمت بفعل الواجب لإرادة زوجها ، بينما كانت تشعر وكأنها ستموت من شدة إرهاقها . لقد فكرت بنوع من الفرح الغاضب ، حين كانت تنظر إلى وجه إرلند الوسيم وجسمه الصحيح والمعافى : ما عاد ممكناً لهذا أن يعميها عن أخطاء الرجل . أجل ، كان شاباً ووسيماً كما كان أبداً . كان لا يزال قادراً على أن يغلبها بمداعباته النارية كما كانت وهي شابة . ولكنها هرمت ، كما فكرت . . . ومع هذه الفكرة كان يأتي نوع من انفعال العزّة المنتصرة . من السهل على أولئك الذين لا يتعلمون درساً قط أن يحافظوا على شبابهم ، والذين لا يكترثون بمصير حياتهم ، أو يحاولون السيطرة على القدر بإرادة الإنسان .

ولكن حتى حين كانت تقابل قبلاته بشفتين قاسيتين مقفلتين ، وتلتفت

بكل كينونتها بعيداً عنه وذلك في معركتها لأجل مستقبل أولادها ، فقد كانت تعرف على نحو غير واضح أنها بالنار التي أشعلها هذا الرجل في دمها كانت هي ترمي بنفسها إلى العمل . لقد بردّتها السنون ، كما حسبت ، فهي ما عادت تشعر بالحرارة تدب فيها حين كانت عينا إرلند تلتمعان بذلك الوميض القديم ، وصوته العميق الذي كان يجعلها تتهاوى دون إرادة وحول وبسعادة حين عرفته في البداية . ولكنها حتى في ذلك الوقت كانت تتوق إلى أن تغرق عبء وألم الانفصال بلقاءاتها مع إرلند ، كذلك راحت تتوق لاحقاً على نحو كليل إنما محموم ، إلى هدف يمكن الوصول إليه ، حين تكون قد أصبحت امرأة عجوزاً بشعر أبيض فترى مصير أبنائها على أنّه مستقر وآمن . إذن لأجل أبناء إرلند عانت هي من خوف انعدام الثقة القديم الذي كان أمامهما . كانت لا تزال تتعذب بتوق كالجوع والعطش الحارق . . . عليها أن ترى أبناءها في حال مزدهرة .

وكما سلمت نفسها بالكامل إلى إرلند ، سلمت نفسها لاحقاً بالكامل إلى العالم الذي برز من حول حياتهما الزوجية . . . ورمت بنفسها في حمأة خرق القانون وذلك لتردّ على كل نداء ، كما رمت بنفسها في كل عمل يجب أن يؤدى وذلك لضمان مصلحة إرلند وأولادها . لم تفهم هي نفسها فهماً كاملاً أنها كانت تعيش دائماً مع إرلند . وحين مكثت في هوسابي وهي تتأمل مع كاهنهم في الأوراق التي كانت في صندوق إرلند وحين كلمت مستأجري أرضه وعماله وحين أشغلت نفسها وخادماتها في المخزن والمطبخ ، وجلست في حقل ترويض الحصان مع مربيات أبنائها اللواتي كن يحرسن أطفالها في أيام الصيف الجميلة . لقد بدا لها وكأنها صبت غضبها على إرلند حين كان أي خطأ يحدث في المنزل وحين كان الأولاد يكسرون إرادة أمهم . كان قلبها المترع بالفرح يتوجه إليه حين كانوا يجلبون التبن في الصيف ليجفّ ، أو حين كانت زراعة القمح ناجحة في الخريف ، وتكون عجولها في حالة ازدهار وتسمع أولادها يصرخون ويضحكون في

الباحة . إن فكرة أنها كانت "خاصته" راحت تتوهج في قلبها حين وضعت جانباً بعد أن اكتملت آخر ملابس العيد للأولاد السبعة ووقفت في فرح وهي تنظر إلى كومة العمل جيد الصنع والحياكة الذي قامت به يداها خلال الشتاء . كانت قد ملّت وتعبت "منه" حين ذهبت في إحدى أمسيات الربيع إلى البيت من النهر مع خادماتها . . . وقد رحن يغسلن الصوف من آخر جزّ للصوف ، وقد غلين الماء في قدر كبير قرب الشاطئ ، وغسلن الصوف في الجدول . . . والسيدة نفسها تشعر كأن ظهرها كان مكسوراً ، وأنها كانت سوداء كالفحم من قذارة الصوف حتى ذراعيها ، وكذلك من رائحة الخراف والشحم الذي تغلغل في كل ملابسها حتى بدا أن ثلاثة حمامات لن تكفي لتجعلها نظيفة كما كانت .

والآن بعد أن رحل هو ، فكأنما كانت الأرملة غير قادرة على أن ترى أي معنى في انشغالها القلق بالحياة . كان "هو" قد أصيب بجراح ، لذا عليها هي أن تموت ، كشجرة اقتلعت جذورها . أما الشجيرات الصغيرة التي نمت من حول حضنها فعليها الآن أن تكبر وتتغذى من جذورها الخاصة بها . لقد أصبح أبناؤها كباراً بما فيه الكفاية حتى يتولى كل منهم مصيره . وقد التمعت الفكرة في ذهن كريستين . . . لو أنها فهمت هذا من قبل فحسب ، في ذلك الحين حين قاله إرلند . مرت صور أشبه بالظلال ، صور حياتها مع إرلند ، حتى لجوئه إلى مزرعة الجبل ، في ذهنها . . . هاهما وقد عادا شابين مجدداً ، والطفل الصغير إلى القرب منهما . ولكنها لم تكن نادمة أو آسفة على ما كان ممكناً . فهي لم تكن قادرة على الافتراق عن حياة أبنائها . . . والآن فإن الموت سرعان ما سيفرقهم عنها ، فهي بدون إرلند لم يعد لديها القوة على الحياة . وكل ما جرى وكل ما سيجري ، كان قدرهم . . . وكل الأشياء تسقط كما هو مقدر لها أن تسقط .

•

لقد شاب شعرها وشاخت بشرتها، ولم تعد تهتم إلا بالكاد بملابسها . في الليل كانت تستلقي وتفكر بحياتها مع إرلند . وفي النهار كانت تمشي كمن في حلم ولا تحادث أحداً ما لم يبادرها الحديث، ولم يكن يبدو عليها أنها تسمع حين كان أبناؤها يحادثونها . لم تعد الزوجة الساهرة المجدة تعمل أي شيء . كان الحب قد كمن في كل نضالاتها مع الأمور الدنيوية . . . ولم يكن إرلند قد شكرها كثيراً على ذلك . ولم تكن تطلب بأن تُحبّ لأجل ذلك . ولكنها لم تكن قادرة على فعل خلاف ذلك . كان من طبيعتها أن تحبّ الشغل والاهتمام بالآخرين .

في هذا الوقت بدت وكأنها تنزلق نحو غشية الموت . ثم حلّ مرض انتشر في كل الأبرشية وجعل أولادها طريحي الفراش . . . واستيقظت الأم مرة أخرى .

كان المرض أخطر على الكبار مّما هو على الأطفال . وقد اشتد المرض على إيفار إلى حد أنه لم يكن هناك أحد يصدق أنه سينجو منه . كانت تنتاب الشاب الصغير قوة جبارة حين يصاب بنوبات الحمى، فيزمجر ويناضل للنهوض والإمساك بأسلحته . . . لقد بدا وكأن حادث وفاة أبيه كان يجري في ذهنه . وكان ناكفه وبيورغولف يمسكان به بقوة . ثم مرض بيورغولف . أما لافرانس فوقع طريح الفراش بوجه متورم بقروح مفتوحة حتى ما عاد يعرف له شكل . . . أما عيناه فكانتا تومضان على نحو كليل عبر شقين صغيرين . . . وتبدوان وكأنهما تحترقان مع الحمى المتقدة .

راحت الأم تسهر على هؤلاء الثلاثة في العلية . ناكفه وغاوته قد أصيبا بالمرض وهما طفلان بعد، أما سكوله فكان أخف مرضاً من أخوته . كانت فريدا تعتني به وبمونان في القاعة السفلى . ولم يكن أحد يظن أن مونان في أي خطر . ولكنه لم يكن قط قوي البنية . وفي إحدى الأمسيات وحين اعتقد الجميع أنه شفي تقريباً، غاب فجأة عن الوعي . لم يكن هناك إلاّ بالكاد ما يكفي من الوقت لتنبيه أمه . . . هرعت كريستين إلى الأسفل، وبعد برهة لفظ مونان آخر أنفاسه

بين ذراعيها .

أيقظها موت الطفل على يأس جديد مشدوه . كان حزنها العنيف على رضيعها الذي مات على ثدي أمه قد اصطبغ بلون أحمر من ذكرى كل أحلامها المذبوحة بالسعادة . كانت العاصفة في قلبها قد حملت كريستين عالياً في تلك الأيام . والضغط المخيف الذي انتهى لترى زوجها مقتولاً أمام عينيها ، مما خلف وراءه إرهاقاً في الروح حتى ظنت كريستين على نحو أكيد أنها ميتة لا محالة من الحزن على إرلند . ولكن هذه الثقة قد خففت من حدة الحزن . لقد عاشت وهي تشعر بالغسق والظلال تتكثف من حولها ، بينما راحت تنتظر الباب ليفتح أمامها هي أيضاً . . .

ولكن الأم وقفت فوق جثمان مونان الصغير بلون رمادي وعقل مستفيق . كان الطفل الوسيم العذب هو أصغر أبنائها لسنوات كثيرة ، آخر من كانت لا تزال تجرؤ على مداعبته والضحك عليه ، بينما كان عليها أن تمارس الصرامة والجدية وتصحح سلوك ابنها حين يخطئ أو يكون طائشاً . وكان هو شديد الحب والتعلق بأمه . لقد كان ذلك جرحاً بليغاً . . . فقد كانت لا تزال شديدة الارتباط بالحياة . لم يكن أمراً سهلاً عليها كما ظنت أن تموت امرأة ما حين تكون قد سكبت دم حياتها في تلك القلوب الشابة الجديدة الكثيرة .

في يأس بارد ثابت بدأت تذهب وتروح بين الطفل الذي كان ممدداً على قش الموت وأبنائها المرضى . كان مونان قد مدّد في المخزن القديم ، حيث كان الرضيع الصغير ثم الأب قد مددا . . . ثلاث جثث في بيتها خلال أقل من عام . وبقلب أذواه الخوف ، ولكنه عار وأخرس ، فقد راحت تنتظر التالي حتى يموت . . . راحت تنتظر كمن ينتظر مصيراً قاسياً لا يرحم . لم تكن قد حمدت الرب بما فيه الكفاية على الهدية التي منحها إياها ، هدية الأولاد الكثيرين . وكان أسوأ الأمور أنها

فهمت ذلك جيداً بأسلوب ما . ولكنها فكرت أكثر في مشاكلها وآلامها ومخاوفها ونضالاتها . . . رغم أنها تعلمت المرة تلو الأخرى ، عبر ما كانت تفتقده كل مرة يكبر فيها ولد على ذراعيها ، وعبر المتعة التي كانت تعتريها في كل مرة كان يوضع فيها طفل جديد على صدرها . . . أن المتعة كانت أكبر بكثير من المخاض والألم . لقد تذمرت لأن والد الأطفال كان شخصاً لا يمكن الوثوق به ، مع القليل من التفكير المسبق بنسله الذي سيأتي بعده . كانت دائماً ما تنسى أنه لم يكن سوى ذاك الذي خرقت قانون الرب وداست على أهلها تحت قدميها لتكون معه .

وهاهو الآن وقد انتُزع من جانبها . وهاهي تنتظر الآن أن ترى أبناءها يموتون ، واحداً إثر الآخر . ربما كان قدرها أن تبقى أماً بلا أولاد في النهاية .

. . . كانت هناك أمور كثيرة سبق أن رأتها بالفعل من قبل ، ولكنها لم تفكر بها كثيراً وبالوقت الذي رأت فيه العالم كله عبر سديم حبها وحب إرلند . لقد رأت عن حق أنه بالنسبة إلى ناكفه كانت تلك قضية صادقة أنه كان البكر وأنه كان الزعيم والقائد لعصبة الأخوة . ولقد رأت أيضاً أنه كان يحب مونان كثيراً . ومع ذلك فقد كانت مهزوزة ، كما من قبل شيء غير متوقع ، حين رأت حزنه الشديد على وفاة أصغر أخوته .

•

ولكن الأبناء الآخرين سرعان ما شفوا مجدّداً إنما ببطء . وفي أحد الفصح استطاعت أن تأخذ إلى الكنيسة أربعة من أبنائها إذ كان بيورغولف لا يزال في السرير ، وإيفار أضعف من أن يغادر المنزل . كان لافرانس قد اكتسب الكثير من الطول خلال مكوثه في فراش المرض ، وكأنما كانت حوادث نصف السنة هذه قد جعلته يكبر أكثر من عمره .

وهكذا بدا لكريستين أنها أصبحت امرأة عجوزاً الآن . فالمرأة تبقى شابة طالما

كان لديها أطفال صغار ينامون بين ذراعيها ليلاً ويلعبون من حولها خلال النهار ، ويحتاجون إلى عنايتها نهاراً وليلاً . وحين يكبر الأولاد الصغار على هذا كله ، تصبح الأم امرأة عجوزاً .

تحدث إليها زوج أختها الجديد ، يامالت هالفاردسون ، عن صغر سن أبنائها وعن أنها هي نفسها لم تكن قد تجاوزت الأربعين إلا بقليل . وأنها سرعان ما ستشعر أن عليها- ربما - أن تتزوج مجدداً . فهي في حاجة إلى زوج يساعدها على العناية بالأملاك وإطعام الأبناء الأصغر سناً . وقد رشح لها أكثر من رجل صالح يعتبره ملائماً لها . . . عليها أن تزوره في آيلين في الخريف ، وسوف يجعلها تقابلهم ، وبعد ذلك يستطيعان مناقشة الأمر على نحو أوثق .

ابتسمت كريستين بشحوب . أجل ، لم يكن عمرها أكثر من أربعين سنة . لو أنها سمعت بامرأة أخرى ترملت ولديها قطيع من الأولاد الصغار ، لقالت كما قال يامالت : إن عليها أن تتزوج مجدداً ، وتبحث عن زوج جديد . بل ربما رزقت منه بأولاد جدد . . . أما هي فلن تفعل ذلك . . .

بعد مرور أيام عيد الفصح المقدسة وصل يامالت أوف آيلين إلى يوروندغارد وقابلت كريستين زوج أختها للمرة الثانية . لم تكن هي وأولادها قد ذهبوا إلى حفل الخطوبة في دايفرين ولا إلى حفل الزفاف في آيلين . لقد أقيم الاحتفالان دون فاصل زمني طويل بينهما ، في ذلك الربيع حين كانت حاملاً بآخر أطفالها . وما أن سمع يامالت بمقتل إرلند نيكولاوسون ، حتى أسرع إلى "سيل" . وبالنصيحة والأفعال قدم المساعدة إلى أخت زوجته وأبنائها ، ورتب كل الأمور التي يجب ترتيبها - بقدر ما استطاع - بعد وفاة سيد المنزل ، وتقدم بالاتهام ضد قتلة الرجل بما أن أحداً من أولاد إرلند لم يكن قد بلغ سن الرشد بعد . ولكن كريستين لم تعرف في ذلك الحين شيئاً مما كان يدور حولها . وحتى الحكم ضد غودموند توريسون الذي أدين بقتل إرلند لم يبد أنه أثّر فيها كثيراً .

وفي هذه المرة تبادلت مع زوج أختها المزيد من الأحاديث ، وبدا لها رجلاً يمكن أن يُحب . لم يكن هذا شاباً . . . فقد كان من عمر سايمون دار . . . إلا أنه كان رجلاً هادئاً رزيناً ، طويلاً كبير الحجم ، ذا لون أسمر ، وسيم الوجه ، إلا أنه محدودب الظهر قليلاً . أصبح هو وغاوته صديقين على الفور . أما ناكفه وبيورغولف فكانا قد أصبحا على علاقة أوثق منذ وفاة أبيهما ، ولكن بمعزل عن البقية . ولكن إيفار وسكوله قالا لأمهما إنهما أحبا يامالت جيداً . . . "ولكن بدا لنا أن رامبورغ كانت تستطيع أن تكون أكثر تكريماً لسايمون لو أنها بقيت أرملة فترة أطول . . . فزوجها الجديد هذا لا يشبه سايمون على أي حال" . لاحظت كريستين أن هذين المجنونين بين أولادها كانا لا يزالان يتذكران سايمون أندرسون : فقد كانا يتركانه يوجههما سواء بالكلمات اللاذعة أو بالمزاح اللطيف ، رغم أنهما ما كانا ليتحملا كلمة لوم واحد من أبيهما أو أمهما دون أن تلتمع عيونهما وتتكور قبضاتهما غضباً .

خلال وجود يامالت في يوروندغارد ، وصل أيضاً مونان باردسون لزيارة كريستين . لم يكن قد تبقى شيء يذكر من "السير مونان الراقص" . كان مقاس خصره واسعاً وكان بديناً ومهيباً في سالف الأيام ، كما كان يحمل جسمه الثقيل برشاقة رغم ذلك ، حتى كان يبدو أطول وأكثر وقاراً مما كان عليه لاحقاً . والآن كان النقرس قد جعله بظهر معوج ، وانكمشت بشرته فوق هيكله الذي تقلص ، لكنها بقيت مهدّلة . كان يبدو أشبه بغول صغير ، أصلع الرأس تماماً إلاّ من بضع خصل بيضاء ضعيفة من حول مؤخر عنقه . ذات مرة كانت له لحية قوية سوداء زرقاء كانت تطغى على وجنتيه الناعمتين المليئتين وذقنه ، ولكن كانت هناك الآن بقع من لحية نامية رمادية في كل الطيات المتهدلة لذقنه وعنقه ، حيث لم تكن موساه تصلها . كان بصره قد أصبح كليلاً ولعابه يسيل قليلاً . . . كما كانت معدته ضعيفة .

كان معه ابنه "إنجه" الذي يلقبه الناس بـ "فلوغا" على اسم أمه . وكان قد سبق له وأصبح في سن متقدمة . كان الأب قد ساعده على التقدم في سلم الحياة جيداً . كما دبر له زواجاً من امرأة غنية وجعل الأسقف هالفارد يساعده . . . كانت زوجة مونان كاترين ابنة عم الأسقف ولذلك كان السير هالفارد راغباً في مساعدة إنجه على الوصول إلى الثراء ، حتى لا يتعدّى على ميراث أولاد الليدي كاترين . كان الأسقف وصياً على إقطاعة هيدماركن ، وقد جعل إنجه مونانسون نائباً عنه ، حتى أصبح الآن مالكاً لقطعة أرض صغيرة في سكاون وريدابو . كما كانت أمه قد اشترت لنفسها ضيعة في تلك النواحي . لقد أصبحت امرأة شديدة الورع الآن ، وتفعل الكثير من أفعال الخير ، وقد تعهدت أن تعيش حياة طاهرة حتى وفاتها . "أجل ، وما هي بالعجوز جداً ولا بالمريضة حتى" ، قال السير مونان بنزق حين رأي كريستين تبتسم . كان يود بالفعل أن يرتب الأمور بحيث تأتي برينهيلد لتسكن معه وتدير له منزله في ضيعته قرب هامار ، ولكنها رفضت العرض .

إن أيام شيخوخته خالية من السعادة ، كما اشتكى السير مونان . فأطفاله شديدو الخصام . . . حتى أن الأطفال من الأم الواحدة كانوا يتخاصمون فيما بينهم ، ويتعاركون ويتشاجرون مع أخوتهم وأخواتهم غير الأشقاء . أما الأسوأ فكانت الابنة الصغرى التي لديها عاشق هو رجل متزوج من غيرها ولن يترك لها أي ميراث ، لذلك كانت تنهب من والدها كل ما تستطيع وضع يدها عليه وهو لا يزال حياً . كانت أرملة أصلاً ، وقد استقرت في سكوغهايم ، الضيعة التي هي المقر الأساسي للسير مونان . ولم يستطع أبوها ولا أخوتها وأخواتها زحزحتها عن ذلك المكان . كان مونان خائفاً جداً منها ، ولكنه حين حاول النجاة والعيش مع أولاده الآخرين ، فقد لوحق هناك أيضاً بالشكاوى عن طمع وغش الأولاد الآخرين في معاملاتهم . كان أسعد ما يكون مع أصغر بناته الشرعيات التي هي

راهبة في غيمسوي . وكان يحب كثيراً النزول في النزل هناك لفترة من الزمن ، وكان يحاول في تلك الأثناء أن يجعل روحه تتطهر بالكفارة والصلوات تحت إشراف ابنته ، ولكنه لا يستطيع احتمال الحياة هناك طويلاً . لم تكن كريستين واثقة من أن أبناء برينهيلد كانوا ألطف بكثير نحو أبيهم من الأولاد الآخرين ، ولكن مونان باردسون لم يكن ليعترف بهذا . كان يحبهم أكثر من كل أولاده .

ولكن رغم بؤس حال هذا النسيب ، إلا أن حزن كريستين الحجري بدا يذوب لأول مرة قليلاً خلال وجوده معها . فقد كان السير مونان يتحدث عن إرلند دائماً . . . وذلك حين لا يكون آخذاً بالشكوى والأنين . . . ويتفاخر بابن خالته المتوفي وأفعاله . . . وخاصة بشبابه المتهور : إن مغامرات إرلند العنيفة حين انطلق لأول مرة في هذا العالم ، بعيداً عن بيته في هوسابي . . . حيث كانت الليدي ماغنهيلد (أمه) تتشاجر مع أبيه وأبوه يتشاجر مع ابنه الأكبر على الدوام . . . وعن هستنايس وأبيه بالتبني السير بارد الجدي الورع . كانت ثرثرة السير مونان تبدو سلواناً غريباً لأرملة إرلند الحزينة . ولكن الفارس أحبّ بأسلوبه الخاص ابن خالته الشاب ، وكان يعتبر دائماً أن إرلند يبزّ كل الرجال الآخرين وسامة ورجولة . . . أجل ومن حيث الفهم أيضاً ، كما قال مونان بحماسة ، ولكنه لم يكن يستخدم ذلك الفهم . ورغم أن كريستين كانت تعتقد بكل ثقة بأن إرلند لم يكن في صالحه الانضمام إلى حرس الملك وهو لا يزال في السادسة عشرة من عمره ومعه ابن خالته كمرشد ومعلم ، إلا أنها كانت مع ذلك تبتسم بحزن ورقة حين كان مونان باردسون يتحدث ويتحدث ، بينما اللعاب يجري من زاويتي فمه والدموع تنزّ من عينيه العجوزين اللتين كانتا محاطتين بإطارين حمراوين ، عن روح إرلند اللماحة المرحة ، وذلك قبل تلك الصدفة التعيسة التي ضللت خطاه إذ لحق بإلين أورمسداتر وخربت عليه هذه كل حياته .

كان يامالت هالفاردسون ، الجالس وهو منخرط في حديث جدي مع غاوته

وناكفه ، ينظر إلى أخت زوجته متسائلاً . لقد جلست على المقعد الجداري إلى جانب هذا الرجل العجوز الذي لا طعم له وأولف هالدورسون . . . بدا أولف لياماليت وكأنه صاحب مزاج متقلب ، ولكنها كانت تبتسم بينما تثرثر معهما وتملأ لهما أقداحهما . . . لم يكن قد رآها تبتسم من قبل ، ولكن ذلك لاءمها جيداً ، وكانت ضحكتها الصغيرة الخفيضة أشبه بضحكة شابة صغيرة .

•

تكلم ياماليت ذات مرة كيف أنه لم يكن ممكناً لهؤلاء الأخوة الستة أن يبقوا في المنزل معاً يعتاشون من ضيعة أمهم . فما كان أحد ليتوقع من أي رجل غني من محتد مساوٍ لمحتدهم أن يمنح إحدى قريباته زوجة لنيكولاوس لو كان إخوته الخمسة سيبقون ليقطنوا معه ، وربما يتعيشون من الضيعة حين سيتزوجون بدورهم . وكان عليهم أن يبحثوا عن زوجة للشاب الآن . . . فقد سبق له أن بلغ العشرين ويبدو شهوانياً . لذلك كان ياماليت مصمماً على اصطحاب إيفار وسكوله معه حين يسافر جنوباً مرة أخرى ، ولا شك أنه سيجد سبيلاً لهما ليتقدما فيه . فبعد أن لقي إرلند نيكولاوسون مصرعه على ذلك النحو البائس فقد بدا واضحاً أن كبار النبلاء في البلاد قد فكروا مرة أخرى في أن الرجل القتيل كان واحداً من أندادهم ، وأن محتده وأصله كانا يؤهلانه ليحتل مكانة متقدمة جداً ، وأنه كان جريئاً ومترفعاً عن الدنايا من نواحٍ كثيرة ، وفي الحرب أثبت أنه زعيم حربي شجاع وصامد . . . رغم أن الحظ لم يكن حليفه . لقد عومل الرجال الذين ساهموا في ذبح السيد في ضيعته بمنتهى الصرامة . وقد ذكر ياماليت أسماء أشخاص كثيرين سألوه عن أبناء إرلند . مثلاً رجال سودرهايم الذين قابلهم في عيد الميلاد ، وقد ذكروا أن هؤلاء الشبان الصغار هم أقرباؤهم . لقد طلب إليه السير يون أن يحييهم ويبلغهم بأنه سيرحب بأولاد إرلند نيكولاوسون كقريب لهم وأنه مستعد للترحاب بأي منهم لو أراد الانضمام إليه في بيته . كان يون هافتورسون على

وشك الزواج من الليدي إلين ، أكبر بنات إرلينغ فيدكونسون ، وقد سألت العروس الشابة إن كان الشبان يشبهون أباهم : وهي تتذكر جيداً أن إرلند قد زارهم في بيورغفين حين كانت طفلة ، وأنه بدا لها أوسم من كل الرجال . كما قال أخوها بيارن إرلينغسون إنه سيفعل ما يستطيع فعله لأجل أبناء إرلند نيكولاوسون من كل قلبه .

جلست كريستين تحدق إلى ابنيها التوأمين بينما كان يامالت يتكلم . لقد أصبحا أكثر فأكثر شبهاً بأبيهما : شعر حريري ناعم أسود كالسخام يلتصق برأسيهما ، ولكنه مجعد قليلاً في خصلات الجبين وينزل على عنقيهما الأسمرين الرشيقين . كان لهما وجهان ضيقان مع أنفين عاليين بارزين وفمان صغيران دقيقان مع عقدة من العضلات عند كل زاوية . ولكن ذقنيهما كانا أقصر وأعرض وعيونهما أدكن من عيني إرلند . وقد كان هذا هو على الأغلب ، كما فكرت زوجته ، هو ما جعل إرلند وسيماً إلى ذلك الحد ، حتى أن عينيه حين كانتا تنظران إلى الأعلى ، بلون أزرق فاتح وصاف ، من ذلك الوجه النحيل الأسمر تحت الشعر الأسود الفاحم ، فإنهما كانتا تفاجئان المرء تماماً .

ولكن كان هناك وميض من الأزرق الفولاذي في عيون الشابين الآن بينما راح سكوله يجيب على أسئلة زوج خالته (كان ميالاً إلى أن يكون الناطق باسم التوأمين) :

"نشكرك على هذا العرض الجيد والكريم يا قريبنا . ولكن سبق لنا وتحدثنا مع السير مونان وإنجه ، وقد شاورنا أخانا الأكبر في ذلك . . . والنتيجة هي أننا قد اتفقنا مع إنجه وأبيه . هذان الرجلان قريبانا من جهة أبينا . . . ونحن سنرافق إنجه حين سيتجه جنوباً ، ونعتزم أن نقيم في ضيعته في هذا الصيف ، ولفترة إضافية . . ."

نزل الشبان إلى القاعة في ذلك المساء إلى حيث ذهبت أمهم لترتاح :

"أجل ، نعتقد أنك تفهمين هذا يا أمي" ، قال إيفار .

"سوف لن نطالب بحقوق القرابة ونتوسل العون والصداقة من رجال جلسوا صماً وراحوا يتفرجون بينما كان أبونا يعاني من الظلم" ، أضاف سكوله .

أومأت الأم برأسها .

لقد اعتبرت أن ولديها كانا على حق . كان يامالت رجلاً حكيماً صائب التفكير ، كما رأت ، وكان عرضه ذا نية طيبة . . . ولكنها كانت مسرورة تماماً أن الشبان كانوا مخلصين لأبيهم . ولكن لم يسبق لها أن فكرت قديماً بأنه سيحل زمن يخدم فيها أبناؤها ابن برينهيلد فلوغا .

انطلق التوأمان مع إنجا فلوغه ما أن أصبح إيفار في حالة صحية تمكنه من امتطاء حصانه . أضحت الضيعة هادئة حين رحل هذان . تذكرت الأم . . . في العام الماضي في مثل هذا الوقت كانت تضطجع في غرفة الحياكة مع طفل وليد . . . بدا لها هذا أشبه بحلم . لقد مضى وقت قصير جداً منذ أن أحست أنها شابة ، وذهنها قد تنشط وتحرك باهتمامات ومشاغل المرأة الشابة ، بالأمل والكره والحب . . . والآن هاهو قطيعها ينكمش إلى أربعة أبناء ، وفي ذهنها لم ينشط شيء ، إلا القلق على الشبان الكبار . في هذا الهدوء الذي حلّ بيوروندغارد بعد رحيل التوأمين ، اندلع خوفها على بيورغولف متحولاً إلى لهيب بعد أن كان يطلق دخانه بهدوء .

لدى قدوم الضيوف ، انتقل هو وناكفه إلى مبنى الموقد القديم . كان ينهض من السرير في النهار ، ولكنه لم يخرج إلى الهواء الطلق بعد . وبخوف عميق لاحظت كريستين أن بيورغولف يجلس دائماً في البقعة نفسها ، ولا يذرع الأرضية ولا يتحرك إطلاقاً حين تكون إلى جواره . لقد عرفت أن عينيه ساءت حالهما في هذا المرض الأخير . كان ناكفه شديد الهدوء والصمت . . . ولكنه كان

على هذه الشاكلة منذ وفاة أبيه ، وبدا أنه أصبح ينعزل عن أمه بقدر ما يستطيع .

وأخيراً استجمعت شجاعتها وسألت ابنها البكر كيف كان بصر بيورغولف .

راح ناكفه يتهرب طويلاً من أسئلتها . ولكنها طالبت ابنها بأن يحكي لأمه الحقيقة .

قال ناكفه :

"لا يزال قادراً على رؤية النور القوي . . . " وبينما كان يقول هذا فإن الشاب شحب لونه والتفت بحدة وخرج من الغرفة .

في وقت متأخر من النهار ، حين بكت الأم حتى أرهقت نفسها إلى حد أنه بدا لها أنها تستطيع الآن أن تتحدث بهدوء مع ابنها ، ذهبت إلى المبنى القديم .

كان بيورغولف مستلقياً على السرير . ما أن وصلت وجلست إلى قربه على حافة السرير ، حتى استطاعت أن ترى من وجهه أنه عرف أنها كلمت ناكفه :

"أمي ، عليك ألا تبكي يا أمي" ، توسل إليها بخوف .

كانت تتمنى لو ترمي بنفسها على ابنها ، وتأخذه بين ذراعيها وتبكي وتنوح على مصيره القاسي . ولكنها مدت يدها إلى يده تحت غطاء السرير .

قالت بصوت مبحوح : "يمتحن الرب رجولتك إلى حد كبير يا بنيّ" .

"لقد عرفت منذ زمن طويل يا أمي أني مختار لأعاني من هذا المصير . منذ أن كنا في تاوترا . . . كلمني الأخ آسلاك عن هذا وقال إن الأمر سيجري على هذا النحو معي . . .

"وكما تعرض سيدنا يسوع في البرية للإغواء ، هذا ما قاله ، فإن البرية الحقيقية بالنسبة لروح الإنسان المسيحي هي وقوف حاجز أمام البصر والحس . . . عندها سيلحق بخطوات الرب إلى البرية ، حتى لو كان جسده بين أخوته وأقاربه . لقد قرأ عن هذه الأمور من كتب القديس برنارد . ولو أن روحاً تستطيع فحسب أن تفهم أن من اختاره الرب خصيصاً لمثل هذه المحنة القاسية للرجولة ، عندها لن

يكون في حاجة للخوف من أنه لن يستطيع الالتزام بذلك . والرب يعرف روحي أفضل ممّا تعرفه الروح نفسها . . . "

تابع الحديث مع أمه على هذا المنوال ، وهو يواسيها بحكمة وقوة في الروح بدتا بعيدتين عن سنه الغضّة .

في المساء وصل ناكفه إلى كريستين وتوسل إليها أن يحادثها على انفراد . وعند ذلك قال إن نيته كانت هي أن يدخل هو وبيورغولف في أخوة ربانية وأن يقسما اليمين كراهبين في تاوترا .

وقفت كريستين صامتة مصعوقة ، ولكن ناكفه تابع كلامه بهدوء . سينتظران حتى يصل غاوته إلى سن الرشد وسوف يرعيان شؤون أمهما وأخوتهما الأصغر سناً . ثم سيدخلان الدير مع أمتعة بحجم يلائم أولاد إرلند نيكولاوسون أوف هوسابي ، ولكنهما سيبقيان حريصين على مصلحة أخوتهما . من أبيهما لم يكن أولاد إرلند قد ورثوا شيئاً له قيمة تذكر ، ولكن الثلاثة الذين ولدوا قبل أن يدخل غونولف نيكولاوسون الدير كانوا يمتلكون قطعاً من مزارع شمال الجبال . . . فقد كان قد قدم هدايا إلى أولاد أخيه حين وزع ثروته ، رغم أن معظم ما لم يمنحه إلى الكنيسة وأعمال البر ، فقد منحه إلى أخيه . ثم قال ناكفه إنه لو أنه وبيورغولف لم يطالبا بكامل حصتيهما في الإرث ، سيساعد هذا غاوته أيضاً ، الذي كان سيصبح سيد المنزل الآن وسيتابع الإشراف عليه ، إذا ما اعتبروهما كأنهما ماتا في عيون الدنيا .

أحست كريستين وكأن ضربة قد صعقتها . لم يكن قد سبق لها وحلمت أن ناكفه سيفكر في حياة الرهبان . ولكنها لم تعارض ذلك . . . كانت مغلوبة على أمرها . كما لم تجرؤ أن تحاول لفت ذهن ابنها بعيداً عن هدف نبيل ومليء بالمكاسب كهذا .

"حتى حين كنا أولاداً صغاراً ونعيش في الدير هناك في الشمال ، فقد تواعدنا نحن الاثنين على عدم الافتراق" ، قال ناكفه .

أومأت أمه برأسها . كانت تعرف ذلك . ولكنها كانت قد حسبت أن المعنى كان هو أن يتابع بيورغولف الحياة مع ناكفه حتى لو تزوج الأخ الأكبر .

لقد بدا الأمر لكريستين وكأنه شبه معجزة أن بيورغولف رغم يفاعته استطاع أن يتحمل مصيبته بكل هذه الرجولة . وفي المرات التي فتحت فيها الموضوع معه ، خلال فصل الربيع كله ، لم تسمع من شفتيه سوى كلمات شجاعة وورعة . لم يكن الأمر مفهوماً إلا بالكاد كما بدا لها . . . ولكن لاشك أنه كان يعرف منذ سنوات كثيرة ما الذي سينجم عن ضعف بصره ، ويبدو على الأرجح أنه كان يسلّح روحه بالصبر منذ ذلك الحين الذي أقام فيه بين الرهبان . . .

ولكن ، طالما كان الأمر على هذه الشاكلة ، لم تكن تستطيع مغالبة التفكير في مشقة وثقل مصير هذا الابن تعيس الحظ بين أبنائها . . . وكم أنها لم تفهم سوى القليل ، وهي واقفة إلى جانب وذهنها مشغول بمشاغلها الخاصة . وهاهي كريستين لافرانسداتر تسرق كل لحظة تكون فيها لوحدها لتركع أمام تمثال مريم العذراء في بيتها في العلية ، وأمام مذبحها شمالاً في الكنيسة كلما كان مفتوحاً . بحزن نابع من أعماق قلبها ، وبدموع حزينة كانت تصلي لأم المخلص الحنون حتى تكون أماً بديلة لبيورغولف ، وأن تعوض عنه كل ما لم تقدمه له أمه الطبيعية .

•

في إحدى ليالي الصيف كانت كريستين تستلقي وهي مستيقظة . كان ناكفه وبيورغولف قد عادا إلى القاعة العليا ، ولكن غاوته كان ينام في الأسفل مع لافرانس ، فالأخوان الأكبر سناً كانا يريدان أن يتدربا على السهر والصلاة ، كما قال ناكفه . كانت على وشك أن تغفو أخيراً حين أيقظتها ضجة صادرة عن شخص يتحرك خلسة في شرفة العلية . كانت هناك وقع أقدام على الدرج . . . عرفت وقع قدم ابنها الأعمى .

فكرت في أن لديه عملاً ما يقوم به . . . ومع ذلك نهضت وتحسست فيما

حولها بحثاً عن ثيابها . ثم سمعت الباب العلوي يفتح . . . قفز أحد ما الدرج على دفعتين أو ثلاث .

هرعت الأم إلى الغرفة الخارجية وفتحت الباب . كان الضباب كثيفاً في الخارج حتى أن المخزن عبر الباحة لم يكن يرى سوى بصعوبة . عند بوابة الضيعة كان بيورغولف يناضل بشدة ليتخلص من قبضة أخيه :

صرخ الشاب الأعمى : "أتخسر شيئاً لو تخلصت مني ؟ . . . عندها ستتحرر من عهودك . . . ولن تضطر إلى الموت في هذا البيت الدنيوي . . . "

لم تستطع كريستين سماع جواب ناكفه . ركضت حافية القدمين فوق العشب المندى . كان بيورغولف قد تحرر من قبضة أخيه الآن . . . ثم سقط كأنما بضربة فوق الحجر الكبير ، وراح يضرب عليه بقبضتيه .

رأى ناكفه أمه وأسرع نحوها :

"ادخلي يا أمي . . . أستطيع التعامل معه لوحدي . . . ستدخلين كما قلت" ، همس لها بلهجة عاجلة ثم التفت ووقف من جديد وقد انحنى فوق أخيه .

وقفت الأم تراقب من مسافة قصيرة . كان المرج مبللاً بالندى ، الذي ينقط من كل الأسقف وراحت النقاط تشرشر عن كل ورقة نبات . . . فقد كان المطر قد هطل طوال النهار ، ولكن الغيوم كانت منخفضة الآن ، متحولة إلى ضباب كثيف أبيض اللون . وحين نزل ابناها بعد فترة إلى الممر- كان ناكفه يمسك ببيورغولف من تحت ذراعه ويقوده على هذا النحو- انكمشت كريستين إلى الخلف ضمن باب الغرفة الخارجية .

لاحظت أن وجه بيورغولف كان مدمى . ربما كان قد ضرب به على حجر . ودون أن تشعر أقحمت كريستين يدها في فمها وعضت على لحمها .

على الدرج حاول بيورغولف مجدداً أن يتخلص من قبضة ناكفه . . . تعثر بالجدار صائحاً :

"ألعن ، ألعن اليوم الذي ولدت فيه . . . !"

حين سمعت ناكفه يوصد باب العلية بالمزلاج خلفهما ، انسلت أمهما وراءهما ووقفت في الشرفة خارجاً . وقد سمعت لفترة طويلة صوت بيورغولف من الداخل . . . كان غاضباً ويصرخ ويلعن . . . وقد استطاعت تمييز كلمة أو كلمتين من كلماته . بين الحين والآخر كان تسمع ناكفه يحدثه ، ولكن صوته كان يأتيها كهمهمة مكبوتة فقط . وأخيراً راح بيورغولف ينوح بصوت مرتفع يمزق نياط القلب . نهضت الأم وهي ترتجف من البرد والحزن . كان معها فقط عباءتها التي ارتدتها فوق شلحتها . وقفت هناك فترة طويلة حتى أن شعرها المنسرح تبلل من هواء الليل البارد . أخيراً خيّم الصمت ضمن العلية .

حين نزلت إلى الغرفة السفلى ، ذهبت إلى السرير حيث كان غاوته ولافرانس نائمين . لم يكونا قد سمعا شيئاً . وبينما راحت دموعها تسيل على وجنتيها ، وضعت يدها في العتمة وتحسست الوجهين الدافئين وأصغت إلى تنفس الصبيين المعافى . بدا لها أن هذين هما ما تبقى لها من كل ثروتها .

زحفت وهي ترتجف من البرد إلى سريرها . قفز أحد الكلاب الذي نام قرب سرير غاوته فوق الأرض إلى جانبها ، وزحف إلى حيث قدميها وقبع هناك . كان معتاداً على فعل ذلك في الليالي ، وما كانت تجرؤ على إبعاده ، رغم أنه كان ثقيلاً فوق ساقيها حتى تكادان تتخدّران . إلا أن إرلند كان صاحب الكلب ، وكان المفضّل لديه ، وهو كلب أسود كالفحم عجوز من النوع المخصص لصيد الدببة . في هذه الليلة اعتبرت كريستين وجوده هناك مفيداً وخاصة أنه دفأ لها قدميها المتجمدتين .

. . . لم تر ناكفه في صباح اليوم التالي حتى حل موعد وجبة الإفطار . دخل وجلس في الكرسي العالي الذي أصبح يخصه منذ وفاة أبيه .

لم يقل كلمة واحدة خلال الوجبة كلها ، وكانت هناك حلقات سوداء من

حول عينيه . لحقت به أمه حين خرج مجدداً .

سألته بصوت خفيض : "كيف هو بيورغولف الآن ؟"

تجاهل ناكفه نظرتها ، ولكنه أجاب بصوت خفيض أيضاً أن بيورغولف كان نائماً .

همست بخوف : "هل كان هكذا سابقاً ؟"

أومأ ناكفه برأسه والتفت بعيداً عنها ، ثم صعد إلى أخيه مجدداً .

راح ناكفه يسهر على بيورغولف ليلاً نهاراً ، ويبقي أمه بعيدة عنه ما استطاع . ولكن كريستين كانت تعرف أن الرجلين كانا يقضيان ساعات كثيرة صعبة معاً .

كان يجب أن يكون نيكولاوس إرلندسون هو السيد الآن في يورونداغارد ، ولكنه لم يستطع أن يجد وقتاً يبذله للزراعة . لقد بدا أيضاً أنه أشبه بأبيه ، فقد كان لا يهتم كثيراً بالعمل وليست لديه مهارة كبيرة فيه . لذلك كان عبء العمل كله يقع على عاتق كريستين وغاوته . . . فقد تخلى عنها أولف هالدورسون في هذا الصيف أيضاً .

بعد الحوادث سيئة الطالع التي انتهت بمصرع إرلند نيكولاوسون ، كانت زوجة أولف قد ذهبت إلى موطنها مع أخيها . بقي أولف في يورونداغارد . . . قال إنه سيري الناس أن الأكاذيب والإشاعات ما كانت ستجعله يهرب . ولكنه أشار على أي حال إلى أن زمانه قد انتهى في هذا المكان تقريباً . وفكر أنه ربما سيذهب إلى شمال الجبال إلى مزرعته في سكاون ، بعد أن يمرّ وقت كاف بحيث لا يقول أحد إنه هرب من الإشاعات .

ولكن نائب الأسقف بدأ يطرح الأسئلة حول ما إذا كان أولف هالدورسون قد تخلى عن زوجته على نحو لا شرعي . عندئذ استعد أولف للرحيل وأحضر يارترود ورحل إلى الشمال قبل عواصف الخريف التي تجعل الطرق عبر الجبال

متعبة . وقد قال لغاوته إنه سينضم إلى زوج أخته غير الشقيقة الذي يعمل صانع دروع في نيداروس . وسيقوم ابن أخيه بالعمل في مزرعة سكيولد فيركستاد نيابة عنه ، وسيرسل هو يارترود لتسكن هناك .

في الليلة الأخيرة شربت كريستين نخب أولف من الكوب الفضي الذي ورثه أبوها من جده ، سير كيتيل السويدي . وقد طلبت منه أن يأخذ الكوب ويحتفظ به كذكرى منها . ثم وضعت خاتماً ذهبياً كان يخص إرلند من حول أصبعه وطلبت منه أن يرتديه لأجل ذكرى قريبه .

قبّلها أولف شاكراً : "إنه واجب من واجبات القرابة" ، قال ضاحكاً . "لم تفكري يا كريستين دون شك . . . حين تقابلنا وتعارفنا لأول مرة ، وكنت أنا الخادم الذي يأتي ليصطحبك وإحضارك إلى سيدي . . . أننا سنفترق على هذا النحو ؟"

تضرج وجه كريستين فقد كان يبتسم لها بابتسامته الساخرة القديمة . . . ومع ذلك فهي اعتبرت أنها رأت في عينيه أنه كان حزيناً . لذلك قالت :

"رغم ذلك يا أولف ، أعتقد أنك ستفكر طويلاً قبل العودة إلى تروندهايم ، فأنت ولدت وتربيت هناك في الشمال . أنا أتوق إلى الزقاق البحري هناك ، وأنا التي عشت هناك سنوات قليلة فحسب ." ضحك أولف كما من قبل ، قالت هي بصوت خفيض : "إن كنت في شبابي قد أزعجتك في أي حين باعتزازي بنفسي . . . أو لأني لم أكن أعرف أنك قريب من أقرباء إرلند . . . عليك أن تغفر لي الآن !"

"كلا . . . ولم يكن إرلند غير معترف بالقرابة . ولكني كنت شديد الافتخار بنفسي حين كنت شاباً . . . بما أن أبي كان قد تخلى عني وأرادني في مكان لم أرغب أن أكون فيه . . . " نهض بسرعة وذهب إلى حيث كان بيورغولف جالساً على المقعد : "فلتفهم يا بيورغولف يا ابني بالتربية . . . أن أباك وغونولف . . . أظهرا لي مشاعر القرابة من أول مرة تقابلنا فيه وكنا يافعين بعد . . . أكثر من

أخوتي وأخواتي من هستنايس . ولاحقاً . . . لم أكن أقدم نفسي كقريب لإرلند ما لم أكن أرى أن ذلك يخدم مصلحته . . . ومصلحة زوجته . . . وأنتم كذلك يا أبنائي بالتربية . هل فهمت ؟" قال بقوة ، ثم وضع يد فوق وجهه بيورغولف وهو يخفي العينين اللتين لا تريان .

"أفهم" ، جاء جواب بيورغولف نصف مكبوت عبر أصابع الشخص الآخر . أومأ من خلف يد أولف .

"نفهم يا أبانا بالتربية" . وضع نيكولاوس يده بثقل على كتف أولف ، واقترب غاوته من المجموعة .

اعترى كريستين شعور غريب . . . كأنما كانوا يريدون التكلم عن أشياء لم تكن تعرفها . ثم تقدمت هي نحو الرجال قائلة :

"ثق بي يا أولف يا قريبي ، كلنا نفهم . . . لم يكن لإرلند ولا لأي واحد منا صديق موثوق مثلك . فليباركك الرب !"

في اليوم التالي انطلق أولف هالدورسون شمالاً .

●

مع تقدم فصل الشتاء ، أصبح بيورغولف أكثر هدوءاً ، حسبما كانت كريستين ترى . عاد يحضر الوجبات المنزلية ويذهب إلى القداس مع الناس ، وراح يأخذ يد كريستين برغبة وودّ حين تقدم له المساعدة .

ومع مرور الوقت ، ولم تسمع كريستين ابنيها يقولان شيئاً عن الدير ، فقد أحست هي نفسها كم كانت كارهة أن تسلم ابنها البكر إلى حياة الدير .

لم تستطع أن ترى سوى أنه بالنسبة إلى بيورغولف فإن الدير سيكون المكان الأمثل . ولكنها لم تكن تعرف كيف ستتحمل خسارة ناكفه على مثل هذا النحو . لاشك ، على أي حال ، أن البكر يرتبط دائماً بقلب الأم على نحو أوثق من الأبناء الآخرين .

كما لم تستطع أن ترى أن ناكفه كان ملائماً لحياة الرهبنة . صحيح أنه كان جيداً في التعلم ويحب ممارسة الشعائر الدينية ، ومع ذلك لم يبد لأمه أنه ورع حقاً . لم يكن يظهر أي حماسة في الدوام على كنيسة الأبرشية ، وكان غالباً ما يتغيب عن الصلوات لأسباب تافهة ، وكانت تعرف أنه لا هو ولا بيورغولف كانا يعترفان لكاهن أبرشيتهما إلاّ الاعتراف العادي بالخطايا . كان الكاهن الجديد سيرا داغ رولفسون ابناً لرولف أوف بلاكاراسارف ، الذي كان متزوجاً من بنت عم راغنفريد إيفارسداتر ، وكان يحضر كثيراً ليزور ضيعة قريبته . كان شاباً ابن خمس وثلاثين سنة ، كاهناً مثقفاً وصالحاً . ولكن الابنين الأكبر كانا يقابلانه ببرود . وعلى أي حال أصبح غاوته صديقاً له على الفور .

كان غاوته هو الوحيد بين أولاد إرلند الذي كوّن صداقات مع أشخاص من "سيل" . ولكن لم يكن أي من الأخوة الآخرين شديدي العزلة شأن نيكولاوس إذ لم يكن يختلط قط بالشبان الآخرين ، ولو حدث وذهب حيث كان الشبان يجتمعون للرقص أو للتواعد ، فقد كان يقف غالباً إلى جانب عند حافة المرج ، وينظر . . . بهيئة شخص يعتبر نفسه أسمى من المشاركة . ولكن لو كان مزاجه ملائماً ، كان ينضم إلى اللعب . . . ولكن بخيلاء كما يقول الناس ، وذلك ليستعرض مدى قوته : كان شهوانياً وقوياً ورشيقاً ، وسهل الاستفزاز للقتال . . . وبعد أن هزم اثنين أو ثلاثة من أشهر المصارعين في الأبرشية ، ظن الناس أنه من الأفضل الصبر على سلوكه . ولو قرر أن يراقص فتاة لم يكن يهتم بأخوتها أو أقربائها ، بل يرقص مع الفتاة ثم يجلس لوحده معها . . . ولم يسبق أن قالت فتاة لا لنيكولاوس إرلندسون . ولم يكن محبوباً لأجل ذلك .

وبما أن أخاه أصبح أعمى تماماً ، كان ناكفه نادراً ما يتركه ، ولكن لو حدث أنه خرج ذات مساء ، كان يتصرف كما كان شأنه دائماً . وكان قد تخلى أيضاً عن رحلات الصيد خاصته في معظمها ، ولكن في هذا الخريف اشترى من الوصي

صقراً أبيض ثميناً ، وكان متحمساً لتدريبه على الرماية والرياضة . كان بيورغولف قد علّم نفسه لعب الشطرنج رغم عماه ، وغالباً ما كان الأخوان ينفقان أياماً بحالها على رقعة الشطرنج . كانا كلاهما لاعبين متحمسين .

في هذه الأثناء سمعت كريستين الناس يتحدثون عن ناكفه وفتاة بعينها ، اسمها توردیس غونارسداتر أوف سكيين . في العام التالي استقرت الفتاة في السايتر خلال الصيف كله ، وقد غاب ناكفه أكثر من مرة عن البيت ليلاً . وقد عرفت كريستين أنه كان مع توردیس .

ارتجف قلب الأم وراحت تتلفت هنا وهناك وكأنها ورقة حور رجراج فوق غصنها . كانت توردیس تنتمي إلى أسرة عريقة وكريمة . . . وكانت فتاة صالحة بريئة . وكان من المستحيل أن يكون لدى ناكفه الجرأة على الإساءة إليها . ولو نسي الشابان نفسيهما ، فلا بد أن يتزوج الفتاة . ولشدة خوفها وخجلها من أفكارها الخاصة ، كانت كريستين تعرف في قلبها أنه لن يحزنها كثيراً لو آلت الأمور إلى هذه النتيجة . ولكن قبل عامين ما كانت قادرة على أن تسمع مثل هذا الأمر . . . أن توردیس غوناسداتر ستصبح سيدة يوروندغارد من بعدها . كان جد الفتاة لأبيها لازال حياً ويسكن في الضيعة مع أربعة أبناء متزوجين . أما الفتاة نفسها فكان لديها الكثير من الأخوة والأخوات . ستكون بائنتها صغيرة كعروس . كما كان لدى كل امرأة من تلك السلالة ولد واحد على الأقل مصاب بالعته . إما أن سكان الجبل كانوا يستبدلون الأطفال أو أنهم كانوا يرمون بالرقيات عليهم . . . رغم كل ما كانوا قادرين على فعله لحماية النساء خلال الوضع وجعلهن في أمان ، فلا العماد ولا طرد الأرواح الشريرة بدا أنهما مفيدان . كان هناك رجلان عجوزان في سكيين الآن وكان سيرا آيريك قد حكم عليهما بأنهما قد استبدلا وهما لا يزالان في المهد ، إذ كانا أصمين أبكمين . . . كما كانت جنية الغابة قد سحرت الأخ الأكبر لتوردیس حين كان في السابعة عشرة من عمره . فيما عدا ذلك كان

آل سكيين هؤلاء عشيرة صالحة . كانوا محظوظين في مواشيهم ، وكانوا ناجحين في أعمالهم . ولكن لكثرتهم لم يكن ممكناً مراكمة الثروة .

. . . والرب وحده قد يعرف ما إذا كان ناكفه سيتراجع عن هدفه دون خطيئة ، لو كان قد سبق له وتعهد بخدمة مريم العذراء . ولكنها كانت تعرف أن على الرجل أن يثبت نفسه دائماً لمدة عام كمبتدئ في الدير قبل أن يحلف اليمين . . . ويستطيع الانسحاب حتى في ذلك الحين لو أحسّ أنه غير مدعو إلى خدمة الرب في تلك الطريق . كما كانت قد سمعت كيف أن زوجة كونت فالاند ، أم أحد علماء الدين والوعاظ الكبار ، سير توماس أكويناس ، قد حبست ابنها مع امرأة جميلة فاسدة لتجعله يتخلى عن هدفه حين كان عازماً على أن يهجر ملذات الدنيا . كانت كريستين تعتبر هذا الفعل أشنع فعل سمعت به . . . ومع ذلك ماتت هذه المرأة في حالة سلام مع الرب . لذلك من المحتمل أن خطيئتها ليست مخيفة جداً لو أنها فكرت الآن بأنها سترحب بتورديس أوف سكيين بذراعين مفتوحتين ككنّة لها .

في الخريف وصل يامالت هالفاردسون إلى فورمو ، ومنه علمت حقيقة الشائعات المتعلقة بأحداث جسام انتشرت في "ديل" قبل وصوله . فبموافقة كبار آباء الكنيسة والفرسان والمرشحين لرتبة فارس في مجلس مملكة النرويج ، فقد قرر سير ماغنوس إريكسون تقسيم مملكته بين ابنيه اللذين رزق بهما من ملكته ، ليدي بلانش . وفي المجلس التشريعي في فاربرغ منح الابن الأصغر الأمير هاكون اسم ملك النرويج . أما زعماء المملكة من الكهنة وغيرهم من عامة الناس ، فقد أقسموا على جسد الرب بأن يحموا الأرض له . ويقال إنه كان طفلاً جميلاً محبوباً عمره ثلاث سنوات ، وستتم تربيته هنا في النرويج ، من قبل أربع من كبار السيدات النرويجيات كأمهات بالتربية ، و لوردين كنسيين واثنين عاديين كآباء بالتربية ، وذلك بينما يكون الملك ماغنوس والملكة بلانش في السويد . كان السير

إرلينغ فيدكونسون وأساقفة بيورغفين وأوسلو ، كما قيل ، قد عرضوا هذا الخيار على الملك ، وقد قام بيارن إرلينغسون بطرح المسألة على نحو أوسع مع الملك ، فقد كان هذا يحب بيارن أكثر من كل رجال النرويج الآخرين . وقد اعتبر الجميع أن هذا سيكون مكسباً كبيراً لقوة ومصلحة النرويج ، أن يكون لنا الآن مجدداً ملك يجعل بيته بيننا ويحمي قوانيننا وحقوقنا وخيرات البلد ، بدلاً عن إضاعة وقته وقوته وثروة المملكة على مغامرات في بلاد أخرى .

كانت كريستين قد سمعت بخيار الملك كما سمعت عن النزاعات مع التجار الألمان في بيورغفين وحروب الملك في السويد والدنمارك . ولكن الأنباء لم تؤثر فيها كثيراً . . . كانت مثل صدى لرعد بين الجبال حين تمر العاصفة فوق الأرياف البعيدة . كان أبناؤها ، كما عرفت ، قد تحدثوا فيما بينهم عن هذه الأمور . ولكن أولاد إرلند تأثروا تماماً بحكاية يامالت . جلس بيورغولف ورأسه على يده وهو يخفي عينيه الكفيفتين . أصغى غاوته بشفتين مفتوحتين قليلاً ويده تمسك بغمد خنجره . راح لافرانس يتنفس بسرعة وثقل ، ويتطلع إلى زوج خالته وإلى ناكفه في الكرسي العالي . كان الابن البكر شاحب الوجه متّقد العينين .

قال ناكفه : "لقد كان مصير رجال كثيرين أن هؤلاء الذين يقفون ضده بصلابة في الحياة قد انطلقوا نحو النصر على الطريق التي دلّهم عليها . . . حين وضعوه أولاً كطعام للديدان . وحين يمتلأ فمه مرة بالعفن ، فإن رجالاً أقل منه سيكونون سعيدين بما فيه الكفاية للبرهان على صحة كلامه" .

قال يامالت مواسياً :

"أجل ، ربما كان الأمر كذلك يا قريبي . هناك حقيقة فيما تقول . فأبوك قبل كل الرجال فكر بهذه الطريقة للخروج من هذه الحمأة . . . وذلك ليضع أخوين على العرشين هنا وفي السويد . لقد كان إرلند نيكولاوسون فارساً عميق التفكير حكيماً كبير القلب ، على ما أعتقد . ولكن كن حذراً في كلامك يا نيكولاوس .

أعتقد أنك لا تريد لمثل هذه الكلمات أن تذهب إلى الخارج بحيث تؤدي إلى الإضرار بمصلحة سكوله . . ."

قال ناكفه بحدة : "لم يطلب سكوله إذني فيما يخص ما فعله" .

"كلا ، لم يتذكر على الأرجح أنك قد بلغت سن الرشد الآن" ، قال يامالت كما من قبل ، "وأنا لم أفكر في ذلك أيضاً . . . لذلك بموافقتي وإرادتي وضع يده على سيف بيارن وحلف اليمين . . . "

"أعتقد أنه تذكر ذلك . . . ولكن الجرو كان يعرف جيداً أني لن أمنح موافقتي قط . كما أن رجال جيسكه كانوا في حاجة دون شك إلى هذا العبد بسبب الضمير المعذب . . . "

. . . لقد ذهب سكوله إرلندسون ليعمل في خدمة بيارن إرلينغسون كتابع محلّف له . لقد قابل النبيل الشاب في أعياد الميلاد وهو يزور خالته في أيلين ، وقد أوضح بيارن للشاب أنه من خلال تدخلات السير إرلينغ وتدخلاته هو أمكن العفو عن حياة إرلند . . . وبدون دعمهما ما كان ممكناً لسايمون أندرسون أن يسرّع مهمته لدى الملك ماغنوس . . . كان إيفار لا يزال مع إنجه فلوغا .

كانت كريستين تعلم أن ما قاله بيارن إرلينغسون كان فيه شيء من الصحة . . . وهو يلائم الحكاية التي رواها سايمون عن رحلته إلى تونسبرغ . ومع ذلك فقد كانت طوال هذه السنوات تفكر بمرارة كبيرة بإرلينغ فيدكونسون . لقد بدا لها أنه كان يمتلك السلطة آنئذ لمساعدة زوجها على الحصول على شروط أفضل لو أراد ذلك . أما بيارن فكان مجرد غلام في ذلك الحين وعلى أي حال ، فإنها لم تعجب كثيراً بأن يصبح سكوله مرتبطاً بهذا الرجل . . . وقد أبهرها أن يختار التوأمان طريقهما وأن يدخلا العالم الواسع على هذا النحو . . . فقد كانا لا يزالان طفلين في نظرها .

بعد هذه الزيارة التي قام بها يامالت ، اشتد القلق في روحها حتى ما عادت

تستطيع أن تتحمل التفكير . لو كان الأمر كما يفكر هؤلاء الرجال ، فإنه سيدعم كثيراً مصلحة وسلامة الشعب أن يسمى هذا الصبي الصغير في قلعة تونسبرغ ملكاً للنرويج ، عندها فإن هذا الألم الكبير الذي يعاني منه الشعب كان يمكنه أن ينتهي قبل عشر سنوات تقريباً لو أن إرلند لم . . . كلا ! لن تفكر في ذلك ، حين تفكر في الموتى . ولكنها لم تستطع مغالبة نفسها ذلك لأنها كانت تعرف أنه في عيون أبنائها فإن أباهم كان ذا سمعة مجيدة وكان كاملاً ، أفضل المحاربين والزعماء ، نقياً دون أي لطخة أما هي نفسها ، بالفعل ، فقد فكرت طوال هذه السنين في أن إرلند قد تعرض للخيانة من قبل رفاقه وأقربائه الأغنياء . لقد تعرض زوجها لظلم كبير . . . ولكن ناكفه تجاوز الحد حين قال إنهم رموه طعاماً للديدان . وكانت هي تحمل حصتها الثقيلة من اللوم . . . دون شك . . . ولكن كانت حماقة إرلند وعدم قدرته السيطرة على إرادته هما اللتان سبّبتا له الوصول إلى تلك النهاية البائسة .

كلا ، ولكن . . . رغم كل ذلك كان أمراً مريراً لها أن سكوله أصبح الآن تابعاً من أتباع بيارن إرلينغسون .

ألن يأتي ذلك اليوم الذي ستتحرر فيه من العذاب والقلق والخوف الذي لا نهاية له . . . ؟ يا للمسيح ، مع تذكر العذاب والأسى اللذين تحملتهما أمك لأجلك ، ارحمني كأم وواسني . . . !

•

لقد كانت لديها مخاوف حتى على غاوته . كان ذلك الشاب موهوباً كمزارع ممتاز ، ولكنه كان متهوراً في توقه إلى إعادة الأسرة إلى حال من الثراء . وقد منحه ناكفه مطلق الحرية . . . وكان لدى غاوته مشاريع كثيرة . فمع بعض الرجال الآخرين في الأبرشية استلم الآن العمل في أفران صهر الحديد في الجبال . كما كان يبيع الكثير . لم يكن يبيع ما يأتي كإيجار عيناً فحسب ، ولكن أيضاً المواد

من المزرعة المنزلية أيضاً . لقد اعتادت كريستين طوال أيامها أن ترى مخازن ومستودعات ضيعتها ملأى حتى آخرها ، وكانت غاضبة جداً حين راح غاوته يقلب أنفه تجاه الزبدة الفاسدة ، ويسخر من لحم الخنزير المقدد الذي عمره عشر سنوات المعلق في المستودع . وقد كانت لديها حاجة إلى أن تشعر أنه في ضيعتها لا يجب أن يكون هناك نقص في الطعام . وأنه لن يحتاج أي أشخاص فقراء إلى أن يطردوا دون مساعدة بعيداً عن بابها ، لو حلّ المحل الأسود مجدداً في الريف . ولا يجب أن يكون هناك نقص حين تعود الاحتفالات بالأعراس وولادة الأطفال والأعياد إلى الضيعة .

تقلصت وتضاءلت آمالها الكبيرة فيما يخص أبناءها . ستكون راضية إن كانوا سيستقرون هنا في الأبرشية . كانت تستطيع أن تبادل وتلملم أملاكها حتى يستقر ثلاثة منهم في مزارعهم الخاصة بهم . أما يوروندغارد مع ذلك الجزء من لاوغاربرو الذي يقع على هذا الجانب من النهر ، فسيكفيان ثلاثة ملاكين أحرار . وإن لم يكن مصيرهم أن يتحولوا إلى مرشحين لفرسان كبار . . . ومع ذلك لن يكونوا فقراء . وهنا في "ديل" كان يحلّ السلام . . . كل هذا الاضطراب بين زعماء البلاد ما كان معروفاً ولا يكترث به كثيراً . وحتى لو اعتبر هذا انتقاصاً من سلطة ومقام الأسرة . . . ومع ذلك فإنها قدرة الرب على قيادة أولئك الذين يأتون لاحقاً إلى مقامات أعظم لو رأى أن ذلك في صالحهم . ولكن ربما كان عبثاً لها أن تأمل أنها ستراهم مجتمعين من حولها على هذا النحو . . . فهم لن يرتاحوا بهذه السهولة ، أولادها هؤلاء الذين هم أولاد إرلند نيكولاوسون .

في هذه الفترة كانت روحها تواقة إلى أن تجد السلام والسلوان لو تخلت عن أفكارها حول الطفلين الصغيرين اللذين دفنتهما في المقبرة .

في كل يوم مر في هذه السنوات كانت تفكر فيهما . . . وتتساءل متى رأت أطفالاً في عمريهما يكبرون ويزدهرون ، وكيف كان من شأن طفليها أن يكونا الآن . . .

وحين راحت تمارس أعمالها اليومية الآن بجد ونشاط كما كان دأبها سابقاً ، إنما بانعزال وتأمل ، كان الطفلان الميتان معها دائماً . في أحلامها كانا يكبران ويزدهران ، وكانت طبيعتهما تماماً كما أرادتهما : مونان مخلص لأسرته كناكفه بينما كان مع أمه مرحاً ومخلصاً شأن غاوته . . . ولكنه لم يكن كغاوته يخيفها بالخطط المشكوك فيها . كان لطيفاً ومتأملاً شأن لافرانس ، ولكن كل الأفكار الغريبة التي كان يفكر بها مونان كان يحادث أمه بصراحة عنها . من خلال أفكار أمه كان يشبه بيورغولف ، ولكن لم يكن سوء الحظ قد عتم دربه في هذه الحياة ، وهكذا لم تكن حكمته قد تأثرت بالمرارة . كان واثقاً من ذاته وقوياً وجريئاً كالتوأمين ، ولكنه لم يكن عنيداً متشبثاً برأيه كالتوأمين . . .

وكانت تستدعي مجدداً كل ذكريات أولادها العذبة والمرحة حين كانوا صغاراً حين تفكر في إرلند الصغير . كان يقف على حضنها لتلبسه ثيابه . كانت تحيط بيديها جسمه البدين العاري ، وكان يشد يديه الصغيرتين ووجهه ملتفت إلى الأعلى وهو يدفع كل جسمه الغالي إلى الأعلى نحو وجهها ومداعباتها . كانت تعلمه المشي . . . وقد وضعت قماشة مطوية فوق صدره وتحت إبطيه . . . وعلى هذا النحو كان تعلقه ثقيلاً مثل كيس ، ويعبث هو بقدميه ويضحك حتى يتلوى جسمه كالدودة . كانت تحمله على ذراعها إلى ساحة المزرعة إلى حيث العجول والحملان . كان يصرخ من الفرح تجاه الخنازير مع خنانيصها ، ويرمي برأسه نحو الخلف ويفغر فاه تجاه الحمام فوق علية الإسطبل . كان يجري إلى القرب منها في العشب العالي قرب أكوام الحجارة ويصرخ لكل توتة يراها ويأكلها من يدها بتوق شديد حتى أن كفها كان رطباً من فمه الصغير النهم .

كل المتع التي عرفتها من أطفالها استذكرتها وعاشتها مجدداً في حياة الحلم هذه مع هذين الطفلين ، ونسيت كل الأحزان . . .

●

كان الربيع قد حلّ للمرة الثالثة منذ أن ووري إرلند التراب . لم تعد كريستين تسمع شيئاً عن توردیس وناكفه . ولكنها لم تسمع أيضاً أي شيء عن الدير . ثم نمت آمالها . . . لم تستطع أن تغالب نفسها : كانت كارهة أن تسلم بكر أبنائها إلى حياة الرهبنة .

قبل قداس جون (٢٤ حزيران / يونيو) عاد إيفار إرلندسون إلى يورروندغارد . كان التوأمان في السادسة عشرة من عمرهما حين غادرا المنزل . كان إيفار رجلاً ناضجاً الآن في الثامنة عشرة تقريباً ، وقد رأت أمه أنه أصبح شديد الوسامة والرجولة حتى أنها لم تكن تشبع من النظر إليه .

حملت الأم الفطور إلى إيفار في أول صباح ، بينما كان لا يزال في الفراش : خبز حنطة بالعسل وكعك الشوفان والجعة التي سحبتها من آخر برميل تم تخميره في موسم عيد الميلاد . جلست فوق حافة السرير بينما كان يأكل ويشرب وراحت تبتسم لكل ما كان يقوله ، ثم نهضت ونظرت إلى ملابسه ، فقلبت وتحسست كل جزء منها ، كما بحثت في حقيبة سفره ، ووزنت إبزيمه الفضي الجديد في يدها الضيقة السمراء ، واستلت خنجره من غمده ، ومدحته وكذلك كل عدته . ثم جلست مجدداً فوق السرير ونظرت إلى ابنها وأصغت بابتسامة في عينيها وحول شفتيها إلى كل حكايات الفتى .

ثم قال إيفار :

"الأفضل يا أمي أن أبلغك بالمهمة التي جاءت بي إلى هنا . . . لقد جئت لأحصل على موافقة ناكفه على زواجي" .

ولدهشتها ضربت كريستين يديها الواحدة بالأخرى :

"إيفاري ! أنت صغير على هذا . . . لاشك أنك لم تكن تمارس أي ألعاب بهلوانية ؟"

توسل إيفار إلى أمه أن تصغي إليه . كانت تلك أرملة شابة اسمها سيغنه

غامالسداتر أوف روغنهايم في فاوسكار . كانت ضيعتها تثمن بمائة وعشرين ماركاً من الفضة ، ومعظمها ملك لها وحدها . كانت قد ورثتها من ابنها الوحيد . ولكنها كانت عالقة في دعوى قضائية مع أسرة زوجها ، والتمس إنجه فلوغا كل الأساليب لأجل الكسب غير القانوني لنفسه ، لو كان سيساعد الأرملة على نيل حقوقها . وقد غضب إيفار ووقف إلى جانب المرأة وذهب معها إلى الأسقف ، فالسير هالفارد قد أظهر لإيفار معاملة أبوية في كل الأحيان حين كان يقابله . إن تصرفات إنجه مونانسون في وصايته لم تكن شرعية . . . ولكنه كان يعرف كيف يقيم صداقة مع الناس الكبار في الأبرشيات وكيف يخيف الناس الصغار . . . كما أبدى مهارة كبيرة في رمي الغبار في عيني الأسقف . كما لم يكن السير هالفارد شديد التصميم على أن يكون كثير الصرامة لأجل مونان . ولكن الأمور لم تكن تبدو جيدة لإنجه . . . وهكذا فإن إيفار افترق عن إنجه (حفيد خالة أبيه) على نحو غير ودّي حين ركب إيفار حصانه وغادر ضيعة إنجه فلوغا . ثم حدث أن خطر في ذهنه أن يتجه جنوباً ويحيي الناس في روغنهايم قبل أن يغادر ذلك الريف . كان ذلك في موسم عيد الفصح ، وكان هو في صحبة سيغنه منذ ذلك الحين . . . فساعدها في ضيعتها في الربيع . . . والآن فقد اتفقا معاً على أن يتزوجا . لم تكن تعتبر إيفار إرلندسون أصغر سناً من أن يتزوجها وأن يدير مصالحها . وكان على علاقة طيبة مع الأسقف كما قال . . . لاشك أنه لازال طري العود قليل الخبرة بحيث أن السير هالفارد لن يأتمنه على أي منصب ، ولكن كانت لدى إيفار آمال جيدة في أن يشقّ طريقه ، لو تزوج في روغنهايم .

جلست كريستين تعبث بحزمة مفاتيحها في حجرها . كان هذا دون شك كلاماً عاقلاً وحكيماً . وقد اعتبرت أن إنجه فلوغا لا يستحق معاملة أفضل من ذلك . ولكنها تساءلت كثيراً عما سيقوله العجوز المسكين مونان باردسون عن هذا الموضوع .

أما عن العروس فقد علمت أن سيغنه كانت امرأة في الثلاثين من عمرها وهي من منشأ فقير ووضيع ، ولكن زوجها الأول قد عرف النجاح لذا أصبحت هي في مركز مالي جيد ، كما كانت امرأة شريفة وكريمة وتستحق الاحترام .

مضى نيكولاوس وغاوته جنوباً مع إيفار ليريا الأرملة ، ولكن كريستين بقيت في البيت مع بيورغولف . وحين عاد ولداها إلى البيت ، جلب ناكفه الأنباء إلى أمه بأن إيفار أصبح الآن مخطوباً إلى سيغنه غامالسداتر . وأن الزفاف سيقام في روغنهايم في الخريف .

●

في إحدى الأمسيات دخل ناكفه بعد فترة قصيرة من عودته إلى البيت ، إلى أمه وهي جالسة تخيط في مبنى الحياكة ، أوصد الباب من الداخل . ثم قال لأمه إن غاوته قد أصبح في العشرين وإن إيفار ، بسبب زواجه ، قد أصبح مسؤولاً عن نفسه . وقد كان في نيته هو وبيورغولف السفر شمالاً في الخريف القادم ويأملان أن يقبلا كمبتدئين في الدير . لم تقل كريستين الكثير رداً عليه وما قيل كان عن ترتيب الحصة التي يجب أن ينالها الأخوان الأكبر الآن من الأملاك .

ولكن وصل بعد أيام قليلة أشخاص إلى يورونداغارد يدعونهم إلى وليمة . . . آسموند أوف سكيين كان يقيم احتفال خطوبة حفيدته تورديس إلى ابن مرشح غني لرتبة فارس من دوفر .

دخل ناكفه إلى أمه في مبنى الحياكة في تلك الليلة أيضاً ومن جديد أوصد الباب من الداخل خلفه . جلس على حافة المدفأة وجلس يعبث بعصا بين الجمرات . . . كانت كريستين قد أوقدت ناراً صغيرة فقد أضحت الليالي باردة في ذلك الصيف .

"لا شيء سوى الاحتفال والولائم يا أمي" ، قال ضاحكاً بعض الشيء . "وليمة خطوبة في روغنهايم ووليمة خطوبة في سكيين ، ثم سيكون زفاف

إيفـار . . . ولكن حين تركب توردیس إلى الكنيسة إلى زفافها ، لن أكـون في الموكب ، كما أعتقد . . . سأكون قد ارتديت ثوب الدير آنذاك . . . "

لم تجب كـريسـتين إلا بعـد وهلة . ثم قـالت دون أن ترفع بصـرها عن الخياطة . . . كان معطف زفاف لأجل إيفار :

"القـد أعتـقـد كـثيـرون أنه سيكون أمراً محـزناً لتورديس غونـاردسـداتر لو أصبحت راهباً ."

"لقد اعتبرت ذلك أنا نفسي أيضاً" ، قال ناكفه .

تركت كريستين الخياطة تسقط في حجرها . نظرت إلى ابنها . . . كان وجهه هادئاً ومستقراً . كان شديد الوسامة . . . فقد مشط شعره الأسود إلى الخلف بعيداً عن جبينه الأبيض ، فتجمع خلف أذنيه وفوق عنقه الرشيق الأسمر . كانت ملامحه أوسم من ملامح أبيه . . . كان وجهه أعرض وأكثر اكتنازاً ، ولم يكن الأنف كبيراً جداً والفم صغيراً جداً . كانت عيناه الزرقاوان الصافيتان قابعتين تحت الحاجبين السوداوين المستقيمين . . . ومع ذلك لم يكن يبدو وسيماً شأن إرلند . ولكن ما كان يفتقده ناكفه هو المرونة والرشاقة وروح الشباب الدائم التي كان يتحلى بها إرلند .

تناولت الأم عملها مجدداً ولكنها لم تعد إلى الخياطة . بعد قليل قالت وهي تنظر إلى القماش وتمهد حافته بإبرتها :

"تذكر يا ناكفه ، أني لم أقل كلمة واحدة ضد دخولك سلك الرهبنة . لا أجرؤ على أن أكون شديدة الجرأة إلى هذا الحد . ولكنك شاب . . . وأنت المتعلم أكثر مني بكثير ، إلا أني أعرف أنه كتب في الأناجيل : لا يلائم المرء أن يلتفت إلى الخلف من فوق كتفه ما أن يضع يده على المحراث ."

لم تتحرك عضلة واحدة في وجه ابنها .

"أعرف أنكما كلاكما تفكران في هذا الموضوع منذ زمن طويل" ، تابعت

أمه . "منذ أن كنتما طفلين . لم تكونا تفهمان في ذلك الحين ما الذي كان عليكما أن تمتنعا عنه . والآن بعد أن أصبحت في مصاف الرجال ، ألا تعتقد أنه ملائم لك أن تتأكد من أنك تريد تلبية الدعوة فعلاً ؟ لقد ولدت لتكون سيد هذه الضيعة ورئيس عائلتك . . . "

"أتجرؤين على نصيحتي الآن ؟" تنفس ناكفه بصعوبة مرة أو اثنتين . نهض . . . وفجأة أمسك بصدره ومزق قطعة من معطفه وقميصه ، حتى رفعت الأم بصرها إلى صدره العاري حيث وحمة ولادته ، النقاط الخمس الحمراء النارية الصغيرة بين الشعر المتجعد :

"ربما ظننت أني كنت أصغر من أفهم ما الذي كنت تتنهدين به من خلال الدموع والأنّات حين كنت تقبلينني هنا حين كنت طفلاً صغيراً . . . لم أكن أفهم في ذلك الحين ، ولكن الكلمات التي نطقت بها لم أنسها قط . . .

"أمي ، أمي . . . هل نسيت أن أبي مات أبأس الميتات ، دون اعتراف للكاهن ودون مسح الزيت الأخير ثم تتجرئين على مخالفتي في غرضي ؟

" . . . أعتقد أننا نحن الأخوة نعرف جيداً ما الذي نبتعد عنه . . . لا تبدو لي خسارة كبيرة لو أني فقدت هذه الضيعة ونأيت عن الزواج . . . ومثل هذا السلام والمرح اللذين عرفتهما أنت وأبي طوال السنوات التي أتذكرها . . . "

تركت كريستين الخياطة تقع من يدها . طوال حياتها مع إرلند– في سرائها وضرائها – مرّت بخاطرها ثروة الذكريات كالسيل . لا يعرف هذا الابن سوى القليل مما يتخلى عنه . وبكل معاركه الصبيانية وأفعاله المغامرة وألعابه المتعلقة بالحب والشهامة . . . لا يمكنه أن يكون سوى طفل بريء .

رأى ناكفه الدموع في عيني أمه ، فصرخ باللاتينية :

"مالي ولك يا امرأة ؟" (إنجيل يوحنا ٢-٤) . أجفلت كريستين خائفة ، ولكن ابنها تابع الحديث بغضب قوي : "لم يقل الرب هذه الكلمات ، على ما

أعتقد ، لأنه كان يزدري أمه . . . ولكنه صحح حتى لها هي أيضاً ، تلك الدرة النقية دون لطخة أو بقعة ، وذلك حين نصحته حول كيفية استخدامه لسلطته التي نالها من أبيه في السماء وليس من أمه الطبيعية . . . أمي ، ليس عليك أن تنصحيني في هذه القضية . . . أن تتجرئي على فعل ذلك . . . "

طأطأت كريستين رأسها فوق صدرها .

بعد برهة قال ناكفه بصوت خفيض :

"هل نسيت يا أمي أنك أبعدتني عنك . . . ؟" توقف ، وكأنه لا يستطيع أن يثق بصوته . ثم تابع يقول : "كنت سأركع إلى جوارك عند سرير موت أبي . . . ولكنك طلبت مني الابتعاد . . . ألا تعتقدين أن قلبي ينخلع في صدري كلما فكرت في ذلك ؟"

همست كريستين بصوت خفيض جداً حتى ما كان ممكناً سماعها إلا بالكاد :

"ألهذا السبب كنت . . . بارداً . . . جداً معي كل هذه السنوات ، منذ أن ترملت ؟"

صمت الابن .

"لقد بدأت أفهم . . . لم تسامحني على هذا قط يا ناكفه . . . "

نظر ناكفه إلى الأرض ثم جانباً .

"أحياناً . . . سامحتك يا أمي" ، قال بصوت ضعيف .

"ولكن ليس غالباً على ما أعتقد . . . ناكفه ، ناكفه" صرخت بأنة مريرة . "أتعتقد أن حبي لبيورغولف أقل من حبي لك . . . ألست أمه . . . ألست أمكما كلاكما ؟ لقد كنت قاسياً حين كنت توصد الباب بيني وبينه . . . !"

أصبح وجه ناكفه الشاحب أشد شحوباً .

"أجل يا أمي ، لقد أوصدت الباب دونك . . . تقولين إني قاس . . . ؟

فليسامحك المسيح فأنت لا تعرفين . . ." تلاشى صوته إلى همسة ، وكأن قوة الشاب اضمحلت : "لقد ظننت أنه ليس . . . أن علينا أن نوفر عليك المشقة . . ."

التفت بحدة وذهب إلى الباب وفتحه . ولكنه وقف هناك دون حراك ، وظهره إلى كريستين . وأخيراً نطقت باسمه برقة . عندها عاد ووقف أمامها برأس مطأطئة :

"أمي . . . أعرف جيداً أن هذا . . . ليس سهلاً . . . عليك . . . "

وضعت يديها فوق كتفيه . أخفى وجهه بعيداً عن عينيها ، ولكنه انحنى وقبل أحد رسغيها . تذكرت كريستين أن أباه فعل هذا ذات مرة . . . متى . . . لا تتذكر . . .

ربتت على كمّه ، ثم رفع يده وربت على خدها . فيما بعد جلسا في صمت بعض الوقت .

قال ناكفه بعد بصوت ثابت : "أمي ، هل لازال لديك الصليب الذي كان لأخي أورم ؟"

قالت كريستين : "أجل ، لقد قال لهم أن يطلبوا إليّ ألاّ أتخلى عنه قط ."

"أعتقد أنه لو أن أورم عرف بهذا ، لكان سيوافق على أن أرثه أنا منه . فأنا لن يكون لي أيضاً نسل ولا ميراث . . . "

أخرجت كريستين من تحت شلحتها الصليب الفضي الصغير . أخذه ناكفه من يدها ، كان لا يزال دافئاً من صدر أمه . قبل باحترام الأثر وسط الصليب ، ثم وضع السلسلة الدقيقة من حول عنقه وأقحم الحلية تحت ملابسه .

سألته أمه : "أتذكر أخاك أورم ؟"

"لا أعرف . أحياناً يبدو . . . ولكن ربما لأنك كنت تتحدثين عنه كثيراً حين كنت صغيراً . . . "

جلس ناكفه فترة أخرى أمام أمه . ثم نهض :

"ليلتك سعيدة يا أمي !"

"فليباركك الله يا ناكفه . ليلة سعيدة !"

خرج . طوت كريستين معطف إيفار الزفافي ، ووضعته مع عدة الخياطة ، وأطفأت النار .

"فليباركك الرب ، فليباركك الرب يا ناكفه . . . " ثم أطفأت الشمعة وغادرت المبنى القديم .

●

ثم حدث أن قابلت كريستين بعد فترة قصيرة توردیس في ضيعة تقع في ضواحي الأبرشية . كان هناك مرض سار بين سكان الأبرشية ولم يكونوا قد حصدوا التبن بعد ، لذلك ذهب أخوة وأخوات نقابة أولاف (أنظر الجزء الأول من هذه الثلاثية - الهامش رقم ١٧) إلى هناك وقدموا يد المساعدة في أعمال الحصاد . في المساء رافقت كريستين الفتاة في جزء من طريقها إلى البيت . كانت تسير ببطء ، كما هو شأن امرأة عجوز ، وراحت تثرثر مع الفتاة . وقبل مرور فترة طويلة كانت قد قادت الحديث في ذلك الاتجاه بحيث حكت توردیس من تلقاء ذاتها لأم ناكفه عما كان بينها وبين ناكفه .

أجل ، كانت قد اعتادت أن تقابله في حقل صغير قرب بيتها في الصيف الماضي حين كانت في السايتر ، وقد تقابلا مرات كثيرة . ولكنه لم يكن جريئاً معها . كانت تعرف جيداً ما يقوله الناس عن ناكفه عموماً . . . أما هو فهو لم يكن قد أخطأ في حقها قط ، سواء بالكلام أو بالأفعال . كان قد تمدد إلى جانبها فوق غطاء السرير مرة أو اثنتين وقد تحادثا معاً . . . وقد سألته مرة إن كان ينوي أن يطلب يدها ، وقد أجاب بأنه لا يستطيع . فقد كان قد تعهد بخدمة مريم العذراء . وقد قال هذا الكلام نفسه في الربيع الماضي حين تكلما معاً . إذن فهي لن تعترض على إرادة أبيها وجدّها بعد الآن .

"لاشك أنه لو انتهك تعهده ولو تحّديت أنت إرادة أهلك لكان من شأن

ذلك أن يجلب الشر عليكما" ، قالت كريستين . وقفت وهي تتكئ على مدمّتها وتتطلع إلى الفتاة . . . لها وجه لطيف مستدير وجميل هذه البنت ، وأجمل شعر لامع في ضفيرة ثقيلة . لاشك أن الرب سيمنحك السعادة يا توردیس . . . كما يبدو أن خطيبك شاب شهم طيب ."

"أجل ، أحب هافارد جيداً" ، قالت الفتاة . . . ثم انخرطت في بكاء مرير .

واستها بكلمات تلائم امرأة هرمة ورزينة . لقد آلمها قلبها من الإشفاق . . . كان سيسعدها كثيراً أن تنادي هذه الفتاة الصالحة النضرة بابنتي .

●

بعد زفاف إيفار بقيت فترة في روغنهايم . لم تكن سيغنه غامالسداتر جميلة ، كما بدت منهكة وعجوزاً ، إلا أنها كانت لطيفة ومحببة إلى النفس . بدا عليها أنها تحب زوجها الشاب من كل قلبها ، كما رحبت بأمه وأخوته وكأنها تعتبرهم أعلى مرتبة منها إلى حد أنها ما كانت قادرة على أن تكرمهم وتخدمهم بما فيه الكفاية . وبالنسبة إلى كريستين كان ذلك أمراً جديداً أن يضع أي شخص نفسه ليخمن رغباتها ويهتم بها بكل انتباه . ولم يسبق لها حتى حين كانت سيدة هوسابي الثرية ، مع حشد من الخدم تحت إمرتها ، أن خدمها أحد وكأنه لا يفكر سوى براحة وخدمة السيدة . لم يسبق لها أن وفرت نفسها حين كان العمل المنزلي كله واقعاً على كاهلها ، ولم يفكر أحد آخر حتى في إراحتها من العبء . لذلك كان اهتمام سيغنه الجاهز في راحة حماتها طوال فترة مكوثها في روغنهايم قد أثلج قلب كريستين . وسرعان ما أحبت سيغنه كثيراً ، وقد صلّت إلى الرب من كل قلبها ليبارك حياة إيفار الزوجية ، كما صلّت حتى لا تندم سيغنه قط على أنها منحت نفسها وكل ما تملك لزوج شاب إلى ذلك الحد .

●

وهكذا بعد قداس ميكائيل (٢٩ أيلول / سبتمبر) مباشرة سافر ناكفه وبيورغولف شمالاً إلى مقاطعة تروندهايم . كل ما سمعته عنهما منذ ذلك الحين كان حين وصلا إلى هينداروس في حالة جيدة ، وأنهما قد قبلا كمبتدئين في الأخوة الرهبانية في تاوترا .

•

وسرعان ما كانت كريستين قد أقامت عاماً كاملاً في يورونداغارد مع ابنين من أبنائها فقط . ولكنها تساءلت هي نفسها . . . إن هذا كان مجرد عام واحد فقط . ففي ذلك اليوم من الخريف في العام الماضي حين كانت قد وصلت حتى دوفر مع هذين الاثنين ثم مرت إلى القرب من الكنيسة ونظرت إلى المنحدرات السفلى ، المغطاة بضباب بارد حتى أنها لم تستطع أن تميز المباني في ضيعتها . . . فقد حسبت أنه لابد أن يفكر على هذا النحو الأشخاص الذين يتجهون إلى بيتهم عارفين أن المنازل تقع هناك محترقة إلى رماد وخشب متفحم بارد .

. . . والآن ، حين التفتت نحو البيت عند الممر القديم بعد بقايا ورشة الحدادة . . . كان هناك الكثير من النباتات وأكوام من قش السرير الأصفر والجريس والبيقية تجتاح حواف حقل التبن الوافر . . . تقريباً بدا لها أن ما كانت تراه هو صورة لحياتها : الموقد القديم المسخّم الذي عبثت به أحوال الطقس والذي لن يرى النار ثانية وهي توقد فيه . كانت الأرض من حوله مغطاة بمسحوق الفحم السميك ، ولكن أعشاباً طرية قصيرة ناعمة كانت نبتت في كل أرجاء المكان الذي كانت النار تتقد فيه . ومن الشقوق في الموقد القديم كانت تزهر كل شرابات عشبة السنديان الوردية الطويلة ، التي توزع بذورها على كل الأمكنة .

•

-٢-

كان يحدث أحياناً حين تكون كريستين قد ذهبت لترتاح ، أن يوقظها الناس القادمون إلى الباحة على ظهور جيادهم . كان شخص ما يصرخ عند باب العلية . . . وكانت تسمع غاوته يقابل ضيوفه بتحية صاخبة مرحة . كان على الخدم أن ينهضوا ويخرجوا . وكانت تُسمع قرقعة وصوت أقدام في الغرفة العليا . . . كانت كريستين تميز صوت انغريد وقد علا في لوم وتقريع . أجل كانت فتاة طيبة تلك الخادمة الشابة . لم تكن تقبل بأي جرأة من أي شاب . وقد

استقبلت أجوبتها الحادة الجاهزة بضحك صاخب من الحناجر الشابة . أما فريدا فزعقت . . . يا للمسكينة ، إنها لا تزداد حكمة مع الوقت . لم تكن تصغر كريستين بسنوات كثيرة ، ومع ذلك فإن السيدة مضطرة إلى مراقبتها على الدوام . . .

ثم كانت كريستين تتقلب في فراشها وتنام مجدداً .

كان غاوته يستيقظ في الصباح التالي عند صياح الديك كعادته . . . لم يكن يتأخر في النوم صباحاً بعد أن يسهر وهو يحتسي الجعة ليلاً . ولكن ضيوفه ما كانوا يظهرون حتى وقت وجبة الإفطار . ثم كانوا يبقون في الضيعة خلال اليوم كله . . . أحياناً لديهم صفقة يبرمونها ، وأحياناً كانت مجرد زيارة ودية . كان غاوته يبقي المنزل مفتوحاً .

كانت كريستين حريصة على تقديم أفضل الطعام والشراب إلى أصدقاء غاوته . لم تكن تعرف نفسها أنها كانت تتجول وهي تبتسم بهدوء ، وهي تسمع مجدداً أصوات الشباب والحياة المرحة في ضيعة أبيها . ولكنها لم تكن تحادث الشبان إلاّ قليلاً ولم تكن تراهم كثيراً . كان يكفيها أن ترى أن غاوته كان سعيداً وله أصدقاء كثر .

كان غاوته إرلندسون محبوباً من قبل الشبان وملاّك الأراضي الأغنياء . ورغم أن الحكم الصادر على قتلة إرلند كان قاسياً على أقربائهم ، وكانت هناك مزارع وأسر لا تزال كارهة في أن يكون لها علاّقة مع أولاد إرلند ، ومع ذلك فإن غاوته نفسه لم يكن عدواً .

وكان السير سيغورد أوف سوندبو هو من أبدى الكثير من الحب لقريبه الشاب . فابن خالتها هذا الذي لم تره كريستين قبل أن يقوده القدر إلى فراش موت إرلند نيكولاوسون ، قد أبدى في ذلك الحين أنه أخلص الأقرباء لها . لقد بقي في يورونداغارد حتى موسم عيد الميلاد تقريباً وفعل كل ما يستطيعه لمساعدة

الأرملة والشبان الصغار اليتامى . وقد عبر أولاد إرلند عن شكرهم له على نحو جميل ومهذب ، ولكن غاوته فحسب هو من صنع صداقة معه وقد كان يزور سوندبو كثيراً منذ ذلك الحين .

حين يموت ابن بنت إيفار غيبسلينغ هذا ، فإن الضيعة ستنقل الميراث بعيداً عن آل غيبسلينغ . . . فهو لم يرزق بأولاد ، وكان أولاد هافتور هم ورثته . كان قد سبق للسير سيغورد وأصبح رجلاً عجوزاً إلى حد ما ولديه عبء ثقيل يتحمله . . . فزوجته الشابة قد أصيبت بالجنون عند أول مخاض لها . وهو يسكن مع زوجته المجنونة هذه منذ حوالي أربعين عاماً ، ولكنه كان لا يزال يزورها ويعتني بأحوالها . . . . كانت تعيش في واحد من أفضل المنازل في سوندبو ، ولديها خادمات لا عمل لهن سوى العناية بها . "أتعرفينني اليوم يا غيريد ؟" كان زوجها يسألها عادة . أحياناً لا تجيب ، ولكنها كانت تجيب أحياناً : "أعرفك جيداً . . . أنت إيسياس العرّاف الذي يسكن في بروتفايت شمالاً تحت جبل بروتفايت ."

كانت تجلس هناك ومغزل بين يديها . . . وحين تكون في أفضل حالاتها كانت تغزل خيوطاً جميلة وصحيحة ، ولكن حين تكون الأمور سيئة معها ، كانت تقطع الغزل إلى نتف وترمي الصوف الذي مشطته خادماتها في كل أنحاء الغرفة . بعد أن حكى غاوته لكريستين عن هذا ، كانت ترحب دائماً بابن خالتها بود عميق ، لو حدث أن جاء إلى ضيعتها . ولكنها ما كانت توافق على الذهاب بنفسها إلى ضيعته . . . فهي لم تذهب إلى هناك منذ ذلك اليوم الذي وقفت فيه عروساً في كنيسة سوندبو .

كان غاوته إرلندسون أقصر بكثير من أخوته الآخرين . فإلى جانب أمه الطويلة وأخوته طوال القامة كان غاوته يبدو قصيراً نوعاً ما ، ولكنه كان معتدل الطول . على أي حال بدا غاوته أكبر حجماً من كل ناحية ، بعد أن رحل الأخوان الأكبر سناً والتوأمان اللذان كانا يليانه في العمر . . . فبالمقارنة معهم كان هادئاً في

سلوكه . عبر الريف كله كانت الناس تعتبره رجلاً وسيماً . . . وكان بهيّ الطلعة أيضاً . وبشعره الأصفر التبنيّ وعينيه الرماديتين الواسعتين تحت حاجبيه ، فقد كان وجهه البيضاوي الممتلئ نوعاً ما ذا بشرة نضرة اللون وفم جميل الشكل ، فكان أشبه بجده لأمه . وكان رأسه موضوعاً على كتفيه على نحو ملائم ، كما كانت يداه الكبيرتان جيدتي الشكل قويتين أكثر من المعتاد . ولكنه كان نوعاً ما قصيراً في القسم السفلي من جسمه ، وكانت ساقاه منحنيتين . لهذا السبب فقد كان يرتدي دائماً ثياباً طويلة ، إلا حين يكون عليه لأجل عمله أن يرتدي معطفاً قصيراً . . . رغم أنه في ذلك الحين كانت من عادة الرجال أن يرتدوا ملابس جميلة وقصيرة أكثر ممّا جرت عليه العادة سابقاً . لقد لاحظ مزارعو المنطقة هذه الموضة في ملابس علية القوم الذين كانوا يسافرون عبر "ديل" . ولكن حين كان غاوته إرلندسون يصل إلى الكنيسة أو إلى وليمة في ملابسه الطويلة الخضراء المطرزة الخاصة بالأعياد ، مع حزام فضي حول خصره الرشيق وعباءته الضخمة المبطنة بالفرو الأبيض مرمية على كتفيه ، كان سكان الأبرشية يتابعون سيد يوروندغارد الشاب بعيون سعيدة وودودة . كان غاوته يحمل في يده فأساً جميلة مطعمة بالفضة كانت ملكاً للافرانس بيورغولفسون بعد أن ورثها عن حميه ، إيفار غييسلينغ ، وكانت الناس تعتبر أنه أمر طيب أن يرى غاوته إرلندسون يسير على هدى أجداده ، ورغم شبابه أن يحافظ على عادات المنطقة القديمة من حيث الملبس وأسلوب الحياة والسلوك .

على متن جواده كان غاوته يبدو أوسم الرجال طراً . كان فارساً لامعاً وكان أهل الأبرشية يتفاخرون بأنه لم يكن هناك حصان في أرض النرويج لم يكن غاوته قادراً على ترويضه وركوبه . وحين كان في بيورغفين قبل عام يقال إنه روّض فحلاً صغيراً لم يستطع أي رجل من قبله أن يمتطيه . . . وتحت يدي غاوته تحول إلى حصان لطيف جداً إلى حد أنه امتطاه دون سرج ، ومستعملاً كرسن رباط

شعر إحدى الفتيات . ولكن حين سألت كريستين ابنها حول هذا الأمر ، فإنه ضحك ورفض أن يحكي عنه .

وكانت كريستين تعرف أن غاوته كان خفيفاً في تعامله مع النساء ، ولم يعجبها ذلك ، ولكنها فكرت في أن السبب هو أن النساء كن يعاملن الشاب الوسيم بلطف شديد ، وكان غاوته صريحاً ومباشراً . وعلى الأغلب كان ذلك لمجرد اللعب والمزاح . . . لم يكن يأخذ مثل هذه الأمور محمل الجد ولا يخفيها ، كما فعل ناكفه . لقد أتى بنفسه وحكى لأمه حين ولدت فتاة في سوندبو طفلة من صلبه . . . كان ذلك قبل سنتين . لقد تعامل مع الأم بكرم فقدم لها ، حسب مقامها راتباً ملائماً ، كما سمعت كريستين من السير سيغورد . كما كان غاوته سيجلب الطفلة إلى بيته بعد فطامها . لقد بدا أنه شديد الولع بابنته الصغيرة تلك . كان يذهب باستمرار ليراها حين يكون في فاغا . . . كانت أجمل الأطفال كما قال غاوته باعتزاز ، وقد سماها ماغنهيلد . كما اعتبرت كريستين أيضاً أنه بما أن الفتى قد ارتكب خطأ ، فالأفضل أن يجلب طفلته إلى البيت وأن يكون أباً صالحاً لها . وهي نفسها لم تكن ضد إحضار ماغنهيلد إلى البيت هنا . ولكن الطفلة ماتت وهي في السنة الأولى من عمرها . حزن غاوته كثيراً عنها حين سمع بذلك . كما أحست كريستين أنه أمر مؤلم أنها لم تر ابنة ابنها الصغيرة قط .

دائماً ما كان يصعب على كريستين أن تقرّع غاوته ، فلقد عانى من المرض الشديد وهو صغير ، ولاحقاً كان يبقى إلى جانب أمه أكثر من الأطفال الآخرين . ثم كان يشبه أباها . كان شديد الهدوء وأهلاً للثقة وهو طفل . . . كان جدياً كالكبار وكان يتجول معها ويساعدها ، ويعتقد حسب سذاجته كطفل أنه يقدم أعظم المساعدة لأمه . كلا ، لم تكن قادرة على أن تقسو على غاوته . . . ولو أنه ارتكب خطأ بسبب الرعونة أو بسبب قلة خبرته ، فما كان يحتاج إلاّ إلى بعض الكلمات اللطيفة لتوجيهه . كان جدياً وصافي الذهن جداً .

حين كان غاوته في الثانية من عمره فإن كاهن المنزل في هوسابي والذي كان ماهراً في طب الأطفال ، نصح بأن يُعطى مجدداً حليب امرأة لأن الوسائل الأخرى لن تفيده شيئاً . كان التوأمان مولودين حديثاً آنذاك ، وفريدا التي كانت ترضع سكوله ، كان لديها من الحليب أكثر مما يستطيع الطفل الصغير تناوله . ولكن المرأة جعلت الطفل المسكين في حالة رعب . . . كان غاوته طفلاً غير محبوب برأسه الكبيرة وجسمه الهزيل الذاوي ، ولم يكن قادراً على الكلام أو على الوقوف على ساقيه . . . لذا ذلك كانت تخشى من أن يكون طفلاً مستبدلاً ، رغم أنه كان صحيح الجسم معافى حتى وقع فريسة للمرض وهو في شهره العاشر . وعلى أي حال فإن فريدا ما كانت ترضى أن ترضع غاوته . لذلك لم يكن أمام كريستين سوى أن ترضعه بنفسها . وقد بقي يرضع من ثدي أمه حتى بلغ الرابعة من عمره .

لاحقاً كانت فريدا ترفض الاهتمام بغاوته . كانت لا تبالي به طالما استطاعت ذلك رغم خوفها من أمه . كانت فريدا تجلس قرب السيدة فوق مقعد النساء الآن وتحمل المفاتيح حين تكون كريستين بعيدة عن البيت . كانت تقول للسيد والسيدة كل ما يخطر في بالها . كانت كريستين تتحمل المرأة وتبتسم من تصرفاتها ، رغم أنها كانت تغضب منها أيضاً . . . ومع ذلك كانت تضع الأمور في مسارها الصحيح حين ترتكب فريدا شيئاً طائشاً أو تترك لسانها ينطق بشيء وقح . لم يكن يعجب فريدا أن يكون غاوته هو الجالس في الكرسي العالي الآن وسيد الضيعة . كانت تعتبره مجرد صبي أحمق . كانت تفاخر بأخوته وخاصة بيورغولف وسكوله اللذين أرضعتهما . كما أنها كانت تهزأ من قامة غاوته القصيرة وساقيه المعوجتين . كان غاوته يتقبل ذلك منها برحابة صدر .

"أجل تأكدي يا فريدا أني لو رضعت منك لكنت أصبحت مارداً مثل أي من أخوتي . ولكني اضطررت إلى أن اقنع بثدي أمي . . . " كان يبتسم لكريستين .

غالباً ما كانت الأم والابن يتمشيان معاً في الخارج مساءً . في أماكن كثيرة كانت الممرات عبر الحقول ضيقة جداً حتى أن كريستين كانت مضطرة إلى السير خلف غاوته . كان يمشي أمامها بفأسه طويل المقبض ، بكل عنفوان . . . لم تستطع أمه سوى الابتسام من خلف ظهره . أحست بنزعة شريرة شابة إلى العدو خلفه والإمساك به من خلف وأن تضحك وتداعب غاوته كما كانت تفعل وهو بعد طفل صغير .

وأحياناً كانا ينزلان إلى مكان الغسيل قرب ضفة النهر ، ويجلسان وهما يصغيان إلى صوت هدير النهر المسرع اللامع والسريع في الغسق . غالباً ما كانا لا يتبادلان الحديث . ولكن قد يحدث أن يسأل غاوته أمه عن الأيام الغابرة في هذا الريف وحول أسرتها . حكت له كريستين ما سمعته ورأته في طفولتها . أما عن أبيه والسنوات في هوسابي فلم يكونا يذكرانها قط .

"كلا يا أمي ، أنت تجلسين هناك وترتجفين على ما أعتقد" ، قال غاوته . " . . . الجو بارد هذا المساء ."

"أوه أجل . . . وأنا قد تيبست من الجلوس على هذا الحجر ." نهضت كريستين أيضاً . "سأصبح امرأة عجوزاً يا غاوته !"

في طريقهما صعوداً أبقت يداً على كتفه .

كان لافرانس مستغرقاً في نوم عميق في سريره . أوقدت كريستين المصباح الزيتي الصغير . . . كانت تنوي الجلوس قليلاً وتسلية نفسها بالهدوء الذي في نفسها . ولقد كان هناك ما يكفي لتشغل به أصابعها . من الأعلى كانت تصل أصوات صلصلة ، ثم سمعت غاوته يصعد إلى سريره هناك . عدّلت الأم ظهرها برهة . . . ابتسمت قليلاً أمام أشعة المصباح . تحركت شفتاها . رسمت إشارة الصليب فوق وجهها وصدرها في الهواء أمامها . ثم تناولت عدة خياطتها مجدداً .

نهض بيورن ، الكلب العجوز ، وهزّ نفسه ثم تمدد على قائمتيه الأماميتين وهو

يتثاءب . ثم زحف على الأرض نحو سيدته . ربتت عليه ، فوضع قائمتيه الأماميتين في حجرها . . . وحين كلمته ملاطفة ، فقد راح يلعق وجهها ويديها ، ويضرب الأرض بذيله . ثم انسل بيورن عائداً من جديد . . . التفت برأسه ونظر إلى المرأة . كان الضمير الشرير يطلّ من عينيه الخرزيتين وكل جسده الخشن الأشعث وحتى أخمص ذيله . ابتسمت كريستين بهدوء وتظاهرت بأنها لم تر . . . ثم قفز الكلب إلى سريرها وكوّر نفسه قرب سنادة القدم .

بعد وهلة أطفأت المصباح ونفخت على الفتيل وغمست طرف الدبالة المحروقة في الزيت . من الخارج ، عبر زجاج النافذة الصغيرة كان غسق ليلة الصيف يبدو على نحو باهت . تلت كريستين آخر صلوات اليوم ، خلعت ملابسها بهدوء وزحفت إلى السرير . ركزت الوسائد على نحو مريح من حول صدرها وكتفيها ، ونام الكلب العجوز خلف ظهرها . وسرعان ما نامت .

●

كان الأسقف هالفارد قد عيّن سيرا دراغ وكيلاً له في الأبرشية ، ومنه كان غاوته قد اشترى أعشار الأسقف للسنوات الثلاث القادمة . كان يشتري الجلود والأطعمة في الأبرشية أيضاً ، وفي الشتاء لدى نقل السلع على الزلاجات ، كان يرسل السلع إلى راومسدال ثم إلى بيورغفين في الربيع بالسفينة . لم تكن كريستين تحب كثيراً هذه الصفقات التي يقوم بها ابنها . . . فهي نفسها كانت تبيع دائماً في هامار ، وكذلك فعل أبوها وسايمون أندرسون . ولكن غاوته قد شارك غرلاك باوس- زوج أخته - في نوع من الشراكة التجارية . . . وكان غرلاك تاجراً نشطاً ومن أقرباء أغنى التجار الألمان في بيورغفين .

كانت مارغريت بنت إرلند وزوجها قد وصلا إلى يورونغارد في الصيف الذي تلا موت والدها . وقد قدما الكثير من الهدايا إلى الكنيسة لأجل راحة روحه . حين كانت مارغريت شابة صغيرة في هوسابي لم يكن هناك ود بينها

وبين زوجة أبيها ، ولم تكن تهتم إلا قليلاً بأخوتها الصغار آنذاك . والآن كانت في الثلاثين من عمرها ، ولم تكن قد رزقت بأطفال من زوجها . وقد أظهرت الآن لأخوتها - بعد أن كبروا - الكثير من الحب الأخوي ، وكانت هي التي حققت التفاهم بين زوجها وغاوته .

كانت مارغريت لا تزال جميلة ، ولكنها كانت قد أصبحت شديدة البدانة إلى حد لم تر كريستين مثيلاً له من قبل . لقد كان هناك كثير من الفراغ لوضع الأقراص الفضية على حزامها وكذلك كان دبوس زينة كبير بحجم ترس يدوي صغير يزين على نحو ملائم الفراغ بين ثدييها العريضين . كان جسدها الضخم مزيناً دائماً كمذبح ، بأثمن الأشياء وبالمعادن المذهبة على نحو جميل . . . لقد بدا أن غرلاك تييدكنسون كان يثّمن زوجته إلى حد كبير .

في العام الذي مضى ، زار غاوته أخته وصهره في بيورغفين خلال اجتماعات الربيع ، وفي الخريف عبَر الجبال مع مجموعة من الجياد التي باعها هناك . لقد حققت تلك الرحلة الكثير من الأرباح لغاوته حتى أنه أقسم أنه سيعيد الكرة في الخريف التالي . فكرت كريستين أنه لأمر طيب أن تتركه يفعل ما يريد في هذا الخصوص . ربما كان لديه شيء من حب أبيه للسفر في دمه . . . وسوف يستقر حين يكبر في السن . وحين لاحظت أمه أنه كان نافد الصبر حباً بالسفر ، كانت هي نفسها تسرّع في رحيله . . . في العام الماضي اضطر لعبور الجبال بعد عواصف الشتاء .

وهكذا انطلق في صباح جميل ومشرق بعد قداس بارتولوميو (٤١ آب / أغسطس) . وهذه الفترة هي موعد نحر الماعز . . . وكانت الضيعة كلها تفوح منها رائحة لحم الماعز المزيّت . كان الناس قد أكلوا حتى شبعوا وشعروا بالسعادة ، فهم لم يكونوا قد ذاقوا اللحم الطازج طوال فصل الصيف إلاّ في أيام العيد الخاصة ، ولكن الآن ومنذ أيام كثيرة هاهم يأكلون اللحم طيب المذاق والغني بالدهون في

الصباح وفي المساء . كانت كريستين متعبة ولكن روحها المعنوية عالية ، بعد عمليات الذبح الكبيرة وصنع المقانق لأجل السنة كلها ، وهي واقفة على الطريق العام الآن وتلوح بغطاء رأسها وراء غاوته وموكبه . كان موكباً رائعاً . . . الجياد الجميلة والشبان الرشيقون يحملون الأسلحة اللامعة والأطقم المجلجلة . وقد دوّى الجسر بصوت عالٍ حين مروا من فوقه من وقع أقدام الجياد عليه . التفت غاوته في سرجه ولوّح بقبعته ، ولوحت له كريستين ثانية وقد صدرت عنها صرخة صغيرة من السعادة والفخر .

●

بعد ليلة الشتاء (١٤ تشرين الأول / أكتوبر) بوقت قصير هطل المطر والقطقط على الوهاد ، وهبّت العاصفة وهطل الثلج على الجبال . كانت كريستين قلقة على غاوته الذي لم يعد بعد . ولكنها لم تكن خائفة عليه كثيراً في الحقيقة كما كانت على الآخرين . . . كان لها ثقة في حسن حظ هذا الابن .

بعد أسبوع كانت كريستين قادمة من حظيرة البقر في وقت متأخر في المساء ، حين شعرت بوجود بعض الفرسان عند بوابة الضيعة . كان الضباب يتصاعد مثل دخان ابيض أمام القنديل الذي كانت تحمله . . . ذهبت تحت المطر لتقابل مجموعة الرجال المرتدين للملابس الداكنة المصنوعة من الفرو : ألم يكن ذاك غاوته؟ . . . ليس من المحتمل وصول غرباء في وقت متأخر كهذا . . .

ثم لاحظت أن الراكب الأول كان السير سيغورد أوف سوندبو . . . ترجل عن حصانه بالتيبّس المألوف لدى كبار السن .

"أجل . . . أجلب لك أنباء من غاوته يا كريستين" ، قال الفارس بعد أن حيته وحياها . "لقد وصل إلى سوندبو البارحة" .

كان الظلام مخيماً حين كانا واقفين حتى أنها لم تميّز مظهره . ولكن صوته كان غريباً . وبينما مضى نحو باب القاعة ، أمر خدمه بأن يلحقوا بعامل الإسطبل

لدى كريستين إلى مسكن الرجال . شعرت بالخوف حين توقف عن الكلام ، ولكنها سألته بهدوء كاف حين وقفا لوحدهما معاً في الغرفة :

"ما هي هذه الأنباء إذن يا قريبي ؟ هل هو مريض بما أنه لم يعد إلى البيت معك ؟"

"لا ، غاوته في صحة جيدة ، ولكن رفاقه منهكون . . . "

نفخ الرغوة عن كوب الجعة الذي قدمته له كريستين ، ثم شرب وامتدح الجعة .

قالت السيدة مبتسمة : "شراب فاخر لمن يحمل أنباء طيبة ."

"أجل ، لنسمع ما ستقولين بعد أن تسمعي أخباري حتى نهايتها" ، قال بحزن شديد . "لم يأت ابنك لوحده هذه المرة . . . "

وقفت كريستين تنتظر .

"كان معه . . . أجل ، ابنة هلغه أوف هوفلاند . . . ويبدو أنه قد اختطف هذه الفتاة من أبيها بالقوة . . . "

لم تقل كريستين شيئاً بعد ، ولكنها جلست على المقعد أمامه . كان فمها ملتوياً ، وشفتاها مزمومتين .

"لقد رجاني غاوته أن أحضر إلى هنا . . . لأنه يخشى ، أنك لن تكوني مسرورة بهذا الذي حصل . وقد طلب مني أن أقول لك ما حصل . . . والآن فعلت ما هو مطلوب" . أنهى سيغورد كلامه بضعف .

"عليك أن تحكي لي كل ما تعرفه عن هذه القضية" ، رجته كريستين بهدوء .

وقد فعل سيغورد ذلك . . . وذلك بأسلوب ملتو غير واضح ، مع الكثير من التحويم حول الموضوع . كان واضحاً أنه هو نفسه كان منزعجاً من تصرف غاوته . ولكن كريستين فهمت من حكايته ما يلي : لقد قابل غاوته الفتاة في العام

الفائت في بيورغفين . كان اسمها يوفريد . . . لا ، لم تكن مخطوبة لأحد . ولكن غاوته ، على الأرجح ، قد أدرك أنه لا مجال أمامه أن يخطب الفتاة من أسرتها . . . فقد كان هلغه أوف هوفلاند غنياً إلى حد كبير ، وينتمي إلى أسرة تحمل اسم "دوك" ومعظم أملاكهم تقع في فوس . وهكذا أغوى الشيطان الشابين . . . تلوى السير سيغورد في ملابسه وحك رأسه وكأن القمل غزا جسمه كله .

إذن ففي الصيف ، حين كانت كريستين تعتقد أن غاوته كان في سوندبو ويخرج للصيد مع السير سيغورد ليصيدا الدبين الكبيرين بين جبال السايتر- كان هو قد عبر الجبال إلى سوغن - حيث كانت الفتاة مع أختها المتزوجة . كان لهلغه ثلاث بنات ولم يكن له أبناء . أنّ سيغورد ببؤس . . . أجل ، لقد وعد غاوته آنئذ بأنه لن يذكر شيئاً عن الأمر أمام أي شخص . صحيح أنه كان يعرف أن الشاب يحب الفتاة . . . ولكن كيف كان ممكناً له أن يحلم أن غاوته كان قليل الحكمة إلى ذلك الحد . . .

"أجل يبدو أنه سيدفع غالياً ثمن هذا ، ابني غاوته" ، قالت كريستين . كان وجهها هادئاً مستقراً .

قال سيغورد إن الشتاء كان وشيكاً الآن . . . وستكون الطرق صعبة المجاز . ولكن حين يقرر رجال هوفلاند التفكير في الأمر ، فقد يعتبرون أنه من الأفضل اعتبار أن يوفريد قد أعطيت بموافقة أسرتها . . . بما أنه سبق لها وأصبحت ملكاً له .

"ولكن إن لم يعتبروا الأمر كذلك . . . لو أرادوا الانتقام لاغتصاب ابنتهم؟"

تلوى السير سيغورد وراح يهرش أكثر مما سبق :

"هذه جريمة لا يمكن التكفير عنها بالغرامة أو التعويض ." ، قال بصوت خفيض . "لا أعرف بالضبط ."

صمتت كريستين . لذلك تابع السير سيغورد بصوت متوسل :

"لقد قال غاوته إنه واثق تماماً من أنك سترحبين بهما بحب . قال إنك

لست عجوزاً إلى حد تنسين معه . . . أجل ، لقد عنى أنك تفهمين أنك حصلت على الزوج الذي اختاره قلبك ."

أومأت كريستين .

"إنها أجمل فتاة رأيتها في حياتي يا كريستين" ، قال سيغورد بدفء . دمعت عيناه . "إنه لأمر سيئ أن يكون الشيطان قد أغوى غاوته ليرتكب هذا الخطأ . . . ولكني أعتقد أنك سترحبين بهذين الطفلين المسكينين على نحو ودي؟"

أومأت كريستين برأسها مجدداً .

●

كانت البلاد تقبع مبللة وشاحبة وسوداء تحت وابل من الأمطار حين دخل غاوته الباحة في اليوم التالي عن صلاة العصر .

أحست كريستين بعرق بارد يرطب جبينها وهي تنحني إلى الأمام تحت عتبة الباب العليا لتنظر . . . وهناك كان غاوته واقفاً يرفع امرأة في عباءة داكنة ذات قبعة لينزلها عن حصانها . كانت صغيرة الحجم لا تصل إلا بالكاد إلى كتف الرجل . كان غاوته يود أن يأخذ من يدها ويقودها إلى الأمام . . . ولكنها دفعته جانباً وانطلقت وحدها لتقابل كريستين . بدأ غاوته يحيّي خدم المنزل ويعطي الأوامر إلى الرجال الذين كانوا معه . حين نظر مجدداً نحو المرأتين أمام باب المنزل ، كانت كريستين واقفة وهي تمسك الفتاة الغريبة من كلتا يديها . قفز غاوته نحوهما وعلى شفتيه تحية سعيدة . في الغرفة الخارجية أمسك به السير سيغورد من الكتف وربت عليه بأبوة ، وهو ينفخ ويلهث لأن التوتر كان قد انتهى .

كانت كريستين قد فوجئت حين رفعت الفتاة وجهاً شديد البياض والجمال تحت قبعة عباءتها المبللة . . . لقد كانت صغيرة السن ضئيلة الحجم كطفلة . قالت الغريبة :

"لم أكن أعتقد أنك سترحبين بي يا أم غاوته . . . ولكن الآن كل الأبواب موصدة أمامي إلاّ بابكم . وإن كنت ستتحملين وجودي هنا في ضيعتك يا سيدتي ، فلن أنسى أني جئت إلى هنا دون مال ودون شرف ، دون أي شيء سوى الإرادة الطيبة في أن أخدمك وغاوته سيدي . . . "

. . . أخذت كريستين عندئذ كلتا يدي الفتاة قبل أن تعرف ما جرى :

"فليغفر الرب لابني الإثم الذي ارتكبه في حقك ، يا طفلتي الجميلة ، ادخلي يا يوفريد . . . فليساعدكما الرب كلاكما ، وسوف أساعدكما بقدر ما أستطيع !"

صحيح أنها شعرت بعد لحظة أنها ربما كانت قد بالغت في دفء ترحيبها بهذه المرأة التي لا تعرفها . ولكن يوفريد كانت قد أزاحت جانباً ملابسها الخارجية . كان ثوبها الشتائي الثقيل المصنوع من النسيج الصوفي الأزرق المغزول منزلياً ينقط من المطر في أسفله وعلى كتفيه ، حيث كان المطر قد تغلغل عبر عباءتها . وكان هناك جلال حزين ولطيف من حول هذه الفتاة الطفولية . . . كانت ترفع رأسها الصغير الداكن برشاقة ، وتحنيه قليلاً إلى الأمام ، وقد كانت لها ضفيرتان سوداوان كالفحم تصلان إلى أسفل خصرها . أخذت كريستين يوفريد بود من يدها وقادتها إلى أدفأ مكان على المقعد قرب جدار المدفأة : "لابد أنك تشعرين بالبرد؟"

تقدم غاوته إلى الأمام وضم أمه بقوة بين ذراعيه :

"أمي . . . على الأمور أن تجري كما هو مقدر عليها . . . هل سبق لك وشاهدت فتاة أجمل من يوفريد ؟ كان عليّ أن أحظى بها مهما كان الثمن . . . وستكونين طيبة معها يا أعزّ الأمهات . . . "

كانت يوفريد هلغسداتر جميلة . . . لم تكن كريستين قادرة على رفع عينيها عنها . كانت قصيرة القامة ، عريضة المنكبين والوركين ، إنما كانت ملفوفة القوام

جميلة الشكل . كانت بشرتها تبدو ناعمة وصافية حتى أنها كانت يائسة من شدة بياضها . كانت ملامح وجهها قصيرة وعريضة ، ولكن وجنتيها وقوس ذقنها القوي العريض كان يجعل وجهها شديد الوسامة ، وكان لها فم أحمر لامع عريض إنما رقيق الشفتين وأسنان صغيرة مستوية مثل أسنان الطفل اللبنية . وحين ترفع أهدابها الثقيلة فإن عينيها الصافيتين بلونهما الرمادي الأخضر كانتا أشبه بنجمتين لامعتين تحت الرموش السوداء الطويلة . . . شعر أسود وعينان لامعتان . . . اعتبرت كريستين هذه الأشياء أجمل الأشياء طراً منذ أن رأت إرلند لأول مرة . . . كان معظم أبنائها يتحلون بها . . .

وضعت كريستين يوفريد في مكان فوق مقعد النساء إلى جانبها . جلست بأناقة وخجل بين أهل المنزل الغرباء ، وأكلت قليلاً ، واحمر وجهها كثيراً في كل مرة شرب فيها غاوته نخبها خلال الوجبة .

التمع وجهه باعتزاز وسعادة محمومة وهو جالس هناك في كرسيه العالي . كانت كريستين احتفالاً بعودة ابنها قد فرشت غطاء فوق المائدة ووضعت الشموع في شمعدانات من النحاس المطلي بالذهب . راح غاوته والسير سيغورد يشربان نخب أحدهما الآخر دون توقف ، وأصبح الفارس العجوز أكثر فأكثر اهتياجاً فوضع ذراعه من حول كتف غاوته وأقسم أن سيدعم قضية غاوته حتى لدى الملك ماغنوس نفسه . . . سيكون الأمر صعباً ولكنه سيحاول أن يصالح غاوته مع أسرة الفتاة التي تعرضت للإهانة . لم يكن لدى سيغورد إلديارن أي أعداء . . . كان مزاج أبيه الرديء وسوء حظه في الزواج هو الذي جعله وحيداً إلى هذا الحد .

في النهاية قفز غاوته والقرن في يده . كم كان رجلاً مميزاً ، كما فكرت كريستين . . . وكم يشبه أباها ! هكذا كان أبوها عند بداية حفلة شراب . . . كان متقداً بالفرح بالحياة ، منتصب القامة ومرحاً . . .

"لقد حدث لي ولهذه المرأة يوفريد هلغسداتر أن نشرب في هذا اليوم جعة

عودتنا إلى البيت ، وسيكون علينا لاحقاً أن نشرب جعة زفافنا ، لو منحنا الرب مثل هذا الحظ السعيد . أنت يا سيغورد نشكرك لإخلاصك كقريب لنا ، وأنت يا أمي لأنك رحّبت بنا كما كنت آمل منك ، من قلبك الأموي الصادق . . . فنحن الأخوة قلنا مرات عديدة فيما بيننا ، أنك تبدين لنا أعظم النساء عقلاً وأرق الأمهات . لذلك أتوسل إليك أن تزيدي علينا من كرمك وأن تحضري بنفسك سريرنا الزفافي على نحو جميل وفاخر حتى أطلب من يوفريد دون خجل أن تنام فيه معي ، وأنك ستقودين بنفسك يوفريد إلى العلية ، حتى تحضر إلى السرير على النحو الملائم حيث أنها يتيمة الأم وليس لها قريبات هنا . . . "

كان السير سيغورد قد أسرف في الشراب الآن ، فانفجر ضاحكاً :

" . . . ولكنكما نمتما معاً في علية منزلي . . . هذا ما أعرفه ، وقد ظننت أنكما قد سبق لكما ونمتما في سرير واحد من قبل أيضاً . . . "

هزّ غاوته شعره الذهبي بغطرسة .

"أجل يا قريبي . . . ولكن هذه أول ليلة تنام فيها يوفريد بين ذراعي هنا في ضيعتها . . . إن شاء الله ."

"ولكن أنتم أيها الناس الطيبون أرجو منكم أن تشربوا وتمرحوا هذه الليلة . . . فقد رأيتموها الآن تلك التي ستكون زوجتي وسيدة يوروندغارد . . . هي وليس أي امرأة أخرى ، أقسم على ذلك بالرب وبمعتقدي كمسيحي . أتوقع منكم أن تعاملوها بشرف جميعاً ، رجالاً ونساء ، وأتطلع إلى أن تساعدوني ، أنتم رجالي ، على أن تحموها وتساعدوها كما يلائم رجالاً ذوي همة ."

بين الصياح والضجيج الذي تلا خطاب غاوته ، انزلقت كريستين من المائدة وهمست لأنغريد أن ترافقها لتصعدا إلى العلية .

كانت حالة القاعة العليا الفخمة خاصة لافرانس بيورغولغسون قد تدهورت خلال السنوات التي قضاها فيها أولاد إرلند . لم تكن كريستين ترمي في العلية سوى الأشياء الضرورية جداً وأخشن الأغطية والأثاث المهلهل بسبب أن أولادها

كانوا شديدي الإهمال ، كما كانت نادراً ما تنظف العلية ، فلم يكن الأمر يستحق الاهتمام . كان غاوته وأصدقاؤه يجلبون القاذورات والفضلات ما أن تنظفها . كما كانت هناك رائحة متلبثة هي رائحة الرجال الذين يأتون ويرمون بأنفسهم على الأسرّة ، وهم مبللون ومتعرقون وقذرون من الغابة أو المزرعة ، رائحة الإسطبل والملابس الجلدية وكلاب الصيد الرطبة .

وبسرعة قامت كريستين والخادمة بتنظيف الغرفة وترتيبها قدر الإمكان . كما أحضرت السيدة أغطية سرير ووسائد فاخرة ، وأحرقت العرعر للتخلص من الرائحة الكريهة فيها ووضعت كوباً فضياً فيه آخر قطرة نبيذ تبقت لديها في المنزل وكعكاً من الحنطة وشمعة في شمعدان معدني فوق مائدة صغيرة نقلتها إلى جانب السرير . أصبح المكان هنا جيداً بقدر ما استطاعت خلال هذا الوقت القصير .

على الجدار ذي الألواح قرب المختلى كان الأسلحة معلقة . . . سيف إرلند الحربي الثقيل ذو المقبضين والسيف الأصغر الذي أعتاد حمله ، فؤوس عريضة وفؤوس للحطب . . . وكذلك فأسا بيورغولف وناكفه اليدويان الخفيفان كانا معلقين هناك . كما كان هناك فأسان صغيران نادراً ما استخدمهما الأولاد ، لأنهما كانا يعتبران خفيفين جداً . . . ولكن كان أبوهما يشذب بهما كل أنواع النجارة على نحو ماهر وأكيد حتى أنه لم يكن يحتاج إلى الإزميل والسكين إلا للصقل . حملت كريستين الفؤوس إلى المختلى ووضعتها في صندوق إرلند ، حيث كان قميصه المدمى والفأس التي كان يحملها بيده حين أصيب بجرحه القاتل .

وحين أمر غاوته ضاحكاً لافرانس أن يحمل النور أمام العروس ويرشدها إلى العلية ، أصيب الصبي بالخجل والاعتزاز . لاحظت كريستين أن لافرانس كان يفهم جيداً أن زواج أخيه غير الشرعي هو لعبة خطرة ، ولكنه كان دائماً مضطرباً من هذه الأحداث الغريبة . . . وقد راح يحدق بعينين ملؤهما الشرر إلى غاوته وعروسه الجميلة .

على الدرج المؤدي إلى العلية انطفأت الشمعة . قالت يوفريد لكريستين :

"ما كان على غاوته أن يطلب منك القيام بهذا ، حتى لو كان ثملاً . . . اتركيني هنا أيتها السيدة . لا تخشي من أني قد أنسى أني امرأة خاطئة ، وقد خالفت إرادة أسرتي ."

قالت كريستين : "لست أفضل منك . وآمل أن يصحح ابني خطيئته التي ارتكبها ضدك وتستطيعين مناداتي عندها بحماتك عن حق . اجلسي حتى أمشط لك شعرك . . . فشعرك جميل جداً يا ابنتي . . . "

ولكن حين ذهب الجميع للنوم واضطجعت كريستين في سريرها ، أحسّت مجدداً بنوع من القلق . . . لقد اضطرت على نحو أحمق إلى أن تقول ليوفريد أكثر مما كانت تقصده . . . ولكن الفتاة كانت صغيرة جداً وقد أظهرت أنها لا ترغب في أن يحكم عليها على نحو أفضل مما تستحقه . . . طفلة هربت من الشرف والواجب .

إذن هكذا بدا الأمر . . . حين قام الناس بمرافقة المركب الزفافي والذهاب إلى البيت قبل الزفاف . تنهدت كريستين . . . لقد كانت راغبة ذات مرة في فعل مثل هذا لأجل إرلند . . . ولكنها لم تكن تعرف إن كانت تجرؤ لو أن أمه كانت تسكن في هوسابي . كلا ، كلا ، فهي لن تجعل الأمور أسوأ على الطفلة التي هي هناك . . .

كان السير سيغورد لازال يترنح في أرجاء القاعة . . . كان سينام مع لافرانس . . . وكان يتحدث على نحو ضبابي ولكن بإرادة مرحة ، عن الشابين . . . فهو لن يدخر وسعاً لتصل هذه المغامرة الخطرة إلى نهاية سعيدة . . .

في اليوم التالي ، أظهرت يوفريد لأم غاوته ما جلبته معها إلى الضيعة . . . جرابان جلديان من الملابس . وفي علبة صغيرة من عاج الفظّ كانت وقد وضعت حليها . وكأنما قرأت أفكار كريستين قالت يوفريد إن كل هذه الأشياء كانت تخصها . . . فقد حصلت عليها إما كهدايا أو كميراث ، وخاصة من أمها . لم

تأخذ أي شيء يخص أباها .

جلست كريستين حزينة وخدها مسند إلى يدها . في تلك الليلة البعيدة قبل دهور بحالها ، حين لملمت هي أغراضها الثمينة في علبة حتى تتسلل بعيداً عن بيت أهلها . . . كان معظم ما جمعته هدايا من الأب والأم اللذين جلبت عليهما العار سراً وكانت تخطط لإنزال الحزن والعار بهما في نور النهار الساطع . . .

. . . ولكن لو كانت هذه ممتلكات يوفريد الشخصية وميراثها ، كحليّ فقط ، من أمها فلا شك أنها تنتمي إلى أسرة غنية جداً . فقد قدرت كريستين ما رأته على أنه يساوي أكثر من ثلاثين ماركاً من الفضة الخالصة . . . أما الثوب القرمزي لوحده وعليه الفراء الأبيض والأبازيم الفضية والقبعة المبطنة بالحرير التي تخصه ، فيكلف ما بين عشرة إلى أثني عشر ماركاً على الأقل . لو وصل والد الفتاة إلى اتفاق مع غاوته فسيكون الأمر جيداً وحسناً . . . ولكن لا يبدو أنه يعتبره زوجاً ملائماً من حيث المقام لهذه الفتاة . ولو أن هلغه سيقف ضد غاوته بقوة كما هو حق له ولو استخدم سلطته في ذلك الاتجاه ، فلا شك أن الأمور ستكون سيئة حقاً .

قالت يوفريد : "هذا الخاتم كانت أمي تلبسه على الدوام . . . لو أخذته مني يا سيدتي ، عندها سأعرف أنك لا تحكمين عليّ بقسوة كما هو شأن سيدة صالحة ذات محتد نبيل ."

"كلا ، إذن فإنه من المحتمل جداً أني سأكافح لأحل محل الأم بالنسبة إليك" ، قالت كريستين مبتسمة ثم وضعت الخاتم في إصبعها . كان خاتماً فضياً صغيراً حلّي بحجر عقيق أبيض صغير ، وفكرت كريستين أن الفتاة تعتبره أثمن بكثير من قيمته الحقيقية لأنه يذكرها بأمها . "أعتقد أنه أمر معقول أن أقدم لك هدية بالمقابل ." . . . جلبت علبتها وقدمت للفتاة الخاتم الذهبي المطعم بالياقوت . "هذا الخاتم وضعه زوجي على سريري حين ولدت غاوته" .

أخذت يوفريد الخاتم وقبلت يدها . "ولكنني كنت أفكر في أن أتوسل منك هدية أخرى يا أمي . . . " ابتسمت على نحو فاتن جداً . "لا تخافي من أن يكون غاوته قد جلب إلى بيته امرأة بليدة كسولة . ولكن ليس لدي ثوب ملائم للعمل . أعطني ثوباً قديماً من ثيابك ولا تحرميني من حق مساعدتك ، وعندها فربما ستحبينني أكثر مما أطمح إليه الآن . . . "

ولكن كان الآن دور كريستين لتري الفتاة ما الذي لديها في صناديقها ، وقد امتدحت يوفريد كل أعمال كريستين اليدوية الجميلة على نحو يدل على الفهم إلى حد أن كريستين راحت تعطيها هذا الشيء وذاك . . . شرشفان من الكتان مع حواشي حريرية معقودة ، منشفة ذات حاشية زرقاء ، غطاء سرير مدروز ، وأخيراً سجادة طويلة من النوع الذي يعلق على الجدار عليها صورة تمثل الصيد بالصقور : "أكره أن تغادر هذه الأشياء هذه الضيعة . . . وبعون الله وعون سيدتنا فإن هذا المنزل سيكون لك ذات يوم ." ثم عبرتا نحو المخزن . . . وأنفقتا ساعات كثيرة معاً هناك ، ومرّ الوقت بسعادة .

كانت كريستين راغبة في منح يوفريد ثوبها الصوفي الأخضر المحبوك ببقع سوداء ، ولكن يوفريد اعتبرته أفضل من أن يكون ثوب عمل . يا للمسكينة ، لا شك أنها كانت تبذل جهدها لترضي حماتها ، فكرت كريستين ، وهي تخفي ابتسامة . وأخيراً وجدتا ثوباً بنياً قديماً اعتبرته يوفريد ملائماً ، لو قصرته قليلاً ووضعت رقعاً تحت الذراعين والمرفقين . ولم تقبل يوفريد سوى أن تستعير على الفور مقصاً وعدة خياطة ، وباشرت بالخياطة . . . عند ذلك بدأت كريستين بالعمل أيضاً ، وهكذا كانت المرأتان جالستين حين دخل غاوته والسير سيغورد لأجل وجبة المساء .

-٣-

أقرت كريستين من كل قلبها بأن يوفريد امرأة تعرف كيف تستخدم يديها . ولو سار كل شيء على ما يرام ، عندها سيكون غاوته محظوظاً . . . سيكون قد نال زوجة مجدة ونشيطة بقدر ما هي غنية وجميلة . وهي نفسها لم تكن قادرة على أن تجد امرأة أفضل منها لتحلّ محلها في يورروندغارد . . . ولو بحثت في كل النرويج عنها . هكذا قالت في أحد الأيام . . . ولاحقاً لم تعرف إلا بالكاد كيف هربت الكلمات من شفتيها . . . أن اليوم الذي ستصبح فيه يوفريد هلغسداتر زوجة غاوته الشرعية ، ستسلم المفاتيح إلى المرأة الشابة وتنتقل هي إلى القاعة القديمة مع لافرانس .

لاحقاً فكرت بالفعل أنه كان أحرى بها أن تكون وزنت الأمر على نحو أفضل قبل أن تنطق به . غالباً ما تكون متسرعة حين تكلم يوفريد . . .

ولكن حدث أن اكتشفت أن يوفريد كانت معتلة الصحة . لقد لاحظت كريستين ذلك ، وذلك بمجرد أن وصلت الشابة إلى الضيعة . وقد تذكرت كريستين أول شتاء لها حين كانت تسكن في هوسابي . . . كانت امرأة متزوجة شرعياً ، وزوجها وأبوها مرتبطين شرعاً ، ومهما كانت النتيجة التي ستصل إليها

صداقتهما بعد أن ينكشف سر الخطيئة المرتكبة . ولكنها عانت من ندم مؤلم وعار جارح ، وعاملت إرلند ببرارة في قلبها . . . كما كانت قد أكملت التاسعة عشرة من عمرها . أما يوفريد فلم تكن قد بلغت السابعة عشرة . وهاهي هنا الآن ، وقد اختُطفت بالقوة على نحو مخالف للقانون ، بعيداً عن بيتها لتسكن بين أناس غرباء ، وطفل غاوته تحت قلبها . في قلبها لم تنكر كريستين أن يوفريد كانت تبدو أقوى وأشجع بكثير مما كانت هي عليه .

ولكن يوفريد لم تدنس قداسة الدير ولا هي خالفت العهد وعقد الخطبة ، ولم تكذب وتمارس الخداع وتسرق شرف أبويها من وراء ظهرهما . وحتى لو كان هذا الشابان قد مارسا الخطيئة ضد قانون البلاد بسبب طيشهما ، وخالفا الواجب والاحتشام . . . ولكن لم يكن ضميرهما يعذبهما . راحت كريستين تصلي علّ جنون غاوته ينتهي نهاية طيبة . . . كما عزّت نفسها بفكرة أنه من المستحيل أن تكتب العدالة الربانية مصيراً لغاوته ويوفريد أقسى من مصير كريستين وإرلند . . . اللذين تزوجا شرعاً كما ولد طفل الخطيئة خاصتهما ليكون الوارث الشرعي لميراث والديه .

بما أنه لا غاوته ولا يوفريد قد تكلما عن القضية ، فإن كريستين ما كانت لتطرحها أيضاً ، رغم أنها تاقت إلى أن تحادث الفتاة غير المجربة : على يوفريد أن توفر قواها الآن ، وأن تضطجع في الصباح وترتاح من النهوض والتجول في الضيعة . . . فقد لاحظت كريستين أن الفتاة كانت مصممة على النهوض قبل حماتها وأن تعمل أكثر منها . ولكن يوفريد لم تكن الشخص الذي يقبل مساعدة أو شفقة من كريستين . كانت تأخذ على عاتقها بهدوء أثقل الأعباء عنها ، أما بالنسبة للبقية ، كانت تعاملها سواء حين تكونان لوحدهما أو أمام سكان المنزل الآخرين ، وكأنها بالحق الشرعي السيدة الشابة للضيعة .

كانت فريدا غاضبة لأن عليها أن تتخلى عن مكانها قرب السيدة أمام

يوفريد . . . (وهنا استخدمت فريدا كلمة بشعة) وكان ذلك في أحد الأيام بينما هي وكريستين في المطبخ معاً ، وهنا ضربت كريستين الخادمة :

" . . . يالها من كلمات جميلة تخرج من فمك أيتها المرأة العجوز سيئة السمعة المجنونة في جريها خلف الرجال !"

مسحت فريدا الدم عن أنفها وفمها :

"وهل أنتن بنات الرجال العظام ، شأنك وشأن يوفريد هذه ، أفضل من بنات الفلاحين . . . ؟ أنت تعرفين أن فراش الزفاف ذا الشراشف الحريرية سينتظرك بكل تأكيد . . . عليك أن تكوني مجنونة تجري وراء الرجال مجردة من الخجل علاوة على ذلك حين لا تستطيعين الانتظار ، بل تهربين إلى الغابات مع الشبان الصغار وتنجبين أطفالاً على جانب الطريق . . . تعساً لأفعالك !"

"اهدئي الآن . . . اخرجي واغسلي وجهك . . . فأنت تنزفين فوق العجين" ، قالت السيدة بهدوء كاف .

عند الباب تقابلت فريدا ويوفريد . عرفت كريستين من وجه الفتاة أنها قد سمعت لابدّ الكلمات التي قيلت للتو .

"هذه البائسة المسكينة تثرثر كحمقاء . لا أستطيع طردها . . . ليس لها مكان تذهب إليه ." ابتسمت يوفريد بسخرية ، وعند ذاك استأنفت كريستين الكلام : "لقد أرضعت اثنين من أبنائي ."

أجابت يوفريد : "لكنها لم ترضع غاوته . وهي لا تتعب قط من تذكيره وتذكيري بذلك . ألا تستطيعين أن تجدي لها عريساً ؟" سألت بحدة .

لم تستطع كريستين مغالبة الضحك .

"أتظنين أني لم أحاول ؟ ولكن كلما كان الرجل يتبادل الكلام مع العروس المفترضة كان الأمر ينتهي فجأة ."

هل تغتنم الفرصة وتكلم يوفريد الآن . . . تجعلها تفهم أنها لن تتلقى منها

سوى الإرادة الأموية الطيبة؟ ولكن يوفريد بدت شديدة البرودة والغضب . . .

ولكن كان واضحاً الآن أن يوفريد كانت تحمل حياة أخرى في داخلها . في أحد الأيام كانت تنظف الريش لأجل الفرشات الجديدة . نصحتها كريستين بأن تربط شيئاً على شعرها حتى لا يسقط منه شيء في الريش . ربطت يوفريد قماشة كتانية من حول رأسها :

"هذا يلائمني أكثر الآن مما هو الرأس السافر ، على ما أعتقد" ، قالت وهي تضحك قليلاً .

قالت كريستين بعد قليل : "قد يكون ذلك صحيحاً ."

لم تستطع أن تفهم كيف تستطيع يوفريد أن تمزح حول هذا الموضوع وهي على تلك الحال .

بعد أيام خرجت كريستين إلى المطبخ ، فشاهدت يوفريد تقف هناك وهي تنظف طيوراً سوداء تم اصطيادها . . . كان قد سبق للدم وغطى ذراعيها . فجذبتها كريستين جانباً وهي في حالة ذعر :

"يا ابنتي ، لا يجب أن تلمسي الدم الآن . . . ألا تعرفين ذلك حتى . . . ؟"

"أوه ، أتظنين أنه صحيح إذن كل ما تقوله النساء ؟" سألت يوفريد متشككة . ثم حكت لها كريستين عن علامات النار التي على صدر ناكفه . وقد حكت الحكاية ليوفريد حتى تفهم هذه أنها لم تكن أيضاً متزوجة حين راقبت الكنيسة وهي تحترق .

سألت بصوت خفيض :

"أنت لم تظني بي مثل هذه الظنون ، أليس كذلك ؟"

"أجل ، حكى لي غاوته كل شيء . . . لقد خطبك أبوك إلى سايمون أندرسون ولكنك هربت مع إرلند نيكولاوسون إلى بيت خالته ، وهكذا اضطر لافرانس إلى منح موافقته . . . "

"لم يكن الأمر كذلك . . . لم نهرب من البيت . لقد حررني سايمون ما أن عرف أني أحب إرلند أكثر ، وعند ذلك وافق أبي . . . دون إرادة منه ، ولكنه وضع يدي في يد إرلند . . كنت مخطوبة له لمدة عام . . . أتعتقدين أن هذا أسوأ ؟" سألت إذ كان وجه يوفريد قد تضرج وراحت تنظر إلى الأخرى بفم فاغر .

مسحت الفتاة بعض الدم والألياف عن ذراعها البيضاء بالسكين .

"أجل" ، قالت بصوت خفيض ولكن بثبات . "لم يسبق لي أن رميت بسمعتي وشرفي دون حاجة إلى ذلك . . . أجل ، لن أحكي لغاوته أي شيء عن هذا" ، قالت بسرعة . "إنه يعتقد أن أباه خطفك بالقوة لأنه لم يستطع أن ينال موافقة أبيك على الخطوبة . . . "

ربما كانت على حق ، فكرت كريستين .

●

مع مرور الوقت وبينما راحت كريستين تفكر وتتأمل في المسألة ، بدا لها أنه كان أفضل حل مشرف لغاوته هو أن يرسل مرسالاً إلى هلغه في هوفلاند ، فيضع المسألة تحت تصرفه ويخطب منه يوفريد لتكون زوجته حسب الشروط التي يراها هلغه ملائمة . ولكنها حين كلمت غاوته حول هذا بدا غير مسرور وحاول أن يزيح الأمر جانباً . وأخيراً سأل بحرارة إن كانت أمه قادرة على إرسال الرسالة عبر الجبال في الشتاء ؟ كلا ، ولكن سيرا داغ يستطيع إرسال رسالة إلى "نيس" ، ومن هناك على امتداد الشاطئ كما قالت أمه . فالكهنة يستطيعون دائماً إرسال الرسائل حتى في الشتاء . قال غاوته إن الأمر سيكون مكلفاً جداً .

"إذن فهي لن تكون زوجتك هذه التي ستلد لك طفلاً في الربيع القادم" ، قال أمه غاضبة .

قال غاوته : "لا يمكن على أي حال ترتيب الأمور بكل هذه السرعة ." لاحظت كريستين أنه كان غاضباً بمرارة .

راح خوف بشع ومعتم يستولي على الأم مع مرور الوقت . لم تستطع سوى أن ترى أن فرحة غاوته الأولى بيوفريد كانت قد ولّت تماماً . لقد بدا كئيباً مزاجياً . منذ البداية كان قضية اغتصاب العروس من قبل غاوته تبدو سيئة جداً . . . ولكن أمه اعتبرت أن الأمر سيكون أسوأ لو بدا أن الرجل كان خائفاً مّما ارتكبه . لو تاب الشابان عن خطيئتهما ، لكان الأمر جيداً وحسناً . . . ولكن كان هناك منظر بشع للمسألة وكأن القضية كانت تتجاوز ذلك الخوف اللارجولي من الرجل الذي أخطأ في حقه وليس بالأحرى ندماً يدل على الورع . غاوته ، هذا الابن الذي كانت تثق به أكثر من كل أخوته . . . لا يمكن للأمر أن يكون صحيحاً ، كما قال الناس ، أي أنه غير أهل للثقة وضعيف أمام النساء ، وأنه قد سبق له وملّ يوفريد ، فقد أضحت عروسه الآن شاحبة وكئيبة ، واقترب الحين الذي سيكون عليه فيه أن يُسأل أمام أسرتها عن فعلته المخالفة للقانون .

لقد عذرت ابنها . . . لو أنها سمحت لنفسها بأن تُضلّل بسهولة ، هي التي لم يكن أمام عينيها في يفاعتها سوى الأساليب الورعة للناس الورعين . . . إلا أن أولادها عرفوا منذ الطفولة أن أمهم قد ارتكبت الخطيئة ، وأن أباهم في شبابه قد رزق بولدين من زوجة رجل آخر ، كما أنه ارتكب الخطيئة مع امرأة متزوجة وهم في سن اليفاعة . أما أولف هالدورسون ، أبوهم بالتربية ولسان فريدا المنفلت . . . أوه ، سيكون أمراً غريباً ألا يكون هؤلاء الشبان ضعفاء أمام مثل هذه الأمور . . . على غاوته أن يتزوج يوفريد لو استطاع أن يكسب موافقة أسرتها . . . وأن يكون شاكراً لذلك . . . ولكن كان أمراً مؤسفاً للفتاة لو كان عليها أن ترى الآن أن غاوته سيتزوجها لأنه مضطر لذلك فحسب وضد إرادته .

•

في إحدى المرات خلال فترة الصوم ، كانت كريستين ويوفريد تجهزان زوادات الطعام للحطابين . كانتا تضربان السمك المجفف حتى يرق وتضغطان الزبدة في علب وتملأان القوارير الخشبية بالجعة والحليب . لاحظت كريستين أن يوفريد كانت

منزعجة لوقوفها هكذا على قدميها طوال الوقت ، ولكن يوفريد غضبت حين طلبت منها كريستين متوسلة أن تجلس وترتاح . ولبثّ السرور فيها قليلاً خطر لكريستين أن تسألها عن حكاية الحصان الذي استطاع غاوته ترويضه كما يقول الناس برباط شعر فتاة بدلاً عن الرسن : "هل كان الرباط لك على الأرجح ؟"

"كلا" ، قالت يوفريد بغضب وقد تضرج وجهها . ثم تغير مزاجها .

"كان يخص آسا أختي" . قالت ضاحكة . "لقد غازلها غاوته أولاً . ولكن حين عدت إلى البيت لم يعد يعرف أياً منا يفضل . ولكنه كان يتطلع إلى أن يجد آسا عند منزل داغرون في الصيف الماضي حين نزل إلى سوغن . وقد غضب حين أغظته فيما يخصها . . . وقد أقسم بالرب وكل الناس أنه لم يكن من النوع شديد الجرأة مع بنات الرجال الصالحين . . . لم يكن هناك أي شيء بين آسا و بينه ، كما قال ، ولكنه يستطيع النوم بين ذراعيّ في تلك الليلة دون خطيئة . وقد وثقت بوعده . . . " ضحكت مرة أخرى . وحين شاهدت وجه كريستين أومأت برأسها بتحد .

"أجل ، أنا التي أردت غاوته زوجاً لي ، وكوني على ثقة يا أمي من أني سأحصل عليه . سأحصل على ما أريد . . . "

●

استيقظت كريستين في عتمة مطبقة . كان البرد قد عضّ وجنتيها وأنفها . . . وحين لملمت من حولها الفروات ، أحست أنها كانت مجلدة من أنفاسها . لابد أن الصباح قريب . . . ولكنها راحت ترتجف من فكرة النهوض لتنظر إلى النجوم . تكورت تحت الفروات لتبقى دافئة فترة أطول . وفجأة تذكرت حلمها .

ظنت أنها كانت ممددة في الفراش في القاعة الصغيرة في هوسابي وكانت قد ولدت طفلاً للتو . كان الطفل بين ذراعيها ملفوفاً بفروة حَمَل انزلقت وتمعجت

من حول الجسم الصغير الأحمر الداكن . . . كانت يداه الصغيرتان مطبقتين على وجهها . وكانت ركبتاه مرفوعتين على جسده والقدمان متصالبتين . . . تحرك بين الحين والآخر قليلاً . لم يخطر لها أن تتساءل عن السبب في أن الطفل لم يكن مقمطاً ، وأنه لم تكن هناك أي نساء في الغرفة معهما . كان دفء جسدها هي لا يزال يلف الصبي وهو ممدد هناك إلى القرب منها . وعبر ذراعيها كانت لا تزال تشعر به حتى جذور قلبها كلما تحرك الطفل . كان التعب والألم ثقيلين عليها لا يزالان ، مثل عتمة تبدأ بالتلاشي ، بينما كانت تستلقي وهي تنظر إلى ابنها ، وتشعر بالسعادة والحب له وقد بدأا يتزايدان باستمرار مثل لمعان جليد الفجر على امتداد حافة جبلية . . .

ولكن في الوقت نفسه الذي كانت تتمدد فيه في الفراش ، فقد كانت واقفة في الخارج قرب جدار المنزل . إلى الأسفل كان الريف يمتد أمامها لامعاً تحت شمس الصباح . كان صباحاً باكراً من أحد الأيام التي تقع بين الشتاء والربيع . . . استنشقت الهواء الحاد العذب . . . كانت الريح باردة مثلجة ، ولكن فيها أثر من البحر البعيد والثلج الذائب . كانت الجبال عبر الديل قابعة تحت شمس الصباح مع بقع خالية من الثلج من حول المزارع ، وكان الثلج ذو القشرة يلتمع بلون أبيض فضي في كل المساحات المكشوفة بين الغابات الخضراء الداكنة . بدت السماء وقد اجتيحت مؤخراً بلون أصفر جاف وأزرق فاتح ، مع بعض الغيوم القليلة التي تدفعها الريح تسبح فوقها . . . ولكن كان الجو بارداً . حيث كانت تقف كان الثلج المتكوم قاسياً كالصخر لا يزال من جليد الليل ، وبين المنازل كان يقبع ظلّ بارد ، فقد وقفت الشمس فوق السلسلة الجبلية الشرقية خلف الضيعة . وأمامها بالضبط حيث كانت الظلال تنتهي ، فإن الريح الصباحية كانت تحرك عشب العام الماضي الشاحب اللون . كان يهتز ويلتمع ، رغم أن أكوام الجليد اللامع كالفولاذ كانت لا تزال تتشبث بجذوره .

آه ! . . . آه ! انفجرت الآهة من صدرها رغماً عنها . كان لافرانس لا يزال معها . . . سمعت تنفس الصبي المنتظم من السرير الآخر . أما غاوته . . . فقد كان نائماً هناك في العلية ، مع حبيبته . تنهدت الأم ثانية ، وتحركت بقلق ، وانتقل كلب إرلند العجوز فوق غطاء السرير ليقترب من ساقيها اللتين رفعتهما إلى أعلى .

وقد سمعت الآن يوفريد تمشي في العلية ، وتذرعها جيئة وذهاباً . زحفت كريستين بسرعة من السرير وأقحمت قدميها في حذائها الفرو الأشعث ، ورمت فوق جسمها ثوبها الصوفي ومعطفها الفرو . في العتمة تلمست طريقها نحو المدفأة ، أقعت ونفخت على الرماد وقلّبته . ولكن لم تومض شرارة واحدة . . . فقد انطفأ الجمر كله خلال الليل .

سحبت حجر الصوان والفولاذ من جيب حزامها ، ولكن لاشك أن الصوفان قد ترطب . . . كان متجمداً . وأخيراً تخلت عن محاولتها وأخذت المقلاة وصعدت لتستعير حجراً متقداً من يوفريد .

كانت نار جيدة متقدة في المدفأة الصغيرة في العلية ، وترمي بنورها في الغرفة . في النور المتراقص كانت يوفريد جالسة وهي تثبت الحلية النحاسية فوق معطف غاوته المصنوع من جلد الرنة . في النور استطاعت أن تميز في السرير صدر وكتفي رجل عارٍ . . . كان غاوته ينام دون قميص في هذا البرد القارس . كان جالساً وقد راح يتناول إفطاره في السرير .

نهضت يوفريد بثقل ووقار . . . هل تريد الأم جرعة من الجعة ؟ لقد دفأت شراب غاوته الصباحي . وعلى الأم أن تأخذ هذه الصفيحة إلى لافرانس . . . كان سيصحب غاوته إلى التحطيب اليوم . سيكون الجو بارداً على الجبال .

بوّزت كريستين شفتيها في نوع من الكره وهي واقفة في غرفتها تشعل النار . انشغال يوفريد في الأعمال المنزلية ، وغاوته مستلق هناك وامرأته تخدمه . . . الاهتمام الحريص من قبل الحبيبة بابن حميها وهي ليست الزوجة الشرعية

بعد . . . لقد بدا لها كل شيء على أنه غير محتشم ومثير للاشمئزاز . . .

بقي لافرانس في الغابة ، ولكن غاوته عاد عند وجبة المساء متعباً وجائعاً . لذلك جلست المرأتان قليلاً بعد أن خرج الخدم ، لتكونا في رفقة السيد وهو يتناول الشراب .

لاحظت كريستين أن يوفريد لم تكن على ما يرام هذا المساء . وفجأة تركت الفتاة خياطتها تسقط في حضنها ، وعبرت وخزات ألم وجهها .

"هل تعانين من آلام يا يوفريد ؟" سألت كريستين بصوت خفيض .

"أوه ، أجل ، قليلاً . . . في القدمين والساقين" أجابت الفتاة . كانت قد عملت طوال النهار حسب عادتها . . . وكانت ترفض أن تريح نفسها . والآن هاهي تعاني من ألم موضعي ، وكانت ساقاها متورمتين .

وفجأة بدأت دموع صغيرة تنزل من تحت أهدابها . لم تكن كريستين قد شاهدت امرأة تبكي على هذا النحو الغريب . . . جلست هناك دون صوت وقد كزّت على أسنانها . ثم تدحرجت دموع مستديرة لامعة . . . بدت لكريستين وكأنها صلبة كاللؤلؤ . . . فوق وجهها المتسخ المبقع ببقع بنية . بدت غاضبة لأنها اضطرت إلى الاستسلام . . . ثم تركت كريستين تساعدها على الذهاب إلى سريرها دون إرادة منها .

لحق غاوته بهما :

"هل تعانين من ألم يا يوفريد ؟" سألها بأسلوب حزين . كان وجهه أحمر من البرد وبدا بائساً بينما جهزت أمه السرير ليوفريد ، فخلعت عنها حذاءها وجواربها ، وبدأت تعالج القدمين والساقين من الورم . "هل تعانين من الألم يا يوفريد ؟" تابع السؤال .

قالت يوفريد بصوت خفيض وغضب مكتوم : "أجل . لو لم أكن كذلك هل كنت أبكي على هذا الشكل؟"

بدأ مجدداً : "هل تشعرين بالألم يا يوفريد ؟"

"لاشك أنك تستطيع ملاحظة ذلك . . . لا تقف هناك فاغر الفم كطفل ساذج يا ولد !" التفتت كريستين إلى ابنها وعيناها تومضان . اللفة البليدة في عقلها . . . الخشية مما قد يأتي من ذلك كله ، ونفاد الصبر من معاناة الشابين الصغيرين من حياة لا شرعية هنا في الضيعة ، والشكوك الناهشة في رجولة ابنها . كلها انفجرت في غضب عنيف : "هل أنت أحمق إلى حد أنك تعتبر أنها يمكن أن تكون في صحة جيدة مثلاً ؟ . . . إنها ترى أنك لست رجلاً بما فيه الكفاية لتجرؤ على عبور الجبال لأن الريح تهب وهناك ثلج يهطل . . . أنت تعرف جيداً أنها سرعان ما ستركع على ركبتيها (في المخاض) ، هذه الفتاة المسكينة ، وسوف تتلوى ألماً في أسوأ لحظاتها . . . وطفلها سيدعى بابن الزنا لأنك لا تجرؤ على مواجهة أبيها . . . هاأنت تجلس لتدفئ المقعد في القاعة ولا تجرؤ حتى على رفع إصبع واحد لحماية زوجتك وطفلك الذي سيأتيك . . . لم يكن أبوك خائفاً إلى هذا الحد من أبي حتى أنه لم يجرؤ على مخاطبته ، كما لم يكن يخشى البرد حتى أنه لا يجرؤ على السفر بالمزالج عبر الجبال في الشتاء . عار عليك يا غاوته . . . وعار عليّ أنا التي عليها أن تعيش وتنادي بالجبان أحد الأبناء الذين رزقت بهم من إرلند !"

تناول غاوته الكرسي بكلتا يديه ورمى به إلى الأرض ، ثم عدا نحو المائدة ورمى كل ما كان فوقها . ثم اندفع خارجاً من الباب مع رفسة وداع للكرسي . . . وقد سمعتاه وهو يعدو ويشتم فوق درج العلية .

"كلا يا أمي . . . لقد أفرطت في قسوتك على غاوته . . . " رفعت يوفريد نفسها على مرفقها . "لا يمكنك أن تتوقعي منه بشكل عقلاني أن يخاطر بحياته فوق الجبال في الشتاء . . . ليجد أبي وليقال له إن عليه أن يتزوج عروسه التي أسيء إلى شرفها . أو أن يهرب من البلاد كخارج عن القانون . . . "

كانت موجات الغضب لا زالت عاتية في قلب كريستين . أجابت باعتزاز :

"ومع ذلك فأنا لا أصدّق إلا بالكاد أن ابني يستطيع أن يفكر على هذا النحو !"

قالت يوفريد : "كلا . . . لولا أني لديه لأفكر عنه . . . " وحين رأت وجه كريستين ، تابعت بصوت ضاحك .

"أمي العزيزة . . . لقد قاتلت بضراوة حتى منعت غاوته عن الرحيل . . . لن أجعله يرتكب المزيد من الحماقات لأجلي ، وأن أحرم أولادي من الثروة التي سأرثها من أسرتي ، لو أن غاوته استطاع الوصول إلى اتفاق معها على أفضل نحو مشرف لنا جميعاً . . . "

سألت كريستين : "ما الذي تعنينه بهذا ؟"

"أعني أنه لو أن أهلي جاءوا يفتشون عن غاوته ، فإن السير سيغورد سيقابلهم على نحو يجعلهم يرون معه أن غاوته لا يفتقر إلى أقرباء يدعمونه . سيضطر إلى تقديم التعويضات ، ولكنه سيكون على أبي لاحقاً أن يزوجني من غاوته حتى يعود لي مجدداً حق مشاركة أخواتي في ميراثه . . . "

سألت كريستن : "إذن فأنت نفسك ستكونين ملومة أيضاً حين سيصل طفلك إلى هذه الدنيا وأنتما غير متزوجين بعد ؟"

"بما أني استطعت أن أهرب من البيت مع غاوته ، عجباً . . . لن يصدق أحد الآن على ما أعتقد أنه قد وضع سيفاً مجرداً بيننا في سرير الليل . . . "

سألت كريستين : "ألم يخطبك من أهلك قط ؟"

"كلا . كنا نعرف أن هذا سيكون عبثاً ، حتى لو كان غاوته رجلاً أغنى بكثير مما هو ." عادت يوفريد لتضحك مجدداً . "ألا ترين يا أمي أن أبي يعتبر نفسه أحكم من كل الرجال في المقايضة على حصان . ولكن سيتطلب الأمر رجلاً أكثر يقظة من أبي حتى يغلب غاوته إرلندسون في تبادل للأحصنة . . . "

لم تستطع كريستين أن تغالب الابتسام . . . رغم أنها لم تكن سعيدة في قلبها .

"لا أعرف القانون المتعلق بهذه المسائل" ، قالت بجدية ، "ولكني أشك كثيراً يا يوفريد ، لن يكون على غاوته إلى يصل مثل هذا الاتفاق الذي تسمينه جيداً . وإذا ما اعتبر غاوته خارجاً على القانون . . . واصطحبك أبوك معه إلى المنزل ، وجعلك تستشعرين غضبه . . . أو إذا طلب منك دخول دير للتكفير عن ذنوبك . . . "

"لا يستطيع أن يرسلني إلى الدير دون أن يقدم هدايا ثمينة ترافقني بحيث ستكون بالنسبة إليه صفقة أبخس وأكثر جدارة بالاحترام أن يعقد اتفاقاً مع غاوته ويأخذ منه تعويضاً . ألا ترين أنه يستطيع أن يزوّجني دون حاجة إلى أن يقدم أي متاع أو بضاعة . كما أعتقد ، أنه رغم كل الحب الذي يكنّه لأولاف زوج أختي ، إلا أنه سيكون كارهاً لعدم مشاركتي لأخواتي في الميراث . وعلى على ذلك ، فإن أسرتي ستضطر إلى العناية بطفلي أيضاً . وأعتقد أن أبي سيفكر مرتين قبل أن يحاول أن يأخذني إلى بيته في هوفلاند مع طفل غير شرعي . . . أن يجعلني أحسّ بغضبه . . . إنه يعرفني . . .

" . . . لا أعرف كثيراً بالقانون أنا أيضاً ، ولكني أعرف أبي وأعرف غاوته . وأعرف أن الكثير من الوقت قد انقضى ، وأن هذه المسألة لا يمكن إلا بالكاد أن تستمر قبل أن أكون قد تخففت من عبئي وعدت إلى صحتي مجدداً ، وعندها يا أمي لن تريني أبكي ! أوه ، كلا ، أنا واثقة أن غاوته سيربح مثل هذا الاتفاق مثل . . .

"كلا يا أمي . . . غاوته سليل نبلاء وملوك . . . وأنت قريبة أكبر الأسر في البلد . . . ولو حدث واضطررت إلى تحمل مشاهدة أبنائك وهم ينحدرون عن

المنزلة التي كانت حقهم بالمولد ، ومع ذلك فأنت سترين نسلك وهو يصعد عالياً في هذا العالم مجدداً من خلال أولاد غاوته وأولادي . . . "

جلست كريستين صامتة . لم يكن أمراً غير محتمل أن تمضي الأمور كما تمنت يوفريد . . . لقد لاحظت أنها لم تكن في حاجة إلى الحزن الكثير على الفتاة . لقد أضحت نحيلة الآن . . . وأضحت الاستدارة الطرية لوجنتيها متهدلة ، وكان ممكناً أن يرى المرء بوضوح كم كان فمها السفلي كبيراً وقوياً .

تثاءبت يوفريد ، جلست بصعوبة ونظرت فيما حولها باحثة عن حذائها . ساعدتها كريستين على ارتدائه . شكرتها يوفريد :

"لا تعودي إلى إثارة غضب غاوته بعد الآن . إنه لا يأخذ الأمور باستخفاف لأننا لا نستطيع الزواج قبل أن . . . ولكنني لن أجعل طفلي يصبح فقيراً حتى قبل أن يولد . . . "

●

بعد أربعة عشر يوماً ، ولدت يوفريد صبياً كبير الحجم وجميلاً . أرسل غاوته رسالة إلى سوندبو في اليوم نفسه . ووصل السير سيغورد فوراً إلى يوروندغارد وحمل إرلند غاوتسون عند تعميده . ولكن رغم سعادة كريستين لافرانسداتر بحفيدها ، إلاّ أنه كان يغيظها على أي حال أن يمنح اسم إرلند للمرة الأولى إلى طفل غير شرعي .

"كان أبوك أكثر جرأة على أن يكسب لابنه حقوقه" ، قالت هي لغاوته في إحدى الأمسيات ، وهو جالس هناك في مبنى الحياكة وهو يراقبها تحضّر الطفل لليل . كانت يوفريد تنام بعذوبة في السرير قرب الجدار . "لم يكن يحب السير نيكولاوس العجوز كثيراً ، ومع ذلك فهو ما كان سيكرم أباه على هذا النحو فيمنح اسمه إلى ابن غير شرعي ."

"كلا . . . أورم . . . سمي باسم جده لأمه ، أليس كذلك ؟" سألها غاوته .

"أجل ، أجل يا أمي ، ربما لا يكون هذا كلاماً ملائماً يصدر عن ابن . ولكني أعتقد أنك تستطيعين أن تفهمي أننا نحن الأخوة لاحظنا جيداً خلال حياة أبينا أنك لم تكوني تعتبرين أنه كان النموذج الأمثل لنا في كل الأمور . . . ولكنك تتحدثين عنه الآن على الدوام وكأنه كان قديساً . . . تقريباً . أنت تعرفين جيداً أننا نعرف أنه لم يكن كذلك . سنكون كلنا فخورين لو استطعنا الوصول نحن الأبناء إلى قامة أبينا . . . أجل بل إلى كتفه حتى . . . ونحن نتذكر دائماً أنه كان زعيماً ورجلاً يفوق كلِ الرجال في الخصال التي تزين الرجال . . . ولكنك لا تستطيعين أن تجعلنا نصدق أنه كان أكثر العشاق تواضعاً وفضيلة في سرير سيدة أو أشجع المزارعين . . .

"ولكن لا حاجة بأحد إلى أن يتمنى لك يا ابني المسمى إرلند أكثر من أن تنمو لتصبح شبيهاً به !" امسك بالطفل الذي كان ملفوفاً الآن استعداداً لليل وأقحم ذقنه فوق الوجه الأحمر الصغير في القماط الصوفي اللامع : "أنت أيها الصبي الموهوب المليء بالأمل ، إرلند غاوتسون أوف يورووندغارد ، قل لجدتك إنك لست خائفاً من أن يتخلى عنك أبوك . . . " رسم إشارة الصليب فوق الطفل وأعاده إلى حضن كريستين ثم ذهب إلى السرير وحدق إلى الأم الشابة الهاجعة :

"حالة يوفريد جيدة ، أليس كذلك ؟ تبدو شاحبة ولكني أعتقد أنك تفهمين في مثل هذه الأمور أفضل من الجميع . . . سلام الرب ونوم عميق لكل سكان هذا البيت !"

•

بعد شهر من مولد الصبي أقام غاوته وليمة عماد كبيرة ، وقد تجمع أقرباؤه من البعيد والقريب . خمنت كريستين أنه قد استدعاهم إلى هنا للتشاور معهم حول هذا الأمر . . . كان الفصل ربيعاً الآن ، وسرعان ما سيتطلع إلى أن يسمع أنباء من أسرة يوفريد .

سرّت كريستين لمشاهدة إيفار وسكوله في البيت معاً . كما وصل أولاد أخوالها : سيغورد كيرنينغ الذي كان قد تزوج من ابنة عمها من سكوغ ، وإيفار غييسلينغ أوف رينغهايم وهافارد تروندسون . لم تكن قد شاهدت آل تروندسون منذ أن ورّط إرلند رجال سوندبو في مغامرته المشؤومة . كانوا في أواسط العمر الآن : وكانوا دائماً متهورين طائشين ، إنما من أصحاب المبادئ السامية والشهامة . ولم يكونوا قد تغيروا كثيراً . . . وقد قابلوا أولاد إرلند وابن عمتهم السير سيغورد الذي حل محلهم في سوندبو بكل الود الذي يليق بالأقرباء . وقد جرت الجعة والميد أنهاراً على شرف إرلند الصغير . قدم غاوته ويوفريد إلى ضيوفهم ترحيباً حراً خالياً من الخجل وكأنهما متزوجان شرعياً وبارك الملك زواجهما بنفسه . . . عمّ المرح ولم يبد أن هناك من استذكر أن شرف ومصلحة الشابين الصغيرين كانا لا يزالان معرضين للخطر . ولكن كريستين علمت أن يوفريد لم تنس ذلك . قالت :

"كلما كانت مقابلتهم مع أبي أكثر حرية وجرأة كلما سهل إقناعه . كما أن أولاف بايبر لم يستطع أن يخفي أنه يحب كثيراً الجلوس على المقعد نفسه مع رجال من الأسر القديمة ."

والشخص الوحيد الذي لم يبد عليه أنه سعيد تماماً في هذا الاجتماع للأقارب كان السير يامالت هالفاردسون . كان الملك ماغنوس قد رسمه فارساً في عيد الميلاد الأخير . لقد أصبحت رامبورغ لافرانسداتر تحمل لقب ليدي الآن .

في هذه المرة كان السير يامالت قد اصطحب معه أكبر ابني زوجته أندرس سايمونسون معه . كانت كريستين قد رجته أن يحضره معه حين زار يامالت الشمال آخر مرة ، فقد كانت قد سمعت كلمة عارضة عن أن الصبي غريب الأطوار . وقد حلّ خوف كبير فيها . . . هل حدث أن الصبي قد تأذى روحاً وجسداً من تلك المعالجات السحرية التي مارستها عليه وهو طفل ؟ ولكن زوج أمه قال لا ، فالصبي سليم وقوي وصحيح كالذهب . . . وربما كانت قدراته العقلية

أفضل من غيره . . . إلا أنه كان يبصر رؤى : كان يبدو مذهولاً أحياناً ، ويقوم لاحقاً بأغرب الأشياء . . . كما حدث في العام الماضي . لقد أخذ ملعقته الفضية ذات يوم . . . كانت تلك التي أهدته إياها كريستين عند ولادته . . . وكذلك دبوس قميص خلّفه له والده . . . ثم خرج من الضيعة ونزل إلى جسر فوق نهر على الطريق العام قرب آيلين . وهناك جلس ينتظر ساعات كثيرة . . . وأخيراً وصل إلى الجسر ثلاثة شحاذين ، رجل عجوز وامرأة شابة مع طفل رضيع . ذهب اندرس إليهم وأعطاهم الملعقة والدبوس ، وتوسل أن يحمل الطفل عن المرأة . في البيت كانوا في حالة ذعر شديد ، حين لم يعد أندرس عند موعد الغذاء ولا حتى العشاء . . . خرجوا وراحوا يبحثون عنه في الريف ، وأخيراً علم يامالت أن أندرس قد شوهد في مكان بعيد شمالاً في الأبرشية المجاورة في صحبة شخصين يسميان كريب وكراكا . كان يحمل لهما طفلهما . وحين وجد يامالت الفتى في اليوم التالي أخيراً ، قال بعد الكثير من الأسئلة إنه سمع صوتاً يوم الأحد الماضي خلال القداس بينما كان واقفاً ينظر إلى الصورة المرسومة على اللوح الزجاجي أمام المذبح . كانت صورة أم الرب والقديس يوسف وهما مسافران مع الطفل إلى أرض مصر ، وقد تمنى لو كان يعيش في تلك الأيام ، لأنه كان سيطلب الإذن ليسافر معهم ويحمل الطفل نيابة عن مريم العذراء . ثم سمع صوتاً ، كان ألطف وأعذب صوت في كل العالم ، وقد وعده الصوت بأنه سيريه إشارة لو ذهب إلى جسر بيركهايم في يوم محدد .

كان أندرس يكره الحديث عن رؤاه عادة . . . فقد قال كاهن أبرشيتهم إنها ربما كانت جزئياً تظاهراً وجزئياً هلوسات عقل مريض . وقد أخاف أمه حتى كادت تجنّ بأساليبه الغريبة . إلا أنه كان يحادث كثيراً خادمة عجوزاً كانت ورعة جداً ولها أخ واعظ كان من عادته التجول عبر الأبرشية في أيام الصوم والقدوم . يبدو محتملاً أن الصبي سيختار الحياة الروحية . . . ربما سيكون سايمون سايمونسون هو

الذي سيستقر- حين يحين الأوان - كسيد لفورمو . كان طفلاً معافى وحيوياً يشبه أباه كثيراً ، وكان المدلّل لدى رامبورغ .

لم تكن رامبورغ ويامالت قد رزقا بأولاد بعد زواجهما . وقد سمعت كريستين من بعض الناس الذين رأوها في راومريكه أن رامبورغ أضحت شديدة البدانة والكسل . كانت تذهب لزيارة الناس الأغنى والأقوى في المنطقة الجنوبية ، ولكنها لا تذهب شمالاً إلى موطنها الأصلي ، ولم تكن كريستين قد شاهدت أختها الوحيدة منذ أن افترقتا في فورمو . ولكن كريستين اعتبرت أنها تستطيع أن تلاحظ أن رامبورغ كانت لا تزال تحمل لها الضغينة القديمة . كانت سعيدة في حياتها مع يامالت وكان يرعى مصالح أولاد زوجته بحب وحرص . وقد رتب الأمور بحيث أن أكبر أبناء الرجل الذي سيكون وريثه الرئيسي لو مات دون أن يرزق بأطفال سيتزوج من أولفهيلد سايمونسداتر . وهكذا ، في أسوأ الأحوال ، فإن ابنة سايمون دار ستنتفع من إرثه من بعده . كانت آرنغييرد قد تزوجت من غرونده أوف آيكن في النسنة تلت وفاة أبيها . وقد قدم لها غيرد دار ويامالت الحصة التي كان سايمون يريد لابنته هذه أن تنالها ، وكانت سعيدة كما قال يامالت . . . وقد ترك غرونده لزوجته الحرية في أن تدير كل الأمور ، وقد سبق لهما ورزقا بثلاثة أولاد وسيمين .

تأثرت كريستين إلى حد غريب حين رأت أكبر ابني رامبورغ وسايمون مرة أخرى . كان الشبه الحي فعلاً للافرانس بيورغولفسون . . . أكثر من غاوته حتى . وفي هذه السنوات الأخيرة كان على كريستين أن تتخلى عن اعتقادها في أن غاوته كان يشبه أباها كثيراً من الناحية الذهنية .

كان أندرس دار في الثانية عشرة من عمره الآن ، طويلاً ورشيقاً ، أشقر الشعر ووسيماً ، وهادئ السلوك نوعاً ما . ورغم أنه كان يبدو معافى وسعيد المزاج ، وله جسم قوي ، ومعدة قوية ، إلا أنه كان يرفض أكل اللحم . وكان هنالك شيء ما يميزه

عن بقية الأولاد ، ولكن كريستين لم تستطع أن تحدد ما هو ، رغم أنها راقبته عن كثب . وسرعان ما أصبح أندرس على علاقة طيبة مع خالته ، ولكنه لم يحك لها أياً من رؤاه ، كما لم تنتبه إلى أي حالات ذهول خلال وجوده في "سيل" .

●

بدا على أولاد إرلند الأربعة أنهم كانوا سعداء لاجتماعهم في ضيعة أمهم ، ولكن كريستين لم تستطع أن تحادث أبناءها إلا قليلاً . وحين كانوا يتبادلون الحديث فيما بينهم ، أحست أن حياتهم واهتماماتهم أصبحت تنزلق الآن بعيداً عن مرمى بصرها : فالاثنان اللذان قدما من الخارج قد سبق لهما وافترقا عن بيتهما ، والاثنان اللذان يسكنان في الضيعة سرعان ما سوف يأخذان منها السيطرة عليها . وقد حدث الاجتماع في منتصف القحط الربيعي . وقد لاحظت الآن أن غاوته كان لابد قد استعدّ له وذلك بتوفير العلف في الشتاء أكثر ممّا هو معتاد ، وكان قد اقترض علفاً من السير سيغورد أيضاً . . . ولكنه رتب كل هذه الأمور دون أن يشاورها . وكان كل الكلام حول قضية غاوته الغرامية قد استمر رغماً عنها حتى لو كانت جالسة في الغرفة مع الرجال .

لذلك لم يكن أمراً عجيباً لها حين دخل إيفار ذات يوم وقال إن لافرانس سيصحبه حين يعود إلى روغنهايم .

وعلى أي حال فإن إيفار إرلندسون قال لأمه إنه يعتبر أن على أمه أن تأتي إلى روغنهايم بعد أن يتزوج غاوته :

"ستكون سيغنه كنّة ممتازة لو سكنت معها على ما أعتقد . . . ولن يكون سهلاً عليك هنا أن تتخلى عن مقاليد الأمور ، حيث اعتدت أن تكوني أنت المسيطرة ." أما بالنسبة إلى البقية فقد كان واضحاً أنه أحب يوفريد ، هو وكل الرجال الآخرين . أما السير يامالت فهو الوحيد الذي بدا عليه أنه ينظر إليها ببرود نوعاً ما .

جلست كريستين مع حفيدها الصغير في حضنها وفكرت أن الأمر لن يكون سهلاً عليها لا في هذا المكان ولا في المكان الآخر . كانت مسألة قاسية عليها أن تتقدم في العمر . حتى وقت قريب بدا لها أنها هي نفسها امرأة شابة . . . وكان الرجال يتخاصمون حول مصيرها . والآن أصبحت هي في مكان معزول في المؤخرة . ومنذ زمن ليس بالبعيد كان أبناؤها مثل هذا الطفل الرضيع هنا . فكرت بحلمها بالطفل المولود حديثاً . . . وفي هذه المرة كانت تفكر بأمها . . . أمها التي لا تستطيع هي أن تتذكرها سوى كامرأة متقدمة في العمر مثقلة القلب . ومع ذلك فقد كانت شابة ذات مرة ، هي أيضاً ، حين كانت تضطجع وتدفئ طفلتها بدفء جسدها . كانت أمها أيضاً قد تميزت في شبابها بحمل وإرضاع الأطفال . وربما كانت قد فكرت مثل كريستين ، حين كانت تجلس والحياة الصغيرة العذبة على ثديها ، أنه طالما كانا حيّين هما الاثنان فإن كل يوم سيؤدي إلى إبعاد الطفل أكثر فأكثر عن ذراعيها .

"حين ستلدين أنت بنفسك طفلاً يا كريستين ، أعتقد أنك ستفهمين" ، كانت أمها قد قالت لها ذلك ذات مرة . والآن فهمت أن قلب أمها كان مملوءاً بعمق بذكريات ابنتها ، وذكريات الأفكار التي دارت حول طفلتها من قبل أن تولد وفي كل السنوات التي لا يتذكر منها الطفل شيئاً ، ذكريات الخوف والأمل والأحلام التي لا يعلم الأطفال قط أن الأم حلمت بها ، حتى يأتيهم أوان الخوف والأمل والحلم في السر . . .

●

وأخيراً انفرط اجتماع الأقرباء ، فقد ذهب البعض مع يامالت إلى فورمو ، والبعض الآخر مع سيغورد إلى فاغا . ولكن حدث أخيراً أن وصل اثنان من مستأجري الأراضي لدى غاوته من جنوب "الديل" ، مسرعين على جواديهما ، وصلا إلى الضيعة حاملين النبأ : كان حاكم المقاطعة متجهاً شمالاً قاصداً غاوته

في بيته وكان في موكبه والد الفتاة وأقرباؤها . أسرع لافرانس الشاب إلى الإسطبل فوراً . . . في المساء التالي بدا وكأن جيشاً كان قد تجمع في يوروندغارد ! كل أقرباء غاوته كانوا هناك مع أتباعهم المسلّحين ، وأصدقاؤه في الأبرشية قد وصلوا إلى الاجتماع أيضاً .

ثم وصل هلغه أوف هوفلاند مع أتباع كثيرين ليطالب الذي اختطف ابنته بحقوقه . لمحت كريستين هلغه دوك وهو يدخل الباحة على جواده مع السير بال سوركفسون حاكم المقاطعة نفسه . كان والد يوفريد رجلاً كهلاً طويل القامة ذا ظهر مقوس يبدو عليه المرض . . . وحين ترجل عن حصانه تبين أن إحدى ساقيه كانت أقصر من الأخرى . كان زوج أخت يوفريد المسمى "أولاف بايبر" قصير القامة بديناً أحمر البشرة والشعر .

صعد الرجال إلى العلية وذهبت المرأتان إلى مبنى الحياكة . لم تستطيعا الكلام . جلست كريستن قرب المدفأة وراحت يوفريد تذرع أرض الغرفة حاملة طفلها بين ذراعيها . مضى بعض الوقت على هذا المنوال . . . ثم غطت يوفريدا الصبي وخرجت به . بعد ساعة دخل ياما‌لات هالفاردسون إلى أخت زوجته وهي جالسة هناك لوحدها وحكى لها عن النتيجة .

لقد عرض غاوته على هلغه دوك ستة عشر ماركاً من الذهب كتعويض عن شرف يوفريد وخطفها بالقوة . . . وكان هذا هو المبلغ نفسه الذي ناله أخو هلغه لأجل حياة ابنه . وكان مستعداً للزواج من يوفريد على يدي أبيها مع إهدائها هدية صباحية ملائمة وهدية إضافية . ولكن هلغه بدوره يجب أن يمنحه هو وابنته الغفران الكامل ، حتى تستطيع أن تنال حصة مشابهة لحصص أخواتها وأن تشاركهم في الميراث . وقد وقف السير سيغورد نيابة عن أسرة غاوته ليضمن بأن غاوته سيلتزم بعهده . بدا هلغه دوك راغباً في قبول العرض مباشرة ، ولكن صهره أولاف بايبر وكذلك نيريد كارسون الذي هو خطيب آسا ، تكلما ليعارضا هذا

العرض ، وقالا إن غاوته يجب أن يكون أكثر الرجال وقاحة حتى يفترض أنه يستطيع أن يفرض الشروط بنفسه لأجل زفافه من فتاة لوث شرفها حين كانت في ضيعة زوج أختها ، وبعد ذلك أن يختطفها بالقوة . . . ثم يطالب بأن تشارك في ميراث أخواتها . . .

قال يامالت إنه كان من السهل أن نرى أن غاوته نفسه لم يكن يحب كثيراً هذه المساومة على السعر الذي عليه أن يدفعه ليتزوج فتاة من عائلة محترمة قام هو بتضليلها وولدت له ابناً . ولكن كان من السهل أن نلاحظ أيضاً أنه قد تعلم الدروس والموعظة عن ظهر قلب ، حتى أنه لم يكن في حاجة إلى قراءتها من كتاب .

وبينما كانوا في خضم النقاش وكان الأصدقاء من الجانبين يحاولون الوصول إلى اتفاق ، دخلت يوفريد والطفل بين ذراعيها . عند ذلك انهار أبوها ولم يستطع كبح دموعه . لذلك تمت تسوية الأمر حسب رغباتها .

كان واضحاً أن غاوته ما كان قادراً على دفع مثل ذلك التعويض أبداً ، ولكن حصة يوفريد قد حددت بحيث يخالص الواحد الآخر . وهكذا فإن نتيجة الصفقة كانت أن غاوته سيأخذ يوفريد وسيأخذ معها أكثر مما كان في جعبتها يوم وصلت إلى الضيعة ، بينما سيعطيها لقاء هدية الصباحية والهدية الإضافية معظم ما كان يملكه ، وقد وافق أخوته على ذلك . ولكن في يوم من الأيام ستصل ثروة عظيمة إلى يديه عبر يوفريد . . . لو كان الزواج دون أطفال ، كما قال إيفار غيبسلينغ ضاحكاً . . . وقد ضحك كل الرجال معه . إلا أن كريستين أحمر وجهها فقد جلس يامالت يصغي إلى كل النكات الخشنة التي كانت تتناثر الآن .

في اليوم التالي تزوج غاوته إرلندسون من يوفريد هلغسداتر ، وجرت المراسم في الكنيسة بكل الطقوس المعتادة وكأن شيئاً لم يكن . . . وقال سيرا داغ إنه

اصبح لها الحق في ذلك الآن . ثم سافرت مع الطفل إلى سوندبو وسكنت في منزل السير سيغورد حتى يوم الزفاف .

بعد شهر من ذلك اليوم ، وبعد قداس جون (٢٤ حزيران / يونيو) أقيم حفل الزفاف وكان رائعاً وفخماً . وفي صباح اليوم التالي وبوقار شديد سلمت كريستين لافرانسداتر مفاتيحها إلى ابنها وقام غاوته بتثبيت رزمة المفاتيح في زنار زوجته .

بعد ذلك أقام السير سيغورد إلديارن وليمة كبرى في سوندبو ، وأقسم هو وأولاد أخواله ، المالكون السابقون لسوندبو على الصداقة وأكدوا اليمين بتواقيعهم وأختامهم . وبيد كريمة قدم السير سيغورد الهدايا من الكنوز التي كانت في ضيعته ، إلى آل غيبسلينغ وإلى كل الضيوف حسب درجة القرابة والصداقة . . . من قرون الشراب إلى أطباق المائدة والحليّ والأسلحة وأثواب الفرو والجياد . وهكذا اعتبر الناس جميعاً أن غاوته إرلندسون قد أوصل قضية اختطافه للعروس تلك إلى نهاية مشرفة جداً .



-٤-

في صباح أحد أيام الصيف من العام اللاحق كانت كريستين جالسة في المشرقة أمام مبنى الموقد القديم ،لترتّب العدة في الصناديق التي كانت هناك . وصل إلى مسامعها ضجيج جياد تقاد إلى الخارج ، فمضت ونظرت من بين الأعمدة الصغيرة للمشرقة . كان أحد خدم المنزل يقود جوادين وخرج غاوته من باب الإسطبل . كان الطفل إرلند جالساً فوق كتفي أبيه وكان وجهه الصغير اللامع يطلّ من فوق شعر الرجل الأشقر ، وكان غاوته يمسك بيدي الطفل الصغيرتين في يديه السمراوين الكبيرتين تحت ذقنه . سلّم الطفل إلى خادمة عبرت الباحة وامتطى حصانه . ولكن حين زعق إرلند ومدّ يديه إلى أبيه ، أخذه غاوته مجدداً ووضعه فوق قوس السرج أمامه . في تلك اللحظة وصلت يوفريد من القاعة .

"هل ستأخذ إرلند معك . . . إلى أين أنت ذاهب ؟"

أجاب غاوته بأنه كان ذاهباً إلى الطاحونة . . . فقد كان النهر على وشك أن يجرفها بعيداً . . . "كما يريد إرلند أن يذهب مع أبيه حسب ما يقول" .

"هل جننت ؟" أمسكت بالصبي بسرعة وضمته بين ذراعيها وضحك

غاوته بصوت مرتفع :

"وهل صدقت فعلاً أني كنت أنوي اصطحابه معي !؟"

"أجل . . . " ضحكت زوجته أيضاً : "أنت تجرجر الطفل المسكين معك إلى كل مكان تذهب إليه . . . وأعتقد جيداً أنك ستفعل كما فعل الوشق . . . يأكل صغاره قبل أن يدع غيره يأكلها . . . "

لوّحت بإحدى يدي الطفل إلى غاوته وهو يغادر الضيعة . ثم أجلست الطفل على المرج وتطأطأت من فوقه لحظة ، وحادثته قليلاً ، ثم ركضت نحو المستودع الجديد ثم إلى العلية .

وقفت كريستين هادئة وهي تراقب حفيدها . . . كانت شمس الصباح تلتمع جميلة جداً فوق الطفل الصغير في ملابسه الحمراء . راح إرلند الصغير يدور في حلقات وهو يحدق إلى العشب . ثم أدرك وجود كومة من كسرات الحصى فانطلق يلعب بها ويدفع بها بألم . ضحكت كريستين .

كان عمره خمسة عشر شهراً ، ولكنه كان متقدماً على عمره ، كما فكر والداه ، فقد كان يمشي ويعدو ، وكان قادراً على التلفظ بكلمتين أو ثلاث فوق ذلك . والآن هاهو يشق طريقه نحو مسيل الماء الذي يجري في قاع الباحة ويتحول إلى جدول ذي خرير حين يهطل المطر في الجبال . هرعت كريستين وأخذته بين ذراعيها :

"لا يجب أن تفعل ذلك . . . ستغضب أمك منك لو بللّت نفسك . . . "

بوّز الطفل - متأملاً إن كان عليه أن يبكي لأنه منع من اللعب في الجدول ، أو إن كان عليه أن يستسلم - أن يتبلّل كانت الخطيئة المميتة بالنسبة إليه- كانت يوفريد شديد الصرامة معه في مثل هذه الأمور . ولكنه بدا عاقلاً جداً . . . قبلت كريستين الصبي بحب ، وأجلسته على الأرض وعادت إلى المشرقة . ولكن عملها كان يمضي ببطء . . . كانت تقف معظم الوقت تتفرج على الباحة .

راحت شمس الصباح تلتمع رقيقة وجميلة على المخازن الثلاثة من فوقها . . . وكأن كريستين لم ترها منذ وقت طويل مضى . . . كم بدت المباني رائعة وقد تزينت شرفات علياتها بالأعمدة والنحت الأنيق . كانت أوراق الكرمة المذهبة فوق صليب الجمالون في المخزن الجديد تلتمع مقابل السديم الأزرق فوق الجبل في الخلف . في هذا العام بعد الصيف الذي بدأ مطيراً ، فإن العشب فوق الأسقف كان نضراً وأخضر .

تنهدت كريستين قليلاً ، ونظرت مرة أخرى إلى إرلند الصغير ثم التفتت نحو صناديقها مرة أخرى .

وفجأة صدر من الخارج عويل طفل . . . رمت من يديها كل ما كان فيهما واندفعت إلى الخارج . كان إرلند واقفاً وهو يزعق وينظر من إصبعه إلى زنبور نصف ميت فوق العشب ، ثم إلى إصبعه مرة أخرى . وحين رفعته جدته وهي تقول كلمات تدل على الإشفاق ، صرخ بصوت أعلى ، وحين وضعت - هي تتلفظ بالمزيد من كلمات الإشفاق والتعاطف - تراباً رطباً في ورقة خضراء باردة فوق اللدغة ، أصبح بكاؤه مخيفاً لها .

راحت تهدهده وتربت عليه ، ثم حملته إلى غرفته ، وراح هو يزعق كأنما دنت ساعته الأخيرة . . . ثم صمت في وسط إحدى صرخاته : كان يعرف العلبة وملعقة القرن التي تناولتها جدته من عتبة الباب العليا . غمست كريستين قطعاً من كتلة الشوفان بالعسل وأطعمته إياها ، بينما استمرت في الربت عليه وفرك خدها بعنقه ، حيث الشعر الأشقر لا يزال قصيراً ومجعداً من الأيام التي كان ينام فيها في مهده فاحتك بالوسادة حتى أصبح ضعيفاً . كان إرلند قد نسي آلامه الآن . . . التفت بوجهه إلى المرأة وعرض أن يربت عليها ويقبلها بيدين وفم دبق .

خلال هذه الأثناء كانت يوفريد تقف في الباب :

"هل أدخلته ؟ . . . لاشك أنه لم تكن هناك حاجة إلى ذلك يا أمي . . . كنت في العلية فحسب ."

حكت كريستين عن الحادث : "أما سمعت كيف كان يزعق ؟"

شكرت يوفريد حماتها ، " . . . ولكننا لن نزعجك بعد الآن . . . " أخذت الطفل الذي مدّ يديه إلى أمه الآن وكان يريد الذهاب إليها ، ثم خرجت .

أعادت كريستين علبة العسل إلى مكانها . ثم جلست ويداها في حجرها : يمكن للصناديق أن تنتظر في المشرقة حتى تدخل إنغريد .

•

كانت تريد أن تقوم فريدا ستريكارسداتر بخدمتها حين انتقلت إلى القاعة القديمة . ثم تزوجت فريدا من واحد من الخدم الذين وصلوا مع هلغه دوك . . . وهو شاب يكاد يكون في سن ابنها .

"إن من عادة منطقتنا أن مرؤوسينا يصغون إلى كلام أسيادهم حين يشير هؤلاء عليهم بما هو في صالحهم" ، قالت يوفريد حين تعجبت كريستين من هذا الزواج .

قالت كريستين : "وفي هذا الريف فإن عامة الناس غير معتادين على إطاعتنا أكثر مّما يعتقدون أنه ملائم لهم ، ولا أن يصغوا إلى مشورتنا إلاّ إذا كان ذلك في صالحهم بقدر ما هو في صالحنا . وأنا أقدم لك نصيحة جيدة يا يوفريد حين أطلب إليك أن تبقي هذا في ذهنك" .

قال غاوته إنما بخنوع : "الأمر كما تقوله أمي يا يوفريد ."

. . . حتى قبل أن يتزوج منها ، كانت كريستين قد لاحظت أن غاوته كان يكره أن يعارض يوفريد . وقد تحول إلى زوج شديد الإذعان .

لم تنكر الحماة أنه في أمور كثيرة كان غاوته يحسن حين يستمع إلى رأي زوجته . . . فقد كانت حكيمة وذكية ومجدة في عملها أكثر من المعتاد بكثير . كما كانت أشد استهتاراً من كريستين نفسها . كانت هي أيضاً قد داست تحت قدميها واجبها كابنة وباعت شرفها لأنها لم تستطع أن تكسب الرجل الذي أراده

قلبها بسعر أرخص . ولكنها ما أن وصلت إلى مرامها ، فقد كانت الزوجة الأكثر إخلاصاً وتواضعاً . لقد عرفت كريستين أن يوفريد كانت تحب زوجها جيداً . . . أنها كانت فخورة بوسامته ومولده النبيل . كانت أخواتها قد تزوجن من رجال أغنياء إلا أنهم كانوا لا يستحقون الرؤية إلا في الليل حين لا يكون هناك قمر ، كما لم يكن أجدادهم جديرين بالذكر ، كما قالت يوفريد بازدراء . كانت تغار على مصلحة زوجها وشرفه ، كما تفهمهما ، وفي البيت كانت تدلّله بقدر ما تستطيع- ولكن لو حاول غاوته أن يبدي رأياً مخالفاً لرأي زوجته في أتفه الأمور ، فإن يوفريد ستوافقه في البداية على نحو يجعل غاوته يتردد فوراً - ثم كانت تبدأ إقناعه برأيها حتى يقتنع .

ولكن غاوته كان سعيداً وقانعاً . ما كان هناك من يشك في أن هذين الشابين كانا يعيشان بسعادة معاً . كان غاوته سعيداً بزوجته ، وكانا كلاهما فخورين بابنهما ويحبانه حباً يفوق كل التصور .

لذلك كان كل شيء يسير الآن نحو الأفضل ، لولا أن يوفريد هلغسداتر لم تكن . . . أجل ، لقد كانت بخيلة . لم تستطع كريستين أن تسميها سوى ذلك . لو لم يكن الأمر كذلك ، لما كان سيزعج كريستين كثيراً أن كنتها كانت عنيدة جداً .

ففي الخريف الأول وكانت قد تزوجت وأصبحت سيدة المنزل حديثاً ، لاحظت كريستين في فترة الحصاد . أن العمال كانوا غير راضين . . . رغم أنهم لم يتلفظوا بكلمة واحدة . ولكن السيدة السابقة لاحظت الأمر على أي حال .

كان يمكن أن يحدث في أيام كريستين أيضاً أن الناس تضطر إلى أكل سمك الرنة العفن ولحم الخنزير المقدد الأصفر اللون ذي الرائحة الأشبه برائحة شرائح جذور التنوب ، واللحم الفاسد . ولكن الجميع كان يعلم أن السيدة ستعوض بكل تأكيد عن ذلك ببعض الطعام الشهي الجيد في وقت آخر وبعصيدة الحليب أو الجبن الطازج ، وكذلك الجعة الجيدة خارج موسمها . وحين كان يوزع الطعام ذو

المذاق الرديء ولا بدّ من تناوله ، كان الجميع يعرف أن ذلك يعود إلى فائض مخازن كريستين المليئة إلى آخر حدّ . . . وحين كان الناس في حالة عوز شديد ، عندها كانت وفرة مخازن يوروندغارد بركة للأبرشية كلها . لقد سبق للناس وتأكدوا أن يوفريد لن تكون كريمة في تقديم المساعدة من الطعام حين تعاني عامة الناس من القحط .

هذا هو الأمر الذي كان يثير حنق الحماة . . . فقد بدأ أنه ينال من شرف الضيعة وسيدها .

أما قضية أنها خلال سنة واحدة قد شعرت أن كنتها لم تكن تعطيها كامل نصيبها فهي لم تؤثر فيها كثيراً . فقد ظهر في قداس بارتولوميو (٢٤ آب / أغسطس) أنها لم تعط سوى اثنتين من العنزات التي نحرت بدلاً عن الأربع التي يجب أن تنالها . صحيح أن حيوان " الشره" قد خلف أضراراً فادحة في القطعان الصغيرة في الجبال في ذلك الصيف ، ومع ذلك فإن كريستين اعتبرت أنه لأمر مخجل أن يؤخذ في الحسبان أمر عنزتين في مثل هذه الضيعة الكبيرة ، ولكنها سكتت عن الأمر . كما كان الأمر على هذا المنوال فيما يخص كل ما يترتب لها من الضيعة . . . في موسم النحر في الخريف وفي القمح والدقيق والعلف لبقراتها الأربع وحصاني الركوب خاصتها . . . كانت تمنح وزناً أقل أو نوعية سيئة . وقد لاحظت أن غاوته كان يكره هذا وكان خجلاً منه . . . ولكنه لم يجرؤ على فعل أي شيء خوفاً من زوجته ، وهكذا كان يتظاهر بأنه لم ير شيئاً .

كان غاوته كريماً مثل كل أولاد إرلند نيكولاوسون . كانت الأم تسميه تبذيراً من قبل الأخوة . ولكن غاوته كان عاملاً كما كان راضياً بالقليل لنفسه . . . طالما كان لديه أفضل الجياد وكلاب الصيد وبعض الصقور الجيدة ، فهو لم يكن يهتم بالبقية ، أي أن يعيش كما المزارعين الصغار في "الديل" . ولكن لو وصله ضيوف إلى الضيعة كان مضيفاً كريماً للضيوف من كل صنف كما كان سخياً مع

المتسولين . . . وفي هذا كان سيداً للمنزل حسب ما ترغب به أمه . فهي كانت تعتبر أن الناس الكبار يجب أن يعيشوا على هذا النحو في أراضيهم الإرثية في ريفهم ، فيزيدون من محاصيلهم ولا يبددون منها شيئاً عبثاً ؛ ولكنهم لا يبخلون بشيء أيضاً حين يتطلب حب الرب وفقرائه ، أو الاهتمام بشرف المنزل ، أن يعطوا من مدخراتهم .

لاحظت الآن أن يوفريد تحترم معظم أصدقاء وأقارب غاوته الأغنياء . ولكن غاوته بدا في هذه المسألة أقل رغبة من أن يترك زوجته تقوده . . . فقد حاول أن يتمسك بأصدقاء يفاعته . . . كانت يوفريد تسميهم مدمني الخمر . . . وبالفعل علمت كريستين الآن أن غاوته كان أكثر تطرفاً مّما حسبته . ولكن أولئك الأصدقاء لم يكونوا يأتون دون دعوة إلى ضيعته بعد أن أصبح رجلاً متزوجاً . وحتى ذلك الحين كان الأمر مؤكداً أن غاوته لم يرسل شخصاً فقيراً واحداً بعيداً ويداه فارغتان . ولكنه كان يعطي هدايا أصغر بكثير حين تكون يوفريد تراقب الأمر . أما من خلف ظهرها فكان يمنح المزيد ، كأنما خلسة . . . ولكن لم يكن يجري الكثير من خلف ظهر يوفريد .

ولاحظت كريستين أن يوفريد كانت تغار منها . كانت أم غاوته قد كسبت صداقته وثقته على نحو كامل خلال هذه السنوات ، بما أنه كان طفلها المسكين المريض الذي ما كان قادراً على الحياة أو على الموت . وقد لاحظت الآن أن يوفريد لم يكن يعجبها لو جلس غاوته قرب أمه وطلب مشورتها أو ذهب إليها ليحكي لها حكايات كما في الأيام الخوالي . ولو نسي الرجل الوقت وتأخر قليلاً عند أمه في القاعة القديمة ، فلن تتأخر يوفريد عن أن تجد مهمة تؤديها هناك .

كما كانت تغار لو أن حماتها دللت إرلند الصغير كثيراً .

خارجاً في الباحة كان ينمو بين العشب القصير الموطوء بعض أنواع الأعشاب التي لها أوراق خشنة داكنة اللون وسميكة ولكن برزت لها الآن في

الأيام المشمسة في منتصف الصيف ساق صغيرة ذات زهيرات صافية زرقاء فاتحة من وسط كل ثنية مسطحة . بدا لكريستين أن الأوراق الخارجية القديمة والتي تركت أقدام الإنسان أو الحيوان آثارها عليها بعد أن داستها كانت تحب دون شك البرعم المتفتح العذب كما تحبّ هي حفيدها .

كان يبدو لها وكأن إرلند الصغير هو حياة حياتها ولحم لحمها ، مثل أولادها بالتأكيد ، ولكن على نحو أعذب حتى . وحين يتاح لها فرصة وضعه في حضنها ، وتلاحظ أن أم الطفل تراقب الاثنين بغيرة ثم تأخذ الطفل بأسرع وقت ممكن وتضعه في أمان على صدرها وتضّمه بشره . . . كان يخطر لكريستين لافرانسداتر كما لم يخطر لها قط من قبل أن واعظي كلمة الرب كانوا على حق . إن حياة الجسد كانت ملطخة بالقلق على نحو لا برء منه . في العالم حيث يختلط الناس ، ويرزقون بأجيال جديدة ، ويندفعون معاً بالحب الجسدي ، ويحبون شهواتهم ، كان يأتي وجع القلب والآمال المحطمة ، مثلما يأتي الصقيع في الخريف . إن كلاً من الحياة والموت يفرقان الأصدقاء في النهاية ، كما يفرق الشتاء بين الشجرة و أوراقها .

وقد حصل في إحدى الأمسيات قبل أربعة عشر يوماً من قداس أولاف (١٤ تموز / يوليو) ، أن وصلت مجموعة من المتسولين إلى يورروندغارد ، وتوسلوا المبيت ليلة واحدة . كانت كريستين واقفة على شرفة المخزن القديم- كان تحت تصرفها الآن - فسمعت يوفريد تخرج وتجيب المتسولين : سينالون الطعام ولكنها لا تستطيع منحهم المأوى : "نحن كثر ولدينا حماة تعيش في الضيعة . . . إنها تتصرف بنصف المباني . . ."

ثار الغضب في تلك التي كانت سابقاً سيدة الضيعة . . . لم يحدث من قبل أن أنكر على عابر سبيل مأوى لليلة في يورروندغارد . . . وكانت الشمس قد سبق لها ولمست الجبال الغربية . هرعت إلى الأسفل ومضت نحو يوفريد والمتسولين :

"يستطيعون النوم في منزلي يا يوفريد ، وبما أنهم سيقيمون لديّ فسوف أقدم لهم اللحم أيضاً . لم يسبق لنا في هذه الضيعة أن أنكرنا على مسيحي مثلنا المأوى ، حين يطلبه باسم الرب ."

أجابت يوفريد وقد تضرج وجهها : "افعلي ما ترينه ملائماً يا أمي ."

حين نظرت كريستين عن كثب إلى الشحاذين ، كادت تندم على عرضها . . . لم يكن رفض الزوجة الشابة لإيواء هؤلاء الناس في الضيعة دون سبب . فقد كان غاوته وخدم المنزل بعيدين في المروج النائية قرب نهر "سيل" ، ولن يعودوا إلى البيت فوراً . كانت يوفريد لوحدها في البيت ، مع مرتلي الصلاة من الأبرشية وهما زوجان عجوزان وطفلان ، وكذلك كريستين وخادمتها في القاعة القديمة . ورغم كثرة وغرابة الناس الذين اعتادت كريستين على رؤيتهم في عصابات متجولة من الشحاذين ، إلاّ أنها لم تعجب بمنظر هؤلاء . كان أربعة من بينهم شباناً ضخام الحجم وأقوياء . . . ثلاثة منهم من ذوي الشعر الأحمر مع عيون صغيرة ، وقد بدوا كأخوة ، ولكن الرابع الذي كان كلا منخريه مشقوقين ودون أذنين فكان ينطق بلغة مكسرة وكأنه أجنبي . وعلاوة على هؤلاء كان هناك عجوزان : شخص ضئيل الحجم محني الظهر ذو وجه وشعر ولحية بلون أخضر مصفرّ من القذارة والسن المتقدمة ، مع بطن منتفخ من مرض ما . . . كان يمشي على عكازين – وامرأة عجوز غطت عنقها ويداها القروح كما كان غطاء رأسها ينز دماً وقيحاً . ارتعدت كريستين من فكرة أن تقترب هذه المرأة من إرلند . ولكن رغم ذلك فقد كان جيداً أن هؤلاء الناس البؤساء لن يضطروا إلى أن يهيموا في جبال هامار في تلك الليلة .

ولكن المتسولين تصرفوا بسلام كاف . حاول الشخص عديم الأذنين أن يمسك بإنغريد وهي تضع الطعام على المائدة . ولكن شعر بيورن (الكلب) انتصب فوراً وهرّ . أما بالنسبة إلى البقية فقد بدوا منهكين تعبين . . . لقد عانوا الكثير من

السوء ولم يحظوا إلا بالقليل من الكسب ، كما أجابوا على أسئلة السيدة . . . ربما يكون الوضع أفضل في نيداروس على الأرجح . سرت المرأة حين أعطتها كريستين قرن ماعز مليئاً بالشحم الجيد المصنوع من أنقى دهون الحَمَل وبعض ماء الأطفال . . . ولكنها رفضت عرض كريستين أن تنقع لها غطاء رأسها في ماء دافئ وأن تعطيها قطعة قماش نظيفة من الكتان . . . ولكنها أخذت الغطاء .

على أي حال فإن كريستين جعلت إنغريد ، الخادمة الشابة ، تنام في أبعد ركن من سريرها . وخلال الليل هرّ بيورن مرة أو اثنتين . ولكن ساد الهدوء عدا ذلك . وبعد منتصف الليل ركض الكلب نحو الباب وعوى مرتين عواء قصيراً . . . سمعت كريستين وقع حوافر في الباحة وعرفت أن غاوته عاد إلى البيت . خمنت أن يوفريد أرسلت وراءه .

ملأت كريستين جيوب الشحاذين جيداً في اليوم التالي . وكانوا قد ابتعدوا مسافة قصيرة وراء الضيعة حين رأت يوفريد وغاوته قادمين إليها .

جلست كريستين وتناولت مغزلها . حيت الشابين بلطف لدى دخولهما ، وسألت غاوته حول التبن . تشممت يوفريد . . . كان الضيوف قد تركوا رائحة عفنة وراءهم . ولكن حماتها تظاهرت وكأنها لم تلاحظ شيئاً . بدأ غاوته يتحرك بقلق ويبدو وكأنه يجد صعوبة في طرح قضيته . عند ذاك بدأت يوفريد بالكلام بدلاً عنه :

"هناك مسألة واحدة يا أمي وأعتبر أنه من الأفضل طرحها الآن . أرى جيداً أنك تفكرين في أني أكثر توفيراً مما تعتقدين أنه ملائم لسيدة يورروندغارد . أعرف أنك تفكرين في هذا وتعتبرين أني أنقص من شرف غاوته بسبب ذلك . والآن لن أقول كيف أني كنت خائفة البارحة من استضافة تلك العصابة من الناس ، بعد أن كنت لوحدي في الضيعة مع ابني وبعض عجائز من الأبرشية ، وقد لاحظت أنك فهمت ذلك ما أن رأيت ضيوفك . ولكني لاحظت سابقاً أيضاً أنك

تعتبرينني بخيلة بالطعام وغير لطيفة مع الفقراء .

"لست كذلك يا أمي . ولكن يورروندغارد لم تعد مركزاً لرجل من رجال الملك وثري من الأثرياء ، كما كانت في أيام أبيك وأمك . لقد كنت ابنة رجل موسر . وكنت تتجولين بين أقرباء أغنياء وأقوياء . كما تزوجت من رجل غني ، ورفعك زوجك إلى سلطة ومركز أعلى مما كنت فيه . لا يستطيع أحد أن يتوقع أن تفهمي بالكامل في عمرك المتقدم كم هو الأمر مختلف بالنسبة إلى غاوته ، الذي فقد ميراث أبيه وعليه أن يشارك في نصف ثروة أبيك مع كثير من الأخوة . ولكنني لا أجرؤ على نسيان أني لم أجلب إليه من الثروة سوى الطفل الذي حملته تحت قلبي ، وعبئاً ثقيلاً من التعويضات عن حبي . . . فقد رأيت أني شاركت في الخطأ الذي ارتكبه هو ضد أهلي . ربما سيصلح الزمن هذا الأمر . . . ولكن من واجبي أن أدعو الله أن يمنح أبي الحياة الطويلة . نحن شابان ، غاوته وأنا ، ولا نعرف كم طفلاً سنرزق . . . وعليك أن تصدقي يا حماتي أنه لا أفكر في كل ما أفعله إلا بصالح زوجي وأطفالي . . . "

"أصدق ذلك يا يوفريد" ، نظرت كريستين بجدية إلى وجه كنتها المتضرج بالحمرة . "وأنا لم يسبق لي قط أن تدخلت في شؤون منزلك ولا أنكرت أنك امرأة رائعة وزوجة طيبة ومخلصة لابني . ولكن عليك أن تتركيني أعالج أموري كما اعتدت أن أعالجها . وكما تقولين فأنا امرأة عجوز ولم أعد أهلاً لتعلم أساليب جديدة ."

فهم الشابان أن الأم لم يعد لديها ما تقوله لهما وسرعان ما استأذنا بالمغادرة .

•

كما حدث دائماً أحست كريستين أن عليها الاعتراف بأن يوفريد كانت على حق . . . في البداية . ولكنها حين فكرت في الأمر ، بدا لها . . . كلا ، لم تكن على حق على أي حال . كان أمراً ضد العقل تشبيه حسنات غاوته بأبيها . عطايا لراحة روح الفقراء والغرباء المحتضرين في الأبرشية . هدايا كبائنة للفتيات

اليتيمات . ولائم جعة في الأيام المقدسة الخاصة بالقديسين الذين كان أبوها يفضلهم . صدقات للمرضى والخاطئين المسافرين للوصول إلى مزار القديس أولاف . . . حتى لو كان غاوته أغنى مما كان عليه ، فما كان هناك من يتوقع منه أن يتحمل مثل هذه التكاليف . لم يعد غاوته يفكر بخالقه أكثر ممّا يجب . كان كريماً طيباً القلب ، ولكن كريستين كانت قد رأت أباها يعامل الفقراء باحترام لأن يسوع اختار أن يكون فقيراً حين اتخذ هيئة البشر . وكان أبوها يحب العمل والكد ويعتبر كل المهن اليدوية مشرفة ، لأن أم الرب ، مريم ، اختارت أن تكون عاملة تغزل الصوف لتكسب رزق يومها لنفسها وأسرتها ، رغم أنها كانت ابنة أناس أغنياء ينتمون إلى أسرة ملوك وكبار كهنة اليهود .

بعد يومين ، وفي وقت باكر من الصباح ، وبينما كانت يوفريد لا تزال غير مرتدية لكامل ملابسها وغاوته في السرير ، دخلت كريستين إليهما . كانت ترتدي معطفاً قصيراً وعباءة من نسيج صوفي خشن رمادي وقبعة سوداء ذات حافة عريضة من اللباد فوق غطاء رأسها الكتاني ، وحذاء متيناً في قدميها . احمرّ وجه غاوته حين رأى أمه في هذا الزي ، فقالت كريستين إنها تنوي الذهاب سيراً على الأقدام إلى نيداروس ، إلى عيد القديس أولاف ، وتوسلت إلى ابنها أن يرعى شؤون منزلها خلال هذه الفترة .

حاول غاوته جهده أن يثنيها عن عزمها . . . كان يريد منها على الأقل أن تقترض منه حصاناً وسائساً وأن تصطحب خادمتها . . . ولكن بما أن هذا الكلام كان صادراً عن رجل يستلقي عارياً في السرير أمام عيني أمه ، فإنه لم يكن ذا اعتبار . كان شديد الخجل إلى حد أن كريستين خطر لها أن تقول إنها رأت حلماً .

"لقد مرّ وقت طويل منذ أن رأيت أخويك . . . " ولكنها التفتت بعيداً حين قالت هذه الكلمات . لم تكن تجرؤ بعد على الاعتراف لنفسها كم كانت تتوق وتخشى أن تقابل ابنيها ناكفه وبيورغولف مجدداً .

كان غاوته مصمماً على أن يرافق أمه في الجزء الأول من الطريق . وبينما راح يرتدي ملابسه وتناول بعض الطعام ، جلست كريستين تضاحك وتلاعب إرلند الصغير . . . راح يغرد ويزقزق بعد أن استيقظ للتو . وكان في حالة فرح مع قدوم الصباح . قبّلت يوفريد عند الوداع وهو أمر لم تفعله سابقاً قط . في الباحة كان قد تجمع كل سكان المنزل . . . كانت إنغريد قد نشرت الخبر بأن السيدة كريستين ستحجّ إلى نيداروس .

أمسكت كريستين بالعصا الثقيلة الملبسة بالحديد بيدها ، وبما أنها لن تركب حصاناً ، فقد وضع غاوته حقيبتها المزدوجة على حصانه وسار به .

عند مرج الكنيسة التفتت كريستين ونظرت نحو الضيعة . . . كانت تبدو جميلة جداً تحت شمس الصباح الندية . التمع النهر أبيض اللون . وكان سكان المنزل لازالوا واقفين هناك . . . استطاعت أن تميز ثوب يوفريد فاتح اللون وغطاء رأسها الكتاني ، والطفل كبقعة حمراء على ذراعها . رأى غاوته وجه أمه يشحب من امتلاء قلبها .

كان الطريق يصعد عبر الغابات تحت ظل جبل هامار . سارت كريستين بخفة فتاة شابة . لم تتبادل الكثير من الكلام مع ابنها . وبعد أن سارا مدة ساعتين ، وصلا إلى حيث تتفرع الطريق إلى روستكامبن وبدا أمامهم ريف دوفر منتشراً على مد البصر . ثم قالت كريستين إن على غاوته ألا يتابع الطريق معها ، وإنها ستجلس قليلاً لترتاح قبل متابعة طريقها .

كان "الديل" قابعاً تحتهم مع شريط النهر الأخضر الأبيض المتجول عبره ، وتبدو المزارع أشبه ببقع خضراء صغيرة فوق المنحدرات المغطاة بالأمواج . ولكن إلى الأعلى كانت الطحالب الجبلية قد تقوست بلون بني أو أصفر من نبات الحزاز نحو الداخل باتجاه المنحدرات الرمادية والمرتفعات العارية المنقطة بالثلج . كانت ظلال الغيوم تتجرف فوق الديل والأراضي المرتفعة ، ولكن إلى الشمال كان كل

شيء صافياً بين الجبال . كانت الهضاب قد رمت عنها عباءات الضباب والتمعت بلون أزرق ، الواحدة إثر الأخرى . وتحرك توق كريستين مع قطعان الغيوم شمالاً على الطريق الطويلة التي تمتد أمامها ، مسرعة فوق "الديل" ، بين الجبال الكبيرة التي كانت تسدّ الطريق ، وعبر الدروب المنحدرة عبر الجبال . بعد أيام قليلة ستكون قد شقت طريقها عبر وديان تروندهايم الخضراء الغنية ، متتبعة تعرجات النهر نحو الزقاق البحري الكبير . ارتجفت من ذكرى الأماكن المعروفة جيداً قرب البحر ، حيث كانت هي والشباب قد تجولا معاً . تحرك شكل إرلند الوسيم أمام بصرها مع هيئة متغيرة سريعة وغير واضحة . وكأنها تراها منعكسة في ماء جار . وأخيراً ستصل إلى فغينسبريكا ، عند الصليب الرخامي . . . وهناك تقع المدينة عند مصب النهر بين الزقاق البحري الأزرق وسلسلة جبال ستريند الخضراء وعلى ضفة نهر الكنيسة اللامعة هائلة الحجم ذات الأبراج المثيرة للدوار والمعرشات الذهبية ، وشمس المساء تحترق فوق الخطوط الوردية على صدرها . وفوق الزقاق البحري تحت جبال فروست الزرقاء كانت تقع تاوترا منخفضة وسوداء مثل ظهر حوت ، وبرج الكنيسة منتصب شأن الزعنفة . آه يا بيورغولف ، آه يا ناكفه . . .

ولكنها حين نظرت إلى ما ورائها ، كانت لا تزال قادرة على أن ترى قليلاً من جبل موطنها تحت هوفرينغن . كان قابعاً تحت ظل ، ولكن عينها المعتادة جيداً كانت قادرة على ترى أين كان ممرّ السايتر يعبر الغابات . ميزت قمم الجبال الرمادية التي برزت فوق عباءة الغابة . . . كانت تحيط بحقول السايتر القديمة لسكان "سيل" .

من الجبال وصلت أصوات نفخ في القرون . . . بعض الألحان الواضحة العالية التي تلاشت ثم عادت مجدداً . . . بدا وكأن أطفالاً كانوا يتمرنون على النفخ فيها . إلى البعيد كان رنين أجراس . . . والهدير المكبوت للنهر ، والتنهدات العميقة للغابة في هذا اليوم الهادئ الدافئ . ارتجف قلب كريستين بقلق في

السكون . كان شيء مثل الحنين يدفعها نحو الأمام ، كما يدفعها حنين آخر نحو الخلف إلى الأبرشية والضيعة . راحت الرؤى تتزاحم أمام بصرها . . . صورة الحياة اليومية : رأت نفسها تعدو مع العنزات فوق الممر عبر الغابات غير الكثيفة جنوب سايترهم . . . بقرة وقعت في وحل المستنقع . . . الشمس تلتمع وضّاءة . وحين وقفت برهة لتصغي ، أحست بعرقها يحرق بشرتها . رأت باحة البيت في تساقط خفيف للثلج- يوم رمادي من أيام العاصفة ، وهو يتحول إلى ليل شتائي معتم- كادت الريح تعصف بها عائدة إلى الغرفة الخارجية حين فتحت الباب ، بهرت العاصفة أنفاسها . ولكنهم يبدون هناك ، كتلاً لا شكل لها من الناس في معاطف فراء مغطاة بالثلج : لقد عاد إيفار وسكوله إلى البيت . كانت مزالجهما قد غرقت عميقاً في كومة كبيرة من الثلج كانت تتراكم عبر الباحة حين تهب العاصفة من الشمال الغربي . وفي مثل تلك الأيام كان هناك دائماً أكوام من الثلج في مكانين من الباحة . . . وسرعان ما كان عليها أن تفكر بحب وتوق بهاتين الكومتين في حين أنها وكل الناس في الضيعة كانوا يلعونهما في كل شتاء . . . كأنما كان مقدراً عليها ألا تراهما مرة أخرى .

بدا وكأن هذا التوق قد مزّق قلبها . . . كانت مشاعر التوق هذه تتراكض هنا وهناك مثل جداول من دماء ، تبحث عن طرق إلى كل الأماكن في الأرض الواسعة حيث كانت تعيش ، إلى كل أبنائها المتجولين في العالم ، إلى كل أمواتها تحت القبور- تساءلت - هل هي مخبلّة ؟ لم تشعر أبداً بهذا الإحساس من قبل . . .

ثم رأت أن غاوته كان يجلس ويحدّق إليها . وقد ابتسمت بسرعة كأنما في نوع من الاعتذار . . . لقد حان الوقت له ليقول لها وداعاً وتذهب هي في حال سبيلها .

نادى غاوته على جواده ، الذي راح يتجول نحو الأمام وهو يرعى على امتداد

الدرب الأخضر . ركض خلفه وأعاده ، وتبادلا عبارات الوداع . وضعت كريستين حقيبتها فوق كتفها وكان ابنها قد وضع قدمه في الركاب . . . ثم التفت وتقدم خطوة نحو الأمام :

"أمي !" نظرت برهة وبعمق إلى عينيه البائستين الخجولتين . "لم تكوني . . . لم تكوني شديدة السعادة في هذا العام الذي انقضى كما أعتقد . . . أمي ، يوفريد ذات نية طيبة ، وهي تكنّ لك احتراماً كبيراً . . . ولكن رغم ذلك فإنه كان عليّ أن أقول لها المزيد عنك وأي نوع من النساء أنت وما الذي كنته . . ."

"كيف خطرت لك هذه الأفكار يا غاوته ؟" تكلمت الأم بلطف واستغراب . "أعرف جيداً بنفسي أني لم أعد شابة ، ويقال إن العجائز صعب إرضاؤهن ، ولكني لست عجوزاً بعد بحيث أخلو من الحكمة إلى حد لا أعرف قيمتك وقيمة زوجتك . كنت سأعتبر الأمر سيئاً لو أن يوفريد اعتبرت المسألة جهد عبثي لا يحمد عليه ، أي كل ما فعلته لتوفر عليّ العمل والقلق . لا تظن أني من هذا النوع أرجوك ، يا بني ، بحيث لا أعطي زوجتك حقها من التقدير وكذلك حبك المخلص والمطيع . . . ولو أني لم أعبر عنه كما كنت تتوقع . عليك أن تتحملني ، متذكراً أن هذا هو أسلوب العجائز . . . "

حدق غاوته إلى أمه فاغر الفم . . . "أمي . . . " . ثم انفجر باكياً واتكأ على حصانه وراح يهتزّ من النشيج .

ولكن كريستين تماسكت . لم يكشف صوتها عن شيء سوى التعجب واللطف الأموي .

"غاوته ، أنت لا زلت شاباً ، وصحيح أنك حملي الوديع ، كما كان أبوك يسميك . ولكن رغم كل شيء عليك أن تأخذ هذا الوداع على هذا النحو وأنت رجل ناضج وسيد المنزل . لو كنت سأذهب إلى روما أو القدس ، عندها بالفعل . . . ولكن في هذه الرحلة لن أقابل إلا بالكاد أخطاراً كبيرة . . . سأجد

أناساً يرافقونني ، كما تعرف ، وبالتأكيد ، حين أصل إلى توفتار ، إن لم يكن ذلك قبلها . وفي كل صباح في هذا الفصل تنطلق مجموعات الحجاج من هناك . . . "

"أمي ، أمي . . . سامحينا ! أخذنا كل السلطة وكل المقدرات من يديك ورمينا بك جانباً . . . "

هزت كريستين رأسها مع ابتسامة صغيرة : "أخشى أنكم يا أولادي ستعتبرونني امرأة شديدة الولع بالسلطة . . . "

التفت غاوته إليها : أخذت يده في إحدى يديها ووضعت الأخرى على كتفه ، بينما راحت تتوسّل إليه مرة أخرى أن يصدق أنّها كانت ممتنة له وليوفريد ، دعت إلى الرب أن يكون معه . ثم أدارته نحو حصانه وضربته ضاحكة بين كتفيه لأجل الحظ الطيب .

وقفت تتابعه بنظرها ، حتى ابتعد عن نظرها تحت حافة الجبل . لقد كان وسيماً جداً على الحصان الكبير الرمادي الداكن اللون .

أحست أن مزاجها أصبح غريباً . . . كل الأمور التي كانت خارجاً دخلت بحدّة إلى وعيها : الهواء الذي لفحته الشمس والنفس الدافئ لغابة الصنوبر ، وشدو العصافير الصغيرة في العشب . ومع ذلك وفي الوقت نفسه ، إذ راحت تنظر إلى داخل نفسها ، فقد رأت صوراً مثل الرؤى التي تجلبها الحمى . . . في داخلها كان منزل فارغ ، لا صوت فيه إطلاقاً ، معتم وينفث اليأس . تغيرت الرؤيا . . . إنه شاطئ عند المدّ ، وقد انسحب منه التيار نهائياً . صخور شاحبة مهترئة . أكوام من الطحلب البحري المعتمة الخالية الحياة . . . كل أنواع الأشياء التي تنجرف مع التيار . . .

ثم وضعت حقيبتها على نحو أسهل على كتفها وأمسكت بعصاها وانطلقت نحو "الديل" . لو لم يكن مقدراً لها أن تأتي إلى هنا مجدّداً ، فإنها إذن إرادة الله . . . من العبث أن تكون خائفة . ومن المحتمل أنها كانت تتقدم في السن . . . رسمت علامة الصليب ومضت في طريقها بخطوات أثبت . . . وقد نوت الهبوط

إلى المنحدرات الجبلية حيث يجري الدرب بين المزارع .

ومن امتداد قصير على الطريق العام فحسب كانت هي قادرة على مشاهدة المنازل في هاوغن ، عالياً فوق حافة الجبل الأعلى . بدأ قلبها يخفق من الفكرة .

●

وكما خمنت ، فقد قابلت عدداً من الحجاج حين وصلت إلى توفتار في وقت متأخر من النهار . وفي صباح اليوم التالي شكلوا مجموعة صغيرة وهم ينطلقون نحو الجبال معاً .

كان هناك كاهن وخادمه - امرأتان ، أمه وأخته ، وقد ركبوا الجياد ، وسرعان ما سبقوا أولئك المشاة ، فأحست كريستين بحرقة في قلبها وهي تتابع بنظرها المرأة الثانية التي كان يرافقها طفلان .

كان في صحبة كريستين مرشحان لرتبة فارس عجوزان من مزرعة صغيرة فوق دوفر . ثم كان هناك رجلان أصغر سناً من أوسلو ، وهم صاحبا حرفة من المدينة ، ومزارع مع ابنته وزوجها . كان هذان صغيرين في السن . وكانوا يسافرون مع طفلة الزوجين الشابين التي تبلغ عاماً ونصف من العمر ، وكانت تركب جواداً يتناوبون عليه . كان هؤلاء الثلاثة من أبرشية بعيدة إلى الجنوب تسمى "أندابو" . . . ولم تعرف كريستين أين كانت . في ذلك المساء الأول توسلت كريستين أن ترى الطفلة فقد كانت تبكي وتنقّ دون توقف . . . بدت بائسة ورأسها كبيرة خالية من الشعر ولها جسد ضئيل ذو مفاصل مرتخية . لم تكن قادرة على الكلام ولا الجلوس باستقامة بعد . بدت الأم خجلة من ذلك . . . وفي صباح اليوم التالي عرضت كريستين أن تحمل الفتاة عنها فترة من الزمن ، وقد حملتها بيديها . . . سارت الأم في المقدمة . بدت الأم بلهاء ، ولكنهما كانا صغيرين جداً في السن ، هي وزوجها ، لا يكادان يبلغان الثامنة عشرة ، وقد تكون منهكة تماماً من حمل طفلة ثقيلة كانت تعول وتبكي باستمرار . كان الجد رجلاً

قبيحاً كالح الوجه شكساً ، ولكن كان هو الذي صمّم على السفر إلى نيداروس مع حفيدته ، فلا بدّ أنه يشعر بحب لها . سارت كريستين إلى القرب منه وكذلك الراهبان الفرنسيسكانيان عند مؤخرة المجموعة . . . وقد أغاظها أن الرجل من أندابو لم يفكر قط في إعارة الراهبين حصانه فترة من الزمن . . . كان الجميع قادرين أن يروا أن الراهب الأصغر سناً كان يعاني من مرض خطير .

أما الراهب الأكبر سناً ، الأخ آرنغريم ، فكان رجلاً ضئيل الحجم بديناً ذا وجه مستدير أحمر يغطيه النمش ، وعينين بنيتين حيويتين وحلقة من الشعر بلون أحمر ثعلبي فوق قمة رأسه . كان يتكلم باستمرار ، وخاصة عن الفقر الذي كان يعيش فيه رهبان سكيدان حفاة الأقدام . . . كان الأكبر قد حصل للتو على منزل في تلك البلدة ، ولكنهم كانوا فقراء إلى حد أنهم ما كانوا قادرين إلا بالكاد على إبقاء الصلوات جارية ، كما أن الكنيسة التي كانوا ينوون بناءها لن تبنى بالتأكيد . وقد وضع اللوم على الراهبات الغنيات في غيمسوي اللواتي كنّ يلاحقن الرهبان الفقراء الشحاذين بالحسد والنكاية ، وقد رفعن الآن قضية قانونية ضدهم . وقد حكى بلسان ذرب كل أنواع الحكايات الشريرة حولهن . كرهت كريستين الإصغاء إلى الراهب يتكلم بهذا الأسلوب ، وحكاياته عن كيف أن رئيسة الدير قد اختيرت على نحو غير شرعي ، وكيف كانت الراهبات لا يحضرن القداديس بسبب النوم الكسول وكيف أنهن كن معتادات على الثرثرة والحديث غير الطاهر على المائدة في حجرة الطعام ، وبدا لها أنه لا يمكن الوثوق به . . . أجل ، حكى عن إحدى الأخوات وكيف أن الناس تعتبر أنها لم تحافظ على وعدها بالطهارة . ولكنها لاحظت أن الأخ آرنغريم كان على أي حال طيب القلب ولطيفاً . وقد راح يحمل الطفلة المريضة لمسافات طويلة حين رأى أن ذراعي كريستين كانتا منهكتين ، وأنه حين كانت الطفلة تصرخ بشدة ، كان يركض بها عبر الأرض المرتفعة وقد رفع رداءه عالياً حتى كان العرعر يسوط ساقيه السوداوين المشعرتين

والطين يتناثر من حفر الماء ، بينما راح هو يصرخ ويصيح على الأم بأن عليها الآن أن تنتظرهم فالطفلة كانت ظمآنة . ثم كان يعدو راجعاً إلى الرجل المريض ، الأخ تورغيلس . وكان يعامله بكل رقة وحنان الأب .

مع الراهب المريض كان من المستحيل الوصول إلى هيبردكين في تلك الليلة ، ولكن الرجلين القادمين من دوفر كانا على علم بوجود كوخ حجري قرب بحيرة إلى الجنوب في القفر ، واتجه الحجاج إليه . كان المساء بارداً الآن ، وكانت الأرض قرب حافة الماء مستنقعية ، وبرز سديم أبيض من المستنقع حتى راحت أشجار البتولا تنقط من الرطوبة . كان الهلال الفضي للقمر معلقاً فوق قمم الجبال إلى الغرب ، ولا يبدو من لونه الأصفر الشاحب إلا القليل في سماء المساء الصفراء . كان الأخ تورغيلس مضطراً أكثر فأكثر إلى التوقف . كان يسعل بشدة وألم إلى حد كان أمراً مثيراً للشفقة سماعه . وقد راح الأخ آرنغريم يسنده في هذه النوبات ، ثم يمسح له وجهه ، ثم وبهزة من رأسه كان يري كريستين يده . . . كانت مدماة من بصاق الرجل المريض .

وجدوا الكوخ ولكنه كان خرباً . وهكذا بحثوا عن بقعة تصلح كمأوى وأوقدوا مشعلة . ولكن الفقراء من الجنوب لم يكونوا يظنون أن الليل في الجبال سيكون بارداً إلى ذلك الحد القارس . أخرجت كريستين من حقيبتها العباءة التي ألزمها غاوته بحملها لأن الطقس كان لطيفاً ودافئاً . . . وهي مصنوعة من قماش منزلي فاخر مبطنة بفراء القندس . وحين لفت الأخ تورغيلس بها ، همس- كان مبحوحاً بشدة إلى حد أنه ما كان قادراً على الكلام - أنه سيسره أن تلف الطفلة بها معه . وهكذا وضعوا الطفلة معه في العباءة . راحت الطفلة تئن وتبكي ، وسعل الراهب . ولكن كانا كلاهما يناما بين النوبة والأخرى .

بقيت كريستين جزءاً من الليل وهي ساهرة مع أحد رجال دوفر والأخ آرنغريم لمراقبة النار . كان النور الأصفر الشاحب يلتف نحو السماء الشمالية . . . كانت

البحيرة الصغيرة إلى القرب منهم بلونها الأبيض وسكونها . كان السمك يبرز ويصنع حلقات فوق الماء . . . ولكن تحت الجبل فوق الجانب الأبعد راح الماء يعكس عتمة سوداء . ومرة وصل إلى أسماعهم عواء غريب من هناك . . . أجفل الراهب وأمسك بالرجلين الآخرين بقوة من ذراعيهما . وقد رأت كريستين والمزارع أنه وحش من نوع ما . . . ثم سمعوا صخرة تتدحرج ، كأن شخصاً كان يمشي فوق حواف الجبل ، وصدرت صرخة أخرى مثل صوت أجش لرجل . بدأ الراهب يصلي بصوت مرتفع . . . وقد التقطت منه الكلمات التالية : "يا يسوع المسيح ، أيها المخلّص" . و"لقد انتصر أسد قبيلة يهوذا" . . . ثم سمعوا باباً يغلق بعيداً في الجبل .

بدأ الفجر الرمادي الشاحب يظهر ، والجبل عبر البحيرة وكتل البتولا تبدو للعيون . . . ثم أخذ الرجل الآخر القادم من دوفر والرجل من أوسلو مكانهم . كان آخر شيء فكرت فيه كريستين قبل أن تنام ، قريباً من النار ، هو أن عليهم أن يمشوا لمسافات قصيرة . . . وأن يعطوا الحسنات إلى الراهبين الشحاذين لدى مفارقتهما . . . ويبدو أنها قد تضطر إلى تسول طعامها من المزارع حين ينزلون إلى غاولدال .

كانت الشمس قد صعدت عالياً وريح الصباح كان تجعل البحيرة داكنة في هبات صغيرة ، وذلك حين تجمع الحجاج المتجمدون من البرد من حول الأخ آرنغريم بينما تلا هو صلاة الصباح . جلس الأخ تورغيلس وقد أقعى وراحت أسنانه تصطك ببعضها ، ويحاول أن يكبح سعاله وهو يهمهم الكلمات مردداً إياها بعد الأخ آرنغريم . وحين نظرت إلى ملابس الراهبين الرمادية والشمس تشرق عليها ، تذكرت كريستين أنها حلمت بالأخ إدفين . . . لم تستطع تذكر حلمها ، ولكنها ركعت وقبلت يدي الراهبين وطلبت مباركتهما للمجموعة .

كان منظر عباءة فرو القندس قد أظهرت للحجاج الآخرين أن كريستين لا

تنتمي إلى العامة . وحين أفادت أنها سافرت مرتين سابقاً على طريق الملك العام عبر دوفر- فييلد فقد أصبحت دليلاً وقائداً للمجموعة . لم يكن قد سبق لرجال دوفر أن سافروا شمالاً أبعد من هييردكين ، وكان القادمون من "فيكن" غرباء هنا بالطبع .

وصلوا إلى هييردكين قبل صلاة الغروب ، وبعد الصلاة التي حضروها في الكنيسة ، خرجت كريستين نحو الجبال لوحدها . كانت تأمل في أن تجد الممر الذي اتبعته مع أبيها مجدّداً ، وتلك البقعة قرب النهر حيث جلست معه . ولكنها لم تستطع أن تجدهما ، ولكنها اعتبرت أنها وجدت التلة التي تسلقتها حتى تتابعه بنظرها وهو يمضي بعيداً عنها . هكذا فكرت . . . ولكن الجروف الحجرية الصغيرة على امتداد الممر كانت متشابهة جداً .

ركعت بين شجيرات توت الدب عند قمة الهضبة الصغيرة المدورة . كان المساء الصيفي يتحول إلى غسق . . . منحدرات أشجار البتولا فوق حواف الجبال والجبال الرمادية والامتدادات البنية للمستنقعات تنصهر معاً ، ولكن فوق الجبال الممتدة ، كانت سماء المساء تقوس وعاءها الصافي الذي لا قعر له . راحت كل البرك تلتمع بلون أبيض ، وانعكس النور السماوي ، مكسراً وأكثر شحوباً ، من نهر الجبل الصغير الذي راح يسرع قلقاً فوق الصخور ، ليتدفق بين الضفاف الحصوية الشاحبة إلى بحيرة صغيرة في الأرض المقفرة .

ومن جديد خطرت لها الرؤية الغريبة المحمومة الداخلية . . . بدا الجدول وكأنه يريها صورة كيانها . وهكذا أسرعت بقلق عبر قفز هذه السنوات الدنيوية ، وأزبدت عند كل حجر في مسارها . . . ولكن النور الأبدي ما كان قادراً إلا على عكس نفسه في حياتها بضعف وتقطع وشحوب . ولكن خطر للأم على نحو باهت أنه في الألم والاهتمام والحب- كل مرة نضجت فيها ثمرة الخطيئة إلى أسى- فقد كانت روحها العنيدة المرتبطة بالأرض تمنح فرصة التقاط انعكاس للنور السماوي .

السلام عليك يا مريم كل السلام ، يا ممتلئة رحمة ! مباركة أنت بين النساء ، ومباركة ثمرة رحمك ، يسوع ، الذي منح عرقه ودمه لأجلنا . . .

وبينما تلت خمس مرات صلاة "سلام عليك يا مريم" في ذكرى أسرار ألم الافتداء ، أحست من خلالها أحزانها فقط بأنها تجرؤ على نشدان المأوى تحت عباءة أم الرب . كان حزنها على الطفلين اللذين فقدتهما ، وأحزانها الأثقل عن كل ضربة من ضربات القدر التي حلّت بأبنائها وأنها لم تستطع أن تحميهم منها . مريم الكاملة الطهارة والضعة والطاعة لإرادة الرب ، قد حزنت أكثر من كل الأمهات ، وسوف ترى رحمتها وتفهم الانعكاس الشاحب والضعيف من قلب امرأة خاطئة ، احترقت بالحب الحار والشهواني المدمّر وبكل الخطايا التي يجلبها الحب الشهواني معه . . . مشاكستها وتحديها وروحها القاسية اللامتسامحة وعنادها واعتزازها بنفسها . . . ولكن كان قلبها قلب أم رغم ذلك كله .

أخفت كريستين وجهها بيديها . بدا لها برهة أنه أمر أكثر مما تستطيع احتماله ، وأنها قد افترقت الآن عنهم جميعاً . . . عن كل أبنائها .

ثم تلت لآخر مرة "أبانا الذي" . فكرت في وداعها لأبيها في هذه البقعة قبل كل هذه السنوات الطويلة التي مضت ، ووداعها لغاوته قبل يومين فقط . وبطيش طفولي فإن أبناءها قد أساؤوا إليها . . . ومع ذلك فقد كانت تعرف ، أنهم حتى لو أساؤوا إليها كما أساءت هي إلى أبيها- عن سوء نية وبالإثم - فما كان ممكناً لذلك أن يغير من قلبها تجاههم . كان من السهل أن يغفر المرء لأولاده . . .

"المجد للأب والابن والروح القدس" . . . قالت الكلمات (باللاتينية) ثم قبلت الصليب الذي كان أبوها قد منحها إياه ، وهي مترعة بالحمد لأنها تشعر رغم كل شيء ، رغم روحها الشكسة ، أن قلبها القلق قد منح فرصة أن يلتقط

وميضاً ضعيفاً من الحب الذي رأته ينعكس في روح أبيها ، صفياً وساكناً ، مثلما ينعكس نور السماء الآن من البحيرة الكبيرة الهادئة .

●

في اليوم التالي كان الطقس رمادياً وعاصفاً وبارداً جداً ، مع ضباب وعواصف مطرية حتى أن كريستين ظنت أنها لن تجرؤ على الاستمرار في السير مع طفلة مريضة ومع الأخ تورغيلس . ولكن الراهب نفسه كان التواق أكثر من الكل . . . لاحظت أنه كان يخشى أن يموت قبل الوصول إلى نيداروس . لذلك اتخذوا طريقهم عبر النجود . ولكن الضباب كان كثيفاً إلى حد أن كريستين لم تكن تجرؤ أحياناً على هبوط الدروب المنحدرة ذات الجروف في الأعلى و الأسفل ، والتي تذكرت أنها تؤدي إلى مأوى الحجاج في دريفدال . وهكذا أشعلوا ناراً حين وصلوا إلى أعلى الوادي واستراحوا هناك ليلاً . وبعد صلاة المساء حكى لهم الأخ آرنغريم حكاية بطولية جيدة عن سفينة معرضة للخطر أنقذتها صلوات الكاهن الموجهة إلى مريم العذراء . لقد خرج نجم الصباح فوق البحر بناء على أمرها .

بدا الراهب وكأنه أحب كريستين . وبينما كانت جالسة قرب النار ، وهي تهدهد وتسكت الطفلة حتى ينام الآخرون ، اقترب منها وبدأ يحكي عن نفسه همساً . كان ابناً لصياد سمك فقير ، وحين أصبح في الرابعة عشرة فقد أباه وأخاه في البحر في إحدى الليالي الشتائية ، ولكنه أنقذ من قبل زورق آخر . وقد اعتبر هذا إشارة ورمزاً ، وعلاوة على ذلك فقد أصبح يخاف البحر ، وهكذا خطر له أن عليه أن يصبح راهباً . ولكنه اضطر للتأجيل ثلاث سنوات وهو قابع في البيت مع أمه ، وقد كدحا وجاعا ، وبقي هو خائفاً من ركوب الزوارق . . . ولكن أخته تزوجت وأخذ زوجها المنزل والحصة في الزورق ، واستطاع هو أن يلتحق بالمينوريت في تونسبرغ . في البداية سخروا منه هناك بسبب وضاعة مولده . . . ولكن الوصيّ كان لطيفاً ووقف منه موقف الصديق . منذ أن دخل الأخ تورغليس أولافسون إلى

سلك الرهبنة فقد أصبح كل الرهبان ورعين ومتواضعين ، رغم أنه كان أنبلهم محتداً من عائلة مرشح غني لرتبة فارس في سلاغن ... وكانت أمه وأخواته كريمات جداً مع الدير . ولكن بما أنهن قد جئن إلى سكيدان ، وبما أن الأخ تورغيلس قد وقع فريسة المرض ، أصبحت كل الأمور أصعب بكثير مجدداً . وقد شرح الأخ آرنغريم لكريستين أنه كان متعجباً من أن المسيح ومريم كانا يجعلان الطريق شديد القسوة على أقدامهما الرهبانية الضعيفة .

قالت كريستين : "لقد اختاروا الفقر بأنفسهم وهم لا يزالون فوق الأرض ."

"من السهل عليك قول هذه الأمور ، وأنت السيدة الغنية دون شك" ، قال الراهب بغضب . "أضمن أنك لم تعرفي من قبل معنى الصيام ... " وكان على كريستين أن تذعن له ...

•

حين نزلوا إلى الأراضي المفلوحة وعبروا أو بدال وسوكنادال ، كان الأخ تورغيلس يحصل أحياناً على حصان أو عربة يركبها لبعض الوقت . ولكنه بدأ يضعف بالتدريج ، وكان رفاق كريستين يتغيرون باستمرار ، فقد كان الناس يفترقون عنهم ويتابعون سيرهم ، ويأتي حجاج جدد ليصحبوهم . وحين وصلوا إلى ستاتورين ، فإنه لم يكن قد تبقى مرافقاً لها أحد ممن عبر معها الجبال باستثناء الراهبين . وفي الصباح جاءها الأخ آرنغريم باكياً وقال إن الأخ تورغيلس قد بصق دماً كثيراً في الليل ، ولم يعد يستطيع التقدم أكثر من ذلك ... وربما سيصلان نيداروس في وقت متأخر جداً ويفوتهم الاحتفال .

شكرت كريستين الأخوين على صحبتهما وتوجيههما الروحي لها ومساعدتها في رحلتها . وقد دهش الأخ آرنغريم من مدى نفاسة هداياها عند الوداع ، فقد أشرق وجهه ... أجل ، لابد أن يمنحها هدية بالمقابل ، كما قال ، فأخرج من حقيبته علبة فيها بعض الرسائل . وقد كتب عليها صلوات ورعة مع

كل أسماء الرب عند نهايتها . وقد ترك مكان فارغ في الرسالة لينسخ عليه اسم المتضرّع .

قالت كريستين في نفسها إنه لأمر غير محتمل ألا يعرف الراهب من هي ومن كان زوجها وما كان مصيره حتى لو ذكرت اسم أبيها فحسب . ومع ذلك فقد طلبت إليه أن يكتب : "كريستين ، أرملة" فقط .

●

عبر "غاودال" اجتازت الممرات من حول ضواحي الأبرشيات ، فقد ظنت أنها لو قابلت أناساً من الضياع الكبيرة فقد يحدث أن واحداً أو آخر سيعرف سيدة هوسابي مجدداً ، وكانت تكره أن تُعرف ، رغم أنها لم تكن تعرف السبب . في اليوم التالي صعدت في ممرات الغابة فوق التل نحو الكنيسة الصغيرة فوق فاتسفييلد ، التي كانت مكرسة ليوحنا المعمدان . . . ولكن الناس هناك كانوا ينسبونها إلى القديس إدفين .

كانت الكنيسة مبنية في فسحة ضمن الغابات الكثيفة . وكانت هي والهضبة الصغيرة المدورة وراءها منعكستين في بركة تغذي النبع الشافي . كان هناك صليب خشبي يقف عند النهر ، ومن حوله كانت قد رميت عكاكيز وعصيّ ، وفوق الشجيرات المجاورة علقت خرق وأسمال متبقية من الضمادات .

من حول الكنيسة كانت هناك مساحة مسوّرة بسياج ، ولكن البوابة كانت مغلقة . ركعت كريستين في الخارج ، وفكرت بالزمن الذي كانت تجلس فيه هناك وغاوته في حضنها . عندها كانت ترتدي الحرير ، واحدة من مجموعة من كبار القوم في ملابس فاخرة ، رجالاً ونساء ، من أنحاء الريف المجاور كله . كان سيرا آيليف قريباً منهم حاملاً ناكفه وبيورغولف بقوة . ضمن الحشد في الخارج كانت خادماتها وخدمها . آنئذ كان هناك عبء صلاتها المحرقة أنه لو يتعافى هذا الطفل المسكين التعيس في بدنه وعقله ، فإنها لن تطلب أي شيء آخر . . . ولا حتى أن

تحرر نفسها من الألم الشديد في ظهرها والذي كان يزعجها منذ أن ولدت التوأمين .

فكرت في غاوته وهو جالس فوق حصانه الرمادي فارساً شجاعاً ووسيماً . وكانت هي نفسها : لم تكن هناك نساء كثيرات في عمرها الذي يقترب من نصف مائة من السنين قد بوركن بصحة كصحتها . وقد لاحظت ذلك جيداً خلال رحلتها عبر الجبال . أيها الرب ، امنحني هذا وهذا وهذا . . . ثم سأشكرك ولن أطلب أكثر من هذا وهذا وهذا . . .

لم يبد لها مطلقاً أنها قد صلّت للرب لأي شيء آخر عدا أن يمنحها ما تريده . وقد نالت دائماً ما أرادته . . . معظمه . وهاهي تجلس الآن هنا بروح كلها رضوض . . . ليس لأنها أثمت ضد الرب ، ولكنها لأنها لم تكن راضية عن أنه سمح لها أن تتبع رغبات قلبها حتى نهاية الرحلة .

لم تكن قد أتت إلى الرب مع إكليل غارها ولا مع خطاياها وأحزانها . . . ليس كذلك طالما كان العالم لا يزال يحمل قطرة حلاوة تمزجها مع كأسها . ولكنها قد أتت الآن ، الآن بعد أن تعلمت أن العالم أشبه بحانة . . . حيث هو الذي لم يعد لديه ما ينفقه سيرمى خارج الباب .

لم تشعر بأي متعة في تصميمها . . . ولكن بدا لكريستين أنها لم تكن هي نفسها من صمّم . كان الشحاذون الفقراء الذين يدخلون بيتها قد وصلوا ليأمروها بالتقدم . كانت هناك إرادة أخرى غير إرادتها قد وضعتها ضمن مجموعة الفقراء والمرضى ، وأمرتها أن تذهب معهم ، بعيداً عن البيت الذي كانت فيه السيدة وسيطرت فيه كأم للرجال . ولو أطاعت الآن النداء دون مضض ، فإنها عرفت ذلك لأنها رأت أن غاوته سيكون في حال أفضل بعد أن ترحل هي عن الضيعة . لقد لوت القدر حسب إرادتها ، وكان لها المصير الذي هو من اختيارها . . . ولكنها لم تستطع أن تكيّف أبناءها حسب إرادتها . كانوا كما كيفّهم الرب وكما دفعتهم

طبيعتهم إلى أن يكونوا . لقد غلبت في معركتها معهم . كان غاوته مزارعاً جيداً وزوجاً صالحاً وأباً مخلصاً ، رجلاً باسلاً ، وشريفاً بقدر ما هم معظم الناس . . . ولكنه لم يكن من المادة التي يصنع منها الزعماء ، ولم يكن يميل إلى أن يتوق إلى ما زرعته فيه . ولكنه كان يحبها بما فيه الكفاية بحيث ينزعج حين يعرف أنها تتوقع منه أكثر من قدرته على العطاء . لذلك كانت عازمة الآن على أن تتوسل الملجأ والمأوى ، رغم أنه كان أمراً صعباً على عزتها أن تصل إلى مثل هذا الفقر المدقع إلى حد أنها لم تكن قادرة على تقديم أي أعطيات .

ولكنها كانت تعلم أنها كانت قد تلقت النداء للقدوم . كانت غابات التنوب على الهضبة تنتصب لتشرب من نور الشمس الذي كان يتخلّلها ، وتتنهّد بلطف شديد . كانت الكنيسة الصغيرة هناك مغلقة وصامتة ، تبث رائحة القار . وبتوق فكرت كريستين بالراهب المتوفي الذي أخذ بيدها وقادها إلى توهج حب الرب العميم حين كانت طفلة بريئة بعد . وقد تدخل المرة إثر الأخرى ليقودها إلى طريق الصواب من دروب الخطيئة ، وذلك خلال حياته على الأرض وبعد ذلك . . . وفجأة تذكرت بوضوح النهار ما الذي حلمت به في تلك الليلة فوق الجبل :

لقد حلمت أنها كانت واقفة في نور الشمس في باحة ضيعة كبيرة ، وقد تقدم الأخ إدفين نحوها من باب القاعة . كانت يداه مليئتين بالخبز ، وحين وصل إليها اقتطع كسرة كبيرة وأعطاها إياها . . . لقد فهمت أن عليها أن تفعل ما فكرت فيه ، أن تتوسل الحسنات حين تنزل إلى الأبرشيات . ولكن بطريقة ما أو بأخرى فقد رافقت الأخ إدفين وهاهما كلاهما يسافران معاً ويتسولان . . . ولكن في الوقت نفسه فقد كانت تعرف أن الحلم له معنى مزدوج : لم تكن الضيعة مجرد ضيعة كبيرة ، ولكن بدا لها أنها ترمز إلى مكان مقدس ، وكان الأخ إدفين أحد سكانه . والخبز الذي جلبه وأعطاها منه لم يكن الخبز العادي كما بدا . . . كان

يرمز إلى خبز القربان ، إلى "الخبز الملائكي" ، وقد أخذت الخبز الملائكة من يده . والآن أعطت هي الوعد إلى الأخ إدفين ليكون محفوظاً لديه .



-٥-

وأخيراً وصلت إلى نهاية رحلتها . جلست كريستين لافرانسداتر فوق كومة من القش على جانب الطريق تحت سيونسبورغ . كانت الشمس مشرقة والريح تهبّ . وكان ذلك الجزء من المرج الذي لم يحصد بعد يتماوج أحمر بلمعة حريرية من العشب الذي يطرح البذور . لم تكن المروج حمراء كهذه في أي مكان عدا منطقة تروندهايم . تحت المنحدر استطاعت أن ترى لمحة من الزقاق البحري ، أزرق داكناً ومبقعاً بالزبد . كان نثار أبيض من البحر يندفع ضد الصخور ، بقدر ما كانت قادرة على الرؤية على امتداد الشاطئ تحت "باينس" المغطى بالغابات .

سحبت كريستين نفساً عميقاً . على أي حال ، كان أمراً جيداً أن تكون هنا مجدداً . كان أمراً جيداً رغم أنه غريب أيضاً أن تعرف أنه ليس عليها أن ترحل من هنا بعد الآن . كانت الأخوات المرتديات للون الرمادي في "راين" يتبعن القاعدة نفسها ، أي قاعدة القديس برنارد ، مثل الأخوة في تاوترا . حين نهضت عند صياح الديك وذهبت إلى الكنيسة ، كانت تعرف أن ناكفه وبيورغولف كانا ذاهبين الآن إلى مكانهما في كورس الرهبان . وهكذا ، هاهي قد أتت لتقضيّ شيخوختها مع اثنين من أبنائها . . . ولكن ليس بالأسلوب الذي فكرت فيه .

خلعت حذاءها وجاربيها وغسلت قدميها في النهر . في نيداروس ستمشي حافية القدمين .

من خلفها فوق الممر نحو تل القلعة كان بعض الصبية يلعبون بصخب . . . ويعملون بجّد تحت الحصن الأمامي ، محاولين أن يجدوا طريقاً نحو البناء المنهار . وحين لاحظوها ، راحوا ينادونها بعبارات قذرة وهم يضحكون ويستهزئون . تظاهرت بأنها لم تسمعهم ، حتى قام طفل صغير شقي - في الثامنة من عمره على ما يبدو - بالتدحرج على المرج المنحدر وكاد يصطدم بها ، وهو يصرخ بعبارات بشعة كان قد تعلمها من الصبية الأكبر سناً . التفتت كريستين نحوه وقالت مبتسمة :

"لا حاجة للصراخ حتى تجعلني أعرف أنك جني صغير ، فأنا أرى أنك ترتدي بنطالاً دوّاراً (٦) . . . "

حين لاحظ الصبية أن المرأة ردت عليهم هبطوا جميعاً . ولكنهم صمتوا أو خجلوا حين رأوا أنها امرأة كهلة في ملابس الحج ، وأنها لم تقرعهم بسبب كلماتهم القذرة ، بل جلست تنظر إليهم بعيون كبيرة صافية هادئة وابتسامة صغيرة مختلسة على شفتيها . كان لها وجه مستدير نحيل وجبين عريض وذقن صغير مستدير وبشرة مسفوعة من الشمس وشديدة التجعد تحت عينيها ، ولكنها لم تبد عجوزاً جداً .

وهكذا فإن أجرأ الصبية بدأ يحادثها ويطرح عليها الأسئلة ليخفي ارتباك المجموعة . أحست كريستين أنها كانت قادرة على الضحك . . . بدا هؤلاء الأولاد أشبه بولديها الوغدين ، بالتوأمين حين كانا صغيرين ، رغم أنها صلّت للرب ألا يكون أولادها من ذوي الألسنة القذرة . وقد بدا هؤلاء كأطفال من أطفال العامة من سكان البلدة .

وحين جاءت اللحظة التي كانت تتوق إليها طوال الرحلة ، حين وقفت تحت

الصليب الذي فوق فغينسبريكا ونظرت إلى نيداروس في الأسفل ، لم تستطع أن تستجمع أفكارها للصلاة أو التأمل . دقت كل أجراس البلدة في تلك اللحظة لأجل صلاة المساء ، تحدث الأولاد كلهم معاً ، وأردوا أن يشيروا جميعاً إلى ما كان أمامهم .

لم تستطع أن ترى تاوترا ، بسبب الريح والسديم والأمطار الخفيفة المفاجئة التي كانت تجتاح الزقاق البحري تحت فروستا .

في وسط قطيع الصبيان اتخذت الممر المنحدر الذي كان يؤدي إلى مرتفعات ستانيبرغ . . . والآن راحت أجراس البقر ترن والرعيان تهتف من حولها . . . فقد كانت البقرات تتجه إلى مأواها من مراعي البلدة . عند البوابة في سور البلدة عبر النيدارايد ، كان على كريستين ومرافقيها الصغار أن ينتظروا بينما كان القطيع يقاد عبرها . . . كان الرعيان يصيحون ويصرخون ويلعنون ، وكانت الثيران تنطح والبقرات تتزاحم ، وراح الأولاد يذكرون اسم مالك هذا الثور أو ذاك والثيران تمرّ نحو شوارع البلدة ، وقد عانت كريستين بما فيه الكفاية من العذاب حتى استطاعت أن تشق طريقها بقدميها الحافيتين بين روث البقر فوق الطريق الموحلة .

لحق بعض الصبيان بها دون طلب منها حتى كنيسة المسيح . وبينما وقفت في الغابة المعتمة من الأعمدة وحدقت نحو الأنوار والطلاء الذهبي لمكان الكورس ، راح الأولاد يشدون ثوب المرأة الغريبة إذ كانوا راغبين في أن يجعلوها ترى كل ما يجذب عيون الأطفال . . . من بقع نور الشمس الملونة الساقطة عبر النافذة الوردية بين الأقواس ، وشواهد القبور على الأرضية ، إلى المظلات المصنوعة من المواد الثمينة فوق المذبح . لم تعرف كريستين الهدوء حتى تستجمع أفكارها . . . ولكن كل كلمة كان الأولاد يقولونها كانت توقظ التوق الغافي في قلبها . . . لأبنائها أولاً وقبل كل شيء ، للضيعة والمباني الإضافية والقطيع . . . وكذلك لجهد الأمومة وسيطرتها .

كانت لا تزال كارهة أن يميزها أحد مجدداً بين أصدقائها أو أصدقاء إرلند

في الأيام الخالية . لقد اعتادا كلاهما على التواجد في منزلهما في البلدة في الأعياد وأن يستقبلا ضيوفاً ينزلون معهما في البيت . . . انكمشت من فكرة مقابلة مجموعة منهم . عليها أن تبحث عن أولف هالدورسون ، لأنه كان وكيلها ومسؤولاً عن الحصص التي كانت لا تزال تملكها في بعض المزارع شمال الجبال وتريد الآن أن تدفع لقاء طعامها في دير راين . ولكن من المحتمل أن يكون معه أقرباؤه الآن من المزرعة في سكاون . إذن عليها أن تنتظر . ولكنها كانت قد سمعت أن رجلاً خدم بين صفوف القوات التي كانت تحت إمرة إرلند في أيام كان حاكماً يسكن في منزل صغير في براتورين . كان يعمل مع صيادي الدلافين وخنازير البحر في الزقاق البحري ، ولديه نزل للبحارة .

حين وصلت إلى هناك قيل لها إن كل الأماكن قد سبق لها وشُغلت بالكامل . ولكن وصل الرجل نفسه المسمى آمونده وميزها على الفور . كان غريباً أن تسمعه يصرخ باسمها القديم :

"لابد أني أتخيّل . . . ألست زوجة إرلند نيكولاوسون أوف هوسابي ؟ تحية لك يا كريستين . . . كيف جرى أن تزوريني في بيتي هنا ؟"

كان سعيداً جداً أنها قنعت بمثل هذا المأوى الذي يستطيع تأمينه لها لقضاء ليلتها ، ووعد بأن يبحر بها إلى تاوترا بنفسه في اليوم التالي على الاحتفال .

بقيت حتى وقت متأخر من الليل وهي ساهرة في الباحة تتحدث مع خادمها السابق ، وقد تأثرت بعمق حين لاحظت أن أولئك الرجال الذين خدموا إرلند لازالوا يحفظون ذكرى زعيمهم الشاب بحب وشرف . . . وراح آمونده يتحدث عنه مرة إثر أخرى على أنه "شاب" ، وقد عرفوا من أولف هالدورسون حكاية مصرعه المؤسف ، وقال آمونده إنه ما أن يقابل أحداً من رفاقه القدامى في هوسابي حتى يشربا نخب ذكرى سيدهما الشهم . . . وقد حدث مرتين أن جمع المال لقراءة القداديس على روحه في يوم وفاته . سأل آمونده كثيراً عن أولاد إرلند

وسألته كريستين عن معارفها القدماء . كان منتصف الليل قد حلّ قبل أن تأوي إلى الفراش إلى جانب زوجة آمونده . . . في البداية رفض سوى أن يعطيها سريرهما ، ولكنها أخيراً قبلت عرضه على أن تنام في مكانه .

●

في اليوم التالي كان عيد الشفيع أولاف . ومنذ الصباح الباكر سارت كريستين على امتداد الشاطئ قرب مصب النهر ، وهي تتفرج على الجلبة في أرصفة التحميل . راح قلبها يدق على نحو أسرع حين شاهدت اللورد رئيس دير تاوترا ينزل إلى الشاطئ . . . ولكن الرهبان المرافقين له كانوا جميعاً من كبار السن .

قبل صلاة العصر بوقت طويل كان الناس يتدفقون نحو كنيسة أولاف حاملين مرضاهم ومقعديهم ، حتى يقتربوا من المدّخر حيث كان سيحمل خلال الموكب في اليوم التالي بعد القداس الكبير .

وحين اقتربت كريستين من الأكشاك التي أقيمت قرب السياج من حول باحة الكنيسة . . . لاحظت أنها كانت تبيع على الأغلب اللحم والشراب والشموع والأبسطة المصنوعة من أغصان الأسل أو البتولا لتوضع قرب أرضية الكنيسة . . . وقد وجدت مجدداً تلك العائلة من آندابو وحملت كريستين الطفلة بينما شربت الأم الشابة جرعة من الجعة . في تلك اللحظة وصل موكب الحجاج الإنكليز مع الأغاني والرايات والشموع الموقدة ضمن الحشد والازدحام وهو يشق طريقه عبر حشود البشر عند الأكشاك ، ففقدت عائلة آندابو ولم تستطع أن تجدهم مجدداً .

تجولت لفترة طويلة هنا وهناك من حوالي الحشد وهي تهدهد الطفلة الزاعقة . وحين وضعت الطفلة على عنقها لتسكتها بالعناق ، راحت تمص لها جلدها . لاحظت أنها كانت عطشى ، ولم تعرف ما الذي تفعله . بدا لها أن بحثها عن الأم

لن يكون ذا جدوى . عليها أن تنزل إلى الشوارع وتبحث لها عن حليب . ولكنها حين وصلت إلى "الشارع الطويل العلوي" وأرادت أن تتجه شمالاً ، رأت حشداً كبيراً من الناس مجدداً . . . ومن الجنوب وصل موكب من الفرسان ، وفي الوقت نفسه كان الجنود من القصر يسيرون في الحيّز بين الكنيسة ومنزل الرهبان المصلوبين . دُفعت كريستين جانباً إلى أقرب حارة . ولكن هنا كان الناس مسرعين أيضاً إلى الكنيسة راكبين ومشاة ، وازداد الحشد حتى اضطرت إلى اللجوء إلى سور حجري .

كان الهواء فوقها مترعاً بصخب الأجراس . . . فأجراس الكاتدرائية كانت تدق لصلاة الصباح . توقفت الطفلة عن الزعيق لدى سماعها الصوت . . . نظرت إلى السماء ، وظهر شعاع من الفهم في عينيها الكابيتين . . . فابتسمت قليلاً . أشفق قلب الأم في كريستين فانحنت وقبلت الفتاة الصغيرة المسكينة . ثم لاحظت أنها كانت جالسة فوق السور الحجري لحديقة منزل نيكولاوس ، بيتهم القديم في المدينة .

. . . كان عليها أن تعرف جيداً المدخنة الحجرية البارزة عبر سقف الخث . . . ومؤخرة مبنى القاعة . إلى القرب منها كانت منازل المستشفى الذي كان حتى مشاركته الحديقة معهم يثير حفيظة إرلند .

ضغطت ابنة المرأة الغريبة إلى صدرها وقبلتها المرة تلو الأخرى . ثم لمس أحدهم ركبتها .

. . . كان راهباً في الرداء الأبيض والقلنسوة السوداء الخاصين بالأخوة الواعظين . نظرت إلى الوجه الأصفر الشاحب ذي الأخاديد للرجل العجوز . . . والفم الطويل الضيق الأدرد ، والعينين العنبريتين الغائرتين .

"هل هذا ممكن . . . أهذه أنت يا كريستين لافرانسداتر ؟" وضع الراهب ذراعيه المتصالبتين فوق السور ودفن وجهه فيهما . "أأنت هنا ؟"

"غونولف !" عندما سمع ذلك حرك رأسه حتى لمس ركبتها حيث كانت جالسة : "أتعتقد أن أمر غريب جداً أن أكون هنا ؟" ثم تذكرت أنها كانت جالسة فوق سور حديقة هذا المنزل الذي كان ملكاً له في البداية ثم ملكاً لها لاحقاً ، وفكرت في أنه أمر غريب حقاً .

"ولكن من هذا الطفل الذي تضعينه على ركبتك . . . طبعاً لا يمكن أن يكون هذا ابن غاوته ؟"

"كلا . . . " وعندما تذكرت وجه ابن إرلند المعافى العذب وجسمه القوي الجميل ، ضغطت الطفلة الغريبة المسكينة إليها وقد غلبتها الشفقة : "هذه طفلة امرأة عبرت الجبال معي" .

. . . ولكنها تذكرت آنئذ ما رآه أندرس سايمونسون من خلال حكمته الطفولية . حدقت إلى الطفلة المثيرة للشفقة في حضنها وقد امتلأت بالتبجيل .

إلا أن الطفلة عادت إلى البكاء مجدداً ، فسألت الراهب أولاً وقبل كل شيء إن كان يستطيع أن يخبرها أين يمكنها أن تجد حليباً للطفلة . قادها غونولف شرقاً نحو الكنيسة إلى منزل الأخوة الواعظين ، وحصل لها على وعاء من الحليب . وبينما راحت كريستين تطعم الطفلة تحدثا معاً ، ولكن حديثهما كان متقطعاً .

"لقد مرّ وقت طويل وجرت أحداث كثيرة منذ التقينا لآخر مرة " قالت بحزن . "وصعب عليّ أن أنقل إليك أيضاً النبأ . . . نبأ أخيك ."

"فليرحم الرب روحه المسكينة" ، همس الأخ غونولف بصوت راجف .

ولكن حين سألته عن ابنيها في تاوترا تكلم غونولف بطلاقة أكبر . فقد استقبل الدير بسعادة كبيرة هذين المبتدئين المنتميين إلى إحدى كبريات الأسر في البلاد . لقد بدا أن نيكولاوس كان ذا مواهب عقلية ممتازة وقد قطع أشواطاً كبيرة في العلم والورع حتى أن رئيس الدير راح يتذكر على الدوام جده النبيل ، بطل الكنيسة الموهوب ، الأسقف نيكولاوس أرنسون . كان ذلك في الأيام

الأولى . ولكن بعد فترة من استلام الأخوين لقلنسوة الرهبان ، فإن نيكولاوس قد أساء التصرف إلى حد خطير وسبّب الكثير من المشاكل في الدير . لم يكن غونولف عارفاً بأسباب المشكلة بالكامل . . . ومن هذه الأسباب أن رئيس الدير يوهانس لم يقبل رسم الأخوين الشابين ككاهنين قبل أن يبلغا الثلاثين من العمر ، وقد رفض التخلي عن هذا المبدأ لأجل نيكولاوس . وبما أن الأب المبجّل قد اعتبر أن نيكولاوس قد قرأ وتأمل أكثر مما يلائم نضجه الروحي ، وأنه كان يخرب صحته بالممارسات الورعة ، فقد فكر أنه أمر ملائم إرساله إلى أحد مزارع الدير التي تربي الأبقار في إنديرو ، للعمل هناك تحت إشراف الرهبان الأكبر سناً ، وذلك لزرع بستان تفاح . ثم يقال إن نيكولاوس قد عصى أوامر رئيس الدير واتهم أخوته من الرهبان بأنهم بدّدوا أملاك الدير في العيش عيشة فخمة وأنهم كانوا كسالى في عبادة الرب وأن حديثهم كان متحرراً دون قيود . وقد أبقيت هذه القضية ضمن جدران الدير ، وكان ذلك أمراً معقولاً . ولكن يقال أيضاً إنه قد تحدى الأخ الذي عينه رئيس الدير ليؤدبه . وقد بقي بعض الوقت في زنزانة العقاب ، كما عرف غونولف ، ولكنه عادِ ليتواضع منذ أن هدد رئيس الدير بفصله عن أخيه بيورغولف ، وإرسال أحدهما إلى مونكابو . . . لكأنما كان الأخ الأعمى يحثه على الاستمرار . ولكن عند ذلك التهديد أصبح نيكولاوس طيعّاً ونادماً .

"إنها طبيعة أبيهما التي ورثاها عنه" ، قال غونولف بمرارة . "لم يكن هناك من يتوقع من أبناء أخي أن يتعلموا الطاعة بسهولة ، أو أن يبدوا إخلاصاً لحياة الورع والتقوى . . . "

"يبدو أن هذا ميراثهم من أمهم" ، أجابت كريستين بحزن . "التمرد كان خطيئتي الكبرى يا غونولف . . . وأنا كنت غير مخلصة أيضاً . في كل أيام حياتي كنت أتوق إلى الذهاب في الطريق الصحيح وأن أتبع دروبي المضلّلة أيضاً . . . "

"أتعنين أنها دروب إرلند المضللة ؟" قال الراهب بغموض . "لم يضلّلك

أخي مرة واحدة عن الطريق القديم يا كريستين . أعتقد أنه ضلّلك في كل يوم عشته معه . مثل هذا النسيان قد زرعه فيك حتى لا تتذكري ، حين كنت تفكرين بأفكار أنت نفسك كنت تتضرجين خجلاً منها ، ولم تكوني قادرة على إخفاء أفكار قلبك عن الرب كليّ المعرفة . . . "

حدقت كريستين أمامها .

"لا أعرف الآن يا غونولف إن كنت على حق في هذا . . . لا أعتقد أني نسيت في أي وقت أن الرب يرى ما في قلبي . . . وإن إثمي أكبر لهذا السبب على الأرجح . وعلاوة على ذلك كله ، فإن الأمر ليس كما تظنه ، من أني كنت في حاجة إلى أن أحمرّ خجلاً بسبب استهتاري الشديد وضعفي . . . بل بالأحرى علي الشعور بالخجل من أن أفكاري عن زوجي كانت في أحيان كثيرة مريرة أكثر من سم الأفاعي . ولكن من المحتمل أن الأمور كان لابد أن تصل إلى هذا الحد . . . كنت أنت الذي قال لي ذات مرة إن اللذين يحبّان واحدهما الآخر برغبة شديدة الحرارة يصبحان في النهاية حيتين خبيثتين جداً تعض الواحدة ذيل الأخرى .

"ولكن كان ما يمنحني الراحة والسلوان في تلك السنوات يا غونولف كلما فكرت كيف كان مصير إرلند أن يذهب إلى ملكوت الرب دون أن ينال القربان الأخير ودون مساعدة ، وأن يقع والغضب في قلبه والدم على يديه – وأنه لم يصبح – ما قلته أنت وما أصبحت أنا عليه . لقد حمل في ذهنه الغضب والظلم الذي لحق به ، ولم يكن يحمل في ذهنه شيئاً آخر . . . يا غونولف ، لقد كان شديد الوسامة وبدا عليه السلام حين واريت جسده التراب . . . وآمل أن الرب كلي المعرفة يعرف أن إرلند لم يحمل ضغينة تجاه أي إنسان ولأي سبب كان . . . "

حدق الأخ إليها بعينين مفتوحتين على آخرهما . ثم أومأ برأسه .

بعد برهة سألها الراهب :

"أتعرفين أن آيليف سيركسون هو كاهن ومستشار للراهبات في راين ؟"

"كلا" قالت كريستين وهي تشع سعادة .

"لقد ظننت أنك قد اخترت الدخول إلى هناك لأجل ذلك" ، قال غونولف . وسرعان ما قال إن عليه العودة إلى ديره .

•

كان الجزء الأول من الصلاة قد سبق له وبدأ حين دخلت كريستين إلى الكنيسة . في الصحن ومن حول المذبح كان هناك حشد من الناس ، ولكن أحد حملة الصولجان الذي رأى أنها كانت تحمل طفلة مريضة جداً بين ذراعيها ، دفعها إلى الأمام عبر الزحمة حتى وصلت إلى المقدمة بين الكثير من المقعدين والمرضى الذين هم في أسوأ حال ، وقد تجمعوا في وسط الكنيسة تحت القبة الكبيرة وأمام الكورس .

كانت مئات كثيرة من الأنوار موقدة في الكنيسة . . . وأخذ خدم الكنيسة شموع الحجاج وثبتوها فوق أبراج صغيرة لها شكل الهضاب مزينة بالرماح وضعت على امتداد الصحن والجناحين . ومع تلاشي نور النهار خلف الألواح الزجاجية ذات الألوان المتعددة ، أصبحت الكنيسة أدفأ مع رائحة الشمع المحترق ، وسرعان ما امتلأت أيضاً بالرائحة الحامضة لأسمال المرضى والفقراء .

وحين ارتفع نشيد الكورس تحت السقف المعقود ودوّى الأرغن وصوت النايات والطبول والآلات الوترية ، فهمت كريستين السبب في أن الكنيسة كانت تسمى بالسفينة . . . في ذلك المبنى الحجري الكبير كان كل هؤلاء الناس فوق متن سفينة ، كما كان الغناء أشبه بهدير البحر الذي يحملها . ثم هدأ كل شيء ، كما يحدث حين تهدأ الأمواج ، وارتفع صوت رجل واحد يحمل الموعظة إلى الحشد المستمع .

كانت الوجوه المتزاحمة قد أصبحت أكثر شحوباً وإنهاكاً مع تقدم ليلة

العيد . لم يخرج أحد تقريباً بين الصلوات ، خاصة أولئك الذين كان لديهم أمكنة في وسط الكنيسة . بين أجزاء الصلاة كانوا يغفون أو يصلون . نامت الطفلة طوال الليل تقريباً . . . ومرة أو اثنتين اضطرت كريستين إلى هدهدتها قليلاً أو إلى أن تعطيها الحليب من القارورة الخشبية التي جلبها لها غونولف من الدير .

كان لقاؤها مع شقيق إرلند قد أثار فيها الكثير من المشاعر الغريبة . . . خاصة وأن كل خطوة من الطريق إلى هنا قد أوصلتها أقرب فأقرب إلى ذكرى الرجل الميت . كانت قد فكرت قليلاً فيه في السنوات التي مضت ، إذ كان عملها لأجل أبنائها لا يمنحها سوى القليل من الوقت لتتذكر مصيرها . . . ومع ذلك فإن فكرتها عنه كانت وراءها وقريبة منها ، ولكن لم يكن لديها الوقت الكافي لتلتفت نحوها . والآن بدا لها أنها ترى روحها كما كانت خلال هذه السنوات . لقد عاشت كما يعيش الناس في الضيعة عبر الصيف المليء بالأشغال ، وذلك حين ينتقلون من القاعة الكبرى ليسكنوا في عليلة المخزن . طوال النهار كله كانوا يمرون جيئة وذهاباً بالقاعة الشتوية ، دون التفكير في الذهاب إلى هناك ، رغم أنه لم يكن أمامهم سوى أن يضعوا يدهم فوق المزلاج ودفع الباب . وحين يحدث أخيراً في يوم من الأيام أن تكون لديهم مهمة هناك ، يجدون المنزل وقد أصبح غريباً وكئيباً تقريباً ، وذلك بسبب جو الوحدة والهدوء الذين دخل إليه . . .

وبينما كانت تحدثه ذاك الذي كان آخر شاهد حيّ على التفاعل بين فترة البذار والحصاد في حياتها مع الرجل الميت ، فقد بدا لها أنها قد توصلت إلى أن تنظر إلى حياتها بطريقة جديدة . كما يحدث حين يصعد رجل إلى مرتفع فوق موطنه حيث لم يسبق له أن تسلقه من قبل ، وينظر منه إلى واديه . إنه يعرف كل مزرعة وسياج وكل أجمة وكل أخدود وكل نهر ، ولكنه يبدو وكأنه يرى للمرة الأولى كيف أن هذه الأشياء تقع كلها على وجه الأرض . وهو إذ يرى الأشياء بهذه الطريقة الجديدة ، فقد وجدت فوراً كلمات جرفت بعيداً كل مرارتها ضد

إرلند وكل مخاوفها على روحه ، التي حملها معه موته المفاجئ . لم يسبق لها أن أضمرت نية سيئة تجاه أي شخص . لقد رأت ذلك الآن ، وكان الرب يراه دائماً .

وهكذا توصلت أخيراً إلى حد اعتبار أنها تستطيع أن تنظر إلى حياتها كما من أعلى هضبة إلى واد . والآن كان طريقها يؤدي إلى واد معتم ، ولكن قبل أن تسير في ذلك الطريق فقد منحت الإذن لتفهم أنه ، في وحدة الدير وعلى أبواب الموت ، هناك كان ينتظرها شخص كان يرى على الدوام حياة البشرية كما يرى الناس الأبرشيات من قمة الجبل . لقد رأى الخطيئة والحزن ، الحب والكره ، في قلوب الرجال ، كما يرى المرء الضياع الغنية والأكواخ المتواضعة وحقول القمح الريانة والقفار المهجورة ، كلها محمولة على صدر الريف نفسه . ثم نزل . وطئت قدماه الأراضي المأهولة بالناس ووقف في قصور وفي أكواخ . وقد قام بجمع الأحزان والخطايا الخاصة بالأغنياء والفقراء ورفعها معه فوق صليب . ليس سعادتي واعتزازي بنفسي ، ولكن خطيئتي وحزني ، آه أيها الرب الجميل . . . رفعت نظرها إلى حيث كان الصليب مرفوعاً فوق قوس النصر .

. . . وبينما كانت شمس الصباح تنير الألواح الزجاجية الملونة العالية بين أعمدة الكورس ، وكان هناك تألق للجواهر الحمراء والبنية والخضراء والزرقاء والتي كانت تبهت النور من الشموع فوق المذبح ومن الضريح الذهبي إلى الخلف ، أصغت كريستين إلى آخر صلاة . . . صلاة الصباح . كانت تعرف أن الدروس في هذه الصلاة تحكي عن معجزات شفاء ربانية عبر القدرة الممنوحة لهذا الفارس المؤمن الملك أولاف هالدورسون . رفعت الطفلة الغريبة المريضة نحو الكورس ، وصلّت من أجلها .

ولكنها كانت بردانة جداً من صلاتها الطويلة في جو الكنيسة القارس حتى اصطكت أسنانها . وقد أحست بالضعف من الصيام . كانت رائحة ذلك العدد الكبير من الناس والأبخرة المغثية للمرضى والشحاذين المختلطة مع دخان الشموع والتي تحولت كلها إلى غيمة ثقيلة دهنية لزجة فوق الناس الراكعين فوق الأرضية

الحجرية الذين يشعرون بالبرد في هذا الصباح القارس . ولكن امرأة ريفية بدينة ولطيفة ومرحة كانت قد جلست وقد غلبها النعاس قليلاً عند أسفل عمود وراءهما مباشرة ، وقد وضعت تحتها جلد دب وآخر فوق ساقيها العرجاوين ، استيقظت الآن ووضعت رأس كريستين المنهك فوق حضنها العريض : "ارتاحي قليلاً يا أختاه . . . أنت في حاجة إلى الراحة كما أعتقد . . . "

نامت كريستين في حضن المرأة الغريبة وحلمت :

خطت فوق عتبة غرفة الموقد القديمة في البيت . كانت شابة وعازبة ، فقد رأت ضفائرها البنية السميكة دون غطاء وقد تدلت من فوق كتفيها . كانت في صحبة إرلند فقد كان قد طأطأ رأسه بعد الدخول من الباب قبلها .

عند الموقد كان أبوها جالساً وهو يثبت رؤوس السهام فوق قصباتها . . . كان حضنه مليئاً بحزمات من الأوتار وعلى كل جانب منه على المقعد أكوام من رؤوس الأسهم والقصبات المسنونة . وما أن دخلا ، حتى انحنى فوق الحجرات وتناول الفنجان المعدني ذا السيقان الثلاث الذي كان يستخدمه دائماً لإذابة الراتنج فيه . ولكنه أعاد يده بسرعة وهزها في الهواء ، ثم أقحم رؤوس أصابعه التي احترقت في فمه ومصّها ، بينما التفت برأسه نحوها ونحو إرلند ، ونظر إليهما بجبين متغضن وابتسامة على شفتيه .

ثم استيقظت وقد تبلّل وجهها بالدموع .

ركعت خلال القداس السامي حين أقام كبير الأساقفة نفسه الشعائر أمام المذبح العالي . كانت غيوم من البخور تتدحرج عبر الكنيسة المدوية ، حيث كان نور الشمس ذو الألوان المتعددة يختلط بنور الشموع الموقدة . كانت الرائحة النضرة المعطرة للبخور قد انتشرت حتى الخارج وغلبت على رائحة الفقر والمرض . وبقلب بدا وكأنه يتفجر من الشفقة على حشد المرضى والمعوزين الذين وضعها الله بينهم ، صلت في اندفاعة من الحنان الأخوي لكل أولئك الفقراء كما هي ،

والذين عانوا كما عانت هي نفسها . . .

. . . "سوف أنهض وأذهب إلى أبي . . . "

- ٦ -

كان الدير مبنياً على أرض مرتفعة قرب الزقاق البحري ، لذلك كان دوران الموج فوق الشاطئ - مع معظم الرياح - يغرق أنين غابات الصنوبر التي تغطي الجزء الأكبر من منحدرات الجبل ، شمالاً وغرباً ، وتخفي البحر عن الأنظار .

كانت كريستين قد شاهدت برج الكنيسة فوق الأشجار حين أبحرت إلى القرب منها مع إرلند ، ولكن الحج إلى دير الراهبات الذي أسسه جده ، والذي كان إرلند يقول أحياناً إن عليهم القيام به ، لم يحصل . لم يكن قد سبق لها الرسو عند دير راين قبل أن تجعله مكاناً لسكناها .

كانت تظن أن الحياة هنا ستكون مثل تلك التي عرفتها في الأديرة في أوسلو أو في باكه ، ولكن كان الأمر مختلفاً عما هو هناك ، وكان أكثر هدوءاً بكثير . هنا كانت الأخوات منعزلات تماماً عن الدنيا . وكانت الليدي رانغهليد رئيسة الدير تتفاخر بأنه مضت خمس سنوات منذ أن نزلت إلى بلدة السوق ، ومنذ ذلك الحين لم تخط أي من راهباتها خارج حدود الدير .

لم يكن هناك أي أطفال مطلوب تغذيتهم ، وفي الحين الذي وصلت فيه كريستين إلى راين ، لم يكن فيه مبتدئات أيضاً . لقد مرّ وقت طويل منذ أن جاءت فتاة شابة إلى الدير للانضمام إلى سلك الراهبات ، ولقد مرّت ستة

شتاءات منذ انضمام آخر أخت واسمها الأخت بورغهيلد مارسيلينا وارتدت الحجاب . كانت أصغرهن سناً الأخت توريد ، ولكنها كانت قد أرسلت إلى هناك في سن السابعة من قبل جدها لأبيها الذي كان كاهناً في كنيسة كلمنت ، وهو رجل صارم ومتحمس جداً ، وكان للطفلة منذ ولادتها يد ذاوية ، كما كانت تعاني من الشلل نوعاً ما ، لذلك فقد ارتدت الرداء حين وصلت السن المحددة لذلك . والآن كانت هي في الثلاثين من العمر ، إلاّ أنها ضعيفة البنية إلى حدّ يثير الحزن ، وإن كان لها وجه جميل . ومنذ اليوم الأول الذي وصلت فيه إلى الدير وجدت كريستين متعة كبيرة في خدمتها ، فقد كانت الأخت توريد تذكرها بأختها الصغيرة أولفهيلد التي ماتت في سن مبكرة .

لقد قال سيرا آيليف إن انتماء المرء إلى أسرة وضيعة لا يجب أن يقف في طريق أي فتيات ينوين القدوم إلى هنا لخدمة الرب . ورغم ذلك ، فقد حدث منذ أن بني الدير أنه لم تدخله سوى بنات أو أرامل الرجال الكبار من محتد نبيل من منطقة تروندهايم إلا في حالات قليلة . ولكن حدث خلال الأيام الرديئة والمضطربة التي عرفتها المملكة منذ وفاة الملك هاكون هاليغ طيب الذكر ، أن الورع بدأ وكأنه يتناقص إلى حد كبير بين كبار النبلاء . . . وقد أصبحت بنات سكان المدن والمزارعين الأغنياء على الأغلب هن من يلتفتن بأفكارهن إلى حياة الدير . وقد كن يلجأن إلى "باكه" حيث غذيت الكثيرات منهن على الورع والمهن اليدوية النسائية ، وحيث الأخوات على الأغلب من العامة . وهناك أيضاً كانت القاعدة عدم الصرامة ، ولم يكن الدير بعيداً جداً عن الطريق العام .

وعلى أي حال ، لم يكن قد أتيح لكريستين أن تكلم سيرا آيليف كثيراً ، وسرعان ما لاحظت أن واجبات الكاهن ومكانته في الدير كانت مرهقة وحساسة . ورغم أن "راين" كان ديراً غنياً ولم يكن عدد الراهبات يصل إلى نصف العدد الذي تستطيع المؤسسة أن تغذيه ، ومع ذلك كانت شؤونه المالية في

حالة من الفوضى الكبيرة ، وكان من الصعب عليه أن يلبي النفقات . وكانت آخر ثلاث رئيسات للدير أكثر ورعاً من الالتفات إلى أمور الدنيا ، ومع ذلك فقد حاربن هن وديرهن بكل ما فيهن من طاقة ليتحررن من طاعة كبير الأساقفة . . . وقد تمادين في ذلك إلى حد أنهن لم يقبلن حتى النصيحة التي تقدم بنيّة أبوية صادقة . وكان الرهبان من هذه الأخوية نفسها القادمون من تاوترا ومونكابو ، والذين اختيروا ليكونوا كهنة لكنيسة الدير ، من الرجال العجائز دائماً ، حتى لا يتاح المجال أمام الكلام الشرير ؛ ولكن توجيههم لأمور الدير الدنيوية لم يكن شديد المهارة . وحين بنى الملك سكوله الكنيسة الحجرية الجميلة ومنح ضيعته الإرثية إلى الدير ، بنيت المباني من الخشب في البداية ، ولكنها احترقت قبل ثلاثين شتاء . وقد بدأت الليدي أودهيلد التي كانت رئيسة الدير آنذاك ببنائها من جديد من الحجر . وقد بذل الكثير في عهدها لتحسين الكنيسة ، وقد بنيت قاعة الدير الجميلة آنذاك . كما كانت قد سافرت أيضاً إلى المقر الأم للأخوية في "تار" (٧) في بورغوندي ، وقد جلبت من تلك الرحلة البرج العاجي الرائع الذي كان منتصباً في الكورس قرب المذبح العالي . . . وهو مأوى ملائم لجسد الرب ، وأعظم زينة من زينات الكنيسة وفخر الراهبات وكنزهن الغالي . وقد خلفت الليدي أودهيلد وراءها أطهر سمعة من حيث الورع والقيمة ، ولكن إدارتها غير الماهرة لأعمال البناء ، وتصرفاتها غير الحكيمة بأراضي الدير قد انتهت إلى تخريب لمصالح الدير ولم تكن للرئيسات اللاحقات يتحلين بالمهارة لإصلاح الخراب .

لم تعرف كريستين قط كيف أن سيرا آيليف قد أرسل إلى هناك ككاهن ومستشار ، ولكنها فهمت أنه من البداية استقبلته الرئيسة والراهبات كشخص غير إكليركي وذلك بالكراهية وعدم الثقة . وهكذا كانت مهمة سيرا آيليف في راين أن يكون كاهناً للراهبات والمرشد الروحي لهن ، وأن يعيد إدارة ممتلكات الدير بحيث يقف على قدميه مجدداً ، وأن يعيد النظام إلى شؤون الدير المالية ، بينما

أذعن لرئاسة الرئيسة وحق الراهبات في الإدارة الذاتية وحق رئيس دير تاوترا في الإشراف على كل شيء ، وكذلك الحفاظ على الصداقة مع الكاهن الآخر للكنيسة ، وهو راهب من تاوترا . كانت سنّه وسمعته الطاهرة التي لا تشوبها شائبة وورعه ومهارته في القانون الشرعي وقانون البلاد ، قد وضعته في مكانة طيبة ، ولكن كان عليه أن يتوخى الحذر في كل ما يفعل . كان يسكن مع الكاهن الآخر وخدم الكنيسة في منزل صغير يقع إلى شمال شرق الدير . وكان يسكن هناك أيضاً الرهبان القادمون من تاوترا في المناسبات العديدة . وقد عرفت كريستين أنها لو عاشت بما فيه الكفاية فإنه سيحدث في وقت ما بعد أن يرسم نيكولاوس كاهناً ، أن تسمع ابنها البكر وهو يتلو القداس في كنيسة الدير .

●

في البداية استقبلت كريستين لافرانسداتر كواحدة من العامة (انظر الهامش رقم (٣١) من الجزء الأول من هذه الرواية "إكليل العروس") . ولكن بعد أن أقسمت يمين الطهارة والطاعة أمام رئيسة الدير والأخوية ، أمام الليدي راغنهيلد والراهبات ، في حضور سيرا آيليف وراهبين من تاوترا ، وكدليل على أنها تخلت عن كل حقوقها في الأملاك الدنيوية ، فقد وضعت ختمها بين يدي سيرا آيليف ليكسّره ، وقد أذن لها أن ترتدي رداء أشبه بما ترتديه الراهبات عدا الوشاح الكتفي . كان الرداء صوفياً أبيض اللون مع غطاء رأس كتاني أبيض وحجاب أسود . وكانت النية معقودة على أنه بعد مرور بعض الوقت ، فسوف تطلب أن تقبل في الأخوية كراهبة منذورة .

ولكن كان لا يزال صعباً عليها ألا تفكر كثيراً فيما حدث سابقاً . ولأجل التلاوة بصوت مرتفع خلال وجبات الطعام في حجرة الطعام ، كان سيرا آيليف قد كتب باللغة النرويجية كتاباً حول حياة المسيح ألفه الرئيس العام لرهبنة المينوريت ، بونافنتورا العالم العلامة واللاهوتي الورع . وبينما راحت كريستين تصغي إلى

ذلك وقد امتلأت عيناها بالدموع وهي تفكر كم كانوا مباركين أولئك الذين استطاعوا حب المسيح وأمه والآلام والمعاناة والفقر والضعة ، وذلك على النحو الذي كان مكتوباً في الكتاب . . . ومع ذلك وخلال الوقت كله لم تستطع سوى أن تتذكر ذلك اليوم في هوسابي حين أراها غونولف وسيرا آيليف الكتاب اللاتيني الذي أخذ منه هذا . كان كتاباً صغيراً سميكاً ، كتب على ورقّ رقيق جداً وأبيض لامع حتى أنها لم تصدق أبداً أن جلد العجل يمكن أن يكون مرهفاً إلى هذا الحد . وكانت هنا أجمل الصور وأحرف كبيرة فيه ، أما الألوان فراحت تشع كالجواهر أمام الذهب . وبينما راحت تتفرج ، تحدث غونولف ضاحكاً ، ووافق السيرا آيليف بابتسامته الهادئة . . . كيف أن شراء هذا الكتاب قد جردهم من كل فلس يمتلكونه ، حتى اضطروا إلى بيع ملابسهم للحصول على اللحم مع المتسولين في الدير ، حتى عرفوا أن بعض رجال الكنيسة النرويجيين قد وصلوا إلى باريس فاستدانوا منهم .

وحين يحدث بعد صلاة الصباح أن تعود الأخوات إلى المهجع ، تتلكأ كريستين في الكنيسة . في أيام الصباح الصيفية كان أمراً عذباً وممتعاً لها هناك . . . ولكن في الشتاء كان البرد قارساً ، وكان تخشى المكوث في العتمة مع كل تلك الشواهد الحجرية للقبور ، حتى ولو أبقت عينيها مثبتتين على المصباح الصغير الذي كان موقداً على الدوام أمام البرج العاجي وفيه خبز القربان . ولكن سواء كان الفصل شتاء أو صيفاً ، وبينما كانت تتلكأ في زاويتها في كورس الراهبات ، كانت تفكر كيف أن ناكفه وبيورغولف كانا يراقبان الآن ويصليان لأجل روح أبيهما . وأن نيكولاوس هو الذي توسل إليها أن تنضمّ إليهما في هذه الصلوات والترانيم المتعلقة بالتوبة كل صباح بعد صلاة الصباح .

لقد رأت أمامها دائماً هذين الاثنين كما كانت قد رأتهما في ذلك اليوم الرمادي الماطر وهي خارجة إلى دير الرهبان : حين كان نيكولاوس واقفاً أمامها في

البهو فجأة ، طويلاً وغريباً على نحو رائع في رداء الرهبان الرمادي الأبيض ، ويداه تحت الوشاح الكتفي ، ابنها ، ومع ذلك فقد تغير كثيراً . كان شبهه بأبيه هو الذي أثارها على الأغلب إلى ذلك الحد . . . كأنها شاهدت إرلند في رداء الرهبان .

وبينما جلسا وهما يتبادلان الحديث ، وجعلها تحكي له عن كل ما جرى في الضيعة منذ أن غادر البيت ، كانت تنتظر وتنتظر . وأخيراً سألته بخوف إن لم يكن بيورغولف قادماً بسرعة .

"لا أعرف يا أمي" ، أجاب ابنها . وبعد برهة قال : "فيما يخص بيورغولف فقد كان ذاك نضالاً صعباً لجعله ينحني تحت الصليب ويخدم الرب . . . وبدا أنه أمر يخيفه حين يسمع أنك ستكونين هنا . . . لئلا تخطر الكثير من الأفكار مجدداً . . . "

بعد ذلك جلست وهي حزينة إلى حد الموت تحدق إلى نيكولاوس وهو يتكلم . كانت الشمس قد سفعته كثيراً في الوجه ، وكانت يداه منهكتين من الشغل الشاق . . . قال بابتسامة صغيرة إنه اضطر الآن إلى أن يتعلم كيف يفلح بمحراث ويعمل بالمنجل والمحشّ . في تلك الليلة لم تستطع النوم وهي في النزل ، وقد أسرعت إلى الكنيسة حين قرع الجرس لأجل صلاة الصباح . ولكن الرهبان كانوا واقفين على نحو يجعل قلة منهم بوجوه تستطيع مشاهدتها ، ولم يكن ابناها بين هؤلاء .

ولكن في اليوم التالي سارت في الحديقة مع أخ خادم يعمل فيها ، وقد أراها الكثير من النباتات والأشجار النادرة التي اشتهرت بها . وخلال سيرهم انقشعت الغيوم وبرزت الشمس ، ومع رائحة الكرفس والبصل والصعتر ، وأكوام الليلك الأصفر وزهرة الحوض التي كانت تزين زوايا الأحواض التي كانت تلتمع من حبات المطر الكبيرة . ثم وصل ابناها . تقدما كلاهما من الباب الصغير المقوس للمنزل الحجري . واعتبرت كريستين أنها قد سبق لها وذاقت متعة الفردوس حين

رأت الأخوين الطويلين في ثياب ذات لون فاتح يتقدمان نحوها على الممر تحت أشجار التفاح .

ومع ذلك لم يتحدثوا كثيراً معاً . كان بيورغولف صامتاً طوال الوقت تقريباً . لقد أصبح مارداً في الشكل ، فقد كان نموه قد اكتمل الآن . وقد بدا وكأنه خلال الوقت الطويل الذي افترقوا فيه أصبح بصرها أشد حدة . . . والآن للمرة الأولى ، فهمت تماماً المعركة التي خاضها ولداها ، والتي كان لا يزال يخوضها ، وهو يتضخم في الشكل وتتقوى أعضاؤه ، بينما بصيرته الداخلية قد ازدادت حدة وراح يحس أن بصره آخذ بالتراجع . . .

سألها مرة عن أمه بالتبني ، فريدا ستيركاسداتر ، فحكت له كريستين أنها تزوجت .

قال الراهب : "فليباركها الرب . كانت امرأة طيبة . . . كانت أماً طيبة ومخلصة لي ."

"أجل ، أعتقد أنها كانت أماً لك أكثر مّا كنت أنا" ، قالت كريستين بحزن . "لاشك أنك لم تعرف سوى القليل من قلب الأم لديّ ، حين كنت متعباً جداً في يفاعتك" .

أجاب بيورغولف بصوت خفيض :

"أشكر الرب على أي حال أن العدو لم يستطع أن يجعلني أنحدر إلى ذلك الدرك الذي يجعلني أمتحن قلب الأم لديك . . . رغم أني شعرت بذلك حقاً . . . ولكن رأيت أنك كنت تحملين عبئاً ثقيلاً . . . وبعد الرب كان نيكولاوس هو الذي أنقذني ، في تلك المرات التي كنت فيها على وشك أن أقع فريسة للشيطان . . . "

لم يذكر المزيد من هذا ، ولا عن مسألة ما إذا كانا سعيدين في الدير ، ولا عما يقال عن ارتكابهما الأخطاء وأنهما جلبا العار على نفسيهما . ولكن بدا أنهما أحسا بالسعادة حين عرفا أن غرض أمهما كان أن تصبح راهبة في دير راين .

●

حين جرى بعد ساعة من الصلاة أن عادت كريستين إلى المهجع ورأت الأخوات نائمات كل اثنتين معاً على أكياس من القش في الأسرة ، وهن يرتدين الأردية التي لا يخلعنها قط ، فقد فكرت في مدى عدم تشابهها مع هؤلاء النسوة ، اللواتي لم يعملن منذ يفاعتهن إلا في خدمة خالقهن . كان العالم سيداً يصعب الهروب منه حين يكون المرء قد استسلم لهيمنته . أجل ، وفي الحقيقة فإنها لم تهرب من العالم . . . لقد نبذت منه كما ينبذ السيد القاسي خادماً عجوزاً خارج بابه . . . والآن هاهي قد قُبلت هنا ، كما يقبل السيد الرحيم خادمة عجوزاً ويمنحها برحمته بعض الأعمال الصغيرة ، بينما يؤوي ويطعم المخلوقة العجوز المنهكة الوحيدة . . .

من مبنى نوم الراهبات كان هناك درب مغطى يؤدي إلى مبنى الحياكة . هناك جلست كريستين وحيدة الآن وراحت تغزل . كانت راهبات راين شهيرات بأقمشتهن الكتانية ، وفي تلك الأيام من الصيف والخريف حين تمضي كل الأخوات والأخوات الخادمات إلى حقول الكتان ، فقد كانت تلك أشبه بأيام العيد في الدير . ولكن كان معظم النهار يُقضى في قطف النباتات . كانت الراهبات مشغولات في ساعات عملهن بتجهيز الكتان وغزل الخيطان وحياكة القماش وصنع الأثواب منه . وهنا لم يكن هناك من ينسخ الكتب أو يزينها ، كما كانت تفعل الراهبات في أوسلو تحت إشراف الليدي غروا غوتورمسداتر وبمهارة كبيرة ، ولا كنّ يمارسن مهنة التطريز بالحرير والخيط الذهبي .

خلال فترة ستسمع بفرح أصوات استيقاظ باحة المزرعة . ذهبت الأخوات الخادمات إلى المطبخ لتجهيز الطعام للخدم . لم يكن من عادة الراهبات أن يلمسن الشراب أو اللحم إلا بعد القداس اليومي ، باستثناء حالة المرض . وحين يقرع الجرس لصلاة الفجر ، كانت كريستين تذهب إلى جناح المرضى ، إن كان هناك

من ينزل فيه ، وذلك لتحل محل الأخت أغاتا أو الراهبة التي تكون هناك . كانت الأخت توريد المسكينة تنزل هناك غالباً .

وسرعان ما ستبدأ بالتطلع إلى وجبة الصباح التي تلي الساعة الثالثة من الصلاة والقداس لخدم الدير . وفي كل يوم كانت كريستين تستمتع بهذه الوجبة الجيدة الهادئة . كانت حجرة الطعام مبنية من الخشب ، ولكنها قاعة جميلة على أي حال ، وهناك كانت كل النساء في الدير تأكلن معاً . . . الراهبات على المائدة العليا حيث تجلس رئيسة الدير في الكرسي العالي ، وحيث كان للسيدات العجائز الثلاث من غير الراهبات وهي واحدة منهن مقاعد للجلوس . . . ثم الخادمات إلى الأسفل . وحين تنتهي الصلوات ، كان اللحم والشراب يحمل إلى الداخل ويجلس الجميع ليأكل ويشرب في صمت بسلوك هادئ رفيع ، بينما تقرأ واحدة من الراهبات على الأغلب من كتاب ، وتظن كريستين أنه لو أتيح للناس في الخارج تناول وجباتهم على هذا النحو الجيد ، فقد يميزون أن الطعام والشراب هديتان من الرب ، وسوف لا يحرمون أخوتهم في المسيحية من هاتين الهديتين ، وسوف يفكرون أقل في التشاجر معاً لصالحهم ولصالح أولادهم . ولكنها هي نفسها كانت تحس بشيء مختلف ، حين كانت تحضر مائدتها لقطيع من الرجال المشاغبين بين الضحك والصخب ، بينما الكلاب تتشمّم تحت المائدة أو تدفع بأنوفها وتحصل على عظمة أو ضربة ، حسب مزاج الصبية .

●

كان المسافرون نادراً ما يأتون إلى هنا . أحياناً كانت تتوقف سفينة من مراكز النبلاء في أنحاء العالم وهي مبحرة نزولاً أو صعوداً في الزقاق البحري ، ويصعد رجال وزوجاتهم مع الأطفال والشبان إلى راين ليحيّوا قريبة لهم بين الراهبات . ثم يأتي الوكلاء من مزارع الدير ومسامكه ، ورسول من تاوترا بين الحين والآخر . في مواسم الأعياد التي يُحتفى بها كثيراً : أيام قداس مريم العذراء وعيد القربان ويوم

القديس أندرو الرسول . . . كانت الناس تأتي إلى كنيسة الراهبات من الأبرشيات من كلا جانبي الزقاق البحري ، ولكن خلاف ذلك كان لا يحضر القداديس سوى الفلاحين المستأجرين لأراضي الدير والعمال الذي يقطنون قريباً جداً من الدير . وكانوا لا يحتلون سوى حيّز صغير من الكنيسة الكبيرة .

ثم كان هناك الفقراء . . . المتسولون الذين لهم حصتهم من الجعة واللحم في أوقات محددة بوصايا من أشخاص أغنياء لقاء قداسات سنوية عن أرواح المانحين . . . والذين كانوا يأتون إلى راين يومياً تقريباً ، ويجلسون قرب جدار المطبخ ويأكلون . وحين تخرج الراهبات إلى الباحة كانوا يروون لهن عن أحزانهم ومشاكلهم . مرضى ومقعدون ومجذومون يتجولون داخلين وخارجين . . . كان هناك كثيرون هنا يعانون من الجذام ، ولكن كان الحال هكذا دائماً في الأبرشيات البحرية كما قالت الليدي راغنهيلد . كان الفلاحون المستأجرون يأتون ليطالبوا بتخفيض الإيجارات أو منحهم مهلاً زمنية قبل تسديد الإيجارات ، وكان لدى هؤلاء الكثير ليرووه عن المصاعب والمحن . وكلما زاد بؤس وتعاسة هؤلاء الناس كلما كانوا أشد انفتاحاً وجرأة في إبلاغ الراهبات عن أحوالهن ، رغم أنهم كانوا يضعون اللوم دائماً على الآخرين في مصائبهم ، وكانت شفاههم تنطق دائماً بكلمات ورعة . لم يكن غريباً أن حديث الراهبات في فترة الراحة وفي مبنى الحياكة كان يدور كثيراً حول حيوات هؤلاء الناس . . . أجل فالأخت توريد قالت لكريستين إنه حين تجتمع الراهبات في الدير للتشاور معاً حول الصفقات وما شابه ، كان الحديث يجول ويعود إلى الثرثرة حول الناس الذين كانوا منخرطين في القضايا الآنية . لاحظت كريستين ، ممّا قالته الراهبات ، أنهن كن يعرفن القليل عما كن يتحدثن عنه ، باستثناء ما كن يسمعنه من الناس أنفسهم أو من الخدم الذي كانوا في الخارج في الأبرشية . كم يصدقن بسهولة ، سواء كانت الخادمات يمدحنهن أو يتحدثن بالسوء عن جيرانهن . . . وهي فكرت بغضب بكل الأوقات

التي سمعت فيها أشخاصاً ملحدين من العامة ، أجل ، أجل وحتى راهباً متسولاً مثل الأخ آرنغريم ، يسمون أديرة الراهبات بأوكار الفضيحة ، ثم يتهمون الراهبات بأنهن يبتلعن الإشاعات المضللة والثرثرة البذيئة . . . وكان الأشخاص أنفسهم الذين يأتون إلى هنا ويسمعون الليدي راغنهيلد أو أياً من الأخوات اللواتي يستطعن التحدث إليهن ، كلاماً لا طائل منه ، هم أول من يلوم الراهبات لأنهن يثرثرن فيما بينهن حول الأنباء التي وصلتهن من العالم الذي تخلين عنه . لقد بدا لها أن الأمر هو نفسه فيما يخص حديث الحياة الفخمة لسيدات الدير . . . وقد جاء الكلام من أفواه أشخاص كانوا قد تناولوا وجبة الصباح والفطور من أيدي الراهبات ، بينما كانت خادمات الرب أولئك يراقبن ويصلين ويعملن وهن صائمات ، قبل أن يجتمعن جميعاً لأجل أول وجبة طعام في حجرة الطعام .

وهكذا راحت كريستين تخدم الراهبات بتوقير ملؤه الحب خلال ذلك الوقت الذي يجب أن يمر قبل أن يحين وقت النذور . ما كان يمكنها أن تصبح راهبة جيدة ، كما فكرت . لقد بددت في الخارج الكثير من الموهبة التي قد تتمتع بها في التأمل والورع . . . ولكنها ستكون شديدة الوضاعة والإخلاص بقدر ما يسمح لها الله به . كان الفصل الآن في أواخر الصيف من عام (١٣٤٩) . لقد مر عامان على إقامتها في دير راين ، وقبل موسم عيد الميلاد كانت ستصبح راهبة . وقد وصلتها أنباء سعيدة تفيد أن ابنيها كليهما سيحضران مراسم تكريسها مع موكب رئيس الدير يوهانس . لقد قال الأخ بيورغولف حين سمع بنيّة أمه :

"والآن سيتحقق حلمي . . . لقد حلمت مرتين هذا العام أنه قبل عيد الميلاد سنراها كلانا . . . رغم أنه لا يمكن للأمر أن يكون كذلك بالكامل ، ففي حلمي رأيتها ."

كما فرح الأخ نيكولاوس فرحاً كبيراً . ولكن في الوقت نفسه سمعت أنباء أخرى عنه لم تكن طيبة جداً . لقد أساء معاملة بعض المزارعين هناك في الزقاق

البحري قرب ستاينكر . . . وكانوا على خلاف مع الدير حول بعض حقوق صيد السمك ، وحين وصل إليهم الرهبان ذات ليلة وهم يحطمون سياج قضبان الدير لصيد سمك السلمون ، فإن الأخ نيكولاوس ضرب أحدهم حتى آذاه جدياً ورمى بآخر في النهر وبذلك فقد أثم إثماً كبيراً إذ أنه قام باللعن والقذف أيضاً .

-٧-

بعـد أيام قليلة ذهبت كـريسـتين إلى غـابات الصنوبر مع بعض الراهبـات والأخوات الخادمات ، لجمع الطحالب للصباغ الأخضر . هذا النوع من الطحلب صعب على الجمع ، فهو ينمو في أغلبه فوق الأشجار التي أسقطتها الرياح والأغصان اليابسة . لذلك سرعان ما انتشرت النساء عبر الغابات ثم لم تعد الواحدة ترى الأخرى في الضباب .

استمر هذا الطقس غير المعتاد بضعة أيام . . . دون رياح ، مع ضباب كثيف يبدو بلون أزرق رصاصي غريب فوق البحر ويمتد بعيداً نحو الجبال ، فيرق أحياناً إلى حد كبير حتى أن العين كانت ترى المنطقة المحيطة . بين الحين والآخر كان يتكثف فيهطل رذاذاً ثم يخف كثيراً حتى تظهر بقعة بيضاء حيث كانت الشمس معلقة في الضباب العالي . ولكن كان هناك دفء غريب ثقيل ، كأنه دفء حمام ، وهذا أمر غير معتاد هنا عند الزقاق البحري ، وخاصة في هذا الوقت من العام . . . لقد بقي يومان على عيد مولد العذراء (٨ أيلول / سبتمبر) . . . لذلك راح الناس يتحدثون عن الطقس ويتعجبون متسائلين عمّا يرمز إليه .

كانت كريستين تتعرق في ذلك الحر الرطب الخالي من الحياة ، وكان تفكيرها في ذلك النبأ الذي سمعته عن ناكفه قد أثقل على صدرها . لقد نزلت

إلى أطراف الغابة إلى السياج الخشبي قرب الممر المؤدي إلى البحر ، وبينما كانت واقفة هناك وهي تكشط الطحلب عن الحاجز ، وصل سيرا آيليف راكباً حصانه نحو الدير عبر الضباب . أوقف حصانه وقال بضع كلمات حول الطقس ، وهكذا بدأا يتحدثان . ثم سألت الكاهن إن كان يعرف شيئاً عن قضية ناكفه تلك . . . رغم أنها كانت تعرف أن ذلك لن يفيدها ، فقد كان سيرا آيليف يتظاهر دائماً أنه لا يعرف الشؤون الداخلية لدير تاوترا .

قال الكاهن : "أعتقد يا كريستين أنه ليس عليك أن تخشي من أن هذا سيعيق قدومه إلى هنا في الشتاء ، أعني هذا الأمر سيئ الحظ . لقد كنت تخشين من هذا ، أليس كذلك ؟"

"الأمر أكثر من هذا يا سيرا آيليف . أخشى أن ناكفه ليس ملائماً ليصبح كاهناً ."

"أتظنين أنك تجرؤين على الحكم على مثل هذه الأمور ؟" سأل الكاهن وهو يعقد حاجبيه . ترجل عن حصانه وربطه إلى الحاجز ، ثم انحنى فوق الحاجز وهو يحدق بثبات وبإمعان إلى المرأة . قالت كريستين :

"أخشى أنه صعب على ناكفه الانحناء أمام قانون الأخوية . . . وكان هو شاباً صغيراً حين انسحب من العالم ، ولم يكن يدري ما فاته ، ولم يكن يعرف ماذا في فكره . كل ما جرى في أيام صغره . . . فقدان إرث أبيه ، ومشاهدته للخلاف بين أبيه وأمه ، والذي انتهى بموت أبيه . . . كل هذا اعتمل في نفسه حتى فقد كل الرغبة في الحياة في هذا العالم . ولكني لم أستطع أن ألاحظ قط أن ذلك جعله ورعاً . . . "

"ألم تستطيعي ذلك ؟ . . . ربما كان صعباً على نيكولاوس ، كما هو حال كثير من الرهبان الصالحين الآخرين ، أن ينحني أمام قوانين الأخوية . إنه حاد المزاج ولا يزال شاباً . . . ربما أصغر من أن يفهم ، قبل أن يدير ظهره للعالم ، أن

العالم معلمّ حرفة قاس بقدر ما هو أي سيد آخر ، وفي النهاية فهو حاكم مستبد دون رحمة . وتستطيعين أنت الحكم على ذلك يا أختي كما أعرف . . .

"وإذا حدث أن ناكفه قد دخل الدير لأجل خاطر أخيه أكثر مما هو حباً لخالقه . . . فمع ذلك لا أعتقد أن الرب لن يكافئه على أنه حمل الصليب لأجل خاطر أخيه . إن أم الرب مريم التي أعرف أن ناكفه يبجلّها ويحبها منذ طفولته ، ستريه دون شك وبوضوح ، يوماً ما ، أن ابنها قد جاء إلى هنا ، إلى هذا البيت الدنيوي ليكون له أخاً ويحمل الصليب لأجله . . .

"كلا . . . " حمحم الحصان وقد وضع أنفه على صدر الكاهن . ربت عليه ، بينما قال وكأنما يخاطب نفسه أيضاً : "منذ طفولته وصاعداً تمتع ناكفه بموهبة رائعة ، موهبة الحب والمعاناة . . . أعتقد أنه سيكون ملائماً جداً كراهب .

"ولكن أنت يا كريستين" ، قال وهو يلتفت إلى المرأة ، "أنت التي رأيت الكثير حتى الآن ، على ما أعتقد ، بحيث تثقين بالرب كلي القدرة بثقة أعمق . ألم تفهمي أنه يتحمل كل روح طالما كانت الروح لا تتخلى عنه ؟ أتظنين يا امرأة وأنت لا تزالين طفلة في كهولتك أن الرب يعاقب الخطيئة حين يكون عليك أن تحصدي الحزن والإذلال لأنك تتبعت شهواتك واعتزازك بنفسك فوق دروب حرّم الله على أولاده أن يسيروا فيها ؟ أتقولين إنك قد عاقبت أولادك لو أنهم أحرقوا أيديهم وهم يرفعون الإبريق الذي يغلي والذي منعتهم من لمسه ، أو إن كان الجليد الزلق قد تكسّر تحت أقدامهم بعد أن حذرتهم من السير فوقه ؟ ألم تفهمي حين انكسر الجليد الهش تحت قدميك . . . أنك قد هبطت إلى الأسفل في كل مرة تركت فيها يد الرب وأنك أنقذت من الهوة العميقة في كل مرة ناجيته فيها ؟ ألم يكن الحب الذي ربطك بأبيك حتى حينَ تحديته . وتحديت إرادته بعنادك ، ألم يكن سلواناً وتعزية لك على أي حال حين اضطررت إلى قطف ثمار عصيانك له ؟

"ألم تفهمي بعد يا أختي أن الرب قد ساعدك في كل مرة صليت فيها له ، رغم أنك صليت دون إيمان كامل وبتظاهر وأنه قد ساعدك إلى أبعد مّا صليت لأجله ؟ لقد أحببت الرب كما أحببت أباك ، ليس بالحماسة التي أحببت بها إرادتك الخاصة ، ومع ذلك فقد حزنت كثيراً حين تخليت عنه . . . ولذلك فإن رحمته تجاهك جعلت الخير ينمو بين حصاد الشر الذي كان عليك أن تحصديه من بذور إرادتك العنيدة . . .

"أبناؤك . . . أخذ اثنين منهم إليه وهما لا يزالان طفلين بريئين . ليس عليك أن تخشي عليهما . والآخرون في حال جيدة . . . حتى لو لم يكن مصيرهم كما كنت تريدينه لهم . لاشك أن لافرانس تمنى ما هو مشابه لك . . .

"وزوجك يا كريستين - ليرحم الله روحه - أعتقد أنك لمته في قلبك على الدوام لطيشه وعنفوانه . ومع ذلك يبدو لي أنه أصعب بكثير على امرأة فخورة بنفسها أن تتذكر أن إرلند نيكولاوسون قد قادك معه عبر العار والخداع والخطيئة الدموية ، لو أنك رأيت ولو مرة واحدة أن الرجل لا يستطيع فعل شيء بالتدبير البارد . وأعتقد تقريباً أيضاً أنه بسبب كونك مصرة على الغضب والقسوة كما في الحب ، فقد تمكنت من الحفاظ على إرلند طالما كنتما لاتزالان كلاكما على قيد الحياة . . . بالنسبة إليه كنت أنت كل شيء . فليساعد الرب إرلند . أخشى أنه لم يتمتع قط بالحكمة ليعرف التوبة الحقيقية على خطاياه . . . ومع ذلك فإن زوجك قد تاب حقاً من أفعاله حين أخطأ في حقك . ذلك الدرس ، على ما أثق ، سينفع إرلند بعد أن مات ."

وقفت كريستين هادئة وصامتة . لم يقل سيرا آيليف المزيد . حرر الرسن وقال لها "السلام عليك" ثم ركب حصانه ومضى بعيداً .

•

حين عادت بعد فترة قصيرة إلى الدير قابلتها الأخت إنغريد عند الباب لتقول لها إن أحد أبنائها قد جاء ليراها واسمه سكوله . كان عند مدخل البهو .

كان جالساً يتحدث مع زملائه في السفينة . . . قفز من مكانه حين شاهد أمه تصل إلى الباب ، آه ، عرفت ابنها من رشاقته السريعة . . . الرأس الصغيرة المرفوعة عالياً فوق كتفيه العريضين والشكل الرشيق طويل الأطراف . وبالفرحة تشع منها تقدمت منه . . . ولكنها توقفت فجأة والتقطت أنفاسها حين رأت وجهه . . . أوه ، من الذي فعل هذا بابنها ؟

بدت شفته العليا وكأنها عجنت حتى رقت . . . لاشك أن ضربة قد حطمتها ، وقد نمت لاحقاً لتكون مسطحة وطويلة ومشوهة وعليها شبكة من الندوب البيضاء . لقد جعلت فمه ملوياً وكأنه قد ثبت على ابتسامة ساخرة . . . كما كانت عظمة أنفه مكسورة فأصبح معوجاً . كان يلثغ قليلاً وهو يتكلم . . . فقد خسر سناً أمامية وكانت سن أخرى سوداء زرقاء وميتة .

أحمر وجه سكوله تحت تحديقة أمه : "أعتقد أنك لا تميزينني يا أمي ؟" ضحك قليلاً ومرر إصبعه فوق شفته . . . ولم تكن واثقة من أنه كان يشير إلى ندبته أو إن كانت تلك مجرد حركة عرضية .

"لم نفترق منذ زمن طويل يا بنيّ حتى لا تعود أمك تميزك من جديد" ، أجابت كريستين بهدوء وبابتسامة صافية .

كان سكوله إرلندسون قد وصل قبل يومين على مركب شراعي صغير وحيد الصاري من بيورغفين ، مع رسائل من بيارن إرلينغسون إلى كبير الأساقفة وأمين الخزينة في نيداروس . وفي وقت لاحق من النهار سارت الأم وابنها في الحديقة تحت أشجار الدردار . والآن بعد أن أصبحا لوحدهما ، فقد حكى لأمه أخبار أخوته :

كان لافرانس لا يزال في آيسلاند . . . لم تكن أمه تعرف حتى أنه قد ذهب

إلى هناك ! أجل ، قال سكوله ، فقد قابل أخاه الأصغر في أوسلو في الشتاء قبل اجتماع النبلاء . وكان برفقة يامالات هالفاردسون . ولكنها كانت تعرف أن الصبي كان يتوق إلى السفر خارجاً وشق طريقه في هذا العالم ، وهكذا فقد دخل في خدمة أسقف سكالهولت وأبحر إلى هناك .

أجل ، هو نفسه قد سافر في موكب السير بيارن إلى السويد ، وبعد ذلك إلى الحرب في روسيا . هزت أمه رأسها بلطف . . . لم تكن تعرف أي شيء عن هذا أيضاً ! لقد أحب سكوله الحياة ، كما قال ضاحكاً . . . فقد منحته الفرصة لتحية الأصدقاء القدامى الذين تحدث أبوه عنهم كثيراً : الكارليين والإنغريين والروس . كلا ، ندبة الشرف تلك لم يكسبها في الحرب . . . ضحك قليلاً . . . أجل ، حدث ذلك في مبارزة . والشخص الذي سببّها له لم يعد في حاجة قط إلى أن يبحث عن رزقه . ولم يكن سكوله ينوي أن يحكي المزيد عن هذا الموضوع أو عن الحرب ، والآن كان هو كابتن فرسان لدى السير بيارن في بيورغفين ، وقد وعد الفارس في أن يعيد إليه بعض الضياع التي كان أبوها يمتلكها في أوركلادال ، وهي الآن تحت إشراف التاج . . . ولكن كريستين لاحظت أن عيني سكوله الواسعتين الرماديتين بلون الفولاذ قد طغت عليهما نظرة غريبة قاتمة وهو يقول هذا .

"أتعتقد أنك لا تستطيع أن تضع ثقة كبيرة في مثل هذا الوعد ؟" سألته أمه .

"كلا ، كلا" ، هزّ سكوله رأسه . "الصكوك يتم تدوينها الآن . وقد حافظ السير بيارن على كل وعوده التي قدمها لي منذ أن بدأت خدمتي عنده . . . إنه يدعوني بالقريب والصديق . لديّ تقريباً في منزله المكانة التي كانت لأولف في بيتنا" . . . ضحك ولم تلائم الضحكة وجهه المشوه كثيراً .

ولكنه كان أوسم الرجال من حيث شكله الجسدي الآن بعد أن اكتمل

نموه . . . كان يرتدي ملابس قديمة الطراز ، وبنطالاً ضيقاً وكوتاردي صغير يلتصق بالجسم والذي كان لا يصل إلا بالكاد إلى وسط فخذه ومزرراً بأزرار نحاسية صغيرة من الأمام . . . وكانت ثيابه تكشف على نحو غير ملائم تقريباً عن القوة المرنة لجسده . بدا كمن قد خرج بملابسه الداخلية ، كما فكرت الأم . ولكن جبينه لم يتغير وكذلك عيناه الوسيمتان .

"يبدو وكأن هناك شيئاً ما يثقل عليك يا سكوله" ، قالت الأم .

"كلا ، كلا ، كلا" . إنه الطقس فحسب ، قال ، وهو يهز نفسه . كان هناك توقد أحمر بني غريب في الضباب مع هبوط الشمس . برزت الكنيسة فوق قمم الأشجار ، غريبة ومعتمة ، وهي تذوب ضمن السديم الأحمر الكليل . كان عليهم أن يجدفوا على طوال الزقاق البحري ، من مدخله ، وكان هادئاً جداً كما قال سكوله . ثم من جديد تحرك قليلاً وبدأ يتحدث مجدداً عن أخوته .

كان في مهمة جنوباً في البلاد لصالح سير بيارن في هذا الربيع ، لذلك استطاع أن يقدم لها أخباراً جديدة عن إيفار وغاوته ، فقد كان قد ركب جواده براً وشق طريقه عبر الجبال من فاغا إلى الغرب . كانت أمور إيفار حسنة . وقد رزق بابنين في روغنهايم سماهما إرلند وغامال ، وهما طفلان جميلان . "ولكن في يورونذغارد صدف أن كنت خلال وليمة عماد . . . فقد اعتبرت يوفريد وغاوته أنك بمثابة الميتة تجاه هذا العالم الآن ، ولذلك يمكن أن يسموا البنت الصغيرة التي رزقا بها باسمك . ويوفريد فخورة جداً بأنك حماتها . . . أجل ، أنت تضحكين ، ولكن الآن وبما أنك لن تسكني تحت سقف واحد معها ، فتأكدي من أن يوفريد تعرف جيداً أن لها صوتاً قوياً حين تتحدث عن (حماتي ، كريستين لافرانسداتر) . ولكني منحت كريستين غاوتسداتر أفضل خاتم عندي فلها عينان فاتنتان . وتقريباً أعتبر أنها ستكون شبيهتك . . . "

ابتسمت كريستين بحزن :

"سرعان ما ستجعلني أظن يا سكوله أن أبنائي يعتبرونني عظيمة وصالحة شأن العجائز ما أن يواروا الثرى ."

"لا تتكلمي على هذا النحو يا أمي" ، قال الرجل بقوة غريبة . ثم ضحك قليلاً : "تعرفين جيداً أننا نحن جميعاً أخوة ، منذ أن لبسنا البنطال القصير ونحن صغار ، كنا نعتبرك أشجع وأعقل النساء . . . رغم أنك أمسكت بنا بقوة تحت جناحيك مرات كثيرة ، وقد كان علينا أن نرفرف كثيراً على الأرجح ، وربما بقوة قبل أن ننجو من العش . . .

" . . . ولكن تبين بالتأكيد أنك كنت على حق في اعتبار غاوته الوحيد بيننا نحن الأخوة الذي ولد ليكون زعيماً" ، قال ضاحكاً بصوت مرتفع .

"لا حاجة بك إلى أن تسخر مني لأجل ذلك الآن يا سكوله" ، قالت كريستين . . . ولاحظ سكوله أن أمه تضرج وجهها بلون أحمر نضر وشاب . عندها ضحك أكثر :

"صحيح يا أمي . . . أصبح غاوته إرلندسون أوف يوروندغارد رجلاً قوياً في الوديان الشمالية . إن اختطافه لعروسه قد جلب له الكثير من الشهرة" . . . ضحك سكوله ضحكة عالية ، الضحكة التي لا تلائم فمه المشوه . "إنهم يغنون أغنية عن تلك الحادثة ، أجل ، فهم يغنون الآن بأنه قد انتزع الفتاة بالحديد والفولاذ ، وقد حارب أقاربها مدة أيام ثلاثة بلياليها فوق الجبل . . . والوليمة التي أقامها السير سيغورد في سوندبو ، والتي جرى فيها تحقيق الصلح بين الأقرباء بالفضة والذهب ، فلأجل ذلك أيضاً يحصل غاوته على كل المجد في الأغنية . . . ويبدو أنه لا يهم أن هذا كله مجرد كذبة . يسود غاوته الأبرشية كلها وإلى ما وراءها نوعاً ما . . . كما تتحكم يوفريد بغاوته . . . "

هزت كريستين رأسها بابتسامتها الصغيرة الحزينة . ولكنها أصبحت ذا وجه شاب وهي تحدق إلى سكوله . والآن بدا لها أنه شبيه جداً بأبيه . . . على أي

حال ، المحارب الشاب ذو الوجه المشوه لديه معظم طباع إرلند الشهمة . . . ولأنه قد اضطر في وقت مبكر جداً إلى أن يتحكم بمصيره بيديه ، فإن هذا قد منحه حزماً بارداً في الروح كان يملأ قلب أمه بشعور غريب بالأمان . ومع كلمات سيرا آيليف في اليوم السابق وهي لا زالت في ذهنها ، فقد شاهدت كل شيء على الفور . . . رغم خشيتها على أبنائها العنيدين ، ورغم أنها حافظت عليهم بشدة بسبب خوفها . . . ومع ذلك فإنه كان من شأنها أن تكون أقل رضا عن أولادها لو كانوا خنوعين ويفتقدون إلى الرجولة .

ثم سألت مجدداً عن ابنها ، إرلند الصغير . . . ولكن سكوله لم يمنحه الكثير من الاهتمام ، كما يبدو . . . أجل كان قوياً وجميلاً ، وهو يحقق ما يريده في كل الأحيان .

تلاشى الوميض الغريب ضمن الضباب ، الذي يشبه الدم المتخثر ، وبدأ الظلام بالهبوط . بدأت أجراس الكنيسة تقرع . نهضت كريستين وابنها . ثم أخذ سكوله يدها :

"أمي" ، قال بصوت خفيض . "أتذكرين أني رفعت يدي عليك ذات مرة ؟ لقد رميت بمضرب تجاهك في غضب ، وقد أصابك في الجبين . . . أتذكرين ذلك ؟ أمي ، بما أننا لوحدنا الآن ، فقولي هل غفرت لي ؟"

سحبت كريستين نفساً عميقاً . . . أجل ، إنها تتذكر . لقد أمرت التوأمين أن يتابعا مهمتهما في السايتر . . . ولكن حين خرجت إلى الباحة كان الحصان هناك ، يرعى ، وسرج الحمولة على ظهره ، وأولادها يجرون ويلعبون بالكرة . وحين قرعتهم بغضب لأجل ذلك ، رمى سكوله بالمضرب بغضب شديد . . . ولكنها تذكرت على أفضل نحو ما حصل بعد ذلك . . . وكيف أنها اضطرت بعد ذلك إلى أن تتجول في المكان بعين مغلقة بسبب تورم جفنها . . . راح الأخوة ينظرون إليها وإلى سكوله ، وقد نفروا منه كأنه مجذوم . . . رغم أن ناكفه كان قد ضربه

دون رحمة . وراح سكوله يتجول بعيداً وجلس وهو يغلي من التحدّي والعار تحت مظهر قاس مترع بالازدراء . ولكن حين كانت تقف في المساء وهي ترتدي ملابسها في العتمة ، فقد تسلل إليها . . . لم يقل شيئاً ، ولكنه أخذ يدها وقبلّها . وحين لمست كتفه ، رمى بذراعيه من حول عنقها وضغط بخده على خدها . . . كان خده بارداً وطرياً ولا يزال مستديراً . أحست أنه كانت لا يزال خدّ طفل . . . كان مجرد طفل ، على أي حال ، هذا اليافع العنيد الناري . . .

"لقد غفرت لك يا سكوله . . . بالكامل ، والرب وحده يعرف ذلك ، فأنا لا أستطيع أن أخبرك ، كم غفرت لك يا بنيّ !"

وقفت لحظة ويدها على كتفه . ثم أمسكت برسغيها وشدت عليهما بقوة إلى حد أنها أجفلت من الألم . . . وفي اللحظة التالية رمى بذراعيه من حولها بالرقة الانفعالية الخائفة الخجلة نفسها كما في المرة السابقة .

"يا بني . . . ما الذي يزعجك ؟" همست الأم خائفة .

أحست في العتمة أن الرجل هزّ رأسه . ثم أخلى سبيلها ، وصعدا معاً نحو الكنيسة .

•

خلال القداس تذكرت كريستين أنها نسيت أن تجلب عباءة الليدي آسا العمياء من حيث جلستا معاً على المقعد خارج باب الكاهن في ذلك الصباح . بعد الصلاة ذهبت لتحضرها .

تحت الممر المسقوف وقف سيرا آيليف وهو يحمل قنديلاً في يده ومعه سكوله . "لقد مات ونحن نقترب من رصيف التحميل" ، سمعت سكوله يقول هذا بصوت متوتر يائس على نحو غريب .

"من ؟"

أجفل كلا الرجلين بعنف حين شاهداها .

قال سكوله بصوت خفيض : "واحد من رجال سفينتي" .

نظرت كريستين من الواحد إلى الآخر . عندما شاهدت وجهيهما المتوترين الشاحبين تحت نور القنديل صدرت عنها صرخة خوف . عض الكاهن على شفته السفلى . . . لاحظت أن ذقنه ارتجف قليلاً .

"من الأفضل يا بني أن تخبر أمك . الأفضل أن نستعد لسماع الأمر ، إن كانت مشيئة الرب أن يستيقظ هؤلاء الناس على مثل هذا الخبر القاسي جداً . . . " ولكن سكوله أطلق تنهيدة ولم يقل شيئاً . وعند ذلك تكلم الكاهن : "لقد وصل الطاعون إلى بيورغفين يا كريستين . . . الوباء المهلك الذي سمعنا أنه يترك البلاد التي من حولنا يباباً . . . "

"الموت الأسود . . . ؟" همست كريستين .

"لا حاجة إلى إبلاغك عن حال الأمور هناك في بيورغفين حين أبحرت من هناك" ، قال سكوله . "لا يستطيع أحد أن يعرفه ما لم يكن قد رآه . في البداية اتخذ سير بيارن أقسى الإجراءات لقمع النار حين اندلعت ، هناك في المنازل من حول دير يونز . كان يريد قطع كامل نوردنس عن المدينة بسلسلة من الرجال المسلّحين ، رغم أن رهبان دير ميكائيل هددوه بالحرمان الكنسي . . . لقد وصلت سفينة إنكليزية حاملة الوباء فوق متنها ، ومنعهم هو من تفريغ الحمولة أو مغادرة السفينة . وقد مات كل رجل كان على تلك السفينة ، ثم أغرقها . ولكن بعض البضائع كان قد سبق لها وجلبت إلى البر ، وهرّب بعض المواطنين المزيد إلى الشاطئ في إحدى الليالي . . . وقد كان من رأي رهبان كنيسة يونز أنه يجب أن يحصل المحتضرون على الراحة الروحية . . . ثم بدأ الناس يموتون في كل أنحاء البلدة ، لذلك رأينا أن ذلك غير مجدٍ . . . والآن لا يوجد شخص حي في المدينة سوى حملة الجثث . . . لقد هرب الجميع من المدينة ممن استطاعوا ذلك ، ولكن الوباء يذهب معهم . . . "

"يا يسوع !"

"أمي . . . أتذكرين آخر مرة انتشر فيها اللاموس (ضرب من القوارض قصير الذيل) في موطننا في سيل ؟ الحشود منها التي راحت تتدحرج على طول الطرقات والممرات . . . أتذكرين كيف استلقت وماتت في كل أجمة وتعفنت وسممّت كل مجرى بالرائحة المنتنة والقذارة . . . ؟" كوّر قبضتيه . ارتجفت الأم :

"يا إلهي ، ارحمنا جميعاً . . . المجد للرب ولمريم العذراء أنك قد أُبعدت عن ذلك المكان يا سكوله . . . "

صك الرجل أسنانه معاً في العتمة :

"وهذا ما قلناه نحن أيضاً ، رجالي وأنا ، في الصباح رفعنا شراعنا ووقفنا عند فاغن . وحين وصلنا شمالاً إلى مولدو ساوند ، مرض أول واحد فينا . ربطنا حجارة بقدميه وصليباً على صدره حين مات ، ثم تعهدنا بإقامة قداس لروحه حين نصل إلى نيداروس ، ورمينا بجثته في البحر . . . فليغفر لنا الرب . وصلنا إلى الشاطئ مع الاثنين التاليين اللذين مرضا وجلبنا لهما من يقدم لهم السلوان الروحي والدفن المسيحي . . . فإنه لأمر غير مجد الهرب من القدر . ومات الرابع حين دخلنا النهر ، والخامس في الليلة الماضية . . . "

"هل من الضروري عودتك إلى البلدة ؟" سألت أمه بعد برهة . "ألا تستطيع البقاء هنا ؟"

هزّ سكوله رأسه بضحكة خالية من الفرح :

"أوه ، سريعاً على ما أعتقد ، ولن يفيدنا شيء الآن . من العبث الشعور بالخوف . . . فالإنسان الخائف إنسان ميت . ولكن كم أتمنى أن أكون في سنك يا أمي !"

"لا أحد يدري ما يفوته حين يموت شاباً" ، قالت أمه بصوت خفيض .

"اهدئي يا أمي ! فكري في الزمان الذي كنت أنت فيه في الثالثة والعشرين . . . هل كنت ستفتقدين السنوات التي عشتها منذ ذلك الحين ؟"

•

بعد أربعة عشر يوماً شاهدت كريستين لأول مرة أحد المرضى بالطاعون . وقد وصلت إشاعة انتشار الوباء في نيداروس وسريانه في الريف إلى ريسا . . . كيف؟ لم يكن ذلك سهلاً على الفهم ، فالناس التزموا بيوتهم ، وكان كل رجل يهرب إلى الغابات أو الأحراش لو شاهد رجلاً جوالاً على الطريق . ما عاد أحد يفتح بابه للغرباء .

ولكن في صباح أحد الأيام وصل صيادا سمك إلى الدير حاملين رجلاً بينهما في شراع . فحين نزلا عند الفجر إلى زورقهما وجدا مركباً غريباً بثلاث صوار عند رصيف التحميل ، وفي القعر كان هذا الرجل فاقد الوعي . . . وقد وجد القوة ليسرع بمركبه ولكن ليس للخروج منه إلى البر . كان الرجل قد ولد في منزل يملكه الدير ، ولكن أسرته كانت قد غادرت الريف .

كان الرجل المحتضر ممدداً على الشراع الرطب في وسط الباحة التي نمت عليها الأعشاب . وقف الصيادان بعيداً وهما يحادثان سيرا آيليف . هربت الأخوات الخادمات والخادمات إلى المباني ، ولكن وقفت الراهبات متجمعات عند باب قاعة الدير . . . حشد من النساء العجائز المذعورات المرتجفات اليائسات .

ثم تقدمت ليدي راغنهيلد . كانت امرأة عجوزاً ضئيلة الحجم ونحيلة ، ولها وجه عريض مسطح وأنف صغير مدوّر أحمر اللون له شكل الزر ، أما عيناها الواسعتان العسليتان فكانتا محاطتين بهالتين حمراوين ، وكانتا دامعتين قليلاً على الدوام .

"باسم الأب والابن والروح القدس" ، قالت باللاتينية بصوت واضح ، ثم بلعت ريقها . "احملاه إلى مبنى الضيوف" .

وقد شقت الأخت أغاتا أكبر الراهبات سناً طريقها عبر الحشد ودون أن يطلب منها ، ذهبت مع رئيسة الدير والرجلين اللذين حملا الرجل المريض .

دخلت كريستين إلى هناك في وقت متأخر من الليل مع علاج قامت

بتحضيره في حجرة المؤونة ، وسألتها الأخت أغاتا إن كانت تجرؤ على البقاء هناك ومراقبة النار .

كانت تعتبر نفسها متمرسة . . . متعودة تماماً على الولادات والوفيات ، فقد رأت مشاهد أسوأ من هذه . . . وقد ناضلت لتفكر في أسوأ ما رأت . . . جلس الرجل المصاب بالطاعون منتصباً ، فقد كان محتملاً أن يختنق من البصاق الدامي الذي كان يخرجه مع كل نوبة سعال . . . كانت الأخت أغاتا قد ربطته برباط كان يمر عبر صدره النحيل الأصفر ذي الشعر الأحمر ، وكان رأسه معلقاً نحو الأمام ، و وجهه أزرق رمادياً ورصاصياً ، وكانت تنتابه نوبات من الارتعاش . ولكن الأخت أغاتا جلست بهدوء تتلو صلواتها ، وحين كان السعال ينتابه ، كانت تنهض وتضع ذراعاً حول رأسه وتمسك كوباً تحت فمه . كان المريض يزمجر من ألمه ، ويقلب عينيه على نحو مخيف ، وأخيراً يمد لساناً أسود بعيداً عن فمه ، بينما كانت صرخاته المحزنة تتلاشى في أنين مثير للشفقة . أفرغت الراهبة الكوب في النار . . . وبينما راحت كريستين ترمي بالمزيد من العرعر في النار ، وراحت الأغصان الرطبة تملأ الغرفة بدخان أصفر لاذع ، ثم تنفجر مهسهسة في اللهيب ، فقد رأت الأخت أغاتا تضع الوسائد تحت ظهر الرجل المريض وإبطه ، وتمسح وجهه وشفتيه البنيتين المشققتين بالماء والخل ، وتشد غطاء السرير المتسخ فوق جسده . سرعان ما سينتهي كل شيء ، قالت لكريستين . . . كان قد سبق له وأصبح بارداً ، ولكنه كان في البداية حاراً كالجمر . . . إلا أن سيرا آيليف كان قد حضّره مسبقاً للرحيل . ثم جلست إلى القرب منه وأقحمت جذر الوجّ في مكانه في فمها بلسانها وعادت لتصلي مجدداً .

حاولت كريستين التغلب على الرعب المخيف الذي أحست به . لقد رأت أناساً يموتون ميتة أعنف . . . ولكن عبثاً . . . كان هذا هو الطاعون ، عقاب من الرب لقسوة الناس في سرهم ، وهو الوحيد الذي كان يعرفها . أحست كأنها كانت

فوق مركب في بحر متلاطم الموج ، حيث كل الأفكار المريرة والغاضبة التي فكرت فيها قد برزت كموجة ضخمة بين آلاف أخرى ثم تلاشت في ألم عاجز ونواح . فليساعدنا الرب لأننا سنفنى . . .

دخل سيرا آيليف في وقت متأخر من الليل . أنّب الأخت أغاتا بحدة لأنها لم تتبع نصيحته بربط قماشة كتانية منقوعة بالخل فوق منها وانفها . همهمت بنزق بأنه لا جدوى . . . ولكنها اضطرت الآن هي وكريستين إلى القيام بما أمر به .

كان هدوء وثبات الكاهن قد بثا بعض الشجاعة في كريستين . . . أو أيقظا إحساساً بالعار . . . فخرجت من دخان العرعر وبدأت تساعد الأخت أغاتا . كان للرجل المريض رائحة خانقة لم ينفع الدخان في كبتها . . . القذارة والدم والعرق الحامض ورائحة مغثية من حنجرته . فكرت في كلمات سكوله حول أسراب اللاموس . ومن جديد اعتراها توق رهيب إلى الهرب ، رغم أنها كانت تعرف أنه لا يوجد مكان يستطيع المرء الهرب إليه من هذا . ولكن حين تجرأت ولمست الرجل المحتضر ، كان أسوأ ما في الأمر قد انقضى . ثم ساعدت بقدر ما تستطيع حتى لفظ آخر أنفاسه . كان قد سبق لوجهه واكتسى بلون أسود حين مات .

●

سارت الراهبات في موكب ، حاملات الذخائر المقدسة والصلبان والشموع الموقدة من حول جبل الكنيسة والدير ، وسار معهم كل من كان قادراً في الأبرشية على السير أو الزحف . ولكن بعد أيام ليست بالكثيرة ماتت امرأة في "سترومن" القريبة . . . ثم انتشر الوباء بضربة واحدة في كل مكان من الريف .

بدا أن الموت والرعب والفاقة قد حملت البلاد وشعبها إلى عالم لا زمن فيه . . . لم يكن قد مرّ أكثر من أسابيع قليلة ، لو كان على المرء أن يعد الأيام ، ولكن سبق وبدا أن العالم الذي سبق انتشار الوباء والموت الذي كان يسير عارياً في أنحاء البلاد ، كان يتلاشى من ذاكرة الناس ، كما يغرق شاطئ البحر حين

يقف المرء أمام البحر في مواجهة ريح قوية . كأنما لم تكن هناك روح بشرية قادرة على أن تبقي في ذاكرتها أن الحياة كانت هناك ذات مرة وأن العمل اليومي كان يبدو أكيداً وقريباً ، وأن الموت كان بعيداً . . . أو لديها القدرة على إدراك أن الأمور ستعود مجدداً إلى ما كانت عليه . . . إن لم يمت كل الناس . ولكن "ربما سنموت جميعاً" ، قال الرجال الذين وصلوا إلى الدير مع أطفالهم الذين فقدوا أمهاتهم . قال البعض ذلك بوجوه كالحة قاسية ، والبعض مع البكاء والنواح . قالوها حين كانوا يحضرون كاهناً للمحتضرين ، وقالوها حين كانوا يحملون الجثث إلى كنيسة الأبرشية في أسفل التل وإلى المقبرة قرب كنيسة الدير . غالباً ما كان على الحمالين أنفسهم حفر القبور . . . كان سيرا آيليف قد أوكل إلى الخدم -من تبقى منهم -العمل على إنقاذ وجمع القمح من حقول الدير . وحيثما كان يذهب في الأبرشية كان يطلب إلى الناس أن يخزنوا محاصيلهم وأن يساعدوا بعضهم بعضاً على العناية بقطعانهم ، حتى لا يموتوا في المجاعة التي سيخلفها الوباء خلفه بعد أن ينتهي .

كانت الراهبات في الدير قد قابلن الزيارة أولاً بنوع من الهدوء المضطرب . لقد استقر بهن المقام نهائياً في قاعة الدير ، وكن يتركن النار موقدة ليلاً نهاراً في المدفأة الحجرية الكبيرة ، وينمن هناك ويأكلن هناك . أشار عليهن سيرا آيليف بأنه يتوجب إبقاء نيران كبيرة مشتعلة في الباحات وفي المباني حيث توجد مواقد . ولكن الراهبات كن يخشين النار . . . لقد سمعن حكايات كثيرة من الراهبات الأكبر سناً حول احتراق الدير قبل ثلاثين سنة . لم تعد هناك محافظة على مواعيد الوجبات وساعات العمل ، وما عادت المهمات المتنوعة للراهبات يمكن فصلها الواحدة عن الأخرى بسبب الأطفال الكثيرين الذين كانوا يأتون من الخارج يتسولون الطعام والمساعدة . كما كان المرضى يدخلون إلى الدير . . . كان هؤلاء هم الأشخاص الأغنياء القادرون على دفع ثمن قبر في الدير وأجور القداديس على

أرواحهم ، أو هم الأكثر فقراً ووحدة بين الفقراء ممّن ليس لديهم أحد يقدم لهم يد المساعدة في البيت . أما أولئك الذين هم من حال وسط فكانوا يستلقون ويموتون في بيوتهم . في بعض الضياع مات كل البشر . ولكن وسط كل هذا كانت الراهبات لا يزلن يُحافظن على مواعيد الصلوات .

أول الراهبات اللواتي وقعن فريسة المرض كانت الأخت إنغا ، وهي امرأة من عمر كريستين ، أي في حوالي الخمسين . ومع ذلك فقد كانت خائفة جداً من الموت حتى أنه كان أمراً رهيباً مشاهدتها وسماعها . كانت نوبات الرجفة تصيبها في الكنيسة خلال القداس ، وكانت تزحف على يديها وركبتيها ، وهي ترتجف من اصطكاك أسنانها ، وتصلي وتدعو الله ومريم العذراء لإنقاذ حياتها . . . وقبل أن يمرّ وقت طويل أصيبت بحمى مرتفعة ، وراحت تئن وتتعرّق دماً من كل جسدها . ارتعد قلب كريستين في جوفها . . . لاشك أنها ستكون هي أيضاً خائفة إلى حد بائس كهذه المرأة حين يأتي دورها . لم تكن المسألة وما فيها أن الموت كان أكيداً . . . بل كان الرعب الرهيب الذي يلتصق بالموت من الطاعون .

ثم مرضت الليدي راغنهيلد نفسها . وقد استغربت كريستين قليلاً حول اختيار هذه المرأة لمنصب رئيسة الدير . . . كانت امرأة عجوزاً هادئة ونكدة إلى حد ما ، غير مثقفة ، وتفتقر إلى أي ميزات روحية . . . ولكن حين وضع الموت يده عليها ، أظهرت أنها في الواقع عروساً للمسيح . لقد ضربها المرض بالبثور . . . وكانت ترفض حتى أن تقوم بناتها الروحيات بتعرية جسدها العجوز ، ولكن تحت إحدى ذراعيها راح الورم ينمو حتى أصبح في حجم تفاحة أخيراً ، وتحت ذقنها تفتحت بثرتان وأصبحتا كبيرتين وحمراوين كالدم ، وأخيراً أصبحتا سوداوين . كانت تعاني من آلام مبرحة منهما ، كما كانت الحمى تصيبها . ولكن طالما بقي ذهنها صافياً فقد كان هناك نمط من الصبر الورع ، فتتنهد متضرعة إلى الرب أن يسامحها على خطاياها ، وتتوسل بكلمات لطيفة وقلبية أن يساعد ديرها وبناتها ،

وكل المرضى والحزانى ، ولأجل إنقاذ كل الأرواح التي كان عليها الآن أن ترحل عن هذه الدنيا . حتى سيرا آيليف بكى حين قدم لها قربان الموت . . . وكان صموده شأن حماسته التي لا تفتر في وسط كل هذا البؤس أمراً يدعو إلى العجب . لقد سلمت الليدي راغنهيلد روحها إلى رعاية الرب مرات عديدة وتضرعت إليه ليحمي الراهبات تحت جناحه . . . وأخيراً بدأت البثرات التي في جسمها بالتفتح . ولكن تبين أن هذا تحول نحو الحياة وليس الموت . . . وبعد ذلك لاحظ الناس أن أولئك الذين يصيبهم الوباء بالبثور قد يشفون أيضاً ، ولكن أولئك الذين يصابون بالإقياء الدامي يموتون جميعاً .

لقد بدا وكأن الراهبات قد تشجعن مجدداً من صمود رئيسة الدير ، ومن مشاهدة شخص أصيب بالطاعون ولم يمت بعد . كان عليهن الآن أن يحلبن البقرات وينظفن الحظائر بأنفسهن وأن يحضرن طعامهن وأن يحضرن بأنفسهن العرعر وفروع الصنوبر الطرية لإحراقها لأجل دخان التطهير . . . كان على كل واحدة أن تفعل ما يصل إلى يدها . كن يرعين المرضى بأفضل قدراتهن ويعطين الأدوية : الترياق وجذور الوج . وكن يوزعن الزنجبيل والفلفل والعصفر والخل لدفع السم . وكذلك الحليب واللحم والخبز الذي يخبزونه ليلاً . . . والبهارات ، وعلى الناس أن يمضغوا ثمار العرعر وأبر الصنوبر ضد الإصابة بالعدوى . كانت الراهبات يصبن بالعدوى الواحدة إثر الأخرى ثم يمتن . كانت أجراس الموت تقرع في كنيسة الدير وكنيسة الأبرشية في الصباح وفي المساء في الهواء الثقيل . فقد كان السديم الغريب الخارق للطبيعة لا يزال مهيمناً على الأرض . بدا وكأن هناك تواطؤاً سرياً بين السديم والوباء القاتل . أحياناً كان السديم يتحول إلى ضباب جليدي ويهطل في أبر جليدية صغيرة ورذاذ نصف متجمد ، وأصبحت الأرض بيضاء من الصقيع . . . ثم يأتي الطقس اللطيف والسديم مجدداً . لقد اعتبر الناس أن هناك علامة على شر مستطير تتجلى في أن طيور البحر التي اعتادت أن تطير بالآلاف

على امتداد الخليج الذي يدخل إلى البر من الزقاق البحري ويستطيل كنهر بين الامتدادات المنخفضة للمرج ، ولكنه يتسع ليصبح بحيرة من الماء المالح شمال دير راين . . . هذه الطيور اختفت فجأة ، وبدلاً عنها وصلت طيور الغداف بأعداد لا حصر لها . . . على كل صخرة على شاطئ البحر فإن الطيور السوداء جثمت وسط الضباب ، وهي تنعق على نحو شنيع . وبينما راحت أسراب من الغربان الضخمة إلى حد لم يره أحد من قبل شبيهاً لها ، تستقر فوق كل الغابات والبساتين ، وراحت تطير وهي تنعق على نحو قبيح فوق الأرض الموبوءة .

بين الحين والآخر كانت كريستين تفكر بأبنائها . . . الأبناء المتناثرين في كل الأصقاع ، والأحفاد الذين لم تراهم قط . . . كان رأس إرلند الصغير الأشقر يلوح أمام بصرها . ولكن بدوا جميعاً وكأنهم بعيدون جداً وباهتون . لقد بدا تقريباً وكأن كل البشرية في زمن الكارثة هذا كانوا متقاربين الواحد من الآخر ومتباعدين أيضاً . ثم كانت يداها مليئتين طوال النهار . . . لقد كان أمراً جيداً لها أنها كانت معتادة على كل أنواع العمل . وبينما جلست وهي تحلب البقرات ، كانت ستجد إلى القرب منها فجأة أطفالاً صغاراً مجوعين لم يسبق لها أن رأتهم ، وكانت لن تتذكر أن تسأل من أين أتوا أو كيف هي أحوالهم في بيوتهم . كانت تعطيهم الطعام وتقودهم إلى مأوى قاعة الاجتماعات ، أو إلى مكان آخر حيث تكون هناك نار موقدة ، ثم تضعهم في سرير في المهجع .

وقد لاحظت ، بنوع من الاستعجاب ، أنه في وقت الشدة هذا ، حين كانت هناك حاجة ماسة إلى أن يكون الجميع نشيطين في الصلاة ، فإنها لا تجد إلا بالكاد الوقت للتأمل أو الصلاة . كانت ترمي بنفسها في الكنيسة أمام وعاء القربان حين تجد لحظة فراغ ، ولكن ما كان يخرج منها سوى التنهدات دون كلمات و"أبانا الذي" و"السلام عليك يا مريم" تتلفظ بها كالاستظهار دون فهم . وهي نفسها لم تعد تعرف أن أساليب الراهبات وسلوكهن التي تعودت عليها

خلال السنتين الماضيتين كانت تتخلى عنها شيئاً فشيئاً ، وأنها كانت تصبح أشبه بربة المنزل التي كانتها في القديم . . . ومع تضاؤل عدد الراهبات ، فإن دورة الواجبات في الدير قد عمّها الفوضى ، وكانت الرئيسة لا تزال طريحة الفراش ، بجسم ضعيف ولسان نصف مشلول . . . وتضاعف العمل شيئاً فشيئاً على القلة التي بقيت لتؤديه .

في أحد الأيام علمت صدفة أن سكوله لا يزال في نيداروس . . . كان رفاقه في السفينة بين ميت وهارب ، ولم يستطع أن يجد بحارة جدداً بدلاً عنهم . كان لا يزال سليماً ، ولكنه كان قد انغمس في حياة اللهو كما كان يفعل الكثير من الشبان في هذا الوضع اليائس . بالنسبة إلى الخائف كان الموت أكيداً كما يقال ، ولذا فإن الشبان أغرقوا همومهم بالشراب والصخب والقمار والرقص والعبث مع النساء . حتى زوجات سكان المدينة المحترمات والشابات من أفضل الأسر هربن من بيوتهن في هذا الزمن الشرير . وفي صحبة نساء المواخير رحن يشاركن في شرب الخمر في الحانات والفنادق بين رجال ضالّين . فليسامحن الرب ، فكرت الأم . . . ولكن كأنما كان قلبها منهكاً إلى حد لا تستطيع معه الأسف على مثل هذه الأمور .

ولكن في الريف أيضاً كان هناك ما يكفي من الخطيئة والضلال . وقد سمعوا قليلاً عنه في الدير ، فهناك لا وقت لديهم للكثير من الكلام . ولكن سيرا آيليف الذي كان يذهب إلى كل الأمكنة ، دون راحة أو تأجيل ، إلى المرضى والمحتضرين ، قال ذات يوم لكريستين إن أرواح الناس كانت في حالة من العوز أشد من العوز الذي تعاني منه أجسادهم .

●

ثم حلّ مساء كانوا جالسين فيه من حول المدفأة في قاعة الدير . . . المجموعة الصغيرة من الناس الذين بقوا أحياء في الدير . أربع راهبات وأختان خادمتان

ورجل الإسطبل العجوز وشاب يافع وامرأتان ونزيلتان بالأجرة وبعض الأطفال المتكومين حول النار . على المقعد العالي حيث كان صليب كبير يلتمع في الغسق فوق الجدار ذي اللون الفاتح ، كانت الرئيسة مستلقية وكانت الأخت كريستين والأخت توريد جالستين عند يديها وقدميها .

كان قد مر تسعة أيام منذ آخر وفاة بين الراهبات ، وخمسة أيام منذ أن توفي أي شخص في الدير أو في أي من المنازل القريبة . بدا الوباء يبدو وكأنه يتراجع في كل أنحاء الأبرشية أيضاً ، كما قال سيرا آيليف . . . ولأول مرة منذ حوالي ثلاثة أشهر حلّ شيء أشبه بوميض السلام والأمل والراحة على الناس الصامتين المتعبين الجالسين معاً هناك . ترك الأخت تورون العجوز سبحتها تسقط في حجرها ، وتناولت يد فتاة صغيرة كانت واقفة عند ركبتها .

"ما الذي يمكنها أن تعنيه ؟ أجل يا ابنتي ، يبدو الآن وكأننا سنرى أن أم الرب ، مريم ،لم تعد تشيح بحنانها بعيداً عن أطفالنا ."

"كلا ، ليست هي بمريم العذراء أيتها الأخت تورون ، بل هي (هل) (٨) . وهي سترحل عن هذه الأبرشية مع مذراتها ومكنستها ، حين يقدمون إليها رجلاً دون لطخة عند بوابة المقبرة . . . وغداً ستكون قد رحلت بعيداً . . . "

"ما الذي تعنيه هي ؟" سألت الراهبة مجدداً بقلق . "عار عليك يا ماغنهيلد ، ما هذا الكلام الوثني القبيح؟ كان الأجدر بك أن تجلدي . . . "

"قولي لنا ما هي يا ماغنهيلد . . . لا تخافي ." . . . كانت الأخت كريستين واقفة خلفهن . سألت هذا السؤال مبهورة الأنفاس . لقد تذكرت . . . لقد سمعت في شبابها من الليدي آشيلد . . . عن وسائل آثمة لا اسم لها يخترعها الشيطان ليغوي بها اليائسين من الناس حتى يمارسوها . . .

كان الأطفال في البستان قرب كنيسة الأبرشية في الغسق ، وكان بعض الصبية قد ضلّوا طريقهم في الغابة فوصلوا إلى كوخ من الخث هناك ، وتنصتوا

وسمعوا بعض الرجال فيه يضعون الخطط . ولقد بدا مما سمعوه أن هؤلاء الرجال قد أمسكوا بصبي صغير اسمه توره بن ستاينون الذي يعيش قرب الشاطئ ، والليلة كانوا سيقدمونه قرباناً لغولة الوباء . تحدث الأطفال بحماسة وهم فخورون لأن الكبار كانوا يصغون إلى ما قالوه باهتمام . لم يبد عليهم أنهم يفكرون في الإشفاق على توره بائس الحظ . . . ربما لأنه كان منبوذاً نوعاً ما . كان يتجول في أنحاء الأبرشية متسولاً ، ولكنه لم يكن يأتي إلى الدير ، وإذا ما كان سيرا آيليف أو أي شخص ترسله الرئيسة يبحث عن أمه ، كانت هذه تهرب أو تبقى صامتة بعناد ، سواء تحدثوا إليها بود أو بقسوة . لقد عاشت في مواخير نيداروس عشرة أعوام ، ثم حل بها مرض ، وتركها في حال لا تستطيع معها أن تعود إلى كسب عيشها كما اعتادت سابقاً . لذلك غادرت البلدة إلى أبرشية راين ، والآن كانت تسكن في كوخ قريب من الشاطئ . وقد كان يحدث أحياناً أن يسكن لديها شحاذ مرّ بالصدفة أو عابر سبيل فترة من الزمن . من كان أبو الصبي ؟ هي نفسها لم تكن تعرف .

قالت كريستين : "علينا أن نذهب إلى هناك . لا نستطيع الجلوس هنا بينما تبيع أرواح معمّدة أنفسها إلى الشيطان عند أبوابنا بالذات ."

همهمت الراهبات في خوف . كان هؤلاء أسوأ الرجال في الأبرشية : رجال أفظاظ لا يعرفون الورع . ولابدّ أن العوز والحاجة الشديدين قد حولاهم إلى شياطين حقيقيين . لو كان سيرا آيليف في الدير فحسب ! أنّ الجميع . في وقت المحنة هذا كان الكاهن قد كسب ثقتهم إلى حد كبير حتى ظنوا أنه قادر على فعل كل شيء . . .

فركت كريستين يديها :

"حتى لو ذهبت لوحدي . . . أيتها الأم ، هل تأذنين لي بالذهاب إلى هناك ؟"

أمسكت بها الرئيسة من ذراعها بشدة إلى حد أنها صرخت . نهضت المرأة

العجوز منعقدة اللسان على قدميها . أومأت لتفهمهم أن عليهم أن يلبسوها لتخرج وطلبت الصليب الذهبي وإشارة منصبها وعصاها . ثم أمسكت بكريستين من ذراعها . . . فقد كانت أصغر النساء سناً وأقواهن . نهضت كل الراهبات ولحقن بهما .

عبر باب الغرفة الصغيرة بين قاعة الاجتماعات وكورس الكنيسة خرجت الراهبات في هذا الليل الشتائي القارس . بدأت أسنان الليدي راغنهيلد تصطك وجسدها كله يرتجف . . . كانت لا تزال تتعرق دون توقف بسبب مرضها ، ولم تكن بثور الطاعون قد شفيت تماماً بعد ، لذلك كان المشي مؤلماً جداً لها . ولكنها همهمت بغضب وهزت رأسها حين توسلت إليها الراهبات أن تعود ، وتشبثت على نحو أقوى بذراع كريستين ، وراحت تمشي بتثاقل وهي ترتجف من البرد ، أمامهن عبر الحديقة . وحين اعتادت أعينهن على الظلمة ، ميّزن البريق الباهت للأوراق الذاوية المتناثرة فوق الدرب تحت أقدامهن والنور الخافت من السماء ذات السحب فوق قمم الأشجار . كانت قطرات الماء الباردة تنقط من الأغصان وهبات من الريح تعطي صوتاً كالأنين . كان صوت ارتطام الأمواج بالشاطئ يصلهن من خلف الأرض المرتفعة وذلك بشكل تنهدات ثقيلة كليلة .

عند نهاية الحديقة كان بويب صغير . . . ارتعدت الراهبات حين زعق المزلاج الصدئ وقد راحت كريستين تسحبه من مكانه بالقوة . ثم زحفن نحو الأمام عبر البستان باتجاه كنيسة الأبرشية . والآن كن قادرات على مشاهدة الكتلة السوداء وهي أكثر عتمة في الظلام . وأمام الفتحة في الغيوم فوق الهضاب المنخفضة وراء البحيرة شاهدن قمة السقف والبرج برؤوس حيواناته وصليبه فوق كل شيء .

أجل . . . كان هناك أشخاص في المقبرة . . . أحسسن بهم ولم يشاهدنهم بالأحرى . والآن وصل وميض باهت من النور من الأسفل ، كما لو أن هناك قنديلاً وضع فوق الأرض . إلى القرب منه بدت العتمة تتحرك .

تلاصقت الراهبات ورحن يتنهدن دون صوت بين الصلوات المهموسة : ثم مضين بضع خطوات ، وتوقفن وأصغين وتابعن السير مجدداً . كن على وشك الوصول إلى بوابة المقبرة . ثم سمعن من خارج العتمة صوت طفل يصرخ :

"أوه كعكتي . لقد رميتم التراب على كعكتي !"

تركت كريستين ذراع الرئيسة وركضت نحو الأمام عبر بوابة باحة الكنيسة . دفعت جانباً بعض الأشكال الداكنة من ظهور الرجال ، وتعثرت بأكوام من التراب المقلوب ، ثم وصلت إلى حافة القبر المفتوح . ركعت على ركبتيها وانحنت ورفعت الصبي الصغير الذي كان في القاع ، وهو لا يزال يتذمر لأن التراب قد أفسد الكعكة الجيدة التي منحت له لقاء البقاء هادئاً هناك .

وقف الرجال هناك خائفين - مستعدين للهروب - وقد راح بعضهم يذرع المكان . . . شاهدت كريستين أقدامهم في النور القادم من القنديل على الأرض . ثم كان أحدهم سيهاجمها ، ولكن في الوقت نفسه شوهدت ملابس الراهبات البيضاء وهاهي مجموعة الرجال تتردد . . .

حملت كريستين الطفل بين ذراعيها . كان يبكي على كعكته . لذلك وضعته أرضاً وتناولت الكعكة ونظفتها :

"هيا ، كلها . . . كعكتك نظيفة الآن . هيا اذهبوا إلى بيوتكم الآن أيها الرجال ." . . . كان اهتزاز صوتها قد أجبرها على التوقف قليلاً . "اذهبوا إلى بيوتكم واحمدوا الله لأنكم أنقذتم من إثم يصعب التكفير عنه" . كانت تتكلم الآن كسيدة تخاطب خدمها ، بلطف ، ولكن دون أن يخطر في بالها أنهم لن يطيعوا . ودون تفكير تحرك بعض الرجال نحو البوابة .

ثم صرخ أحدهم :

"ابقوا قليلاً . . . ألا ترون أن حياتنا معرضة للخطر على الأقل . . . ربما كان هذا هو كل ما ربحناه . . . والآن هاهنّ عاهرات الرهبان المتخمات بالطعام قد

دسسن أنوفهن في هذا ! ليس عليهن أبداً أن يبتعدن عن هنا لينشرن نبأ ما حدث . . . "

لم يتحرك رجل واحد . . . ولكن الأخت أغنس صرخت صرخة حادة وقالت بصوت نادب :

"أيها المسيح الجميل ! يا عريسي . . . أشكرك لأنك سمحت لخادماتك بالموت من أجل مجد اسمك . . . !"

دفعتها الليدي راغنهيلد من خلفها ، ثم تقدمت إلى الأمام ورفعت القنديل من الأرض . . . لم يمد أحد يده ليمنعها . وحين رفعته عالياً ، التمع الصليب الذهبي على صدرها . وقفت وهي مستندة إلى عكازها وأدارت القنديل ببطء على الحلقة من حولها ، وهي تومئ قليلاً برأسها لكل رجل تنظر إليه . ثم أشارت إلى كريستين أن تتكلم :

"اذهبوا إلى بيوتكم بسلام وهدوء أيها الأخوة الأعزاء . . . تأكدوا أن الأم المبجلة وهؤلاء الأخوات الطيبات سيكن رحيمات كما هو واجبهن أمام الرب وشرف كنيسته . ولكن هيا تنحوا جانباً الآن حتى نمرّ ومعنا هذا الطفل . . . وبعد ذلك فليذهب كل في حال سبيله" .

وقف الرجال مترددين . ثم صرخ أحدهم كأنه في حالة من اليأس الشديد :

"أليس من الأفضل أن نضحي بواحد حتى لا نموت كلنا . . . ؟ هذا الطفل ليس ملكاً لأحد . . . "

"إنه ملك للمسيح . كان الأجدر بكم أن تموتوا جميعاً على ان تؤذوا واحداً من صغاره . . . "

ولكن الرجل الذي تكلم أولاً صرخ مجدداً :

"أمسكي عليك لسانك . . . لا مزيد من مثل هذه الكلمات أو أنني سأرجعها إلى حلقك بهذا" . . . هزّ سكينه في الهواء . "اذهبن إلى بيتكن ،

اذهبن إلى أسـرّتكن وتوسلن إلى كـاهنكن أن يواسيكـن ، ولا تذكـرن شـيئـاً عن هذا . . . أو أني أقول لكن باسم الشيطان أنكن سوف تتعلمن أن هذا هو أسوأ أمر سبق لكن ارتكابه ، أي أن تتدخلن في شؤوننا . . . "

"لا حـاجة بك إلى الصـراخ عالياً إلى هذا الحد حتى يسـمعك ذاك الذي ذكرت اسمه . يا آرنتور . . . تأكد من أن أنه ليس بعيداً عن هنا" ، قالت كريستين بهدوء ، وبدا بعض الرجال خائفين ، واقتربوا دون تفكير من الرئيسة التي وقفت حاملة القنديل . "كان سيحدث أسوأ الأمور لنا ولكم لو أننا جلسنا هادئات في البيت بينما تقومون بأمر يضمن لكم إقامة في أكثر أماكن الجحيم حرارة ."

ولكن الرجل المسـمى آرنتـور شـتم وجـدّف . عـرفت كـريسـتين أنه يكره الراهبات . فقد كان أبوه قد أرغم على أن يرهن لهن مزرعته حين اضطر إلى دفع دية لقـاء قتل رجل والزنى مع ابنة عم زوجتـه . والآن ، راح يرمي الراهبـات بكل أكاذيب الشيطان الكريهة ويتهمهن بارتكاب خطايا شديدة السواد والشذوذ حتى أن الشيطان نفسه فحسب كان قادراً على جعل أي رجل يفكر بمثل هذه الأفكار .

ولكن الغضب اندلع في كريستين مثل النار الموقدة حديثاً :

"اصـمت ! هل فقدت عقلك أم أن الرب قد ابتلاك بالعمى ؟ هل نجرؤ على التـذمر من عـقـاب الرب . . . نحن الذي رأينا عروسـاته المقدسـات يتـقـدمن للقـاء السـيف الذي جـرّد بسـبب آثام الـدنيا ؟ كـن يراقبن ويصليّن بينمـا نحن نرتكب الخطايا وننسى كل يوم خـالقنا . . . كن قـد أغلقن على أنفسـهن قلعـة صـلاتهن بينمـا كنا نجـول العـالم من حـولنا ، يدفـعنا الطمع إلى سلع صـغـيـرة أو كـبـيـرة ، وشـهـواتنا وغـضـبنا . . . ولكنهـن تقـدمن إلينا حين أرسـل مـلاك الموت إلينا . . . جمعن من حولهن المرضى والعاجزين والجياع - لقد ماتت اثنتا عشرة راهبة من أخواتنا في هذا الطاعون- وأنتم جميعاً تعرفون ذلك . . . لم تتنح واحدة جانباً ولم تتخل واحدة عن الصلاة من أجلنا جميعاً في حب أخوي ، حتى جفت ألسنتهن

في حلوقهن ولم تتبق دماء في أجسادهن . . . "

"تتكلمين جيداً عن نفسك وعن مثيلاتك . . . "

صرخت وقد أعماها الغضب : "أنا مثيلتك . لست واحدة من هؤلاء الراهبات الورعات . . . أنا واحدة منكم . . . "

"لقد أصبح شديدة التواضع يا امرأة" ، قال آرنتور باحتقار . "أنت خائفة كما أرى جيداً . بعد قليل ستدعين أن أم هذا الصبي مثيلتك ."

"الرب يحكم في هذا . . . لقد مات من أجلها ومن أجلي ، وهو يعرفنا كلتينا . أين هي ستاينون ؟"

"انزلي إلى كوخها . ستجدينها هناك دون شك" ، أجاب آرنتور .

"أجل ، حقاً يجب أن يرسل أحدهم خبراً إلى المرأة المسكينة أن ابنها معنا" ، قالت كريستين للراهبات : "علينا أن نذهب إليها في الغد" .

ضحك آرنتور ساخراً ، ولكن رجلاً آخر صاح بقلق وقال لكريستين :

"كلا ، كلا ، إنها ميتة . لقد مر أربعة عشر يوماً منذ تركها بيارن وأوصد الباب . عند ذاك كانت في النزع الأخير ."

"كانت تحتضر . . . " ، حدقت كريستين إلى الرجال وهو أصابها الرعب . "ألم يجلب لها أحد كاهناً . . . ؟ هل جثمانها مرمي هناك . . . ولا يشفق عليها أحد فيدفنها . . . وكنتم على وشك أن تقتلوا طفلها . . . ؟"

لدى رؤيتهم لمدى رعب المرأة ، بدا الرجال كأنما حل بهم الخوف والعار . كان الجميع يصرخون في آن واحد . ولكن صوتاً أعلى من أصوات البقية صاح :

"أحضريها بنفسك يا أختي !"

"أجل َ من منكم سيذهب معي ؟"

لم يجب أحد . صرخ آرنتور :

"سيكون عليك أن تذهبي لوحدك كما أعتقد" .

"غداً . . . ما أن يشرق الفجر . . . سنحضرها يا آرنتور . . . أنا نفسي سأشتري لها قبراً وأدفع لقاء القداديس التي ستتلى على روحها . . . "

"اذهبي إلى هناك الآن ، اذهبي الليلة . . . عندها سأصدق أنكن أيتها الراهبات ورعات وطاهرات حقاً . . . "

كان آرنتور قد اقترب برأسه من رأسها . دفعت كريستين بقبضتها المكورة في وجهه مع صرخة غضب ورعب . . .

تقدمت الليدي راغنهيلد ووضعت نفسها إلى جانب كريستين . حاولت أن تتلفظ ببعض الكلمات . صرخت الراهبات بأن المرأة ستوارى غداً في التراب . ولكن الشيطان بدا وكأنه قد لعب بعقل آرنتور ، فصرخ :

"اذهبن الآن . . . عندها سنؤمن برحمة الله . . . "

استجمعت كريستين شجاعتها وقد شحب لونها وتيبس جسمها :

"أنا سأذهب ."

رفعت الطفل وأعطته إلى الأخت تورون ثم دفعت الرجال جانباً وهرعت في طريقها وهي تتعثر بكتل الأعشاب وأكوام التراب نحو البوابة ، بينما لحقت بها الراهبات نادبات . صرخت الأخت أغنس بأنها ستذهب معها . هزت الرئيسة قبضتيها نحو كريستين وهي تومئ إليها أن تتوقف . ولكنها بدت كمن فقدت رشدها من الغضب ولم تكترث . . .

وفجأة حدثت جلبة كبيرة في العتمة قرب بوابة المقبرة . . . وفي اللحظة التالية سأل صوت سيرا آيليف عمّن كان يعقد اجتماعاً هنا . تقدم نحو نور القنديل . . . فشاهدوه يحمل فأساً في يده . تجمعت الراهبات من حوله . بدأ الرجال يتناوبون على الهرب في العتمة ، ولكن عند البوابة قابلهم رجل يحمل سيفاً مجرداً في يده . حدث بعض الاضطراب وسمع صليل السيوف ، ثم صرخ سيرا آيليف تجاه البوابة : الويل لمن يعكر صفو سلام المقبرة . سمعت كريستين

أحدهم يقول إنه كان الحداد القوي من "شارع كريدو" . . . وفي اللحظة التالية ظهر رجل طويل عريض المنكبين أبيض الشعر إلى القرب منها . . . كان ذاك هو أولف هالدورسون .

سلمه الكاهن الفأس- كان قد استعارها من أولف- وأخذ الصبي توره من الراهبة وقال :

"الوقت الآن بعد منتصف الليل . . . ورغم ذلك الأفضل لكن أن تأتوا معي إلى الكنيسة . عليّ أن أعرف كنه هذه الأفعال الليلة ."

لم يعترض أحد . ولكن حين وصلوا إلى الطريق ، فإن إحدى النساء المرتديات للرداء الرمادي الفاتح اتجهت في الممر المؤدي عبر الغابة . ناداها الكاهن ، وأمرها أن ترافق الأخريات . أجاب صوت كريستين من العتمة . . . كانت قد قطعت بعض المسافة على امتداد الدرب :

"لا أستطيع يا سيرا آيليف . . . حتى أكون قد وفيت بوعدي . . . "

قفز الكاهن وبعض الرجال الآخرين خلفها . كانت واقفة وهي تتكئ على السياج حين وصل إليها سيرا آيليف . رفع القنديل . . . كانت شاحبة الوجه إلى حد مخيف ، وحين نظر إلى عينيها لاحظ أنها لم تجنّ كما ظن أولاً .

قال : "تعالي إلى الدير يا كريستين . غداً سنذهب إلى هناك معك ، بعض الرجال وأنا بنفسي . . . "

"لقد أعطيت وعداً بذلك . لا أستطيع الذهاب إلى الدير يا سيرا آيليف حتى أفعل ما تعهدت بفعله ."

وقف الكاهن صامتاً برهة . ثم قال بصوت خفيض :

"ربما أنت على حق . اذهبي إذن يا أختي باسم الرب ."

ومثل ظل ذابت كريستين في العتمة التي ابتلعت شكلها الرمادي .

حين اقترب منها أولف هالدورسون قالت بقوة وهي تتكلم مدة يسيرة كل

مرة : "عد أدراجك . . . لم أطلب منك القدوم معي . . . "

ضحك أولف بصوت خفيض .

"كريستين يا سيدتي . . . لم تتعلمي الدرس بعد كما أرى ، أن بعض الأمور يمكن فعلها دون أن تطلبي أو تأمري . . كما لم تتعلمي – رغم أنك رأيت ذلك مرات عديدة – أنك لا تستطيعين دائماً أن تنفذي ما تريدينه لوحدك . ولكني سأساعدك على حمل عبئك هذا ."

تنهدت غابات الصنوبر من فوقهما ، وراح دوي الأمواج فوق الشاطئ يأتي أقوى أو أضعف مع اشتداد الريح أو خفوتها . سارا في ظلام دامس . وبعد برهة قال أولف :

" . . . لقد تحملت صحبتك من قبل يا كريستين حين كنت تخرجين ليلاً . . . وأعتقد أنه أمر ملائم أن أصطحبك الآن أيضاً . . . " .

تنفست بصعوبة وثقل في الظلام . في إحدى المرات تعثرت فوق شيء ما ، فأمسك بها أولف . بعد ذلك أمسك بيدها وقادها . خلال فترة سمعها الرجل تبكي وهي تمشي ، فسألها عن السبب في بكائها .

"أبكي لأني أفكر كم كنت طيباً ومخلصاً لنا ، يا أولف ، في كل أيامنا . ما الذي أستطيع قوله . . . ؟ أعرف جيداً أن ذلك كان من أجل إرلند ، ولكني أعتقد تقريباً يا قريبي . . . أنك في كل أيامنا قد حكمت عليّ بلطف أكثر مما يحق لك ذلك ، بعد ما رأيته أولاً من أفعالي ."

"لقد أحببتك يا كريستين . . . لا أقلّ مما أحبك هو ." ثم صمت . أحست كريستين وكأنه قد انفعل بقوة . ثم قال :

" لذلك يبدو لي أنها كانت مهمة صعبة عليّ حين أبحرت إلى هنا اليوم . . . لقد جئت لأحمل لك نبأ أعتقد أنه صعب عليّ التلفظ به . فليشد الله في أزرك يا كريستين !"

"هل هو سكوله ؟ " سألت كريستين بصوت خفيض بعد برهة . "هل مات سكوله ؟"

"كلا . سكوله كان في صحة جيدة حين كلمته البارحة . . . والآن لم يعد الكثيرون يموتون في البلدة . ولكن وصلتني أنباء من تاوترا هذا الصباح . . . " سمعها تتنهد بقوة مرة واحدة ، ولكنها لم تقل شيئاً . بعد برهة قال :

"لقد مرت عشرة أيام منذ أن توفيا . لم يتبق سوى أربعة رهبان في الدير ، والجزيرة قد خلت من الناس ."

كانا قد وصلا الآن إلى حيث تنتهي الغابة . فوق الامتداد المنبسط للأرض قابلهما هدير البحر والريح . في إحدى البقع في العتمة التمع الشاطئ بلون أبيض . . . كانت موجة في خليج صغير قرب تل رملي منحدر ذي لون فاتح .

"إنها تقطن هناك" ، قالت كريستين . أحس بالرعدات الطويلة الاختلاجية في جسدها . أمسك بيدها بقوة :

"لقد أخذت هذا على عاتقك . تذكري ذلك ولا تفقدي عقلك الآن ."

قالت كريستين بصوت رقيق واضح عصفت به الريح :

"الآن يتحقق حلم بيورغولف . . . أثق بالرب وفي رحمة السيدة مريم" .

حاول أولف أن يرى وجهها . . . ولكن كان الظلام قد حل . كانا يمشيان على الشاطئ . . . في بعض الأماكن كان الدرب ضيقاً تحت الصخور الشاطئية . . . حتى أن الموج كان يصل أحياناً إلى أقدامهما . سارا نحو الأمام فوق أكوام من أعشاب البحر والصخور . وبعد فترة شاهدا كتلة معتمة أمام الشاطئ الرملي .

قال أولف : "إبقي هنا ." تقدم وضرب الباب . . . ثم سمعته يقطع رزمات القصب ويدفع الباب مجدداً . ثم أحست أن الباب قد هوى إلى الداخل ، ودخل هو عبر الفتحة السوداء .

لم تكن تلك الليلة عاصفة . ولكن كان الظلام مخيماً إلى حد لم تستطع معه كريستين أن ترى سوى الومضات الصغيرة من الزبد التي راحت تظهر وتختفي في اللحظة نفسها فوق البحر الهائج ، والتماعة الأمواج التي كانت تتكسر فوق شواطئ الخليج . . . وعلى الكثيب الرملي الذي استطاعت تمييزه خارج تلك الكتلة السوداء . وقد بدا لها أنها كانت تقف في كهف ليلي وأن ذلك كان باحة . كانت حركة الأمواج المتكسرة وهسيس مياهها التي تضرب صخور الشاطئ تتزامن مع أمواج الدم التي كانت تمور في داخلها ، رغم أن جسدها كان طوال الوقت يرتجف كأنه يريد أن يتحول إلى قطع ، كسفينة من الخشب تنشطر إلى ألواح . . . راح صدرها يؤلمها وكأن شيئاً ما سينفجر فيه من الداخل لينفصل عنه . أحست برأسها فارغة ومجوفة كأنها ستتصدع والريح التي لا تتوقف وكأنها تلتف بها وتمر عبرها . شعرت باضطراب غريب ، لابد أنها قد التقطت عدوى المرض دون شك . . . ولكن بدا وكأنها العتمة يجب أن يشقها نور عظيم سيغرق هدير البحر برعده ، وأنها ضمن هذا الرعب ستموت . رفعت قلنسوتها والتي أبعدتها الريح عن رأسها ، ولفت عباءة الراهبات السوداء من حولها ، ووقفت ويداها متصالبتان من تحتها . . . ولكن لم يخطر لها أن تصلّي . كأنما كانت روحها تحمل ما يكفي ويزيد من العمل لتشق طريقها إلى الأمام من منزلها الآيل للسقوط ، وكأنها كانت تمزق صدرها مع كل نفس .

شاهدت وميضاً في الكوخ . بعد قليل نادى عليها أولف هالدورسون : "عليك القدوم إلى هنا وحمل النور لي ، يا كريستين" . . . كان واقفاً في الباب . . . وحين دخلت سلمها مشعلاً من خشب مطليّ بالقار .

واجهتها رائحة نتانة خانقة من الجثة رغم أن الكوخ كان مفتوحاً أمام الريح والباب مكسوراً . وبعينين محدقتين وفم نصف فاغر - وشعرت كأنما تيبسَت شفتاها وفكاها في هذه الأثناء - نظرت فيما حولها بحثاً عن المرأة الميتة . ولكن

لم يكن هناك شيء تراه سوى كومة طويلة مستلقية في الزاوية فوق الأرض الترابية ، وقد لفت بعباءة أولف .

كان قد انتزع ألواحاً طويلة من مكان ما ووضع الباب فوقها . وبينما راح يشتم الأدوات غير المتوفرة ، فقد حفر حزوزاً وثقوباً بفأسه الخفيف وسكينه ، وحاول أن يثبت الباب بالألواح . رفع نظره إليها مرة أو مرتين بسرعة ، وفي كل مرة كان الوجه ذو اللحية الرمادية يصبح أقسى .

"أتساءل كيف كنت ستقومين بهذا العمل لوحدك" ، قال وهو يعمل- ثم رفع بصره إليها - ولكن الوجه المتيبس الأشبه بوجوه الأموات تحت النور الأحمر للغصن المشتعل كان ساكناً وثابتاً . . . كان وجه امرأة ميتة أو ذاهلة . "هل تستطيعين أن تقولي لي يا كريستين ؟" ضحك بقسوة . . . ولكن عبثاً . "أعتقد الآن أن الوقت قد حان لتلاوة الصلاة" .

بدأت تتلو بتيبس ودون حياة (باللاتينية) :

"أبانا الذي في السموات ، ليتقدس اسمك . ليكن ملكوتك . لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك في الأرض . . . " ثم توقفت .

نظر أولف إليها . ثم تابع الصلاة :

"أعطنا خبزنا كفاف يومنا . . . " وبسرعة وثبات أكمل التلاوة حتى النهاية ، ثم مضى ورسم إشارة الصليب فوق الكومة . . . ثم حملها بسرعة ووضعها فوق النعش الذي صنعه .

قال : "اذهبي إلى الأمام . ربما يكون الوزن أثقل ، ولكن سوف تكون الرائحة أقل هناك . رمى بالمشعل . . . سنستطيع أن نرى أفضل بدونه . . . وحاولي ألاّ تتعثري . يا كريستين . . . فأنا كنت أتمنى ألا أحمل هذه الجثة المسكينة ."

كان الألم الصارخ في صدرها يبدو وكأنه يتصاعد متمرداً حين حملت عمودي النعش على كتفيها . لم يتحمل صدرها الوزن . ولكنها ضغطت على

أسنانها بقوة . وبينما هما يمشيان على امتداد الشاطئ ، حيث كانت الريح تهب بقوة ، فإن القليل من رائحة الجثة كانت تصلها .

"هنا عليّ أن أرفعه عالياً أولاً ، كما أعتقد ، ثم النعش" ، قال أولف حين وصلا إلى المنحدر الذي سبق لها أن نزلاه .

قالت كريستين : "نستطيع الاستمرار لمسافة أخرى . فهنا يأتون بعربات أعشاب البحر . . . ليس المكان شديد الانحدار هناك ."

كانت تتكلم بهدوء ، كما سمع الرجل ، وكانت في كامل عقلها . ثم انتابته نوبة من التعرّق والارتجاف ، ولكنها ولّت الآن . . . لقد ظن أنها ستفقد عقلها في تلك الليلة لا شك .

شقا طريقهما بصعوبة على امتداد الدرب الرملي الذي يؤدي عبر الأرض المسطحة نحو غابة الصنوبر . هبت ريح بحرية هنا ، ولكنها أقل قوة هنا مما كانت عليه عند الشاطئ ، وحين ابتعدا أكثر فأكثر عن هدير الشاطئ ، أحست وكأنها عائدة إلى البيت من رعب الظلام الدامس . إلى القرب من الدرب كانت الأرض أخف . . . كان ذلك حقل قمح لم يحصده أحد . كانت رائحته ومنظر القش المطروق تحية ترحيب لها بعودتها إلى البيت- وامتلأت عيناها بدموع الإشفاق الأخوي – عبر رعبها اليائس وحزنها كانت تعود إلى زمالة الأحياء والأموات .

أحياناً حين كانت الريح من خلفهما كانت رائحة الجثة الفاسدة تلفها بالكامل ، ومع ذلك لم تكن الرائحة رهيبة جداً كما كانت وهي واقفة في الكوخ . . . فالليل كان مترعاً بنسيم بارد رطب نضر نظيف .

وما كان أقوى بكثير من الشعور بأنها كانت تحمل شيئاً مرعباً على النعش من خلفها ، هو فكرة أن أولف هالدورسون كان هناك يحمي ظهرها من الرعب الأسود والحيّ الذي كانا يتركانه خلفهما . . . والذي كانت زمجرته أضعف فأضعف .

حين وصلا إلى طرف غابات الصنوبر شعرا بوجود أنوار : "إنهم قادمون لمقابلتنا" ، قال أولف .

وسرعان ما قابلهما حشد كامل من الرجال حاملين مشاعر من جذور الصنوبر ، وقنديلين ونعشاً مغطى . . . كان سيرا آيليف معهم ، ورأت كريستين مستغربة أنه ضمن الحشد كان الكثير من الرجال ممن كانوا في تلك الليلة في باحة الكنيسة ، وأن كثيرين منهم كانوا يبكون . حين رفعوا الحمل عن كتفيها كادت تسقط أرضاً . كان سيرا آيليف سيمسك بها ولكنها قالت بسرعة :

"لا تلمسني . . . لا تقترب مني . . . لقد أصبت بعدوى الطاعون . . . أشعر به . . . "

ولكن رغم ذلك فإن سيرا آيليف سندها بيده من تحت ذراعها :

"إذن افرحي يا امرأة وتذكري أن الرب قال : (إن فعلتم هذا للأدنى قيمة من هؤلاء يا أخوتي وأخواتي ، فقد فعلتم ذلك من أجلي)" .

حدقت كريستين إلى الكاهن . ثم نظرت إلى حيث كان الرجال ينقلون الجثمان من النقالة التي صنعها أولف إلى النعش الذي جلبوه . انزلقت عباءة أولف إلى الجانب قليلاً . . . فبرز رأس حذاء مهترئ رطب وداكن في نور المشاعل .

ذهبت كريستين وركعت بين عمودي النعش وقبلت الحذاء :

"فليرحمك الله يا أختاه . . . فليمنح الرب روحك الفرحة بنوره . . . فليشملنا الله برحمته في عتمتنا هذه . . ."

ثم بدا لها وكأن الحياة نفسها كانت تشق طريقها خارجة منها . . . ألم طاحن غير ممكن إدراكه ، وكأن شيئاً في داخلها ، كان متجذراً بشدة في ألياف أعضائها ، قد أفلت . كل ما كان ضمن صدرها قد انتزع بالقوة . . . أحست بحلقها مليئاً به ، وفمها مليئاً بالدم الذي له طعم الملح والنحاس القذر . . . وفي

اللحظة التالية كان ثوبها كله من الأمام يلتمع بسواد رطب . . . يا يسوع ! هل هناك كل هذا القدر من الدم في جسد امرأة عجوز ؟ هكذا فكرت .

رفعها أولف هالدرسون بين ذراعيه وحملها بعيداً .

●

عند باب الدير كانت الراهبات يحملن شموعاً موقدة ، قد وصلن ليقابلن طابور الرجال . لم تكن كريستين ممتلكة لكل حواسها ، ولكنها أحست أنها نصف محمولة ونصف مسندة عبر الباب ، وأدركت وجود الغرفة المطلية باللون الأبيض والمقنطرة ، المليئة بالنور المتراقص للهيب الشمعة الأصفر ومشاعل الصنوبر الحمراء ووقع الأقدام الهادرة كالبحر . . . ولكن النور كان للمرأة المحتضرة مثل وميض شعلة حياتها المحتضرة ، وكان وقع الأقدام فوق الأرضية الحجرية مثل اندفاع أنهار الموت الصاعدة لتقابلها .

ثم انتشر نور الشمعة نحو فراغ أوسع . . . كانت مرة أخرى تحت السماء المفتوحة المعتمة - في الباحة - كان النور المتراقص يلعب على الجدار الرمادي ذي الدعامات الثقيلة والنوافذ العالية . . . للكنيسة . كانت محمولة بين ذراعي شخص ما - كان هذا أولف مجدداً - ولكن الآن بدا أنه يشبه كل أولئك الذين سبق لهم وحملوها . وحين وضعت ذراعيها من حول عنقه وضغطت بخدها على العنق الذي نمت فوقه لحية خشنة ، فكأنما عادت طفلة مجدداً مع أبيها ، ولكن أيضاً وكأنها كانت تضم طفلاً إلى صدرها . . . وخلف الرأس الداكنة كانت هناك أنوار حمراء وبدت مثل توهج النار التي تغذي كل الحب .

. . . بعد فترة قصيرة فتحت عينيها ، وكان ذهنها صافياً وهادئاً . كانت تجلس ، وقد أسندت ظهرها ، في سرير في المهجع . كانت هناك راهبة مع رباط كتاني فوق الجزء الأسفل من وجهها تقف منحنية فوقها . لاحظت رائحة الخل . كانت تلك هي الأخت أغنس ، وقد عرفتها من عينيها والثؤلول الأحمر الصغير

فوق جبينها . والآن كان الوقت نهاراً . . . فهناك نور صاف ورمادي يدخل الغرفة من النافذة الزجاجية الصغيرة .

لم يكن هناك ألم كبير الآن . . . ولكنها كانت مبللة من العرق ، متعبة ومنهكة إلى حد مثير للشفقة ، وكان صدرها يلسعها ويؤلمها كلما تنفست . وبشره شربت شراباً مسكناً رفعته الأخت أغنس إلى فمها . ولكنها كانت تشعر بالبرد .

استلقت كريستين على الوسائد ، وتذكرت الآن كل ما حدث في الليلة السابقة . كانت خيالات الأحلام الجامحة لليلة الماضية قد ولّت كلها . . . ولابدّ أن عقلها قد جمح قليلاً ، كما فهمت . . . ولكن كان أمراً جيداً أنها أنجزت ذلك الأمر وأنقذت الطفل الصغير ومنعت أولئك الناس الفقراء من تحميل أرواحهم عبء ذلك الفعل الشنيع . كانت تعرف أنها في حاجة إلى أن تشعر بسعادة مفرطة . . . أنها قد منحت نعمة أن تفعل هذا الأمر قبل وفاتها مباشرة . . . ومع ذلك لم تستطع الشعور بالفرح . . . كان ذلك رضىً هادئاً راحت تحس به ، كما كان عليه الأمر حين كانت تستلقي في فراشها في بيتها في يوروندغارد ، متعبة بعد يوم عمل تم إنجازه على نحو مرضٍ . ولابد أن تشكر أولف أيضاً .

. . . كانت قد تلفظت باسمه ، ولابد أنه كان جالساً يختبئ عند الباب ، وقد سمعها ، فقد اقترب ووقف عند سريرها . مدت يدها إليه فأخذها وضغطها بقوة .

وفجأة أصبحت المرأة المحتضرة قلقة . راحت يداها تتلمسان أغطية الكتان عند عنقها .

سألها أولف : "ما الأمر يا كريستين ؟"

"الصليب" ، همست ثم سحبت بألم صليب أبيها المذهّب . لقد تذكرت أنها وعدت البارحة بتقديم هدية لأجل راحة روح ستاينون المسكينة . لم تتذكر آنذاك أنها لم تعد تملك شيئاً على وجه الأرض . لم يكن في حوزتها ما تستطيع

منحه ، باستثناء الصليب الذي ورثته عن أبيها . . . ثم خاتم زفافها . كان هذا لا يزال في إصبعها .

سحبته وحدقت إليه . كان ثقيلاً في يدها ، وهو من الذهب الصافي المطعم بأحجار حمراء كبيرة . إرلند- فكرت - وخطر لها الآن أنه يفضل أن تهدي هذا . . . لم تكن تعرف لأي شيء ، ولكنها بدا أن عليها أن تفعل ذلك . أغمضت عينيها في ألم ورفعت الخاتم إلى أولف :

"إلى من ستعطين هذا ؟" سألها بصوت خفيض ، وحين لم تجب قال : "أتعنين أن عليّ أن أعطيه إلى سكوله ؟"

هزت كريستين رأسها ، وعيناها مغمضتان بشدة .

"ستانيون . . . لقد وعدت . . . قداديس من أجلها . . . "

فتحت عينيها وبحثت بهما عن الخاتم وهو في كف الحداد داكنة البشرة . ثم انفجرت دموعها في جدول سريع ، فقد بدا لها أنها لم تفهم من قبل تماماً ما الذي كان يرمز إليه : الحياة التي زفها هذا الخاتم إليها والتي كانت تتذمر منها ، وتشكو منها مهمهمة ، وتغضب منها وتتحداها . . . ومع ذلك فقد أحبتها كثيراً ، واستمتعت بها ، في أيام السراء والضراء ، وأنه لم يمر يوم واحد لم يكن صعباً عليها إعادته إلى الرب ولا حزن واحد تستطيع أن تتخلى عنه دون ندم .

تبادل أولف والراهبة بضع كلمات لم تستطع سماعها ، ثم خرج هو من الغرفة . كانت كريستين تود لو ترفع يدها لتجفف عينيها ، ولكنها لم تستطع . . . كان يدها تقبع دون حراك على صدرها . والآن كان الألم في داخلها قوياً . أحست بيدها ثقيلة جداً ، وبدا وكأن الخاتم كان لا يزال في إصبعها . بدأ رأسها يتشوش مجدداً . . . عليها أن ترى إن كان صحيحاً أن الخاتم قد ذهب ، وأنها لم تحلم فحسب بأنها تخلت عنه . . . والآن بدأت أيضاً تصبح غير واثقة . . . كل ما حدث في الليلة الماضية : الطفل في القبر ، البحر الأسود بأمواجه الصغيرة

السريعة المومضة ، الجثمان الذي حملته . . . لم تعرف إن كانت قد حلمت بذلك كله أو كانت مستيقظة . ولم تكن لديها القدرة على فتح عينيها .

قالت الراهبة : "يا أختي ، عليك أن تنامي الآن . . . لقد ذهب أولف لإحضار كاهن لك" .

استيقظت كريستين مجدداً وهي مجفلة ، وثبتت عينيها على يدها . كان الخاتم الذهبي غير موجود ، هذا أمر أكيد . . . ولكن كانت هناك علامة بيضاء حيث كان على إصبعها الوسطى . كان ذلك واضحاً على البشرة السمراء الخشنة . . . مثل ندبة من الجلد الأبيض الرقيق . . . ظنت أنها تستطيع أن تميز بقعتين مستديرتين على كل جانب حيث كان حجر العقيق ، ومثل علامة صغيرة- حرف "م" - حيث كانت الرقاقة الوسطى من الذهب قد حفر عليها أول حرف من اسم "مريم العذراء" المقدس .

وكان آخر فكرة واضحة تشكلت في دماغها هي أنها ستموت قبل أن تتلاشى هذه العلامة . . . وكانت سعيدة . بدا لها أنه أمر غامض لأنها لا تستطيع أن تفهم ، ولكنها كانت تعرف بالتأكيد أن الرب قد وضعها في دير مخصص لها دون معرفتها بحب جعله يتدفق عليها بكرم . . . ورغم عنادها ورغم روحها الثقيلة المهتمة بحطام الدنيا ، فإن جزءاً ما من هذا الحب قد أصبح جزءاً منها ، وقد تغلغل فيها كما تتغلغل نور الشمس في التربة ، وقد ولّد هذا زيادة لا يستطيع أشد اللهيب استعاراً من الحب الجسدي ولا حتى أكثر انفجاراته جموحاً أن يبدّده بالكامل . خادمة للرب كانت . . . خادمة شكسة ومعاندة وغالباً ما كانت "خادمة عين" في صلواتها وغير مخلصة في قلبها ، كسولة ومهملة ، نافدة الصبر عند التقويم ، إنما ثابتة قليلاً في أفعالها . . . ومع ذلك فقد أبقاها في خدمته ، وتحت الخاتم الذهبي اللامع فإن علامة قد تشكلت سراً فوقها ، كاشفة أنها كانت

خادمة للرب ، وأمة للرب والملك القادم الآن ، تحمله يدا الكاهن الممسوحتان بالزيت ليمنحها حريتها وخلاصها . . .

•

ما أن قدم لها سيرا آيليف الزيت الأخير وقربان الموتى ، فقدت كريستين لافرانسداتر مجدداً الإحساس بما حولها . كانت مستلقية في نوسان من النوبات المؤلمة من تقيؤ الدم والحمى المحرقة ، وقد قال الكاهن الذي بقي قربها ، للراهبات إنه من المحتمل أن تموت بسرعة .

. . . مرة أو مرتين عاد الوعي إلى المرأة المحتضرة إلى حد أنها ميزت هذا الوجه أو ذاك . . . وجه سيرا آيليف والراهبة . . . كانت الليدي راغنهيلد نفسها هناك في إحدى المرات ، كما رأت أولف . ناضلت لتظهر لهم أنها عرفتهم وأنها تشعر أنه أمر جيد أنهم إلى القرب منها ويتمنون لها الخير . ولكن بدت لمن كان حولها وكأنها تقاتل بيدها سكرات الموت .

رأت في إحدى المرات وجه مونان . . . كان ابنها الصغير يسترق النظر إليها عبر باب نصف مفتوح ، ثم سحب رأسه إلى الخلف وراحت الأم تحدق إلى الباب فقد يحدث أن الصبي قد يسترق النظر مرة أخرى . ولكن بدلاً عن ذلك جاءت الليدي راغنهيلد ومسحت وجهها بقماشة مبللة . وكان هذا أيضاً حسناً . . . ثم فقدت كل شيء في سديم أحمر داكن وهدير بدا أولاً مخيفاً . ولكنه عاد وتلاشى تدريجياً وراح السديم الأحمر يصبح أرق وأخف ، وأخيراً كأنما كان سديم صباح مشرق قبل أن تبزغ الشمس ، وتوقفت كل الأصوات ، وعرفت أنها كانت على وشك الموت . . .

•

خرج سيرا آيليف وأولف هالدورسون معاً من غرفة الموت . عند الباب المؤدي إلى باحة الدير توقفا قليلاً .

كان الثلج قد هطل . لم يلاحظ أحد ذلك بين أولئك الذين كانوا جالسين وهي تعارك الموت . كان الوميض الأبيض من سقف الكنيسة المنحدر المنعكس على الرجلين مبهراً إلى حد غريب . كان البرج يلتمع أبيض أمام السماء الرمادية . وكان الثلج ناعماً جداً وأبيض فوق كل زيق نافذة وكل دعامة والنقاط البارزة ، وعلى جدران الكنيسة المبنية من أحجار رمادية . لكأنما كان الرجلان يتمهلان لأنهما يكرهان أن يشوها بآثار أقدامهما الطبقة الرقيقة من الثلج المتساقط حديثاً .

عبّا من الهواء . فبعد الرائحة المغثية التي تملأ دائماً غرفة المرضى بالطاعون ، بدا الهواء عذباً لهما . . . بارداً وكأنه رقيق وفارغ . ولكن بدا وكأن سقوط هذا الثلج قد غسل الهواء من كل سموم الوباء . . . كان جيداً مثل ماء نبع عذب .

بدأ الجرس في البرج يدق مجدداً . . . نظر الاثنان إلى حيث كان يتأرجح خلف قضبان البرج . راحت حبيبات من الثلج تسقط عن البرج والجرس يهتز ، ثم تنزل أرضاً وتتحول إلى كرات صغيرة . . . تاركة بقعاً يظهر منها سواد وألواح السقف .

قال أولف : "هذا الثلج لن يدوم" .

"لا ، سيذوب على الأرجح قبل المساء" ، قال الكاهن . كانت هناك شقوق ذهبية شاحبة في الغيوم ، وأشرقت الشمس باهتة وكأنما تقوم بتجارب فوق الثلج .

وقف الرجلان ساكنين ثم قال أولف هالدورسون بصوت خفيض :

"أفكر يا سيرا آيليف في أن أمنح قطعة من الأرض إلى الكنيسة هنا . . . وكذلك دورقاً يخص لافرانس بيورغولفسون أهدتني هي إياه . . . ولذلك لتأسيس قداس لأجلها ولأجل أبنائي بالتربية ولأجل إرلند قريبي . "

أجاب الكاهن بصوت خفيض دون أن ينظر إلى الرجل :

"يبدو لي أيضاً أنك فكرت في أنك تحتاج إلى التعبير عن شكرك للرب الذي قادك إلى هنا البارحة مساء . . . وقد تكون راضياً جداً على ما أعتقد لأنك

مُنحت فرصة مساعدتها خلال هذه الليلة ."

"أجل ، هذا ما فكرت فيه" ، قال أولف هالدورسون ثم ضحك قليلاً : "والآن أستطيع أن أتوب تقريباً أيها الكاهن على أني كنت إنساناً شديد الضعة . . . تجاهها !"

"لا جدوى من إضاعة الوقت على مثل هذا الأسى" ، أجاب الكاهن .

"ولماذا ؟"

"لأنه لا خير سوى الرب وحده . ولا نستطيع أن نفعل الخير إلاّ به . لذلك لا جدوى من الندم على فعل صالح يا أولف ، فالخير الذي فعلته لا يمكن أن يُلغى . ورغم أن كل الجبال كان يجب أن تدمّر ، إلا أنها قد بقيت . . . "

"أجل ، أجل ، هذه أشياء لا أفهمها يا سيدي . أنا منهكٌ . . . "

"أجل . . . وجائع أيضاً بالتأكيد . . . عليك أن تأتي معي إلى المطبخ الآن يا أولف" ، قال الكاهن .

"شكراً ، ليست لي شهية للأكل الآن" ، قال أولف هالدورسون .

"رغم ذلك عليك أن تأتي معي وتأكل" قال سيرا أيليف . . . ووضع يده على كمّ أولف وقاده معه . خرجا إلى الباحة ثم نزلا نحو المطبخ . وبدون أن يعرفا راح كلا الرجلين يخطوان بخفة وحذر قدر الإمكان فوق الثلج الجديد المتساقط .

(نهاية الجزء الثالث و ختام الرواية الثلاثية)

حواشي المترجم من النرويجية إلى الإنكليزية

(١) بعد أن ارتكب سايمون جريمة يعاقب عليها بوصفه خارجاً عن القانون . عليه أن يحصل على صك براءة يسمح له أن يبقى في بيته دون عقاب حتى يتم الحكم في قضيته .أنظر الحاشية رقم (٤١) من "سيدة هوسابي"

(٢) الدائنون : تستخدم هذه الكلمة هنا بالمعنى الوارد في صلاة الرب . في النص كان ضرورياً أحياناً أن ترد بمعنى "أولئك الذين يخطئون في حق الآخرين" .

(٣) بذرة صانع الأمشاط : كان والد الملك سفير الشهير - زوج أمه - صانع أمشاط . وقد ادعى أنه ابن غير شرعي للملك سيغورد موند . ولكن معارضيه أنكروا ذلك بشدة .

(٤) عشبة الفريجيا : عشبة بارناسوس .يفترض فيها حسب الموروث الشعبي أن تكون منشطة جنسياً . وهكذا فقد سميت باسم إلهة الحب .

(٥) القسم مع شهود يقسمون على براءة المتهم : في بعض القضايا فإنه يحق للمتهم أن يبرئ نفسه من التهمة بأن يقسم اليمين على براءته مع خمسة أو أحد عشر شاهداً . ولا يحلف هؤلاء الشهود على وقائع القضية . بل على معرفتهم بالمتهم وقناعتهم بأنه يقول الحقيقة . ووفق القانون النرويجي . فإن مثل هؤلاء الشهود في قضية امرأة متهمة بجريمة سيكونون من النساء .

(٦) بنطال دوار :في الحكايات الشعبية أن الجنيات يتجهزن أحياناً ببنطال دوار يمكنهن من الاستلقاء أرضاً والدوران بسرعة وراء الطريدة أوهرباً من مطارديهن .

(٧) تار في بورغوندي : الآن تدعى "تار لاباي" في شاطئ الذهب . قرب سيتو . مهد الرهبنة القسترقية (نسبة إلى مدينة قسترقيوم) . كانت تار مهداً لكل الرهبانيات الاسكندنافية القسترقية .

(٨) هل : في الحكايات الشعبية النرويجية فإن الطاعون كان يشخص كامرأة عجوز قبيحة تحمل مذراة ومكنسة . وحيث تستخدم المذراة فإن جزءاً من السكان يبقى على قيد الحياة . وحين تستخدم المكنسة كانت لا تبقي أحداً . وكان طبيعياً في القرن الرابع عشر مقارنتها في المخيلة الشعبية بـ "هل" إلهة الموت في الميثولوجيا .





سيغريد أوندست

نوبل ١٩٢٨

• ولدت سيغريد أوندست (١٨٨٢ - ١٩٤٩) في كالدوندبورغ . وحين بلغت السنتين من عمرها انتقلت أسرتها إلى النرويج واستقرت في كريستيانيا (المعروفة الآن باسم أوسلو) . وبعد وفاة والدها في عام (١٨٩٣) ، تخلت عن طموحها في أن تصبح رسامة ، وحين أصبحت في السادسة عشرة بدأت بالعمل في أحد المكاتب .

• أعاد الناشر لها أولى مخطوطاتها ، رواية تاريخية ، حوالي عام (١٩٠٥) مع العبارات التالية : «لا تحاولي أبداً كتابة رواية تاريخية مرة أخرى . لست قادرة على هذا النوع من الكتابة . قد تحاولين كتابة شيء معاصر . ولا يمكن لكِ أن تعرفي ما قد يحدث» . في عام (١٩٠٧) كان أول ظهور لها مع رواية «السيدة مارتا أولي» ، ولكن الفتح الحقيقي لها جاء مع رواية «جني»(١٩١١) .

• إنتاج سيغريد أوندست غني ومتنوع ، ويمتد من الروايات المعاصرة إلى الروايات القروسطية العظيمة والقصص القصيرة والمقالات وحكايات السفر .

• «كريستين لافرانسداتر» هي قمة عطائها وهذه الثلاثية هي التي كانت السبب في منحها جائزة نوبل للآداب في عام (١٩٢٨) .

علي مولا
ISBN => 2-84305-090-1
EAN => 9782843050909